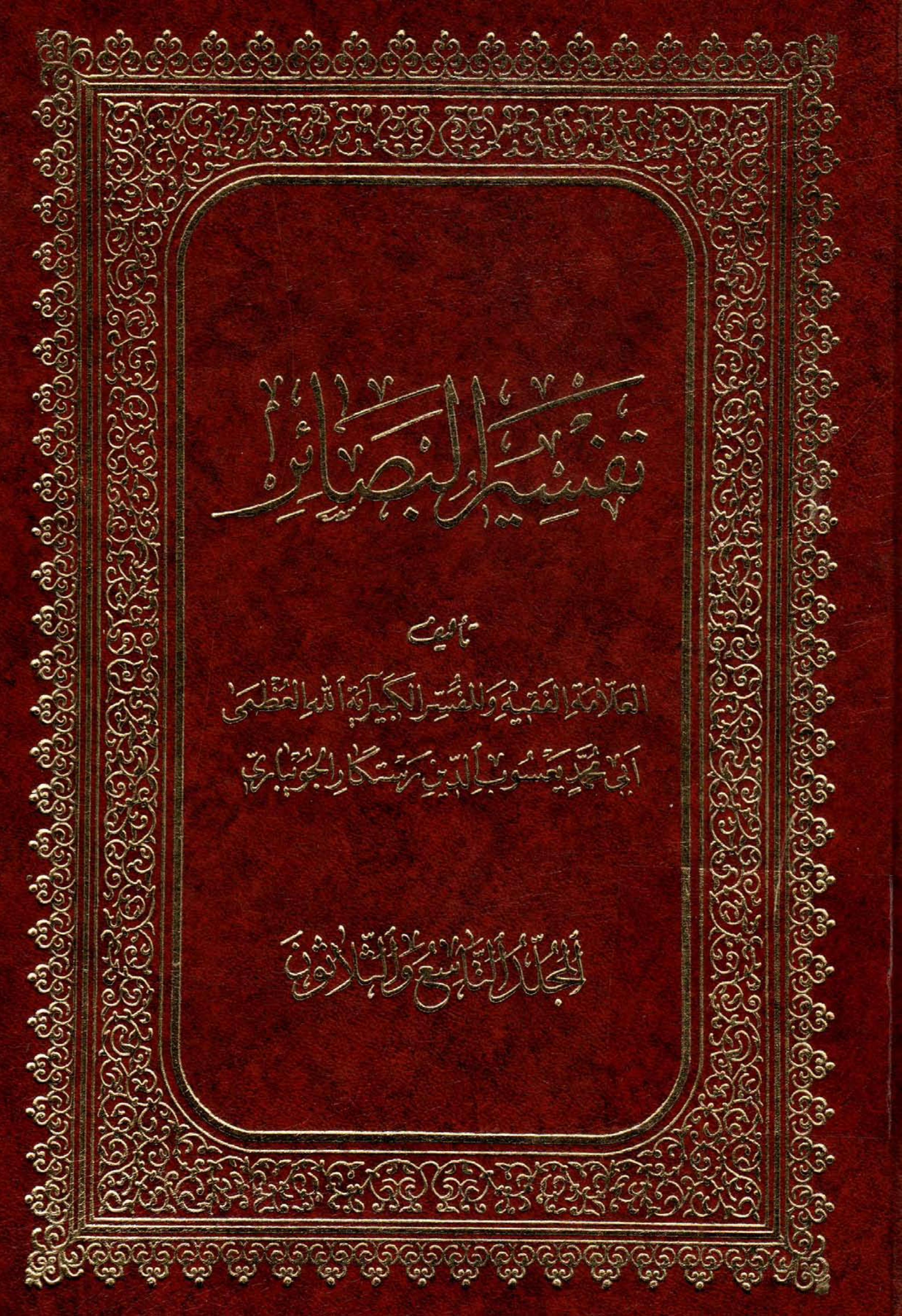

تفسير البصائر
تأليف
العلامة الفقيه والمفسر الكبير آية الله العظمى
أبي محمد يعسوب الدين رستگار الجويباري
المجلد التاسع والثلاثون

من كتاب

تفسير البصائر

تأليف

العلامة الفقيه والمفسر الكبير آية الله العظمى

ابي محمد يعسوب الدين رستگار الجويباري

ايران - قم المقدسة

١٣٧٩ هجری شمسی ١٤٢١ هجری قمری

* هوية الكتاب:

الكتاب:	تفسير البصائر
المجلّد:	التّاسع و الثّلاثون
المؤلّف:	المفسّر الكبير آية الله العظمىٰ يعسوب الدّين رستگار الجويباري
النّاشر:	مكتب المؤلّف
المطبعة:	امين
الكمّيّة:	۲۲۰۰ نسخة
سنة الطّبع:	۱۴۲۱ هجرى قمرى
السّعر:	۳۰۰۰ توماناً
الطّبعة:	الاولى
التّوزيع:	ايران، قم، رقم الهاتف: ۷۴۲۹۷۲

ISBN: 964-5927-07-2 | شابک: ۹۶۴-۵۹۲۷-۰۷-۲


سورة محمد
صلى الله عليه وآله

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى
لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ
وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ
تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿فضلها و خواصّها﴾

روى الصّدوق رضوان اللّه تعالى عليه في «ثواب الأعمال» بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبداللّه﴿عليه السلام﴾ قال: «من قرأ سورة «الّذين كفروا» لم يريب أبداً، و لم يدخله شكّ في دينه أبداً، و لم يبتله اللّه بفقر أبداً، و لا خوف من سلطان أبداً، و لم يزل محفوظاً من الشّكّ و الكفر أبداً حتّى يموت، فإذا مات وكّل اللّه به في قبره ألف ملك يصلّون في قبره، و يكون ثواب صلاتهم له، و يشيّعونه حتّى يوقفوه موقف الآمنين عنداللّه عزّوجلّ، و يكون في أمان اللّه و أمان محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾».

أقول: رواه الطّبرسي في المجمع، و جوامع الجامع، و البحراني في البرهان، و الحويزى في نور الثّقلين، و الشّيخ الحرّ العاملي في وسآئل الشّيعة، و المجلسى في البحار، و الكفعمي في المصباح، و الدّيلمي في أعلام الدّين، و السّيّد البروجردي في جامع أحاديث الشّيعة باختلاف يسير.

و ذلك أنّ سورة «محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾» تذكر أحوال فريقين من النّاس و عقآئدهم و أفكارهم المتضادّة، و تبيّن أقوالهم و أعمالهم المختلفة، و مآل أمرهم المتباينة في الحياة الدّنيا و الآخرة: فريق الكفر و الضّلالة، و أهل الايمان و الهداية، فريق الباطل و المعصية، و أهل الحقّ و الطّاعة، أتباع الشّيطان و عبيد الدّنيا، و أنصار الدّين و عزيم الولآء، و مريد الإثم و مطيع الهوى، و أهل البرّ و التّقوى، و أصحاب الذّلّة و الهوان في الدّنيا، و

النّار و النّيران في الآخرة، و أهل العزّة و العُلى، و الجنّة و الرّضوان في الدّارين ...

و لعمري! من قرأ هذه السورة الكريمة و تدبّرها حقّ التّدبّر، فعرف الحقّ و الباطل و أهلهما، و اتّبع الحقّ و أهله و اجتنب الباطل و أهله كان له ما ورد في الرّواية بلا ريبة.

إذ قال الله تعالى: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات -كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم - يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم - ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لامولى لهم - مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون.... - ...كمن هو خالد في النّار- فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم - يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرّسول- فلا تهنوا و تدعوا إلى السَّلم و أنتم الأعلون و الله معكم و لن يتركم أعمالكم...» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ ١-٢ و ٧-٨ و ١١ و ١٥ و ٢٧ و ٣٣ و٣٥).

و في المجمع: - بعد أن نقل الرّواية السّابقة - و قال﴿عليه السلام﴾: «من أراد أن يعرف حالنا و حال أعدآئنا فليقرأ سورة «محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾» فإنّه يراها آية فينا و آية فيهم».

و في كنز الفوائد: بالاسناد عن إبراهيم بن أبي‌الحسن موسى﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: «من أراد فضلنا على عدوّنا فليقرأ هذه السّورة الّتي يذكر فيها: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله» فينا آية و فيهم آية إلى آخرها».

و فيه: أُبيّ بن كعب قال: قال النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾: «من قرأ سورة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ كان حقّاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنّة».

أقول: من قرأها و آمن بالله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و اتّقى و عمل صالحاً يدخله الله عزّوجلّ الجنّة الّتي « فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ١٥).

و في خواصّ القرآن: روي عن النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنّه قال: «من قرأ هذه السّورة لم يولّ وجهه جهة إلّا رأى فيها وجه رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إذا خرج من قبره، و كان حقّاً على الله تعالى أن يسقيه من أنهار الجنّة، و من كتبها و علّقها عليه أمن في نومه و يقظته من كلّ محذور ببركتها».

و فيه: قال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «من كتبها و علّقها عليه أمن في نومه و يقظته من كلّ محذور و كان محروساً من كلّ بلآءٍ و دآء».

و فيه: و قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: «من كتبها و علّقها عليه دفع عنه الجانّ، و أمن في نومه و يقظته، و إذا جعلها إنسان على رأسه كفى شرّ كلّ طارق بإذن الله تعالى».

و فيه: «من كتبها و جعلها في صحيفة و غسلها بمآء زمزم و شربها، كان عند النّاس وجيهاً محبوباً، ذا كلمة مسموعة، و قول مقبول، و لم يسمع شيئاً إلّا وعاه».

و في المصباح: «من علّقها عليه في القتال نصر، و من شرب مـاءها ذهب عـنه الرّعب و الزّجر، و من قرأها في البحر أمن منه».

و في أمان الأخطار: قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: « من كتبها و حملها في وقت محاربة أو قتال فيه خوف، أمن من ذلك، و فتح عليه باب كلّ خير، و من شرب مآءها سكن عنه الرّعب و الزّحير، و قرآئتها عند ركوب البحر منجاة من الغرق».

أقول: و من غير بعيد أن يكون من آثار هذه السّورة الكريمة و خواصّها ما ورد في الرّوايات .... كلّ ذلك مشروط بشرآئط أهمّها معرفة الحقّ و اتّباعه، و معرفة الباطل و اجتنابه، فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

و في مستدرك الوسائل: - باب نوادر ما يتعلّق بأبواب جهاد العدوّ- حـديث ٣٦=١٢٦٣٨) الشّيخ إبراهيم الكفعمي في حاشية الجنّة مرسلاً: «من أخذ من تـراب المعركة حين التحم القتال و يقرأ عليه قوله تعالى: «و الّذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم و يصلح بالهم و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم يا أيّهـا الّـذين آمـنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبّت أقدامكم» ثمّ يرش التّراب في وجه العدوّ، فإنّه يخذل و يفرّ، قال: و من نقش في ترسه: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ...» الآية و قـوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و الله معكم و لن يتركم أعمالكم» و قوله تعالى: «و الّذين قتلوا في سبيل الله - إلى قوله- بالهم» ثمّ لقي عـدوّه نـصره الله عليه».

﴿الغرض﴾

موضوع السّورة الكريمة هو القتال في إحقاق الحقّ و إبطال الباطل، فإنّه العنصر البارز فيها، حيث إنّ القتال صورها و ظلالها و جرسها و ايقاعها: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم – و الّذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم و يُصلح بالهم– يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبّت أقدامكم– و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم –و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم– فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و الله معكم و لن يتركم أعمالكم –ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل الله– و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۴ و ۷ و ۲۰ و ۳۱ و ۳۵ و ۳۸).

و من ثمّ سمّيت بسورة القتال، لأنّ الله تعالى بعد ابتدائها ببيان حقيقة الكفّار و أحوالهم و عقائدهم و أفكارهم و أعمالهم، و اتّباعهم الباطل، و حقيقة المومنين و أحوالهم و أعمالهم و اتّباعهم الحقّ، أخذ بذكر القتال لإحقاق الحقّ و إبطال الباطل، و وظيفة المؤمنين فيه، و نتيجة القتال دنيا و آخرة على الكافرين بالهلاك و التّدمير والهوان و الجحيم، و للمؤمنين بالنجاة و النّصرة من الله جلّ وعلا، و الغلبة على الكافرين و العلوّ و العزّة في الدّنيا، و الجنّة و نعيمها في الآخرة.

ففيها تنديد بالكفّار و كفرهم و صدّهم عن سبيل الله تعالى و اتّباعهم البـاطل، و حضّ للمؤمنين على قتالهم على أن لا يكون قتل إبادة، و تشريع بحقّ أسراهم، و فيها مقايسات بين المؤمنين و الكافرين، و مصآئر كلّ من الفريقين، و تنديد بمرضى القلوب، و صور عن مواقفهم و تآمرهم مع اليهود، و حثّ للمؤمنين على طـاعة الله تـعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾، و جهاد النّفس و بذل المال في سبيل الله جلّ وعلا، و تنديد بمن يبخل أو يتهاون مع الأعدآء...

و فيها وعد و بشارة و تثبيت و تطمين للمؤمنين بالنّصرة و الغلبة و العزّة و الجنّة، و وعيد و إنذار و تقريع و تنديد بالكافرين بالهلاك و الدّمار و الذّلّة و النّار.

فبالجملة: انّ هذه السّورة تحمل سـيرة المـؤمنين الصّـالحين، و سـيرة الكـافرين الفاسدين في الحياة الدّنيا و مآل أمر الفريقين في الدّار الآخرة بما تصف من عقائدهم و أقوالهم و أعمالهم... ففريق في الجنّة و نعيمها و فريق في جهنّم و سعيرها.

﴿النّزول﴾

سورة «محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾» مدنيّة، نزلت بعد سورة «الحديد» و قبل سورة «الرّعد» على التّحقيق عندنا، و هي السّورة السّادسة و التّسعون نـزولاً، و السّـابعة و الأربـعون مصحفاً، و تشتمل على (٣٨) آية، سبقت عليها (٥٥٣٧) آية نزولاً، و (٤٥٤٥) آيـة مصحفاً على التحقيق، و مشتملة على (٥٣٩) كـلمة و قـيل: (٥٤٠) كـلمة، و عـلى (٢٣٤٩) حرفاً على ما في بعض التفاسير.

إنّ أُسلوب السّورة النّظمي و إن كان فريداً يسوّغ القول بوحدة نـزولها أو تـتابع فصولها حتّى تمّت، و لكنّه لاينافي ما ورد في نزول آية (١٣) لحدتها في الطّريق أثـنآء هجرة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة المنوّرة كما توهّم بعض المفسّرين.

و لهذه السّورة الكريمة إسمان: **أحدهما - محمّد**﴿صلى الله عليه و آله﴾ لقوله تعالى: «و آمنوا بما نزّل على محمّد» و هو المشهور. **ثانيهما** - القتال لما فيها من حضّ المؤمنين على قتال الكفّار كما في قوله تعالى: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب...»: ٤) و قوله: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم - فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم....»: ٣١ و ٣٥) لقوله تعالى، «و ذكر فيها القتال»: ٢٠) و قد تسمّى سورة «الّذين كفروا» لإبتدائها بهذه الجملة.

في المجمع: و هي مدنيّة، و قال ابن عبّاس و قتادة غـير آيـة مـنها نـزلت عـلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هو يريد التوجّه إلى المدينة من مكّة، و جعل ينظر إلى البيت و هو يبكى

حزناً عليه، فنزلت «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك...» الآية.

و في الجامع لأحكام القرآن: و قال الماوردي: في قول الجميع إلاّ ابن عبّاس و قتادة فإنّهما قالا: إلاّ آية منها نزلت عليه بعد حجّة الوداع حين خرج من مكّة، و جعل ينظر إلى البيت و هو يبكى حزناً عليه، فنزل عليه: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك».

و فيه: قال قتادة و ابن عبّاس: لمّا خرج النّبيّ(ﷺ) من مكّة إلى الغار إلتفت إلى مكّة و قال: «اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى اللّه و أنتِ أحبّ البلاد إليّ و لولا المشركون أهلُكِ أخرجوني لما خرجت منكِ» فنزلت الآية: «هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك» ذكره الثّعلبي.

و في أسباب النّزول للسّيوطي: و أخرج أبو يعلى عن ابن عبّاس قال: لمّا خرج رسول اللّه(ﷺ) تلقاء الغار نظر إلى مكّة، فقال: أنت أحبّ بلاد اللّه إليّ، و لولا أنّ أهلك أخرجوني منك لم أُخرج منك، فأنزل اللّه: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك...» الآية.

و في الدّرّ المنثور: عن إبن عبّاس أنّ النّبيّ(ﷺ) لمّا خرج من مكّة إلى الغار إلتفت إلى مكّة، و قال: أنتِ أحبّ بلاد اللّه إلى اللّه، و أنتِ أحبّ بلاد اللّه إليّ، و لو لا أنّ أهلكِ أخرجوني منكِ لم أُخرج منكِ، فأعتى الأعداء مَن عدا على اللّه في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول أهل الجاهليّة، فأنزل اللّه تعالى: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم».

و في شواهد التّنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي - من أعلام العامّة - بإسناده عن ربيعة بن ناجذ، عن عليّ(ع) قال: «سورة محمّد(ﷺ) آية فينا، و آية في بني أُميّة».

و فيه: بإسناده عن عبداللّه بن حزن قال: سمعت الحسين بن عليّ عليهما السلام بمكّة و ذكر: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم» ثمّ قال: نزلت فينا و في بني أُميّة».

و فيه: بإسناده عن جعفر بن الحسين الهاشمي قال: «في هذه السّورة يعني سورة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ آية فينا و آية في بني أُميّة» ثمّ قال الحسكاني: «و ورد عن أبي جعفر الباقر﴿عليه السلام﴾ مثله».

و فيه: و قال الحسن بن الحسن: إذا أردت أن تعرفنا و بني أُميّة فاقرأ: «الّذين كفروا» آية فينا و آية فيهم إلى آخر السّورة».

و في الدّرّ المنثور: و أخرج ابن مردويه عن عليّ﴿عليه السلام﴾ قال: «سورة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ آية فينا و آية في بني أُميّة». رواه الآلوسي في تفسير روح المعاني ثمّ قال: «نعم لكفّار بني أُميّة الحظّ الأوفر من عمومات الآيات الّتي في الكفّار كما أنّ لأهل البيت رضى اللّه تعالى عنهم المعلى و الرّقيب من عمومات الآيات الّتي في المؤمنين، و أكثر من هذا لا يقال سوى إنّي أقول: لعن اللّه تعالى من قطع الأرحام و آذى الآل».

و في تفسير القمي: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم» نزلت في الّذين ارتدّوا بعد رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و غصبوا أهل بيته حقّهم، و صدّوا عن أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ و عن ولاية الأئمّة عليهم السّلام أضلّ أعمالهم أى أبطل ما كان تقدّم منهم مع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الجهاد و النّصرة».

و فيه: بإسناده عن الحسن بن العبّاس الحريشى عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: قال أميرالمؤمنين بعد وفاة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في المسجد، و النّاس مجتمعون بصوت عالٍ: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم» فقال له ابن عبّاس: يا أبا الحسن لِمَ قلت ما قلت؟ قال: قرأت شيئاً من القرآن؟ قال: لقد قلته لأمر، قال﴿عليه السلام﴾: نعم إنّ اللّه يقول في كتابه: «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و مانهاكم عنه فانتهوا».

أفتشهد على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنّه استخلف فلاناً؟ قال: ما سمعت رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أوصى إلاّ إليك، قال: فهلاّ بايعتني؟ قال: اجتمع النّاس عليه، فكنت منهم، فقال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ كما اجتمع أهل العجل على العجل، هيهنا فتنتم، و مثلكم كمثل الّذي استوقد ناراً فلمّا أضآئت ما حوله ذهب اللّه بنورهم و تركهم في ظلمات لايبصرون صمّ بكم عمي فهم لايرجعون».

و فيه: بإسناده عن إسحق بن عمّار قال: قال أبوعبدالله﴿عليه السلام﴾: «والّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد - في عليّ - و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم» هكذا نزلت».

و فيه: قال عليّ بن إبراهيم في قوله: «و الّذين آمنوا و عَمِلُوا الصّالحات» نزلت في أبي‌ذر و سلمان و عمّار و مقداد لم ينقضوا العهد و آمنوا بما نزّل على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ أى ثبتوا على الولاية الّتي أنزلها الله و هو الحقّ يعني أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم أى حالهم، ثمّ ذكر أعمالهم، فقال: «ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل» و هم الّذين اتّبعوا أعدآء رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ «و إنّ الّذين اتّبعوا الحقّ من ربّهم» قال: و حدّثني أبي عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ آية فينا و آية في أعدآئنا، و الدّليل على ذلك قوله: «كذلك يضرب الله للنّاس أمثالهم».

و في **تفسير البرهان**: بالإسناد عن قطر بن إبراهيم عن أبي الحسن موسى﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: «من أراد أن يعلم فضلنا على عدوّنا فليقرأ هذه السّورة الّذي (الّتي خ) يذكر فيها «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله» فينا آية و فيهم آية إلى آخرها».

و فيه: عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ في قوله تعالى: «الّذين كفروا» يعني بني اُميّة «و صدّوا عن سبيل الله» عن ولاية عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و في **الجامع لأحكام القرآن**: في قوله تعالى: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم» قال ابن عبّاس: نزلت في المُطعِمينَ ببدر و هم إثنا عشر رجلاً: أبوجهل، و الحارث ابن هشام، و عُتبة و شيبة ابنا ربيعة، و اُبيّ و اُميّة إبنا خلف، و مُنبّه و نُبيه إبنا الحجّاج، و أبو البختريّ بن هشام، و زَمْعة بن الأسود، و حكيم بن حزام، و الحارث بن عامر بن نوفل».

و في **المناقب**: لابن شهر آشوب المازندرانيّ رحمة الله تعالى عليه: «الكلبيّ في قوله: «فشدّوا الوثاق» نزلت في العبّاس لمّا اُسِرَ في يوم بدر، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾: أفد نفسك وابني أخيك - يعني عقيلاً و نوفلاً - و حليفك - يعني عتبة بن أبي جحدر - فإنّك ذو

مال، فقال، إنّ القوم استكرهوني، و لا مال عندي، قال﴿ﷺ﴾: فأين المال الّذي وضعته بمكّة عند أُمّ الفضل حين خرجت، و لم يكن معكما أحد، و قلت: إن أُصِبتُ في سفري فللفضل كذا، و لعبد اللّه كذا، و لقثم كذا، قال: و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما علم بهذا أحد غيرها، و إنّي لأعلم أنّك لرسول اللّه، ففدى نفسه بمأة اوقيّة، و كلّ واحد بمأة اوقيّة، فنزل: «يا أيّها النّبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرى» الآية.

فكان العبّاس يقول: صدق اللّه و صدق رسوله، فإنّه كان معي عشرون اوقيّة، فأُخذت فأعطاني اللّه مكانها عشرين عبداً كلّ منهم يضرب بمال كثير، أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم». قوله: «كلّ منهم يضرب بمال كثير» اى يتّجر بماله له.

و في الدّرّ المنثور: عن قتادة في قوله: «و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالهم»: ٤) قال: ذكر لنا أنّ هذه الآية نزلت في يوم أُحُد، و رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في الشّعب و قد فَشَتْ (نَشَبَتْ) فيهم الجراحات و القتل، و قد نادى المشركون يومئذ: أعل هبل، و نادى المسلمون: اللّه أعلى و أجلّ، فنادى المشركون يوم بيوم بدر، و انّ الحرب سجال، لنا عزّى و لا عزّى لكم، فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: قولوا: اللّه مولانا و لا مولى لكم، إنّ القتلى مختلفة، أمّا قتلانا فأحيآء يرزقون، و أمّا قتلاكم ففي النّار يعذّبون».

و في المجمع: في قوله تعالى: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه»: ٩) قال أبو جعفر﴿عليه السلام﴾: «كرهوا ما أنزل اللّه» في حقّ عليّ﴿عليه السلام﴾.

و فيه: في قوله تعالى: «كمن زيّن له سوء عمله» قيل: هم المنافقون و هو المرويّ عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾.

أقول: و من المحتمل أن تكون الرّوايتان من باب الجري و هو اللّبّ.

و في تفسير القمي: بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: نزل جبرائيل على محمّد﴿ﷺ﴾ بهذه الآية هكذا: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه في عليّ - إلاّ أنّه كشط الإسم - فأحبط أعمالهم».

و في شواهد التنزيل: بإسناده عن عبداللّه بن عبّاس قال في قول اللّه عزّوجلّ: «و الّذين قتلوا في سبيل اللّه» هم و اللّه حمزة بن عبدالمطلب سيّد الشهدآء و جعفر الطّيّار

«فلن يضلّ أعمالهم» يقول: لن يبطل حسناتهم في الجهاد، و ثوابهم الجنّة، «سيهديهم» يقول: يوفّقهم للأعمال الصّالحة «و يصلح بالهم»: حالهم و نيّاتهم و عملهم «و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم» و هداهم لمنازلهم».

و فيه: بإسناده عن ابن عبّاس في قوله: «ذلك بأنّ اللّه مولى الّذين آمنوا» يعني وليّ عليّ و حمزة و جعفر و فاطمة و الحسن و الحسين، و وليّ محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ ينصرهم بالغلبة على عدوّهم «و أنّ الكافرين» يعني أباسفيان بن حرب و أصحابه «لا مولى لهم» يقول: لا وليّ لهم يمنعهم من العذاب».

و فيه: بإسناده عن عبداللّه بن عبّاس في قوله تعالى: «أفمن كان على بيّنة من ربّه»: ١٤) يقول: على دين ربّه، نزلت في رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و عليّ﴿عليه السلام﴾ كانا على شهادة أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له «كمن زيّن له سوء عمله» أبوجهل بن هشام، و أبوسفيان بن حرب، إذا هوياشيئاً عبداه، فذلك قوله: و اتّبعوا أهوآءهم».

و في تفسير القمّي: في قوله تعالى: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالو للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً» فإنّها نزلت في المنافقين من أصحاب رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و من كان إذا سمع شيئاً منه لم يؤمن به و لم يعه، فإذا خرجوا قالوا للمؤمنين: ماذا قال محمّد آنفاً، فقال اللّه: «اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم».

و في الدّرّ المنثور: عن ابن جريج قال: كان المؤمنون و المنافقون يجتمعون إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فيستمع المؤمنون منه ما يقول و يعونه، و يسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا خرجوا سئلوا المؤمنين: ماذا قال آنفاً. فنزلت: «و منهم من يستمع إليك...» ١٦).

و في المناقب لابن شهرآشوب المازندراني رحمة اللّه تعالى عليه: «عن الباقرين عليهما السّلام: قال النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من يقبل منكم وصيّتي و يؤازرني على أمري و يقضي ديني و ينجز عداتي من بعدي و يقوم مقامي؟ - في كلام له - فقال رجلان لسلمان: ماذا يقول آنفاً محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾؟ فقام إليه أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ فضمّه إلى صدره و قال: أنت لها يا عليّ. فأنزل اللّه: «و منهم من يستمع إليك - إلى قوله - طبع اللّه على قلوبهم».

و في تفسير القمّي: و قوله: «و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة - إلى قوله - فأولى لهم»: ٢٠) فهم المنافقون، ثمّ قال: «فإذا عزم الأمر» يعني الحرب «فلو صدقوا اللّه

لكان خيراً لهم فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» نزلت في بني اُميّة».

و فيه: بإسناده عن أبي العبّاس المكّي قال: سمعت أباجعفر﴿عليه السلام﴾ يقول: إنّ عمر لقي عليّاً﴿عليه السلام﴾ فقال: أنت الّذي تقرأ هذه الآية: «بأيّكم المفتون» تعرض بي و بصاحبي؟ قال﴿عليه السلام﴾: أفلا اُخبرك بآية نزلت في بني اُميّة: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم»: ٢٢) فقال عمر: بنو اُميّة أوصل للرّحم منك و لكنّك أثبت العداوة لبنى اُميّة و بني عدي و بني تيم (تميم ظ.).

و في روضة الكافي: مثله إلاّ أنّ فيه، فقال: كذبت بنوا اُميّة.

و في كنز الفوائد للكراجكى رضوان اللّه تعالى عليه: روى محمد بن يعقوب مرفوعاً عن ابن أبي عمير عن حمّاد بن عيسى عن محمد الحلبى قال: قرأ أبو عبداللّه﴿عليه السلام﴾: «فهل عسيتم إن تولّيتم» و سلّطتم و ملكتم «أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» ثمّ قال: نزلت هذه الآية في بني عمّنا بني العبّاس و بني اميّة، ثمّ قرأ: «اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم» عن الدّين «و أعمى أبصارهم» عن الوصيّ، ثمّ قرأ: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم» بعد ولاية عليّ «من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» ثمّ قرأ: «و الّذين اهتدوا» بولاية عليّ «زادهم هدى» حيث عرّفهم الأئمّة من بعده و القآئم «و آتاهم تقواهم» أى ثواب تقواهم أماناً من النّار.

و قال﴿عليه السلام﴾: و قوله عزّوجلّ: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك و للمؤمنين» و هم عليّ صلوات اللّه عليه و أصحابه «و المؤمنات» و هنّ خديجة و صويحباتها... و قال﴿عليه السلام﴾: «و قوله: «و الّذين آمنوا و عملو الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد» في عليّ «و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم» ثمّ قال: «و الّذين كفروا» بولاية عليّ «يتمتّعون» بدنياهم «و يأكلون كما تأكلون الأنعام و النّار مثوى لهم».

ثمّ قال﴿عليه السلام﴾: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون» و هم آل محمّد و أشياعهم، ثمّ قال: قال أبوجعفر﴿عليه السلام﴾: أمّا قوله: «فيها أنهار» فالأنهار رجال، و قوله: «ماء غير آسن» فهو عليّ﴿عليه السلام﴾ في الباطن.

و قوله: «و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» فإنّه الإمام، و أمّا قوله: «و أنهار من خمر لذّة للشاربين» فإنّه علمهم يتلذّذ منه شيعتهم و إنّما كنّى عن الرّجال بالأنهار على سبيل المجاز أى أصحاب الأنهار و مثله: «و اسئل القرية» و الأئمّة صلوات اللّه عليهم هم أصحاب الجنّة و ملاكها.

و أمّا قوله: «و مغفرة من ربّهم» فإنّها ولاية أميرالمؤمنين أى من والى أميرالمؤمنين مغفرة له فذلك قوله: «و مغفرة من ربّهم» ثمّ قال: و أمّا قوله: «كمن هو خالد في النّار» أى إنّ المتّقين كمن هو خالد في ولاية عدوّ آل محمد، ولاية عدوّ آل محمد هي النّار، من دخلها فقد دخل النّار.

ثمّ أخبر سبحانه عنهم: «و سقواماءً حميماً فقطّع أمعآء هم» قال جابر: ثمّ قال أبوجعفر﴿عليه السلام﴾: نزل جبرئيل بهذه الآية على محمد﴿صلى الله عليه و آله﴾ هكذا «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه» في عليّ «فأحبط أعمالهم».

و في تفسير الثّعلبي: إنّ قوله تعالى: «فهل عسيتم - إلى قوله - من بعد ما تبيّن لهم الهدى»: ۲۲-۲۵). نزلت في بني اُميّة «اولئك الّذين لعنهم اللّه و أصمّهم».

و في تاريخ بغداد: بإسناده عن الفضل بن الرّبيع عن أبيه أنّه لمّا حبس المهدى (العبّاسي) موسى بن جعفر﴿عليه السلام﴾ رأى المهديّ في النّوم عليّ بن أبيطالب و هو يقول: يا محمّد! (مهديّ خ)! «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» قال الرّبيع: فأرسل إليّ ليلاً فراعني ذلك، فجئته فإذاً هو يقرء هذه الآية، و كان أحسن النّاس صوتاً، و قال: عليّ بموسى بن جعفر﴿عليه السلام﴾ فجئته به فعانقه و أجلسه إلى جانبه، و قال: يا أبا الحسن إنّي رأيت أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب في النّوم يقرء عليّ﴿عليه السلام﴾ كذا فتؤمنني أن تخرج عليّ أو على أحد من ولدي؟

فقال: و اللّه لا فعلت ذاك و لا هو من شأني، قال: صدقت يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار، و ردّه إلى أهله إلى المدينة. قال الرّبيع: فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلاّ و هو في الطّريق خوف العوآئق».

أقول: رواه جماعة من أعلام العامّة و حملة آثارهم:

منهم: ابن حجر الهيتمي في (الصّواعق المحرقة) و اليافعي في (مرآة الجنان) و ابـن الصبّاغ المالكي في (الفصول المهمّة) و الخواجه پارسا البخاري في (فصل الخـطاب) و القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة: ص ۳۸۲ ط. إسلامبول) و فيه: «و بعث إلى رجل يؤذيه صرّة فيها ألف دينار، فطلبه المهدى بن المنصور من المدينة إلى بغداد فـحبسه فرأى المهديّ في النّوم عليّاً كرّم اللّه وجهه يقول: يا مهدي «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم»: ۲۲). قال الرّبيع الوزير: ارسلني المهدى إليه ليلاً فدخلت عليه و هو يقرأ هذه الآية في الحبس، و كان أحسن النّاس صوتاً فجئته به فعانقه و أجلسه إلى جنبه، و قال: يا أباالحسن إنّي رأيت جدّك أميرالمؤمنين عليّاً رضى اللّه عنه في المنام يقرأ هذه الآية عَلَيَّ، فلذلك أخلصتك من الحبس، أفتؤمننى أن لا تخرج عَلَيَّ أو على أحد من أولادى؟ فقال رضى اللّه عنه: ما فعلت ذلك و لا هو من شأنى، قال: صدقت فأعطاه ثلاثة آلاف دينار و ردّه إلى أهله بالمدينة».

و في شواهد التّنزيل للحسكانى بإسناده عن ابن عبّاس في قوله تعالى: «فإذا عزم الأمر» يقول: جدّ الأمر، و أُمروا بالقتال «فلو صدقوا اللّه» نزلت في بني أُميّة ليصدقوا اللّه في إيمانهم و جهادهم، و المعنى: لو سمحوا بالطّاعة و الإجابة لكان خيراً لهـم مـن المعصية و الكراهية «فهل عسيتم إن تولّيتم» فلعلّكم إن ولّيتم أمر هذه الامّة أن تعصوا اللّه «وتقطّعوا أرحامكم» قال إبن عبّاس: فولاّهم اللّه أمر هذه الأُمّة، فعملوا بالتّجبّر و المعاصى و تقطّعوا أرحام نبيّهم محمّد و أهل بيته».

أقول: قال بعض المحشّين: «فولّاهم اللّه أمر هذه الأمّة» فيه تسامح بيّن، و الصوّاب: «فولّوا أمر هذه الأُمّة» و لا تصحّ نسبته هذه التّولية إلى اللّه إلاّ بضرب من المجاز الّذي يصحّ سلبه بحسب الحقيقة، و المعنى: أى إنّه تعالى عند تمرّدهم و تسرّعهم إلى محـادّة أوليآء اللّه لم يسلبهم ما منحهم من القوّة و الفكرة المنتجة لما يرومون اللّتين أعطاهما للخلق ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً، و لأن يسعوا في مرضاته و يتمتّعوا بهما من الطّيبات الّتى خلقها اللّه لعباده.

و محصّل المراد أنّه لاتصحّ نسبة هذه التّولية إلى اللّه كما لا تصحّ نسبة قتل هابيل، و

يحيى و زكرّيا إلى اللّٰه، و كما لا تصحّ نسبة تمرّد الشّيطان و غيره من إخوانه عن إطاعة اللّٰه و إنقياده إلى اللّٰه، و إلاّ يلزم إبطال الشّرآئع و كون اللّٰه تعالى أعبث العابثين و اللاّعبين تعالى اللّٰه عن ذلك علوّاً كبيراً «ذلك ظنّ الّذين كفروا فويل للكافرين من النّار».

و إنّ الآيات نزلت في بني أُميّة و بني العبّاس كما ورد عن الإمام الصّادق﴿عليه السلام﴾.

و في تفسيرالقمّي: قال في قوله: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى»: ٢٥) نزلت في الّذين نقضوا عهد اللّٰه في أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ «الشّيطان سوّل لهم» أي: هيّن لهم و هو فلان «و أملى لهم» أي بسط لهم أن لايكون ممّا قال محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ شيئاً «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه» في أمير المؤمنين: «سنطيعكم في بعض الأمر» يعني في الخمس أن لا يردوه في بني هاشم «اللّٰه يعلم إسرارهم» قال اللّٰه: «فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم» بنكثهم و بغيهم و إمساكهم الأمر من بعد أن أبرم عليهم إبراماً يقول: إذا ماتوا ساقتهم الملائكة إلى النّار فيضربونهم من خلفهم و من قدّامهم.

«ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه» يعني: موالاة فلان و فلان ظالمي أميرالمؤمنين «فأحبط أعمالهم» يعنى الّتي عملوها من الخيرات «إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه» قال: عن أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ «و شاقّوا الرّسول» أي قاطعوه في أهل بيته بعد أخذه الميثاق عليهم له﴿عليه السلام﴾ «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم» أي لم ينقصكم.

«ولا يسئلكم أموالكم إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا» أي يجدكم تبخلوا «و يخرج أضغانكم» قال: العدواة الّتي في صدوركم، ثمّ قال: «ها أنتم هؤلآء» معناه أنتم يا هؤلآء «تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه – إلى قوله – و إن تتولّوا» عن ولاية أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ «يستبدل قوماً غيركم» قال: يدخلهم في هذا الأمر «ثمّ لايكونوا أمثالكم» في معاداتكم و خلافكم و ظلمكم لآل محمّد صلّى اللّٰه عليه و آله».

و في اصول الكافي: -كتاب الحجّة – باب فيه نكت و نتف من التّنزيل في الولاية

- حديث ٤٣) بإسناده عن عبدالرّحمن بن كثير عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ في قول اللّه تعالى: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ماتبيّن لهم الهدى» فلان و فلان و فلان ارتدّوا على الايمان في ترك ولاية أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ قلت: قوله تعالى: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما أنزل اللّه» قال: نزلت و اللّه فيهما و في أتباعهما و هو قول اللّه عزّوجلّ الّذى نزل به جبرئيل على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه في عليّ﴿عليه السلام﴾ سنطيعكم في بعض الأمر»

قال: دعوا بني أُميّة إلى ميثاقهم أن لا يصير الأمر فينا بعد النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و لا يعطوها من الخمس شيئاً، و قالوا: إن أعطيناهم إيّاه لم يحتاجوا إلى شئ و لم يبالوا أن يكون الأمر فيهم، فقالوا: سنطيعكم في بعض الأمر الّذي دعوتمونا إليه و هو الخمس أن لانعطيهم منه شيئاً، و قوله: «كرهوا ما نزّل اللّه» والّذي نزّل اللّه ما افترض على خلقه من ولاية أميرالمؤمنين و كان معهم أبوعبيدة و كان كاتبهم، فأنزل اللّه: «أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون أم يحسبون انّا لانسمع سرّهم و نجواهم» الآية.

قوله﴿عليه السلام﴾: «فلان و فلان و فلان» إنّما هم أبوبكر بن أبي قحافة و عمر بن الخطّاب، و أبوعبيدة الجرّاح أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة. و قوله﴿عليه السلام﴾: «نزلت و اللّه فيهما و في أتباعهما» إنّما هما أبوبكر و عمر، و أتباعهما و هم العامّة المسّماة باسم أهل السّنّة أى سنّة آل فرعون كما صرّح بذلك مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ في قوله: «و ذَهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين» نهج البلاغة: الخطبة: ١٥٠)

و قوله﴿عليه السلام﴾: «و كان معهم» أى مع أبي‌بكر و عمر و أتباعهما «أبوعبيدة» و هو عامر بن عبدالله بن الجرّاح حفّار القبور، كان من رؤسآء المنافقين «و كان كاتبهم» كان أبوعبيدة كاتب الصّحيفة الملعونة الّتي كتبوها و دفنوها في الكعبة و كان فيها ميثاقهم أن لا يصيروا الأمر في عليّ﴿عليه السلام﴾ بعد رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هذا هو المراد بإبرامهم أمراً.

و كان أصحاب الصّحيفة ستّة هم: أبوبكر و عمر و أبوعبيدة و عبدالرّحمن بن عوف و سالم مولى أبي حذيفة و المغيرة بن شعبة.

و في تنوير المقباس لإبن عباس: في قوله تعالى: «ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم»: ٢٨) يقال: نزلت من قوله: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم» إلى ههنا في شأن المنافقين الّذين رجعوا من المدينة إلى مكّة مرتدّين عن دينهم. و يقال: نزلت في شأن الحكم بن أبي العاص المنافق و أصحابه الّذين شاوروا فيما بينهم يوم الجمعة في أمر الخلافة بعد النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إن ولينا أمر هذه الأُمّة نفعل كذا و كذا كانوا يشاورون في هذا و النّبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ يخطب و لا يستمعون إلى خطبته حتّى قالوا بعد ذلك لعبد الله بن مسعود: ماذا قال النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ الآن على المنبر إستهزاءً منهم».

و في تفسيرالبرهان: بالإسناد عن جابر عن أبي جعفر محمّد بن عليّ﴿عليه السلام﴾ عن جابر بن عبداللّٰه قال: لمّا نصب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ عليّاً يوم غدير خم، قال قوم: ما قالوا يرفع ضبع ابن عمّه فأنزل اللّٰه تعالى: «أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّٰه أضغانهم»: ٢٩).

و في أمالي الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه بإسناده إلى عليّ﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: قلت أربعاً أنزل اللّٰه تعالى تصديقي بها في كتابه: قلت: المرء مخبوّ تحت لسانه، فإذا تكلّم ظهر فأنزل اللّٰه: «و لتعرفنّهم في لحن القول».

و في تفسير النّيسابوري: في قوله تعالى: «إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه ثمّ ماتوا و هم كفّار...»: ٣٤).

قال مقاتل: نزلت في رجل سئل النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عن والده، و قال: إنّه كان محسناً في كفره» و عن الكلبي: نزلت في رؤسآء أهل بدر».

و في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي في قوله تعالى: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» و حكى عن أبي موسى الأشعرى أنّه لمّا نزلت هذه الآية فرح بها رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و قال: «هى أحبّ إليّ من الدّنيا».

﴿ القراءة ﴾

قرأ حفص و أبوعمرو «قُتِلُوا»: ۴) بضمّ القاف مبنيّاً للمفعول ثلاثياً، و قرأ الباقون «قاتلوا» من باب المفاعلة، و قرأ المفضّل: «و يُثْبِتْ»: ۷) من باب الإفعال، و قرأ الباقون: «و يُثَبِّتْ» من باب التّفعيل، و قرأ المكّي «كائِنْ»: ۱۳) بالألف بعد الكاف، و بعد الألف، همزة مكسورة، و قرأ الباقون: «كَأَيِّنْ» بالكاف المفتوحة، بعدها همزة مفتوحة، و بعد الهمزة ياء مشدّدة مكسورة.

قرأ ابن كثير «أسِن»: ۱۵) بقصر الهمزة و كسر السّين كَحذِر، و قرأ الباقون «آسن» بمدّ الهمزة أى بالألف بعدها كحاذر. و قرأ ابن كثير «أنِفاً»: ۱۶) بغيرالألف، و قرأ الباقون «آنفاً» بالمدّ، و قرأ نافع «فهل عسيتم»: ۲۲) بكسر السّين، و الباقون بفتحها.

قرأ يعقوب و سهل «تقطعوا»: ۲۲) بفتح التّاء و الطّاء و سكون القاف ثلاثياً لقوله تعالى: «و يقطعون ما أمراللّٰه به أن يوصل» البقرة: ۲۷) و قرأ الباقون «تُقَطِّعُوا» بضمّ التّاء و تشديد الطّاء و كسرها من باب التّفعيل للمبالغة.

قرأ أبو عمرو و أبوجعفر «أُمْلِيَ»: ۲۵) بضمّ الألف و كسراللّام و فتح اليآء، مبنيّاً للمفعول، و قرأ الباقون «أَمْلىٰ» بفتح الألف و اللّام و قلب الياء ألفاً، مبنيّاً للفاعل و كلاهما فعل ماضٍ من باب الإفعال، و قرأ شاذاً «أُمْلي» فعل مضارع للتكلّم وحده من باب الإفعال، على سبيل الإخبار من اللّٰه تعالى عن نفسه أنّه يفعل ذلك بهم، و تقديره: «أنا أُمْلي لهم».

قرأ حفص و حمزة و عاصم و الكسائي «إسرارهم»: ۲٦) بكسر الهمزة مصدراً كقوله تعالى: «و أسررت لهم إسراراً» نوح: ۹) و قرأ الباقون «أسرارهم» بفتح الهمزة: جمع السِّرّ، و قد جُمِعَ لإختلاف ضروب السّرّ، و يجوز جمع الأجناس مع الإختلاف، و جآء سرّهم في قوله تعالى: «ألم يعلموا أنّ اللّٰه يعلم سرّهم و نجواهم» التّوبة: ۷۸) على ما عليه معظم المصادر لأنّه يشمل لجميع ضروبه، فأُفرِدَمرّة و جُمِعَ اُخرى.

قرأ أبوبكر «و ليبلونّكم حتّى يعلم المجاهدين – و يبلو أخباركم»: ۳۱) بياء الغيبة، و قرأ الباقون «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين – و نبلوا أخباركم» بنون التكلّم مع الغير تعظيماً كقوله تعالى قبل ذلك: «و لو نشاء لأرينا كهم»: ۳۰) و قُرِأ شاذاً «نبلو» ساكنة الواو. قرأحمزة و خلف «إلى السِّلم»: ۳٥) بكسر السّين، و الباقون بفتحها، و قرأ أبوعمرو – في قول – «يخرج»: ۳۷) بالرّفع، على الإستئناف أى و هو يخرج أضغانكم على كلّ حال، و قرأ الباقون – و أبوعمر و في قول – بالجزم، عطفاً على ما تقدّم، و قرأ ابن عبّاس و مجاهد: «و تخرج» ثلاثياً و «أضغانكم» بالرّفع، على أنّه الفاعل.

تَبْصِرَةٌ: و اعلم أنّ نسبة قراءة «أمثال الجنّة»: ۱٥) بدل «مثل الجنّة» كما في المجمع و غيره و في بعض النّقل: «مِثال الجنّة» بدل «مثل الجنّة» كما في الجامع لأحكام القرآن و غيره و كذلك نسبة قراءة «إن تُوُلّيتُم»: ۲۲) مبنيّاً للمفعول إلى الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و كذلك نسبة قراءة «ليبلونّكم حتّى يعلم – و يبلوا أخباركم»: ۳۱) بدل «لنبلوكم حتّى نعلم – و نبلوا أخباركم» إلى الإمام الباقر﴿عليه السلام﴾ عندنا غير ثابتة، فتأمّل و لا تغفل.

﴿الوقف و الوصل﴾

«من ربّهم لا» لأنّ «كفّر» خبر المبتداء: «الّذين آمنوا» و «من ربّهم ط» لتمام الكلام و استئناف التّالى، و «الوثاق لا» لأنّ الفاء في «فإمّا» عاطفة للتّفريع، و «أوزارهاج» لإحتمال الجملة التّالية إعتراضيّة و استئنافيّة، و «كذلك ط» أى ذلك كذلك قد يحسن اتّصاله بما قبله لإنقطاعه عن خبره أو عن المبتداء أو الفعل أى الآمر ذلك أو فعلوا ذلك، و لإستناف الجملة التّالية، و «ببعض ط» لتمام الكلام و إستئناف التّالى على وجه.

«بالهم ج» للآية مع العطف و إتّحاد الكلام، و «من قبلهم ط» لتناهى الإستخبار، و «عليهم ج» للإبتدآء بالتّهديد مع الواو، و «أمثالها ط ى» لتمام الكلام و استئناف التّالى، و «ى» علامة العشر توضع عند انتهآء عشر آيات: ١٠).

«لا مولى لهم ع» علامة انتهاء الرّكوع، و هو الحصّة اليوميّة لمن يريد حفظ القرآن الكريم في عامين، و «الأنهار ط» لتمام الكلام، و «أخرجتك ج» لإحتمال أنّ مابعده صفة قرية أو خبر لـ«كأيّن» و «المتّقون ط» للحذف أو صفة الجنّة فيمانقص عليكم، ثمّ شرع في قصّتها، و «آسن ج» لتمام الكلام و عطف التّالي، و «طعمه ج» كالسّابق، و «للشاربين ج» لتفصيل أنواع النّعم مع العطف، و «مصفّى ج» و «من ربّهم ط» لحذف المـبداء أو التّقدير: أفمن هذا حاله كمن هو خالد في النّار.

«إليك ج» لإحتمال أن يكون «حتّى» للإنتهاء و للإبتداء، و «آنفاً ط» لتمام الكلام، و

استئناف التّالي، و «بغتة ج» لتناهى الإستفهام مع مجيئ الفاء بعده تحتمل العطف و الإستئناف، و «أشراطها ج» لعكس ماسبق، و «المؤمنات ط» لتمام الكلام و إستئناف التّالى، و «نُزِّلَت سورة ج» للشّرط التّالى مع الفاء، و «القتال لا» لأنّ مابعده جواب: «اذا» و «من الموت ط» للإبتداء بالدّعاء عليهم، و «فأولى لهم ج ى» لإحتمال أن يكون «أولى» بمعنى أقرب و أدنى، و «ى»: ۲۰) علامة العشر.

«معروف قف» علامة الوقف المستحب، و لا بأس في الوصل، و «عزم الأمر ز» لإحتمال أنّ التّقدير: فإذا عزم الأمر كذبوا و خالفوا، و «خيراً لهم ج» لإبتدآءِ الإستفهام مع الفآء، و «الهدى لا» لأنّ الجملة التّالية: «الشّيطان سوّل لهم» خبر «إنّ» و «سوّل لهم ط» لأنّ فاعل «أملى» هو اللّٰه سبحانه، و يجوز الوصل، بنآء على أنّ فاعله، ضميرالشّيطان، من حيث إنّه يمنّيهم و يعدهم، ولكنّ الوقف أجوز و أعزم.

«في بعض الأمر ج» لأنّ ما بعده يصلح استئنافاً و حالاً، والوقف أجوز لأنّ اللّٰه تعالى يعلم الأسرار في الأحوال كلّها، و «فأحبط أعمالهم ع» علامة انتهاء الرّكوع كما سبق آنفاً، و «بسيماهم ط» للإبتداء بما هو جواب القسم، و «في لحن القول ط» لتمام الكلام، و استئناف التّالى، و «أعمالكم ى»: ۳۰) علامة العشر.

«الصّابرين لا» لعطف التّالى، و «الهدى لا» لأنّ مابعده خبر «إنّ» و «شيئاً ط» بناءً على استئناف التّالى، و «إلى السّلم قف» و «الأعلون قف» و «أعمالكم قف» و «لهو ط» بناء على استئناف التّالى، و «في سبيل اللّه ج» لإنقطاع النّظم مع الفاء، و «من يبخل ج» لابتداء الشّرط مع العطف، و «عن نفسه ط» بناء على استئناف التّالى، و «الفقراء ج» للشّرط مع العطف، و «غيركم لا» للعطف.

﴿ اللّغة ﴾

٨٢ - البال - ١٦٦

بال الشّحم يبول بولاً و بالةً و مبالاً - واويّ من باب نصر نحو قال -: ذاب.

شحمة بوالة: إذا أسرع ذوبانها، و زقّ بوّال، يتفجّر بالشّراب.

البال يطلق على معانٍ منها: الحال، و الشّأن و القلب و الفكر و النّفس و الخاطر، و العيش و الأمل و كلّ ما يهتمّ و يعتنا به. و من أسمآء النّفس: البال. بال النّفس و هو الإكترات، و لم يخطر ببالي ذلك الأمر: أى لم يكترثني. و يقال: خطر في بالي كذا أى في فكرى. و يعبّر بالبال عن الحال الّذي ينطوي عليه الإنسان، فيقال: خطر كذا ببالي.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و لا تخطر ببال اولى الرّوِيّات خاطِرَةٌ من تقدير جلال عزّته».

و فيه: - في كتابه﴿عليه السلام﴾ لمالك الأشتر رضوان اللّه تعالى عليه لمّا ولاّه إمارة مصر- «... و لا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده﴿صلى الله عليه و آله﴾ عن أهل بيته...».

البال: الحال و الشّأن، يقال: ما بال فلان أى ما حاله و ما شأنه؟ و أصلح اللّٰه تعالى بالك: أى حالك و شأنك، و أمر معاشك و معادك.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «و أصلح بالهم - و يصلح بالهم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٢ و ٥) أى أمر

معاشهم و معادهم بأن يوفّقهم لمعرفة نفسه و تزكيتها و تقواها، و لمعرفة اللّٰه تعالى و عبادته، و أن ينصرهم على أعدآئه، و يعزّهم في الدّنيا، و يدخلهم الجنّة في العقبى. و في الدّعاء: أنعم اللّٰه بالك: شأنك.

يقال: ما بالك: ما شأنك؟

قال اللّٰه تعالى: «فاسئله ما بال النّسوة» يوسف: ۵۰) أي ما شأنهنّ و حالهنّ.

و قال: «فما بال القرون الاولى» طه: ۵۱) أي ما حال الامم الماضية و خبرهم في الايمان والكفر، في الطّاعة و المعصية، في الخير و الشّرّ، و في السّعادة و الشّقاوة...

في نهج البلاغة: قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾: «هيهات هيهات!! قد فات مافات، و ذهب ما ذهب، و مضت الدّنيا لحال بالها «فما بكت عليهم السّمآء و الأرض».

و فيه: قال الإمام﴿عليه السلام﴾ – لأهل الدّنيا –: «... ما بالكم تفرحون باليسير من الدّنيا تدركونه، و لا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه...».

و فيه: قال الإمام﴿عليه السلام﴾ – لأهل الأهواء و أتباع الشّهوة –: «... ما بالكم؟ ما دوآؤكم؟ ما طبّكم؟...».

البال: لا يثنى و لا يُجمع إلاّ شاذاً، فيقال: «بالات». بال: حوت عظيم من حيتان البحر لا زعنفة له على ظهره، و قد بلغ طوله (۵۰ – إلى – ۶۰) قدماً.

البال: الحال الّتي يكترث بها، و لذلك يقال: ما بليت بكذا بآلة أي ما اكترثُ به. باليتُ: كرهتُ. و لا تبالي: لا تكره و في الحديث: «أخرج من صلب آدم ذرّيّة، فقال: هؤلآء في الجنّة و لا أُبالي، ثمّ أخرج ذرّيّة، فقال: هؤلآء في النّار و لا أُبالي» أي لا أكره. يقال: ليس هذا من بالي أي ممّا أُباليه.

و يقال: «و ما بال أقوال يرون عن فلان» أي لا يهتمّون به. رخاء البال: سعة العيش.

يقال: «فلان رخيّ البال: في سعة و خصب و أمن. و هكذا: فارغ البال: إذا لم يشتدّ عليه أمر و لم يكترث. و يقال: فلان كاسف البال: ما يهتمّ به. و فلان كسوف البال: ضاق عليه أمله، و ما نال بمناه. البال: الأمل.

أمر ذو بال: ما يهتمّ به. قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «كلّ أمر ذي بال لم يبدأ ببسملة – و

في رواية لم يبتدأبحمد اللّه - فهو أبتر» أى كلّ أمر ذى شأن و خطر يحتفل له و يهتمّ به.

في نهج البلاغة: قال الإمام﴿عليه السلام﴾ - للّذين حضّهم على الجهاد فسكتوا مليّاً -: «ما بالكم لا سُدِّدْتم لرشد، و لا هُديتُم لقصد؟».

و فيه: قال الإمام﴿عليه السلام﴾ - لمن - «يدّعي بزعمه أنّه يرجوا اللّه! كذب و العظيم! ما باله لا يتبيّن رجآئه في عمله - فما بال اللّه جلّ ثنآؤه يُقَصِّرُ به عمّا يُصْنَعُ لعباده».

و فيه: قال الإمام﴿عليه السلام﴾ - حين يلى غُسل رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و تجهيزه -: «... بأبي أنت و أُمّى، أُذكرنا عند ربّك و اجعلنا من بالك».

في القاموس و شرحه: و من المجاز: البول: الولد، و البول: العدد الكثير، و البـول: الإنفجار و منه زقّ بوال: إذا كان ينفجر بالشّراب. و البولة: بهاء بنت الرّجل. و البال: المر الّذي يعتمل به في أرض الزّرع.

بال الإنسان يبول بَوْلاً و مَبالاً - واويّ نحو قال -: خرج بوله. جمعه: أبوال.

البَوْل: الولد. يقال: فلان بال بولاً شريفاً فاخراً: إذا وُلِدَ له ولد يشبهه في شكـله و صورته و طبعه. البَوْل: ماء تفرزه الكليتان، فيجتمع في المثانة حتّى تدفعه الطّـبيعة. و البُوال: داء يكثر منه البول. و البُوَّلة: الكثير البول. اَلْمَبُولَة: ما يسبّب البول أو يحمل عليه.

يقال: كثرة الشّراب مَبْوَلَةٌ. اَلْمِبْوَلَة: كوز يبال فيه. الإسم: البيلة كالجلسة. بالت بينهم الثّعالب: تعادوا بعد الصّداقة.

و في الحديث: «من نام حتّى أصبح فقد بال الشّيطان في أُذُنه» و في الحديث: «كفى بالرّجل شرّاً أن يبول الشّيطان في أُذُنه».

و من المجاز: بال الشّيطان بأُذُنه: أى سخر منه و ظهر عليه حتّى نام عن طاعة اللّه تعالى. و قيل: هو ضرب مثل له حين غفل عن الصّلاة. و تثاقل بالنّوم عن القيام لها بمن و قع في أُذُنه بول، فثقل سمعه و فسد حسّه. و البول: ضارّ مفسد، فلهذا ضرب به المثل.

بَوّال: كثير البول، مبالغة للتحقير أى انّه ليس عنده ظهر يُرغب فيه لقوّة حمله و لا ضرع فيحلب، و إنّما هو بوّال لا خير فيه و لا نفع. بعير بوّال: كثير البول لهزاله.

يقال لنطف البغال: البول تشبيهاً بالسّراب لأنّ بول البغل كاذب لا يلقح و السّراب كذلك.

أَبَالَ و بَوَّلَ: جعله يبول.

البالة: القارورة، وعاء الطّيّب، حُزمة من البضاعة، ضُخمة محكمة اللفّ و الرّبط (ايطالية). البالة: الجِراب الصّغير أو الضّخم. البالة: حديدة يصاد بها السّمك. يقال للصّيّاد: إرم بها، فما خرج فهو لي بكذا. و هذا بيع غرريّ لأنّه مجهول. و البالة عصاً فيها زجّ تكون مع صيّادى أهل البصرة. البالة: الرّائحة و الشّمّة. يقال: بلوته: شممته و احتبرته.

المبال: المستراح، و الفرج. و في الحديث: «مبال في مبال».

المبالات: رعاية الأُمور في الخير و الشّرّ و السّعادة و الشّقاوة و الحسن و القبح عقلاً و عرفاً و شرعاً.

٦- الثّخن و الثّخونة - ١٩٩

ثَخُنَ الشّئ يثخن ثَخِناً و ثُخَانَةً و ثُخُونةً - من باب كَرُمَ -: إذا غلظ و صَلُبَ و كثف، فلم يسل و لم يستمرّ في ذهابه، فهو ثخين: غليظ، صُلْب، جمعه: ثُخنآء.

الثِّخَنُ: الغلاظة و الصّلابة. رجل ثخين السّلاح: شاك.

و لمّا كانت الثّخانة يصحبها في العادة ثقل و ضعف في الحركة، استعير منها ضرباً و استخفافاً كقولك: أثخنت فلاناً: أضعفته و أوهنته بالجراح، و أثخنته الجراحة: أثقلته.

أثخن في الأمر: بالغ، و في العدوّ: بالغ و غلظ في قتلهم: و أوثقهم قتالاً. و أثخن في الأرض: أكثر القتل فيها، فأثخن. أثخنه معرفة و رَضَنَه معرفة: إذا قتله علماً.

قال اللّه تعالى: «حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» محمّد﴿ﷺ﴾: ٤) أى غلبتموهم و أضعفتموهم بالقتل و الجرح و الإسارة عن المقاومة. و أثخن: إذا غلب و قهر.

و قال تعالى: «حتّى يثخن في الأرض» الأنفال: ٦٧) أى حتّى يوهن أعدآئه و يعجزهم و يبالغ في قتلهم.

في نهج البلاغة - في الخطبة القاصعة - قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير

المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و أحَلُّوكم وَ رَطـاتِ القَـتْلِ، و اَوْطـأوكم إثـخانَ الجراحة».

و قالت زينب بنت أميرالمؤمنين على﴿عليه السلام﴾: «لم اَنْشَبْها حتّى أثْـخَنَتْ عـليها» أى بالغت في جوابها و أفحمتها.

و من المجاز: الثّخين: الرّزين و الحليم من الرّجال، و الثّقيل في مجلسه. و ثوب ثخين: جيّد النّسج. المثخنة: المرأة الضّخمة. و الثَّخَن و الثّخنة: الثّقلة.

استثخن منه المرض أو النّوم: غلبه، و اِثّخن: أوهنته الجراح. و استثخن منّي العيى: غلبني.

قيل: إنّ الثّخن بمعنى الغلبة و هي في القرآن الكريم على وجهين: **أحدهما**- أن تكون بالقتل والجرح كقوله عزّوجلّ: «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» الأنفال: ٦٧).

ثانيهما- أن تكون بالإسارة كقوله تعالى: «حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثـاق» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٤).

١١- التعس - ١٨٢

تعس يتعس تَعْساً و تَعَساً و تَعْسَةً - من بابى تَعِبَ و نَفَعَ -: هلك أو عثر فأكبّ على وجهه و بقى عليه، فهو تَعِسٌ. تَعس الرّجل تعساً: ضدّ تنعش. التّعس: أن يخرّ الرّجل على وجهه كما أنّ النكس أن يخرّ على رأسه. و منه قولهم: «تَعَسَ فما انتعش و شيك فلا انتقش» فهو تاعس و تعيس.

التّعس: مصدر يطلق على الهلاك و العثار و الشّرّ و الإنحطاط و البُعد و السّقوط على الوجه و البقاء عليه و أتعس اللّه تعالى فلاناً: أشقاه و أهلكه، و تَعساً له: ألزمه اللّـه هلاكاً.

قال اللّه تعالى: «و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٨) أى ألزمهم اللّه عزّوجلّ هلاكاً و انحطاطاً و سقوطاً. و هو دعاء. و «تعساً» مفعول مطلق عامله محذوف أى تعسهم اللّه تعساً.

و في الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدّينار و عَبْدُ الدّرهم» و يدعوالرّجل على بعيره الجواد إذا عثر فيقول: تَعْساً، و إذا كان غير جواد و لا نحيب، فعثر، قال له: لَعْاً.

المتعسة: سبب التّعس، يقال: هذا الأمر منحسة متعسة: سبب النّحس و التّـعس، مدعاة للنحس و التّعس. و منه: «هو منحوس و متعوس».

التّعسة: السّقطة.

في المفردات: التّعس: أن لا ينتعش من العثرة، و أن ينكسر في سِفال.

و في اللسان: التّعس: السّقوط على أيّ وجه كان.

٣٦- الأسن - ٣٦

أسن الماء يأسن أَسْناً و اَسَناً و اَسُوناً - من أبواب فرح و ضرب و نصر -: تغيّر ريحه و لونه و طعمه، فهو آسن، فلم يُشْرَبْ. و اَسَنَ الرّجلُ: مَرِضَ من أسن الماء: إذا غُشِيَ عليه.

قال اللّه تعالى: «مثل الجنّة الّتي وعد المـتّقون فـيها أنهـار مـن مآء غـير آسـن» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٥) أى غير متغيّر كالآجن المتغيّر الطّعم و الرّيح و الرّائحة.

و أسن الرّجل: دخل البِئْرَ، فأصابه ريح منتنة أو غير ذلك فغُشِيَ عليه أو دار رأسه، فهو أسِنٌ.

تأسّن المآء: تغيّر، و تأسّن الرّجل أباه: أخذ أخلاقه، و تأسّن الرّجل: تذكّر العهد الماضي القديم.

الأُسُن و الأسآئن: جمع آسان: بقيّة الشّحم. و الآسان: هي البقايا من الآثار القديمة. و آسان الثّياب: ما تقطّع منها و بلى. و الأسينة: القُوّة من قوى الوتر جمعها: أسآئن.

في اللسان: تأسّن الماء: تغيّر، و تأسّن عَلَيَّ فلان تأسّناً: اعتلّ و أبطأ، و أسن الرّجل لأخيه يأسِنُهُ و يأسُنُهُ: إذا كَسَعَهُ برجله. و آسان الرّجل: مذاهبه و أخلاقه. و الآسان و الإسان: الآثار القديمة، و الأُسُن: بقيّة الشّحم القديم. و التأسّن: التّوهّم و النّسـيان، و أسَنَ الشّئَ: أثبته. و المآسن: منابت العَرْفَج.

٤٥- العسل - ۱۰۱۰

عسل الطّعام يعسله عَسْلاً و عَسَلاً - من بابي ضرب و نصر -: عمله و خلطه بالعَسَل.

و عسل القوم: أطعمهم أوزوّدهم العَسَلَ، و عَسَلَتِ النَّحْلُ: عَمَلَتِ العَسَلَ، و عسل الشئ: صار كالعسل، و عسل من طعامه: ذاقه، و عسل فلاناً: طيّب الثّنآء عليه، و عسل اللّٰه فلاناً: حبّبه إلى النّاس.

العَسَل: - في الحياة الدّنيا -: هو لعاب النّحل، و قد جعله اللّٰه عزّوجلّ بلطفه شفآء للنّاس، و يستعار لغيره، فيضاف إليه فيقال - مثلاً -: عسل الرّطب، يذكّر و يؤنّث، و التّأنيث أكثر، و التّذكير لغة معروفة. جمعه أعسال، و عُسُل و عُسْل و عُسُول و عُسْلان، و ذلك إذا أردت أنواعه.

و أمّا عسل الجنّة فلا يعلم إلاّ اللّٰه تعالى و أهل بيت وحيه الّذين هم الرّاسخون في العلم صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

قال اللّٰه جلّ وعلا: «و أنهار من عسل مصفّى» محمّد(ﷺ: ١٥).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام) - في عسل الجنّة -: «... و يطاف على نُزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفّقة و الخمور المروّقة...» الخطبة: ١٦٤).

قال رسول اللّٰه(ﷺ): «إذا أراد اللّٰه بعبد خيراً عَسَلَهُ» قيل: يا رسول اللّٰه وما عَسَلُهُ؟ قال(ﷺ): «يفتح له عملاً صالحاً بين يدي موته حتّى يرضى عنه مَن حوله».

فشبّه ما رزقه اللّٰه تعالى من العمل الصّالح الّذي طاب به ذكره بين قومه بالعسل الّذي يجعل في الطّعام، فيحلو به و يطيب. و في حديث آخر: «إذا أراد اللّٰه بعبد خيراً عَسَّلَهُ في النّاس» أى طيّب ثنآئه فيهم.

العَسَل - مصدر -: حباب الماء إذا جرى من هبوب الرّيح.

عَسَلَ الماء يعسل عَسَلاً و عَسَلاناً و عَسْلاًو عُسُولاً - من باب ضرب -: حرّكته الرّيح، فاضطرب، و عَسَلَ الرّمح: اضطرب و اشتدّ اهتزازه، و عَسَلَ الذّئب أو الفرس:

اضطرب في عدوه و هزّ رأسه في مضائه، و عسل النّآئم: هوّم، رمح عاسل و عسّال و عسول: يهتزّ ليناً. العَسَلان: اهتزار الرّمح، و اهتزاز الأعضآء في العدو، و منه: عَسَلَ فلانٌ، المرأةَ يعسلها عَسْلاً: نكحها. و يقال: مرّ يعسل و ينسل.

عَسَلَة: قطعة من العسل كالذّهبة قطعة من الذّهب. يقال: مالفلانٍ مَضْرِبُ عَسَلَةٍ أى من النّسل و النّسب و يقال: ما ترك فلان لفلان مَضْربَ عَسَلَةٍ أى شتمه حتّى هدم نسبه و نفى منصبه.

العَسَلَة: النّسل. يقال: المرأة لنا، و كلّ ضربة منّا لها من عَسَلَة. مآء العَسَل: أوان الإزدواج فشبّه لذّة الجماع بذوق العسل، فاستعار لهاذوقاً.

العسيلة: النّطفة و ماء الرّجل، و إنّما أنّثَ لأنّه قطعة من العسل أو على إعطائها معنى النّطفة. و في حديث المطلّقة ثلاثاً: «لاتحلّ لزوجها حتّى تنكح زوجاً غيره، و يذوق عسيلتها» العُسَيْلة: تصغير العسلة، و هي القطعة من العسل، فشبّه لذّة الجماع بذوق العسل، و إنّما صُغِّرَتْ إشارةً إلى القدر الّذي يحلل و لو بغييوبة الحشفة.

و في رواية: أنّه﴿ﷺ﴾ قال لامرأة رفاعة القُرَظي: «حتّى تذوقي عسيلته، و يذوق عسيلتك» كُنِّيَ عن حلاوة الجماع الّذي يكون بتغييب الحشفة في فرج المرأة، و لايكون ذواق العسيلتين معاً إلّا بالتّغييب و إن لم ينزلا، و لذلك اشترط عسيلتها.

العاسل– جمعه: عُسَّل و عواسل –: الّذي يشتار و يتّخذ العسل من موضعه. العاسل: ذوالعمل الصّالح يستحلى الثّناء عليه. و العَسُول – جمعه: عُسُل –: ذو العمل الصّالح يستحلى الثناء عليه. العُسُل: الرّجال الصّالحون.

رجل معسول الكلام: حلو المنطق، مليح اللفظ، طيّب النّغمة، و هي معسولة الكلام. معسول المواعيد: صادقها.

خليّة عاسلة: فيها عَسَلٌ. اَلْمَعْسَلَة و الْمَعْسُلَة: خليّة النّحل.

العَسّالة: الشّورة الّتي تتّخذ فيها النّحلُ العَسَلَ من راقود و غيره فتُعَسِّلَ فيه.

العَسّال – مبالغة –: الّذى يشتار و يتّخذ العسل من موضعه. و العَسّال: الذّئب. و أبوعِسْلَة: الذّئب. العسول: الشّديد الاهتزاز. تعسيلة: نومة خفيفة.

العسيل - جمعه: عُسُل -: مكنسة العطّار الّتي يجمع بها العطر و الرّيشة الّتي تقلع بها الغالية. و العسيل: قضيب الفيل و البعير.

العِسْل: قبيل من الجنّ. يقال: هو عِسْل مال: حسن الرّعية له. جمعه أعسال.

العَسِل - ككتف -:الرّجل الشّديد الضّرب السّريع رجع اليد بالضّرب. و عسل الدّليل بالمفازة: أسرع. و منه يقال : «عليك العَسَل» أى بسرعة المشي. العَسْل: ناقة سريعة.

العَسْل: يقال: عَسْلاً له أى تعساً له. منصوب على المصدريّة أو المفعوليّة. و المعنى: أسئله له عَسْلاً.

إستعسل: طلب العسل.

العَسَليّ: ما كان بلون العسل. عسل اللُّبنى: طيّب ينضح من شجرها يتبخّر به، يشبه العسل لاحلاوة له. زنجبيل مُعَسّل: معمول بالعسل يزيد قوّة الجماع و يحرّك الشّهوة.

٤٧- الأمعاء - ١٤٤٥

مَعِيَ الطّعام يَمْعىٰ مَعْياً - يائيّ من باب علم نحو رضي -: صار ليّنا في المِعىٰ.

اَلْمَعْى و الْمَعىٰ و المِعىٰ و المِعْآء: مصران البطن، و المِعىٰ: المصير، واحد المِصران، جمعه: الأمعآء و هي المصارين و المعيان، تثنية المِعىٰ. الماعي: الليّن من الطّعام، الماعية: المدمدمة أى المقطّعة قِطَعاً قِطَعاً من الأشيآء. المِعىٰ - أيضاً -: كلّ مذنب بالحضيض ينادى مذنباً بالسّند، أو سهل بين صلبين، يقال: جرى الماء في أمعاء الوادى أى في مذانبه.

المِعىٰ: مسيل الماء بين الحِرار و المِعىٰ: المسيل الضّيّق الصّغير. و الأمعآء: مسايل صغار. الأمعاء: ما لان من الأرض و انخفض. قال اللّه تعالى: «فقطّع أمعآءهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٥).

و في الحديث قال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «المؤمن يأكل في معاً واحد، و الكافر يأكل في سبعة أمعاء» و ذلك أنّ المؤمن لا يأكل إلّا من الحلال، و يتوقّى الحرام و الشّبهة، و الكافر

لايبالى من أين يتناول ما يأكل و كيف يأكل، حيث إنّ للحقّ و أهله طريقاً واحداً، و للباطل و أهله طرقاً لاتحصى... قال اللّٰه تعالى: «أنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لاتتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله» الأنعام: ١٥٣).

فالمؤمن لزهده في الدّنيا و متاعها يقنع بالبلغة من العيش و ما اوتى من الكفاية، و أمّا الكافر فلحرصه في الدّنيا و شهواتها لايقنع بالبلغة من العيش و ما اوتى من الكفاية، فيسعى في نيلها بكلّ ما يمكن له من الحلال و الحرام.

تمعّى الشّرّ بينهم: فشا. و تمعّى السّقاء: تمدّد و اتّسع. المُعْآء -بالمدّ -: أصوات السّنانير.

١٧- الشّرط - ٧٨٥

شرط الشّيء يشرطه شَرْطاً - من بابي ضرب و نصر -: شقّه. و شَرَطَ الجِلْدَ: بضعه، و شرط الحجّام: بزغه لاستفراغ الدّم و نحو ذلك، و شرّط الجِلْدَ: بضّعه. و منه جآء معنى العلامة.

الشَرْط: كلّ حكم معلوم يتعلّق بأمر يقع بوقوعه، و ذلك الأمر كالعلامة له، و شريط و شرائط، و قد اشترطتُ كذا. و منه قيل للعلامة: الشَّرَط و أشراط السّاعة: علاماتها.

الشَّرَط: أوّل الشّيء و العلامة، جمعه أشراط، و أشراط الشّيء: أوآئله، و مشاريط الأشيآء: أوائلها كأشراطها.

قال اللّٰه تعالى: «فقد جآء أشراطها» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ١٨) أى جاء علاماتها الّتي تدلّ على قربها.

و في رواية: «لاتقوم السّاعة حتّى يأخذ اللّٰه شريطته من أهل الأرض، فيبقى عُجاج لايعرفون معروفاً و لاينكرون منكراً» يعني أهل الخير و الدّين.

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و المصطفى لكرائم رسالاته، و الموضّحة به أشراط الهدى، و المجلوّ به غِربيب العمى» الخطبة: ١٧٧).

الشَّرَط: أوّل كتيبة تشهد الحرب و تتهيّأ للموت. شَرِطَ شَرَطاً: وقع في أمر عظيم.

الشَّرَط: رذال المال: صغاره، و كلّ مسيل صغير، يجيىء على قدر عشرة أذرع. يقال: هو من شَرَط النّاس و أشراطهم. الشَّرَط و الشَرْط: الدّون اللئيم السّافل. جمعه: أشراط.

الأشراط: - من الأضداد -: يقع على أرذال النّاس، و على أشراف النّاس. و أشرط النّاس: أرذلهم و أشرفهم.

شَرَطَ يَشْرُط شَرْطاً عليه في بيع و نحوه - من باب نصر -: ألزمه شيئاً فيه. الشَّرط: إلزام الشّيء و التزامه في البيع و نحوه، جمعه: الشّروط. و في الرّواية: «المؤمنون عند شروطهم».

و في المثل: «الشّرط أمْلَك عليك أم لك» أى انّ الشّرط يملك صاحبه في إلزامه إيّاه المشروط إن كان له أو عليه.

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - في كيفيّة بيعة عمروابن‌عاص مع معاويةبن‌سفيان عليهم الهاوية و النّيران -: «و إنّه لم يبايعْ معاوية حتّى شَرَطَ له أن يُؤتيه اَتيّةً و يُرْضِخَ له على ترك الدّين رضيخة».

الشَّرْط - عند النّحويّن -: ترتيب وقوع أمر على أمر آخر بواسطة أداة ملفوظة كقولك: «إن أكرمتنى أكرمتُك» أو مقدّرة نحو: «تَعَلَّمْ تَعْلَمْ».

الشُّرْطة: ما اشترطته. و الشُّرْطة و الشُّرْطي: واحد الشُّرَط، و هم طائفة من خيار أعوان الولاة و الحكّام و السّلطان.

في نهج البلاغة: - في كتاب الإمام على﴿عليه السلام﴾ لمالك الأشتر رضوان اللّه تعالى عليه لمّا ولّاه على مصر -: «و تُقْعِدْ عنهم جندك و أعوانك من أحراسك و شُرَطِك حتّى يكلّمك متكلّمهم غير متتعتع....» و قد سمّوا بذلك لأنّهم أعملوا أنفسهم بعلامات يعرفون بها.

الشَّريطة - جمعها: الشّرائط -: المشقوقة الأُذُن من الإبل و الشّاة. الشّريطة: عصابة من حرير أو قطن بيضآء أو مختلفة الألوان، لايتجاوز عرضها أربع الأصابع تعقدها

الفتيات على شعور هنّ و تزيّن بها الثّياب. الشّريطة بالجزيرة الخضراء الأندلسيّة.

الشَّريط – جمعه: شُرُط –: المشروط. الشّروط: خوص مفتول يُشَرَّط به السّرير و نحوه، خيط من المعادن دقيقاً كان أو ثخيناً مُغلَفاً أو غير مغلف. و منه «شريط الكهرباء و شريط التلغراف» و غير هما. الشّريط: وعاء تضع المرأة فيه طيبها. الشريط: العيبة.

المِشرَط و المِشراط و المِشرَطة – جمعها: مشارط و مشاريط –: المِبْضَع. مشاريط الشّيء: أوائله. و أخذ للأمر مشاريطه: أهبته.

الشِّرْطَة: القطعة المقطوعة من القماش. جمعها: شراطيط.

الشِرْواط: الطّويل المتشذّب اللّحم الدّقيق. و الشِّرواط: السّريع. و الجمل و النّاقة إذا كان طويلاً و فيه رقّة. الشِرْواط: الجمل السّريع.

الشَّرَطان: نجمان، و هما أوّل نجم من الرّبيع، و من ذلك صار أوائل كلّ أمر يقع: أشراطه. و يقال لهما: الأشراط. و قيل: هما أوّل منازل القمر و هما معترضان من الشّمال إلى الجنوب، و هما نجمان من الحَمَل و هما قرناه.

أشرط نَفْسَه أو مالَه في الأمر: قدّمها فيه. و أشرط الإبِلَ: عزلها و أعلم أنّها للبيع. و أشْرَطَ نَفْسَهُ لكذا: أعدّها له، و أشرط إليه رسولاً: أعجله إليه. أشرط بالشّيء و فيه: استخفّ به و جعله شرطاً أى شيئاً دوناً خاطر به. و أشرط نَفْسَهُ للهلكة: إذا عمل عملاً يكون هلاك نفسه أو يَكون علامة للهلاك.

شارط – من باب المفاعلة –: شرط كلّ منهما على صاحبه: عاهده في المعاملة و نحوها على أمر يلتزمه.

اشترط له كذا: التزمه. الاشتراط: العلامة الّتي يجعلها النّاس بينهم.

تشرّط: تكلّف شروطاً ليست عليه، و تشرّط في العمل: تأنّق.

تشارط القوم: شارط كلّ منهم غيره. تشارطوا على الشّيء: التزموه.

استشرط المال: فسد بعد صلاحه.

في اللسان: الشُرْطة في السّلطان من العلامة و الإعداد، و رجل شُرْطيّ و شُرَطيّ: منسوب إلى الشُّرْطة، و الجمع: شُرَط، سمّوا بذلك لأنّهم أعدّوا لذلك، و أعلموا أنفسهم بعلامات.

و في القاموس و شرحه: الشُّرْطة: طائفة من أعوان الولاة معروفة. و منه الحديث: الشُّرَط كِلاب النّار و هو شُرْطي أيضاً في المفرد.

في نهج البلاغة: - في رواية نوف البِكالى - قال الإمام أمير المؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾: «... يا نوف إنّ داود ﴿عليه السلام﴾ قام في مثل هذه السّاعة من اللّيل، فقال ﴿عليه السلام﴾: إنّها ساعة لايدعو فيها عبد إلّا استجيب له إلّا أن يكون عَشّاراً أو عريفاً أو شُرْطِيّاً أو صاحب عَرْطَبَةٍ (و هي الطّنبور)».

٥٣- القفل - ١٢٤٥

قَفَلَ الباب يقفل قَفْلاً و قُفُولاً -من أبواب نصر و ضرب و علم -: غلق

و قَفَلَ الأميرُ الجُنْدَ: أرجعهم، و قَفَلَ الجُنْدُ: رجعوا. لازم و متعدٍّ.

و قَفَلَ يقفل الرّجل قُفُولاً - من باب ضرب -: إذا عاد من سفره.

و قَفَلَ الفَحْلُ يقفل قُفُولاً - من باب ضرب -: اهتاج للضّراب. و يقال: قَفَلَ النّبات و قَفَلَ الفَحْلُ: إذا اشتدّ هياجه فَيَبِسَ من ذلك و هزل.

و قَفَلَ الجِلدُ قَفَلاً: يبس، و قَفَلَ و تقفّل في الجبل: صعد. و قفل الشّيء: حزره.

و قَفَلَ الطّعامَ: جمعه و احتكره. و قُفِلَ الفرس: ضمر فهو قافل.

القُفْل: الغلق أى الحديد و نحوه الّذي يُغلَقُ به الباب إغلاقاً محكماً، جمعه أقفال و أقْفُل و قُفُول.

قال اللّٰه تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمّد ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٢٤).

أقفال القلوب الخاصّة بها هي الكفر و العناد و الرّين و نحوها ممّا يصعب معه تَقَبُّلُ الدّين الحقّ و مبادئه القويمة.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾: «و استغلقت على أفئدتهم أقفال الرّين» الخطبة: ٢٣٣).

القُفْل: شجر بالحجاز يضخم، و تتّخذ النّساء من ورقه غُمْراً يجيىء واحدته قُفْلَة، و هي تنبت في نُجُود الأرض، و تيبس في أوّل الهيج. و قيل: هي شجرة بعينها في وغرة

الصّيف، فإذا هبّت البوارح بها قلعتها و طيّرتها في الجوّ. القُفْل: من الغزل: ربطة معيّنة. و القُفْل: شجر حجازيّ، واحدته: قُفْلَةَ.

القُفُول: الرّجوع من السّفر. و القافلة: الرّاجعة من السّفر.

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و كيف أظلم أحداً لنفس يُسْرِع إلى البِلىٰ قُفُولها، و يطول في الثَّرىٰ حلولها؟!» الخطبة: ٢١٥).

و قد يقال للسّفر: قُفُول، في الذّهاب و المجيىء، و أكثر ما يستعمل في الرّجوع. و قيل: القُفُول: رجوع الجيش بعد الغزو.

القَفيل: اليابس من الشّيء إمّا لكون بعضه راجعاً إلى بعض في اليبوسة، و إمّا لكونه كالمُقْفَل لصلابته. القفيل: ما يبس من الشّجر و السّوط. جلد قفيل: بيّن القَفَل: يابس.

القَفيل: السّوط، و قد سمّى بذلك إذ يُصنَع من الجلد اليابس. القَفيل: الشِّعْب الضّيّق، كأنّه مقفّل لايمكن فيه العَدْو.

القِفّيل: –كسكّيت –: الجُلّاب.

القَفْل: الرُّفقة من البغال. و القَفْل و القَفْلَة و القَفَلَة: ما يبس من الشّجر.

القَفيل و القُفال: موضعان، و قَفْل: ثنية قرب قرن المنازل، و قُفل: حصن باليمن، و قِفْوَل –كدرهم –: موضع باليمن بالقرب من موسنة.

القُفَلَة: الحافظ لكلّ ما يسمع. و القَفّال – فعّال للمبالغة –: من يصنع الأقفال.

القَفَل: إسم جمع بمعنى القافلة، و القافل: جمعه: قافلة، و قُفّال: الرّاجع. و القافل و القُفال: الجلد اليابس أو اليد. سِقآء قافل و شيخ قافل: يابس الجلد.

القافلة: – مؤنّث القافل – جمعها قوافل: الرُّفقة الرّاجعة من السّفر أو المبتدئة به تفاؤلاً بالرّجوع. خيل قوافل: ضوامر.

القُفُلّ –كعُتلّ –: ما يغلق به الباب مما ليس بكشف و نحوه.

القيفال: عِرْقٌ في الذّراع يُفصَد لأمراض الرّأس.

القَفْلَة: القفا. القَفْلَة: إعطآء الشّيء بمرّة. يقال: أعطاك ألفاً قَفْلَةً بمرّة. و درهم قَفْلَة: وازن. فلان يشترى القَفَلات: الجلب الكثير، جملة واحدة.

المِقْفَل - بالكسر -: النّخلة الّتي يتحات ما عليها من الحمل.

أقفل فلان، بابه: أغلقه، و أقفل على الباب: جعل عليه قُفْلاً. و قد جُعِلَ ذلك مثلاً لكلّ مانع للإنسان من تعاطي فعلٍ، فيقال: فلان مُقْفَلٌ عن كذا. و قيل للبخيل: مُقْفَلُ اليدين كما يقال: مغلول اليدين.

أقفل الأميرُ الجَيشَ: أرجعهم، و أقفل القوم في الطّريق: أتبعهم بَصَرَهُ. أقفلهم عن مبعثهم: أرجعهم. و أقفل القوم على الأمر: جمعهم عليه. أقفل الجِلْدَ: أيبسه. أقفل المالَ: أعطاه جملة بمرّة. و أقفل العطش و الصّوم: أقحله و أيبسه.

و في الحديث: «أربع مُقْفَلات: النّذر و الطّلاق و العتاق و النكاح» أى لامخرج منهنّ لقائلهنّ كأنّ عليهنّ أقفالاً، فمتى جرى بهنّ اللّسان وجب بهنّ الحكم.

قَفَّلَ الجِلْدُ: يبس و قفّل الأبواب: غلّقها. لازم و متعدّ. رجل مقفّل اليدين: لئيم يكاد لايخرج من يديه خير. قفّل الشّجرة: قطع رأسها.

انقفل الغُزاة: رجعوا. و انقفل الرّجُلُ: مضى لما هو فيه. انقفل الباب: انغلق.

استقفل الباب: أُغلق. و استقفل الرّجل: بَخُلَ. يقال: استقفلت يداه فهو مستقفل: بخيل ممسك.

٤- الحبط - ٢٩٢

حَبِطَ العمل يَحْبُطُ حَبْطاً و حُبُوطاً - من باب علم -: بطل و فسد و لم يحقق ثمرته و ذهب سدىً. و حبط دم القتيل: هدر، و حبط ماء البئر: ذهب ذهاباً لايعود كما كان، و حَبِطَ حَبْطاً: عَمِلَ عَمَلاً ثمّ أفسده.

قال اللّٰه تعالى: «و من يكفر بالايمان فقد حبط عمله» المائدة: ٥)

و ذلك أنّ الكفر و النّفاق يوجبان إضاعة العمل و إفساده و بطلانه كأنّه لم يك شيئاً مذكوراً.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و من ضرب على فخذه عند مصيبته حَبِطَ أَجْرُهُ».

حَبِطَتِ الدّابّة حَبَطاً: إذا أصابت مَرْعىً طيّباً فافرطت في الأكل حتّى تنتفخ فتموت.

و حَبْطُ العمل و بطلانه مأخوذ من حبط البطن لأنّ صاحب البطن يَهْلِك. و كذلك عمل الكافر و المنافق يحبط.

حَبِطَ البعير حَبَطاً: انتفخ بطنه من أكل الحند قوق فهو حَبِطٌ، جمعه: حباطى. و الحَبَط: وجع يأخذ البعير في بطنه من كلإ يستوبله. إسم هذا الدّاء: حُباط. و الحُباط: داء يعرض للإبل حتّى يهلكه. و الحَبَط: أن تأكل الماشية فتُكثِرُ حتّى تنتفخ لذلك بطونها و لايخرج عنها ما فيها فتهلك. و الحَبَط: أثر الجرح و السّياط في البدن بعد البرء. و الحَبَط: الورم المسبّب منها و حَبِطَ الجرح حَبَطاً: عرب و نكس. و أحبط عنه: أعرض عنه. يقال: تعلّق به ثمّ أحبط عنه. و أحْبَطَ الضّربُ زيداً: أثّر فيه. أحبط اللّٰه تعالى عمل فلان: ضيّعه هباءً و أبطله و أفسده و جعله سدى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً. و أحبط ماء الرّكـيّة: ذهب ذهاباً لايعود كما كان.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم - ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم- و سيحبط أعمالهم» محمّد﴿عليه السلام﴾: ٩ و ٢٨ و ٣٢) أى أبطلها و أفسدها و ضيّعها، و سيجعلها سدى وهباءً منثوراً بسبب كفرهم و نفاقهم و استبداد رأيهم...

و في الدّعاء: «و أعوذ بك من الذّنب المحبط للأعمال» أى مـن الكـفر و العـجب و الاستبداد بالرّأى.

و في **نهج البلاغة**: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فاعتبروا بما كان من فعل اللّٰه بإبليس إذ أحبط عَمَلَهُ الطّويل و جَهْدَه الجهيد» الخطبة القاصعة.

انحبط فلان انحباطاً - من باب الانفعال -: انتفخ جوفه إذا امتلأ غيظاً. المـنحبط: الممتلىء غضباً. و المنحبط: العظيم البطن المنتفخ.

و في **الحديث**: قال رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ «تزوّجوا فإنّى مكاثر بكم الامم غداً يوم القيامة حتّى أنّ السّقط ليجيىء مُنحَبطاً على باب الجنّة، فيقال له: ادخل، فيقول: لاحتّى يدخل أبواى»

المنحبط: الممتلىء غيظاً.

إحْبَوْبَطَ الرّجل: احبيباطاً فهو مُحْبَوْبط: جهول سريع الغضب.

الحَبَنْطي: الممتلىء غيظاً أو بطنة. و البطين القـصير الغـليظ. الحَـبَنْطاء - مـؤنث الحَبَنْطى -: المرأة القصيرة الدّميمة البطينة.

الحابطيّة: فرقة من المعتزلة.

في المفردات: أصل الحَبْط من الحَبِط و هو أن تكثر الدّابّة أكلاً حتّى ينتفخ بطنها. و قال(ﷺ): «و إنّ ممّا يُنبِتُ الرّبيع ما يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ».

و سمّى الحارث الحَبِطَ لأنّه أصابه ذلك، ثمّ سُمّيَ أولاده حَبِطات.

و في اللسان: الحَبِطُ و الحَبَطُ: الحرث بن مازن بن مالك بن عمروبن تميم، سمّى بذلك لأنّه كان في سفر فأصابه مثل الحَبَط الّذي يصيب الماشية، فنسبوا إليه. و قيل: سمّى بذلك لأنّ بطنه ورم من شيء أكله.

١٢- الضّغن - ٩٠٤

ضَغِنَ عليه يَضغَنُ ضَغَناً و ضِغْناً - من باب علم -: انطوى عليه في قلبه عداوة و بغضاء فهى تغطية في اعوجاج و التواء.

الضِّغْن و الضَّغَن: مادّياً هو الالتواء و الاعوجاج في قوائم الدّابّة و القناة و كلّ شيء، و من المادّي: ضِغْن الجبل: ناحيته و إبطه و معنوياً: هو الحقد الشّديد. و جمعه: أضغان. و لم يرد في القرآن الكريم إلّا جمعاً في سورة واحدة، مع فعل الإخراج.

قال اللّه تعالى: «و يخرج أضغانكم - أن لن يخرج اللّه أضغانكم» محمّد(ﷺ): ٢٩ و ٣٧).

الضّاغن: من يستكن في قلبه من العداوة و البغضآء، و امـرأة ذات ضـغن عـلى زوجها: إذا أبغضته. و بها شُبِّهَ النّاقة، فقالوا: ذات ضِغْنٍ. و ناقة ذات ضِغْنٍ: تنزع إلى وطنها. و فرس ضَغُون - الذّكر و الانثى فيه سوآء -: الّذي يجرى كأنّما يرجع القهقرى.

فرس ضَغِنٌ: ضاغن و هو لايجرى جريه إلّا بالضّرب.

و في الحديث: «الرّجل يكون في دابّته الضِّغْن، فيقوّمها جُهْدَه و يكـون في نـفسه الضِّغْن فلا يقوّمها» الضِّغْن في الدّابّة: أن تكون عَسِرَة الانقياد.

عود ضَغِنٌ: اعوج. و قناة ضَغِنة: فيها عوج و التواء. و الإضغان: الاشتمال بالثّوب والسّلاح و نحوهما.

الضّاغن و الضَّغِن: الحاقد و المنطوي على الحقد.

الضّغينة: الحقد. جمعها: ضغآئن. و في الحديث: «إنّا لنعرف الضّغآئن في وجوه أقوام»

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علىّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - في ذكر رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ -: «... دفن الله به الضّغائن» الخطبة: ٩٥).

و ضَغِنوُا عليه: ما لوا عليه، و اعتمدوه بالجور.

في نهج البلاغة: قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ - في الخلفآء الغاصبين حقّه، و ضغنوا عليه -: «... فصغى رجل منهم لضغنه» و قال﴿عليه السلام﴾ في عائشة: «وضِغْنٌ غلا في صدرها كِمْرجَل القَيْنِ».

و قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ في دعآئه: «اللّهمّ قد صرّح مكنونُ الشَّنَآن، و جاشَتْ مَراجلُ الأضغان» ضَغِنَ إليه ضَغَناً: مال. الضِّغْن: الشّوق و الميل و العِوَج. يقال: ضغنوا عليه و إليه: مالوا عليه و إليه، و فلان ضغن إلى الدّنيا: ركن و مال إليها. وضَغِنَ: حقد.

الضِّغْني و الضَّغَني: الأسد كأنَّهُ يُنسَبُ إلى الضّغينة و هو الحقد لكونه حقوداً.

يقال: سللت ضِغْن فلان و ضَغينَتَه و ضِغنتَه: إذا طلبت مرضاته.

ضاغنه - مفاعلة -: حاقده و في الدّعاء: «أبعد الله كلّ مضاغن لأخيه مشاحن لمواليه».

المضاغن: المشاحن لأخيه كالمضطغن. إنّ المؤمن لن يضغن لأخيه المؤمن.

تضاغن القوم: انطوو اعلى الأحقاد و قابلوا الحقد بمثله.

اضطغن فلان على فلان ضغينة: أضمرها و اتّخذه تحت ضِغْنِهِ أى حضنه.

و في الحديث: «فتكون دمآء في عميآء في غير ضغينة و حمل سلاح».

١٥- اللحن - ١٣٥٢

لَحَنَ فلان في كلامه لزميله يَلْحَنُ لَحْناً و لَحَناً و لُحُوناً و لَحَانةً و لَحَانية - من باب منع

-: قال كلاماً يفهمه ذلك الزّميل و لا يفهمه غيره لما فيه من تورية غامضة أو تعريض مبهم أو إشارة خفية لا يعرفها إلّا الزّميلان.

لَحَنَ الكلام: صرفه عن سننه الجاري عليه إمّا بإزالة الإعراب أو التّصحيف و هو قبيح مذموم، و ذلك أكثر إستعمالاً، و إمّا بإزالته عن التّصريح و صرفه بمعناه إلى تعريض و فحوى و هو حسن ممدوح عند أكثر الأُدبآء من حيث البلاغة، و منه قيل للفطن بما يقتضي فحوى الكلام: لحن.

اللحن: كلام ذو وجهين، و لحن القول: ما كان يتبعه المنافقون في كلامهم من تعريض أو تورية لإخفآء مرادهم عن الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لكنّ اللّه تعالى أطلعه على حقيقة أمرهم.

و قال: «و لتعرفنّهم في لحن القول» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٣٠) أى في فحوى قولهم و معناه أو نحو قولهم لأنّ قول القائل و فعله يدلّان على نيّته و ما في ضميره.

و ذلك كقولهم: «إنّ بيوتنا عورة» الأحزاب: ١٣) و قد كشف اللّه تعالى عن نيّاتهم بقوله: «و ما هي بعورة إن يريدون إلّا فراراً» الأحزاب: ١٣).

في نهج البلاغة: - في كتاب الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لمالك الأشتر رضوان اللّه تعالى عليه لمّا ولاّه على مصر -: «...و لا تُعَوِّلَنَّ على لَحْنِ قَوْلٍ بعد التّأكيد و التَّوْثقة» فنهاه عن كلام ذى وجهين. أصل اللحن: أن يريد الإنسان شيئاً فيوارى عنه بقول آخر. يقال: لحنت له لَحْناً: إذا قلت له قولاً يفهمه عنك الّذي تجب إفهامه وحده، و يخفى على غيره. اللّحن: ما يلحن إليه اللسان و يميل إليه القول. اللحن: التّعريض و الايمآء. و اللحن عند أهل الفصاحة و البلاغة: يدلّ على الحديث الملفوف في رقائق من الرّمز و الايماء و الإشارة و الكناية و التّورية و الإبهام. و لحن الكلام: فحواه و معناه و معاريضه. تقول: عرفت ذلك في لحن كلامه: في فحواه و فيما صرف إليه من غير إفصاح به. و لَحَنَ فلان لفلان لَحْناً: قال له قولاً يفهمه عنه و يخفى على غيره لأنّه يميل بالتّورية عن الواضح المفهوم، و لَحَنَ فلان إلى فلان لَحْناً: نواه و قصده و مال إليه.

اللّحن:الميل عن جهة الاستقامة، يقال: لحن فلان في كلامه: إذا مال عن صحيح النطق.

اللّحن: اللغة و النّحو، جمعه: الألحان و اللحون. و منه الحديث: «اقرؤا القرآن بلحون العرب» يقال: لحنت بلحن فلان تكلّمت بلغته. و في حديث: «تعلّموا اللحن في القرآن كما تتعلّمونه» أى تعلّموا لغة العرب بإعرابها. و في رواية: «إنّ القرآن نزل بلحن قريش»: بلغتهم.

و في الحديث: «اقرؤا القرآن بلحون العرب و أصواتها، و إيّاكم و لحون أهل العشق و لحون أهل الكتابين».

و قد نهى عن لحونهم لأنّها لحن تطريب و شعر و غناء و ترجيع. و اللحن من الأصوات المصوغة الموضوعة و هي الّتي يرجع فيها و يطرّب و يغنّى.

لَحِنَ الرّجل يَلْحَنُ لَحْناً – من باب علم –: فطن لحجّته و انتبه و لَحِنَ قوله لَحْناً: فهمه. و في الحديث: «لعلّ بعضكم ألحن بحجّته من بعض» أي ألسن و أفصح و أبين كلاماً و أقدر على الحجّة. يقال: فلان ألحن النّاس: أحسنهم قراءة أو غناءً.

اللَحَنُ: الفِطنة، و رجل لَحَنٌ أى فَطِنٌ. اللَحِن – ككتف –: الفَطِن.

و لَحِنَ يَلْحَنُ لَحَناً فهو لَحَنٌ: إذا أصاب و فطن، هو ألحن من فلان: أسبق فهماً منه. و لَحِنَ له قوله: فِهمَه. و منه يقال: لَحِنَ الرّجل فهو لَحِنٌ: إذا فَهِمَ و فَطِنَ لما لا يفطن له غيره.

اللحن: الخطأ و ترك الصّواب في الإعراب. يقال: فلان لحّان أى يخطي.

لحن القارىء في القراءة، و المتكلّم في كلامه: أخطأ في الإعراب، و خالف وجه الصّواب فهو لاحن و لحّان و لحّانة. يقال: لحن فلان في كلامه: مال به عن الإعراب إلى الخطاء أو صرفه عن موضوعه إلى الإلغاز.

اللحن في القرآن الكريم و الأذان: التّطويل فيما يقصر، و التّقصير فيما يطال.

اللاحن: العالم بعواقب الكلام. قِدْحٌ لاحن: ليس بصافي الصّوت عند الإفاضة. و سَهْمٌ لاحن: خاطى عن الهدف.

اللُحْنَة – كظلمة –: الّذي يلحّنه النّاس.

اللُحَنَة – كهمزة –: الكثير اللحن و الّذي يُلَحِّنُ النّاس كثيراً.

صناعة الألحان: الغناء و الموسيق.

ألحَنَهُ القول فَلَحِنَهُ: أفهمه إيّاه ففهمه.

لاحنهم ملاحنة: فاطنهم. و لاحَنَ: مال عن صحيح المنطق. يقال: لاحنتُ النّاس: فاطنتهم.

لحّنه: خطّأه، و لَحَّنَ في قرائته: طرّب فيها و ترنّم.

فيعلم ممّا تقدّم أن للّحن معان: الفهم، و الفطنة، و المعنى، و التّعريض، و المـيل، و الغنآء، و اللغة، و الخطأ في الإعراف، و ترك الصّواب في البيان، و الكلام ذو وجهين.

و الفرق بين اللحن و الخطأ: أنّ اللحن صرفك الكلام عن جهته ثمّ صار إسماً لازماً لمخالفة الإعراب، و الخطأ إصابة خلاف ما يقصد، و قد يكون في القول و الفعل، و اللّحن لا يكون إلّا في القول، تقول: لحن في كلامه، و لا يقال: لحن في فعله كما يقال: أخطأ في فعله إلّا على استعارة بعيدة، و لحن القول مادلّ عليه القول.

اللحن: إن تلحن بكلامك أى تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتّعريض و التّورية و قال الشّاعر:

و لقد لحنت لكم لكيما تـفهموا	و اللحن يعرفه ذوي الألباب

فاللحن: العدول بالكلام عن الظّاهر، و المخطىء لاحن لعدوله عن الصّواب أى لكي تفهموا دون غيركم فإنّ اللحن يعرفه أرباب العقول دون غيرهم.

و في الفرآئد الغوالى على شواهد الأمالى للسّيّد المرتضى رضوان اللّه تعالى عليه: «لحن القول: فحواه و معناه و معاريضه، و أصله إزالة الكلام عن جهته، ثمّ إنّه يستعمل على وجهين: في الصّواب و الخطأ، أمّا في الصّواب فمعناه الكناية عن الشّيء و العدول عن الإفصاح عنه. و قيل: اللحن هو الفطنة و سرعة الفهم، و الفاعل منه لحن يلحن فهو لحن

إذا فطن و منه الحديث: «لعلّ أحدكم يكون ألحن بحجّته من بعض» أي أفطن لها و أغوص عليها، و إنّما سمّي التّعريض لحناً لأنّه ذهاب بالكلام إلى خلاف جهته، و أمّا في الخطأفإنّ اللّحن إزالة الإعراب عن جهته، و الفعل منه لحن -كنهر - يلحن فهو لاحن و هو لحان و لاحن و لحّانة: إذا أخطأ في الإعراب و خالف وجه الصّواب».

﴿النّحو﴾

١- (الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه أضلّ أعمالهم)

«الّذين» موصولة، و في موضعها وجهان: **أحدهما** - في موضع نصب، بفعل دلّ عليه: «أضلّ» أى أضلّ الّذين كفروا. **ثانيهما** - في موضع رفع، مبتداء، و «كفروا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، صلة الموصول لامحلّ لها، و الواو للعطف، و «صدّوا» معطوف على «كفروا» و «عن سبيل» متعلّق بـ«صدّوا» على حذف المفعول أى صدّوا النّاسَ، و «أضلّ» فعل ماضٍ من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه».

و في «أعمالهم» وجهان: **أحدهما** - مفعول‌به. **ثانيهما** - على تقدير جزاء أعمالهم أو ثوابها. و جملة «أضلّ أعمالهم» في موضع رفع، خبر المبتداء: «الّذين».

٢- (و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم)

الواو عاطفة، و «الّذين» معطوف على «الّذين» المتقدّم، و «آمنوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال، صلة الموصول لامحلّ لها، و جملة الصلة و الموصول، معطوفة على «الّذين كفروا» و الواو عاطفة، و «عملوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، و «الصّالحات» مفعول‌به، و جملة «عملوا...» معطوفة على «آمنوا» و الواو عاطفة و

«آمنوا» الثّاني معطوف على «آمنوا» الاولى، و «بما» متعلّق بـ«آمنوا» و «ما» موصولة، و «نزّل» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر، مبنيّ للمفعول من باب التفعيل، صلة الموصول، و العائد هو الفاعل، و «على محمّد» متعلّق بـ«نزّل».

في الواو وجهان: **أحدهما** – اعتراضيّة، و «هو» مبتداء، و «الحقّ» خبره، و الجملة معترضة بين المبتداء: «الّذين» و خبره: «كفّر» لامحلّ لها. **ثانيهما** – حالية، و جملة «هو الحقّ» في موضع نصب، حال من نائب الفاعل في «نزّل» و في «من ربّهم» وجوه: **أحدها** – متعلق بمحذوف و هو حال من نائب الفاعل. **ثانيها** – متعلق بمحذوف و هو خبر ثانٍ للمبتداء: «هو» **ثالثها** – متعلّق بـ«الحقّ».

«كفّر» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب التّفعيل في موضع رفع، خبر «الّذين» و «عنهم» متعلّق بـ«كفّر» و «سيّئاتهم» جمع السّيئة، مفعول‌به، و الواو عاطفة، و «أصلح» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب الإفعال، معطوف على «كفّر» و «بالهم» مفعول‌به.

٣– (ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب اللّه للنّاس أمثالهم)

«ذلك» إسم إشارة، و في موضعه وجوه: **أحدها** – في موضع رفع، مبتداء، و «أنّ» حرف مشبّهة بالفعل، و «الّذين» موصولة في موضع نصب، إسمها، و «كفروا» صلتها، و جملة الصّلة و الموصول، في موضع جرّ بالباء، متعلّق بمحذوف، خبر المبتداء: «ذلك» و «اتّبعوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الافتعال في موضع رفع، خبر «أنّ» و «الباطل» مفعول‌به، و جملة «ذلك...» تعليل لما سبق لامحلّ لها. أى ذلك الإضلال و تكفير السّيّئات و إصلاح البال بسبب اتّباع الأوّلين الباطل، و اتّباع الآخرين الحقّ. **ثانيها** – في موضع رفع، خبر لمحذوف أى الامر ذلك، و «بأنّ الّذين...» في موضع نصب على الحال. و التقدير: الأمر ذلك أى كما ذكر ملتبساً بهذا السّبب، و العامل في الحال إمّا معنى الإشارة و إمّا نحو أثبته و أحقّه، فإنّ الجملة تدلّ على ذلك لأنّه مضمون كلّ خبر.

ثالثها – مبتداء، خبره محذوف أى ذلك كائن.

الواو عاطفة، و «أنّ الّذين آمنوا» في موضع جرّ، معطوف على المصدر المؤوّل الأوّل، و «اتّبعوا» الثّاني كالأوّل، و «الحقّ» مفعول‌به، و «من ربّهم» متعلّق بمحذوف و هو حال من «الحقّ».

في «كذلك» وجهان: **أحدهما** - متعلّق بمحذوف، مفعول مطلق، عامله «يضرب». **ثانيهما** - نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك الضّرب يضرب اللّه، و «للنّاس» متعلّق ب «يضرب» و الجملة مستأنفة لامحلّ لها، و «أمثالهم» مفعول‌به.

٤- (فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها ذلك و لو يشآء اللّه لانتصر منهم و لكن ليبلوا بعضكم ببعض و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالهم)

الفاء عاطفة لترتيب ما في حيّزها من الأمر على ما قبلها، فإنّ إضلال أعمال الكافرين و إصلاح أحوال المؤمنين ممّا يوجب أن يترتّب على كلّ من الجانبين ما يليق به من الأحكام أى إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتموهم في المحارب، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن معنى الشّرط، و العامل فيه فعل مقدّر، و هو العامل في «ضرب الرّقاب» تقديره: فاضربوا الرّقاب ضرباً وقت ملاقاتكم في الحرب. فحذف الفعل، و قدّم المصدر فأُنيب منابه مضافاً إلى المفعول، و فيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد، لأنّك تذكر المصدر منصوباً، و تدلّ على الفعل بالنّصبيّة الّتي فيه. «لقيتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب، في موضع جرّ بإضافة الظّرف: «إذا» إليه، و «الّذين» في موضع نصب، مفعول‌به، و «كفروا» صلة الموصول لامحلّ لها.

«فضرب الرّقاب» الفاء رابطة لجواب الشّرط، و في «ضرب الرّقاب» وجهان: **أحدهما** - منصوب على المصدريّه، مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: اضربوا الرّقاب ضرباً، فحذف الفعل، و قدّم المصدر و أُنيب منابه، مضاف إلى المفعول، و ذلك للاختصار أوّلاً و إعطاء معنى التّوكيد ثانياً لأنّ ذكر المصدر و نصبه يدلّ على الفعل المحذوف كقوله

تعالى: «فاضربوا فوق الأعناق» الأنفال: ١٢) و جملة «اضربوا الرّقاب ضرباً» جواب شرط غير جازم لامحلّ لها. و هذه الإضافة في تقدير الإنفصال لأنّ تقديره: فضرباً الرّقاب. ثانيهما- مصدر بدل من اللفظ بفعله أى فاضربوا رقابهم أى اقتلوهم، و عبّر بضرب الرّقاب لأنّ الغالب في القتل أن يكون بضرب الرّقبة.

«حتّى» حرف ابتداء أى تبدأ بعده الجمل، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن معنى الشّرط، متعلّق بـ«شدّوا» و «أثخنتموا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال، في موضع جرّ بإضافة «إذا» إليها، و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به، و الفاء في «فشدّوا» رابطة لجواب «إذا» الثّاني، و «شدّوا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب، و «الوثاق» مفعول‌به، و جملة «شدّوا الوثاق» جواب شرط غيرجازم لامحلّ لها.

الفاء عاطفة للتفريع، و «إمّا» حرف شرط و تخيير و تفصيل لعاقبة مضمون ما قبله من شدّ الوثاق، و حذف الفعل النّاصب للمصدر، و «منّاً» مصدر منصوب لفعل محذوف لايجوز إظهاره لأنّ المصدر متى سيق تفصيلاً لعاقبة جملة، وجب نصبه بإضمار فعل، و التّقدير: فإمّا أن تمنّوا منّاً، و الجملة معطوفة على جملة جواب الشّرط: «شدّوا...» لامحلّ لها، و «بعد» ظرف مبنيّ على الضّمّ في موضع النّصب لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لامعنىً، متعلّق بـ«منّاً» أى بعد أسرهم و شدّ وثاقهم، و الواو عاطفة، و «إمّا فداء» عطف على «إمّا منّاً» أى و إمّا أن تفادوا فداءً، و الجملة معطوفة على «أن تمنّوا منّاً» مقدّرة لامحلّ لها.

«حتّى» حرف غاية و جرّ، و هي مع مدخولها إمّا أن تتعلّق بالضّرب و الشّدّة أو بالمنّ و الفداء لأنّها غاية لذلك كلّه، و «تضع» فعل مضارع، للمفرد المؤنث بإعتبار فاعله: «الحرب» بمعنى المحاربة أو أهل الحرب، منصوب بأن مضمرة بعد «حتّى» و «الحرب» فاعل الفعل، و «أوزارها» جمع الوزر، مفعول‌به، و ضمير التأنيث راجع إلى «الحرب» و المصدر المؤوّل: «أن تضع» في موضع جرّ بـ«حتّى» متعلق بمضمون الأحداث الأربعة: «الضّرب و شدّ الوثاق و المنّ و الفداء».

و في «ذلك» وجوه: **أحدها** – خبر لمحذوف أى الأمر ذلك أى الأمر فيهم ما ذكر من القتل و الأسر و ما بعده من المنّ و الفداء. و جملة «الأمر ذلك» إعتراضية أو استئنافية لامحلّ لها. **ثانيها** – في موضع نصب، مفعول به، لمحذوف أى إفعلوا ذلك. **ثالثها** – مبتداء، خبره محذوف أى ذلك حكم الكفّار المحاربين.

«و لو يشاء اللّٰه» في الواو وجهان: **أحدهما** – استئنافية. **ثانيهما** – عاطفة، و «لو» حرف شرط غير جازم، و «يشآء» فعل مضارع، و «اللّٰه» فاعله، و جملة «لو يشآء اللّٰه» معطوفة على الاستئناف القائم بعد «حتّى» الابتدائية لامحلّ لها، و اللّام واقعة في جواب «لو» و «انتصر» بتضمينه معنى «انتقم» فعل ماضٍ من باب الافتعال، و فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «منهم» متعلق بـ«انتصر» و الجملة جواب شرط غير جازم لامحلّ لها.

«ولكن» في الواو وجهان: **أحدهما** – عاطفة. **ثانيهما** – حاليّة، و «لكن» حرف استدراك مهمل لأنّه خفّف، و اللّام للتعليل، و «يبلو» فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و المصدر المؤوّل، مجرور باللّام، متعلّق بفعل محذوف، تقديره: أمركم بالقتال، و «بعضكم» مفعول به، و «ببعض» متعلّق بـ«يبلو» و جملة «أمركم بالقتال ليبلو» معطوفة على جملة «لو يشآء» لامحلّ لها.

الواو مستأنفة، و «الّذين» موصولة، و «قتلوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، مبنيّ للمفعول، صلة الموصول لامحلّ لها، و «في سبيل اللّٰه» متعلّق بـ«قتلوا» والجملة: «الّذين...» مستأنفة لامحلّ لها، و الفآء رابطة لما في الموصول من معنى الشّرط، و «لن» حرف نفي و نصب و استقبال و «يضلّ» فعل مضارع، منصوب بـ«لن» و فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى «اللّٰه» و «أعمالهم» مفعول به، و جملة «لن يضلّ...» في موضع رفع، خبر المبتداء: «الّذين» و جملة «الّذين قتلوا...» مستأنفة لامحلّ لها.

٥- (سيهديهم و يصلح بالهم)

السّين حرف استقبال، و «يهدي» فعل مضارع، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به، و الجملة مستأنفة بيانيّة لامحلّ لهـا، والواو عاطفة، و «يصلح» فعل مضارع من باب الإفعال، و «بالهم» مفعول‌به، و الجملة معطوفة على «سيهديهم» لامحلّ لها.

٦- (و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم)

الواو عاطفة، و «يدخل» فعل مضارع من باب الإفعال، و فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به أوّل، و «الجنّة» مفعول ثان عـلى السّعة، و الأصل: يدخلهم في الجنّة أو إلى الجنّة، و الجملة معطوفة عـلى «سـيهديهم» لامحلّ لها.

«عرّف» فعل ماضٍ من باب التفعيل، فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى «اللّٰه» و «ها» في موضع نصب، مفعول‌به، و «لهم» متعلّق بـ«عرّف» و في موضع «عرّفها» وجوه: أحدها- مستأنفة لامحلّ لها. ثانيها- في موضع نصب، حال من فاعل «يُدخل» بتقدير «قد» ثالثها- في موضع نصب، حال من مفعول «يدخل» بدون تقدير «قد».

٧- (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت أقدامكم)

«يا» حرف نداء، و «أيّها» منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضّمّ في موضع النّصب، و جملة النّداء مستأنفة لامحلّ لها، و «الّذين» موصولة، و «آمنوا» صلة الموصول لامحلّ لها، و «إن» حرف شرط جازم، و «تنصروا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مجزوم بحذف نون الرّفع، و «اللّٰه» مفعول‌به، عـلى تـقدير المـضاف أى ديـن اللّٰـه تـعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و الجملة جواب النّداء لامحلّ لها، و «ينصركم» جزاء الشّرط، مجـزوم بحرف الشّرط، و «كم» في موضع نصب، مفعول‌به لامحلّ لها.

الواو عاطفة، و «يثبّت» فعل مضارع من باب التـفعيل، والجـملة مـعطوفة عـلى «ينصركم» لامحلّ لها، و «أقدامكم» مفعول‌به.

٨- (و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم)

الواو إستئنافية، و «الّذين» موصولة، و«كفروا» صلة الموصول لامحلّ لها، و في موضع «الّذين» وجهان: **أحدهما-** في موضع نصب، على المفعوليّة لفعل مقدّر يفسّره النّاصب لـ«تعساً» أي أتعس اللّه الّذين كفروا أو تعس اللّه الّذين كفروا تعساً. **ثانيهما-** في موضع رفع، مبتداء، و «تعسوا» المقدّر خبره، يدلّ عليه «فتعساً لهم»، فجملة «الّذين كفروا...» مستأنفة لامحلّ لها.

الفاء في خبر الموصول لتضمّنه معنى الشّرط، فالفاء رابطة، أو لأجل الإبهام الّذي في «الّذين» و جآء «أضلّ أعمالهم» على الخبر حملاً على لفظ «الّذين» لأنّه خبر لفظاً، فدخول الفآء حملاً على المعنى، و «أضلّ» حملاً على اللفظ. و في «تعساً» وجوه: **أحدها-** منصوب، مفعول مطلق لفعل محذوف. أى فقال: تعسوا تعساً لهم. **ثانيها-** مفعول به لفعل محذوف، أى فقضى تعساً لهم. **ثالثها-** على تقدير: أتعسهم اللّه فتعسوا تعساً، فنصب على المصدر بسبيل الدّعآء. **رابعها-** يجوز رفع «تعساً» على الإبتداء، و «لهم» متعلق بمحذوف، خبره، و الجملة في موضع رفع، خبر «الّذين».

و في «لهم» وجوه: **أحدها-** متعلّق بـ«تعساً» **ثانيها-** متعلّق بمحذوف، هو نعت لـ«تعساً». **ثالثها-** متعلّق بمحذوف، هو خبر لمبتداء محذوف أى العذاب ثابت لهم.

الواو عاطفة، و «أضلّ» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب الإفعال، و «أعمالهم» أى جزاء أعمالهم مفعول به، و جملة «أضلّ أعمالهم» معطوف على «تعسوا» و هو عامل «تعساً».

٩- (ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم)

«ذلك» في موضع رفع، مبتداء، و «أنّ» حرف توكيد، تشبه بالفعل، و «هم» في موضع نصب، إسمها، و «كرهوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، في موضع رفع، خبرها، و المصدر المؤوّل: «أنّهم كرهوا» في موضع جرّ بالباء السّببيّة، متعلّق بمحذوف، هو خبر «ذلك» و جملة «ذلك...» تعليل للدّعاء السّابق أى ما ذكر من التّعس و الإضلال، أو

مستأنفة بيانيّة لامحلّ لها.

و «ما» موصولة في موضع نصب، مفعول به لـ «كرهوا» و «أنزل» فعل ماضٍ، صلة الموصول لامحلّ لها، و «اللّٰه» فاعل الفعل، و العائد محذوف، أي أنزله اللّٰه. و الفاء عاطفة، و «أحبط» فعل ماضٍ من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «أعمالهم» مفعول به، و جملة «أحبط...» في موضع رفع، معطوفة على جملة «كرهوا».

١٠- (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم و للكافرين أمثالها)

الهمزة للاستفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ، و الفاء عاطفة على محذوف، و «لم» حرف جحد و قلب و جزم، و «يسيروا» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، مجزوم بـ «لم» بحذف نون الرّفع، و «في الأرض» متعلّق بـ «يسيروا» و الجملة مستأنفة، معطوفة على مستأنفة مقدّرة أى أقعدوا فلم يسيروا لامحلّ لها، و الفاء للسّببيّة، و «ينظروا» فعل مضارع، منصوب بـ «أن» مضمرة بعد الفآء. و في موضع «ينظروا» وجهان: **أحدهما**- في موضع جزم، معطوف على «يسيروا» **ثانيهما**- في موضع نصب، على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير «أن».

«كيف» إسم استفهام في موضع نصب، مفعول به لفعل النّظر المعلّق بالاستفهام بتقدير الجار، خبر «كان» المتقدّم، و «عاقبة» إسمها المؤخّر، اُضيفت إلى «الّذين» و «من قبلهم» متعلّق بمحذوف، هو صلة «الّذين» و «دمّر» فعل ماضٍ من باب التفعيل، و «اللّٰه» فاعل الفعل، و «عليهم» متعلّق بـ «دمّر» على حذف مفعوله، تقديره: أهلك اللّٰه أنفسهم و أموالهم و ماشادوه، و الجملة مستأنفة بيانيّة لامحلّ لها.

الواو عاطفة، و «للكافرين» متعلّق بمحذوف هو خبر مقدّم، و «أمثالها» مبتداء مؤخّر، و الجملة معطوفة على جملة «دمّر اللّٰه» مستأنفة بيانيّة لامحلّ لها.

و اللّام في «للكافرين» للعهد إن كان المراد الدّعاء عليهم، و هم كفّار قريش، و من سلك مسالكهم في كلّ ظرف من الظّروف، أو المراد بالكفّارهم الأقدمون منهم، و

للجنس إن كان المراد، الإخبار بالقتل و الاسر اللّذين هما نوعان من التّدمير. و «أمثالها» جمع قلّة للمثال، و الضّمير راجع إلى العاقبة أو العقوبة، و الأوّل مذكور، و الثّاني مفهوم بدلالة التّدمير عليه.

۱۱- (ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لامولى لهم)

«ذلك» مبتداء، و «أنّ» حرف توكيد، تشبه بالفعل، و «اللّٰه» إسمها، و «مولى» اُضيف إلى «الّذين» و «آمنوا» صلة الموصول، و الجملة في موضع رفع، خبر «أنّ» و المصدر المؤوّل مجرور بحرف الباء، متعلّق بمحذوف، خبر «ذلك» و جملة «ذلك بأنّ اللّٰه...» تعليل لما سبق أو مستأنفة بيانيّة لامحلّ لها.

الواو عاطفة، و «أنّ» حرف توكيد، مشبّهة بالفعل، و «الكافرين» إسمها، و «لا» نافية للجنس، و «مولى» إسمها، و «لهم» متعلّق بمحذوف، خبرها، و الجملة في موضع رفع، خبر «أنّ» و الجملة المؤكّدة معطوفة على الجملة المؤكّدة السّابقة.

۱۲- (إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجرى من تحتها الأنهار و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم)

«إنّ» حرف توكيد، مشبّهة بالفعل، و «اللّٰه» إسمها، و «يدخل» فعل مضارع من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و جملة «يدخل» في موضع رفع، خبر «إنّ» و الجملة المؤكّدة مستأنفة، مفسّرة لولاية اللّٰه تعالى و ما يترتّب عليها و «الّذين» موصولة، في موضع نصب، مفعول‌به أوّل لـ«يدخل» و «آمنوا» صلة الموصول لامحلّ لها، و جملة «عملوا الصّالحات» معطوفة على «آمنوا» و داخلة في حيّزها، و «جنّات» جمع جنّة، مفعول ثان لـ«يدخل» على السّعة. و الأصل: يدخل الّذين آمنوا... إلى جنّات...

و «تجرى» فعل مضارع للمفرد المؤنّث، و «من تحتها» متعلّق بـ«تجري» و «الأنهار» فاعل «تجري» بحذف المضاف أى من تحت أشجارها أو متعلّق بحال من «الأنهار» و جملة «تجري...» في موضع نصب، نعت لـ«جنّات».

الواو عاطفة، و «الّذين» موصولة، مبتداء، و «كفروا» صلتها، و «يتمتّعون» فعل مضارع من باب التفعّل، في موضع رفع، خبر المبتداء، و الجملة عطف على الجملة المؤكّدة المستأنفة لامحلّ لها، و الواو عاطفة، و «يأكلون» عطف على «يتمتّعون».

و «كما» في الكاف وجهان: **أحدهما** - موصولة حرفيّ، في موضع نصب، حال من ضمير المصدر أى يأكلونه أى الأكل مشبهاً أكل الأنعام. **ثانيهما** - نعت لمصدر محذوف، أى أكلاً مثل أكل الأنعام، و «تأكل الأنعام» صلة الموصول الحرفي.

و «و النّار....» في الواو وجهان: **أحدهما** - إستئنافية، و «النّار» مبتداء، و «مثوى» خبره، و «لهم» متعلّق بمحذوف، نعت لـ«مثوى» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. **ثانيهما** - حاليّة، و مدخولها في موضع نصب، حال مقدّر من واو «يأكلون».

١٣ - (و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصرلهم)

الواو إستئنافية، و «كأيّن» خبريّة، و هي كلمة مركّبة من الكاف و أيّ بمعنى كم الخبريّة، كناية عن عدد، بمعنى كثير، مبنيّ في موضع رفع، مبتداء، و «من قرية» تميز الكناية، بحذف المضاف أى و كم من أهل قرية، متعلّق بمحذوف، نعت لـ«قرية» أى ثابتة أو كائنة، و «هي» مبتداء، و «أشدّ» أفعل تفضيل، خبره، و الجملة في موضع جرّ، نعت ثان لـ«قرية» و «قوّة» تميز به «أشدّ» و «من قريتك» متعلّق بـ«أشدّ» بحذف المضاف أي من قوّة أهل قريتك، و هي مكّة المكرّمة لقوله تعالى: «أهلكناهم » و «لهم» ففى الأُولين روعى لفظ القرية، و في الأخيرين روعى معنى القرية.

«الّتي» موصولة في موضع جرّ، نعت لـ«قريتك» و «أخرجتك» فعل ماضٍ للمفرد المؤنّث من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى القرية أى أهلها، و الكاف في موضع نصب، مفعول‌به، و الجملة صلة الموصول: «الّتي» لا محلّ لها، و «أهلكنا» فعل ماضٍ لجمع التكلّم مع الغير من باب الإفعال، و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به، و الجملة في موضع رفع، خبر «كأيّن».

الفاء عاطفة، و «لا» نافية للجنس، و «ناصر» إسمها، و «لهم» متعلّق بمحذوف، هو

خبر «لا» و الجملة في موضع رفع، معطوفة على جملة الخبر: «أهلكناهم» و المعنى: أهلكناهم فلم ينصرهم ناصر. فهو إخبار عمّا مضى.

١٤- (أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم)

الهمزة للإستفهام التقريري الإنكاري، و في الفاء وجهان: **أحدهما**- عاطفة على مقدّر يقتضيه المقام. و التّقدير: أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقرّاً على حجّة واضحة و برهان قاطع كمن زيّن له... **ثانيهما**- إستئنافية. و في «من» وجهان: **أحدهما**- إسم استفهام، في موضع رفع، مبتداء. **ثانيهما**- إسم موصول، مبتداء، و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و إسمها ضمير مستتر فيه، راجع إلى «من» و «على بيّنة» متعلّق بمحذوف، هو خبر «كان» و الجملة صلة الموصول لا محلّ لها، و جملة «من كان...» مستأنفة لا محلّ لها.

«من ربّه» متعلّق بمحذوف، هو نعت لـ«بيّنة» و «كمن» إسم موصول، متعلّق بمحذوف، هو خبر «من» الاولى، و «زيّن» فعل ماضٍ، مبنيّ للمفعول من باب التفعيل، صلة الموصول، لا محلّ لها، و «له» متعلّق بـ«زيّن» و «سوء عمله» نائب فاعل لـ«زيّن».

الواو عاطفة، و «اتّبعوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفتعال، و «أهوآءهم» مفعول به، و الجملة معطوفة على «زيّن» لا محلّ لها،و قد روعى في «اتّبعوا» معنى «مَن» كما روعى لفظ «مَن» في «زُيّن»، فجاء «زيّن» بصيغة المفرد، و «اتّبعوا» بصيغة الجمع.

١٥- (مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّىً و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا ماءً حميماً فقطّع أمعآءهم)

في «مثل الجنّة» وجوه: **أحدها**- مبتداء، خبره محذوف أى: فيما يتلى عليكم مثل الجنّة أو ما تسمعونه أو ممّا قد عرفتموه في الدّين وصفها أو فيما قصصنا عليك. **ثانيها**- أنّ «مثل» زائدة، فتكون «الجنّة» في موضع رفع، مبتداء، و جملة «فيها أنهار من ماء غير

آسن» خبره. **ثالثها**- خبر لمحذوف تقديره: ما تقرؤونه هو مثل الجنّة. **رابعها**- تقديره: مثل أصحاب الجنّة. و هو مبتداء، و قوله تعالى: «كمن هو خالد في النّار» خبره. **خامسها**- تقديره: أمثل الجنّة و أصحابها كمثل جزاء من هو خالد في النّار أو كمثل من هو خالد في النّار. **سادسها**- خبر لمبتداء محذوف، تقديره: أمن هو خالد في هذه الجنّة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النّار كما نطق به قوله تعالى: «و النّار مثوى لهم» و على أيّ وجه من الوجوه، فالجملة مستأنفة لا محلّ لها.

و «الّتي» موصولة في موضع جرّ، نعت لـ«الجنّة» و «وُعِدَ» فعل ماضٍ، مبنيّ للمفعول، و «المتّقون» إسم فاعل لجمع المذكّر من باب الإفتعال، ناب مناب الفاعل، و الجملة صلة الموصول لا محلّ لها و العائد محذوف.

و في **قوله تعالى**: «فيها أنهار من مآء غير آسن» وجوه: **أحدها**- أنّ «فيها» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «أنهار» جمع قلّة من النّهر، مبتداء مؤخّر، و الجملة مستأنفة، مفسّرة لمعنى «مثل الجنّة» فلا محلّ لها. و «من مآء» متعلق بمحذوف، نعت لـ«أنهار» و «غير آسن» نعت لـ«مآء» و يجوز أن يكون نعتاً لـ«أنهار» **ثانيها**- أنّ الجملة في موضع رفع، خبر لـ«مثل الجنّة» و لا يمنع عدم وجود الرّابط لأنّ الخبر عين المبتداء. **ثالثها**- الجملة في موضع نصب، حال من «الجنّة». **رابعها**- أن تكون الجملة في موضع رفع، خبراً لمحذوف أى هى فيها أنهار... **خامسها**- أن تكون الجملة داخلة في حيّز الصّلة و تكريراً لها. **سادسها**- الجملة كالبدل من الصّلة.

و **قوله تعالى**: «و أنهار من لبن» معطوف على «أنهار من مآء» و «لم» حرف جحد، جازم، و «يتغيّر» فعل مضارع من باب التفعّل، مجزوم بـ«لم» و «طعمه» فاعل الفعل، و الجملة في موضع جرّ، نعت لـ«لبن» و «أنهار من خمر» معطوف على «أنهار من ماء» و في «لذّة» وجهان: **أحدهما**- صفة لـ«خمر» **ثانيهما**- مصدر أى ذات لذّة. و «للشّاربين» إسم فاعل، لجمع المذكّر، متعلّق بـ«لذّة» لأنّها مصدر بمعنى الإلتذاذ، وقعت صفة للخمر. و «أنهار من عسل» معطوف على «أنهار من ماء» و «مصفّى» إسم مفعول من باب التفعيل، نعت لـ«عسل».

و قوله عزّوجلّ: «و لهم فيها...» الواو عاطفة، و «لهم» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و المبتداء مقدّر أى أصناف... و «فيها» متعلّق بالاستقرار الّذي هو خبر مقدّم، و «من كلّ» اضيف إلى «الثّمرات» جمع الثّمرة، متعلّق بنعت للمبتداء المقدّر. و في «مغفرة» وجوه: **أحدها** - معطوف على المحذوف. **ثانيها** - مبتداء، خبره محذوف أى و لهم مغفرة، و «من ربّهم» متعلّق بمحذوف، هو نعت لـ«مغفرة» **ثالثها** - معطوف على قوله: «لهم فيها» فكأنّه قال: لهم فيها الثّمرات، و لهم مغفرة قبل دخولها.

و قوله جلّوعلا: «كمن هو خالد في النّار» فيه وجوه: **أحدها** - أنّ الكاف في موضع رفع، أى حالهم كحال من هو خالد في الإقامة الدّائمة. **ثانيها** - هو استهزاء بهم. **ثالثها** - «كمن هو خالد في النّار» معطوف على قوله: «كمن زيّن له سوء عمله» أى كمن زيّن له سوء عمله و من هو خالد في النّار. فحذف واو العطف **رابعها** - هو على معنى الاستفهام أى كمن هو... **خامسها** - هو في موضع نصب، أى يشبهون من هو خالد فيما ذكرناه. **سادسها** - متعلّق بخبر لمبتداء محذوف، تقديره: أمن هو خالد في الجنّة و نعيمها حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النّار كما نطق به «و النّار مثوى لهم».

سابعها - تقديره: أمثل هذا الجزاء الموصوف كمثل جزاء من هو خالد في النّار. **ثامنها**- خبر للمبتداء: «مثل الجنّة» و ما بينهما اعتراض. **تاسعها** - تقديره: أمن هو في نعيم كمن هو خالد. **عاشرها** - تقديره: أفمن كان على بيّنة من ربّه و أعطى هذه الأشياء و النّعم كمن زيّن له سوء عمله و هو خالد في النّار. **الحاديعشر**- بدل من قوله تعالى: «كمن زيّن له سوء عمله» و ما بينهمااعتراض لبيان ما يمتاز به من على بيّنة في الدّار الآخرة تقريراً لإنكاره المساواة.

و «من» إسم موصول، و «هو» مبتداء، و «خالد» خبره و الجملة صلة الموصول لا محلّ لها، و «في النّار» متعلّق بـ«خالد».

و قوله سبحانه: «و سقوا ماءً حميماً...» في الواو وجهان: **أحدها** - عاطفة، و «سقوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، مبنيّ للمفعول، و الجملة معطوفة على جملة الصّلة: «هو خالد» لا محلّ لها.

ثانيهما- حالية، و «سقوا» في موضع نصب، حال، بتقدير «قد» و «ماءً» مفعول ثان، ناب مناب مفعول‌به الأوّل، و «حَميماً» نعت لـ«ماء» و الفاء عاطفة، و «قطّع» فعل ماضٍ من باب التّفعيل، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «ماء» و «أمعآءهم» مفعول‌به، و جملة «قطّع أمعآءهم» معطوفة على «سقوا» لا محلّ لها.

١٦- (و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم)

الواو إستئنافية، و «منهم» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «مَن» إسم موصول، في موضع رفع، مبتداء مؤخّر، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «يستمع» فعل مضارع للمفرد المذكّر من باب الافتعال، صلة الموصول لا محلّ لها، و «إليك» متعلّق بـ«يستمع» و قد روعى لفظ «مَن» و «حتّى» حرف ابتداء و غاية و جرّ، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن معنى الشّرط، اُضيف إلى «خرجوا» فعل ماضٍ في موضع جرّ، و «من عندك» متعلّق بـ«خرجوا» و «قالوا» جواب شرط غير جازم لا محلّ لها.

و «للّذين» متعلّق بـ«قالوا» و «اوتوا» فعل ماض، مبنيّ للمفعول، صلة الموصول لا محلّ لها، و «العلم» مفعول‌به ثانٍ، ناب منابَ الأوّل.

و **قوله تعالى**: «ما ذا قال آنفاً» في «ماذا» وجهان: **أحدهما**- إسم استفهام في موضع نصب، مفعول مقدّم لـ«قال» **ثانيهما**- «ما» إسم استفهام، مبتداء و «ذا» إسم موصول في موضع رفع، خبره، و «قال» صلة الموصول لا محلّ لها، و مقول القول محذوف و هو العائد. و يجوز أن يكون «قال» في موضع نصب، مقول القول لفعل «قالوا».

و في «آنفاً» وجوه: **أحدها**- منصوب على الحال من الضّمير في «قال» أى ماذا قال مبتدئاً مؤتنفاً الآن قبل انفصالنا عنه. **ثانيها**- ظرف متعلّق بـ«قال» أى ماذا قال السّاعة. **ثالثها**- «اُنفاً» كلمة تدلّ على الزّمن الماضي، منصوبة على الظّرفية، كأنّهم قالوا: ماذا قال عشيّة أو غدوة أو صباحاً أو مساءً....

و **قوله عزّوجلّ**: «اولئك...» مبتداء و «الّذين» موصولة في موضع رفع، خبر

المبتداء، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «طبع اللّٰه» صلة الموصول لا محلّ لها، و «على قلوبهم» متعلّق بـ«طبع» و في الواو وجهان: **أحدهما** - عاطفة، و جملة «اتّبعوا» معطوفة على جملة صلة الموصول، داخلة في حيّز الصّلة لا محلّ لها، و «أهـوآءهم» مـفعول‌به.
ثانيهما - حاليّة فالجملة في موضع نصب، حال من الضّمير في «قلوبهم» و لا يخفى على أهل الأدب: أنّه روعى في صيغ الجمع و ضمآئره: «خرجوا - قالوا - اولئك الّذين - قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم» معنى «مَنْ» كما قد روعى في «يستمع» لفظ «مَن».

١٧- (و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم)

في الواو وجهان: **أحدهما** - عاطفة، و «الّذين» موصولة متضمّنة لمعنى الشّرط في موضع رفع، مبتداء و «اهتدوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفتعال، صلة الموصول لا محلّ لها، و جملة «الّذين اهتدوا» معطوفة على جملة «الّذين طبع اللّـٰـه...» **ثانيهما** - إستئنافية، و«الّذين» في موضع نصب بفعل محذوف يفسّره المذكور: «اهتدوا».

و «زاد» فعل ماضٍ، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به، و الجملة في موضع رفع، خبر المبتداء: «الّذين» بناء على الوجه الأوّل من الوجهين السّابقين. و في «هدى» وجهان: **أحدهما** - مفعول ثان لـ«زاد» و تـنوينه للتعظيم أى هدى عظيماً. **ثانيهما** - تمييز.

الواو عاطفة، و «آتاهم» الفعل ماضٍ من باب الإفعال، و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به أوّل، و «تقوى» مصدر مـضاف إلى فـاعله: «هـم» مـفعول ثـانٍ، و جـمـلة «آتاهم...» معطوفة على «زادهم».

١٨- (فهل ينظرون إلّا السّاعة أن تأتيهم بغتة فقد جآء أشراطها فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم)

في الفاء وجهان: **أحدهما** - استئنافية، و «هل» حرف استفهام فيه معنى النـفي، و «ينظرون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، و ضمير الجمع فيه، يعود على كفّار مكّة و

من سلك مسالكهم... و جملة «ينظرون» مستأنفة لا محلّ لها. ثانيهما - عاطفة، فتكون الجملة معطوفة على جملة «اولئك الّذين طبع اللّه...» لا محلّ لها، و ما بينهما اعتراض. و «إلّا» أداة حصر، و «السّاعة» مفعول‌به، و «أن» حرف ناصبة، و «تأتي» منصوب بـ«أن» لا محلّ لها، و المصدر المؤوّل في موضع نصب، بدل اشتمال من «السّاعة» أى ينظرون إتيان السّاعة.

و في «بغتة» و جوه: أحدها - مصدر في موضع الحال من الإتيان جيىء به لبيان الواقع. ثانيها - مفعول مطلق، نائب عن المصدر لأنّه ملاقيه في المعنى... تأتيهم بمعنى تباغتهم. و الفاء تعليلية لإتيان السّاعة مفاجأة، فالاتّصال بينهما اتّصال‌العلّة بالمعلول أو عطف جملة على جملة فيها معنى الجزاء، و التّقدير: إن تأتهم بغتة فقد جآء أشراطها، و «قد» حرف تحقيق، و «جآء» فعل ماضٍ، و «أشراطها» جمع قلّة للشَّرَط بمعنى العلامة، فاعل «جآء»، و ضمير التأنيث راجع إلى «السّاعة». ثالثها - تميز.

و قوله تعالى: «فأنّى لهم...» في الفآء وجهان: أحدهما - استئنافية، و «أنّى» إسم استفهام في موضع النّصب على الظّرفيّة المكانيّة، متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم للمبتداء: «ذكراهم» و «لهم» متعلّق بالاستقرار الّذي هو خبر مقدّم. فتقديره: أنّى استقرّ لهم التذكّر، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. و يجوز أن يكون «ذكراهم» فاعلاً لـ«جآئتهم» و أن يكون المبتداء مقدّراً أى أنّى ثبت او استقرّ لهم الخلاص. ثانيهما - عاطفة.

و «إذا» ظرف مستقبل، و «جآئت» فعل ماضٍ، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «السّاعة» في موضع جرّ لإضافة «إذا» إليه، و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به، و جواب «إذا» محذوف أى كيف يتذكّرون أو التقدير: أنّى استقرّ لهم الخلاص إذا جآء تذكّرهم أو: فأنّى لهم الذّكرى إذا جآئتهم السّاعة كقوله تعالى: «و أنّى لهم التّناوش من مكان بعيد» سبأ: ٥٢).

١٩- (فاعلم أنّه لا إله إلّا اللّه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّه يعلم متقلّبكم و مثواكم)

الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر، و «اعلم» فعل أمر، و «أنّه» حرف توكيد، مشبّهة

بالفعل، فتحت ألفها لوقوعها بعد العلم، و الضّمير: «ه» في موضع نصب، إسمها، و «لا» حرف نافية للجنس، و «إله» إسمها، و «إلّا» حرف استثناء و «اللّٰه» بدل من الضّمير المستكن في الخبر، و الجملة في موضع رفع، خبر «أنّ» و المصدر المؤوّل: «أنّه لا إله إلّا اللّٰه» في موضع نصب، سدّ مسدّ مفعولي «اعلم» و جملة «اعلم..» جواب شرط مقدّر لا محلّ لها. و تقديره: إذا علمت سعادة المؤمنين و شقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة اللّٰه تعالى فإنّه وحدى المجدى يوم القيامة...

الواو عاطفة، و «استغفر» فعل أمر من باب الإستفعال، معطوف على «اعلم» لا محلّ لها، و «لذنبك» متعلّق بـ«استغفر» و «للمؤمنين» متعلّق أيضاً بـ«استغفر» بحذف المضاف أى لذنب المؤمنين، و «المؤمنات» عطف على «المؤمنين».

الواو استئنافية، و «اللّٰه» مبتداء و «يعلم» في موضع رفع، خبر و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «متقلّبكم» مفعول به، و «مثواكم» عطف على «متقلّبكم» و في «متقلّبكم و مثواكم» وجهان: **أحدهما** - أن يكونا مصدرين ميميين من تقلب وثوى. **ثانيهما** - أن يكونا إسمى زمان و مكان.

۲۰- (و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم)

الواو استئنافية، و «يقول» فعل مضارع، و «الّذين» موصولة في موضع رفع، فاعل «يقول» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «آمنوا» صلة الموصول لا محلّ لها، و «لولا» حرف تحضيض بمعنى هلّا و «نزّلت» فعل ماضٍ، من باب التفعيل، مبنيّ للمفعول، و «سورة» نائب مناب الفاعل، و الجملة في موضع نصب، مقول القول.

الفاء عاطفة، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن لمعنى الشّرط، و «أُنْزِلَتْ» فعل ماضٍ، من باب الإفعال، مبنيّ للمفعول في موضع جرّ لإضافة «إذا» إليه، و «سورة» نائب مناب الفاعل، و «محكمة» نعت لـ«سورة» أى مبيّنة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلّا وجوب

القتال، و الواو عاطفة، و «ذكر» مبنيّ للمفعول، و «فيها» متعلّق بـ«ذكر» و «القتال» ناب مناب الفاعل، و الجملة في موضع جرّ، معطوفة على جملة «أُنزِلَتْ».

قوله تعالى: «رأيت...» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر المخاطب، جواب شرط غير جازم لا محلّ لها، و «الّذين» موصولة في موضع نصب، مفعول به، و «في قلوبهم» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «مرض» مبتداء مؤخّر، و الجملة الإسميّة صلة الموصول لا محلّ لها، و «ينظرون» في موضع نصب، حال من الموصول إن كانت الرّؤية بصريّة، و مفعول به ثانٍ إن كانت الرّؤية قلبيّة، و «إليك» متعلّق بـ«ينظرون» و «نظر» مفعول مطلق، مؤكّد، منصوب، أُضيف إلى «المغشيّ» إسم مفعول كالمرميّ.

و قيل: تقديره: ينظرون نظر مثل نظر المغشيّ، و «عليه» متعلّق بمحذوف، في موضع نائب الفاعل لـ«المغشيّ» و «من الموت» متعلّق بـ«المغشيّ».

و **قوله جلّ وعلا:** «فأولى لهم» الفاء استئنافية، و في «أولى» وجوه: **أحدها**- مبتداء، و «لهم» متعلّق بمحذوف، خبره. و أنّ «أولى» عَلَمٌ للوعيد. و المعنى: فالهلاك و الموت لهم.

ثانيها- خبر لمحذوف أى العقاب أو الهلاك أو الموت أولى لهم أى أقرب و أدنى، و «لهم» متعلّق بـ«أولى» و اللّام بمعنى الباء أى أحقّ بهم. **ثالثها**- مبتداء، و «لهم» متعلق بـ «أولى» و اللّام بمعنى الباء، و «طاعة» خبره، فالتّقدير: فأولى بهم طاعة دون غيرها. و الجملة مستأنفة لامحلّ لها. و لـ«أولى لهم» وجوه أُخر لا فائدة لذكرها.

٢١- (طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا اللّه لكان خيراً لهم)

في «طاعة» وجوه: **أحدها**- خبر لـ«اولى» فالكلام متّصل بما تقدّم. **ثانيها**- كلام مستقلّ بأنّ «طاعة» خبر لمحذوف، تقديره: الأمر أو أمرنا أو قولنا أو الأمر المرضيّ عند اللّه تعالى طاعة. **ثالثها**- خبره محذوف، تقديره: طاعة و قول معروف أمثل و أحسن من غيره. **رابعها**- تقديره: منّا طاعة. **خامسها**- نعت لـ«سورة» في الكلام تقديم و تأخير، تقديره: فإذا أُنزلت سورة محكمة ذات طاعة و قول معروف و ذكر فيها القتال

رأيت. **سادسها** - أى طاعة و قول معروف خير لهم. و في الكلام وجوه أُخر لافائدة لذكرها.

و «قول» عطف على «طاعة» و «معروف» نعت لـ«طاعة»

قوله تعالى: «فإذا عزم الأمر» في الفاء وجهان: **أحدهما** - عاطفة. **ثانيهما** - استئنافية، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن معنى الشّرط، متعلّق بـ«صدقوا» نحو: «إذا جائني بطعام فلو جئتني أطعمتك» و لا يضرّ اقترانه بالفاء، و لا تمنع من عمل ما بعدها فيما قبلها في مثله. فالمعنى: لو صدقوا إذا عزم الأمر. و تقديره: إذا عزم أصحاب الأمر أو تحقّق الأمر. و يجوز أن يكون العامل في «إذا» محذوفاً. تقديره: فإذا عزم الأمر فاصدق أو فإذا عزم الأمر كرهوا. و «عزم» فعل ماضٍ، و «الأمر» فاعله، و الجملة في موضع جرّ لإضافة «إذا» إليها.

و **قوله سبحانه**: «فلو صدقوا اللّٰه...» الفاء رابطة لجواب محذوف «إذا» فالفاء للتّفريع و التعقيب على كلام محذوف، تقديره: فإذا عزم الأمر إنكشف أحوالهم و أقوالهم و ظهر الصّادق و الكاذب، فلو صدق هؤلآء المتخلّفون أو الّذين تحدّثهم أنفسهم بالتّخلّف - لو صدقوا اللّه و جاهدوا لكان خيراً لهم. و «لو» شرطيّة غير جازمة، و «صدقوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، و «اللّٰه» مفعول به، و الجملة جواب «إذا» لا محلّ لها. و اللّام واقعة في جواب «لو» و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و إسمها ضمير مستتر فيه، تقديره: هو أى الصّدق أو الايمان المفهومين من السّياق، و «خيراً» خبرها، و «لهم» متعلّق بـ«خيراً» و جملة «كان....» جواب شرط غير جازم لا محلّ لها.

٢٢- (فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم)

الفاء استئنافية، و «هل» حرف استفهام، و «عسيتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب للرّجآء من أفعال المقاربة، و يعمل عمل «كان» إسمه ضمير جمع الخطاب فيه، و «إن» حرف شرط جازم، و «تولّيتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب من باب التفعّل، في موضع جزم، فعل الشّرط، و جواب الشّرط محذوف دلّ عليه «عسيتم» أو هو نفس

«فهل عسيتم» عند من يجوّز تقديم الجواب على الشّرط، و خاصّة إذا كان الجـواب مصدّراً بالاستفهام.

و جملة الشّرط و الجزاء -بناءً على الوجه الأوّل- إعتراضيّة لا محلّ لها. و تقديره: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم إن تولّيتم امور النّاس و تأمرتم عليهم أو تولّيتم عن ديني و كتابي و رسولي﴿ﷺ﴾.

و **قوله تعالى**: «أن تفسدوا....» «أن» حرف ناصبة، و «تفسدوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال، منصوب بحذف نون الرّفع، صلة الموصول الحرفي «أن» لامحلّ لها، و المصدر المؤوّل فيموضع نصب، خبر «عسـيتم» و «في الأرض» مـتعلّق ب«تفسدوا» و الواو عاطفة، و «تقطّعوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مـن بـاب التّفعيل، منصوب بالعطف على «تفسدوا» و «أرحامكم» مفعولبه.

٢٣- (اولئك الّذين لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم)

«اولئك» مبتداء، و «الّذين» موصولة في موضع رفع، خبره و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «لعن» فعل ماضٍ، و «هم» في موضع نصب، مفعولبه، و «اللّٰه» فـاعل الفـعل، والجملة صلة الموصول لا محلّ لها، و الفاء عاطفة، و «أصمّ» فعل ماضٍ من باب الإفعال، و فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «هم» في موضع نصب، مفعولبه، والجملة معطوفة على «لعنهم اللّٰه» لا محلّ لها، و الواو عاطفة و «أعمى» فعل ماضٍ من بـاب الإفعال، و «أبصارهم» جمع البصر، مفعولبه، و الجملة معطوفة على «أصمّهم».

٢٤- (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

الهمزة للاستفهام التّوبيخيّ، و في الفاء وجهان: **أحـدهما**- اسـتئنافية. **ثـانيهما**- عاطفة على مقدّر يقتضيه السّياق، و «لا» نافية، و «يتدبّرون» فعل مـضارع لجـمع المذكّر الغآئب من باب التفعّل، و الجملة مستأنفة بنآء على الوجه الأوّل ، و مـعطوفة -بناء على الوجه الثّانى- على استئناف مقدّر أى: أغفلوا عن القرآن فلا يتدبّرونه. فلا

محلّ للجملة على كلا الوجهين. و «القرآن» مفعول‌به، و «أم» منقطعة بمعنى «بل» و الهمزة للتّسجيل عليهم بأنّ قلوبهم مقفلة لا يتوصّل إليها ذكر.

و «على قلوب» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «أقفالها» مبتداء مؤخّر، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها.

۲۵- (إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن له الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم)

«إنّ» حرف توكيد مشبّهة بالفعل، و «الّذين» موصولة في موضع نصب، إسمها، و «ارتدّوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفتعال، صلة الموصول لا محلّ لها، و في «على أدبارهم» وجهان: **أحدهما**- متعلّق بـ«ارتدّوا» **ثانيهما**- متعلّق بمحذوف، حال من الموصول أى مدبرين. و «من بعد» متعلّق بـ«ارتدّوا» و «ما» حرف مصدريّ، و «تبيّن» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب التّفعيل، و «لهم» متعلّق بـ«تبيّن» و «الهدى» فاعل «تبيّن» و جملة «تبيّن لهم الهدى» صلة الموصول الحرفي: «ما» لا محلّ لها، و المصدر المؤوّل: «ما تبيّن...» في موضع جرّ لإضافة «بعد» إليه.

قوله تعالى: «الشّيطان سوّل لهم» «الشّيطان» مبتداء، و «سوّل» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب التّفعيل فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الشّيطان» في موضع رفع، خبر المبتداء، و «لهم» متعلق بـ«سوّل» و في خبر «إنّ» وجهان: **أحدهما**- الجملة الإسميّة: «الشّيطان سوّل لهم» في موضع رفع، خبر «إنّ» **ثانيهما**- خبرها مقدّر، و تقديره «معذّبون» و الجملة المؤكّدة: «إنّ الّذين....» مستأنفة لا محلّ لها.

الواو عاطفة و في «أملى» وجوه: **أحدها**- فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب الإفعال، في موضع رفع، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الشيطان» معطوف على «سوّل» و «لهم» متعلّق بـ«أملى». **ثانيها**- فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى اللّه تعالى، فالجملة: «أملى لهم» مستأنفة لامحلّ لها. **ثالثها**- الواو حالية و تقديره: «و هو أملى لهم» و الجملة في موضع نصب، حال من «اللّه» **رابعها**- حال من الشّيطان. **خامسها**- قرأ

«أُمْلي» للتكلّم وحده من المضارع و تقديره: و أنا أُملي لهم. و الجملة حالية من اللّه تعالى. **سادسها** – قرأ «أُمْلِيَ» فعل ماضٍ مبنيّاً للمفعول، و «لهم» ناب مناب الفاعل.

٢٦– (ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّه يعلم إسرارهم)

«ذلك» مبتداء و المصدر المؤوّل: «أنّهم قالوا...» في موضع جرّ بالباء متعلّق بمحذوف، خبر «ذلك» و الجملة: «ذلك...» تعليليّة لا محلّ لها، و «قالوا» في موضع رفع، خبر «أنّ» و «للذين» موصولة، متعلّق بـ«قالوا» و «كرهوا» صلة الموصول لامحلّ لها، و «ما» موصولة في موضع نصب، مفعول‌به، و العائد محذوف، و «نزّل اللّه» صلة الموصول لا محلّ لها.

السّين للاستقبال، و «نطيع» فعل مضارع للتكلّم مع الغير، و «كم» في موضع نصب، مفعول‌به، و الجملة في موضع نصب، مقول القول، و «في بعض الأمر» متعلّق بـ«نطيع» والواو حاليّة و «اللّه» مبتداء و «يعلم» في موضع رفع، خبره، و الجملة في موضع نصب، حال، و «إسرارهم» مفعول‌به.

٢٧– (فكيف إذا توفّتهم الملآئكة يضربون وجوههم و أدبارهم)

في الفآء وجهان: **أحدهما** – استئنافية. **ثانيهما** – عاطفة. و في موضع «كيف» وجهان: **أحدهما** –إسم استفهام في موضع رفع، خبر لمبتداء محذوف. تقديره: كيف حالهم أو كيف حيلتهم. و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. **ثانيهما** – في موضع نصب، حال، عاملها فعل مقدّر أى كيف يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل، فكيف يفعلون إذا توفّتهم الملائكة....

و في «إذا» وجهان: **أحدهما** – ظرف مستقبل، شرط غير جازم، في موضع نصب، متعلّق بالمبتداء المقدّر. **ثانيهما** – متعلّق بالفعل المقدّر. و «توفّت» فعل ماض للمفرد المؤنّث في موضع جرّ، مضاف إليه، و «هم» في موضع نصب، مفعول‌به، و «الملائكة»

فاعل «توفّت» و «يضربون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، في موضع نصب، حال من الملائكة و هو الصّواب. و قيل: حال من ضمير المفعول في «توفّتهم» و هذا غير وجيه، و «وجوههم» مفعول‌به، و «أدبارهم» معطوف على «وجوههم».

٢٨- (ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

«ذلك» مبتداء، و المصدر المؤوّل: «أنّهم اتّبعوا...» في موضع جرّ بالباء متعلّق بمحذوف، خبر «ذلك» و جملة «ذلك...» تعليليّة لا محلّ لها، و «اتّبعوا» فعل ماضٍ للجمع المذكّر الغائب من باب الافتعال، في موضع رفع، خبر «أنّ» و «ما» إسم موصول، في موضع نصب، مفعول‌به، و «أسخط» فعل ماضٍ من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «ما» و هو عائد الصّلة، و «اللّٰه» مفعول‌به، و الجملة صلة الموصول لامحلّ لها.

الواو عاطفة، و «كرهوا» في موضع رفع، عطف على «اتّبعوا» و «رضوانه» مفعول‌به، و الفاء عاطفة، و «أحبط» فعل ماضٍ من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى «اللّٰه» و الجملة في موضع رفع، معطوفة على «كرهوا» و «أعمالهم» مفعول‌به.

٢٩- (أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّٰه أضغانهم)

«أم» حرف إضراب و عطف، منقطعة بمعنى «بل» و الهمزة للتسجيل عليهم بأنّ في قلوبهم مرضاً، و «حسب» فعل ماض، و «الّذين» موصولة في موضع رفع، فاعل «حسب» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «في قلوبهم» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «مرض» مبتداء مؤخرّ، و الجملة الإسميّة صلة الموصول لا محلّ لها.

و «أن» مخفّفة من الثّقيلة، و إسمها ضمير الشّأن محذوف، و «لن» حرف نفي و نصب و استقبال، و «يخرج» فعل مضارع من باب الإفعال، منصوب بـ«لن» و «اللّٰه» فاعله و الجملة في موضع رفع، خبر «أن» و المصدر المؤوّل: «أن لن يخرج اللّٰه» في موضع نصب، سدّ مسدّ مفعولى «حسب» و «أضغانهم» مفعول‌به.

٣٠-(و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول و اللّه يعلم أعمالكم)

في الواو وجوه: **أحدها**- عاطفة. **ثانيها**- استئنافية، **ثالثها**- حاليّة و «لو» حرف شرط، غير جازم، و «نشآء» فعل مضارع للتكلّم مع الغير، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها أو في موضع نصب، حال من «اللّه» في «يخرج اللّه» أو معطوفة على جملة «لن يخرج اللّه»، و اللام واقعة في جواب «لو» و «أرينا» فعل ماضٍ للتكلّم مع الغير، جواب شرط غير جازم لا محلّ لها، و الكاف في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «هم» في موضع نصب، مفعول ثان، و الفاء عاطفة، و اللّام للتأكيد و المبالغة، و «عرفت» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر المخاطب، و الجملة معطوفة على جملة مقدّرة لا محلّ لها، و «هم» في موضع نصب، مفعول به، و «بسيماهم» متعلّق بـ«عرفتهم».

قوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول...» في الواو وجهان: **أحدهما**- عاطفة. **ثانيهما**- الواو لقسم محذوف، و ما بعدها جواب. و اللّام لام القسم لقسم مقدّر، و «تعرفنّ» فعل مضارع للمفرد المذكّر المخاطب، مؤكّد بنون الثّقيلة، مبنيّ على الفتح في موضع رفع، و جملة «تعرفنّ» جواب القسم المقدّر لا محلّ لها، و جملة القسم المقدّرة معطوفة على الجملة المستأنفة لامحلّ لها.

و في «في لحن القول» وجهان: **أحدهما**- متعلّق بـ«تعرفنّ» **ثانيهما**- متعلّق بمحذوف، حال أي حالكونهم لا حنين. و الواو استئنافية، و «اللّه» مبتداء و «يعلم» في موضع رفع، خبره، و الجملة مستانفة لامحلّ لها، و «أعمالكم» مفعول به.

٣١-(و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم)

الواو عاطفة، و اللام واقعة في جواب قسم محذوف مع نون الثّقيلة، و «نبلونّ» فعل مضارع للتكلّم مع الغير، مؤكّداً بنون الثّقيلة، و «كم» في موضع نصب، مفعول به، و الجملة جواب القسم المقدّر لا محلّ لها، و جملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة القسم المقدرة الاولى لامحلّ لها، و «حتّى» حرف غاية و جرّ أو تعليل و جرّ، و «نعلم» فعل

مضارع للتكلّم مع الغير لا محلّ لها، منصوب بـ«أن» مقدّرة بعد «حتّى» و المصدر المؤوّل: «أن نعلم» في موضع جرّ بـ«حتّى» متعلّق بـ«نبلونّكم».

و «المجاهدين» مفعول‌به، و «منكم» متعلّق بمحذوف، حـال للـمجاهدين، و الواو عاطفة و «الصّابرين» عطف على «المجاهدين» و «نبلوا» فعل مضارع للتكلّم مع الغير، منصوب بـ«أن» مقدّرة، معطوف على «نعلم» و «أخباركم» مفعول‌به.

٣٢- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم)

«إنّ» حرف توكيد، و «الّذين» موصولة في موضع نصب، و «كفروا» صلة الموصول لا محلّ لها، و جملة «صدّوا» معطوفة على «كفروا» لا محلّ لها، و المفعول به محذوف أى و صدّوا النّاس، و «عن سبيل اللّٰه» متعلّق بـ«صدّوا» و «شاقّوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب المفاعلة، و الجملة معطوفة على «كفروا» و «الرّسول» مفعول‌به، و «من بعد» متعلّق بـ«شاقّوا» و «ما» حرف مصدريّ، و «تبيّن» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر من باب التفعّل و «الهدى» فاعل «تبيّن» و الجملة صلة الموصول الحرفي: «ما» لا محلّ لها، و المصدر المؤوّل: «ما تبيّن....» في موضع جرّ مضاف إليه، و «لهم» متعلّق بـ«تبيّن».

قوله تعالى: «لن يضرّوا اللّٰه...» «لن» حرف نفى و نصب و استقبال، و «يضرّوا» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، منصوب بـ«لن» بحذف نون الرّفع، و الجملة في موضع رفع، خبر «إنّ» و الجملة المؤكّدة: «إنّ الّذين كفروا...» مستأنفة لا محلّ لها، و «اللّـه» مفعول‌به و «شيئاً» مفعول مطلق، نائب عن المصدر أى ضراراً، و الواو عاطفة، والسّين للاستقبال، و «يحبط» فعل مضارع من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «أعمالهم» مفعول‌به، و الجملة في موضع رفع، معطوفة على خبر «إنّ».

٣٣- (يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم)

«يا» حرف نداء، و «أيّها» منادى نكرة مقصودة، مبنيّ على الضّمّ في موضع نصب،

بفعل النّداء و جملة النّداء مستأنفة لامحلّ لها، و «الّذين» موصولة في موضع نصب، بدل من «أيّ» أو عطف بيان عليه، و «آمنوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال، صلة الموصول لا محلّ لها، و «أطيعوا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال، و «اللّٰه» مفعول‌به، و الجملة جواب النّدآء لا محلّ لها.

الواو عاطفة، و جملة «أطيعوا الرّسول» معطوفة على جملة «أطيعوا اللّٰه» و الواو عاطفة، و «لا» ناهية جازمة، و «تبطلوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مجزوم بحذف نون الرّفع، و «أعمالكم» مفعول‌به، و جملة «لا تبطلوا» معطوفة على جملة جواب النّداء لا محلّ لها.

٣٤- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّٰه لهم)

«إنّ» حرف توكيد، مشبّهة بالفعل، و «الّذين» موصولة في موضع نصب، إسم «إنّ» و «كفروا» صلة الموصول لا محلّ لها، و الواو عاطفة، و جملة «صدّوا» معطوفة على «كفروا» لا محلّ لها، و المفعول به محذوف أى و صدّوا النّاس، و «عن سبيل اللّٰه» متعلّق بـ «صدّوا» و «ثمّ» حرف عطف، و «ماتوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، معطوف على «كفروا».

و الواو حالية، و «هم» مبتداء، و «كفّار» خبره، و الجملة في موضع نصب، حال من «الّذين كفروا» و الفاء زائدة لمشابهة الموصول: «الّذين» بالشّرط في الإبهام، و «لن» حرف نفى و ناصب و استقبال، و «يغفر» منصوب بـ«لن» و «اللّٰه» فاعل «يغفر» و «لهم» متعلّق بـ«يغفر» و الجملة: «لن يغفر اللّٰه لهم» في موضع رفع، خبر «إنّ».

٣٥- (فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم)

الفاء فاء فصيحة و رابطة لجواب الشّرط المقدّر، و «لا» ناهية جازمة، «تهنوا»

معتلّ مثال واويّ -من باب وعد- قد حذفت الفاء منه، و هي الواو، و أصله: تَوْهِنُوا، ثمّ حذفت الواو لوقوعها بين ياء و كسرة، و أُتْبِعَ سآئر أمثلة الفعل المستقبل الحذف، و إن لم يكن فيه ياء على الاتباع لئلّا يختلف الفعل، و «تهنوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مجزوم بحذف نون الرّفع، و الجملة جواب الشّرط المقدّر لا محلّ لها، تقديره: إذا لقيتم الكفّار أو إذا علمتم وجوب القتال مع الكافرين فلا تهنوا.

قوله تعالى: «و تدعوا إلى السّلم» الواو عاطفة، و في «تدعوا» وجهان: **أحدهما**- مجزوم بحرف النّهي: «لا» داخل في حيّز النّهي، فعطوف على «تهنوا» أى و لا تدعوا الكفّار إلى الصّلح خوراً و ظهاراً للعجز. فلا محلّ لها. **ثانيهما**- منصوب بإضمار «أن» بعد الواو في جواب النّهي، فالجملة في موضع نصب على الظّرف و «إلى السّلم» متعلّق بـ «تدعوا».

و قوله جلّوعلا: «و أنتم الأعلون» في الواو وجهان: **أحدهما**- حاليّة، و «أنتم» مبتداء، و «الأعلون» خبره، و الجملة في موضع نصب، حال من فاعل «تدعوا». **ثانيهما**- استئنافية بأنّ الكلام إبتداء إخبار من اللّه تعالى عن حال المؤمنين: أنّهم الأعلون يداً و منزلةً آخر الأمر و إن غلبوا في بعض الأحوال ظاهراً إذ للحقّ دولة و للباطل جولة. و الجملة مستأنفة لا محلّ لها.

و قوله عزّوجلّ: «و اللّه معكم» في الواو وجهان: **أحدهما**- حاليّة كالسّابقة. **ثانيهما**- استئنافية، و «اللّه» مبتداء و «معكم» ظرف، منصوب، متعلّق بمحذوف، خبر «اللّه» و الجملة بناء على هذا الوجه مستأنفة لا محلّ لها.

و قوله سبحانه: «و لن يتركم أعمالكم» في الواو وجهان: **أحدهما**- حاليّة. **ثانيهما**- عاطفة، و «لن» حرف نفي و نصب و استقبال، و «يتر» فعل مضارع للمفرد المذكّر ثلاثياً، معتلّ مثال واويّ -من باب وعد- فيه إعلال بالحذف، أصله: يَوْتِرُ، فحذفت فاؤه في المضارع، منصوب بـ «لن» و «كم» مفعول به، و جملة «لن يتركم» معطوفة على جملة «اللّه معكم» لا محلّ لها على الوجه الثّانى. و في «أعمالكم» وجوه: **أحدها**- مفعول ثان لـ «يَتِرَ» **ثانيها**- بدل من ضمير الخطاب: «كم» **ثالثها**- منصوب بنزع الخافض.

٣٦- (إنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و إن تؤمنوا و تتّقوا يـؤتكم أُجـوركم و لايسئلكم أموالكم)

«إنّما» كافّة و مكفوفة، فإنّها مركّب من حرف توكيد مشبّه بالفعل، فمكفوفة بـ«ما» كافّة، فلا تعمل عمل الفعل، و لكن تفيد الحصر و الاختصاص، و «الحياة» مبتداء، و «الدّنيا» نعت لـ«الحياة» و «لعب» خبر المبتداء، و «لهو» عطف على «لعب» و يجوز أن يكون على تقدير: إنّما مثل الحياة الدّنيا كمثل لعب و لهو. و الجملة عـلى أيّ تـقدير، مستأنفة لا محلّ لها.

الواو عاطفة، و «إن» حرف شرط جازم، و «تؤمنوا» فعل مضارع لجـمع المـذكّر المخاطب، مجزوم بحذف نون الرّفع، و الجملة معطوفة على الجملة المستأنفة لا محلّ لها، و جملة «تتّقوا» معطوفة على جملة «تؤمنوا» لا محلّ لها.

قوله تعالى: «يؤتكم...» «يؤت» فعل مضارع من باب الإفـعال، فـاعله ضـمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» جواب الشّرط، غير مقترنة بالفاء، مجزوم بحذف لام الفعل، لا محلّ لها، و «كم» في موضع نصب، مفعول‌به أوّل، و «أُجوركم» مفعول ثان، و الواو عاطفة، و «لا» نافية، و «يسئل» فعل مضارع، مجزوم بحذف علامة الرّفع، بسبب العطف على جزاء الشّرط المجزوم، فداخل في حيّز الجزآء، و «كم» في موضع نصب، مفعول‌به أوّل، و «أموالكم» مفعول ثان.

٣٧- (إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم)

«إن» حرف شرط جازم، و «يسئل» فعل مضارع، مجزوم بحرف الشّرط ، و فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و «كم» في موضع نصب، مفعول‌به أوّل، و لمّا اشبعت حركة الميم زيدت الواو عند اتّصالها بما بعدها، و «ها» تعود إلى «أموالكم» في موضع نصب، مفعول ثان، و قدّم ضمير الخطاب: «كم» عـلى الغـائب: «هـا» لأنّ الابـتداء بالأقرب مع كونه مفعول أوّل، أولى أن تقول: إن يسئلها جماعتكم. لأنّـه غـائب مـع الغائب، فالمتّصل أولى بأن يلي الفعل من المنفصل. و جملة «يسئلكموها» مستأنفة بيانيّة أو تعليليّة لا محلّ لها.

قوله تعالى: «فيحفكم تبخلوا» الفاء عاطفة، و «يُحْفِ» فعل مضارع من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى «اللّٰه»، و الفعل مجزوم بحذف و هي لام‌الفعل، داخل في حيّز الشّرط، و الجملة معطوفة على فعل الشّرط لا محلّ لها، و «كم» في موضع نصب، مفعول‌به. و «تبخلوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، جزاء الشّرط، مجزوم بحذف نون الرّفع، غير مقترنة بالفاء لا محلّ لها.

و **قوله سبحانه:** «و يخرج أضغانكم» الواو عاطفة، و «يخرج» فعل مضارع للمفرد المذكّر من باب الإفعال، مجزوم بالعطف على جزاء الشّرط: «تبخلوا» و قيل: بالعطف على فعل الشّرط، فلا محلّ لها. و في فاعل «يخرج» وجوه: **أحدها**- ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» على طريق التّسبّب أى يُخرج اللّٰه سبحانه بسبب بخلكم أحقادكم. **ثانيها**- راجع إلى السّؤال المفهوم من «يسئلكموها» فأنّه سبب إخراج الأضغان. فالإسناد على ذلك مجازيّ. **ثالثها**- راجع إلى الإحفاء المفهوم من قوله: «فيحفكم». **رابعها**- راجع إلى البخل المفهوم من قوله: «تبخلوا» و «أضغانكم» مفعول‌به.

٣٨- (هآ أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه فمنكم من يبخل و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقرآء و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم)

«ها» حرف تنبيه، و في «أنتم هؤلآء تدعون» وجوه: **أحدها**- «أنتم» مبتداء و «هؤلآء» خبره و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. و «تدعون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مبنيّ للمفعول، جملة مستأنفة أيضاً لامحلّ لها. **ثانيها**- «أنتم» منادى، حذف منه أداة النّداء، و جملة «تدعون» في موضع رفع، خبره. **ثالثها**- «أنتم» مبتداء و «تدعون» خبره، و الجملة المستأنفة لا محلّ لها، و «هولآء» منادى معترض بين المبتداء و الخبر. **رابعها**- «أنتم» مبتداء و «هؤلآء» أصله: أُولآء إسم موصول بمعنى «الّذين» خبره، و كرّرت «ها» التّنبيه للتأكيد، و «تدعون» صلة الموصول لا محلّ لها.

و **قوله تعالى:** «لتنفقوا في سبيل اللّٰه...» اللام للتّعليل، و «تنفقوا» فعل مضارع

لجمع المذكّر المخاطب من باب الإفعال، منصوب بـ«أن» مقدّرة بعد اللّام، فـ«تنفقوا» صلة الموصول الحرفي: «أن» المضمر لامحلّ لها، و المصدر المؤوّل في موضع جرّ، متعلّق بـ «تدعون» و «في سبيل اللّٰه» متعلّق بـ«تنفقوا».

و **قوله عزّوجلّ**: «فمنكم من يبخل....» الفاء عاطفة تفريعيّة، و «منكم» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «مَن» إسم موصول في موضع رفع، مبتداء مؤخّر، و جملة «منكم مَنْ» معطوفة على جملة «تدعون» لا محلّ لها، و «يبخل» صلة الموصول لا محلّ لها، و لابّد من تقدير جملة ليتم التفريع أى: و منكم مَن يجود. و قد حذف هذا المقابل لأنّ المقام مقام استدلال على البخل.

و **قوله جلّوعلا**: «و من يبخل عن نفسه» في الواو وجهان: **أحدهما**– استئنافية. **ثانيهما**– عاطفة، و «مَنْ» إسم شرط جازم في موضع رفع، مبتداء، و «يبخل» مجزوم بشرط جازم، في موضع رفع، خبر «مَن» و الجملة بناء على الوجه الأوّل مستأنفة لامحلّ لها. و يجوز أن يكون الخبر جملتي الشّرط و الجزاء معاً. و «إنّما» كافّة مكفوفة كالسّابقة أداة حصر، و «يبخل» في موضع جزم، جواب الشّرط مقترنة بالفاء الرّابطة لجواب الشّرط، و «عن نفسه» متعلّق بـ«يبخل» لأنّه يتعدّى بـ«على» و بـ«عن» لتضمّنه معنى الإمساك و التعدّى يقال: بخلت عليه و عنه و كذلك ضننت عليه و عنه.

و **قوله سبحانه**: «و اللّٰه الغنى» في الواو وجهان: **أحدهما**– استئنافية اعتراضية، و «اللّٰه» مبتداء، و «الغنّي» خبره و الجملة مستأنفة اعتراضيّة لا محلّ لها. **ثانيهما**– حاليّة، و الجملة في موضع نصب، حال من «اللّٰه» في «سبيل اللّٰه».

و **قوله تعالى**: «و أنتم الفقراء» في الواو وجهان: **أحدهما**– حاليّة، و «أنتم» مبتداء و «الفقراء» خبره و الجملة في موضع نصب، حال. **ثانيهما**– عاطفة، و الجملة معطوفة على الجملة الاعتراضيّة لا محلّ لها.

و **قوله عزّوجلّ**: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم...» الواو عاطفة، و «إن» حرف شرط جازم، و «تتولّوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب التفعّل، مجزوم بحذف نون الرّفع، و الجملة معطوفة على جملة الشّرط: «إن تؤمنوا...» و يجوز أن تكون

معطوفة على جملة الشّرط: «مَن يبخل...».

و «يستبدل» فعل مضارع للمفرد المذكّر من باب الاستفعال، مجزوم بحرف الشّرط، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «اللّٰه» و الجملة جزاء الشّرط غير مقترنة بـالفاء، لامحلّ لها، و «قوماً» مفعول‌به، و «غيركم» نعت لـ«قوماً».

و «ثمّ» حرف عطف، و «لا» نافية، و «يكونوا» فعل مضارع، ناقص، مجزوم بالعطف على «يستبدل» بحذف نون الرّفع، لا محلّ لها، و «أمثالكم» خبر «يكونوا».

﴿البيان﴾

١- (الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم)

و عيد شديد و تنديد بالكافرين وكفرهم و صدّهم أوّلاً أنفسهم عن الخير و الهدى و الايمان و النّجاة، و صدّهم ثانياً الّذين يتّبعون أهوآءهم عن الرّشاد و الصّواب و الكمال و السّعادة، و تعليق إيطال أعمالهم و إفسادها على كفرهم و صدّهم عن سبيل اللّه جلّ وعلا. فكأنّه قال: إنّ اللّه تعالى قد أضلّ أعمال الكفّار و أبطلها بسبب كفرهم و صدّهم أنفسهم فقط أو أنفسهم و أتباعهم معاً عن سبيل اللّه تعالى.

و فيه إخبار و ايذان بأنّ اللّه عزّوجلّ يبطل أعمال الكافرين و يحبطها في كلّ ظرف من الظّروف فإنّها ما كانت على هدى و لارشاد، كالصّلاة من دون طهارة، حيث إنّ قبول الأعمال الصّالحة مشروط بالايمان و الهدى و ليسا للكافرين.

فالمراد باضلال أعمال الكافرين: إيطالها، و إفسادها، و إحباطها و إضاعتها و إهلاكها من دون الوصول إلى غاياتها من السّعادة و الكمال في الحياة الدّنيا، و من الجنّة و نعيمها في الدّار الآخرة، من قولهم: «ضل الماء فى اللبن» إذا صار مستهلكاً فيه كقوله تعالى حكاية عن الكافرين: «أ إذا ضللنا في الأرض إنا لفى خلق جديد» السّجدة: ١٠)

وعدّ ذلك إضلالاً من الإستعارة بالكناية، إذ شبّه أعمالهم بالضّالّة من الابل الّتى هي بمضيعة لاربّ لها يحفظها، و يعتنى بها، أو بالمآءِ الّذي يضلّ في اللبن و يستهلك فيه.

و المعني: أنّ الكفّار ضلّت أعمالهم الصّالحة كصلة الأرحام و إطعام الطعام و الإحسان بالفقراء و الصّنائع و المخترعات و ما إليها... كلّها ضلّت في جملة أعمالهم السّيّئة من الكفر و المعاصي... و حتّى صار صالح أعمالهم ضايعاً، فاسداً، باطلاً و مستهلكاً في غمار سيّئ أعمالهم...

و مقابل ذلك في المؤمنين ستر اللّه لأعمالهم السّيّئة في كنف أعمالهم الصّالحة من الايمان و الطّاعة حتّى صار سيّئهم مكفّراً ممحقاً في جنب صالح أعمالهم.... و إلى هذا التّمثيل الجميل في عدم تقبّل صالح الكفّار، و التّجاوز عن سيّئ أعمال المؤمنين وقعت الإشارة في قوله عزّوجلّ: «كذلك يضرب اللّه للنّاس أمثالهم» :٣)

و ذلك أنّ ضرب المثَل هو استعمال القول السّآئر المشبّه مضربه مورده بمورده.

و لا يخفى على أهل الأدب و البيان: أنّ هذه السّورة المباركة قد بدئت بهذه المواجهة الّتي تَلْقَى الكافرين الضّالّين المضلّين و أتباعهم في كلّ ظرف من الظّروف بهذا الخبر المشئوم الّذي يسدّ عليهم منافذ الخير و النّجاة ما داموا على كفرهم و ضلالهم و صدّهم عن سبيل اللّه جلّ وعلا، و اتّباع أتباعهم و يدعهم في متاهات الضّلال يتخبّطون، و قد تقطّعت بهم الأسباب، و أفلت من أيديهم كلّ متعلّق كانوا يتعلّقون به من أوهام و ظنون...

و يبد و هذا اللقآء بهم و أتباعهم كلّ حين، و كأنّه أوّل وجه يلقى كلّهم على طريق ضلالهم، ثمّ لا يكون منه إليهم إلّا أن يُلقىٰ إليهم بهذا الخبر المزعج، و أنّهم في وجه عاصفة و شيكٍ التقآؤهم بها، و هلاكهم بين يديها... ذلك على أنّ الكافرين الضّالّين و المضلّين و أتباعهم قد كان لهم قبل هذا أكثر من لقآء مع آيات اللّه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ يدعوهم إلى اللّه تعالى، و يكشف لهم طريق الحق و الهدى، و الخير و النّجاة... و يحذّرهم وخامة عاقبة ما هم فيه من كفر و ضلال، و صدّو اتّباع.

قال اللّه تعالى: «قل هذه سبيلى أدعوا إلى اللّه على بصيرة أنا و من اتّبعني» يوسف: ١٠٨).

و قال: «قل إنّما اُمِرْتُ أن اَعبد اللّٰه و لا اشرك به إليه أدعوا و إليه مٰاب» الرّعد: ٣٦).

و لكن هكذا يجيء بهم اللقاء هنا، و كأنّه يضرب صفحاً عن كلّ هذه المواقف الّتي كانت لآيات اللّٰه عزّوجلّ و لرسوله(ﷺ) معهم إذا لم يكن لهذا كلّه أثر فيهم و لا نفع لهم... و إذن فليستقبلوا ما كانوا يستحقّون أن يستقبلوا به من أوّل الأمر... فهذا هو حسابهم و جزآؤهم... أمّا ما قُدِّم إليهم من قبل وسآئل الهداية و السّعادة، و الصّلاح و الرّشاد، و طريق النّجاة فهو ممّا يقيم عليهم الحجّة، و يقطع لهم كلّ عذر عند أنفسهم...

كما أنّه ممّا يملأ قلوبهم حسرةً و كمداً، حين ينكشف لهم الأمر، و يحلّ بهم البلاء، و يرون أنّ و سآئل الهداية و السّعادة و النّجاة من هذه الضّلالة و الشّقاوة و الهلاكة قد كانت تحت سمعهم، و بين أيديهم و أبصارهم، فلم يستمعوا لها، و لم يمدّوا أيديهم لها، و لم يلتفتوا إليها... فوقعوا في الكفر و الضّلالة و الصّدو الهلاكة... و إنّه ليس أشدّ ايلاماً للإنسان أن تكون في يده السّلامة، ثمّ يُلقي بنفسه إلى التهلكة!!.

ثمّ إنّه ممّا يزيد في حسرة الكافرين الضّالّين الّذين صدّوا أنفسهم عن معرفة اللّٰه جلّ‌وعلا و الايمان به، و عن الطّاعة للّٰه تعالى، أنّهم لم يهلكوا أنفسهم و حسب، بل إنّهم صدّوا أهليهم و إخوانهم و كثيراً من النّاس عن المعرفة و الايمان و الطاعة، إذ كانوا هم دعوة من دعوات الكفر و الضّلال لهم و بمحادتهم للّٰه تعالى و مشاقتهم لرسوله(ﷺ) بعد ما تبيّن لهم الهدى، فقطّعوا أرحامهم و أفسدوا في الأرض فساداً فتعساً لهم و هذا ما يشير إليه قوله جلّ‌وعلا: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم -ذلك بأنّهم اتبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم- و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى - فلن يغفر اللّٰه لهم»: ٢٢-٣٤)

و **قوله تعالى**: «أضلّ أعمالهم» تقرير لآثار سوء كفر الكافرين و صدّهم أنفسهم و غيرهم عن الايمان باللّٰه جلّ‌وعلا و الطّاعة للّٰه تعالى و لرسوله(ﷺ) و بيان حكم عليهم بفساد أعمالهم كلّها، و ردّ اللّٰه جلّ‌وعلا لها و عدم قبولها منهم، حتّى و لو كانت ممّا

يُحْسَبُ في الأعمال الصّالحة... إذ كلّ عمل لا يُزكّيه الايمان باللّٰه تعالى هو عمل فاسد، ضائع، ضالّ، هباء منثور لا يعرف له طريقاً إلى مواقع الرّضا والقبول من اللّٰه سبحانه.

۲- (و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد هو الحقّ من ربهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم)

تقرير لوجه آخر من وجوه النّاس، و هم المؤمنون الّذين عملوا الصّالحات الّتي هى من علائم الايمان و ثمراته، فإنّ الايمان يقتضي أن يستقيم المؤمن على طريق الحقّ و الخير بامتثال أوامره و اجتناب نواهيه... و فيه تنويه بالمؤمنين الصّالحي الأعمال، الّذين آمنوا باللّٰه تعالى و برسله و كتبه عموماً و برسوله الخاتم﴿صلى الله عليه و آله﴾ و خاتم كتبه و هو القرآن الكريم خصوصاً:

قوله تعالى: «و آمنوا بما نزّل عل محمّد» تخصيص بعد تعميم، و في تخصيص الايمان بما نزّل على محمد﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالذّكر بعد التّعميم مع دخوله فيه تشريف للقرآن الكريم أوّلاً، و تنبيه على سمّو مكانه من بين سائر ما يجب الايمان به ثانياً و أنّه الأصل في الكتب السّماوية كلّها ثالثاً، و تنويه بشأن محمد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ رابعاً، و أنّ الرّسالة المحمّديّة هى الطريقه للمعرفة باللّٰه جلّ وعلا خامساً و لذلك أكّد بقوله تعالى: «و هو الحقّ من ربّهم» و ايذان على أنّ اللّٰه تعالى لا يقبل الايمان به إلّا مقروناً مع الايمان بالقرآن الكريم و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ سادساً كما لا يتحقّق الإسلام إلّا بالشّهادتين: «لا إله إلّا اللّٰه محمد رسول اللّٰه»، و دلالة واضحة على أنّ النّازل على محمد﴿صلى الله عليه و آله﴾ يحتمل القمّة العالية في الايمان سابعاً.

فالايمان بالقرآن الكريم و برسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ايمان بسواهما و زيادة و لكن الايمان بما سواهما ليس ايماناً بهما. فمن بلغته الرسالة المحمّدية﴿صلى الله عليه و آله﴾ من المؤمنين من أهل الكتاب أو الحكماء و الفلاسفة، و لم يؤمن بهذه الرسالة فهو ليس بمؤمن و لا على طريق المؤمنين.

«محمّد»﴿صلى الله عليه و آله﴾: إسم عربيّ مبين، و هو مَفْعَل من الحمد، و التكرير فيه للمبالغة و

التكثير كما تقول: كرّمته فهو مكرّم، و عظّمته فهو معظّم. و إذا فعلت ذلك مرّة بعد اخرى و هو منقول من الصّفة على سبيل التفاؤل أنّه سيكثر حمده و كان محمّد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ كذلك.

و **قوله عزّوجلّ:** «و هو الحقّ من ربّهم» لم يقتصر على هذا التّخصيص الموجب لتفضيل القرآن الكريم على الكتب السّماوية و تفضيل رسوله الخاتم﴿ﷺ﴾ على جميع الأنبيآء، والمرسلين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، بل أكّده بجملة معترضة تفيد حصر الحقّيّة فيهما معاً من دون فكاك بينهما فكأنّه هو هو على طريقة الحصر في قوله تعالى: «ذلك الكتاب» البقره: ٢) و قوله سبحانه: «و أنّ هذا صراطى مستقيماً فاتّبعوه» الأنعام: ١٥٣) و قوله عزّوجلّ: «قل هذه سبيلى أدعوا إلى اللّٰه على بصيرة أنا و من اتّبعني» يوسف: ١٠٨) و قولك: «حاتم الجواد». فيراد بالحق ضدّ الباطل.

و **في قوله سبحانه:** «و هو الحق من ربّهم» إشارة إلى أنّ المؤمنين من الامم السّابقة حقّاً هم يؤمنون بالقرآن الكريم المنزّل على محمّد﴿ﷺ﴾ فمن كفر به، يعلم أنّه ليس بمؤمن بغير القرآن من الكتب السّماوية حقاً، إذ لو كان مؤمناً حقاً لالتقى مع هذا الحقّ، فإنّ الحقّ لا يصادم للحقّ و لا تختلف طريقه معه. و يجوز أن يكون الحصر على ظاهره، و الحقّ هو الثّابت، و حقّيّة ما نزّل على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لكونه ناسخاً لا ينسخ، و هذا ممّا يقتضى الإعتناء به، و منه جآء التّأكيد، فلا يرد النّسخ على ما جآء به محمد﴿ﷺ﴾ أبداً بل دينه ناسخ الأديان كلّها فلا دين و لارسالة و لاكتاب بعده و هو الثّابت غير متغيّر. و فيه ما يستحكم به عرى الايمان و هو حبل اللّٰه المتين و العروة الوثقى لا انفصام لها، فكأنّه هو وحده هو الحق من ربهم لاسواه، و هو الايمان الحق من ربهم لاسواه، و هو النازل من ربّهم الحق و على رسوله﴿ﷺ﴾ الحق فالكافر بالقرآن، هو الكافر باللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ أيّاً كان، موحّداً أو كتابياً أو مؤمناً بمحمّد﴿ﷺ﴾ كافراً بكتابه، فمن لم يؤمن بهذا القرآن، فليس بمؤمن حقاً.

و **قوله عزّوجلّ:** «كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح با لهم» بيان لآثار الايمان بالقرآن الكريم و رسوله﴿ﷺ﴾ الحقّ إزاء قوله: «أضلّ أعمالهم» حيث إنّ الكافرين الّذين

صدّوا أنفسهم و غيرهم عن اتباع سبيل هذا القرآن الكريم و رسوله ﴿ﷺ﴾ أضلّ اللّه تعالى أعمالهم الصّالحة و أسآء أحوالهم، و إنّ المؤمنين الّذين حثّوا أنفسهم و غيرهم على اتباع هذا القرآن و رسوله، أضلّ اللّه عزّوجلّ سيّئاتهم و أصلح بالهم، فحصّل لهم ضدّ ما حصّل للكافرين من فساد أعمالهم و تباه شأنهم.

إنّ الله تعالى لم يذكر بعد إضلال أعمال الكافرين، سوء أحوالهم و تباه شأنهم و فساد بالهم لكونه ظاهراً لاخفآء إذ لا قلوب لهم بعد كفرهم، و قد ذكر إصلاح بال المؤمنين بعد ذكر تكفير سيّئاتهم لرفع الخفاء و تثبيت القلوب لهم، و أنّها تطمئنّ به، و تنبيهاً إلى أنّ الايمان بهذا القرآن الكريم يجمع قلوب المؤمنين، و يقيم مشاعرهم على أمر واحد، فلا يكون منهم التفات إلى غيره من الكتب السّماويّة، فإنّ الايمان بهذا القرآن ايمان بجميع الكتب، و تصديق برسالات السّماء كلّها...

سوآء أكان هذا الايمان بالقرآن من أهل الكتاب أم ممّن لا كتاب لهم، و بهذا الايمان يستريح و يصلح بال المؤمن و يطمئنّ قلبه، و لا تنزغ به نازغة من عداوة أو بغضة أو مجافاة لأيّ كتاب من الكتب السّماويّة إذ كانت كلّها مجملة في هذا القرآن، و مطويّة تحت جناحه لأنّه تبيان كلّ شيء.

قال اللّه عزّوجلّ: «و يوم نبعث في كلّ امّة شهيداً عليهم من أنفسهم و جئنابك شهيداً على هؤلآء و نزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» النّحل: ٨٩)

و قال: «فالّذين آمنوا به و عزّ روه و نصروه و اتّبعوا النّور الّذي انزل معه اولئك هم المفلحون قل يا أيّها النّاس إنّي رسول اللّه إليكم جميعاً - فآمنوا باللّه و رسوله النّبيّ الامّيّ الّذي يؤمن باللّه و كلماته و اتبعوه لعلّكم تهتدون» الأعراف: ١٥٧-١٥٨).

٣- (ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربهم كذلك يضرب اللّه للنّاس أمثالهم)

مستأنفة بيانيّة لتقرير ما سبق من اختلاف الفريقين: فريق الكفر و المعصية، و فريق الايمان و الطّاعة في الأعمال و الأحوال.... و تعليل لما فعل بالكافرين من إضلال

أعمالهم، و ما فعل بالمؤمنين من تكفير سيّئاتهم و إصلاح بالهم، على سبيل التقرير لمسالكهم المختلفة بأنّ الكافرين يتّبعون الباطل، والمؤمنين يتّبعون الحقّ، و كلّ ينال ما يطابق خطته و عمله، و هذا جرياً على عادة اللّٰه جلّ وعلا في ضربه الأمثال للنّاس للتذكيروا الموعظة و الإنذار و البشارة.

و في الآية الكريمة إشارة إلى قاعدة عامّة تبرهن بها، و يقاس عليها كلّ من اتبع الباطل أو الحقّ في كلّ ظرف من الظّروف، فالملاك في سعادة الإنسان هو اتّباع الحقّ، و في شقائه هواتباع الباطل، و سبب ذلك هو انتساب الحقّ إلى اللّٰه سبحانه دون الباطل، بأنّ ذلك الأمر و هو إضلال أعمال الكافرين، و تكفير سيّئات المؤمنين و إصلاح بالهم كائن ثابت بسبب اتّباع الكافرين للباطل، و اتباع المؤمنين للحقّ، و أنّ الحقّ في كلّ ظرف ثابت منصور، و أنّ الباطل في كل حال مخذول لا ثبات له، و هذه قاعدة عامّة في امور الدّين والدّنيا، و المعاد و المعاش، و فيها تلقين مستمر المدى بتقبيح الباطل و أهله، و بفضل الحقّ و متّبعيه.

و في الإتيان باسم الإشارة: «ذلك» الموضوعة للبعيد تفخيم لما يشار بها إلى ما تقرّر في الآيات السّابقة...

قوله تعالى: «و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم» في تقييد الحقّ بقوله: «من ربّهم» إشارة إلى أنّ المنتسب إلى اللّٰه عزّوجلّ هو الحق، و لا نسبة للباطل إليه سبحانه، و لذلك تولى تعالى تكفير سيّئات المؤمنين و إصلاح بالهم، لما ينتسب إليه طريق الحقّ الّذي اتّبعوه و أمّا الكفّار فبسبب كفرهم فلا يكون لهم بال، و لا يعتنى بأعمالهم...

و **قوله عزّوجلّ:** «كذلك يضرب اللّٰه للنّاس أمثالهم» في الإتيان باسم الإشارة الموضوعة للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل، فيضرب اللّٰه تعالى أمثال الفريقين للنّاس ليعتبروا بهم إذ جعل الإضلال مَثَلاً لخسّة الكافرين و خيبتهم و خسرانهم، و جعل تكفير السّيّئات و إصلاح البال مَثَلاً لفوز المؤمنين و سعادتهم و فلاحهم، أو جعل الباطل كأنّه دعا الكافرين إلى نفسه فاتّبعوه، و جعل الحقّ كأنّه دعا المؤمنين إلى نفسه فاستجابوا له.

و في الإخبار عن الفريقين من دون تصريح مَثَلٍ لهما لهما، فلا حاجة إلى مَثَلٍ مضروب،إذ في بيان إضلال أعمال الكافرين، و بيان تكفير سيئات المؤمنين و إصلاح بالهم، و بيان سبب الحالين المختلفين نهاية ايضاح يستغني عن المَثَل المضروب.

و يجوز أن يراد بضرب الأمثال التّمثيل و التّشبيه بأن جعل اللّٰه تعالى اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين، و جعل إضلال أعمالهم مثلاً لخيبتهم و خسرانهم،و جعل اتّباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، و تكفير سيّئاتهم و إصلاح بالهم مثلاً لفوزهم و فلاحهم.

و في إضافة الأمثال إلى النّاس: «أمثالهم» تنبيه إلى أنّها مجعولة لتُبَيِّنَ لهم أمر الكفر و الايمان و مآل أمرهما في كل ظرف من الظّروف و تكشف لهم أحوالهم، ليتّعظوا و ينتفعوا بها في امور دينهم و دنياهم.

٤- (فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداءً حتّى تضع الحرب أو زارها ذلك و لو يشآء اللّٰه لانتصر منهم و لكن ليبلوا بعضكم ببعض و الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه فلن يضلّ أعمالهم)

الفاء لترتيب ما في حيّزها من الأمر على ما قبلها، فإنّ إضلال أعمال الكافرين و خيبتهم، و تكفير سيّئات المؤمنين و إصلاح أحوالهم و فلاحهم ممّا يوجب أن يترتّب على كلّ من الجانبين ما يليق به من الأحكام... أى فإذا كان الأمر كما ذكر فإذا لقيتم أيّها المؤمنون المتّبعون الحقّ، الكافرين المضلّين المتّبعين الباطل، في المحاربة فاضربوا رقابهم ضرباً.

فحذف الفعل، و قدّم المصدر نائباً مناب الفعل، مضافاً إلى المفعول، و فيه من الاختصار و التأكيد البليغ، و التّعبير به عن القتل لتصويره بأشنع صورة، و التّهويل لأمر و الإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه مالا يخفى على أهل البيان و الأدب.

و فيه مجاز مرسل، علاقته ذكر الجزء و إرادة الكلّ، و ذلك أنّ ضرب الرّقاب عبارة عن القتل و لكن لمّا كان أيسر قتل الإنسان و أسرعه ضرب رقبته بالسّيف، وقع عبارة

عن القتل، و قد اوثر المجاز لما فيه من تصوير و ترسيم و تجسيد لأنّ في هذه العبارة من الغلظة و الشّدّة ما ليس في لفظ القتل لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة، و هو حزّ العنق، و إطارة العضو الّذي هو رأس البدن و علوّه و أوجه أعضآئه، و مجمع حواسّه، و بقاء البدن ملق على هيئة مستبشعة.

و في إقامة مصدر الفعل مقام الفعل، إشارة إلى أنّه لايكون للمؤمنين في لقآءِ الكافرين في ميدان القتال أيّ فعل أو شأن إلّا ضرب رقابهم و إزهاق أرواحهم.... و من المعلوم أنّ المصدر هو أصل لما يشتقّ منه من أفعال و صفات و أسماء... و هذا معنى أنّه جامع لكلّ معنى يُشتَقّ منه، فتسليط المصدر و إضافته على شيء، هو قَصْرُ كلّ معطيات المصدر على هذا الشّيء وحده دون التفات إلى شيء غيره...

و قد سلّط هذا المصدر: «ضرب» على «الرّقاب» ليحكم على أن لا يكون للمؤمنين شأن في موقف القتال مع الكافرين المحاربين إلّا ضرب رقابهم دون غيرها... و المراد بضرب رقابهم ضربها في موطن القتل لا في موطن آخر كالأطراف و نحوها، حيث لا يكون القتل محقّقاً بضربها...، و لا يخفى أنّ ضرب الرّقاب لا يكون أمراً لازماً لابدّ منه، بل إذا أمكن، و سنحت الفرصة للمؤمن أن يضرب الكافر ضربة قاتلة، و أمّا إذا لا يمكن ضرب الرّقاب أو الضّرب في مقتل، فليضرب حيث أمكنه الضّرب من الأطراف أو غيرها...

أمّا فائدة الأمر بضرب الرّقاب، فهو لعزل شعور المؤمنين عن الاستبقاء على من أمكنتهم الفرصة فيهم من الكافرين المحاربين، و قدروا على قتلهم، يريدون بذلك أسرهم و جعلهم من غنآئم الحرب... و هذا من شأنه ألّا يقيم نظر المؤمن على الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى، و جعله خالصاً له، إذ كان ينظر إلى ما يقع ليده من غنآئم... و هذا بدوره يدعو المؤمن المجاهد إلى الحرص على حياته، و النّجاة من القتل، حتّى يأخذ حظّه و ينال بالغنآئم... و هذا من شأنه أن يُضعف من بلاء المؤمن في القتال، و من نكابته في العدوّ... و غيرهما ممّا يخفّ به ميزان المجاهد في سبيل اللّٰه تعالى، و تذهب به ريح المجاهدين، إذا نظر المؤمن المجاهد في معركة الجهاد إلى نفسه، و طلب لها السّلامة أو

الغنيمة، و لم يكن هدفه هو الانتصار على العدوّ أو الاستشهاد في ميدان القتال...

و **من فوائد ضرب الرّقاب:** أنّه يوجب الرّعب في قلوب الكافرين المحاربين و هزيمتهم و فرارهم من معركة القتال و انقضائها، فضرب رقاب مأة نفر -مثلاً- من الكافرين و انقضآء الحرب خير من ألف بل آلاف نفر من المجروحين و المعلولين، من دون انتهاء الحرب.

و **قوله عزّوجلّ:** «حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» «حتّى» حرف غاية لبيان الحدّ الّذي يجب على المؤمن المجاهد أن يقف فيه عن قتل الكافر المحارب في ميدان المعركة، و هو أن يرى الكافِرَ و قد أثخنته الجراح، و سقط في ميدان القتال... و لم يعد قادراً على المشاركة فيها - هنا لا يجوز للمؤمن المجاهد أن يقتل هذا المثخن بالجراح، بل كلّ ما يفعله، هو أن يتحقّق من أنّه لن ينهض ليحارب من جديد، و ذلك بأن يشدّ وثاقه، أو يضربه ضربة تُعجِزُهُ عن القيام و لاتقضى عليه.

و شدّ الوثاق قد يكون كناية عن الاسر أى اسروهم و قيّدوهم بالقيود إن أمكن، و قد يكون بتعجيز المجروح عن أن ينهض، و يعود إلى قتال المؤمنين المجاهدين مرّة اخرى في هذه المعركة.....

و هذا وجه من وجوه الإسلام المشرقة - و كل وجوه الإسلام و ضيئة مشرقة - و ما فيه من معاني الإنسانيّة الرّفيعة السّامية الّتي تراود أحلام الفلاسفة و الأخلاقيين، و لا يجدون لها في عالم الواقع مكاناً...

فالإسلام في حربه للكافرين - و هم حرب على كلّ حق و خير، و حرب على الإنسانية و السّعادة و الكرامة كلّها - لا يريد قتلهم، و لا يشتهي إراقة دمآئهم و إزهاق أرواحهم... و لو كان من همّه هذا لما ردّ سيفه عمّن كانوا لساعتهم حرباً على المؤمنين، يقتلونهم و يسفكون دمآءهم، ثمّ أغمدت سيوفهم و تكسرت رماحهم، و أصبحوا في عجز قاهر لهم عن أن يضربوا بسيوفهم أو يطعنوا برماحهم...

و **من البداهة:** أنّ غاية الإسلام من حرب أعدآئه هو دفع شرّهم، و وقاية المؤمنين من الخطر الّذي يتهدّدهم من جهة أعدآء اللّٰه تعالى و أعدآء الإنسانيّة و الكرامة... فإذا

لم يكن ثمّة خطر، فلا حرب و لا قتل، و لا جرح و لا إسارة.... فإذا كان خطر، فلا بدّ من الحرب، و القتال و القتل و الجرح و الإسارة... فإذا زال الخطر أغمدت السّيوف و أطفئت نار الحرب... هذا هو الإسلام في حربه مع أعدآئه.... إنّها الحرب لطلب السّلامة و السّلام، و ليست حرباً للبغى و التسلّط و الاستثمار...

فأيّ ميزان أعدل و أقوم من هذا الميزان فيما بين النّاس و النّاس؟ و أيّ أمن و أيّ سلام كهذا الأمن و السّلام الّذي يجده المجتمع الإنساني في ظلّ مبدأ كهذا المبدأ الّذي يفرضه الإسلام على أتباعه في وجه العداوة و في ردّ العدوان، ممّا تسوقه إليهم الحياة على يد الأعدآء و المعتدين؟

يقول رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في شرح هذا المبدأ و توكيده: «لاتقتلوا شيخاً فانياً، و لا طفلاً صغيراً، و لا إمرأة».

و قد كان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يوصي من يبعثهم للجهاد بقوله: «اخرجوا باسم اللّه تعالى تقاتلون في سبيل اللّه من كفر باللّه، لاتغدروا و لاتَغُلّوا و لاتمثلوا و لاتقتلوا الولدان و لا أصحاب الصّوامع».

إنّها حرب الإسلام، غايتها الإصلاح، و دفع الخطر، و بتر الأعضآء الفاسدة من المجتمع الإنساني... و لو كان من همّ الإسلام الحرب للغلب و القهر و التسلّط و الاستثمار... لما كان معها إلّا التّدمير لكلّ شيء، و القتل لكلّ نفس...

و قد تلقّى المؤمنون من دينهم، و من هدى نبيّهم هذا الأدب الإنسانيّ العالي في حرب عدوّهم فلم تسكرهم حُمَيّاَ النّصر، و لم تَجُرْ على دينهم و مروئتهم شهوة الانتقام و التّشفّي... بل كانوا على هذا الأدب الرّبّاني في السّلم و الحرب، و في حال الهزيمة و النّصر...

و قوله جلّوعلا: «فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء» تفريع على قوله تعالى: «حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» تقرير لأحكام الأسرى: **ألف**: المنّ و هو الإحسان من غير طلب جزاء و لا مثوبة، و ههنا إشارة إلى الإطلاق بلاعوض يعني بعد السّبى من الكافرين المحاربين. و المعنى: إمّا تمنّون عليهم منّاً بعد الأسر فتطلقونهم تفضّلا عليهم و

إحساناً إليهم، و مقابلة إسائتهم و عدوانهم بهذا الفضل و الإحسان. ب: أو تسترقّونهم.
ج: «و إمّا فداء» يعني المفاداة بينهم و بين أهل الإسلام بالمال أو بمن لكم عندهم من الاسارى، بأن تقبلوا منهم الفدية، و هي عوض مالىّ، أو عينيّ أو شخصيّ، و ذلك بأن يفرض على إطلاق الأسير من الأسر قدر من المال أو السّلاح أو المتاع أو بإطلاق أسير في يد العدوّ من أسرى المؤمنين أي مبادلة الأُسارى.

و الأمر في هذا كلّه متروك لوليّ الأمر، القائم على شئون الحرب الدّائرة بين المؤمنين و بين أعدائهم... فهو الّذي يقدّر الأمر في شأن أسرى الأعداء... أفراداً أو جماعات بالعفو و المنّ أو الاسترقاق، أو الفدآء أو المبادلة...

و **قوله سبحانه**: «حتّى تضع الحرب أو زارها» هو غاية للحكم الّذي جاء به الأمر في قوله تعالى: «فضرب الرّقاب» أى حتّى تنتهى حالة الحرب و خمدت نارهاو لم يبق إلّا مسلم أو مسالم.

أو زار الحرب: أثقالها و آلاتها كالسّيف و السّنان و السّلاح و غيرها و هو كناية عن انقضاء الحرب و انتهاء أمرها... و نسب وضع الأوزار إلى الحرب مجازاً، و المراد أهلها على حذف المضاف و إبقاء المضاف إليه. و يجوز إرادة النّسبة إلى غير العاقل مجازاً لا على تقدير الحذف بل بتنزيله منزلة العاقل.

في تلخيص البيان للسّيّد الرّضي رضوان اللّه تعالى عليه: «و هذه إستعارة، و المراد بالأوزار ههنا الأثقال و هي آلة الحرب و عتادها من الدّروع و المغافر و الرّماح و المناصل، و ما يجرى هذا المجرى لأنّ جميع ذلك ثقل على حامله و شاقّ على مستعمله، و على هذا قول الأعشى:

و أعددت للحرب أوزارها ... رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً
و من نسج داوود موضونة ... تساق مع الحي عيراً فعيراً

و المراد بذلك في الظاهر الحرب، و في المعنى: أهل الحرب لأنّهم الّذين يصحّ وصفهم بحمل الأثقال و وضعها و لبس الأسلحة و نزعها» انتهى كلامه و رفع مقامه.

و **قال بعض أهل البيان**: فيه استعارة مكنيّة أو تصريحيّة، فعلى الاولى شبّه الحرب

بمطايا ذات أوزار أى أحمال أثقال... و على الثّانية استعار الأوزار لآلات الحرب. و فيه أيضاً مجاز في الإسناد، فقد اسند وضع الأوزار إلى الحرب، و إنّما هو لأهلها.

و قال بعضهم: هذا من باب استعارة معقول المحسوس، و الجامع عقليّ، فإنّ الوضع و الوزر، معنيان معقولان، استعير للحرب و هي محسوسة.

أوزار الحرب: أثقالها و أعباؤها، و ما يحمل منها المؤمنون المجاهدون في مصادمة أعدآئهم و دفع شرّهم عنهم، فإذا انتهت الحرب وأخلى العدوّ ميدان القتال بالفرار أو الاسر.... فقد رُفِعَ عن المؤمنين المقاتلين ما كانوا يحملون من أعباء ثقال... و عندئذٍ تنتهى أحكام الحرب، و يعود المؤمنون إلى موقفهم الأوّل من الكافرين... و هو أن لا قتل و لا أسر لمن يقع لأيديهم من الكافرين في غير الحرب.

و في إسناد الفعل: «يضع» إلى «الحرب» مع أنّ الّذي يضع الأوزار و الأعباءهم المحاربون، إشارة إلى أنّ الحرب هي سبب هذه الأوزار و تلك الأعبآء، و أنّها هي الّتي جلبتها، و ألقت بها على كاهل المحاربين... و في هذا تشنيع على الحرب، و تنفير منها و تصوير لها في صورة كريهة، حيث لا تحمل إلّا المتلبّسين بها إلّا ما يبهظهم و يُثقل كواهلهم... ثمّ إنّ في تسمية أعباء الحرب و أثقالها أوزاراً، تشنيعاً آخر على الحرب، و تأثيماً لها و أنّها - أيّاً كانت شيء - كريه لا يطلبه المؤمن، و لايسعى إليه و لايرغب فيه إلّا إذا لم يكن منه بدّ، كدفع عدوان أو إطفاء فتنة: «و قاتلوهم حتّى لاتكون فتنة» الأنفال: ٣٩).

فيدخل المؤمن الحرب من باب المحظور الّذي يباح عند الضّرورة فيتعاطى منها بحساب على قدر ما يدفع به الضّرر في غير شهوة و لا إسراف... أفرأيت وجهاً للحرب، أقرب إلى السّلام و أدنى إلى العافية من هذه الحرب الّتي يكون الإسلام طَرَفاً فيها؟ إنّها حرب يتمنّى أن يعيش فيها النّاس، ما يعيش فيه السّلام العالمي اليوم الّذي قل أن يمسى أو يصبح في غير حرب...

ذلك أنّ العالَم اليوم إذا أظلّه صباح يوم أو مساؤه بغير حرب معلنة أو سافرة، كانت الحرب الخفيّة مشبوبة الأوار في صدور تغلى مراجلها بالعداوة و البغضآء، و في نفوس

تتحرق مشاعرها شهوة إلى إراقة الدّماء و إزهاق الأرواح، إبادة الأُمم و الشّعوب و إسارة الشّعور و استثمار الأفكار و المخازن...

و **قوله تعالى:** «ذلك و لو يشآء اللّٰه لانتصر منهم» الإشارة هنا إلى ما يطالَب به المؤمنون من لقاء الأعداء في معركة القتال، و من توجيه الضّربات القاتلة له، القاضية على كلّ كيد يكيد به للإسلام و المؤمنين، و لو كان في ذلك تعريض كثير من المؤمنين للاستشهاد في سبيل اللّٰه فذلك ابتلاء من اللّٰه تعالى للمؤمنين، و إنزالهم هـذا المـنزل الكريم الّذي يلبسون فيه ثوب المجاهدين في سبيل اللّٰه تعالى، الواقفين فيه موقف جنود اللّٰه، المدافعين عن حرماته.. و لو لا هذا الصّدام بينهم و بين أهل الكفر و العناد لما وقفوا هذا الموقف الكريم و لما نالوا هذا الشّرف العظيم. و «ذلك» كلمة قد يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، و هو كقوله تعالى: «هذا و إنّ للطّاغين لشرّ مآب» ص: ٥٥) أى هذا حق، و أنا أعرفكم أنّ للطّاغين كذا و في بُعد الإشارة: «ذلك» مع قـرب المشار إليها تفخيم لشأنها.

و **قوله تعالى:** «ولكن ليبلوا بعضكم ببعض» تعليل للأمـر بـالقتال عـلى سـبيل الاستدراك من مشيّة الإنتصار، و الخطاب و إن كان موجّها إلى المؤمنين و لكنّه شامل لهم و للكافرين جميعاً.

و المعنى: و لكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض، فيمتحن المؤمنين بالكفّار فيأمركم بقتالهم ليظهر و يمتاز المطيعون من العاصين منكم، و يـمتحن الكّفار بالمؤمنين فيتميّز أهل الشّقآء منهم ممّن يوفق للتّوبة من الباطل و الرّجوع إلى الحقّ، من الكفر إلى الايمان، و من الفساد إلى الصلاح...

و **قوله عزّوجلّ:** «و الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه فلن يضلّ أعمالهم» مستأنفة بيانيّة سيقت سوق الشّرط، و الحكم عام لكلّ من قُتِلَ في سبيل اللّٰه في معركة القتال مع أعدآء اللّٰه تعالى أو الجهاد في التبليغ و الإرشاد، فلن يبطل أعمالهم الصّالحة الّتي أتوا بها في سبيل اللّٰه جلّ وعلا.

و فيه تنويه خاص بشأن الّذين يستشهدون في سبيل اللّٰه تعالى لإعلاء كلمة اللّٰه

عزّوجلّ و إحقاق الحقّ، و إبطال الباطل، و بشارة و تطمين بأنّ اللّٰه تعالى لن يضيع أجر الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه بل سيقيمهم و أعمالهم على طريقه المستقيم حيث تنزل منازل الرّضا و القبول من اللّٰه ربّ العالمين، فهم داخلون أوّلاً في قوله تعالى: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم».

ثمّ هم مختصّون ثانياً بهذا الذّكر الّذي يقيمهم بعد موتهم مقام الأحيآء الّذين لم يفارقوا هذه الدّنيا، و ذلك بإصلاح بالهم، على حين يقيمهم مقام أهل الجنّة قبل أن يدخلها أحد غيرهم، فهم ساعون إلى الجنّة آخذون طريقهم الّتي يعرفونها إليها، و هذا ما يشير إليه قوله سبحانه: «و لاتقولوا لمن يقتل في سبيل اللّٰه أموات بل أحيآء و لكن لاتشعرون» البقرة: ١٥٤).

٥- (سيهديهم و يصلح بالهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت لتقرير حال الشّهداء المؤمنين بعد شهادتهم في سبيل اللّٰه تعالى أى فسيثيبهم اللّٰه عزّوجلّ و يرشدهم في الدّار الآخرة إلى طريق الجنّة و منازل السّعادة و الكرامة فيها، و يصلح بالهم بنزع ما فيه من غلّ، و حالهم بالمغفرة و تكفير سيّئاتهم فيصلحون لدخول الجنّة و التنعّم بنعيمها.... و فيه تنويه خاصّ أيضاً بشأن المستشهدين فى سبيل اللّٰه تعالى.

هذه بالنسبة إلى حال المؤمنين الشّهداء المجاهدين في سبيل اللّٰه سبحانه بعد شهادتهم، و أمّا بالنّسبة إلى حال المؤمنين المجاهدين الّذين لم يستشهدوا، فالآية الكريمة كالبيان و التعليل لقوله عزّوجلّ: «فلن يضلّ أعمالهم» و المراد الوعد بأن يحفظهم اللّٰه تعالى و يصونهم عمّا يوجب الضّلال و حبط الأعمال.. فهم داخلون في زمرة الشهدآء تغليباً بهذا المعنى.

إنّ الهداية: هي الدّلالة بلطف، سوآء أكانت دلالة موصلة إلى المطلوب أم كانت دلالة على ما يوصل إليه. و من الأوّل قوله تعالى: «سيهديهم» بالنّسبة إلى المجاهدين:

استشهدوا أم لا. و الإصلاح: هو الحصول على الحالة المستقيمة النّافعة.

و الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ اللّٰه لمع المحسنين» العنكبوت: ۶۹)

و قوله سبحانه: «و لاتحسبّن الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه أمواتاً بل أحيآء عند ربّهم يرزقون فرحين بما آتاهم اللّٰه من فضله و يستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم و لايحزنون – و اتّبعوا رضوان اللّٰه و اللّٰه ذو فضل عظيم» آل عمران: ١٦٩-١٧۴).

و قوله عزّوجلّ: «اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون و نزعنا ما فى صدورهم من غلّ تجري من تحتهم الأنهار و قالوا الحمدللّٰه الّذي هدانا لهذا و ماكنّا لنهتدى لو لا أن هدانا اللّٰه» الأعراف: ۴٢-۴٣)

إن تسئل: كيف قال اللّٰه سبحانه في حقّ الشّهدآء المؤمنين بعد ما قتلوا في سبيل اللّٰه: «سيهديهم» و الهداية لاتكون إلّا قبل الموت لا بعده؟

أقول: إنّ الجواب عنه ظاهر مما سبق منّا آنفاً فتدبّر جيّداً.

٦- (و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم)

بيان لمعنى الأوّل من الهداية و هي الدّلالة الموصلة إلى المطلوب، و هو الجنّة الّتي عرّف الطّريق إليها و وعد المؤمنين المجاهدين بها، و فيه تثبيت للوعد و تطمين لقلوبهم...

٧- (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت أقدامكم)

التفات من الغيبة إلى الخطاب على طريق الإلتفات من اللّٰه سبحانه إلى المؤمنين تكريماً لهم، و رفعاً لقدرهم، فدعاهم إلى أن يكونوا كلّهم على هذه المنزلة و الكرامة الّتي أعدّها للمجاهدين بأموالهم و أنفسهم في سبيله تعالى، و حثّ و تحضيض لهم على الجهاد لنصرة دينه و إقامة شريعته، و لإعلاء كلمة اللّٰه جلّ وعلا و إمحاء كلمة الكفر و

دفع الشّرك و الضّلال و كلّ ما يعترض في اللّٰه تعالى و يخالف ما أمره به، لا لاستعلاء في الأرض و إصابة الغنآئم و لا لإظهار النّجدة و الشّجاعة و لا للاستثار و السّلطة على عباد اللّٰه تعالى.

فإنّما المؤمنون هم جند اللّٰه سبحانه الّذين يجاهدون في سبيل اللّٰه بأموالهم و أنفسهم، و يحاربون من حارب اللّٰه و ينصرونه جلّ وعلا لا غيرهم من الكافرين و المنافقين و حتّى الّذين أسلموا و لم يؤمنوا فلابدّ من الايمان حقاً في نصرة اللّٰه سبحانه.

و في إسناد نصر اللّٰه إلى المؤمنين تكريم لهم و رفع لقدرهم، و إنزالهم منزلة المعين للّٰه جلّ وعلا، المؤيد له، و اللّٰه تعالى غنيّ عن كلّ معين و مؤيّد... إذ كلّ شيء في نظام الكون و نواميس الوجود هو منه و له تعالى لايملك أحد شيئاً، فكيف يطلب النّصر من خلقه الّذين لايقوم وجودهم لحظة واحدة إلّا بعونه و حفظه و رعايته؟ و ليس ذلك إلّا تكريماً للمؤمنين و إحساناً من اللّٰه تعالى إليهم كما في قوله عزّوجلّ: «من ذا الّذي يقرض اللّٰه قرضاً حسناً» البقرة: ٢٤٥).

إنّ اللّٰه تعالى هو المعطي لكلّ ما في أيدي عباده... ثمّ هو تعالى -فضلاً و إحساناً منه- يدعوهم إلى أن يقرضوه ممّا أعطاهم؟!

و قد أضاف النّصر إلى نفسه سبحانه تعظيماً لدينه و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و فيه تجوّز في النّسبة، فنصرة اللّٰه جلّ وعلا نصرة دينه و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإنّه هو المعين النّاصر و غيره المعان المنصور.

و **قوله تعالى**: «ينصركم و يثبّت أقدامكم» وعد و تبشير من اللّٰه للمؤمنين بنصرهم على أعدآئهم و تثبيت أقدامهم في دين اللّٰه عزّوجلّ إذا نصروه، وفيه إشارة إلى أنّ نصر المؤمنين للّٰه سبحانه لايكون نصراً على حقيقته، بل هو مظهر من مظاهر الطّاعة و الولاء للّٰه تعالى، و إلّا فإنّ الحقيقي هوالّذي يمنحه اللّٰه عزّوجلّ المؤمنين، ويمدّهم بالأسباب الممكنة لهم منه، فاللّٰه تعالى هو الّذي ينصرهم على أعدآئهم، و يثبّت أقدامهم في الدّين والدّفاع عنه، و في مواقع القتال، على حين يملأ قلوب الّذين كفروا رعباً و فزعاً: «و ماالنّصر إلّا من عند اللّٰه إنّ اللّٰه عزيز حكيم - إذ يوحى ربّك إلى

الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سالق في قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق و اضربوا منهم كلّ بنان» الأنفال: ١٠ و ١٢).

فالمراد بنصر اللّٰه تعالى لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم و غلبتهم على أعدآئهم كإلقاء رعب المؤمنين في قلوب الكافرين، و إدارة الدّوائر للمؤمنين عليهم، و ربط جأش المؤمنين و تشجيعهم، و تخصيص تثبيت الأقدام و هو كناية عن التشجيع و تقوية القلوب لكونه من أظهر مصاديق النّصر.

إن تسئل: لماذا جآء تثبيت الأقدام بعد النّصر، و ماالنّصر إلّا بتثبيت الأقدام، فإنّ بعد الثّبات على محنة القتال و بلاء الحرب يجيء النّصر، فيكون النّصر بعد تثبيت الأقدام لا قبله؟

تجيب عنه: أنّ هناك تثبيتين: **أحدهما** – و هو أوّل أداة النّصر بأن يثبت على المحنة و البلاء بتوفيق من اللّٰه تعالى و تأييده، و قد يمكن أن يكون هذا على هواى نفسه من رياء أو حمية أو شجاعة أو تحصيل غنيمة و ما إليها من الرّغبات النفسانيّة...

ثانيهما – و هو أداته الثّانية بأن يثبت على النّصر و النّعمآء و على جهاد النّفس لكي لا ينتصر ببطرهم و زهوهم الأعداء، إذ كثير منهم ينتصرون و لكن بعد ذلك يخسرون، إذ لا يثبتون على شروط النّصر، و قليل منهم يثبتون، فيكسرون شوكة العدوّ على طول الخطّ دونما رجعة.

إذاً فالنّصر الدّآئب يعيش بين ثباتين اثنين، ثانيهما الأهمّ، فإنّه أداة استمرارية النّصر و إنتاجه، فليست بداية النّصر هي نهاية المعركة، و إنّما دوامه الّذي يكلّف من الثّبات أكثر و أكثر، فلذلك تأخّر تثبيت الأقدام من النّصر: «ينصركم و يثبّت أقدامكم».

٨- (و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم)

وعيد شديد بالكافرين على نحو الكناية و الدّعاء عليهم أو الإخبار بالخزى و الشّقاء و الخيبة و الإنحطاط و الخسران و الهلاك، حيث إنّ الانسان أعجز ما يكون إذا

كان ساقطاً على وجهه، باقياً عليه فإنّ التّعس -كما سبق منّا في بحث اللّغة -: هو سقوط الإنسان على وجهه و بقائه عليه حتّى يهلك.

و **قوله تعالى**: «و أضلّ أعمالهم» إخبار ببطلان أثر مساعيهم...

و في الآية الكريمة مقايسة لحال الكافرين من حال المؤمنين المجاهدين في سبيل اللّٰه جلّ وعلا، فحالهم ضدّ حالهم... فإنّ اللّٰه تعالى ينصر المؤمنين و يثبّت أقدامهم، و هو يخذل الكافرين و ينزلهم منازل التّعس و البوار، و لن يضلّ أعمال المؤمنين: «فلن يُضلّ أعمالهم» و يهديهم هداية موصلة إلى الجنّة و يصلح بالهم... و هو جلّ وعلا يبطل أعمال الكافرين، و لا يقبل منهم عدلاً و لا صرفاً... فكلّ عمل للكافرين إلى ضياع و ضلال... و إذ كان الإنسان من وراء عمله ينظر إليه و يتبع آثاره ليجني ثمرة ما عمل، فإنّ الكافرين ستقودهم أعمالهم الّتي أضلّها اللّٰه إلى الضّلال و إلى جهنم و عذابها. فكما أنّ بين الحقّ و الباطل تضادّاً فكذلك بين أتباعهما في جميع شئونهم من مادّيّات حياتهم و معنويّاتها...

و في التّعبير عن التّعس و البوار... بالمصدر: «فتعساً لهم» و عن ضلال الأعمال و بطلانها... بالفعل: «و أضلّ أعمالهم» إشارة إلى أنّ التّعس و البوار و الهلاك و الدّمار... صفة ملازم لهم، مستولية على كيانهم كلّه، في عقآئدهم و أقوالهم و أفعالهم، و في معاشهم و معادهم... فإنّ المصدر يجمع كل معاني الأحداث المشتقّة منه كما سبق في قوله تعالى: «فضرب الرّقاب» فراجع.

أمّا ضلال أعمال الكافرين و بطلانها فهو حَدَث متسلّط على أعمالهم، فكلّ ما يقع منهم من عمل تَسَلُّط عليه الضّلال، و طواه تحت جناحه...

و في التّعبير بالماضي: «أضلّ» بدلاً من المضارع: «يُضلّ» إشارة اخرى إلى أنّ الكافر محكوم مقدّماً على كلّ عمل من أعماله بالضّلال، دون نظر في وجه العمل، فإنّه يستوى في ذلك الحسن و القبيح، و الخير و الشّرّ، من أعمال الكافرين... إذ كلّ أعمالهم قبيحة و كلّ أفعالهم شرّ... هكذا تقع أعمال الفّجار و المشركين و الفسّاق و المنافقين تحت حكم الضّلال، و قوعاً مطلقاً، فلا ينتظر في الحكم عليها، حتّى ينكشف و جهها، و يُعرف الحَسَنُ و القبيح منها...

٩- (ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم)

مستأنفة بيانيّة لتقرير سبب بقاء الكافرين على كفرهم مافعل بهم مـن التّـعس و الإضلال، و حكم عليهم بالبوار و الخسران، و بإبطال كلّ عمل يعملونه، و لو كان ممّا يعدّ في الأعمال الصّالحة الّتي لو كانوا مؤمنين لكانوا مأجورين بها، و هي مقبولة منهم، فالمعنى: ذلك التّعس و الإضلال لأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه على رسوله﴿ﷺ﴾ من القرآن الكريم و مامعه من الثّقل الأصغر، و كراهيّتهم لما أنزل اللّه تعالى هي الّتي دعـتهم إلى اتّخاذ هذا الموقف العِدائيّ لرسول اللّه﴿ﷺ﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين، و لآيات اللّه الّتي يتلوها عليهم... فإنّ من كره شيئاً تجنبه و عاداه... على خلاف من أحبّ شيئاً، فإنّه يدنو منه و يقاربه و يختلط به و يأنس إليه....

و هذا تخصيص و تصريح بسببيّة الكفر بالقرآن و ما معه من الثّقل الأصغر، للتّعس و الإضلال إذ قد علم من قوله سبحانه: «و الّذين كفروا...» سببيّة مطلق الكفر الدّاخل فيه الكفر بالقرآن و ما معه دخولاً أوّليّاً، فلأجل ذلك «أحبط أعمالهم» الّتي لو كانوا عملوها مع الايمان لأُثيبوا عليها.

و قوله تعالى: «فأحبط أعمالهم» مرتّب على ما قبله، و في تكراره إشـعار بـذلك التّرتّب، و إحباط الأعمال: إبطالها و إفسادها و وأدها في مهدها... فكلّ عمل لا يبتنى على الايمان فهو باطل، و فاسد و تباه لأنّ الايمان هو الاسّ، و انّ الايمان بالنّسبة إلى العمل كالرّوح بالنّسبة إلى الجسم الإنساني.

و في ذكر الإحباط بعد ذكر الإضلال المراد هو منه إشعار بأنّه الكفر بما أنزل اللّه تعالى و لا ينفكّ عنه بحال.

و في الآية الكريمة تقريع و إنذار و تنديد بـالكافرين لكـرههم لمـا أنـزل اللّـه و

جحودهم فضله، و ايذان لهم بأنّه قد أحبط بسبب ذلك أعمالهم، و جعل الحبط حليفها....

١٠-(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم و للكافرين أمثالها)

مستأنفة بيانيّة على طريق الإستفهام الإنكاري التّوبيخيّ، و التّنديد و التّبكيت و التّهديد بالكافرين الموجودين في زمن الوحي الى الوقت المعلوم، أى أقعدوا هم و الّذين يلحقون بهم في منازلهم فلم يسيروا في الأرض لينظروا في أحوال الأُمم الماضية و رؤية آثارهم.... فيروا نقمة اللّٰه الّتي أحلّها بهم حين كذّبوا برسلهم كعاد و ثمود و قوم لوط و أمثالهم ..... و يتدبّروها و يتّعظوا و يعتبروا بها و يحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن كانوا قبلهم؟ أم ساروا فيها و لكن لم ينظروا نظر تدبّر في ديار الامم المكذّبة الّتي تنبىء عن أخبارهم؟!!

هذا تهديد و وعيد للكافرين بما أنزل اللّٰه تعالى على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أنكروا عليه ما دعاهم إليه من الايمان به، و قد حُمِلَ هذا التّهديد إلى هؤلآء الكافرين و الّذين يلحقونهم من بعدهم في هذا الاستفهام الإنكاريّ الّذي يرميهم بالعمى و الغفلة عن النّظر فيما حولهم و فيما أصاب المكذّبين بما أنزل اللّٰه تعالى قبلهم من عذاب ونكال و هلاك و دمار، لقد دمّر اللّٰه تعالى على هؤلآء المكذّبين و أتى بنيانهم من القواعد، و أنّ للكافرين عند اللّٰه سبحانه أمثال هذا التدبير....

و **قوله تعالى**: «دمّر اللّٰه عليهم» مستأنف منبىء عن سئوال نشأ من الكلام و تقرير لما فعل بالأُمم الغابرة و القرون الخالية من الهلاك و الدّمار، فكأنّه قيل: ماذا كان عاقبتهم؟ فأجاب: «دمّر اللّٰه عليهم» اى استأصل اللّٰه عليهم ما اختصّ بهم من أنفسهم و أهليهم و أموالهم.... و في تعدية الفعل بحروف الاستعلاء: «على» إشارة الى أنّ هذا التّدمير قد وقع عليهم من جهة عالية، متمكّنة منهم، بحيث يكونون تحت رمياتها الّتي لاتخطىء الهدف أبداً.

و فيه تهديد بالكافرين الموجودين و من يسلك مسالكهم بحال الأقدمين، و إنذار لهم بتدمير اللّٰه كما دمّر الّذين من قبلهم ممّن رآوا آثارهم أو يرون بعد في أثناء طوافهم في الأرض، ثمّ بالنّار الّتي تكون مصيرهم في الدّار الآخرة.

و قوله عزّوجلّ: «و للكافرين أمثالها» وضع الظّاهر موضع الضّمير ايذاناً للعلّة، و في جمع الأمثال إشارة إلى أنّ ما يُرىٰ به الكافرون من عقوبات و مهلكات، ليس على صورة واحدة، بل إنّ لكل امّة، و لكلّ جماعة لوناً من ألوان العقوبة و الهلاك... كما قال اللّٰه سبحانه: «فكلاًّأخذ نابذ نبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً و منهم من أخذته الصّيحة و منهم من خسفنا به الأرض و منهم من أغرقنا» العنكبوت ٤٠) فهي ألوان من الهلاك، مختلفة الأشكال، و إن كانت متّفقة في الآثار....

فليس المعنى: أنّ هؤلآء الكافرين بما أنزل اللّٰه تعالى على محمد﴿ﷺ﴾ أمثالاً ما لأولئك الامم السّالفة و أضعافه بل مثله، فالجمع باعتبار مماثلته لعواقب متعدّدة حسب تعدّد الامم المكذّبة المعذّبة...

١١- (ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لا مولى لهم)

مستأنفة بيانيّة لتقرير سبب ما فعل اللّٰه تعالى بالفريقين: فريق الكفر، فأتعس لهم و أضلّ أعمالهم و أحبطها، و هدّدهم بالدّمار، و فريق الايمان، فكفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم و لن يضلّ أعمالهم و يهديهم و يصلح بالهم و يدخلهم الجنّة و ينصرهم و يثبّت أقدامهم....

بأنّ اللّٰه تعالى فعل بالمؤمنين ما فعل بسبب أنّ اللّٰه مولى المؤمنين و ناصرهم، و الدّافع عنهم، و أنّ الكافرين لا مولى لهم ينصرهم و يدفع عنهم.

و في إضافة «مولى» إلى «الّذين آمنوا» من تعليق الحكم على الوصف مشعراً بعلّيّة الوصف للحكم ما لا يخفى على الأديب الأريب. و هذا الوصف منفيّ في الكافرين.

و في الآية الكريمة: تقرير قاعدة ثابتة قآئمة في كلّ ظرف من الظّروف في حياة المؤمنين و الكافرين تكشف لنا أسباب القرار للمؤمنين، و أسباب الدّمار للكافرين، فلا

يصيب المؤمنين شيء، مما يصيب الكافرين، و ذلك بسبب «أنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا» أى ناصرهم و دافع المكروه عنهم، و أمّا الكافرون فلا ناصر لهم و لا معين يعينهم... فأنّه لا يملك النّفع و لا الضّرّ إلّا اللّٰه تعالى، و قد لاذ المؤمنون بحمى اللّٰه عزّوجلّ فلم يصل إليهم ضرّ، و لم يصبهم مكروه على حين رَكَن الكافرون إلى الطّواغيت....

إن تسئل: إنّ قوله تعالى: «و أنّ الكافرين لا مولى لهم» منقوض بقوله عزّوجلّ: «ثم ردّوا إلى اللّٰه مولاهم الحق» الأنعام: ٦٢) و يونس: ٣٠)؟

تجيب عنه:ليس بين الآيات الكريمة تناقض لأنّ معنى المولى في هذه السّورة: النّاصر و الدّافع، و ان اللّٰه تعالى لا ينصر الكافرين و لا يدفع عنهم، فلا مولى لهم، و إنما ينصراللّٰه عزّوجل المؤمنين و يدفع عنهم فهو تعالى مولى المؤمنين وحدهم بهذا المعنى دون الكافرين.

و أمّا المولى في الآيتين من سورتي الأنعام و يونس بمعنى المالك، و إنّ اللّٰه تعالى مالك عباده كلّهم و منهم الكافرون، فاللّٰه عزّوجلّ مولى لهم بهذا المعنى.

١٢- (إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجرى من تحتها الأنهار و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت سوق التّفسير لولاية اللّٰه تعالى للمؤمنين و ما يترتّب عليها من الآثار في الحياة الدّنيا و حسن العاقبة لهم في الدّار الآخرة، و عدم ولايته سبحانه للكافرين و ما يترتّب عليه من سوء الآثار في الدّنيا و وخيم العاقبة في الآخرة.

و من آثار ولاية اللّٰه جلّ وعلا للمؤمنين حياتهم الإنسانيّة و الأعمال الصّالحة، و إنسانيّة حياتهم و هم في الدنيا في أمن من أن يحل بهم ما يحلّ بالكافرين من البلاء العامّ الشّامل الّذي يأتي على كلّ شيء...

و عاقبتهم و مآل أمرهم أنّ اللّٰه تعالى يدخلهم الجنّة فيتنعّمون بنعيمها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت.

و قوله سبحانه: «و عملوا الصّالحات» فيه إشارة إلى أنّ الايمان الّذي يثمر هذه

الثّمرات الطّيّبة و حسن العاقبة لأهله، إنّما هو الايمان الّذي يصدّقه العمل الصّالح، فليس الإيمان مجرّد قول باللسان، و تصديق بالقلب من دون عمل بالأركان، فهذا ايمان لا ثمرة له و لا عاقبة حسنة، و إنّما تظهر ثمرة الايمان و حسن عاقبتة فيما يكون عليه سلوك و ما تكسب جوارحه....

كما قال اللّٰه تعالى: «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الايمان في قلوبكم - إنّما المؤمنون الّذين آمنوا باللّٰه و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّٰه اولئك هم الصّادقون» الحجرات: ۱۴-۱۵)

و قوله عزّوجلّ: «جنّات تجرى من تحتها الأنهار» فى تنكير «جنّات» و وصفهابجرى الأنهار تحتها، تفخيم لشأنها بحيث لا يقدر قدرها و لا يدرك حقيقتها إلّا من دخل فيها فإنّها ممّا لا عين رأت و لا أُذن سمعت: «فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون» السّجدة: ۱۷)

و قوله تعالى: «الأنهار» جمع النّهر -بفتح الهاء و سكونها-: و هو المجرى الواسع فوق الجداول و دون البحر كالنّيل و الفرات، و التّركيب للسّعة، و المراد بها مآؤها على الإضمار أو على المجاز اللغوى أو المجارى نفسها، و قد أُسنِدَ إليها الجريان مجازاً عقليّاً كما في سال في الميزاب، و اللام في «الأنهار» للعهد و الإشارة إلى ما سيذكر في قوله تعالى: «أنهار من ماء غير آسن.....»: ۱۵)

و قوله تعالى: «والّذين كفروا...» تمثيل لهم بالأنعام حيث كان تمتّعهم في الحياة الدّنيا لا يعدو تمتّع الأنعام الّتي لا تشعر بمتعة، و الّتي ليس لها من همّ إلّا امتلاء بطونها....

و من آثار عدم ولاية اللّٰه سبحانه للكافرين حياتهم الحيوانيّة و حيوانيّة حياتهم أنّهم لايرون غرضهم من الحياة في الدّنيا إلّا الأكل و الشّهوة و ما إليهما لا التّقوى و التّوسّل بالغذاء إلى الطّاعة و عمل الآخرة، و لايدرون أنّ هذه الحياة الدّنيا دار كمال فلابد من كسبه فيها، فليست هي بكمالٍ، و لا يستدلّون بنعمها على خالقها، فهم غافلون عن مآل أمرهم فالنّار مثوى لهم فالجزاء يناسب العمل.

و قوله جلّ وعلا: «و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى

لهم» كان مقتضى السّياق أن يكون نظم الآية الكريمة هكذا مثلا... «والّذين كفروا لهم عذاب جهنّم...» و لكن النّظم القرآنيّ، المعجز، يضع كلّ شيء موضعه، فيصل حياة الكافرين في الدّنيا بحياتهم في الآخرة... إنّهم على طريق واحد في دنياهم و أُخراهم جميعاً... فهم في الدّنيا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و هم في الآخرة يُلْقَوْن في عذاب جهنّم... و النّاظر البصير المدقّق في الحالين يرى أنهما على سوآء، و إن بدا الاختلاف بينهما بعيداً في عيني من لا بصيرة له...

فالإنسان ليس جسداً حيوانيّاً، غايته أن يأكل كما تأكل الأنعام... و إنّما الإنسان إنسان لأنّ له روحاً يهفو إلى الملاإلاأعلى، و يتشوف إلى مطالع النّور منه، و لهذا الرّوح مطالب يجب أن يؤدّيها الإنسان له، حتّى تظلّ أسبابه موصولة بالملا الأعلى، آخذة طريقها إليه... و إلّا انقطعت تلك الأسباب، و أصبح الإنسان جسداً حيوانيّاً، لا شيء من معالم الإنسانيّة فيه... و هذا عذاب و بلاء للإنسان، إذا أنّه يعيش بين النّاس حيواناً ممسوخاً في جسد إنسان، حيواناً يمشي على رجليه بصورة الإنسان، أو انساناً مردوداً في طبائع الحيوان...

قال مولى الموحدين إمام المتقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فالصّورة صورة انسان، و القلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتّبعه، و لا باب العمى فيصدّ عنه فذلك ميّت الأحيآء...» نهج البلاغة: الخطبة ٨٦).

و قوله سبحانه: «يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام» فيه إشارة إلى أنّ ما يتمتّع به الكافرون من مُتَعٍ في اتّصال الرّجال بالنّسآء هو عند الكافرين متعة حيوانيّة، يستجيبون فيها لغريزة الحيوان لحفظ النّوع.. و أنّ المؤمنين يجدون في قضآء هذه المتعة شيئاً أكثر من حفظ النّوع... انّهم يرونها نعمة من نعم اللّه تعالى كما يرون فيها كثيراً من قدرة اللّه عزّوجلّ في تكوين الانسان و تطوّره في خلقه من مآء دافق، إلى إنسان رشيد عاقل، و بصير ناطق...

قال اللّه تعالى: «أفرأيتم ما تمنون، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» الواقعة: ٥٨-٥٩)

و قال: «ألم نخلقكم من مآء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدر نافنعم القادرون» المرسلات: ٢٠-٢٣)

و قال: «فلينظر الإنسان ممّ خلق خلق من مآء دافق يخرج من بين الصّلب و التّرآئب» الطارق: ٥-٧)

و قال: «و بدأ خلق الإنسان من طين ثمّ جعل نسله من سلالة من مآء مهين ثمّ سوّاه و نفخ فيه من روحه و جعل لكم السّمع و الأبصار و الأفئده قليلاً ما تشكرون» السجدة: ٧-٩).

فالكافرون هم يتمتّعون أى يتناكحون، و ينز و الذّكر منهم على الانثى كما ينزو ذكر الحيوان على أُنثاه، فمتعتهم الجنسيّة متعة حيوانيّة لإطفاء الشّهوة، كما أنّ أكلهم أكل حيوانيّ لإشباع البطون و تحريك الشّهوة...

و **قوله تعالى:** «يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام» في مقابلة قوله عزّوجلّ: «و عملوا الصّالحات» لما فيه من الايماء إلى أنّ المؤمنين كانوا يعرفون أنّ متاع الدّنيا و شهواتها و لذّاتها خيال باطل و ظلّ زآئل فتركوها إلّا بقدر الضّرورة، و تفرّغوا للصّالحات... فكان عاقبتهم الجنّة و نعيمها المقيم في مقام كريم، و أمّا الكافرون فقد غفلوا عن ذلك كلّه فرتعوا في دمنهم كالأنعام حتّى ساقهم الخذلان إلى مقرّهم من درك النيران.

و **قوله عزّوجلّ:** «و النّار مثوى لهم» في مقابلة قوله سبحانه: «جنات تجرى من تحتها الأنهار» و قد اسند إدخال المؤمنين الجنّة إلى اللّه تعالى تكريماً لهم و قضآءً لحقّ الولاية المذكورة، فله تعالى عناية خاصّة بأوليآئه، و لم يسند دخول الكافرين في النّار إليه سبحانه تحقيراً لهم و تنبيهاً إلى أنّ المنسلخين من ولايته لا يبالى في أيّ وادهلكوا و في اختلاف الجملتين: الفعليّة و الإسميّة ايذان بسبق الرّحمة و الإعلام بمصير المؤمنين و تشريف لهم بأنّ عاقبتهم و مآل أمرهم أنّ اللّه جلّوعلا يدخلهم جنات...

ففي الفعليّة صورة مُسعِدَة مشرقة للمؤمنين الّذين يعيشون في هذه الدّنيا على ذلك الزّاد الطّيّب من المعاني الكريمة، و المُثل الرّفيعة، و المبادىء القويمة، و إن فاتهم كلّ شيء من ماديات الحياة و شهواتها... و لكنّهم يدخلون الجنّة الّتي يملأ نعيمها حياتهم المقفرة من متاع الدّنيا بألوان من البهجة و المسرّة لا يجد أحد مثلَها إلّا في الجنّة الّتي وعد اللّه

المتقين من عباده و هذا ما يشير إليه قوله سبحانه: «و ما الحياة الدّنيا في الآخـرة إلّا متاع» الرّعد: ٢۶)

في الآية الكريمة مقايسة بين الفريقين المختلفين في العقيدة و العمل و المآل: فـريق الايمان و العمل الصّالح و أهل الجنّة، و فريق الكفر و الطّغيان و أهل النيران.

و فيها: وعدو بشارة و تكريم للمؤمنين، و وعيد و إنذار و تحقير للكافرين...

و فيها: من تعليق الحكم في الفريقين على الوصف ما لا يخفى على القارىء الخبير فتأمل و لا تغفل.

١٣- (و كأيّن من قرية هى أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت سوق ضرب مثل لرسول اللّه﴿ﷺ﴾ تسلية له﴿ﷺ﴾ على ما يلاقي من عنت قومه و كفرهم و لجاجهم و ضلالهم و عنادهم، و تقوية لقلبه﴿ﷺ﴾ و تطمينه و تثبيته﴿ﷺ﴾ و للذين آمنوا به حقاً، و تهديد شديد و وعيد أكيد لأهل مكّة الّذين تآمروا على اغتيال رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و اضطرّوه إلى الهجرة من بـلده و أهله، و البيت الحرام الّذي تعلّق به قلبه و تحقير لأمرهم.

و في الآية الكريمة حذف، تقديره: و كأيّن من أهل قرية. و لذلك قال: «أهلكناهم» فكأنّه قال: و كم من أهل قرية هم أشدّ قوّة من أهل قريتك الّذين أخـرجـوك مـنها أهلكناهم بأنواع العذاب كقوم فرعون و عاد و ثمود و قوم لوط و كثير من أمثالهم و هم أشدّ من أهل هذه القرية و هي مكّة المكرّمة.

و قد حذف أهل، و نابت القرية محلّه من باب إطلاق المحل و إرادة الحال مجازاً، و إسناد الإخراج إلى أهل قريته﴿ﷺ﴾ وهي مكّة المكرّمة أيضاً مجاز من باب الإسناد إلى السّبب لأنّهم عاملوه ﴿ﷺ﴾ بما عاملوه فكانوا بذلك سبباً لإخراجه﴿ﷺ﴾ حين أذن اللّه تعالى﴿ﷺ﴾ بالهجرة منها.

و في وصف القرية الاولى بأشدّ القوّة ايذان بأولويّة الثّانية منها بالإهلاك لضـعف

قوّتها كما أنّ في وصف الثّانية بإخراجه ايذاناً بأولويتها به لقوّة جنايتها...

فكثير من أهل القرى الّذين كانوا أشدّ قوّة من أهل هذه القرية -مكة- أهلكناهم و دمّرنا عليهم تدميراً و لم يكن لهم من ناصر يدفع عنهم بأسنا إذ جآءهم، و أهل هذه القرية قد فعلوا أقبح من فعل أهل القرى الظّالمة الّتي أهلكناهم، فهل إذا أردنا هلاك أهل هذه القرية أهناك من يدفع عنهم بأسناد إذ جآءهم؛ فالآية الكريمة قد تضمّنت تقرير كون مدن كثيرة كان أهلها أشدّ قوة من أهل مكة الّذين اضطروه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى الخروج منها، قد أهلكهم اللّٰه تعالى و لم يجدوا لهم ناصراً منه.

و قد انطوى في هذا التّقرير تقرير كون اللّٰه تعالى قادراً من باب أولى على إهلاك أهل مدينته﴿صلى الله عليه و آله﴾ و التّنكيل بهم.

و قد اقتضت حكمة التنزيل الالتفات في الخطاب إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «قريتك الّتي أخرجتك» في سياق إنذار الكفّار المعاندين، و تسليته﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تثبيته و تطمينه بأنّ اللّٰه تعالى سوف ينتقم من هؤلآء الكفّار كما انتقم ممّن هم أشدّ منهم قوّة.

و في إضافة القرية إلى ضمير الخطاب لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إشارة إلى أنّها قريته، و هو﴿صلى الله عليه و آله﴾ صاحبها و أولى النّاس بها، و إن أُخرج منها... إنّها ستفتح عمّا قريب ذراعيها لرسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تستقبله استقبال الأرض الجديب جآءها الغيث، و إنّها لتكون عمّا قريب، البَلَدَ الإسلاميّ الّذي يوجّه رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الّذين آمنوا معه وجوههم إلى البيت الحرام فيه.

و **قوله تعالى:** «فلا ناصر لهم» يجرى مجرى الحال المحكميّة كقوله تعالى: «و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» الكهف: ١٨) و المعنى: فهم لا ينصرون، فلا يدفع عنهم العذاب إذ جآءهم.

و هذا بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان و الأنصار أثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، و الفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذّات و هو حكاية حال ماضية.

و في الآية الكريمة إشارة إلى أنّ مكة المكرّمة لن يحلّ بها من الدّمار و الخراب و محو

الآثار ما حلّ بقرى القوم الظّالمين، في إضافتها إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ضمان لها من كلّ سوء إلى يوم القيامة ككتابه القرآن الكريم: «إنّا نحن نزّلنا الذّكر و إنّا له لحافظون» "الحجر:٩)

فمكّة المكرّمة قرية النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ و ستظلّ قريته ككتابه إلى يوم الدّين.

١٤- (أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم)

مستأنفة بيانيّة مسوقة سوق التّساؤل الإنكارى عمّا إذا كان الّذين هم على بيّنة من ربهم سآئرون على طريق الحقّ و الهدى، و الخير و الصّلاح و على طريق الكمال و الفلاح و السّعادة و النّجاة... يصحّ أن يكونوا هم سوآء مع الّذين اتّبعوا الهوى، و انقلبت الحقائق في عقولهم و أفكارهم، و زيّنت لهم أعمالهم السّيّئة و هم على سبل الباطل و الضّلالة، و الشّرّ و الفساد، و الانحطاط و الخسران و الشّقاوة و الهلاكة...؟!

مسوقة للشّروع في بيان حال الفريقين: المؤمنين و الكافرين على وجه التّهجين والتّوبيخ للكافرين... فلا مما ثلة و لا مقايسة و لا موازنة و لا مساواة بينهما، فشتّان بينهما!

مسوقة لتقرير التّباين و الفارق بين حالى الفريقين، و لبيان سبب ما لكلّ منهما من الحال و التباين و التّضاد و الاختلاف اعتقاداً و منهجاً و قولاً و عملاً و مآلاً.... و تقرير السّبب في كون المؤمنين في أعلى علّيّن، و الكافرين و المنافقين في أسفل سافلين شتّان بين الفريقين:

فريق التّوحيد و الهداية، و فريق الشّرك و الضّلالة، فريق الايمان و السّعادة، و فريق الكفر و الشّقاوة، فريق الحقّ و و الطاعة، و فريق الباطل و المعصية، فريق الخير و الصّلاح و فريق الشرّو الفساد، و حزب الرّحمن و أهل الرّضوان، و حزب الشيطان و أصحاب النيّران....

و قد تضمنّت الآية الكريمة نفي إمكان التّسوية بين الفريقين، مع التّنويه بالمؤمنين المهتدين الصّالحين، و التّنديد بالكافرين الضّالّين المسيئين....

و التّقدير: أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقراً ثابتاً على حجّة ظـاهرة، و دليـل واضح و برهان قاطع في عقيدته و فكرته و قوله و عمله.... كمن زيّن له سوء عمله....؟!

قوله تعالى: «أفمن كان على بيّنة من ربّه» كون البيّنة من الرّب تأكيد لها، و في إفراد الضّمير إشارات:

منها: أنّ الّذى يكون على بيّنة من ربّه هو تابع لحجّته الباطنة و هي العقل، و حجّته الظّاهرة و هي الدّين القيّم، و قد بنت عليها فطرة الإنسان الّتي فطر النّاس عـليها لا تبديل لخلق اللّه فلا خلاف و لا تعدّد بينهم فيها، و كلّهم على و تيرة واحدة، فالجمع فيها واحد، و الواحد فيها جمع.

قال اللّه عزّوجلّ: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت اللّه الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدّين القيّم و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون» الرّوم: ٣٠)

و منها: أنّ الّذي يكون على بيّنة من ربّه و على هدىً منه، إنّما هو إنسان اسـتقلّ بنظره، و احتكم إلى عقله، و لم يكن منقاداً لهوى نفسه و لالهوى غيره و لا منساقاً و راء هوى نفسه.

و منها: أنّ المؤمنين - و إن كانوا ذواتاً و كثيرة متعدّدة - كلّ منهم له كيانه و وجوده الذّاتيّ المتحرّر من التّبعيّة الإعتقادية - هم كلّهم ذلك المؤمن الّذي على بيّنة من ربه، فكل مؤمن يرى وجوده و وجهه في هذا المؤمن، حيث إنّ المؤمن مرآة المؤمن، كما يرى هو وحده وجوده و وجهه في كلّهم سوآء بسوآء.

و منها: أنّ المؤمن الّذى يكون على بيّنة من ربّه يرجّح ميزانه موازين غير المؤمنين جميعاً، و هو يعلو عليهم و لايُعلى عليه.

و منها: أنّ المؤمن الّذي يكون على بيّنة من ربه لا يتبع إلّا الحق الّذي هو واحد مبدأ و منهجاً و منتهى: «و أنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لا تتّبعوا السّبل» الأنعام: ١٥٣)

و **قوله عزّوجلّ:** «و اتّبعوا أهوآءهم» تأكيد للتزيّن: «كمن زيّن له سوء عمله» و في إفراد «زيّن له سوء عمله» و جمع «واتبعوا أهوآءهم» إشارات أيضاً:

منها: أنّ في إفراد الّذي زيّن له سوء عمله مع بناء فعله للمجهول، إشارة إلى أنّ هذا

التّزيين و إن كان يَرِد على الإنسان من جهة تزين له المنكر وتعزيه به كما يشير إلى ذلك قوله عزّوجلّ: «و قيّضنا لهم قرناء فزيّنوا لهم ما بين أيديهم و ما خلفهم» فصّلت: ٢٥) ولكنّه لا يدفع عنه حمل المسئولية و لا يُعفيه من الحساب و الجزاء إذ «كلّ نفس بما كسبت رهينة» المدّثر: ٣٨).

و منها: أنّ في جمع «و اتّبعوا أهواءهم» إشارة إلى أنّ لغير المؤمنين يتّبعون أهوآئهم الّتي لا تعدّ و لا تُحصىٰ، بل لكلّ منهم أهواء مختلفة لا تجتمع على طريق واحد كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «و لا تتّبعوا السّبل» الإنعام: ١٥٣)

و منها: أنّ في جمع «واتبعوا أهوآءهم» إشارة إلى أنّ أهل الكفر و الضّلال و الشرّ و الفساد يُغري بعضهم بعضاً، و يُغوي بعضهم بعضهم بعضاً، و إذا هم جميعاً يتبادلون أهوآءهم بينهم، فكلّ منهم يأخذ بِهَوَى الآخرين، و هذا هو المصدر الّذي يجيء منه التّزيين كما قال اللّٰه تعالى: «يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً» الأنعام:١١٢)

١٥- (مثل الجنّة الّتي وُعد المتقون فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءاً حميماً فقطّع أمعاءهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت لبيان الفارق بين جزاء الفريقين: المؤمنين و الكافرين و مآل أمرهما، و سيقت لشرح محاسن الجنّة الموعودة آنفاً -إنّ اللّٰه يُدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار- للمؤمنين الصّالحين، و بيان لكيفية أنهارها الّتي اشير إلى جريانها من تحتها، و قد عبّر عن المؤمنين بالمتّقين ايذاناً بأنّ الايمان و العمل الصالح من باب التّقوى الّذي هو عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرّمات....

و هذا من باب تبديل اللازم من الملزوم، فإنّ تقوى اللّٰه يستلزم الايمان به و الأعمال الصّالحة... و سيقت لتقرير عدم إمكان التّسوية في المصآئر الاخرويّة بين المؤمنين و الكافرين، بين المتّقين و الفاجرين، بين الصّالحين و الفاسدين، و بين المخلصين و

المنافقين.... لعدم إمكان التّسوية بينهم بسبب ملك كلّ منهم، فإنّ المتّقين موعودون بجنّة فيها أنهار من ماء نقيّ سائغ، و أنهار من لبن طيّب، و أنهار من خمر لذيذ، و أنهار من عسل مصفّى، و لهم فيها كلّ الثّمرات بالإضافة إلى رضاء اللّه تعالى و غفرانه، في حين أنّ الكافرين مقدّر عليهم الخلود في النّار يشربون فيها المآء شديد الغليان الّذي يقطع الأمعآء....

و قد جآءت هذه التّعبيرات الوصفيّة عمّا في الجنّة من النّعم، و عمّا في النّار من العذاب باسلوب التفخيم و التّعظيم و التّشريف و التكريم لحظّ السّعدآء، و التّهويل و التذليل لحظّ الأشقياء للتشويق و الإرهاب ممّا جرى عليه النّظم القرآنيّ.

قوله تعالى: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون - كمن هو خالد في النّار» كلام في صورة الإثبات، و لكن المراد نفي و إنكار لانطوائه تحت كلام مصدّر بحرف الإنكار و دخوله في حيّزه و هو قوله: «أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله» فكأنه قال: أقصّة الجنّة كقصّة جزآء من هو خالد في النّار؟! كلّا! ليست مثلها، ليس من هو على بيّنة من ربّه كمن يتّبع هواه كما لا تستوى الجنّة و النّار، و لا يستوي ذو البرهان و ذو الهوى. فحذف منه ذلك ايجازاً و اختصاراً و في تعريته من حرف الإنكار زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسّك بالبيّنة و المتّبع لهواه، و أنّه بمنزلة من يسوّى بين الجنّة الّتي فيها تلك الأنهار و الثّمرات و المغفرة و بين النّار الّتي يسقى أهلها الحميم الّتي تقطّع أمعآءهم....

و لكون المثَل ممّا فيه غرابة استعير لفظه للقصّة إذا كان لها شأن عجيب و نوع غرابة، و المراد بالغرابة أنّها لما فيها من البلاغة و رونق الفصاحة و النّدرة الّتي ترقت بها إلى الغاية في بابها، صارت عجيبة جدّاً.

و معنى **قوله تعالى:** «مثل الجنّة...» فيما قصصنا عليكم من العجآئب قصّة الجنّة العجيبة الشّأن...

و **قوله عزّوجلّ:** «فيها أنهار من ماء غير آسن...» مستأنفة بيانية مسوقة لشرح المثَل و تفسيره، و في ذلك تمثيل لأشربة في الجنّة لذيذة مجرّدة من كلّ تنقيص و نقص مع استمرارها و كثرتها، و متحلّية بما يوجب غزارتها و دوامها مع أنواع الثّمرات فيها و غفران الذّنوب كلّها...

و قد أشار إلى أربعة أنواع من أنهار الجنّة: **ألف**: أنهار من ماء. **ب**: أنهار من لبن. ج:أنهار من خمر. د: أنهار من عسل. و هي الأنهار الّتي وعد اللّٰه تعالى بهاالمؤمنين في قوله آنفاً: «جنّات تجرى من تحتها الأنهار»

و قوله تعالى: «و مغفرة من ربّهم» و في التّعبير عنه سبحانه بربّهم إشارة إلى غشيان الرّحمة و شمول الحنان و الرّأفة الإلهيّة. و في تنكيرها من الفخامة الذّاتية بالفخامة الإضافيّة ما لا يخفى أى مغفرة كائنة من ربهم.

و قوله عزّوجلّ: «كمن هو خالد في النّار....» تهويل و تخويف و تهديد و وعيد شديد للكافرين و من يسلك مسالكهم في كلّ ظرف من الظّروف...

إن تسئل: انّ قوله تعالى: «مثل الجنّة...» يستدعي أمراً يمثل به فما هو؟

اجيب عنه: أوّلاً: يظهر ما سبق منّا آنفاً في معنى «مَثَل الجنّة...» وثانياً: أن يكون معنى «مَثَلُ الجنّة»: وصف الجنّة، و كلا الوجهين لا يقتضي ممثلاً به.

إن تسئل: إنّ اللّٰه تعالى قال: «و أنهار من خمر لذّة للشاربين» كيف حرّم الخمر و منع النّاس منها في الحياة الدّنيا إذ قال: «إنّما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشّيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» المائدة: ٩٠)

و قد جعلها من نعمه على المتّقين في الدّار الآخرة؟

اجيب عنه: إنّ اللّٰه عزّوجلّ حرّم خمر الدّنيا لما فيها من سكر يوجب الصّداع و ذهاب العقل، و أنّ شاربها غالباً يبول تحته و يقيء ما في بطنه، و أنّها ضارّة في شرايين القلب و في الكبد و الرّئة... و غير ذلك من المفاسد الأخلاقية و الإجتماعيّة و الدّينيّة و الدّنيويّة بخلاف خمر الآخرة فإنّها لذّة للشاربين من دون عيب من تلك العيوب... لقوله تعالى: «يطاف عليهم بكاس من معين بيضاء لذّة للشاربين لا فيها غول و لا هم عنها ينزفون» الصّافّات: ٤٥-٤٧)

إن تسئل: قال اللّٰه سبحانه: «و لهم فيها من كل الثّمرات و مغفرة من ربّهم» كيف يكون للمتقين في الجنّة مغفرة و هم لا يدخلون فيها إلّا بعد المغفرة؟

اجيب عنه: أولاً: أنّ معنى المغفرة في الجنّة: غشيان الرّحمة و شمول الحنان و الرّأفة

الإلهيّة بالمتّقين كما يشير إلى هذا المعنى، التّعبير «من ربّهم» فلا تتكدّر عيشتهم فيها بمكدّر و لا ينغّص بمنغّص. و ثانياً: يجوز أن تكون «مغفرة» عطفاً على قوله: «لهم فيها» أو مبتدأً لخبر محذوف كما سبقّ منّا في بحث النّحو. فالتقدير: و لهم مغفرة قبل دخولها. فلا يكون المعنى: لهم فيها مغفرة من ربّهم.

و لبعض المفسّرين في الآية كلام لا يخلو من فائدة.... فقال:

هذه الآية تعقيب على الآية السّابقة: «أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم»؟ في قوله تعالى: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون...» جواب عن هذا السّئوال الذي أثارته الآية السّابقة، و قد جآء هذا الجواب في صورة سئوال يحتاج هو إلى جواب آخر، ولكن جواب هذا السّئوال قريب واضح، يكاد يمسك باليد.

فما هي إلّا نظرة يلقيها الإنسان إلى أهل الجنّة، و ما يلقون فيها من نعيم، و إلى أهل النّار، و ما يساق إليهم من عذاب، حتّى يرى هذا البُعد البعيد بين المتّقين الّذين كانوا على بيّنة من ربّهم و هم أصحاب الجنّة، و الكافرين الّذين هم سوء أعمالهم فرآوه حسنات و هم أصحاب النار، و من هنا كان من المناسب ذكر الجنّة و ما فيها من ألوان النّعيم...

و **قوله تعالى**: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون...» هو استفهام يُرَدّ به على الاستفهام في قوله سبحانه: «أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله...»؟ و الجواب: كلاّ! ليس من كان على بينة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله... وكيف يكونان متماثلين؟ أمَثَل الجنّة الّتي وعد المتّقون، ينعمون فيها بما يشاؤن كمثل النّار الّتي يلقىٰ فيها المجرمون، يَطْعَمُون من جمرها و يشربون من لهيبها؟

و يلاحظ في الآية الكريمة أنّ عرض المقابلة بين أصحاب الجنّة و أصحاب النّار، لم يكن متطابقاً، فقد جائت الجنّة مقابلة لأصحاب النّار هكذا: «مثل الجنّة الّتى وُعِد المتّقون –كمن هو خالد في النّار»؟ و لو جائت المقابلة على وجه التّطابق، لجاء النّظم هكذا: «أمَثَل الجنّة الّتى وعد المتّقون –كمثل النّار الّتي وعد المكذّبون المجرمون»؟ أو هكذا: «أمَثَل أصحاب الجنّة الّتي ينعمون بطيّباتها... كمثل أصحاب النّار الّذين يتقلّبون على جمرها...»؟

فما وجه هذا؟ و ما سرّه؟ الجواب -و اللّٰه تعالى هو أعلم- من وجوه:

منها: ليس المهمّ في بلاغة المقابلة بين الامور -لكي تتّضح وجوه الخلاف بينها، ومن ثمّ تتّضح سمة كلّ مقابل في وجه مقابله- ليس المهمّ في بلاغة المقابلة هنا، هو التّطابق بين الصّورتين: الموجبة و السّالبة كما في العمل «الفتو غرا في»... و إنّما الصّميم من البلاغة هو أن يقع التّطابق فيما و رآء الغلاف الخارجيّ أو السّطح الظّاهريّ للأشيآء... بحيث يبلغ أعماقها، و ينفذ إلى جوهرها...

و منها: هنا في هذه الصّورة التّطابقيّة الّتي جآئت بها الآية الكريمة لأصحاب الجنّة و أصحاب النّار.. نرى صورتين متطابقتين أتمّ التّطابق و أكمله و أروعه... ففي صورة النّعيم نرى جنّة!

و هذه الجنّة موصوفة بأربع صفات:

أولاها- أنّها للمتّقين الّذين وعدهم اللّٰه إيّاها لا غيرهم...

ثانيها- أنّ فيها أنهاراً من ماءٍ غير آسن، و أنهاراً من لبن لم يتغيّر طعمه، و أنهاراً من خمر لذّة للشّاربين، و أنهاراً من عسل مصفّىً. ثالثها- أنّ لهم فيها أنواع الثّمرات كلّها... رابعها- أنّ لهم فيها عيشة غير متكدّرة و لا متنغّصة.

فاللّون الغالب البارز في هذه الصّورة هو لون الجنّة، أمّا أصحابها فهم لون أقلّ بروزاً و ظهوراً من الجنّة ذاتها... وهذا يعني -في مقام الإحسان- المبالغةَ فى إكرام هؤلآء الضّيف المدعوّين من اللّٰه تعالى، الموعودين بالنّعيم في جنّاته... فإنّه بمقدار الاهتمام بالإعداد لاستقبال الضّيف يكون مقدار منزلته عند مضيفه... و في صورة الإعداد لاستقبال الضّيف -أيّ ضيف- يَعرِف -من لم يكن يعرف- قدرَ هذا الضّيف و منزلته، و إن لم يعرف من يكون، و ما الجهة الّتي يجيء منها...

و في الصّورة المقابلة لصورة النّعيم... ماذا نرى؟ نرى اللون الغالب فيها، و الّذي يكاد يغطى الصّورة كلّها، هو أصحاب النّار، و ما يَلقَون فيها من عذاب و نكال... فهناك أُناس خالدون في النّار، مقيمون إقامةً دآئمة فيها، شرابهم مآء يغلى فيقطع الأمعآء... هذا هو كلّ ما في الصّورة! و لكن كلمة «النّار» و إن أخذت حيّزاً ضئيلاً من الصّورة فإنّها

تُلقي على الصّورة كلّها ظلالاً كثيفة كئيبة، تتراقص عليها واردات جهنّم كلّها، وما يساق إلى أهلها من ألوان العذاب و النّكال... و من تلك الواردات هذا الماء الجهنّميّ الّـذي يقطع أمعآء من يدخل إلى أمعآئهم...

و من جهة اخرى، فإنّ إبراز أصحاب النّار في النّار و تلوّنهم باللّون الغالب الواضح فيها - إشارة إلى أنّ أصحاب النّار قد أصبحوا بعضاً من النّار، بل إنهم الشّاهد المبين عنها و عن أفعالها و آثارها... إنهم حطب جهنّم... فهم إذن هذا اللّهب المتسعّر منها، و أنّه لو لا هذا الحطب لما كانت هذه النّار، و هل نار بغير وقود؟

فإذا نظرنا إلى الصّورتين: صورة النّعيم، و الصّورة المقابلة لها على نحو نظرتنا هذه، وجدنا الجنّة و أهلها، و النّار و أصحابها، و رأينا التّقابل كاملاً بين الصّورتين، و ذلك بما يجريه العقل من عمليات منطقيّة تقيم المتقابلين على ما يقضى به التّطابق بينهما... فإذا كانت هنا جنّة فلتكن هناك نار، و إذا كان في النّار أهلها و ما يكابدون من عذابهـا، فليكن في الجنّة أهلها، و ما ينعمون به من خيراتها... و هكذا تتبادل الصّورتان، فتأخذ كلّ منهما من الاخرى عكس ما تعطى من الصّفات أو الذّوات...

قوله تعالى: «فيها أنهار من ماء غير آسن...» هومن صفات هذه الجنّة و ما فيها من ألوان النّعيم... فإذا كان في جنّات الدّنيا جداول تجرى أو أنهار تتدفق... فـالجنّة الّـتي أُعدّت للمتّقين فيها أنواع شتّى من الأنهار لم تعرفها الجنّات في الدّنيا... ففي الجنّة الّتي وعد المتّقون: «أنهار من مآء غير آسن» أى غير متغيّر الرّيح أو الطّعم أو اللون، فهو مآء جار، صاف، طهور... عذب فرات... و في هذه الجنّة: «أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» أى لبن كأنّما حُلِبَ لساعته، لم يمر به زمن يُنقل فيه اللبن من حال إلى حـال، أو أحـوال، اخرى... و في تلك الجنّة: «أنهار من خمر لذّة للشّاربين» أى يلذّ طـعمها للشّـاربين... فليس فيها من خمر الدّنيا هذا الطّعم المرّ اللازع، كما أنّها لا تخامر العقل، و لاتـذهب باللّبّ كما قال اللّه عزّوجلّ: «لا فيها غول و لا هم ينزفون» الصّافات: ۴۷)

و في الجنّة أيضاً أنهار من عسل مصفّى أى خالص من أىّ شائبة تعلق به...

إنّها جنّة فيها مشابه ممّا عرف النّاس من نعيم الدّنيا، و لكن الفرق بعيد، و البـون

شاسع بين الحقيقة و المثال، بين الكائن الحيّ و ظلّه الواقع على الأرض! و لعلّ في ذكر الثّمرات بعد المشروبات إشارة إلى أنّ مأكولات أهل الجنّة للذّة لا لحاجة، حيث إنّ الثّمار بعد المشروب للتفكّه و اللذّة.

١٦- (و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت سوق الحكاية و التعرّض لحالة من حالات المنافقين المذبذبين بين الكفر و الايمان، و لحالة بعض المؤمنين من الصّحابة حينما كانوا يحضرون مجالس رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يستمعون إلى ما يقوله و يبلّغه، و هم لا يلقون إليه بالاً، و لا يراعونه حقّ رعايته تهاوناً منهم، و حينما يخرجون من عنده﴿صلى الله عليه و آله﴾ يسئلون - استخفافاً و سخرية - بعض ذوى العلم و الفهم من أصحاب النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه و آله﴾ الّذين شهدوا المجلس عمّا قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من شيء جديد: ماذا قال آنفاً على وجه الاستهزاء و التعنّت و الإهانة و قلة الاعتناء و عدم المبالاة به.

قوله تعالى: «و منهم» الضّمير راجع إلى الكافرين الّذين سبق ذكرهم في الآيات السّابقة، و فيه دلالة على أنّ المنافقين في زمرة الكافرين، و إن كانوا -ظاهراً- بين المؤمنين.

و قوله عزّوجلّ: «من يستمع إليك» و لم يقل: «من يستمع قولك» كقوله تعالى: «يستمعون القول» الزّمر: ١٨) تنبيهاً إلى أنّهم بعيدون عن الوحي، و عن رسول الوحي﴿صلى الله عليه و آله﴾ رغم أنّهم كانوا عنده﴿صلى الله عليه و آله﴾ فحرف «إلى» تؤمي إلى البعد و أنّهم صمّ في استماعهم كقوله عزّوجلّ: «و منهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصّمّ و لو كانوا لا يعقلون» يونس: ٤٢) فهم صاغون كحيوان صمّاً عن صوغ الإنسان، فإذا استمعوا إليك ليس إلّاهزءاً أو تجسّساً، و هم لا يريدون الهدى و لا يطلبون الايمان، و إنّما هم قصدوا أن يشغبوا و يشوّشوا على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إن وجدوا إلى الشّغب و التشويش، فإن لم يجدوا سبيلاً إلى هذا في مجلس النبيّ الكريم﴿صلى الله عليه و آله﴾ تصيّدوا الأكاذيب و المفتريات....

ثمّ أذ اعوها بين النّاس متّخذين من حضورهم مجلس الوحي، دليلاً على أنّهم يقولون عن علم، و يتحدّثون عن واقع!

و **قوله عزّوجلّ:** «حتّى إذا خرجوا من عندك...» «حتّى» حرف غاية، أنّ غاية هؤلآء المنافقين المستهزئين أن يقفوا من الّذين اوتوا العلم هذا الموقف، الّذي يلقونهم فيه هازئين، لاهين، مشكّكين في آيات اللّه تعالى و في المعارف الكريمة الّتي بين يديها... فلولا حضورهم مجلس رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ و الاستماع إلى ما يتلو من آيات اللّه تعالى لما كان لهم سبيل إلى أن يقفوا هذا الموقف من المؤمنين، الّذين حضروا معهم هذا المجلس، فحضورهم مجلس النّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ له غاية ينتهى إليها، و هي الخروج من عند رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ و موقفهم مع المؤمنين قائلين لهم:

«ماذا قال آنفاً» و مقصودهم من ذلك هو الاستهزاء و التّهاون و السّخريّة و التّجهيل، و إن كان بصورة الإستعلام، فإنّ من طبع المنافق أن يكون ذاوجهين في كلّ حال، فالمنافقون كالكافرين سيرة و كالمومنين صورة، «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء» النساء: ۱۴۳)

كما يشير إليه قوله تعالى: «و منهم...» فالمنافقون هم الكافرون و المشركون، و إن جاؤا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ و يستمعون إلى ما يقول، و إن أعلنوا إسلامهم و دخلوا بين المسلمين كما أنّ الشّيطان كان بين الملائكة و لم يكن منهم...

و **قوله سبحانه:** «للذين اوتوا العلم» هم المؤمنون الّذين كانوا يستمعون القول بآذان مصيغة و قلوب واعية، و عقول سليمة و أفكار متحرّرة، و من هنا كانوا يحصلون العلم من الوحي على كلا وجهيه: الكلّيّ و هو الكتاب، و الجزئيّ و هو السّنّة من طريق أهل بيت النّبوّة ﴿ﷺ﴾ و في هذا تعريض بالمنافقين، و وصفهم بالجهل و الغباء و البلادة و السّفاهة... و أنّهم لو كانوا على حظّ من العقل و الإدراك لكانوا من الّذين اوتوا العلم الّذين كانوا يجلسون فى مجلسهم، و يستمعون ما استمعوه، و لكن شتّان بين اُذنين تسمعان اُذُن إنسان و اُذُن حيوان....

فهؤلاء المنافقون الّذين استمعوا إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ قد فضحوا أنفسهم و كشفوا

عن غبآئهم، إذ جآؤا يسئلون عن مضمون كلام استمعوا إليه دون أن يدركوا له معنى، مع أنّ هذا الكلام قد أفآء على من استمعوا إليه، و أحسنوا الاستماع - قد أفآء عليهم علماً، و خلع عليهم خلعة العلمآء، فكانوا من الّذين اوتوا العلم يسئلهم المنافقون هذا السّئوال الغبيّ: «ماذا قال آنفاً»؟ و هو سئوال المستهزئ السّاخر.... و «آنفاً» أى عن قريب من الزّمن الماضي.

و **قوله جلّ وعلا**: «اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم...» تعريف للمنافقين ببيان آثار استهزاءهم و تعنّتهم و تهاونهم بما سمعوا إليه، و إشارة إلى مواقفهم و حملة عليهم و فضح لأخلاقهم و مكائدهم و قبيح خصالهم... فقد طبع اللّه على قلوبهم بسبب كفرهم و نفاقهم و خبث طواياهم و اتّباعهم الأهواء... ففقدوا السّداد و الرّشاد و الإدراك وانساقوا وراء الأهواء... فلا تقبل قلوبهم خيراً و لا تأذن بخير يدخل فيها، و من أجل هذا فقد أُخْلوا مع أهوآئهم، تقودهم إلى حيث مواقع الضّلال دمن أن تمتدّ إليهم يد منقذة... إنهم قطعوا كلّ سبب يصل بينهم و بين أيّة وسيلة من وسائل الإنقاذ و النّجاة....

فقد وقع عليهم هذا الحكم بعد موقفهم هذا من الاستماع إلى الوحي السّماوي و إلى كلام رسول الوحي﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثمّ سئوالهم عمّا سمعوا هذا السّئوال المستهزئ المنكر....

و **قوله سبحانه**: «و اتبعوا أهوآءهم» تعريف بعد تعريف، و تقرير لسبب كفرهم و نفاقهم...

إن تسئل: أيجوز أن يطبع اللّه تعالى على قلوب عباده ثمّ يعاقبهم، و ما ذلك إلّا كما قال الشّاعر:

ألقاه في البحر مكتوفاً و قال له إيّاك إيّاك أن تبتل في المآء

اُجيب عنه: أوّلاً: أنّ اللّه سبحانه لن يطبع قلب عبد من عباده من دون سبب الطّبع من جانب العبد، و قد أشار إليه في الآية الكريمة.

و ثانياً: أنّ المنافقين على ما كانوا عليه من كفر و نفاد و من عناد و لجاج و ما ران على قلوبهم ممّا اكتسبوا من جرآئم و اجترحوا من سيّئات... صار سبباً لتركهم في ضلال لا يستسيغون الحق و لا ينفذ في قلوبهم و لا يخلص إلى ضمآئرهم، فأعرضوا عنه

إستكباراً عن قبوله و ترك قلوبهم تمجه و تنبو عن الإصغآء إليه، فانتهى بهم الحال إلى تحجر قلوبهم و أفكارهم و ذلك معنى الطّبع على قلوبهم، و نُسِب إلى اللّه عزّوجلّ مجازاً لأنّه خلّى بينهم و بين اختيارهم إذ منعهم ألطافه....

۱۷- (و الّذين اهتدوا زادهم هدى و اٰتاهم تقواهم)

مستأنفة بيانية أو معطوفة على الآية السّابقة من باب عطف التّقابل و التّضاد بين المعطوف و معطوف عليه و هما الفريقان المتقابلان: فريق الكفر و الضّلالة، و فريق الايمان و الهداية، و فريق النّفاق و المعصية و فريق الإخلاص و الطّاعة... و بهذه المقابلة بين الفريقين يظهر أنّ المراد بالإهتداء، ما يقابل الضّلال الملازم للطّبع على القلب المريض، و هو التّسليم لما تهدى إليه الفطرة الإنسانية و العقل السّليم الملازم لاتّباع الحقّ، و المراد بزيادة الهدى من اللّه تعالى رفعه سبحانه درجة الايمان على مراتبها، و المراد بالتّقوى ما يقابل اتّباع الأهواء، و هو الورع عن محارم اللّه تعالى و الإجتناب عن ارتكاب السّيئات و العمل بالواجبات كلّها...

و بذلك يظهر أنّ زيادة الهدى راجع إلى تكميل المؤمنين في ناحية العلم، و ايتاء التّقوى إلى تكميلهم في جانب العمل، كما يظهر أيضاً بالمقابلة بين الفريقين أنّ الطبع على قلوب المنافقين راجع إلى فقدانهم كمال العلم، و اتّباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصّالح و حرمانهم منه.

و في إسناد اتّباع الأهواء إلى المنافقين، و إسناد التّقوى إلى اللّه تعالى ايماء إلى معنى قوله جلّوعزّ حكاية عن إبراهيم(عليه السلام): «و إذا مرضت فهو يشفين» الشّعراء: ۸۰) و تلويح إلى أنّ اتّباع الأهواء مرض روحيّ، و ملازمة التّقوى دواء إلهيّ، و هذا هو التقابل بين ما عليه المنافقون، و ما عليه المؤمنون.

و في الآية الكريمة دلالة على ولاية اللّه تعالى للمؤمنين بأنّه سبحانه يتولّاهم بالتّوفيق و المعونة على إقامة الحجّة و البرهان لهم في هدايتهم، فيمدّهم بها آناً فآناً و حالاً فحالاً بحسب اكتسابهم للخيرات و استزادهم من الفهم و البصيرة و العلم و العمل الصّالح.

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي رضوان اللّٰه تعالى عليه: «و الوجه في إضافة الزّيادة في الهدى إلى اللّٰه هو ما يفعله تعالى بهم من الألطاف الّتي تقوي دواعيهم إلى التمسّك بما عرفوه من الحقّ و تصرّفهم عن العدول إلى خلافه، و يكون ذلك تأكيداً لما عملوه من الحقّ و صارفاً لهم عن تقليد الرّؤسآء من غير حجّة و لا دلالة». إنتهى كلامه و رفع مقامه.

إنّ المهتدين هم المؤمنون الّذين اوتوا العلم، إذ لا يكون الايمان ايماناً حقاً إلّا عن علم، و المهتدون إنّما اهتدوا لأنّهم اوتوا علماً، فكان هذا العلم طريقاً فسيحاً لهم إلى مزيد من العلم، و مزيد من الهدى...

فكلّما ازداد الإنسان معرفة بربّه جلّ وعلا ازداد هدى و ازداد تقوى.

فيجب على الإنسان أن يلتمس الهدى و يطلبه من ذات نفسه بعون اللّٰه تعالى و توفيقه، و هو في هذا إنّما يستجيب لفطرته و لداعى عقله السّليم، و إذا لم يتّجه إلى هذا الإتّجاه كان مصادماً لفطرته، معطّلا لمدركاته و مغلوباً لطبيعته، فيكون عندئذ أشبه بالحبّة الّتي أفسدها السّوس، أومسّها العَفَن و العطن... إنّها تبذر مع غيرها من الحبّ، و تسق الماء كما يسق غيرها... و لكنّها تظلّ جسماً ميّتاً هامداً في الأرض يأكله الثّرى على حين يخرج غيرها نباتاً، ثمّ يكون زرعاً مزهراً مثمراً....

و انّ كلّ حبّة من تلك الحبّات الّتي نبتت و ازدهرت و أثمرت، لم تخرج إلى وجه الأرض إلّا بما فيها من حياة كامنة، و إلّا بمجهود ذاتيّ، بذلته الحبّة حين اختلطت بالمآء و التّراب، حتّى لكأنّها الأُنثى تضع حملها، فتعانى آلام الطّلق و الوضع!

انّ المهتدين هم الّذين بذلوا جهداً ذاتياً من ذات أنفسهم للاتّجاه نحو النّور و الدّخول في دآئرته... هؤلآء يزيدهم اللّٰه تعالى هدى بهذا النّور الّذي وضعه بين أيديهم، فيرون على ضوء هذا النّور أكثر ممّا رأوا، حيث تهديهم هذه الرّؤية إلى نور أعظم، فيسعون إليه و يدخلون في دآئرته... و هكذا... «نور على نور يهدى اللّٰه لنوره من يشآء» النّور: ٣٥)

أى من يستضيىء بنوره.

و قوله عزّوجلّ: «و آتاهم تقواهم» يشير إلى أنّ التّقوى الّتي يبلغها المؤمن بايمانه هي مطلب أعظم من مطلب العلم، و أنّها إنّما تُنال بعد جهد و مصابرة و تزكية... و لهذا فإنّه حين يبلغ الإنسان الدّرجة الّتي يدخل بها مدخل المتّقين، يُحتفى به في الملأ الأعلى، و تُخلع عليه خِلعة التّقوى من اللّه تعالى ربّ العالمين، و هذا ما يشير إليه قوله سبحانه: «و آتاهم تقواهم» إنّها هبة عظيمة من اللّه عزّوجلّ و عطاء كريم من ربّ كريم، لعباد كرام على اللّه جلّ وعلا، مكرمين في رحابه....

و قوله سبحانه: «و الّذين اهتدوا» و «آتاهم تقواهم» كلاهما يشيران إلى أنّ تحصيل العلم ليس مطلوباً و غاية في ذاته، و إنّما هو وسيلة إلى تحصيل الهدى، و بالهدى يكون تحصيل الصّفات الفاضلة و الأخلاق الطّيّبة الّتي تكمّل الإنسان و تجمّله، و إنّه لا أكمل و لا أجمل من التّقوى كما قال اللّه تعالى: «و لباس التّقوى ذلك خير» الأعراف: ٢٦) و قوله عزّوجلّ: «و تزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى» البقرة: ١٩٧)

و لعلّ من أجل هذا جاء فعل الهدى محمولاً على فاعله: «و الّذين اهتدوا» على حين جاء إتيان التّقوى مسنداً إلى الفعّال المريد، اللّه تعالى ربّ العالمين: «و آتاهم تقواهم» لأنّ التّقوى مطلب عسير ومقام كريم، تمتدّ به يد الرّحيم الكريم، إلى من أخذوا بالأسباب إلى التّقوى من معرفة النّفس، و معرفة ربّها و تزكيتها قال اللّه تعالى: «و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها قد أفلح من زكّاها و قد خاب من دسّاها» الشمس: ٧-١٠).

١٨- (فهل ينظرون إلّا السّاعة أن تأتيهم بغتة فقد جآء أشراطها فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم)

مستأنفة بيانيّة مسوقة سوق السّئوال الإستنكاري عمّا إذا كان الكافرون و حليفهم المنافقون ينتظرون قيام السّاعة حتّى يخافوا و يؤمنوا مع أنّها لا تأتيهم إلّا بغتة و قد جآءت معالمها، و حينما تأتي لا ينفعهم التّذكّر و الإرعوآء.

في الآية الكريمة - مع كونها حجّة برهانيّة- بيان و ايماء لامور:

منها: تنديد بالكافرين و المنافقين و إنكار عليهم موقفهم هذا من الايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بكتابه و باليوم الآخر لارتكاسهم في الكفر والضّلالة و النّفاق و الغواية... و عدم استجابتهم إلى دعوة اللّٰه تعالى قبل فوات الفرصة لأنّهم إذا فاتتهم ندموا حيث لا ينفع النّدم.

و منها: تقريع يقرّعهم على أنّهم لم يفتحوا أبصارهم و لا بصآئرهم لهذا النّور الّذي بين أيديهم، و لا إلى هذه المثلات الّتي حلّت بالامم الماضية.... قبلهم....

و منها: وعيد و تهديد يهدّدهم بالعذاب الّذى يلقاهم يوم القيامة وقد قرب يومها و جآئت علاماتها المنذرة بمقدمها....

و منها: إشارة إلى غفلتهم عن النّظر و التّأمّل في مآل أمرهم إذ بلغوا الغاية في العناد و اللجاجة، و النّهاية في الاستكبار و الضّلالة بعد إقامة البراهين القاطعة و الأدلّة الواضحة على وجوب الايمان، و هم لم يؤمنوا، فلا يتوقّع منهم ايمان بعدئذ إلّا حين مجيئ السّاعة بغتة، و ها هى ذات أشراط قد ظهرت، و مقدّمات قد بدأت، ولكنّهم لم يأبهوا بها و لا فكروا في أمرها...

و منها: تهكّم بهم كأنّهم واقفون موقفاً عليهم إمّا أن يتّبعوا الحقّ فتسعد بذلك عاقبتهم، و إما أن ينتظروا السّاعة حتّى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها تذكّروا و آمنوا و اتّبعوا الحقّ، أمّا اتّباع الحقّ اليوم فلم يخضعوا له بحجّة أو بموعظة أو عبرة، و أمّا انتظارهم بمجيىء السّاعة ليتذكّروا عنده فلم ينفعهم شيئاً، فإنّها تجيىء فجأة، و لا تمهلهم شيئاً حتّى يستعدّوا لها بالذّكرى، و إذا وقعت لم ينفعهم الذّكرى لأنّ اليوم يوم جزاء لا يوم العمل، مضافاً إلى أن معالمها الدّالة عليها قد جآئت و تحقّقت.

و منها: حثّ لهم على الإرعواء و الاستجابة بدون إبطآء و إضاعة فرصة.

و قوله عزّوجلّ: «فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم» إظهار لخطأئهم و حكم بأنّ رأيهم آفن في تأخيرهم التّذكّر إلى قيام السّاعة ببيان أنّ التّذكّر لا يجدى نفاً حينئذ.

و قوله عزّوجلّ: «إلّا السّاعة» سمّيت القيامة بالسّاعة لسرعة قيامها كما قال تعالى: «أن تأتيهم بغتة».

۱۹-(فاعلم أنّه لا إله إلّا اللّٰه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّٰه يعلم متقلّبكم و مثواكم)

إلتفات إلى رسول اللّٰه(ﷺ) على سبيل التّسلية و التّثبيت و التّطمين و التعقيب على الآيات السّابقة.... كأنّه جلّ وعلا قال: أيّها النّبيّ الكريم(ﷺ) لا ينبغي لك أن تغتمّ كثيراً لتصامم اولئك الكفّار و المنافقين على الكفر و الضّلالة و البغي و الغواية، و إعراضهم عن الدّعوة إلى الحقّ و الهداية.... فاللّٰه تعالى كافٍ لهم، و ليس الأمر عليك إلّاالإستمرار في توحيد اللّٰه جلّ وعلا و الدّعوة إليه و التّقرّب إليه بالعبادة، و طلب المغفرة لذنبك و لذنوب المؤمنين و المؤمنات، و اللّٰه تعالى هو العليم بجميع حركات عباده و سكناتهم، وحلهم و ترحالهم و بيده مصآئرهم.... فذر الكافرين و حليفهم يخوضوا و يلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون.

انّ الآية الكريمة مستأنفة بيانيّة لتقرير التّوحيد و الوحدانيّة للّٰه تعالى على طريق الخطاب إلى النّبيّ الكريم(ﷺ) و المراد به امّته(ﷺ) أي فإذا علمت سعادة المؤمنين و ثوابهم في الجنّة، و شقاوة الكفّار و المنافقين و عقابهم في النّار فاثبت على ما أنت عليه من موجبات السّعادة أوّلها هو العلم بوحدانيّة اللّٰه تعالى إذ أوّل العلم معرفة الجبّار، واستمسك حظوظ نفسك أوّلها التّواضع و إصلاح حال النّفس باستكمالها بالإستغفار لذنبك مع كمال عصمتك ليستنّ امّتك بسنّتك و للمؤمنين و المؤمنات....

العلم: هنا بمعنى اليقين و هو التّصديق الجازم المطابق الثّابت الّذي لن يتغيّر قطّ.

و في تقديم الأمر بالتّوحيد ايذان بمزيد شرف التّوحيد فإنّه أوّل الّدين و أساس الطّاعات و نبراس العبادات....

قوله تعالى: «لا إله إلّا اللّٰه» منطوقة قصر الا لوهيّة على اللّٰه عزّوجلّ قصراً حقيقيّاً أي إثباتها له جلّ وعلا بالضّرورة و نفيها عن كلّ ماسواه كذلك، و هو يستلزم توحيد الذّات و الصّفات و الأفعال...

أمّا الأوّل: فمن المعلوم أنّه ما في الوجود شيء إلّا و هو مطلوب لطالب ما، و قدصحّ إطلاق الإله عليه، و لا إله إلّا اللّٰه فما في الوجود حقيقة إلاّ اللّٰه. و بوجه آخر: أنّ «إلّا»

بمعنى غير بدل من «إلّا» له المنفيّ، فيكون النّفي في الحقيقة متوجّهاً إلى الغير و نفي الغير توحيد حقيقيّ.

و أمّا الثّاني: فلأنّ الكلمة الطّيّبة تدلّ على أنّ الألوهيّة ثابتة للّه تعالى وحده ثبوتاً مستمرّاً ممتنع الإنفكاك و منتفية عن غيره انتفاء كذلك، و كلّ ما كان كذلك فهي دالّة على أنّه جلّ وعلا واجب الوجود، و أنّ كلّ موجود سواه عزّوجلّ ممكن الوجود، و كلّ ما كان كذلك كان وجوب الوجود مقصوراً عليه سبحانه، و هو مستلزم لسآئر الصّفات و هو المطلوب أمّا دلالتها على أنّه تعالى واجب الوجود فلأنّ الالوهيّة لا تكون إلّا الموجود حقيقة اتّفاقاً، و كلّ ما لا يكون صفة إلّا لموجود إذا دلّ كلام على أنّه ثابت لشيء ثبوتاً ممتنع الإنفكاك سرمداً، فقد دلّ على أنّ الوجود ثابت لذلك الشّيء ثبوتاً ممتنع الإنفكاك سرمداً و لا يكون كذلك إلّا إذا كان موجوداً لذاته و هو المعنى بواجب الوجود لذاته.

و حيث دلّت على ثبوت الالوهيّة ثبوتاً مستمرّاً ممتنع الإنفكاك فقد دلّت على وجوب وجوده عزّوجلّ و هو مستلزم لسآئر صفات الكمال و هو المطلوب، و أمّا دلالتها على أنّ كلّ موجود سواه فهو ممكن الوجود فلأنّ موجوداً ماسواه لو كان واجب الوجود لذاته لكان مستحقّاً أن يعبد لكنّها قد دلّت على أنّه لا يستحقّ أن يعبد إلّا اللّه تعالى، فقد دلّت على أنّه لا واجباً وجوده لذاته إلّا اللّه عزّوجلّ، فكلّ ما سواه فهو ممكن و هو المطلوب.

و أمّا الثّالث: و هو قصر الخالقيّة في اللّه جلّ وعلا فإنّ مقتضى قصر الالوهيّة عليه تعالى قصراً حقيقيّاً هو أنّ اللّه سبحانه هو الّذي يستحقّ أن يعبده كلّ مخلوق: «إن كلّ من في السّموات و الأرض إلّا آتى الرّحمن عبداً» مريم: ٩٣) فهو النّافع الضّارّ على الإطلاق و هو وحده خالق كلّ شيء «ذلكم اللّه ربّكم لا إله إلّا هو خالق كلّ شيء فاعبدوه» الأنعام: ١٠٢)

فإنّ كلّ من لايكون خالقاً لكلّ شئ لايكون نافعاً ضارّاً على الإطلاق، و كلّ من لايكون كذلك لايستحقّ أن يعبده كلّ مخلوق لأنّ العبادة هي الطّاعة و الانقياد و

الخضوع، و من لايملك نفعاً و لا ضرّاً بالنّسبة إلى بعض المخلوقين لا يليق أن يعبده ذلك البعض و يطيعه و ينقاد له، فإنّ من لايقدر على ايصال نفع إلى شخص أو دفع ضرّ عنه لايرجوه و من لايقدر على ايصال ضرّ إليه لايخافه، و كلّ من لايخاف و لايرجى أصلاً لايستحقّ أن يعبد و هو ظاهر.

و **قوله عزّوجلّ**: «و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» الأمر باستغفار رسول اللّه ﴿عليه السلام﴾ كناية عمّا يلزمه من التّواضع و هضم النّفس و الاعتراف بالتّقصير تعليماً لامّته﴿عليه السلام﴾ لأنّه﴿عليه السلام﴾ معصوم غير ذاهل عن الاستغفار، أو توطئة لما بعده من الإستغفار للمؤمنين و المؤمنات بأنّ رسول اللّه﴿عليه السلام﴾ مع كونه معصوماً يجب أن يكون مستغفراً فكيف من لايكون معصوماً. و في إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلّقيه جنساً، و قد حذف المضاف و علّق الاستغفار بذواتهم، و تقديره: و لذنوب المؤمنين و المؤمنات إشعاراً بعراقتهم في الذّنب و فرط افتقارهم إلى الاستغفار، فهم بذواتهم يحتاجون إلى الاستغفار فضلاً عن ذنوبهم...

إن تسئل: كيف قال اللّه تعالى لرسوله﴿عليه السلام﴾: «فاعلم أنّه لا إله إلّا هو» و هو﴿عليه السلام﴾ كان عالماً بذلك و موحّداً قبل أن يوحىٰ إليه و بعده؟ فماذا يراد منه﴿عليه السلام﴾ أن يعرف هذه الحقيقة بعد أن بُعِثَ؟ و ما كان الخلاف بينه﴿عليه السلام﴾ و بين قومه إلّا على التّوحيد، و العبادة للّه تعالى وحده دون الشرّك على أنحآئه و دون ما كانوا يعبدون من آلهة؟

اجيب عنه بوجوه:

منها: معناه -كما سبق آنفاً- فأثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانيّة و ذر هؤلاء المشركين و حليفهم و ما هم فيه من عمىً و ضلال.... إنّهم استحبّوا العمى على الهدى، و آثروا الشّرك و الضّلال على التّوحيد و الايمان.... فليموتوا بشركهم و نفاقهم و ليلقوا المصير الّذي هم أهل له.

و منها: أنّ الخطاب و إن كان - ظاهراً- متوجّهاً إلى رسول اللّه﴿عليه السلام﴾ و لكنّ المراد به امّته﴿عليه السلام﴾.

و منها: أنّ دعوة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من اللّٰه تعالى للعلم بأن لا إله إلّا اللّٰه هو نداء قرب و أُنس للنّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه وآله﴾ من ربّه، يلق إليه فيه بالوصف الّذي ينبغى أن يعلمه من ربّه، فيحقّقه و يؤكّده....

و منها: أنّ العلم المطلوب من النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه وآله﴾ ليس هو العلم المجرّد و إن كان مستيقناً، و إنّما هو العلم الّذى يعطى ثمراً حاضراً... و المراد بدعوة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ هنا بأن يعلم أن لا إله إلّا اللّٰه هو ألّا يأسى على هؤلآء المشركين و المنافقين و ألّا يحفل بهم و بكثرتهم و قوّتهم، فإنّ اللّٰه عزّوجل الّذي لا إله إلّا هو، هو وحده معينه و مؤيّده و ناصره على كلّ عدوّله، و للدّين الّذي جآء به... إنّه تعالى صاحب الأمر و مالك الملك.

و منها: إذا كان المطلوب من رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ أن يذكر ربّه و أن يجدّد له كلّ حين بهذا الذّكر ولاءً لربّه، و خضوعاً لجلاله و قدرته - إذا كان ذلك مطلوباً من رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هو الّذي تنام عينه و لا ينام قلبه عن ذكر ربّه - فإنّ غير النّبيّ أولى بأن يقيم على نفسه من هذا الأمر حارساً يحرسه من أهواء نفسه، و وساوس شيطانه، حتّى لا يلهو عن ذكر اللّٰه تعالى و لا يقطع الصّلة بينه و بين ربّه، فتمتدّ غُربته عن ربّه ساعات أو أيّاماً أو شهوراً أو سنين!!!

إن تسئل: إنّ اللّٰه سبحانه أمر رسوله المعصوم﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالإستغفار في قوله: «و استغفر لذنبك...» و الذّنب يخالف العصمة، فما المراد من هذا الأمر؟

أُجيب عنه: أوّلاً - أنّ الخطاب و إن كان - ظاهراً - متوجّهاً إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و لكنّ المراد به امّته﴿صلى الله عليه وآله﴾ و إنّما خوطب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بذلك ليستنّ به امّته، و ليكون مثال خير لمن بعده.

و ثانياً: أنّ الخطاب كان لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ تدليلاً على رفعة مقامه و سموّ شأنه، و ارتفاع درجته عنده جلّ وعلا لأنّ المخاطِب هو اللّٰه تعالى، فناسب أن يكون المخاطَب هو رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ لأنّ المَلِك إذا أراد أن يعقد أمراً مع عشيرة يعقده مع رئيسها، و رئيس المجموعة البشريّة و سيّدها هو رسوله إليها.

و ثالثاً: أنّ لنا بحثاً عميقاً علميّاً و تحقيقاً فنّيّاً حول استغفار الأنبياء و المرسلين

عليهم‌السّلام عموماً و استغفار رسول اللّٰه و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين خصوصاً في تفسير سورة «النّصر».

و قوله تعالى: «و اللّٰه يعلم متقلّبكم و مثواكم» تعليل لما في صدر الآية الكريمة: «فاعلم أنّه لا إله إلّا اللّٰه» و بيان لكمال علمه تعالى بحال خلقه كلّهم، و إخبار عن علمه عزّوجلّ بمآل أمرهم، و الخطاب للخلائق أجمعين من المؤمنين و غيرهم... فعلى كلّهم أن لا يغفلوا عن حقيقة التّوحيد و أن لا يهملوا دقائق الطّاعة و الخشية و يواظبوا على طلب المغفرة، خوفاً من التّقصير في التّوحيد و العبوديّة.

و فيه تحذير من جزائه تعالى و عقابه، و ترغيب في امتثال ما يأمرهم به، و ترهيب عمّانهاهم عنه على طريق الكناية.

و في الآية الكريمة درس و تعليم للعلماء الدّينيّة و للخطباء و المبلّغين، و الدّعاة و المصلحين خصوصاً و للمؤمنين و المؤمنات عموماً.

و فيها أيضاً نكتة لطيفة و هي أنّ لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثلاث أحوال: ١- حال مع اللّٰه تعالى و هي توحيده. ٢- حال مع نفسه و هي طلب العصمة من الذّنوب، و أن يستر اللّٰه تعالى عليه جنس الآثام حتّى لايقع فيها. ٣- حال مع غيره و هي طلب ستر الذّنوب عليهم بعد وقوعهم فيها أو أعم، و يندرج فيها الشّفاعة.

٢٠-(و يقول الّذين آمنوا لو لا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم)

مستأنفة بيانية لترسيم أحوال الفريقين و بيان الموقفين المختلفين في العمل بالقرآن الكريم بعد تقريرهما في الايمان به: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم»: ١۶ -١٧)

و الموقفان هما: موقف المؤمنين، و موقف المنافقين، فالمؤمنون يسئلون ربّهم و

يتمنّون أن ينزّل على رسوله﴿ﷺ﴾ سورة حاسمة يأمرهم فيها بقتال الكفّار المعاندين، حرصاً منهم على الجهاد، و نيل ما أعدّ اللّٰه تعالى للمجاهدين من العزّة و الكمال في الحياة الدّنيا، و من جزيل الثّواب و عظيم الجزاء في الآخرة، فحكى اللّٰه تعالى عنهم ذلك كما كانوا يؤمنون بما أنزل اللّٰه سبحانه على رسوله﴿ﷺ﴾ على حين أنّ المنافقين لايؤمنون بآيات اللّٰه و لايعملون بها: «فإذا انزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض....» يستولى عليهم الرّعب و ينظرون إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ نظر الّذي في حالة الاحتضار المملؤ بالرّعب و الفزع و اليأس....

و هذه وقوفهم من الدّعوة إلى الجهاد، وقوف الخائف المثبط المتخاذل....

و قدّ تكرّر ذكرهاتين الحالتين المختلفين عن المؤمنين من مراجعتهم إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بشأن الإذن لهم بالجهاد و مقابلة عدوان الكفّار بالمثل، و عن المنافقين من اعتراضهم و تذمّرهم من فرض الجهاد و تمنّيهم أن يكون هذا الفرض قد تأخّر مدّة اخرى.

قوله عزّوجلّ: «و يقول الّذين آمنوا...» يشير إلى تطلّع أنظار المؤمنين إلى العمل بآيات اللّٰه تعالى و تعلّق قلوبهم بما ينزل من وحي السّماء، فهم على شوق دآئم بهذا النّور السّماوى، فإذا أمسك عنهم الوحى قليلاً هفت إليه قلوبهم، و شاقهم له الحنين و باتوا يتمنّون على اللّٰه تعالى أن ينزّل عليهم سورة: «لولا نزّلت سورة»؟ فلولا كلمة تحضيض، تفيد الحثّ على حصول ما بعدها أى هلّا انزلت سورة في أمر الجهاد؟ استفهام يراد به الرّجآء و التّمنّي.

هذا هو موقف المؤمنين من آيات اللّٰه تعالى عملاً بها بعدآن آمنوا بها و اعتقدوا... فهم يرصدون منازلها و يشدّون قلوبهم و عقولهم و أفكارهم إلى مطالعها، و ينتظرون في لَهَف و شوق هطول غيوثها....

و أمّا المنافقون مرضى القلوب في كلّ ظرف من الظّروف فإنّ لهم مع آيات اللّٰه تعالى موقفاً غير هذا الموقف، و شأناً غير هذا الشّأن، فإنّهم لا يعملون بها كما أنّهم لا يؤمنون بها.

و **قوله تعالى**: «فإذا انزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت» ترسيم لأحوال المنافقين في العمل بالقرآن الكريم كانت مستورة لاتتبيّن في فترة الرّخآء فإذا جدّ الجدّ و جآء الشّدّ ظهرت على أتمّها، و قد صوّرت نموذجاً واضحاً في هذه الآية الكريمة.

و من البيّن أنّ مقام القول سهل ميسور و مجال الكلام واسع فسيح، و أنّ وضع القول على محك العمل هو الّذي يكشف عن معدنه، و ما فيه من صدق أو كذب، و حقّ أو باطل، و صحيح أو زَيْفٍ.

فهذه السّورة الّتي كان يتمنّاها المؤمنون قد نزّلت إليهم، و هي سورة محكمة أي محدّدة المعنى، محكمة المفهوم، واضحة المراد، لا مجال فيها لتأويل أو تخريج.... إنّها على مفهوم واحد لا اختلاف فيه، و لكن هذه السّورة المحكمة تحمل إلى المسلمين ابتلاء و اختباراً... إنّها تدعوهم إلى الجهاد في سبيل اللّه و إلى القتال و القَتْل في إحياء الحقّ و إحقاقه، و إماتة الباطل و إبطاله... و هنا تختلف بالمسلمين مواقفهم في هذه السّورة المحكمة الّتي تحمل دعوة إلى الجهاد في سبيل اللّه تعالى بأموالهم و أنفسهم... فمنهم مؤمنون بآيات اللّه تعالى و يعملون بها، و منهم منافقون لا يعتقدون و لا يعملون بها... و ذلك أنّ المؤمنين الّذين أخلصوا دينهم للّه جلّ وعلا فهم يستبشرون بما تلقّوا من آيات اللّه تعالى إذا يتلقّون الأمر الصّادر إليهم منها بالرّضا و القبول....، و أنّ المنافقين الّذين في قلوبهم مرض فيأخذهم لهذا الأمرهَمٌّ ثقيل، إنّهم يتمثّلون في تلك الحالة النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هو على رأس المؤمنين، يقودهم إلى الجهاد في سبيل اللّه، فيتمثّل لهم أنّهم في هذا الجيش الذّاهب إلى ميدان القتال، و تتمثّل لهم مصارعهم هناك، فيغشاهم لذلك ما يغشى الميّت ساعة احتضاره....

و **قوله سبحانه**: «ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت» انّ منظر المغشيّ عليه من الموت معهود، فما هو إلاّ أن يذكر التّعبير حتّى تبرز صورتهم في الضّمير، مصحوبة بالسّخرية و التّحقير.

إن تسئل: لماذا قال: «عليه» و قد كان الوجه أن يقال: «نظر المغشيّ عليهم»؟

تجيب عنه: إنّ اللّٰه تعالى لم يشبّه ذات المنافقين بذات المغشيّ عليه حتّى يتوجّه الاعتراض، بل شبّه نظرهم إلى رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بنظر المغشيّ عليه، و لا مانع حينئذ من قوله: «المغشيّ عليه» لا عليهم. لقوله تعالى: «فإذا جآء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم» الأحزاب: ١٩).

إنّ آيات اللّٰه الّتي تنزل من السّمآء ليست أناشيد تردّد، و لا مزامير ترتّل، و لكنّها رسول هداية و خير دليل، و دليل خير، و قائد يقود إلى العمل في مواقع الحقّ و الخير، وداع يدعو إلى البذل و التّضحية و الفدآء...

و اعلم أنّ هذه الآية الكريمة و مايليها من الآيات إلى آخر السّورة لفتة من القرآن الكريم إلى مواقع المسلمين و نظرة ينظر بها إلى مجتمعهم الّذي أصبح يضمّ كثيراً من الجماعات... لقد كان القرآن المجيد منذ يوم نزل على رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هو في مواجهة دآئمة للمشركين اللجوج، يدعوهم إليه، و يقيم لهم معالم الطّريق إلى اللّٰه تعالى، و يفنّد أباطيلهم و يفضح سفههم و يظهر حماقتهم و يبيّن بلادتهم...

و قد قطعت الرّسالة الإسلامية إلى يوم نزول هذه السّورة: «سورة محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾» (و هي مدنيّة) - شوطاً بعيداً على الطّريق إلى غايتها، و دخل كثير من النّاس في دين اللّٰه تعالى، فكان من تدبير الحكيم العليم أن يُلفت المسلمين إلى أنفسهم، و إلى أن يكتشفوا مواقع القوّة و الضّعف و السّلامة و المرض... منهم، فهم ليسوا على حال واحدة من السّلامة و العافية في دينهم، و إنّ من الخير لهم -و هم على الطّريق- أن ينظروا إلى أنفسهم، و ألّا يشغلهم النّظر الدّائم إلى أعدآئهم، عن النّظر إلى أنفسهم، فإنّه من الغبن و الظّلم معاً، أن يرعى الإنسان غيره و يُهمل نفسه، ففي ذلك تضييع للرّاعي و لمن يرعاه جميعاً...

و فى هذه الآية الكريمة، إشارة كاشفة إلى أوّل عَرَضٍ من أعراض النّفاق، و أوّل سحابة تطلع في سماء المؤمن من سحبه، فقد يظهر الإنسان بالايمان باللّٰه تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بما أُنزل عليه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و لكن في مجال الإمتحان تَضْمُرُ هذه المعاني في نفسه، و تَخِفّ موازينها في كيانه، و هذا من شأنه -إن تمكن في قلبه- أن يذهب بايمانه

كلّه... إنّ الايمان ولاء مطلق.... في السّرّآء و الضّرّآء، و في الرّخآء و الشّدّة... أمّا الايمان في حال الميسرة و الرّخآء، و الجزع والتشكّك أو التردّد في حال الشّدّة و البلاء... فذلك هو الطّريق إلى الكفر و الضّلالة و إلى النّفاق و الغواية...

و هذا أوّل مرض تكشف عنه الآية الكريمة في نظرتها الاولى إلى الجماعة الإسلاميّة... إنّها أرت المسلمين بعضاً من أنفسهم، و إنّ بهم خللاً ينبغي أن يعالجوه فيما بينهم، و أن يتلافوه قبل أن يستفحل و يعظم، و تتولّد منه مواليد كثيرة من المنافقين الّذين يكونون حرباً خفيّة على المسلمين، و يكون خطرهم على الإسلام و المسلمين أكثر و أكثر من الكفّار و المشركين....

و قوله تعالى: «فأولى لهم» وعيد و تهديد و تحذير و دعاء على المنافقين بالهلاك من أجل هذه الحالة الّتي تعتريهم أى أهلكهم اللّٰه هلاكاً أقرب لهم من كلّ شرّ و هلاك، أو الموت أولى لهم من حياتهم، فإنّ حياتهم ليست في طاعة اللّٰه تعالى بل تكون في معصية اللّٰه سبحانه فالموت خير منها.

۲۱- (طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم)

مستأنفة بيانية مسوقة لترسيم نفاق المنافقين: أنّهم يقولون - قبل نزول السّورة المحكمة الّتي تأمرهم بالقتال-: طاعة اللّٰه و قول معروف من رسوله﴿ﷺ﴾ فنطيع اللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ فيما أُمِرنا به من القتال و لكن إذا دنا وقت القتال خالفوا و نكلوا و كذبوا فيما وعدوا به كقوله تعالى: «و يقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الّذي تقول» النساء: ۸۱).

و قوله تعالى: «فإذا عزم الأمر» إنكشاف عن حال المنافقين أى فإذا جآء وقت الابتلاء و هو الجهاد - في سبيل اللّٰه تعالى- الّذي أمرهم اللّٰه به وجدّ أمره انكشف حالهم و ظهر كذبهم فإنّهم عندئذ يتخلّفون عمّا وعدوا به...

و إسناد العزم إلى الأمر مجاز، حيث إنّ العزم و الجدّ لأصحاب الأمر كقوله تعالى: «إنّ ذلك من عزم الأُمور» لقمان: ۱۷) أى من عزم أصحاب الامور... انّه بلاغ و بلوغ في

العزم على الأمر و كأنّ الأمر هو العازم في نفسه، و هذا من بلاغة رائعة في التّعبير عن مدى العزم.

إن تسئل: لماذا قال الله تعالى: «فإذا عزم الأمر» و لايوصف بالعزم إلّا الإنسان المميّز الّذي يوطّن النّفس على فعل الأمر قبل وقته، و الأمر يعزم عليه و لايوصف بالعزم؟.

تجيب عنه: أنّ معنى «عز الأمر»: قويت العزائم على فعله، فصار كالعازم في نفسه.

و في تلخيص البيان: «و هذه استعارة لأنّ العزم لا يوصف بحقيقته إلّا الإنسان المميّز الّذي يوطّن النّفس على فعل الأمر قبل وقته عقداً بالمشيئة على فعله، فيصحّ أن يسمّى عازماً عليه، و إنّما قال تعالى: «عزم الأمر» مجازاً أى قويت العزآئم على فعله فصار كالعازم في نفسه. و قال بعضهم: معنى عزم الأمر أى جدّ الأمر و منه قول النابغة الذّبيانى:

حـيّاك ودّ فأنّا لا يحـلّ لنـا   لهو النّسآء لأنّ الدّين قد عزما

أى استحكم و جدّ و قوى و اشتدّ».

و قوله عزّوجلّ: «فلو صدقوا اللّه لكان خيراً لهم» دعوة من اللّه تعالى هؤلآء المنافقين الّذين عرفوا أنّ في قلوبهم مرضاً، و ظهر كذبهم فيما وعدوا به، و ذلك لما وجدوا في أنفسهم من ضيق و همّ حين استمعوا إلى السّورة المحكمة الّتي نزّلت على رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) داعية إلى القتال، دعوة من اللّه عزّوجلّ إيّاهم -و إن امتنعت استجابتهم لهم لكلمة «لو» و الامتناع بالإختيار لاينافي الإختيار- أن يغيّروا ما بأنفسهم، و أن يصحّحوا ايمانهم باللّه تعالى، و أن يكونوا على ولاء مطلق للّه سبحانه، فيسمعوا و يطيعوا على المكره و المنشط.... فذلك هو الّذي يمسك عليهم ايمانهم باللّه تعالى و في هذا سلامة لهم، و صلاح لأمرهم في الدّنيا و الآخرة جميعاً....

فلو صدقوا اللّه - على فرض المحال- فيما وعدوه به من استجابة دعوة اللّه تعالى، فاستجابوا له و أخلصوا النّيّة في القتال لكان خيراً لهم عند ربّهم إذ ينالون به العزّة و السّعادة في الدّنيا و الثّواب و الزّلفى عنده تعالى في العقبى.

٢٢-(فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم)

مستأنفة بيانية على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمنافقين المتخلّفين عمّا وعدوا به و عمّا أمرهم اللّٰه تعالى من الجهاد في حفظ نظام الإسلام و حراسة نواميس المسلمين، إلتفات إليهم بالخطاب لزيادة التّوبيخ و تأكيد التأنيب و تشديد التقريع، و التّنديد الشّديد بهم، و إرهاباً لهم... و تسجيل ذلك عليهم مشافهة و خطاباً، على طريق الاستفهام التّقريرى و التّساؤل التّنديدى الموجّه إليهم عمّا يتوقّع منهم إذا تولّوا حيث يفسدون في الأرض، و يقطعون ما بينهم بذلك من الأرحام....

بأن لا عجب بعد أن صدر منكم ما صدر من كراهة الدّفاع عن كيان الإسلام و نواميس المسلمين أن تعيدوا أحوال الجاهليّة جَزَعةً إذا صرتم أُمراء النّاس و ولاة أمرهم، فتفسدوا في الأرض بالبغى و الجناية، و سفك الدّمآء، و تقطّعوا أرحامكم....

و في الآية الكريمة تقرير للحال الّتي سينتهي إليها أمر هؤلآء المنافقين، و هو أنّهم لمّا أضمروا الكفر في قلوبهم، و تخلّفوا عمّا وعدوا به و لم يستجيبوا لدعوة اللّٰه تعالى لهم إلى الجهاد في سبيل اللّٰه و لم يسمعوا آيات اللّٰه و لم يطيعوا اللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ فإنّ هذا سينتهي بهم إلى أخذ طريق الكفر و الضّلالة و البغي و الجناية، و الظّلم و الخيانة، و قتل النّفوس المحترمة، و سفك الدّمآء و الإفساد في الأرض و قطع الأرحام....

و فيها بيان لأثر موقف المنافقين في نفس رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين و ما كان يتوقّع منهم من شرّ و خطر و مفسدة للإسلام و المسلمين...

و في إسناد فعل الرّجاء: «عسى» إلى جماعة من المنافقين المتخلّفين، إشارة إلى هذا الأمر الّذي وقع عليه الرّجآء و هو الإفساد في الأرض، و تقطيع الأرحام، و أنّهم إنّما يرجونه هم لأنفسهم بتولّيهم على عباد اللّٰه جلّ وعلا و إعراضهم عن اللّٰه عزّوجلّ... و هذا لا يكون إلّا ممّن سفه نفسه و خان إنسانيته حتّى لقد أصبح ما يتمنّاه لنفسه و يرجوه لها هو هذا الشّرّ الصّراح: الإفساد في الأرض و تقطيع الأرحام....

و ماذا يكون من شأن المنافقين الّذين يتظاهرون بالإسلام و الايمان و يضمرون الإفساد و الكفر و لا يرجون للّٰه جلّ وعلا و قاراً؟ أتراهم يرون لإنسان حرمة و كرامة

أو يؤدّي لذي رحم حقّاً؟ و هم الضّالّون المضلّون، سفهاء الآراء، غلظاء القلوب، متلبّدو الإحساس...

فهل يكون منهم غير الإفساد في الأرض، و إشاعة الفحشآء، و قطع كلّ سبب طيّب يصل بينهم و بين أرحامهم من قريب أو بعيد....

إن تسئل: كيف يصح الإستفهام من اللّٰه تعالى في قوله: «فهل عسيتم...» و هو جلّ وعلا عالم بما كان و ما يكون و ما هو كائن؟

نجيب عنه: أنّ المعنى: لمّا عهد منكم أيّها المنافقون من الأحوال الدّالّة على الحرص على الدّنيا و تكالب جيفتها، حيث أُمِرتُم بالجهاد الّذي هو وسيلة إلى العزّة و الخير و سعادتكم فى الدّنيا، و إلى جزيل الثّواب و عظيم الجزاء في الدّار الآخرة فكرهتموه و ظهر منكم ما ظهر من النّفاق و الشّقاق و الخلاف و العناد.... أنتم أحقّآء و أحريآء بأن يقول لكم مَن سبر أغواركم و عرف حالكم و تمريضكم، و رخاوة عقدكم في الايمان:

يا هؤلآء ما ترون؟ هل يتوقّع منكم إذا تولّيتم امور النّاس و نيطت بكم شئونهم و أصبحتم حكّاماً ذئاباً.... هل يتوقّع منكم أن تفسدوا في الأرض بالتناحر على الملك و التّهالك على الدّنيا و التّغاور و التّناهب، و أن تفسدوا في الحرث و النّسل، و تقطّعوا أرحامكم بالبغى و الجناية و الظّلم و الغواية، و بمقاتلة بعض الأرقاب و وأد البنات و أخذ الرّشاوة و العودة إلى الجاهليّة الأُولى: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»؟!

و تعقب بـ«أن» الواقع في حيّز الشّرط في مثل هذا المقام لا بدّو أن تكون محذوريته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته، و لا ريب أنّ ولاية المنافقين و إمارتهم و حكومتهم و خلافتهم على المسلمين رأس كلّ شرّ، و أُسّ كلّ فساد، و تاريخ البشريّة أصدق شاهد.

و قوله تعالى: «و تقطّعوا أرحامكم» تعظيم لحرمة الأرحام، و نهي عن قطيعتها، و تعظيم لصلة ذوي الأرحام و توطيد أواصر التنّاصر و التّرابط بينهم سوآء أكانوا يمثلون اسرة أم عشيرة أم قبيلة أم شعباً منحدراً من أصل واحد، و الظّاهر أنّ الرّحم يشمل لكلّ من عرف نسبه و إن بَعُدَ.

الأرحام: جمع الرّحم بمعنى القرابة، منقول من الرَّحِم الّذي هو موضع تكوين الولد.

و في اختصاص ذوي الأرحام بالذّكر هنا إشارة إلى نهاية قساوة قلوب المنافقين و غاية غلظتهم بأنّهم إذا لم يرحموا على أرحامهم و قطّعوها لو تسلّطوا على النّاس، فكيف بالنسبة إلى غير ذوي أرحامهم... كما هو دأب الحكام الجائرة و الأمرآء الطّاغية... في كلّ ظرف من الظّروف...

و في الآية الكريمة: تلقين قويّ مستمرّ المدى بتقبيح وقوف أيّة فئة من الامّة موقف الجبن و الفزع و الإحجام و التخاذل، و عدم التّضامن مع المجموع في دفع البغي و العدوان، و الدّفاع عن كيان الإسلام و نواميس المسلمين، و بيان ما ينجم عن ذلك من أخطار و مفاسد لاتسلم منها هذه الفئة نفسها لا في وطنها و لا في دمها و لا في ذويها...

۲۳- (اولئك الّذين لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم)

مستأنفة بيانيّة على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ايذاناً بأنّ ذكر هناتهم أوجب إنحطاطهم و سقوطهم عن درجة الخطاب و لو على جهة التّوبيخ و حكاية ما في ضمآئرهم و أقوالهم الكذبة و أحوالهم الفضيحة لغيرهم....

قوله تعالى: «اولئك» إشارة إلى المخاطبين من المنافقين المتخلّفين، المفسدين في الأرض، المقطّعين الأرحام... و معنى البُعد فيها مع قرب العهد بالمشار إليهم للايذان ببعد منزلتهم في الشّرّ و النّفاق، و البغي و الفساد.... أى اولئك البُعداء الموصوفون بما ذكر من الإعراض عن السّورة المحكمة الّتي تأمرهم بالجهاد في سبيل اللّٰه تعالى و تصامّهم عن سماعها و التّعامى عنها و إفسادهم في الأرض و تقطيع الأرحام...

فالآية الكريمة سيقت لتقرير سوء آثار تلك الصّفات الرّذيلة و بيان نتآئجها... بأنّ اللّٰه تعالى طرّد هؤلآء الموصوفين بها و أبعدهم من كلّ خير و رحمة فأصمّهم عن استماع آيات اللّٰه جلّ وعلا لتصامّهم عن سماعها، و أعمى أبصارهم عن الاستفادة و الاعتبار منها لتعاميهم عنها، فلا يكون سماعهم سماع إدراك و لا أبصارهم أبصار اعتبار، فكأنّهم لايسمعون الكلام المستبين و لا يسيرون على الصّراط المستقيم.

و المراد بالآذان آذان قلوبهم، و بالأبصار أبصار قلوبهم الّتى كانت مغلقة غير مفتوحة...

و قد حكم عليهم بذلك لأنّهم بمنزلة الصّمّ و العمى من حيث إنّهم لم يستمعوا لآيات اللّه سبحانه و لا أبصروا الرّشد، و لم يرد الإصمام في الجارحة و الإعماء في العين لأنّهم كانوا بخلافه صحيحي العين، و صحيح السّمع.

إن تسئل: لماذا جآء التّركيب: «فأصمّهم» و لم يأت «فأصمّ آذانهم» كما جآء «و أعمى أبصارهم» أو لم يأت «و أعماهم» كما جآء: «فأصمّهم»؟

تجيب عنه: بوجوه:

منها: أنّ الأُذُن لو أُصيبت بقطع أو قلع لسمع الكلام فلم يحتج إلى ذكر «أُذُن» فإنّ الأُذُن لا مدخل لها في السّمع، و أما البصر فهو العين لو أُصيب لا متنع الإبصار فللعين مدخل في الرؤية. فالأُذُن عبارة عن الشّحمة المعلّقة، و السّمع لا يتفاوت بوجودها وعدمها، و لذلك يسمع مقطوع الأُذن، و أمّا الروّية فتتعلّق بالبصر نفسه، فالتأكيد هناك إنّما يحصل بترك ذكر الاذن، و ههنا بذكر الأبصار.

و منها: أنّه إذا ذكر الصّمم فلا حاجة إلى ذكر الأُذن، و أمّا العمى فلشيوعه في البصر و البصيرة حتّى قيل: إنّه حقيقة فيهما، فإذا اريد أحدهما فلابّد من تقييده.

و منها: أنّ بناءً على كون العمى حقيقة فيما كان في البصر أنّ نحو أعمى اللّه أبصارهم بحسب الظّاهر من باب أبصرته بعيني و هو يقال في مقام يحتاج إلى التّأكيد، و لمّا كان اولئك الّذين حكى حالهم في أمر الجهاد غير ظاهرٍ إعماؤهم، ظهور إصمامهم كيف و في الآيات السّابقة ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن الكريم و خاصة السّورة المحكمة النّازلة في أمر الجهاد و هم وعدوا بالعمل بها، و هو من آثار إصمامهم، و ليس فيها ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئيّة المنصوبة في الأنفس و الآفاق الّذى هو من آثار إعمآئهم أو الآيات النّازلة الّتي هم يقرؤنها.... ناسب أن يسلك في كلّ من الجملتين ما سلك مع ما في سلوكه في الأخير من رعاية الفواصل...

هذه الأحكام الثّلاثة: لعنة اللّه تعالى و الإصمام و الإعمآء صادر من اللّه تعالى

على هؤلآء المنافقين الّذين دُعُوا إلى الايمان بآيات اللّٰه سبحانه - قلباً و قولاً و عملاً كسائر المؤمنين- و لكنّهم أعرضوا و تولّوا بإختيارهم، ثمّ مضوا على طريق الايمـان، فإذاهم في زمرة الكافرين - إذ لو لم يكن ايمان، لكان كفراً- فهؤلآء قد لعنهم اللّٰه تعالى فأصابهم بالصّمم و العمى، فلم يسمعوا كلمة خير و لم يروا طريق الهدى...

و قد كانوا هم كغيرهم في موقف الخطاب من اللّٰه عزّوجلّ، و كانت الدّعوة متوجّهة إليهم: «فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم» ليصحّحوا ايمانهم و يأخذوا سبيل الهدى الّتي أخذها المؤمنون الصّادقون...

أمّا هنا في قوله سبحانه: «اولئك الّذين لعنهم اللّٰه...» فإنّهم الآن بعد صدور الأحكام الثّلاثة عليهم -و هو أنّهم يولّون وجوههم إلى طريق آخر غير طريق الايمان- فقُذِف بهم بعيداً عن هذا الموطن الكريم الّذي كانوا فيه بين المؤمنين، ثمّ أُتبِعوا بهذه الأحكام الّتي تأخذ طريقها معهم إلى حيث انتهت بهم المطاف: «اولئك الّذين لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم» و من البداهة: أنّ الإمتناع بالاختيار لاينافي الاخـتيار فـتدبّر و لاتغفل.

۲٤- (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

مستأنفة بيانية مسوقة على طريق الاستفهام التّوبيخيّ للمنافقين على عدم تدبّرهم في القرآن الكريم، و تساؤل استنكاريّ ينطوى على التّنديد و التّعقيب أيضاً عمّا كانت هذه الفئة الأشرار إذ لايتدبّرون ما فيه من مواعظ و آيات بيّنات، و لا يتأثّرون بها، ثمّ التّسجيل عليهم بحرف «أم» المنقطعة بمعنى بل و الهمزة بأنّ قلوبهم مقفلة لا يتوصّل إليها ذكر، و لا ينفذ فيها شيء من ذلك و لا ينكشف لها أمر.

فإن كانت «أم» منقطعة ففيها معنى «بل» للانتقال من التّوبيخ بترك التّدبّر إلى التّوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التّدبّر و لا التفكّر ما دامت الحواجز موجودة، و معنى الهمزة للتقرير و التّسجيل.

و إن كانت متّصلة، فتمثيل لعدم وصول الذّكر إليها و انكشاف الأمر لها، فكأنّه قيل:

أفلا يتدبّرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها.

و لا يخفى على الأديب الأريب البيانيّ من الفروق بين السّياسة و التّدبير:

منها: أنّ السّياسة هي النّظر في الدّقيق من امور السّوس، مشتقّة من السّوس و هو حيوان معروف، و لهذا لايوصف اللّه تعالى بالسّياسة لأنّ الامور لاتدقّ عنه، و أنّ التّدبير مشتقّ من الدّبر، و دبر كلّ شيء آخره، و أدبار الامور: عواقبها، فالتّدبير رعاية آخر الامور و سوقها إلى ما يصلح به عواقبها، و لذلك يرى السّياسيّ أوّل الامور دون آخرها، و المتدبّر يرى آخرها دون أوّلها.

و منها: أنّ السّياسة هي الدّقّة على صور الامور و ظواهرها، و التّدبير هو الدّقّة في بواطن الامور و سيرتها...

و منها: أنّ عاقبة السّياسة وخيمة، و السّياسيين مغلوبون في نهاية امورهم غالباً، و مآل أمر التّدبير حسن، و المتدبّرون غالبون و عاقبة أمرهم حسنة دآئماً.

و منها: أنّ السّياسة منفكّة عن الدّين و الشّريعة و العقل غالباً و لذلك يتّصف السّياسيون بالأخلاق الرّذيلة، و لافكاك بين التّدبير و الشّريعة و العقل قطّ و المتدبّرون متّصفون بالأخلاق الفاضلة دائماً، و أكثر ما في السّياسيين هو النكراء و الشّيطنة، و الحاكم على المتدبّر هو العقل السّليم.

و منها: أنّ بين السّياسة و التّدبير عموم مطلق، فكلّما كان فيه التّدبير كان مع السّياسة كالإنسان بالنسبة إلى الحيوان، و ليست السّياسة كذلك كالحيوان من دون إنسان.

و غيرها من الفروق أوردناها في بحث السّياسة و التّدبير من هذا التّفسير فراجع و تأمّل و لاتغفل.

و قوله تعالى: «أم على قلوب أقفالها» التّنكير في «قلوب» مع إضافة الأقفال إلى ضميرها على طريق الاستعارة المكنيّة. أمّا التّنكير فهو لتهويل حالها و تفظيع شأنها و أمرها في القساوة و السّفاهة و الجهالة و البلادة، كأنّه قيل: على قلوب منكرة مبهم أمرها لا يعرف حالها، و لا يقادر قدرها في القساوة... أو إمّا لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم، و هم قلوب المنافقين....

و أمّا الاستعارة فهي أنّه شبّه قلوبهم بالصّناديق، و استعارلها شيئاً من لوازمها، و هي الأقفال المختصّة بها لاستبعاد فتحها و استمرار انغلاقها فلا تطلع مخبآتها على أحد، و لا يطّلع على مخبآتها أحد، و في إضافة الأقفال إليها دلالة على أنّ لها أقفالاً متناسبة مختصّة بها و هي أقفال النّفاق الّتي استغلقت، فلا تنفتح نحو الرّين و الختم و الطّبع لاتجانس الأقفال المعهودة، و في الأقفال إشارة إلى ارتتاج القلوب و خلوّها عن الايمان أى لايدخل الايمان في قلوب المنافقين، و لا يخرج منها الكفر و النّفاق لأنّهم أقفلوها بسوء اختيارهم مع أنّهم ليسوا عاجزين عن فتحها و إخراج الكفر منها و دخول الايمان فيها.

في تلخيص البيان: «و هذه استعارة و المراد: أم قلوبهم كالأبواب المقفلة لا تنفتح لوعظ واعظ و لا يلج فيها عذل عاذل. و في لغة العرب أن يقول القائل إذا وصف نفسه بضيق الصّدر و تشعّب الفكر: قلبي مقفل، و صدرى ضيق. و إذا وصف غيره بضدّ هذه الصّفات قال: انفتح قلبه، و انفسح صدره. و قد يجوز أن يكون المعنى: أنّ أسماعهم لا تعي قولاً و لا تسمع عذلاً، و إنّما شبّهت الأسماع بالأقفال على القلوب لأنّها أبواب عليها و طرق فهمها، فإذا عرضت على الأسماع كانت كالأقفال الموثقة و الأبواب المغلقة».

إن تسئل: أنّ في قوله عزّوجل: «أم على قلوب أقفالها» جآء النّظم على خلاف الظّاهر، و هو أن يجيء هكذا مثلاً: أم على قلوبهم أقفال... و بذلك يتحقّق إضافة هذه القلوب إلى أهلها، و نسبتها إلى أصحابها الّذين لم يتدبّروا القرآن الكريم، فماذا هو السّرّ؟

تجيب عنه بأجوبة:

منها: أنّ فصل هذه القلوب عن أصحابها يحقّق للقلوب وجوداً ذاتيّاً مستقلاً، فتقوم مقام أصحابها، حيث إنّ القلب هو الإنسان مختصراً و أنّه السّلطان القآئم على كيان الإنسان، فإذا فسد القلب فسد الإنسان، و إذا صَلُحَ القلب صلح الإنسان، و هذا ما يشير إليه رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في قوله: «ألا و إنّ في الجسد مضغة و إذا صلحت صلح الجسد كلّه، و إذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا و هي القلب»

و منها: أنّ في تنكير هذه القلوب إشارة إلى أنّها قلوب فاسدة لا يقام لها وزن بين

القلوب السّليمة، فهى - و الحال كذلك - قلوب - مجرّد قلوب - في صورتها اللحميّة أمّا في حقيقتها، فهي هواء و هبآء؟.

و منها: أنّ في إضافة الأقفال إلى القلوب: «أقفالها» إشارة اخرى إلى أنّ لهذه القلوب أقفالاً خاصّة بها، مقدرة بقَدرها.... فلكلّ قلب قفله الّذي يناسبه.

و في الآية الكريمة لطائف بيانية:

منها: أنّها تصف حالة عقليّة أو معنويّة للمنافقين، و هي حالة عدم الاستفادة و الانتفاع ممّا يسمعونه من الهدى، و كأنّهم لم يسمعوه أو لم يتّصلوا به اتّصالاً ما، فتجعل كأنّما هناك حواجز مادّيّة تفصل بينهم و بينه، فتجسّم هذه الحواجز المعنويّة كأنّما هي موانع حسّيّة لأنّها في هذه الصّورة أوقع و أظهر.

و منها: أنّها تدعو النّاس كلّهم إلى التّدبّر في القرآن الكريم و تحثّهم عليه، و تدعو الكفّار و المنافقين على التّدبّر و ترك العصبيّة و الجدال....

إن تسئل: إذا كان اللّه تعالى أصمّهم و أعمى أبصارهم كيف يمكنهم أن يتدبّروا القرآن الكريم، و هل هذا إلّا مثل قول القائل للأعمى: أبصر، و للأصمّ: اسمع؟!

تجيب عنه: أوّلاً: أنّ قوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن» أى قبل أن يضلّوا ولدى الحقيقة و قبل إتمام الحجّة عليهم لم يعمهم اللّه و لم يصمّهم، و لكن هم عموا و صمّوا بعد اتمام الحجّة عليهم، فأعرض تعالى عنهم بوجهه الكريم بلطفه، و لا يكون هذا من باب خطاب الأعمى بالإبصار، و الأصمّ بالسّمع.

و ثانياً: أنّ الامتناع بالاختيار لاينافي الاختيار، كما تشير إليه الآية التّالية.

و منها: أنّها تُوجِدُ سئوالاً يتردّدّ في صدور من ينظرون إلى المنافقين الّذين كانوا على طريق الايمان، ثمّ لم يلبثوا أن انحرفوا عنه، و ضلّوا عن سوآء السّبيل... ثمّ ألقى بهم بعيداً عن دائرة المؤمنين... فكلّ من كان بمشهد منهم من المؤمنين، يسئل هذا السّئوال: ما بال هؤلاء الأشرار الأشقيآء... قد ألقوا بأنفسهم في مواقع الهلاك، و قد كانت آيات اللّه بين أيديهم و تتلى عليهم بل هم يتلونها؟ أمع آيات اللّه سبحانه يكون عمىً و ضلال؟ و كيف و هي صبح مشرق، و نور مبين؟

أمران لا ثالث لهما، هما العلّة الّتي جآء منها هذا البلاء الّذي حلّ بهـؤلآء الأشرار المناكيد... إمّا لأنّهم لم يتدبّروا القرآن، و لم يحسنوا الإصغاء إليه و الإتّصال به و الأخذ عنه... و إمّا لأنّهم تدبّروا و أصغوا و حاولوا أن يتّصلوا بالقرآن الكريم و مغزاه و لكن كانت قلوبهم مغلقة و مختوماً عليها، فلا ينفذ إليها شعاع من هدى أبداً لأنّهـم كـانوا يتّبعون أهوآئهم... و سوآء أكان هذا أوذاك، فإنّ الدّاء منهم و فيهم... و ليس من آيات اللّٰه سبحانه و لا فيها، فما في آيات اللّٰه جلّ وعلا إلّا هدىً و حقّ و نور...

٢٥- (إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت لبيان سبب إقفال قلوب المنافقين، و تنديدو إنـذار بهـم، و تشنيع و تقبيح للنّفاق و الارتداد إلى الضّلال و الباطل بعد ظهور الحقّ و الهدى.

الارتداد على الأدبار هو الرّجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال و هو استعارة اريد بها التّرك بعد الأخذ. و في ارتدادهم على الأدبار إشارة إلى أنّهم كانوا على الإسـلام، وأنّهم إذ يولّون وجوههم إلى المسلمين، يرجعون إلى الورآء شيئاً فشيئاً على أدبارهم، على حين أنّهم كانوا يواجهون المسلمين... ثمّ مازالوا كذلك حتّى بَعُدت الشُّقّة بينهم و بين المسلمين، و انقطعت بينهم الأسباب...

فهم ينظرون إلى المسلمين و يُحسبون أنفسهم عليهم، و لكنّهم - في الوقت نفسه - يأخذ طريقاً بعيداً عنهم، يسيرون فيه في وضع مقلوب - على أعقابهم، فلا يدرون إلى أين تتّجه بهم خطواتهم العميآء...

إنّ الآية الكريمة ترجم اولئك المنافقين الّذين أخذوا الايمان ثمّ تـركوه فـعادوا إلى الكفر.... ترجمهم بهذه الرّجوم و الصّواعق الّتي تصبّ عليهم لعنة اللّٰه، و تجمع بينهم و بين الشّيطان على مودّة و إخآء!!

و قوله تعالى: «الشّيطان سوّل لهم» أى سهّل لهم ركوب الكبآئر و العظآئم من السَوَل - بفتحتين - و هو الاسترخاء، استعير للتّسهيل أى سهّله سهلاً هيّنا حتّى لا يبالي به كأنّه شبّه بإرخآء ما كان مشدوداً.

و قوله عزّوجلّ: «و أملى لهم» بيان لاستمرار كفرهم و ضلالهم، و بغيهم و نفاقهم و تقبيح حالهم...

٢٦- (ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّه يعلم إسرارهم)

مستأنفة بيانيّة لتقرير سبب إرتدادهم و وعدهم بالإطاعة لرؤسائهم في أمر الولاية و الخلافة بعد رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ إذ كانوا يتآمرون مع رؤسآئهم المنافقين، و يعدونهم بإطاعتهم و السّير وفق رغبتهم... و في بعد الإشارة: «ذلك» مع قرب عهد المشارإليه و هو إرتداد المنافقين ايذان ببعد منزلته فيما يوجب الشّرّ و الفساد و الشّقاق بين المسلمين حتّى اليوم بل إلى يوم ظهور مدار الدّهر و نواميس العصر الحجّة بن الحسن المهدى عجّل اللّه تعالى فرجه الشّريف.

و قوله تعالى حكاية عن المنافقين المرؤسين لقادتهم: «سنطيعكم في بعض الأمر» دلالة على أنّ رؤسآئهم يصرّون على مرؤسيهم أن يطيعوه في كلّ الأمر، ولكنّهم وعدوهم ببعضه.

و في الآية إشارة إلى ما كان من تواطئ المنافقين، رؤسآئهم مع مرؤسيهم، وانسجامهم على حادثة عظيمة مولمة ستقع بين المسلمين في أمر الولاية و الخلافة بعد وفاة رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾.

و قوله تعالى: «و اللّه يعلم إسرارهم» تقرير لما قبله و متضمّن للوعيد بالمنافقين جميعاً بإفشآء ما يجرى بينهم و يسرّونه من المخالفة بما أنزل اللّه تعالى في أمر الولاية، و مجازاتهم بها.

و هذا هو المستفاد من الرّوايات سيأتي بيانها في بحث الرّوايات إن شاء اللّٰه تعالى فانتظر.

۲۷- (فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم)

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و الاستفهام هنا لتهويل العذاب الواقع بهؤلآء المنافقين و مجازاتهم حين موتهم لتواطئهم في أمر الولاية و الخلافة بعد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ وفعلوا ما فعلوا من الظّلم و الجناية و البغي و الخيانة و الشّرّ و الفساد في الأرض و في الحرث و النّسل إلى يوم القيامة.

كأنّه قيل: هم يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل في أمر الخلافة و يغصبونها من أهل بيت النّبوّة عليهم صلوات اللّٰه فكيف يفعلون؟ و كيف حالهم عند موتهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم الخبيثة... و إنّما حذفت «أرواحهم» تفخيماً لشأن ما ينزل بهم حينئذ «يضربون وجوههم و أدبارهم» على وجه العقوبة. أى يضربونهم من أمام إذا أقبلوا، و يضربونهم من خلف إذا أدبروا. و في الآية الكريمة تصوير على أهول الوجوه و أفظعها عند موتهم... و إشارة إلى ما خوّفهم و هدّدهم و أوعدهم به من العذاب. أى إن تأخّر عنهم العذاب في الحياة الدّنيا، فيأخذهم حين وفاتهم...

إن تسئل: إنّ اللّٰه تعالى قال هنا: «إذا توفّتهم الملائكة» و قال في سورة الزّمر: «اللّٰه يتوفّى الأنفس حين موتها»: ٤۱) فكيف الجمع بينهما؟

تجيب عنه: هذا من باب بنى الأمير، تصحّ نسبة البنآء إلى الأمير إذا بنت بأمره، و إلى البنّآء إذ بنتها بالمباشرة. فالّذي يتولّى قبض الأرواح هو ملك الموت بإذن اللّٰه تعالى كما قال: «قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم» السّجدة: ۱۱) و الملائكة معه رسل و أعوان كما قال: «إذا جآء أحدكم الموت توفّته رسلنا» الأنعام: ٦۱) فلا تناقض بينهما.

۲۸- (ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت لتقرير سبب عقاب المنافقين عند توفّيهم بهذا العقاب الفظيع،

بهذا الإذلال و الإهانة، من ضرب الوجوه و الأدبار على تلك الحالة الشّنيعة... أى ذلك التّوفّى الهائل بسبب أنّ هؤلآء المنافقين اتّبعوا ما أسخط اللّه تعالى من خلافة الخلفآء الغاصبين و كرهوا سبب رضوان اللّه جلّ وعلا و هو ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ عليهم. و في الكلام مقابلة بما يشبه اللفّ و النّشر حيث إنّه لمّا كان اتّباع ما أسخط اللّه عزّوجلّ مقتضياً للتّوجّه ناسب ضرب الوجه، و كراهة رضوانه تعالى مقتضياً للإعراض ناسب ضرب الدّبر.

في قوله تعالى: «فأحبط أعمالهم» بيان لنتيجة تقديم سخط اللّه تعالى على رضائه، و هي حبط أعمالهم الّتي كانوا يعملونها من الخيرات...

و في الآية الكريمة ايمآء إلى البرائة و التّبرّى عن الخلفآء الغاصبين و رفضهم، و إلى الولاية و التّولّى لأمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و التّمسّك بـه، و إلى أنّ شرط قبول الأعمال الصّالحة هو الولاية كما قال الإمام عليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾: «و أنا من شروطها» و أنّ الأعمال الصّالحة من دون الولاية كالصّلاة من دون الطّهارة، كما أنّ الأعمال الصّالحة من دون التّبرّئ عن الغاصبين كالصّلاة بدون التّطهير من النّجاسة.

٢٩- (أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّه أضغانهم)

تساؤل إنكاريّ فيه معنى التّسفيه و الإنذار و التعيير للمنافقين الّذين فصّلت أحوالهم الهائلة الشّنيعة الفظيعة، وصفوا بوصفهم السّابق لكونه مداراً لما نعى عليهم، و تهديد بإفشاء ما في ضمآئرهم من الأحقاد الشّديدة و عداوتهم لأهل بيت النّبوّة عليهم‌السّلام و توبيخهم و إظهار خباياهم و إعلان نواياهم و انكشاف أمرهم و إفضاحهم على رؤوس الأشهاد، فيبديها اللّه تعالى حتّى يعرف المؤمنون نفاقهم...

«أم» منقطعة بمعنى «بل» و الهمزة الاستفهاميّة الإنكاريّة و المعنى: بل أحسب الّذين في قلوبهم أحقاد شديدة و عداوة لأهل بيت الوحى المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و لشيعتهم أنّه تعالى لن يبرز أحقادهم و يظهرها على رؤس الأشهاد، وتبقى مستورة؟ كلّا ثمّ كلّا بل يظهرها فلا تبقى مستورة على أحد.

قوله تعالى: «في قلوبهم مرض» شبّه المرض النّفسيّ بالمرض الجسميّ، إذ كلّ منهما يتلف المرء و ينغص عليه حياته و عيشه، و قد صرّح هنا بالمشبّه به دون المشبّه، و الاستعارة أبلغ، لأنّ الأمراض الجسميّة ظاهرة للعين، بادية الأثر.

٣٠-(و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول و اللّه يعلم أعمالكم)

مستأنفة بيانية سيقت سوق التهديد و الإنذار للمنافقين ... و «لو» شرط في الماضي عكس «إن» و معناها امتناع الشّيء لامتناع غيره، فامتناع الثّاني إنّما كان من جهة امتناع الأوّل كقولك: لو ضربتني لضربتك» و إن دخلت على الفعل المضارع فعلى جهة المجاز، و إنّما كان ذلك لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتاً فوقتاً. و ايثار فعلى المضارع: «نشآء» و الماضي «أرينا» بصيغة التكلّم مع غيره للتّفخيم و التّعظيم. و في الالتفات من الغيبة إلى التكلّم مع نون العظمة لإبراز العناية بالإرآئة.

و الخطاب لرسول اللّه(ﷺ) و التهديد و الإنذار للمنافقين الّذين ظنّوا أنّ اللّه تعالى لن يفضح نفاقهم، و لاينزع عنهم هذا الثّوب النّفاق الّذي لبسوه و ظهروا به في سَمْت المؤمنين، فاللّه تعالى قادر على أن يخرج نفاق المنافقين من طوايا أنفسهم، و ينسج منه وجوهاً يلبسها هؤلآء المنافقون بدلاً من تلك الصّورة الآدميّة الّتي هم عليها ظاهراً، فيظهرون على صورهم الواقعيّة الّتي تناسب نفاقهم، فيراهم النّاس عليها، فيقولون هؤلآء منافقون، ولكنّ اللّه تعالى لم يفعل هذا بالمنافقين ليكونوا هكذا، فتنة للنّاس و تقريراً لهم بأنفسهم.... و انّ الدّنيا دار عمل و صورة و ستر، و الآخرة دار جزاء و سيرة تبلى فيها السّرآئر... فلا يراهم فيها أحد إلّا عرف أنّهم منافقون بأعيانهم.... و لو شآء اللّه تعالى أن يفعل ذلك بهم فى الحياة الدّنيا لفعله، و لرآهم النّاس على سيرتهم، و لكنّ المشيئة الإلهيّة لم تقتض ذلك لما كان فيه فتنة للنّاس... و كيف لا يفتن النّاس إذا كان ما يسرّونه في أنفسهم، و ما يودعونه ضمآئرهم، يظهر مجسّداً عليهم؟ ثمّ كيف لايفتنون إذا فعل أحدهم فعلاً قبيحاً لم يطلع عليه أحد، ثمّ إذا هذا الفعل

قد لبس صاحبه، و أخذ ينادي في النّاس بهذا المنكر الّذي فعله صاحبه؟ كيف يكون حال النّاس لو أنّ هذا كان حادثاً فيهم؟

تُرى أتحتمل الحياة الإنسانيّة - في طبيعتها البشريّة - إفرازات العواطف و النّوازع و المشاعر... و استقبال كلّ ما هو مختزن في الضّمآئر و مستودع الصّدور؟ إنّه لو كُشِفَ للنّاس عمّا طويت عليه صدورهم لما جمعتهم جامعة أبداً.

و قوله تعالى: «فلعرفتهم بسيماهم» تفريع على جملة محذوفة لا على جواب الشّرط: «لأريناكهم» فليس بداخل في حيّز الامتناع كما زعم جمهور المفسّرين، فالمعنى والتّقدير: و لو نشآء لأريناك أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ سيرة هؤلآء المنافقين - الّذين يتظاهرون لك الايمان و يباطنون بالكفر و العدوان و يغصبون الخلافة بعدك - و نكشف لك سرآئرهم و نظهر لك ما في ضمآئرهم فتراهم على صورهم الواقعيّة، و إذ لم نشأ ذلك فلعرفتهم بسيماهم، فإنّه مطلوب منك أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ أن تتعرّف إلى المنافقين بنظرك الشّخصيّ.

فدلّ تعالى نبيّه﴿ﷺ﴾ على المنافقين بسيماهم و جعل الطّريق إلى معرفتهم ما يظهر من نفاقهم، و فيه إشارة إلى علم القافة و هي الاستدلال بالصّورة و السّيما و الظّاهر على السّيرة و الضّمير و الباطن.

و قوله عزّوجلّ: «و لتعرفنّهم في لحن القول» دلّ تعالى رسوله﴿ﷺ﴾ على المنافقين بمقالهم و جعل له﴿ﷺ﴾ الطّريق إلى معرفتهم ما يظهر من نفاقهم في لحن قولهم كما جعل سيماهم طريقاً إلى معرفتهم، و كما جعل مشورتهم طريقاً إلى معرفتهم فأمر رسوله﴿ﷺ﴾: «و شاورهم في الأمر» آل عمران: ۱۵۹) فإنّ المشورة لهم ما كانت لحاجته﴿ﷺ﴾ إلى آرآئهم و تدبيرهم، و إنّما كانت طريقاً إلى معرفتهم ما يظهر من نفاقهم فيها عند نطقهم في الامور كما في وصيّته﴿ﷺ﴾ قريب وفاته﴿ﷺ﴾.

و معنى الجملة: و إنّك أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ لتعرفنّ المنافقين فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك في الولاية و الخلافة من بعدك و تقبيحه و الاستهزاء به و المخالفة عنه.

و قد ورد صحيحاً: «فكان بعد هذا لا يتكلّم منافق عند رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلّا عرفه

بقوله و يستدل بفحوىٰ كلامه على فساد باطنه و نفاقه» فيعرفهم و يميّز هم من لهجة كلامهم و اسلوب حديثهم بما فيه من المواربة و الكذب و النّفاق و أمارات الكيد و العناد و التّشويش.... و في جعل «لحن القول» ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازيّة. و لحن القول: اسلوب من أساليبه مطلقاً، أو المماثلة عن الطّريق المعروفة كأن يعدل عن ظاهره من التّصريح و الإبهام و الايمآء و الإشارة، و لذا سمّي خطاء الإعراب به لعدوله عن الصّواب.

في الفرائد الغوالى على شواهد الأمالي للسّيّد المرتضى رضوان اللّٰه تعالى عليه: «و الشّاهد في الآية الكريمة: الكناية و التّعريض بالغرض و عدم الإفصاح عنه المستفاد من هذا الفظ، كما في قول بعضهم عند بيان النّبيّ﴿ﷺ﴾ كيفيّة تغسيل الملائكة سعداً و تنشيفه بمناديل من مناديل الجنّة: ما أطيب مناديل سعد! ممّا يشعر بالإنكار، لما في الحديث من الامور العظام الّتي هي محلّ العجب، فالتّعجّب من المناديل – خاصّة– ممّا يدّل على شدّة الإنكار. و كقول أحدهم عند بيانه﴿ﷺ﴾: ثواب من سبّح اللّٰه و حمده و هلله و كبره بغرس شجر له في الجنّة: ما أكثر شجرنا يا رسول اللّٰه؟! فقال﴿ﷺ﴾ – و قد عرف مغزى كلامه –: نعم و لكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها» انتهى كلامه و رفع مقامه.

أصل اللّحن: إزالة الكلام عن جهته، ثمّ يستعمل على وجهين: **أحدهما** – في الصّواب، و هو صرف الكلام و إزالته عن التّصرح إلى المعنى و التّعريض، و هذا ممدوح من حيث البلاغة، و منه قول رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «فلعلّ بعضكم ألحن بحجّته من بعض» و قال الشّاعر:

منطق صائب و تلحن أحياناً   و خير الحديث ما كان لحناً

و معنى اللحن: الكناية عن الشّيء و العدول عن الإفصاح عنه، و قد سمّي التّعريض لحناً لأنّه ذهاب بالكلام إلى خلاف جهته. و لحن القول: نحوه و اسلوبه و لهجته... و لحن القول: كناية و تعريض بالغرض و عدم الإفصاح عنه المستفاد من هذا اللفظ.

ثانيهما– في الخطأ، ومعناه إزالة الإعراب عن جهته، و خالف وجه الصّواب في الإعراب.

و في قوله سبحانه: «و لتعرفنّهم في لحن القول» إشارة إلى علم الفراسة و هي الاستدلال بالخُلق الظّاهر على الخَلق الباطن.

و في ايثار الفعل المضارع: «تعرف» الموكّد باللّام المفتوحة، و النّون الثّقيلة دلالة على وقوع هذا الفعل لا محالة، فالجملة خبريّة تحدّث عن أمر سيقع مستقبلاً على سبيل القطع و اليقين، فهذا وعد موثق مؤكّد من اللّه عزّوجلّ لرسوله الكريم﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأنّه سيعرف المنافقين من لحن القول -كما عرفهم بسيماهم- و التّوثيق و التّوكيد لهذا الخبر، لا لإزالة شكّ من رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في تحقيق ما يُخبَر به من ربّه، فإنّ النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه وآله﴾ على ثقة و ايمان مطَقَيْن باللّه تعالى و قدرته و علمه و حكمته و تدبيره.... و لكن توكيد هذا الخبر و توثيقه يحمل أكثر من دلالة:

منها: إلفات النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلفاتاً قويّاً إلى هؤلآء المنافقين و مراقبتهم مراقبة دائمة، و خاصّة فيما يجري على ألسنتهم من مقالات....

و منها: أنّه إذا اشتبه على المؤمنين أمر في أمر أحد مرضى القلوب من هؤلآء المنافقين، فلا يدعه رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ في حبال هذه الشّبهة، بل ينبغى أن يكشف عنه كشفاً دقيقاً بهذا المِسْبر الّذي يعرف به أهل النّفاق ممّا يجرى على ألسنتهم من مقولات.... فإذا كشف هذا الاختبار عن هذا الإنسان أنّه منافق، فهو من المنافقين و إلّا كان من المؤمنين، فإنّه إذا برىء المؤمن من النّفاق فقد سلم له دينه، على أيّ حال كان عليه.

في الدّرّ المنثور: و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن أبي سعيد الخدرى رضى اللّه عنه في قوله: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: ببغضهم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و قد كان المؤمنون يعرفون بغضهم من لحن قولهم في أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و لحن القول: هو مايندسّ في الكلام من معان خفيّة، ذات دلالات و إشارات، يعرفها المنافقون فيما بينهم، و يتعاملون و يتآمرون بها، و سمّى هذا الضّرب من الكلام لحناً لأنّه يخرج في صورة خادعة من النّظم، تتماوج فيها المعاني، و تتراقص الكلمات،

فتتناغم العبارات، فتخرج أشبه باللحن الموسيقيّ الّذي يُسمع منطوقه، و لا يكاد يُعرف مفهومه إلّا لأهل الفنّ في هذا الباب... و قد كان للمنافقين من لحن القول هذا، نماذج، كشف القرآن الكريم عن بعض منها لتكون للمؤمنين معلماً من معالم الكشف عن نفاق المنافقين و عنادهم في لحون مقالاتهم...

و قوله عزّوجلّ: «و اللّٰه يعلم أعمالكم» وعد و بشارة للمؤمنين، و وعيد و إنذار لغيرهم، و توكيد تقريريّ بأنّ اللّٰه تعالى يعلم أعمال جميع النّاس و محيط بها، فهنا حساب للمنافقين على جرآئمهم الّتي تقع من أعمالهم أو أقوالهم الّتي تجرى مجرى الأعمال... و هناك محاسبة للمنافقين على أقوال جرت في الخفآء بينهم في أمر الولاية و الخلافة بعد وفاة رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فهي سرّ بالنسبة إلى المؤمنين لأنّه جرى بعيداً عنهم، و قد كشف اللّٰه تعالى هذا السّرّ و فضح أهله، فقال عزّوجلّ: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّٰه يعلم إسرارهم».

۳۱- (و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم)

خبر مؤكّد بالقسم من اللّٰه تعالى لتقرير حكمة فرض القتال على المؤمنين، و هو الاختبار الإلهيّ ليمتاز به المجاهدون في سبيل اللّٰه تعالى الصّابرون على مشاقّ التكاليف الإلهيّة، من شأنها بعث الطّمأنينة و البشرى و الصّبر و الرّغبة في التّضحيّة في نفوس المخلصين، و إثارة الحافر، و الإرعواء في المنافقين و المتردّدين.

خطاب موجّه إلى المؤمنين إطلاقاً من قبيل الالتفات و التّعقيب على مواقف و حالات المؤمنين، حيث نبّهوا فيها إلى أنّ اللّٰه تعالى يختبرهم بالجهاد و الأمر به حتّى يمتاز المجاهدون و الصّابرون و المخلصون من غيرهم، و تظهر أعمال و مواقف كلّ منهم، بأنّهم لم يتركوا سدى، يتحلّون بحلية الايمان، و ينزلون منازل المؤمنين دون أن يُوضعوا موضع الابتلاء و الامتحان... فهذا الامتحان هو الّذى يكشف عن حقيقة الايمان في قلوب المؤمنين، و هل هو إيمان صادق، انشرح به الصّدر و اطمأنّ به القلب، أم هو مجرّد صورة من الشّارات و المراسم...؟ «أحسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لايفتنون» العنكبوت: ۲)

و قوله عزّوجلّ: «حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين» «حتّى» غاية لهذا الابتلاء و الامتحان... بمعنى أنّكم أيّها المؤمنون واقعون - لا محالة - في مواقع ابتلاء، و أنّكم لن تتركوا حتّى تدخلوا في هذا البلاء و تتجرّعوا كؤوسه المُرّة، فإن صمدتم في هذا الابتلاء و صبرتم على ما تلقون من بأسآء و ضرّآء، فقد أثبتم أنّكم مؤمنون، و هذا حسبكم من إيمانكم.

و قُدِّم الجهاد على الصّبر لأنّه أعمّ منه... فقد يكون في المجاهدين من لا صبر له على الجهاد، فلا يثبت للأعدآء إذا رأى الخطر محدقاً به، و لا يقدم على القتال و الهجوم إذا رأى الموت دانياً منه... إنّه مجاهد في حواشي المجاهدين و في مؤخرتهم... و مع هذا فلا يُحرم أن يدخل تحت هذه الكلمة الّتي تخلع على صاحبها خِلَعاً سِنِية من الرّضا و الرّاضوان... و في هذا دليل على شرف الجهاد و على علوّ منزلة المجاهدين، و أنّ أقلّهم في الجهاد منزلة و أبخسهم في المجاهدين حظّاً هو من المجاهدين الّذين لا يحرمون شرف الجند، و ثواب المجاهدين...

أمّا الجهاد الّذى يكون معه الصّبر، فهو الجهاد الكامل الّذي تَمَّ عقده و توثيقه بين اللّٰه تعالى و بين المجاهدين، و في هذا العقد يقول اللّٰه عزّوجلّ: «إنّ اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل اللّٰه فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من اللّٰه فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم» التّوبة: ۱۱۱).

إن تسئل: لماذا قال اللّٰه جلّ وعلا: «حتّى نعلم المجاهدين...»؟ أكان اللّٰه سبحانه يجهل بالواقع حتّى يحتاج إلى الابتلاء و الامتحان... و هو يقول: «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرّه في السّموات و لا في الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلّا في كتاب مبين» سبأ: ۳)؟

تجيب عنه: أنّ معنى الآية الكريمة: نعاملكم معاملة المختبر بما نكلّفكم به من الأُمور الشّاقّة حتّى يتميّز المجاهدون من جملتكم و الصّابرون على الجهاد، و «ليهلك من هلك عن بينّة و يحيى من حيّ عن بيّنة».

و قال بعض المحقّقين: قد وقع في مواضع من القرآن الكريم ما يوهم أنّ علمه سبحانه ببعض الأشيآء حادث، كقوله تعالى: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين» و قوله عزّوجلّ: «ثمّ بعثناهم لنعلم أىّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً» الكهف: ۱۲) و نحوهما.

و التّفصّي عن هذا الإشكال إمّا بما ذهب إليه المتكلّمون من أنّ علمه سبحانه قديم، و متعلّقه حادث، فمعنى «حتّى نعلم» حتّى يتعلّق علمنا القديم بالمجاهدين منكم و الصّابرين، و إمّا بأنّ المراد بالعلم الشّهود، فإنّ الأشياء قبل وجودها العينيّ معلومة للحقّ سبحانه و بعده مشهودةً له، فالشّهود خصوص نسبة للعلم، فإنّه قد يلحق العلم بواسطة وجود متعلّقه نسبة باعتبارها نسمّيه شهوداً و حضوراً إلّا أنّه حدث هناك علم، فمعنى «حتّى نعلم» حتّى نشاهد، و اللّٰه تعالى هو أعلم.

و قوله تعالى: «و نبلوا أخباركم» كناية عن بلاء أعمالهم، فإنّ الخبر حسنه و قبيحه على حسب المخبر عنه، فإذا تميّز الحسن عن الخبر القبيح، فقد تميّز المخبر عنه و هو العمل كذلك و هذا أبلغ من نبلوا أعمالكم...

و الابتلاء و الاختبار بمعنى واحد و هو الامتحان، و هو فعل ما يظهر به الشّيء، و حقيقته في حقّه تعالى يرجع إلى الكشف و إظهار ما كتب علينا في القدر، و إبراز ما أودع فينا و غرز في طباعنا بالقوّة بما يظهره من الشّواهد و يخرجه إلى الفعل من الوقائع و الحوادث و التّكاليف الشّاقّة بحيث يترتّب عليه الثّواب و العقاب، فإنّهما ثمرات و لوازم و تبعات و عوارض لامور موجودة أي بالقوّة فينا، فإذا لم تصدر عنّا و لم تخرج إلى الفعل، و إن كانت معلومة للّٰه تعالى موجودة فينا بالقوّة، فكيف تحصل ثمراتها و تبعاتها الّتي هي عوارضها و لوازمها...؟

و لهذا قال: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين...» أى نعلمهم موصوفين بهذه الصّفة بحيث يترتّب عليه الجزاء، و أمّا قبل ذلك الابتلاء فإنّه علمهم مستعدّين للمجاهدة و الصّبر صائرين إليهما بعد حين.

و في قوله سبحانه: «و نبلوا أخباركم» إشارة إلى أنّ الأفعال هي الّتي عليها المعوّل

في الكشف و الإظهار عن ايمان المؤمنين و صبر الصابرين... فابتلاء اللّٰه تعالى لأخبار المؤمنين، إنّما هو ابتلاء لهم، و تعرّف على أحوالهم، من أخبارهم الّتي هي حكاية لأعمالهم، و تصوير لها... و هذا يشير أيضاً إلى أنّ للأعمال آثارها في الحياة و في النّاس، و أنّها تقع تحت حكم النّاس عليها، و الإخبار عنها بما يرضيهم أو يسخطهم... و هذا يشير مرّة اخرى إلى أنّ المجتمع الإنساني له وزنه و له قدره، في الحكم على أعمال النّاس، و أنّ حكمهم على عمل بأنّه حسن، غير حكمهم عليه بأنّه قبيح.... فلهذا وزنه و لذاك وزنه عندهم و عند اللّٰه تعالى كذلك...

٣٢- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت لتقرير حكم الكفر على المنافقين، و بيان صدّهم النّاس عن سبيل الحقّ و الهدى، و عداوتهم و مخالفتهم عن أمر رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بعد بيان الحقّ و الهدى لهم، من دون ضرر منهم على اللّٰه سبحانه و حبط أعمالهم...

و فيه تهديد و توبيخ و وعيد للمنافقين الّذين يمسكون بما معهم من نفاق و عداوة و لجاج و ضلالة و عناد.... إنّهم كفروا بعد أن أظهروا الايمان، و صدّوا أنفسهم و الّذين اتّبعوا أهوآءهم عن سبيل اللّٰه تعالى بعد أن وردوا عليه، و شاقّوا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و عادوه من بعد ما تبيّن لهم الهدى... هكذا المنافق، في كلّ ظرف من الظّروف، لا تستقيم له على سبيل الايمان طريق، و لا تثبت له فيه قدم...

و قوله تعالى: «لن يضرّوا اللّٰه شيئاً» خبر عن هؤلآء المنافقين بأنّهم بفعلهم هذا - من الكفر و الصّدّ و مشاقة الرّسول﴿ﷺ﴾ و خروجهم من الايمان إلى الكفر و النّفاق... - لن يضرّ اللّٰه تعالى شيئاً من الضّرّ كما أنّ ايمان المؤمنين لن ينفعه شيئاً من النّفع...

و قوله سبحانه: «و سيحبط أعمالهم» تهديد بهم بإفساد أعمالهم و إبطالها... و لو كانت من الصّالحات في ذاتها، فإنّ شرط قبولها هو الايمان و الإخلاص و هم خالون منهما و لا يمكن الايمان و الإخلاص إلّا بولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾.

و في الآية الكريمة: عود على بدء في الايذان بأنّ اللّٰه تعالى سيحبط مكآئد

المنافقين و أعمال قادتهم الّذين صدّوا النّاس عن ولاية أميرالمـؤمنين عـليّ﴿عليه السلام﴾ و خالفوا رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فيها برغم ما ظهر من أعلامها، و أنّهم لن يضرّوا اللّه شيئاً بأعمالهم، و إنّما ضرّوا أنفسهم لانحطاطهم، و ضرّوا المجتمع البشري لإسـقاطهم عـن الكمال الإنساني و الإنسانيّة.

۳۳-(يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم)

هتاف بالمؤمنين بإطاعة اللّه تعالى و إطاعة رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و نهيهم عـن أعـمالهم بالمخالفة عن أوامر اللّه جلّ‌وعلا و نواهيه و عن أوامر رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و نهيه بأيّ شكل.

و دعوة كريمة و التفاتة رحيمة من ربّ كريم إلى عباده المؤمنين، و قد طال وقوفهم مع حديث اللّه جلّ‌وعلا إلى المنافقين، فشاقّهم أن يسمعوا حديثاً من اللّه تعالى عنهم، فناداهم الحقّ المتعال و استدناهم منه، ثمّ أسمعهم ما فيه رشدهم و فلاحهم، و صلاحهم و فوزهم و خيرهم و سعادتهم في الدّنيا و الآخرة...

و انّ طاعة اللّه تعالى و طاعة رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ معاً شرط أوّل من شروط الايمان، إذ لاايمان بغير طـاعتهما مـعاً و إعـادة الفـعل في «و أطـيعوا الرّسـول» للاهـتمام بشأن إطاعته﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لعلّ في إعادة فعل الطّاعة في إطاعة الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ إشارة إلى السّنّة الواردة عن أهل بيت الرّسالة﴿صلى الله عليه و آله﴾ فطاعة اللّه عزّوجلّ هي في اتّباع كتابه الكريم، و طاعة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ هى في سنّته الموافقة لكتاب اللّه سبحانه، فمن زعم أنّه يطيع اللّه قائلاً: حسبنا كتاب اللّه ثمّ يترك سنّة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فلا ايمان له، و من لا ايمان له فعمله فاسد، كما أنّ من يزعم أنّه يطيع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ اتّباعاً لما يروى عنه مهما خالف كتاب اللّه فلا ايمان له، و عمله فاسد.

و إنّما طاعة اللّه تعالى في كتابه و طاعة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في سنّته هما معاً أساسان لا فكاك بينهما في اتّباع دين اللّه عزّوجلّ، و إنّ الكتاب و السّنّة الثّابتة من أهل بيت الوحي هما ثقلان لا يفترقان فمن تمسّك بهما معاً نجى، و من ترك أحدهما أو تركهما معاً

هلك و هما كالجناحين للطّائر لا يمكن الطّير إلّا بهما معاً، و كلّ عمل عباديّ أو غيره لايؤيّده الكتاب المحكم و السّنّة الثّابتة عن طريق أهل بيت الرّسالة فهو باطل.

فطاعة الكتاب هي عين طاعة السّنّة طرداً و عكساً، أمّا الطّرد فلأنّه متى وجدت إحدى الطّاعتين وجدت الثّانية، و أمّا العكس فلأنّه إذ إنتفى أحدهما انتفى الآخـر، و يجرى هذا الطّرد و العكس في الايمان باللّه جلّ وعلا و الايمان بـرسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾، و في عصيان اللّه سبحانه و عصيان رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ إذ لايجتمع الايمان باللّه تعالى و عصيان رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بالعكس، و إذا أخلى الايمان بأحدهما مكانه من القلوب لم يبق غير الكفر و الضّلالة و النّفاق و الغواية... و العمل من دون الايمان باطل لا محالة، فإنّ الكفر والنّفاق والضّلالة و الغواية كالنّار الّتي تحرق الأعمال....

فالآية الكريمة تدعوا المؤمنين إلى أن يحفظوا ايمانهم و يوثقوه بالطّاعة للّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ معاً.

و قوله تعالى: «و لا تبطلوا أعمالكم» نهى عن إبطال الأعمال بالكفر و النّفاق، و فيه تحذير للمؤمنين عن الكفر و النّفاق، و تهـديد للّـذين لا يـلتفتون إلى أنـفسهم و لا يحرسونها من النّفاق بأيّ شكل من الأشكال أن يدخل فيهم، فيطرد الايمان من قلوبهم، ثمّ لايكون لهم بعد هذا عمل إلاّ بطل و فسد!

٣٤- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّه لهم)

مستأنفة بيانيّة سيقت سوق التّعليل لمضمون ذيل الآية السّابقة بأنّ الكـفر بـاللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و الصّدّ عن سبيل اللّه يوجب إبطال الأعمال، و أنّ الوفاة على الكفر و النّفاق يوجب الخلود في النّار.

و في الآية الكريمة تحذير للمؤمنين من الانحراف، و تهديد و وعيد و حفز للكافرين و حليفهم المنافقين على الإرعوآء قبل الموت حيث إنّ باب التّوبة و طـريق المـغفرة

مفتوحان قبله، فدعوة لهم إلى التّوبة قبل إضاعة الفرصة، و أن يؤمنوا و يطيعوا اللّه تعالى و رسوله ﴿عليهم السلام﴾ حتّى تنالهم مغفرته، فإن هم أبوا إلاّ أن يمضوا على الكفر و النّفاق و هما على شرع سوآء إلى أن يموتوا، فإنّهم يموتون على الكفر، و من مات عليه فلن يغفر اللّه تعالى له...

٣٥- (فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّه معكم و لن يتركم أعمالكم)

تفريع على ما سبق من نهي المؤمنين عن إيطال أعمالهم بالكفر و النّفاق، بعد ايمانهم و طاعتهم للّه تعالى و لرسوله ﴿عليهم السلام﴾ وعداً لهم بالغلبة و الظّفر على أعدآئهم و جزاء أعمالهم...

إنّ الآية الكريمة تنهى المؤمنين المطيعين عن الضّعف و التّراخى في الجهاد، و عن الجنوح إلى موادعة الكفّار المعطّلين المشاقّين و مسالمتهم و مصالحتهم أو إهمال شأنهم تفادياًمن تضحيات الجهاد و نتآئجه... و أمّا إذا جنح الكفّار إلى السّلم و كانوا صادقى الرّغبة في الانتهاء من موقف العداء و البغى فلا نهى للمؤمنين عن الجنوح إلى السّلم.

و في الآية الكريمة تطمين و تشجيع و تثبيت للمؤمنين بأنّهم هم الأعلون المفضلون المنصورون و أنّ النّصر حليفهم، و أنّ اللّه تعالى معهم و لن يخذلهم و لا يضيع أعمالهم أبداً، و من كان هذا شأنه فلايليق به أن يظهر الضّعف و التّراخي في مكافحة المعتدين الصّادّين عن سبيل اللّه تعالى.

و فيها تلقين مستمرّ المدى سوآء أفي تهوين شأن الأعداء و أن لاحرمة لهم... أم في الحثّ على عدم التّهاون معهم و الغفلة عنهم، أم في خطر بثّ روح الضّعف و التّراخي في ظروف النّضال و واجباته... أم في تلقين كون المؤمنين هم الأعلون لأنّهم أوليآء اللّه المجاهدون في إعلاء كلمة اللّه تعالى، و إيطال كلمة الكفر الّتي هي السّفلى.... و أنّ من واجبهم أن يدركوا ذلك و أن يحتفظوا بهذه الكرامة الّتي كرّمهم اللّه جلّ وعلا بها و

جعلهم أهلاًلها بالإضافة إلى ما فيها من وعد اللّٰه عزّوجلّ لهم بمكافأتهم على أعمالهم مهما كانت النّتآئج، و ما يبنّيه هذا الوعد من ثقة فيهم.

فالآية الكريمة تعود إلى الهتاف المتقدّم بالمؤمنين في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه...» ثمّ تركهم في هذا الموقف، حتّى يتدبّروا هذا القول، و يأخذ كلّ منهم موقفه منه... إنّهم مدعوّون إلى أن يسمعوا كلام اللّٰه تعالى و يؤمنوا به و يطيعوا اللّٰه جلّ وعلا و يطيعوا رسوله(ﷺ) أمّا ما يُدعون إلى أن يطيعوه فهو آتٍ، و لكن بعد أن يأخذ هذا القول مكانه من العقول و القلوب...

و في فترة الانتظار هذه، يسمع المؤمنون هذا الوعيد الّذي يهدّد اللّٰه عزّوجل به أهل الكفر و النّفاق و البغي و الشّقاق: «إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه...» إنّها صورة فظيعة للانسان و نهاية محزنة تلك الّتي ينتهى إليها الكفّار و المنافقون الّذين يموتون على الكفر و النّفاق... و من هذا الوعيد يتدسّس إلى مشاعر المؤمنين الّتي دخلت عليهم من قوله سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» يتدسّس إلى هذه المشاعر ما يدفع بها بعيداً عن مزالق الكفر و النّفاق. و لن يكون ذلك إلّا بالسّمع و الايمان و الطّاعة للّٰه تعالى و لرسوله(ﷺ) و هنا يلقاهم قول اللّٰه سبحانه: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم....»

و كأنّ هذا الخطاب وارد على سئوال سئله اللّٰه جلّ وعلا المؤمنين، بعد أن أمرهم بطاعته و طاعة رسوله(ﷺ) و بعد أن تركهم وقتاً يتدبّرون فيه ما أمرهم به... و تقدير السّئوال هو:

هل سمعتم ما امرتم به؟ و هل أنتم على السّمع و الطّاعة؟ و هل اختبرتم ما في قلوبكم من ايمان؟؟؟

إذن: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم».

فهذا أمر من اللّٰه تعالى إليكم أيّها المؤمنون و هو ألّا تهنوا أو تتخاذلوا في موقفكم من العدوّ و ألّا تطلبوا السّلم... فإنّ طلب السّلم لايحمله أعدآؤكم إلّا أنّه ضعف منكم، و شعور بالهزيمة، و هذا من شأنه أن يغرى العدوّ بكم، و يشدّد و طأته عليكم، و لايجيبكم

إلى السّلم الّذي تدعون إليه لأنّه يراكم غنيمة ليده...

هذا و يلاحظ أنّ ما طلبه اللّٰه تعالى من المؤمنين في قوله سبحانه: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم» لم يلقهم تعالى به لقاءً مباشراً، بل جآء هذا الطّلب إلى المؤمنين بعد وقفة طويلة معهم على مجتمع الكفّار و المنافقين، حيث يُرمَوْا من اللّٰه تعالى بنذر من رجوم البلآء و الهلاك، ثمّ بعد دعوتهم إلى أن يجعلو ايمانهم باللّٰه جلّ وعلا قائماً على الطّاعة و الولآء للّٰه تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾ و كان هذا كلّه تمهيداً لأن يتلقّى المؤمنون قوله سبحانه: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم» و أن يستجيبوا له... فلا يقع منهم في ميدان القتال فتور أو تخاذل، و بهذا يحاربون، و قلوبهم على ايمان بالنّصر الّذي وعد اللّٰه تعالى المؤمنين، فلا يمدّون أيديهم مستسلمين للعدوّ أبداً.

و هذا الاسلوب الّذي جآء عليه الطّلب في قوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم» يدلّ على مزيد من العناية بهذا الطّلب، و إلفات المخاطبين به إلى ما لهذا المطلوب من قدر و خطر... و الحقّ أنّ قوله عزّوجلّ: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم» هو دعوة إلى ما لايقوم الايمان إلّا به، و لاتقوم للمؤمنين دولة إلّا عليه، و هو الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى، و مواجهة أعدآء اللّٰه و أعدآء رسوله﴿ﷺ﴾ و أعدآء المؤمنين... مواجهتهم بالقوّة الّتي تردّ بأسهم، و تُبطل كيدهم، حتّى يسلم المؤمنون منهم، و من أن يكونوا تحت يدهم، فيفتنوهم في دينهم... و إنّه ليس هناك عدوّ يستطيع أن يقف في وجه المؤمنين المجاهدين في سبيل اللّٰه تعالى، إذا هم اعطوا الجهاد حقّه... مهما كان قليلاً عددهم و عِدّتهم بالنّسبة إلى عَدَد أعدآءهم و عُدّتهم....

و حقّ الجهاد هو أن يقوم المجاهد على نيّة القتال و القتل في سبيل اللّٰه تعالى: «يقاتلون في سبيل اللّٰه فيقتلون و يُقتَلون» التّوبة: ١١١) و من كان من المجاهدين على هذه النّيّة فإنّه لاينظر إلى كثرة العدوّ و لايقيم موازنة بين جيش المؤمنين و جيش الأعدآء، على أساس العدد و العتاد، فإنّ ذلك إن وقع في شعور المجاهد، حارب بنفس متخاذلة، و بقلب يخفق خفقات الهزيمة... فذلك كلّه يجب ألّا يكون في حساب المجاهد شيء منه... فهو يجاهد و يقاتل في سبيل اللّٰه جلّ وعلا، و لن تبرأ ذمّته من أدآء هذه

الأمانة - أمانة الجهاد - إلّا إذا رجع من جهاده بإحدى الحسنيين: إمّا النّصر على العدوّ و الفوز بالغنآئم... و إمّا الموت و الفوز بالشّهادة.... فالمؤمنون بهذه المشاعرهم الأعلون دآئماً في معركة القتال و الجهاد، و في العقيدة و القول و العمل، و في الدّنيا و الآخرة.

إنّ المجاهد - حقّ المجاهد - هو الّذي يقاتل العدوّ بكلّ مالديه من قوّة، و أن يكون وجهه للعدوّ، و لأسلحة العدوّ، يَضرِبُ، و يُضْرَبُ، و ينفذ ضرباته في العدوّ، و يتّقي ضربات العدوّ له، غير مبال إن وقع على الموت أو وقع عليه الموت...

و **قوله تعالى:** «و أنتم الأعلون» جملة حاليّة مقرّرة لمعنى النّهي، موكّدة لوجوب الإنتهآء.

و **قوله سبحانه:** «و اللّه معكم» تعليل لعلوّهم أى و اللّه ناصركم.فإنّ كونهم غالبين على الكفّار، و كونه تعالى ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عمّا يوهم الذّلّ و الضّراعة. و قيل: إنّ الجملتين: «و أنتم الأعلون و اللّه معكم» مستأنفتان، بأنّهم أُخبروا أوّلاً: أنّهم الأعلون و هو إخبار بمغيب أبرزه الوجود، ثمّ ارتقى إلى رتبة أعلى من الّتي قبلها و هي كونه تعالى معهم.

و **قوله عزّوجلّ:** «و لن يتركم أعمالكم» شبّه تعطيل العمل عن الثّواب بالوتر، فاستعير لفظ المشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، ثمّ اشتقّ من المصدر: «الوتر» الفعل: «يتركم» على سبيل الاستعارة التّبعيّة.

في تلخيص البيان: «و هذه استعارة و معناها مأخوذة من الوتر، و هو ما ينقصه الإنسان من مال أو دم و ما أشبههما ظلماً فيكسبه ذلك عداوة لفاعله و إرصاداً بالمكروه لمستعمليه، فكأنّه تعالى قال: و لن ينقصكم ثواب أعمالكم أو لن يظلمكم في الجزاءِ على أعمالكم، فيكون بمنزلة من أودعكم ترة، و أطلبكم طائلة، و قال الأخفش: «و لن يتركم أعمالكم» أى في أعمالكم كما تقول: دخلت البيت و المراد دخلت في البيت». و في الآية الكريمة وعد للمؤمنين بالظّفر و الغلبة على الكافرين إن أطاعوا اللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ كقوله سبحانه: «و لاتهنوا و لاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ١٣٩).

۳۶- (إنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و إن تؤمنوا و تتّقوا يـؤتكم أُجـوركم و لايسئلكم أموالكم)

مستأنفة بيانيّة سيقت سوق الخطاب للمؤمنين حثّاً لهم على الايمان باللّٰه تـعالى و أبواب التّقوى بطاعة اللّٰه جلّ وعلا و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ و حضّاً على طلب الآخرة لأنّها باقية بتحقير الدّنيا في أعينهم و بيان حقيقتها بأنّها لعب يشغل الانسان عن صالح الأعمال، و لهو لايعقب نفعاً.

إن تسئل: ما الفرق بين اللّعب و اللّهو؟

تجيب عنه: كلّ ما اشتغلت به ممّا ليس فيه ضرر في الحال و لامنفعة في المآل و لم يمنعك عن مهامّ امورك فهو لعب، فإن شغلك عنها فهو لهو، و من ثمّ يقال: آلات الملاهي لأنّها مَشْغَلَة عن غيرها... من قولهم: ألهاني الشّيء أى شغلني، و منه قوله تعالى: «ألهاكم التّكاثر» التكاثر: ۱) و يقال لما دون ذلك: لعب كاللعب بـالشّطرنج و النّرد و الحـمام و نحوها.

و قال بعض الأُدباء: بين اللّهو و اللّعب عموم مطلق إذ لا لهو إلّا لعب، و قد يكون لعب ليس بلهو لأنّ اللّعب يكون للتّأديب كاللّعب بالشّطرنج و غيره و لايقال لذلك: لهو، و إنّما اللّهو لعب لايعقب نفعاً.

و قوله تعالى: «و لايسئلكم أموالكم» إضافة الأموال إلى المؤمنين للاستغراق، و المعنى: إن تؤمنوا باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و تتّقوا بطاعة اللّٰه و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ يؤتكم اجوركم كلّها و لايسئلكم جميع أموالكم بإزاء ما أعطاكم... و فيه مقابلة حسنة لقوله تعالى: «يؤتكم اجوركم» كأنّه قيل: يعطكم الاجـور كـلّها، و يسـئلكم بـعض أموالكم و هو ما فرضه اللّٰه تعالى عليكم من الزّكاة و الخمس...

و قد احتوت الآية الكريمة اموراً: **ألف:** بيان كون الحياة في الدّنـيا - مـا لم تكـن بالايمان و التّقوى - لعباً و لهواً و متاعها و أمدها قصيران. ب: تقرير كون أجر المؤمنين المتّقين عند اللّٰه تعالى مضمون إذا ما أخلصوا في الايمان و تقوى اللّٰه جلّ وعلا. ج: تقرير

كون اللّه سبحانه لايطلب منهم الخروج عن جميع أموالهم...

و انّ اسلوب الآية الكريمة قويّ رصين موجّه إلى العقول و القلوب جميعاً، و متّسق مع اسلوب القرآن الكريم في معالجة مثل الأغراض الّتي استهدفتها معالجة حكيمة متمشّية مع طبائع الأشيآء... و في المقام كلام لايخلو من فائدة لذكره على اختصار:

هذه الآية الكريمة تعقيب على قوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم...» و في هذا التعقيب دعوة للمؤمنين أن ينظروا إلى الحياة الدّنيا نظراً جادّاً متفهّماً، فإنّهم لو نظروا إليها هذا النّظر لعرفوا أنّها لعب و لهو، و متاع قليل و ظلّ زائل، و أنّها إذا كانت هكذا هزيلة باهتة، فإنّ الحرص عليها، و التّشبّث بالحياة فيها على أيّة صورة من صور الحياة، و إن كان في ثوب الذّلّ و المهانة - إنّ هذا غبن للإنسان، و جور على إنسانيته.

و إذن فإنّه إذا كان هناك قتال بين المؤمنين و بين أعدآئهم، فلا ينبغى أبداً أن يقع في نفوسهم و هن أو ضعف، أو يعطوا أيديهم لأعدائهم، و يستسلموا لهم، فإنّ هذا لايكون إلّا من نفوس تحرص على الحياة، و تتشبّث بالبقآء فيها على أيّ وضع، و لو سيمَت الخسف، و رَعَتْ المهانة و الذّلّة...

و **قوله تعالى:** «و إن تؤمنوا و تتّقوا يؤتكم اجوركم» بيان لما هو مطلوب من الانسان في الحياة الدّنيا حتّى ينال بالثّواب الجزيل من اللّه تعالى، و ينزل في الآخرة منازل رضوانه... و هذا المطلوب من الايمان هو الايمان ثمّ العمل الصّالح الّذي يبلغ بالإنسان مبلغ التّقوى... فمن آمن واتّقى أخذ أجره كاملاً في الدّنيا و الآخرة... و إتيان الأجر هو الجزاء الحسن الطيّب للأعمال الحسنة الطّيّبة كما في قوله تعالى: «و آتيناه أجره في الدّنيا و إنّه في الآخرة لمن الصّالحين» العنكبوت: ٢٧).

و **قوله سبحانه:** «و لايسئلكم أموالكم» واقع في جواب الشّرط، معطوف على قوله تعالى: «يؤتكم اجوركم» أى أنّه إذا حقّق المؤمن الايمان و التّقوى فإنّه لايُسئَل شيئاً من ماله الّذي بين يديه، غير ما هو مفروض عليه فيه من زكاة و خمس...

و هذا يعنى: **أوّلاً:** أنّ أدآء الفرآئض على وجهها كاملة، هو غاية المطلوب من

الإنسان، و أنّه يأخذ أجره كاملاً، دون أن يقدّم نظير هذا الأجر عِوَضاً له من ماله...

و ثانياً: أنّه مهما حرص الإنسان على أدآء الفرآئض كاملة مستوفاةً شرآئطها و أركانها - فإنّه لايمكن أن يتحقّق له ذلك على كماله و تمامه، و لما يعرض للإنسان من معوقات نفسيّة و ماديّة تحول بينه و بين الوصول إلى درجة الكمال... و من هنا كانت النّوافل الّتي تقوم إلى جانب الفرآئض ليجبر بها الإنسان ما يقع منه من تقصير فيها... كما في النّوافل الّتي تصحب الصّلاة و الصّوم و الزّكاة و الخمس و الحجّ... فكلّ فريضة من هذه الفرآئض تصحبها نوافل هي في حقيقة أمرها تعويض و جبر لما قد يقع في أدآء الفريضة من تقصير...

و ثالثاً: ما تجبر به الفرآئض من نوافل قد يخفّ أمره على النّفوس، إلّا ما كان منها متّصلاً بالمال الّذي هو رغيبة النّفوس و متعلّق الآمال... كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

٣٧- (إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم)

مستأنفة تعليليّة -لذيل الآية السّابقة- سيقت لتقرير سبب عدم سئوال خروج جميع الأموال منهم في قوله تعالى: «و لايسئلكم أموالكم» تنبيهاً إلى شحّ الإنسان بطبعه على ماله و شدّة حرصه عليه - على صيغة الشّرط- و لذلك لايلحّ تعالى عليهم في الخروج عن جميع أموالهم... لأنّه تعالى يعلم طبيعة الإنسان إزاء مثل هذا الطّلب من شحّ وضن و تجهّم و إعراض، و لايريد له أن تظهر عليه أعراض تلك الطّبيعة، و كلّ ما في الأمر أنّه سبحانه يسئل الإنسان إنفاق بعض أمواله في سبيل اللّٰه تعالى، و هذا أمرهيّن كان يجب عليه أن يفعله من دون تردّد.

فطلب الكلّ يوجب إظهار البخل، و خروج الحقد لمزيد حبّ الإنسان لماله، فلو سئله اللّٰه تعالى أكثر من النّصيب المفروض و ألحّ عليه في بذله لأمسك و حقد على الإسلام و نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و ظهرت كراهته لهذا الدّين، و لكنّ اللّٰه عزّوجلّ لايريد إحفآئه فيفضح، حكمةً منه و فضلاً و رحمة.

و معنى الآية الكريمة: أنّه لمّا يعلم اللّه عزّوجل من طبيعة النّفس الإنسانيّة و حرصها على المال و ميلها و تعلّقها به، فقد كان من حكمته و رحمته بالإنسان أن رفق به، و رضى بالقليل من أمواله ينفقه في سبيل اللّه تعالى، فلو أنّ اللّه عزّوجلّ ألزم الإنسان أن يقدم المال في مقابل الأجر الّذي يناله من عنداللّه سبحانه لأتى ذلك على كلّ ما معه من مال، و لما استوفت كلّ أمواله بعض ما أخذ من أجر و لوقع الإنسان المؤمن في حرج شديد و لأخذ مآخذ المخالفين المقصّرين... فكان من حكمة الحكيم العليم، و رحمة الرّحمن الرّحيم أن أعطى النّفوس حظّها من هذا المال، و اكتفى بأخذ القليل منه، الأمر الّذي لاتضيق به النّفوس، و لاتُحرج به الصّدور، و ذلك مع إعطآءهم أجرهم كاملاً بما في قلوبهم من ايمان و تقوى...

و فيالآية الكريمة إشارة إلى أنّ هذا المال، هو مال اللّه تعالى، و أنّ اللّه عزّوجلّ أن يسئل هذا المال كلّه، و أن يأخذه جميعه دون أن يكون في هذا ظلم لأحد لأنّه جلّوعلا لم يأخذ شيئاً ليس له! و مع هذا فانّه تعالى أعطى الكثير متفضّلاً منعماً، و أخذ القليل رحيماً مترفّقاً: «يامن يُعطى الكثير بالقليل يا من يعطى من سئله يا من يعطى من لم يسئله و من لم يعرفه تحنّناً منه و رحمة» فسبحانه، سبحانه، يهب فضله و إحسانه لعباده، ثمّ يتقبّل منهم بعض ما وهبه ليكون رصيداً لهم من الفضل و الإحسان، يُطهرون به نفوسهم، و يغسلون به أدرانهم...

٣٨- (ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّه فمنكم من يبخل و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه و اللّه الغنيّ و أنتم الفقرآء و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم)

مستأنفة بيانيّة سيق سوق التّأكيد لما سبق، و سوق تقرير الاستشهاد و الدّليل على أنّ طلب خروج جميع الأموال موجب لبخل أصحابها و أحقادهم...

و المعنى: ها أنتم الّذين تدعون أو أنتم يا مخاطبُون هؤلاء الموصوفون! كأنّهم قالوا: و

ما وصفنا؟ فقال: تدعون لتنفقوا أموالكم في سبيل اللّٰه تعالى كأنّه قيل: الدّليل على أنّه تعالى لو سئلكم جميع أموالكم في سبيل اللّٰه لبخلتم و كرهتم العطاء، و اضطغنتم: أنّكم تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه تعالى.

و فيه امتحان للمؤمنين، و استدعاء لما في نفوسهم من ايمان في مقام البذل في سبيل اللّٰه عزّوجلّ قال اللّٰه تعالى: «تدعون...» و لم يقل: «نأمركم» كأنّه يروّض من نفوس الأغنيآء و يبعثهم على البذل عن طيب نفس.

و **قوله عزّوجلّ**: «فمنكم من يبخل...» بيان لما كشف عنه هذا الامتحان من شُحّ في بعض النّفوس، و ضنّ بالبذل و الإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى.

و **قوله سبحانه**: «و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه» تقبيح لأمر البخل من بعض المؤمنين، و بيان لسوء آثار البخل في نفس الإنسان البخيل بأنّ البخل إنّما هو عائد على من بخل، إذ حرم نفسه هذا الخير الكثير الّذي كان ينتظره لو أنّه أنفق من هذا المال الّذي حبسه، و ضنّ به... إنّه هو المحروم، و هو الخاسر في هذا الموقف، حيث آثر ما يفنى على ما يبقى...

و في تعدية الفعل: «يبخل» بحرف الجرّ: «عن» بدلاً من حرف «على» يستدعيه ظاهر النّظم، إشارة إلى أنّ هذا البخل هو حجز للخير عن النّفس الّتي كان من حقّها على صاحبها أن يسوقه إليها من هذا المال الّذي بخل به، و هو يظنّ أنّه إنّما فعل ذلك ابتغاء لخيرها و إسعادها... و إشارة إلى أنّ معطى المال أحوج إليه من الفقير الآخذ. فبخله بخل على نفسه، و ذلك أشدّ البخل، فمن يمنع الخير بامتناع انفاق ماله في سبيل اللّٰه تعالى، فإنّما يمنع الخير عن نفسه، فإنّ اللّٰه سبحانه لا يسئل مال عباده لينتفع هو سبحانه به، بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم و سعادة آخرتهم، فامتناعهم عن انفاقه، امتناع منهم عَن خير أنفسهم، و إليه يشير قوله جلّ وعلا:

«و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقراء» و هذا تعقيب على موقف اولئك الّذين بخلوا بالإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى، و لم يستجيبوا لدعوة اللّٰه الّذي آتاهم من فضله، و وسّع لهم رزقه، فاللّٰه عزّوجلّ غنيّ عمّا سواه و هم الفقرآء إليه على كلّ حال، و لو شآء اللّٰه تعالى أن

يعفيهم من هذا الامتحان لفعل، و لحرمهم الثّواب الّذي ينالونه بما ينفقون من مال اللّٰه الّذي بين أيديهم...

و من البيّن أنّ الألف و اللّام في المحمول، يحصر المحمول في الموضوع، فاللّٰه تعالى هو الغنيّ المطلق المحتاج إليه كلّ شيء، و الإنسان هو الفقير المحتاج إلى اللّٰه عزّوجل في كلّ حال، و القصران للقلب أى اللّٰه تعالى هو الغنيّ وحده لاسواه، و أنتم الفقراء إلى اللّٰه جلّ وعلا على كلّ حال دون اللّٰه سبحانه، فأموالكم أموال اللّٰه تعالى لاأموالكم، فإنّكم مستخلفون فيها امتحاناً، فلا تبخلوا عنها امتهاناً.

و **قوله تعالى:** «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم...» وعيد و تهديد لهؤلآء الباخلين بأموالهم عن الإنفاق منها في سبيل اللّٰه تعالى بالهلاك و الدّمار بأنّ اللّٰه سبحانه لايعز عليه أن يستبدلهم بقوم آخرين لايكونون مثلهم في البخل والإعراض و ضعف الأخلاق و التّقوى...

و أنّهم إذا أصرّوا على موقفهم هذا و لم ينفقوا في سبيل اللّٰه تعالى كان بين المؤمنين، غير الباخلين بأموالهم الّذين يقومون مقام الباخلين، و يسدّ هذا النّقص الّذي كان منهم... ثمّ إنّ هؤلآء الّذين يلبسون الايمان ظاهراً و باطناً، لايكون منهم تردّد أو نكوص عن تقبّل البذل و الإنفاق، كما كان من هؤلآء المتردّدين، بل ستثبت أقدامهم على طريق الايمان و العمل الصّالح و التّقوى إلى النّهاية...

الاستبدال: هو جعل الشّيء مكان آخر، و لمّا كان الإستبدال بالشّيء يستلزم الرّغبة عن المستبدل به، و عدم إرادته، و الرّضىٰ به، و اختيار المستبدل عليه جعل كناية عن ذلك كلّه...

و ما جآء في الآية الكريمة من صدد البخل في الإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى و إنذار الباخلين بسوء العاقبة، و غضب اللّٰه جلّ وعلا المتمثّل في الوعيد و التّهديد باستبدالهم بغيرهم لايكونون أمثالهم... جدير بالتّنويه من حيث انطوائه على التّنبيه على تعظيم أمر الإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى و شدّة ضرورته، و خطر التّقصير فيه و دلالته على ضعف الايمان، و عقول المقصّرين... و في ذلك كلّه تلقينات مستمرّة المدى.

و قيل: يبدو من روحها أنّ المقصّرين في هذه المسئلة فئة اخرى غير المنافقين،

فيكون في الآية الكريمة صورة لما كانت تقابل به الدّعوة إلى التّضحية بالمال في سبيل اللّٰه تعالى من فتور و تردّد من قِبَل بعض المؤمنين الّذين هم غير مدموغين بالنّفاق، و الّذين هم في الغالب من المستجدّين الّذين أسلموا رغبة أو رهبة أو مسايرة للظّروف، ثمّ لم يخامروا و لم ينافقوا... و هم الّذين قال اللّٰه تعالى فيهم و في المؤمنين الصّادقين:

«قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الايمان في قلوبهم و إن تطيعوا اللّٰه و رسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفور رحيم إنّما المـؤمنون الّذين آمنوا باللّٰه و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّٰه اولئك هم الصّادقون» الحجرات: ۱۴-۱۵).

و في ختام السّورة إنذار للمسلمين العرب الّذين يتولّون عمّا أنزل اللّٰه تعالى في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ باستبدالهم بغيرهم الّذين لايكونون عرباً، كما أنـذر تعالى بني إسرآئيل بسحق ملكهم و انتقاله إلى غيرهم، و بنقل الشّريعة عنهم إلى بني إسمعيل﴿عليه السلام﴾ و قد فعلها، و لكن هذه الشّريعة هي خاتمة الشّريعة فلا تبدّل، و إنّما يستبدل من يحملها و يتحمّل أعبآءها و يتولّاها بمن لايحملها و يتولّى عنها... «و أن ليس للانسان إلّا ما سعى».

﴿الإعجاز﴾

و اعلم أنّ لهذه السّورة المباركة -كسآئر السّور القرآنيّة الكريمة- وجوهاً من الإعجاز لايسعها المقام، و نحن على جناح الاختصار، فنشير إلى بعضها إجمالاً:

فمنها: اسلوب السّورة و نظمها تكون بهما معجزة، ينبغى أن تعلو على حكم الضّرورات الّتي تتحكّم في أعمال البشر...

و انّ هذه السّورة الكريمة تعتمد في ختام آيها على الميم و الهاء، فستّ و عشرون آية منها تعتمد على الهاء و الميم: «لهم - أهوآءهم - أمعاءهم - تقواهم - ذكراهم - أبصارهم - إسرارهم -أدبارهم و أضغانهم».

و عشر آيات منها تعتمد على الكاف و الميم: «أقدامكم - مثواكم - أرحامكم - أعمالكم -أخباركم -أموالكم -أضغانكم و أمثالكم»

و الآيتان منها تعتمد على اللام والهاء: «أمثالها و أقفالها».

و من **البداهة** - عند أصحاب الفصاحة و البلاغة و أهل البيان - أنّ من وجوه إعجاز القرآن الكريم أُسلوبه و نظمه في حروفه و كلماته و جمله...

أمّا الاسلوب - لديهم - فهو مادّة الإعجاز العربي في كلام العرب كلّه، ليس من ذلك شيء إلّا و هو معجز، و ليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً و هو الّذي قطع العرب دون المعارضة و اعتقلهم عن الكلام فيها و ضربهم الحجّة من أنفسهم و تركهم على ذلك يتلكأون...

فلمّا ورد عليهم اسلوب القرآن الكريم رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب و ألوان المنطق... ليس في ذلك إعنات و لامعاياة، غير أنّهم ورد عليهم من طرق نظمه و وجوه تركيبه و نسق حروفه في كلماتها و كلماته في جُمَلها، و نسق هذه الجمل في جملته – ما أذ هلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة و روعة مخوفة، و خوف تقشعرّ منه الجلود، حتّى أحسّوا بضعف الفطرة القويّة، و تخلّف الملكة المستحكمة، و رأى بلغآؤهم أنّه جنس من الكلام و لكن غير ما هم فيه.

و أنّ هذا التّركيب هو روح الفطرة الّغويّة فيهم، و أنّه لاسبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعترض مساغه إلى هذه النّفس، إذ هو وجه الكمال اللّغوى الّذي عرف أرواحهم، و اطّلع على قلوبهم، بل هو السّرّ الّذي يفشي بينهم نَفْسَه و إن كتموه، و يظهر على ألسنتهمو يتبيّن في وجوههم، و ينتهي إلى حيث ينتهي الشّعور و الحسّ، فليس للخلابة أو المؤاربة وجه في نقض تأثيره و إزالته عن موضعه.

و من استقبل ذلك بكلامه أو أراده بأيّ حيلة، فقد استقبل ردّ النّفوس عن أهوآئها، و رَدْعَ القلوب عن محبّتها، و حاول معارضه أقوى ما في النّفس بأضعف ما فيها، و هذا شيء – فيما يعرفونه – لايستقيم لامرىء من النّاس ببيان، و لاعصبيّة و لاهوى و لاشيء من هذه الفروع النّفسيّة، و ليس إلّا أن ينقض الفطرة، فيستقيم له، و ما في نقض هذه الفطرة إلّا أن يبدأ الخلق، فيكون إلهاً، و هذا كما ترى فوق أن يسمّى أو يعقل.

و قد استيقن بلغآء العرب كلّ ذلك فاستيأ سوا من حقّ المعارضة إذ وجدوا من القرآن الكريم ما يغمر القوّة و يحيل الطّبع، و يخاذل النّفس مصادمة لاحيلة و لاخدعة، و إنّما سبيل المعارضة الممكنة الّتي يطمع فيها أن يكون لصاحبها جهة من جهات الكلام لم تؤخذ عليه، و فنّ من فنون المعنى لم يستوف قبله، و باب من أبواب الصّنعة لم يصفق من دونه، و أن تكون وجوه البيان له مَعْرَضة يأخذ في هذا و يعدل عن ذلك، حتّى يستطيع أن يعارض الحسنة بالحسنة، و يضع الكلمة بإزاء الكلمة، و يقابل الجملة بالجملة، ثمّ يصير الأمر بعد ذلك إلى مقدار التّأثير الّذي يكون لكلامه، و إلى مبلغه في نفوس القوم، من تأثير الكلام الّذي يعارضه.

و هذا هو معنى العجز، و ذلك هو معنى الإعجاز، و لايزال يتّفق منه في أعمال النّاس على حساب ما يكون من اختلاف درجاتهم و مبلغ طاقتهم، و ما من ذي فنّ نابغ إلّا و أنت واجد حسن عمله دون أمله هو في هذا الحسن، و دون إحساسه بهذا الأمل، حتّى إنّك لتعجب بما ظهر من قدرته الفنّيّة في عمل الّذي تراه أحسن شيء، على حين أنّه هو لايعجب إلّا بالأصل الكامل الّذي توهمه في نفسه، و وجد بيانه في خاطره، و الّذي لم يستطع أن يخرجه كاملاً لأنّ من طبيعة الإحساس أن يظهر فيه كمال النّفس مادام في النّفس، فإذا هو انقلب في الحواسّ عملاً ظهر فيه نقص الحواس!

و لمّا كان مرجع تقدير الكلام في بلاغته و فصاحته إلى الإحساس وحده - و خاصّة في اولئك العرب الّذين من أين تأمّلتَهم و رأيتَهم كأنّما خلقوا خلقاً لغوياً و كان القرآن الكريم قد جمع في اسلوبه أرقى ما تحسّ به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان و مذاهب النّفس إليه - فقد أحسّوا بعجزهم عمّا امتنع ممّا قبله، و كان كلّ امرىء منهم كأنّما يحمل في قرارة نفسه برهان الإعجاز، و إن حمل كلّ إفك و زور على طرف لسانه!

و لهذا انقطعوا عن المعارضة، مع تحدّيهم إليها على طول المدّة، و انفساح الأمر و على كثرة التّقريع و التّأنيب، و على تصغير شأنهم و تحقيرهم، و ذلك بالنّزول عن التحدّى بمثل القرآن إلى عشر سور مثله، إلى سورة واحدة من مثله، و بحديث واحد، مِثلِه: «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» الطور: ٣٤).

و لو هم أرادوا هذا الحديث الواحد فضلاً عن سورة واحدة و إن كانت أقصرها من السّور القرآنية لما استطاعوه لأنّ إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوى في القرآن الكريم، مستغرق فيه، فلا يرون المعارضة تكون إلّا على هذا الأصل، أو تتحقّق إلّا به: و هو شيء لاتناله القدرة البشريّة، و لاتيسّره القوّة الإنسانيّة، لأنّه على ظهوره في أُسلوب القرآن، باطن في أنفسهم، تقف عليه المعرفة، و لاتبلغه الصّفة كالرّوائح و الطّعوم و الألوان و ما إليها....

فلو ذهبوا إلى معارضة الحديث الواحد على قلّة كلماته، و على أنّه نفس واحدة و جملة متميّزة لضاق بهم الأمر بمقدار ما يظنّ الجاهل أنّه يسعهم، فإنّ ذلك الإحساس

لايزايلهم و لايبرح يورد عليهم محاسن ذلك الاسلوب جملة، و يغمرهم بهـا ضربـةً واحدة تنثال من ههنا و ههنا، فلا يكون إلّا أن يقفوا متلدّدين، و قد حاروا في أيّ جهة يأخذون، و أى جانب يتوجّهون إليه، و لايكون من همّهم تعرّف ذلك دون تحقيقه، و لاتحقيقه دون الإتيان به، و لا المجيئ به دون أن يساوى ذلك الأصل الّذي في أنفسهم، و لاهذه المساواة دون أن يذهب الحديث الّذي يجيئون به، بكلّ ما وقر في أنفس العرب الفصحآء، و استولى على إحساسهم من بلاغة القرآن الكريم و فصاحة نظمه، و ذلك أمر بعضه أشدّ من بعض و أبلغ في الاستحالة.

و إنّ كلّ حديث من القرآن الكريم في الاستحالة على المعارضة تقوم بما في جمـيع السّور من طوالها و قصارها لتحقيق وجه النّـظم و الاسـلوب و أسرار التّركـيب، و استفاضة ذلك و ترادفها بما هو مقطعة للأمل، و من تعلّق الحديث بما قبله و تسبّبه لما بعده و ظهوره في جملة النّسق، فأين يجول الرّأى في هذا كلّه؟ و من أين يستطرد؟

و سبيل نظم القرآن الكريم في إعجازه سبيل هذه المعجزات المادّية الّتي تجيء بها الصّناعات، و كثيرة ما هي إلّا في شيء واحد و هو في القرآن سرّ الاعجاز إلى الأبد، و ذلك أنّ معجزات الصّناعة إنّما هي مركّبات قائمة من مفردات مادّيّة، متى وقف امرؤ من النّاس على سرّ تركيبها و وجه صنعتها فقد بَطَلَ إعجازها بخلاف الكلام الّذي هو صور فكرية لابدّ من أوضاعها من التّفاوت على حسب ما يكون من اختلاف الأمزجـة و الطّباع و آثار العصور - و لاتجزىء فيها الصّناعة و آلاتها- من صفآء الطّبع و دقّـة الحسّ و سلامة الذّوق و نحوها ممّا يرجع أكثره إلى الفطرة النّفسيّة في أيّ مظاهرها...

فالمعجز من هذه الصّور الفكّرية بأيّ الخصآئص كنظم القرآن معجز إلى الأبد، متى ذهب أهل هذه الخصوصيّة الّتي كان بها الإعجاز كالعرب أصحاب الفطرة اللـغويّة و الحسّ البيانيّ الّذي صرّفوا اللغة و شقّقوا أبنيتها و هذبوا حواشيها و جمعوا أطرافها و استنبطوا محاسنها و كانوا يستَمْلوُن ذلك من أسرار الطّبيعة في أنفسهم، و أسرار أنفسهم في الطّبيعة، ثمّ ذهبوا و بقيت اللّغة في اصولها و أبنيتها و طرق وضعها و محاسن تأليفها على ما تركوها، و إن العصر الطّويل من عصورها ليُدبر عنها كما يموت الرّجل الواحد

من كتّابها أو شعرآئها ليس لأحدهما من الأثر في تلك الخصآئص أكثر ممّا للآخر على تفاوت ما بين العصر الطّويل بحوادثه و أهله، و بين الرّجل الفرد في خاتمة نفسه.

و ذلك لأنّ الفطرة الّتي كانت تصرّفها قد ذهبت وانقطعت من الزّمن أسباب الطّبيعة فليس يمكن أن تعود أو تتّفق، إلّا إذا استدار الزّمن كيوم خلق اللّه السّموات و الأرض، و عاد التأريخ الإنساني من أوّله أو بعث اولئك العرب أنفسهم نشأةً اُخرى بأيّامهم و عاداتهم و أخلاقهم وسائر ماكان لهم من أسباب الفطرة و إذا وقع هذا الأمر كلّه و لم يعد في الفرض من مستحيل، فكلّ ما هنا لك أنّ إعجاز القرآن الكريم لا ينتهي من الأبد، و لكنّه يبتدىء في اولئك العرب مرّة اخرى إلى الأبد...

و في القرآن الكريم مظهر غريب لإعجازه المستمر لايحتاج في تعرّفه إلى رؤية و لاإعنات، و ما هو إلّا أن يراه من اعترض شيئاً من أساليب النّاس حتّى يقع في نفسه معنى إعجازه لأنّه أمر يغلب على الطّبع و ينفرد به فيُبين عن نفسه بنفسه كالصّوت الحسن البالغ في الحسن لايحتاج امرؤ في معرفته و تمييزه إلى أكثر من سماعه.

ذلك هو وجه تركيبه أو هو اسلوبه، فإنّه مباين بنفسه لكلّ ما عُرِفَ من أساليب البلغآء في ترتيب خطابهم و تنزيل كلامهم، و على أنّه يؤاتي بعضه بعضاً، و تُناسب كلّ حديث منه كلّ حديث آخر، في النّظم و الطّريقة على اختلاف المعاني و تباين الأغرض، سوآء في ذلك ما كان مبتدأ به من معانيه و أخباره و ما كان متكرّراً فيه، فكأنّه قطعة واحدة على خلاف ما أنت واجده في كلام كلّ بليغ من التّفاوت باختلاف الوجوه الّتي يُصرفه إليها، و العلوّ في موضع، و النّزول في موضع، ثمّ ما يكون من فتره الطّبع و مسحة النّفس في جهة بعث عليها الملل، أوجهة استؤنف لها النّشاط، ثمّ ما لابدّ منه من الإجادة في بعض الأغراض و التّقصير في بعضها ممّا يختلف البلغآء في علمه و الإحاطة به، أو التأتّي له و الانطباع عليه، و هذا كلّه معروف متظاهر في النّاس لايمترى فيه أحد.

و ليس من شيء في اسلوب القرآن المجيد و يَغُضُّ من موضعه أو يذهب بطريقته أو يُدخله في شبهٍ من كلام النّاس أو يردّه إلى طبع معروف من طباع البلغآء، و ما من عالم أو بليغ إلّا و هو يعرف ذلك و يعدّ خروج القرآن الكريم من أساليب النّاس كافّة دليلاً

على إعجازه، و على أنّه ليس من كلام إنسان، بيد أنّنا لم نَرَ أحداً كشف عن سرّ هـذا المعنى، و لا ألم بحقيقته، و لا أوضح الوجهَ الّذي من أجله خالف اسلوب القرآن كلّ ما عرف من أساليب النّاس و لم يشبه واحداً منها لأنّه أصل من اصول الكلام في أساليب الإنشآء لايقاس به الفروع...

و بالجملة أنّ القرآن إنّما ينفرد بأسلوبه لأنّه ليس وضعاً إنسانياً ألبتّة، و لو كان من وضع إنسان لجآء على طريقة تشبه اسلوباً من أساليب العرب أو من جآء بعدهم إلى هذا العهد، و لامن الاختلاف فيه عند ذلك بدّ في طريقته و نسقه و معانيه: «و لو كان من عند غير اللّٰه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» النساء: ۸۲) و لقد أحسّ العرب بهذا المعنى و استيقنه بلغآؤهم و لولاه ما أفحموا و لاانقطعوا من دونه، لأنّهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تؤدّيه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة؟

و انّ العرب كانوا يعرفون من طابع القرآن الكريم أنّه ليس طبعاً إنسانيّاً، و يجدون له سهولة الأوضاع الإلهيّة الّتي يعرفها كلّ النّاس و يعجز عنها النّاس كلّهم، ثمّ يعرف منها العلمآء غير ما يعرفه الجهّال، ثمّ يمتاز بعض العلماء في المعرفة بها على بعض، ثمّ يبقى فيها سرّ الخلق مع كلّ ذلك مكتوماً لايعرف و ما هو سرّ الإعجاز!

و هو يقول: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمّد﴿ﷺ﴾: ۲۴)

فمن تدبّره لايجد كلّه ممّا بين الدّفتين إلّا رهبةً ظاهرة لاتمويه في شيء منها، و أثراً من التمكّن يصف له منزلة المخلوق من أمر الخالق، و روحاً أكبر من أن يكون نفساً إنسانيّةً أو أثراً من آثار هذه النّفس، ثمّ لايجد في أغراضه و أهدافه إلّا ما كان في وضعه مادّةً لتلك الرّهبة، و لذلك الأثر و هذه الرّوح.

هذا على أنّ فيه من المعاني الكثيرة و الأغراض الوافرة و الأهداف الكبيرة ممّا لو كان في كلام النّاس لظهر عليه صبغ النّفس الإنسانيّة لامحالة بأوضع معانيه و أظهر ألوانه، و بصفات كثيرة من أحوال النّفس، و حسبك أن تأخذ قطعة منه في الموعظة و التّرغيب أو في الزّجر و التأديب و ما إليها ممّا يستفيض فيه الكلام الإنساني، فتقرنها إلى قطعة مثلها من كلام أبلغ النّاس بياناً و أفصحهم عربيّة لترى الفرق فيما بين أثر المعنى

الواحد في كلتا القطعتين، و لتقع على مقدار ما بين الطّبقة الإلهيّة و الطّبقة الإنسانيّة في السّعة و التمكّن، فإنّ هذا أمر لاتصف العبارة منه، و إذا وصفت لاتبلغ من صفته، ثمّ لادليل عليه لمن يريد أن يستدلّ إلّا الحسن و إنّما الفرق بين كلام الخالق و كلام المخلوق، هو الفرق بين الإنسان نفسه، و تمثاله.

و بعبارة اخرى: أنّنا نرى اسلوب القرآن الكريم من اللّين و المطاوعة على التقليب و المرونة في التّأويل، بحيث لايصادم الآرآء الكثيرة المتقابلة الّتي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسّر في كلّ عصر بنقص من المعنى و زيادة فيه، و اختلاف و تمحيص، و قد فهمه عرب الجاهليّة الّذين لم يكن لهم إلّا الفطرة اللغويّة، و فهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة و أهل العلوم و أصحاب الفنون...

و فهمه زعمآء الفرق المختلفة على ضروب من التّأويل، و أثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقآئقه الّتي كانت مغيّبة، و في علم اللّٰه تعالى ما يكون ما بعد...

و إنّ ماعُهِدَ من كلام النّاس لايحتمل كلّ ذلك و لابعضه، بل هو كلّما كان أدنى إلى البلاغة كان نصّاً في معناه، ثابتاً في حيّزه، تجمد الكلمة أو الجملة على معنى بعينه قد يستقيم و قد ينتقص، و كيفما قلّبته رأيته و جهاً واحداً و صفة واحدة لأنّ الفصاحة لاتكون في الكلام إلّا إيانة، و هذه لاتفصح إلّا بالمعنى المتعيّن، و هذا المعنى محصور في غرضه الباعث عليه.

و أكبر السّبب في ذلك أنّ هذا القرآن الكريم ليس عن طبع إنسانيّ محدود بأحوال نفسيّة لايجاوزها، فهو يداور المعانى، و يريغ الأساليب، و يخاطب الرّوح بمنطقها من ألوان الكلام لامن حروفه، و هو يتألّف النّاس بهذه الخصوصيّة فيه، حتّى ينتهي بهم ممّا يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا و حتّى يقف بهم على نصّ اليقين و مقطع الحقّ، و تراه في أوضاعه من أجل ذلك يستجمع درجات الفهم كأنّ فيه غاية لكلّ عقل صحيح، و لكنّه في نفسه و أسرار تركيبه آخر ما يسمو إليه فهم الطّبيعة نفسها، بحيث لو هو علا عن ذلك لخفي على النّاس، و لو نزل عن ذلك لما ظهر في النّاس، لأنّ علوّه يفوت ذَرْعَهم، و نزوله يوجدهم السّبيل إلى معارضته و نقضه، و كلا هذين يجعل أمره عليهم غمّةً، فلا يتّجهون

إلى صواب، و إنّما هو في نفسه و في أفهام النّاس كما وصفه اللّٰه تعالى بقوله: «اللّٰه الّذي أنزل الكتاب بالحقّ و الميزان» الشّورى: ۱۷)

هذه الكلمة وحدها في وصف القرآن الكريم معجزة، فقد أثبتت كلّ العلوم أنّ (الميزان) هو أصل الكون، و أنّ كلّ شيء بقدر و نسبة معلومة، و عطف الميزان على الحقّ في وصف القرآن ممّا يحيّر العقول لأنّ أحدهما ممّا يلينا خاصّة، و الآخر ممّا يلي الكون عامّة، حقّ لايتغيّر و لايتبدّل، و ميزان لايغيّر و لايبدّل.

و أمّا **تركيب القرآن و نظمه**: فهما - كأسلوبه - خارجان عن قوى العقول البشريّة و جماع الطّباع الإنسانيّة و نطاقها، و لاأثر لهما - كهو - بعد في نفس كلّ بليغ يعرف ما هي البلاغة؟

و كيف هي؟ إلّا استشعار العجز عنها و الوقوف من دونهما، و انفرد بهما القرآن الكريم من بين الكتب السّماوية كما انفرد الإنسان بالروح الخاصّة الإلهيّة: «و نفخت فيه من روحى» ص: ۷۲) من بين سآئر الارواح الّتي تنفخ في سآئر الخلائق، مع اشتراك الإنسان معها فيها...

فالقرآن الكريم هو ضمير الحياة العربيّة و هو من اللّغة كالرّوح الإلهيّة الّتي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود، ثمّ لايُدلّ عليها حين التّعرّف إلّا بصفات كلّ نفس لمواقع تلك الآثار منها، كأنّ هذه الرّوح تحاول أن تفصح عن معاني النّبوغ الفنيّ في آثارها الخالدة، فلا تجد أقرب إلى غرضها من أن تهيّج الإحساس بها في كلّ نفس، فيجزىء ذلك في البيان عنها، لأنّ الإحساس إنّما هو اللغة النّفسيّة الكاملة.

و من البيّن أنّ الكلام يتركّب من ثلاثة: **ألف**: حروف و هي من الأصوات. ب: كلمات و هي من الحروف. ج: جمل، و هي من الكلم...

و أنّ سرّ الإعجاز في تركيب القرآن الكريم و نظمه يتناول هذه الثّلاثة كلّها بحيث خرجت من جميعها تلك الطّريقة المعجزة الّتي قامت به، فليس لنابدّ في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعاً.

و لايخفى على أصحاب الفصاحة و البيان: أنّ بحثنا في المقام حول تركيب القرآن

الكريم و نظمه من جهة ما انفرد به في نفسه على وجه الإعجاز لامن جهة ما يشركه فيه غيره من أيّ وجه من الوجوه و أنواع البلاغة مستفيضة في كلّ نظام سَوِيّ و كلّ تأليف مونق، و كلّ سبك جديد جيّد، و ما كان من الكلام بليغاً، فإنّه بها صار بليغاً، و إن كانت هي بعد في أكثر الكلام إلى تفاوت و اختلاف... و من أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن المجيد، و بين هذه الأنواع في كلام البلغآء: أنّ نظم القرآن الكريم يقتضي كلّ ما فيه منها اقتضآءً طبيعيّاً بحيث يبني هو عليها لأنّها في أصل تركيبه و لاتُبنىٰ هي عليه، فليست فيها استعارة و لامجاز و لاكناية و لاشيء من مثل هذا يصحّ في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذ تبدلته منه، فضلاً عن أن يفي به، و فضلاً عن أن يربى عليه، و لو أدرتَ اللّغة كلّها على هذا الموضع.

فكأنّ البلاغة فيه إنّما هي وجه من نظم حروفه بخلاف ما يوجد من كلام البلغآء، فإنّ بلاغته إنّما تصنع لموضعها و تُبنىٰ عليه، فربّما وَفَتْ و ربّما أخْلَفَتْ، و لو هي رفعت من نظم الكلام ثمّ نزل غيرها في مكانها لرأيت النّظم نفسه غير مختلف، بل لكان عسى أن يصحّ و يجود في مواضع كثيرة من كلامهم، و أن نعرف له بذلك مزيّة في توازن حروفه، و ائتلاف مخارجها و تناسب أصواتها، و نحو هذا ممّا هو أصل الفصاحة، و ممّا لاتغني فيه استعارة و لامجاز و لاكناية و لاغيرها....

لأنّه وجه من تأليف الحروف و نسق اللفظ فيها، و أنواع البلاغة إنّما هي وجوه التّأليف بين معانى الكلمات...

فالحرف الواحد من القرآن الكريم معجز في موضعه كالمجموع في موضعه -كالبعض الواحد من العضو الواحد- لأنّ الحرف الواحد منه يمسك الكلمة الّتي هو فيها ليمسك بها الآية و السّورة و القرآن الكريم كلّه، و هذا هو السّرّ في إعجاز جملته إعجازاً أبديّاً، فهو أمر فوق الطّبيعة الإنسانيّة، و فوق ما يتسبّب إليه الإنسان، إذ هو يشبه الخلق الحيّ تمام المشابهة، و ما أنزله إلّا الّذي يعلم أسرار نظامي التّكوين و التّدوين....

فمن وجوه إعجاز القرآن الكريم اسلوبه و تركيبه و نظمه، و أنّ جهات النّظم ثلاث: في الحروف و الكلمات و الجُمل ... فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

و من وجوه إعجاز هذه السّورة المباركة: إخبارها عمّا سيأتي بأنّ مكّة المكرّمة ستفتح عمّا قريب ذراعيها لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في قوله تعالى: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم» :١٣).

و ذلك أنّ في إضافة القرية و هي مكّة المكرّمة إلى النّبيّ الكريم ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «قريتك» إشارة إلى أنّها قريته و هو صاحبها و أولى النّاس بها، و إن أُخرج منها أيّاماً... لمصالح و عِلَلٍ... و لكنّها ستفتح عمّا قريب ذراعيها لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تستقبله استقبال الأرض الجديب جآءها الغيث، و إنّها لتكون عمّا قريبٍ، البلدَ الّذي يوجه رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الّذين آمنوا معه، وجوههم إلى البيت الحرام فيه.

إنّ الآية الكريمة إذ تشعر بما كانت قريش تلق به رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من تكذيب و ايذاء... حتّى خرج من بلده الأمين، تحمل تهديداً لهم بأنّ هذا الفضل الّذي اختصّهم اللّه تعالى به، و هذه النّعمة الجليلة الّتي ساقها لهم، إذ أرسل فيهم رسولاً من أنفسهم يحمل إليهم هذا النّور المبين... إذا لم يحسنوا صحبة هذا الفضل، و لم يرعوا حقّ هذه النّعمة العظمى آذنهم اللّه تعالى بزوالها، و صرفها عنهم إلى غيرهم ممّن يقدر قدرها و يرعاها حق رعايتها...

«و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» محمّد ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٣٨)

و في قوله تعالى: «و كأين من قرية...» إشارة إلى أنّ هذه القرية: «قريتك...» لن يحل بها من الدّمار و الخراب و هلاك أهلها ما حلّ بقرى القوم الظّالمين، ففي إضافتها إلى رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ضمان لها من كلّ سوء إلى يوم القيامة، لأنّها قرية خاتم الأنبيآء و المرسلين محمد المصطفى ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قرية ظهور خاتم الأوصيآء المعصومين مدار الدّهر و نواميس العصر الحجّة بن الحسن العسكرى صاحب الزّمان عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف.

و لقد أطبقت على قريش من كلّ جهة هذه الصّواعق الّتي لاتخطىء أهدافها، فأصابت منهم مواطن الغطرسة و الكبر، و أخمدت أنفاس الحمّية الجاهليّة في معطس كلّ جبّار عنيد...

«أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم و للكافرين أمثالها ذلك بأنّ اللّٰـه مـولى الّـذين آمـنوا و أنّ الكـافرين لامـولى لهـم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٠-١١)

و قد خرست الألسن وخضعت الأعناق و انكفأت الرّؤس و همـد القـوم همـود الأموات، و هنا يصدر عن السّمآء هذا البلاغ المبين، يؤذّن به محمد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في أسماع الدّنيا، فيظلّ هذا الصّوت العلوى الكريم قائماً على الحياة آخذاً مداره في فلك الزّمن يطلع على الأجيال و الأمم... صباحاً و مساءً.. بنور الحق و بقول الحق: «و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٢)

و قد كان القرآن الكريم هناك ايماناً يملأ قلوب المؤمنين أمناً في مجال الرّوع و الفزع، و كان القرآن المجيد هناك يقيناً يثبّت أقدام المؤمنين على الحق في مواطن الجبن و الخور، و كان القرآن الحكيم سكينة تمسك نفوس المؤمنين في ساعة العسرة أن تبوخ و أن تنحلّ: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب - يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت أقدامكم- ذلك بأن اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لامولى لهم -أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا أهواءهم- فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾ ۴ و ۷ و ۱۱ و ۱۴ و ۳۵).

و كما استخزت قريش أمام القرآن الكريم في مكّة المكرّمة، و استسلمت له استسلام يأس قاهر، استخزت كذلك أمام جحافله في ميادين المعركة و القتال، و ولّت منهزمة تجرّر أذيال الخزي و العار، فالقرآن المجيد يتعقّب قريشاً و كلّ مَن يسلك مسالكهم في كلّ مكان، و يأخذ عليها كلّ سبيل حتّى يدخل عليها عقر دارها، فلم تجد ملجئاً إلّا أن تستسلم له تُسلم مع المسلمين، و ترتفع راية القرآن الكريم عالية في مكّة البلد الامين مولد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و يدخل النّاس في دين اللّٰه أفواجاً و تتردّد على أفواه المؤمنين تلك الآيات الكريمة الّتي كانت نزلت عليهم من السّمآء قبل هذا اليوم، مبشّرة بهـذا الفتح العظيم قبل أن يجييء وقته: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً...»

و تصحب هذه الآيات الكريمة المؤمنين في كلّ معركة بينهم و بين قريش، فلا تلبث قريش أن تولّى الأدبار، منهزمة و يرى المؤمنون مصداق هذا الوعد الكريم يتحقّق شيئاً فشيئاً، و تلوح بشائره يوماً بعد يوم حتّى إذا كان يوم الفتح - فتح مكّة المكرّمة - فيذكر المؤمنون هذه الآيات ذكراً خاصاً، و يدخلون بها مكّة فاتحين ظافرين، و يتعالى هتافهم حول البيت الحرام، و في طرقات مكّة و شعابها: «اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر... لاإله إلّا اللّٰه وحده.... صدق وعده و نصر عبده و أعزّ جنده، و هزم الأحزاب وحده».

و تنتهى معركة القرآن الكريم مع العرب المشركين بهذا النّصر المبين... و إنّه لنصر للقرآن المجيد في ذاته، من حيث إنّه كلام اللّٰه جلّ وعلا الكلام المعجز... الّذي لايقوم له كلام من كلام البشر... فأسلمت له قريش، و ضَرَعَتْ بين يديه، قبل أن تدخل في دين اللّٰه تعالى و تصبح في زمرة المسلمين....

و إنّه لنصر للرّايات الّتي ارتفعت باسم القرآن الكريم في ساحات القتال من حيث إنّها رايات الحق الّتي وعدها اللّٰه تعالى بالنّصر في قوله سبحانه: «إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت اقدامكم و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٧-٨)

و لايذهب بشيء من جلال هذا النّصر، و لاينال من روعته و إعجازه أن يكون المؤمنون في بعض أدوار المعركة الحاسمة للنّصر قد اصيبوا ببعض الهزآئم... فذلك ابتلاء أراده اللّٰه تعالى بعباده المؤمنين ليمتحن ايمانهم، و يتّخذ منهم شهداء كما قال جلّ وعلا: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣١) أي قصصكم...

و ذلك أنّ القصّة في القرآن الكريم إنّما تتبع أحداثاً ماضية واقعة، و تعرض منها ما ترى عَرْضَه، و من هنا كانت تسمية الأخبار الّتي جآء بها القرآن المجيد قصصاً ممّا يدخل في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ... و قد استعمل القرآن الكريم الخبر و النبأ بمعنى التّحدّث عن الماضي، و إن كان قد فرّق بينهما في المجال الّذي استعمل فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقّة و إحكام و إعجاز...

فاستعمل النّبأو الأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة زماناً أو مكاناً، و لفّها في أطوآئه... على حين أنّه استعمل الخبر و الأخبار في الكشف عن الوقآئع القريبة العهد بالوقوع أو الّتي لاتزال مشاهدها قائمةً مائلة للعيان...

فني النّبأ و الآنباء قال اللّٰه تعالى في شأن الامم الماضية و ما وقع فيها من مثلات: «ذلك من أنباء القرى...» هود: ١٠٠)

و في الخبر و الأخبار قال اللّه عزّوجل مخاطباً للمؤمنين: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣١)

و من وجوه **إعجازها**: إخبارها عن تسلّط المنافقين من قريش و بني اميّة و بني العبّاس بعد وفاة رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و تأمّرهم على الأُمّة المسلمة و فسادهم في الأرض بصدّهم النّاس عن سبيل اللّه و عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم و غصب حقوقهم و نهب أموالهم و منعهم من الخمس و الإرث و غصب فدك، و هتك حرماتهم و قتل نفوسهم و سفك دمآئهم و قطع الأرحام...

بقوله تعالى: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» (٢٢:

و فعلوا بأهل بيت الوحى المعصومين عليهم السلام و شيعتهم ما فعلوا لاينكره إلّا أتباع هؤلآء الفجرة الظّالمة من أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة...

في تفسير الطّنطاوى: في قوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن...» قال: «و اعلم أنّ هذه الآية جآءت ردعاً لقسمين من النّاس: ١- الّذين تولّوا عن الايمان و رجعوا إلى الكفر و الّذين تولّوا عن القرآن و هم مؤمنون. ٢- و من يتولّون امور النّاس، فقوله: «تولّيتم» سوآء أكان بمعنى التّولّى عن الدّين أو عن أحكام القرآن أو تولّى أُمور النّاس مصحوباً بقطع الأرحام و الإفساد في الأرض يترتّب عليه وعيد شديد و عذاب أليم، فذكر اللعنة و الصّمم و العمى، و أنّهم لايتدبّرون القرآن، أو أنّ على قلوبهم أقفالاً، كلّ ذلك وعيد شديد و ذمّ لمن اتّصفوا بهذه الأوصاف الّتي جآئت في هذا المقام، فالوعيد كما يكون على الكافر المرتدّ عن الإسلام يكون على من قطع الأرحام و أفسد الأرض

ظلماً لتولية أحكام الرّعيّة أو لإعراضه عن كتاب اللّٰه، و لقد استفاض ذلك الذّنب في المسلمين قروناً، فالآية تلميح بأنّهم سيقعون في هذا الذّنب في الإسلام، و لقد تقطّعت الأرحام في الدّولة الامويّة و العباسيّة، و قاتل كلّ فريق منهم الآخر، و لايزال ذلك جارياً للآن، بل الامّة الإسلاميّة اليوم يضرب بها المثل في التقاطع و التّدابر و التّناحر و التّشاجر لأجل الولاية»

أقول: و قد اغتفل طنطاوي أو تجاهل كأسلافه عن أنّ منشأ كلّ ذلك هو السّقيفة السّخيفة الشّؤمة كما صرّح بذلك مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «حتّى إذا قبض اللّٰه رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم الرّسل، و اتّكلو على الولآئج، و صلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي أُمِروا بمودّته، و نقلوا البنآء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب في غمرة، قد ما روا في الحيرة، و ذهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن، أو مفارق للدّين مباين» نهج البلاغة: الخطبة: ۱۵۰).

و في **تفسير الطّنطاوي:** في قوله تعالى: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً» خيراً منكم في القيام بهذا الأمر. قال: و هذه من معجزات القرآن، ألاترى أنّ أُمّة العرب الّذين خوطبوا بهذا القول هم الّذين اقتتلوا على الخلافة، فأوّلاً بنو أُميّة قاتلوا آل البيت عليهم السلام و شردوهم ثمّ جآء العبّاسّيون و الفرس معهم، فقاتلوا أبنآء عمّهم، فأهلكوا بني اميّة و شردوهم كلّ مشرّد، و لمّا تولّى بنو العباس أخذوا يقتلون أبناء الحسن و الحسين رضى اللّٰه عنهما، و هذا هو بعينه تقطيع الأرحام، فلمّا استفحل الظّلم و أفحشوا في تقطيع الأرحام سلبهم اللّٰه الملك و نقله إلى الفرس تارة و التّرك أُخرى، و ذلك أيّام ملك بني العبّاس، فكان بنو العبّاس ملوكاً لفظاً، و الفرس أو التّرك ملوكاً معنى، حتّى قال الشّاعر في أحد خلفآئهم في القرون الاولى:

خليفة في قفص | بين وصيف و بغا
يقول ما قالا له | كما تقول الببغا

فكان لهذا الخليفة مملوكان: أحدهما - اسمه «وصيف» و الثّاني إسمه «بغا» و هو تحت

أمرهما، و كانوا يقتلون الخليفة، و يجعلون آخر مكانه، و تارة يسملون عيني الخليفة، و هكذا، و لمّا ضعف أمر الفرس و الترّك الأوّلين سلّط اللّه التّتار فهبطوا على الدّول الإسلاميّة، فأفنوها، و خرّبوا الدّيار، و أزالوا ملك العبّاسيّين و الفرس، و ملكواهم بلاد الإسلام، ثمّ أسلمواهم أنفسهم، و تولّوا أمر الإسلام.

و لقد كان الترّك قائمين بأمر الإسلام، ثمّ تغيّرت الحال و حكومتهم الآن مسلمة قويّة، و لكن تزعم أنّها لادين لها، و هكذا نرى الفرس و الأفغان كلّ هذه حكومات قائمة الآن إسلاميّة، أمّا أمّة العرب فإنّها في مصر و في الشّام و في العراق، و في بلاد الغرب: طرابلس و تونس و الجزائر و مراكش ليس بينهم جامعة، أمّا الترّك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسيّة لغوية، فأمّا أبنآء العرب، و نحن أهل مصر منهم، فليس بينهم جامعة لأنّهم لم يتعلّموا تعليماً صحيحاً يؤهلهم للإجتماع.

و لذلك نرى اللّه استبدل بنانحن أبناء العرب قوماً غيرنا و ليسوا مثلنا، بل هم أرقى مدنية و سياسة، فحافظوا على أوطانهم و دياناتهم، و لذلك نجد الفرنجة في بلادنا جاثمين، و على دورنا حارسين، و في رغد عيشنا متمتّعين، و ستتبدل الحال و يرجع الأمر إلى أصله، و يرقى أبنآء العرب رقياً لانظير له في قديم الزّمان. هذا ملخّص معنى قوله: «يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم». هذا هو الأصل في الاستبدال، فإذا سمعت قول الكلبي: هم كندة و النّخع من عرب اليمن، أو سمعت قول الحسن: إنّهم العجم، أو سمعت قول عكرمة: إنّهم فارس و الرّوم، و إذا سمعت أنّ النّبيّ﴿ﷺ﴾ ضرب على منكب سلمان الفارسي، ثمّ قال: هذا و أصحابه، و إذا سمعت ما روى عنه﴿ﷺ﴾ إذ قال: «لو كان الايمان منوطاً بالثّر يا لتناوله رجال من فارس».

إذا سمعت هذا كلّه فاعلم أنّه قد تمّ، وقدتّم ما هو أكثر منه، فقد قام الترّك بدورهم، و أمّا الرّوم فلم يقوموا بدورهم في الإسلام إلى الآن، و قد عرفت سرّ ذلك الاستبدال، فإذا علم اللّه أنّ المسلمين لايصلحون لإقامة العدل في الأرض، و لاهم صالحون لنظام المدن، و لاهم قائمون بإدارة حركة العالم الإنساني، و لاهم آباء لعباده يعلمونهم و يكونون خلفآء اللّه عليهم أذلّهم و أبادهم، و سلّط عليهم أُمماً اخرى تقاتلهم، و قد

تعتنق الإسلام كما جرى أيّام جنكيزخان الّذي زحف على بلاد الإسلام في أواخر القرن السّادس الهجري.

و السّبب هو المذكور في (سورة الكهف) إذ قتل المسلمون التّجّار الواردين من بلاده، و كان معهم مال عظيم، و ذلك بإشارة التّجّار المسلمين الّذين حقدوا على اولئك التّجّار الأغنيآء، فصام جنكيزخان ثلاثة أيّام لم يذق فيها طعاماً، و تضرّع إلى ربّه، و هو من عباد النّار، أي يتقرّب للّه بالنّار، و قال: يا اللّه أردت عمارة بلادك فقاومني المسلمون و قتلوا رجالي.

و استعان باللّه تعالى، و قام لحرب المسلمين، فنصره اللّه عليهم، و سلّط اللّه التّتر على أُمّة الإسلام، و ذهبت دولة الأُمّة العربيّة إلى الآن، و كان الملك إذ ذاك قطب أرسلان، و بعد نحو قرنين أسلم التّتر، و قاموا بأمر الإسلام في جهات كثيرة من الأرض، و لايدري إلّا اللّه من ذا من الأُمم سيقوم بهذا الدّين بعد هذا الزّمان، فآية الاستبدال تقرأ و لاناسخ لها، و اللّه هو المنزل و هو المغيّر» إنتهى كلامه.

فلا تتغيّر معالم الشّريعة الإسلاميّة، و لايشوّه وجهها ما لم تتغيّر نفوس المؤمنين و شاهت عقيدتهم بما استقبلت من ضلالات و أباطيل و خرافات و أوهام... فإنّه إن يضعف جيل من أجيال المؤمنين أو جماعة من جماعاتهم من حمل هذا القرآن الكريم، و حمل هذه الرّسالة الكريمة، فلسوف تأتي الأيّام بأجيال و جماعات يجلون عن وجه هذا الكتاب و هذه الرّسالة، و يقطفون الكريم من ثمارها... قال اللّه عزّوجلّ: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم».

﴿التكرار و أسراره﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور حول سبعة امور:

أحدها– أنّ آيات هذه السّورة المباركة: «محمّد﴿ﷺ﴾» ختمت بحرفين: ١– الميم. ٢– الهاء. أمّا الاولى ففي ست و ثلاثين آية، كقوله تعالى: «أعمالهم – بالهم – أمثالهم – أقدامكم – مثواكم و أرحامكم...» و أمّا الثّانية ففي آيتين كقوله سبحانه: «أمثالها و أقفالها».

ثانيها– قد تكرّر قوله تعالى: «أضل أعمالهم» في الآيتين :١ و ٨) تأكيداً و مبالغة في الزّجر عن الكفر و النّفاق و عن الضّلالة و المعاصي... بأنّ ضلالة العامل توجب ضلالة الأعمال... كما كرّر ذكر النّعيم إذ ذكر المؤمنين مبالغة في التّرغيب في الطّاعات، و تنبيهاً إلى أنّ ايمان العامل هو سبب أمن عمله من الحبط و الضّلال.

ثالثها– قال اللّه تعالى: «كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم» :٢) بصيغة الماضى، و قال: «سيهديهم و يصلح بالهم» :٥) بصيغة المستقبل، فما وجه تكرار البال، و ما وجه الاختلاف في صيغتي الماضي و المضارع في «أصلح و يصلح»؟

إنّ المراد بإصلاح الأوّل، إصلاح شأنهم و حالهم في أمر معاشهم و معادهم، و أمر دينهم و دنياهم، و أمر اعتقادهم و اقتصادهم... و المراد بإصلاح الثّاني أنّه تعالى يصلح شأنهم و حالهم في نعيم العقبى، و قد كرّر لأنّ الأوّل سبب النّعيم، و الثّاني نفس النّعيم.

رابعها– قال اللّه سبحانه «فأحبط أعمالهم» :٩ و ٢٨) تكرّر تأكيداً و مبالغة في

الزّجر عن موجبات حبط الأعمال من كراهتهم لما أنزل اللّٰه تعالى، و كراهتهم رضوان اللّٰه تعالى و اتباعهم لما أسخط اللّٰه عزّوجلّ، هذه في الحياة الدّنيا، فلا أثر لأعمالهم ينفعهم في الدّنيا، و قال: «سيحبط اللّٰه أعمالهم» :٣٢) تنبيهاً إلى حبط أعمالهم في العقبى تأييساً لهم عن انتفاعهم بها فيها، فقد خسروا الدّنيا و الآخرة، و ذلك خسران مبين.

خامسها- جآء فعل «نزّلت» في قوله تعالى: «و يقول الّذين آمنوا لو لانزّلت سورة» :٢٠) من باب التفعيل، و جآء بعد ذلك: «فإذا انزلت سورة» :٢٠) من باب الإفعال، و كلا هما متعدٍّ، فما وجه ذلك؟

إنّ اللّٰه سبحانه خصّ الاولى بالتّنزيل للمبالغة لأنّه من كلام المؤمنين، و كانوا مأنوسين بنزول الوحي تدريجاً و يستوحشون لإبطآئه، و الثّاني من كلام اللّٰه تعالى، يشير إلى نزول السّورة الّتي سئلها المؤمنون دفعة مجموعاً، و لأنّ في أوّل السّورة: «و آمنوا بما نزّل على محمّد» :٢) و بعده: «كرهوا ما أنزل اللّٰه» :٩) تنبيهاً إلى أنّ المؤمنين يؤمنون بكلّ آية، آية نزّلت تدريجاً على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و غيرهم يكفرون بكلّ ما أنزل اللّٰه تعالى على رسوله﴿ﷺ﴾ فضلاً عن بعضه.

كذلك في هذه الآية :٢٠)

سادسها- إنّ قوله تعالى: «من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم» :٢٥) في شأن المرتدّين، و قوله سبحانه: «من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً» :٣٢) في شأن الكافرين... فلا تكرار.

سابعها- أن نشير في المقام إلى صِيَغ احدى‌عشر لغة -أورد نا معانيها اللغويّة على سبيل الاستقصآء في بحث اللغة من هذه السّورة- الصّيغ الّتي جآئت في هذه السّورة و في غيرها من السّور القرآنيّة:

١- جآئت كلمة «البال» على صيغها في القرآن الكريم نحو أربع مرّات:

١ و ٢- سورة محمّد﴿ﷺ﴾ :٢ و ٥) ٣- سورة يوسف :٥٠) ٤- سورة طه :٥١).

٢- جآئت كلمة «الثّخن» على صيغها فى القرآن الكريم نحو مرتين:

أحدهما- سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ :۴) ثانيهما- سورة الأنفال :۶۷).

۳- جائت كلمة «التعس» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۸)

٤- جائت كلمة «الأسن» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۱۵)

٥- جائت كلمة «العسل» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۱۵)

٦- جائت كلمة «الأمعاء» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۱۵)

٧- جائت كلمة «الشرط» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾:۱۸)

٨- جائت كلمة «القفل» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۲۴)

٩- جائت كلمة «الحبط» على صيغها فى القرآن الكريم نحو (١٦) مرّة.

١٠- جائت كلمة «الضّغن» على صيغها فى القرآن الكريم نحو مرتين: فى سورة محمد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۲۹ و ۳۷).

١١- جائت كلمة «اللحن» في القرآن الكريم مرّة واحدة و هي في سورة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۳۰).

﴿التّناسب و جهاته﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور على جهات ثلاث:

أحدها - التّناسب بين هذا السّورة و ما قبلها نزولاً.

ثانيها - التّناسب بين هذه السّورة و ما قبلها مصحفاً.

ثالثها - التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها:

أمّا الاولى: فإنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الحديد» على التحقيق عندنا، فالتّناسب بينهما موضوعاً أنّه لمّا كان غرض سورة «الحديد» دعوة النّاس كافّة إلى الايمان باللّه عزّوجلّ، و ترغيب ذوي الثّراة و الأموال خاصّة إلى بذلها في إعلاء كلمة اللّه تعالى و تحطيم أركان الكفر و كلمته، و تحريض المؤمنين على القتال بالحديد و السّلاح لتقطيع أذناب أهل الكفر و النّفاق، و إنّ المؤمنين هم في حماية اللّه تعالى لو تسابقوا في حفظ كيان الإسلام و نواميس المسلمين بأنفسهم و أموالهم... جائت سورة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ موضوعها القتال في إحقاق الحق وإبطال الباطل، و من ثمّ سمّيت بسورة القتال فإنّه العنصر البارز فيها، فالقتال بعد الحديد بيّن لا خفآء.

و **أمّا الثّانية:** فمناسبة هذه السّورة بما قبلها مصحفاً و هي سورة «الأحقاف» فبامور:

منها: أنّه لمّا ختمت سورة «الأحقاف» بوعيد الكفّار و الفاسقين بالنّار و الدّمار في

قوله تعالى: «و يوم يعرض الذين كفروا على النّار - فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون» فكأنّه قيل: لماذا يُعرَض الكافرون على النّار؟ و كيف يهلك الفاسقون؟ ابتدأت هذه السّورة بالجواب عنهما بأنّ الكافرين اتبعوا الباطل فاستحقّوا النّار، و أنّ الفاسقين كرهوا ما أنزل اللّٰه، فتضرب رقابهم بأيدى المؤمنين...

و منها: أنّه ختمت السّورة السّابقة بقوله عزّوجلّ: «فاصبر كما صبر اولواالعزم من الرّسل و لا تستعجل لهم - بلاغ فهل يهلك إلاّ القوم الفاسقون» بدئت هذه السّورة بقوله سبحانه: «و الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه أضلّ أعمالهم» فكأنّ هذه البدء كما ترى أشبه بالوصف الكاشف عن القوم الفاسقين، فهم الذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه الذين أضلّ اللّٰه أعمالهم....

فالسّورتان أشبه بسورة واحدة في تجاوب آياتها و التحام معانيها... بحيث لو اسقطت البسملة بينهما لكان الكلام متصلاً بسابقه لا تنافر فيه، و لكان بعضه آخذاً بحُجَز بعض.

و منها: لمّا جاءت قصّة هلاك قوم هود و تدميرهم بالأحقاف الّتي هى بمجاورة كفّار العرب و مشركي مكّة في السّورة السّابقة: «و اذكر أخاعاد إذ أنذر قومه بالأحقاف - ريح فيها عذاب أليم تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يرى إلّا مساكنهم»: ۲۱-۲۵) و هلاك أهل القرى الّذين كانوا هم حول المشركين العرب: «و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى»: ۲۷) جائت هذه السّورة بدعوة الكفّار و المشركين و الفجّار و المنافقين إلى السّير في الأرض، و النّظر في عاقبة الامم الماضية و كيفيّة تدميرهم: «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم و للكافرين أمثالها»: ۱۰)

و تهديد هم بما وقع على هؤلاء الكافرين: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم: ۱۳)

و منها: لمّا جائت في السّورة السّابقة، إشارة إلى تنزيل القرآن الكريم و ايمان نفر من الجن الّذين استمعوه فآمنوا به، و دعوا قومهم إليه: «تنزيل الكتاب من اللّٰه العزيز

الحكيم - و إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن - قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى - يا قومنا أجيبوا داعي اللّٰه و آمنوا به»: ۱ و ۲۹-۳۰) جآء في هذه السّورة توبيخ المنافقين الّذين كانوا يستمعون القرآن و يستهزؤن به، و تحريصهم على التّدبّر فيه، و تهديدهم باستبدالهم قوماً غير هم لا يكونون أمثالهم: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً -أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها - و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم» ۱۶ و ۲۴ و ۳۸).

و **أمّا الثّالثة:** فإنّ اسلوب السّورة النّظمي فريد، بحيث يسوغ القول بوحدة نزولها أو تتابع فصولها و آيها مترابطة و متساوقة حتّى تمّت، و انّها بصدد تقسيم النّاس فريقين لا ثالث لهما، و المقايسة بينهم في عقائدهم و أقوالهم و أحوالهم و أعمالهم و مآل أمرهم في الحياة الدّنيا و ما يترتّب عليها في الدّار الآخرة، و هم: فريق الكفر و الضّلالة، و فريق الايمان و الهداية، و جعل أحدهما إزاء الآخرة في جميع شئونهم...

و قدّم فريق الكفر على فريق الايمان فقال: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه أضلّ أعمالهم»: ۱) من باب تقديم التّطهير على الطّهارة كما بنت عليه كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا اللّٰه».

و لمّا بيّن أنّ الكفر و الصّدّ عن سبيل اللّٰه و إن كانا هما كالتّوأمين يرتضعان من لبن واحد يوجبان إضلال أعمال الكافرين، بيّن أنّ الايمان و الأعمال الصّالحة يوجبان تكفير السّيّئات عن المؤمنين الصّالحين و إصلاح حالهم و أمر دينهم و دنياهم: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمد و هو الحق من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم»: ۲) فقوله تعالى: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» بإزاء «الّذين كفروا» و لم يقل: «و عملوا السّيّئات» لأنّ الكفر كلّه سيّئة و كلّ سيّئة داخلة في الكفر فلاحاجة إلى ذكرها... و «الّذين آمنوا بما نزّل على محمد و هو الحقّ من ربّهم» بإزاء «و صدّوا عن سبيل اللّٰه» فالكافرون امتنعوا عن اتباع سبيل محمّد(صلى الله عليه وآله) و منعوا النّاس عنه، و المؤمنون حثّوا أنفسهم على اتّباعه و يحثّون النّاس عليه، فلا جرم حصل لهؤلاء ضدّ ما

حصل لاولئك، فأضلّ اللّٰه تعالى حسنات الكافرين، و كفّر سيئات المؤمنين.

ثمّ بيّن أنّ سبب الكفر الّذي هو سبب إضلال الأعمال و حبطها، هو اتّباع الباطل كما أنّ سبب تكفير سيّئات الأعمال و إصلاح البال هوالايمان الّذي سببه اتّباع الحق فقال: «ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحق من ربّهم» ثمّ أخذ بذكر قاعدة تامّة كاملة تجرى في كلّ ظرف من الظروف على النّاس للتذكير و الموعظة لهم بقوله: «كذلك يضرب اللّٰه للنّاس أمثالهم»: ٣)

بأنّ كلّ من اتّبع الباطل في كلّ ظرف من الظّروف، فقد ضلّ عن سوآء السّبيل، فكفر باللّٰه سبحانه و فسد باله و بطل عمله، و أنّ كلّ من اتّبع الحق في كلّ ظرف من الظّروف فقد هدى و كفّر سيئاته و صلح باله.

إنّ اللّٰه تعالى لمّا بيّن أنّ النّاس فريقان: كافرون و مؤمنون، و أعدآء اللّٰه و أوليآء اللّٰه تعالى، و ميّز بينهما، و عرّف موقف الكافرين من اتباعهم الباطل و كفرهم و إضلال أعمالهم و سوء حالهم، و عرّف موقف المؤمنين من اتّباعهم الحق و ايمانهم و تكفير سيّئاتهم وإصلاح حالهم... أخذ بذكر ما يتفرّع على هذا البيان خطاباً بالمؤمنين بقوله: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب...» بأن تقفوا في وجه أعدآء اللّٰه جلّ وعلا و أن تعملوا على حماية أنفسكم من شرّهم إذ كان أهل الشّرّ و الفتنة و الفساد دائماً - حرباً على أهل الخير و السّلامة و الصّلاح، شأن المصاب بدآء خبيث، فإنّه يكون خطراً على ما يخالطه أو يتّصل به.

و على هذا فإنّ المؤمنين إذا التقوا بالكافرين في معركة قتال، أن يوطنوا أنفسهم على أن تكون الغلبة لهم، فإنّ انتصار هم انتصار للحق و الخير و الصّلاح و هو انتصار لله تعالى و لدين اللّٰه عزّوجلّ، و أنّ هزيمتهم تمكين للباطل و الفساد، و تسليط للبغى و العدوان على مواقع الحق و الهدى و العدل و الصّلاح...

ثمّ أشار إلى أنّ هذه الحسنة هي الّتي أرادها اللّٰه تعالى للمؤمنين من حرب الكافرين المحاربين، و أنّه سبحانه منزّه في الانتقام من الكفّار عن الاستعانة بأحد، فقال: «ذلك و لو يشآء اللّٰه لانتصر منهم» و أهلكهم و دمّرهم بلا حرب و لا قتال بتسليط الملائكة أو

أضعف خلقه عليهم، و لكن هذه السّنّة محك امتحان للمؤمنين، يمتحن بها بعضهم ببعض: «ولكن ليبلوا بعضكم ببعض» ليعلم المجاهدين منهم والصّابرين، فيمتحن المؤمنين بالكافرين هلى يجاهدون في حفظ نظام الإسلام و حراسة نواميس المؤمنين أم لا، و يبتلى الكافرين بالمؤمنين هل يذعنون للحق أم لا إلزاماً للحجّة و قطعاً للمعاذير...

ثمّ ذكر جزاء المجاهدين الشّهدآء في إعلاء كلمة الحقّ، و تحطيم أركان الباطل... فقال: «و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالهم» :۴).

إنّ اللّه تعالى لمّا وعد المجاهدين الشهداء في سبيل اللّه تعالى بأنّه لن يضيع أجرهم... فسّر ذلك – تطميناً لهم – أنّه سيهديهم روعهم و يقرّ عيونهم،و يصلح حالهم و يحفظهم إلى يوم القيامة و لا يتركهم سدى قبله بقوله: «سيهديهم و يصلح بالهم» :۵)

ثمّ فسّر هدايتهم بعد شهادتهم بقوله سبحانه: «و يدخلهم الجنّة و عرّفها لهم» :۶) و هذه هداية موصلة لهم إلى مطلوبهم و هي الجنّة و نعيمها...

إنّ اللّه تعالى لمّا أشار إلى المنافع الدّنيويّة و الأُخرويّة، و النّفسيّة و الدينيّة، و الفرديّة و الاجتماعيّة للجهاد و الشّهادة في إعلاء كلمة الحقّ و إبطال كلمة الكفر و تحطيم أركان الباطل، حثّ المؤمنين على نصرة دين اللّه تعالى بالجهاد و القتال على الكافرين الّذين يصدّون النّاس عن اتّباع الحق، و عن الطريق إلى السّعادة و الكمال الإنساني، و عن الخير والصّلاح... و وعدهم بنصرهم على أعدآئهم إذا نصروا دينه، و قوّى قلبهم و شجّعهم على ذلك بقوله سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم» :۷).

إنّ اللّه عزّوجلّ لمّا ذكر ما يفعل بالمؤمنين المجاهدين في نصرة دين اللّه و إعلاء كلمته... أشار إلى ما يفعل بالكافرين لقياس حالهم من حالهم على سبيل تعليق الحكم على الوصف بأنّ الكفر هو سبب التّعس للكافرين وإضلال أعمالهم... فقال: «و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم» :۸).

ثمّ ذكر سبب بقاء الكافرين على كفرهم و هو كراهتهم ما أنزل اللّه تعالى ، ثمّ بيّن نتيجة الكفر و هي إحباط أعمالهم... بقوله سبحانه: «ذلك بأنهم كرهوا ما أنز اللّه فأحبط أعمالهم» :۹).

ثمّ هدّد الكافرين بحال الأقدمين، على طريق أمر الكافرين بالنّظر في أحوال الأقدمين و رؤية آثارهم لما للمشاهدات الحسّيّة من آثار في النّفوس، و نتآئج لدى ذوى العقول إذا تدبّروها و اعتبروا بها: «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم» ثم ذكر ما فعله بهم بقوله تعالى: «دمّر اللّٰه عليهم» و هذه ضابطة شاملة لكل من كفر في كلّ ظرف من الظّروف، أشار إليها في قوله سبحانه: «و للكافرين أمثالها» :١٠).

ثمّ بيّن سبب ما فعل اللّٰه تعالى بالمؤمنين من نصرهم و تثبيت أقدامهم: «ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا» و ما فعل سبحانه بالكافرين و إحباط أعمالهم، و تهديدهم بالتّدمير و الهلاك: «و أنّ الكافرين لا مولى لهم» :١١).

إنّ اللّٰه تعالى لمّا ذكر حال الفريقين: المؤمنين و الكافرين في الحياة الدّنيا، و اختصاص ولاية اللّٰه عزّوجلّ بالمؤمنين دون الكافرين، بيّن حاليهما في الدّار الآخرة و المقايسة بينهما فيها، مع الإشارة إلى سبب اختلاف حاليهما، حيث وصف كلاً من الفريقين بما يناسب مآل أمرهم، فأشار إلى سبب دخول فريق في الجنّة بقوله جلّ وعلا: «إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات...» و إلى سبب دخول الآخرين في النّار بقوله تعالى: «و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم» :١٢) فالمؤمنون بسبب ايمانهم و صالح أعمالهم يدخلون الجنّة، و الكافرون بسبب كفرهم و حياتهم الحيوانيّة يخلّدون في النّار.

إنّ اللّٰه سبحانه لمّا ضرب لمشركي العرب و كفار قريش مثلاً بقوله تعالى: «أفلم يسيروا في الأرض...» و ذكر لهم أدلّة على قدرته، و حقّانيّة ما نزّله على رسوله﴿ﷺ﴾ فآمن به فريق، و كفر به آخرون، و أشار إلى مآل أمر هم إمّا الجنّة و إمّا النّار، و لكنّهم لم يتعظوا و لم يعتبروا به، ضرب لنبيّه﴿ﷺ﴾ تسلية له، مثلاً على ما لا قاه من عنت قومهم و جحودهم، تحقيراً لأمرهم و تخويفاً و تهديداً لهم بالهلاك و عدم النّاصر لهم منه بقوله عزّوجلّ: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم» :١٣).

ثمّ أشار إلى الفارق بين حالى الفريقين، و إلى سبب كون المؤمنين في الجنّة و نعيمها، و كون الكافرين في النّار و جحيمها، فشتّان بينهما، بقوله تعالى على وجه الإنكار و التهجين و التّوبيخ للكافرين: «أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم» :۱۴).

إنّ اللّٰه تعالى لمّا ذكر الفارق بين الفريقين في الايمان و الكفر، بيّن الفارق بينهما في مرجعهما و مآل أمرهما و بين جزآئهما، حيث إنّ المؤمنين الأتقيآء بسبب ايمانهم و تقواهم استحقّوا الجنّة و أنواع نعيمها، فوصفها ترغيباً لهم إليها، و إن الكافرين الأشقيآء بسبب كفرهم و شقاءهم استحقّوا النّار و أنواع عذابها و الخلود فيها، و وصفها لهم إرعوآءاً و إنذاراً لهم لعلّهم يرجعون عن الكفر و الضّلالة و يتوبون إلى اللّٰه تعالى و الهداية، فقال: «مثل الجنّة الّتي وُعدَ المتّقون...) :۱۵).

و إنّ الآية الكريمة تفصيل لما اشير إليه في قوله تعالى: «إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا...» إجمالاً. إنّ اللّٰه عزّوجلّ لمّا بيّن حال الكافرين و سوء عاقبتهم و خذلانهم في الدّنيا و الآخرة أخذ بذكر حال حليفهم المنافقين الّذين يتظاهرون بالايمان، و يبطنون الكفر، فظاهرهم الإسلام و باطنهم الكفر، صورتهم إنسان، و سيرتهم حيوان ذو رجلين، و هم في زمرة الكافرين، إذ كانوا يحضرون مجلس رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فيسمعون كلامه و لا يعونه تهاوناً و استهزاءً به، و إذا خرجوا من عند رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ينكرونه، فقال تعالى: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال اُنفاً».

ثمّ أشار إلى سبب نفاقهم و استهزاءهم بآيات اللّٰه سبحانه و أثرهما في قلوبهم بقوله عزّوجلّ: «اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم» :۱۶)

فكما أنّ اتّباع الأهوآء كان سبباً لكفر الكافرين و صدّهم النّاس عن سبيل اللّٰه تعالى، كذلك اتباع الأهوآء هو سبب نفاق المنافقين و استهزآئهم بآيات اللّٰه عزّوجل، فهم مشتركون في سببي الكفر و النّفاق، و في الصّدّو الاستهزآء، و هو اتباع الأهوآء، و كما أنّ منشأ كفرهم و نفاقهم واحد، كذلك مآل أمرهم واحد و هم في العذاب مشتركون،

و إن كان المنافقون في الدّرك الأسفل من النّار. قال اللّٰه تعالى: «إنّ اللّٰه جامع المنافقين و الكافرين في جهنّم جميعاً - إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار» النسآء: ١٤٠ و ١٤٥).

لمّا وصف اللّٰه سبحانه المنافقين - على سبيل التّوبيخ و التهوين - بسبب اتباعهم أهوآءهم و ما تفرّع عليه من طبع قلوبهم، وصف جلّ وعلا ضدّهم - على طريق التمجيد و التكريم - و هم المؤمنون بسبب اتباعهم الحقّ و الهدى و ما تفرّع عليه من زيادة الهدى و ايتاء التقوى بقوله سبحانه: «و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم» :١٧)

فكما أنّ اتباع الأهواء هو سبب النّفاق و طبع القلوب، كذلك اتباع الحقّ هو سبب الايمان و زيادة الهدى و ايتاء التقوى، و كلّما زاد اتباع الحقّ، زاد الايمان و الهدى و التّقوى.

ثمّ بيّن أنّ الكافرين و المنافقين جميعاً في غفلة عن النّظر و التّأمّل في مآل أمرهم، مع تهديدهم و تخويفهم - على سبيل السّئوال الاستنكاري و التّوبيخيّ بهم لارتكاسهم في الكفر و الضّلالة و النّفاق و الغواية، و عدم استجابتهم إلى دعوة اللّٰه تعالى قبل فوات الفرصة - بالعذاب الّذي يلقاهم يوم القيامة، و قد قرب يومها، و جائت علاماتها المنذرة بمقدمها... فقال: «فهل ينظرون إلّا السّاعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها».

ثمّ أظهر خطأهم، و حكم بأنّ رأيهم آفنٌ في تأخير هم التّذكّر إلى قيام السّاعة ببيان أنّ التّذكّر لا يجدى نفعاً حينئذ فقال: «فأنّى لهم إذا جآءتهم ذكراهم» :١٨).

إنّ اللّٰه سبحانه لمّا ذكر حال الفريقين: فريق الكفر و النّفاق و انحطاطهم و خسرانهم في الدّنيا والآخرة، و فريق الايمان و الهداية و كما لهم و سعادتهم في الدّارين، فرّع على ذلك قوله تعالى: «فاعلم أنّه لا إله إلّا اللّٰه...» مخاطباً لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ تعليماً لامّته المؤمنين و المؤمنات... كأنّه قال لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾: إذا علمت الأمر كما ذكر من أحوال الفريقين، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة اللّٰه جلّ وعلا و قدرته، بتدبيره و علمه، و بعظمته و جلاله... فعلّمهم ذلك كلّه... ثمّ أمر نبيّه المعصوم﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالاستغفار لذنبه و للمؤمنين و المؤمنات لتستنّ امّته بسنّته فقال: «و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات».

ثمّ بيّن كمال علمه بأحوال خلقه و مآل أمرهم، فقال: «و اللّه يعلم متقلّبكم و مثواكم» :١٩) فعليكم أيّها المؤمنون أن لا تهملوا دقائق التّوحيد و الطّاعة و أن تواظبوا على الإستغفار خوفاً من التّقصير في العبوديّة.

إنّ اللّه تعالى لمّا بيّن وقوف المنافقين من القرآن الكريم إذ يستمعونه وقوف المنكر المستهزء في قوله: «و منهم من يستمع إليك....» :١٦) هذا هو اعتقادهم به، أخذ بذكر حالة اخرى من حالاتهم و التّنديد بهم عليها، و هي وقوفهم من الدّعوة إلى الجهاد وقوف الخائف المثبط المتخاذل، إذ راجع بعض كبار المؤمنين و أقويآئهم و مخلصيهم لرسول اللّه(ﷺ) بشأن الاذن لهم بالجهاد و مقابلة عدوان الكفّار بالمثل، اعترض المنافقون و يذمرون من فرض الجهاد، و يمنون أن يكون هذا الفرض قد تأخّر مرّة اخرى، فقال: «و يقول الّذين آمنوا لو لا نزّلت سورة فإذا انزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت» هذا هو عملهم به. ثم ذكر نتيجة لما سبق، و فذلكة لما تقدّم، فأعقب هذا بأنّ اللّه تعالى طرّد المنافقين و أبعدهم من الخير فقال: «فأولى لهم» :٢٠).

ثمّ حثّهم على الامتثال بظاهر الحال، فقال: «طاعة و قول معروف» ثمّ كشف حالهم بقوله تعالى: « فإذا عزم الأمر» أى فإذا جآء وقت الابتلاء و هو القتال و جدّ أمره إنكشف حالهم و ظهر كذبهم، ثمّ دعاهم إلى القتال، و إن امتنعت استجابتهم له ما داموا على النّفاق و مرض القلوب، فقال: «فلو صدقوا اللّه لكان خيراً لهم» :٢١).

ثمّ خاطبهم خطاب توبيخ و تقريع و تأنيب لهم - على سبيل التّساؤل التّنديدي عمّا يتوقّع منهم من شرّ و خطر و مفسدة للإسلام و المسلمين - أن تعيدوا أحوال الجاهليّة جَزَعة إذا صرتم امراء النّاس و ولاة المسلمين، فعلى الإسلام السلام فقال: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» :٢٢).

ثمّ بيّن آثار تلك الصّفات الرّذيلة و نتائجها... فقال: «اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم» :٢٣».

إنّ اللّه تعالى لمّا ذكر أنّ المنافقين مبعدون عن كلّ خير، فأصمّهم فلم ينتفعوا بما

سمعوا، و أعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا، كلّ ذلك لنفاقهم الّذي هو الموجب للعن عليهم و هو الحجاب بينهم و بين الانتفاع بما يسمعون، و الاستفادة بما يبصرون، ذكر أنّ حال هؤلاء الفئة الضّالّة دائرة بين أمرين: إمّا أنّهم لا يتدبّرون القرآن الكريم إذا وصل إلى قلوبهم، أو أنّهم يتدبّرون و لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة بالنّفاق، و مختوماً عليها، فلا ينفذ إليها شعاع من نوره أبداً، فلا تتأثر بمواعظه و زواجره... فقال تعالى - على سبيل التساؤل الاستنكاري الّذي ينطوي التّوبيخ لهم على عدم تدبّرهم في القرآن الكريم -: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» :٢٤).

إنّ اللّه تعالى لمّا أخبر بإقفال قلوب المنافقين، أخبر عن حالهم بأنّهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبيّن لهم الهدى، و قد زيّن لهم الشّيطان ذلك و خدعهم بباطل الأماني، فقال: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» :٢٥).

ثمّ بيّن سبب إرتداد المنافقين و استيلاء الشّيطان عليهم، فقال: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما أنزل اللّه» مع الإشارة إلى تواطئهم و انسجامهم على المخالفة بما أنزل اللّه تعالى: «سنطيعكم في بعض الأمر» ثمّ أوعد كلّهم بإفشآء اسرارهم في المخالفة بما أنزل اللّه جلّ وعلا: «و اللّه يعلم إسرارهم» :٢٦).

ثمّ فرّع على ما تقدّم بأنّ هذه الحيل و النّفاق و الإسرار و الفساد إن أجدت في حياة المنافقين و يرتدّون بعد تبيّن الهدى لهم، فيفعلون ما يشآؤن من الظّلم و الخيانة و البغى و الجناية و المخالفة لما أنزل اللّه تعالى، فماذا يفعلون حين وفاتهم... فقال: «فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم» :٢٧).

ثمّ ذكر سبب إذلال المنافقين و إهانتهم و استحقاقهم للتّوفّى على تلك الحال الشّنيعة.... فضربت الملائكة وجوههم عند توفّيهم لأنّهم أقبلوا على مواجب السّخط، و ضربوا أدبارهم لأنّهم أعرضوا عمّا فيه رضا اللّه تعالى، كأنّه قيل: لمّا كان اتّباع ما أسخط اللّه: «اتّبعوا ما أسخط اللّه» مقتضياً للتوجّه، ناسب ضرب الوجه، فقال: «يضربون وجوههم» و كانت كراهة رضوان اللّه تعالى: «و كرهوا رضوانه» مقتضياً للإعراض،

ناسب ضرب الدّبر: «و أدبارهم» فِي الكلام مقابلة بما يشبه اللّف و النّشر، ثمّ فرّع على ذلك إحباط أعمالهم، فقال: «فأحبط أعمالهم» :٢٨).

ثمّ بالغ في توبيخ المنافقين و كشف أحقادهم ضدّ الإسلام و دعوته، و إظهار خباياهم، و إعلان نواياهم و عداوتهم لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين فقال: «أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّه أضغانهم» :٢٩).

ثمّ أشار إلى أنّ الحكمة الإلهيّة و مصالح العباد، و إن لم تقتض بإخراج أضغان المنافقين و ترسيم سيرتهم، و تجسيد باطنهم و تصوير ضمآئرهم في الحياة الدّنيا فإنّها دار عمل و صورة، و الدّار الآخرة دار جزاء تبلى فيها السّرآئر، و لكن رسول اللّه(ﷺ) يعرف نفاقهم بسيماهم و كذبهم و حيلهم في لحن قولهم... فقال: «و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول»

ثمّ التفت من الغيبة إلى الخطاب للمؤمنين، وعداً و بشارة و تطميناً و تثبيتاً و تعظيماً لهم، و وعيداً و إنذاراً و تقريعاً و تأنيباً و تحقيراً لشأن المنافقين الّذين هم ساقطون عن الخطاب لهم، فقال: «و اللّه يعلم أعمالكم» :٣٠).

أى لا يؤاخذ اللّه تعالى على ما تكنّه الضّمائر و ما تُخفيه الصّدور في الحياة الدّنيا، و إن يحاسبهم به في الدار الآخرة إذ يقول: «و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به اللّه» البقرة: ٢٨٤) و لكنّه تعالى قد يؤاخذ في الدنيا على ما يقع من أعمال، فإنّ لها آثاراً في الحياة و في النّاس، و لعلّ هذا هو بعض السّرّ في جعل فاصلة الآية: «أعمالكم» على حين جآء فاصلة الآية: (٢٦): «و اللّه يعلم إسرارهم».

لأنّ هنا مقاماً، و هناك مقاماً، فهنا حساب للمنافقين على جرآئمهم الّتي تقع من أعمالهم أو أقوالهم الّتي تجري مجرى الأعمال... و هناك محاسبة للمنافقين على أقوال جرت في الخفاء بين قادتهم و أتباعهم السّفلة كقصّة السّقيفة السّخيفة الشّؤمة... فهي سرّ بالنّسبة إلى المؤمنين لأنّه جرى بعيداً عنهم، و قد كشف اللّه تعالى هذا السّرّ،و فضح أهله... فقال: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّه يعلم إسرارهم».

إنّ اللّٰه تعالى لمّا أشار إلى المنافقين و أصحاب قلوب مرضى في المجتمع الإسلامي، و أنّ اللّٰه عزّوجلّ لو شآء أن يكشف عنهم نفاقهم و يفضح مستورهم، و يرى أشخاصهم، فيعرفون عياناً على سيرتهم و خبائثهم لفعل إذ لا شيء يصادم إرادته أو يعطّل مشيئته، و لو شاء سبحانه لأهلك هؤلآء المنافقين و قتل هذه الآفات الخبيثة الّتي ترعى كلّ نبتة خير فيهم أو لهداهم إلى الايمان و أجبرهم على الهدى، ولكنّه عزّوجلّ لم يفعل ذلك ستراً منه على عباده، و حملاً للامور على ظاهر السّلامة، و ردّاً للسّرآئر على عالمها...

و إن كان رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ يعرفهم فيما يبدو من كلامهم الدّالّ على مقاصدهم، بمغامز يضعونها أثنآء حديثهم، و يفهم مراميها فلا تخفى عليه﴿ﷺ﴾ أقسم تعالى أنّه ممّا قضت به حكمته أن يجعل إلى النّاس أنفسهم مشيئة عاملة و إرادة نافذة، و أن يكون لهم بتلك الإرادة و هذه المشيئة رسالة يؤدونها في هذه الحياة الدّنيا دار الإمتحان و العمل، و هي إصلاح الفاسد و إقامة المعوج، و لا يكون ذلك إلّا أن يبتلى فيها عباده بالجهاد و غيره...

ليعلم الصّادق منهم في ايمانه، الصّابر على مشاقّ التكاليف من غيره، فيعرف المؤمنون ذو و البصيرة في دينهم، من المنافقين ذوى الشك و الحيرة فيه، و يختبر أعمالهم: حسناتهم و سيّئاتهم، فيجازيهم بما قدّموا من خير أو شرّ... فقال: «و لنبلونكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم» :٣١).

إنّ اللّٰه عزّوجلّ لمّا بيّن أنّه يبتلى عباده المؤمنين بالجهاد و غيره حتّى يعرف المجاهدون من القاعدين منهم، و تعرف صلاحيتهم و عدمها لمهامّ الامور الدّينيّة، أخبر أنّ الكافرين – سوآء أكانوا مشركى العرب أم كفّار قريش أو أهل الكتاب أم مرتدّين على قسميهم أو منافقين من المسلمين... كلّهم في زمرة الكافرين – الّذين وقفوا مواقف الصّدّو العداء و الأذى من المؤمنين و الدّعوة الإسلاميّة، و اختاروا شقّاً يضادّ شق

رسول اللّٰه(ﷺ) من بعد ما تبيّن لهم الهدى، هم لن يضرّوا اللّٰه شيئاً، و سيفسد اللّٰه تعالى تدبيرهم و يبطل مساعيهم لهدم أساس الدّين، و ما سعوا في إطفاء نور اللّٰه جلّ وعلا، فقال: «إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم» :٣٢).

ثمّ أمر الله تعالى المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله(ﷺ) في كلّ ما يأمرهم به و ينهاهم عنه، و حذّرهم عن إبطالهم أعمالهم بسبب مخالفتهم عن أوامره و نواهيه كما أبطل المنافقون أعمالهم بسبب مخالفتهم عنها... فقال: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم» :٣٣).

ثمّ أخبر بأنّ الكفر و الصّدّ عن سبيل اللّٰه تعالى يوجب إبطال الأعمال، و أنّ الوفاة على الكفر يمنع عن المغفرة و الغفران، و يوجب العذاب و الخلود في النّار، فقال: «إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّٰه لهم» :٣٤).

ثمّ فرّع على ما سبق بأنّه إذا كان عدم طاعة اللّٰه تعالى و طاعة رسوله(ﷺ) يوجب إبطال الأعمال، و إذا كان الكفر، و هو عدم طاعة اللّٰه و طاعة رسوله(ﷺ)، و الصّدّ عن سبيل اللّٰه يؤدّى إلى الحرمان من الغفران، فلا حرمة للكافرين في الدّنيا و الآخرة، فقاتلوهم أيّها المؤمنون حتّى لا تكون فتنة في الدّين، و لا تظهروا الضّعف و التّراخي في الجهاد في إعلاء كلمة التّوحيد و إبطال كلمة الكفر و القتال مع الكفار المعاندين، و لا تدعوهم إلى الصلح و المسالمة لأنكم الأعلون المفضلون و أنّ اللّٰه تعالى معكم، و النّصر حليفكم، و لن يخذلكم و لن يضيع أعمالكم، و من كان هذا شأنه، فلا يليق به أن يظهر الضّعف و التّراخى في مكافحة المعتدين الصّادّين عن سبيل اللّٰه جلّ وعلا فقال: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم» :٣٥).

إنّ اللّٰه تعالى لمّا نهى المؤمنين عن الضّعف و التّراخى في الجهاد في سبيل اللّٰه، أشار إلى ما يؤدّى إلى هذا الضّعف و التّراخي، و هو حبّ الدّنيا و الحرص على متاعها، فبيّن حقيقتها و هي أنّها لعب و لهو لا بقاء و لا دوام لها، ترغيباً لهم في الآخرة لأنّها باقية، و تزهيداً لهم عن الدّنيا فإنّها فانية، فمن اختار الفاني على الباقى كان جائراً على إنسانيّته، فزادهم حثّاً على الجهاد بتحقير الدّنيا في أعينهم بقوله: «إنّما الحياة الدّنيا لهو و لعب».

ثمّ حثّهم على الايمان و التّقوى لتعود فائدتها عليهم من دون طلب منهم جميع أموالهم في الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى، فقال: «و إن تؤمنوا و تتّقوا يؤتكم اجوركم و لا يسئلكم أموالكم» :۳۶).

ثمّ ذكر سبب عدم طلب جميع الأموال منهم، تنبيهاً إلى شحّ الإنسان بطبعه على ماله و شدّة حرصه عليه، فقال: «إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا» ثمّ أشار إلى النّتيجة القبيحة للبخل و هي خروج الحقد و كراهة البخيل للدّين، فلا يسئلكم اللّٰه تعالى جميع أموالكم لئلّا تظهر كراهتكم للدّين، فقال: «و يخرج أضغانكم» :۳۷).

ثمّ استشهد على أنّ طلب جميع الأموال يؤدّى إلى ظهور البخل منكم أنّكم إذا تدعون لتنفقوا بعض أموالكم في سبيل اللّٰه تعالى، فبعضكم يبخل، فكيف لا تبخلون أنتم جميعكم إذا تدعون لتنفقوا أموالكم كلّها فيه، بقوله سبحانه: «ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه فمنكم من يبخل».

ثمّ أشار إلى قبح البخل و سوء آثاره في نفس البخيل بقوله تعالى: «و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه» كما أنّ للانفاق آثاراً يرجع كلّها إلى نفس المنفق لا إلى اللّٰه سبحانه، و إليه أشار بقوله عزّوجلّ: «و اللّٰه الغنى و أنتم الفقرآء» فاللّٰه جلّ وعلا غنيّ عن عباده، و هم فقراء إليه على كلّ حال، فالإنفاق الّذي يدعوهم إليه إنّما هو لمصلحتهم الدّنيويّة و الأُخرويّة، و الفردية و الإجتماعيّة...

ثمّ هدّد هم بأنّهم إذا أعرضوا عن الاستجابة إلى ما يدعون من الإنفاق و الإخلاص لله تعالى، فإنّ اللّٰه عزّوجلّ لا يعز عليه أن يستبدلهم بقوم آخرين لا يكونون مثلهم في البخل و الإعراض و ضعف الإخلاص و التّقوى بقوله سبحانه: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم» :۳۸).

و أمّا التناسب بين بدء هذه السّورة و ختامها، فإنّها وضعت المؤمنين في أوّلها مواجهة أعدآئهم الكافرين الّذين اتّبعوا الباطل و أهواءهم، و يصدّون النّاس عن سبيل اللّٰه تعالى و هو طريق الحقّ و الهدى، طريق الخير و الصّلاح، طريق العدل و الفلاح، و طريق الايمان و التقوى، و كانوا يتربّصون بالمؤمنين دوآئر السّوء...

فتلتقي المؤمنين في آخرها أن يدافعوا عن كيان الحقّ و نظام الدّين، و أن يعملوا على حماية أنفسهم من هؤلآء الأعدآء المتربّصين بهم، و ذلك بالجهاد في سبيل اللّٰه تعالى بأموالهم و أنفسهم... و إن استنكفوا عن الجهاد و تخاذلوا و تهاونوا... يستبدل اللّٰه جلّوعلا قوماً مؤمنين مجاهدين، غيرهم لا يكونوا أمثالهم في الاستنكاف و التّخاذل و التّهاون...

﴿ النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه ﴾

في التبيان: و قال قتادة و ابن جريج: الآية: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب...» :۴) منسوخة بقوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» التّوبة :۵) و قوله: «فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» الأنفال: ۵۷) و قال ابن عبّاس و الضّحّاك: الفداء منسوخ. و قال ابن عمر و الحسن و عطاء و عمر ابن عبدالعزيز: ليست منسوخة. و قال قوم: ليست منسوخة، و الإمام مخيّر بين الفداء و المنّ و القتل بدلالة الآيات الأُخر» انتهى كلامه.

و في المجمع: قال الطّبرسي رضوان اللّه تعالى عليه: «و اختلف في ذلك، فقيل: كان الأسر محرّماً بآية الأنفال، ثمّ أُبيح بهذه الآية لأنّ هذه السّورة نزلت بعدها، فإذا أسروا فالإمام مخيّر بين المنّ و الفداء بأُسارى المسلمين و بالمال و بين القتل و الاستعباد، و هو قول الشّافعي و أبي يوسف و محمّد بن إسحق. و قيل: إنّ الإمام مخيّر بين المنّ و الفداء و الاستعباد، و ليس له القتل بعد الأسر عن الحسن، و كأنّه جعل في الآية تقديماً و تأخيراً. تقديره: فضرب الرّقاب حتّى تضع الحرب أوزارها... ثمّ قال: حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء.

و قيل: إنّ حكم الآية منسوخ بقوله: «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» و بقوله: «فإمّا تثقفنّهم في الحرب» عن قتادة و السّدى و ابن جريج. و قال ابن عباس و

الضّحّاك: الفداء منسوخ. و قيل: إنّ حكم الآية ثابت غير منسوخ عن ابن عمر و الحسن و عطاء قالوا: لأنّ النّبيّ«عَلَيْهِ اَلسَّلاَمُ» مَنَّ على أبي غرة، و قتل عقبة بن أبي معيط، وفادى أُسارى بدر. و المرويّ عن أئمّة الهدى صلوات الرّحمن عليهم: أنّ الأُسارى ضربان: ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال و الحرب قائمة، فهؤلآء يكون الإمام مخيّراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتّى ينزفوا و لا يجوز المنّ و لا الفداء. و الضّرب الآخر الّذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها، و انقضى القتال، فالإمام مخيّر فيهم بين المنّ و الفداء إمّا بالمال أو بالنّفس، و بين الاسترقاق و ضرب الرّقاب، فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك و كان حكمهم حكم المسلمين».

و في تفسيرالنّيشابورى: «و قال الشّافعي للإمام أن يختار أحد أربعة أُمور: هي القتل، و الاسترقاق، و المنّ و هو الإطلاق من غير عوض، و الفداء بأُسارى المسلمين أو بمال لأنّ رسول اللّه«عَلَيْهِ اَلسَّلاَمُ» منّ على أبي عروة الجهني، و على ابن أثال الحنفي، و فادى رجلاً برجلين من المشركين. و ذهب بعض أصحاب الرّأى أنّ الآية منسوخة، و أنّ المنّ و الفداء إنّما كان يوم بدر فقط، و ناسخها: «اقتلوا المشركين» و ليس للإمام إلّا القتل أوالاسترقاق. و عن مجاهد: ليس اليوم منّ و لا فداء إنّما هو الإسلام أو ضرب العنق».

و في الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: «و اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأوّل: أنّها منسوخة، و هي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادوا و يُمَنّ عليهم. والنّاسخ لها عندهم قوله تعالى: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» و قوله: «فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم مَن خلفهم» و قوله: «و قاتلوا المشركين كافّةً...» الآية. قاله قتادة و الضّحّاك و السّدى و ابن جريج و العَوْفي عن ابن عبّاس، و قاله كثير من الكوفيّين. و قال عبدالكريم الجوزيّ: كُتِبَ إلى أبي‌بكر في أسير أُسِرَ، فذكروا أنّهم التمسوه بفداء كذا و كذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجل من المشركين أحبّ إليّ من كذا و كذا.

الثّاني: أنّها في الكفّار جميعاً، و هي منسوخة على قول جماعة من العلمآء و أهل النّظر منهم قتاده و مجاهد قالوا: إذا أُسِرَ المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه، و لا أن يفادى به،

فيردّ إلى المشركين، و لايجوز أن يفادى عندهم إلّا بالمرأة لأنّها لاتقتل. و النّاسخ لها: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» إذكانت براءة آخر ما نزلت بالتّوقيف، فوجب أن يقتل كلّ مشرك إلّا من قامت الدّلالة على تركه من النّساء و الصّبيان، و من يؤخذ منه الجزية و هو المشهور من مذهب أبي حنيفة، خيفة أن يعود حرباً للمسلمين.

و ذكر عبد الرّزّاق: أخبرنا معمّر عن قتادة: «فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء» قال: نسخها: «فشرّد بهم مَن خَلْفَهم» و قال مجاهد: نسخها «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» و هو قول الحكم.

الثّالث: أنّها ناسخة، قاله الضّحّاك و غيره. روى الثّوري عن جُويبر عن الضّحّاك: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» قال: نسخها: «فإمّا منّاً بعد و إمّا فداءً».

الرّابع: قول سعيد بن جبير: لايكون فداء و لا أسر إلّا بعد الإثخان و القتل بالسّيف لقوله تعالى: «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» فإذا أسِرَ بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره».

الخامس: أنّ الآية محكمة، و الإمام مخيّر في كلّ حال، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس، و قاله كثير من العلمآء منهم ابن عمر و الحسن و عطاء و هو مذهب مالك و الشّافعى و الثّوري و الأوزاعي و أبي عبيد و غيرهم و هو الاختيار لأنّ النّبيّ﴿ﷺ﴾ والخلفاء... فعلوا كلّ ذلك، قتل النّبيّ﴿ﷺ﴾ عُقْبَة بن أبي مُعَيْط و النّضر بن الحارث يوم بدر صَبْراً، و فادى سائر أُسارى بدر، و مَنّ على ثمامة بن أُثال الحنفي و هو أسير في يده، و أخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أُناساً من المسلمين، و هبط عليه﴿ﷺ﴾ قوم من أهل مكّة فأخذهم النّبيّ﴿ﷺ﴾ و منّ عليهم، و قد منّ على سَبْي هوازن. و هذا كلّه ثابت في الصّحيح، و قد مضى جميعه في الأنفال و غيرها.

قال النّحاس: و هذا على أنّ الآيتين محكمتان معمول بهما و هو قول حسن، لأنّ النّسخ إنّما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنّسخ، إذا كان يجوز أن يقع التّعبّد إذا لقينا الّذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسرجاز القتل والاسترقاق و المفاداة و المنّ على ما فيه الصّلاح للمسلمين».

و قال بعض المفسّرين: «و ينطوي في جملة «فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» حكم قرآنيّ في هدف القتال و هو أنّه ليس للإبادة و إنّما هو للتّأديب و التنكيل و القهر، فحينما تتحقّق هذه الغاية وجب الكفّ عن القتل و الجنوح إلى الأسر، و ليس من تعارض بين هذا الحكم و بين ما ورد في جملة «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» الواردة في آية الأنفال: ۶۷) بل و بينهما توافق.

فهذه الجملة لم تمنع الأسر و إنّما نبهت إلى أنّه لا ينبغي أن يكون إلّا بعد أن تكون هيبة النّبيّ﴿عليه السلام﴾ و قوّته قد توطدتا في قلوب الأعدآء و لم يبق من حرج في الأسر منهم بدلاً من إبادتهم بالقتل، و حكم الجملة الّتي نحن في صددها قد لمحت بالأسر إذا ما أوغل المسلمون في قتل أعدآئهم و قهروهم و تحقّقت لهم الغلبة عليهم».

و قال بعضهم: إن آية الأنفال: ٦٧) و آية التّوبة: ۵) تعنيان حالة قيام الحرب، و آية هذه السورة: ۴) تعني بعد أن وضعت الحرب أوزارها، و عندئذ يكون الإمام مخيّراً بين المنّ و الفداء، و إن كان يجوز له الاسترقاق، و كذا يجوز له قتل الأسير أحياناً إن رأى في ذلك مصلحة، كما قتل رسول اللّه﴿عليه السلام﴾ عقبة بن أبي محيط، و مَنّ على أبي غرة، وفادى أُسارى بدر».

فلا تدافع بين الآيتين، حيث إنّ آية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان، و هذه الآية تأمر بالأسر بعد الإثخان.

و في تفسير الطّبري: قال: و الصّواب من القول عندنا في ذلك أنّ هذه الآية محكمة غير منسوخة، و ذلك أنّ صفة النّاسخ و المنسوخ ما قد بيّنّا في غير موضع في كتابنا: أنّه مالم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة أو ما قامت الحجّة بأنّ أحدهما ناسخ الآخر، و غير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ و الفداء و القتل إلى الرّسول﴿عليه السلام﴾ و إلى القآئمين بعده بأمر الأُمّة، و إن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية لأنّه قد أذن بقتلهم في آية أُخرى و ذلك قوله: «اُقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» الآية.

بل ذلك كذلك لأنّ رسول اللّه﴿عليه السلام﴾ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً و يفادي ببعض، و يمنّ على بعض مثل يوم بدر، قتل عقبة بن

أبي محيط، و قد أتى به أسيراً و قتل بني قريظة، و قد نزلوا على حكم سعد و صاروا في يده سلماً و هو على فدآئهم و المنّ عليهم قادر وفادى بجماعة أُسارى المشركين الّذين أسروا ببدر و منّ على ثمامة بن أثال الحنفي و هو أسير في يده.

و لم يزل ذلك ثابتاً من سيرة في أهل الحرب من لدن أذن اللّٰه له بحربهم إلى أن قبضه إليه﴿صلى الله عليه وآله﴾ دائماً ذلك فيهم، و إنّما ذكر جلّ ثناؤه في هذه الآية المنّ و الفداء في الأُسارى، فخصّ ذكرهما فيها لأنّ الأمر بقتلهما و الإذن منه بذلك قد كان تقدّم في سآئر أى تنزيله مكرّراً فأعلم نبيّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بما ذكر في هذه الآية من المنّ و الفداء ماله فيهم مع القتل».

و قيل: إنّ قوله تعالى: «فشدّوا الوثاق...» منسوخ بآية السّيف: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» التوبة: ٥) هذا بناء على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخاً له لا مخصّصاً به. و الحقّ خلافه.

و في **تفسير الصّافي**: قال في قوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون...» الآية :٣٥) و الآية ناسخة لقوله تعالى: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها» الأنفال: ٦١)

و في **تفسير الجامع لأحكام القرآن**: «و اختلف العلماء في حكمها: «و تدعوا إلى السّلم...» فقيل: إنّها ناسخة لقوله تعالى: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها» لأنّ اللّٰه تعالى منع من الميل إلى الصّلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصّلح. و قيل: منسوخة بقوله تعالى: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها».

و قيل: هي محكمة، و الآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. و قيل: إنّ قوله: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها» مخصوص في قوم بأعيانهم، و الاخرى عامّة، فلا يجوز مهادنة الكفّار إلّا عند الضّرورة و ذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين».

في **تفسير النّعماني**: قال أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - حديث طويل -: «فلمّا كان يوم بدر و عرف اللّٰه تعالى حرج المسلمين أنزل على نبيّه: «فإن جنحوا للسّلم فاجنح لها و توكّل على اللّٰه» فلمّا قوي الإسلام و كثر المسلمون، أنزل اللّٰه تعالى: «و لا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم» فنسخت هذه الآية الآية الّتي أذن فيها أن يجنحوا...» الحديث.

أقول: و قد سبق منّا في البحث البيانيّ: أنّ قوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم» ينهى المؤمنين المطيعين - و هم في موضع قوّة - عن الضّعف و التّراخي في الجهاد، و عن الجنوح إلى موادعة الكفّار المعطّلين المشاقّين، و مسالمتهم و مصالحتهم، أو إهمال شأنهم تفادياً من تضحيات الجهاد و نتآئجه... و أمّا إذا جنح الكفّار إلى السّلم - و هم في موضع قوّة - أو كانوا صادقي الرّغبة في الانتهاء من موقف العداء و البغي فلا نهي للمؤمنين عن الجنوح إلى السّلم، و هم في موضع ضعف.

مع أنّ غرض القتال مع الكفّار المحاربين دفع أخطارهم عن ساحة الإسلام و نواميس المسلمين، و إبراز شوكة الايمان و كسر شوكة الكافرين، و في جنوحهم إلى السّلم، شوكة الايمان و كسر شوكتهم...

قيل: إنّ قوله سبحانه: «و لا يسئلكم أموالكم» :۳۶) منسوخ بقوله تعالى: بعده: «إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم» :۳۷)

أقول: و لا يخفى على القارىء الخبير أنّ الآية التّالية تعليل لذيل الآية السّابقة، المسوقة لتقرير سبب عدم سئوال خروج جميع الأموال منهم، في قوله تعالى: «و لا يسئلكم أموالكم» فأين هذا من النّسخ؟

نعم! إنّ الآية الاولى كانت مخصّصة بغير الزّكاة و الصّدقات الواجبة و ما إليها...

و المعنى: إنّ الدّين لا يلزم بالخروج عن المال كلّه، فهو نفي للمجموع لا نفي للجميع، و من ثمّ لا تنافي بينها و بين آية الزّكاة الواجبة أصلاً فتدبّر جيّداً.

﴿ تحقيق عميق في الأقوال ﴾

١- (الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه أضلّ أعمالهم)

في الكافرين و الصّادين عن سبيل اللّٰه أقوال: ١- عن ابن عبّاس و مجاهد و السّدي: هم قريش من كفّار مكّة، و من تبعهم في كفرهم و صدّهم عن سبيل اللّٰه. و قال ابن عبّاس: أي كفروا بمحمّد ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ و بالقرآن، و صرفوا النّاس عن دين اللّٰه و طاعته، و هم المطعمون يوم بدر الكبرى، و كانوا يصدّون النّاس عن الايمان بمحمّد ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ و بالقرآن بأموالهم و أنفسهم و هم عشرة نفر:

١- أبوجهل، نحر عشراً من الإبل لكفّار قريش حين خرجوا من مكّة لمحاربة رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ بالمدينة.

٢- صفوان بن اُميّة، نحر تسعاً من الإبل بعسفان.

٣- سهل بن عمرو، نحر عشراً منها بقديد.

٤- شيبة بن ربيعة، نحر تسعاً منها، حين ضلّوا الطّريق.

٥- عتبة بن ربيعة، نحر عشراً منها.

٦- مقيس الجمحى، نحر تسعاً منها، بالأبواء.

٧- العبّاس بن عبدالمطلب عمّ النّبيّ الكريم ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ نحر عشراً منها.

٨- الحرث بن عامر، نحر تسعاً.

٩- أبوالبختري، نحر عشراً منها على ماء بدر.

١٠- مقيس، نحر تسعاً منها، ثمّ شغلتهم الحرب، فأكلوا من أزوادهم.

و قيل: كانوا هم ستة نفر: ١ و ٢- نبيه و منبه إبنا الحجّاج. ٣ و ٤- عتبة و شيبة إبنا ربيعة. ٥ و ٦- أبوجهل و الحرث إبنا هشام.

و قيل: هم كانوا إثنا عشر نفراً، الستّة السّابقة... ٧- عامر بن نوفل. ٨- حكيم بن حزام ٩- زمعة بن الأسود. ١٠- العبّاس بن عبدالمطّلب. ١١- صفوان بن اُميّة. ١٢- أبوسفيان بن حرب.

أطعم كلّ واحد منهم يوماً الأحابيش و الجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾.

٢- عن مقاتل: هم اثناعشر رجلاً من أهل الشّرك، من مشركي مكّة كانوا يصدّون النّاس عن الايمان بالله تعالى و رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و يأمرونهم بالكفر. ٣- قيل: هم مشركوا العرب من قريش و غيرهم. ٤- قيل: هم شياطين من أهل الكتاب صدّوا من أرادمنهم أو من غيرهم عن الدّخول في الإسلام. ٥- قيل: هم أصحاب رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ الّذين ارتدّوا بعد رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و غصبوا حقّ أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، و صدّوا النّاس عن ولاية أمير المؤمنين و الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بعنوان الصّلة، فيشمل لكلّ من اتّصف بها من الكفر ظاهراً من المشركين على أنحاء الشّرك الخمسة، و من الكفّار على فرقهم من أهل الكتاب و غيرهم، و من اتّصف بها من أنحآء الصّدّ عن سبيل الله تعالى بالأموال و الأنفس، و الأعمال و الأقوال و الأقلام السّامّة... في كلّ ظرف من الظّروف... و لو سلّمنا نزول الآية في أهل مكّة أو في المطعمين يوم بدر لما كان المورد مخصّصاً ما لم يكن خاصّاً كما سبق منّا مراراً في هذا التّفسير فتدبّر جيّداً و لا تغفل.

و في قوله تعالى: «و صدّوا عن سبيل الله» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أى و صرفوا النّاس عن دين الله و طاعته. ٢- قيل: أى أعرضوا عن سبيل الله و امتنعوا عن

الدّخول في الإسلام. ٣- قيل: أي كانوا هم معرضين أنفسهم عن الدّخول في الإسلام و مانعين النّاس عن الدّخول فيه باستدعائهم إلى تكذيب رسول اللّه﴿ﷺ﴾. ٤- قيل: أي منعوا النّاس عن الدّخول في الإسلام و الايمان بما جآء به رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و يدعوهم إليه من دين التّوحيد والعبادة للّه تعالى وحده.

٥- قيل: أي صرفوا النّاس عن الدّخول في الإسلام، و ذلك يستلزم أنّهم منعوا أنفسهم عن الدّخول فيه. ٦- قيل: أى أعرضوا عن الإسلام و سلوك طريقه، أعرضوا عمّا جآءهم محمّد﴿ﷺ﴾ به لقوله تعالى: «قل هذه سبيلى أدعوا إلى اللّه على بصيرة أنا و من اتّبعني» يوسف: ١٠٨).

٧- عن الضّحّاك: أى أعرضوا عن بيت اللّه تعالى و صدّهم عنه، منعهم قاصديه. ٨- قيل: أى سدّوا باب معرفة اللّه تعالى و طاعته على أنفسهم و على النّاس بكفرهم، منعاً للنّاس عن الاتّصال باللّه عزّوجل و رسوله﴿ﷺ﴾ و تضليلاً للواصلين كيلا يواصلوا سيرهم إلى اللّه جلّوعلا أو يرجعوا فيكفروا كما هم كفروا فيكونوا سوآء في الكفر باللّه سبحانه و هم يأملون النّجاح بما يعملون إهتداء إلى بغيتهم في ضلالهم و في إضلال النّاس... ٩- قيل: أى صدّوا هؤلآء المرتدّون بعد وفاة رسول اللّه﴿ﷺ﴾ النّاس عن ولاية أمير المؤمنين و الأئمّة المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

أقول: الكلام في المقام هو الكلام المختار آنفاً.

و في قوله سبحانه: «و أضلّ أعمالهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أى كانت لهم أعمال فاضلة و لكنّ اللّه تعالى لا يقبلها مع الكفر فأبطل حسناتهم و نفقاتهم يوم بدر. ٢- قيل: أى إنّ اللّه سبحانه أفسد أعمالهم كلّها وردّها عليهم و لن يقبلها منهم، و إن كانت صالحات بسبب كفرهم و صدّهم، فكلّ عمل لايزكيّه الايمان باللّه تعالى و رسوله هو عمل ضائع، فاسد، باطل، ضالّ... لايعرف له طريقاً إلى مواقع الرّضا و القبول من اللّه عزّوجلّ. ٣- قيل: أى أبطلها سوآء أكانت حسنة كصلة الأرحام و الإنفاق و الإحسان و إطعام الطّعام و ما إليها أم كانت سيّئة كالكيد لرسول اللّه﴿ﷺ﴾ و إنفاقهم في سفرهم إلى محاربته﴿ﷺ﴾ و الصّدّ عن سبيل اللّه تعالى، فالاولى يبطل ثوابها، و

الثّانية بمحو أثرها بنصر رسوله﴿ﷺ﴾ و إظهار دينه على الدّين كلّه و لو كره الكافرون، و هكذا كلّ من قادم عملاً صالحاً فإنّ مآله الخذلان و النّيران.

٤- قيل: أى جعل أعمالهم ضالّة لا تهتدى إلى مقاصدها الّتي قصد بها، و هي بالجملة إبطال الحقّ و إحيآء الباطل، و الجملة في معنى قوله تعالى: «و من يضلل اللّه فلن تجدله سبيلاً» النسآء: ٨٨) و قوله سبحانه: «و اللّه لا يهدي القوم الكافرين» البقرة: ٢٦٤) و قد وعد اللّه تعالى بإحيآء الحقّ و إبطال الباطل إذ قال: «ليحقّ الحقّ و يبطل الباطل و لوكره المجرمون» الأنفال: ٨) فالمراد من إضلال أعمالهم إبطالها و إفسادها قبل الوصول إلى غايتها.

٥- عن الضّحّاك: أى أبطل كيدهم و مكرهم بالنّبيّ﴿ﷺ﴾ و جعل الدّآئرة تدور عليهم بنصر المؤمنين على الكافرين و أظهر دينه كلّه. ٦- قيل: أى أبطل أعمال غاصبي الخلافة الّتي كانت قدمت منهم مع رسول اللّه﴿ﷺ﴾ من الجهاد و النّصرة بسبب غصب الخلافة و مخالفتهم لأمر اللّه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ فيها. ٧- قيل: أى أحبط اللّه تعالى أعمالهم الّتي كان في زعمهم أنّها خير و حسنة و قربة، و أنّها تنفعهم كالعتق و الصّدقة و قرى الضّيف و حسن الجوار و صلة الأرحام و ما إليها يسمّونها مكارم الاخلاق... ٨- قيل: أى لم يوفقهم في أعمالهم إلى الرّشاد. ٩- قيل: أى أذهب فضل و ثواب ما كانوا يفعلونه من المكرمات هباءً حتّى كأنّها لم تكن إذ لايرون لها في الآخرة ثواباً بسبب كفرهم باللّه تعالى و صدّهم النّاس عن سبيل اللّه، و إن كانوا يجزون بها في الحياة الدّنيا من فضله سبحانه. ١٠- قيل: إنّ معنى الآية: من أعرض عن الإسلام و منع النّاس أن يسلموا فلا يقبل اللّه من عمله شيئاً فإنّ شرط قبول العمل هو الإسلام و الكافر فاقده.

١١- قيل: أى أبطلها و أحبطها و جعلها ضائعة لا أثر لها و لا نفع أصلاً بمعنى أنّه تعالى أبطلها و أحبطها بعد أن لم تكن كذلك، بل بمعنى أنّه سبحانه حكم ببطلانها و ضياعها، و اريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البرّ كصلة الأرحام و قرى الأضياف و فكّ الاسارى و غيرها من الأعمال الصّالحة، فجعلها ضائعة ليس لها من يثيب عليها كالضّالّة من الابل الّتي هي مضيعة لا ربّ لها يحفظها. ١٢- قيل: أى جعلها ضالّة في كفرهم و معاصيهم مغلوبة بها كما يضلّ المآء في اللّبن.

١٣- قيل: إنّ اللّه تعالى أضلّ أعمالهم بسبب كفرهم و صدّهم عن سبيل اللّه، فأعمالهم في كفرهم و صدّهم لا تهتدي إلى آمالهم فهم مع آمالهم و أعمالهم هوآء هبآء لاينتهون و لا تنتهى إلّا إلى حبط و ضياع و ضلال كما أنّ إزاغة قلوبهم بسبب زيغهم، فلا يزيغ اللّه تعالى إلّا مَن زاغ: «فلمّا زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم» الصّف: ٥).

فمن نوى صالحاً و يعمل صالحاً، فيأمل بينهما صالحاً فاللّه تعالى يهديه إلى ما يأمل في أولاه أو أُخراه بحسب مقتضى الحكمة و إنّما الأعمال بالنّيّات، و أمّا من نوى صالحاً، و يعمل غير صالح فقد يهديه بنيّته أو يضلّه بعمله، فرُجى أمره إلى اللّه تعالى و لا سيّما الجاهل بمرضاة اللّه قاصراً غير مقصّر، و أمّا «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ اللّه أعمالهم» بسبب كفرهم و صدّهم فلا يهتدون في أعمالهم و آمالهم سبيلاً غير سبيل جهنّم، و لقد صدق قول اللّه تعالى للّذين كفروا و صدّوا من مشركي مكّة في دنياهم قبل أُخراهم بفتح مكّة!

١٤- قيل: معنى الآية: الّذين جحدوا توحيد اللّه و عبدوا معه غيره و كذّبوا محمّداً نبيّه﴿ﷺ﴾ فيما جآءهم به و صدّوا من أراد التّوحيد و عبادة اللّه تعالى، و تصديق نبيّه﴿ﷺ﴾ و منعوه من الدّين و الايمان، حكم اللّه على أعمالهم بالضّلال عن الحقّ و العدول من الاستقامة، و سمّاها بذلك لأنّها عملت على غير هدى و لارشاد. و الصّدّ عن سبيل اللّه هو الصّرف عن سبيل اللّه بالنّهي عنه، و المنع منه، و التّرغيب في خلافه، و كلّ ذلك صدّ، فهؤلآء كفروا في أنفسهم و ضلّوا في أعمالهم إذ عملوا من دون ايمان هو شرط قبولها، و دعوا غيرهم إلى مثل كفرهم و فتّنوهم و أضلّوهم و منعوهم من الايمان، أضلّ اللّه تعالى أعمالهم بضلالهم و إضلالهم أى باضلال أنفسهم، و إضلال غيرهم.

أقول: - الأقوال بعضها متقاربة و بعضها متداخلة - إنّ منشأ الكفر هو اتّباع الباطل، و منشأ الصّدّ هو اتّباع الهوى، و إضلال الأعمال من نتائج الكفر و آثار الصّدّ، و إنّ الإنسان مختار بين اتّباع عقله و اتّباع هواه، فمن اتّبع عقله، آمن باللّه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و بما جآء من عند اللّه و اتّقى و عمل صالحاً و يدعوا النّاس إلى الايمان و الطّاعة، إلى الخير و الصّلاح، إلى الحقّ و الهدى و إلى العدل و الفلاح... و من اتّبع هواه

صدّ نفسه عن الايمان و كفر بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و كتابه، و صدّ النّاس عن سبيل الله و يدعوهم إلى الكفر و المعصية، إلى الشرّ والفساد، إلى الباطل و الضّلالة و إلى البغى و الشّقآء... فأهلك الله تعالى عمله و أحبطه ضلالاً بضلالٍ و إضلالاً بإضلالٍ.

٢-(و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم)

في قوله تعالى: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: هم الأنصار من أهل المدينة. ٢- عن ابن عبّاس أيضاً: هم أصحاب محمّد﴿ﷺ﴾ من الأنصار و غيرهم... و المعنى: و الّذين آمنوا بالله و رسوله﴿ﷺ﴾ و بالقرآن، و عملوا الصّالحات فيما بينهم و بين ربّهم، و آمنوا بما نزّل الله به جبرئيل﴿عليه السلام﴾ على محمّد﴿ﷺ﴾. ٣- قيل: هم أبوذر و سلمان و مقداد و عمّار الّذين لم ينقضوا بما عاهدوا الله عليه، و آمنوا بما نزّل على محمّد﴿ﷺ﴾ في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ أى ثبتوا على ولايته الّتي أنزلها الله تعالى و هو الحقّ يعني أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ لأنّه مع الحقّ والحقّ معه يدور حيثما دار.

٤- قيل: هم المهاجرون الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات بالهجرة و النّصرة و غير ذلك. ٥- قيل: هم ناس من قريش آمنوا و هاجروا و أضافوا إلى ذلك الأعمال الصّالحة... ٦- قيل: هم المؤمنون من أهل الكتاب. ٧- قيل: عام فيمن آمن من المهاجرين و الأنصار و أهل الكتاب و غيرهم، و الصّالحات تشمل لجميع الأعمال الّتي ترضى الله تعالى. و المعنى: و الّذين آمنوا بالله تعالى و عملوا بطاعته، و اتّبعوا أمره و نهيه، و صدّقوا رسوله﴿ﷺ﴾ و أطاعوه، و صدّقوا بالكتاب الّذي أُنزل على محمّد﴿ﷺ﴾ و هو الحقّ من ربّهم.

أقول: و التعّميم هو الأنسب بصلة الموصول، و الموصول من صيغ العموم و لاداعى للتّخصيص، فيشمل لكلّ من آمن بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و عمل صالحاً يرضاه الله جلّ وعلا، و أمّا ما ورد في المقام فمن باب بيان أظهر المصاديق، و إنّما هم المؤمنون

السّابقون و الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ أميرهم و أمير كلّ من سلك مسالكهم رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين.

و في قوله سبحانه: «و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و سفيان الثّورى: أى هؤلاء المؤمنون آمنوا بما نزّل على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ و ما نزل عليه أى القرآن هو الحقّ من ربّهم و لم يخالفوه في شيء. ٢- قيل: أى صدّقوا محمّداً﴿صلى الله عليه وآله﴾ فيما جآءهم به، و محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ هو الحقّ من ربّهم دون ما يزعمون من أنّه سيخرج في آخر الزّمان نبيّ من العرب، فليس هذا هو، فردّ اللّه ذلك عليهم. ٣- قيل: أى و آمنوا بما نزّل على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ و دين محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ هو الحقّ من ربّهم إذ لا يرد عليه النّسخ، و إنّما هو ناسخ لغيره لأنّ الحقّ هو الثّابت.

٤- قيل: أى و آمنوا بما نزّل على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ من القرآن و العبادات و غيرها، و إيمانهم به هو الحقّ من ربّهم أى بلطفه لهم فيه و حثّه عليه و أمره به و توفيقه لهم به. و المراد بالحقّ ضدّ الباطل. قيل: أى الحقّ الّذى لامرية فيه. ٥- قيل: أى آمنوا بما نزّل على محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الوحي تدريجاً و هو على قسمين: **أحدهما**- وحي كلّى و هو الكتاب الّذي سمّى بالثّقل الأكبر و هو الأصل. **ثانيهما**- وحي جزئى يبيّن الكتاب، و سمّى بالثّقل الأصغر، و هو السّنّة الّتي يحملها أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين، و كلا القسمين من الوحي حقّ من ربّهم يؤمن بهما معاً من دون فكاك بينهما المؤمنون، فمن يؤمن بأحدهما دون الآخر فليس بمؤمن.

أقول: و الخامس هو المؤيّد بما ورد عن الفريقين في بحث النّزول، فراجع و تدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «كفّر عنهم سيّئاتهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أى غفرلهم ذنوبهم بالجهاد. ٢- قيل: تكفير السّيّئات من الكريم سترها بما هي خير منها، و هي الايمان و أعمالهم الصّالحة... فهو في معنى قوله تعالى: «فاولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات» الفرقان: ٧٠).

٣- قيل: أي محى اللّه تعالى عنهم بفعلهم ذلك، سيّيء ما عملوا من الأعمال، فأزالها،

و لم يؤاخذهم بها و لم يعاقبهم عليها. ٤- قيل: أي كفّر ما مضى من سيّئاتهم قبل الايمان أي سترها عنهم بأن غفر سيّئاتهم المتقدّمة بايمانهم و صالح أعمالهم، و حكم بإسقاط المستحقّ عليها من العقاب، فأخبر اللّه سبحانه: أنّه متى آمن المكلّف باللّه عزّوجلّ و صدّق نبيّه﴿ﷺ﴾ و عمل صالحاً، أسقط اللّه تعالى عقاب معاصيه حتّى يصير بمنزلة ما لم يفعل. ٥- قيل: أى ضرب اللّه سبحانه السّتر على سيّئاتهم بالعفو و المغفرة.

٦- قيل: أى كفّر عنهم سيّئاتهم الّتي كانت قبل الايمان، بسبب الايمان، لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله كما قال اللّه تعالى: «قل للّذين كفروا إن ينتهوا يغفرلهم ما قد سلف» الأنفال: ٣٨) و الّتي قد تحصل بعد الايمان و الأعمال الصّالحة... كما قال اللّه عزّوجل: «إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات» هود: ١١٤).

أقول: و السّادس هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر.

و في قوله جلّ وعلا: «و أصلح بالهم» أقوال: ١- عن قتادة و ابن زيد: أى أصلح حالهم في أمر معاشهم و ما تعلّق بدنياهم. ٢- قيل: أى أصلح أمر دينهم و معادهم. ٣- عن ابن عبّاس: أى أصلح أمرهم. ٤- عن ابن عبّاس أيضاً: أى أصلح حالهم و شأنهم و نيّاتهم و عملهم في الدّنيا. ٥- قيل: أى و أصلح حالهم و شأنهم في أمر دينهم و دنياهم بأن نصرهم على أعدآئهم في الدّنيا، و يدخلهم الجنّة في العقبى. ٦- عن مجاهد: أى أصلح شأنهم. ٧- قيل: أى و أظهر أمرهم في الإسلام. ٨- قيل: أى و أصلح شأنهم و حالهم في الدّنيا عند أوليآئه، و في الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد و الخلود الدّائم في جنانه، فمن أصلح جنانه بالايمان في الدّنيا، أصلح اللّه جنانه في الدار الآخرة.

٩- قيل: أي و أصلح أمور دينهم و عقيدتهم فلا يعصونه. ١٠- قيل: أى و أصلح حالهم في الدّنيا فأغناهم بما يكفيهم، و في الدّين بالتّوفيق لصالح الأعمال و التأييد في العبادات، كما جعل أعمال الكافرين ضالّة ضائعة ليس لها من يتقبّلها و يثيب عليها كالضّالّة من الإبل. ١١- قيل: أى المؤمنون لمّا أصلحوا في الدّنيا جنانهم - قلوبهم - بالايمان، أصلح اللّه تعالى جنانهم - جنّاتهم - في الآخرة. ١٢- قيل: إصلاح البال يشمل لبال الحال أيّة حال: شأناً و قلباً و عقلاً و لبّاً و علماً و ايماناً، و على أيّة حال: دنياً

و عقبيً، معاداً و معاشاً، مادّياً و معنويّاً، و جسميّاً و روحيّاً، و من إصلاح البال تكملة الايمان بما آمنوا و عملوا الصّالحات و بالتّوبة، فاستزادة من حسنات و تكفير السّيّئات و لحدّ تبديلها بحسنات...

«من تاب و آمن و عمل صالحاً فاولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات» الفرقان: ۷۰) تبديلاً بما تابوا فلا يأتوا بعد إلّا بالحسنات، فيثابون، كذلك أن تبدّل سيّئاتهم فيما مضى بحسنات و من أقلّه تكفيرها.

۱۳- قيل: أى و سكن روعهم بالايمان و صالح الأعمال... ۱٤- قيل: أى و أصلح حالهم في الدّنيا و الآخرة، أمّا الدّنيا فلأنّ الدّين الحقّ هو الدّين الّذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانيّة الّتي فطر النّاس عليها، و الفطرة لا تقتضي إلّا ما فيه كمال الإنسان و سعادته، و خيره و صلاحه، و رشده و فلاحه... ففي الايمان بما أنزل اللّه تعالى من دين الفطرة ذلك الدّين القيّم تقوم به إنسانيّة الإنسان، و العمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيويّ، و أمّا في الآخرة فلأنّها عاقبة الحياة الدّنيا، و إذ كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك.

قال اللّه تعالى: «تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علّواً في الأرض و لا فساداً و العاقبة للمتّقين» القصص: ۸۳)

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً.

۳- (ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب اللّه للنّاس أمثالهم)

في قوله تعالى: «ذلك» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أى إبطال أعمال الكافرين و إضلالها، و تكفير سيّئات المؤمنين و إصلاح حالهم... ۲- قيل: إشارة إلى عقاب الكافرين و ثواب المؤمنين بأنّ اللّه تعالى خذل الكفّار و أبعدهم عن رحمته، بسبب اتّباعهم الباطل، و نصر المؤمنين و شملهم بعنايته و حراسته لأنّهم اتّبعوا الحقّ من ربّهم. ۳- قيل: أى الأمر ذلك و هو إضلال أعمال الكافرين و تكفير سيّئات المؤمنين و إصلاح

حالهم كائن بسبب اتّباع الكافرين الباطل و اتّباع المؤمنين الحقّ. و قيل: أى فعلوا ذلك...

٤- قيل: أى الأمر ذلك بهذا السّبب. ٥- قيل: إشارة إلى سبب كفر الكافرين و هو اتّباعهم الباطل، و سبب ايمان المؤمنين و هو اتّباعهم الحقّ، في الإشارة تعليل لمنشأ الكفر و الايمان لا لسبب إضلال أعمال الكافرين و تكفير سيّئات المؤمنين و إصلاح بالهم.

أقول: و لكلّ وجه - بعد تقارب معاني بعض الأقوال من بعض - و لكنّ الخامس هو الأنسب بظاهر السّياق فتأمّل.

و في قوله سبحانه: «بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل» أقوال: ١- عن مجاهد: الباطل هو الشّيطان و كلّ ما يأمر الانسان به و يدعوه إليه. ٢- عن ابن عبّاس: الباطل هو الشّرك و الكفر. ٣- قيل: الباطل هو الشّيطان و حزبه. ٤- قيل: الباطل: ما لا ينتفع به. ٥- قيل: الباطل هو أعدآء رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أمير المؤمنين و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين. ٦- قيل: الباطل: هوى النّفس.

أقول: و الخامس هو المرويّ من دون تناف بينه و بين سآئر الأقوال فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ» أقوال: ١- قيل: الحقّ هو القرآن. ٢- قيل: الحقّ هو أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ فالمؤمنون اتّبعوا أميرهم. ٣- عن ابن عبّاس: الحقّ هو الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ و القرآن. ٤- قيل: الحقّ هو الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الشّرع. ٥- قيل: الحقّ هو التّوحيد و الايمان. ٦- قيل: الحقّ هو العقل.

أقول: و الثّاني هو المرويّ من دون تنافٍ بينه و بين الأقوال الأُخر حيث إنّ عليّاً أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ مع الحقّ و الحقّ معه يدور حيثما دار فتدبّر و لا تغفل.

و في قوله جلّوعلا: «كذلك يضرب اللّه للنّاس أمثالهم» أقوال: ١- قيل: أي هؤلآء الكافرون الّذين حكمنا بهلاك أعمالهم و إبطالها بمنزلة من دعاه الباطل فاتّبعه، و هؤلاء المؤمنون الّذين حكمنا بتكفير سيّئاتهم و إصلاح حالهم بمنزلة من دعاه الحقّ من اللّه تعالى فاتبعه. و يكون التقدير: يضرب اللّه للنّاس صفات أعمالهم بأنّ بينها و بين ما يستحقّ عليها من ثواب و عقاب.

٢- قيل: أي هكذا يبيّن اللّٰه تعالى لهم أو صفاتهم على ما هي عليه. ٣- قيل: أي كالبيان الّذي ذكرناه يبيّن اللّٰه تعالى للنّاس أمثال حسنات المؤمنين و سيّئات الكافرين، فإنّ معنى قولك: ضربت لك مثلاً: بيّنت لك ضرباً من الأمثال. ٤- قيل: أراد به المثل المقرون به، فجعل الكافر في اتّباعه الباطل كمن دعاه الباطل إلى نفسه فأجابه، و المؤمن كمن دعاه الحقّ إلى نفسه فأجابه.

٥- قيل: أي كما بيّنت عاقبة الكافر والمؤمن، و جزآء كلّ واحد منهما أضرب للنّاس أمثالاً يستدلّون بها، فيزيدهم علماً و وعظاً. ٦- قيل: أي مثل ذلك البيان يبيّن اللّٰه للنّاس أحوالهم، فالكافر يحبط عمله، والمؤمن يغفر اللّٰه له.

٧- قيل: أي مثل ذلك الضّرب البديع يبيّن اللّٰه تعالى لأجل النّاس أحوال الفريقين: المؤمنين الأبرار، و الكافرين الفجّار و أوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، و هي اتّباع المؤمنين الحقّ و فوزهم و فلاحهم، و اتّباع الكافرين الباطل و خيبتهم و خسرانهم. ٨- قيل: أُريد بضرب الأمثال التّمثيل و التّشبيه بأن جعل تعالى اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكفّار و الإضلال مثلاً لخيبتهم، و اتّباع الحقّ مثلاً لعمل المؤمنين و تكفير السّيّئات مثلاً لفوزهم و هكذا شأن القرآن الكريم يوضح الأُمور الّتي فيها عظة و ذكرى بضرب الأمثال كما ضرب المثل بالنخل و الحنظل في سورة اخرى. ٩- قيل: أى كذلك يبيّن اللّٰه تعالى مصير الكافرين و المؤمنين بضرب الأمثال ترهيباً و ترغيباً.

١٠- قيل: أى مثل ذلك الضّرب، يضرب اللّٰه للنّاس كلّهم أمثال أنفسهم. ١١- قيل: أى إنّ اللّٰه تعالى يضرب أمثالهم لأجل النّاس ليعتبروا بهم، و ضرب المثل في الآية هو أن جعل اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكفّار، و اتّباع الحقّ مثلاً لعمل المؤمنين، و لا ريب أنّ إخباره عن الفريقين بغير تصريح مثل لحالهما، و هذا حقيقة ضرب المثل. ١٢- قيل: إنّ قوله: «كذلك» لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب، و لكنّه لمّا بيّن حال الكافرين و إضلال أعمالهم، و حال المؤمنين و تكفير سيّئاتهم و إصلاح بالهم، و بيّن السّبب فيهما كان ذلك نهاية الايضاح، فقال: كذلك أى مثل ذلك البيان يضرب اللّٰه للنّاس أمثالهم، ويبيّن أحوالهم، و يشبّه لهم الأشباه فيلحق بكلّ قوم من الأمثال أشكالاً.

۱۳- عن ابن عبّاس: أى هكذا يبيّن لامّة محمّد ﴿ﷺ﴾ أمثال من كان قبلهم كيف أهلكهم اللّه عند تكذيب الرّسل و الكتب السّماويّة.

أقول: و على الثّاني عشر أكثر المحقّقين و في معناه أكثر الأقوال الأُخر فتدبّر و اعتبر.

٤- (فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآءً حتّى تضع الحرب أوزارها ذلك و لو يشآء اللّه لانتصر منهم و لكن ليبلوا بعضكم ببعض و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالم)

في قوله تعالى: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب» أقوال: ١- عن ابن عباس: أى فإذا لقيتم الّذين كفروا يوم بدر فاضربوا أعناقهم... ٢- عن قتادة و ابن جريج: أى فإذا لقيتم مشركي العرب يوم أُحد فاضربوا رقابهم حتّى يقولوا: لا إله إلّا اللّه. ٣- قيل: «الّذين كفروا» هم المشركون عبدة الأوثان من أهل مكّة و غيرهم... فالمعنى: فإذا لقيتم معاشر المؤمنين، عبدة الأوثان في دار الحرب أو في ميدان القتال فاضربوا رقابهم ضرباً. ضرب الرّقاب عبارة عن القتل لأنّ الواجب أن يضرب الرّقاب خاصّة دون غيرها من الأعضآء في القتل، و إن جاز الضّرب في سآئر المواضع...

و المعنى: فإذا واجهتم المشركين على أنحاء الشّرك في معركة القتال، فاحصدوهم حصداً بالسّيوف و ما إليها من أسلحة القتال... حتّى إذا غلبتموهم و قهرتم من لم تضربوا رقابهم و لم تقتلوهم، و صاروا أسرى في أيديكم، فشدّوهم بالوثاق، كى لا يقاتلوكم أو يهربوا منكم، ثمّ أنتم بعد انتهاء الحرب و نهاية المعارك - بالخيار في أمرهم، فإن شئتم مننتم عليهم فاطلقتموهم بلا عوض من مال أو غيره، و إن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم و تشاطرونهم عليه - حتّى لا يكون حرب مع المشركين و لا قتال، بزوال شوكتهم.

قال اللّه تعالى: «و قاتلوهم حتّى لا تكون فتنة و يكون الدّين كلّه لله» الأنفال: ٣٩).

٤- قيل: أى فإذا لقيتم الّذين كفروا باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ من أهل الحرب و القتال، فاضربوا رقابهم أى فاقتلوهم بضرب رقابهم. ٥- قيل: «الّذين كفروا» هم كلّ من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابيّ إذا لم يكن صاحب عهد و لا ذمّة. ٦- قيل: هم المشركون من أهل مكّة و غيرهم و الكفّار من أهل الكتاب و غيرهم، و المنافقون المتظاهرون بالإسلام و المبطنون بالكفر كمعاوية بن أبي سفيان و أضرابه إذا حاربوا المؤمنين.

٧- قيل: هم مشركوا العجم من الزّنادقة و من ليس معه كتاب من عبدة النيران و الكواكب. و المعنى: إذا لقيتموهم في الحرب، فاصدقوا في قتالهم حتّى إذا أكثرتم فيهم القتل و قهرتموهم، و ضمنتم لأنفسكم الغلبة عليهم، اجنحوا إلى أسر ما بقى منهم، و يظلّ أمركم معهم على هذا المنوال حتّى تنتهى حالة الحرب و يتخلّص النّاس من أعبآئها إمّا بإسلامهم و إمّا بالتعاهد معهم على الصّلح.

٨- قيل: أى فإذا لقيتم الّذين كفروا في معركة الحقّ و الكرامة، و في ميدان الشّرف و الإنسانيّة: حرب الدّفاع عن الدّيانة، و الوقاية للإنسانيّة، أو إزالة العقبات عن سبيل اللّٰه تعالى، بعد الايعاظ إليهم و الاحتجاج عليهم ببالغ الحجّة و واضح المهجة، فلم يتّعظوا، و استمرّوا في عنادهم و ضلالهم، في لجاجهم و فسادهم، و في غيّهم و بغيهم... إذاً فليس عليكم إلّا ضرب رقابهم: رقاب رقبات الشّر و الفساد و رغبات الكفر و الإلحاد، و إنّما الرّقاب لا الرّؤوس إذ غربت عقولهم و جمدت أدمغتهم لحدّ كأنّهم لا رؤوس لهم بسبب كفرهم و ضلالهم كإنسان مهما كبرت رؤوسهم في الشّرك و الطّغيان: «فاضربوا فوق الأعناق و اضربوا منهم كلّ بنان» الأنفال: ١٢).

فعند لقآء هؤلآء الحماقى فاضربوا ضرب الرّقاب لا، فحسب ضرب الأطراف الاخرى الّتي تشلّ و لا تقتل، و إنّما حسماً لموادّ الفساد السّامّة لا عليكم إلّا ضرب الرّقاب، و لحدّ الإثخان.

و هذا الحكم قائم على المؤمنين يلتقون بالكافرين المعتدين في معركة القتال، إنّهم مأمورون أمراً إلهيّاً بأن يضربوا الضّربات القاتلة للأعداء المتجاوزين، غير ملتفتين إلى أخذهم أسرى، الأمر الّذي يحملهم على أن يتحرّوا ضرب الموطن غير المميتة منهم،

حتّى يكونوا مغنماً من مغانم الحرب... و من جهة اخرى تشير هذه الغاية إلى أنّ حكم الضّرب في رقاب الكافرين المحاربين الصّادّين عن سبيل اللّٰه تعالى إنّما هو في حال الحرب، و أمّا إذا انتهت الحرب و خمدت نيرانها، فليس للمؤمن أن يبدأ بعدوان، أو أن يقتل أحداً منهم إذا لقيه و أمكنته الفرصة منه، إذ لا يستباح دم الكافر إلّا إذا كان في حرب على المسلمين، أمّا في غير الحرب، فإنّ لدمه حرمة يجب على المسلمين رعايتها و صيانتها... قال اللّٰه تعالى: «قل للّذين كفروا إن ينتهوا يغفرلهم ما قد سلف - فإن انتهوا فإنّ اللّٰه بما يعملون بصير» الأنفال: ٣٨-٣٩) و قال: «فإن قاتلوكم فاقتلوهم - فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين» البقرة: ١٩١-١٩٣).

و هكذا يقيم الإسلام في نفوس أتباعه هذه المشاعر الإنسانيّة العالية حتّى مع عدوّهم، الّذي كان في وقت ما حرباً عليهم، و الّذي لا يزال على نيّة الحرب و العدوان، إذا أمكنته الفرصة.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بإطلاق صلة الموصول الّذي هو من صيغ العموم، فالتخصيص بلا مخصّص، فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي حتّى إذا قهرتموهم و غلبتموهم و لم تضربوا رقابهم، فصاروا أسرى بأيديكم، فاستوثقوهم فشدّوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم غفلة، فيهربوا منكم. ٢- قيل: أي فإذا أكثرتم قتلهم و اغلظتموه من الشّيء الثّخين و هو الغليظ، و ظفرتم بهم و انتصرتم عليهم، فاسروهم و احكموا وثاقهم و قيّدوهم بالقيود و شدّوهم بالحبال و السّيور و احفظوهم بشدّ كتفهم بالحبل بحيث لا يستطيعون النّهوض و الفرار. ٣- عن سعيد بن جبير: أى لا تأسروهم و لا تفادوهم حتّى تثخنوهم بالسّيف.

٤- قيل: أى فإذا اثقلتموهم بالقتل و الجراح حتّى أذهبتم عنهم النّهوض و لا يمكنهم النّهوض، فأمسكوا عنهم و أسروهم و شدّوا ما يوثق به الأسرى. ٥- قيل: أي فإذا أوقعتم القتل بهم بشدّة و كثرة و تمكّنتم من أخذ من لم يقتل، أحكموا وثاقهم في الأمر. ٦- قيل: أى حتّى إذا بالغتم في قتلهم و أكثرتم القتل فيهم و قلّت أفرادهم حتّى ضعفوا،

فإذا أسرتموهم فشدّوا الوثاق لئلّا يفلتوا و لا يستطيعون النّهوض.

إنّ اللّٰه تعالى أمر بقتلهم و الإثخان فيهم ليذلّوا، فإذا ذلّوا و قلّوا بالقتل، اسروا، فالأسر يكون بعد المبالغة في القتل كما قال جلّ‌وعلا: «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» الأنفال: ٦٧) و الإثخان هو القتل الضّريع الشّديد الكثير الّذي تتحطّم به قوّة العدوّ بحيث لم يبق له رمق الهجوم و لا الدّفاع و لا الفرار و لا حتّى النّهوض و الحركة.... فليس الغرض إلّا تهاوي القوىٰ الكفرة الشّريرة و الفجرة الضّارية و كسر شوكتهم حتّى لا يقوم لهم ساق و لا قائمة تقوم بالصّدّ عن سبيل اللّٰه تعالى أو الهجوم على حرمات اللّٰه جلّ‌وعلا، فمن ثمّ يأتي دور أسرهم بشدّ الوثاق فيمن تبق: شدّهم في أسرهم أمناً عن الإنفلات، و هيمنة على الأمن.

فلا وثاق للعدوّ الضّاري و لا شدّ فيه حتّى الإثخان، فإنّ الغاية ليس هي الأسر ثمّ منّ أو فدآء، و إنّما هي إزالة القوّة المعتدية عن ساحة الإسلام. ف«ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدّنيا و اللّٰه يريد الآخرة و اللّٰه عزيز حكيم لولا كتاب من اللّٰه سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم» الأنفال: ٦٧-٦٨).

و لا تدافع بين الآيتين رغم ما قيل، حيث إنّ آية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان، و هذه تأمر بالأسر بعد الإثخان، و لقد نقم بعض الطّامعين الطّامحين رسول اللّٰه(ﷺ) لماذا لا يكون له أسرى ننتفع بها قبل أن يثخن في الأرض، فتقل الأسرى، و بعد ما نخسر من قتلانا بغية الإثخان، فجآء الجواب النّاقم الحاسم: «و ما كان لنبيّ...» فحروب الأنبياء لا تعني غنآئم الأموال و النّفوس و تفتّح البلاد، و إنّما تفتح القلوب و الأفكار أو دفع الأخطار عن ساحة الإسلام و نواميس الأبرار...

و إنّما شوكة الايمان و علوّ المؤمنين، و نهكة الكفر و هوان الكافرين لا استغلالها لتجارة الغنآئم و الأسرى، و لمن يخسرون المعارك لصالح الكفّار المعتدين الّذين يهاجمونهم قبل انتهاك قواهم فيقتلونهم و يرجعون أسراهم، فهذه انتفاضة خاسرة تستوجب العذاب العظيم في الدّنيا و الآخرة، و إنّما هي فقط: «أن يثخن في الأرض»: «فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» ثمّ ماذا بعد الإثخان و الوثاق؟ «فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآءً».

أقول: و المعاني متقاربة بالإجمال و التّفصيل.

و في قوله جلّ وعلا: «فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي المؤمنون بالخيار في الأسرى إن شآؤا قتلوهم و إن شآؤا استعبدوهم، و إن شآؤا فادوهم. و عنه أيضاً: أي فإمّا تمنّ على الأسير فترسله بغير فدآء، و إمّا أن يفادى المأسور نفسه. ٢- قيل: أى فإمّا تمنّون عليهم بعد أن تأسروهم منّاً بإطلاقهم من غير شيء، و إمّا تفدونهم بمال أو أسرى مسلمين بأيديهم... و المعنى: التّخيير بعد الأسر بين المنّ و الإطلاق بدون فداء، و بين الفداء بأُسارى المسلمين أو بالمال.

٣- قيل: إن كان الكافرون مشركي العرب لم يقبل منهم شيء إلّا الاسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، و أمّا من سواهم فإنّهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاؤا قتلوهم، و إن شآؤا استحيوهم و إن شآؤا فادوهم إذا لم يتحوّلوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا.

٤- قال الشّيخ الطّوسي رضوان اللّه تعالى عليه في «التّبيان»: «و الّذي رواه أصحابنا: أنّ الأسير إن أخذ قبل انقضآء الحرب و القتال بأن تكون الحرب قائمة و القتال باقٍ، فالإمام مخيّر بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف، و يتركهم حتّى ينزفوا، و ليس له المنّ و لا الفداء، و إن كان أُخذ بعد وضع الحرب أوزارها و انقضآء الحرب و القتال كان مخيّراً بين المنّ و المفادات إمّا بالمال أو النّفس، و بين الاسترقاق و ضرب الرّقاب، فإن أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك و صار حكمه حكم المسلم» إنتهى كلامه.

٥- قيل: قوله تعالى: «فإمّا منّاً و إمّا فداءً» جملة جميلة فريدة في القرآن الكريم تحمل أجمل المواجهات لأخطر الأعداء و بعد إثخانهم، عند القدرة و السّيطرة الحاسمة لجنود الايمان عليهم، فشدّ وثاقهم بأسر أفبعد هذا و ذاك «فإمّا منّاً بعد» و بتسريحهم و تحريرهم دون مقابل، و لا بأسرى المسلمين الّذين هم في أيديهم، و طبعاً معذّبون؟ أجل! و لكي يستفيقوا من غفوتهم و غفلتهم لو كان لهم ضمير، فيهتدوا إلى هدى الإسلام الّتي هي البغية الأُولى و الأخيرة، و إذا لا يستحقّون هكذا منٍّ - و عند ما لا

يؤمل خيرهم - فالشقّ الأخير: «و إمّا فداءً»: أيّ فدآء: بتحرير مقابل من أسرى المسلمين إن كانوا أم أخذ مال أو و لا أقلّ: أخذ ميثاق وثيق ألّا يرجعوا إلى الحرب أو يتجسّسوا لصالح كتلة الفساد أو يصدّوا النّاس عن سبيل اللّه.

و في الحقّ إنّ ذلك كلّه منّ من اللّه عليهم أن يداروا لهذا الحدّ. فيحرّروا دون القتل، و لا فتك و لا ضرب مبرح و لا إجاعة و لا تعطيش و لا أيّ من النّقمات المتداولة بين المتحاربين، اللّهمّ إلاّ أن يشذّ شاذّ، فيُقتَل، و طبعاً لا بجريمة القتل و الأسر، و إنّما لأمر ما يستحقّ به القتل، كأن يتجسّس أو يتحسّس منه ذلك أم سواه ممّا يخاف منه على كيان الإسلام و نظام المسلمين، أو يسترق - دونما حبس يحبس عنه محاولة الايمان أم ماذا، و يكلّف بيت مال المسلمين عبئاً و حملاً! و إنّما يسترق دفعاً على طوارئ الفساد إذا تحرّر، عند ما لا يطمئنّ فداء - و تأميناً و توطيناً له على الإسلام، إذا عاش جوّه في بيت مسلم، فرأى ازدهاراً في كلّ زواياه الحيويّة.

و ثمّ إذا آمن يعتق بمختلف أسبابه، فما الرّقّ في الإسلام أصلاً اقتصاديّاً أو سياسة تعذيبيّة أو نقمة من الأسرى، و إنّما كياسة و نعمة و ثقافة كآخر الأدوآء لذلك الدّاء العضال!

ذلك، و لكنّما الأصل المعول عليه بعد إثخان الحرب هو المنّ أو الفداء اللّهمّ إلّا إذا بقيت الدّاء فتداوى ببقيّة الأدوآء: استرقاقاً أم ماذا، و أخيراً قتلاً إذا لم تبق دواه إلّا القتل، فآخر الدّواء الكيّ!

و إنّما هو تفتح القلوب ما أمكن، أو صدّ الهجوم على حرمات الإسلام مهما أمكن، دون انتقام و حملة وحشيّة بدوافع نفسيّة أم ماذا، فالحرب الإسلاميّة في صيغة واحدة: «في سبيل اللّه» على مَن يصدّ النّاس عن سبيل اللّه لا سواه.

فلا يقتل الأسير لكفره أو أسره، و لا يعذّب و لا يجاع أو يعطش، و لا يلحق فارّ، و لا يجهز على جريح، و لا يعاقب صغير و لا كبير و لا امرأة، اللّهم إلّا إذا لزم الأمر و في «سبيل اللّه» فنصّ المنّ و الفداء يتضمّن حكم أسرى الحرب بما هم أسرى، و سآئر النّصوص تتضمّن حالات اخرى و إن كانت تشمل الأسرى، فلا تدافع بينها لمن تدبّرها حقّ تدبّرها.

أقول: و الرّابع هو المرويّ و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «حتّى تضع الحرب أوزارها» أقوال: ١- عن ابن عبّاس أى حتّى تضع الحرب آلاتها و أثقالها الّتي لاتقوم الحرب إلّا بها كالسّلاح و الكراع.

قال الأعشى:

و أعـددت للـحرب أوزارهـا رماحاً طـوالاً و خـيلاً ذكـوراً

و مـن نَسْـج داود يحـدى بهـا عـلى أثـر الحـيّ عـيراً صـغيراً

و سمّيت أوزارها لأنّها لم يكن لها بدّ من جرّها فإنّها تحملها، فإذا انقضت فكأنّها وضعت أسبابها ر المعنى: حتى تضع الأعدآء المحاربون أسلحتهم الّتي يحملونها في القتال إمّا بالهزيمة أو الموادعة.

و يقال للكراع: أوزار. الأوزار الأثقال، و منه وزير الملك لأنّه يتحمّل عنه الأثقال، و أثقالها: السّلاح لثقل حملها.

٢- عن قتاده و الحسن: أي حتّى تضع الحرب آثامها، يعني حتّى يترك أهل الحرب و هم المشركون شركهم و معاصيهم بأن يسلموا فلا يبق إلّا الإسلام خير الأديان و لا تُعبَد الأوثان... و قيل: أى حتىّ يترك الكفّار أشراكهم فلا يكون شرك و لا مشرك. و عن ابن عبّاس أيضاً: أى حتّى لا يبق أحد من المشركين. ٣- عن الفرّاء: أى حتّى لا يبق إلّا مسلم أو مسالم. ٤- عن الزّجاج: أي اقتلوهم و أسروهم حتّى يؤمنوا فما دام الكفر باقٍ فالحرب قائمة أبداً. ٥- قيل: أي حتّى يخرج يأجوج و مأجوج.

٦- عن سعيد بن جبير و مجاهد: أي حتّى يخرج عيسى بن مريم ﴿عليه السلام﴾ فيسلم كلّ يهوديّ و نصرانيّ و صاحب ملّة، و تأمن الشّاة من الذّئب، و لا تقرض فأرة جراباً، و تذهب العداوة من النّاس و من الأشيآء كلّها، ذلك ظهور الإسلام على الدّين كلّه و ينعم الرّجل المسلم حتّى تقطر رجله دماً إذا وضعها. ٧- قيل: أي حتّى تضع جنس الحرب الأوزار و ذلك إذا لم يبق شوكة للمشركين. ٨- قيل: أي حتّى تضع الحرب آثـامها و أثقال أهلها المشركين بالله بأن يتوبوا إلى الله من شركهم، فيؤمنوا به و برسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يطيعوه في أمره و نهيه، فذلك وضع الحرب أوزارها....

٩- قيل: أي حتّى تلق الحرب أوزار أهلها من السّلاح و غيره بأن يسلم الكفّار أو يدخلوا في العهد و هذه غاية للقتل و الأسر. ١٠- قيل: أي حتّى يضع المحارب أوزاره أي حتّى يضع أهل الحرب أسلحتهم فلا يقاتلون. ١١- عن مجاهد و الحسن و الفرّاء أيضاً و الكلبي و الكسائي: أي حتّى لا يكون دين إلّا دين الإسلام. ١٢- عن الكسائى أيضاً: أى حتّى يسلم الخلق كلّهم. ١٣- عن الفرّآء أيضاً: أي حتّى يتوبوا و يؤمنوا و يذهب الكفر و ينتهي الشّرك. ١٤- عن الكلبي أيضاً: أى حتّى يظهر الإسلام على الدّين كلّه. ١٥- عن الحسن أيضاً: أي حتّى لا يعبدوا إلّا اللّٰه. ١٦- قيل: أي حتّى تأمنوا و تضع السّلاح.

١٧- قيل: أي هذه الأحكام جارية فيهم حتّى لايكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم، فمتى زالت فلا حرب و لا أسر و لا قتال. ١٨- قيل: أي حتّى تضع حربكم و قتالكم أوزار المشركين و قبآئح أعمالهم بأن يسلموا فلا يبقى إلّا الإسلام. ١٩- قيل: أى القتال و المحاربة بين المؤمنين و الكافرين باقية حتّى يقتل الدّجّال، فما دام الكفر فالمحاربة قائمة أبداً. ٢٠- قيل: أي حتّى تنتهى حالة الحرب و يخلص النّاس من أثقالها و أعبائها بإسلام الكفّار أو التّعاهد معهم على الصّلح.

أقول: و العشرون هو المستفاد من الرّوايات سيأتي ذكرها و في معناه أكثر الأقوال الأُخر، فتدبّر جيّداً.

و في **قوله تعالى:** «ذلك» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أى ذلك العقوبة لمن كفر باللّٰه. ٢- قيل: أى ذلك الأمر الّذي أمرتكم به أيّها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم في حرب و شدّهم وثاقاً بعد قهرهم و أسرهم و المنّ و الفداء حتّى تضع الحرب أوزارها هو الحقّ الّذي ألزمكم ربّكم. و هو السّنّة الّتي جرى عليها لإصلاح حال عباده و هي الّتي ستبقى السّنّة الطبيعيّة بين الامم ما دامت في طور طفولتها حتّى يتمّ نضجها العقلي و الخُلُقي، فتضع الحرب أوزارها، إذ لايكون هناك حاجة إليها لأنّ العالم كلّه يكون كأسرة واحدة، سعادته بسعادة أفراده جميعاً و شقآؤه بشقآئهم... ٣- قيل: إن حكم اللّٰه هو ما ذكر في الآية. ٤- قيل: أي افعلوا ذلك. ٥- قيل: أي ذلك حكم الكفّار المحاربين. ٦- قيل:

إشارة إلى جهاد قُوَى البغي و الضّلال، و الشرّ و الفساد. ٦- قيل: أى البعيد الغور في سياسة الحرب الإسلاميّة ممّا تتوجب عليكم امتحاناً بلوى دون امتهان، فالدّنيا هي دار امتحان، و إلّا ف«لو يشاء اللّه لانتصر منهم...».

أقول: و على الثّاني أكثر المفسّرين و في معناه أكثر الأقوال الأُخر.

و في قوله سبحانه: «و لو يشآء اللّه لانتصر منهم» أقوال: ١- عن ابن جريج: أي ولو يشاء اللّه لأرسل عليهم ملكاً فدمّر عليهم. ٢- قيل: أي و لو يشآء اللّه لأهلكهم بغير قتال. ٣- قيل: أى ولو يشآء اللّه لانتقم من الاشرار بالاستئصال و إنزال العذاب بلا جهاد و لا قتال. ٤- عن ابن عبّاس: أي و لو يشآء اللّه لانتقم من كفّار مكّة و أهلكهم بجند من الملائكة غيركم. ٥- عن قتادة: أي و لو يشآء اللّه لانتصر منهم بجنوده الكثيرة، فإنّ كلّ خلقه له تعالى جند، فلو سلّط أضعف خلقه لكان له جنداً.

٦- قيل: أي و لو يشآء اللّه لانتصر منهم ببعض أسباب الهلاك و العذاب من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت أو خارق... كما أهلك كثيراً من الأُمم الماضية بها و لكن أمركم بقتال الكافرين الصّادّين عن سبيل اللّه ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا و يصبروا و يبذلوا أنفسهم في إحياء الدّين و إحقاق الحقّ و إبطال الباطل، و الدّفاع عن كيان الإسلام و نواميس المؤمنين حتّى يستوجبوا الثّواب العظيم.

أقول: و على السّادس أكثر المفسّرين، و في معناه الأقوال الأُخر.

و في قوله عزّوجلّ: «و لكن ليبلوا بعضكم ببعض» أقوال: ١- قيل: أي و لكنّ اللّه أمركم بقتال الكفّار المعتدين ليمتحن المؤمنين بالكافرين هل يجاهدون في سبيله حقّ الجهاد أم لا، و يبتلى الكافرين بالمؤمنين هل يذعنون للحقّ أم لا إلزاماً للحجّة و قطعاً للمعاذير، و معنى الابتلاء من اللّه تعالى مجاز أى يعاملهم معاملة المختبر. ٢- قيل: أي ولكن ليظهر الأمر لغيره من الملائكة أو الثّقلين. ٣- قيل: أي و لكنّ اللّه شرع الجهاد بالأنفس و الأموال ليميّز بين أنصار الحقّ و الهدى و الخير و الصّلاح، و بين أهل الباطل و الضّلالة و الشّرّ و الفساد...

قال اللّه تعالى: «قالوا و ما لنا ألّا نقاتل في سبيل اللّه و قد أُخرجنا من ديارنا و

أبنآئنا فلّما كتب عليهم القتال تولّوا إلّا قليلاً منهم» البقرة: ٢٤٦).

٤- قيل: أى و لكن ليبلوا بعضكم ببعض، منهم في القتال، فيصير من قتل منكم إلى الجنّة و منهم إلى النّار. ٥- قيل: أي يختبرهم و يتعبّدهم بقتالهم إن لم يؤمنوا. ٦- قيل: أي و لكنّ اللّٰه سبحانه لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض، فيمتحن المؤمنين بالكفّار المتحاربين، يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعين من العاصين، و يمتحن الكفّار بالمؤمنين فيتميزّ أهل الضّلالة و الشّقآء منهم ممّن يوفّق للتّوبة من اتّباع الباطل والرّجوع إلى اتّباع الحقّ. ٧- قيل: أي و لكنّ اللّٰه تعالى أراد أن يبلوا بعضكم ببعض فيختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و يبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شآء، و يتّعظ منهم من شآء بمن أهلك بأيديكم حتّى ينيب إلى الحقّ و الهدى و الخير و الصّلاح. ٨- قيل: أي و لكن لم يشاء اللّٰه الإنتصار ليبلوا بعضكم ببعض، فأمركم بالقتال و بلاكم بالكافرين المتجاوزين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثّواب العظيم بموجب الوعد، والكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر والطّغيان.

أقول: و لكلّ وجه من دون تنافٍ بينها فتدبّر جيّداً.

و **في قوله تعالى:** «و الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه فلن يضلّ أعمالهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و الّذين قتلوا في طاعة اللّٰه يوم بدر، و هم أصحاب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فلن يبطل حسناتهم في الجهاد خلاف الكفرة الّذين أضلّ اللّٰه أعمالهم. ٢- قيل: أى و من قُتِلَ في سبيل اللّٰه تعالى لإحياء الدّين و إحقاق الحقّ، و إماتة الكفر و إبطال الباطل في كلّ ظرف من الظّروف لن يضيع اللّٰه تعالى أعماله و لن يهلكها بل يقبلها و يجازيه عليها ثواباً عظيماً دائماً.

٣- عن ابن جريج و قتادة: أي و الّذين قتلوا يوم اُحد في سبيل اللّٰه و هم شهداء اُحد، فلن يضلّ أعمالهم، بل يتقبّلها و يثيبهم عليها جزيل الثّواب. ٤- قيل: أى و من قتل في سبيل اللّٰه و هو الجهاد و القتال مع أعداء الدّين، دفاعاً عن كيان الإسلام و نواميس المسلمين، فلن يبطل أعمالهم الصّالحة الّتي أتوابها في سبيل اللّٰه. ٥- قيل: أى والّذين جاهدوا أعداء اللّٰه في دين اللّٰه و في نصرة ما بعث اللّٰه تعالى به رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

من الحقّ و الهدى فلن يجعل أعمالهم الّتي عملوها في الدّنيا ضائعة سدى و لا يهلكها و لايحكم بضلالهم و لا عدولهم عن الحقّ، كما أذهب أعمال الكفّار المعتدين الصّادّين و جعلها ضالّة عديمة الجدوى و أضلّهم.

٦- قيل: أى و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ قتلهم أعمالهم عاجلاً و لا آجلاً كما أنّ كفر الكافرين أضلّ أعمالهم عاجلاً و آجلاً.

أقول: و التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق، فإنّ الكلام مسوق سوق الشّرط، والحكم عام، فتخصيص الشّهدآء بشهدآء يوم أُحد أو يوم بدر تخصيص من دون مخصّص، و إن كانوا هم السّابقين لهم الدّرجات العلى رضوان اللّه تعالى عليهم.

٥- (سيهديهم و يصلح بالهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- قيل: أي سيوفّقهم اللّه تعالى للعمل بما يحبّه و يرضاه و يحبّهم و يصونهم ممّا يورث الكفر و الضّلال، و يصلح شأنهم في العقبى و يتقبّل أعمالهم.
٢- عن ابن عبّاس أي سيوفّقهم للأعمال الصّالحة و يصلح حالهم و شأنهم و نيّاتهم...
٣- قيل: أي سيهديهم اللّه تعالى و يصلح بالهم بعد الشّهادة كما هداهم و أصلح بالهم قبلها. و انّ الهداية بعد الشّهادة هي هداية إلى أنّ شهادتهم لم تذهب هدراً، و إنّما هي وضّائة مشعّة للايمان و المؤمنين، فيهديهم اللّه تعالى بعد شهادتهم أنّ دمآئهم نبعة فوّارة تفور و تثور على الكافرين لتكون كلمة اللّه هي العليا، و كلمة الكفر هي السّفلى، و يصلح بالهم بما يتبهّجون في البرزخ بغفران سيّئاتهم و أن ليسوا أمواتاً.

٤- قيل: أى سيهديهم إلى طريق الجنّة و الثّواب، و يصلح شأنهم أو حالهم و أمر معاشهم في المعاد، و ليس في ذلك تكرار البال لأنّ المعنى يختلف لأنّ المراد بالأوّل أنّه يصلح حالهم في الدّين و الدّنيا، و بالثّاني يصلح حالهم في نعيم العقبى، فالأوّل سبب النّعيم و الثّانى نفس النّعيم. ٥- قيل: أي سيهديهم في الدّنيا و الآخرة إلى ما ينفعهم و يصلح حالهم فيهما و ما في الدّنيا لمن لم يقتل، و أدرجوا فى «قتلوا» تغليباً.

٦- قيل: أي سيهديهم إلى منازل السّعادة و الكرامة، و يصلح حالهم بالمغفرة و العفو عن سيّئاتهم، فيصلحون لدخول الجنّة، و إذا انضمّت هذه الآية إلى قوله تعالى: «و لا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحيآء عند ربّهم يرزقون» آل عمران: ١٦٩) ظهر أنّ المراد بإصلاح بالهم احياؤهم حياة يصلحون بها للحضور عند ربّهم بانكشاف الغطاء، فقوله تعالى: «و يصلح بالهم» كالعطف التّفسيري لقوله: «سيهديهم».

٧- قيل: أي سيهدي روعهم و يقرّ عيونهم. ٨- قيل: أي يثبت في الدّنيا هدايتهم، و يرضى خصمآءهم و يقبل أعمالهم... و المراد الوعد بأن يحفظهم و يصونهم عمّا يورث الضّلال و حبط الأعمال و هو كالتّعليل أو كالبيان لذلك. ٩- قيل: أي سيوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النّعيم المقيم و الفضل العظيم، و هذا كالبيان لقوله تعالى: «فلن يضلّ أعمالهم». و قد ترد الهداية، و المراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان و الطّرق المفضية إليها، و منه قوله تعالى: «فاهدوهم إلى صراط الجحيم» الصّافات: ٢٣) أي فاسلكوا بهم إليها.

١٠- قيل: أي سيهدي من بقى منهم. أى يحقّق لهم الهداية. ١١- قيل: أي سيهديهم إلى محاجّة نكير و منكر في القبر. ١٢- عن مجاهد: أي سيهدي أهل الجنّة إلى بيوتهم و مساكنهم في الجنّة و يصلح حالهم فيها. ١٣- قيل: أي سينجيهم في الآخرة، و يقبل أعمالهم يوم القيامة.

أقول: و التّاسع هو المستفاد من الرّوايات و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

٦- (و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم)

في قوله تعالى: «عرّفها لهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي أعلمها لهم و بيّنها بما يعلم به كلّ أحد من أهلها منزلته و درجته في الجنّة، فيهتدون إليها كما يهتدي كلّ أحد في الحياة الدّنيا إلى منزله، لا يشكل عليه ذلك. ٢- عن مجاهد: أي يهتدي أهل الجنّة إلى بيوتهم و مساكنهم و أزواجهم و خدمهم فيها من غير استدلال، حيث قسّم اللّه لهم

منها، لا يخطئون كأنّهم كانوا سكّانها منذ خلقوا، لا يستدلّون عليها أحداً بأنّ اللّٰه تعالى جعل لكلّ أحد مقرّاً فيها، و جعل كلّ أحد يعرف ماله فيها لا يضلّ في طلبه، كأنّهم كانوا سكّانها منذ خلقوا.

٣- عن مقاتل: إنّ الملك الّذي وكلّ بحفظ عمل الإنسان في الدّنيا هو يمشي بين يديه في الجنّة، فيتّبعه المؤمن الشّهيد حتّى يأتي أقصى منزله هوله، فيعرفه كلّ شيء أعطاه اللّٰه تعالى، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنّة دخل منزله و أزواجه، و انصرف عنه الملك.
٤- عن ابن عبّاس أيضاً: أى طيّبها اللّٰه تعالى لهم بأنواع الملاذ، مأخوذ من العرف، و هى الرّآئحة الطّيّبة الّتي تتقبّلها النّفس تقبل ما تعرفه و لا تنكره. ٥- عن قتادة: أى عرّفهم منازلهم فيها، و ذلك بإلهام من اللّٰه تعالى، و كلّ أحد منهم بمنزله في الجنّة أعرف منه بمنزله في الدّنيا.

٦- عن الحسن و الجبائى: أى بيّنها لهم و أعلمهم في القرآن و مدحها بوصفها على ما يشوّق إليها حتّى عشقوها و رغبوا فيها و سعوا لها و اجتهدوا فيما يوصلهم إليها، فعملوا بما استوجبوها به من طاعة اللّٰه تعالى و اجتناب معاصيه، فلمّا دخلوها عرفوها بصفتها.
٧- قيل: عن مجاهد و قتادة أيضاً و سعيد بن جبير و أبي سعيد الخدري و ابن زيد: أي بيّنها لهم حتّى عرفوها، فإذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فكانوا أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم...

٨- قيل: أي عرّف طرق الجنّة و مساكنها و بيوتها لهم... فحذف المضاف. ٩- قيل: أي وقفهم للطّاعة حتّى استوجبوا الجنّة. ١٠- قيل: أي عرّف أهل السّمآء أنّها لهم إظهاراً لكرامتهم فيها. ١١- قيل: أي عرّف المطيعين أنّها لهم. ١٢- قيل: إنّ حسنات الشّهدآء أعظمها شهادتهم هي دليل لهم إلى منزلهم في الجنّة. ١٣- قيل: إنّ اللّٰه تعالى رسم على كلّ منزل فيها إسم صاحبه و هو نوع من التّعريف. ١٤- قيل: أى شرفها لهم و رفعها و علاها على أن عرفها من الأعراف الّتي هي الجبال و ما أشبهها.

١٥- قيل: تعريفها: تحديدها، يقال: عرف الدّار و عرّفها: حدّدها لهم بحيث يكون لكلّ أحد منهم، جنّة منفردة مفرزة عن الأُخرى، بحيث تكون محدّدة معيّنة، و يهديهم

إليها بحيث لا يضلّ أحد في طلبها، و ذلك أنّ لكلّ امرئ في الحياة الدّنيا عملاً خاصّاً به يستوجب حالاً خاصّة في الآخرة لا يتعدّاها، فإذا مات الإنسان، وضع في مركزه وضعاً طبيعيّاً لا تكلّف فيه، فيكون النّاس في الآخرة أشبه بأنواع السّمك في البحر الملح، و بأنواع الطّير في الجوّ، فكما أنّ الطّير في الجوّ لكلّ نوع من أنواعه درجة في العلوّ لا يتعدّاها، هكذا لكلّ مؤمن صالح و مجاهد شهيد في سبيل اللّٰه تعالى درجة لا يتعدّاها، بل يجد نفسه مقهوراً على البقآء فيها.

و كما أنّ السّمك منه ما هو قريب سطح المآء، و منه ما وجد تحت سطح المآء بمأة متر أو ألف أو آلالف متر، و هكذا أهل الجنّة و النّار «و لكلّ درجات ممّا عملوا» الأحقاف: ١٩). ١٦- قيل: أي وعدها إيّاهم و ادّخرها لهم. ١٧- قيل: أي سيدخلهم الجنّة و الحال أنّه عرّفها لهم إمّا بالبيان الدّنيوي من طريق الوحي و النّبوّة، و إمّا بالبشرى عند القبض أو في القبر أو يوم القيامة أو في جميع هذه المواقف. ١٨- قيل: أى و يدخلهم الجنّة الّتي عرّفهم الطّريق إليها. ١٩- قيل: أى عرّف أنواع نِعَم الجنّة لهم.

أقول: و على الثّامن أكثر المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

٧- (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت أقدامكم)

في قوله تعالى: «إن تنصروا اللّٰه ينصركم» أقوال: ١- قيل: أي إن تنصروا دين اللّٰه و طريقه ينصركم على الأعدآء بالقتال و قوّة السّلاح كانتصار الرّسول﴿ﷺ﴾ على عتاة الكفر و الظّلم من قريش و غيرهم... ٢- قيل: أي إن تنصروا دين اللّٰه تعالى بدعآء النّاس إليه، و تقيموا شريعته بالعمل بها، و تدفعوا الكفر و الضّلال و الشّرك و الفساد، و كلّ ما يعترض سبيل اللّٰه و يخالف ما أمر اللّٰه به بالجهاد و القتال، ينصركم على عدوّكم الكفّار و يفتح لكم بلادهم، و نعمه عليكم.

٣- قيل: أي إن تدفعوا عن نبيّه﴿ﷺ﴾ يدفع اللّٰه تعالى عنكم أعداءكم في الدّنيا عاجلاً و عذاب النّار آجلاً. ٤- قيل: أي إن تنصروا حزب اللّٰه تعالى و فريقه، ينصركم على أعدائكم بالعذاب من السّمآء و الأرض كالصّيحة و الخسف و الطّوفان و الرّيح

العاتية و ما إليها. ٥- قيل: أي إن تنصروا اللّٰه حقيقة، و ذلك أنّ النّصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين بالاجتهاد و الأخذ في تحقيق علامته، و لا ريب أنّ الشّيطان عدوّ اللّٰه يجتهد و يسعى في تحقيق الكفر و غلبة أهل الايمان، و أنّ اللّٰه تعالى يطلب قمح الكفر أو إهلاك أهله، فمن حقّق نصره اللّٰه تعالى حيث حقّق مطلوبه.

٦- قيل: أي إن تنصروا دين اللّٰه تعالى ينصركم بقوّة الحجّة و البرهان عند نقاش الخصم و جداله. ٧- قيل: أي إن تنصروا دين اللّٰه سبحانه ينصركم بعلوّ الشّأن و خلود الذّكر في الدّنيا كما قال: «و أنتم الأعلون». ٨- قيل: أي إن تجاهدوا في سبيل اللّٰه و تقاتلوا لوجه اللّٰه تعالى تأييداً لدينه و إعلاءً لكلمة اللّٰه تعالى و إبطالاً لكلمة الشّرك لا لتستعلوا في الأرض أو تصيبوا غنيمة أو تظهروا نجدة و شجاعة، يوفّقكم اللّٰه تعالى لأسباب تفضي لظهوركم و غلبتكم على أعداءكم كإلقآء الرّعب في قلوب أعداءكم «سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» و إدارة الدّوائر لكم عليهم و ربط جأشكم و تشجيعكم و تقوية قلوبكم.

٩- قيل: أى إن تنصروا دين اللّٰه و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و وصيّه ينصركم على عدوّكم و يظفركم بهم، فإنّه تعالى ناصر دينه و ناصر أوليآئه... ١٠- قيل: أي إن تنصروا دين اللّٰه تعالى في الدّنيا بالايمان و العمل الصّالح و دعوة النّاس به، ينصركم في الدّار الآخرة يوم تسودّ وجوه و تبيضّ وجوه: «وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد» إبراهيم: ٤٩).

١١- قيل: أي إن تنصروا دين اللّٰه ينصركم في الدّنيا و الآخرة، و حقّ على اللّٰه سبحانه أن ينصر فيهما من نصر دينه في الحياة الدّنيا كما قال: «إن تنصروا اللّٰه ينصركم» و أن يزيد من شكره لقوله: «لئن شكرتم لأزيدنّكم» و أن يذكره مَن ذكره لقوله: «فاذكرونى أذكركم» و أن يوفي بعهد من أقام على عهده لقوله عزّوجلّ: «و أوفوا بعهدى أُوف بعهدكم». ١٢- عن ابن عبّاس: أي إن تنصروا نبيّ اللّٰه محمّداً﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالقتال مع العدوّ ينصركم بالغلبة على العدوّ.

١٣- قيل: إنّ تعاضد المؤمنين قلباً و قولاً و عملاً و تعاونهم على ما فيه الخير و

الصّلاح و النّفع و الرّشاد للجميع هو خير و انتصار لدين اللّٰه جلّ‌وعلا، و هم لو فعلوا ذلك لكان لهم واسع الملك و قوّة السّلطان، و هذا نصر من اللّٰه تعالى لهم، و لا تقاس هيبة الدّين و سلطته إلّا بقوّة أهله و تقدّمهم.

١٤- قيل: أي إن تنصروا رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ إلى صراطه المستقيم و سبيله القويم، فإلى الحياة القيمة الّتي خططها اللّٰه لأهل الايمان، و إن تنصروا عقولكم في العقل و الفكر عن اللّٰه تعالى و صدوركم في الانشراح بآيات اللّٰه و قلوبكم في الايمان باللّٰه، و أسبابكم في الحصول على عمق المعرفة باللّٰه، و في تحصيل حقيقة الإسلام، تجنيداً لكلّ هذه الجنود في سبيل اللّٰه، في معتركات الحياة بين كتل الحقّ و الباطل فَفَلَحاً في الحصول على مرضاة اللّٰه و فلجاً لمن يصدّ النّاس عن سبيل اللّٰه جلّ‌وعلا.

إن تنصروا اللّٰه تعالى في الدّفاع عن شريعة اللّٰه و الحفاظ على شعائر اللّٰه، و على كيان الاسلام و نظام المسلمين، و دفع الأشرار عن نواميس القرآن الكريم، فاللّٰه تعالى يدافع عن الّذين آمنوا، و يدفع الأشرار بالأبرار تشريعاً و تكويناً، تحريضاً و تأييداً، فإذاً هم أنصار اللّٰه و أنصار رسوله﴿عليه السلام﴾ كما قال عيسى بن مريم للحواريين: «من أنصارى إلى اللّٰه قال الحواريّون نحن أنصار اللّٰه آمنّا باللّٰه و اشهد بأنّا مسلمون» آل‌عمران: ٥٢).

أى أنصار دين اللّٰه تعالى، و في الواقع أنصار أنفسهم في الإنسلاك إلى الإنسانيّة و الكمال...

فإن تنصروا دين اللّٰه تعالى و رسوله﴿عليه السلام﴾ و من كمل به الدّين، و رضى اللّٰه تعالى به الإسلام ديناً، بالجهاد بالأموال و الأنفس و بلسان القلم، و قلم اللسان و دعوة النّاس إلى هذا الدّين، ينصركم في الدّنيا و الآخرة.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً.

و **في قوله عزّوجلّ:** «و يثبّت أقدامكم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس أي ويثبّت أقدامكم في مواطن الحرب لكي لا تزول. ٢- قيل: أي يوفّقكم للدّوام على الايمان باللّٰه تعالى و على طاعته، و يثبّت أقدامكم في القيام بحقوق الإسلام و مجاهدة الكفّار، فتكون كلمة اللّٰه هي العليا، و كلمة الباطل هي السّفلى. ٣- قيل: أي و يثبّت أقدامكم في مواقع

القتال و ميدان الحرب على حين يملأ قلوب الكفّار المعتدين رعباً و فزعاً. ٤- عن ابن جريج: أي و يثبّت أقدامكم على نصر دينه. ٥- قيل: أي و يثبّت أقدامكم على مهجّة الإسلام و جادّة الشّريعة.

٦- قيل: أى و يثبّت أقدامكم يوم القيامة عند الحساب و على الصّراط. ٧- قيل: أي و يثبّت أقدامكم في الدّنيا و الآخرة. ٨- قيل: أي يشجعكم و يقوّ قلوبكم لتثبتوا في مواطن الحرب و مواقف القتال. ٩- قيل: أي و يثبّت أقدامكم في القيام لحقوق الإسلام و المجاهدة مع الكفّار المحاربين و يقوّكم عليهم و يجرئكم حتّى لا تولّوا عنهم و لاتهربوا منهم و إن كثر عددهم و قلّ عددكم. و المراد تثبيت القلوب بالأمن، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النّصر و المعونة في معركة القتال.

فيثبّت أقدامكم على الايمان و الجهاد كى لا تفرّوا من الزّحف، و لا تفلّوا عن قوّة الايمان إلى ضعف، و لا تملّوا عن الحرمان، و لا تفشلوا، فعلى قدر النّصر يكون التثبيت، و من ثمّ ينمو حتّى الثّبات على الايمان و لو عند انفلات الرّوح قتالاً في سبيل اللّٰه تعالى، و لتثبيت الأقدام في هذه السّبيل جلوات شتّى و مجالات في معارك الكرامة و كافّة معتركات الحياة، و قد يكون بإلقاء رعب المؤمنين في قلوب الكافرين، و قد يكون نزول الملائكة لحماية المؤمنين، و تشجيع قلوبهم...

و هذه النّصرة المطلقة من اللّٰه تعالى ليست إلّا عند مطلق النّصرة من المؤمنين لدين اللّٰه جلّوعلا بأموالهم و أنفسهم... بأن يتجرّدوا في نفوسهم برغباتها لله تعالى وحده، فيتجرّدوا عنها و عن كلّ نفآئسهم، دفاعاً عن دين اللّٰه و حفاظاً على شريعته، تفدية لحياة الانسان، لإقامة الحياة الإنسانيّة لا يمكن حصولها إلاّ على ضوء دين اللّٰه تعالى.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الاطلاق كالمتقدّم فتدبّر.

٨- (و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم)

في قوله تعالى: «و الّذين كفروا» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: هم المطعمون يوم بدر. ٢- قيل: هم كفّار قريش يوم أُحد. ٣- قيل: عامّ لكلّ من كفر باللّٰه و رسوله و بكتابه و حارب اللّٰه تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾.

أقول: و التعّمم هو الأنسب بعنوان الصّلة.

و في قوله سبحانه: «فتعساً لهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي يريد في الدّنيا القتل و العسرة و في الآخرة التّردّى و العذاب في النّار. ٢- عن ابن عبّاس أيضاً و ابن جريج: أي فنكساً لهم و بُعداً لهم. ٣- قيل: أي فقضى تعساً لهم. ٤- قيل: أي فقال: تعساً لهم أي أتعسهم اللّه فتعسوا تعساً. و هو ما يتلوه دعاء عليهم كقوله تعالى: «قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون» التّوبة: ٣٠) و «قتل الإنسان ما أكفره» عبس: ١٧).

٥- قيل: أي فخزياً لهم و شقآء و بلاءً و ويلاً لهم. ٦- عن ابن زيد: أي فشقآءلهم. ٧- عن السّدي: أي حزناً لهم. ٨- عن الحسن: أى شتماً لهم من اللّه. ٩- عن ثعلب: أي هلاكاً لهم في الآخرة. ١٠- عن ابن زيد و الضّحّاك: أي خيبة من اللّه لهم. ١١- قيل: أي قبحاً لهم. ١٢- عن الضّحّاك أيضاً: أي رغماً لهم. ١٣- قيل: عن ثعلب أيضاً: أي شرّاً. ١٤- عن أبي العالية: أي شقوة لهم. ١٥- قيل: أي انحطاطاً و عثاراً عن منازل المؤمنين. ١٦- عن ابن السّكّيت: التّعس: أن يسقط الإنسان على وجهه و يخرّ عليه. و قيل: بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش و هو القيام عن السّقوط على الوجه. و هذا إخبار عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية، فإنّ الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطاً على وجهه. ١٧- قيل: أي ألزمهم اللّه هلاكاً في الدّين. ١٨- عن المبرّد: أي مكروهاً لهم و سوءً.

أقول: و على السّادس عشر أكثر المحقّقين.

و **في قوله عزّوجلّ:** «و أضلّ أعمالهم» أقوال: ١- قيل: أي أبطل حسناتهم و نفقاتهم يوم بدر. ٢- عن ابن زيد: أي جعل أعمال الكافرين معمولة على غير هدى و لا استقامة لأنّها عملت في طاعة الشّيطان لا في طاعة الرّحمن. ٣- قيل: أي لا تعود عليهم بخير. ٤- قيل: أي أهلكها و حكم عليها بالضّلال.

أقول: و المعاني متقاربة و المآل واحد.

٩- (ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- قيل: ذلك التعس و الإضلال بسبب أنّ هؤلآء الكافرين

كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى على رسوله﴿ﷺ﴾ من القرآن المشتمل على التكاليف والاصول الاعتقاديّة و الأحكام من الأوامر و النّواهي... لما ألفوه و اشتهته أنفسهم الأمّارة بالسّوء. ٢- قيل: أى كرهوا ما أنزل اللّٰه من الأحكام الّتي أمرهم اللّٰه تعالى بالانقياد لها لألفهم بالإهمال و إطلاق العنان، و لمّا خالفوا ذلك حكم اللّٰه تعالى بإبطال أعمالهم الّتي لا استناد لها إلى القرآن أو السّنّة، فوقعت على خلاف الوجه المأمور به.

٣- قيل: أى كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى من القرآن و الشّرائع و الأحكام الّتي أنزلها اللّٰه تعالى على رسوله﴿ﷺ﴾ و أمرهم بإطاعتها و الانقياد لها، فكرهوها و استكبروا عن اتّباعها... فلمّا كرهوا هم ما أنزل اللّٰه سبحانه، كره اللّٰه تعالى أعمالهم فأحبطها جزآء وفاقاً. ٤- قيل: أى كرهوا ما أنزل اللّٰه عزّوجلّ في حقّ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فأبطل اللّٰه تعالى أعمالهم لأنّ ولاية عليّ ابن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ حصن اللّٰه، فمن دخله أمِنَ مِن عذاب اللّٰه، و من لم يدخله فهو في عرضة سخط اللّٰه عزّوجلّ، و أنّ ولايته﴿عليه السلام﴾ أساس حتم لقبول الأعمال الصّالحة كما كانت شرطاً لتبليغ الرّسالة المحمديّة﴿ﷺ﴾ إذ قال اللّٰه تعالى: «و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٦٧).

فإذا لم تبلغ الرّسالة من دون الولاية، فكيف تقبل الأعمال بلا ولاية؟

٥- قيل: أي انحرفوا عن جادّة الحقّ و الهدى، و عن طريق الخير و الفلاح فأفسد أعمالهم لا خير لهم فيها، و لا جدوى من ورآئها. ٦- قيل: أى كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى من الكتب و الشّرائع السّماويّة، فأحبط أعمالهم، أي ماهم من صور الخيرات فيها كعمارة المسجد و قِرى الضّيف و أصناف القرب إذ لا يقبل اللّٰه سبحانه العمل إلّا من مؤمن فقال: «إنّما يتقبّل اللّٰه من المتّقين» المائدة: ٢٧).

٧- قيل: أى ذلك التعس و إضلال أعمالهم بسبب أنّهم سخطوا ما أنزل اللّٰه من القرآن فكذبوا به، و قالوا: هو سحر مبين، فأحبط أعمالهم الّتي عملوها في الدّنيا، و هي عبادة الأصنام و الآلهة، لم ينفعهم اللّٰه تعالى بها في الدّنيا و لا في الآخرة، بل أو بقهم بها فأصلاهم سعيراً. و هذا حكم اللّٰه عزّوجلّ في عامّة الكافرين من جميع أجناس الأُمم.

٨- عن ابن عبّاس: أي ذلك الإبطال بأنّ كفّار مكّة جحدوا ما أنزل اللّٰه به جبرئيل على

محمّد﴿ﷺ﴾ فأبطل حسناتهم و نفقاتهم. ٩- عن عمرو بن ميمون: أى كرهوا الفرآئض و الأحكام لأنّهم قد ألفوا الإهمال، فشقّ عليهم التكاليف...

أقول: و الرّابع هو المرويّ من دون تناف بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً و لا تغفل.

١٠- (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم و للكافرين أمثالها)

في قوله تعالى: «أفلم يسيروا في الأرض...» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أى أفلم يسافروا كفّار مكّة سفراً في الأرض، فيتفكّروا كيف كان جزاء الّذين من قبلهم من الامم الماضية و القرون الخالية المكذّبة إذ أهلكهم اللّٰه تعالى، و لكفّار مكّة أشباهها من العذاب. و عن ابن عبّاس أيضاً: أى و لكفّار قومك يا محمّد﴿ﷺ﴾ مثل ما دمّرت به القرى، فاهلك أهلها بالسّيف. و عن مجاهد: مثل ما دمّرت به القرون الاولى وعيد من اللّٰه لكفّار مكّة.

٢- عن قتادة: أى أو لم يسيروا هؤلآء الكافرون في الأرض سيراً فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم أى أهلكهم بألوان العذاب بأن يتفكّر متفكّر، و يتذكّر متذكّر، و يرجع راجع منهم، فضرب الأمثال و بعث الرّسل ليعقلوا عن اللّٰه أمره: أنّ ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر، فبطريق القياس التمثيلي يقال: إنّ الكافرين بمحمّد﴿ﷺ﴾ يحصل لهم ما حصل للامم قبلهم.

٣- قيل: ألم يسر مشركو العرب من أهل مكّة و غيرهم في أرض عاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم ليعتبروا بهم، فينظروا بقلوبهم كيف كان آخر أمر الكافرين قبلهم، إذ أهلكهم اللّٰه و استأصلهم، و للكافرين في كلّ ظرف من الظّروف أمثال هذه الفعلة من التّدمير. ٤- قيل: أى فهلّا ساروا كفّار مكّة و غيرهم رأوا عواقب اولئك الكفّار من الامم الماضية حين أرسل اللّٰه إليهم رسله، فدعوهم إلى توحيده و إخلاص العبادة له، فلم يقبلوا منهم و عصوهم.

٥- قيل: إنّ الآية الكريمة بصدد تحريص النّاس و ترغيبهم في كلّ ظرف من الظّروف على السّير و السّياحة في الأرض سيراً تاريخيّاً و سيراً بدنيّاً و نظريّاً ليأخذوا عِبَراً عَبر هذه المصيرة الضّاربة في الأرض إلى أكنافها و أقطارها... فالسّير في الأرض، في سير الأقوام المؤمنة و الكافرة، الموحّدة و المشركة، المخلصة و المنافقة، الصّالحة و الفاسدة، و المطيعة و الطّاغية... و ماذا فعل اللّٰه تعالى بهم، و ماذا بقي من آثارهم... إنّ في ذلك لعبرة لمن اعتبر و يخشى اللّٰه و حجّة لمن لا يعتبر و لا يخشى اللّٰه، فيعمه في طغيانه و عصيانه...

أقول: و لكلّ وجه فتدبّر.

و في قوله سبحانه: «دمّر اللّٰه عليهم» أقوال: ١- قيل: أي أهلكهم اللّٰه و أهلك ماااختصّ بهم من أنفسهم و أموالهم و أولادهم و ديارهم و عقارهم، مثل ما فعل بعاد و ثمود و قوم لوط و أشباههم. ٢- قيل: أى سخط اللّٰه و غضب عليهم. ٣- قيل: أي استأصلهم...

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و في معناه الثّالث، و من لوازم المعنى، الثّاني.

و في قوله عزّوجلّ: «و للكافرين أمثالها» أقوال: ١- قيل: أى و لكافري قريش أمثال عاقبة تكذيب الأُمم السّالفة رسلهم إن لم يؤمنوا برسول اللّٰه(ﷺ). ٢- قيل: أي لكلّ من كفر باللّٰه تعالى و رسوله(ﷺ) و بكتابه أمثال تلك الهلكة لكفّار الأُمم الماضية، فالضّمير في «أمثالها» راجع إلى الهلكة الّتي يدلّ عليها التّدمير. فالمراد بالكافرين، مطلق الكافرين، و الجملة من باب ضرب القاعدة. ٣- قيل: و للكافرين أمثال تلك العقوبة، و هذا مفهوم بدلالة التّدمير. و المراد بالكافرين أمثالها، دعآء عليهم. فاللّام للعهد و هم كفّار قريش و من يسلك مسالكهم من هذه الأُمّة.

٤- قيل: «و للكافرين أمثالها» إخبار، و المراد بالتّدمير: القتل و الأسر، و المراد بالكافرين: الأقدمون. ٥- قيل: أى لكفّار مكّة أمثال عقوبات أو عواقب ماللكفّار الأُمم السّالفة، و لكن ليس المراد أنّ هؤلآء أمثال ما لأُولئك و أضعافه، و إنّما جمع باعتبار مماثلته لعواقب أو عقوبات متعدّدة حسب تعدّد الأُمم المعذّبة. ٦- قيل: أى

يكون عذاب كفّار مكّة أشدّ من عذاب الأُمم السّالفة لأنّ كفّار مكّـة قُـتِلُوا و أُسِرُوا بأيدي من كانوا يستخفّونهم و يستضعفونهم، و القتل بيد المثل أشدّ من الهلاك بسبب عامّ.

٧- قيل: إنّ المراد بالكافرين: المتقدّمون بطريق وضع الظّاهر موضع الضّمير كأنّه قيل: دمّر اللّٰه تعالى عليهم في الحياة الدّنيا، و لهم في الآخرة أمثالها. ٨- قـيل: أى إنّ الكافرين بك يامحمّد﴿ﷺ﴾ إن لم يؤمنوا و يقبلوا ما تدعوهم إليه و كرهوا ما أنزل اللّٰه إليك في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ هم يستحقّون أمثال عذاب الأُمم الماضية المكذّبة و عقوباتهم، و إنّما يؤخّر عذاب اللّٰه عنهم إلى الآخرة تفضّلاً منه تعالى.

٩- قيل: أي أولم ينظروا هؤلآء الكفّار و المنافقون الّذين يسلكون مسالك الكافرين في أخبار الأُمم الماضية كيف أهلكهم و عذّبهم، و للّذين كفروا و كرهوا ما أنزل اللّـٰه تعالى في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ مثل ما كان للأمم الخالية من العذاب و الهوان و الهلاك و الدّمار... و إنّما أوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة، و لا يحلّ بهم إلّا مثل واحد لأنّهم في معرض عقوبات كثيرة دنيويّة و أُخرويّة، و إن كان لا يحلّ بهم إلّا بعضها.

أقول: و التّاسع هو المستفاد من الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه علهيم أجمعين و في معناه الثّامن، فتأمّل جيّداً و لا تغفل.

١١- (ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لا مولى لهم)

في قوله تعالى: «ذلك» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي نصر المؤمنين على أعدآئهم...

قيل: و ذلك أنّ المؤمنين آمنوا بما نُزّل على محمّد﴿ﷺ﴾ و هو الحقّ من ربّهم، و معلوم أنّ اللّٰه هو الحقّ و أنّه خلق السّموات و الأرض بالحقّ، فرجع الأمر إلى القاعدة العامّة: أنّ الحقّ هو الموجب للنّصر لأنّه ثابت لا يتغيّر. و أنّ المولى بمعنى النّاصر، و قد نادى أبوسفيان يوم أُحد، و هو يحارب المؤمنين: «لنا العُزّى و لا عُزّى لكم» فـقال رسـول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لأصحابه: قولوا له: «اللّٰه مولانا و لا مولى لكم».

٢- قيل: إشارة ضمنيّة إلى أنّ المؤمنين لا يصيبهم شيء من هذا البلاء المسلّط على

الكافرين، و ذلك بسبب أنّ اللّٰه تعالى ناصر المؤمنين و دافع المكروه عنهم، فاللّٰه تعالى يأمنهم من البلاء و الضّرّ بسبب ايمانهم باللّٰه عزّوجلّ، و أمّا الكافرين، فلا ناصر لهم و لا معين يعينهم، فهم بسبب كفرهم، محرومون من رحمة اللّٰه سبحانه و نفعه، إذ لايملك النّفع و لا الضّرّ إلّا اللّٰه عزّوجلّ، و قد لاذ المؤمنون بحمى اللّٰه تعالى فلم يصل إليهم ضرّ و لم يصبهم مكروه: «فانقلبوا بنعمة من اللّٰه و فضل لم يمسسهم سوء» آل عمران: ١٧٤) على حين رَكَنَ الكافرون إلى الباطل و أتّبعوا أهوآءهم فلم تغن عنهم من اللّٰه من شيء: «فما أغنت عنهم آلهتهم الّتي يدعون من دون اللّٰه من شيء» هود: ١٠١).

٣- قيل: إشارة إلى ثبوت عاقبة أو عقوبة الأمم الماضية لهـؤلآء الكـافرين... أي أمثال عقوبة الأُمم المتقدّمة لهؤلآء الكافرين من هذه الأُمّة...

٤- قيل: أي الّذي فعلناه بالفريقين: من نصر المؤمنين و مقت الكافرين و قهرهم و سوء عاقبتهم بأنّ اللّٰه تعالى مولى الّذين آمنوا فينصرهم و يدفع عنهم لأنّ اللّٰه مولى كلّ أحد منهم، و أنّ الكافرين لا مولى لهم ينصرهم من عذابه إذا نزل بهم، و لا أحد يدفع عنهم لا عاجلاً و لا آجلاً.

و مولى - مصدر ميميّ - أُريد به المعنى الوصفيّ و هو الوليّ الّذي يطلق تارة على سيّد العبد و ربّه و مالكه إذ له ولاية التّصرّف و التّربية في امور عبده، و يطلق تارة اخرى على النّاصر إذ يلي التّصرّف في أمر منصوره بالتّقوية و التّأييد، و اللّٰه عزّوجلّ مولى النّاس كلّهم لأنّه المالك الّذي يلي أُمور خلقه تكويناً، و يدبّرها كيف يشآء قال اللّٰه عزّوجلّ: «ثمّ ردّوا إلى اللّٰه مولاهم الحقّ ألا له الحكم» الأنعام: ٦٢).

إنّ اللّٰه سبحانه مولى المؤمنين لأنّهم يتولّونه: «و من يتولّ اللّٰه و رسوله و الّـذين آمنوا فإنّ حزب اللّٰه هم الغالبون» المائدة: ٥٦) فهو تعالى يلي تدبير أُمورهم في طريق الحقّ و الهدى، فيهديهم إلى سعادتهم و إلى الجنّة و نـعيمها، و يـوفّقهم للـصّالحات و ينصرهم على أعدآئهم، و يدافع عنهم، و المولويّة بهذا المعنى الثّاني تختصّ بـالمؤمنين فانّهم تولّوه تعالى فدخلوا في حظيرة العبوديّة، و اتّبعوا الحقّ من ربّهم، دون الكافرين الّذين اتّخذوا الشّياطين أوليآئهم و اتّبعوا الباطل.

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق، لأنّ الآية الكريمة بصدد بيان حال الفريقين: المؤمنين و الكافرين جميعاً، و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيداً.

١٢-(إنّ اللّه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم)

في قوله تعالى: «و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: هم أبوسفيان و أذنابه، هم يعيشون في الدّنيا، و يأكلون بشهوة أنفسهم بلا همّة ما في غدٍ كما تأكل الأنعام و النّار منزل لهم في الآخرة.

٢- قيل: هم كفّار مكّة من قريش و غيرهم يتمتّعون في الدّنيا كأنّهم أنعام، ليس لهم همّة خارجة عن بطونهم و فروجهم، و هم ساهون، لا هون عمّا يراد بهم في غد، فكما تأكل الأنعام في معالفها و مسارحها، و هي غافلة عمّا هي بصدده من النّحر و الذّبح، كذلك هؤلآء يأكلون و يتلذّذون و هم غافلون عن عذاب النّار. و قيل: إنّ المؤمن في الدّنيا يتزوّد، والمنافق يتزيّن، و الكافر يتمتّع كتمتّع الأنعام الّتي ليس لها من همّ إلّا امتلاء بطونها. و قيل: إنّ الأنعام تأكل و هي في غفلة عن الذّبح، و الكفّار يأكلون، و هم في غفلة عن النّار الّتي هي مأواهم و بئس القرار و هم لايدرون.

٣- عن ابن جريج: هم مشركوا العرب و غيرهم يتمتّعون، و يأكلون، حريصين غافلين عن العاقبة كما تأكل الأنعام لا يلتفتون إلى آخرتهم و النّار مأوى لهم.

قيل: شُبِّهَ الكافرون بالأنعام من جهة أنّ الكافر غرضه من الحياة، التّنعّم و الأكل و سآئر الملاذ لاالتّقوى، و التّوسّل بالغذآء إلى الطّاعة و عمل الآخرة، و من جهة أنّه لا يستدلّ بالنّعم على خالقها، و من جهة غفلتهم عن مآل حالهم، و أنّ النّار مثوى لهم، كما تقول للجاهل: تعيش كما تعيش البهيمة لا تريد التّشبيه في مطلق العيش، ولكن في خواصّه و لوازمه، و حاصله أنّهم يأكلون غافلين عن عواقبهم و منتهى أُمورهم.

٤- قيل: أُريد باللّذين كفروا، مطلق الكافرين في كلّ ظرف من الظّروف يأكلون أكلاً مثل أكل الأنعام مجرّداً من الفكر و النّظر إلى كون المأكول حلالاً أو حراماً. ٥- قيل:

أي سيرتهم سيرة الأنعام آثروا لذّات الدّنيا و شهواتها، و أعرضوا عن العِبَر يأكلون للشّبع، و يتمتّعون لقضآء الوطر، و النّار موضع مقامهم يقيمون فيها أبداً. ٦- قيل: أي يأكلون كما تأكل الأنعام أكلاً كثيراً. ٧- قيل: أي يأكلون المآكل فيها مثل ما تأكل الأنعام و البهآئم إذ لايعتبرون و لاينظرون، و لايفكرون و لايفعلون ما أوجبه اللّه عليهم، فهم بمنزلة البهآئم.

٨- قيل: أي كما الأنعام لا يهمّها إلّا الأكل، فكذلك الكافر لايهمّه إلّا الأكل لينهمك في الشّهوات كالأنعام. ٩- قيل: أي كما أنّ الأنعام تعلف لتسمن، و هي غافلة عن حقيقة أمرها، إذ لاتعلم أنّها كلّما كانت أسمن كانت أقرب من الذّبح و الهلاك، و كذلك الكافر. ١٠- قيل: أى كما أنّ الأنعام لاتستدلّ بالمأكول و النّعم الّتي تمتّع بها على خالقها كذلك الكافر. ١١- قيل: أي إنّ الكافرين يتمتّعون في هذه الدّنيا بحطامها و رياشها و زينتها الفانية الدّراسة، و يأكلون فيها غير مفكرين في المبدإ و المعاد، و لا معتبرين بما وضع اللّه لخلقه من الحجج المؤدّية لهم إلى علم توحيد اللّه تعالى و معرفة صدق رسله، فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك و غير معرفة، مثل الأنعام من البهآئم المسخّرة الّتي لا همّة لها إلّا في الاعتلاف دون غيره، و نار جهنّم مأواهم يصيرون إليها بعد مماتهم.

١٢- قيل: اريد بالّذين كفروا، الكافرون يوم بدر، و اريد بذلك، الإخبار عن خسّتهم في أكلهم و شربهم بأنّهم كانوا يأكلون و يشربون للشّره و النّهم، حريصين فيهما لأنّهم جهّال غافلون عن أكل شجرة الزّقوم، و شراب حميم و غسلين الجحيم، كما أنّ الحيوان يأكل و يشرب غافلاً عن النّحر و الذّبح، و النّار موضع مقامهم الّذي يقيمون فيه أبداً.

١٣- قيل: اريد بالكافرين، مطلق الكفّار في كلّ ظرف من الظّروف، فيشمل المنافقين و المجرمين و الفاسقين، و كلّ من صاغ أنفسهم بصيغة الأنعام و ساقوها إلى النّيران بالكفر و الضّلال و بالتّمتّع و الأكل و النزوة مسامحين عن ضمآئرهم و أفكارهم و عقولهم فحاق بهم ما كانوا يكسبون إذ يحسبون الحياة كلّ الحياة مائدة طعام، و فرصة

متاع و نزوة شهوة دون أن يهدفوا ورآئه ما يهدفه الإنسان، و لاتقوى في اقتنآئه عمّا لايباح...

و لذلك «النّار مثوى لهم» وحدهم دون الأنعام، و هم يتمتّعون متعة الأنعام، و ينزون نزوة الأنعام، و يأكلون أكلة الأنعام، و يشربون شربة الأنعام.. لأنّ اللّه تعالى خلق الأنعام هكذا لتصلح أكلاً للإنسان، فلو شعرت ما يشعره الإنسان لما رأيت منها سميناً، و أمّا الإنسان فقد خلقه للمعرفة و الطّاعة، متذرعاً كلّ ما في الحياة لإكمال نفسه، و ذويه كإنسان، فإذ لايفقه بقلبه و لايبصر بعينه و لايسمع باذنه فهو إذاً صيغة سائقة إلى النّار: «لهم قلوب لايفقهون بها و لهم أعين لايبصرون بها و لهم آذان لايسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضلّ اولئك هم الغافلون» الأعراف: ۱۷۹).

اولئك كالأنعام فيما يستهد فون من الحياة، بل هم أضلّ إذ قصّروا حياتهم الإنسانيّة في حياتهم الحيوانيّة، حيث محقوا كلّ سمات الإنسانيّة و معالمها، فانسحقوا في وصمات البهيميّة و مظالمها دون تعفّف عن قبيح، و لاتلهّف على مظلوم، فقد انضغطوا تحت وطأة الشّهوة و انهتفوا بهتاف المتّعة اللذّة، فأصبحوا أضلّ من الأنعام الهيام، فـ«النّار مثوى لهم» دون الأنعام.

و أمّا المؤمنون فهم يصوغون أنفسهم بصيغة الإنسان بالايمان و عمل الصالحات، فساقهم اللّه جلّ وعلا إلى جنّات لايقدر قدرها و لايدرك حقيقتها إلاّ من دخل فيها، فإنّها ممّا لاعين رأت و لا أُذن سمعت...

و انّها لهي موازنة جميلة دون أيّة مجاملة بين الإنسان، و الحيوان و لا ثالث لهما حيث إنّ الحيوان الإنسان داخل في الحيوان المطلق كما قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فالصّورة صورة انسان، و القلب قلب حيوان لايعرف باب الهدى فيتّبعه، و لا باب العمى فيصدّ عنه فذلك ميّت الأحيآء» نهج البلاغة: الخطبة: ۸۶).

هدفاً في الحياة و سيرة و مصيرة مهما اختلف الشّكلان: انّ الحياة الدّنيا المتاع يعاملها المؤمن كمتاع يشتري به الحياة العليا، زهداً عنها، أو صرفاً لها كسبيل إلى العلا،

مبصراً بها ماورآئها فهي تبصره، فيرا ها ظرفاً لكماله فحسب، و الكافر يعاملها كمتعة لامتاع يذهب طيّباته اقتناعاً لمتاع الدّنيا، قلباً للثّمن مثمناً، مكبّاً على وجهه في مشيه، مبصراً إليها كنهاية المطاف، فهي تُعميه إذ يراها كمالاً لنفسه لاظرفاً لكماله، و لذلك يعيش حيواناً و يموت حيواناً، و أحون ممّا كان و أهون: «والنّار مثوى لهم».

و ترى كيف إنّ اللّه تعالى يدخل المؤمنين الصّالحين جنّاته هنا، و كأنّه لايدخل الكافرين ناره فهم داخلون فيها: «و النّار مثوى لهم» مهانةً و تحقيراً لهم كأن لا ولاية للّه سبحانه لهم حتّى في عقابهم و هو تعالى وليّ العقاب، ثمّ النّار ليست إلاّ نتيجة أعمالهم عدلاً، فكأنّهم يدخلونها دون إدخال وبطبيعة الحال، و أمّا المؤمنون فيشرّفون بتشريف اللّه جلّ علا و سلام: «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» الزّمر: ٧٣) و انّ دخول الجنّة لهم فضل فوق عدل، ولا سيّما بمضاعفات الثّواب و الكرامات...

ثمّ و ليست النّار مثوى لهم فقط في الدّار الآخرة، بل حياتهم في الدّنيا كذلك كلّها نار و إن أبرقت و أرعدت: «و من أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى» طه: ١٢٤) «و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلاً» الإسراء: ٧٢) إذاً ف«النّار مثوى لهم» في الاولى و الأُخرى.

كما أنّ جنّات المؤمنين تعمّ الحياة الدّنيا مهما حرموا عن زهراتها و شهواتها و لهواتها، فإنّهم عائشون مع اللّه تعالى، مطمئنّين باللّه جلّ وعلا، راضين بمرضات اللّه عزّوجلّ و فرحين بما آتاهم اللّه سبحانه: «الّذين آمنوا و تطمئنّ قلوبهم بذكر اللّه ألا بذكراللّه تطمئنّ القلوب الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات طوبى لهم و حسن مآب» الرّعد: ٢٨) «يا أيّتها النّفس المطمئنّة إرجعي إلى ربّك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي و ادخلي جنّتي» الفجر: ٢٧-٣٠) «ولاتحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون فرحين بما آتاهم اللّه من فضله - واتّبعوا رضوان اللّه و اللّه ذو فضل عظيم» آل عمران: ١٧٠-١٧٤).

فبلاءهم في سبيل اللّه تعالى لذّة، و ذلّهم في مرضاة اللّه جلّ وعلا عزّة، فهم في جنّات

دنياً و عقباً: «لهم البشرى في الحياة الدّنيا و في الآخرة لاتبديل لكلمات اللّٰه ذلك هو الفوز العظيم» يونس: ۶۴).

«إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» الغافر: ٥١)

مهما كانت جنّات المؤمنين في الآخرة أعلى و أولى، كما أنّ النّار للكافرين فيها أشدّ و أنكى.

«و ما عنداللّٰه خير و أبقى للّذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون» الشّورى: ۳۶) «و كذلك نجزى من أسرف و لم يؤمن بآيات ربّه و لعذاب الآخرة أشدّ و أبقى» طه: ١٢٧)

أقول: و التّعميم هو الأنسب بعنوان الصّلة، فيشمل لكلّ من اتّصف بها من الكفر ظاهراً من المشركين على أنحاء الشّرك الخمسة و الدّهريين، و من الكفّار على فرقهم من أهل الكتاب و غيرهم فتأمّل جيّداً.

١٣- (و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلاناصر لهم)

في قوله تعالى: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة...» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و كم من رجال هم أشدّ بالبدن و المنعة من رجال مكّة الّتي أخرجوك منها. ٢- عن ابن عبّاس أيضاً: أي و كثيرة من أهل قرية هم أشدّ قوّة من أهل قريتك الّتي تسبّبوا لخروجك منها.

٣- قيل: أى وكم من قوم هم أشدّ قوّة و بأساً و أكثر جمعاً و أعدّ عديداً من قومك الّذين كانوا سبب خروجك من مكّة المكرّمة الّتي هي بلدك الأمين و مولدك.

أقول: و المعاني متقاربة و المآل واحد.

١٤- (أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- قيل: أي أفمن كان على حجّة واضحة و برهان قاطع من

ربّه، و هي القرآن المعجز و سآئر المعجزات الظّاهرة من رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لإثبات رسالته﴿ﷺ﴾ كأهل مكّة الّذين زيّن لهم الشّيطان شركهم و عداوتهم للّه سبحانه و لرسوله﴿ﷺ﴾ و اتّبعوا أهوآءهم في الشّرك و العداوة. ۲- عن ابن عبّاس: أي أفمن كان على بيان و دين من ربّه و هو محمّد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ كمن قبح عمله و هو أبوجهل، وأذنابه، واتّبعوا أهوآءهم بعبادة الأوثان. فالآية في صدد المقايسة بين رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و أبي جهل و غيره من مشركي قريش.

۳- عن ابن عبّاس أيضاً و قتادة: أى أفمحمّد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ كان على بيّنة كمن زيّن له سؤ عمله و هم المشركون.

و المعنى: أفمن كان ثابتاً على حجّة ظاهرة و برهان قاطع من مالك أمره و مربّيه و هو القرآن و سائر المعجزات و الحجج العقليّة كمن زيّن لهم الشّيطان الشّرك الّذي هو في نفسه أقبح القبآئح و سآئر المعاصي كإخراجك من قريتك، و هم اتّبعوا في ذلك السّيّء أو بسبب ذلك التّزيين أهوآئهم الزائغة، و انهمكوا في فنون الضّلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحّة ما هم عليه فضلاً عن حجّة تدلّ عليه.

٤- قيل: أي أفمن كان - و هو محمّد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و امّته - على معجزة ظاهرة و حجّة باهرة و برهان نيّر و بيان من أمر ربّه و العلم بوحدانيته، فهو﴿ﷺ﴾ يعبده على بصيرة منه: «قل هذه سبيلي أدعوا إلى اللّه على بصيرة أنا و من اتّبعني و سبحان اللّه و ما أنا من المشركين» يوسف: ۱۰۸) بأنّ له ربّاً يجازيه على طاعته إيّاه الجنّة و على إسائته و معصيته إيّاه النّار كمن حسن له الشّيطان أقبح الأعمال و أسوأها و هو الشّرك باللّه سبحانه، فأراه جميلاً، فهو على العمل به مقيم و اتّبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم الأمّارة بالسّوء من الشّرك و عبادة الأوثان و معصية اللّه، من غير أن يكون عندهم بما يعملون من ذلك برهان و لاحجّة، و هم مشركوا مكّة.

٥- عن ابن عبّاس أيضاً: أي أفمن كان من هذه الأُمّة المسلمة - على ثبات و يقين من دينه و على حجّة واضحة من اعتقاده في التّوحيد و الشّرآئع كمن زيّن له الشّيطان المعاصي و أغواه و اتّبعوا شهواتهم و ما تدعوهم إليه طباعهم، و هو وصف لمن زيّن له سوء عمله من مشركي العرب من أهل مكّة و غيرهم. ٦- عن أبي العالية: البيّنة هي

الوحي، و «كمن زيّن له سوء عمله» أي عبادة الأصنام و هو أبوجهل و كفّار مكّة من قريش و غيرهم، واتّبعوا أهوآئهم أي ما اشتهوا من الشّيطان دعآء و وسوسة. و يجوز أن يكون الكافر أي زيّن لنفسه سؤ عمله و أصرّ على الكفر و الطّغيان.

٧- قيل: أي ليس سوآء من أخذ الحقّ من معدنه، و يصدر عنه في جميع تصرّفاته، و من قاس كلّ ما في الوجود بالملذّات و النّقود. ٨- قيل: تقرير لتباين حال الفريقين: المؤمنين و الكافرين و قياس حالهم بحالهم، و أنّ الأوّلين في أعلى علّيّن، و الآخرين في أسفل سافلين، و بيان لعامّة ما لكلّ منهما من الحال المتضادّة. و المعنى: أنّ المؤمنين هم على حجّة واضحة و برهان ساطع و دلالة بيّنة من ربّهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه، فيتّبعونها على ما هو الحريّ بالإنسان الّذي من شأنه أن يستعمل العقل و يتّبع الحقّ، و قد شغف الكافرين أعمالهم السّيّئة الّتي زيّنها لهم الشّيطان و تعلّقت بها أهوآؤهم فعبدوا الأوثان و عملوا السّيئات فشتّان بين الفريقين فالتّضادّ بينهما كالتّضاد بين النّور و الظّلمة، و بين البياض و السّواد، فضلاً عن المماثلة بينهما.

فالآية الكريمة في صدد نفي إمكان التسوية بين الفريقين: فريق هم على بيّنة من ربّهم سائرون على طريق الحقّ و الهدى، و فريق اتّبعوا أهوآئهم، و انقلبت الحقآئق في عقولهم و زيّنت لهم أعمالهم السّيّئة... و المراد بالكافرين، مطلق الكفّار، يعمّ كفّار مكّة و غيرهم في كلّ ظرف من الظّروف...

٩- عن ابن زيد: «كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم» هم المنافقون. و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله﴿عليهما السلام﴾. ١٠- قيل: «أفمن كان على بيّنة من ربّه» يعني أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ «كمن زيّن له سوء عمله» يعني الّذين غصبوا حقّه﴿عليه السلام﴾ و اتّبعوا أهوآءهم في ذلك و هم أتباع هؤلآء الغاصبين... و قد أُفرِد المغصوب حقّه و هو الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ كان على بيّنة من ربّه في حقّه، و أُفرِد الغاصب الأوّل و هو أبوبكر بن أبي قحافة إذ زيّن له الشّيطان سوء عمله و هو البيعة فلتة في المسجد، و كان أوّل من بايعه الشّيطان فيه، ثمّ بايعه النّاس المتّبعون أهوآءهم حتّى اليوم...

أقول: و التّاسع هو المرويّ، و العاشر هو المستفاد من الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين من دون تناف بينهما، فراجـع إلى بحث النّزول فتدبّر جيّداً و لاتغفل.

١٥- (مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسلٍ مصفّى و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم)

في قوله تعالى: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون -كمن هو خالد في النّار» أقوال: ١- عن ابن عبّاس أى صفة الجنّة الّتي وعـد المـتّقين - الّـذين اتـقوا الكـفر و الشّرك و الفواحش - أن يدخلهم فيها- كمن هو خالد في النّار و هو أبوجهل. ٢- عن الفرّاء: أى أمّن كان في هذا النّعيم كمن هو خالد في النّار. ٣- قيل: تقديره: أمثل الجنّة الموصوفة العجيبة الشّأن كمثل جزاء من هو خالد في النّار؟ كلاّ ليس مثله. فحذف منه ذلك إيجازاً و اختصاراً.

إنّ مَثَل الجنّة لاوصفها الواقع، و إنّما مَثَلٌ من وصفها: «فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قرّة أعين» السّجدة: ١٧) فإنّ الجنّة - و حتّى الجسمانيّة منها - هى أرفع و أعلى من أن يستوصفها الإنسان و هو في الحياة الدّنيا، اللّهمّ إلاّ لمن هم في الحياة العليا و هـم في الدّنيا، و أمّا المتّقون ككل فلايدركون هنا إلاّ مثل الجنّة الّتي وعدوا بها.

٤- قيل: تقديره: أمن هو خالد في هذه الجنّة المعدّة للمتّقين حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النّار فلابدّ من هذا التّقدير إذ لامعادلة بين الجنّة و بين الخالد في النّار إلاّ على تقدير مثل ساكن فيه، يقوّم وزن الكلام، و تتعادل كفّتاه، و من هذا النّمط قـوله تعالى: «أجعلتم سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام كمن آمن باللّه و اليوم الآخـر و جاهد في سبيل اللّه لايستوون عند اللّه» التوبة: ١٩).

إذ لابدّ من تقدير محذوف مع الأوّل أو الثّاني ليتعادل القسمان، و بهذا التّقدير ينطبق

آخر الكلام على أوّله، فيكون المقصود تنظير بُعد التّسوية بين المنهمك في الشّهوات والسّيّئات و المتّبع للهوىٰ ببُعد التّسوية بين المنعم في الجنّة و المعذّب في النّار على الصّفات المتقابلة المذكورة في الجهتين، و هو من وادي تنظير الشّئ بنفسه باعتبار حالتين، إحداهما أوضح في البيان من الأخرى، فإنّ المتمسّك بالثّقلين معاً هو المنعم في الجنّة الموصوفة، و المُعرض عنهما اتّباعاً للهوى هو المعذّب في النّار المنعوتة، و لكن أنكر التّسوية بينهما باعتبار الأعمال أوّلاً، و أوضح ذلك بإنكار التّسوية بينهما باعتبار الجزآء ثانياً.

٥- قيل: قوله تعالى: «كمن هو خالد» بيان لقوله سبحانه: «كمن زيّن له سوء عمله» و عن الزّجاج: أي أفمن كان على بيّنة من ربّه و اعطى هذه الأشيآء كمن زيّن له سوء عمله و هو خالد في النار. ٦- قيل: أى مثل أهل الجنّة كمثل من هو خالد في النّار. ٧- قيل: أى أفمن هو في هذه الجنّة الموصوفة كمن هو خالد في النّار كما أن ليس عدوّ اللّٰه كوليّه. ٨- قيل: أي ليس من هو على بيّنة من ربّه كمن يتّبع هواه، و كما لاتستوي الجنّة و النّار لايستوي ذو البرهان و ذو الهوى. ٩- عن ابن كيسان: أي مثل هذه الجنّة الّتي فيها الثّمار و الأنهار كمثل النّار الّتي فيها الحميم و الزّقوم، و مثل أهل الجنّة في النّعيم المقيم كمثل أهل النّار في العذاب المقيم.

أقول: و على الثّالث أكثر المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «فيها أنهار من مآء غير آسن» أقوال: ١- قيل: أي في هذه الجنّة أنهار من ماء جار، صاف طهور، عذب فرات، غير متغيّر طعمه و ريحه و لونه لطول مكثه بخلاف مآء الدّنيا، فيتغيّر بما يطرأ عليه من عوارض الفساد و الكدر. ٢- عن ابن عبّاس: أي آجن ريحه و طعمه. ٣- عن قتادة: أي غير منتن. ٤- قيل: إنّه ماء لاتمسّه يد، و إنّه يجيئ حتّى يدخل في فيه. ٥٤- قيل: أي باقٍ على طبيعته و صفائه من دون تغيير و لاتلويث و لاتكدير، فلايتغيّر بطول المكث، و لايوجد في هذه الدّنيا مثل هذا المآء الآسن إلاّ ماء زمزم، فإنّه لايتغيّر و لو طال في مكان مكشوف طوال سنين، فمآء زمزم مَثَل للمآء غير الآسن في أنهار الجنّة.

أقول: و لكلٍّ وجه من دون تنافٍ بينها.

و في **قوله عزّوجلّ:** «و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» أقوال: ۱- قيل: أي غير حامض و لاقارص و لايعتريه شئ من العوارض الّتي تصيب ألبان الدّنيا من الحموضة و غيرها. ۲- قيل: أي لبن كأنّما حُلِبَ لساعته لم يمرّ به زمن ينقل فيه اللبن من حال إلى حال أو أحوال أُخرى. ۳- قيل: أى لم يتغيّر طعمه بخلاف لبن الدّنيا لخروجه من الضّروع. عن ابن عبّاس: أي لبن أنهار الجنّة لم يحلب من حيوان، فيتغيّر طعمه بالخروج من الضّروع، و لكنّه خلقه اللّه تعالى ابتداء في الأنهار فهو بهيئته لم يتغيّر عمّا خلقه عليه، فلايتغيّر طعمه إلى الحموضة و زهومة زبدة لم يخرج من بطون اللقاح. و عن سعيد بن جبير: أى لم يخرج من بين فرث و دم.

و ذلك أنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان ليست محكومة الزّمان و لاتحت شرائط الزّمان، و إنّما هي بجنّاتها بأهليها و نعيمها دار خلود، فالجنّة بتمامها غير آسنة ماءها، و غير متغيّرة لبنها، خلاف ألبان الدّنيا الّتي يحكم عليها الزّمان و يمرّ عليها، فطبيعة ألبان الدّنيا أن تتغيّر لفترة قليلة و إن عولجت و تفقد خواصّها و طعمها بل لونها، و قد تسمّم لمرور الزّمان عليها، و لا زمان في الجنّة حتّى يتغيّر لبنها فضلاً عن غيره كما أنّ الإنسان فيها غير متغيّر.

٤- قيل: أي لم تستخرج دسومته كاللبن الّذي يشتريه الإنسان من الأسواق...

أقول: و على الثّالث جمهور المحقّقين من دون تناف بينه و بين بعض الأقوال الأُخر.

و في **قوله جلّوعلا:** «و أنهار من خمر لذّة للشّاربين» أقوال: ۱- قيل: أى لذيذة للشّاربين يلتذّون بشربها و لايتأذّون بها ولا بعاقبتها إذ لايكون فيها كراهة و ريح، ولاغائلة سكر و خمار بخلاف خمر الدّنيا الّتي لاتخلو من المزازة و السّكر و الصّداع و كريهة عند الشّرب رديئة الطّعم، شنيعة الرّآئحة. ۲- قيل: أي ذات لذّة لاتسكر. ۳- عن ابن عبّاس: أى شهوة للشّاربين لم تعصر بالأقدام... ٤- عن سعيد بن جبير: أى لم تدنسها الرّجال بأرجلهم، و لم ينفخ فيها الشّيطان و لم تؤذها شمس ولكنّها الصّفرآء.

٥- قيل: أي يلذّ طعمها للشّاربين فليس فيها من خمر الدّنيا هذا الطّعم المرّ اللاذع كما

أنّها لاتخامر العقل، و لاتذهب باللّبّ كما قال اللّه تعالى: «لا فيها غول» الصّافات: ٤٧)
٦- قيل: أى ما هو إلاّ التلذّذ الخالص ليس معه ذهاب عقل و لا صداع و لا آفة من آفات خمر الدّنيا و لا من ضررها، و إنّ في خمر الجنّة لذّة الجسم و العقل معاً، و ليست فيها ذلّة و لاهوان للجسم و العقل، فإنّها لاتملّ البدن و لاتخمر العقل و لاتحجبه، بل هي تخمر بقايا الجهل و الخمول عن ذكر اللّه تعالى ف«لافيها غول و لاهم عنها ينزفون» الصّافات: ٤٧) لايهلك و لاينزع العقل و لايضرّ الشّعور و الفهم: «لايصدّعون عنها و لاينزفون» الواقعة: ١٩) و لافيها صداع الرّأس، بخلاف خمر الدّنيا، فهى لاتحمل من خمر الدّنيا إلاّ إسماً، فخمر الجنّة لذيذة خالص اللذّة في الجسم و العقل و في المنظر و الطّعم و في الرّيح و الصّحّة: «يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها و لا تأثيم» الطور: ٢٣).

أقول: و المعاني متقاربة بالإجمال و التّفصيل، فتدبّر.

و في قوله تعالى: «و أنهار من عسل مصفّى» أقوال: ١- عن سعيد بن جبير: أي لم يخرج من بطون النّحل. ٢- قيل: أي لم يخالطه الشّمع و لافضلات النّحل، و لم يمت فيه بعض نحلة كعسل الدّنيا. ٣- قيل: أي صاف، و خالٍ و خالص من الشّمع و الرّغوة والقذى و سآئر ما في عسل الدّنيا من الأذى و العيوب الّتي تكون لعسل الدّنيا.

٤- قيل: أي خالص من أيّ شائبة تعلّق به، و خلقه اللّه كذلك لم يطبخ على نار و لادنّسه النّحل. ٥- قيل: أي أنهار من عسل مصفّى من كلّ أذى لأنّ عسل الجنّة لم يخرج من بطون النّحل، بخلاف عسل الدّنيا، فإنّه بخروجه من بطون النّحل يخالط الشّمع و غيره، فعسل الجنّة خالص من كلّ أذى: من شمع أو رغوة أو قذى، أو لذعة نحلة و ما إليها ممّا يوجد في عسل الدّنيا مصفّىً و غير مصفّى، فأين أنهار من عسل مصفّى، من عسل في الحياة الدّنيا لايحصل قليل منه إلاّ بكثير من تعب و أذىً فشتّان بينهما، فعسل الجنّة تشابه عسل الدّنيا إسماً، و بينهما من البون لحدّ لايكاد يسمّى ما في الدّنيا عسلاً، و إنّما «شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للنّاس» النحل: ٦٩).

أقول: و المعاني متقاربة و المآل واحد.

و في قوله سبحانه: «و لهم فيها من كلّ الثّمرات» أقوال: ١- قيل: أي و للمتّقين في

الجنّة أصناف من الثّمرات ممّا يعرفون إسمها و ممّا لا يعرفون إسمها، مبرّأة من كلّ مكروه يكون لثمرات الدّنيا... ٢- قيل: أي و لهم فيها من كلّ الملذّات الرّوحيّة و المادّيّة، و فوق ذلك لا ألم أي لاخوف و لاقتال و لاهمّ و عيال و لاشغل الفكر و البال. ٣- عن ابن عبّاس: أي ألوان الثّمرات، أنضرها و أطراها و أبقاها...

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين.

و في قوله عزّوجلّ: «و مغفرة من ربّهم» أقوال: ١- قيل: أي ينمحي بها عنهم كلّ ذنب و سيّئة، فلا تتكدّر عيشتهم بمكدّر، و لا ينتغص بمنغّص. ٢- قيل: أي لا يلحقهم في الجنّة توبيخ بشيئ من معاصيهم لأنّ اللّه تعالى قد تفضّل بسترها عليهم، فصارت بمنزلة ما لم يعمل بإبطال حكمها. ٣- قيل: أي يستر ذنوبهم و ينسيهم سيّئاتهم حتّى لا يتنغّص عليهم نعيم الجنّة. ٤- قيل: مغفرة الرّب هي جنّة الرّضوان، و هي أكبر من جنّات النّعيم، يكتفى بها أهل اللّه المخلصين و لو لم تكن ورآءها جنّات، و هم قليل من عباداللّه تعالى.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين من دون تنافٍ بينه و بين الثّاني و الثّالث.

و في قوله جلّوعلا: «و سقوا مآءً حميماً» أقوال: ١- قيل: أي ماءً حارّاً شديد الحرارة مكان تلك الأشربة لأهل الجنّة. ٢- قيل: أى ماءاً حارّاً شديد الغليان إذا دنامنهم شوى وجوههم و وقعت فروة رؤوسهم، و إذا شربوه قطّع أمعآءهم و أخرجها من دبورهم... و هم كفّار مكّة. ٣- قيل: و سقى هؤلآء الّذين هم خلود في النّار ماء قد انتهى حرّه، فقطع ذلك الماء من شدّة حرّه أمعآءهم... و هم أبوجهل و أذنابه.

٤- قيل: هم الّذين اتّبعوا أهواءهم و كرهوا ما أنزل اللّه تعالى و هم مطلق الكافرين من المتظاهرين بالكفر على فرقهم، و المتباطنين بالكفر كالمنافقين في كلّ ظرف من الظّروف، و هم يسقون في جهنّم من مآء صديد يتجرّعونه، فيشوى به وجوههم، فبئس الشّراب و سآئت مرتفقاً.

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق، و هو المستفاد من روايات أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

و في قوله تعالى: «فقطّع أمعآءهم» قولان: **أحدهما** - أي إذا دخل الماء الحميم

أجواف أصحاب الجحيم، قطع ما في بطونهم من الحوايا من فرط حرارته. ثانيهما- عن ابن عبّاس: أى فقطّع مباعرهم.

أقول: و على الأوّل جمهور المفسّرين.

١٦- (و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال انفاً اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم)

في قوله تعالى: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و عبد اللّه بن بريدة: أى و من المنافقين من يستمع إلى خطبتك يوم الجمعة حتّى إذا تفرّقوا من صلاة الجمعة قالوا للّذين اعطوا العلم يعني عبداللّه بن مسعود: ماذا قال محمّد﴿ﷺ﴾ السّاعة على المنبر، استهزاءً بما قال رسول اللّه﴿ﷺ﴾. ٢- قيل: «من يستمع إليك» هم المنافقون الّذين يستمعون إلى ما يتلوا عليهم رسول الله﴿ﷺ﴾ ما أنزل الله تعالى عليه، فيسمعونه و لايعونه، و قد تهاونوا بما سمعوا منه و كرهوا ما أنزل اللّه سبحانه، فإذا خرجوا من عند رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قالوا للّذين آتاهم اللّه العلم من المؤمنين كسلمان الفارسى و أبي‌ذر الغفاري و مقداد و عمّار ياسر و أمثالهم من الصّحابة المؤمنين الصّادقين: ماذا قال محمّد آنفاً أي أيّ شيء قال السّاعة؟ و إنّما قالوه استهزاءً و قلّة مبالاة و كراهة بما أنزل اللّه يعنون إنّا لم نشتغل بوعيه و فهمه.

٣- عن ابن جريج: كان المؤمنون و المنافقون من أصحاب رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يجتمعون إليه﴿ﷺ﴾ فيستمع المؤمنون منه﴿ﷺ﴾ ما يقوله و يعونه، و يسمعه المنافقون فلايعونه و لايراعونه حقّ رعايته تهاوناً منهم، فإذا خرجوا من عنده﴿ﷺ﴾ سئلوا المؤمنين ماذا قال آنفاً.

٤- عن عكرمة: كان المنافقون يدخلون على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عبّاس: ماذا قال محمّد﴿ﷺ﴾ آنفاً، فيقول ابن عبّاس: قال: كذا و كذا. فكان ابن عبّاس من «الّذين اوتوا العلم» و عن ابن عبّاس: أنا من الّذين اوتوا العلم، و قد سُئِلت فيمن سئل.

٥- عن قتاده: قال: دخل رجلان من المنافقين على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فرجل عقل عن اللّٰه و انتفع بما سمعه، و رجل لم يعقل عن اللّٰه و لم يعه و لم ينتفع به، و كان النّاس ثلاثة: سامع عامل، و سامع غافل، و سامع تارك.

٦- قيل: أي و من الكافرين من كانوا يحضرون مجلس رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و الجمعات، و يسمعون إلى كلامه و لايعونه كما يعيه المسلم، حتّى إذا انصرفوا و خرج المسلمون من عند رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ قال الكافرون لبعض الصّحابة كابن عبّاس و ابن مسعود و أبي الدّردآء: أيّ شيء قال محمّد في ساعتنا هذه، و قد ذمّوا على ذلك لأنّ سئوالهم سئوال استهزاء و إعلام أنّهم لم يلتفتوا إلى قوله، و لم يلقوا إليه آذانهم تهاوناً به، و لو كان سئوال تفقّه و بحث عمّا لم يفهموه لما ذمّوا عليه.

٧- قيل: كان بعض فئات الكفّار - من المعاهدين أو المسالمين لا الأعدآء المحاربين -كانوا يحضرون مع غيرهم مجالس النّبيّ﴿ﷺ﴾ و يستمعون إلى ما يقوله و يبلّغه في العهد المدنيّ أيضاً كالعهد المكّيّ، كانوا يحضرون هذه المجالس لاهية أذهانهم و قلوبهم مستخفّين بما يسمعون، و حينما يخرجون يسئلون بعض ذوي العلم و الفهم من أصحاب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ الّذين شهدوا المجالس عمّا قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من شيئ جديد، فهؤلآء قد طبع اللّٰه على قلوبهم بسبب كفرهم و خبث طواياهم، ففقدوا السّداد و الرّشاد و الإدراك، و انساقوا ورآء الأهوآء بخلاف المؤمنين المخلصين الّذين كان اللّٰه يزيدهم هدى و خصماً لما ينبغي أن يتّقوا به اللّٰه و كلّما شهدوا مجالس رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و سمعوا كلامه و مواعظه.

٨- عن ابن زيد: أي و من الكافرين، من يستمع إليك و هؤلآء المنافقون، و «الّذين اوتوا العلم» هم الصّحابة. و قيل: هم العلماء من الصّحابة. و قيل: هم الصّحابة الّذين يعون كلام رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من الكتاب و السّنّة، و يراعون له حقّ رعايته لامطلق الصّحابة و لاالعلماء منهم، بل هم الخواصّ من الصّحابة. ٩- عن الكلبي و مقاتل: أي و من المنافقين من يستمع إليك و هم عبداللّٰه بن أُبيّ بن سلول، و رفاعة بن التّابوت، و زيد بن الصّليت، و الحارث بن عمرو، و مالك بن دُخْشُم، و هم رؤسآء المنافقين، كانوا

يحضرون الخطبة يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سئلوا عنه.

١٠- عن القاسم بن عبدالرّحمن: «اوتوا العلم» هو أبـو الدّردآء. ١١- قـيل: أي المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يستمعون منه ما يتلوه عليهم من القرآن، و ما يبيّن لهم من اصول المعارف و شرائع الدّين و فروع الأحكام... حتّى إذا خرجوا من عنده قالوا ساخرين لبعض من كان حاضراً من علماء أهل الكتاب: نحن لم نفهم ماذا قال محمّد، فهل علمتم و فهمتم من كلامه شيئاً.

١٢- قيل: أي و من الكافرين الّذين تقدّم ذكرهم، من يستمع إلى قرائتك و دعوتك و كلامك لأنّ المنافق كافر، «حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم» و هو أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: أيّ شيئ قال محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ السّاعة، و إنّما قالوه استهزاءً و استخفافاً.

١٣- قيل: أي و من النّاس منافقون و عصاة يستمعون إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ دون أن يستمعوا قوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الوحي السّماوي على كلاقسميه: الكتاب والسّنّة كـقوله تعالى: «الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه» الزّمـر: ١٨) وقال : «إليك» تنبيهاً إلى أنّهم كانوا بعيدين عنه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عن وحي الرّسالة، رغم أنّهم كانوا عنده، فـ«إلى» هنا توحي بالبعد، و انّهم صمّ في استماعهم: «و منهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصّمّ و لو كانوا لايعقلون» يونس: ٤٢) فهم صاغون كحيوان، صماً عن صوغ الإنسان! فـإذا استمعوا إليك ليس إلاّ استهزاءً أو استخفافاً أو تجسّساً!

«حتّى إذا خرجوا من عندك» بعد ما استمعوا إليك «قـالوا للّـذين اوتـوا العـلم» باستماعهم و وعيهم قولك: «ماذا قال آنفاً»؟ قبل افتراقنا و خروجنا من عنده؟ كأنّهم لم يسمعوه، رغم أنّهم استمعوا إليه و إنّما لم يفقهوه، لـ«انّهم عن السّمع لمعزولون» الشّعرآء: ٢١٢) و هم يسئلون الّذين اوتوا العلم: «ماذا قال اُنفاً»؟ تعريضاً أنّنا ما نفقه ما يقول لأنّه فارغ عن أيّ معنى معقول، كأضرابهم: «قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً ممّا تـقول» هود: ٩١)

أو تحريضاً للعالمين تعنّتاً: لو يحمل معنى فعلمونا! و الرّسول لم يسطع أن يسمعهم!: «أفأنت تسمع الصّمّ و لو كانوا لا يعقلون» أو توهيناً لمقال الرّسول: لو كان مقالاً عالياً لحفظناه إذا استمعنا إليه لكنّنا نسيناه بعد حين كأنّه كلام مهين، و ما حجّتهم في قولتهم الخواء إلاّ استكبارهم عن الحقّ و الهدى، و اللّه تعالى منهم براء.

أقول: و على الثّاني أكثر المحقّقين من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «ماذا قال اُنفاً» أقوال: ١- عن الزّجّاج: أي ماذا قال محمّد الآن من جديد. و «آنفاً» من استأنفت الشّيء إذا ابتدأته. و المعنى: ماذا قال في أوّل وقت يقرب منّا يعني الآن على جهة الاستهزآء و الاستخفاف و السّخرية. أي نحن لم نلتفت إلى قوله. و قيل معناه: قريباً مبتدئاً. مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحة. ٢- قيل: أي مالّذي قال قبيل هذا الوقت، و مقصود هم من ذلك، الاستهزآء و إن كان بصورة الاستعلام.

٣- قيل: أي ماذا قال السّاعة الّتي قبيل ساعتك، كان مرادهم حقيقة الاستعلام إذ لم يلفوا له آذانهم تهاوناً به، و لذلك ذمّوا لأنّ استغراقهم في الكبر و الغرور و حبّ الدّنيا واتّباع الأهوآء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحقّ كما قال اللّه سبحانه: «فمال هؤلآء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً» النّساء: ٧٨).

٤- قيل: أي ماذا قال هذه السّاعة، إنّما قالوه إظهار أنّا لم نشتغل أيضاً بوعيه و فهمه.
٥- قيل: أي قالوه بقصد التأكّد لأنّهم لم يعوا و لم يفهموا معناه ولم يعلموا ما سمعوه و لم يتنبّهوا إلى ما كان يقوله رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ ٦- قيل: قالوا ذلك تحقيراً و استخفافاً و تهاوناً لقوله أي لم يقل شيئاً فيه فائدة كأنّ القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصّل. فكلامه ممّا لا ينبغي أن يؤبه به أو يلق لمثله سمع. ٧- قيل: سئلوا ذلك ريآءً و نفاقاً أي لم يذهب عنّي من قوله إلاّ هذا، فإذا قال: أعده عَلَيَّ لأحفظه. ٨- قيل: أي ماذا قال محمّد قبل أن نفارق مجلسه و نخرج من عنده؟ قالوا ذلك تعنّتاً لا تفقّهاً.

أقول: و على السّادس أكثر المفسّرين و في معناه أكثر الأقوال الأُخر فتدبّر.

و في قوله تعالى: «اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم» أقوال: ۱- قيل: أي وسم قلوبهم بسمة الكفّار بأن جعل على قلوبهم علامة تدلّ على أنّهم كفّار لايؤمنون. ۲- قيل: أى خلّى بينهم و بين اختيارهم لأنّهم عدلوا عن الحقّ و الهدى، و مالوا إلى الباطل و الضّلالة بسوء اختيارهم، فتركهم في طغيانهم يعمهون، و في غيّهم يسرحون و يمرحون، و كفى انقطاع الهداية الإلهيّة لاستمرار الطّبع و ازدياده: «فلمّا زاغوا أزاغ اللّٰه قلوبهم و اللّٰه لايهدى القوم الفاسقين» الصّفّ: ٥) فطبعه - إذاً- ترك هدايته «و اتّبعوا أهوآءهم» قبل أن يطبع اللّٰه تعالى على قلوبهم فاستحقّوا طبعاً من اللّٰه تعالى بسبب اتّباعهم أهوآءهم، فجملة «و اتّبعوا أهواءهم» حال من الضّمير في «قلوبهم» و بعد أن طبع اللّٰه على قلوبهم فازدادوا اتّباعاً لأهوآءهم، فهم يعيشون انطباع قلوبهم ما هم يتّبعون أهوآءهم... و كما أنّ اتّباع الأهوآء يستهوي زيادة الطبع، كذلك الاهتداء يتّبع زيادة الهدى.

۳- قيل: أي ختم اللّٰه على قلوبهم لعدم توجّههم إلى ما فيه خيرهم و صلاحهم و رشدهم و فلاحهم، فلايهتدون للحقّ الّذي بعث اللّٰه تعالى به رسوله الخاتم﴿ﷺ﴾ واتّبعوا شهواتهم و ما دعتهم إليه أنفسهم الأمّارة بالسّوء ممّا لا خير ولاصلاح و لا رشد و لافلاح لهم فيه، فلايرجعون إلى حجّة و لابرهان.

أقول: و على الثّاني أكثر المحقّقين فتأمّل جيّداً.

۱۷- و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم)

في قوله تعالى: «والّذين اهتدوا زادهم هدى» أقوال: ۱- قيل: أي و الّذين اهتدوا بالايمان و استماع القرآن زادهم اللّٰه بصيرة و فهماً و علماً و شرح صدورهم لما ينبغي أن يتّقوا به اللّٰه تعالى.

۲- قيل: إنّ المراد بالاهتداء هو التّسليم لما تهدى إليه الفطرة السّليمة و اتّباع الحقّ، و المراد بزيادة الهدى من اللّٰه تعالى رفعه سبحانه درجة الايمان، و أنّ الايمان و الهدى ذو مراتب مختلفة، و أنّ الإهتداء ما يقابل الضّلال الملازم للطّبع على القلب، فزيادة الهدى راجع إلى تكميل المهتدين في ناحية العلم.

۳- قيل: أي و الّذين اهتدوا إلى الحقّ و وصلوا إلى الهدى و الايمان زادهم اللّٰه هدى بما ينزل عليهم من الآيات و الأحكام، فإذا أقرّوا بها و عرفوها و عملوا بها زادت معارفهم. ٤- قيل: أي و الّذين اهتدوا بما سمعوا من رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من وحي القرآن أو السّنّة زادهم اللّٰه تعالى هدى. ٥- قيل: أي و الّذين اهتدوا باتّباع الحقّ و الايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و كتابه، زادهم استهزاء المنافقين و إعراضهم عن الحقّ، ايماناً و علماً و بصيرة و تصديقاً لنبيّهم﴿صلى الله عليه و آله﴾ كماقال اللّٰه تعالى: «الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً» آل عمران: ۱۷۳).

و الوجه في إضافة زيادة الهدى إلى اللّٰه تعالى هو ما يفعله بهم من الألطاف الّتي تقوي دواعيهم إلى التّمسّك بما عرفوه من الحقّ، و تصرّفهم عن العدول إلى خلافه، و يكون ذلك تأكيداً لما عملوه من الحقّ، و صارفاً لهم عن تقليد الرّؤساء من دون حجّة و لابرهان.

٦- قيل: أى و الّذين اهتدوا إلى الحقّ، ثبّتهم اللّٰه تعالى عليه بعد علمه تعالى بالإخلاص و صدق النّيّة منهم. ۷- قيل: أي و الّذين اهتدوا إلى طريق الحقّ زادهم اللّٰه هدى عظيماً بالتّوفيق و الإلهام و نور اليقين. ۸- قيل: أي و الّذين اهتدوا للايمان زادهم النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ هدى. ۹- قيل: أي والّذين اهتدوا بما يستمعونه من القرآن، يتضاعف يقينهم. ۱۰- قيل: أي و الّذين اهتدوا بالقرآن، زادهم نزول النّاسخ هدًى.

۱۱- عن الرّبيع بن أنس: أي زادهم علماً في حياتهم. ۱۲- عن الضّحّاك: أي أنّهم علموا ما سمعوا و عملوا بما علموه. ۱۳- عن الكلبي: أي زادهم بصيرة في دينهم و تصديقاً لنبيّهم. ١٤- قيل: أي شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ١٥- عن ابن عبّاس: أي والّذين اهتدوا بالايمان زادهم بخطبتك بصيرة في أمر الدّين و تصديقاً في النّيّات.

أقول: و الثّاني هو المستفاد من الرّوايات و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

و في قوله سبحانه: «و آتاهم تقواهم» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي أكرمهم بترك

المعاصي و اجتناب المحارم... ٢- قيل: أي و ألهمهم رشدهم و أعانهم على تقواهم. ٣- عن سعيد بن جبير و أبي عليّ الجبائي و السّدي: أى آتاهم ثواب تقواهم و أعطاهم جزآءها في الآخرة.

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي رضوان اللّه تعالى عليه: «و لايجوز أن يكون المراد خلق لهم تقواهم لأنّه يبطل أن يكون فعلهم».

٤- عن الرّبيع بن أنس: أي آتاهم الخشية من اللّه تعالى و خوفاً منه سبحانه من معاصيه و من ترك مفترضاته بما فعل بهم من الألطاف في ذلك. ٥- قيل: إنّ المراد بالتّقوى هو الورع عن محارم اللّه و التّجنّب عن ارتكاب المعاصي، و هو ما يقابل اتّباع الأهوآء، و زيادة التّقوى ترجع إلى تكميل المتّقين في ناحية العمل. ٦- عن مقاتل: أي وفّقهم للعمل الّذي فرض عليهم. ٧- قيل: أي وفّقهم للتّقوى. ٧- عن عطيّة: أي أكرمهم بترك المنسوخ و العمل بالنّاسخ. و قيل: أي و الّذين اهتدوا بالنّاسخ زادهم هدى بالمنسوخ و آتاهم تقواهم عن العمل بالمنسوخ. ٨- عن السّدي أيضاً أي بيّن لهم ما يتّقون و هو ترك الرُّخص و الأخذ بالعزآئم . ٩- قيل:أي ألهمهم ما يتّقون به النّار.

١٠- قيل: أي و الّذين اهتدوا زادهم اللّه تعالى هدى بما زادهم اهتداءهم، كما آتاهم تقواهم، بما آتاهم اهتداءهم بزيادة هداهم، فاهتداؤهم مادّة لزيادة هداهم و اللّه سبحانه فاعلها، حيث إنّ النّور يجلب النّور كما أنّ النّار تجلب النّار، كما أنّ تقواهم مادّة لزيادة تقواهم و اللّه تعالى مؤتيها.

و من سنن الإهتداء و التّقى التّجاوب كما منها الزّيادة لكلٍّ في نفسه، فالهدى: العلم، الايمان، و التقوى: العمل الصّالح، إنّهما متجاوبان: كلّما ازدادت الهدى زادت التّقوي، و كلّما ازدادت التّقوى زادت الهدى، حتّى يأتي دور التّقوى في الاخرى إذ تبرز حقيقتها: «آتاهم» حقيقة «تقواهم» فآيتا التّقوى تشمل الاولى كحصيلة للهدى، و الأُخرى كحقيقة للتّقوى، هي جزآءها بنفسها، فإنّ تقوى اللّه عن هدى علميّة ايمانيّة هي الّتي تملك العاقبة الحسنى «و العاقبة للتّقوى» طه: ١٣٢) دون الهدى الخاوية عن تقوى، أو التّقوى الخالية عن هدى، و إنّما صدفة عمياء أو تقليد على الأعمى اللّهمّ إلاّ فضلاً من ربّك لو مات على هذه التّقوى!.

أقول: و على الثّاني أكثر المفسّرين و في معناه بعض الأقوال الاُخر، فتأمّل جيّداً.

۱۸-(فهل ينظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتة فقد جآء أشراطها فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم)

في قوله تعالى: «فهل ينظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتة» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أى فهل ينظر كفّار مكّة إذا كذّبوك إلاّ قيام السّاعة أن تأتيهم فجأة. ۲- قيل: أي فهل ينتظرون إلاّ السّاعة أبداً لامفرّ من يومها و أهوالها و همومها... و هم مطلق الكفّار، فيشمل فِرَق المشركين من أهل مكّة و غيرهم و فِرَق الكافرين من أهل الكتاب و غيرهم، و المنافقين في كلّ ظرف من الظّروف.

فكأنّ كلّهم واقفون موقفاً عليهم إمّا أن يؤمنوا باللّه تعالى و رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و ما أنزل اللّه سبحانه عليه و يتّبعوا الحقّ و ينصروا دين اللّه، فيكفّر ربّهم عن سيّئاتهم و يصلح بالهم و يزيدهم هدىً و يأتيهم تقواهم، و يدخلهم الجنّة، و إمّا أن يكفروا باللّه تعالى و رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و يكرهوا ما أنزل اللّه جلّ وعلا و يصدّوا النّاس عن سبيل اللّه و يتّبعوا الباطل، و يأكلوا كالأنعام، و يعيشوا كالبهآئم، فيضلّ اللّه سبحانه أعمالهم و يطبع قلوبهم، فينتظروا السّاعة حتّى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها، تذكّروا و آمنوا واتّبعوا الحقّ، أمّا اتّباع الحقّ اليوم فلم يخضعوا له بحجّة أو بموعظة أو عبرة، و أمّا انتظارهم مجيىء السّاعة ليتذكّروا عنده فلاينفعهم شيئاً، فإنّها تجيىء بغتة و لاتمهلهم شيئاً حتّى يستعدّوا لها بالذّكرى، و إذا وقعت لم ينفعهم الذّكرى، لأنّ اليوم يوم حساب و جزاء لايوم عمل قال اللّه تعالى: «يومئذ يتذكّر الإنسان و أنّى له الذّكرى يقول ياليتني قدّمت لحياتي» الفجر: ۲٤).

۳- قيل: أي كفّار مكّة و غيرهم لايتذكّرون بأحوال الامم الماضية، و لا بالاخبار بإتيان السّاعة و فيها من عظآئم الأحوال، فلاينتظرون للتذكّر إلاّ إتيان السّاعة نفسها، فلم يبق من الامور الموجبة للتّذكّر أمر مترقّب ينتظرونه سوى إتيان نفس السّاعة، إذ قد جآء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً و لم يعدوها من مبادىء اتيانها، فيكون إتيانها

بطريق المفاجأة لامحالة، فليس الأمر إلاّ إتيانها فجأة.

٤- قيل: هم كفّار قريش إذ كانوا في غفلة عن النّظر و التأمّل في عاقبة أمرهم، بعد أن قامت الأدلّة الواضحة و البراهين القاطعة العقليّة و النّقليّة على وحدانيّة اللّٰه تعالى و صدق نبوّة رسوله﴿ﷺ﴾ و كون ما أنزل اللّٰه سبحانه عليه حقّاً، و أنّ البعث حقّ، و أنّ اللّٰه عزّوجلّ يهلك من كذّب رسله و يحلّ بهم الوبال و النّكال كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الامم الّتي أهلكها اللّٰه لتكذيبهم رسلهم، و لم يبق منهم إلاّ آثارهم... و لم يفدهم كلّ ذلك شيئاً و لم يتّعظوا و لم يؤمنوا ... فماذا ينتظرون للعظة و الاعتبار؟ لاينتظرون إلاّ أن تأتيهم السّاعة فجأة إذ جآئت معالمها... و لم يبق من الامور الموجبة للتذكّر و العظة للايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و بكتابه و اليوم الآخر سوى ذلك.

فلا يتوقّع منهم ايمان بعدئذ إلاّ حين مجيئ السّاعة فجأة، و ها هي ذي أشراطها قد ظهرت و مقدّماتها قد بدأت، و لم يأبهوا بها و لا فكروا في أمرها، لأنّهم بلغوا الغاية في العناد و اللّجاج، و النّهاية في الإستكبار و العداوة.

٥- قيل: هم مشركوا العرب من أهل مكّة، من قريش و غيرهم أي هم ينتظرون قيام السّاعة حتّى يخافوا و يؤمنوا مع أنّها لاتأتي إلاّ فجأة، و قد جآئت أشراطها، حينما تأتى لاينفعهم التذكّر و الإرعواء ... ماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون - إن انتُظِر بهم - إلاّالسّاعة أن تأتيهم بغتة و هم لايشعرون؟ و إنّها لآتية لاريب فيها... فكيف يكون حالهم إذا جآئتهم، و قُدِّموا للحساب و الجزآء؟ هل ينفعهم شيئ في هذا اليوم؟ و هل من سبيل إلى أن يصلحوا ما أفسدوا؟ كلاّ، فقد انتهى وقت العمل، و جآء وقت الحساب و الجزاء، لقد انتقلوا من دار العمل و الابتلاء إلى دار الثّواب و الجزاء.

أقول: و الثّاني هو الأنسب بظاهر السّياق.

و في قوله سبحانه: «فقد جآء أشراطها» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي فقد جآء أوّل السّاعات... ٢- عن الحسن و الضّحاك: إنّ محمّداً رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من أشراط السّاعة، و كانوا قد قرؤا في كتبهم أنّ محمّداً ﴿ﷺ﴾ آخر الأنبيآء، فبعثه من أشراط السّاعة و أدلّتها. ٣- عن ابن عبّاس و الحسن أيضاً: أي فقد جآء معالم السّاعة و هي

انشقاق القمر و الدّخان و خروج النّبيّ ﴿عَلَيْهِ‌السَلَامُ﴾ بالقرآن. ٤- قيل: أى فقد جآء علامات و امارات تدلّ على قرب السّاعة. ٥- عن مقاتل: هي مبعث رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَلَامُ﴾ خاتم الأنبيآء و المرسلين و نزول آخر الكتب و انشقاق القمر و الدّخان. و قال رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَلَامُ﴾: «بُعثت أنا و السّاعة كهاتين» و قد أشار بالسّبّابة و الوسطى.

٦- قيل: هي القيامة العظمى الّتي وقعت في اليوم الآخر المحمّدي في الجمعة الأخيرة لآخر الأسابيع كما في قوله ﴿عَلَيْهِ‌السَلَامُ﴾: «بُعثت أنا و السّاعة كهاتين» و قد قرب الموعد «و أزفت الآزفة» النّجم: ٥٧) «إنّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً» المعارج: ٦-٧).

٧- قيل: هي قطع الأرحام و شهادة الزّور و كثرة اللّئام و قلّة الكرام. ٨- عن قتادة: أى دنت السّاعة، و دنا من اللّه فراخ للعباد. ٩- قيل: أشراط السّاعة: أسبابها الّتي هى دون معظمها. ١٠- عن الكلبي: هي كثرة المال و التّجارة و شهادة الزّور و قطع الأرحام... ١١- قيل: أي فقد جاء هؤلآء الكافرين باللّه تعالى و حليفهم المنافقين، السّاعة و أدلّتها و مقدّماتها...

١٢- قيل: من أهمّ أشراط السّاعة، ظهور المهدي المنتظر الحجّة بن الحسن العسكريّ عليهما السّلام.

١٣- عن ابن زيد: أي فقد جآء آيات السّاعة و معالمها و أماراتها على أنّ السّاعة آتية لاريب فيها تماماً كالحياة والموت.

و ذلك أنّ الأدلّة الواضحة قد قامت، و البراهين القاطعة قد نصبت على إمكانيّة السّاعة و حتميتها و قربها، و من أدلّة إمكانيتها إحياء عديد من الموتى طيّات الزّمن الرّسالي تبكيتاً و تسكيتاً لناكري الحياة بعد الموت كما في قصّة عزيز و عزير و قصّة إبراهيم ﴿عَلَيْهِ‌السَلَامُ﴾ قال اللّه تعالى: «أو كالّذي مرّ على قرية و هي خاوية على عروشها قال أنّى يحيى هذه اللّه بعد موتها فأماته اللّه مأة عام ثمّ بعثه - و إذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي قال فخذ أربعة من الطّير فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعياً» البقرة: ٢٥٩-٢٦٠).

و في قصّة عيسى بن مريم﴿عليه السلام﴾ قال: «أنّي قد جئتكم بآية من ربّكم أنّي أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللّٰه و أبرىء الأكمه و الأبرص و أُحيي الموتى بإذن اللّٰه» آل عمران: ٤٩).

و من براهين حتميّتها علم اللّٰه تعالى و عدله و قدرته على جزآء الكافرين و من سلك مسالكهم في الكفر و الضّلالة و الظّلم و الجناية و البغى و الخيانة و النّفاق و الفساد... و انّ الدّنيا دار عمل، فلابدّ من حياة اخرى لتجزى كلّ نفس بما كسبت و إلاّ يلزم إمّا أن يكون خلق العالم عبثاً، و إمّا أن يكون الخالق عاجزاً سبحانه و تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

و من آيات قرب السّاعة: انشقاق القمر: «اقتربت السّاعة وانشقّ القمر» القمر: ١) فانشقاق القمر آية لقرب السّاعة كما هو آية لنبيّ السّاعة! كما أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ على حدّ قوله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «أنا و السّاعة كهاتين» و كتابه من أهمّ أشراط السّاعة، و هو ينذر بقربها، و هو يقول: «و يقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً» الإسراء: ٥١) و يقول: «و ما يدريك لعلّ السّاعة تكون قريباً» الأحزاب: ٦٣) و يقول: «و لاتستعجل لهم كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار» الأحقاف: ٣٥).

و من آيات قرب السّاعة: ظهور المهديّ المنتظر الحجّة بن الحسن العسكريّ عجّل اللّٰه تعالى فرجه الشّريف روحي له الفداء، و هو من أعظم أشراط السّاعة إذ يؤسّس دولة إسلاميّة عالميّة على ضوء الثّقلين: الكتاب الكريم و السّنّة الصّادقة...

١٤- قيل: إنّ المراد بأشراط السّاعة، خلق الإنسان و انقسام نوعه إلى صلحآء و مفسدين، و أتقيآء و فاجرين... المستدعي لحكم الفصل بينهم، و نزول الموت عليهم، فإنّ ذلك كلّه من شرائط وقوع الواقعة و إتيان السّاعة.

أقول: و الثّاني هو المرويّ من دون تنافٍ بينه و بين أكثر الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً و لاتغفل.

و في قوله عزّوجلّ: «فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم» أقوال: ١- قيل: أي فكيف

لهؤلآء الكافرين و حليفهم المنافقين الذّكرى والاتّعاظ و التّوبة و اتّباع الحقّ و رفض الطّواغيت إذا جآئتهم السّاعة ما لم يتذكّروا قبلها إذ لاينفعهم الذّكرىٰ يومئذ ولافراغ لهم. ٢- عن ابن جريج: أي إذا جآئت السّاعة أنىٰ لهم الّذكرى أي فمن أين لهم التّذكّر. ٣- عن قتادة: أي إذا جآئتهم السّاعة فأنّى لهم أن يتذكّروا و يعرفوا و يعقلوا و يتوبوا و يعملوا.

٤- عن ابن عبّاس: أي فمن أين لهم التّوبة إذ قامت السّاعة. و عنه أيضاً: أي فأنّى لهم الخلاص من الهلاك و الدّمار و العذاب إذا جآئتهم الذّكرى بما يخبرهم به فينكرونه. ٥- عن ابن زيد أي فكيف لهم النّجاة إذا جآئتهم الذّكرى عند مجيئ السّاعة ٦- قيل: «ذكراهم» أي تذكيرهم بما عملوا من خير أو شرّ إذ لاينفعهم فيذلك الوقت الايمان و الطّاعات لزوال التكليف عنهم عندئذ. ٧- قيل: «ذكراهم» هو دعآؤهم بأسمآئهم تبشيراً و تخويفاً. و قيل: هو الدّعاء. و قيل: هو كلمة التّوحيد: «لا إله إلاّ اللّٰه».

٨- قيل: أي فمن أين لهم إذا جآئتهم السّاعة تذكّرهم و ايمانهم فلا ينفعهم حينئذ. و ذلك أنّه لاشكّ أنّهم حين يرون السّاعة قائمة يتذكّرون و يتّعظون و يندمون، و لكن حيث لاتوبة تنفع و لامعذرة تدفع كقوله تعالى: «يوم يتذكّر الإنسان و أنّى له الذّكرى»أي لاتنفعه الذّكرى. و الذّكرى ما أمر اللّٰه سبحانه أن يتذكّروا به و هم كانوا ينكرونه قبل وقوعها، فذكر السّاعة قبل وقوعها يفيدهم، و ذكرها حين وقوعها لايفيدهم. كيف تنفعهم الذّكرى إذا جآئتهم السّاعة؟ و الذّكرى هي العبرة و العظة... و في يوم القيامة تكثر العبر و العظات... و تمتلىء القلوب بالنّدامة و الحسرة على ما كان من الإنسان من تفريط في جنب اللّٰه و تقصير في رعاية حقّه... فمن لم يكن مؤمناً قتل نفسه حسرة على أنّه لم يكن من المؤمنين، و من كان مؤمناً ندم على ألاّ يكون على الدّرجة العالية من الايمان، و من كان على الدّرجة العليا ندم على ألاّ يكون من المقرّبين... و لكن لاشيء ينفع في هذا اليوم إلاّ ما كان من عمل في الحياة الدّنيا.

أقول: و على الثّامن أكثر المحقّقين و في معناه أكثر الأقوال الأُخر فتدبّر.

١٩ - (فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّٰه يعلم متقلّبكم و مثواكم)

في قوله تعالى: «فاعلم أنّه لا إله الاّ اللّٰه» أقوال: ١- قيل: تقديره: إذا علمت سعادة المؤمنين في الدّنيا و الآخرة، و شقاوة الكافرين فيهما فاثبت على ما أنت عليه من المعرفة و العلم بالوحدانيّة، فإنّه وحدي المجدي يوم القيامة، و على التّواضع و هضم النّفس باستغفار ذنبك و ذنوب من يؤمن برسالتك.

فالفاء في «فاعلم» للفصيحة أفصحت عن شرط مقدّر، و إنّ الجملة متفرّعة على جميع ما تقدّم في السّورة من ايمان المؤمنين و تكفير سيّئاتهم و إصلاح بالهم، و اتّباعهم الحقّ و نصرهم دين اللّٰه تعالى و دخولهم الجنّة و تنعّمهم من نعيمها، و من كفر الكافرين و نفاق المنافقين و اتّباعهم الباطل، و كراهتهم ما أنزل اللّٰه على رسوله﴿ﷺ﴾ و دخولهم في النّار و عذابهم بها.

٢- قيل: تفريع على ما بيّنه في الآيتين السّابقتين أعني قوله تعالى: «و منهم من يستمع إليك - و آتاهم تقواهم» بأنّ اللّٰه تعالى يطبع على قلوب الكافرين و المنافقين، و يتركهم و ذنوبهم، و يعكس الأمر في المهتدين الّذين اهتدوا إلى توحيده و الايمان به، فكأنّه قيل: إن كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمه بوحدانيّة الإله، و اطلب منه مغفرة ذنبك و مغفرة ذنوب أُمّتك من المؤمنين و المؤمنات بك، حتّى لا تكون ممّن يطبع اللّٰه على قلبه و يحرمه التّقوى بتركه و ذنوبه.

٣- قيل: أي إذا علمت ثواب المتّقين و عقاب الكافرين فاستمسك بما أنت عليه من موجبات الثّواب، و اجتنب عمّا يوجب العقاب، و استكمل حظوظ نفسك و تكميلها بإصلاح أحوالها و أفعالها و هضمها بالاستغفار من ذنبك، و توجّه بالدّعاء و الاستغفار لذنوب امّتك من المؤمنين و المؤمنات تكرمة لهم، و تحريضهم على ما يستدعى غفرانهم. ٤- قيل: أي إذا علمت أنّ مدار الخير و السّعادة و الكمال الإنساني هو

التّوحيد و الطّاعة لله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و أنّ مدار الشّرّ و الشّقاوة و الإنحطاط الإنسانى هو الشّرك و الكفر و النّفاق و المعصية، فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و لا ربّ سواه، فاثبت على ذلك و دُم و استمرّ عليه لأنّه﴿ﷺ﴾ قد كان عالماً بأنّه لا إله إلاّ اللّه قبل هذا.

٥- قيل: أي إنّما علمته نظراً و استدلالاً بأنّه لا إله إلاّ اللّه فاعلمه الآن خبراً يقيناً أنّه لا إله إلاّ اللّه. ٦- قيل: إنّ الخطاب في قوله تعالى: «فاعلم» و «استغفر لذنبك» و إن كان متوجّهاً إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ظاهراً و لكنّ المراد منهما امّته﴿ﷺ﴾ أي فاعلموا أيّها المؤمنون لامعبود بحقّ ينبغى له العبادة إلاّ اللّه المستجمع لجميع الصّفات و الكمالات، و استغفروا لذنوبكم و لذنوب إخوانكم المؤمنين و أخواتكم المؤمنات.

٧- عن الزّجاج: أي فَأَقِمْ أيّها الرّسول ﴿ﷺ﴾ على هذا العلم النّافع و أثبت عليه إلى يوم القيامة، و اعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن. لما روي عن رسول اللّه﴿ﷺ﴾ أنّه قال: «من مات و هو يعلم أنّه لا إله الاّ اللّه دخل الجنّة». قيل: إنّ الثّبات كان حاصلاً لرسول اللّه﴿ﷺ﴾ فأمره اللّه تعالى تذكيراً له﴿ﷺ﴾ بما أنعم اللّه سبحانه عليه توطئة لما بعده، و تعقب بأنّ المراد بالثّبات الاستمرار و هو النّظر إلى الأزمنة الآتية، و ذلك و إن كان ممّا لابدّ من حصوله له﴿ﷺ﴾ لمكان العصمة، و لكنّ المعصوم يؤمر و يُنهىٰ فيأتي بالمأمور و يترك المنهيّ.

٨- قيل: إنّه متعلّق بما قبله على معنى: إذا جآئتهم السّاعة فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه أي يبطل الملك عند ذلك، فلا ملك و لاحكم لأحد إلاّ اللّه. ٩- قيل: إنّ هذا إخبار بموته﴿ﷺ﴾ و المراد فاعلم أنّ الحيّ الّذي لايموت هو اللّه وحده. ١٠- قيل: إنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ كان ضيّق الصّدر من أذى قومه، فقيل له﴿ﷺ﴾: فاعلم أنّه لاكاشف لذلك إلاّ اللّه. ١١- قيل: أي فاذكر لا إله إلاّ اللّه. فعبّر عن الذّكر بالعلم لحدوثه عنه. ١٢- قيل: أي فاعلم أنّ اللّه أعلمك أن لا إله إلاّ اللّه.

١٣- قيل: كان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يضيق صدره من كفر الكافرين و نفاق المنافقين، فنزلت الآية أي فاعلم أنّه لاكاشف يكشف ما بك إلاّ اللّه فلا تعلق قلبك بأحد سواه.

١٤- عن ابن عبّاس: أي فاعلم يا محمّد﴿ﷺ﴾ أنّه لا إله إلاّ اللّٰه لا ضارّ و لانافع و لامانع و لا معطي و لامعزّ و لامذلّ إلاّ اللّٰه. ١٥- قيل: أي فاعلم أنّه ليس شيء، فضله كفضل لا إله إلاّ اللّٰه. ١٦- قيل: إنّ اللّٰه تعالى أمر رسوله﴿ﷺ﴾ بالحكمة النّظريّة و العلم، فقال: «فاعلم» ثمّ أمره بالحكمة العمليّة و العمل، فقال: «واستغفر لذنبك» فأمره﴿ﷺ﴾ بالعمل بعد العلم كما في قوله تعالى: «إعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو» ثمّ قال: «سابقوا إلى مغفرة من ربّكم» الحديد: ٢٠-٢١).

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين من دون تنافٍ بينه و بين أكثر الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و **في قوله سبحانه:** «و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و استغفر يا محمّد﴿ﷺ﴾ لذنبك من ضرب اليهودي زيد بن السّمين. ٢- قيل: إنّ اللّٰه تعالى لمّا ذكر لرسوله﴿ﷺ﴾ أحوال المؤمنين و المتّقين، و أحوال الكافرين و المنافقين في الدّارين، أمره﴿ﷺ﴾ بالثّبات على الايمان و التّقوى أي اثبت على ما أنت عليه من التّوحيد و الإخلاص و الحذر عمّا تحتاج معه إلى الاستغفار. ٣- قيل: إنّ الخطاب و إن كان لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و لكنّ المراد منه امّته﴿ﷺ﴾ فأمره﴿ﷺ﴾ بالاستغفار لذنبه لتستنّ امّته بسنّته ويقتدوا به. و بناءً على هذا توجب الآية الكريمة استغفار المؤمن لجميع المؤمنين و المؤمنات...

٤- قيل: أي استغفر لذنوب أهل بيتك لاذنوب أهل بيت النّبوّة للفرق بين أهل بيت النّبيّ و أهل بيت النّبوّة و هم معصومون و إن كانوا خارجى البيت. ٥- قيل: لمّا كان اشتغال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بأمر النّاس كان يشغله عن التّفرّغ لعبادة اللّٰه تعالى، فكان هذا عنده تقصيراً أو ذنباً من قبيل حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين. ٦- قيل: إنّ ذنب الأنبيآء أن يتركوا ما هو الأولى بمنصبهم الجليل. ٧- قيل: إنّ المراد بذلك الانقطاع إلى اللّٰه تعالى، فإنّ الاستغفار عبادة يستحقّ به الثّواب.

٨- قيل: إنّ قوله: «و استغفر لذنبك» توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين و المؤمنات. ٩- قيل: أى استغفر اللّٰه أن يقع منك ذنب. ١٠- قيل: أي استغفر اللّٰه

ليعصمك من الذّنوب. ١١- قيل: ليس المراد من الذّنب هنا العصيان، بل هو ذَنَب الفعل و تبعاته الصّعبة و عقباه الخطرة في الدّنيا أو الآخرة، و إنّ ذَنْب الآخرة هو العصيان الّذي ذَنَبه العذاب، و ذَنْب الدّنيا هو الدّعوة إلى اللّه الّذي ذنبه دوآئر السّوء من الطّغاة المعارضين للدّعاة، إذ يتربّصون الدّوآئر بأصحاب الدّعوة الإلهيّة هتكاً و فتكاً و طرداً و قتلاً.

و كلّما كانت الدّعوة أثقل فذنبها التّبعة أعضل، فالاستغفار عنه أشكل: أن يطلب الغفر و السّتر عمّا يعرقل الدّعوة أو يفتك بالدّاعية كما غفر اللّه ذنب محمّد رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بما فتح مكّة: ان حسم مواد الشّرك و الضّلالة، فانحسمت عنه عرقلات الدّعوة... فلكلّ نبيّ و رسول أو صاحب دعوة إلهيّة تبعة عبر الدّعوة هي ذنبه لمعارضيه، كما كان لآل فرعون على موسى﴿عليه السلام﴾: «و لهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون» الشّعراء: ١٤).

و ما ذنبه﴿عليه السلام﴾ لهم إلاّ قتله القبطيّ المتجاوز المقاتل للإسرائيليّ و لايحرم وكز الكافر المتجاوز المقاتل دفاعاً عن المؤمن المظلوم: «فوكزه موسى فقضى عليه» القصص: ١٥) أن صادف قتله.

فالذّنب منه طاعة، و منه معصية، ففريق في الجنّة و فريق في السّعير دون ما يزعمه الكفّار و المنافقون الّذين يتشبّثون بآيات الذّنب كهذه فيهتكون حرمات الأنبيآء والمرسلين: أنّهم عاصون، و لا ما يخيل إلى سواهم زعم العصيان، فيأخذون في تأويلاتهم و توجيهاتهم يمنة و يسرة، بكلّ تعسّف و عسرة، و لكى يذودوا عن ساحة الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ ما القرآن الكريم ينسبه إليه من عصيان.

فعبثاً يحاول هؤلآء و هؤلآء تفسير الذّنب أو تأويله إلاّ أن يثوبوا إلى ما يعنيه في الأصل فيتوب الكافرون، و يعلم المؤمنون أنّه بالنسبة إلى الأنبياء و المرسلين و الدّعاة والمصلحين في كلّ ظرف من الظّروف من أعظم الطّاعات، فالرّسالة ذنب، و الدّعوة إلى اللّه تعالى ذنب، و الجهاد في سبيل اللّه ذنب ... فإنّها تخلّف دوآئر السّوء، و أذناب العراقيل ممّن يعارضون دين اللّه تعالى، فأصحاب الدّعوة هم بحاجة إلى الاستغفار من ذنوبهم... بأن يطلبوا غفراللّه تعالى و ستره على ما تستقبل دعواتهم من أخطار، تحسم

أُصول الدّعوة، و تحطم الدّاعية أن يستغفروا اللّٰه بعد أن يعلموا أن لا إله إلاّ اللّٰه: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه و استغفر لذنبك».

أقول: و الحادية عشر مستفاد من الرّوايات و الأدعية و الأذكار سيأتي بحثها تحقيقاً و تفصيلا في تفسير سورة «النّصر» إن شآء اللّٰه تعالى فانتظر.

و في **قوله جلّ وعلا:** «و اللّٰه يعلم متقلّبكم و مثواكم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و الضّحّاك: أي متصرّفكم في أعمالكم في الدّنيا، و مأواكم و مصيركم في الآخرة إلى الجنّة أو إلى النّار و المراد بالمتقلّب: التّصرّف في الحياة الدّنيا، و بالمثوى: الاستقرار في الدّار الآخرة. و إنّ الخطاب للمؤمنين و المؤمنات.

و قد خصّ المتقلّب بالدّنيا و المثوى بالآخرة لأنّ كلّ أحد متحرّك في الدّنيا دائماً نحوه معاده غير قارّ، و في الآخرة مقيم لاحركة له نحو دار ورآئها ... و المراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزآئه و عقابه أو ترغيبهم في امتثال ما يأمرهم اللّٰه تعالى به، و ترهيبهم عمّا ينهاهم عنه على طريق الكناية.

٢- قيل: أي و اللّٰه يعلم أحوالكم و متصرّفاتكم و متقلّبكم في معايشكم و متاجركم و مثواكم حيث تستقرّون من منازلكم... المتقلّب: ما يتقلّب فيه الإنسان من شئون الحياة، و المراد به الحركة، و المثوى: المأوى الّذي يثوي إليه الإنسان و يسكن إليه و المراد به السّكون. و المعنى: و اللّٰه يعلم كلّ أحوالكم من متغيّر و ثابت، و من حركة و سكون، فاثبتوا على توحيده و طاعته، و اطلبوا مغفرته و رضوانه، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم بسبب اتّباعكم أهواءكم و اتّباع الباطل.

٣- عن عكرمة: المتقلّب هو التقلّب من الأصلاب إلى الأرحام، و المثوى هو السّكون في الأرض.

و المعنى: و اللّٰه يعلم متقلّبكم في أصلاب الآبآء إلى أرحام الأُمّهات، و مقامكم في الأرض.

٤- قيل: المتقلّب: التّصرّف في اليقظة، و المثوى: المنام أي السّكون فيه.

٥- قيل: التّقلّب: التّصرّف في المعايش و المكاسب، و المثوى: الاستقرار في المنازل.

والمعنى: و اللّٰه يعلم تصرّفكم في معايشكم و متاجركم و مكاسبكم، ويعلم مثواكم حيث تستقرّون في منازلكم.

٦- قيل: أي و اللّٰه يعلم تقلّبكم و انتقالاتكم من عالم الذّرّ إلى عالَم الجماد و النّبات و الحيوان و الإنسان و الحياة الدّنيا مراحلكم فيها من الولادة إلى الموت، و عالَم البرزخ و البعث والحساب إلى استقراركم إمّا في الجنّة و إمّا في النّار.

٧- قيل: أي و اللّٰه يعلم تقلّبكم و انتقالاتكم من أوّل استقرار نطفكم في الأرحام إلى آخر الدّنيا، و هكذا من أوّل البرزخ إلى البعث و الحساب و الجزاء. ٨- قيل: أي واللّٰه يعلم محالّ تقلّبكم من مراحل الدّنيا و البرازخ و مراتب الآخرة الّتي هي كثيرة بحسب اختلاف النّاس و درجاتهم بحسب مراتب الايمان و الأعمال...

٩- قيل: أي و اللّٰه يعلم تصرّفكم في نهاركم، و مستقرّكم في ليلكم فاتّقوه واستغفروه، فهو جدير أن يتّقى و يخشى و أن يستغفر ويسترحم. و الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «و هو الّذي يتوفّاكم باللّيل و يعلم ما جرحتم بالنّهار» الأنعام: ٦٠) و قوله: «و ما من دابّة في الأرض إلاّ على اللّٰه رزقها و يعلم مستقرّها و مستودعها كلّ في كتاب مبين» هود: ٦).

١٠- قيل أي و اللّٰه يعلم الموضع الّذي تتقلّبون فيه، و كيف تتقلّبون و موضع استقراركم إذ لايخفى عليه شئ من أعمالكم طاعة كانت أو معصية. ١١- قيل:أي واللّٰه يعلم متقلّبكم في أسفاركم و منتشركم في أكناف الأرض و مثواكم في أوطانكم. ١٢-قيل: أي و اللّٰه يعلم متقلّبكم في أعمالكم و مثواكم في نومكم. ١٣- قيل: أي واللّٰه يعلم متقلّبكم في الدّنيا فلها مراحل لابدّ من قطعها، و مثواكم في العقبى، فإنّها دار إقامتكم. ١٤- عن ابن كيسان: واللّٰه يعلم متقلّبكم من ظهر الأرض إلى بطنها و مثواكم في القبور. و الخطاب للكافرين و المنافقين.

١٥- قيل: أي واللّٰه يعلم متقلّبكم و متصرّفكم لأشغالكم في النّهار، و مضجعكم باللّيل. و المعنى: أنّه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها فاحذروه. ١٦- عن ابن جريج: أي و اللّٰه يعلم متقلّب كلّ دابة باللّيل و مثواى كلّ دابّة بالنّهار. ١٧- قيل:

أي و اللّٰه يعلم أعمالكم في تصرّفكم و إقامتكم. ١٨- عن ابن عبّاس أيضاً: أي و اللّٰه يعلم ذهابكم و مجيئكم و أعمالكم في الدّنيا، و مصيركم و منزلكم في الآخرة، و الخطاب لكفّار مكّة.

١٩- قيل: أي و اللّٰه يعلم كلّ متقلّبكم أيّها النّاس و كلّ إقامتكم في الحياة الدّنيا و في الآخرة.

و ذلك أنّ المتقلّب مصدر ميميّ يأتي لثلاثة معانٍ: التّقلّب و هو الانتقال من حال إلى حال، و زمان الانتقال و مكانه كما أنّ المثوى مصدر ميميّ يأتى لثلاثة معانٍ: الاستقرار، و زمان الاستقرار و مكانه:

من متقلّب الإنسان من عالَم العدم إلى عالَم الوجود روحاً، و من عالَم الأرواح و الذّرّ إلى نشأة المادّة ثمّ إلى عالَم النّطفة و من عالَم الأصلاب و التّرآئب إلى الأرحام، و منها إلى الحياة الثّانية الدّنيا، و فيها من الصّباوة إلى الشّباب و البلوغ و الكمال و الكهولة حتّى الموت، و فيها من اليقظة إلى النّوم، و في اليقظة من حركات النّصب: المعايش و المتاجر والمكاسب و المتاعب و الأسفار إلى مثاوى الاستقرار في المنازل...

ثمّ من متقلّبه من الحياة الدّنيا إلى البرزخ بمتقلّباته و مثاويه، ثمّ من البرزخ إلى الدّار الآخرة: المثوى الّتي لامثوى بعدها بما فيها من متقلّبات الحساب سهلة و صعبة إلى مثاوي الجزاء: إمّا الجنّة و نعيمها، و إمّا النّار و عذابها...

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً ولاتغفل.

٢٠-(و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذُكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم)

في قوله تعالى: «و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و يقول الّذين آمنوا بمحمّد﴿ﷺ﴾ و القرآن، و هم المخلصون: هلاّ نزّلت جبرئيل بسورة، و هم كانوا يتمنّون ذلك من اشتياقهم إلى ذكر اللّٰه و طاعته.

فالجملة حكاية عن المؤمنين المخلصين الصّادقين حيث كانوا يأنسون بنزول القرآن الكريم و يستوحشون إذا أبطأ، فيقولون: هلاّ نزّلت سورة مطلقة - من دون قيد على حكم خاصّ من القتال أو غيره ليعلموا أوامر اللّه تعالى فيهم و تعبّده لهم، فيشتاقون إلى كتاب اللّه تعالى و إلى بيان ما ينزل عليهم فيه.

٢- قيل: أي و يقول المنافقون الّذين كانوا متظاهرين بالايمان، و يدّعون الحرص على الجهاد و يقولون بألسنتهم و أفواههم ما ليس في قلوبهم: لولا نزّلت سورة في باب القتال لنجاهد مع الكفّار و المشركين... ٣- قيل: و يقول الّذين أخلصوا دينهم للّه تعالى و هم المؤمنون الصّادقون، يقولون طلباً للجهاد، و يتمنّون الشّهادة في إعلآء كلمة اللّه و إحقاق الحقّ، و إبطال كلمة الكفر و الباطل: لولا نزّلت سورة قرآنيّة في أمر القتال لنجاهد في سبيل اللّه، فالمؤمنون حقًّا يتمنّون الجهاد في سبيل اللّه ليفتدوا الاسلام بالمهج و الأرواح...

٤- قيل: أي و يقول المؤمنون الصّادقون الّذين أخلصوا في ايمانهم - حرصاً على الجهاد لما فيه من الثّواب الجزيل و الأجر الجميل -: هلاّ نزّلت سورة يؤمر فيها بالجهاد، وقد عرا اللّه تعالى المنافقين ما عراهم عند نزول أمرالمؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم. ٥- قيل: عن ابن مالك: أنّ «لا» زائدة و التّقدير: لو انزلت سورة.

أقول: و على الثّالث أكثر المحقّقين من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتدبّر.

و في **قوله سبحانه:** «فإذا انزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال» أقوال: ١- قيل: أي فإذا أُنزلت سورة مبيّنة غير متشابهة لاتحتمل النّسخ، و لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، و ذكر فيها القتال بطريق الأمر به.

و عن قتاده: كلّ سورة ذكر فيها القتال، فهي محكمة، و هي أشدّ القرآن على المنافقين، و ذكر فيها القتال أي فرض فيها القتال. ٢- قيل: أي فإذا أُنزلت سورة محكمة بالبيان و الفرآئض و ذكر فيها أمر القتال. ٣- قيل: أي فإذا انزلت سورة غير منسوخة الأحكام، بنآءً على أنّ آيات القتال غير منسوخة، و حكمها باق إلى يوم القيامة.

٤- قيل: أى سورة ناسخة لما قبلها من إباحة التّخفيف في الجهاد. ٥- قيل: أي سورة مقرونة بوعيد يؤكّد الأمر كقوله تعالى: «إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً» التّوبة: ٣٩).
٦- قيل: أي سورة محكمة بوضوح ألفاظها. ٧- قيل:أى سورة تتضمّن نصًّا لم يختلف تأويله و لم يتعقّبه نصّ. ٨- عن ابن عبّاس: أي فإذا أُنزلت جبرئيل سورة مبيّنة بالحلال و الحرام و الأمر و النّهي و أمر فيها بالقتال ٩- قيل: أي فإذا انزلت سورة واضحة و ذكر فيها القتال: ١٠- قيل: أي فإذا أُنزلت سورة محكمة لاتشابه فيها و لاتأويل، و أوجب عليهم فيها القتال و أُمروا به.

أقول: و المعاني متقاربة من دون تنافٍ بينها.

و في قوله عزّوجلّ: «رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت» أقوال: ١- قيل: أي رأيت المنافقين بعد نزول سورة تأمرهم بالقتال ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت انهارت أعصابهم، و ذلك أنّ المنافقين لمّا انزلت سورة ذكر فيها القتال كانوا ينظرون إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ نظرة الحنق و الهلع لخوفهم من القتال و كراهتهم فيرونه كالموت. و هم غير داخلين في صلة الموصول: «آمنوا».

٢- قيل: أي رأيت الّذين في قلوبهم شكّ يشخصون نحوك بأبصارهم نظر المغشيّ عليه من الموت كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت جبناً و هلعاً. ٣- قيل: أي رأيت الّذين في قلوبهم نفاق ينظرون نحوك عند ذكر القتال كمن هو في غشيان الموت من كراهيّة قتالهم مع العدوّ.

٤- قيل: إنّ المراد بالّذين في قلوبهم مرض، الضّعفآء الايمان من المؤمنين دون المنافقين، بنآءً على أنّ الّذين أظهروا الرّغبة في نزول سورة هم الّذين آمنوا، و «الّذين آمنوا» لايعمّ المنافقين إلاّ على طريق المساهلة، غير اللاّئقة بكلام اللّه تعالى. فالمعنى: و يقول الّذين آمنوا: هلاّ نزّلت سورة، فإذا انزلت سورة محكمة لاتشابه فيها، و أُمروا فيها بالقتال و الجهاد رأيت الضّعفآء الايمان منهم ينظرون إليك من شدّة الخشية نظر المحتضر.

٥- قيل: أي رأيت الّذين في قلوبهم مرض الخوف و التّخاذل ينظرون إليك نظر مغموصين مغتاظين بتحديد و تحديق كمن يشخص بصره عند الموت، و ذلك لجبنهم

عن النّضال و القتال جزعاً و هلعاً و لميلهم في السّرّ إلى الكفّار. ٦- عن الزّجّاج: إنّهم يشخصون نحوك بأبصارهم و ينظرون إليك نظراً شديداً كما ينظر الشّاخص ببصره عند الموت لثقل ذلك عليهم و عظمه في نفوسهم.

٧- قيل: أي رأيت الّذين في قلوبهم شكّ في دين اللّه و ضعف ينظرون إليك يا محمّد نظر المغشيّ عليه من الموت خوفاً أن تغريهم و تأمرهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفاً من ذلك و تجبّناً عن لقاء العدوّ ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه الّذي قد صرع. ٨- عن ابن زيد: أي هؤلآء المنافقون طبع اللّه على قلوبهم، فلايفقهون ما يقوله النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كانوا ينظرون إلى رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ نظر المغشيّ عليه من الموت أي نظر المحتضر الّذي لايطرف بصره، والمراد تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً.

٩- قيل: كانوا يفعلون ذلك من شدّة العداوة لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين. ١٠- قيل: كانوا يفعلون ذلك من خشية الفضيحة، فإنّهم إن تخلّفوا عن القتال إفتضحوا و بان نفاقهم.

١١- قيل: هم متظاهرون بالايمان، و كانوا يدّعون الحرص على الجهاد، و يتمنّونه بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، و يقولون: لولا نزّلت سورة في أمر القتال لنجاهد في سبيل اللّه، فإذا انزلت سورة واضحة أُمروا فيها بما تمنّوا و حرصوا عليه كاعوا و شقّ عليهم وسقط في أيديهم... كما قال اللّه تعالى فيهم: «يا أيّها الّذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللّه إثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة إلاّ قليل - لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلّبوا لك الامور حتّى جآء الحقّ و ظهر أمر اللّه و هم كارهون» التّوبة: ٣٨-٤٨).

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق، و ذلك أنّ المؤمنين المخلصين كانوا يقولون: «لولا نزّلت سورة» تشوّقاً إلى الوحي السّماويّ، و استيحاشاً لإبطائه، و أمّا المنافقون فلايقولون ذلك كراهة لما أنزل اللّه تعالى، و إذا انزلت سورة تصرح بوجوب القتال عليهم كانوا ينظرون إلى رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ نظر المحتضر، و لايلزم ذلك أن يكون المنافقون في زمرة المؤمنين الصّادقين كما زعمه بعضهم.

و في قوله جلّ وعلا: «فأولى لهم» أقوال: ١- قيل: «أولى» أفعل من الوليّ و هو

القرب، و معناه و ليّهم و قاربهم ما يكرهون. «فاولى لهم» وعيد و تهديد، معناه فويل لهم و المراد، الدّعاء عليهم بأن يليهم المكروه و يقرب منهم لكراهتهم لنزول السّورة في القتال. ٢- عن ابن عبّاس: أي فعذاب اللّٰه لهم. هذا وعيد لهؤلآء المنافقين توعّدهم اللّٰه به. - عن قتادة: أي العقاب أولى أي أحقّ و أحرى لهم. و هو ما يقتضيه قبح أحوالهم. و «اولى» اسم للتّهديد و الوعيد.

٤- قيل: إنّ الآية التّالية متّصلة بما قبلها، و اللّام في «لهم» بمعنى الباء أي الطّاعة أولى و أليق بهم و أحقّ لهم من ترك امتثال أمراللّٰه تعالى. فالمعنى: طاعة و قول معروف أولى من الجزع عند الجهاد، فلا يكون للوعيد و التّنديد. ٥- قيل: هذا دعآء سوء كأنّه قيل: هلاكاً أولى لهم بمعنى أهلكهم اللّٰه تعالى هلاكاً أقرب لهم من كلّ شّر و هلاك. أي يرجع أمرهم إلى الهلاك. فهو نحو قولهم في الدّعاء: بُعداً له وسُحْقاً. ٦- قيل: معناه: أولاهم اللّٰه ما يكرهون. ٧- قيل: «أولى» كلمة تحذير أي وليّك شرّ فاحذره.

٨- قيل: أي أدنى اللّٰه سبحانه الهلاك لهم. ٩- قيل: «اولى» إسم فعل. و المعنى: و ليّهم شرّ بعد شرّ. ١٠- قيل: أي حريّ بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا. ١١- قيل: فأولى لهم أن يرجعوا إلى اللّٰه و يتحوّلوا عمّاهم عليه، و أن يتبدّلوا بحالهم حالاً أحسن و أجمل كحال المؤمنين المخلصين. ١٢- قيل: أي فأولى لهم أن يتلّقوا آيات اللّٰه سبحانه بالحفاوة و التكريم و الولآء. ١٣- قيل: أي فويل - وادٍ في جهنّم - أولى لهم.

١٤- قيل: أي فأولى للمنافقين نفاقهم هذا من وفاقهم، و كأنّهم خلقوا للنّفاق، فلا يرجى منهم أيّ وفاق: و «أولى لهم» من هذه الفضيحة العار، و من هذا الخور البوار «طاعة و قول معروف»! أن يتركوا النّفاق إلى الوفاق كما لأبي جهل في كفره: «أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى» القيامة: ٣٤-٣٥) أن يترك الكفر إلى الايمان، أم يبقى على كفره كأنّه خلق للنّار!.

١٥- قيل: أي أولى لهم طاعة اللّٰه تعالى و رسوله(صلى الله عليه و آله) و قول معروف بالإجابة أي لوأطاعوا فأجابوا كانت الطّاعة و الإجابة أولى لهم. ١٦- قيل: أي الموت أولى لهم من حياتهم، إذ ليست حياتهم في طاعة اللّٰه سبحانه بل تكون في معصيته جلّ وعلا، فالموت خير منها.

أقول: و على الخامس أكثر المفسّرين، من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

٢١- (طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلوصدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم)

في قوله تعالى: «طاعة و قول معروف» أقوال: ١- قيل: أي فأولى بهم طاعة و قول معروف دون غيرهما. أي كان الأولى بهم و الأفضل أن يعلنوا السّمع و الطّاعة و يظهروا الاستعداد لاستجابة أمر اللّٰه تعالى بالقول الحسن، ثمّ يصدقوا اللّٰه إذا ما جآء وقت التّنفيذ و العزيمة و ندبوا إلى القتال.

٢- قيل: أي الأولى بالمؤمنين هو الطّاعة المطلقة لماتدعو إليه آيات اللّٰه تعالى و هو القول الحسن الّذي يلقى المؤمنون به ما يتنزّل عليه من تلك الآيات - فهذا عمل باللّسان ... يكشف به لنؤمن عن ظاهره ... فإذا جآء وقت الابتلاء و الاختبار استكمل المؤمن ايمانه بأن يجعل هذا الكلام الّذي نطق به اللّسان، و كشف به عن ظاهر حسن له -أن يجعل هذا الكلام عملاً واقعاً، و أن يصدّق فِعْلُهُ قَوْلَه، فإنّ قولاً لايصدّقه الفعل هو باب من أبواب النّفاق.

٣- قيل: «طاعة» خبر لمبتداء محذوف أي أمرنا أو أمرهم و شأنهم أي ايمانهم بنا طاعة واثقونا عليها، و قول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السّمع و الطّاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: «آمن الرّسول بما أُنزل إليه من ربّه و المؤمنون - و قالوا سمعنا وأطعنا» البقرة: ٢٨٥).

و بنآءً على هذا فقوله تعالى: «فإذا عزم الأمر...» متّصل بما قبله، و المعنى: أنّ الأمر هو ما واثقوا اللّٰه تعالى عليه من قولهم: «سمعنا و أطعنا» فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا اللّٰه فيما قالوا و أطاعوه فيما يأمر به، و منه أمر القتال لكان خيراً لهم.

فهذا حكاية عنهم: أنّهم يقولون: «طاعة و قول معروف» مثل فرض الجهاد لأنّه يقتضيه قوله: «فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم».

٤-عن مجاهد: أي قولوا: أمرنا طاعة و قول معروف أي حسن لاينكره سامع عاقل.

فهذا أمر، أمرالله تعالى به المنافقين. ٥- قيل: «طاعة» خبر لضمير محذوف، عائد إلى القتال المذكور.

تقديره: القتال المذكور في السّورة طاعة منهم، و قول معروف، فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا الله في ايمانهم و أطاعوه به لكان خيراً لهم، أمّا كونه طاعة منهم فظاهر، و أمّا كونه قولاً معروفاً فلأنّ ايجاب القتال و الأمر بالدّفاع عن المجتمع الصّالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل السّليم و العقلآء...

٦- قيل: «طاعة» مبتداء، و «فأولى لهم» خبره. عن مجاهد أيضاً و سيبويه والخليل: «طاعة» خبر لمبتداء محذوف، تقديره: طاعة و قول معروف خير لهم و أمثل و أولى بالحقّ من أقوال هؤلآء المنافقين و أحوالهم... ٧- قيل: «طاعة» صفة لسورة في قوله: «فإذا أُنزلت سورة» و المراد: ذات طاعة أو مطاعة. ٨- قيل: أي طاعة و قول حسن لك. ٩- قيل: أي طاعة الله و قول معروف أمثل لهم و أحسن ممّا هم فيه من الهلع و الجزع و الخوف من لقآء العدوّ، فمتاع الحياة الدّنيا، متاع قليل، و ظلّ زآئل، و الآخرة خير لمن اتّقى و أبقى.

١٠- عن الحسن: أي طاعة و قول معروف أو ما عرف صحّته خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد، و الطّاعة موافقه الارادة الدّاعية إلى الفعل بطريق التّرغيب فيه، و القول المعروف هو القول الحسن، و سمّي بذلك لأنّه معروف صحّته، و كذلك الأمر بالمعروف أي المعروف أنّه حقّ، و الباطل منكر لأنّه تنكر صحّته، فعلى هذا المعنى وقع الإعتراف و الإنكار.

١١- قيل: إنّ ضمير «لهم» راجع إلى فريقين من المؤمنين: الصّادقين و ضعفآء الايمان، و المعنيين بقوله سبحانه: «و يقول الّذين آمنوا» و إلى الكفّار و المنافقين، ف«اولى» مبتداء و «لهم» متعلق ب«اولى» و «طاعة» خبره. فالمعنى: أولى لهم طاعة الله تعالى إذا أُنزلت سورة تفرض عليهم القتال أو غيره، و قول معروف صادق: ترجّياً لنزول سورة القتال صادقين كسآئر المؤمنين، أم قولاً صادقاً سواه إذ ليسوا من أنفسهم آمنين أن يثبتوا على هذه المقالة «فأولى لهم طاعة و قول معروف»: كما أولى للمؤمنين

المخلصين، ايمانهم في قولهم: «لولا نزّلت سورة» فلمّا نزّلت صدقوا اللّه: فأولى لفريقي المؤمنين، و قسمى الكافرين: «طاعة و قول معروف» من الفضيحة العار، لكلّ حسب شأنه المؤمن أو الشّائن.

۱۲- قيل: أي طاعة اللّه تعالى و قول يقبله الرّسول﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ خير من النّفاق والرّوغان. ۱۳- قيل: أي الأمر المرضيّ للّه تعالى طاعة. ١٤- قيل: أي أمرهم طاعة معروفة، و قول معلوم حاله أنّه خديعة. ١٥- قيل: أي فأولى بهم من النّظر إليك نظر المغشيّ عليه من الموت طاعة و قول معروف، و عليه لايكون «فأولى لهم» كلاماً مستقلاً، و لايوقف على «لهم». ١٦- عن مجاهد أيضاً و ابن عبّاس: إنّ اللّه تعالى لمّا قال في المنافقين: «فأولى» قال للمؤمنين: «لهم طاعة و قول معروف» فتمام الوعيد: «فأولى» ثمّ استأنف، فقال: «لهم طاعة و قول معروف» فتكون «طاعة» مبتداء، و «لهم» خبره. فيوقف على «فأولى». و المعنى: لهم طاعة و قول معروف قبل وجوب الفرآئض عليهم فإذا أُنزلت الفرائض شقّ عليهم نزولها.

١٧- قيل: «طاعة و قول معروف» خبر من اللّه تعالى عن قيل هؤلآء المنافقين من قبل أن تنزّل سورة محكمة يذكر فيها القتال، و أنّهم إذا قيل لهم: إنّ اللّه تعالى فرض عليكم الجهاد في سبيل اللّه قالوا: سمع و طاعة، فقال اللّه عزّوجلّ لهم - إذا أُنزلت سورة و فرض فيها القتال عليهم فشقّ ذلك عليهم و كرهوه- : طاعة و قول معروف قبل وجوب الفرض عليكم، فإذا عزم الأمر كرهتموه و شقّ عليكم. و «طاعة و قول معروف» مرفوع بمضمر و هو قولكم قبل نزول فرض القتال: طاعة و قول معروف.

١٨- قيل: أى الطّاعة أولى و أليق بهم و أحقّ لهم من ترك امتثال أمراللّه تعالى. ١٩- عن ابن عبّاس أيضاً: هذا من المؤمنين طاعة للّه و لرسوله﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ و كلام حسن. ٢٠- قيل: طاعة المنافقين للّه و لرسوله﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ و قول معروف: كلام حسن لمحمّد﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ خير لهم من المعصية و المخالفة و الكراهية. ٢١- قيل: أي أطيعوا اللّه طاعة كاملة، و قولوا قولاً معروفاً لمحمّد﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾.

أقول: و على السّابع عشر أكثر المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأُخر مع تداخل بعضها في بعض، فتدبّر جيّداً.

و في قوله سبحانه: «فإذا عزم الأمر فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم» أقوال: ١-عن ابن عبّاس: أي فإذا جدّ الأمر وظهر الإسلام و كثر المسلمون، فلو صدق المنافقون بايمانهم و جهادهم لكان خيراً لهم من المعصية. ٢- قيل: أي فإذا عزم أصحاب الأمر، فلو صدقوا اللّٰه في الجهاد و الايمان لكان خيراً لهم من المعصية و المخالفة. ٣- عن قتادة: أي فإذا عزم طواعية اللّٰه و رسوله(ﷺ) و قول معروف عند حقائق الامور خير لهم.

٤- قيل: أي فإذا جآء وقت الابتلاء و هو الجهاد الّذي أمر اللّٰه تعالى به المؤمنين أصبح هذا الأمر عزيمة لايجوز للمؤمنين أن يترحّض فيها أو ينكل عنها، و هذا ما يشير إليه قوله تعالى: «فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم» أي فإذا أوان الجهاد في سبيل اللّٰه و القتال مع أعدائه انكشفت على محكّه حقيقة الايمان، و ظهر الصّادقون و الكاذبون للنّاس، فلو أنّ هؤلآء المؤمنين صدقوا اللّٰه فيما اعطوا من إقرار بالايمان به، و جاهدوا في سبيله - لو أنّهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم.

٥- قيل: أي إذا انعقد الأمر بالإرادة: أنّه يفعله فإذا عقد على أنّه يفعل و العزم هوالعقد على الأمر بالإرادة لأن يفعله، فإذا عقد العازم العزم على أن يفعله. ٦- عن مجاهد و الحسن: أي فإذا جدّ الأمر أوجدّ اولو الأمر و لزم فرض القتال، و صار الأمر معزوماً عليه، فلو صدقوا اللّٰه تعالى فيما أمرهم به من القتال و امتثلوا أمره لكان خيراً لهم لأنّهم كانوا يصلون بذلك إلى نعيم الأبد. ٧- قيل: أي فإذا عزم الأمر على طريق البلاغة. ٨- قيل: أي فلو صدقوا اللّٰه فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو في ايمانهم بأن يواطىء فيه قلوبهم ألسنتهم لكان الصّدق خيراً لهم من نفاقهم.

٩- قيل: أي فإذا حضر وقت الحرب و القتال كرهوه، و تخلّفوا عنه خوفاً و فَرَقاً، ولوصدقوا في ايمانهم و اتّباعهم للرّسول(ﷺ) و أخلصوا النّيّة في القتال لكان خيراً لهم عند ربّهم إذا ينالون به الثّواب و الزّلفى عنده و يعطيهم ما تقرّبه أعينهم و يدخلهم جنّات النّعيم. ١٠- قيل: أي فإذا عزم الأمر نكلوا و كذبوا فيما وعدوا من أنفسهم، فلو صدقوا اللّٰه تعالى فيما أمرهم به من الجهاد و امتثلوا أمره لكان خيراً لهم في دينهم و دنياهم من نفاقهم و شقاقهم.

۱۱- قيل: أي فإذا فرض القتال، فلو صدقوا اللّٰه في الايمان باللّٰه تعالى و رسوله(ﷺ) و الطّاعة للّٰه سبحانه و رسوله(ﷺ). ۱۲- قيل: أي فإذا دنا وقت الجهاد في سبيل اللّٰه، خالف المنافقون، و ناقضوا و تعاصوا و كذبوا فيما وعدوا به، فلو صدقوا اللّٰه لكان الصّدق خيراً لهم. ۱۳- قيل: أي فإذا عزم على الجهاد فلو أنّ المنافقين تابوا إلى اللّٰه تعالى و استجابوا لدعوة الجهاد بإخلاص لكان خيراً لهم دنياً و آخرة.
۱٤- عن قتادة: أي فإذا عزم الأمر كرهوا فلوصدقوا اللّٰه ما وعدوه قبل نزول السّورة بالقتال، بقولهم إذ قيل لهم: إنّ اللّٰه سيأمركم بالقتال: طاعة، فوفوا له بذلك لكان خيراً لهم في عاجل دنياهم و آجل معادهم.

۱٥- قيل: أي فإذا عزم أمر القتال كواقع مفروض، بعد أن أُنزلت سورة القتال دون ترجّيهم كذباً وزوراً أو غروراً، فهناك الامتحان الامتهان لمن لم يصدق في مقاله: «لولا نزّلت سورة» و الامتحان النّاجح لمن صدقوا اللّٰه: «فلو صدقوا اللّٰه» بخوضهم المعركة بعد إذ عزم أمر القتال «لكان خيراً لهم» من خوض التّرجّي الخوآء في القتال، فعند الامتحان يكرم الرّجل أويهان، و في تقلّب الأحوال علم جواهر الرّجال... و عزم الأمر هو توطين النّفس عليه لانفس الأمر، و نسب إليه للمبالغة في العزم على الأمر كأنّ الأمر هو العازم في نفسه.

أقول: و على الرّابع عشر أكثر المفسّرين، و في معناه أكثر الأقوال الاخر فتأمّل جيّداً.

۲۲- (فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم)

في قوله تعالى: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض...» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي فلعلّكم يا معشر المنافقين تتمنّون إن تولّيتم أمر هذه الأُمّة بعد النّبيّ(ﷺ) أن تفسدوا في الارض بالهتك و القتل و المعاصي و البغى و الفساد، و تقطّعوا أرحامكم بإظهار الكفر. قيل: إنّ المراد من هؤلاء المنافقين هم بنو أُميّة و بنو العبّاس، و المراد بالأرحام بنو هاشم، و إنّ هؤلآء المنافقين لمّا ولّوا أمر هذه الأُمّة أفسدوا في الأرض ما لم

يفسد غير هم فيها من غصب الخلافة و هتك حرمات أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السّلام و منعهم من الإرث و الخمس و غصب فدك و من قتلهم و قتل شيعتهم، و من الكفر و النّفاق و البغى و الفساد و من تقطيع الأرحام ... لاينكر ذلك إلاّ من كان خبيث الولادة و أتباع هؤلآء الفجرة...

٢- عن قتادة: أي كيف رأيتم القوم حين تولّوا و أعرضوا عن كتاب اللّه ألم يسفكوا الدّم الحرام و قطعوا الأرحام و عصوا الرّحمن، و قد فعلوا ما لم يفعله غيرهم...

قيل: هم قريش. و قيل: هم بنو أُميّة إذ قتلوا بني هاشم و قتل بعضهم بعضاً.

٣- قيل: أى فهل يتوقّع منكم أنتم على ذلك النّفاق و الذّبذبة و الضّلال و الوسوسة إن تولّيتم امور النّاس و تآمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم بأنّكم صممتم على ذلك فإنّ أحوالكم تشهد على ذلك. ٤- عن بكر بن عبداللّه المزني: إنّ الآية نزلت في الحروريّة و الخوارج الّذين كانوا يفسدون في الأرض و يقطّعون الأرحام... ٥- عن أبي العالية: أي فهل عسيتم إن تولّيتم الحكم، فجُعِلْتُم حكّاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشا و الجور في الحكم، و قطعتم أرحام بعضكم. و الخطاب للّذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل اللّه تعالى.

٦- عن الكلبي: أي فهل عسيتم إن تسلّطتم أمر الأُمّة و ملّكتم القيادة إلاّ أن تفسدوا في الأرض بالبغي و الظّلم. و هذا هودأب الأشرار إذا حكموا، يملأون الدّنيا بغياً و فساداً و أهوالاً شداداً، و تاريخ البشريّة أصدق شاهد على ذلك. ٧- عن ابن جريج: أي فهل عسيتم إن تولّيتم عن الطّاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي و قطع الأرحام... ٨- عن كعب: أي فهل عسيتم إن تولّيتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضاً. ٩- قيل: أي فلعلّكم إن أعرضتم عن سماع القرآن و العمل به، و فارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليّتكم.

١٠- قيل: أى فهل عسيتم إن وليتكم ولاة الجور و حكّام الزّور خرجتم معهم في الفتنة و حاربتم أهل الحقّ، و ساعدتم مستكبرين في الإفساد، و أن تقطّعوا أرحامكم بالبغي و الظّلم و القتل. ١١- أي هل يتوقّع منكم و ينتظر أيّها المنافقون إن أعرضتم عن

الدّين أوتولّيتم امور النّاس و تأمّرتم عليهم، تناحراً على الولاية، و تكالباً على جيفة الدّنيا و تجاذباً لها أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي و الافتراق بعد الاجتماع على الإسلام، و تقطّعوا أرحامكم بالقتل و العقوق و وأد البنات و سآئر ما كنتم عليه في الجاهليّة من أنواع الإفساد، و في سلوك طريقة الاستخبار المسمّى في غير القرآن بتجاهل العارف إمالة لهم إلى طريق الإنصاف، و حثّ لهم على التدبّر و ترك العصبيّة و الجدال...

فقد كانوا يقولون: كيف يأمرنا رسول الله﴿ﷺ﴾ بالقتال، و القتال إفناء لذوي أرحامنا و أقاربنا، فعرض الله تعالى بأنّهم إن ولّوا امور النّاس أو أعرضوا عن هذا الدّين لم يصدر عنهم إلاّ القتل و النّصب و سآئر أبواب المفاسد كعادة أهل الجاهليّة من الفساد في الأرض بالمعصية و هتك الحرمات و البغي و سفك الدّمآء و ترجعوا إلى الفرقة و الشّقاق بعد ما جمعكم الله تعالى بهذا الدّين و ألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ...

١٢- قيل: أي فهل تتوقّعون أيّها الضّعفآء الايمان إن أعرضتم عن الوحي السّماوي على قسميه: القرآن الكريم و السّنّة الثّابتة عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و هما الثّقلان و لم تمسّكوا بهما، فما بقي منهما إلاّ إسمهما، واتّخذتموها مهجورين، و تقولون ما لاتعملون، و تأمرون النّاس بالبرّ و تنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب ؟! هل تنتظرون إن أعرضتم عنهما أن تفسدوا في الأرض بالبدعة في الدّين، و تحليل الحرام، و تحريم الحلال، و تحكيم الطّواغيت على المسلمين و أن تقطّعوا أرحامكم بالبغي و القتل و هتك الحرمات...

١٣- قيل: أي إنّكم لما عهد منكم من الأحوال الدّالّة على الحرص على الدّنيا و زخارفها و شهواتها و رياستها و جيفتها... حيث أُمِرتم بالجهاد الّذي هو وسيلة إلى ثواب الله العظيم، فكرهتموه وظهر عليكم أحقّآء بأن يقولوا لكم كلّ ماذاقكم و عرف حالكم يا هؤلآء ما ترون هل يتوقّع منكم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض... ١٤- قيل: أي فهل عسيتم إن أعرضتم عن الإسلام و الايمان و عن كتاب الله تعالى و العمل بما فيه،

أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة من الإفساد في الأرض بالتّغاور و التّناهب و قطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب و وأد البنات.

١٥- قيل: أي فهل عسيتم تولاّكم النّاس و اجتماعهم على موالاتكم، فكنتم فيهم حكّاماً. هذا بنآءً على أن «تُوُلّيتم» مبنّي للمفعول. ١٦- قيل: أي فهل تتوقّعون تولاّكم ولاة غشمة ظلمة خرجتم معهم و مشيتهم تحت لوآئهم، و أفسدتم بإفسادهم، و ساعدتموهم في الإفساد و قطعية الرّحم.

١٧- قيل: أي فهل تنتظرون إن أعرضتم عن امتثال أمر اللّٰه تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعد معونة أهل الإسلام على أعدآئهم، و تقطّعوا أرحامكم لأنّ من أرحامكم كثيراً من المسلمين، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم و بينهم من الرّحم.

١٨- قيل: أي إنّكم إن أعرضتم و تولّيتم عن سماع القرآن المجيد و عن تنفيذ أوامره عدتم إلى جاهليّتكم فأفسدتم في الأرض و قطعتم بذلك أرحام بعضكم. ١٩- قيل: أي إنّكم إن نكلتم عن الجهاد عدتم إلى ما كنتم عليه من الفساد و تقطيع الأرحام. ٢٠- قيل: أي إنّكم إذا لم تنفذوا أمراللّٰه و لم تصدقوا النّيّة في الجهاد، و تقابلوا فرضه بالرّضا والطّاعة تكونوا بذلك قد أطمعتم العدوّ و جعلتموه يفسد في الأرض و يعتدى عليكم و تقطع ما بينكم من الأرحام...

٢١- قيل: أي فلعلّكم لما عهد فيكم من الحرص على الدّنيا و متاعها إذ قد أُمِرْتُم بالجهاد الّذي هو الوسيلة إلى الثّواب، فكرهتموه و ظهر عليكم ما ظهر من الخوف و الهلع و التّشبّث بالبقآء في هذه الحياة و التكالب على زينتها إن أنتم تولّيتم امور النّاس و صرتم عليهم أُمرآء... أن تفسدوا في الأرض بالبغي و سفك الدّمآء و تقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهليّة من إغارة بعضكم إلى بعض و نهب الأموال و سفك الدّمآء... فلا عجب بعد أن صدر منكم من كراهة الدّفاع عن حوزة الإسلام و نواميس المسلمين أن تعيدوا أحوال الجاهليّة جَزَعةً إذ صرتم أُمرآء النّاس و ولاتهم...

٢٢- قيل: أي إنّكم لضعفكم في الدّين و أمر المعاد، و حرصكم على الدّنيا و أمر المعاش أحقّآء بأن يتوقّع ذلك منكم من عرف حالكم، فيعاقبكم اللّٰه تعالى عليه

بالخزي و الهوان في الدّنيا، و بعذاب النّار الدّآئم في الآخرة و يلعنكم فيهما. ۲۳- قيل: أي فلعلّكم إن تولّيتم عن تنزيل اللّه تعالى وضايعتم أحكام كتابه، و أدبرتم عن رسول اللّه (ﷺ) و عمّا جآءكم به أن تعصوا في الأرض فتكفروا به و تسفكوا فيها الدّماء و تقطّعوا أرحامكم و تعودوا لما كنتم عليه في جاهليّتكم من التّشتّت و التّفرّق و الشّقاق و النّفاق بعد ما قد جمعكم اللّه بالإسلام و ألّف به بين قلوبكم.

٢٤- قيل: أي فهل تتوقّعون أيّها المنافقون و ضعفآء الايمان من المؤمنين حينما تتولّون عن أمر الجهاد في سبيل اللّه تعالى و القتال مع الأعداء المحاربين، متثاقلين، أوحينما تتولّون امور المسلمين و تسلّطون عليهم... و المعنيان هما المتوقّعان من حال المخاطبين الّذين يقولون مالايفعلون، قولاً في ترجّي الجهاد: لو أُنزلت سورة ذكر فيها القتال ... ثمّ هم أُولآء يخالفون، يقولون في المنظر و المرآى: كيت و كيت، فإذا جآء الجهاد فحيدي حياد! أم قولاً في تمنّي إصلاح امور المسلمين: أن لو تولّيناها فنصلحها، فقولهم قول عجاب، ثمّ عملهم في تباب: «و من النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا و يشهد اللّه على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام و إذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النّسل و اللّه لايحبّ الفساد و إذا قيل له اتّق اللّه أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنّم و لبئس المهاد» البقرة: ٢٠٤-٢٠٦).

فحذار، حذار يا من تتولّون امور المسلمين دونما لياقة أو لباقة عن أن ترتجعوا إلى الجاهليّة الاولى فتفسدوا في الأرض و تهلكوا الحرث و النّسل و تقطّعوا الأرحام...

أقول: و الأوّل هو المرويّ عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين من دون تنافٍ بينه و بين أكثر الأقوال الأُخر.

و قوله عزّوجلّ: «و تقطّعوا أرحامكم» في القطيعة أقوال ١- قيل: إنّ القطيعة تحصل بالإسآءة. ٢- قيل: القطيعة هي ترك الإحسان بالأرحام، حيث إنّ الصّلة ايصال نوع من أنواع الإحسان إليهم، فالقطيعة ضدّها، فهي ترك الإحسان سواء أكان الإحسان بالمال أم بالمكاتبة أو المراسلة أو الزّيارة و ما إليها، فقطع كلّه من دون عذر موجّه، قطيعة من الكبآئر الموبقة. ٣- قيل: القطيعة هي ترك استخبار حال الأرحام

بالزّيارة فقط. ٤- قيل: إنّ ترك السّلام، قطيعة حيث إنّ السّلام صلة، إذ قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾: «بلّوا أرحامكم و لو بالسّلام» و فيه تنبيه على أنّ السّلام صلة. ٥- قيل: إنّ المرجع في ذلك إلى العرف إذ ليس له حقيقة شرعيّة و لالغويّة و هي تختلف باختلاف العادات و بُعد المنازل و قربها.

و لاريب أنّ مع فقر بعض الأرحام و هم العمود تجب الصّلة بالمال، و تستحبّ لباقي الأرقاب و تتأكّد في الوارث و هو قدر النّفقة، و مع الغنى فبالهديّة في الإحسان بنفسه أو رسوله، و أعظم الصّلة ما كان بالنّفس و الزّيارة، و فيه أخبار كثيرة، ثمّ بدفع الضّرر عنها، ثمّ بجلب النّفع إليها، ثمّ بصلة من يحبّ و إن لم يكن رحماً للواصل كزوج الأب والأخ و مولاه و أدناها السّلام بنفسه ثمّ برسوله، و الدّعاء بظهر الغيب و الثّنآء في المحضر.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً و لاتغفل.

و في «الأرحام» أقوال: ١- قيل الأرحام: المحارم الّذين يحرم التّناكح بينهم إن كانوا ذكوراً و إناثاً، و إن كان من قبيل يقدر أحدهما ذكراً و الآخر انثى، فإن حرم التّناكح فهو الرّحم، و احتُجّ بأنّ تحريم الأُختين إنّما كان لما يتضمّن من قطيعة الرّحم، و كذا تحريم الجمع بين العمّة و الخالة، وابنة الأخ و الأُخت مع عدم الرّضاع عند الشّيعة و مطلقاً عند العامّة.

٢- قيل: الأرحام: جمع الرّحم، بمعنى القرابة، و أصله من رحم المرأة و هو موضع تكوين الولد منها لكونهم خارجين من رحم واحد، فيعمّ لكلّ من يجمع بينك و بينه نسب، قَرُبَ أو بَعُدَ و إن كان بعضها آكد من بعض ذكراً كان أو مؤنّثاً، فتسمّى القرابة المتباعدة رحماً كالقرابة القريبة. ٣- قيل: الرّحم من ناحية النّسآء فقط. ٤- قيل: الرّحم كلّ قريب ليس بذي سهم ولاعصبة و عدّوا من ذلك أو الأخوات لأبوين أو لأب و عمّات الآبآء. ٥- قيل: الرّحم: كلّ قريب من الأب و الأُمّ و الولد و الأخ و الاخت و العمّ و العمّة و الخال و الخالة، و أولادهم و من جانب الزّوجة و الزّوج.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر.

۲۳- (اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم)

في قوله تعالى: «فأصمّهم وأعمى أبصارهم» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي فأصمّهم عن الحقّ و الهدى، و أعمى أبصارهم عن الحقّ و الهدى. ۲- عن أبي مسلم: أي إنّهم لايعون الخبر و لايبصرون ما به يعتبرون فكأنّهم صمّ و عمى. ۳- قيل: أي فأصمّهم عن الحقّ و أعمى قلوبهم عن الخير بأن سلبهم الانتفاع بسمعهم و أبصارهم حتّى لاينقادوا للحقّ و إن سمعوه، فجعلهم كالبهائم الّتي لاتعقل. ٤- قيل: أي فمنعهم ألطافه و خذلهم حتّى صمّوا عن استماع الموعظة و عموا عن إبصار طريق الهدى.

٥- عن أبي عليّ الجبائي: أي انّهم في الآخرة لايهتدون إلى الجنّة بمنزلة الأصمّ والأعمى في الدّنيا. و لايجوز حمله على الصّمم و العمى في الجارحة بلاخلاف، فإنّهم كانوا صحيحى العين و صحيحى السّمع، و لو كانوا صمّآء و عميآء لما ذمّوا على أنّهم لايسمعون و لايبصرون، و إنّما أطلق الصّمم لأنّه لايكون إلاّ في الأُذن، و قرن العمى بالأبصار لأنّه قد يكون بالبصر و بالقلب «فأصمّهم» و هم لم يفقدوا السّمع بل عطلوه «و أعمى أبصارهم» و هم لم يفقدوها بل عطلوها أو أنّهم عطلوا قوّة الإدراك ورآء السّمع و البصر، فلم يعدّ لهذه الحواس وظيفة لأنّها لم تعدّ تؤدّى هذه الوظيفة. ٦- قيل: أي فأصمّهم عن قبول الحقّ بعد استماعه، و هذا في الحياة الدّنيا، و أعمى أبصارهم في الآخرة، أو عن رؤية الحقّ و النّظر إلى المصنوعات...

أقول: و لكلٍّ وجهٌ.

۲٤- (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

في قوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن» أقوال: ۱- قيل: أي أفلا يتصفّح كفّار مكّة القرآن و يعتبرون به و يقضون ما عليهم من الحقوق. ۲- عن ابن عبّاس: أي أفلا يتفكّر هؤلآء المنافقون بالقرآن ما نزل فيهم. ۳- عن قتادة: إنّ في القرآن زاجراً عن معصية اللّه لم يتدبّره القوم و ما عقلوه بل أخذوا بمتشابهه فهلكوا عند ذلك. ٤- قيل: أي أفلا يتفهّم المسلمون القرآن، فيعلمون ما أعدّ اللّه تعالى للّذين لم يتولّوا عن الإسلام.

٥- قيل: لمّا أخبر اللّٰه تعالى عن ضعفآء الايمان و المنافقين بما أخبر، حكى أنّ حالهم دائرة بين أمرين: إمّا أنّهم لايتدبّرون القرآن إذا استمعوه و وصل إلى قلوبهم لأنّ اللّٰه تعالى أبعدهم عن كلّ خير بسبب نفاقهم وضعفهم في الايمان، و إمّا أنّهم يتدبّرونه ولكن لايدخل معانيه في قلوبهم و لايدركونها لأنّ قلوبهم مقفلة، فكأنّ العقول وقوّة الإدراك سُلِبت عنهم لايعون شيئاً. ٦- قيل: أى أفلا يتدبّر هؤلآء المنافقون مواعظ اللّٰه الّتي يعظهم بها في آي القرآن الّذي أنزله على رسوله﴿ﷺ﴾ و يتفكّرون في حججه الّتي بيّنها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأما هم عليه مقيمون.

٧- قيل: أي أفلا يلاحظ الكفّار و المشركون و الفجّار و المستكبرون، و الفسّاق والمنافقون هذا القرآن و ما فيه من المواعظ و الزّواجر، من الوعد و الوعيد، و من البشارة و الإنذار فيتّعظوا بمواعظه، و ينزجروا عن زواجره حتّى لايقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات... ٨- قيل: إنّ الآية الكريمة بصدد تحريص النّاس و ترغيبهم على التدبّر في القرآن الكريم بأنّ من تدبّر القرآن حقّ التّدبّر فإنّه يؤمن به و يستجيب له و يعمل به لأنّه يؤاخي العقل السّليم و الفطرة الإنسانيّة، و يدعو الإنسان إلى حياة أكمل و أفضل، و تحذيرهم عن الإعراض عنه، بأنّ من أعرض عنه أو استمع إليه دون أن ينتهي إلى الايمان و العمل به حقّاً فهو من المغلفة قلوبهم.

٩- قيل: إنّ النّاس إذا جعلوا الرّؤسآء تبع الأنساب كانت الأُمّة رهن الجالس على كرسي الحكم، فإن كان عاقلاً عقلوا، و إن كان أحمق خرّب البلاد، و أكثر في الأرض الفساد، و تكون الأُمّة كأنّها آلات صمّآء و على قلوبها الأقفال، فإذا عقلت و فهمت ولت الأكفاء ولم تبال بالأنساب... ١٠- قيل: أي أفلايتدبّر الّذين اوتوا العلم من الكتاب، هذا القرآن الكريم، فيعرفون الحقّ، بل على قلوبهم أقفالها فلايفهمونه لأنّهم نبذوه ورآء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون.

١١- قيل: أي أفلا يتدبّر العلمآء هذا القرآن بأن يتفكّروا فيه و يعتبروا به و يجعلوه أساس تربية النّاس و تعليمهم إذ قال اللّٰه تعالى خطاباً لهم: «كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب و بما كنتم تدرسون» آل عمران: ٧٩) أم على قلوبهم أقفال باتّباع الآراء

والأهواء من دون علم و لابيان من الكتاب و السّنّة الثّابتة من أهـل بـيت الوحـي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

١٢- قيل: أي أفلا يتدبّرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحقّ. و هذا هو المرويّ عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق و الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام.

١٣- قيل: أى أفلا يتصفّح هؤلآء، هذا القرآن و ما فيه من المواعظ و الزّواجر، حتّى لا يجسروا على المعاصي و الآرآء الخاطئة، و ما فيه من الدّلآئل و البراهين القاطعة على جميع اصول الدّين و فروعه فيرتدعوا على الكفر و الضّلالة، و الشرّ و الغواية بهـا...

١٤- قيل: أي أفلا يتدبّرون القرآن فيعرفوا ما فيه من وعد التّقاة، و وعيد العصاة حتّى يرغبوا في الطّاعات، و لايجسروا على السّيّئات.

١٥- قيل: إنّ الآية الكريمة بصدد تشويق عوام النّاس على تعلّم القـرآن الكـريم والتّدبّر في عباراته و معاني ألفاظه، و تحريص العلمآء على التّدبّر في إشارات القـرآن المجيد و تفسيره، و ترغيب الأوليآء على التّدبّر في لطآئف القـرآن الحكـيم و تأويـله لايستطيع غيرهم بإدراكها فإنّ قلوبهم هي على باب الملكوت السّماوي، فينكشف له في هذا الفتح ما لاعين رأت، و لا أُذن سمعت، و لاخطر على قلب بشر، و حينئذ يستغني بالعيان عن البيان، و يظهر له أنّ الخبر ليس كالمعاينة.

١٦- قيل: تساؤل استنكاريّ توبيخيّ يشمل لكلّ انسان من العوام و الخواصّ في كلّ ظرف من الظّروف لايتدبّر ما في القرآن الكريم من معارف و حِكـم، و أسرار و أحكام، و مواعظ و أمثال، و قصص و زواجر و آيات بيّنات ... و لايتأثّر بها أم هل على قلبه قفل، فلا ينفذ إليه شيء من ذلك.

١٧- قيل: أي أفلا يتدبّرون القرآن بأن يتفكّروا فيه و يعتبروا به أم على قـلوبهم أقفال تمنعهم من ذلك تنبيهاً لهم على أنّ الأمر بخلافه، و ليس عليها ما يمنع من التّدبّر والتّفكّر، و التّدبّر في النّظر في موجب الأمر و عاقبته، و على هذا دعاهم إلى تدبّر القرآن الكريم.

أقول: و الثّاني عشر هو المرويّ، و الخامس عشر هو المستفاد من الرّواية، من دون

تناف بينهما و بين أكثر الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً و اغتنم و لاتغفل.

و **في قوله عزّوجل:** «أم على قلوب أقفالها» أقوال: ١- قيل: أي بل على قلوب الكفّار و المنافقين أقفال، أقفلها اللّٰه عليهم، فهم لايعقلون ما أنزل اللّٰه تعالى في كتابه من المواعظ و العبر و القصص و الأمثال...

٢- قيل: قلوبهم مقفّلة بالكفر و النّفاق، بالبغي و العناد، بالشّرّ و الفساد و بالظّلم والضّلال، فاستقلفت بها لاتنفتح و لايتوصّل إليها ذكر اللّٰه تعالى. ٣- قيل: أى قلوب قاسية مبهم أمرها. ٤- عن ابن عبّاس: أي أم على قلوب هؤلآء المنافقين أقفال لايعقلون ما نزل فيهم، فلا يصل إليها ذكر اللّٰه سبحانه و لاينكشف لها أمر، ولايدخلها الهدى أصلاً.

٥- قيل: الأقفال ههنا إشارة إلى ارتتاج القلب و خلوّه عن الايمان أي لايدخل الايمان في قلوبهم و لايخرج منها الكفر لأنّ اللّٰه طبع على قلوبهم الّتي كالأبواب المقفّلة لاتنفتح لوعظ واعظ، و لايلج فيها عذل عاذل، فالقلوب المقفّلة هي الغافلة و المغفول عنها، و أقفال القلوب هي اتّباع الأهواء الّتي تغفلها فتقفلها عن موارد الذّكرى بالقرآن المجيد كالسّحاب المتراكمة المانعة من استنارة الإنسان من نور الشّمس و القمر والنّجوم... فالقلوب المقفّلة بسحاب الأهوآء المتراكمة لاتستضيئ بأنوار معارف القرآن الكريم، و حكمه و أسراره، و مواعظه و نصآئحه...

أقول: و لكلّ وجه من دون تنافٍ بينها فتأمّل جيّداً.

٢٥- (إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم)

في قوله تعالى: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و الضّحّاك والسّدي: هم المنافقون الّذين كانوا يتظاهرون بالايمان عند رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و يبطنون الكفر، ثمّ يظهرون الكفر فيما بينهم، و هم قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن و أمرهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ به. فهم قد رجعوا بالنّفاق عن

الحقّ و الهدى، و عن الايمان و الفلاح إلى الباطل و الضّلال، و إلى الكفر و الخسران من بعد ما ظهر لهم طريق الحقّ المفضي إلى الجنّة و نعيمها. فتلك ردّة منهم.

٢- قتادة و ابن جريج: هم أعدآء اللّه اليهود فإنّهم الّذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفّاراً باللّه سبحانه من بعد ما تبيّن لهم الهدى و قصد السّبيل، فعرفوا واضح الحجج، ثمّ آثروا الضّلال على الهدى عناداً لأمر اللّه من بعد العلم أي من بعد ما آمنوا بموسى﴿عليه السلام﴾ و التّوراة بتكذيبهم ما وعد به التّوراة من مجيئ رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾.
٣-عن ابن عبّاس و قتادة أيضاً: هم كفّار أهل الكتاب الّذين ارتدّوا عن الهدى بعد أن عرفوا أنّ محمّداً﴿صلى الله عليه وآله﴾ نبيّ مبعوث، و قد عرفوه و وجدوا نعته مكتوباً عندهم في التّوراة و الإنجيل فكفروا به، و رجعوا إلى دين آبآئهم من بعد ما تبيّن لهم التّوحيد و القرآن و نعته و صفته﴿صلى الله عليه وآله﴾ في القرآن، و الشّيطان زيّن لهم الرّجوع إلى دينهم و أملى اللّه لهم أي أمهلهم إذ لم يهلكهم.

٤- قيل: هم النّصارى فقد كفروا بمحمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد ما وجدوا في كتابهم و عرفوا أنّه المنعوت بذلك. ٥- قيل: أي إنّ الّذين ارتدّوا عن الهدى بعد أن ظهرت لهم أعلامه، فارتدّوا إلى الضّلال و الباطل بعد ظهور الحقّ و الهدى. ٦- قيل: هم المنافقون الّذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب و أقفالها و غيرها من قبآئح الأحوال فإنّهم قد كفروا برسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد وفاته. ٧- قيل: أي إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم عن الايمان لتركهم ولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ من بعد ما تبيّن لهم الهدى و أمر الولاية و سوّل الشّيطان لبني تيم و بني عدى و بني اميّة و بني العبّاس خطاياهم، و أملى لهم ما أرادبهم، ففعلوا ما أراده منهم.

أقول: و السّابع هو المرويّ و المؤيّد بسياق السّورة و نزولها فتأمّل جيّداً و اغتنم ولاتكن من الغافلين.

و في قوله سبحانه: «الشّيطان سوّل لهم» أقوال: ١- عن أبي مسلم: أي أعطاهم الشّيطان سؤلهم و أمنيتهم إذا دعاهم إلى ما يوافق مرادهم و هواهم. ٢- قيل: أى سهّل لهم ركوب الكبآئر و العظام من الذّنوب... و «سوّل» من السَّوَل و هو الاسترخآء،

استعير للتّسهيل أي لعدّه لهم سهلاً هيّناً حتّى لايبالوا به كأنّه شبّه بإرخآء ما كان مشدوداً. ٣- قيل: أي زيّن الشّيطان لهم الضّلال و الارتداد على أدبارهم، من السُّئوال و هو ما يسئل الإنسان غيره لتحقيقه: «قال قد اوتيت سؤلك يا موسى» طه: ٣٦).

و سوّل لهم الشّيطان: أجاب سؤلهم بالخداع و التّضليل. و التّسويل: تزيين ما تحرص عليه النّفس، و تصوير القبيح منه لها في صورة الحسن و قيل: تسويل النّفس: تريينها للامور الباطلة بحسب المادّة و الصّورة مع شوب الحقّ و عدمه، فإنّ النّفس باستعانة الوهم قد تزيّن الامور الباطلة الصّرفة كما تزيّن الباطل الممتزج بالحقّ. ٤- قيل: أي زيّن الشّيطان لهم تقديم الضّلال على الهدى، و الكفر على الايمان، و خدعهم بالآمال. ٥- عن الحسن: أي زيّن لهم الشّيطان خطاياهم. ٦- قيل: أي حملهم على الشّهوات من السّول و هو التّمنّي، و أصله، حملهم على سؤالهم أي ما يشتهونه و يتمنّونه.

٧- قيل: على تقدير: كيد الشّيطان سوّل لهم، فحذف المضاف، و قام المضاف إليه مقامه.

أقول: و لكلّ وجه، فتأمّل جيّداً.

و **في قوله عزّوجلّ:** «و أملى لهم» أقوال: ١- عن الكلبي و مقاتل: أي طوّل الله سبحانه لهم أملهم، و مدّ في أعمارهم فاغترّوا به. ٢- عن الحسن: أي أوهمهم الشّيطان طول العمر مع الأمن من المكاره و أبعد لهم في الأمل و الأمنية. و المعنى: و وعدهم الشّيطان طول العمر و بالبقاء الطّويل.

٣- قيل: أي مدّلهم في حبال الأمل و الرّجآء فيما يمنّيهم به. الإملاء: تطويل الآمال. و المعنى: و أمدّ لهم في الآمال و الأمانيّ. ٤- قيل: أي أمهلهم الشّيطان و أملى لهم بالإطماع و الاغترار. ٥- قيل: أي و أملى الله لهم أي و أمهلهم و لم يعاجلهم بالعقوبة و أخّرها فاغترّوا بذلك. ٦- قيل: أي و حسّن لهم الشّيطان ما في الدّنيا من لذّة يتمتّعون بها إلى حين. ٧- قيل: أي منّاهم و غرّهم. ٨- قيل: أي و مدّلهم الشّيطان في الأماني و الآمال... و معنى المدّ فيها توسّعها و جعلها ممدودة بنفسها أو بزمانها بأن يوسوس لهم بأنّكم تنالون في الدّنيا كذا و كذا ممّا لا أصل له حتّى يوقعهم في العمل. ٩- قيل: أي جعل الله

تعالى الشّيطان من المنظرين إلى يوم القيامة لأجلهم ففيه بيان لاستمرار ضلالهم و تقبيح حالهم. ١٠- قيل: أي بسط لهم أن لايكون ممّا قال محمّد﴿ﷺ﴾ شيئاً.

أقول: و على الثّامن أكثر المحقّقين، و في معناه أكثر الأقوال فتأمّل جيّداً.

٢٦- (ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر واللّه يعلم إسرارهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن جريج: أي تسويل الشّيطان و إملآئه و تسلّطه على المنافقين المرتدّين بأنّ اليهود قالوا للمنافقين من أصحاب رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و كانوا يسرّون إليهم أنّا سنطيعكم في بعض الأمر، و كان بعض الأمر أنّهم يعلمون أنّ محمّداً نبيّ، و قالوا: اليهوديّة الدّين، فكان المنافقون يطيعون اليهود بما تأمرهم، و اللّه يعلم إسرارهم، ذلك سرّ القول، فكانوا يواطئون مع أعدآء الإسلام و المسلمين، و ينسجمون ضدّ الرّسالة المحمّديّة سرّاً، و يقول اليهود للمنافقين: إن أعلنتم الكفر نصرناكم.

٢- عن ابن عبّاس: أي ذلك الارتداد بأنّ اليهود قالوا للمنافقين الّذين جحدوا في السّرّ ما نزل اللّه به جبرئيل على محمّد﴿ﷺ﴾ سنعينكم يا معشر المنافقين في بعض الأمر أي أمر محمّد﴿ﷺ﴾ بلا إله إلاّ اللّه إن كان له ظهور علينا، و اللّه يعلم إسرار اليهود مع المنافقين الّذين اتّبعوا ما سخط اللّه و كرهوا ما يرضاه، و كانوا يتآمرون مع اليهود و يعدونهم بطاعتهم، و السّير وفق رغبتهم.

٣- قيل: أي ذلك الإملآء لهؤلآء المرتدّين حتّى يتمادوا في الكفر بأنّ المنافقين و اليهود قالوا للمشركين الّذين كرهوا ما نزّل اللّه: سنطيعكم في مخالفة محمّد﴿ﷺ﴾ و التّظاهر والتّظافر على عداوته و القعود عن الجهاد معه، و توهين أمره في السّرّ، و هم إنّما قالوا ذلك سرّاً فأخبره اللّه نبيّه﴿ﷺ﴾.

٤- قيل: أي ذلك الإضلال و التّسويل و الإملاء بسبب أنّ المنافقين قالوا ليهود بني قريظة و النّضير و ناصحوهم سرّاً على المؤمنين كما هو شأن المنافقين في كلّ زمان: سنطيعكم في بعض الأمر الّذي يهمّكم كالتّظافر على عداوة محمّد﴿ﷺ﴾ و القعود عن

الجهاد معه أو في بعض ما تأمرون به، و هو ما يتعلّق بتكذيب محمّد﴿ﷺ﴾ لا في إظهار الشّرك و اتّخاذ الأصنام و إنكار المعاد، و اللّه يعلم إسرارهم، فلذلك أفشى الّذي قالوه سرّاً فيما بينهم، و سيجازيهم على حسب ذلك. و المعنى: إنّ المنافقين قالوا لهؤلآء اليهود الّذين هم أشدّ النّاس كراهة للقرآن و أهله: نحن معكم ضدّ محمّد﴿ﷺ﴾ و نطيعكم في الكيد له و التّآمر عليه، و اللّه يعلم ما يسرّون و ما يخفون و هو مطّلع عليهم و عالم بهم. فالقائلون هم المنافقون المرتدّون من الايمان إلى النّفاق، و الكارهون: «كرهوا ما أنزل اللّه» هم اليهود الّذين قال اللّه تعالى فيهم: «ما يودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربّكم» البقرة: ١٠٥) و الّذي قالوه هو قولهم: «سنطيعكم في بعض الأمر».

و ذلك أنّ هؤلآء المنافقين التقوا مع اليهود لقآء الأوليآء، تقدّموا إلى اليهود يعرضون عليهم أن يكونوا من ورآئهم في حربهم مع المؤمنين، كما أشار تعالى إليه بقوله سبحانه: «ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجنّ معكم و لانطيع فيكم أحداً أبداً و إن قوتلتم لننصرنّكم» الحشر: ١١).

هكذا كان موقف المنافقين من رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين بعد غزوة الخندق (الأحزاب) و كان على رأس المنافقين عبداللّه بن أبيّ بن سلول الّذي خذّل النّاس عن القتال يوم اُحد... فلمّا أن ردّ اللّه الأحزاب على أعقابهم خاسرين إلتفت رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى اليهود الّذين كانوا قد حزبوا الأحزاب على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و تحالفوا مع المشركين على أن يكونوا لهم ظهراً إذا التحم القتال... إنّ اليهود إذا ظلّوا في المدينة على ما هم عليه من كفر و حسد، أفسدوا على المؤمنين أمرهم، و أوقعوا الفتنة بينهم إن هم عجزوا عن جلب الفتن إليهم من الخارج، فكان أن ندب رسول اللّه﴿ﷺ﴾ المؤمنين إلى حربهم و ألاّ يُلقوا سلاحهم الّذي كانوا يواجهون به الأحزاب... فقال﴿ﷺ﴾: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلاّ في بني قريظة» و هناك حاصرهم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و المؤمنون، ثمّ استسلموا الحكم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فيهم.

و في أثنآء الحصار الّذي ضربه رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و المؤمنون على بني قريظة كان

كثير من المنافقين يبعث إلى اليهود أن يثبتوا في حصونهم، و ألاّ يستسلموا و ألاّ يخرجوا من ديارهم، و أنّ رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ لو أخرجهم لخرج المنافقون معهم، احتجاجاً على إخراج اليهود من المدينة، و لن يسمعوا لأحد قولاً يفرق به بين اليهود و بينهم، و أنّ رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين لو قاتلوا اليهود لكان هؤلآء المنافقون مقاتلين معهم... و هكذا منّى المشركون إخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب، منّوهم هذه الأمانيّ الكاذبة الّتي فضحها اللّه تعالى و فضح أهلها فقال: «و اللّه يشهد إنّكم لكاذبون لئن اخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم و لئن نصروهم ليولّنَ الأدبار ثمّ لاينصرون» الحشر: ١١-١٢) و اللّه يعلم ما أسرّ به المنافقون و اليهود، بعضهم إلى بعض.

٥- قيل: أي ذلك الارتداد و الإملاء و الإضلال بأنّ المنافقين قالوا للمشركين الّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و هو مخالفتنا لرسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في أمر ولاية عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾ و الانقلاب إلى أعقابهم، و اللّه يعلم ما بين المنافقين والمشركين من المعاونة على عداوة رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و تثبيط النّاس على الجهاد معه، قالوا ذلك سرّاً فأظهره اللّه سبحانه.

٦- قيل: أي إنّ اللّه سبحانه أملى للمنافقين و تركهم و الشّيطان سوّل لهم فلم يوفّقهم للهدى من أجل أنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه من الأمر بقتال المشركين من المنافقين سنطيعكم في بعض الأمر الّذي هو خلاف لأمر اللّه تعالى و أمر رسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و اللّه يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النّفاق على خلاف أمر اللّه تعالى و أمر رسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ إذ يتسارّون فيما بينهم بالكفر باللّه تعالى و معصية الرّسول ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و لايخفى عليه ذلك و لاغيره من الامور كلّها... و لا مايكنونه في أنفسهم.

٧- قيل: أي ذلك الارتداد من المنافقين بسبب أنّ اليهود الكافرين برسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ بعد ما وجدوا نعته ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في كتابهم التّوراة قالوا للمنافقين بأنّ اليهود كانوا يعدون المنافقين بالنّصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾. ٨- قيل: القائلون اولئك اليهود، و المقول لهم هم المشركون كانوا يعدونهم النّصرة إذا حاربوا رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ أي كانت بينهم معاهدة حربيّة، و اللّه يعلم إخفاءهم ما يقولونه لليهود أو

كلّ قبيح. ۹- قيل: أي سبب استيلاء الشّيطان على المنافقين بالتّسويل و الإملاء لهم بأنّهم قالوا لبني اميّة كرهوا ما نزّل اللّه في ولاية عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ نفعل بعض ما تريدونه، و اللّه يعلم ما أسرّه بعضهم إلى بعض من القول، و ما أسرّوه في أنفسهم من الاعتقاد.

۱۰- قيل: إنّ المراد من القائلين هم المرتدّون المنافقون الّذين سوّل لهم الشّيطان و أملى لهم و سلّط عليهم، فإنّ ظاهر السّياق أنّ فاعل «قالوا» هو الضّمير الرّاجع إلى «الّذين ارتدّوا» و المراد بالّذين كرهوا ما نزّل اللّه أبوبكر بن أبي قحافة و عمر بن الخطّاب و أبو عبيدة الجرّاح، و هم الّذين قال اللّه تعالى فيهم: «و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۸-۹) و هم أصحاب الصّحيفة كانوا ستّة: أبوبكر و عمر و أبوعبيدة و عبد الرّحمن بن عوف و سالم مولى أبي حذيفة و المغيرة بن شعبة، وكانوا رؤسآء هؤلآء المنافقين المرتدّين قالوا لقادتهم: «سنطيعكم في بعض الأمر» يعني في الخمس أن لايردّوه في بني هاشم، فقالوا: إن أعطيناهم الخمس إستغنوابه.

فوعد المرتدّون لرؤسآءهم بالطّاعة و هو كما يلوح من تقييد الطّاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التّظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الامور لكونه على خطر من التّظاهر بالطّاعة المطلقة فيسرّ إلى من يعده أنّه سيطيعه في بعض الأمر، و فيما تيسّر له ذلك ثمّ يكتم ذلك و يقعد متربّصاً للدّوآئر...

۱۱- قيل: إنّ الضّمير في «قالوا» راجع إلى بعض بني‌تميم و بني عديّ وبني اُميّة، والمراد بالّذين كرهوا هم الّذين ارتدّوا، فيكون من قبيل وضع المظهر موضع المضمر أي قال هؤلآء المرتدّون من المنافقين لأربابهم: أبي‌بكر و عمر و عثمان: سنطيعكم في بعض الأمر...

و فيه دلالة على نهاية عداوتهم لأهل بيت الوحي المعصومين﴿عليهم السلام﴾ حيث قصدوا مع غصب الخلافة منهم كسر قلوبهم بضيق المعيشة و في بعضها و لم يبالوا إلاّ أن يكون الأمر فيهم أي كانت همّتهم حينئذ مقصورة في أخذ الخلافة لحصول أسبابه لهم لأنّ

النّاس يرغبون إلى الأموال لاسيّما إذا كانت مجتمعة مع النّصّ و القرابة و الفضل و سائر الجهات... و قد خصّوا الإطاعة بمنع الخمس أو معه الإرث و الفدك لأنّهم لم يجترؤا على أن يبايعوهم في منع الولاية أو كانوا آيسين من ذلك للنّصّ الصّريح أو لأنّهم علموا أنّهم لايفوّضونها إليها و يتصرّفون فيها، و أمّا الخمس و ما إليه فكانوا يعلمون أن يعطوا حصّته منه، و إن أطاعوهم بعد ذلك، في الأمرين أو الامور جميعاً لما عرض من الأُمور الّتي صارت أسباباً لطمعهم في الخلافة بعد هؤلآء... و لايبعد أن تكون حرف «في» في «في بعض الأمر» على هذا التأويل سببيّة أى سنطيعكم بسبب الخمس لتعطونا منه شيئاً.

فقوله تعالى: «كرهوا ما نزّل اللّٰه» إعادة للكلام السّابق لبيان أنّ ما أنزل اللّٰه في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ هو الولاية إذ لم يظهر ذلك ممّا سبق صريحاً.

و أبو عبيدة المعروف، بحفّار القبور هو عامر بن عبداللّٰه بن الجرّاح من رؤسآء المنافقين و قادتهم، و كان هو كاتب الصّحيفة الملعونة الّتي كتبوها و دفنوها في الكعبة، و كان فيها ميثاقهم أن لايصيروا الأمر في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ بعد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و كان أبو عبيدة ثالث ثلاثة من أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة الّتي هي منشأ إنحطاط المسلمين حتّى اليوم، بل انحطاط البشريّة إلى يوم ظهور مدار الدّهر و نواميس العصر، المهديّ المنتظر، الحجّة بن الحسن العسكريّ الإمام الثّاني عشر عجّل اللّٰه تعالى فرجه الشّريف و جعلنا من أنصاره بحقّ أجداده الطّاهرين وجدّته الصّدّيقة الكبرى فاطمة الزّهرآء صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

١٢- قيل: أى ذلك التّسويل و الإملاء بسبب أنّ هؤلآء الشّياطين قالوا للّذين كرهوا ما أنزل اللّٰه من القرآن و ما أمرهم به من الأمر و النّهي و الحلال و الحرام، و الوعد و الوعيد... و شبّهوا عليهم ذلك و مالوا إلى خلافه: سنفعل بعض ما تريدونه من الميل إليكم و اتّباع أهوآءكم و إعطآء شهواتكم و اللّٰه يعلم بواطنهم، و ما يكنّونه في أنفسهم...

١٣- قيل: أي ذلك التّسويل و الإملاء لهؤلآء المرتدّين المنافقين المذبذبين «بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه» يعمّ المشركين و سآئر الكفّار من أهل الكتاب لاسيّما

اليهود، إذ كانوا يتوقّعون أن تكون الرّسالة الأخيرة فيهم، مؤوّلين البشارات بحقّ محمّد الإسماعيليّ إلى نبيّ إسرآئيليّ، فلمّا اختار اللّٰه تعالى آخر رسله من بني إسماعيل دون إسرائيل - كرهوا رسالته و ما أنزل اللّٰه عليه، و من قبل كانوا كارهين لما أنزل اللّٰه على أنبيآئه بحقّه﴿ﷺ﴾ فاستنّوا سنّة التأويل و التّجديل و حرّفوا الكلم عن مواضعه، و شنوا على محمّد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ حرب الدّسّ و المكيدة، بعد ما عجزوا عن مجاهرته مناصبة العدآء: عن حرب التّنكيل، و ضمّوا إليهم كلّ منافق و حانق، و كلّ ضعيف الايمان، و فرّق بين المسلمين، فأطاعوهم في بعض الأمر، و من ثمّ في كلّ الأمر، ولكنّهم كَلَّ أمرهم في إمرهم إذ أجلاهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ عن جزيرة العرب في آخر الأمر و معهم المشركون أجمع.

و في إسرارهم لطاعتهم «في بعض الأمر» إشارة إلى إصرارهم لهؤلآء المنافقين المرتدّين أن يطيعوهم في كلّ أمر، ولكنّهم وعدوهم إسراراً: «سنطيعكم في بعض الأمر» إذ طاعتهم لهم في كلّ الأمر تكشف النّقاب عن نفاقهم، فلا يقدرون على التّجسّس لصالح الكفّار، ثمّ هم واقعون في محاظير الكفر و جاه الدّولة الإسلاميّة، حارمين أنفسهم عن عوآئد الإسلام، الاستسلام و عن دوآئر السّوء الّتي يتربّصون بها على الإسلام، أو إنّهم انحرفوا حالاً في بعض الأمر، فلا يطيعونهم إذاً في كلّ الأمر، فإنّ دركات الكفر هى تلو بعض حتّى تجرف بالإنسان إلى شفا جرف هار: أن يطيعوهم فى كلّ الأمر.

أقول: و التّاسع و العاشر و الحاديعشر، هي المستفادة من الرّوايات الواردة عن الفريقين، تقدّم بعضها في بحث النّزول فراجع، و سيأتي بعض أُخر في بحث روائي فانتظرو تأمّل جيّداً واغتنم جدّاً و لاتغفل فإنّ المقام من مزالّ الأقدام إلاّ من رحمه اللّٰه تعالى و ثبّت قدميه.

٢٧- (فكيف إذا توفّتهم الملآئكة يضربون وجوههم و أدبارهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- قيل: أي هذا حال هؤلآء المنافقين في الحياة الدّنيا يرتدّون بعد تبيّن الهدى و يكرهون ما أنزل اللّٰه تعالى و يخالفون رسول اللّٰه(ﷺ)، فيفعلون ما يشآؤن، فكيف حالهم إذا قبضت ملائكة الموت أرواحهم، يضربون وجوههم و أدبارهم عندئذ على وجه العقوبة لهم. ٢- قيل: أي فكيف يصنع هؤلآء المرتدّون التّابعون، و هؤلآء الكافرون الكارهون المتبوعون؟ كيف يعملون؟ و كيف يحتالون حين قبض ملك الموت و أعوانه أرواحهم، يضربون وجوههم عند قبض الأرواح، و يضربون أدبارهم عند سوقهم إلى النّار؟.

٣- قيل: تقديره: لقد كان جزآء هؤلآء المنافقين المرتدّين وقادتهم الكافرين، السّوء و الخزي و الهوان في الحياة الدّنيا، و أنّهم إذا كانوا قد احتملوا السّوء و الخزي و الهوان في حياتهم فكيف يكون حالهم إذا توفّتهم الملآئكة و أخذوهم صفعاً على وجوههم و رَكْلاً على أدبارهم؟ أيحتملون هذا البلآء الّذي يدفع بهم إلى جهنّم و يلقى بهم في سعيرها. ٤-قيل: أي فكيف يكون حالهم إذا توفّتهم الملآئكة، حالكونهم يضربون وجوههم في القبر، و يضربون أدبارهم يوم القيامة على وجه العقوبة.

٥- قيل: أي فكيف يفعلون إذا جآئتهم ملآئكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه و أفظعها. و قد مثل ذلك بحال يخافونها في الدّنيا، و يجبنون عن القتال من أجلها و هو الضّرب على الوجوه و الأدبار إذ يوم الوفاة لانصرة لهم و لامفرّ، فكيف يحترزون من الأذى و يبتعدون من العذاب؟ ٦- قيل: أي فكيف حالهم حين تستقبل ملآئكة الموت لهؤلآء المرتدّين المنافقين و رؤسآئهم حين يتوفّونهم أسوأ استقبال حيث يضربونهم على وجوههم و أقفيتهم الّتي كانوا يتّقون أن يصيبها آفة في القتال، فيتوفّونهم على أهوال الوجوه و أفظعها، و إبراز لما يخافون منه و يجبنون عن القتال لأجله، فإنّ ضرب الوجوه و الأدبار في القتال و الجهاد ممّا يتّقى.

٧- قيل: أي فكيف حالهم إذا ماتوا ساقتهم الملائكة إلى النّار فيضربونهم من قدامهم و من خلفهم. ٨- قيل: أي فكيف يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل إذا

توفّتهم الملآئكة. و قال ابن عبّاس: لايتوفّى أحد على معصية إلاّ تضربه الملآئكة في وجهه و قفاه. ٩- قيل: أي و ما ذلك الضّرب إلاّ كسئوال الملكين و سآئر أحوال البرزخ، و المراد بالوجه و الدّبر هما العضوان المعروفان، و وقت التّوفّى هو وقت سوقهم يوم القيامة إلى النّار، فالملائكة ملائكة العذاب يومئذ. ١٠- قيل: وقت التّوفّى هو وقت القتال، و الملآئكة ملآئكة النّصر تضرب وجوههم إن ثبتوا، و أدبارهم إن هربوا نصرة رسول اللّه﴿ﷺ﴾.

١١- قيل: أي يضربون وجوههم عند الطّلب، و أدبارهم حين الهرب و الفرار. ١٢- قيل: أي فكيف لايعلم اللّه تعالى إسرارهم و حالهم إذا توفّتهم الملآئكة حالكونهم يضربون وجوههم و أدبارهم حينئذ، فلا يخفى عليه سبحانه في ذلك الوقت. ١٣- عن ابن عبّاس: أي كيف يصنعون إذا قبضت الملآئكة أرواح هؤلآء اليهود، يضربون وجوههم بمقامع من حديد و ظهورهم. قيل: أي يضربون وجوههم من أمام إذا أقبلوا، و يضربونهم من خلف إذا أدبروا. ١٤- قيل: أي فكيف حال هؤلآء التّابعين و المتبوعين إذا قبضت ملآئكة الموت أرواحهم، حالكونهم يضربونهم من قدامهم و خلفهم بسبب نكثهم و بغيهم و إمساكهم الأمر من بعد أن أبرم عليهم إبراماً، فإذا ماتوا ساقتهم الملآئكة إلى النّار.

أقول: و الرّابع عشر هو المستفاد من الرّوايات من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتدبّر و لاتغفل.

٢٨- (ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- قيل: أي ذلك الضّرب و الإيلام لسببين: **أحدهما**- «أنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه» من الانهماك في حبّ الدّنيا و شهواتها الحيوانيّة و المعاصي، فاستحقّوا الضّرب في الوجوه و الأدبار. **ثانيهما**- أنّهم «كرهوا رضوانه» فرتّب الحبط على أعمالهم: «فأحبط أعمالهم» لأنّها لم تكن للّه تعالى و لابأمره.

٢- قيل: أي ذلك التّوفّى الفجيع الهآئل لهؤلآء الكافرين بسبب أنّهم اتّبعوا الكفر

والعصيان و البغي و الطّغيان من «ما أسخط اللّٰه به» «و كرهوا رضوانه» فيما يرضاه اللّٰه تعالى من الايمان و الطّاعة و العدل و الإحسان، حيث كفروا بعد الايمان، و خرجوا عن الطّاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود. ٣- عن ابن عبّاس: أي ذلك الضّرب والعقوبة بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه من اليهوديّة و هو كتمانهم ما في التّوراة من نعت محمّد رسول اللّٰه«صلى الله عليه و آله» و جحدوا توحيده تعالى فأبطل حسناتهم في اليهوديّة.

٤- قيل: أي ذلك التّوفّي الموصوف بتلك الصّفة بسبب أنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه من عظآئم الأُمور و المعاصي الّتي يكرهها اللّٰه و يعاقب عليها، و كرهوا سبب رضوانه من الايمان و الطّاعة، فأحبط اللّٰه أعمالهم الّتي كانوا يعملونها من صلاة وصدقة و قِرى ضيف و غيرها لأنّها في غير ايمان. ٥- قيل: أي ذلك جزآء المنافقين المرتدّين بسبب أنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه ممّا أضمروا عليه من الكفر، و كرهوا الايمان، فأحبط ما عملوه من صدقة و صلة رحم و غير ذلك.

٦- قيل: أي تفعل الملآئكة هذا الّذي وصفت بهؤلآء المنافقين من أجل أنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه تعالى فأغضبه عليهم من طاعة الشّيطان، و كرهوا مايرضاه عنهم من قتال الكفّار و تركهم الجهاد مع رسول اللّٰه«صلى الله عليه و آله» بعد ما افترضه عليهم فأبطل اللّٰه ثواب أعمالهم و أذهبه لأنّها عملت في غير رضاه ولامحبّته، فبطلت ولم تنفع عاملها.

٧-قيل: أي ذلك الإذلال و الإهانة و التّوفّي على تلك الحالة المذكورة كأنّهم ضربوا وجوههم لأنّهم أقبلوا على مواجب سخط اللّٰه عليهم، و ضربوا أدبارهم لأنّهم أعرضوا عمّا فيه رضا اللّٰه، فأحبط اللّٰه لذلك أعمالهم الّتي عملوها حال ايمانهم من الطّاعات. و قيل: أي ما كان بعد من أعمال البرّ الّتي لو عملوها حال الايمان لانتفعوا بها، فحكم تعالى بأنّها باطلة محبطة لايستحقّ عليها ثواب.

٨- قيل: ذلك التّوفّي المذكور لهؤلآء المنافقين المرتدّين، و قادتهم بسبب أنّ التّابعين في اتّباعهم لقادتهم، اتّبعوا ما أسخط اللّٰه تعالى من خلافة أبي بكر بن أبي قحافة، و حليفيه: عمر ابن الخطّاب و عثمان بن عفّان، ظالمي أميرالمؤمنين و غاصبي حقوقه«عليه السلام» و كراهة المتبوعين الظّالمين الغاصبين الهتّاكين لحرمات أهل بيت الوحى

المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين رضوان اللّٰه من ولاية أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ بعد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بلافصل، فأحبط اللّٰه سبحانه أعمال التّابعين و المتبوعين لعنة اللّٰه عليهم أجمعين الّتي عملوها قبل ذلك من الخيرات الّتي كان تمامها و كمالها بالولاية لأميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ كالصّلاة الّتي يكون تمامها و كمالها بالسّلام، كما أنّ خيرات أتباعهم بعدهم من دون برآئة منهم و لا ولاية لأميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ كالصّلاة بغير تطهير و لاطهارة.

٩- قيل: أي ذلك الهول الّذي يرى هؤلآء المنافقون و رؤسآئهم الكافرون من أجل أنّهم انهكموا في المعاصي، و زيّنت لهم الشّهوات، و كرهوا ما يرضى اللّٰه تعالى من الايمان به و العمل على طاعته، والإخلاص له في السّرّ و العلن، و من الامتناع من المعاصي والقبآئح... فأحبط اللّٰه تعالى ما عملوه من البرّ و الخير كالصّدقات، و قرى الضّيف، و مساعدة البآئس الفقير و إغاثة الملهوف و ما إليها، فإنّهم فعلوه و هم مشركون باللّٰه تعالى و كافرون بكتابه و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فلم تكن أعمالهم لله و لابأمره، بل بأمر الشّيطان للفخر و حسن الأُحدوثة بين النّاس.

١٠- قيل: «ذلك» إشارة إلى ما يلقاه المنافقون وقادتهم من السّوء و الخزي في الدّنيا و العذاب و النّكال في الآخرة بسبب زيغهم و انحرافهم عن طريق الحقّ و الهدى و عن الصّراط المستقيم و اتّباعهم ما أسخط اللّٰه تعالى و ما أغضبه و أوجب لعنته بما أتوا من منكر العقيدة و القول و العمل، فلم يقبل اللّٰه تعالى منهم عملاً حتّى و لو كان ممّا يحسب في الأعمال الصّالحة للمؤمنين، لأنّهم غير المؤمنين باللّٰه، و الايمان باللّٰه تعالى شرط أوّل لقبول العمل.

١١- قيل: أي سبب عذاب الملآئكة لهم عند توفّيهم أنّ أعمالهم حابطة لاتّباعهم ما أسخط اللّٰه سبحانه من أهوآء النّفس و تسويلات الشّيطان المستتبعة للمعاصي والذّنوب الموبقة كما قال تعالى: «و اتّبعوا أهوآئهم» و قال: « الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» و لكراهتهم رضوان اللّٰه سبحانه وإذ لاعمل لهم صالحاً يشقون بالعقاب، و انّ السّخط و الرّضا من صفاته تعالى الفعليّة و المراد بهما العقاب و الثّواب، فإنّه سبحانه لايحول من حال إلى حال، فسخطه عقابه، و رضاه ثوابه.

أقول: و الثّامن هو المستفاد من الرّوايات الصّحيحة الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين سبق بعضها في بحث النّزول، فراجع، و سيأتي بعضها في بحث روائيّ فانتظر و تأمّل واغتنم ولاتغفل، فإنّ المقام من مزلّة الأقدام إلاّ من رحمه اللّٰه جلّ وعلا.

۲۹- (أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّٰه أضغانهم)

في الآية الكريمة أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي أحسب الّذين في قلوبهم مرض نفاق و شكّ أن لن يظهر اللّٰه عداوتهم و بغضهم للّه تعالى و لرسوله«صلى الله عليه وآله»؟ ۲- عن ابن عباس أيضاً: أي بل أحسب الّذين في قلوبهم مرض حسد أن لن يظهر اللّٰه حسدهم للمؤمنين. ۳- قيل: أى بل أظنّ الّذين في قلوبهم مرض عداوة للّه سبحانه، و مرض حقد شديد لرسول اللّٰه«صلى الله عليه وآله» و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين ومرض حسد لشيعتهم الصّادقين أنّه لن يبرز اللّٰه تعالى عداوتهم و حقدهم و حسدهم و لن يظهرها لرسوله«صلى الله عليه وآله» و أهل بيته«عليهم السلام» و للمؤمنين، بل لاينبغي لهم أن يجعلوا ذلك تحت الاحتمال، فلا تبق منهم مستورة.

۴- قيل: أي بل ظنّ هؤلآء الضّعفآء الايمان الّذين آمنوا أوّلاً على ضعف ايمانهم، ثمّ مالوا إلى النّفاق، و ارتدّوا بعد الايمان، هم الّذين في قلوبهم مرض، فظنّوا أن لن يظهر اللّٰه أحقادهم للدّين و أهله. و ذلك أنّ قوماً آمنوا على ضعف، ثمّ مالوا إلى النّفاق و ارتدّوا بعد الايمان فعدّهم من المؤمنين باعتبار بادئ أمرهم، و قوماً آخرين كانوا منافقين من أوّل يوم آمنوا إلى آخر عمرهم. فالمنافقون على فريقين: فريق آمنوا على ضعف، ثمّ نافقوا، و فريق أسلموا نفاقاً و استسلاماً. قيل: إنّ الآية الكريمة تعمّ للفريقين. و قيل: تعمّ للمستضعفين في الايمان.

۵- قيل: أي أوقع في ظنّ هؤلآء المنافقين الّذين في قلوبهم مرض كفر ونفاق، مرض حقد و شقاق، مرض حسد و عداوة، و مرض فساد و ضلالة... أنّ اللّٰه تعالى سيستر عليهم تلك الأمراض المهلكة، و لايكشف هذه الخبآئث الّتي دسّوها في صدورهم،

والسّموم الّتي تغلى مراجلها في نفوسهم عداوة للّه تعالى و حقداً على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و ضغناً لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و حسداً للمؤمنين الصّادقين، و شنآناً لهم و كيداً ومكراً بهم؟ أحسبوا أن تظلّ تلك الأمراض والرّذائل و السّموم المهلكة مستورة لايفضحها اللّه، ولا يفضحهم بها على أعين النّاس؟ أنّهم لواهمون، مخذوعون بما يصوّرلهم هذا الوهم: أن لن تبدىء تلك الأمراض، و لاتكشف تلك السّموم... بل يظهرها اللّه تعالى على أعين النّاس بعد أن كانت مخبؤة في الصّدور.

٦- قيل: أي أم حسب الّذين في قلوبهم مرض نفاق و شكّ أن لن يخرج اللّه أحقادهم مع المؤمنين، و لايظهرها، و لايبدي عوراتهم لرسوله﴿ﷺ﴾ كانوا يظنّون أنّ أمرهم خافٍ على اللّه، و أنّه عاجز عن فضيحتهم و إظهار ما في قلوبهم من حقد و عداوة للمؤمنين المخلصين، فيبديها حتّى يعرف المؤمنون شكّهم و نفاقهم. ٧- قيل: أي أزعم الّذين في قلوبهم شكّ في دينهم و ضعف في يقينهم، فهم حيارى في معرفة الحقّ أن لن يخرج اللّه ما في صدورهم من الأضغان على المؤمنين فيبديها لهم و يظهرها حتّى يعرف شكّهم و حيرتهم في دينهم.

٨- قيل: أي أحسبوا أن لن يخرج اللّه ما يضمرون في صدورهم من المكروه على المؤمنين. ٩- عن السّدي: أي أحسبوا أن لن يخرج اللّه غِشّهم. ١٠- عن قطرب:أي أزعموا أن لن يخرج اللّه عداوتهم لأهل الإسلام. ١١- قيل: أي أزعموا أن لن يخرج اللّه نفاقهم و عداوتهم وبغضهم للمؤمنين، فيبرزها لرسوله﴿ﷺ﴾ و للمؤمنين الصّادقين. ١٢- قيل: أي أظنّوا أنّ اللّه تعالى لايعلم نفاقهم، أم لايقدر على إخراج أضغانهم، و أحقادهم ضدّ الإسلام و دعوته، فلن يخرجها من صدورهم، و لذلك كانوا مصرّين على النّفاق و الشّقاق بين المسلمين، مسرين نفاقهم إلى غيرهم، كأنّ اللّه سبحانه لايعلم أعمالهم، و اللّه تعالى يعلمها...

أقول: و الخامس هو المستفاد من الرّوايات، و هو الأنسب بسياق هذه السّورة و نزولها فتدبّر جيّداً.

۳۰-(و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول و اللّه يعلم أعمالكم)

في قوله تعالى: «و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم» أقوال: ۱- قيل: أي ولو نشآء أيها الرّسول﴿ﷺ﴾ لعرفناك أشخاص هؤلآء المنافقين المردة و رؤسآئهم الفجرة، فلعرفتهم عياناً بعلامات هي غالبة عليهم، و لكنّا لم نفعل ذلك في جميع المنافقين ستراً على خلقنا، و ردًّا للسّرآئر إلى عالمها، و حرصاً على ألاّ يـؤذون ذوي قـربآئهم مـن المخلصين. ۲- عن ابن عبّاس: أي و لو نشآء لأريناك يا محمّد﴿ﷺ﴾ هؤلآء الكـفّار من اليهود و حلفآئهم من المنافقين بالعلامات القبيحة، فلعرفتهم بها يـعني الأمـارات الدّالّة على سوء نيّاتهم و خبث سرآئرهم...

۳- قيل: أي و لو نشآء لأريناك أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ أمارات هؤلآء المنافقين حتّى تعرفهم بأعيانهم و هو قوله: «فلعرفتهم بسيماهم» أى بعلاماتهم الّتي ننصبها لك لكـن تعرفهم بها معرفة متأخّرة للرّؤية. ٤- قيل: أي و لو نشآء لعرّفناك اولئك المرضى القلوب بعلاماتهم الّتي أعلمناهم بها. فكان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بعد ذلك يدعوا باسم الرّجل من أهل النّفاق.

٥- قيل: أي و لو نشآء لعرّفناكهم بدلائل فارقة واضحة منها أن نسمهم بعلامة في وجوههم يعرفون بها، فلعرفتهم بعلامة النّفاق الظّاهرة من وجوههم ... قال أنس بـن مالك: ما خفى على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بعد هذه الآية أحد من المنافقين، كان يـعرفهم بسيماهم بوحي أو علامة عرفها بتعريف اللّه تعالى إيّاه، و قد كنّا في غزاة و فيها سبعة من المنافقين يشكّ فيهم النّاس، فأصبحوا ذات ليلة، و على جبهة كلّ واحد منهم مكتوب: «هذا منافق» فذلك سيماهم يعرفهم كلّ ناظر إليهم بسمات في وجوههم. و قال ابن زيد: قدر اللّه إظهارهم و أمر أن يخرجوا من المسجد، فأبوا إلاّ أن يتمسّكوا بلا إله إلاّ اللّه، فحقنت دمآؤهم و نكحوا و أنكحوابها. ٦- أقول: و ما يستفاد من السّياق أنّ المعنى: و لو نشآء أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لأريناك سيرة هؤلآء المنافقين المردة، وقادتهم الفجرة – الّذين كانوا يتظاهرون عندك الايمان، و يباطنون الكفر و العدوان، ويغصبون الخلافة

بعدك و يصدّون النّاس عن ولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ﷺ﴾ و هي وحدها سبيل اللّٰه – و نكشف لك سرآئرها و نظهر لك ما في ضمآئرهم، فتراهم على صورهم الواقعيّة يتشكّلون بها يوم القيامة، و إذ لم نشأ ذلك –لأنّ الدّنيا دار ابتلاء و امتحان ليست بدار فيها تبلى السّرآئر، و إنّما هي الدّار الآخرة – فلعرفتهم بسيماهم، فإنّه مطلوب منك أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ أن تتعرّف إلى المنافقين المردة وقادتهم الكفرة الفجرة بنظرك الشّخصيّ. فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

و في قوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول» أقوال: ١– عن أبي سعيد الخدري و ابن مسعود و جابر بن عبداللّٰه انصارى و عبادة بن الصّامت: أي و اللّٰه جلّ وعلا أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لتعرفنّ هؤلآء المنافقين و زعمآئهم في لحن القول يعني ببغضهم عليّ بن أبيطالب﴿ﷺ﴾. ٢– قيل: أي و لتعرفنّهم في فحوى كلامهم و مغزاه و مقصده و معناه يوحى به من خبث ولؤم، فيستدلّ بفحوى كلامهم على سوء سريرتهم و فساد باطنهم و نفاقهم و خبث طينتهم... و اللحن أن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الأنحآء ليتفطّن له صاحبك كالتّعريض و التّورية. قال الشّاعر:

و لقد لحنتُ لكم لكيما تـفقّهوا و اللحن يعرفه ذووا الألبـاب

و إنّما قيل للمخطىء: لاحن لأنّه يعدل بكلامه عن الصّواب.

٣– قيل: أي و لتعرفنّهم بعلامات النّفاق الظّاهرة منهم في فحوى كلامهم، و ظاهر أفعالهم... و ذلك أنّ النّاس مجبولون على أن تنطلق ألسنتهم بما وقّر في أنفسهم و استقرّ في ضمآئرهم من المعاني فتظهرها فلتات اللسان، و كما أنّ العين تظهر ما أكنّه الجنان من حبّ و بغض، و لون الوجه يبيّن ما خفي من الحياء و الخجل و البشر و الحزن و الغضب، هكذا اللسان تأتي على طرفه فلتات تبيّن تلك المخبآت النّفسيّة، فكلام الانسان يدلّ على ما في ضميره، هذا طريق علم المخلوق.

٤– عن ابن عبّاس: أي ولتعرفنّهم في محاورة الكلام، و هي معذرة المـنافقين. ٥– قيل: كان المنافقون يخاطبون النّبيّ بكلام تواضعوه فيما بينهم و النّبيّ﴿ﷺ﴾ يسمع ذلك و يأخذ بالظّاهر المعتاد، فنبّهه اللّٰه تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المـنافقين إذا سمع

كلامهم. و عن الكلبي: فلم يتكلّم بعد نزول هذه الآية عند رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ منافق إلاّ عرفه. ٦- قيل: أي و لتعرفنّهم في لحن القول و لهجته و اسلوبه و إمالته إلى جهة تعريض و تورية من تهجين أمر رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و أمر المرسلين و تقبيحه و الاستهزاء به.

٧- قيل: أي و لتعرفنّ هؤلآء المنافقين وقادتهم حينما يداورونه من القول، فيعدلون عن التّصريح بمقاصدهم إلى التّعريض و الإشارة و إيّاه عنى القائل في مدح محبوبته، فقال:

منطق صآئب و تـلحن أحـيا نا و خير الحديث ما كان لحناً

يريد أنّها تتكلّم بشيئ و تريد غيره، و تعرّض في حديثها، فتزيله عن جهته لفطنتها و ذكآئها. و قد كان المنافقون يخاطبون رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بألفاظ ظاهرها الحسن و هم يعنون بها القبيح. فلحن القول هو النّفاق. و قيل: هو ميل القول عن الصّواب حيث قالوا ما لا يعتقدوه كقوله تعالى حكاية عنهم: «نشهد أنّك لرسول اللّٰه و اللّٰه يعلم إنّك لرسوله و اللّٰه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون» المنافقون: ١).

و قيل: « في لحن القول» أي في الوجه الخفيّ من القول الّذي يفهمه الرّسول﴿ﷺ﴾ و لا يفهمه غيره. ٨- قيل: أي و لتعرفنّ هؤلآء المنافقين و رؤسآئهم في لهجتهم و نبرات صوتهم، و إمالتهم للقول عن الاستقامة و انحراف منطقهم في خطابك فيدلّك على نفاقهم و كذبهم ممّا يقولون.

و ذلك أنّه كان للمنافقين و زعمآئهم من لحن القول هذا، نماذج، كشف القرآن الكريم عن بعض منها، لتكون لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و للمؤمنين الصّـادقين مـعلماً مـن مـعالم الكشف عن نفاق المنافقين وقادتهم في لحون أقوالهم... فيقول اللّٰه تعالى عن مقولة من أقوالهم: «و يقولون سمعنا و عصينا واسمع غير مسمع و راعنا ليّاً بألسنتهم و طـعناً في الدّين و لو أنّهم قالوا سمعنا و أطعنا واسمع و انظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم» النّسآء: ٤٦).

فهم يقولون: «سمعنا» جهرة، ثمّ يـتّبعونها بـقولهم سرّاً «و عـصينا»! أي يـعطون النّبيّ﴿ﷺ﴾ تسليماً بالسّمع، لقد سمعوا ما قال، و يبدو من هذا أنّهم مؤمنون، و لكن

يضمرون في أنفسهم، و يحرّكون على ألسنتهم العصيان لهذا الّذي سمعوه... وهم يقولون لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «إسمع» أى اسمع منّا ما نقول لك، يقولون ذلك جهراً، ثمّ يُتبعون ذلك بدعآء خفيّ على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «غير مسمع» أي أصمّ لاتسمع... و هو دعاءه أي اسمع .. لاسمعت .. لعنهم اللّٰه بما قالوا... و هم يقولون فيما يقولون من خطابهم لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «راعنا» أي ارعنا، و انظر إلينا... و يلوون بها ألسنتهم، فتخرج منطوقة هكذا «راعناً» بالتّنوين المدغوم ... و هي من الرّعونة و الطّيش، يدعون بها على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ أي ذا رعونة، مثل لابن، و تامر أي صاحب لبن و تمر...

و قد رسم اللّٰه تعالى صورة سليمة مستقيمة لهذا الكلام السّقيم المعوج، فقال سبحانه: «و لو أنّهم قالوا سمعنا و أطعنا و اسمع و انظرنا خيراً لهم و أقوم».

و من هذه الأساليب و أمثالهم ممّا ينطق به المنافقون و زعمآئهم ... عرفهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و قد كان المؤمنون الصّادقون يعرفون وجوه المنافقين وقادتهم وجهاً وجهاً، و لذلك كان «يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إنّ اللّٰه مخرج ما تحذرون» التّوبة: ٦٤) و قد كان عمر بن الخطّاب يقول لحذيفة بن اليمان: انظرو دقّق النّظر إليّ هل ترى فيّ نفاقاً؟ إذ كان عالماً بما فيه من النّفاق، فيحذر أن تنزّل عليه سورة تنبّئه بما في قلبه.

٩- قيل: قد كان لمعرفة المنافقين طرق ثلاثة: **الاولى:** قد كانت سمات في وجوههم يعرفهم بها كلّ ناظر إليهم، و إليها أشار تعالى بقوله: «فلعرفتهم بسيماهم».

الثّانية: أنّ المؤمنين الصّادقين كانوا يعرفون المنافقين من لحن قولهم بكياسة و فطانة، يعرفون أنّهم منحرفون عن جادة الحقّ و الهدى، و عن طريق الصّواب و الرّشاد بما فيهم من غمز و لمز و إمالة قول عن استقامة دلالة، و ظهور النّفاق و الشّقاق و الضّلال و العناد و اللجاج و الفساد من فلتات لسانهم... قال الإمام عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾: «ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه و صفحات وجهه» فالمؤمن المخلص هو الّذي ينظر بنوراللّٰه، فيعرف النّاس في لحن القول، و إليها أشار تعالى بقوله: «و لتعرفنّهم في لحن القول» لاشتماله الاضطراب و التّلجلج و غيرهما...

الثّالثة: أنّ اللّٰه تعالى يخبر بما في قلوب المنافقين، فيفضحهم بالوحي، و قد كانوا منه يحذرون كما قال سبحانه: «يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إنّ اللّٰه مخرج ما تحذرون» التّوبة: ۶۴) و قد أخبر بما في قلوبهم في كثير من السّور المدنيّة و خاصّة سورة المنافقين.

و هذه الثّالثة ممّا يرجع إلى غيوب القلوب، يظهره علاّم الغيوب لرسوله الكريم و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين و للمؤمنين الصّادقين: «قد نبّأنا اللّٰه من أخباركم - اعملوا فسيرى اللّٰه عملكم و رسوله و المؤمنون و ستردّون إلى عالم الغيب والشّهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون» التّوبة: ۹۴ و ۱۰۵).

يظهره حفاظاً لكيان الدّعوة و الدّاعية و لكي تعيها أُذن واعية، فيخرج اللّٰه تعالى بعض أضغان المنافقين المردة وقادتهم الفجرة من مخارج لحن القول في كلّ حين، و بعضاً من مخارج سواه بعض حين، و لكي تعبّد جادّة الرّسالة الجادّة، فيُعبَد اللّٰه عبادة جادّة، فاللحن المؤذن بالنّفاق و الشّقاق، بالعناد و اللجاج، و الضّلال و الفساد... لايختصّ بالقول، بل هناك ملامح من ألحان اخرى كلحن الفعل أو الإشارة أو ترك الطّاعة كما ورد أنّ المنافقين يعرفون على عهد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بترك طاعة اللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و غيرها من مقاييس أُخر يقاس عليها النّاس في كلّ ظرف من الظّروف من إقامة الصّلاة و الإنفاق و عمل الصّالحات و الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى على كراهة كلّها من علائم النّفاق قال اللّٰه تعالى: «و لا يأتون الصّلاة إلاّ وهم كسالى ولا ينفقون إلاّ وهم كارهون - و كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّٰه» التّوبة: ۵۴ و ۸۱).

أقول: و الأوّل هو المرويّ عن الفريقين من دون تنافٍ بينه و بين أكثر الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً.

و في قوله تعالى: «و اللّٰه يعلم أعمالكم» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي و اللّٰه يعلم أسراركم و عداوتكم و بغضكم للّٰه و لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾. ۲- عن ابن عبّاس أيضاً: أي واللّٰه تعالى يعلم خبثكم و حسدكم في قلوبكم. فالخطاب لهؤلآء المنافقين. ۳- قيل: أي و اللّٰه تعالى يعلم بغضكم لعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و ما يترتّب عليه من البغي و الفساد

في الأرض، و الشّقاق و الضّلال بين المسلمين، و من القتل و هتك حرمات أهل بيت الوحي المعصومين﴿علیهم السلام﴾، و انحطاط البشريّة و سقوط الإنسانيّة.

فالخطاب لهؤلآء المنافقين المردة و قادتهم الفجرة من أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة الّذين اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم...

٤- قيل: أي و اللّه يعلم أعمالكم أيّهاالنّاس ظاهرها و باطنها، و الطّاعات منها والمعاصي، فلا يخفى عليه شئ منها، فيجازيكم بحسبها. ٥- عن ابن زيد: أي و اللّه يعلم أعمالكم لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته، و المخالف ذلك، و هو مجازي جميعكم عليها بما قدّمتم من خير أو شرّ إذ لايضيع عمل عامل عدلاً منه و رحمة، و هو تعالى يميّز خيرها من شرّها، و إخلاصها من نفاقها. ٦- قيل: أي و اللّه يعلم أعمالكم، فيجازيكم على حسب قصدكم و نيّاتكم، فإنّ الأعمال بالنّيّات... و أنّ نيّة المؤمن خير من عمله و نيّة الكافر شرّ من عمله، و أنّ الخطاب للمخاطبين من المؤمنين و الكافرين و المنافقين على فِرَقهم و طوآئفهم...

أقول: و الثّالث هو الأنسب بظاهر السّياق، من دون تنافٍ بينه و بين القول بالتّعميم فوعد و بشارة للمؤمنين، و وعيد و إنذار لغيرهم.

٣١- (و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم)

في قوله تعالى: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي لنبلونّكم بالبلآء أيّها المؤمنون حتّى يتميّز المعلوم في نفسه لأنّهم إنّما يتميّزون بفعل الايمان.

٢- قيل: أي و لنبلونّكم أيّها النّاس بالأموال و الأنفس حتّى نعاملكم معاملة من كأنّه يطلب أن يعلم. ٣- قيل: أي و لنعاملنّكم معاملة المختبرين حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين عليه.

٤- قيل: أي و لنختبرنّكم حتّى يَعْلَمَ أوليآئي المجاهدين منكم، و أضافه إلى نفسه تعظيماً لهم و تشريفاً كما قال تعالى: «إنّ الّذين يؤذون اللّه و رسوله» الأحزاب: ٥٧) يعني يؤذن أوليآء اللّه تعالى.

٥- قيل: أي و لنبلونّكم أيّها المنافقون المردة و القادة الفجرة حتّى تعلموا أنّكم، و أضافه إلى نفسه تحسّناً كما أنّ الإنسان العالم إذا خولف في أنّ النّار تحرق الحطب يحسن أن يقول له: «نحن نجمع بين النّار و الحطب لنعلم هل تحرق أم لا» فلا يجوز أن يكون المراد حتّى نعلم بعد أن لم نكن عالمين لأنّه سبحانه عالم فيما يزل بالأشيآء كلّها... و لو تجدّد كونه عالماً لاحتاج إلى علم محدث كالواحد منّا و ذلك لايجوز أن يكون غرضاً بالتّكليف، لكن يجوز أن يكون الغرض ظهور حقّ الذّمّ على الإسآئة و إنّما جاز في وصف اللّٰه تعالى الابتلآء لأنّ المعنى أنّه يعامل معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل بالجزآء لها.

٦- قيل: أي و لنبلونّكم بالأموال و الأنفس و الأولاد و البلآء في الجهاد في سبيل اللّٰه حتّي نميّز بها المجاهدين منكم في سبيل اللّٰه، و الصّابرين على مشاقّ التّكاليف الإلهيّة... و أنّ المراد بالعلم الحاصل للّٰه سبحانه من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك، و بنظر أدقّ هو علم فعليّ له جلّ وعلا خارج عن الذّات، يتعلّق به الجزاء. ٧- قيل: أي واللّٰه إنّا نختبر هؤلآء الكفّار و المنافقين بما نكلّفهم من الامور الشّاقّة و الجهاد بالأموال والأنفس، حتّى نعلم جهادكم موجوداً لأنّ الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك، لأنّكم لاتستحقّون الثّواب على ما يعلم اللّٰه أنّه يكون.

٨- قيل: أي و لنختبرنّكم أيّها المؤمنون بالأمر بالجهاد و غيره من التّكاليف الشّاقّة حتّى نميّز الصّادق في ايمانه، المجاهد في سبيل اللّٰه، الصّابر على مشاقّ التّكاليف من غيره و يستبين أمره، و يعرف ذو البصيرة في دينه من ذي الشّكّ و الحيرة فيه، و المؤمن من المنافق. ٩- قيل: أي و لنختبرنّكم بالجهاد و نقص من الأموال و الأنفس و الثّمرات، و من الخوف و الجوع حتّى نعلم علم ظهور المجاهدين منكم أيّها المؤمنون، و الصّابرين في الجهاد و غيره و نظهر لكم و لغيركم أخباركم من طاعتكم و عصيانكم في الجهاد و غيره... فاللّٰه تعالى يعلم المؤمنين الصّادقين الأتقيآء، و المنافقين الكاذبين الأشقيآء، ولكنّه يعامل الفريقين معاملة المختبر بالأمر و النّهى، لتظهر الأفعال الّتي يستحقّ عليها الثّواب و العقاب.

١٠- قيل: أي أُقسم باللّٰه إنّا نختبرنّكم في الحياة الدّنيا بالحسنة و السّيّئة حتّى يظهر

علمنا. ١١- قيل: أي و لنختبرنّكم حتّى نجازي المجاهدين منكم النّاس و الصّابرين، و ذلك أنّ هذا العلم هو العلم الّذي يقع به الجزآء لأنّه يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله: حتّى نعلم المجاهدين علم شهادة لأنّهم إذا أُمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزآء بالثّواب و العقاب يقع على علم الشّهادة.

١٢- قيل: أي و لنأمرنّكم بما لايكون متعيّناً للوقوع، بل يحتمل الوقوع و اللاّوقوع كما يفعل المختبر حتّى يظهر المجاهد و الصّابر من المنافق و المضطرب.

١٣- عن ابن عبّاس أيضاً: أي و اللّه لنختبرنّكم بالقتال حتّى نميّز المجاهدين في سبيل اللّه منكم يا معشر المنافقين، و نميّز الصّابرين في الحرب منكم و نظهر أسراركم و بغضكم و عداوتكم و مخالفتكم للّه و لرسوله﴿ﷺ﴾ كما في قضيّة إمارة أسامة. ١٤- قيل: أي و لنبلونّكم أيّها المؤمنون بالقتل و جهاد أعدآء اللّه حتّى نعلم المجاهدين منكم، و الصّابرين على قتال أعدآئه، فيظهر ذلك لهم و يعرف ذووا البصآئر منكم في دينه من ذوى الشّك و الحيرة فيه، و أهل الايمان من أهل النّفاق و نبلو أخباركم، فنعرف الصّادق منكم من الكاذب.

١٥- قيل: أي و لنتعبّدكم بالشّرآئع و إن علمنا عواقب الأمور. ١٦- قيل: أي حتّى نرى.

١٧- قيل: أي لنختبرنّكم أيّها المؤمنون حتّى نجعل علامة للمجاهدين منكم والصّابرين، و منها أخباركم: الأعمال الجهاديّة الصّابرة الّتي تخبر عن طيبة نفوسكم و حسنة سريرتكم: «و نبلو أخباركم»: حتّى نعلم... و حتّى نبلو أخباركم...، و أنّ هنا علامتين: أحدهما- خفيّة و هي علامة الايمان في القلب. ثانيهما- ظاهرة و هي علامة أخبار الجهاد و الصّبر، فبلوى هذه الأخبار هي من «نعلم المجاهدين...» و لكي تظهر علامة الايمان الخفيّ بمن يعلم السّرّ و أخفى.

فبلوى المؤمنين ذريعة لعلامة الإيمان، و لبلوى أخبار الايمان، فلا تظهر أخبار الايمان إلاّ في تقلّب الأحوال، إذ في تقلّب الأحوال علم جواهر الرّجال، و عند الامتحان يكرم الرّجل أو يهان: فالابتلاء بالبأسآء و الضّرّآء، بالشّرّ و الخير، بالسّيّئة و الحسنة و بالسّعة

و النّعمآء و ما إليها من كرب و بلآء... إنّها تكشف عمّا هو مخبوء في معادن النّـفوس، مجهول لسآئر النّفوس بل و لأصحابها أيضاً غالباً، فإنّ حبّ الشّئ يعمى و يصمّ...

و من ثمّ تتكشّف لها ما خفي عنها أنفسها، و قبل أن تظهر أخبارها كما تـتكشّف لغيرها بعد أن تبلى أخبارها، فكلّ بلوى تخلف عَلَمين: علامتين: واحدة سرّاً لذوات الصّدور، و اخرى جهراً لسآئر النّاس: «حتّى نعلم... و نبلو أخباركم».

فليس المراد من العلم عن الجهل و حاشاه فإنّه هُراء، و لا العلم الفعلي فإنّه تكلّف و تعسّف و كلام اللّه سبحانه منه براء لأنّه بيان للنّاس و هدى و نور...

أقول: و الثّالث عشر هو الأنسب بظاهر السّياق و المستفاد من الرّوايات و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل و لا تغفل.

و **في قوله سبحانه:** «و نبلو أخباركم» أقوال: ١- عن ابـن عـبّاس: أي و نـظهر أسراركم و بغضكم و عداوتكم و مخالفتكم للّه و لرسوله ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾. ٢- قيل: أي و نظهر نفاقكم. ٣- قيل: الأخبار هي الّتي تحكى عنهم من دعوى الايمان و الطّاعة و غيرهما كقولكم: «آمنّا باللّه و باليوم الآخر» البقرة: ٨) و قولهم: «و يقولون آمنّا باللّه و بالرّسول و أطعنا ثمّ يتولّى فريق منهم من بعد ذلك و ما اولئك بالمؤمنين» النّور: ٤٧).

٣- قيل: الأخبار هي العهود الّتي كانوا عاهدوا اللّه عليها كقوله عزّوجلّ: «و لقد كانوا عاهدوا اللّه من قبل لايولّون الأدبار» الأحزاب: ١٥). ٤- قـيل: الأخـبار هـي الأسرار الّتي يضمرونها فيما بينهم و بين قادتهم... و المعنى: و نعلم أسراركم... ٥- قيل: أي و نختبر أسراركم بما تستقبلونه من أفعالكم، أي نختبرها و نظهرها. ٦- قيل: أي و نبلو أفعالكم الّتي عليها المعوّل في الكشف عن ايمان المؤمنين و صبر الصّابرين، فابتلاء اللّه تعالى لأخبار المؤمنين إنّما هو ابتلاء لهم و تعرّف على أحوالهم من أخبارهم الّتي هي حكاية لأعمالهم و تصوير لها... فالمراد بالأخبار، الأعمال من حيث إنّها تـصدر عـن العاملين، فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم، و اختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أنّ اختبار النّفوس يمتاز به النّفوس الصّالحة الخيّرة.

٧- قيل: أي نختبركم بأعمالكم، فنعرف المحسنين مـن المسـيئين، و المـطيعين مـن

العاصين. ٨- قيل: أى و نبلوكم أخباركم عن ايمانكم و موالاتكم المؤمنين في صدقها و كذبها. فينظر صدقها و كذبها... على أنّ إضافتها للعهد. ٩- قيل: أي ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر حسنها و قبحها... و الكلام كناية عن بلاء أعمالهم، فإنّ الخبر حسنه و قبيحه على حسب المخبر عنه، فإذا تميّز الحسن عن الخبر القبيح فقد تميّز المخبر عنه و هو العمل كذلك، و هذا أبلغ من نبلو أعمالكم.

١٠- قيل: الأخبار هي الأراجيف: «لئن لم ينته المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة» الأحزاب: ٦٠) عن فضيل بن عياض أنّه كان إذا قرأ هذه الآية بكى، و قال: «اللّهمّ لا تبتلنا فإنّك إن بلوتنا فضحتنا و هتك أستارنا و عذّبتنا».

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق و المستفاد من الرّوايات و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

٣٢- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّه شيئاً و سيحبط أعمالهم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي إنّ الّذين كفروا بمحمّد﴿ﷺ﴾ و بالقرآن و صرفوا النّاس عن دين اللّه و طاعته، و خالفوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في الدّين من بعد ما تبيّن لهم التّوحيد، لن ينقصوا اللّه بمخالفتهم و عداوتهم و كفرهم، و صدّهم عن سبيل اللّه شيئاً، و سيبطل حسناتهم و نفقاتهم يوم بدر، و هم رؤساآء قريش المطعمين يوم بدر. نظير قوله تعالى: «إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل اللّه» الأنفال: ٣٦).

٢- قيل: هم المنافقون و اليهود الّذين صدّوا عن سبيل اللّه و عادوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و خالفوه﴿ﷺ﴾ من بعد ما تبيّن لهم الهدى أي علموا أنّه نبيّ بالحجج والآيات، و لن يضرّوا اللّه شيئاً بكفرهم و مكايدهم الّتي نصبوها لإبطال دينه، و مشاقّة رسوله﴿ﷺ﴾ و لايصلون بها إلى ما كانوا يبغون له من الغوآئل، و ستكون ثمرتها إمّا قتلهم أو جلاءهم عن أوطانهم... و المراد بصدّ النّاس عن سبيل اللّه، منعهم إيّاهم عن الإسلام بشتّى الوسآئل، و عن متابعة الرّسول﴿ﷺ﴾ و الانضوآء تحت

لوآئه...سيحبط ثواب ما عملوه في دينهم يرجون بها الثّواب. فالمراد بإحباط الأعمال و إبطالها، فلا يثابون في الآخرة على شئ من أعمالهم...

٣- قيل: إنّ الّذين جحدوا توحيد اللّه و صدّوا النّاس عن دينه الّذي بعث به رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و خالفوا رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فحاربوه و آذوه من بعد ما علموا أنّه نبيّ مبعوث و رسول مرسل، و عرفوا الطّريق الواضح بمعرفته و أنّه للّه تعالى رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ لن يضرّوا اللّه شيئاً لأنّ اللّه بالغ أمره و ناصر رسوله و مظهره على من عاداه و خالفوه و سيبطل مكايدهم الّتي نصبوها لإبطال دينه و مشاقّة رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾، و سيذهب أعمالهم الّتي عملوها في الدّنيا، فلا ينفعهم بها في الدّنيا و لا الآخرة، و يبطلها إلاّ ممّا يضرّهم، و هم كفّار مكّة.

٤- قيل: هم اليهود من بني قريظة و النّضير الّذين كفروا باللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و النّاس عن سبيل اللّه و عادوا رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من بعد ما تبيّن له الهدى لما شاهدوا من نعت رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ في التّوراة أو بما ظهر على يديه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من المعجزات، و نزل عليه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الآيات لن يضرّوا اللّه بكفرهم و عصيانهم و صدّهم النّاس شيئاً من الضّرر أو لن يضرّوا اللّه و لا رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بمشاقّته شيئاً أو لن يضرّوا اللّه أي المؤمنين، و سيحبط مكايدهم الّتي نصبوها في إبطال دينه و مشاقّة رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوآئل و لا تثمر لهم إلاّ القتل والجلآء عن أوطانهم أو أعمالهم الّتي عملوا في دينهم يرجون بها الثّواب.

٥- قيل: هم الّذين نافقوا بعد أن آمنوا لن يضرّوا اللّه بكفرهم و صدّهم شيئاً من الأشيآء أو شيئاً من الضّرر أو لن يضرّوا رسول اللّه بمشاقّته شيئاً، و قد حذف المضاف لتعظيمه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بجعل مضرّته و ما يلحقه كالمنسوب إلى اللّه تعالى، و فيه تفظيع مشاقّته﴿صلى الله عليه وآله﴾، و سيبطل جزاء أعمالهم...

٦- قيل: إنّ الآية الكريمة تعمّ الجميع تشجيعاً للمؤمنين على قتال المشركين، و تطييباً نفوسهم أنّهم هم الغالبون بإبطال مساعي المشركين، و تهديداً و وعيداً للمشركين بإبطال أعمالهم تارة و بهدم مساعيهم اخرى.

۷- قيل: إنّ الّذين كفروا بالحقّ و هو أظهر من وجودهم و أفسدوا في الأرض عن قصد و عمد و حاربوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بغياً و طغياناً كي يقضوا على رسالته، و يصدّوا النّاس عن دعوته، و لكنّ اللّه تعالى أبطل أعمالهم و خيّب آمالهم...

۸- قيل: هم بنو قريظة و النّضير و المطعمون يوم بدر كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه و شاقّوا الرّسول﴿ﷺ﴾ من بعد ما تبيّن لهم أدلّة الهدى و صدق رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لن يضرّوا اللّه شيئاً و إنّما يضرّون أنفسهم و اللّه منزّه عن ذلك و سيحبطوا ثواب حسنات أعمالهم أو مكايدهم الّتي نصبوها للمشاقّة المذكورة، و ستكون عاقبتها قتل بعضهم و جلاء البعض الآخر عن الأوطان.

۹- قيل: هم المنافقون المردة و القادة الفجرة الّذين أظهروا بلسانهم الايمان، و أبطنوا الكفر و صدّوا عن سبيل اللّه و طريق الحقّ، و هو أمر الولاية لأميرالمؤمنين عليّ﴿ع﴾ و خالفوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في أمر الولاية ليلة بعد يوم غدير خم و كتابة الصّحيفة، و زمن احتضار رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و اجتماع السّفلة الثّلاثة يوم السّقيفة السّخيفة من بعد ما تبيّن لهم الهدى تارة بعد اخرى، و هو معنى «سبيل اللّه» لن يضرّوا اللّه شيئاً سيبطلها من صدقة و نحوها فلا يرون لها في الآخرة ثواباً.

۱۰- قيل: أي إنّ الّذين وقفوا في وجه الحقّ ليصدّوا النّاس عنه أو بالمال أو الخداع أو أيّة وسيلة من الوسآئل، و عادوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و خالفوه في حياته بإعلان الحرب عليه و المخالفة عن طريقه و الوقوف في غير صفّه أو بعد وفاته بمحاربة دينه و شريعته و منهجه و المتّبعين لسنّته و القآئمين على دعوته، من بعد ما تبيّن لهم الهدى، و عرفوا أنّه الحقّ و لكنّهم اتّبعوا أهوآءهم فأعماهم الغرض الشّخصيّ، و صبّوا على قلوبهم مآء العناد و اللّجاج و العداوة و لكن لم يعلموا أنّهم لن يضرّوا اللّه شيئاً من الضّرر في تلك الجولان أنّهم لن يضرّوا دين اللّه تعالى و لا منهجه و لا القآئمين على دعوته، و لن يحدثوا حدثاً في نواميسه و سننه مهما خالفوا، و مهما بلغ من قوّتهم و قدروا على إيذآء المسلمين فترة من الوقت، فإنّ هذا بلآء وقتيّ ليس ضارّاً لناموس اللّه سبحانه و سنّته و نظامه و نهجه و عباده القآئمين على نظامه و نهجه، و حينئذ يميّز الطّيّب من الخبيث، و المطيع من المنافق، و المحسن من المسيئ.

۱۱- قيل: أي إنّ الّذين كفروا بوحدانية اللّه و جحدوا نبوّة نبيّه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و امتنعوا عن اتّباع دين اللّه و منعوا غيرهم عن اتّباعه بالقهر تارة و بالإغواء اخرى، و عاندوا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و باعدوه بمعاداته من بعد ما ظهر لهم أنّه الحقّ و وضح لهم سبيله و عرفوا أنّه رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ لن يضرّوا اللّه بذلك شيئاً، و إنّما ضرّوا أنفسهم، و سيحبط اللّه أعمالهم، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً بل يستحقّون عليها العقاب. و في هذه الآية دلالة على أنّ هؤلآء الكفّار كانوا قد تبيّن لهم الهدى، فارتدّوا عنه أو يكون ظهر لهم أمر النبيّ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾، فلم يقبلوه عناداً و هم المنافقون.

قيل: هم أهل الكتاب ظهر لهم أمر رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ فلم يقبلوه. و قيل: هم رؤسآء الضّلالة جحدوا الهدى طلباً للجاه و الرّياسة لأنّ العناد يضاف إلى الخواصّ، فتبيّن لهم الهدى لأنّهم قد عرفوا الايمان و رجعوا عنه.

۱۲- قيل: أي إنّ الّذين كفروا بما أنزل اللّه في حقّ أميرالمـؤمنين﴿عليه السلام﴾ و صدّوا النّاس عنه﴿عليه السلام﴾ و قاطعوا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ في أهل بيته المعصومين صلوات اللّـه عليهم أجمعين بعد أخذه الميثاق عليهم له﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾، و هم الّذين قال اللّه تعالى فيهم في هذه السّورة: «كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم - و اتّبعوا أهوآءهم - أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم - إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّه يعلم إسرارهم - و نبلو أخباركم» ۹ و ۱۴ و ۱۶ و ۲۲ - ۳۱).

و الهدى: الدّلالة المؤدّية إلى الحقّ، و الهادي: الدّالّ على الحقّ.

۱۳- قيل: هم رؤسآء الشّرك و الضّلالة و الكفر و العداوة من كفّار مكّة و اللاّحقين بهم لأنّهم الّذين صدّوا النّاس عن طريق الحقّ و الهدى، و الخير و الصّلاح، و شاقّوا الرّسول﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و عادوه أشدّ المعاداة بعد ما تبيّن لهم طريق الحقّ و الهدى... لن يضرّوا اللّه شيئاً من الضّرر لأنّ كيد الإنسان و مكره لا يرجع إلى نفسه، و لايضرّه إلاّ إيّاه، و سيحبط اللّه تعالى مساعيهم لهدم أساس الدّين، و ما عملوه لإطفآء نور اللّه جلّ وعلا.

فالآية الكريمة شاملة لأهل الكتاب ممّن آمن ثمّ ارتدّ، و من لم يؤمن من بعد ما تبيّن

له الهدى، و للمشركين ممّن آمن ثمّ ارتدّ أو من أسلم نفاقاً ثمّ برز كافراً أو لم يؤمن، و للمسلمين ممّن ولد مسلماً و نافق و من ارتدّ و كفر، فكلّهم «لا يضرّون اللّه سبحانه شيئاً من الضّرر: «و من ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً» آل عمران:١۴۴) «إنّ الّذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضرّوا اللّه شيئاً» آل عمران: ١٧٧).

بل و لن يضرّوا المؤمنين أيضاً إلاّ أذى: «لن يضرّوكم إلاّ أذى و إن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لا ينصرون» آل عمران: ١١١) «و سيحبط أعمالهم»: شريرة في الكفر والضّلال، في الصّدّ و الشّقاق، و في الشّرّ و العناد في الاولى، فلا يؤثران في إطفاء نور اللّه، أم و خيرة -لو صحّ التّعبير عمّا يعملون من خير- في الاولى، فأعمالهم بالية خواء، واللّه تعالى منهم براء، و هنا يطمئنّ المؤمنون بنصر اللّه، فلا يخافون و لا ألدّ الكفّار مهما ثاروا في كفرهم و فارّوا، فهم أضأل و أضعف من أن يلحقوا ضرراً باللّه، بل اللّه تعالى هو الّذي يلحق بهم ضرر الإحباط، مهما أبرقوا و أرعدوا ضدّ الدّعوة الدّاعية، آذوا رسول اللّه(ﷺ) و المؤمنين فترة من الزّمن، فالعاقبة للمتّقين، و حتّى الاولى في نصرة ربّ العالمين: «إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١).

أقول: و التّاسع هو الأنسب بظاهر السّياق و في معناه بعض الأقوال الأُخر.

٣٣-(يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم)

في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول» أقوال: ١- عن ابن عباس: أي يا أيّها الّذين آمنوا بالعلانية أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول في السّرّ. فالآية الكريمة في المنافقين و قادتهم الّذين أظهروا الايمان و أبطنوا الكفر. ٢- قيل: أي يا أيّها الّذين آمنوا باللّه و صدقوا رسوله(ﷺ) أطيعوا اللّه فيما أمركم من الطّاعات فافعلوها، و ما نهاكم عنه من المعاصي صغيرها و كبيرها فاجتنبوها، و أطيعوا الرّسول(ﷺ) فيما أمركم به، فخذوا ما آتاكم، و انتهوا عمّا نهاكم عنه كما قال اللّه تعالى: «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتّقوا اللّه إنّ اللّه شديد العقاب» الحشر: ٧).

٣- قيل: أي يا أيّها الّذين صدقوا بوحدانية اللّه و قدرته و سائر صفات كماله و

جماله و جلاله، و صدقوا رسوله(ﷺ) فيما جآءكم على لسانه من التّكاليف والشّرائع... أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول في اتّباع أوامرهما، و الانتهاء عن نواهيهما. ٤- قيل: أي أطيعوا اللّه بتوحيده و أطيعوا الرّسول بتصديقه. ٥- قيل: أي أطيعوا اللّه في حرمة رسول اللّه(ﷺ) و أطيعوا الرّسول(ﷺ) في تعظيم أمر اللّه تعالى. ٦- قيل: أي يا أيّها الّذين آمنوا بمحمّد(ﷺ) و القرآن أطيعوا اللّه فيما أمركم من الفرآئض والصّدقات... و أطيعوا الرّسول(ﷺ) فيما أمركم من السّنّة و الغزو و الجهاد. و عن مقاتل: يقول اللّه: «إذا عصيتم الرّسول(ﷺ) فقد أبطلتم أعمالكم» فيجب على المؤمنين طاعة اللّه تعالى فيما أنزل من الكتاب و شرّع من الحكم، و يجب عليهم طاعة رسول اللّه(ﷺ) فيما بلّغ عن اللّه جلّ وعلا، و فيما يُصدر من الأمر من حيث ولايته(ﷺ) على المؤمنين في المجتمع الدّيني و إنّ طاعة اللّه سبحانه هي في اتّباع محكم كتابه، و طاعة رسول اللّه(ﷺ) هي في سنّته الثّابتة الجامعة غير المفرّقة، الموافقة لكتاب اللّه المجيد فمن توهّم أنّه يطيع اللّه سبحانه تقوّلاً: «حسبنا كتاب اللّه» ثمّ يترك سنّة رسول اللّه(ﷺ) فقد أبطل أعماله، كمن يتوهّم أنّه يطيع رسول اللّه(ﷺ) اتّباعاً لما يروى عنه مهما خالف كتاب الله أو لم يؤيّده الكتاب، فقد أبطل أعماله، و إنّما طاعة الله تعالى في كتابه كأصل، و طاعة رسول الله(ﷺ) في سنّته كفرع شارح غير جامع، هامعاً أساسان لاسواهما في اتّباع دين الله تعالى كما قال الله تعالى: «كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب و بما كنتم تدرسون» آل عمران: ٧٩).

و قال رسول الله(ﷺ): «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً» و لم يقل: بأحدهما.

أقول: و الأوّل هو الأنسب بسياق السّورة فتدبّر جيّداً و لا تغفل.

و في قوله سبحانه: «و لا تبطلوا أعمالكم» في موجبات إبطال الأعمال أقوال: ١-عن ابن عبّاس: إنّ النّفاق و البغض و العداوة و مخالفة رسول اللّه(ﷺ) توجب بطلان الحسنات. فالمعنى: و لا تبطلوا حسناتكم بالنّفاق و البغض و العداوة و مخالفة الرّسول(ﷺ). ٢- قيل: إنّ الكفر و الإرتداد و الضّلال و النّفاق و الرّياء و العصيان

كلّها من موجبات إيطال الأعمال. ٣- عن ابن عبّاس أيضاً و عطاء: أي و لا تبطلوا أعمالكم بالشّرك و النّفاق و الشّك.

٤- قيل: إنّ المنّ على اللّه سبحانه و رسوله بالايمان و الطّاعة و الأعمال الصّالحة يوجب إيطالها كما قال تعالى: «يمنّون عليك أن أسلموا» الحجرات: ١٧) كما أسلم بنو سعد و قيل: بنو أسد و جآؤا إلى رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و قالوا: «قد آثرناك و جئناك بنفوسنا و أهلينا منّاً بذلك عليه﴿صلی الله علیه و آله﴾ فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك، و بيّن أنّ هذا ممّا يبطل أعمالهم... و المعنى: و لا تبطلوا أعمالكم بالإسلام. فهو خطاب لمن كان يمنّ على رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ بإسلامه.

٥- عن ابن عبّاس أيضاً و الكلبي و ابن جريج: إنّ الرّيآء و السّمعة من موجبات إيطال الأعمال الصّالحة. ٦- قيل: أي و لاتبطلوا أعمالكم بسبب العجب، فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب. ٧- عن مقاتل و أبي العالية و الثّمالي: أي و لا تبطلوا حسناتكم بالمنّ و الأذى على من أحسنتم إليه كما قال تعالى: «لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى» البقرة: ٢٦٤).

٨- عن الحسن: إنّ المعاصي و الذّنوب صغيرها و كبيرها توجب بطلان الحسنات... و المعنى: و لا تبطلوا حسناتكم بالذّنوب و المعاصي الّتي تخرج الإنسان عن الايمان. ٩- عن الزّهرى: أي و لا تبطلوا طاعاتكم و صالح أعمالكم بالكبآئر الموجبات و الفواحش. ١٠- قيل: إنّ إساءة الأدب عند الرّسول﴿صلی الله علیه و آله﴾ بالجهر في القول هي المؤدّية لإبطال الأعمال. ١١- قيل: أي لاتوقعوا أعمالكم على خلاف الوجه المأمور به، فيبطل ثوابكم عليها و تستحقّون العقاب.

١٢- قيل: أي و لاتبطلوا بمعصيتكم اللّه تعالى و رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و كفركم بربّكم ثواب أعمالكم، فإنّ الكفر باللّه سبحانه يحبط السّالف من العمل الصّالح. ١٣- قيل: أي و لاتبطلوا أعمالكم بالانحراف عن جادّة الحقّ و الهدى بأيّ شكل، فالمراد به النّهي عن كلّ سبب من الأسباب الّتي تكون سبباً لإبطال الأعمال كائناً ما كان من دون تخصيص بنوع معيّن. ١٤- قيل: أي و لاتبطلوا أعمالكم بالتّخلّف عن حكم القتال كما تخلّف المنافقون و أهل الرّدّة، فبطلت أعمالهم.

۱۵- قيل: أي و لاتبطلوا أعمالكم الصّالحة السّالفة بترك طاعة اللّٰه تعالى و طاعة رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ بعد تلك الأعمال... ۱٦- قيل: أي و لاتبطلوا أعمالكم بدون ولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ فإنّها كالطّهارة للصّلاة حدوثاً و بقاءً شرط لقبول الأعمال الصّالحة كما أنّ البراءة من أعدآء أميرالمؤمنين و غاصبي حقوقه و ظالميه شرط لقبولها كالتّطهير للصّلاة حدوثاً و بقاءً، فكما أنّ التّطهير و الطّهارة شرطان لازمان حدوثاً و بقاءً لصحّة الصّلاة، كذلك البراءة من هؤلآء الظّالمين و الولاية لأميرالمؤمنين عليّ﴿علیه السلام﴾ شرطان لازمان لقبول الأعمال الصّالحة...

۱۷- قيل: أي و لاتبطلوا أعمالكم بغير قصد الوجه و الطّاعة و لا النّيّة اللاّزمة، فالطّاعة في الواجب ايجابه و تطبيقه، و في الحرام تحريمه و تركه، و في المباح إباحته، و في المندوب الانتداب إليه، و في المكروه كراهته، فمن يأتي بواجب بغير نيّة الوجوب، من استحباب أو كراهية أو إباحة أو حرمة فقد أبطله، و هو أضلّ ممن تركه، فتجاوب الايمان و النّيّة و العمل مع الكتاب و السّنّة، إنّه لزام صحّة العمل، كما أنّ من أتى بواجب على شروطه ولكنّه رئاء النّاس فقد أبطله، حيث لم يطع اللّٰه تعالى في نيّة العمل: «إنّما يتقبّل اللّٰه من المتّقين» المائدة: ۲۷) «فادعوا اللّٰه مخلصين له الدّين» غافر: ۴۰).

و ترى أنّ البطلان طابع الأعمال الّتي يؤتى بها دون الطّاعة - فقط - أم و انّها تبطل بقيّة الأعمال الّتي تؤتى على وجوهها من الطّاعة المصحّحة؟ كأنّها هي الاولى كضابطة عامّة، و من ثمّ الأعمال الّتي تربطها رباط الشّرط و المشروط أم ماذا كمن يأتي بوضوء فاسد، ثمّ يأتي بصلاة على شروطها إلاّ الطّهارة، فباطل الوضوء يبطل الوضوء، أو يقال: إنّها صلاة متخلّفة عن الطّاعة في الطّهارة فلاتبطل الأعمال الصّالحة إلاّ أنفسها كما الصّالحة تصلح أنفسها، فالأعمال الّتي يؤتى بها طاعة اللّٰه تعالى و لرسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ صحيحة و سواها باطلة حابطة.

أقول: و الأوّل هو الأنسب بسياق السّورة و في معناه السّادس عشر فتأمّل جيّداً.

۳٤- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّه لهم)

في الآية الكريمة أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي إنّ الّذين كفروا بمحمّد﴿ﷺ﴾ والقرآن و هم المطعمون يوم بدر و صرفوا النّاس عن دين اللّه تعالى و طاعته، ثمّ ماتوا أو قتلوا و هم كفّار باللّه و برسوله﴿ﷺ﴾ فلن يغفر اللّه لهم لأنّهم كفّار باللّه و برسوله﴿ﷺ﴾. و المراد بالكافرين هم أصحاب قليب بدر. و قيل: هم رؤسآء بدر.

۲- قيل: أي إنّ الّذين أنكروا توحيد اللّه و كذبوا رسوله﴿ﷺ﴾ و صدّوا من أراد الايمان باللّه و برسوله﴿ﷺ﴾ عن ذلك ففتنوهم عنه بالمنع و الإغراء و الدّعآء إلى غيره، و حالوا بينهم و بين ما أرادوا من ذلك، ثمّ ماتوا و هم باقون على كفرهم فلن يعفو اللّه عمّا صنعوا من ذلك و لكنّه يعاقبهم عليه و يفضحهم به على رؤس الأشهاد.

۳-قيل: أي إنّ الّذين امتنعوا عن الدّخول في الإسلام و سلوك طريقه، و أعرضوا عن الايمان حقّاً و صدّوا النّاس عن طريق الحقّ و الهدى، و منعوا النّاس عن الايمان، و أصرّوا على الكفر حتّى ماتوا على كفرهم فلن يغفر اللّه لهم أبداً.

٤- قيل: أي إنّ الّذين كفروا بتركهم طاعة اللّه تعالى و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ و أبطلوا أعمالهم باتّباع ما أسخط اللّه و كراهة رضوانه، و منعوا النّاس عن طاعة اللّه و رسوله﴿ﷺ﴾ و لذلك لحقوا بأهل الكفر، ثمّ ماتوا و هم كفّار، فلن يغفر اللّه لهم.

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق.

۳٥- (فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّه معكم و لن يتركم أعمالكم)

في قوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس و مجاهد و ابن زيد: أي فلا تضعفوا يا معشر المؤمنين بالقتال مع عدوّ اللّه و عدوّكم، و لا تتخاذلوا، و لاتظهروا ضعفاً أمامهم، و لاتدعوهم إلى الصّلح معهم إذا لقيتموهم... و قد أثبتت الحوادث و التّجارب أنّ من و هن أمام عدوّه فقد زوّده بالسّلاح الّذي يقتله به، سواء

أكان في ميدان الحرب أم في خارجه، و كان في عرصة الجهاد في سبيل اللّٰه بـالأموال والأنفس أم في غيرها...

٢- قيل: أي فلا تتوانوا أيّها المسلمون في قتال أعدآءكم المحاربين، و لاتدعوهم إلى المصالحة و المسالمة خوفاً و إظهاراً للعجز، فلا تظهروا الوهن و الذّلّة و الضّعف و العجز والفتور عند عدوّكم بدعوتكم إيّاهم إلى المصالحة... ٣- قيل: أي فلا تـتهاونوا و لا تفتروا فيحرب المشركين المحاربين و لا تكونوا بادئين في طلب الموادعة و المسالمة. ٤- قيل: أي فلاتذلّوا و لاتجبنوا في قتال المشركين المعتدين إلى أن يسلموا. ٥- قيل: أي فلا تتخاذلوا في قتال الكفّار و المشركين و لاتدعوهم إلى المصالحة و الموادعـة إذا كـنتم متفوّقين عليهم... و هذا لا يمنعهم من مصالحتهم و موادعتهم إذا كانوا هم متفوّقين عليهم كما صالح رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بقريش في الحديبيّة.

٦- قيل: أي فلاتفتروا عند مواجهتكم مع الكفّار في ميدان القتال، و لا تدعوهم إلى الإسلام قبل القتال. ٧- قيل: تقديره: إذا علمتم أنّ اللّٰه عزّوجلّ يبطل أعمال الكافرين و يعاقبهم و يخذلهم في الدّنيا و الآخرة، فلا تبالوا بهم، و لاتظهروا أمـامهم ضـعفاً، و لاتدعوهم إلى الصّلح خَوَراً و ظهاراً للعجز، فإنّ ذلك إعطآء الدّنيّة. فالفاء تفريع على ما تقدّم.

٨- قيل: تقديره: إذا كان الايمان باللّٰه تعالى و طاعة اللّٰه و طاعة رسـوله﴿ﷺ﴾ مؤدّياً إلى أمن الأعمال و عاملها، و كان الكفر باللّٰه و معصيته و مخالفة رسوله﴿ﷺ﴾ موجباً لإبطال الأعمال و حرمان عاملها من مغفرة اللّٰه تعالى أبداً فـلا تـتهاونوا و لا تفتروا في أمر القتال مع الكفّار المحاربين و لاتدعوهم إلى الصّلح و ترك القتال.

قيل: زمن مبكر من العهد المدنيّ، و المسلمون فيه مبكرون من العـهد الإسـلامي المكّيّ الّذي لم يؤمروا فيه بحرب، فطبعاً تستثقل جماعة منهم تكاليف الجهاد الطّآئـل، فتهن عزآئمهم، راغبين في الهدنة السّلم، لحدٍّ قد يجنحون إليه، فتتهدّم قـواعـد القـدرة والشّوكة الإسلاميّة إلى ذلّة شآئكة استسلاميّة! فهنالك النّهي التّهديد عن الدّعوة إلى السّلم وهناً، مضمناً أسباب نجاحهم بمثلّث: العلوّ الايمانى، و المعيّة المنتصرة الإلهيّة، و

ثواب الأعمال المستمرّ، فلا دعوة للسّلم إذاً، و إنّما قبول لها ككرامة إنسانيّة من العدوّ إن جنح للسّلم: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها» الأنفال: ٦١).

فإذا طمأنكم ربّكم بنجاحكم عاجلاً و آجلاً، و بإحباط أعمال الكافرين فيهما «لا تهنوا» عن الحرب في معارك الشرّف و الكرامة، في سبيل اللّه، في سبيل صالح الكيان الإنسانيّ الإسلاميّ، الفردي و الجماعي، و من أذلّ و أرذل مظاهر الوهن حال رديئة خآئبة: «و تدعوا إلى السّلم» فلا تدعوا إليه دعوة ذليلة لعدوّكم كأنّه غالب عزيز، والحرب لمّا تحتدم، أم احتدمت، كما ومن الوهن ترك ابتغآء القوم: «و لاتهنوا في ابتغآء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون و ترجون من اللّه ما لايرجون» النّسآء: ١٠٤).

و منه الوهن لما يصيب المحارب في سبيل اللّه، فيفشل فيفرّ من الزّحف أم ماذا: «فما وهنوالماأصابهم في سبيل اللّه و ما ضعفوا و ما استكانوا و اللّه يحبّ الصّابرين» آل‌عمران: ١٤٦) لا تهنوا هنا و لا هناك.

أقول: و على الثّامن أكثر المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر.

و في قوله سبحانه: «و أنتم الأعلون» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و أنتم الغالبون عليهم آخر الأمر. ٢- عن مجاهد: أي أنتم القاهرون الأقهرون لهم، الغالبون الأغلبون المستولون عليهم إذا كنتم قلباً واحداً و يداً واحدة على عدوّ اللّه و عدوّكم. ٣- قيل: الواو للحال، و المعنى: لاتدعوا الكفّار المحاربين إلى الصّلح، و أنتم في الحال الّتي تكون الغلبة فيها لكم. ٤- عن ابن زيد: أي و الحال أنّكم أنتم الغالبون الأعزّ منهم. ٥- قيل: أي و أنتم أعلم باللّه منهم. ٦- قيل: أي و أنتم الأعلون في الحجّة و البرهان. ٧- عن قتادة: أي و أنتم أولى باللّه منهم.

٨- قيل: إنّه ابتداء إخبار من اللّه تعالى عن حال المؤمنين: أنّكم الأعلون يداً و منزلةً آخر الأمر لأنّكم مؤمنون باللّه تعالى، و مطيعون للّه و لرسوله﴿ﷺ﴾ و إن غلبوكم في بعض الأوقات و الأحوال، و قهروكم في بعض الحروب. و قال قتادة: لاتكونوا أوّل الطّائفتين ضرعت إلى صاحبتها و دعتها إلى الموادعة.

۹- قيل: أي و أنتم الأعلون أيّها المؤمنون المطيعون للّه تـعالى و لرسـوله(ﷺ) لصلتكم بالملا الأعلى، أنتم الأعلون منهجاً و هدفاً و غاية و شعوراً و سلوكاً و تصوّراً و قوّة و مكاناً و نصرة لأنّ معكم القوّة الكبرى «و اللّه معكم» فلستم وحدكم، أنّكم في صحبة العلى الجبّار القادر القهّار و هو تعالى لكم نصير، حاضر معكم، يدافع عنكم، لأنّ اللّه يدافع عن الّذين آمنوا، فالوحدة لأعدآءكم، و فنآء البذل من أعدآءكم، و ضياع السّعي من مخالفيكم، و هدم الجهد من أعدآءكم، و إطفآء السّراج في دار مخالفيكم، و أمّا أنتم المؤمنون «و لن يتركم أعمالكم» فبذلكم و سعيكم و جهدكم ثابتة، و لا يطفئ نوركم و نور ايمانكم، و نور داركم، و لن يفقد منكم شئ.

أنتم الأعلون أيّها المؤمنون الصّادقون، العليا في النّفوس و الضّمآئر، العليا في الخلق والسّلوك، العليا في النّظم و الأوضاع، العليا في العلاقات و الارتباطات، و العليا في كلّ أنحآء الحياة دنياً و آخرة.

و أنتم الأعلون أيّها المؤمنون المخلصون: علوّ العقيدة و الايمـان، عـلوّ التّـصميم و الإرادة، علوّاً في تفهّم الحياة و غايتها و صلتها بالعقيدة و بـالملاء الأعـلى، عـلوّاً في الآخرة والاولى، و فيما يصمد العزم و يقوي الحزم، علوّاً حتّى إذا قتلتم في سبيل اللّـه تعالى إذ تتّصل أرواحكم بالملاء الأعلى و أنتم الأحيآء عند ربّكم ترزقون.

أقول: و لكلّ وجه، و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق، فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «و اللّه معكم» أقوال: ۱- قيل: أي و اللّه معكم إذ أنتم آمنتم به و أطعتموه و لبّيتم دعوة رسوله(ﷺ) إلى الجهاد بالنّفس و النّفيس على عدوّ الحقّ و عدوّكم المحاربين، فاللّه تعالى ناصركم عليهم و الدّافع عنكم، فلا تميلوا مـع ذلك إلى الصّلح و المسالمة، بل جاهدوا و اصبروا عليه. فالمراد بمعيّة اللّه سبحانه لهم معيّة خاصّة، و هي معيّة الهداية و النّصرة، معيّة العزّة و الكرامة، و معيّة الكلاءة و المعونة على العدوّ، فالغلبة في أيّ شكل من أشكالها: قاتلين أو مقتولين! دون المعيّة القيّوميّة الّتي أشار إليها بقوله سبحانه: «و هو معكم أينما كنتم» الحديد: ۴).

۲- قيل: اريد بالمعيّة هنا المعيّة القيّوميّة. ۳- قيل: اريد بها العموم.

أقول: و على الأوّل أكثر المحقّقين.

و في قوله جلّ وعلا: «و لن يتركم أعمالكم» أقوال: ١- قيل: أي و لن يبطل أعمالكم أيّها المؤمنون المطيعون للّه تعالى ولرسوله﴿ﷺ﴾ كما أبطل أعمال المنافقين المردة و قادتهم الفجرة... فلا يقطع أعمالكم عنكم، بل هي في صحبتكم تجدونها حاضرة يوم الجزآء.

فإن قتلتم في معركة القتال أو انهزمتم، والحرب سجال و امتحان، وليس انهزامكم انهزام الامتهان، لن يقطعكم أعمالكم بعد انقطاع الحياة و لا إذا بقيتم من سآئر الأعمال الصّالحة، و لا الأعمال الجهاديّة، فإنّه تعالى يجازيكم بها خير الجزآء، فليست أعمالكم مبتولة الجزاء و لا سواها من خير تبغونه لو بقيتم أحيآء، فلئن قتلتم لن يقطعكم اللّه هذه الأعمال، فإنّه بمنّه و فضله يكتبها لكم دون أن تعملوها، فيكفيكم أن تأملوها ففاجأكم القتل فلم تعملوها.

فلم تنقطع عنكم خير الحياة بانقطاع الحياة، فإنّما انقطع عنكم شرّها، ثمّ كتب لكم خيرها و لم تعملوها، و كتب لكم بالجهاد خير الجزاء، فأنتم أنتم الأعلون لا من المنافقين و قادتهم و لا من الكافرين فحسب، بل و من سآئر المؤمنين أيضاً: إذ «فضّل اللّه المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً» النساء: ٩٥).

ف «لن» هنا في «لن يتركم أعمالكم» لها موقعها لا سيّما للقتلى في سبيل اللّه، لن تجد مثلها في غيرها، فإنّها تحيل - بفضل اللّه - انقطاع الصّالحات عن قتلى الأموات، بانقطاع الحياة: إنّ اللّه سوف يكتب لهم حسنات، و علّه إلى يوم القيامة، فإنّ «لن» للاستحالة المقتضية استغراق الزّمان، منذ القتل إلى انقضآء الزّمان في الاولى، ثمّ اللّه ينمي تلكم الصّالحات في الاخرى.

ثمّ المقاتلون الّذين لم يقتلوا، هم كذلك «لن يتركم أعمالكم»: الأعمال الصّالحة الّتي تركت مغبة الجهاد، و من ثمّ - و علّها أيضاً - الصّالحات المتروكة بعد المات، فإنّها لم تنقطع عنهم بعد الجهاد الاستماتة، فالجهاد في سبيل اللّه ممّا يخلد المجاهد في حياة الصّالحات، و بعد أن قتل أو مات، و لأنّه باذل حياته للّه، فينصبغ بصبغة اللّه، و يخلد صالحاً و إن قتل أو مات، و لكنّما القتلى لهم خطوتهم إذ يبعدون بالقتل عن شرور الحياة و تضمن لهم خيراتها!

فعلى المؤمن العاقل النّابه أن يجنح للقتال مع المحاربين، و للجهاد في سبيل اللّٰه لإحياء الحقّ و إيطال الباطل بالأموال و الأنفس... و هو في مثلّث النّجاح و الفلاح: «أنتم الأعلون - و اللّٰه معكم - و لن يتركم أعمالكم» ولتكن مقالته للمخالفين المعاندين والكافرين المحاربين: «هل تربّصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين و نحن نتربّص بكم أن يصيبكم اللّٰه بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربّصوا إنّا معكم متربّصون» التّوبة: ٥٢).

٢- عن مجاهد: أي لن ينقصكم أجور أعمالكم بل يثيبكم عليها و يزيدكم من فضله. من وترت الرّجل: إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم أو سلبت ماله و ذهبت به. فشبّه إضاعة عمل العامل و تعطيل ثوابه بوتر الواتر و هو إضاعة شيء معتدّ به من الأنفس و الأموال...

و هو من فصيح الكلام، و فيه هنا من الدّلالة على مزيد لطف اللّٰه تعالى ما فيه، و منه الحديث عن رسول اللّٰه(ﷺ): «من فاتته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله و ماله» أي نقص.

٣- عن ابن عبّاس و قتادة و ابن زيد و الضّحّاك: أي و لن يظلمكم. ٤- قيل: أي و لن يضيع أعمالكم. ٥- عن ابن عبّاس أيضاً: أي و لن ينقص أعمالكم في الجهاد. ٦- قيل: أي و لن ينقصكم في أعمالكم. ٧- قيل: أي و لن يفردكم بغير ثواب. من وتر يتر وتراً: فرد يفرد فرداً و منه صلاة الوتر. ٨- قيل: أي و لن يحرمكم من ثواب أعمالكم، و لن ينقص أعمالكم من ثوابها. ٩- قيل: أي و لن يضجعكم في أعمالكم. ١٠- قيل: أي أيّة خسارة تلحق بكم في الجهاد بالأموال و الأنفس في سبيل اللّٰه و القتال مع أعدآء اللّٰه فإنّ اللّٰه يعوّضها أضعافاً.

أقول: و المعاني متقاربة.

٣٦- (إنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و إن تؤمنوا و تتّقوا يؤتكم أُجوركم و لا يسئلكم أموالكم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي إنّما ما في الحياة الدّنيا باطل و فرح

لايبق و إن تستقيموا على ايمانكم بـالله و رسـوله﴿ﷺ﴾ و تـتّقوا الكـفر و الشّرّ و الفواحش يؤتكم أُجور ايمانكم و تقواكم، و لايسئلكم جميع أموالكم في الصّدقة، و إنّما أوجب عليكم الزّكاة في بعضها، و اقتصر منه على القليل و هو ربع العشر. و الخطاب لضعفآء الايمان، دعوة لهم إلى الايمان و التّقوى حقّاً.

٢- قيل: أي إنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو أي متاعها و أمدها قصيران زائلان لا ثبات لهما و لا اعتداد بهما، و إن تؤمنوا باللّه و رسوله﴿ﷺ﴾ و تتّقوا اللّه بطاعته و طـاعة رسوله﴿ﷺ﴾ يؤتكم ثواب ايمانكم و تقواكم من الباقيات الصّالحات الّتي يتنافس فيها المتنافسون، و لايسئلكم أموالكم لنفسه أو لحاجة منه إليها بإزآء ما أعطاكم، إنّما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم و تكون زاداً لكم في المعاد.

٣- قيل: أي إنّما الاشتغال بمتاع الحياة الدّنيا و زخارفها و شهرتها و شهـواتهـا و لذّاتها و كُلّ ما اشتغلت به ممّا ليس فيه ضرر في الحال، و لا منفعة في المآل، و لم يمنعك عن مهامّ امورك فهو لعب، فإن شغلك عنها فهو لهو، و من ثمّ يقال: آلات الملاهي لأنّها مشغلة عن غيرها، و يقال لما دون ذلك لعب كـاللعب بـالشّطرنج و النّرد و الحـمام و نحوها... و إن تشتغلوا بامور الآخرة و هي الايمان بالله و التّقوى و هي خير زاد الآخرة يؤتكم اجوركم، و لا يسئلكم جميع أموالكم بل الزّكاة المفروضة فيها.

عن سفيان بن عيينة و الجبائى: أي لا يأمركم بإخراج جميع أموالكم في الزّكاة بل أمر بإخراج بعضها كما يأخذ من الكافر جميع ماله، و فيه مقابلة حسنة لقوله تعالى: «يؤتكم اجوركم» كأنّه قيل: يعطكم كلّ الأُجور و يسئلكم بعض المال و هو ما شرّعه سبحانه من الزّكاة.

و عن سفيان بن عيينة أيضاً: أي لا يسئلكم كثيراً من أموالكم إنّما يسئلكم أن تؤدّوا الحقّ المفروض للفقراء و هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر أو شاة من الأربعين إلى آخر ما في الزّكاة و هو يسير و خفيف، فطيبوا أنفسكم.

٤- قيل: إنّ اللّه تعالى زهّد المؤمنين في الحياة الدّنيا لكونها سريعة الفناء والانقضاء، و رغّبهم في الآخرة لأنّها باقية، و من اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً و منقوصاً. قال

الحسن: الّذي خلقها هو أعلم بها. و معنى الآية: إنّما الحياة الدّنيا ظلّ زائل، و عَرَض غير باق و ما هي إلاّ لذّات مؤقتة لا تلبث أن تزول، و هي مشغلة عن صالح الأعمال، فلا يليق بكم أيّها المؤمنون أن تعضّوا عليها بالنّواجذ، بل اعملوا لما يرضى ربّكم بأنّكم: إن تؤمنوا بالله و رسوله ﴿ﷺ﴾ و تتّقوا معاصيه يؤتكم جزآء أعمالكم في الآخرة، و لا يسئلكم أموالكم كلّها في الإنفاق و الصّدقة، و إن أوجب عليكم الزّكاة في بعض أموالكم الّذي فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامّة دنيويّة كانت أو دينيّة.

٥- قيل: إنّ اللّٰه تعالى قال حاضّاً عباده المؤمنين على جهاد أعدآئه و النّفقة في سبيله، و بذل مهجتهم في قتال الكفّار المحاربين: قاتلوا أيّها المؤمنون أعدآء اللّٰه و أعدآءكم الكافرين المعتدين و لاتدعكم الرّغبة في الحياة إلى ترك قتالهم، فإنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو إلاّ ما كان منها للّه من عمل في سبيله و طلب رضاه، و أمّا ما سواه فإنّما هو لعب و لهو لايلبث أن يضمحل، فيذهب و يندرس فيمرّ أو إثم يبقى على صاحبه عاره و خزيه...

و إن تعملوا في هذه الدّنيا الّتي ما كان فيها ممّا هو لها فلعب و لهو، فتؤمنوا بربّكم و تتّقوه حقّ تقاته و تؤدّوا فرآئضه و تجتنبوا نواهيه، و هو الّذي يبقى لكم منها، و لا يبطل بطول اللّعب و اللّهو، ثمّ يؤتكم ربّكم ثواب أعمالكم، فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم و حاجتكم إلى أعمالكم، و هو لا يأمركم في الزّكاة بإخراج جميع أموالكم، بل يكلّفكم توحيده و رفض ما سواه من الأنداد و الطّواغيت، و يأمركم بإفراد الالوهيّة والطّاعة له تعالى، ثمّ يأمركم بإخراج القليل من أموالكم مواساة لإخوانكم الفقراء و نفع ذلك عائد إليكم لا إليه، و هو غنيّ عنكم، ففي الصّدقات دفع أحقاد صدور الفقرآء عنكم، و في الإنفاق في سبيل اللّٰه و بذل الأموال للجهاد دفع غائلة الشّرور و الفساد عنكم، فكلّه تعود ثمرته إليكم لا إلى اللّٰه سبحانه لاستغنائه المطلق.

و قيل: أي لايسئلكم أموالكم، إنّما يسئلكم أمواله لأنّه المال له تعالى، و هو المنعم بإعطآئها، فإنّ المال مال اللّٰه. و المعنى: لايسئلكم ما هو مالكم حقيقة، و إنّما يسئلكم ما له تعالى، و هو المالك لها حقيقة و هو سبحانه المنعم عليكم بالانتفاع بها. قيل: إنّ الخطاب للمنافقين و دعوة لهم إلى الايمان و الطّاعة.

٦- قيل: أي إنّما الحياة الدّنيا ذات لعب و لهو لأنّ غالب أمر النّاس في الدّنيا اللّعب واللّهو و ذلك عبث و غرور و انصراف عن الحدّ الّذي يدوم به السّرور و الحبور. و قيل: شبهت باللعب و اللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة. فالتّقدير على هذا: إنّما الحياة الدّنيا كاللعب و اللهو في سرعة الانقضآء، و الآخرة كالحقيقة في اللّزوم و الامتداد، فإحداهما كالحقيقة و الاخرى كالمخرقة، و إن تؤمنوا بوحدانيته تعالى و تصديق رسوله﴿ﷺ﴾ و تتّقوا معاصيه يؤتكم اجوركم على ذلك و ثواب على طاعتكم.

عن ابن عبّاس: أى يعطكم ثواب أعمالكم. و قيل: أى يؤتكم ثواب ايمانكم و تقواكم و لا يسئلكم الرّسول﴿ﷺ﴾ على أدآء الرّسالة أموالكم أن تدفعوها إليه﴿ﷺ﴾ أجراً على تبليغ الرّسالة كقوله تعالى: «قل ما أسئلكم عليه من أجر» الفرقان: ٥٧) قيل: إنّ الخطاب للكفّار و دعوة لهم إلى الايمان و التّقوى. و قيل: هناك حياة جهاد في سبيل الدّنيا اللعب و اللهو، و هنا حياة جهاد في سبيل اللّه، تبديل الحياة الدّنيا بالحياة العليا، تجارة مربحة لن تبور، فاتركوا الدّنيا إلى العليا: ايماناً و تقوى باجورهما «و لايسئلكم أموالكم» فيما يؤتي اجوركم، إنّما ايمانكم و تقواكم، سئوالاً لصالحكم في الدّارين، و هذه الاجور الغالية في الاخرى تقتضي سئوال كلّ الأموال أن تصرف في سبيل اللّه، و لكنّه لا يسئلكم كلّ أموالكم...

أقول: و على الخامس أكثر المفسّرين، و لكنّ الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

٣٧- (إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي إن يسئلكم اللّه أموالكم كلّها في الصّدقة فيحفكم بجهدكم تبخلوا بالصّدقة في طاعة اللّه، و يظهر اللّه بخلكم. و قيل: إنّ الخطاب و إن كان عاماً للمؤمنين جميعاً و لكنّه متوجّه إلى فئة منهم لأنّ المؤمنين الصّادقين يجاهدون بأموالهم و أنفسهم و لايبخلون. ٢- قيل: أى إن يسئلكم اللّه جميع أموالكم في الإنفاق في القتال و الجهاد في سبيل اللّه فيبالغ في طلبها تبخلوا، و يخرج

البخل أضغانكم - من باب التّسبّب - لدين الإسلام، لأنّ البخل سبب الاضطغان. والإحفاء أشدّ الإلحاح في السّئوال و المبالغة فيه و كذلك الإحفآء هو الاستقصآء في الكلام و المنازعة. قيل: إنّ الخطاب للضّعفآء الايمان.

و المعنى: إنّ اللّٰه عظمت حكمته لو سئل الأغنيآء أكثر من النّصيب المفروض، و ألحّ عليهم و بالغ في بذله لأمسكوا و حقدوا على الإسلام و نبيّه﴿ﷺ﴾ و السّئوال يوجب البخل، و البخل يوجب خروج الأضغان و هي الأحقاد... و قيل: و يخرج السّئوال أضغانكم لأنّ اللّٰه علم أنّ في مسئلته جميع المال، خروج الأضغان. و قيل: و يخرج الإحفآء أضغانكم. و قيل: و يخرج اللّٰه أضغانكم أي تضطغنون على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و يضيق صدوركم لذلك و تظهرون كراهة هذا الدّين.

٣- قيل: أي إن يسئلكم مَنْ مِنْ جميع أموالكم، فيبالغ في طلبها حتّى يستأصلها، فيجهدكم بذلك تبخلوا و يخرج هذا النّحو من السّئوال أضغانكم. الإحفاء و الإلحاف: بلوغ الغاية في كلّ شيء. يقال: أحفاه في المسئلة: إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح. والأضغان هي المشاقّ الّتي في القلوب، و لذلك ذكر الإخراج. فالله تعالى عليم بأنّكم أشحّة على أموالكم، فلو طلبها أحد منكم جميعها لبخلتم بها، و ظهرت أحقادكم على طالبيها.

٤- عن أبي مسلم: أي إن يسئلكم اللّٰه جميع ما في أيديكم، فيلطف في السّئوال بأن يعد عليه الثّواب الجزيل تبخلوا و يظهر بغضكم و عداوتكم للّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ و لكنّه فرض عليكم ربع العشر.

إنّ اللّٰه سبحانه قد علم أنّ في سئوال المال خروج الأضغان للإسلام من حيث إنّ محبّة المال بالجبلّة و الطّبيعة، و من نوزع في حبيبه ظهرت طويته الّتى كان يسرّها. فلمّا علم اللّٰه تعالى شحّ الإنسان على المال فلم يطلب منه إلاّ النّزر اليسير في الصّدقات والزّكاة و الإنفاق في القتال، و الإحسان للفقراء، و بذل المال في المرافق العامّة لإصلاح شئون المجتمع الإسلاميّ كسدّ الثّغور و بنآء القناطر و الجسور. و قيل: إنّ الخطاب للمؤمنين جميعاً من الصّادقين و الضّعفآء الايمان.

٥- قيل: أي إن يطلب إليكم مزيداً من الإنفاق من أموالكم، غير ما هو مفروض عليكم من زكاة فيها، فيشتدّ عليكم في الطّلب، و يطلب الكثير ممّا في أيديكم تمنعونه، و يخرج أضغانكم لأنّ في سئوال الأموال بالإحفاء خروج الأضغان... قيل: و يخرج اللّٰه المشقّة الّتي في قلوبكم بسئوال أموالكم و إنّما قدّم المخاطب على الغائب في قوله: «إن يسئلكموها» لأنّه ابتداء بالأقرب مع أنّه المفعول الأوّل، و يجوز مع الظّاهر أن يسئلها جماعتكم لأنّه غائب مع غائب، فالمتّصل أولى بأن يليه من المنفصل.

٦- قيل: أي إن يسئلكم ربّكم أموالكم، فيجهد بالمسئلة و يلحف عليكم بطلبها تبخلوا بها و تمنعوها إيّاه ضنّاً منكم بها لكنّه علم ذلك منكم فلم يسئلكموها، فيخرج ذلك السّئوال أحقادكم لمزيد حبّكم للمال. ٧- قيل: أي إن يسئلكموها فيجهدكم بطلب جميع أموالكم، يجدكم تبخلوا فلاتعطوها، و يخرج العداوة الّتي في صدوركم... والمعنى: إن يسئلكم جميع أموالكم، فيجهد بطلب كلّها كففتم عن الإعطآء لحبّكم لها، و يخرج أحقاد قلوبكم، ففضحتم و ضللتم. قيل: إنّ الخطاب للمنافقين.

٨- قيل: أي إن يطلب اللّٰه تعالى منكم جميع أموالكم في الانفاق في القتال و الجهاد في سبيل اللّٰه و يحملكم مشقّة البذل، مغبّة الأجر العظيم، تبخلوا عن ذلك الإنفاق الإجهاد، و من ثمّ يخرج اللّٰه تعالى أحقادكم خلاف أمر اللّٰه بما يخرجها بخلكم عن انفاق كلّها في سبيل الله- ففاعل «يخرج» هو اللّٰه و هو البخل، فالله لا يخرج أحقادهم إلاّ ببخلهم الظّاهر عند سئوال كلّ الأموال - و لكنّ اللّٰه لا يريد إحفآءكم فتفضحوا، حكمة منه و فضلاً و رحمة، فإنّ أحكامه تتماشى مع الفطرة، دون أن تتمادى على الفطرة، و هي تتناسق مع أنظمة الحياة و مناهجها و قواعدها، فإنّها إنسانيّة الطّاقة، و رحمانيّة الإناقة العملاقة، و لكي تربي الإنسان بتكاليف دون الطّاقة.

أقول: و لكلّ وجه و لكنّ الأوجه و الأنسب بظاهر السّياق هو الأوّل من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

٣٨-(هآ أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّه فمنكم من يبخل و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه و اللّه الغنيّ و أنتم الفقرآء و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم)

في خطابا ت ثمانية: «أنتم - تدعون لتنفقو - فمنكم - أنتم - تتولّوا - غيركم - أمثالكم» أقوال: ١- قيل: خطاب لقريش. ٢- قيل: خطاب لأهل المدينة. ٣- قيل: خطاب للمخاطبين زمن الوحي. ٤- قيل: خطاب للأغنيآء. ٥- قيل: خطاب للمؤمنين من الصّادقين و الضّعفآء الايمان. ٦- قيل: خطاب للمنافقين المردة و قادتهم الفجرة من العرب. ٧- قيل: خطاب للنّاس في كلّ ظرف من الظّروف. ٨- قيل: خطاب للمؤمنين المتّقين الصّادقين.

أقول: و السّادس هو الأنسب بظاهر السّياق و المؤيّد بالرّوايات، و عليه جمهور المحقّقين فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً و لا تغفل فإنّ المقام مزلّ الأقدام...

و في قوله تعالى: «ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّه...» أقوال: ١- قيل: أيها أنتم الّذين تدعون إلى النّفقة في جهاد أعدآء اللّه و نصرة دينه، فمنكم من يبخل عن النّفقة في هذا السّبيل، و من يبخل فإنّما ضرر ذلك عآئد إلى نفسه لأنّه ينقصها أجرها من الثّواب و يبعدها عن رضا اللّه و القرب منه في جنّات النّعيم، فلو كانت نفسه جداداً لما بخل.

٢- قيل: أي أنتم يا مخاطبون هؤلآء الموصوفون بما تضمّنه قوله تعالى: «إن يسئلكموها...» ثمّ استأنف وصفهم كأنّهم قالوا: و ما وصفنا؟ فقال: تدعون لتنفقوا في سبيل اللّه و هو الزّكاة أو الغزو لينيلكم الجزيل من ثوابه. كأنّه قيل: الدّليل على أنّه لو أحفاكم لبخلتم و كرهتم العطاء، و أضطغنتم أنّكم تدعون إلى أدآء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون به، فلا ينفقون أموالهم في سبيل اللّه، ثمّ قال: و من يبخل بالإنفاق و أدآء الفريضة، فلا يتعدّاه ضرر بخله، و إنّما يبخل عن نفسه إذ يلزمها العقاب الأليم و يحرمها الثّواب العظيم، و يمنعها من الأجر الكثير المعدّ لها إذا جادت.

فالآية الكريمة بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السّابقة كأنّه قال: إنّه إن يسئل الجميع،

فيحفكم تبخلوا و يشهد بذلك أنّكم أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه - و هو بعض أموالكم - فبعضكم يبخل فيظهر به أنّه لو سئل الجميع، فجميعكم بخلتم و منعتم، و من يمنع الخير عن نفسه، فإنّ اللّٰه لا يسئل مالهم لينتفع هو سبحانه به، بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم و آخرتهم، فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم، و إليه يشير قوله بعده: «و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقراء».

٣- عن ابن عبّاس: أي أنتم يا هؤلآء تدعون لتنفقوا ما فرض عليكم من أموالكم في طاعة اللّٰه فمنكم من يبخل بما فرض عليه، و من يبخل بإنفاق بعض أمواله في طاعة اللّٰه، فإنّما يبخل بالثّواب و الكرامة عن نفسه لأنّه يحرمها عن مثوبة جسيمة، و يلزمها عقوبة شديدة، و لأنّ الإنفاق في طاعة اللّٰه وقاية من النّار و غضب الجبّار. قيل: و هذه إشارة إلى أنّ معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ، فبخله بخل على نفسه، و ذلك أشدّ البخل. و عن مقاتل: إنّما يبخل بالخير و الفضل في الآخرة، فبخله بخل على نفسه، و قيل: معناه: فإنّما يبخل بداع عن نفسه يدعوه إلى البخل، فإنّ اللّٰه تعالى نهى عن البخل و ذمّه، فلا يكون البخل بداع من جهته.

٤- قيل: أي ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في الجهاد في سبيل اللّٰه و طريق الخير، فمنكم من يبخل، و من يبخل فإنّما يبخل عن داعى نفسه، فوباله على نفسه، لا عن داعي ربّه لأنّ اللّٰه تعالى قد صرفه عن البخل بالنّهي عنه و الذّمّ له. و هذا الإنفاق هو المرضيّ للّه تعالى من النّفقة للعيال و الأقارب و الغزو و إطعام الضّيوف و الزّكاة والإحسان إلى الفقرآء و المساكين و ابن السّبيل و غير ذلك، فليس مخصوصاً بالإنفاق للغزو أو بالزّكاة كما زعم بعض، فمنكم ناس يبخلون، و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه فلا يتعدّى ضرر بخله إلى غيرها.

٥- قيل: أي لو أنّكم سئلتم إعطآء أموالكم كلّها لبخلتم بها و لكرهتم النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ و ذلك لأنّكم أنتم الّذين تدعون للنّفقة في سبيل اللّٰه و هي المنافع العامّة يمتنع بعضكم، فإذا كانت هذه حالكم، و المطلوب منكم العشر أو نصفه أو عشره و ما

إليها، فما بالكم إذا كنتم مطالبين بالمال كلّه، و مع ذلك فمن بخل فإنّما نتيجة البخل عائدة إليه، فنفع الإنفاق و ضرّ الإمساك عائدان إليه. ٦- قيل: أي انتبهوا! تركنا سئوال جميع أموالكم إلى بعضها: «تدعون لتنفقوا» من فضلها الزّائد عن ضرورات الحياة «فمنكم من يبخل» و منكم من لايبخل «و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه» لا عن اللّٰه و لا عن عباد اللّٰه - فإنّه يقطع عن نفسه رصيد الإنفاق الّذي ينفعه يوم لاينفع مال و لا بنون، و من قبل ينفعه في إزالة الأشواك عن صراط الايمان، تعبيداً للسّبيل إلى اللّٰه بـإبادة أو تسكيت أعدآء اللّٰه، و تبديداً لأشواك البخل عن البذل، فإنّما يبخل البخيل أرصـدة كهذه الغالية عن نفسه دون اللّٰه - فـ«و اللّٰه الغني» لا سواه «و أنتم الفقراء» دون اللّٰه، فهو إذ يسئلكم إنفاقاً في سبيل اللّٰه ليس لفقره إليكم، فإنّما سبيل اللّٰه هي سبيل صالح الحياة الّتي ليست إلاّ من اللّٰه تعالى، فلماذا البخل إذاً و فيم؟ و عمّا ذا البخل إذاً؟ أبخلاً من مال اللّٰه و في سبيل اللّٰه: «و أنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه» الحديد: ٧) فـها أنـتم أنـتم الفقرآء، ليست أموالكم أموالكم، و إنّما أنتم مستخلفون فيها امتحاناً فلا تبخلوا عـنها امتهاناً.

أقول: و المعاني متقاربة و التّعميم في سبيل اللّٰه هو الأنسب بظاهر الإطلاق، و أمّا المخاطبون فهم الّذين سبق ذكرهم آنفاً فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقراء» أقوال: ١- عن ابن عـبّاس: أي واللّٰه هو الغنيّ عن نفقتكم و معونتكم من أموالكم، و لايحتاج إلى صدقاتكم، و أنتم الفقراء في كلّ حال إلى رحمة اللّٰه و جنّته و مغفرته، فما يأمركم اللّٰه به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع الّتي لا تقتضي الحكمة ايصالها بدون ذلك، فإن امتثلتم فلكم، و إن تولّيتم فعليكم. ٢- قيل: أي و اللّٰه الغنيّ عن ايمانكم و طاعتكم و تقواكم، و أنتم الفقراء إلى اللّٰه تعالى في الدّنيا و الآخرة، فيأمركم بالايمان و الطّاعة و التّقوى لتنتفعوا بها في الدّنيا و الآخرة.

٣- قيل: أي و اللّٰه الغنيّ الّذي لايحتاج إلى أعمالكم و أموالكم، و لا إلى أحد غيركم، و الخلق كلّهم الفقراء إليه و أنتم من خلقه، فأنتم الفقرآء إليه، و لو ملكتم الكون بأرضه و سمآئه لكنتم محتاجين إلى عناية اللّٰه و تدبيره، و فضله و رحمته، و إنّما حضّكم على الايمان و الطّاعة، على التقوى و صالح الأعمال، و على الإنفاق في سبيله لتنالوا بالكمال الانساني في الحياة الدّنيا، و بالجنّة و نعيمها في الدّار الآخرة.

أقول: و لكلّ وجه، و لكنّ الأنسب بظاهر السّياق هو الأوّل.

و **في قوله عزّوجلّ:** «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» أقوال:

١- قيل: أي و إن تتولّوا عن الايمان و التّقوى و الطّاعة للّه و لرسوله﴿ﷺ﴾ يستبدل قوماً غيركم على خلاف صفتكم، هم راغبون في الايمان و التّقوى و الطّاعة، غير متولّين عنها، ثمّ لايكونوا أمثالكم و أشباهكم فى حال تولّيكم. و قيل: بل في جميع الأحوال، خيراً منكم و أطوع للّه تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾. ٢- قيل: أي و إن تعرضوا يا معشر العرب عمّا أمركم اللّٰه تعالى به، و تكرهوا ما أنزل اللّٰه سبحانه في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾ يستبدل قوماً غيركم يعني الموالي من غير العرب، هم أمثل و أطوع لله و لرسوله﴿ﷺ﴾ منكم بل يكونوا خيراً منكم.

٣- عن ابن عبّاس: أي و إن تتولّوا عن طاعة اللّٰه و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ عمّا أمركم من الإنفاق و الصّدقة يهلككم و يأت بآخرين خيراً منكم و أطوع، ثمّ لايكونوا أمثالكم في المعصية و الإعراض عن الطّاعة، و لكن يكونوا خيراً منكم و أطوع لله و لرسوله﴿ﷺ﴾. قيل: إنّ قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم - إلى قوله سبحانه - ثمّ لايكونوا أمثالكم» نزل في شأن المنافقين: أسد و غطفان، فبدّل اللّٰه بهم جهينة و مزينة خيراً منهم و أطوع لله تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾.

٤- قيل: أي و إن تتولّوا عن الإنفاق في سبيل اللّٰه و تبخلوا به يستبدل قوماً غيركم، ثمّ لايكونوا أمثالكم في البخل بالإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى. ٥- قيل: أي إن تعرضوا أيّها

النّاس عن هذا الدّين الّذي جاءكم به محمّد(صلی الله علیه و آله) فترتدّوا راجعين عنه يهلككم ثمّ يجيىء بقوم آخرين غيركم بدلاً منكم يصدّقون به و يعملون شرآئعه الّتي أنزلها على رسوله(صلی الله علیه و آله) ثمّ لايبخلون بل يقومون بما أمروا به من النّفقة في سبيل اللّه و لا يضيعون شيئاً من حدود دينهم أمثالكم و إنّما هم يقومون بذلك كلّه.

قيل: و ذلك أنّ اللّه هو الّذي نظم ملكه، فيجعل قوماً للمنافع العامّة، هكذا قضى نظامه أن لايدع الأرض و عباده فيها بدون هادين قائمين بأمره، باذلين ما لهم و جاههم و أنفسهم، فإذا كنّا أرسلنا محمّداً(صلی الله علیه و آله) إليكم لتكونوا للنّاس هداة، و ظهر منكم أنّكم غير قائمين بأمره لنقص في استعدادكم، و لسبق علمنا القديم، نقلنا هذا الدّين إلى امم اخرى يقومون به، و يسودون عليكم لأنّهم أصلح له منكم، و هذا قوله تعالى: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم» يقومون مقامكم، «ثمّ لايكونوا أمثالكم» فى الإعراض عن الدّين، و ضعف الإخلاص فيه، و التقوى و الطّاعة، و في البخل بالإنفاق.

٦- قيل: إنّ اللّه تعالى قال للمؤمنين المستضعفين: و إن تتولّوا عن أمر اللّه تعالى و نهيه و لاتقبلونهما و لا تعملون بهما يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم في التّولّي عن الأمر و النّهي بل يأتمرون بما أمرهم اللّه و ينتهون عما نهاهم عنه. ٧- عن قتادة: أي إن تولّيتم عن كتابي و طاعتي أستبدل قوماً غيركم. قادر و اللّه ربّنا على ذلك على أن يهلكهم و يأتي من بعدهم من هو خير منهم يسبّحون بحمده و يعملون بأمره و ينتهون عن نهيه.

٨- قيل: أي و إن تعرضوا عن العبادة و الأعمال الصّالحة يستبدل اللّه تعالى قوماً غيركم هم يعبدونه و يعملون الصّالحات، ثمّ لايكونوا أمثالكم في العبادة و العمل الصّالح بل هم عابدون و صالحون حقّاً.

٩- قيل: أي و إن تتولّوا أيّها المنافقون المردة و القادة الفجرة العربيّة عمّا أنزل اللّه تعالى في ولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(علیه السلام) و لم تقبلوها، يستبدل اللّه قوماً

غير لسانكم العربيّ، يستبدل بهم مَن في المعلوم أنّهم يخلقون بعد، يدخلهم في ولايته﴿عليه السلام﴾ ثمّ لايكونوا هم أمثالكم في معاداتكم و خلافكم و ظلمكم لآل محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هضم حقوقهم و هتك حرماتهم...

١٠- قيل: أي إن تعرضوا أيّها المنافقون المردة عن الحقّ، و تتّبعوا أهوآء قادتكم الفجرة، و تكرهوا أنتم و رؤساؤكم ما أنزل اللّٰه تعالى في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و تصدّوا النّاس عن ولايته﴿عليه السلام﴾ و تشاقّوا الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ من بعد ما تبيّن لكم الهدى يستبدل اللّٰه عزّوجلّ قوماً آخرين بغير لسانكم العربيّ، هم يقومون مقامكم، ثمّ لايكونوا هم أمثالكم في التّولّي عن كتاب اللّٰه و الإعراض عن طاعة اللّٰه و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و الزّهد في الايمان، و في صدّ النّاس عن سبيل اللّٰه و الإفساد في الأرض و تقطيع الأرحام...

و هذا راجع إلى قوله سبحانه: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل - اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم - فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم - إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّٰه يعلم إسرارهم - إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ٩ و ١٦ و ٢١-٢٢ و ٢٥-٢٦ و ٣٢).

و المعنى: و إن تعرضوا أيّها المنافقون من العرب عما أنزل اللّٰه تعالى في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يستبدل اللّٰه قوماً عجميّاً هم خير منكم في القيام لأمر ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و هذه من معجزات القرآن الكريم حيث إنّ العرب لمّا تركوها قامت العجم عليها، و هذا ممّا لايشكّ فيه و لايوسوس إلاّ من كان خبيث الولادة و سيّئ السّريرة و شديد الحقد و العداوة.

۱۱- قيل: أي إن تؤمنوا باللّه تعالى و تطيعوا اللّه و رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و تتّقوا اللّه وتنفقوا ما فرض اللّه عليكم من أموالكم في سبيل اللّه يؤتكم أُجوركم، و إن تعرضوا عن ذلك يستبدل قوماً آخرين غيركم العرب، بأن يوفّقهم للايمان و الطّاعة و التّقوى والإنفاق دونكم، ثمّ لايكونوا هم أمثالكم في الإعراض عن الايمان... بل يؤمنون و يطيعون و يتّقون و ينفقون في سبيل اللّه جلّ وعلا.

و إنّ المخاطبين هنا في العهد المبكر المدنيّ هم المسلمون العرب، ف«قوماً غيركم» هم المسلمون من غير العرب كما قال نبيّ العرب و العجم﴿صلی الله علیه و آله﴾: «و الّذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثّريّا لتناوله رجال من فارس».

«ثمّ لايكونوا» هؤلآء الأغيار الأبرار «أمثالكم» في التّولي و الإدبار عن الايمان و الطّاعة و التّقوى و الإنفاق في سبيل اللّه كما هو اليوم ملموس في المسلمين الفرس، رغم الضّغوط المتواردة عليهم من السّلطات، فإنفاقاتهم - و حدهم - في سبيل إعلاء كلمة اللّه تعالى تربو انفاقات سائر المسلمين، و سوف يكون الأكثر نصرة لتأسيس الدّولة الإسلامية زمن مدار الدّهر و نواميس العصر الحجّة بن الحسن المهديّ المنتظر﴿علیه السلام﴾ هم رجال من فارس كما يدلّ عليه الأثر، واقعاً و حديثاً.

أقول: و التّاسع هو المرويّ و العاشر هو المستفاد من سياق السّورة من دون تنافٍ بينهما و في معناهما بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

و في قوله جلّ وعلا: «قوماً غيركم» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس و شريح بن عبيد: هم الأنصار. ۲- عن ابن عبّاس أيضاً: هم التّابعون. ۳- عن ابن عبّاس أيضاً: هم الملآئكة لقوله تعالى: «و لو نشآء لجعلنا منكم ملآئكة في الأرض يخلفون» الزّخرف: ۶۰) و لم يجزالزّجّاج أن يستبدل الملآئكة لأنّه لا يعبّر بالقوم عن الملآئكة. ٤- قيل: هم الّذين آمنوا بعد نزول هذه الآية الكريمة. ٥- عن الحسن و ابن زيد: هم عجم فارس. ٦- عن عكرمة: هم فارس و الرّوم. ۷- عن شريح بن عبيد أيضاً: هم العرب من أهل اليمن. ۸-

قيل: هم سلمان الفارسيّ و أشباهه من أبنآء فارس. ٩- عن مجاهد: انّهم من شآء اللّٰه من سآئر النّاس، غير العرب. ١٠- عن الكلبي: هم أهل كندة و النّخع من عرب اليمن. ١١- قيل: هم النّاس، و لكنّهم غير موجودين زمن الوحي، و إنّما هم يُخلَقون بعد.

أقول: و الثّامن هو المرويّ عن الفريقين سيأتي تفصيلاً إن شآء اللّٰه تعالى فانتظر.

﴿التّفسير و التّأويل﴾

١- (الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم)

الّذين كفروا بالله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بما جآءهم به، و صدّوا أنفسهم و النّاس عن الايمان و الطّاعة ليكونوا هم و النّاس سواء في الكفر و الضّلالة، و البغى و الجناية: «ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء» النساء: ٨٩) جعل اللّه عزّوجلّ أعمالهم تسير إلى ضلال، غير هدى، إلى هلاك و حبط و بطلان و هباء لاأثر لها، لأنّها عملت في سبيل الشّيطان لا في سبيل الرّحمن، و ما عمل للشّيطان فمآله الخسران.

قال اللّه تعالى: «قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً اولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم و لقآئه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» الكهف: ١٠٣-١٠٥).

و قال: «و الّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن مآءً حتّى إذا جآءه لم يجده شيئاً» النّور: ٣٩).

و قال: «فمن كفر فعليه كفره و لايزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلاّ مقتاً و لايزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً» الفاطر: ٣٩).

و قال: «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هبآءً منثوراً» الفرقان: ٢٣).

و ذلك أنّ الايمان شرط لقبول الأعمال كما أنّ الطّهارة شرط لصحّة الصّلاة، و الايمان

شرط لقبولها إذ قال تعالى: «فمن يعمل من الصّالحات و هو مؤمن فلا كفران لسعيه و إنّا له كاتبون» الأنبيآء: ٩٤).

و قال: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيّبة و لنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» النّحل: ٩٧).

و أنّ الكفر مانع من قبولها... إذ قال جلّ وعلا: «و ما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا باللّه و رسوله» التّوبة: ٥٤).

و قال: «إنّ هؤلآء متبّر ماهم فيه و باطل ما كانوا يعملون» الأعراف: ١٣٩).

و انّ الصّدّ عن سبيل اللّه تعالى هو الصّرف عن سبيل اللّه جلّ وعلا بالنّهي عنه والمنع منه و التّرغيب في خلافه...

قال اللّه تعالى: «الّذين يصدّون عن سبيل اللّه و يبغونها عوجاً و هم بالآخرة كافرون» الأعراف: ٤٥).

و قال: «و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين و إنّهم ليصدّونهم عن السّبيل» الزّخرف: ٣٦-٦٧).

و قال: «إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل اللّه فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون» الأنفال: ٣٦).

فما عملوه في الكفر و الصّدّ ممّا كانوا يسمّونه مكارم الأخلاق: من الإختراعات والاكتشافات و صلة الأرحام و الإحسان و إطعام الطّعام و بناء المساجد و تعميرها و حسن الجوار و قرى الأضياف، و ما إليها... حكم اللّه تعالى ببطلانه، فلايرون له في الآخرة ثواباً بل حسرة عليهم و خسران. و من البيّن: أنّ الكفر يسدّ على الكافر منافذ الرّشد و الصّلاح و الخير و الفلاح ... كما أنّ الصّدّ يدع الصّادّ في متاهات الضّلال والفساد، و الشّرّ و الهلاك، فيتخبّط و قد تقطّعت به الأسباب، و أفلت من يده كلّ متعلّق كان يتعلّق به من أوهام و ظنون...

و أنّ الصّادّ لايهلك نفسه و لايحبط عمله فحسب، بل يهلك أهله و إخوانه و كثيراً من النّاس و أعمالهم... فإنّه دعوة من دعوات الكفر و الضّلال و الشّرّ و الفساد لهم... و

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: «قل إنّ الخاسرين الّذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة» الزّمر: ١٥).

و قوله سبحانه: «المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف - اولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و اولئك هم الخاسرون» التّوبة: ٦٧-٦٩).

٢- (والّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم)

و الّذين استجابوا للّه و لرسوله(ﷺ) فآمنوا بالله تعالى و رسوله(ﷺ) و أصلحوا أنفسهم بالتّقوى، و عملوا الصّالحات من الطّاعات و الحسنات، و ائتمروا بما أمرهم اللّه تعالى و رسوله(ﷺ) به، و انتهوا عمّا نهاهم اللّه سبحانه و رسوله(ﷺ) عنه، و آمنوا بما نزّل على محمّد(ﷺ) من الوحي في أمر استمرار الرّسالة إلى يوم القيامة، و اعتصموا بحبل اللّه عزّوجلّ و هو الثّقلان: كتاب اللّه و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين، و هما معاً حقّ من ربّهم لافكاك بينهما، واستقيموا عليهما معاً محى اللّه تعالى ما عملوا من السّيّئات قبل الايمان، و ما قد يعملون بعده عن جهالة، فلم يؤاخذهم به ما لم يخرجهم من دائرة الايمان، و أصلح حالهم في الحياة الدّنيا بتوفيقهم لصالح الأعمال و تأييدهم في طريق الحقّ و الهدى و السّعادة والنّجاة، و إعانتهم في سبيل الخير و الصّلاح و الرّشد و الفلاح، و نصرهم على أعدآءهم أعدآء اللّه، و أصلح حالهم في الدّار الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد و الخلود الدّآئم في جنّاته...

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «و الّذي جاء بالصّدق و صدّق به اولئك هم المتقون - ليكفّر اللّه عنهم أسوأ الّذي عملوا و يجزيهم أجرهم بأحسن الّذي كانوا يعملون» الزّمر: ٣٣-٣٥).

و قوله سبحانه: «للّذين استجابوا لربّهم الحسنى - اولئك لهم عقبى الدّار» الرّعد: ١٨-٢٢).

و قوله عزّوجلّ: «إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم و ندخلكم مدخلاً كريماً - الّذين تابوا و أصلحوا واعتصموا بالله و أخلصوا دينهم للّه فاولئك مع المؤمنين و سوف يؤت اللّٰه المؤمنين أجراً عظيماً - الّذين آمنوا باللّه و اعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه و فضل و يهديهم إليه صراطاً مستقيماً» النسآء: ٣١-١۴۶-١٧۵).

و قوله تعالى: «و اعتصموا بحبل اللّٰه جميعاً و لاتفرّقوا» آل عمران: ١٠٣).

و قوله عزّ و علا: «فمن آمن و أصلح فلا خوف عليهم و لاهم يحزنون» الأنعام: ۴٨).

و قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا اللّٰه يجعل لكم فرقاناً و يكفّر عنكم سيّئاتكم و يغفر لكم و اللّٰه ذو الفضل العظيم» الأنفال: ٢٩).

و قوله عزّوجلّ: «ثمّ إنّ ربّك للّذين عملوا السّوء بجهالة ثمّ تابوا من بعد ذلك و أصلحوا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم» النّحل: ١١٩).

و قوله سبحانه: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات لنكفّرنّ عنهم سيّئاتهم و لنجزينّهم أحسن الّذي كانوا يعملون» العنكبوت: ٧).

٣- (ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب اللّٰه للنّاس أمثالهم)

فعلنا بالفريقين ما فعلنا من إيطال أعمال الكافرين و إضلالها جزاءً على كفرهم بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و بكلا القسمين من الوحي، سوآء أكانوا متظاهرين بالكفر كفِرَق الكفّار و المشركين أم كانوا متظاهرين بالايمان، و يبطنون الكفر كالفسّاق والمنافقين، و أنّهم كفروا بسبب أنّهم اتّبعوا الباطل و اختاره على الحقّ بما وسوس في صدورهم شياطين الجنّ و الانس به، فلن يقبل عمل و إن كان صالحاً ظاهراً مع الكفر مطلقاً.

و ما فعلنا من تكفير سيّئات المؤمنين الصّالحين و إصلاح بالهم جزآء على ايمانهم بالله تعالى و رسوله(ﷺ) و بكلا القسمين من الوحي معاً من دون تفريق بينهما، و أنّهم آمنوا بسبب أنّهم اتّبعوا الحقّ الّذي جآءهم من ربّهم، فكلّ ما كان من اللّه تعالى و أمره فهو حقّ و سبيله، و كلّ ما كان من دون اللّه فهو باطل و سبيل الشّيطان. فلا ثالث لهما.

قال اللّه عزّوجلّ: «و لقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين» سبأ: ۲۰)

و قال: «و أنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لاتتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله» الأنعام: ۱۵۳).

و قوله تعالى: «كذلك يضرب اللّه للنّاس أمثالهم» مثل ذلك البيان الّذي بيّت لكم فعلي بفريقي الكافرين الفاسدين و المفسدين، و المؤمنين الصّالحين و المصلحين، نمثّل للنّاس الأمثال و نشبّه لهم الأشيآء فنلحق بالأشيآء أمثالها و أشكالها، يقاس عليها كلّ من اتّبع الحقّ أو الباطل، على اختلاف درجات الايمان و الصّلاح، و دركات الكفر والفساد...

و في الأمثال عظة و ذكرى و عبرة لمن اعتبر، و حجّة على من لم يتّعظ.

قال اللّه تعالى: «و تبيّن لكم كيف فعلنا بهم و ضربنا لكم الأمثال و قد مكروا مكرهم و عند اللّه مكرهم» إبراهيم: ۴۵-۴۶).

و قال: «كذلك يضرب اللّه الحقّ و الباطل فأمّا الزّبد فيذهب جفآءً و أمّا ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض كذلك يضرب اللّه الأمثال للّذين استجابوا لربّهم الحسنى والّذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً و مثله معه لافتدوا به اولئك لهم سوء الحساب و مأواهم جهنّم و بئس المهاد» الرّعد: ۱۷-۱۸).

و قال: «و تلك الأمثال نضربها للنّاس و ما يعقلها إلاّ العالمون» العنكبوت: ۴۳).

٤- (فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها ذلك و لو يشآء اللّه لانتصر منهم و لكن ليبلوا بعضكم ببعض و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالهم)

إذا كان الأمر كما ذكر، و عرفتم أيّها المؤمنون ثباتكم على الايمان و تكفير السّيّئات و إصلاح البال، بسبب اتّباعكم الحقّ، و عرفتم موقف الكفّار من الايمان و صدّهم النّاس عن سبيل اللّه، و إضلال أعمالهم بسبب اتّباعهم الباطل، فإذا لقيتم هؤلآء الكافرين الصّادّين المتّبعين الباطل يحاربونكم، فاضربوا رقابهم ضرباً حاسماً، واحصدوا أعداء الإنسانيّة و لاتأخذكم في دين اللّه تعالى و حقّ الإنسانيّة رأفة و لاهوادة ليحي الحقّ الّذي عليه أنتم المؤمنون، و تطهّر الأرض من الباطل الّذي عليه الكفّار المعتدين و الفجّار المحاربين...

قال اللّه تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار - و قاتلوهم حتّى لاتكون فتنة و يكون الدّين كلّه للّه - يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا و اذكروا اللّه كثيراً لعلّكم تفلحون - إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض و فساد كبير» الأنفال: ١٥و ٣٩و ٤٥و٧٣).

و قال: «و الفتنة أكبر من القتل و لايزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا» البقرة: ٢١٧).

و قال: «قاتلوهم يعذّبهم اللّه بأيديكم و يخزهم و ينصركم عليهم و يشف صدور قوم مؤمنين» التوبة: ١٤).

و **قوله تعالى:** «حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» حتّى إذا أكثرتم فيهم القتل والأسر و قهرتموهم و غلبتم عليهم و ظفرتم بمن لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا بأيديكم أسرى، فاحكموا و ثاقهم بأن تقيّدوا أكتافهم بالحبال و نحوها، أو أيديهم بالأسورة من الحديد أو أرجلهم كيلا يقتلوكم غفلة أو يهربوا منكم.

و **قوله سبحانه:** «فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء» فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فأمرهم

إليكم - تبعاً للحكمة و المصلحة - فإمّا أن تمنّوا عليهم منّاً بعد ذلك و تطلقوهم من الأسر و تحرّروهم بغير عوض و لافدية، أو تسترقّوهم، و إمّا أن تفادوهم فداء بعوض، بأن يعطوكم من أنفسهم عوضاً من المال أو بمن لكم عندهم من الأُسارى، فتطلقوهم و تخلوا لهم السّبيل.

إنّ الأسير إذا أُخذ قبل انقضاء الحرب و القتال بأن تكون الحرب قائمة، و القتال باقٍ فالإمام المعصوم﴿عليه السلام﴾ و من ناب منابه، مخيّر بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتّى ينزفوا، و ليس له المنّ و لاالفداء، و إذا أخذ بعد وضع الحرب أوزارها، و انقضآء الحرب و القتال كان الإمام﴿عليه السلام﴾ أو نائبه، مخيّراً بين المنّ و المفادات إمّا بالمال أو النّفس، و بين الاسترقاق و ضرب الرّقاب، فإن أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك، و كان حكمه، حكم المسلم.

قال اللّه تعالى: « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدّنيا و اللّه يريد الآخرة و اللّه عزيز حكيم» الأنفال: ٦٧).

و قوله عزّوجلّ: «حتّى تضع الحرب أوزارها» حتّى تضع الحرب آثامها و أثقال أهلها الكافرين المعتدين... الأوزار: هي الأسلحة الّتي يحملها الكفّار المحاربو ن... و المراد بوضعها كناية عن انقضاء القتال بإحدى الأُمور الثّلاثة: ١-إمّا بأن يتوبوا إلى اللّه تعالى من كفرهم باللّه تعالى، و من صدّهم النّاس عن سبيل اللّه، فيؤمنوا بالله عزّوجلّ و برسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بما أُنزل عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يتّبعوا الحقّ و يطيعوا في أمره و نهيه. ٢- و إمّا بغلبة المؤمنين على الكافرين بأن يستسلموا أو يهربوا من المؤمنين و يلقوا السّلاح. ٣- و إمّا بالصّلح بينهم.

و هذا هو المستفاد من قوله تعالى: « ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء - و اولئكم جعلنالكم عليهم سلطاناً مبيناً» النسآء: ٨٩-٩١) فراجع و تدبّر و لاتغفل.

و قوله جلّوعلا: «ذلك» هو الّذي حكمنا و أمرتكم به أيّها المؤمنون من قتل الكفّار المحاربين، الصّادّين النّاس عن سبيل اللّه تعالى إذا لقيتموهم في حرب و شدّهم وثاقاً بعد قهرهم و أسرهم و المنّ و الفداء حتّى تضع الحرب أوزارها، هو الحقّ الّذي يجب عليكم اتّباعه.

و **قوله تعالى:** « و لو يشآء اللّٰه لانتصر منهم» و لو يشآء اللّٰه استئصال هـؤلآء الكافرين، و يريد عذابهم بغير جهاد و لاقتال لانتقم مـنهم بـبعض أسـباب الهـلاك والدّمار عاجلة، من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت أوجارف، و ما إليها من أنواع العقوبات من دون قتال، كما أهلك بها كثيراً من الاُمم السّالفة و انتقم منهم، و كفاكم من هذا الحكم الّذي بيّن فيهم.

قال اللّٰه تعالى: « إن نشأنخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السّمآء» سبأ: ۹).

و قال: «و إن نشأنغرقهم فلا صريخ لهم و لاهم ينقذون» يس: ۴۳).

و **قوله سبحانه:** «و لكن ليبلوا بعضكم ببعض» و لكنّ اللّٰه تعالى كره الانـتصار والانتقام من هؤلآء الكفّار المعتدين ببعض أسباب عقوبته عاجلاً إلاّ بأيديكم أيّهـا المؤمنون، فيأمركم بالحرب و بذل الأرواح في سبيل اللّٰه عزّوجلّ و إحقاق الحقّ و إبطال الباطل ليمتحن بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين منكم و الصّابرين، فيظهر المطيع مـن العاصي من جهة.

قال اللّٰه تعالى: «و ليمحّص اللّٰه الّذين آمنوا و يمحق الكفارين أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة و لمّا يعلم اللّٰه الّذين جاهدوا منكم و يعلم الصّـابرين - و ليـبتلي اللّٰـه مـا في صدوركم و ليمحّص ما في قلوبكم و اللّٰه عليم بذات الصّدور إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا - و ما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن اللّٰه و ليعلم المؤمنين و ليعلم الّذين نافقوا و قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل اللّٰه أوادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لأتّبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب مـنهم للايمـان يـقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم و اللّٰه أعلم بما يكتمون الّذين قالوا لإخوانهم و قعدوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فـادرؤو اعـن أنـفسكم المـوت إن كـنتم صـادقين» آل عـمران: ۱۴۱-۱۴۲و ۱۵۴-۱۵۵و ۱۶۶-۱۶۸).

و قال: « لايستوي القاعدون من المؤمنين غير اولى الضّرر و المجاهدون في سبيل اللّٰه بأموالهم و أنفسهم فضّل اللّٰه المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدين درجة» النّسآء: ۹۵).

و يأمركم بالحرب ليبلوا الكافرين بكم، و يبلو الغريب بالقريب بأن يعاجلهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم من الكفر و الصّدّ عن سبيل اللّٰـه تـعالى، فيعاقب بأيديكم من شآء منهم، و يتّعظ من شآء منهم بمن أهلك بأيديكم من شآء منهم حتّى ينيب إلى الحقّ، و تتمّ الحجّة على الآخرين من جهة اخرى.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «قاتلوهم يعذّبهم اللّٰه بأيديكم و يخزهم و ينصركم عـليهم و يشف صدور قوم مؤمنين و يذهب غيظ قلوبهم و يتوب اللّٰه على من يشآء و اللّٰه عليم حكيم» التّوبة: ۱۴-۱۵).

و يأمركم بالقتال ليختبركم بأن تجاهدوهم، فتقوى أبدانكم و تصحّ نـفوسكم، و ترقى عقولكم و تنظم مدنكم، و تتّحد كلمتكم، و تجتمع شملكم بما ترون مـن اتّحـاد عدوّكم على باطلهم، فيوجب اتّحادكم على حقّكم من جهة ثالثة.

و يأمركم بالجهاد بأن تجاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل اللّٰه تعالى و الدّفاع عن كيان الإسلام و نواميس المؤمنين لتستوجبوا الثّواب العظيم من جهة رابعة.

و لو كان الغرض زوال الكفر فحسب لأهلك اللّٰه تعالى الكفّار المحاربين بما يشآء من أنواع الهلاك و الدّمار، و لكن أراد مع ذلك أن تستحقّوا أيّها المؤمنون الثّواب و أعظم الدّرجة عند اللّٰه جلّ وعلا، و ذلك لايحصل إلاّ بالتّعبّد و تحمّل المشاقّ.

قال اللّٰه سبحانه: «الّذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا في سبيل اللّٰه بأموالهم و أنفسهم أعظم درجة عند اللّٰه و اولئك هم الفآئزون - إنّ اللّٰه اشترى من المؤمنين أنـفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل اللّٰه فيقتلون و يُقْتَلون وعداً عـليه حـقّاً في التّوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من اللّٰه فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم» التّوبة: ۲۰و ۱۱۱).

و **قوله تعالى**: «و الّذين قُتِلُوا في سبيل اللّٰه فلن يضلّ أعمالهم» و الّذين استشهدوا منكم في سبيل اللّٰه تعالى فلن يضيع اللّٰه أعمالهم...

قال اللّٰه عزّوجلّ: «و لاتحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه أمواتاً بل أحيآء عند ربّهم يُرزقون- و أنّ اللّٰه لايضيع أجر المؤمنين» آل عمران: ۱۶۹-۱۷۱).

٥- (سيهديهم و يصلح بالهم)

إنّ اللّه تعالى سيهدي الّذين قتلوا في سبيل اللّه جلّ وعلا و الدّفاع عن كيان الدّين و نواميس المؤمنين، و يقيم بين أيديهم من أعمالهم الّتي تأخذ بهم إلى الجنّة الّتي أعدّها اللّه سبحانه لهم و ينجيهم من أهوال القيامة و عذابها، ولهم فيها حياة طيّبة لايمسّهم فيها نصب و لا لغوب، و هم عند ربّهم يرزقون.

و هذا كقوله عزّوجلّ: «إنّ الّذين آمنوا و عملو الصّالحات يهديهم ربّهم بـايمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النّعيم» يونس: ٩).

و قوله تعالى: «إنّ اللّه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً و لباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطّيّب من القول و هدوا إلى صراط الحميد» الحجّ: ٢٣-٢٤).

فأعمال الشّهدآء مستنيرة مبصرة تعرف طريقها إلى مقام القبول و الرّضا والرّضوان، و هم يتّبعون أعمالهم تلك و يأخذون طريقهم على هداها حيث تنتظرهم عند اللّه سبحانه في جنّات النّعيم الّتي أعدّها اللّه تعالى لأصحاب هذه الأعمال الطّيّبة...

كما قال اللّه تعالى: «يوم ترى المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم بشريكم اليوم جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم» الحديد: ١٢).

فالّذي يسعى بين أيديهم هو هذا النّور المشعشع ممّا في أيديهم، و هو سجلّ أعمالهم الّتي صارت كتباً تناولها بأيديهم اليمنى.

قال اللّه تعالى: «لكن الرّسول و الّذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم و أنفسهم و اولئك لهم الخيرات و اولئك هم المفلحون أعدّ اللّه لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» التّوبة: ٨٨-٨٩).

٦- (و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم)

و سيدخل اللّه تعالى المؤمنين الصّادقين، و المجاهدين في سبيل اللّه تعالى الجنّة الّتى

عرّف لهم طريقها الموصل إليها، و هو الايمان و الأعمال الصّالحة و الجهاد في سبيل اللّٰه بالأموال و الأنفس...

قال اللّٰه عزّوجلّ: «إنّ اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل اللّٰه فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من اللّٰه فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم التّائبون العابدون الحامدون السّائحون الرّاكعون السّاجدون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر و الحافظون لحدود اللّٰه و بشّر المؤمنين» التّوبة: ۱۱۱-۱۱۲).

و قال: «إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملو الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار - مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم» محمّد(ﷺ): ۱۲ و ۱۵).

و قال: «الّذين يوفون بعهد اللّٰه و لاينقضون الميثاق و الّذين يصلون ما أمر اللّٰه به أن يوصل و يخشون ربّهم و يخافون سوء الحساب و الّذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم و أقاموا الصّلاة و أنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً و علانية و يدرؤن بالحسنة السّيّئة اولئك لهم عقبى الدّار جنّات عدن يدخلونها و من صلح من آبآئهم و أزواجهم و ذرّيّاتهم و الملآئكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار» الرّعد: ۲۰-۲۴).

و قال: «إنّ المصّدّقين و المصّدّقات و أقرضوا اللّٰه قرضاً حسناً يضاعف لهم و لهم أجر كريم و الّذين آمنوا باللّٰه و رسله اولئك هم الصّدّيقون و الشّهداء عند ربّهم لهم أجرهم و نورهم» الحديد: ۱۸-۱۹).

۷- (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت أقدامكم)

أيّها المؤمنون - و لاالمسلمون - إن تنصروا دين اللّٰه تعالى و هو الإسلام الخاصّ الكامل - لامطلق الإسلام و لا الإسلام المطلق - إن تنصروا دين اللّٰه الّذي أكمله

بولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - لامولى المنافقين، و لاإمام المجرمين، و لا أمير المسلمين - و أتمّ بولاية مولى الموحّدين نعمته على المؤمنين - و لا على غيرهم - رضى بها الإسلام ديناً للمؤمنين إذ لايتحقّق الايمان إلاّ بها، و قد أمر اللّه جلّ وعلا رسوله الخاتم﴿ﷺ﴾ بتبليغها يوم غدير خم و قال: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً - يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٣ و ٦٧).

و هذا هو الدّين الحقّ من اللّه الحقّ، و الحقّ مع عليّ﴿عليه السلام﴾ و عليّ﴿عليه السلام﴾ مع الحقّ يدور حيثما دار، فنصر عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ هو نصر الدّين الحقّ، و نصر الدّين الحقّ هو نصر اللّه سبحانه، و من ثمّ عبّر عن نصره بنصره تعالى.

هذا هو الصّراط المستقيم لا اعوجاج فيه، و هذا هو الدّين القيّم الّذي يدعوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إليه النّاس: «و أنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لاتتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله - قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً» الأنعام: ١٥٣ و ١٦١) «قل هذه سبيلي أدعوا إلى اللّه على بصيرة أنا و من اتّبعني» يوسف: ١٠٨) و هذا الدّين هو بيّنة تقوم بها الحياة الإنسانيّة و الكمال و الكرامة و الشّرافة، و تتوقّف بها الحياة السّعيدة في الدّنيا و الحياة الطّيّبة الدّآئمة في الآخرة:

«يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا للّه و للرّسول إذا دعاكم لما يحييكم» الأنفال: ٢٤)

«من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى و هو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة» النّحل: ٩٧).

أيّها المؤمنون - و لاالمسلمون - إن تنصروا هذا الدّين الحقّ و أهله ينصركم اللّه في الحياة الدّنيا و يدافع عنكم: «إنّ اللّه يدافع عن الّذين آمنوا - الّذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصّلاة و آتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر» الحج: ٣٩-٤١) و يلق رعبكم في قلوب الكافرين «إذ يوحي ربّك إلى الملآئكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سأُلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» الأنفال: ١٢) و لن يجعل اللّه للكافرين عليكم أيّها المؤمنون سبيلاً: «و لن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النسآء: ١٤١).

لا على المسلمين إذ نرى اليوم أنّ لقليل من الكافرين كاليهود الإسرائيلى الصّهيونيّ سبيلاً على نحو ميليارد نسمة من المسلمين، و إنّ العزّة و العلوّ للمؤمنين و لاالمسلمين إذ قال جلّ وعلا: «ولله العزّة و لرسوله و للمؤمنين» المنافقون: ٨) و قال: «و لاتهنوا و لاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ١٣٩).

و إنّما المؤمنون لن يخشوا الكافرين و لاالمسلمون، و إنّ الله تعالى لايضيع أجر المؤمنين لاأجر المسلمين.

قال الله تعالى: «و أنّ الله لايضيع أجر المؤمنين الّذين استجابوا الله و الرّسول من بعد ما أصابهم القرح للّذين أحسنوا منهم و اتّقوا أجر عظيم الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء و اتّبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم إنّما ذلكم الشّيطان يخوّف أولياءه فلاتخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ١٧١-١٧٥).

و في ذلك كلّه من تعليق الحكم على وصف الايمان مشعراً بعلّيّة الوصف و شرطيّته في الحكم مالايخفى على من له ايمان صادق و قلب سليم.

و يا أيّها المؤمنون الّذين كان مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ أميركم - لاالمسلمون الّذين يكون الخلفآء الثّلاثة الغاصبون و أذنابهم أميرهم - إن تنصروا هذا الدّين القيّم و أهله ينصركم عند الموت و في القبر و البرزخ، و في الدّار الآخرة من أهوالها عند البعث و الحساب و الصّراط و من عذابها و نارها... حيث إنّ الأمن لايمكن تحقّقه في الدّنيا و الآخرة إلاّ لمن آمن حقّاً، و الله و تالله و بالله جلّ جلاله أنّ لي فيما قلت تجربات كثيرة طويلة نحو خمسين سنة من حياتي إلى اليوم. قال الله تعالى: «الّذين آمنوا و لم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن و هم مهتدون» الأنعام: ٨٢) و قال: «كذلك يجزى المتّقين الّذين تتوفّاهم الملآئكة طيّبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون» النّحل: ٣٢).

و قال: «لايحزنهم الفزع الأكبر و تتلقّاهم الملآئكة هذا يومكم الّذي كنتم توعدون» الأنبيآء: ١٠٣).

و قال: «من جآء بالحسنة فله خير منها و هم من فزع يومئذ آمنون» النّمل: ٨٩).
و قال: «إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١).

و قال: «فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين» الروم: ٤٧).
فيا أيّها المسلمون في كلّ ظرف من الظّروف أدعوكم إلى الايمان الّذي كان مولى الموحّدين أميره لا غيره إن تريدوا أن ينصركم اللّٰه تعالى، و يدافع عنكم و يعزّكم و يعلوكم على الكافرين و ينجيكم من الذّلّة و الهوان في الدّنيا و من الخزى و النّيران في الآخرة.

و لعمري لن يطلق القدس الشّريف من يد الغاصب الصّهيوني إلاّ إذا آمنتم و كان عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ أميركم و مولاكم كما لم يفتح خيبر إلاّ بيد أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لاغيره.
و **قوله تعالى**: «و يثبّت أقدامكم» و يثبّت اللّٰه عزّوجلّ أقدامكم أيّها المؤمنين في الايمان و صالح الأعمال و الطّاعات و الاجتنات عن السّيّئات، و في دعوة النّاس إلى الحقّ و الهدى و الخير و الصّلاح، و في الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر بلسان القلم، و قلم اللسان، و في الجهاد بالأموال و الأنفس، و في القتال في معركة الحرب مع الكفّار المعتدين و من إليهم، و في الدّار الآخرة.
قال اللّٰه تعالى: «يثبّت اللّٰه الّذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا و في الآخرة» إبراهيم: ٢٧).

٨- (و الّذين كفروا فتسعاً لهم و أضلّ أعمالهم)
و الّذين كفروا بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و بكتابه، فانحطّوا انحطاطاً بسبب كفرهم، و سقطوا عن الإنسانيّة سقوطاً كسقوط الإنسان على وجهه و بقآئه عليه حتّى هلك، و أبطل اللّٰه سبحانه أعمالهم لاتنفع بحالهم، و لاتعود عليهم بخير، فلم يجدوا لها أثراً عند ما يجد العاملون أثر أعمالهم...

و انّ الكفر هو السّبب لتعسهم و سقوطهم عن الإنسانيّة و خزيهم و هلاكهم، و سبب لإضلال أعمالهم و إبطالها و سبب لخسرانهم في الدّنيا و الآخرة فلمّا كفروا و ضلّوا بسبب اتّباعهم الهوى و الباطل بغير علم و لابرهان، أضلّ اللّه تعالى أعمالهم ضلالاً بضلال، تركاً لهم في طغيانهم يعمهون أو دفعاً لهم في كفرانهم يمرحون جزآءً بما كانوا يعملون كما أنّ الكفر و الضّلال سبب لطبع قلوبهم و زيغها و رينها و قسوتها و ختمها... فهم و أعمالهم بسبب كفرهم و ضلالهم إلى ضياع و هلاك و خزى و هوان و نار و عذاب، و اللّه سبحانه منهم برآء.

قال اللّه تعالى: «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهوآئهم و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من اللّه » القصص: ٥٠).

و قال: «فمن اهتدى فلنفسه و من ضلّ فإنّما يضلّ عليها» الزّمر: ٤١).

و قال: «و لاتتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل اللّه إنّ الّذين يضلّون عن سبيل اللّه لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» ص: ٢٦).

و قال: «ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة و أنّ اللّه لايهدي القوم الكافرين اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و سمعهم و اولئك هم الغافلون لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون» النّحل: ١٠٧-١٠٩).

و قال: «فلمّا زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم» الصّفّ: ٥).

و قال: «بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» المطفّفين: ١٤).

و قال: « و ما كيد الكافرين إلاّ في ضلال - و ما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال» غافر: ٢٥ و ٥٠).

٩- (ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم)

ذلك الّذي فعل اللّه تعالى بالكافرين من التّعس و إسقاطهم عن الإنسانيّة و إضلال أعمالهم: «و من يضلل فاولئك هم الخاسرون - لهم قلوب لايفقهون بها و لم أعين لايبصرون بها و لهم آذان لايسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضلّ اولئك هم الغافلون» الأعراف: ١٧٩).

من أجل أنّهم كرهوا ما أنزل اللّه عزّوجلّ على نبيّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الكتاب المشتمل على الاصول الإعتقاديّة و التكاليف و الشّرائع و الأحكام و أمر الولاية لأهل بيت النّبوّة صلوات اللّه عليهم أجمعين، فكراهيّتهم لهذا الكتاب هي الّتي دعتهم إلى اتّخاذهم هذا الموقف العدائى لرسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أهل بيته المعصومين﴿عليهم السلام﴾ و لآيات اللّه الّتي كان﴿صلى الله عليه وآله﴾ يتلوها عليهم. و من ثمّ أحبط اللّه تعالى أعمالهم الّتي عملوها مع كراهيتهم.

و انّ الايمان هو أساس قبول الأعمال، و هم لم يؤمنوا فلن تقبل أعمالهم...

قال اللّه تعالى: «قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبّل منكم إنّكم كنتم قوماً فاسقين و ما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا بالله و برسوله و لا يأتون الصّلاة إلاّ و هم كسالى و لا ينفقون إلاّ و هم كارهون » التّوبة: ۵۳-۵۴).

و انّ الكفر و الفسق و النّفاق على حدّ سوآء، هو ستر على ما ينبغي أن يكشف و يجلو لولا الكفر الّذي يوجب ستره و حبطه و ضياعه و ضلاله...

قال اللّه تعالى: «اولئك لم يؤمنوا فأحبط اللّه أعمالهم» الأحزاب: ۱۹).

و قال: «اولئك الّذين حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و ما لهم من ناصرين» آل‌عمران: ۲۲).

و قال: «و الّذين كذّبوا بآياتنا و لقآء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون» الأعراف: ۱۴۷).

كما أنّ الايمان يوجب أمن الأعمال و بقآئها، فلمّا لم يقبل الكافرون ما أنزله اللّه على رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فلن يقبل أعمالهم جزاءً وفاقاً لو كانوا عملوها مع الايمان لأُثيبوا عليها.

۱۰- (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها)

أقعدوا هؤلآء الكافرون المكذّبون محمّداً﴿صلى الله عليه وآله﴾ الكارهون لما أنزل اللّه تعالى على رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الكتاب و من سلك مسالكهم في الكفر و التكذيب و الكراهة؟ أقعدوا في منازلهم و أصرّوا على كفرهم و نفاقهم، على ظلمهم و ضلالهم، و على فسادهم

و كراهتهم ...؟ فلم يسيروا في الأرض سيراً؟ فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم من الأُمم المكذّبة؟ فإنّ آثار ديارهم المخربة تنبىء عن أخبارهم و سوء عاقبتهم، فجعلهم نسياً منسيّاً.

و إنّما هذا توبيخ من اللّه تعالى لهم لأنّهم كانوا يسافرون إلى الشّام، فيرون نقمة اللّه الّتي أحل بأهل حجرثمود، و يرون في سفرهم إلى اليمن ما أحلّ اللّه بسبأ. فقال تعالى لنبيّه﴿ﷺ﴾ و للمؤمنين به: أفلم يَسْرِ هؤلآء الكافرون و أذنابهم سفراً في البلاد، فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الّذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها كعاد و ثمود و قوم لوط... الرّادّة نصآئحها ألم نهلكهم، فندمّر عليهم منازلهم و مساكنهم، و نخرّبها، فيتّعظوا بذلك و يحذروا أن يفعل اللّه تعالى ذلك بهم في تكذيبهم إيّاه فينيبوا إلى الايمان باللّه تعالى و طاعته.

قال اللّه تعالى: «و إن يكذّبوك فقد كذّبت قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود وقوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين و كذّب موسى فأمليت للكافرين ثمّ أخذتهم فكيف كان نكير –أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنّها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور» الحجّ: ٤٢-٤٦).

و قال: «ثمّ دمّرنا الآخرين و إنّكم لتمرّون عليهم مصبحين و باللّيل أفلا تعقلون» الصّافات: ١٣٦-١٣٨).

ثمّ توعّدهم تعالى و أخبرهم بأنّهم إن أقاموا على الكفر باللّه سبحانه و تكذيب الرّسول﴿ﷺ﴾ و كراهة ما أنزل اللّه تعالى أنّه محلّ بهم من العذاب ما أحلّ بالّذين كانوا من قبلهم من الامم و أهلك ما يختصّ بهم من الأهل و الأولاد و الأموال و الدّيار و العقار... فقال: «و للكافرين» من قريش و غيرهم الّذين كذبوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و كرهوا ما أنزل اللّه تعالى إليه، لهم عذاب، أمثال عاقبة تكذيب الأُمم الماضية الّذين كانوا من قبلهم رسلهم...

أفلا يعتبر هؤلآء بما حلّ بمن قبلهم، فيعلموا أنّ ما حاق بهم من سوء المنقلب لابدّ أن يحلّ بهم مثله بحسب ما وضعه اللّه تعالى من السّنن في الأُمم المكذّبة لرسلها و لن تجد لسنّة اللّه تبديلاً.

قال اللّٰه تعالى: «الّذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً و قوم نوح لمّا كذّبوا الرّسل أغرقناهم و جعلناهم للنّاس آية و أعتدنا للظّالمين عذاباً أليماً و عاداً و ثموداً و أصحاب الرّسّ و قروناً بين ذلك كثيراً و كلاًّ ضربنا له الأمثال وكلاًّ تبّرنا تتبيراً» الفرقان: ۳٦-۳۹) و قال «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين» آل عمران: ۱۳۷).

و ما ورد في المقام فمن باب التأويل و هو اللّب فتأمّل جيّداً و لاتغفل.

۱۱- (ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لامولى لهم)

هذا الّذي فعل اللّٰه تعالى بالفريقين: المؤمنين و الكافرين، أمّا المؤمنون فمن تكفير سيّئاتهم و إصلاح بالهم و هدايتهم إلى الخير و الكمال، و السّعادة و الفلاح و إلى الجنّة و نعيمها، و توفيقهم لصالح الأعمال، و نصرهم على أعدائهم و إظهارهم عليهم، و الدّفاع عنهم و تثبيت أقدامهم... كلّ ذلك بسبب أنّ اللّٰه تعالى مولى الّذين آمنوا و اتّبعوا الحقّ و نصروا دين اللّٰه جلّ وعلا و تولّوا اللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾، فلمّا أمنوا الحقّ من فساد الباطل بسبب اتّباعهم الحقّ، و إبطال الباطل، و أمنوا دين اللّٰه تعالى من شرّ أعدآئه، بنصره أمنهم اللّٰه تعالى من العذاب و الهلاك و الدّمار و شرّ شياطين الجنّ و الإنس، في الحياة الدّنيا و من أهوال يوم القيامة و نارها في الدّار الآخرة.

قال اللّٰه تعالى: « اللّٰه وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور» البقرة: ۲۵۷).

و قال: «و اللّٰه وليّ المؤمنين - بل اللّٰه مولاكم وهو خير النّاصرين سنلقى في قلوب الّذين كفروا الرّعب» آل عمران: ٦۸و ۱۵۰-۱۵۱).

و قال: «و قالوا الحمد للّه الّذي هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا اللّٰه» الأعراف: ٤۳).

و قال: «و من يتولّ اللّٰه و رسوله و الّذين آمنوا فإنّ حزب اللّٰه هم الغالبون» المائدة: ۵٦)

و قال: «فاعلموا أنّ اللّٰه مولاكم نعم المولى و نعم النّصير» الأنفال: ٤۰)

و قال: «و جاهدوا في اللّٰه حقّ جهاده- و اعتصموا باللّٰه هو مولاكم فنعم المولى و نعم النّصير» الحج: ۷۸)

و قال: «و اللّٰه وليّ المتّقين هذا بصآئر للنّاس و هدى و رحمة لقوم يوقنون» الجاثية: ۱۹)

فالمؤمنون الأتقياءهم أوليآء اللّٰه تعالى في أمن و أمان لاخوف عليهم و لايحزنون في الحياة الدّنيا و لافي الآخرة.

قال اللّٰه تعالى: «فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون الّذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن و هم مهتدون» الأنعام: ۸۱ و ۸۲).

و قال: «ألا إنّ أوليآء اللّٰه لاخوف عليهم و لاهم يحزنون الّذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشرى في الحياة الدّنيا و في الآخرة لاتبديل لكلمات اللّٰه ذلك هو الفوز العظيم» يونس: ۶۲-۶۴)

و أمّا امتحانهم بالبلآء في الحياة الدّنيا فليس ذلك تخلّياً منه سبحانه عن ولايتهم و لاتخلّفاً لولايته تعالى لهم، إنّما هو بلآء بعده سعادة و رخاء، بعده رشد و فلاح، و بعده خير وصلاح لنفسه و لمجتمعه ولدنياه و آخرته.

و أمّا الكافرون فمن إضلال أعمالهم و انحطاط أنفسهم و عقوبتهم و تدميرهم و خذلانهم في الدّنيا، و عذابهم... في الآخرة كلّ ذلك بسبب أنّ الكافرين لامولى لهم، فلا أمن لانفسهم و لا لأعمالهم في الدّنيا و لا في الآخرة بسبب كفرهم و صدّهم النّاس عن سبيل اللّٰه، و اتّباعهم الباطل، و كراهتهم ما أنزل اللّٰه تعالى، و بالجملة لهتكهم حرمات اللّٰه تعالى فلا حرمة لهم في الدّنيا و الآخرة، فلا مولى لهم فيهما ينصرهم، و انّهم اتّخذوا من الأصنام و الآلهة و من شياطين الجنّ و الإنس أولياء يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات، و لاينصرونهم في الدّنيا من الهلاك و الدّمار، و لا في الآخرة من العذاب والنّار، و هم و أوليآؤهم في العذاب مشتركون، و اللّٰه تعالى و أولياؤه منهم برآء.

قال اللّٰه تعالى: « و الّذين كفروا أوليآؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات اولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون» البقرة: ۲۵۷).

و قال: «إنّهم اتّخذوا الشّياطين أوليآء من دون اللّه و يحسبون أنّهم مهتدون - و لايستطيعون لهم نصراً و لا أنفسهم ينصرون» الأعراف: ٣٠ و ١٩٢).

و قال: «فأمّا الّذين كفروا فأُعذّبهم عذاباً شديداً في الدّنيا و الآخرة و ما لهم من ناصرين» آل عمران: ٥٦).

و قال: «و الظّالمون ما لهم من وليّ و لانصير أم اتّخذوا من دونه أوليآء فالله هو الوليّ و هو يحيى الموتى و هو على كلّ شيء قدير - و ما كان لهم من أوليآء ينصرونهم من دون اللّه» الشورى: ٨ و ٩ و ٤٦).

و قال: «مثل الّذين اتّخذوا من دون اللّه أوليآء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» العنكبوت: ٤١).

و قال: «و اتّخذوا من دون اللّه آلهة لعلّهم ينصرون لايستطيعون نصرهم و هم لهم جند محضرون» يس: ٧٤-٧٥).

و قال: «و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين و إنّهم ليصدّونهم عن السّبيل و يحسبون أنّهم مهتدون حتّى إذا جآئنا قال يا ليت بيني و بينك بعد المشرقين فبئس القرين و لن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون» الزّخرف: ٣٦-٣٩)

و قال: «فتتخذونه و ذرّيته أوليآء من دوني و هم لكم عدوّ بئس للظّالمين بدلاً» الكهف: ٥٠).

و قال: «إنّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لايغني مولى عن مولًى شيئاً و لاهم ينصرون إلاّ من رحم اللّه» الدّخان: ٤٠-٤٢).

و قال: «و اتّخذوا من دون اللّه آلهة ليكونوا لهم عزّاً كلاّ سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدّاً» مريم: ٨١-٨٢).

وقال: «الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلاّ المتّقين» الزّخرف: ٦٧).

و قال: «فإنّهم يومئذ في العذاب مشتركون إنّا كذلك نفعل بالمجرمين إنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ اللّه يستكبرون و يقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» الصّافات:

۳۳-۳٦) و أمّا نفي المولى بمعنى النّاصر عنهم في الدّنيا و الآخرة فلاينافى إثباته لهم بمعنى المالك لامورهم، المتصرّف في شئونهم في الدّارين، في قوله تعالى: «ثمّ ردّوا إلى اللّه مولاهم الحقّ» يونس: ۳۰) حتّى يتوارد النّفي و الإثبات على معنى واحد.

۱۲- (إنّ اللّه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم)

إنّ اللّه تعالى يدخل الّذين آمنوا بالله جلّ وعلا و برسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بما أنزله إليه، واتّبعوا الحقّ و عملوا الصّالحات و الطّاعات فيما بينهم وبين ربّهم، و سلكوا سبيل الحقّ والهدى و الرّشد و الصّلاح و الخيرو الفلاح، و قاموا بوظآئفهم الإنسانيّة، و دخلوا تحت ولاية اللّه الخاصّة، و سلكوا مسلكاً يريده منهم و يهديهم إليه، فعرفوا أنّ نعيم الدّنيا و متاعها ظلّ زائل، فتركوا الشّهوات و تفرّغوا للطّاعات و الصّالحات، فكانت عاقبة أمرهم و مآلهم الجنّة و نعيمها المقيم في مقام كريم، فدخلوا تحت ولاية اللّه الخاصّة يوم القيامة كما دخلوا في الحياة الدّنيا، فلذلك يدخلهم في الآخرة بساتين لايقدر قدرها إلاّ من دخل فيها، بساتين تجنّها الأشجار، تجري من تحت أشجارها و قصورها و مساكنها و أبنيتها أنهار الخمر، و أنهار المآء، و أنهار العسل و أنهار اللّبن كرامة لهم على ايمانهم و صالح أعمالهم، وكونهم تحت ولاية اللّه تعالى في الدّارين، و ولاية رسول اللّه و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين هي ولاية اللّه جلّ وعلا: قال اللّه تعالى: «إنّما وليّكم اللّه و رسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصّلاة و يؤتون الزّكاة و هم راكعون و من يتولّ اللّه و رسوله و الّذين آمنوا فإنّ حزب اللّه هم الغالبون - قال اللّه هذا يوم ينفع الصّادقين صدقهم لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى اللّه عنهم و رضوا عنه ذلك الفوز العظيم» المائدة: ۵۵-۵٦و ۱۱۹).

و قال: «لهم دار السّلام عند ربّهم و هو وليّهم بما كانوا يعملون» الأنعام: ۱۲۷).

و قال: «إنّ اللّه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجرى من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير و هدوا إلى الطّيّب من القول و هدوا إلى صراط الحميد» الحج: ۲۴).

و **قوله تعالى:** «و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم» و الّذين كفرو باللّه سبحانه و رسوله﴿ﷺ﴾ و كرهوا ما أنزل اللّه تعالى إليه﴿ﷺ﴾ و اتّبعوا الباطل، فاستحبّوا الحياة الدّنيا و زعموها كمالاً لهم، فلا عناية لهم إذاً بإصابة الحقّ، و لا تعلّق لقلوبهم بوظآئفهم الإنسانيّة و إنّما همّهم فيها بطنهم و فرجهم و ما إليهما، و ذلك أنّ حبّ الدّنيا و الكفر متلازمان، و يتسبّب أحدهما بالآخر، و لهذا ورد في الوحي السّماوي على كلا قسميه: الكتاب و السّنّة، تعليل الخزي و الشّقآء والهلاك و الدّمار في الدّنيا و العذاب و النّار في الآخرة تارة بالكفر و تارة اخرى بحبّ الدّنيا، و ان حبّ الدّنيا مغرس الكفر و منبت النّفاق و رأس كلّ خطيئة.

قال اللّه تعالى: «و ويل للكافرين من عذاب شديد الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة و يصدّون عن سبيل اللّه و يبغونها عوجاً اولئك فى ضلال بعيد» إبراهيم: ٢-٣).

يتمتّعون في حياتهم الدّنيا القصيرة بشهواتها و لذّاتها، بحطامها و رياشها، و بشهرتها و شهواتها، و حلالها و حرامها و ينتفعون بمتاعها و زينتها و زخارفها الفانية أيّاماً قلايل... و يأكلون من حلالها و حرامها، غافلين غير مفكّرين في سوء عواقبهم، و نكبة امورهم، و لا معتبرين بما نصب اللّه تعالى لخلقه في الآفاق و الأنفس من الحجج المؤدّية إلى معرفة اللّه تعالى و تصديق رسوله﴿ﷺ﴾ و طاعته...

فمثلهم مثل البهآئم تأكل في مسارحها و معالفها، غافلة عمّا هي بصدده من الذّبح والنّحر، و عن حرمة ما تأكله و حلاله... فهم كالأنعام يأكلون و يتلذّذون، مطلقي العنان، مكشوفي العورات، ساهين عن سوء عواقبهم، و لاهين عن منتهى أمرهم، فلا منية لهم إلاّ الأكل، و لا غاية لهم إلاّ البطن، و لا هدف لهم إلاّ الفرج و لا غرض لهم إلاّ ما إليها...

و لمّا استحبّوا الدّنيا على الآخرة و غفلوا عن عاقبة أمرهم، وُكِلوا إلى أنفسهم،

خرجوا من ولاية اللّٰه تعالى الخاصّة، و أُطلِق عنانهم و كشفت عورتهم، و رتـعوا في الدِّمَن كالبهآئم حتّى ساقهم الخزى و الخذلان إلى مقرّهم من درك الجحيم و النّـيران، فالنّار منزل و مقام لهم يصيرون إليها بعد مماتهم.

قال اللّٰه تعالى: «ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة و أنّ اللّٰه لا يهـدي القوم الكافرين اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و اولئك هـم الغافلون» النّحل: ١٠٧-١٠٨).

و قال: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون» الرّوم: ٧).

و قال: «ذرهم يأكلوا و يتمتّعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» الحجر: ٣).

و قال: «و أنّ الكافرين لامولى لهم» محمّد(صلى الله عليه و آله): ١١).

و قال: «فاليوم لايؤخذ منكم فدية و لا من الّذين كفروا مأواكم النّار هي مولاكم و بئس المصير» الحديد: ١٥).

و من البداهة: أنّ الانسان مركّب من جسم خاصّ فيه خواص العالَم المادّي كلّها، و من روح خاصّة فيها خواصّ العالَم المعنوي تمامها، و ليس في نظام الكون و نواميس الوجود، موجود كالإنسان في تركيب وجوده منهما... قال اللّٰه عزّوجلّ: «إنّي خـالق بشراً من طين فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» ص: ٧١-٧٢).

و أنّ للإنسان باعتبار جسمه الخاصّ، طبيعة خاصّة، و باعتبار روحه الخاصّة، فطرة خاصّة، و هو بطبيعته يميل إلى الدّنيا و متاعها لتقوية جسمه و مشتهياته، و بقآئه فيها و يراها كمالاً لنفسه، غافلاً عن ورآئها... و بفطرته يميل إلى العقبى و نعيمها، و يرى الدّنيا ظرفاً لكمال نفسه، فيقوّى روحه و مقتضياتها بفطرته الّتي يُؤيّدها الدّين القيّم في الدّنيا للتنعّم بنعيم العقبى.

و أنّ الإنسان مختار بينهما، فمن غلبت طبيعته على فطرته - جهلاً بحـقيقة تـركيبه إتّباعاً لهواه - صار كافراً، و من غلبت فطرته على طبيعته علماً بحقيقة تركيبه اتّـباعاً لعقله - صار مؤمناً.

١٣- (و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)

و كثير من أهل قرية من قرى الأُمم السّافلة الّتي كان أهلها أشدّ قوة و بأساً، و أكثر أموالاً و أولاداً، و أعدّ عِدّة و عُدّة و جمعاً من أهل قريتك مكّة المكرّمة مولدك و بلدك الأمين، أخرجوك - تسبّبوا لخروجك منها إلى المدينة المنوّرة - أهلكنا أهل تلك القرى بسبب تكذيبهم رسلنا بأنواع العذاب، فلم يجدوا لهم ناصراً ينصرهم من عذابنا، و لا مولى يدفع عنهم بأسنا و إهلاكنا إيّاهم.

قال اللّٰه تعالى: «و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاّ قليلاً و كنّا نحن الوارثين و ما كان ربّك مهلك القرى حتّى يبعث في امّها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا و ما كنّا مهلكي القرى إلاّ و أهلها ظالمون» القصص: ٥٨-٥٩).

و قال: «و ما أرسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا بما ارسلتم به كافرون و قالوا نحن أكثر أموالاً و أولاداً و ما نحن بمعذّبين - و كذّب الّذين من قبلهم و ما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير» سبأ: ٣٤-٣٥ و ٤٥).

و قال: «و كم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين و ما يأتيهم من نبيّ إلاّ كانوا به يستهزؤن فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً و مضى مثل الأوّلين» الزّخرف: ٦-٨).

و قال: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوّة و آثاراً في الأرض فأخذهم اللّٰه بذنوبهم و ما كان لهم من اللّٰه من واق» غافر: ٢١).

و قد تسبّب مشركوا مكّة لخروج رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فأخرجه اللّٰه تعالى منها ليحقّ الحقّ بكلماته...، و قد كانت مكّة المكرّمة هي البلد الأمين، و مولد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و قرية دعوته و عاصمة رسالته، و ليس إخراج زعيم الدّعوة عن عاصمته هيّناً يتحمّل إلاّ بما يطمئنّ اللّٰه تعالى و قد طمأنه - و علّه - حين إخراجه: إنّ اللّٰه سبحانه سوف يهلك الكافرين في العاصمة بما يعدك من الفتح المبين.

قال اللّٰه تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي و عدوّكم أولياء تلقون إليهم

بالمودّة و قد كفروا بما جآءكم من الحقّ يخرجون الرّسول و إيّاكم أن تؤمنوا باللّٰه ربّكم - إنّما ينهاكم اللّٰه عن الّذين قاتلوكم في الدّين و أخرجوكم من دياركم و ظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم و من يتولّهم فاولئك هم الظّالمون» الممتحنة: ١و ٩).

و قال: «و إن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها و إذاً لا يلبثون خلافك إلاّ قليلاً سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا و لا تجد لسنّتنا تحويلاً» الإسراء: ٧٦-٧٧).

و قال: «كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ - و إذ يمكربك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك و يمكرون و يمكر اللّٰه و اللّٰه خير الماكرين» الأنفال: ٥ و ٣٠).

و قال: «إلاّ تنصروه فقد نصره اللّٰه إذ أخرجه الّذين كفروا - فأنزل اللّٰه سكينته عليه و أيّده بجنود لم تروها و جعل كلمة الّذين كفروا السّفلى و كلمة اللّٰه هي العليا و اللّٰه عزيز حكيم» التّوبة: ٤٠).

و قد جعل اللّٰه تعالى كلمة الكفر سفلى، و جعل كلمة اللّٰه جلّ وعلا عليا بفتح مكّة المكرّمة ذراعيها لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح: ١). و أهلك اللّٰه سبحانه الكفر و أهله بأيدي المؤمنين، و قد كان عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ أميرهم: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم و الفتنة أشدّ من القتل و لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزآء الكافرين» البقرة: ١٩١).

فاصبر أيّها الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ كما صبر قبلك اولوالعزم من الرّسل، و لا تبخع نفسك عليهم حسرات، فاللّٰه تعالى مظهرك عليهم و مهلكهم إن لم ينيبوا إلى ربّهم و يثوبوا إلى رشدهم كما أهلك مَن قبلهم كقوم نوح﴿عليه السلام﴾ و قوم عاد و ثمود و قوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين و قوم فرعون... و هم أشدّ قوّة من أهل هذه القرية، فلا مولى لهؤلآء و لا لهؤلآء يلي أمرهم في كفرهم و طغيانهم و ضلالهم و عصيانهم، و لا مولى لهم ينصرهم من الهلاك و الدّمار و الخزى و الهوان...

قال اللّٰه تعالى: «و إن يكذّبوك فقد كذّبت قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود و قوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين و كذّب موسى فأمليت للكافرين ثمّ أخذتهم فكيف كان

نكير فكأيّن من قرية أهلكناها و هي ظالمة فهى خاوية على عروشها و بئر معطّلة و قصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور و يستعجلونك بالعذاب و لن يخلف اللّه وعده» الحج: ٤٢-٤٧).

١٤-(أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم)

أفمن كان على حجّة قاطعة، و برهان ساطع من عنداللّه جلّ وعلا نقليّة على قسميها: الكتاب المجيد، و السّنّة الثّابتة من النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ و عقليّة بنور العقل السّليم، و هو عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ الّذي لا يتّبع إلاّ الحقّ و إنّما هو الحقّ، و الحقّ معه يدور حيثما دار، و هو الّذي عرف اللّه عزّوجلّ حقّاً، و أخلص له العبادة و لم يعبد غير اللّه طرفة عين أبداً أهو كمن زيّن له الشّيطان سوء عمله من مخالفة أمر اللّه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و من البغى و النّفاق، و الشّرّ والفساد، و اتّبعه همج رعاع من النّاس و هم أتباع كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق، و هم كرهوا ما أنزل اللّه تعالى و يحسبون أنّهم مهتدون، و اتّبعوا الباطل، و يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً؟!.

لا يستوي من كان على بيّنة من ربّه و على هدىً منه و معرفة بـه و عـبادة له، لا يستوى من كان هذا شأنه، و من زيّن له سوء عمله، فرأى القبيح حسناً، و الباطل حقّاً، و الشّرّ خيراً، و الضّلالة هدى... فشتّان بين هذا و ذاك؟ و شتّان بين أتباعهما؟.

قال اللّه تعالى: «أمّن هو قانت آنآء اللّيل ساجداً و قائماً يحذر الآخرة و يرجوا رحمة ربّه قل هل يستوي الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون إنّما يتذكّر اولوا الألباب» الزّمر: ٩).

و قال: «أفمن يلقى في النّار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة» فصّلت: ٤٠).

و قال: «أفمن يمشى مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم» الملك: ٢٢).

و قال: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون» القلم: ٣٥-٣٦).

و قال: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون أمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فلهم جنّات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون و أمّا الّذين فسقوا فمأواهم النّار» السّجدة: ۱۸-۲۰).

أقول: و من البداهة: أنّ الشّيئ الواحد إمّا أن يكون حقّاً و إما باطلاً فلا ثلاث لها، و بناء على ذلك الحصر فخلافة أبي‌بكر بن أبي قحافة بعد رسول اللّه«صلى الله عليه و آله» إمّا كانت حقّاً أو باطلاً، و لو كانت حقّاً لماذا صرّح هو بنفسه - حيث خطب النّاس في أوآئل خلافته معتذراً إليهم -: «إنّ بيعتى كانت فلتة...» الخطبة الّتي أوردها أعاظم العامّة و حملة آثارهم في جوامعهم المعتبرة عندهم، و قد شهد بذلك، عمر بن الخطّاب حليفه على رؤوس الأشهاد في خطبة خطبها على منبر رسول اللّه«صلى الله عليه و آله» يوم الجمعة في أواخر خلافته، و قد طارت كلّ مطير، و أخرجها غير واحد من أصحاب السّنن و الأخبار منهم، و إليك محلّ الشّاهد منها بعين لفظه: «إنّما كانت بيعة أبي‌بكر فلتة...»؟

و لماذا قال أبوبكر بن أبي قحافة: «أقيلوني فلست بخيركم و عليّ فيكم» فإن كان صادقاً في كلامه فما كان خلافته حقّاً، و إن كان كاذباً فلم يصلح للخلافة.

و لو كانت خلافته حقّاً لماذا قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب«عليه السلام» في أبي‌بكر بن أبي‌قحافة و حليفيه: عمر بن الخطّاب و عثمان بن عفّان و أذنابهم: «فواللّه ما زلتُ مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عَلَيَّ منذ قبض اللّه نبيّه«صلى الله عليه و آله» حتّى يوم النّاس هذا» نهج البلاغة: الخطبة: ٦).

و قال«عليه السلام»: «إنّما طَلَبْتُ حَقّاً لي و أنتم تحولون بيني و بينه و تضربون وجهي دونه، فلمّا قَرَعْتُهُ بالحجّة في الملإ الحاضرين هبّ كأنّه بُهِتَ لا يَدْري ما يُجيبُني به! اللّهم إنّي أستعديك على قريش و من أعانهم، فإنّهم قطعوا رَحِمي، و صغّروا عظيم منزلتي، و أجمعوا على منازعتي أمراً هُوَ لي، ثمّ قالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه و في الحقّ أن تتركه» الخطبة: ۱۷۱).

و قال«عليه السلام»: «إتّخذوا الشّيطان لأمرهم ملاكاً، و اتّخذهم له أشراكاً، فباض و فرّخ في صدورهم، و دبّ و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم، فركب بهم

الزّلل، و زيّن لهم الخطل، فِعْلَ مَن قد شركه الشّيطان في سلطانه، و نطق بالباطل على لسانه» النهج: الخطبة: ٧).

و قال﴿عليه السلام﴾: «فو الّذي لا إله إلاّ هو إنّي لعلى جادّة الحقّ و إنّهم لعلى مزلّة الباطل» النهج: الخطبة: ١٨٨).

و قال﴿عليه السلام﴾: «زرعوا الفجور و سقوه الغرور و حصدوا الثّبور لا يقاس بآل محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ من هذه الامّة أحد و لا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدّين و عماد اليقين إليهم يفئ الغالي، و بهم يلحق التّالي، و لهم خصآئص حقّ الولاية، و فيهم الوصيّة و الوراثة، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله و نقل إلى منتقله» النهج: الخطبة: ٢).

و قال﴿عليه السلام﴾: «حتّى إذا قبض اللّه رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولائج و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي اُمروا بمودّته و نقلوا البنآء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب في غمرة، قد ماروا في الحيرة و ذهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين» النهج: الخطبة: ٥٠).

و غيرها من كلمات مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ في الخلفآء الغاصبين الثّلاثة و أذنابهم السّفلة -، و إنّي لا أظنّ أن يشكّ من له طيب الولادة: أنّ الشّيطان زيّن لأبيبكر بن أبيقحافه سوء عمله من غصب الخلافة بعد رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾، و اتّبعته أذنابه أهوآء هم في ذلك حتّى اليوم، و أنّهم ليسوا على سنّة رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و قد صرّح الإمام على﴿عليه السلام﴾ أنّهم على سنّة من آل فرعون.

١٥- (مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم)

صفة الجنّة العجيبة الشّأن الّتي وعدها اللّٰه تعالى الّذين اتّقوا في الحياة الدّنيا عقابه بأدآء فرآئضه و اجتناب معاصيه، و الوفاء بعهده و الصّبر في البأسآء و الضّرّاء و حين البأس قال اللّٰه تعالى عزّوجلّ في تعريف المتّقين: «ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكنّ البرّ من آمن باللّٰه و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النّبيّين و آتى المال على حبّه ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السّبيل و السّائلين و في الرّقاب و أقام الصّلاة و آتى الزّكاة و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا و الصّابرين في البأسآء والضّرّاء و حين البأس اولئك الّذين صدقوا و اولئك هم المتّقون» البقرة: ١٧٧).

و قوله تعالى: «فيها أنهار من مآء غير آسن» للمتّقين في هذه الجنّة أنهار عديدة من مياه صافية، متفجّرة جارية من عيون، غير متغيّرة الطّعم و الرّيح و اللّون لا لطول مكثها و ركودها إذ لا مكث لها و لا ركود، فإنّها تتفجّر إذا أرادها المتّقون.

قال اللّٰه تعالى: «إنّ المتّقين في مقام أمين في جنّات و عيون» الدّخان: ٥١-٥٢).

و قال: «عيناً يشرب بها عباد اللّٰه يفجّرونها تفجيراً» الإنسان: ۶).

و قال: «فيها عين جارية» الغاشية: ١٢).

و قوله سبحانه: «و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» و لهم فيها أنهار كثيرة من لبن لا يقدر قدرها أحد في هذه الحياة الدّنيا، لبن لا يُحلَب من غنم أو بقر أو إبل، لبن لم يحمض و لم يصر قارصاً و لا حازراً كألبان الدّنيا الّتي تحلب من الأنعام، و تتغيّر إلى الحموضة بعد يوم أو أيّام، و لا يتغيّر لبن الجنّة طعمه و لا ريحه، إذ تغيّر الرّيح لا يفارق تغيّر الطّعم. فالتّشابه بين اللّبنين إسميّ و بينهما بون بعيد كسآئر النّعم الدّنيويّة و الأُخرويّة.

و قوله عزّوجلّ: «و أنهار من خمر لذّة للشّاربين» و لهم فيها أنهار من أنواع الخمر كلّها لذيذة للشّاربين، لذيذة الطّعم و الرّيح، و طيّبة الشّرب، ليس فيها كراهة طعم و لا شنيعة ريح، و لا غائلة سكر و أثر جنون، خمر لا كخمور الدّنيا الّتي تدنسها الأرجل و ترنّقها، و تكدرها الأيدي، خمر لا تعصر من كرم، و لا تتّخذ من زبيب، خمر فيها لذّة للجسم و العقل من دون ذلّة و هوان، و لا صداع و لا آفة من آفات خمر الدّنيا و لا من ضررها...

قال اللّٰه تعالى: «إنّ للمتّقين مفازاً حدآئق و أعناباً و كواعب أتراباً و كأساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً و لا كِذّاباً» النّبأ: ٣١-٣٥).

و قال: «يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها و لا تأثيم» الطّور: ٢٣).

و قال: «بأكواب و أباريق و كأس من معين لا يصدّعون عنها و لا ينزفون» الواقعة: ١٨-١٩).

و قال: «يطاف عليهم بكأس من معين بيضآء لذّة للشّاربين لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون» الصّافات: ٤٥-٤٧).

و قوله جلّ وعلا: «و أنهار من عسل مصفّى» و لهم فيها أنهار لا يعلم عددها إلاّ اللّٰه تعالى، من عسل لم يخرج من بطون النّحل، مصفّى من القذى و الأذى و من كلّ آفات، مصفّى لايخالطه شمع و لاغيره كما يكون في عسل الدّنيا قبل التّصفية من الشّمع و فضالات النّحل و غيرها...

فتجري هذه الأنهار الأربعة المتنوّعة المختلفة، تجري في الجنّة من طراوة و نضارة بلا انقطاع و لا عزوب، من دون حاجة أنهار المآء إلى قناة، و لا أنهار اللبن إلى غنم أو بقر أو إبل، و لا أنهار الخمر في صنعها إلى كرم و زبيب و شجر، و لا أنهار العسل إلى نحل.

في مفاتيح الغيب: قال: «و اعلم أنّ لك في الوجود مراتب، و لتكويناتك مواسم (علامات و اجتماعات) و أنت بعد ما حظيت إلاّ بتكوين واحد و وجود واحد، فإذا كوّنت في البرزخ تطالع ما كنت فيه أيّام الدّنيا كأنّها منام، النّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا كما ورد في الحديث، ثمّ في كونك في البرزخ لك زمان و مكان و عالم تطالعه و تتحقّق بمعرفته: إنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران.

ثمّ تكون تكوّناً آخر في يوم البعث و النّشور في منازل القيامة، فإذا اجتمعت متفرّقات قالبك وجوداً جميعاً لا فرق فيه، و تكوّناً رتقيّاً لا فتق له، و بنى بنيان دار خلودك في دار الحياة، و نزل الرّوح الّذي هو صاحب المنزل في منزله، فعند ذلك ترى في الوجود ما لا عين رأت، و تسمع ما لا أُذن سمعت، كما ورد في الخبر، و تري في الوجود الأنهار الأربعة: أنهاراً من مآء غير آسن، و أنهاراً من لبن لم يتغيّر طعمه، و أنهاراً من خمر لذّة للشّاربين، و أنهاراً من عسل مصفّى.

و ممّا يزيدك إيضاحاً أنّك ربما نمت فرأيت في منامك رياضاً و أشجاراً و جنّات تجري من تحتها الأنهار، و قصوراً و أشخاصاً كريمة من الأشيآء الّتي اخبرت بها من نعيم الجنّة، أو أشيآء مكروهة موحشة سودآء مظلمة و نيرانات ملتهبة، من قبيل ما اخبرت به من عذاب الجحيم، و أنت في منامك يمكن أن تبق في تلك الحالة ساعة أو ساعتين أو أكثر من ذلك، فماذا تنكر أنّ هذا الوجود الّذي ينبألك في منامك كلّ ما أدركت يبق متجسّداً على تلك الهيئة، فحينئذ يتحقّق في الجنّة و نعيمها، و يكون ذلك وجوداً مكوّناً لك، فالقادر على التّكوين في زمان يسير قادر على التّكوين في زمان كثير قال اللّه تعالى: «و من آياته منامكم باللّيل و النّهار» الرّوم: ۲۳).

و **قوله سبحانه:** «و لهم فيها من كلّ الثّمرات» و للمتّقين في الجنّة - مع ما ذكر من فنون الأنهار الأربعة - أنواع من الثّمار المختلفة الطّعوم و الرّوآئح و الأشكال و الخواصّ... و صنف من كلّ الثّمرات...

قال اللّه تعالى: «و إنّ للمتّقين لحسن مآب جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب متّكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة و شراب» ص: ۴۹-۵۱).

و قال: «إنّ المتّقين في مقام أمين في جنّات و عيون - يدعون فيها بكلّ فاكهة آمنين» الدّخان: ۵۱-۵۵).

و قال: «إنّ المتّقين في ظلال و عيون و فواكه ممّا يشتهون كلوا و اشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون» المرسلات: ۴۱-۴۳).

و **قوله سبحانه:** «و مغفرة من ربّهم» و للمتّقين مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها، كائنة من ربّهم، فهو تعالى يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل و يتجاوز عن هفواتهم الّتي اقترفوها في الدّنيا غفلة.

قال اللّه تعالى: «و سارعوا إلى مغفرة من ربّكم و جنّة عرضها السّموات و الأرض أُعدّت للمتّقين الّذين ينفقون في السّرّآء و الضّرّآء و الكاظمين الغيظ و العافين عن النّاس و اللّه يحبّ المحسنين و الّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم و من يغفر الذّنوب إلاّ اللّه و لم يصرّوا على ما فعلوا و هم يعلمون

اولئك جزآؤهم مغفرة من ربّهم و جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و نعم أجر العاملين» آل عمران: ١٣٣-١٣٦).

و **قوله عزّوجلّ**: «كمن هو خالد في النّار» أم من هو خالد في الجنّة الّتي وصفت كمن هو خالد في النّار كما قال تعالى: «و النّار مثوى لهم»؟ فليس هؤلآء المتّقون هم في الدّرجات العلى كاولئك المجرمين هم في الدّركات السّفلى.

قال اللّه عزّوجلّ: «أم حسب الّذين اجترحوا السّيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصّالحات سوآء محياهم و مماتهم سآء ما يحكمون» الجاثية: ٢١).

و قال: «لا يستوي أصحاب النّار و أصحاب الجنّة أصحاب الجنّة هم الفائزون» الحشر: ٢٠).

و قال: «فلنذيقنّ الّذين كفروا عذاباً شديداً و لنجزينّهم أسوأ الّذي كانوا يعملون ذلك جزآء أعدآء اللّه النّار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون» فصّلت: ٢٧-٢٨).

و قال: «و إذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنا لك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداًو ادعوا ثبوراًكثيراً قل أذلك خير أم جنّة الخلد الّتي وعد المتّقون كانت لهم جزآءً و مصيراً» الفرقان: ١٣-١٥).

و **قوله جلّوعلا**: «و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم» و سقي هؤلآء الكافرون سوآء أكانوا متظاهرين بالكفر على فِرَقهم أم مباطنين به كالمنافقين، سقوا في جهنّم ماءً حارّاً في نهاية الحرارة لا يستساغ: «و خاب كل جبّار عنيد من ورآئه جهنّم و يسقى من مآء صديد يتجرّعه و لا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كلّ مكان و ماهو بميّت و من ورآئه عذاب غليظ» إبراهيم: ١٥-١٧). «تصلى نارًا حامية تسقى من عين آنية» الغاشية: ٤-٥). مكان الأشربة الّتي يشربها المتّقون: «يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك و في ذلك فليتنافس المتنافسون و مزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقرّبون» المطفّفين: ٢٥-٢٨).

فقطّع بهذا السّقي من فرط الحرارة أمعآء الكافرين و ما في جوف الظّالمين من الأحشآء...

قال اللّٰه تعالى: «فالّذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار يصبّ من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم و الجلود» الحج: ١٩-٢٠).

و قال: «إنّا أعتدنا للظّالمين ناراً أحاط بهم سرادقها و إن يستغيثوا يغاثوا بمآء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشّراب وسآئت مرتفقاً» الكهف: ٢٩).

و قال: «إلاّ عباد اللّٰه المخلصين اولئك لهم رزق معلوم فواكه و هم مكرمون في جنّات النّعيم - أذلك خير نزلاً أم شجرة الزّقوم إنّا جعلناها فتنة للظّالمين إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنّه رؤس الشّياطين فإنّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثمّ إنّ لهم عليها لشوباً من حميم» الصّافات: ٤٠-٦٧).

و قال: «و إنّ للطّاغين لشرّ مآب جهنّم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذو قوه حميم و غسّاق» ص: ٥٥-٥٧).

١٦-(و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم)

إنّ المنافقين - هم كافرون قلباً و سيرة و معهم خفآء، و مسلمون لساناً و صورة و بينهم ظاهراً مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلآء و لا إلى هؤلآء - هم في زمرة هؤلآء الكافرين الخالدين في النّار سبق ذكرهم آنفاً، و من المنافقين فئة يستمعون إليك أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ ما تتلوا على النّاس و رؤوس الأشهاد من الوحي على كلا قسميه: الكتاب و السّنّة - كأنّهم كانوا مأمورين من كبرآئهم بالحضور في مجالس رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ للاستماع ثمّ الاستخفاف و التّحقير و الاستهزآء و التّشكيك و التّرديد فيما استمعوه - حتّى إذا خرجوا من مجلسك، قالوا - استخفافاً و ترديداً - لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب اللّٰه تعالى و تلاوتك عليهم ما تلوت و قيلك لهم ما قلت: ماذا قال محمّد آنفا! لم نفهم من أقاويله شيئاً فيه فائدة، فكلامه ممّا لا ينبغي أن يؤبه به أو يلقى لمثله سمع.

قال اللّٰه تعالى: «و إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤن» البقرة: ١٤).

و قال: «ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك و ما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت و قد أُمروا أن يكفروا به و يريد الشّيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّٰه و إلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً - فما لكم في المنافقين فئتين و اللّٰه أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضلّ اللّٰه و من يضلل اللّٰه فلن تجد له سبيلاً ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء - الّذين يتربّصون بكم فإن كان لكم فتح من اللّٰه قالوا ألم نكن معكم و إن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين - إنّ المنافقين يخادعون اللّٰه و هو خادعهم و إذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يرآؤن النّاس و لايذكرون اللّٰه إلاّ قليلاً مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء - إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار و لن تجد لهم نصيراً» النّساء: ٦٠-٦١ و ٨٨-٨٩ و ١٤١-١٤٥).

و قال: «و لا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً و رئاء النّاس و يصدّون عن سبيل اللّٰه - إذ يقول المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض غرّ هولآء دينهم» الأنفال: ٤٧-٤٩).

و قال: «يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إنّ اللّٰه مخرج ما تحذرون - و ممّن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النّفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلى عذاب عظيم» التوبة: ٦٤ و ١٠١).

و قال: «نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك و إذهم نجوى إذ يقول الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً» الإسراء: ٤٧).

و **قوله تعالى**: «اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم» اولئك المنافقون هم الّذين طبع اللّٰه سبحانه على قلوبهم لأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى، و تركوا الحقّ و الهدى، و اتّبعوا الباطل و الهوى، و مالوا إلى ما دعتهم أنفسهم الأمّارة بالسّوء و طباعهم دون ما قامت عليه حجّة و لابرهان، فهم لايرجعون من الكفر والنّفاق، من الشّرّ و الفساد، من الظّلم و الخيانة، و من البغي و العداوة مع رسول

اللّٰه﴿ﷺ﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

فأعرضوا عن كلّ ما فيه خيرهم و سعادتهم، و رشدهم و نجاتهم، و صلاحهم و فلاحهم، و توجّهوا إلى كلّ ما فيه شرّهم و شقاؤهم، و انحطاطهم و هلاكهم و فسادهم و خسرانهم في الدّنيا و الآخرة. فلا يهتدون للحقّ الّذي بعث اللّٰه تعالى به رسوله الخاتم﴿ﷺ﴾.

قال اللّٰه تعالى: «فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين» يونس: ۷۴).

و قال: «الّذين يجادلون في آيات اللّٰه بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند اللّٰه و عند الّذين آمنوا كذلك يطبع اللّٰه على قلب كلّ متكبّر جبّار» غافر: ۳۵).

و قال: «ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة و أنّ اللّٰه لا يهدى القوم الكافرين اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و اولئك هم الغافلون لا جَرَم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون» النّحل: ۱۰۷-۱۰۹).

۱۷- (و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم)

و الّذين اهتدوا بما أنزل اللّٰه تعالى على رسوله﴿ﷺ﴾ و تدبّروه و اتّبعوا الحقّ و جاهدوا في سبيل اللّٰه جلّ‌وعلا و لم يخشوا إلاّ اللّٰه تعالى زادهم اللّٰه سبحانه هدى و ايماناً.

قال اللّٰه تعالى: «و أن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه» النّمل: ۹۲).

و قال: «إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم - من اهتدى فإنّما يهتدى لنفسه» الإسرآء: ۹ و ۱۵).

و قال: «قد جآءكم من اللّٰه نور و كتاب مبين يهدى به اللّٰه من اتّبع رضوانه سبل السّلام و يخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه و يهديهم إلى صراط مستقيم» المائدة:۱۶).

و قال: «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر اللّٰه و جلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً» الأنفال: ۲).

و قال: «و إذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون» التّوبة: ۱۲۴).

و قال: «و يزيد اللّٰه الّذين اهتدوا هدى» مريم: ۷۶).

و قال: «و لمّا رأالمؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللّٰه و رسوله و صدق اللّٰه و رسوله و مازادهم إلاّ ايماناً و تسليماً» الأحزاب: ۲۲).

و قال: «الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً و قالوا حسبنا اللّٰه و نعم الوكيل» آل عمران: ۱۷۳).

و قال: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» الفتح:۴).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و ما جالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، و نقصان من عمى» الخطبة: ۱۷۵).

و قوله تعالى: «و آتاهم تقواهم» و آتاهم اللّٰه عزّوجلّ على زيادة الهدى و الايمان، تقواهم بكتابه الكريم، فكلّما زاد هداهم و ايمانهم بالقرآن الكريم زاد تقواهم به، فما آمن أحد بما أنزل اللّٰه تعالى على رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و عمل به إلاّ زاد اللّٰه سبحانه تقواه، و هو العمل بما فرض اللّٰه تعالى، و ترك المحرّمات كلّها في الخلوات فضلاً عن الجلوات...

قال اللّٰه تعالى: «ذلك الكتاب لاريب فيه هدىً للمتّقين الّذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصّلاة و ممّا رزقناهم ينفقون و الّذين يؤمنون بما أُنزل إليك و ما أُنزل من قبلك و بالآخرة هم يوقنون اولئك على هدىً من ربّهم و اولئك هم المفلحون» البقرة: ۲-۵).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «اوصيكم عباد اللّٰه بتقوى اللّٰه الّتي هي الزّاد، و بها المعاذ، زادٌ مُبَلِّغٌ، و مَعَاذٌ مُنْجِحٌ، دعا إليها أَسْمَعُ داعٍ، و وعاها خير واعٍ، فأسمع داعيها و فاز واعيها، عباد اللّٰه! إنّ تقوى اللّٰه حَمَتْ أولياءَ اللّٰه محَارِمَهُ، و ألزَمَتْ قلوبَهُمْ مخافَتَه حتّى أسْهَرَتْ لياليهم، و أظمأت هواجرهم، فأخذوا الرّاحة بالنَّصَب، و الرِّيَّ بالظّمأ، و استقربوا الأجل، فبادروا العمل و كذبوا الأمل فلاحظوا الأَجل...» الخطبة: ۱۱۳).

و فيه: - و من عهد له﴿عليه السلام﴾ إلى بعض عمّاله، و قد بعثه على الصّدقة - قال الإمام أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: «آمره بتقوى اللّٰه في سرآئر أمره و خفيّات عمله، حيث لا شاهد غيره و لا وكيل دونه، و آمره أن لا يعمل بشئ من طاعة اللّٰه فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسرّ، و من لم يختلف سرّه و علانيته و فعله و مقالته، فقد أدّى الأمانة و أخلص العبادة» باب المختار من كتبه﴿عليه السلام﴾ رقم: ۲۶).

و فيه: قال الإمام أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: «إتّقوا معاصي اللّٰه في الخلوات فإنّ الشّاهد هو الحاكم» باب المختار من حكمه﴿عليه السلام﴾ رقم: ۳۱۶).

هذه هي حقيقة تقوى اللّٰه جلّ وعلا الّتي يؤتيها من اهتدى بكتابه المجيد و تدبّره و عمل به.

۱۸- (فهل ينظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتة فقد جآء أشراطها فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم)

فهل ينظر هؤلآء المكذّبون بآيات اللّٰه تعالى من أهل الكفر و الضّلال، و الظّلم والنّفاق، و البغي و العناد... فهل ينظرون إلاّ السّاعة الّتي وعد اللّٰه سبحانه خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحيآء أن تجيئهم فجأة لا يشعرون بمجيئها، و قد جآء أشراطها و معالمها من بعثة خاتم الأنبياء و المرسلين و هو محمّد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و نزول آخر الكتب السّماوية و هو القرآن الكريم، و من انشقاق القمر و الدّخان و غيرها سيأتي ذكرها إن شآء اللّٰه تعالى في بحث المعارف و الحكم من تفسير هذه السّورة.

قال اللّٰه تعالى: «اقترب للنّاس حسابهم و هم في غفلة معرضون - و اقترب الوعد الحقّ فإذا هي شاخصة أبصار الّذين كفروا يا ويلنا قد كنّا في غفلة من هذا بل كنّا ظالمين» الأنبيآء: ۱ و ۹۷).

و قال: «هل ينظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتة و هم لا يشعرون» الزخرف: ۶۶).

و قال: «و ما أمر السّاعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب إنّ اللّٰه على كلّ شئ قدير» النّحل: ۷۷).

و قال: «أزفت الازفة ليس لها من دون اللّه كاشفة» النّجم: ٥٧-٥٨).

و قال: «إنّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً» المعارج: ٦-٧).

و **قوله تعالى:** «فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم» فمن أيّ وجه لهؤلآء المكذّبين بآيات اللّه جلّ وعلا ذكرى ما قد ضيّعوا و فرطوا فيه من الايمان باللّه تعالى و طاعته، و الايمان برسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بكتابه و العمل به و باليوم الآخر إذا جائتهم السّاعة فجأة، و ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكّر و النّدم، و لا وقت الايمان و العمل... لأنّه وقت مجازاة لا وقت استعتاب و لا استعمال.

قال اللّه تعالى: «أنّى لهم الذّكرى و قد جآءهم رسول مبين» الدّخان: ١٣).

و قال: «و لو ترى إذ فزعوا فلا فوت و أُخذوا من مكان قريب و قالوا آمنّا به و أنّى لهم التّناوش من مكان بعيد و قد كفروا به من قبل و يقذفون بالغيب من مكان بعيد» سبأ: ٥١-٥٣).

و قال: «و أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأيّ حديث بعده يؤمنون» الأعراف: ١٨٥).

و قال: «يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه و يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» النّبأ: ٤٠).

و قال: «يومئذ يتذكّر الإنسان و أنّى له الذّكرى يقول يا ليتني قدّمت لحياتي» الفجر: ٢٣-٢٤).

١٩- (فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّه يعلم متقلّبكم و مثواكم)

و إن ضاق صدرك أيّها الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ بما قال المنافقون الّذين يستمعون إليك ثمّ يستهزؤن بما استمعوه طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم، فاعلم كما كنت عالماً أنّه لا معبود بحقّ يصلح للعبادة إلاّ اللّه و هو الذّات المستجمع لجميع الصّفات و الكمالات، خالق الكون و ربّه، و هو بكلّ شئ عليم.

و الجملة في معنى قوله تعالى: «إنّا كفيناك المستهزئين الّذين يجعلون مع اللّه إلهاً آخر

فسوف يعلمون و لقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون» الحجر: ۹۵-۹۷).

و قوله: «و اصبر وما صبرك إلاّ باللّٰه و لا تحزن عليهم و لا تك في ضيق ممّا يمكرون» النّحل: ۱۲۷).

و قوله: «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهوآءهم» القصص: ۵۰).

و قوله: «و خلق كلّ شئ و هو بكلّ شئ عليم ذلكم اللّٰه ربّكم لا إله إلاّ هو خالق كلّ شئ فاعبدوه و هو على كلّ شئ وكيل» الأنعام: ۱۰۱-۱۰۲).

و قوله سبحانه: «و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» و استغفر لذنبك - مع كمال عصمتك - في كلّ حال ليستنّ بك امّتك، و استغفر للمؤمنين و المؤمنات من امّتك ليقتدواهم بك لما للاستغفار من الآثار الكثيرة الدّينيّة و الدّنيويّة...

قال اللّٰه تعالى: «لقد كان لكم في رسول اللّٰه أُسوة حسنة لمن كان يرجوا اللّٰه و اليوم الآخر و ذكر اللّٰه كثيراً» الأحزاب: ۲۱).

و قال: «لولا تستغفرون اللّٰه لعلّكم ترحمون» النّمل: ۴۶).

و قال: «و ما كان اللّٰه معذّبهم و هم يستغفرون» الأنفال: ۳۳).

و قال: «و أن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى و يؤت كلّ ذي فضل فضله» هود: ۳).

و قال: «فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السّمآء عليكم مدراراً و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنّات و يجعل لكم أنهاراً» نوح: ۱۰-۱۲).

و قد سبق منّا كلام اجمالاً في تفسير قوله تعالى: «فاصبر إنّ وعد اللّٰه حقّ و استغفر لذنبك» غافر: ۵۵). فراجع، و سيأتي تفصيلاً في تفسير سورة «النّصر» إن شآءاللّٰه تعالى فانتظر.

مع أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ كان كثيراً ما يستغفر للتّائبين و المؤمنين و المؤمنات من امّته كما أنّ الملائكة يستغفرون لهم.

قال اللّٰه تعالى: «فبما رحمة من اللّٰه لنت لهم و لو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك فاعف عنهم و استغفر لهم» آل عمران: ۱۵۹).

و قال: «و لو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا اللّٰه و استغفر لهم الرّسول لوجدوا اللّٰه توّاباً رحيماً» النساء: ٦۴).

و قال: «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا باللّٰه و رسوله - و استغفر لهم اللّٰه إنّ اللّٰه غفور رحيم» النّور: ٦٢).

و قال: «يا أيّها النّبيّ إذا جآءك المؤمنات يبايعنك - فبايعهنّ و استغفر لهنّ اللّٰه إنّ اللّٰه غفور رحيم» الممتحنة: ١٢).

و قال: «الّذين يحملون العرش و من حوله يسبّحون بحمد ربّهم و يؤمنون به و يستغفرون للّذين آمنوا» غافر: ٧).

و قوله عزّوجلّ: «و اللّٰه يعلم متقلّبكم و مثواكم» و اللّٰه تعالى يعلم أيّها النّاس كلّ ما تتقلّبون فيه مراحل حياتكم و مماتكم من بدء خلقكم و معايشكم في الحياة الدّنيا، و ما تستقرّون إليه نهاية أمركم في الدّار الآخرة إمّا الجنّة و نعيمها، و إمّا النّار و عذابها... فلا يخفى على اللّٰه سبحانه شئ من حركات بني آدم و سكناتهم و خطوراتهم و ما في ضمائرهم و من أعمالهم و أقوالهم و هو تعالى مجازيهم... و كذا جميع خلقه... فعليكم أيّها النّاس أن لاتهملوا دقآئق الطّاعة و الخشية، و تواظبوا على طلب المغفرة خوفاً من التقصير في العبوديّة.

قال اللّٰه تعالى: «و هو الّذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ و مستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون» الأنعام: ٩٨).

و قال: «ألا يعلم من خلق و هو اللّطيف الخبير» الملك: ١۴).

و قال: «ألا إنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألاحين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون و ما يعلنون إنّه عليم بذات الصّدور و ما من دآبّة في الأرض إلاّ على اللّٰه رزقها و يعلم مستقرّها و مستودعها كلّ في كتاب مبين» هود: ۵-٦).

و قال: «و اعلموا أنّ اللّٰه يعلم ما في أنفسكم فاحذروه» البقرة: ٢٣۵).

و قال: «و قل اعملوا فسيرى اللّٰه عملكم و رسوله و المؤمنون و ستردّون إلى عالم الغيب و الشّهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون» التّوبة: ١٠۵).

۲۰-(و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم)

و يقول المؤمنون الصّادقون المخلصون في ايمانهم، مشتاقين للوحي و متمنّين لنزول آيات الجهاد في إعلاء كلمة التّوحيد و إبطال كلمة الكفر: هلاّ نزّلت سورة قرآنية تأمرنا بالجهاد في سبيل اللّٰه تعالى، و بالقتال مع الكفّار و المستكبرين، و الفجّار و المعاندين... في معارك المجد و الكرامة... فإذا أُنزلت سورة قرآنيّة صريحة حاسمة، مبيّنة لا تشابه و لا غموض فيها، واضحة الدّلالة في الأمر بالقتال لا احتمال فيها لشيء آخر فرحوا بها...

شقّ ذلك على الّذين في قلوبهم مرض النّفاق و الفساد في الأرض، مرض الاختلاف و الشّقاق في الدّين، مرض الخوف و التخاذل في لقآء الأعدآء، مرض تقطيع الأرحام والإرتداد على أدبارهم، و مرض كراهتهم لما أنزل اللّٰه تعالى على رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين و لذلك رأيتهم بعد نزول السّورة المحكمة في أمر القتال يستولى عليهم الرّعب و الرّخوة لثقل القتال و عظمه في نفوسهم...

قال اللّٰه تعالى: «و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّٰه و إلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً - اولئك الّذين يعلم اللّٰه ما في قلوبهم - و لو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليل منهم - ألم تر إلى الّذين قيل لهم كفّوا أيديكم و أقيموا الصّلاة و آتوا الزّكاة فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون النّاس كخشية اللّٰه أو أشدّ خشية و قالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال لو لا أخّرتنا إلى أجل قريب» النساء: ٦١ - ٧٧).

فهم خائفون لحدّ الهلع، لا يتجمّلون بحياء أمام الخطر الحادق بالمسلمين و نواميسهم، و لا يتحمّلون أذىً في سبيل اللّٰه جلّ وعلا و الحفاظ على كيانهم و كرامتهم كالمؤمنين الصّادقين، و كأنّهم أخذتهم غشية الموت، و غفوة الفوت، فلا حياة لمن تنادي منهم و لا حياة لمن نادوا بنزول سورة القتال، و لا وفاء لمن وعدوا خوض النّضال، ثمّ و لا ايمان لهم أصلاً، إذ لم يشاركوا، حتّى ضعفآء الايمان في نزول القتال...

فإذا نزل ينظرون إليك شزراً و كراهية للقتال، تشخص أبصارهم هلعاً و جبناً عن لقاء العدوّ، فينظرون إليك مغتاظين بتحديد و تحديق كما ينظر الشّاخص ببصره عند معاينة الموت، ينظرون إليك نظر الّذي في حالة الاحتضار الملؤ بالرّعب و الفزع واليأس.

قال اللّٰه تعالى: «و لقد كانوا عاهدوا اللّٰه من قبل لايولّون الأدبار - فإذا جآء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذي يغشى عليه من الموت» الأحزاب: ١٥ - ١٩).

و قوله تعالى: «فأولى لهم» فالخزى و الهوان، و الهلاك و الدّمار و الموت و النّار أولى لمثل هؤلآء المنافقين إذ ليست حياتهم في طاعة اللّٰه تعالى، بل في الكفر و النّفاق والشّقاق و معصية اللّٰه فالموت خير منها.

٢١ - (طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا اللّٰه لكان خيراً لهم)

إخبار من اللّٰه تعالى عن قيل هؤلآء المنافقين من قبل أن تنزّل سورة محكمة يذكر فيها القتال بأنّهم إذا قيل لهم: إنّ اللّٰه سبحانه يفرض عليكم القتال مع الكفّار المحاربين والفجّار و المستكبرين... قالوا: سمعاً و طاعة و قولاً معروفاً، فإذا أُنزلت سورة محكمة فيها ذكر القتال، و جاء وقته، و جدّ أمره انكشف حالهم و ظهر كذبهم، فإنّهم عندئذ يتخلّفون عمّا وعدوا به، فلو صدقوا اللّٰه جلّ وعلا فيما وعدوه و أخلصوا النّيّة في القتال، و استجابوا دعوة اللّٰه تعالى لكان خيراً لهم عند ربّهم إذ ينالون به العزّة و الكرامة في الحياة الدّنيا، والثّواب و الزّلفى عند اللّٰه جلّ وعلا في العقبى.

و الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا و ما لنا ألاّ نقاتل في سبيل اللّٰه و قد أخرجنا من ديارنا و أبنآئنا فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم و اللّٰه عليم بالظّالمين» البقرة: ٢٤٦).

و قوله سبحانه: «و قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل اللّٰه أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم و اللّٰه أعلم بما يكتمون» آل عمران: ١٦٧).

و قوله عزّوجلّ: «و يقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الّذي

تقول و اللّٰه يكتب ما يبيّتون» النسآء: ۸۱).

و قوله جلّ وعلا: «فترى الّذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دآئرة فعسى اللّٰه أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على مـا أسرّوا في أنفسهم نادمين» المائدة: ۵۲).

۲۲- (فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم)

و لتخلّفكم أيّها المنافقون عمّا وعدتموه و كراهتكم لما أنزل اللّٰه تعالى فلا يتوقّع منكم يا معشر المنافقين تتمنّون الخلافة و الإمارة على المسلمين، إن تسلّطتم و ملّكتم امورهم و تأمّرتم عليهم و جُعلتُم ولاة و حكّاماً عليهم إلاّ أن تفسدوا في الأرض بصدّ النّاس عن سبيل اللّٰه و عن ولاية أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، و بغصب الخلافة بعد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ مـن أهـل بـيته﴿عليهم السلام﴾ و مـنعهم مـن الإرث والخمس و غصب فدك، و أخذ طريق الكفر و الضّلالة، و البغي و الجـناية، و هـتك المحرمات و قتل النّفوس المحترمة و سفك الدّمآء و البدع في الدّين و أن تقطّعوا أرحامكم تهالكاً على ملك الدّنيا، تكالباً على جيفتها، و تعودوا إلى تباغض الجاهليّة في إغارة بعضكم بعضاً، فيقتتل بعضكم بعضاً و يقطع بعضكم رحم بعض كما فعل بنو اميّة و بنو العباس بعد إمارتهم عل المسلمين ببني هاشم، و تاريخ الإسلاميّة أصدق شاهد لا ينكره إلاّ من كان خبيث الولادة و سيّئ السّريرة.

و من البداهة: أنّ أفضل رحم و أوجبهم حقّاً رحم محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ كما أنّ قرابـات الإنسان بأبيه و اُمّه، و محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ أعظم حقّاً من أبويه، كذلك حقّ رحمه أعـظم، و قطيعته أفظع و أفضح.

قال اللّٰه تعالى فيهم: «و من النّاس من يقول آمنّا باللّٰه و باليوم الآخر و مـا هـم بمؤمنين - و إذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون - اولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين -الّذين ينقضون عهد اللّٰه من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر اللّٰه به أن يوصل و يـفسدون في الأرض اولئك هـم

الخاسرون – و من النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا و يشهد اللّه على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام و إذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النّسل و اللّه لايحبّ الفساد و إذا قيل له اتّق اللّه أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنّم و لبئس المهاد» البقرة: ٨ - ١٦ و ٢٧ و ٢٠٤ - ٢٠٦).

٢٣- (اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم)

أبعد اللّه تعالى هؤلآء المنافقين المفسدين في الأرض عن رحمته، و طردهم من كلّ خير، و منعهم من نعمته في الدّنيا و الآخره لمّا بدّلوها كفراً و نقمة بسوء اختيارهم واتّباع أهوآءهم: «فلمّا زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم» الصّفّ:٥).

بعد ما بيّنها لهم في كتابه: «إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات و الهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب اولئك يلعنهم اللّه و يلعنهم اللاّعنون – و من يبدّل نعمة اللّه من بعد ما جآئته فإنّ اللّه شديد العقاب» البقرة: ١٥٩ و ٢١١) «إنّ اللّه لايغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» الرّعد: ١١) «ألم تر إلى الّذين بدّلوا نعمت اللّه كفراً و أحلّوا قومهم دار البوار» إبراهيم: ٢٨) «إنّ الّذين يؤذون اللّه و رسوله لعنهم اللّه في الدّنيا و الآخرة و أعدّ لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب: ٥٧).

فأصمّهم اللّه عزّوجلّ عن استماع الحقّ و إدراكه لتصامهم عنه، فلا تصل كلمة الحقّ إلى آذان قلوبهم: «و لهم آذان لايسمعون بها» الأعراف: ١٧٩)، و أعمى اللّه تعالى أبصار قلوبهم عن طريق الحقّ و الهدى، و الخير و الصّلاح و الرّشد و الفلاح فلا يهتدون سبيل الحقّ لتعاميهم عمّا يشاهدون من الآيات المنصوبة في الآفاق و الأنفس الدّالّة على الحقّ «و لهم أعين لايبصرون بها» الأعراف: ١٧٩) إذ عمت أبصار قلوبهم: «فإنّها لاتعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور» الحجّ: ٤٦).

ففقدت بصيرتهم: «لهم قلوب لايفقهون بها» الأعراف: ١٧٩).

«و مثل الّذين كفروا كمثل الّذي ينعق بما لايسمع إلاّ دعآء و ندآءً صمّ بكم عمى فهم لايعقلون» البقرة: ١٧١) «اولئك كالأنعام بل هم أضلّ اولئك هم الغافلون» الأعراف:

۱۷۹). هم غافلون عن غفلتهم، و جاهلون عن جهالتهم... إذ «ذهب اللّٰه بنورهم و تركهم في ظلمات لا يبصرون» البقرة: ۱۷) «أفأنت تسمع الصّمّ أو تهدى العمى و من كان في ضلال مبين» الزّخرف: ۴۰).

فهم بمنزلة الصّمّ و العمى من حيث إنّهم لم يهتدوا إلى الحقّ و لا أبصروا إلى الرّشد، و لم يرد الإصمام في الجارحة، و لا الإعمآء في العين إذ كانوا هم بخلافهما صحيحى العين و صحيحى السّمع في الدّنيا و إن كانوا يحشرون في الآخرة عمياًء إذ فيها تبلى السّرآئر... قال اللّٰه تعالى: «و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضلّ سبيلاً» الإسراء: ۲۷).

و قال: «و من أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى قال ربّ لم حشرتني و قد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى» طه: ۱۲۴ - ۱۲۶).

قال بعض العلمآء: و ذلك أنّ الذُّكر و النّسيان مختصّان بالقلب الّذي هو منشأ البصيرة، و لا تعلّق لهما بالعين البصريّة لأنّ هذا إخبار عن العدم بالملكة، و ليس من الحكمة نسبة شيء إلى شيء ليس من شأنه الاتّصاف به و الإعراض عن الذّكر لايكون إلاّ بالقلب أو اللّسان، مع أنّ إعراض اللّسان موقوف على اعراض القلب فليس للعين البصريّة دخل في الذّكر و النّسيان.

۲٤- (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أفلا يتدبّر هؤلآء المنافقون المفسدون في الأرض و المقطّعون الأرحام، القرآن الكريم، فيعرفوا ما فيه من المواعظ و الزّواجر، من الوعد و الوعيد، من الحِكم و الأمثال، من القصص و النّصآئح، و من سوء عواقب البغي و النّفاق، و الظّلم و الفساد، و الشّرّ والشّقاق، من الهلاك و الهوان في الحياة الدّنيا، و الخزي و العقاب في الدّار الآخرة، فيقضواهم بأنفسهم ما عليهم من الحقّ: حقّ اللّٰه جلّ وعلا، و حقّ رسوله﴿ﷺ﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين و حقّ النّاس عليهم...؟

أم على قلوبهم أقفالها الّتي هي من نتآئج اتّباعهم أهوآءهم، فلا يعقلون ما أنزل اللّٰه تعالى في كتابه و لا يستضيئون بنوره و لا يهتدون بهداه سوآء أكانوا يستمعونه أم يتلونه ليلاً و نهاراً أو حتّى و يحفظون حروفه و كلماته، و آياته و سوره أو يعرضون عنه، فإنّهم بسوء اختيارهم جعلوا أهوآءهم سحاباً متراكمة بينه و بين قلوبهم، فطبع اللّٰه تعالى على قلوبهم و ختم عليها فزاغت و رانت بما كسبوا، فلا تستطيع تلك القلوب المقفّلة بالأهوآء أن تستضيىء بنور القرآن الكريم و لا تهتدي بهداه. و ذلك أنّ القفل هو نهاية انعقاد الشّئ في حفظه، فمن قفل قلبه، فلا يخلّص صاحبه من عماه و أنّ للحجب القلبيّة و غلظتها و رقّتها مراتب، أدناها و أرقّها الرّين: «كلاّ بل ران على قلوبهم» المطفّفين: ١۴) و أوسطها، الطّبع: «طبع اللّٰه على قلوبهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١۶) و أكثفها و أغلظها الختم: «ختم اللّٰه على قلوبهم» البقرة: ۶) و نهايتها القفل كالصّندوق المنسدّ المقفّل و أنّ القلوب المقفّلة ليست قابلة للإصلاح كالمرآة الخارجة عن حدّ التّصقيل.

«أفلا يتدبّرون القرآن»؟ حيث إنّ التّدبّر فيه يزيل الغشاوة و يفتح منفذ و يسكب النّور و يحرّك المشاعر و يستجيش القلوب، و يخلص الضّمير، و ينشىء حياة للرّوح تنبض بها و تشرق و تستنير «أم على قلوب أقفالها» فهي تحول بين القلوب و بين القرآن، و بينها و بين النّور، فإنّ استغلاق القلوب كاستغلاق الأقفال الّتي لا تسمح بالهواء و النّور.

إنّ الآية الكريمة و إن كانت بصدد توبيخ هؤلآء المنافقين، و من يسلك مسالكهم في الكفر و الضّلالة، و الظّلم و الجناية، و الإثم و الخيانة... في كلّ ظرف من الظّروف، كقوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن و لو كان من عند غير اللّٰه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» النّسآء: ٨٢) و قوله سبحانه: «أفلم يدّبّروا القول أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم الأوّلين» المؤمنون: ۶٨). و لكنّها تدعو النّاس عموماً، و العُلَمآء خصوصاً إلى تدبّر آياته، لأنّه حكمة نزوله.

قال اللّٰه تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته و ليتذكّر اولوا الألباب» ص: ٢٩).

و لايتدبّر آياته و لايتذكّر إلاّ من كان له قلب سليم أو ألق السّمع و هو شهيد، و هي تزيده ايماناً.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألق السّمع و هو شهيد» ق: ۳۷).

و قال: «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر اللّٰه وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً و على ربّهم يتوكّلون» الأنفال: ۲)

فليست القلوب المقفّلة بالأهوآء النّفسانيّة كالقلوب المفتّحة بنور الآيات القرآنيّة الّتي تزيدها ايماناً.

قال اللّٰه تعالى: «و إذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم و ماتوا و هم كافرون» التّوبة: ۱۲۴ - ۱۲۵).

و قال: «أفمن شرح اللّٰه صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللّٰه اولئك في ضلال مبين اللّٰه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر اللّٰه ذلك هدى اللّٰه يهدي به من يشاء» الزّمر: ۲۲ - ۲۳).

و قال: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال انفاً اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم» محمّد(ﷺ): ۱۶)

و قال: «إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» المطفّفين: ۱۳ - ۱۴).

۲۵- (إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم)

إنّ الّذين ارتدّوا بالنّفاق لاتّباعهم أهوآءهم على أدبارهم في ترك ولاية أمير

المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ فانقلبوا بعد وفاة رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلى ما كان عليه أعقابهم من الكفر و الضّلالة و البغي و الغواية و الظّلم و الجناية و الشّرّ و الفساد في الأرض و تقطيع الأرحام... كلّ ذلك باسم الإسلام و الصّحابة، من بعد ما تبيّن لهم أمر الولاية و الحقّ و الهدى بالوحي و تبليغ الرّسول﴿صلی الله علیه و آله﴾ في موارد عديدة... و هم يجادلون رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ فيه. قال اللّه تعالى: «و ما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» آل عمران: ۱۴۴).

و قال: «و من يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى و يتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى و نصله جهنّم و سآئت مصيراً» النّسآء: ۱۱۵).

و قال: «يجادلونك في الحقّ بعد ما تبيّن كأنّما يساقون إلى الموت و هم ينظرون» الأنفال: ۶).

و قال: «قد كانت أياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامراً تهجرون أفلم يدبّروا القول أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم الأوّلين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون» المؤمنون: ۶۶ - ۶۹).

و **قوله تعالى:** «الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» الّذين ارتدّوا عن الايمان - الّذي لا يتحقّق إلاّ بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ - بالنّفاق و الشّقاق تبعاً لأهوآءهم، فهم من حزب الشّيطان الّذي سهّل لهم اقتراف الكبآئر من الذّنوب، و هيّن لهم كلّ خطيئة، و مدّ لهم في الآمال...

ففعلوا بعد رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ بأهل بيته المعصومين صلوات اللّه علهيم أجمعين ما لم تفعله أمّة نبيّ بأهل بيته.

قال اللّه عزّوجلّ فيهم: «و لقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين» سبأ: ۲۰).

و قال: «و زيّن لهم الشّيطان أعمالهم فصدّهم عن السّبيل فهم لا يهتدون» النّمل: ۲۴).

و قال: «و من يرتدد منكم عن دينه فيمت و هو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و اولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون» البقرة: ۲۱۷).

٢٦- (ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه سنطيعكم في بعض الأمر واللّٰه يعلم إسرارهم)

ذلك التّسويل و الإملاء لهؤلآءِ المرتدّين من المنافقين المذبذبين قالوا لقادتهم و رؤسآئهم الّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه تعالى من القرآن الكريم في ولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: سنطيعكم في بعض ما تأمرون به و تريدونه بعد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من تحريم اقتصاديّ على أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين من منع الخمس و الإرث و غصب فدك، ثمّ أطاعوهم في أمر الخلافة أيضاً فغصبوها و أوجدوا الفرقة بين المسلمين و شتّتوا شملهم و فرّقوا جمعهم عملاً بقاعدة سياسة شيطانيّة: «فرّق تسد». و فعلوا ما لم تفعل أُمّة نبيّ بأهل بيته.

و المراد من «الّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه» هم الّذين قال اللّٰه تعالى فيهم: «و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم» من هذه السّورة: ٨ - ٩).

واللّٰه تعالى يعلم ما أسرّه بعضهم إلى بعض من القول، و ما أسرّوه في أنفسهم من مخالفة كتاب اللّٰه سبحانه و سنّة رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و من كراهتهم للحقّ و الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل اللّٰه تعالى قال اللّٰه تعالى فيهم: «و يقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الّذي تقول و اللّٰه يكتب ما يبيّتون - إذ يبيّتون ما لايرضى من القول و كان اللّٰه بما يعملون محيطاً» النّسآء: ٨١ و ١٠٨).

و كان عمر بن الخطّاب أوّل من قال يوم الغدير لعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: بخّ بخّ... و قد كان هو أوّل من خالفه حين احتضار رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و قال تكذيباً لكتاب اللّٰه و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾: «إنّ هذا الرّجل ليهجر» و قد قال اللّٰه تعالى في رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾: «و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحى يوحى» النّجم: ٣ - ٤). و قد تخلّف أبوبكر و حليفه و أذنابهما عن إمارة أُسامة، فى زمن رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هم الّذين قال اللّٰه عزّوجلّ فيهم: «يجادلونك في الحقّ بعد ما تبيّن كأنّما يساقون إلى الموت و هم ينظرون» الأنفال: ۶).

و قال: «لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلّبوا لك الامور حتّى جآء الحقّ و ظهر أمر اللّٰه و

هم كارهون - وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا باللّٰه و برسوله و لا يأتون الصّلاة إلاّ و هم كسالى و لا ينفقون إلاّ و هم كارهون» التّوبة: ۴۸ و ۵۴).

و قال: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم - إذ تصعدون و لا تلون على أحد والرّسول يدعوكم في أُخراكم - و طائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون باللّٰه غير الحقّ ظنّ الجاهليّة» آل عمران: ۱۴۴ - و ۱۵۳ - ۱۵۴).

وقال: «لقد جئناكم بالحقّ و لكنّ أكثركم للحقّ كارهون أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون» الزّخرف: ۷۸-۸۰).

۲۷- (فكيف إذا توفّتهم الملآئكة يضربون وجوههم و أدبارهم)

فكيف حال هؤلآء المنافقين المرتدّين عن الايمان إلى الكفر و الضّلال؟ و كيف فعل قادتهم الّذين كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى في ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و خالفوه؟ و ما حيلة أتباعهم السّفلة حين قبض ملك الموت و أعوانه من الملآئكة على أهول الوجوه و أفظعها أرواحهم، حالكون ملك الموت يقبض أرواحهم، و أعوانه يضربون وجوههم و أدبارهم بسبب إدبارهم و نفاقهم، و كفرهم و شقاقهم، و بغيهم و ضلالهم، و نكثهم و إمساكهم أمر الولاية من بعد أن أبرمه اللّٰه تعالى عليهم إبراماً، يضربون وجوههم الّتي اتّجهوا بها إلى غير اللّٰه جلّ وعلا، و يضربون أدبارهم الّتي ارتدّوا عليها عمّا أنزله اللّٰه تعالى في خيرهم و سعادتهم في الدّارين و صلاح النّاس و كمالهم أجمعين.

قال اللّٰه تعالى: «قل يتوفّاكم ملك الموت الّذين وكّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون» السّجدة: ۱۱).

و قال: «ولو ترى إذ يتوفّى الّذين كفروا الملآئكة يضربون وجوههم و أدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدّمت أيديكم» الأنفال: ۵۰ - ۵۱) ذوقوا العذاب الأوسط بعد الموت، في البرزخ: حيث إنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة و إمّا حفرة من حفر النّيران، ثمّ ذوقوا العذاب الأكبر بعد البعث يوم القيامة: «من تولّى و كفر فيعذّبه العذاب الأكبر» الغاشية: ۲۳ - ۲۴).

فلهم ثلاثة أعذاب غير عذاب الخزي و الهوان و الانحطاط في الحياة الدّنيا: الاولى: و هي الأدنى حين الاحتضار بضرب وجوههم لمواجهتهم على الحقّ و مخالفتهم على أهله، و هم حين يتوفّون لايخرجون أنفسهم عن الحياة الدّنيا لاستغراقهم في حبّها و ملاذها و متاعها، و انهما كهم في زخارفها و شهواتها... فلا يطاوعون ملك الموت في إخراج أنفسهم، فأعوان قابض الارواح - إذاً - يضربون أدبارهم لإدبارهم عن الحقّ و أهله، قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم...

قال اللّه عزّوجلّ: «و لو ترى إذ الظّالمون في غمرات الموت و الملآئكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على اللّه غير الحقّ و كنتم عن آياته تستكبرون و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة و تركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم و ما نرى معكم شفعآءكم الّذين زعمتم أنّكم فيكم شركآؤا لقد تقطّع بينكم و ضلّ عنكم ما كنتم تزعمون» الأنعام: ۹۳ - ۹۴).

و الثّانية: و هي العذاب الأوسط بعد الموت - في البرزخ - إلى يوم البعث و القيامة.

قال اللّه تعالى: «حتّى إذا جآء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ إنّها كلمة هو قائلها و من ورآئهم برزخ إلى يوم يبعثون» المؤمنون: ۹۹-۱۰۰).

و الثّالثة: و هي «العذاب الأكبر» الغاشية: ۲۴).

۲۸- (ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

ذلك الضّرب و العقوبة، و الإذلال و الإهانة، و الايلام و التّوفّي الفجيع الهآئل لهؤلآء المنافقين المرتدّين و قادتهم المستكبرين بسبب أنّ المردة اتّبعوا ما أسخط اللّه تعالى من قيادة الفجرة لمفاسدها للإسلام و المسلمين بل للبشريّة و النّاس أجمعين و بسبب أنّ القادة المتبوعين كرهوا رضوان اللّه جلّ وعلا من أدآء أمانته إلى أهلها، فخانوها، فأحبط اللّه تعالى أعمال الرّؤسآء و المرؤسين كلّهم الّتي عملوها قبل ذلك من الخيرات،

فإنّ أوّل شرط قبول الحسنات حفظ الأمانة و أدآئها إلى أهلها، فلا أمن لمن لا أمانة له، فمن ائتمن ثمّ خان الأمانة و عمل بها صالحاً فلن يقبله اللّه سبحانه.

قال اللّه تعالى: «إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل إنّ اللّه نعمّا يعظكم به إنّ اللّه كان سميعاً بصيراً يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و اولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرّسول إن كنتم تؤمنون باللّه و اليوم الآخر ذلك خير و أحسن تأويلاً ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك و ما أُنزل من قبلكم يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت و قد أُمروا أن يكفروا به و يريد الشّيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه و إلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً» النّسآء: ٥٨ - ٦١).

و قال: «يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا للّه و للرّسول إذا دعاكم لما يحييكم و اعلموا أنّ اللّه يحول بين المرء و قلبه و أنّه إليه تحشرون و اتّقوا فتنة لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة و اعلموا أنّ اللّه شديد العقاب و اذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم النّاس فآواكم و أيّدكم بنصره و رزقكم من الطّيّبات لعلّكم تشكرون يا أيّها الّذين آمنوا لاتخونوا اللّه و الرّسول و تخونوا أماناتكم و أنتم تعلمون» الأنفال: ٢٤ - ٢٧).

وقال: «المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم نسوا اللّه فنسيهم إنّ المنافقين هم الفاسقون وعد اللّه المنافقين و المنافقات و الكفّار نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم و لعنهم اللّه و لهم عذاب مقيم كالّذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوّة و أكثر أموالاً و أولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الّذين من قبلكم بخلاقهم و خضتم كالّذي خاضوا اولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة و اولئك هم الخاسرون» التوبة: ٦٧-٦٩).

۲۹- (أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّه أضغانهم)

بل أحسب هؤلآء المنافقون المردة، و قادتهم الفجرة الّذين في قلوبهم مرض الكفر والنّفاق مرض الظّلم و الشّقاق، مرض البغي و الفساد، و مرض الحسد و الضّلالة، و الحقد و العداوة، هم قد أبطنوا العداوة للّه سبحانه، و أضمروا حقداً شديداً لرسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و كرهوا ما أنزل اللّه في ولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾ و نووا بغياً و ظلماً لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و نووا سيّئة للمؤمنين الصّادقين؟ أحسبوا أن لا يكشف اللّه تعالى أستارهم، ولا يبرز أحقادهم...؟ بلى سيظهرها لرسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و أهل بيته ﴿علیهم السلام﴾ و للمؤمنين، و يبديها لذوي البصآئر و الألباب، و يفضحهم بها على رؤوس الأشهاد...

قال اللّه تعالى: «و ممّن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النّفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلى عذاب عظيم» التّوبة: ۱۰۱) عذاب حين الاحتضار، و عذاب في البرزخ، و من ورآئها عذاب النّار.

و قال: «و من النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا و يشهد اللّه على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام و إذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و اللّه لايحبّ الفساد» البقرة: ۲۰۴ - ۲۰۵).

و قال: «لقد جئناكم بالحقّ و لكنّ أكثركم للحقّ كارهون أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون» الزّخرف: ۷۸ - ۸۰).

وقال: «أم حسب الّذين يعملون السّيّئات أن يسبقونا سآء ما يحكمون» العنكبوت: ۴).

و قال: «و اللّه مخرج ما كنتم تكتمون» البقرة: ۷۲).

٣٠-(ولو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول و اللّه يعلم أعمالكم)

و الحال أنّنا لونشآء أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لأريناك سيرة هؤلآء المنافقين المـردة و قادتهم الفجرة -الّذين يتظاهرون لك الايمان و الطّاعة، و يباطنون الكفر و العداوة لك و لأهل بيتك المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و لشيعتهم المؤمنين الصّادقين، و يصدّون النّاس عن ولاية عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و يغصبون حقه، و يهتكون حرماتك و حرمات أهل بيتك... -بالعيان بأن نصوّرهم عـلى صـورهم الواقـعيّة و أشكـالهم الذّئابيّة، و أسمآئهم السّبعيّة... و إذ لم نشأ ذلك لأنّ الدّنيا دار ابتلاء و امتحان لاالدّار الّتي تبلى فيها السّرآئر...

و لكنّك عرفتهم بعلامات الكفر و النّفاق و الضّلال و الشّقاق... الّتي نسمّيهم بهـا ظاهرة من وجوههم من جهة، و لتعرفنّ كفرهم و نفاقهم و ضلالهم و عنادهم... من لهجة كلامهم و اسلوب حديثهم بما فيه من المواربة و الكذب و التّوطئة و أمارات الكيد و تشويش الأفكار و سوء النّيّات... من جهة اخرى مضافاً إلى ما ننبّئك بما في قـلوبهم بطريق الوحي و الإلهام...

قال اللّه تعالى: «و إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الّذين كفروا المنكر» الحج: ٧٢).

و قال: «قد بدت البغضآء من أفواههم و ما تخفي صدورهم أكبر» آل عمران: ١١٨).

و قال: «يا أيّها الرّسول لا يحزنك الّذين يسارعون في الكفر من الّذين قالوا آمـنّا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم» المائدة: ٤١) و أنّ المنافق مسلم - ظاهراً - غير مخلص و لاايمان، و كافر باطناً تماماً، و لو لم يخش الفضيحة و الأذى يظهر على حقيقته بـدون مواربة.

و قوله تعالى: «و اللّه يعلم أعمالكم» أيّها المنافقون المردة، و القادة الفجرة، و محيط بها خفاياها و ظواهرها، فيجازيكم عليها.

قال اللّه عزّوجلّ: «يعلم سرّكم و جهركم و يعلم ما تكسبون» الأنعام: ٣).

۳۱-(و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم)

اقسم باللّٰه تعالى إنّا نختبركم أيّها الّذين تقولون آمنّا، نختبركم بـالجهاد بـالأموال والأنفس في سبيل اللّٰه و الأمر به - و أنتم لاقعون لا محالة في مواقع الامتحان - حتّى يمتاز المجاهدون منكم في سبيل اللّٰه، و الصّابرين على التّكاليف الإلهيّة... من غـيركم، فتظهر أعمال و مواقف كلّ منكم، و نظهر لكم و لغـيركم أخـباركم مـن طـاعتكم و عصيانكم في الجهاد و غيره، و نظهر أسراركم و بغضكم و عداوتكم و مخالفتكم للّـه تعالى و لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و كراهتكم لما أنزل اللّٰه جلّ وعلا.

قال اللّٰه تعالى: «أحسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لايفتنون و لقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ اللّٰه الّذين صدقوا و ليعلمنّ الكاذبين» العنكبوت: ٢ - ٣).

أنّكم لن تتركوا حتّى تدخلوا في هذا الامتحان و الابتلاء و تتجرّعوا كؤوس البلآء المرّة فإن صمدتم في هذا البلآء و صبرتم على ما أمركم اللّٰه تعالى به و ما نهاكم عنه فقد أثبتّم أنّكم مؤمنون حقّاً و هذا حسبكم من ايمانكم، و إلاّ كنتم من الكافرين.

قال اللّٰه تعالى: «و ليمحّص اللّٰه الّذين آمنوا و يمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة و لمّا يعلم اللّٰه الّذين جاهدوا منكم و يعلم الصّـابرين - و ليـبتلى اللّـه مـا في صدوركم و ليمحّص ما في قلوبكم و الله عليم بذات الصّدور» آل عمران: ١٤١و ١٤٢و ١٥٤).

و قال: «أم حسبتم أن تتركوا و لمّا يعلم اللّٰه الّذين جاهدوا منكم و لم يتّخذوا من دون اللّٰه و لا رسوله و لا المؤمنين وليجة و اللّٰه خبير بما تعملون» التوبة: ١٦).

و قال: «و أوفوا بعهد اللّٰه إذا عاهدتم و لا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فقد جعلتم اللّٰه عليكم كفيلاً إنّ اللّٰه يعلم ما تفعلون و لا تكونوا كالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون امّة هي أربى من امّة إنّما يبلوكم اللّٰه به و ليبيّن اللّٰه لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون» النّحل: ٩١ - ٩٢).

۳۲- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّه شيئاً و سيحبط أعمالهم)

إنّ الّذين كفروا باللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بعد ايمانهم ظاهراً، و اتّبعوا ما أسخط اللّه جلّ وعلا، و كرهوا ما أنزل اللّه سبحانه في أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و صدّوا النّاس عن ولايته﴿عليه السلام﴾ و صاروا في شقّ غير شقّ رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و خالفوه و عاندوه فيه﴿عليه السلام﴾ من بعد ما تبيّن لهم طريق الحقّ والهدى، و وضح لهم أمره﴿عليه السلام﴾ تارة بعد اخرى، لن يضرّوا اللّه سبحانه شيئاً من الضّرر بكفرهم و صدّهم و شقاقهم بعد أخذ الميثاق عليهم لأميرالمؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾ إنّما ضرّوا أنفسهم لاسقاطهم عن الإنسانية بسبب كفرهم و صدّهم و عنادهم و نفاقهم، و ضرّوا المجتمع البشري بسبب صدّهم عن الحقّ و الهدى عن الصّواب و الرّشاد، و عن الفلاح و الكمال الإنساني، و سيحبط اللّه تعالى أعمالهم الّتي عملوها من صلاة أو صدقة أو حسنة و ما إليها و هم قد أبطلوها بكفرهم و نفاقهم، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً و يستحقّون لكفرهم و صدّهم و شقاقهم عقاباً و عذاباً أليماً.

فقادة الكفر و النّفاق، و الظّلم و الفساد، و البغى و الشّقاق، و الشّرّ و الضّلال، والكيد و الخلاف و نقض العهد و الميثاق و الإثم و العناد و اللجاج و مردتهم جميعاً في الخزى و الانحطاط في الحياة الدّنيا، و في النّار و العذاب في الآخرة فوق العذاب.

قال اللّه تعالى: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون - و أوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتهم و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها - و لا تتّخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها و تذوقوا السّوء بما صددتم عن سبيل اللّه و لكم عذاب عظيم و لا تشتروا بعهد اللّه ثمناً قليلاً» النّحل: ۸۸و ۹۱و ۹۴-۹۵).

و قال: «و اللّه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون اتّخذوا أيمانهم جنّة فصدّوا عن سبيل اللّه إنّهم سآء ما كانوا يعملون ذلك بأنّهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» المنافقون: ۱-۳).

و قال: «و إنّهم ليصدّونهم عن السّبيل و يحسبون أنّهم مهتدون حتّى إذا جآءنا قال

ياليت بيني و بينك بعد المشرقين فبئس القرين و لن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون» الزخرف: ۳۷-۳۹).

و قال: «و لو ترى إذ الظّالمين موقوفون عند ربّهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الّذين استضعفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين» سبأ: ۳۱ - ۳۲).

و قال: «الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة و يصدّون عن سبيل اللّه و يبغونها عوجاً اولئك في ضلال بعيد» إبراهيم: ۳).

و قال: «و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه و إلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً - و من يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى و يتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى و نصليه جهنّم و سائت مصيراً» النسآء: ۶۱ و ۱۱۵).

و قال: «قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً اولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم و لقآئه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» الكهف: ۱۰۳ - ۱۰۵).

۳۳- (يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول فلاتبطلوا أعمالكم)

يا أيّها الّذين آمنوا بالعلانية أطيعوا اللّه فيما أنزل عليكم من كتابه، و أطيعوا الرّسول﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ فيما يأمركم به في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فلا تكرهوا لما أنزل اللّه، و لا تتّبعوا ما أسخط اللّه، و لا تخالفوا رسوله﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ في السّرّ، و لا تبطلوا أعمالكم من الفرآئض و الطّاعات، و صالح الأعمال و الحسنات بسبب البغض والعداوة، و الكفر و الضّلالة، و العناد و الكراهة، و اللجاج و المخالفة، و النّفاق و الشّقاق، و البغى و الفساد...

حيث إنّ ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ شرط لازم - كشرطيّة الطّهارة لصحّة الصّلاة حدوثاً و بقآءً - لقبول الحسنات السّالفة كما أنّها شرط لازم لقبولها الآتية...

و إنّ طاعة أمير المؤمنين﴿ﷺ﴾ هي طاعة الرّسول﴿ﷺ﴾ نفسها كما أنّ طاعة الرّسول﴿ﷺ﴾ هي طاعة اللّه تعالى نفسها، إذ لا يأمر بشئ إلاّ ما أمره اللّه تعالى به، و لا ينهى عن شيء إلاّ نهى اللّه سبحانه عنه.

قال اللّه تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و اولى الأمر منكم - من يطع الرّسول فقد أطاع اللّه و من تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً و يقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الّذي تقول و اللّه يكتب ما يبيّتون - و من يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى و يتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى و نصله جهنّم و سآئت مصيراً» النّسآء: ٥٩ و ٨٠ - ٨١ و ١١٥).

و قال: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا و إن تولّوا فإنّما هم في شقاق - و من النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا و يشهد اللّه على ما في قلبه و هو ألدّ الخصام و إذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النّسل» البقرة: ١٣٧ و ٢٠٤ - ٢٠٥).

و قال: «اولئك الّذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار و حبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون» هود: ١٦).

٣٤- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّه لهم)

إنّ الّذين كفروا بسبب اتّباع ما أسخط اللّه و كراهة ما أنزل اللّه تعالى في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ﷺ﴾ و أبطلوا أعمالهم الصّالحة بسبب تركهم طاعة اللّه و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ في أمر الولاية لأمير المؤمنين﴿ﷺ﴾ و صدّوا النّاس عن الولاية الّتي هي سبيل اللّه و طريق الحقّ و الهدى، طريق الكمال و الفلاح، و طريق السّعادة والنّجاة... ثمّ أصرّوا على مخالفتهم و كراهتهم، على بغضهم و عداوتهم، و على عنادهم و لجاجهم حتّى ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّه لهم.

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى

من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب اولئك يلعنهم اللّٰه و يلعنهم اللاّعنون إلاّ الّذين تابوا و أصلحوا و بيّنوا فاولئك أتوب عليهم و أنا التوّاب الرّحيم إنّ الّذين كفروا و ماتوا و هم كفّار اولئك عليهم لعنة اللّٰه و الملآئكة و النّاس أجمعين خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينظرون - اولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى و العذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النّار ذلك بأنّ اللّٰه نزّل الكتاب بالحقّ و إنّ الّذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد» البقرة: ١٥٩ - ١٦٢ و ١٧٥ - ١٧٦).

و قوله سبحانه: «قل إن كنتم تحبّون اللّٰه فاتّبعوني يحببكم اللّٰه و يغفر لكم ذنوبكم واللّٰه غفور رحيم قل أطيعوا اللّٰه و الرّسول فإن تولّوا فإنّ اللّٰه لا يحبّ الكافرين» آل‌عمران: ٣١ - ٣٢).

و قوله عزّوجلّ: «إنّما التّوبة على اللّٰه للّذين يعملون السّوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فاولئك يتوب اللّٰه عليهم و كان اللّٰه عليماً حكيماً و ليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن و لا الّذين يموتون و هم كفّار اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً» النّسآء: ١٧ - ١٨).

٣٥- (فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم)

إذا كان الايمان باللّٰه تعالى و طاعة رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ مؤدّياً إلى حفظ الأعمال الصّالحة و ثبات قدم عاملها، و إذا كان الكفر باللّٰه سبحانه و معصيته و مخالفة رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ موجباً لإبطال الأعمال و انحطاط عاملها... فلا تتهاونوا يا معشر المؤمنين المطيعين، و لا تظهروا الوهن و الضّعف و العجز عن القتال مع عدوّ اللّٰه و عدوّكم من المشركين المعتدين و الكفّار المحاربين، و لا تدعوهم إلى المصالحة و المسالمة، ما لم ينتهوا عن القتال و لم يجنحوا للسّلم.

قال اللّٰه تعالى: «و قاتلوا في سبيل اللّٰه الّذين يقاتلونكم و لا تعتدوا إنّ اللّٰه لا يحبّ المعتدين - فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزآء الكافرين - فإن انتهوا فلا عدوان إلاّ على الظّالمين» البقرة: ١٩٠ - ١٩٣).

و قال: «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم و ألقو إليكم السَّلَم فما جعل اللّٰه لكم عليهم سبيلاً - فإن لم يعتزلوكم و يلقوا إليكم السّلم و يكفّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم و اولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً» النّسآء: ٩٠ - ٩١).

وقال: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها فتوكّل على اللّٰه إنّه هو السّميع العليم» الأنفال: ٦١).

و قوله تعالى: «و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم» و يا معشر المؤمنين الصّادقين لا تتخاذلوا في قتال أعدائكم المحاربين، و الحال أنّكم أنتم الغالبون عليهم في كلّ ظرف من الظّروف، و في كلّ حال من الأحوال... قتلتموهم أو قتلوكم لأنّكم بسبب اتّصالكم الايمانى باللّٰه سبحانه و طاعته و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ تحت حمايته جلّ وعلا و هم معينكم بالنّصرة و الغلبة على أعدآءكم و ليس لهم عليكم سلطان ما دمتم على الايمان و الطّاعة للّه تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾.

قال اللّٰه تعالى: «و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله و تلك الأيّام نداولها بين النّاس و ليعلم اللّٰه الّذين آمنوا و يتّخذ منكم شهداء و اللّٰه لا يحبّ الظّالمين و ليمحّص اللّٰه الّذين آمنوا و يمحق الكافرين - بل اللّٰه مولاكم و هو خير النّاصرين سنلقى في قلوب الّذين كفروا الرّعب - و لئن قتلتم في سبيل اللّٰه أو متّم لمغفرة من اللّٰه و رحمة خير ممّا يجمعون» آل عمران: ١٣٩-١٤١و ١٥٠-١٥١و ١٥٧).

و قال: «و لن يجعل اللّٰه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النّسآء: ١٤١).

إنّ اللّٰه تعالى قد أثبت الأعلوية للمؤمنين لا للمسلمين، و قطع سبيل الكافرين على المؤمنين لا على المسلمين لأنّ من مقتضى الايمان حقّاً هو أمن المؤمن من كلّ شرّ و سوء و أذى و غلبته على الشّرك و الضّلال و على الكفر و النّفاق كما قال اللّٰه تعالى حكاية عن مقالة إبراهيم﴿ع﴾ لقومه: «و كيف أخاف ما أشركتم و لا تخافون أنّكم أشركتم باللّٰه ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون الّذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن و هم مهتدون» الأنعام: ٨١ - ٨٢).

و لعمري أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿؏﴾ بايمانه فتح خيبر و غلب على اليهود العنود ما لم يغلب عليهم المسلمون قبله﴿؏﴾ بإسلامهم إذ لم يكن لهم ايمان حقّاً و أنّ اللّٰه تعالى لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً لا على المسلمين إذ كان لهم عليهم سبيل كما نرى اليوم أنّ لفئة قليلة من اليهود الصّهيونيزم في فلسطين على المسلمين سبيلاً، و لعمري أنّ هؤلآء المسلمين الكثيرين: مئات ميليون ما لم يؤمنوا باللّٰه تعالى و لم يطيعوا اللّٰه و رسوله﴿ص﴾ و لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين فلليهود عليهم سبيل، و لن تتحقّق هذه الأعلوية و المعيّة الإلهيّة إلاّ بالايمان حقّاً و بالطّاعة للّه سبحانه و رسوله﴿ص﴾ و طاعة أهل بيت الوحي المعصومين﴿؈﴾، و لن يتحقّق الايمان و الطّاعة إلاّ بالولاية العلويّة الّتي كان صاحبها مع الحقّ، و الحقّ معه يدور حيثما دار.

فتدبّروا أيّها المسلمون في نجاتكم من الخزى و الهوان، و من الذّلّة و سبيل اليهود عليكم، فوالّذي لا إله إلاّ هو لا نجاة لكم من ذلك، و لا سبيل لكم إلى الأعلويّة و المعيّة الإلهيّة إلاّ بالولاية العلويّة و رفض الطّواغيت الثّلاثة و أذنابهم جميعاً.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه و لاتتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم و صّاكم به لعلّكم تتّقون» الأنعام: ١٥٣).

قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿؏﴾: «اليمين و الشّمال مضلّة و الطّريق الوسطى هي الجادّة عليها باقي الكتاب و آثار النّبوّة» النّهج: خطبة ١٦).

و قال﴿؏﴾: «فو الّذي لا إله إلاّ هو إنّي لعلى جادّة الحقّ و إنّهم لعلى مزلّة الباطل» النّهج: خطبة ١٨٨).

و قال﴿؏﴾: «قد خاضوا بحار الفتن و أخذوا بالبدع دون السّنن و أرز المؤمنون و نطق الضّالّون المكذّبون، نحن الشّعار و الأصحاب و الخزنة و الأبواب، و لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمّى سارقاً» النّهج: خطبة ١٥٣).

و قال﴿؏﴾: «و إنّي لعلى بيّنة من ربّي و منهاج من نبيّي، و إنّي لعلى الطّريق الواضح

ألقطه لقطاً، انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم و اتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى و لن يعيدوكم في رَدىً، فإن لبدوا فالبدوا، و إن نهضوا فانهضوا و لا تسبقوهم فتضلّوا، و لاتتأخّروا عنهم فتهلكوا» النّهج: خطبة ٩٦).

و لايخفى على القارىء الخبير أنّ العلوّ قسمان: علوّ مكان،و علوّ مكانة، و المراد بالعلوّ هنا هو الثّاني و هو لايتحقّق إلاّ بالايمان و الطّاعة اللّذين لا يمكن تحقّقهما إلاّ بالولاية العلويّة و البرآءة عمّا سواها... و قد جآء في قوله تعالى: «الأعلون» بصيغة التّفضيل، تنبيهاً إلى أنّ علوّ المفاضلة أي العلوّ الإضافيّ الّذي تكون لبعض العالين فيه فضيلة على بعض، و أنّ منشأته العليّ الأعلى و مظهره هو عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و ذلك أنّ نبسة العلوّ إلى اللّه جلّ وعلا حيث أثبت الأعلوية للمخاطبين، و أخبر أنّه تعالى معهم في هذه العلويّة - على طريق العلّة - تلزم إثبات الأعلويّة له تعالى، و هذا العلوّ أي علوّ المفاضلة راجع إلى تجلّيه جلّ وعلا و ظهوره في مظهره، يفيضه إلى من استفاض منه لا إلى أحديّة ذاته سبحانه، فإنّه تعالى في تجلٍّ، ما من تجلّياته أعلى منه في تجلٍّ آخر منها، فعلوّ المفاضلة للّه تعالى إنّما هو باعتبار مظهر تجلّيه لا باعتبار أحديّة ذاته، إذ ليس في مرتبة الأحديّة إلاّ العلوّ الذّاتي الحقيقيّ لا الإضافيّ. و تدبّر و لا تغفل فإنّ البحث دقيق، لا يفهمه إلاّ من كان خبيراً دقيق النّظر.

و **قوله عزّوجل**: «و لن يتركم أعمالكم» و اللّه تعالى لن يبطل أعمالكم أيّها المؤمنون باللّه عزّوجلّ، و المطيعون للّه تعالى و لرسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و اولىالأمر منكم، والمجاهدون في سبيل اللّه سبحانه كما أبطل أعمال المنافقين المردة الباغية، و أعمال قادتهم الفجرة الطّاغية... الّذين صدّوا النّاس عن سبيل اللّه جلّ وعلا، فلا يقطع عنكم أعمالكم، بل هي في صحبتكم تجدونها حاضرة يوم الجزآء، و لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، بل يثيبكم عليها و يزيدكم من فضله.

قال اللّه تعالى: «و إن تطيعوا اللّه و رسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ اللّه غفور رحيم إنّما المؤمنون الّذين آمنوا باللّه و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّه اولئك هم الصّادقون» الحجرات: ١٤ - ١٥).

و قال: «فاولئك لهم جزآء الضّعف بما عملوا و هم في الغرفات آمنون» سبأ: ٣٧).

و قال: «أم نجعل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار» ص: ٢٨).

٣٦- (إنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و إن تؤمنوا و تتّقوا يؤتكم اجوركم و لا يسئلكم أموالكم)

إنّما الحياة الدّنيا لعب يشغل الإنسان به و يغفل عن أعدآئه و ما يتبعها من العواقب الوخيمة، و لهو ينسى الإنسان عن عذاب الآخرة، و إن تؤمنوا باللّٰه تعالى حقّاً، و تتّقوه و تقاتلوا و تجاهدوا في سبيله يؤتكم اللّٰه سبحانه ثواب ايمانكم و تقواكم و قتالكم و لا يسئلكم اللّٰه تعالى جميع أموالكم في القتال و الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى.

إنّ الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللّٰه اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة إلاّ قليل إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً و يستبدل قوماً غيركم لا تضرّوه شيئاً و اللّٰه على كلّ شيء قدير - انفروا خفافاً و ثقالاً و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل اللّٰه ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون» التّوبة: ٣٨ - ٤١).

و قوله سبحانه: «قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أُولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم اللّٰه أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً» الفتح: ١٦).

و قوله عزّوجلّ: «و ما الحياة الدّنيا إلاّ لعب و لهو و للدّار الآخرة خير للّذين يتّقون أفلا تعقلون» الأنعام: ٣٢).

و قوله عزّوجلّ: «و ما تنفقوا من شيء في سبيل اللّٰه يوفّ إليكم و أنتم لا تظلمون» الأنفال: ٦٠).

۳۷- (إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم)

إنّ اللّٰه تعالى لا يسئلكم أيّها الّذين تحبّون الحياة الدّنيا و متاعها... لا يسئلكم جميع أموالكم للقتال مع أعدآء اللّٰه و أعدآءكم المحاربين، و للجهاد في سبيل اللّٰه تعالى والإنفاق لإعلآء كلمة التّوحيد و إبطال كلمة الكفر، و للتّعاون على البرّ و التّقوى والإحسان للفقراء و المحتاجين، فإنّه عزّوجلّ إن يسئلكم جميع أموالكم لذلك، و يلحّ عليك بطلبها منكم تبخلوا بها فتمسكوا و لا تعطوها ضنّاً منكم بها، و حينئذ يخرج اللّٰه أحقادكم لمزيد حبّكم لها، و لمّا علم اللّٰه عزّوجلّ ذلك الامور منكم و من ضيق أنفسكم فلم يسئلكموها لئلاّ تفضحوا على رؤس الأشهاد...

قال اللّٰه تعالى: «و من الأعراب من يتّخذ ما ينفق مغرماً و يتربّص بكم الدّوائر عليهم دائرة السّوء و اللّٰه سميع عليم و من الأعراب من يؤمن باللّٰه و اليوم الآخر و يتّخذ ما ينفق قربات عند اللّٰه و صلوات الرّسول ألا إنّها قربة لهم سيدخلهم اللّٰه في رحمته إنّ اللّٰه غفور رحيم» التّوبة: ۹۸ - ۹۹).

و قال: «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا باللّٰه و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّٰه اولئك هم الصّادقون» الحجرات: ١٥).

۳۸- (هآ أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه فمنكم من يبخل و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقرآء و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم)

ها أنتم أيّها المخاطبون الّذين أمرتم آنفاً بالايمان باللّٰه تعالى و طاعته و طاعة رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بالتّقوى، أنتم الآن تدعون لإنفاق بعض أموالكم في جهاد أعدآء اللّٰه تعالى و نصرة دينه، في إعلآء كلمة التّوحيد و إبطال كلمة الكفر، و في طريق الحقّ والهدى و الخير و الصّلاح و الإحسان بالفقراء و المحتاجين... ليعلم الصّادقين المخلصين من الكاذبين المنافقين منكم...

سياق صدر الآية الكريمة بما قبلها في معنى قوله تعالى: «ما كان اللّٰه ليذر المؤمنين

على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطّيّب و ما كان اللّٰه ليطلعكم على الغيب و لكنّ اللّٰه يجتبي من رسله من يشآء فآمنوا باللّٰه و رسله و إن تؤمنوا و تتّقوا فلكم أجر عظيم» آل عمران: ۱۷۹).

و قوله سبحانه: «أحسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لا يفتنون و لقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ اللّٰه الّذين صدقوا و ليعلمنّ الكاذبين - و ليعلمنّ اللّٰه الّذين آمنوا و ليعلمنّ المنافقين» العنكبوت: ۱ - ۲ و ۱۱).

و قوله عزّوجلّ: «آمنوا باللّٰه و رسوله و أنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه و ما لكم لا تومنون باللّٰه و الرّسول يدعوكم لتؤمنوا بربّكم و قد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين - و ما لكم ألاّ تنفقوا في سبيل اللّٰه» الحديد: ۷ - ۸ و ۱۰).

و قوله جلّ وعلا: «فمنكم من يبخل و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه» فمنكم أيّها المخاطبون من يبخل بإنفاق بعض أمواله في إعلاء كلمة اللّٰه تعالى و جهاد أعدآئه و في رفع حوآئج المحتاجين... و من يبخل فإنّما ضرر بخله عائد إلى نفسه دون غيرها في الدّنيا و الآخرة لأنّه يسقط الكرامة و يسلب الإنسانيّة عنها، و ينقصها أجرها من الثّواب العظيم المعدّ لها إذا جادت، و يبعدها عن رضا اللّٰه تعالى و القرب منه في جنّات النّعيم، كما أنّ نفع الإنفاق عائد إليها فيهما.

قال اللّٰه تعالى: «و لا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم اللّٰه من فضله هو خيراً لهم بل هو شرّ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيمة» آل عمران: ۱۸۰).

و قال: «مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّٰه كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مأة حبّة و اللّٰه يضاعف لمن يشآء و اللّٰه واسع عليم الّذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّٰه ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منّاً و لا أذى لهم أجرهم عند ربّهم و لا خوف عليهم و لا يحزنون - و ما تنفقوا من خير فلأنفسكم و ما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه اللّٰه و ما تنفقوا من خير يوفّ إليكم» البقرة: ۲۶۱ - ۲۶۲ و ۲۷۲).

و قال: «فاتّقوا اللّٰه ما استطعتم و اسمعوا و أطيعوا و أنفقوا خيراً لأنفسكم و من يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون» التّغابن: ۱۶).

و قوله تعالى: «و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقراء» و اللّٰه وحده هو الغنيّ المطلق لا غيره، غنيّ عنكم و عن جميع خلقه، و أنتم كسآئر الخلائق فقراء في غاية الفقر إلى اللّٰه جلّ وعلا وحده في أصل الوجود و إدامة الحياة أي حدوثاً و بقآءً.

و ذلك أنّ الغنيّ المطلق هو الّذي لا يتوقّف ذاته و لا كمال ذاته على غيره، و أنّ الفقير هو الّذي يتوقّف منه إمّا ذاته و إمّا صفة كمال له، و من البداهة أنّ الممكنات كلّها مفتقرة إلى واجب الوجود، فلا غنيّ على الإطلاق إلاّ واجب الوجود، و لا يصحّ وجود غنيّين مطلقين، إذ لو دخل أحدهما تحت قدرة الآخر كان أولى، و إذا لم يدخل، فقد عدم الاولى، فهو فقير عادم لما هو الاولى، فالغنيّ المطلق واحد، و ما سواه فقير.

كما قال اللّٰه تعالى: «و من جاهد فإنّما يجاهد لنفسه إنّ اللّٰه لغنيّ عن العالمين» العنكبوت: ۶).

و قال: «و من كفر فإنّ اللّٰه غنيّ عن العالمين» آل عمران: ۹۷).

فيكون الذّات المقدّسة باعتبار كلّ وجود و كلّ صفة كماليّة و كلّ فعل و تأثير غنيّا لا يختصّ بصفة دون اخرى، و كمال دون آخر كما أنّ الممكنات بأسرها باعتبار وجوداتها و صفاتها و أفعالها و حياتها حدوثاً و بقاءً برمّتها مفتقرة إلى اللّٰه تعالى ناقصة مفتاقة في حضرته.

و في الجملة إشارة إلى التّوحيد الوجودي بمراتبه...

قال اللّٰه تعالى: «يا أيّها النّاس أنتم الفقراء إلى اللّٰه و اللّٰه هو الغنيّ الحميد» فاطر: ۱۵).

و اللّٰه تعالى وحده هو الغنيّ بذاته عن كلّ ما سواه، و كلّ شئ فقير إليه جلّ وعلا: «أنتم الفقراء إلى اللّٰه» فوصفه سبحانه بالغنيّ وصف لازم له تعالى «أنتم الفقرآء إلى اللّٰه» بذاتكم في جميع الأحوال، وصف الإنسان بالفقر وصف لازم له لا ينفكّ عنه.

و قوله عزّوجلّ: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم» و إن تعرضوا أيّها المخاطبون عن الحقّ، و تتّبعوا ما أسخط اللّٰه، و تكرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يستبدل اللّٰه قوماً بغير لسانكم العربي، يقومون مقامكم في الايمان و اتّباع الحقّ، و الطّاعة للّٰه تعالى و لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و العمل بكتابه و

سنّة رسوله﴿ﷺ﴾ و ولاية أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

«ثمّ لايكونوا» هؤلآء الأغيار الأقربين، و الأبرار المحبّين «أمثالكم» الأقربين الأغيار، و الأشرار المعاندين... لايكونوا هم أمثالكم في التّولّي عن الايمان و كراهة كتاب اللّٰه، و الإعراض عن طاعة اللّٰه و تقواه و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ لايكونوا هم أمثالكم في صدّ النّاس عن سبيل اللّٰه و عن ولاية أهل بيت رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ والإفساد في الأرض و تقطيع أرحام رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾، و لايكونوا هم أمثالكم في مخالفتكم لكتاب اللّٰه، و معاداتكم لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و ظلمكم لأهل بيته المعصومين عليهم صلوات اللّٰه، و هضم حقوقهم و هتك حرماتهم...

و إنّما هم يتولّون اللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين و يكفرون بالطّاغوت و يرفضون الطّواغيت...

قال اللّٰه تعالى: «لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ فمن يكفر بالطّاغوت و يؤمن باللّٰه فقد استمسك بالعروة الوثق لا انفصام لها و اللّٰه سميع عليم اللّٰه وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور و الّذين كفروا أوليآؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات اولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون» البقرة: ٢٥٦ - ٢٥٧).

و قال: «يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللّٰه بقوم يحبّهم و يحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل اللّٰه و لا يخافون لومة لآئم ذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشآء و اللّٰه واسع عليم إنّما وليّكم اللّٰه و رسوله و الّذين آمنوا الّذين يقيمون الصّلاة و يؤتون الزّكاة و هم راكعون و من يتولّ اللّٰه و رسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب اللّٰه هم الغالبون» المائدة: ٥٤ - ٥٦).

و قال: «إن يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشآء كما أنشأكم من ذرّية قوم آخرين إنّ ما توعدون لآت و ما أنتم بمعجزين» الأنعام: ١٣٣ - ١٣٤).

و قال: «يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللّٰه اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة إلاّ قليل إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً و يستبدل قوماً غيركم و لا تضرّوه شيئاً و اللّٰه على كلّ شيء قدير» التّوبة: ٣٨ - ٣٩).

٤٥٤٦- (الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم)

الّذين كفروا باللّه سبحانه و رسوله﴿ﷺ﴾ و بكتابه و باليوم الآخر، و صدّوا النّاس عن الايمان ليكونوا هم و النّاس سواء في الكفر و الضّلالة، أبطل اللّه تعالى أعمالهم و أفسدها لاينتفعون بها.

٤٥٤٧-(و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم)

و الّذين آمنوا باللّه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و عملوا الصّالحات من الطّاعات والحسنات، و آمنوا بما نزّل على محمّد﴿ﷺ﴾ في أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و هو الحقّ المأمور من ربّهم، محى اللّه سبحانه عنهم سيّئاتهم الّتي عملوها قبل الايمان، أو بعده عن جهالة، و أصلح حالهم في الدّنيا و الآخرة.

٤٥٤٨-(ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب اللّٰه للنّاس أمثالهم)

أبطل اللّٰه تعالى أعمال الكافرين، و كفّر عن المؤمنين سيّئاتهم و أصلح حالهم لأنّ الكافرين اتّبعوا الباطل فجزاءهم إيطال أعمالهم، و أنّ المؤمنين اتّبعوا الحقّ فجزآءهم تكفير سيّئاتهم عنهم و إصلاح حالهم، مثل ذلك البيان، يضرب اللّٰه تعالى أمثالهم الّتي يقاس عليها كلّ من اتّبع الباطل أو الحقّ في كلّ ظرف من الظّروف.

٤٥٤٩-(فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّاً منّاً بعد و إمّا فدآءً حتّى تضع الحرب أوزارها ذلك و لو يشآء اللّٰه لانتصر منهم و لكن ليبلوا بعضكم ببعض و الّذين قتلوا في سبيل اللّٰه فلن يضلّ أعمالهم)

إذا عرفتم أيّها المؤمنون موقف الفريقين: المؤمنين و الكافرين عند اللّٰه تعالى، فحينما لقيتم الكافرين الّذين يحاربونكم فاضربوا رقابهم ضرباً حاسماً، حتّى إذا أكثرتم فيهم القتل و الأسر، و غلبتم و ظفرتم بمن لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا بأيديكم أسرى، فأحكموا وثاقهم، فإذاً إمّا تمنّوا عليهم منّاً بعد ذلك و تطلقوهم من دون عوض و لا فدية أو تسترقّوهم، و إمّا تفادوهم فداء بعوض من المال أو الأسير منكم عندهم، حتّى ينقضي القتال بينكم إمّا بايمانهم و إمّا بغلبتكم عليهم و إمّا بالصّلح بينكم.

هذا الحكم هو الحقّ الّذي يجب عليكم اتّباعه، و لو يشآء اللّٰه تعالى استئصال هؤلآء الكافرين من دون قتال، لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك، و لكن اللّٰه لم يفعل ذلك، و أمركم بالقتال معهم ليمتحن بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين منكم و الصّابرين، و الّذين استشهدوا منكم في سبيل اللّٰه سبحانه فلن يضيع اللّٰه أعمالهم...

٤٥٥٠-(سيهديهم و يصلح بالهم)

سيهدى اللّٰه هؤلآء الشّهداء في سبيل اللّٰه إلى منازل السّعادة و الكرامة و الشّرافة الّتي أعدّها اللّٰه لهم في الجنّة، و يصلح شأنهم لدخول الجنّة.

٤٥٥١- (و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم)

و سيدخلهم اللّٰه تعالى الجنّة الّتي عرّف لهم طريقها الموصل إليها.

٤٥٥٢- (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّٰه ينصركم و يثبّت أقدامكم)

أيّها المؤمنون في كلّ ظرف من الظّروف إن تنصروا دين اللّٰه الّذي أكمله اللّٰه بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يوم غدير خمّ، ينصركم اللّٰه، و يثبّت أقدامكم على هذا الدّين الثّابت.

٤٥٥٣- (و الّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم)

و الّذين كفروا باللّٰه سبحانه فانحطّوا انحطاطاً بسبب كفرهم، و أبطل اللّٰه تعالى أعمالهم...

٤٥٥٤- (ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم)

ذلك الانحطاط و إبطال الأعمال بسبب أنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى، فأحبط اللّٰه أعمالهم الّتي عملوها مع كراهتهم ما أنزل اللّٰه.

٤٥٥٥-(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر اللّٰه عليهم و للكافرين أمثالها)

أفلم يسيروا هؤلآء الكارهون ما أنزل اللّٰه في الأرض سيراً فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم من الأمم الكارهين ما أنزل اللّٰه على رسلهم، أهلك اللّٰه ما يختصّ بهم من الأهل و الأولاد و الأموال و الدّيار و العقار... و للكافرين في كلّ ظرف من الظّروف أمثال تلك العواقب الوخيمة.

٤٥٥٦-(ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لا مولى لهم)

هذا الّذي فعل اللّٰه سبحانه بالفريقين: المؤمنين و الكافرين، بسبب أنّ اللّٰه تعالى مولى الّذين آمنوا به فلهم الأمن، و أنّ الكافرين باللّٰه لا مولى لهم، فلا أمن لهم في الدّنيا والآخرة.

٤٥٥٧-(إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم)

إنّ اللّٰه عزّوجلّ يدخل المؤمنين الصّالحين يوم القيامة، جنّات لا يقدر قدرها إلاّ من دخلها، تجري من تحت أشجارها و قصورها... الأنهار المختلفة من الخمر و الماء والعسل و اللّبن، و الّذين كفروا هم يتمتّعون في الدّنيا بمتاعها و شهواتها، و يأكلون كما تأكل الأنعام، و همّهم بطنهم، فقيمتهم ما فيه، و نار جهنّم مقرّهم و مأواهم يوم القيامة.

٤٥٥٨-(وكأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)

وكثير من أهل قرية من قرى الامم الماضية الّتي كان أهلها أشدّ قوة من أهل قريتك مكّة الّتي أخرجوك منها، أهلكنا أهل تلك القرى بسبب تكذيبهم رسلنا بأنواع العذاب، فلم يجدوا لهم ناصراً ينصرهم من عذابنا.

٤٥٥٩-(أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم)

أفمن كان على حجّة قاطعة ثابتة من ربّه تعالى كمن زيّن له الشّيطان سوء عمله، واتّبعوا أهوآء أنفسهم الأمّاره بالسّوء؟!

٤٥٦٠-(مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى و لهم

فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم)

صفة الجنّة العجيبة الشّأن الّتي وعدها اللّه تعالى الّذين اتّقوا اللّه سبحانه، لهم فيها أنهار عديدة من مياه صافية، سآئغ شرابها لايتغيّر عذبها، و لهم فيها أنهار كثيرة من لبن لم يتغيّر طعمه، لا يقدر قدره إلاّ من شربه فيها، و لهم فيها أنهار من أنواع الخمر لكلّ واحد منها لذّة خاصّة لشاربيها، و لهم فيها أنهار من عسل مصفّى لايشبه بعسل الدّنيا إلاّ بالإسم، فلا يقدر قدره إلاّ من شربه، و لهم فيها مضافاً على ذلك ثمرة من أنواع الثّمرات كلّها، و لهم فيها مغفرة عظيمة كآئنة من ربّهم، أم من هو يدخل الجنّة و يتنعّم بنيعمها الّتي وصفناها كمن هو خالد في النّار و سقوا مآء انتهت حرارته، فقطّع لفرط حرارته أمعآء الكافرين الّذين يظهرون الكفر أو يبطنونه.

٤٥٦١-(و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم)

و من هؤلآء المخلّدين في النّار فئة - و هم المنافقون - يستعمون إليك أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ ما تتلوه على النّاس، حتّى إذا خرجوا مجلسك قالوا - استخفافاً و استهزآءً - لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب اللّه تعالى: ماذا قال محمّد﴿ﷺ﴾ اٰنفاً؟ لم نفهم من أقاويله شيئاً فيه فائدة، اولئك المنافقون هم الّذين طبع اللّه على قلوبهم، و اتّبعوا أهوآءهم.

٤٥٦٢-(و الّذين اهتدوا زادهم هدى و اٰتاهم تقواهم)

و الّذين اهتدوا بما أنزل اللّه تعالى على رسوله﴿ﷺ﴾ زادهم اللّه سبحانه هدى و ايماناً، و آتاهم اللّه تقواهم.

٤٥٦٣-(فهل ينظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتة فقد جآء أشراطها فأنّى لهم إذا جآءتهم ذكراهم)

فهل ينظر هؤلآء المنافقون إلاّ السّاعة الّتي وعد اللّٰه تعالى خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحيآء أن تجيئهم فجأة لايشعرون بمجيئها، فقد جآء أشراطها... فمن أيّ وجه لهؤلآء المنافقين إذا جآئتهم السّاعة فجأة ذكرى ما قد ضيّعوا من الايمان باللّٰه تعالى و طاعته والعمل بكتابه.

٤٥٦٤-(فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّٰه يعلم متقلّبكم و مثواكم)

إن ضاق صدرك أيّها الرّسول(ﷺ) بما قاله المنافقون، فاعلم كما كنت عالماً أنّه لا معبود بحقّ يصلح للعبادة إلاّ اللّٰه، و استغفر لذنبك في كلّ حال ليستنّ بك امّتك، واستغفر للمؤمنين و المؤمنات من امّتك ليقتدوا بك لما للاستغفار من آثار كثيرة دنيويّة و دينيّة... و اللّٰه يعلم أيّها المنافقون كلّ ما تتقلّبون فيه مراحل حياتكم و مماتكم، و ما تستقرّون إليه في الدّار الآخرة.

٤٥٦٥-(و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم)

و يقول المؤمنون الصّادقون، حالكونهم مشتاقين للوحي، و متمنّين لنزول آيات الجهاد في إعلاء كلمة التّوحيد و إبطال كلمة الكفر: هلّا نزّلت سورة تأمرنا بالجهاد في سبيل اللّٰه؟ فإذا أُنزلت سورة واضحة الدّلالة في الأمر بالجهاد شقّ ذلك على الّذين في قلوبهم مرض النّفاق و الشّقاق إذ رأيتهم بعد نزول السّورة، يستولى عليهم الرّعب والرّخوة، ينظرون إليك شزراً و كراهيّة للقتال، تشخص أبصارهم هلعاً و جبناً عن لقآء العدوّ كما ينظر الشّاخص ببصره عند معاينة الموت، فالخزى و الهوان أولى له من العزّة والوقار.

٤٥٦٦-(طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا اللّه لكان خيراً لهم)

إذا قيل لهؤلآء المنافقين قبل نزول سورة محكمة يذكر فيها القتال: إنّ اللّه تعالى يفرض عليكم القتال مع الكافرين، يقولون: سمعاً و طاعة و قولاً معروفاً، فإذا اُنزلت سورة محكمة ذكر فيها القتال، و جآء وقته، و جدّ أمره انكشف أمرهم و ظهر كذبهم، فإنّهم عندئذ يتخلّفون عمّا وعدوا به، فلو صدقوا اللّه سبحانه فيما وعدوه لكان خيراً لهم.

٤٥٦٧- (فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم)

فلايتوقّع منكم يا معشر المنافقين تتمنّون الإمارة على المسلمين إن تسلّطتم عليهم إلاّ أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم تهالكاً على ملك الدّنيا و تكالباً على جيفتها.

٤٥٦٨- (اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم)

هؤلآء المنافقون هم الّذين أبعدهم اللّه تعالى عن رحمته و طردهم من كلّ خير، فأصمّهم اللّه جلّ وعلا عن استماع الحقّ و إدراكه، و أعمى اللّه سبحانه أبصار قلوبهم عن طريق الحقّ.

٤٥٦٩- (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أفلا يتدبّرون هذا القرآن، فيعرفوا ما فيه من سوء عواقب البغي و النّفاق و الظّلم والشّقاق أم على قلوبهم أقفال، هي من نتآئج اتّباعهم أهوآءهم...

٤٥٧٠- (إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم)

إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم و انقلبوا على أعقابهم بترك ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ من بعد ما تبيّن لهم أمرها بالوحي و بيان رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾، الشّيطان سهّل لهم كلّ خطيئة، و طوّل لهم الآمال...

٤٥٧١- (ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه سنطيعكم في بعض الأمر واللّٰه يعلم إسرارهم)

ذلك التّسويل و الإملاء لهؤلآء المرتدّين من المنافقين بأنّهم قالوا لقادتهم الّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه تعالى في ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب«عليه السلام»: سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به بعد رسول اللّٰه«صلى الله عليه وآله» من المخالفة في أمر الولاية، و اللّٰه تعالى يعلم ما أسرّوه بينهم...

٤٥٧٢- (فكيف إذا توفّتهم الملآئكة يضربون وجوههم و أدبارهم)

فكيف كان حال هؤلآء المنافقين و قادتهم وما حيلتهم إذا قبض ملك الموت على أهول الوجوه و أفظعها أرواحهم، و أعوانه يضربون بمقامع من حديد وجوههم و أدبارهم بسبب إدبارهم عن الحقّ و الهدى؟

٤٥٧٣- (ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

ذلك الضّرب حين الموت بسبب أنّ المنافقين المرتدّين المردة اتّبعوا ما أسخط اللّٰه تعالى من قيادة الفجرة، و هم كرهوا رضوان اللّٰه جلّ وعلا في ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب«عليه السلام»، فأحبط اللّٰه سبحانه أعمال القادة و المردة كلّهم الّتي عملوها قبل ذلك من الخيرات...

٤٥٧٤- (أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّٰه أضغانهم)

بل أحسب هؤلآء المنافقون المردة و قادتهم الفجرة الّذين في قلوبهم مرض الكفر والنّفاق و الشّرّ و الفساد... أن لايكشف اللّٰه سبحانه أستارهم، و لايظهر أحقادهم...؟!

٤٥٧٥-(و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول و اللّٰه يعلم أعمالكم)

و الحال أنّنا لو نشآء أيّها الرّسول«صلى الله عليه وآله» لأريناك سيرة هؤلآء المنافقين المردة و

قادتهم الفجرة بالعيان، و إذ لم نشأ ذلك فلعرفتهم بعلامات الكفر و النّفاق و الشّرّ والفساد في وجوههم، و لتعرفنّهم بها من لهجة كلامهم و اسلوب حديثهم، و اللّٰه تعالى يعلم أيّها المنافقون المردة و القادة الفجرة أعمالكم...

٤٥٧٦- (و لنبلونّكم حتّى نعلم الجاهدين منكم و الصّابرين و نبلوا أخباركم)

أُقسم بعزّتي و جلالي أنّا نختبركم بالجهاد في سبيل اللّٰه بالمال و الأنفس حتّى يمتاز المجاهدون منكم و الصّابرون من غيركم، و نظهر لكم و لغيركم أخباركم و نكشف أسراركم...

٤٥٧٧- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم)

إنّ الّذين كفروا باللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد ايمانهم ظاهراً و صدّوا النّاس عن ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و خالفوا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و عاندوه فيها من بعد ما وضح لهم أمرها مرّة بعد اخرى، لن يضرّوا اللّٰه سبحانه شيئاً من الضّرر بكفرهم و صدّهم و شقاقهم، وسيحبط اللّٰه أعمالهم الّتي عملوها قبل إظهار المخالفة والصّدّ و الشّقاق.

٤٥٧٨- (يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم)

يا أيّها المتظاهرون بالايمان أطيعوا اللّٰه فيما أنزل عليكم من كتابه، و أطيعوا الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ فيا يأمركم به في أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و لا تبطلوا أعمالكم السّابقة بسبب المخالفة فيه﴿عليه السلام﴾.

٤٥٧٩- (إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّٰه لهم)

إنّ الّذين كفروا بعد ايمانهم، و صدّوا النّاس عن ولاية أمر المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ ثمّ أصرّوا على المخالفة حتّى ماتوا و هم كفّار فلن يغفر اللّٰه لهم.

٤٥٨٠- (فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم)

فلا تهنوا أيّها المؤمنون الصّادقون، و لا تظهروا الضّعف في ولايتكم لأمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و لاتدعوا الكفّار المحاربين إلى المصالحة و لا المخالفين المعاندين إلى المسالمة و المداهنة الّتي تنبىء عن ضعفكم في الولاية، و الحال أنّكم الغالبون عليهم في كلّ حال، بالحجّة و البرهان لأنّ اللّٰه جلّ وعلا معكم، و لن يضيع سعيكم.

٤٥٨١- (إنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و إن تؤمنوا و تتّقوا يؤتكم أُجوركم و لا يسئلكم أموالكم)

إنّما الحياة الدّنيا لعب يشغل به الإنسان، و يغفله عن الايمان حقّاً و عن الأعمال الصّالحة، و هو ينسي الإنسان عن الموت و الحساب و عذاب الآخرة، و إن تؤمنوا باللّٰه تعالى حقّاً أيّها المتظاهرون بالايمان، و تتّقوا اللّٰه يؤتكم اللّٰه سبحانه ثواب ايمانكم و تقواكم و لايسئلكم جميع أموالكم في الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى لأنّه:

٤٥٨٢- (إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم)

لأنّ اللّٰه تعالى إن يسئلكم جميع أموالكم، و يصرّ عليكم بطلبها تظهروا البخل فلا تعطونها، و إذن يخرج اللّٰه أحقادكم لشدّة حبّكم بها.

٤٥٨٣-(ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّٰه فمنكم من يبخل و من يبخل فإنّما يبخل عن نفسه و اللّٰه الغنيّ و أنتم الفقراء و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم)

ها أنتم أيّها المخاطبون الّذين أمرتم آنفاً بالايمان باللّٰه و طاعته و طاعة رسوله(صلى الله عليه وآله) و بالتّقوى، أنتم الآن تدعون إلى الإنفاق من بعض أموالكم في سبيل اللّٰه، فمنكم من يبخل بالإنفاق، و من يبخل به، فإنّما يبخل عن نفسه، حيث إنّ ضرر بخله يعود إلى نفسه دنياً و عقبىً، و اللّٰه تعالى وحده هو الغنيّ المطلق لا غيره، و أنتم كسآئر خلقه تعالى فقراء إلى اللّٰه جلّ وعلا حدوثاً و بقاءً، و إن تعرضوا عن الحقّ يستبدل قوماً لا يكونون عربيّا، ثمّ لا يكونوا هم أمثالكم في الكفر و النّفاق و الظّلم والشّقاق و البغي والفساد بين الأُمّة الإسلاميّة.

﴿بحث دقيق روائي﴾

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ في منشأ الكفر و سببه: «و الكفر على أربع دعآئم: على التعمّق، والتّنازع، و الزّيغ و الشّقاق...»

أقول: إنّ التّعمّق: هو الوسوسة و التّشكيك في الحقّ، و التّنازع: هو المكابرة والجدال في الحقّ، و الزّيغ: هو الابتعاد عن الحقّ، و الشّقاق: هو العداوة للحقّ، فكلّ واحد منها يوجب الكفر، وقد يكون كلّها في بعض النّاس، وقد يكون بعضها في بعضهم...

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ في منشأ الصّدّ و سببه: «أيّها النّاس إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فيُنسى الآخرة».

و فيه: قال الإمام أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ في منشأ ضلال الأعمال و سبب حبطها: «فإنّ من أعطاها غير طيّب النّفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسّنّة، مغبون الأجر، ضالّ العمل، طويل النّدم».

بأنّ النّيّة غير الخالصة في إعطآء الزّكاة توجب حبطها و ضلالها... إنّما الأعمال بالنّيّات، فكيف أعمال الكافرين، و إن كانت – ظاهراً – حسنة؟!

و في التّوحيد للشّيخ الصّدوق رضوان اللّه تعالى عليه – باب أسماء اللّه تعالى

حديث ۹- بإسناده عن أبي الحسن﴿عليه السلام﴾ - حديث طويل - قال﴿عليه السلام﴾ في معنى «الهادي»: «و هو ضدّ الضّلال الّذي هو عقوبة الكافر، و قال اللّه عزّوجلّ: «و يُضلّ اللّه الظّالمين» أي يُهلكهم و يعاقبهم و هو كقوله عزّوجلّ: «أضلّ أعمالهم» أى أهلك أعمالهم و أحبطها بكفرهم...» الحديث.

و قد روى: أنّ النّبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ لمّا ولد أمر عبد المطّلب بجزور، فنحرت و دعا رجال قريش، و كانت سنّتهم في المولود إذا ولد في استقبال اللّيل كفئوا عليه قدراً حتّى يصبح، ففعلوا ذلك بالنّبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأصبحوا و قد انشقّت عنه القدر و هو شاخص إلى السّمآء، فلمّا حضرت رجال قريش و طعموا قالوا لعبد المطّلب: ما سمّيت ابنك هذا؟ قال: سمّيته محمّداً، قالوا: ما هذا من أسمآء آبآئك! قال: أردت أن يحمد في السّموات و الأرض».

«محمّد» إسم عربيّ، و هو مفعل من الحمد، و التكرير فيه للتكثير كما تقول: كرّمته فهو مكرّم و عظّمته فهو معظّم إذا فعلت ذلك مرّة بعد مرّة و هو منقول من الصّفة على سبيل التفاؤل أنّه سيكثر حمده و كان كذلك﴿صلى الله عليه وآله﴾، و محمود لايدلّ على الكثرة.

يقال: رجل محمود و محمّد، و الّذي يدلّ على الفرق بينهما قول الشّاعر:

فلست بمحمود و لا بمحمّد   و لكنّما أنت الحبط الحبائر

و «محمّد» يدلّ على الكثرة و لذلك قال الأعشى:

إليك أبيت اللّعن كان كلالها   إلى الواحد الفرد الجواد المحمّد

و قد جآء هذا الإسم المبارك في القرآن الكريم أربعة مرّات في أربع سور:

ألف: آل عمران: ۱۴۴) ب: الأحزاب: ۴۰) ج: محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۲) د: الفتح: ۲۸)

و في فروع الكافي: بإسناده عن حفص عن أبي عبد اللّه عن أبيه عليهما السّلام قال: بعث اللّه محمّداً﴿صلى الله عليه وآله﴾ بخمسة أسياف: ثلاثة منها شاهرة فلا تغمد حتّى تضع الحرب أوزارها - الحديث طويل إلى أن قال -: فسيف على مشركي العرب، قال اللّه عزّوجلّ: «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم و احصروهم و اقعدوا لهم كلّ مرصد فإن تابوا» يعني آمنوا «و أقاموا الصّلاة و آتوا الزّكاة فإخوانكم في الدّين» فهؤلآء لايقبل منهم إلاّ القتل أو الدّخول في الإسلام، و أموالهم و ذراريهم سبي على ما

سنّ رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ اَلسَّلاٰمُ﴾ فإنّه سبى و عفا و قبل الفدآء، و السّيف الثّاني على أهل الذّمّة قال اللّٰه تعالى: «و قولوا للنّاس حسناً» نزلت هذه الآية في أهل الذّمّة.

ثمّ نسخها قوله عزّوجلّ: «قاتلوا الّذين لايؤمنون بـاللّٰه و لا بـاليوم الآخـر و لا يحرّمون ما حرّم اللّٰه و رسوله و لايدينون دين الحقّ من الّذين اوتوا الكـتاب حـتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منهم إلاّ الجزية أو القتل، وما لهم فيء، و ذراريهم سبي، و إذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرّم علينا سبيهم،و حرمت أموالهم، و حلّت لنا مناكحهم، و من كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سبيهم و أموالهم، و لم تحلّ لنا مناكحتهم، و لم يقبل منهم إلاّ الدّخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل.

و السّيف الثّالث: سيف على مشركي العجم - يعني التّرك و الدّيـلم و الخـزر (و الخوزخ) - قال اللّٰه تعالى: «فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداء حتّى تضع الحرب أوزارها» فأمّا قوله: «فإمّا منّاً بعد» يعني بعد السّبي منهم «و إمّا فداء» يعني المفاداة بينهم و بين أهل الإسلام، فهؤلآء لن يقبل منهم إلاّ القتل أو الدّخول في الإسلام، و لا يحلّ لنا مناكحتهم ما داموا في دار الحرب...» الحديث.

و في **رجال الكشّي**: عن سليمان بن خالد قال: قال لي أبو عبد اللّٰه﴿عَلَيْهِ اَلسَّلاٰمُ﴾: رحم اللّٰه عمّي زيداً، ما قدر أن يسير بكتاب اللّٰه ساعة من نهار، ثمّ قال: يا سليمان بن خالد ما كان عدوّكم عندكم؟ قلنا: كفّار، قال: إنّ اللّٰه عزّوجلّ يقول: «حـتّى إذا أثـخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداءً» فجعل المنّ بعد الإثخان، أسرتم قوماً ثمّ خلّيتم سبيلهم قبل الإثخان، فمننتم قبل الإثخان، و إنّما جعل اللّٰه المنّ بعد الإثخان حتّى خرجوا عليكم من وجه آخر فقاتلوكم».

و في **روضة الكافي**: بإسناده عن سليمان بن خالد قال: سئلني أبو عبد اللّٰه﴿عَلَيْهِ اَلسَّلاٰمُ﴾ فقال: أيّ شيء كنتم يوم خرجتم مع زيد؟ فقلت: مؤمنين، قال: فما كان عدوّكم؟ قلت: كفّاراً، قال: فإنّي أجد في كتاب اللّٰه عزّوجلّ: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداءً حتّى تضع

الحرب أوزارها» فابتدأتم أنتم بتخلية من اسر تم سبحان اللّٰه ما استطعتم أن تسيروا بالعدل ساعة».

و في **البحار**: -كتاب القرآن - باب ما ورد في أصناف آيات القرآن - حديث طويل - قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾: «و فرض تعالى على اليدين الجهاد لأنّه من عملها و علاجها، فقال: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق» و ذلك كلّه من الايمان...» الحديث.

و في **اصول الكافي**: -كتاب الايمان و الكفر - باب في أنّ الايمان مبثوث لجوارح البدن كلّها - حديث ١) بإسناده عن أبي عمرو الزّبيري عن أبي عبد اللّٰه﴿ع﴾ - حديث طويل -: «... و فرض اللّٰه على اليدين أن لايبطش بهما إلى ما حرّم اللّٰه، و أن يبطش بهما إلى ما أمر اللّٰه عزّوجلّ، و فرض عليهما من الصّدقة و صلة الرّحم و الجهاد في سبيل اللّٰه و الطّهور للصّلاة، فقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا قمتم إلى الصّلاة فاغسلوا وجوهكم و أيديكم إلى المرافق و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم إلى الكعبين» و قال: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء حتّى تضع الحرب أوزارها» فهذا ما فرض اللّٰه على اليدين لأنّ الضّرب من علاجهما...» الحديث.

العلاج: المزاولة.

و في **الكافي و التّهذيب**: عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق﴿ع﴾ قال: «كان أبي يقول: إنّ للحرب حكمين: إذا كانت الحرب قائمة لم تضع أوزارها و لم يثخن أهلها، فكلّ أسير أُخِذَ في تلك الحال فإنّ الإمام فيه بالخيار إن شآء ضرب عنقه، و إن شآء قطع يده و رجله من خلاف بغير حسم و تركه يتشحّط في دمه حتّى يموت و هو قول اللّٰه عزّوجلّ: «إنّما جزآء الّذين يحاربون اللّٰه و رسوله...» الآية...

قال﴿ع﴾: و الحكم الآخر: إذا وضعت الحرب أوزارها و أثخن أهلها، فكلّ أسير أُخذ على تلك الحال فكان في أيديهم، فالإمام فيه بالخيار إن شآء منّ عليهم، فأرسلهم و إن شآء فاداهم أنفسهم، و إن شآء استعبدهم، فصار وا عبيداً».

و **في المجمع:** و المرويّ عن أئمّة الهدى ﴿عليهم السلام﴾: أنّ الأُسارى ضربان: ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال و الحرب قائمة، فهؤلآء يكون الإمام مخيّراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتّى ينزفوا، و لا يجوز المنّ و لا الفدآء، والضّرب الآخر: الّذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها، و انقضى القتال، فالإمام مخيّر فيهم بين المنّ و الفداء إمّا بالمال أو بالنّفس و بين الاسترقاق و ضرب الرّقاب، فإن أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك، و كان حكمهم حكم المسلمين».

و **في نورالثّقلين:** في قوله تعالى: «حتّى تضع الحرب أوزارها» و قيل: لا يبقى دين غير الإسلام. و المعنى: حتّى يضع حربكم و قتالكم أوزار المشركين و قبآئح أعمالهم بأن يسلموا، فلايبقى إلاّ الإسلام. و المعنى: حتّى يضع حربكم و قتالكم أوزار المشركين و قبآئح أعمالهم بأن يسلموا، فلا يبقى إلاّ الإسلام خير الأديان، و لا تعبد الأوثان. و هذا كما جاء في الحديث: و الجهاد ماضٍ منذ بعثني اللّه إلى أن يقاتل آخر امّتي الدّجّال».

و **في تفسيرالقمی:** في قوله تعالى: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب - إلى قوله - لانتصر منهم» فهذا السّيف الّذي على مشركي العجم من الزّنادقة، و من ليس معه كتاب من عبدة النّيران و الكواكب و قوله: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب» و المخاطبة للجماعة و المعنيّ لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و الإمام بعده و قوله: «و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم و يصلح بالهم و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم» أي: وعدها إيّاهم و ادّخرها لهم «ليبلوا بعضكم ببعض» أي: يختبر.

و **في رواية:** «بعث رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ خيلاً قِبَل نجد، فجآئت برجل من بني حنيفة، يقال له ثُمامة ابن أُثال، فربطوه في سارية من سوارى المسجد، فخرج إليه رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير:، إن تقتلني تقتل ذادم، و إن تُنعم، تنعم على شاكر، و إن كنت تريد المال فسئل ما شئت، حتّى كان الغد، فقال ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك، قال ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثمّ دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، و أنّ محمّداً رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و اللّه ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك،

فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، و اللّٰه ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدّين إليّ، و اللّٰه ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فقد أصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ، و إنّ خيلك أخذتني و أنا أُريد العمرة فماذاترى؟ فبشّره رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أمره أن يعتمر، فلمّا قدّم مكّة قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا و لكن أسلمت مع محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾.

و في الدّرّ المنثور: عن عمران بن حصين: أنّ النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ فادىٰ رجلين من أصحابه برجلين من المشركين أُسِرُوا.

و في رواية اخرى: عن عمران بن حصين قال: أسر أصحاب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ رجلاً من عَقيل فأوثقوه، و كانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ ففداه رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالرّجلين اللّذين أسرتهما ثقيف».

و في الدّر المنثور: عن القاسم بن عبد الرّحمن قال: بعث النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ سرية، فطلبوا رجلاً فصعد شجرة فأحرقوها بالنّار، فلمّا قدموا على النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ أخبروه بذلك، فتغيّر وجه رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قال: إنّي لم أبعث أُعذّب بعذاب اللّٰه إنّما بعثت بضرب الرّقاب و شدّ الوثاق».

و فيه: و أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة عن النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى بن مريم إماماً مهديّاً، و حكماً عدلاً فيكسر الصّليب، و يقتل الخنزير و توضع الجزية و تضع الحرب أوزارها».

و في تفسير النيشابوري: عن أبي هريرة أنّ النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: يوشك مَن عاش منكم أن يلقى عيسى﴿عليه السلام﴾ إماماً هادياً و حكماً عدلاً يكسر الصّليب و يقتل الخنزير و تضع الحرب أوزارها حتّى تدخل كلمة الإخلاص كلّ بيت من وبر و مدر».

و في الخصال: بإسناده عن مكحول قال: قال أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «لقد علم المستحفظون من أصحاب النّبي محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنّه ليس فيهم رجل له منقبة إلاّ و قد شركته فيها و فَضُلْتُهُ و لي سبعون منقبة لم يشركني فيها أحد منهم، قلت: يا أمير المؤمنين فأخبرني بهنّ، فقال﴿عليه السلام﴾ - حديث طويل -: «...و أمّا الثّالثة و الخمسون،

فإنّ اللّه تبارك و تعالى لن يذهب بالدّنيا حتّى يقوم منّا القآئم، يقتل مبغضينا و لا يقبل الجزية، و يكسر الصّليب و الأصنام، و تضع الحرب أوزارها و يدعو إلى أخذ المـال فيقسمه بالسّويّة و يعدل في الرّعيّة...».

و في التّوحيد: - باب أسمآء اللّه تعالى - حديث ٩) في معنى «الهادي»: معناه أنّه عزّوجلّ يهديهم للحقّ، و الهدى من اللّه عزّوجلّ على ثلاثة أوجه: فوجه هو الدّلالة قد دلّهم جميعاً على الدّين، و الثّاني هو الايمان، و الايمان هدى من اللّه عزّوجلّ كما أنّه نعمة من اللّه عزّوجلّ، و الثّالث: هو النّجاة، و قد بيّن اللّه عزّوجلّ أنّه سيهدى المؤمنين بعد وفاتهم، فقال: «و الّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم و يصلح بالهم» و لا يكون الهدى بعد الموت و القتل إلاّ الثّواب و النّجاة...» الحديث.

و في رواية: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾: «يخلص المؤمنون من النّار، فيحبسون على قنطرة بين الجنّة و النّار، فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدّنيا حتّى إذا هُذِّبوا و نُقُّوا أذِنَ لهم في دخول الجنّة، فو الّذي نفس محمّد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنّة منه بمنزله في الدّنيا».

و في مستدرك الوسائل: - باب استحباب تزويج المـرأة الطّـيّبة الرّيح الدّرمـاء الكعب - «... و العرف: رائحة العود و كلّ شيء طيّب، و منه قول اللّه عـزّوجلّ: «و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم» أى طيّبها لهم.

٧- (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم)

في نهج البلاغة: قال مـولى المـوحدين إمـام المـتّقين أمـير المـؤمنين عـليّ بـن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فاللّه اللّه، معشر العباد، و أنتم سالمون في الصّحّة قبل السّـقم، و في الفُسْحة قبل الضّيق، فاسعوا في فكاك رقابكم من قـبل أن تـغلق رهآئـنها، أسهـروا عيونكم، و أضمروا بطونكم، و استعملوا أقدامكم، و أنفقوا أموالكـم، و خـذوا مـن أجسادكم، فجودوا بها على أنفسكم، و لاتبخلوا بها عنها، فقد قال اللّه سبحانه: «إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم».

و قال تعالى: «من ذا الّذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له و له أجر كريم» فلم

يستنصركم من ذلّ، و لم يستقرضكم من قُلٍّ، استنصركم و له جنود السّموات و الأرض و هو العزيز الحكيم، و استقرضكم وله خزآئن السّموات و الأرض و هو الغنيّ الحميد، و إنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه في داره، رافق بهم رسله، و أزارهم ملائكته، و أكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نارٍ أبداً، و صان أجسادهم أن تلق لُغُوباً و نَصَباً «ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشآء و اللّه ذو الفضل العظيم» الخطبة: ١٨٢).

و في فروع الكافي بإسناده عن أبي عبد الرحمن السّلمي قال: قال أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «أما بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه اللّه لخاصّة أوليآئه - إلى أن قال -: هو لباس التّقوى، ودرع اللّه الحصينة، و جنّته الوثيقة، فمن تركه ألبسه اللّه ثوب الذّل، و شمله البلآء، و فارق الرّضا و ديث بالصّغار و القماة، و ضرب على قلبه بالأسداد، و أُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد و سيم الخسف، و منع النّصف...» الحديث.

رواه الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه و زاد: «و اديل الحقّ بتضييع الجهاد و غضب اللّه عليه بتركه نصرته، و قد قال اللّه عزّوجلّ في محكم كتابه: «إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم».

و في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - في ذمّ أصحابه الّذين كانوا يتخاذلون و يتهاونون و يتساهلون في قتال أهل الشّام: معاوية بن أبي سفيان و أذنابه -: «إنّكم و اللّه لكثير في الباحات، قليل تحت الرّايات، و إنّي لعالم بما يُصلِحُكم و يُقيم أَوَدَكُمْ، و لكنّي و اللّه لاأرىٰ إصلاحكم بإفساد نفسي، أضرع اللّه خدودكم، و أتعس جدودكم، لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل، و لا تبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ» الخطبة: ٦٨).

قوله﴿عليه السلام﴾: «الباحات» جمع باحة و هي ساحة الدّار أى أنتم لكثير في ساحات بيوتكم، قليل تحت رايات إمامكم، و «أودكم» أي إعوجاجكم، و «أضرع اللّه خدودكم» أي أذلّ وجوهكم، و «أتعس جدودكم» أى أحال حظوظكم و سعودكم و أهلكها فجعلها إدباراً و نَحْساً.

و في رواية: قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «تَعِسَ عَبْدُ الدّينار و الدّرهم و القطيفة

والخميصة إن أُعطِيَ رَضِيَ وَإنْ لم يُعط لم يرض» القطيفة: دثار و الخميصة: كساء أسود مربع له أعلام و خطوط.

و في رواية: و قد سُئِلَ رسول اللّٰه(صلى الله عليه وآله) عن الرّجل يقاتل شجاعة، و يقاتل حميّة، و يقاتل رياءً، أيّ ذلك في سبيل اللّٰه؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة اللّٰه هي العليا فهو في سبيل اللّٰه».

و في تفسير النّعماني: عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام) - حديث طويل - قال: «... و إنّما هلك النّاس حين ساووا بين أئمّة الهدى و بين أئمّة الكفر، و قالوا: إنّ الطّاعة مفروضة لكلّ من قام مقام النّبي(صلى الله عليه وآله) برّاً كان أو فاجراً، فأتوا من قبل ذلك، قال اللّٰه سبحانه: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون» و قال اللّٰه تعالى: «هل يستوي الأعمى و البصير أم هل تستوى الظّلمات و النّور» فقال: فيمن سمّوهم من أئمّة الكفر بأسمآء أئمّة الهدى ممّن غصب أهل الحقّ ما جعله اللّٰه لهم، و فيمن أعان أئمّة الضّلال على ظلمهم «إن هي إلاّ أسمآء سمّيتموها أنتم و آبآؤكم ما أنزل اللّٰه بها من سلطان».

فأخبرهم اللّٰه سبحانه بعظيم افترآئهم على جملة أهل الايمان بقوله تعالى: «إنّما يفترى الكذب الّذين لايؤمنون بآيات اللّٰه» و قوله تعالى: «و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من اللّٰه» و بقوله سبحانه: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون» و بقوله تعالى: «أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم» و بقوله تعالى: «أفمن يعلم أنّما أُنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمى إنّما يتذكّر اولوا الألباب».

فبيّن اللّٰه عزّوجلّ بين الحقّ و الباطل في كثير من آيات القرآن، و لم يجعل للعباد عذراً في مخالفة أمره بعد البيان و البرهان، و لم يتركهم في لبس من أمرهم، و لقد ركب القوم الظّلم و الكفر في اختلافهم بعد نبيّهم و تفريقهم الامّة، و تشتيت أمر المسلمين و اعتدآئهم على أوصيآء رسول اللّٰه(صلى الله عليه وآله) بعد أن بيّن لهم من الثّواب على الطّاعة، والعقاب على المعصية بالمخالفة فاتّبعوا أهوآءهم، و تركوا ما أمرهم اللّٰه به و

رسوله﴿عليه السلام﴾ قال تعالى: «و ما تفرّق الّذين أُوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جآئتهم البيّنة» ثمّ أبان فضل المؤمنين، فقال سبحانه: «إنّ الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات اولئك هم خير البريّة».

ثمّ وصف ما أعدّه من كرامته تعالى لهم و ما أعدّه لمن أشرك به، و خالف أمره و عصى وليّه من النّقمة و العذاب، ففرّق بين صفات المهتدين و صفات المعتدين، فجعل ذلك مسطوراً في كثير من آيات كتابه، و لهذه العلّة قال اللّٰه تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها».

فترى مَن هو الإمام الّذي يستحقّ هذه الصّفة من اللّٰه عزّوجلّ المفروض على الامّة طاعته؟ من لم يشرك باللّٰه تعالى طرفة عين، و لم يعصه في دقيقة و لا جليلة قطّ؟ أم من أنفد عمره و أكثر أيّامه في عبادة الأوثان، ثمّ أظهر الايمان و أبطن النّفاق؟ و هل من صفة الحكيم أن يطهّر الخبيث بالخبيث، و يقيم الحدود على الامّة من في جنبه الحدود الكثيرة و هو سبحانه يقول: «أتأمرون النّاس بالبرّ و تنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»؟

أو لم يأمر اللّٰه عزّوجلّ نبيّه﴿عليه السلام﴾ بتبليغ ما عهده إليه في وصيّه و إظهار إمامته و ولايته بقوله: «يا أيها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّٰه يعصمك من النّاس»؟

فبلّغ رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ ما قد سمع، و علم أنّ الشّياطين اجتمعوا إلى إبليس، فقالوا له: ألم تكن أخبرتنا أنّ محمّداً إذا مضى نكثت امّته عهده و نقضت سنّته، و إنّ الكتاب الّذي جاء به يشهد بذلك و هو قوله: «و ما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» فكيف يتمّ هذا و قد نصب لأُمّته عَلَماً و أقام لهم إماماً؟ فقال لهم إبليس: لاتجزعوا من هذا، فإنّ أُمّته ينقضون عهده و يغدرون بوصيّه من بعده، و يظلمون أهل بيته، و يهملون ذلك لغلبة حبّ الدّنيا على قلوبهم، و تمكّن الحميّة و الضّغآئن في نفوسهم و استكبارهم، و عزّهم، فأنزل اللّٰه تعالى: «و لقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين».

قوله﴿عليه السلام﴾: «فأُتوا من قبل ذلك» أى أتت هلاكهم من قبل ذلك.

و في كنز الفوائد: بإسناده عن جابر عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قوله تعالى: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه» في عليّ «فأحبط أعمالهم».

و فيه: بإسناده عن جابر بن يزيد قال: سئلت أبا جعفر﴿عليه السلام﴾ عن هذه الآية قال: «و كرهوا عليّاً و كان عليّ رضي اللّٰه و رضي رسوله، أمر اللّٰه بولايته يوم بدر و يوم حنين، و ببطن نخلة و يوم التّروية، نزلت فيه اثنتان و عشرون آية في الحجّة الّتي صدّ فيها رسول اللّٰه عن المسجد الحرام بالجحفة و بخمّ».

و في تفسير القمّي: قال في قوله تعالى: «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم» أى: أو لم ينظروا في أخبار الامم الماضية، قوله: «دمّر اللّٰه عليهم» أى أهلكهم و عذّبهم، ثمّ قال: «و للكافرين» يعني: الّذين كفروا و كرهوا ما أنزل اللّٰه في عليّ «أمثالها» أى: لهم مثل ما كان للامم الماضية من العذاب و الهلاك، ثمّ ذكر المؤمنين الّذين ثبتوا على إمامة أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ فقال: «ذلك بأنّ اللّٰه مولى الّذين آمنوا و أنّ الكافرين لا مولى لهم» ثمّ ذكر المؤمنين فقال:

«ذلك بأنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» يعني: بولاية علي﴿عليه السلام﴾: «جنّات تجري من تحتها الأنهار و الّذين كفروا» من أعدآئه «يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام» يعني أكلاً كثيراً «و النّار مثوى لهم» قال: «و كأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم» قال: إنّ الّذين أهلكناهم من الأُمم السّالفة كانوا أشدّ قوّة من قريتك يعني أهل مكّة الّذين أخرجوك منها، فلم يكن لهم ناصر «أفمن كان على بيّنة من ربّه» يعني أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ «كمن زيّن له سوء عمله» يعني الّذين غصبوه «و اتّبعوا أهوآءهم».

و في المجمع: و قال أبو جعفر﴿عليه السلام﴾: «كرهوا ما أنزل اللّٰه» في حقّ علي﴿عليه السلام﴾.

و فيه: في قوله تعالى: «كمن زيّن له سوء عمله» و هم المشركون و قيل: هم المنافقون و هو المرويّ عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾.

و فيه: في قوله تعالى: «قالوا للّذين اوتوا العلم» يعني الّذين أتاهم اللّٰه العلم و الفهم

من المؤمنين، عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّا كنّا عند رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا و من يعيه، فإذا خرجنا قالوا: «ماذا قال آنفاً».

و في كنزالفوائد: عن ابن نباتة عن عليّ﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: كنّا نكون عند رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا دونهم، و اللّٰه و مايعونه هم، و إذا خرجوا قالوا: ماذا قال آنفاً».

و فيه: و قال جابر: سئلت أبا جعفر﴿عليه السلام﴾ عن قول اللّٰه عزّوجلّ: «أفلم يسيروا في الأرض» فقرأ أبوجعفر: «الّذين كفروا» حتّى بلغ إلى «أفلم يسيروا في الأرض» ثمّ قال: هل لك في رجل يسير بك فيبلغ بك من المطلع إلى المغرب في يوم واحد؟ قال: فقلت: يا بن رسول اللّٰه جعلني اللّٰه فداك و من لي بهذا؟ فقال: ذاك أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ ألم تسمع قول رسول اللّٰه: «لتبلغنّ الأسباب، و اللّٰه لتركبنّ السّحاب، و اللّٰه لتؤ تنّ عصا موسى، و اللّٰه لتعطنّ خاتم سليمان، ثمّ قال: هذا قول رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و اللّٰه».

و قوله﴿عليه السلام﴾: «ألم تسمع قول رسول اللّٰه» أى لعليّ: «لتبلغنّ...» فالخطابات لعليّ﴿عليه السلام﴾.

١٥- (مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعاءهم)

في تفسير فرات بن إبراهيم الكوفى رضوان اللّٰه تعالى عليه بإسناده عن المفضّل بن عمر قال: سئل السُّدّي جعفر بن محمّد عليهما السّلام عن قول اللّٰه تعالى عليه: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون» قال﴿عليه السلام﴾: هي في عليّ و أولاده و شيعتهم هم المتّقون و هم أهل الجنّة و المغفرة».

و في تفسير القمي: قال عليّ بن إبراهيم رحمة اللّٰه تعالى عليه: ثمّ ضرب لأوليآئه و أعدآئه مثلاً فقال لأوليآئه: «مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من مآء غير آسن –

إلى قوله - من خمر لذّة للشّاربين» و معنى الخمر أى خمرة إذا تناولها ولي اللّه وجد رآئحة المسك فيها «و أنهار من عسل مصفّى و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم» ثمّ ضرب لأعدآئه مثلاً، فقال: «كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم» فقال لنبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «أفمن هو في هذه الجنّة الموصوفة كمن هو في هذه النّار؟ كما أن ليس عدوّ اللّٰه كوليّه.

و فيه: أبي، عن بعض أصحابه رفعه قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لمّا دخلت الجنّة رأيت فيها شجرة طوبى، أصلها في دار عليّ، و ما في الجنّة قصر و لا منزل إلاّ و فيها فتر (فترخ) (قنوخ) منها، و أعلاها أسفاط حلل من سندس و استبرق يكون للعبد المؤمن ألف ألف سفط، في كلّ سفط مأة ألف حلّة، ما فيها حلّة يشبه الأُخرى على ألوان مختلفة و هو ثياب أهل الجنّة، وسطها ظلّ ممدود، عرض الجنّة كعرض السّمآء و الأرض أُعدّت للّذين آمنوا باللّٰه و رسله، يسير الرّاكب في ذلك الظّلّ مسيرة مأة عام، فلا يقطعه، و ذلك قوله: «و ظلّ ممدود» و أسفلها ثمار أهل الجنّة، و طعامهم متذلّل (متدلّل خ) في بيوتهم، يكون في القضيب منها مأة لون من الفاكهة ممّا رأيتم في دار (ثمار خ) الدّنيا، و ما لم تروه و ما سمعتم به و ما لم تسمعوا مثلها، و كلّما يجتنى منها شيء نبتت مكانها اخرى «لا مقطوعة و لا ممنوعة».

و تجري نهر في أصل تلك الشّجرة تنفجر منها الأنهار الأربعة: «أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّة للشّاربين و أنهار من عسل مصفّى» الخبر.

قوله﴿عليه السلام﴾: «أسفاط»: جمع سفط و هو وعاء كالقفة أو الجواليق، فيه الطّيب و نحوه من أدوات زينة النّسآء...

و في التّهذيب: بإسناده عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر قال: كنّا عند الرّضا﴿عليه السلام﴾ والمجلس غاصّ بأهله، فتذاكروا يوم الغدير فأنكره بعض النّاس، فقال الرّضا﴿عليه السلام﴾: حدّثني أبي عن أبيه قال: إنّ يوم الغدير في السّمآء أشهر منه في الأرض، إنّ للّه في الفردوس الأعلى قصراً لبنة من فضّة، و لبنة من ذهب، فيه مأة ألف قبّة من ياقوتة

حمراء، و مأة ألف خيمة من ياقوت أخضر، ترابه المسك و العنبر، فيه أربعة أنهار: نهر من خمر، و نهر من ماء، و نهر من لبن، و نهر من عسل، حواليه أشجار جميع الفواكه، عليه طيور أبدانها من لؤلؤ، و أجنحتها من ياقوت، و تصوّت بألوان الأصوات.

فإذا كان يوم الغدير ورد إلى ذلك القصر أهل السّموات، يسبّحون اللّٰه و يقدّسونه و يهلّلونه، تتطاير تلك الطّيور فتقع في ذلك الماء، و تتمرّغ على ذلك المسك و العنبر، فإذا اجتمعت الملائكة طارت فتنفض ذلك عليهم، و إنّهم في ذلك اليوم ليتهادون نثار فاطمة﴿عليها السلام﴾ فإذا كان آخر ذلك اليوم نودوا: انصرفوا إلى مراتبكم، فقد أمنتم الخطأ والزّلل إلى قابل في مثل هذا اليوم تكرمةً لمحمّد و عليّ عليهم السّلام...» الخبر.

و في **الاختصاص**: عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ - حديث طويل- : «و ما من أحد يدخل الجنّة إلاّ كان له من الأزواج خمسمأة حورآء، مع كلّ حوراء سبعون غلاماً و سبعون جارية كأنّهنّ (كأنّهم ظ) اللؤلؤ المنثور، كأنّهنّ اللـؤلؤ المكنون - و تفسير المكنون بمنزلة اللؤلؤ في الصّدف لم تمسّه الأيدي و لم تره الأعين، و أمّا المنثور فيعني في الكثرة - و له سبع قصور في كلّ قصر سبعون بيتاً، في كلّ بيت سبعون سريراً، على كلّ سرير سبعون فراشاً، عليها زوجة من الحور العين «تجرى من تحتهم الأنهار» أنهار من مآء غير آسن، صاف ليس بالكدر «و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» لم يخرج من ضُرر المواشي «و أنهار من عسل مصفّى» لم يخرج من بطون النّحل «و أنهار من خمر لذّة للشّاربين» لم يعصره الرّجال بأقدامهم، فإذا اشتهوا الطّعام جآءهم طيور بيض يرفعن أجنحتهنّ، فيأكلون من أيّ الألوان اشتهوا جلوساً إن شآؤا أو متّكئين، و إن اشتهوا الفاكهة تسعّبت (تشعّبت خ) إليهم الأغصان فأكلوا من أيّها اشتهوا...» الحديث. و قوله﴿صلى الله عليه وآله﴾: «تسعّبت» أى تمدّدت.

وفي **نهج البلاغة**: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - في صفة الجنّة -: «فلو رَمَيْتَ ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لَعَزَفَتْ نفسُك عن بدآئع ما أُخرج إلى الدّنيا من شهواتها و لذّاتها و زخارف مناظرها، و لَذَهَلَتْ بالفكر في اصطفاق أشجار غُيّبَتْ عُرُوقُها في كُثبان المِسْك على سواحل أنهارها،

و في تعليق كبآئس اللؤلؤ الرّطَب في عساليجها و أفنانها، و طلوع تلك الثّمار مُخْتَلِفَةً في غُلُف أكمامها، تُجنىٰ من غير تكلّف، فتأتي على منية مُجتنيها، و يطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفّقة و الخمور المروّقة، قوم لم تزل الكرامة تتمادىٰ بهم حتّى حلّوا دار القرار، و أمنوا نُقْلَةَ الأسفار، فلو شَغَلْتَ قلبك أيّها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزَهَقَتْ نفسك شوقاً إليها، و لَتَحَمَّلْتَ من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا اللّٰه و إيّاكم ممّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته» الخطبة: ١۶۴).

قوله﴿؏﴾: «رميت ببصر قلبك» أى فكّرتَ و تأمّلتَ، و «لعزفَتْ» أى كرهت و زهدت، و «اصطفاف أشجار»: انتظامها صفّاً، و في نسخة «اصطفاق أشجار (أغْصٰان خ): أى اضطرابها و «فتأتي على منية مجتنيها» أى لا تترك له مُنْية أصلاً لأنّه يكون قد بلغ نهاية الأماني... و العسل المصفّق: المصفّى تحويلاً من إنآء إلى إنآءٍ. و «المونقة»: المعجبة، و «زهقت نفسه»: مات.

و في رواية: قال رسول اللّٰه﴿ص﴾: في الجنّة بحر اللبن و بحر الماء و بحر العسل و بحر الخمر، ثمّ تشقّق الأنهار منها بعد».

و في **البرهان**: بالإسناد عن عليّ﴿؏﴾ قال: «الماء سيّد شراب الدّنيا و الآخرة، أربعة أنهار في الدّنيا من الجنّة: الفرات و النّيل و سيحون و جيحون، الفرات الماء، و النّيل العسل، و سيحون الخمر، و جيحون اللّبن».

و فيه: بالإسناد عن عليّ﴿؏﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿ص﴾: أربعة أنهار من الجنّة: الفرات و النّيل و سيحان و جيحان، فالفرات الماء في الدّنيا و الآخرة، و النّيل العسل، و سيحان الخمر، و جيحان اللّبن».

و في **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي: و قال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنّة، و نهر الفرات نهر لبنهم، و نهر مصر نهر خمرهم، و نهر سيحان نهر عسلهم، و هذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر».

و في **الكافي**: بإسناده عن الإمام الباقر﴿؏﴾ عن رسول اللّٰه﴿ص﴾ - في حديث - قال: «و ليس من مؤمن في الجنّة إلاّ و له جنان كثيرة معروشات و غير معروشات، و

أنهار من خمر، و أنهار من مآء، و أنهار من لبن، و أنهار من عسل».

و في **بصائر الدّرجات** بالإسناد عن عبد اللّٰه بن سنان قال: سئلت أبا عبد اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ عن الحوض، فقال: حوض ما بين بصرى إلى صنعا تحبّ أن تراه؟ قلت له: نعم جعلت فداك، فأخذ بيدى و أخرجني إلى ظهر المدينة، ثمّ ضرب برجله فنظرت إلى نهر يجري لا تدرك حافتاه إلاّ الموضع الّذي أنا فيه قآئم، و أنّه شبيه بالجزيرة، فكنت أنا و هو وقوفاً فنظرت إلى نهر جانباه ماء أبيض من الثّلج، و من جانبيه لبن أبيض من الثّلج، و في وسطه خمر أحسن من الياقوت، فما رأيت شيئاً أحسن من تلك الخمر بين اللبن و الماء، فقلت: جعلت فداك و من أين يخرج هذا و مجراه؟ قال: هذه العيون الّتي ذكرها في الجنّة عين من ماء و عين من لبن و عين من خمر تجري في هذا النّهر، و رأيت حافتيه عليها شجرة فيهنّ جوار معلقات برؤسهنّ، ما رأيت شيئاً أحسن منهنّ، و بأيديهنّ آنية ما رأيت أحسن منها، ليست من آنية الدّنيا، فدنا من إحداهنّ فأومى بيده لنفسه، فنظرت إليها، و قد مالت لتغرف من النّهر، فمال الشّجر معها فاغترفت، ثمّ ناولته ثمّ شربت، ثمّ ناولها، فأومى إليها، فمالت فاغترفت و مالت الشّجرة معها، ثمّ ناولته فناولني، فشربت فما رأيت شراباً كان ألين عنه، و لا ألذّ منه، و كانت رائحته رائحة المسك.

فنظرت في الطّاس، فإذاً فيه ثلاثة ألوان من الشّراب، فقلت له: جعلت فداك ما رأيت كاليوم قطّ و لا كنت أرى أنّ الأمر هكذا، فقال لي: هذا أقلّ ما أعدّه اللّٰه لشيعتنا أنّ المؤمن إذا توفّى طارت روحه إلى هذا النّهر، فرعت في رياضه، و شربت من شرابه، و أنّ عدوّنا إذا توفّى صارت روحه إلى برهوت، فأخذت في عذابه، و اطعمت من زقّومه، و اسقيت من حميمه، فاستعيذوا باللّٰه من ذلك النّار».

و في **الصّحيفة السّجّاديّة** - الدّعاء السّابع و العشرون لأهل الثّغور - «...اللّٰهمّ صلّ على محمّد و آله، و أنْسِهِمْ عند لقآئهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة الغرور، و امْحُ عن قلوبهم خطرات المال الفتون، و اجعل الجنّة نصبَ أعينهم، و لَوِّحْ منها لأبصارهم ما أعدَدْتَ فيها من مساكن الخلد و منازل الكرامة و الحور الحسان، و الأنهار المطّردة

بأنواع الأشربة، و الأشجار المتدلّية بصنوف الثّمر، حتّى لا يَهُمَّ أحد منهم بالإدبار، و لا يُحَدِّثَ نَفْسَهُ عِن قِرْنِهِ بِفِرار...» الدّعآء.

قوله: «أنْسِهِمْ» أى اغفل قلوب أهل الثّغور عن ذكر دنياهم، حتّى ينمحي تصوّرها عن أذهانهم فلا يرغبوا عن صدق القتال عند لقاء العدوّ، ميلاً إلى زخارف الدّنيا المحبوبة للنّفوس الأمّارة. و خدعه خدعاً: أراد به المكروه من حيث لا يعلم، و كلّ فعل يقصد به فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره فهو خديعة. و غرّه غروراً: أطمعه بالباطل.

و صف الإمام﴿عليه السلام﴾ الدّنيا بالخدّاعة - مبالغة في الخديعة - لأنّها تخدع أكثر النّاس حتّى كثيراً من الخواصّ في كلّ ظرف من الظّروف ببهجة منظرها و رونق سرابها و شهوتها و اشتهارها... إلى أن يستأنس بها من كان بعقله نافراً عنها، و يطمئنّ إليها من كان بمقتضى فكرته منكراً لها، حتّى إذا ما انهمك في لذّاتها و انغمس في متاعها و شهواتها و رئاستها... فعلت به فعل العدوّ الخدوع...

و كذلك وصفها بالغرور لأنّها تغرّ النّاس حتّى كثيراً من الخواصّ... باشتهارها و شهواتها و زخارفها الباطلة، فيتوهّمون بقآءها، ثمّ تنتقل عنهم و تتحوّل... و صدق عليها هذان الوصفان لكونها سبباً لغفلة النّاس عمّا خلقوا لأجله بالاشتغال بها، والإنهماك في مشتهياتها و لذّاتها الفانية و ذلك جانب للإنسان عن قصد الحقّ و الهدى، و صادّ له عن سلوك سبيل السّعادة و الفلاح، و عن التّرقّي في الملكوت الأعلى إلى حضيض الدّرك الأسفل، و بذلك يكون الهلاك الهلاك الأبدي و الشّقاء الدّآئمي...

و قوله﴿عليه السلام﴾: «امح» من محى الشّيء: أزال، و «خطرات المال»: ما يخطر في القلب من تحصيله أو تدبيره و «الفتون» مبالغة أى الكثير الفتنة، حيث إنّ المال من أعظم أسباب ضلال الخلق عن الحقّ بمحبّته، و «اجعل الجنّة نصب أعينهم»: منصوبة حذآء أعينهم ليشاهدوها عياناً، و «لَوِّحْ»: أظهر لأبصارهم من الجنّة ما هيّأته لهم فيها... و «الخلد»: الثّبات الدّائم و البقاء اللاّزم الّذي لا ينقطع قطّ، لأنّ مساكن الجنّة لا يعتريها و لا يعترى سكّانها فناء و لا تغيّر.

قال اللّه تعالى: «قل أذلك خير أم جنّة الخلد الّتي وعد المتّقون كانت لهم جزاء و مصيراً لهم فيها ما يشآؤن خالدين كان على ربّك وعداً مسئولاً» الفرقان: ١٥ - ١٦).

و لمّا كان معظم اللذّات الحسّيّة مقصوراً على المساكن و الملابس و المطاعم و المشارب و المناكح حسبما يقتضي به الاستقراء، و كان ملاك جميع ذلك، الدّوام و الثّبات و البقاء، إذ كلّ نعمة و إن جلّت إذا قارفها خوف الزّوال كانت منغّصةً غير صافية من شوآئب الألم بشّر جلّ وعلا و وعد عباده المتّقين بها و أزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدلّ على كمالهم في التّنعّم و السّرور.

و قوله﴿عليه السلام﴾: «و منازل الكرامة»: منازل العزّ و الشّرف و الرّضا... و لا يبعد أن تعود الكرامة إلى الكمالات النّفسانيّة الباقيّة و الالتذاذ بها. و «الحور» جمع حوراء و هى المرأة البيضآء، و هنّ غير نسآء الدّنيا، و «الحسان» جمع حسنة: جميلة الصّورة بهيّة المنظرة، حسنة، خُلقها و خَلْقها...

و قوله﴿عليه السلام﴾: «الأنهار»: جمع النّهر: الماء الجارى المتّسع، و «المطّردة»: الجارية غير منقطعة، و «بأنواع الأشربة»: أصنافها... كما قال تعالى: «مثل الجنّة الّتي وُعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن...» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ۱۵)

و قوله﴿عليه السلام﴾: «و الأشجار المتدلّية» أى المسترسلة أغصانها بأنواع الثّمر، و وصف الأشجار بالتّدلّي باعتبار أغصانها و فروعها الّتي هى مناط الثّمر، و فيه إشعار بكثرة الثّمر لأنّ فروع الشّجر لا تتدلّى و لا تسترسل إلاّ إذا كثر ثمرها... و في «بصنوف الثّمر» إشارة إلى قوله عزّوجلّ: «و لهم فيها من كلّ الثّمرات».

و في **البحار**: و روى أبو أمامة عن النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ في قوله: «و يسقى من ماء صديد» قال: يقرب إليه فيكرهه، فإذا أُدني منه شوى وجهه و وقع فروة رأسه، فإذا شرب قطّع أمعآءه حتّى يخرج من دبره، يقول اللّه عزّوجلّ: «و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم».

قوله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «فروة رأسه» الفروة: جلدة الرّأس بشعرها.

و في **تفسير القميّ**: في قوله تعالى: «يتجرّعه و لا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كلّ مكان و ما هو بميّت» قال: يقرب إليه فيكرهه، و إذا أُدني منه شوى وجهه و وقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطّعت أمعآؤه و مزّقت تحت قدميه، و إنّه ليخرج من أحدهم مثل الوادي صديداً وقيحاً ثمّ قا ل: و إنّهم ليبكون حتّى تسيل دموعهم على وجوههم

(في وجوههم خ) جداول، ثمّ ينقطع الدّموع فيسيل الدّمآء حتّى لو أنّ السّفن اُجريت فيها لجرت، و هو قوله: «و سقوا ماءً حميماً فقطّع أمعآءهم» أى يذاب بذلك الماء الحميم ما في بطونهم من الأمعآء و الأحشآء... حتّى تخرج من دبرهم...

و في **الصّحيفة السّجّاديّة**: -الرّوضة الثّانية و الثّلاثون - قال سيّد السّاجدين زين العابدين علي بن الحسين عليهما السّلام: «و أعوذ بك من عقاربها الفاغرة أفواهُها، و حيّاتِها الصّالقة بأنيابها، و شرابِها الّذي يُقطّع أمعآءَ و أفئدةَ سُكّانِها، و يَنْزِعُ قُلُوبَهم...»».

و قوله﴿عليه السلام﴾: «الفاغرة»: الفاتحة، و «الصّالقة»: الضّاربة، و «أمعاءَ و أفئدة سكّانها» من باب إضافة المفردين إلى إسم ظاهر بجعل الأول مضافاً في النّيّة دون اللفظ، و الثّاني في اللفظ و النّيّة معاً، نحو: غلام و ثوب زيد، و هو كثير في كلامهم، نثراً و نظماً.

و في **البحار**: بالإسناد عن جابر الجعفي قال: سمعت أبا عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ يقول: «إنّ رسول اللّٰه كان يدعو أصحابه، من أراد اللّٰه به خيراً سمع و عرف ما يدعوه إليه، و من أراد اللّٰه به شرّاً طبع على قلبه، فلا يسمع و لا يعقل، وذلك قول اللّٰه عزّوجلّ: «و إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم»».

في **نهج البلاغة**: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فو الّذي فلق الحبّة و برأ النّسمة ما أسلموا و لكن استسلموا، و أسرّوا الكفر فلمّا وجدوا أعواناً عليه أظهروه».

و في **تفسير القمي**: بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: سمعته يقول: إنّ رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ كان يدعو أصحابه فمن أراد اللّٰه به خيراً سمع و عرف ما يدعوه إليه، و من أراد اللّٰه به شرّاً طبع على قلبه لا يسمع و لا يعقل و هو قول اللّٰه تعالى: «حتّى إذا خرجوا من عندك - إلى قوله - ماذا قال آنفاً». قال عليّ بن إبراهيم: ثمّ ذكر المهتدين، فقال: «و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم» و هو ردّ على من زعم أنّ الايمان لا يزيد و لا ينقص.

و في **مستدرك الوسائل**: -أبواب جهاد النفس - باب الفروض على الجوارح - حديث ٤) بالإسناد عن جعفر بن محمّد الصّادق﴿عليه السلام﴾ - حديث طويل - عن أمير

المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ قال: - «و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم» و لو كان الايمان كلّه واحداً لا زيادة فيه و لا نقصان، لم يكن لأحد فضل على أحد، و لتساوى النّاس في تمام الايمان، و بكماله دخل المؤمنون الجنّة و نالوا الدّرجات فيها، و بذها به و نقصانه دخل آخرون النّار» الحديث.

و في تفسير فرات الكوفي: بإسناده عن خَيْثَمَة قال: دخلت على أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ فقال لي: يا خيثمة إنّ شيعتنا أهل البيت يقذف في قلوبهم الحبّ لنا أهل البيت، و يلهمون حبّنا أهل البيت، و إنّ الرّجل يحبّنا و يحتمل ما يأتيه من فضلنا و لم يرنا، و لم يسمع كلامنا لما يريد اللّٰه به من الخير و هو قول اللّٰه تعالى: «و الّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم» يعني من لقينا و سمع كلامنا زاده اللّٰه هدى على هداية».

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لأبي ذرّ الغفارى رضوان اللّٰه تعالى عليه لمّا أُخرِجَ إلى الرّبذة بأمر عثمان بن عفان: «و لو أنّ السّموات و الأرضين كانتا على عبد رتقاً ثمّ اتّقى اللّٰه لجعل اللّٰه له منها مخرجاً لايونسنّك إلاّ الحقّ و لايوحشنّك إلاّ الباطل...».

و فيه: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «ثمّ إنّ اللّٰه سبحانه بعث محمّداً﴿ﷺ﴾ بالحقّ حين دنا من الدّنيا الانقطاع، و أقبل من الآخرة الإطّلاع، و أظلمت بهجتها بعد إشراق، و قامت بأهلها على ساق، و خَشُنَ منها مهاد، و أزِفَ منها قياد، في انقطاع من مدّتها، و اقتراب من أشراطها، و تصرّم من أهلها، و انفصام من حلقتها، و انتشار من سببها، و عفآء من أعلامها، وتكشّف من عوراتها و قِصَرٍ من طولها...» الخطبة: ١٨٩).

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «فاللّٰه اللّٰه عباد اللّٰه! فإنّ الدّنيا ماضية بكم على سنن و أنتم والسّاعة في قرن، و كأنّها قد جآءت بأشراطها، و أزِفَتْ بأفراطها، و وقفت بكم على صراطها...» الخطبة: ٢٣٢).

أقول: و المستفاد من الرّوايات أنّ بعثة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من أشراط السّاعة و معالمها... كما قال﴿ﷺ﴾: «بعثت أنا و السّاعة هكذا (كهاتين خ) - و يشير بأصبعيه

فيمدهما - و في رواية: أنّه(ﷺ) ضمّ السّبابة و الوسطى» بقصد بيان تقارب بعثته و قيام السّاعة.

و في رواية: قال رسول اللّه(ﷺ): «بعثت أنا والسّاعة كهاتين و أشار بالسبّابة و الوسطى».

و في رواية: في قوله تعالى: «فأنّى لهم إذا جآئتهم ذكراهم» هو دعائهم بأسمآئهم تبشيراً و تخويفاً.

قال رسول اللّه(ﷺ): «أحسنوا أسمآءكم فإنّكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك».

١٩- (فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّه يعلم متقلّبكم و مثواكم)

في محاسن البرقي: النّوفليّ عن السّكوني عن أبي عبد اللّه عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول اللّه(ﷺ): «أفضل العبادة قول: لا إله إلاّ اللّه و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه، و خير الدّعاء الاستغفار، ثمّ تلا النّبي(ﷺ): «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك».

و في دعوات الرّاوندي: عن النّبي(ﷺ) أنّه قال: «ما من الذّكر شيء أفضل من قول: «لا إله إلاّ اللّه» و ما من الدّعآء شيء أفضل من الاستغفار، ثمّ تلا: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك».

و فيه: و قال أبو عبد اللّه(ع): «سيّد كلام الأوّلين و الآخرين: «لا إله إلاّ اللّه».

و في جامع الأخبار: و قال النّبي(ﷺ): «أفضل العلم لا إله إلاّ الله، و أفضل الدّعاء الاستغفار، ثمّ تلا رسول اللّه(ﷺ): «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك».

و في البلد الأمين: يستحبّ أن يقول في قنوت الوتر ما كان أمير المؤمنين(ع) يقول في الإستغفار: «...و قلت تباركت و تعاليت: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات و اللّه يعلم متقلّبكم و مثواكم» و أنا أستغفرك و أتوب إليك».

و في اصول الكافي: -كتاب الدّعاء - باب الاستغفار - حديث ٦) بإسناده عن حسين ابن زيد عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: الاستغفار و قول: لا إله إلاّ اللّٰه خير العبادة قال اللّٰه العزيز الجبّار: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰـه و استغفر لذنبك».

و لا يخفى أنّ استشهاد الإمام﴿عليه السلام﴾ بالآية الكريمة إمّا لكون كثرة الذّكر سبباً لزيادة العلم و اليقين و إمّا لأنّ المراد بالآية القول مع العلم أو القول فقط، لظهور حصول العلم في المخاطب، أو المراد الاستدامة على هذه العقيدة و أعظم أسبابها تكرار الذّكر، و الأفضليّة إمّا لاختيارهما لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ أو للتّفريع على ما سبق في الآيات من ذكر القيامة، فعلم أنّ أنّهما أنفع الأشيآء لها، و إمّا لمّا كان هي أهمّ العقآئد، فما يدلّ عليه أفضل الأذكار.

و في عدّة الدّاعي: و قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: من عمل من المسلمين عن ميّت عمل خير، أضعف اللّٰه له أجره و نفع اللّٰه به الميّت».

ثمّ قال الحلّي رضوان تعالى عليه: «و من ذلك ما أمر به نبيّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ في قوله: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» فانظر كيف قرن الأمر بالاستغفار مع شهادة التّوحيد الّتي هي أُسّ الإسلام، و عليها مدار الأحكام، و هل هذا إلاّ غاية العناية و أتمّ الرّحمة و أكمل الفضل؟

و في شرح ابن أبي‌الحديد: في الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ رقم ٩٣٥): «كلّ النّاس أمروا بأن يقولوا: لا إله إلاّ اللّٰه، إلاّ رسول اللّٰه، فإنّه رُفِعَ قَدْرُهُ عن ذلك، و قيل له: فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه، فأُمِرَ بالعلم لا بالقول».

و في العلل: بإسناده عن ابن شرمة عن جعفر بن محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أوّلها شرك و آخرها ايمان؟ قال: لا أدري، قال: هي «لا إله إلاّ اللّٰه» أوّلها كفر و آخرها ايمان» الحديث طويل.

و في نهج البلاغة - في وصيّة الإمام أمير المؤمنين عليّ لابنه الحسن عليهماالسّلام- «فأصلح مثواك و لاتبع آخرتك بدنياك - إنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك».

و في رواية: قال رسول اللّٰه(ﷺ): «عليكم بلا إله إلاّ اللّٰه والاستغفار، فأكثروا منهما، فإنّ إبليس قال: إنّما أهلكتُ النّاس بالذّنوب، و أهلكوني بلا إله إلاّ اللّٰه و الاستغفار، فلمّا رأيت ذلك أهلكتهم بالأهوآء فهم يحسبون أنّهم مهتدون».

و في رواية: «قال إبليس: و عزّتك و جلالك لا أزال أُغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال اللّٰه عزّوجلّ: «و عزّتي و جلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

و في رواية: عن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفر(ع) يقول: «ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلاّ اللّٰه إنّ اللّٰه عزّوجلّ لا يعدله شيء و لا يشركه في الأُمور».

و في اصول الكافي: بإسناده عن عبيد اللّٰه بن الوليد الوصافي رفعه، قال: قال رسول اللّٰه(ﷺ): من قال: لا إله إلاّ اللّٰه غرست له شجرة في الجنّة من ياقوتة حمرآء منبتها في مسك أبيض أحلى من العسل، و أشدّ بياضاً من الثّلج و أطيب ريحاً من المسك، فيها أمثال ثدي الإبكار تفلق عن سبعين حلّة، و قال رسول اللّٰه(ﷺ): خير العبادة قول لا إله إلاّ اللّٰه، و قال: خير العبادة الاستغفار و ذلك قول اللّٰه عزّوجلّ في كتابه: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه و استغفر لذنبك».

و في المجمع: و قد صحّ الحديث بالاسناد عن حذيفة بن اليمان قال: كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي، فقلت: يارسول اللّٰه إنّي لأخشى أن يدخلني لساني النّار، فقال رسول اللّٰه(ﷺ): فأين أنت من الاستغفار، إنّي لأستغفر الله في اليوم مأة مرّة».

و في عيون الأخبار: بإسناده عن إسحق بن راهويه قال: لمّا وافى أبو الحسن الرّضا(ع) نيشابور و أراد أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا: يابن رسول اللّٰه ترحل عنّا و لاتحدثنا بحديث، فنستفيده منك و كان قعد في العمارية، فاطّلع رأسه و قال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد، يقول: سمعت أبي محمّد بن عليّ، يقول: سمعت أبي عليّ بن الحسين، يقول: سمعت أبي الحسين بن عليّ يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب(ع) يقول: سمعت رسول اللّٰه(ﷺ) يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت اللّٰه يقول: لا إله إلاّ اللّٰه حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي، فلمّا مرّت الرّاحلة نادى: بشروطها و أنا من شروطها».

و فيه: باسناده عن علي بن بلال عن علي بن موسى الرّضا عن موسى بن جعفر عن جعفر بن محمّد، عن محمّد بن عليّ عن عليّ بن الحسين، عن حسين بن عليّ ابن أبيطالب عليهم‌السلام عن النّبي﴿ﷺ﴾ عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللّوح عن القلم، قال: يقول اللّٰه عزّوجلّ: «ولاية عليّ بن أبيطالب حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

و في الخصال: قال أمير المؤمنين عليّ﴿عليه‌السلام﴾ لبعض اليهود، و قد سئله عن مسائل: «أمّا أقفال السّموات فالشّرك باللّٰه، و مفاتيحها قول: لا إله إلاّ اللّٰه».

و في التّوحيد: بإسناده عن محمّد بن حمران عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه‌السلام﴾ قال: «من قال: لا إله إلاّ اللّٰه مخلصاً دخل الجنّة، و إخلاصه أن يحجزه لا إله إلاّ اللّٰه عمّا حرّم اللّٰه عزّوجلّ».

أقول: إنّ كلمة «لا إله إلاّ اللّٰه» هي الكلم الطّيّب، يصعد إلى اللّٰه تعالى ،و لا يرفعه إلاّ العمل الصّالح. فمن قال: لا إله إلاّ اللّٰه و لايعمل صالحاً و لايحترز عما حرّمه اللّٰه تعالى عليه، فلا ينفع بحاله، و إلاّ كان ابن ملجم و يزيد و شمر و مَن إليهم من البغاة و الفجّار الّذين يقولون: لا إله إلاّ اللّٰه و لا يعملون صالحاً و لايجتنبون الكبآئر، و من يقول: لا إله إلاّ اللّٰه و يعمل عملاً صالحاً و يحترز عما حرّمه اللّٰه تعالى عليه على حدّ سوآء؟!.

و في رواية: قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «ما أصبحت غداة قطّ إلاّ استغفرت اللّٰه فيها مأة مرّة».

و في الكافي: بإسناده عن ابن بكير عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه‌السلام﴾ قال: قال: إنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ كان يتوب إلى اللّٰه في كلّ يوم سبعين مرّة بغير ذنب».

و فيه: بإسناده عن عليّ بن رئاب عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه‌السلام﴾ قال: قال: رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ كان يتوب إلى اللّٰه و يستغفر في كلّ يوم و ليلة مأة مرّة من غير ذنب».

و فيه: بإسناده عن ياسر، عن الرّضا﴿عليه‌السلام﴾ قال: مثل الاستغفار مثل ورق على شجر تحرّك فيتناثر، و المستغفر من ذنب و يفعله كالمستهزىء بربّه».

و في الدّرّالمنثور: قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «إنّه ليغان على قلبي و إنّي لأستغفر اللّٰه كلّ يوم مأة مرّة»

أقول: و ذلك أنّ في مواجهة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ بهؤلآء الكافرين و المنافقين الكارهين لما أنزل اللّٰه تعالى عليه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و صحبته لهم عبر الدّعوة تبعات بطبيعة الحال تعاكس على قلبه المنير﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ فيغان على قلبه، فليستغفر ربّه ليزيل عنه و صمات هذه التّبعات، مهما كانت عبر الدّعوة في واجب الرّسالة. فالاشتغال بخلق اللّٰه تعالى و لاسيّما مَن يشاقّ الرّسول﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ من بعد ما تبيّن لهم الهدى، إنّه انشغال عن الخلوة باللّٰه سبحانه، و إن كان ذلك بأمر من اللّٰه تعالى، فليستغفر اللّٰه عزّوجلّ عن هذا الذّنب الطّاعة ثانية كما يستغفر عن ذنب الرّسالة و الدّعوة.

فلا يغين على قلبه المعصوم﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ ما يرين عليه من سهو أو خطا أو معصية، بل هو ممّا يضيق على صدره من خلطه الرّسالي بما يراه من هؤلآء الكافرين و المنافقين: «و لقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربّك و كن من السّاجدين» الحجر: ٩٧ - ٩٨) و ليستغفر اللّٰه تعالى أن يزيل عن قلبه المنير أثر الإغانة فيخلو بربّه و يجلو بذكره كما كان.

فالاستغفار إمّا لرفع آثار الذّنب بعد حصوله، و إمّا لدفعها كيلا يحصل، أو لذنب طاعة تستتبع دوآئر السّوء من الكفّار و المنافقين و الفجّار و المعاندين، أو للإغانة على القلوب من مواجهة هؤلآء البغآء، و قد كان استغفار رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ لذنبه للثلاثة الأخيرة لا الأُولى و للمؤمنين و المؤمنات لجميعها.

مضافاً إلى أنّ الاستغفار في نفسه ذكر له فضل كبير، و له آثار في جميع شئون حياة الإنسان مادّياً و معنويّاً، دنيويّاً و اخروياً... فليس من لوازم الاستغفار الذّنب.

و قد اشير بعد زيارة الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحيّة و الثّنآء إلى ثلاثة عشر قسماً من الاستغفار، فراجع و تدبّر و اغتنم جدّاً و لا تغفل.

و في **كنز الفوائد**: بالإسناد عن محمّد ابن الفضيل عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: سئلته عن قول اللّٰه عزّوجلّ: «ذلك بأنّهم كر هوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم» و قوله: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّٰه يعلم إسرارهم»؟

قال﴿عليه السلام﴾ إنّ رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ لمّا أخذ الميثاق لأمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ قال: أتدرون من وليّكم بعدي؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، فقال: إنّ اللّه يقول: «إن تظاهرا عليه فإنّ اللّه هو مولاه و جبريل و صالح المؤمنين» التحريم: ۴) يعني عليّاً هو وليّكم من بعدي، هذه الاولى.

و أمّا المرّة الثّانية فلمّا أشهدهم يوم غدير خم و قد كانوا يقولون: لئن قبض اللّه محمّداً لانرجع هذا الأمر في آل محمّد و لا نطيعهم من الخمس شيئاً، فاطّلع الله نبّيه على ذلك، و أنزل عليه: «أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون» الزّخرف: ۸۰) و قال أيضاً فيهم: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم اولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم و أعمى أبصارهم أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها إنّ الّذين إرتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى» و الهدى سبيل أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم».

قال: و قرأ أبو عبد اللّه﴿عليه السلام﴾ هذه الاية هكذا: «فهل عسيتم إن تولّيتم» و سلّطتم و ملكتم «أن تفسدوا في الارض و تقطّعوا أرحامكم» نزلت في بنى عمّنا بنى اميّة، و فيهم يقول اللّه: «اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم أفلا يتدبّرون القرآن» فيقضوا ما عليهم من الحقّ «أم على قلوب أقفالها».

و فيه: باسناده عن محمّد بن علىّ الحلبي، عن أبي عبد اللّه﴿عليه السلام﴾ في قوله تعالى: «من بعد ما تبيّن لهم الهدى» قال: هو سبيل علىّ﴿عليه السلام﴾.

و في الاختصاص للشيخ المفيد رضوان اللّه تعالى عليه عن محمّد بن مسلم عن الصّادق عن أبيه عليهما السّلام قال: قال أبي علىّ بن الحسين﴿عليهما السلام﴾: يا بنيّ اُنظر خمسة فلاتصاحبهم و لاتحادثهم و لاترافقهم في طريق، فقال (فقلت خ): يا أبه من هم؟ عرّفنيهم قال: ايّاك و مصاحبة الكذّاب، فإنّه بمنزلة السّراب يقرّب لك البعيد، و يبعّد لك القريب، و إيّاك و مصاحبة الفاسق، فأنّه بايعك باكلة أو أقلّ من ذلك، و إيّاك و مصاحبة البخيل، فإنّه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه، و إيّاك و مصاحبة الأحمق، فأنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، و إيّاك و مصاحبة القاطع لرحمه، فإنّي وجدته ملعوناً في

كتاب اللّٰه عزّوجلّ في ثلاثه مواضع: قال اللّٰه عزّوجلّ: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم اولئك الّذين لعنهم اللّٰه...» إلى آخر الاية.

و قال عزّوجلّ: «الّذين ينقضون عهد اللّٰه من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر اللّٰه به أن يوصل و يفسدون في الارض اولئك لهم اللّعنة و لهم سوء الدّار» الرّعد: ٢٤).

و قال في البقرة: «الّذين ينقضون عهد اللّٰه من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر اللّٰه به أن يوصل و يفسدون في الأرض اولئك هم الخاسرون»: ٢٦).

أقول: رواه الكليني قدّس سرّه في اصول الكافي و فيه: قال الصّادق(عليه السلام): «صديق عدوّ عليّ(عليه السلام) عدوّ عليّ(عليه السلام)».

و في رواية: قال رسول اللّٰه(صلى الله عليه و آله): «ما من ذنب أحرى أن يعجّل اللّٰه تعالى عقوبته في الدّنيا مع ما يدّخر لصاحبه في الآخرة من البغي و قطعية الرَّحِم».

و في رواية: و جآء رجل إلى رسول اللّٰه(صلى الله عليه و آله) فقال: يا رسول اللّٰه إنّ لي ذوي أرحام أصل و يقطعون، و أعفو و يظلمون، و أحسن و يسيئون أفأُكافئهم؟ قال(صلى الله عليه و آله): لا، إذن تتركون جميعاً، و لكن جُد بالفضل، و صِلْهم فإنّه لن يزال معك ظهير من اللّٰه عزّوجلّ ما كنت على ذلك».

و في الدرّ المنثور: عن سلمان رضى اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه(صلى الله عليه و آله): «إذا ظهر القول و خزن العمل، و ائتلفت الألسن و اختلفت القلوب، و قطع كلّ ذي رحم، فعند ذلك لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم».

و في نهج البلاغة - و من كتاب الإمام أميرالمؤمنين(عليه السلام) إلى أخيه عقيل، جواباً عمّا كتبه إليه عقيل - «... فدع عنك قريشاً و تَركاضهم في الضّلال و تَجوا لهم في الشّقاق و جِماحهم في التّيه، فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول اللّٰه(صلى الله عليه و آله) قبلي، فَجَزَت قريشاً عنّي الجوازى، فقد قطعوا رحمى و سلبوني سلطان ابن اُمّي...».

في شرح ابن أبي الحديد: «سلطان ابن امّي» يعني به الخلافة، و ابن اُمّه هو رسول اللّٰه(صلى الله عليه و آله) لأنّهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم، اُمّ عبداللّٰه و أبي‌طالب، و لم يقل: سلطان ابن أبي لأنّ غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النّسب إلى عبدالمطلب».

أقول: إنّ المراد بالأُمّ هنا فاطمة بنت أسد، اُمّ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ إذ كان رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ يسمّيها اُمّاً لنفسه لكونه﴿ﷺ﴾ أوان صبائه تحت كفالة أبي طالب و تربيتها.

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «اللّٰهمّ إنّي أستعديك على قريش و من أعانهم، فإنّهم قد قطعوا رحمي و أكفاؤا إنائي، و أجمعوا على منازعتي حقّاً كنت اولى به من غيري...».

و فيه: - خطبة يومئ فيها إلى الفتن و الملاحم بعد وفاة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ -: «... ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف و القاصمة الزّحوف - و تثلم منار الدّين و تنقض عهد اليقين، تهرب منها الأكياس، و تدبّرها الأرجاس، مِرعادٌ مِبْراق، كاشفة عن ساقٍ، تُقْطَعُ فيها الأرحام، و يفارق عليها الإسلام، بريّها سقيم، و ظاعنها مقيم». الخطبة: (١٥١).

و في ثواب الأعمال: بإسناده عن السّكوني عن الصّادق جعفر بن محمّد﴿عليه السلام﴾ عن أبيه عن آبآئه﴿عليهم السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: «إذا ظهر العلم و احترز العمل و ائتلفت الألسن و اختلفت القلوب و تقاطعت الأرحام هنالك لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم».

و في مهج الدّعوات: و من ذلك عوذة عليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾ الّتي تعوّذ بها لمّا اُلقي في بركة السّباع وجدت ما هذا لفظه: قال الفضل بن الرّبيع: لمّا اصطبح الرّشيد يوماً ثمّ استدعا حاجبه، فقال له: امض إلى عليّ بن موسى العلويّ و أخرجه من الحبس، و ألقه في بركة السّباع فمازلت ألطف به و أرفق، و لايزداد إلاّ غضباً، و قال: و اللّٰه لئن لم تلقه إلى السّباع لالقينّك عوضه.

قال: فمضيت إلى عليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾ فدخلت عليه، فقلت له: إنّ أمير المؤمنين أمرني بكذا و بكذا؟! قال: إفعل ما اُمِرتَ به، فإنّي مستعين باللّٰه تعالى عليه، و أقبل بهذه العوذة و هو يمشي معي إلى أن انتهيت إلى البركة، ففتحت بابها و أدخلته، و فيها أربعون سبعاً، و عندي من الغمّ و القلق أن يكون قتل مثله على يدي، و عدت إلى موضعي.

فلمّا انتصف الّليل أتاني خادم، فقال لي: إنّ أميرالمؤمنين يدعوك، فصرت إليه، فقال: لعلّي أخطات البارحة بخطيئة أو أوتيت منكراً فإنّي رأيت البارحة مناماً هالني و ذاك أني رأيت جماعة من الرّجال دخلوا عليّ، و بأيديهم سائر السّلاح، و في وسطهم رجل كأنّه القمر، و دخل الى قلبي هيبته، فقال لي قائل: هذا أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب صلوات اللّٰه عليه و على أبنآئه، فتقدّمت إليه لاقبّل قدميه و فصرفني عنه، و قال: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الارض و تقطّعوا أرحامكم»؟

ثمّ حوّل وجهه، فدخل باباً فانتبهت مذعوراً لذلك.

فقلت: يا أمير المؤمنين أمرتني أن اُلقي عليّ بن موسى للسّباع، فقال: ويلك ألقيته؟ فقلت: إي و اللّٰه، فقال: امض و انظر ما حاله؟ فأخذت الشّمع بين يدي و طالعته، فإذا هو قائم يصلّي و السّباع حوله، فعدت إليه فأخبرته، فلم يصدّقني و نهض و اطّلع إليه فشاهده في تلك الحال فقال: السّلام عليك يابن عمّ، فلم يجبه حتّى فرغ من صلاته، ثمّ قال: و عليك السّلام يابن عمّ قد كنت أرجو أن لا تسلّم عَلَيَّ في مثل هذا الموضع، فقال: أقلني فإنّي معتذر إليك، فقال له: قد نجّانا اللّٰه تعالى بلطفه فله الحمد.

ثمّ أمر بإخراجه فاخرج، فقال: فلا و اللّٰه ما تبعه سبح، فلمّا حضر بين يدى الرّشيد عانقه ثمّ حمله إلى مجلسه، و رفعه إلى فوق سريره، و قال له: يابن عمّ إن أردت المقام عندنا ففي الرّحب و السّعة، و قد أمرنا لك و لأهلك بمال و ثياب، فقال له: لا حاجة لي في المال و الثّياب، و لكن في قريش نفر يفرّق ذلك عليهم، و ذكر له قوماً، فأمر له بصلة و كسوة، ثمّ أمره أن يركب على بغال البريد الى الموضع الّذي يحبّ، فأجابه إلى ذلك و قال لي: شيّعه.

فشيّعته إلى بعض الطّريق، و قلت له: يا سيّدى إن رأيت أن تطوّل عَلَيَّ بالعوذة، فقال: منعنا أن ندفع عوذنا و تسبيحنا إلى كلّ أحد، و لكن لك عَلَيَّ حقّ الصّحبة والخدمة، فاحتفظ بها، فكتبتها في دفتر و شددتها في منديل في كمّي، فما دخلت الى أمير المؤمنين إلاّ ضحك و إلَيَّ وقضى حوائجى، و لا سافرت إلاّ كانت حرزاً و أماناً من كلّ

خوف، و لا وقعت في شدّة إلاّ دعوت بها ففرّج عنّي ثمّ ذكرها.

ثمّ قال السّيّد بن طاوس رحمة اللّٰه تعالى عليه مؤلّف كتاب (مهج الدّعوات): ربّما كان هذا الحديث عن الكاظم موسى بن جعفر صلوات اللّٰه عليه لأنّه كان محبوساً عند الرّشيد لكنّني ذكرت هذا كما وجدته.

ثمّ ذكر السّيّد، الدّعاء...

و في **المجمع**: روى عن النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾: «فهل عسيتم إن ولّيتم».

و عن عليّ﴿عليه السلام﴾: «فهل عسيتم إن تولّيتم» قال أبوحاتم: معناه: إن تولاّكم النّاس.

و في **نهج البلاغة**: - و من كتاب له﴿عليه السلام﴾ إلى قُثَمِ ابن العباس و هو عامله على مكّة - «... أُناس من أهل الشّام، العُمْيِ القلوب، الصُمِّ الأسماع، الكُمْهِ الأبصار، الّذين يلتمسون الحقّ بالباطل، و يطيعون المخلوق في معصية الخالق، و يحتلبون الدّنيا درَّها بالدّين، و يشترون عاجلها بآجل الأبرار المتّقين...».

و في **ثواب الأعمال**: بإسناده عن السّكونى عن الصّادق جعفر بن محمّد﴿عليه السلام﴾ عن أبيه عن آبائه﴿عليهم السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إذا ظهرالعلم و احترز العمل، وائتلفت الألسن و اختلفت القلوب، و تقاطعت الأرحام هنالك لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم».

و في رواية: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّ اللّٰه تعالى خلق الخلق حتّى إذا فرغ منهم قامت الرّحم فأخذت بحِقْو الرّحمن فقال: مَهْ، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أمّا ترضَيْن أن أصل من وصلك، و أقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلكِ لكِ، ثمّ قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ اقرؤا إن شئتم: «فهل عسيتم...» الآية.

و في رواية: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لا يدخل الجنّة قاطع رحم».

٢٤- (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

في تفسيرالنّعماني: بإسناده عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد اللّه(عليه السلام) - حديث طويل في أصناف آيات القرآن الكريم - باب أنّ العمل جزء الايمان - قال أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام): «...فأمّا ما فرض على القلب من الايمان فالإقرار والمعرفة و العقد عليه و الرّضا بما فرضه عليه، و التّسليم لأمره و الذّكر و التفكّر والإنقياد إلى كلّ ما جاء عن اللّه عزّوجلّ في كتابه مع حصول المعجز، فيجب عليه اعتقاده و أن يظهر مثل ما أبطن إلاّ للضّرورة كقوله سبحانه: «إلاّ من أكره و قلبه مطمئنّ بالايمان» النّحل: ١٠٦).

و قوله تعالى: «لايؤاخذكم اللّه باللّغو في أيمانكم و لكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» البقرة: ٢٢٥).

و قوله تعالى: «ألا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب» الرّعد: ٣٠).

و قوله سبحانه: «و يتفكّرون في خلق السّموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً» آل عمران: ١٩١).

و قوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمّد(صلى الله عليه وآله): ٢٤).

و قال عزّوجلّ: «فإنّها لاتعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتى في الصّدور» الحج: ٤٦).

و مثل هذاكثير في كتاب اللّه تعالى و هو رأس الايمان - إلى أن قال - ثمّ أبان فضل المؤمنين فقال سبحانه: «إنّ الذين آمنوا و عملوا الصّالحات اولئك هم خير البريّة» ثمّ وصف ما أعدّه من كرامته تعالى لهم، و ما أعدّه لمن أشرك به و خالف أمره و عصى وليّه من النّقمة و العذاب، ففرّق بين صفات المهتدين و صفات المعتدين، فجعل ذلك مسطوراً في كثير من آيات كتابه، و لهذه العلّة قال اللّه تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها».

و في مكارم الأخلاق: عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله): «يابن مسعود سيأتى من بعدي أقوام يأكلون طيب الطّعام و ألوانها، و يركبون الدّوابّ، و

يتزيّنون بزينة المرأة لزوجها، و يتبرّجن النّساء، و زيّهنّ مثل زيّ الملوك الجبابرة، و هم منا فقو هذه الامّة في آخر الزّمان، شاربو القهوات، لاعبون بالكعاب، راكبون الشّهوات، تاركون الجماعات، رافدون عن العتمات، مفرطون في الغدوات (العداوات خ) يقول اللّه: «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة و اتّبعوا الشّهوات فسوف يلقون غيّاً» مريم:١٩).

يابن مسعود! مثلهم مثل الدّفلي، زهرتها حسنة، و طعمها مرّ، كلامهم الحكمة، و أعمالهم دآء لايقبل الدّوآء: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها».

و في **عيون الأخبار**: باسناده عن عبدالعزيز بن مسلم قال: كنّا في أيّام عليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾ بمرو فاجتمعنا في مسجد جامعها في يوم جمعة في بدء مقدمنا، فأدار النّاس أمر الإمامة و ذكروا كثرة اختلاف النّاس فيها، فدخلت على سيّدي و مولاي الرّضا﴿عليه السلام﴾ فأعلمته ما خاض النّاس فيه، فتبسّم ثمّ قال: يا عبدالعزيز جهل القوم و خدعوا عن أديانهم، إنّ اللّه تبارك و تعالى لم يقبض نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى أكمل له الدّين، و أنزل عليه القرآن فيه تفصيل كلّ شئ يبيّن فيه الحلال و الحرام و الحدود و الأحكام، و جميع ما يحتاج إليه النّاس كملاً، فقال عزّوجلّ: «ما فرّطنا في الكتاب من شئ» الأنعام: ٣٨).

و أنزل في حجّة الوداع و هي آخر عمره﴿صلى الله عليه و آله﴾: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة: ٣).

فأمر الإمامة من كمال الدّين و إتمام النّعمة، و لم يمض﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى بيّن لأمّته معالم دينهم و أوضح لهم سبلهم، و تركهم على قصد سبيل الحقّ، و أقام لهم عليّاً﴿عليه السلام﴾ علماً و إماماً، و لم يترك شيئاً تحتاج إليه الأمّة إلاّ بيّنه، فمن زعم أنّ اللّه عزّوجلّ لم يكمّل دينه فقد ردّ كتاب اللّه عزّوجلّ، و من ردّ كتاب اللّه فهو كافر، هل يعرفون قدر الإمامة و محلّها من الأمّة؟ فيجوز فيها اختيارهم، انّ الإمامة أجلّ قدراً و أعظم شأناً و أعلى مكاناً و أوسع جانباً و أبعد غوراً من أن يبلغها النّاس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً بإختيارهم - إلى أن قال - رغبوا عن اختيار اللّه و اختيار رسوله إلى

اختيارهم، و القرآن يناديهم: «و ربّك يخلق ما يشاء و يختار ما كان لهم الخيرة سبحان اللّٰه و تعالى عمّا يشركون» القصص: ۶۸).

و قال عزّوجلّ: «و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى اللّٰه و رسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» الأحزاب: ۳۶).

و قال عزّوجلّ: «ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب فيه تدرسون إنّ لكم فيه لما تخيّرون أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إنّ لكم لما تحكمون سلهم أيّهم بذلك زعيم أم لهم شركآء فليأتوا بشركآئهم إن كانوا صادقين» القلم: ۳۶ - ۴۱).

و قال عزّوجلّ: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ۲۴).

أقول: رواه الشّيخ الصّدوق رضوان اللّٰه تعالى عليه في إكمال الدّين، و معاني الأخبار و الأمالی، و الكلينى في الكافي، و الطّبرسى في الإحتجاج، و البحراني في تحف العقول و غيرهم...

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علىّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «...فحجّته بالتّدبير ناطقة...» الخطبة: ۹۰).

و في كنز الفوائد: ذكروا أنّ أبا حنيفة أكل طعاماً مع الإمام الصّادق جعفر بن محمّد﴿عليهما السلام﴾ فلمّا رفع﴿عليه السلام﴾ يده من أكله قال: «الحمدللّه ربّ العالمين اللّٰهمّ إنّ هذا منك و من رسولك﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد اللّٰه أجعلت مع اللّٰه شريكاً؟ فقال﴿عليه السلام﴾ له: ويلك إنّ اللّٰه تعالى يقول في كتابه: «و ما نقموا إلاّ أن أغناهم اللّٰه و رسوله من فضله» التّوبة: ۷۴).

و يقول في موضع آخر: «و لو أنّهم رضواما آتاهم اللّٰه و رسوله و قالوا حسبنا اللّٰه سيؤتينا اللّٰه من فضله و رسوله» التّوبة: ۵۹).

فقال أبوحنيفة: و اللّٰه لكأنّي ما قرأتها قطّ من كتاب اللّٰه و لا سمعتها إلاّ في هذا الوقت، فقال أبو عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾: بلى قرأتها و سمعتها و لكنّ اللّٰه تعالى أنزل فيك و في أشباهك: «أم على قلوب أقفالها» و قال تعالى: «كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

أقول: من ران على قلبه - كأبي حنيفة و أسلافه و أذنابه - بسبب كفره و نفاقه، كبره و حسده، بغيه و ظلمه و اتّباع هواى نفسه... فلا يفهم شيئاً من عبارة القرآن الكريم فضلاً عن إشاراته و لطآئفه و حقآئقه... و إن كان بصورة العالم، يعلم باصطلاحات واهيّة و يألف بها، و هو جاهل مركّب.

في رواية: قال الإمام الحسين بن عليّ﴿عليهما السلام﴾: قال أميرالمؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾: «كتاب اللّٰه على أربعة أشياء: على العبارة و الإشارة و اللطآئف و الحقآئق، فالعبارة للعوام، و الإشارة للخواصّ، و اللّطآئف للأوليآء، و الحقآئق للأنبيآء».

و في محاسن البرقي: بالإسناد عن سليمان بن خالد قال: قال لي أبو عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾: يا سليمان إنّ لك قلباً و مسامع، و إنّ اللّٰه إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه، فلا يصلح أبداً، و هو قول اللّٰه عزّوجلّ: «أم على قلوب أقفالها».

و في الدّرّ المنثور: عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: «يأتي على النّاس زمان يخلق القرآن في قلوبهم يتهافتون تهافتاً، قيل: يا رسول اللّٰه و ما تهافتهم؟ قال: يقرأ أحدهم فلا يجد حلاوة و لا لذّة يبدأ أحدهم بالسّورة، و إنّما معه آخرها، فإن عملوا قالوا، ربّنا اغفر لنا، و إن تركوا الفرآئض، قالوا: لا يعذّبنا اللّٰه و نحن لا نشرك به شيئاً أمرهم رجآء و لا خوف فيهم: «اولئك الّذين لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها».

و في تفسير القمّي: بإسناده عن محمّد بن عليّ عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ في قوله: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم» عن الايمان لتركهم ولاية عليّ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ «الشيّطان - يعني فلاناً أى الثّاني - سوّل لهم» يعنى بني فلان و بني فلان، و بني اميّة. قوله: «ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّٰه» هو ما افترض اللّٰه على خلقه من ولاية أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ «سنطيعكم في بعض الأمر» قال: دعوا بني اُميّة إلى ميثاقهم ألاّ يصيروا لنا الأمر بعد النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و لا يعطونا من الخمس شيئاً، و قالوا: إن أعطيناهم الخمس استغنوا به، فقال: سنطيعكم في بعض الأمر أى لا تعطوهم من الخمس

شيئاً، فأنزل اللّه على نبيّه(صلى الله عليه وآله) «أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون».

و في كنزالفوائد: بإسناده عن محمّد بن عليّ الحلبي عن أبي عبد اللّه(عليه السلام) في قول اللّه عزّوجلّ: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى، قال: الهدى هو سبيل عليّ(عليه السلام).

و في نهج البلاغة – من كتاب الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام) إلى معاوية بن أبي سفيان: «...فجاروا عن وجهتهم و نكصوا على أعقابهم و تولّوا على أدبارهم و عوّلوا على أحسابهم...»

و فيه: – و من خطبته(عليه السلام) عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة – «...و إنّما طلبوا هذه الدّنيا حسداً لمن أفآءها اللّه عليه، فأرادوا ردّ الامور على أدبارها...».

و في بشارة المصطفى: – في وصيّة الامام أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالب(عليه السلام) لكميل بن زياد النخعيّ – حديث طويل – «...يا كميل احفظ قول اللّه عزّوجلّ: «الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» و المسوّل الشّيطان، و المملي اللّه تعالى» الحديث.

و في كنزالفوائد: بالإسناد عن جابربن يزيد قال: سئلت أبا جعفر(عليه السلام) عن قول اللّه عزّوجلّ: «ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم» قال: كرهوا عليّاً(عليه السلام) و كان على رضا اللّه و رضا رسوله(صلى الله عليه وآله) أمر اللّه بولايته يوم بدر و يوم حنين و ببطن نخلة و يوم التّروية، و نزلت فيه اثنتان و عشرون آية في الحجّة الّتى صدّ فيها رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) عن المسجد الحرام بالجحفة و بخمّ».

و في تفسير القمّي: «ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه» يعني موالاة فلان و فلان ظالمي أمير المؤمنين(عليه السلام) «فأحبط أعمالهم» يعني الّتي عملوها من الخير».

و في نهج البلاغة – في الخطبة القاصعة – قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام): «فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس، إذ أحبط عمله الطّويل و جهده الجهيد – و كان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة لا يُدرى أمن سني الدّنيا أم من سني الآخرة – عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل

معصيته؟ كلاّ! ما كان اللّٰه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إنّ حكمه في أهل السّمآء و أهل الأرض لواحد، و ما بين اللّٰه و بين أحد من خلقه هوادة في إباحة حِمىً حرّمه على العالمين».

و فيه: - في هذه الخطبة - قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ في تحذير المؤمنين عمّا صار موجباً لكسر شوكة الامم الماضية و خذلانهم و هوانهم و هلاكهم -: «و اجتنبوا كلّ أمرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ و أوهن مُنَّتَهُمْ من تضاغُنِ القلوب و تشاحن الصّدور، و تدابر النّفوس و تخاذل الأيدى...».

و في التّوحيد: بإسناده عن محمّد بن عمارة قال: سئلت الصّادق جعفر بن محمّد﴿عليهما السلام﴾ فقلت له: يابن رسول اللّٰه أخبرني عن اللّٰه عزّوجلّ هل له رضىً و سخط؟ قال: نعم، و ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، و لكن غضب اللّٰه عقابه، و رضاه ثوابه».

و فيه: بإسناده عن هشام بن الحكم: أنّ رجلاً سئل أبا عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾ عن اللّٰه تبارك و تعالى له رضاً و سخط؟ قال: نعم و ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين و لك أنّ الرّضا و الغضب دخال يدخل عليه، فينقله من حال إلى حال معتمل، مركب للأشيآء فيه مدخل، و خالقنا لا مدخل للأشيآء فيه، واحد أحديّ الذّات و أحديّ المعنى، فرضاه ثوابه و سخطه عقابه من غير شئ يتداخله فيهيجه، و ينقله من حال إلى حال، فإنّ ذلك صفة المخلوقين العاجزين المحتاجين، و هو تبارك و تعالى القويّ العزيز لاحاجة به إلى شئ ممّا خلق، و خلقه جميعاً محتاجون إليه إنّما خلق الأشيآء من غير حاجة ولاسبب اختراعاً و ابتداعاً».

و في الكافي: بإسناده عن جابر عن أبي عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: من طلب مرضات النّاس بما أسخط اللّٰه تعالى كان حامده من النّاس ذامّاً، و من آثر طاعة اللّٰه تعالى بما يغضب النّاس كفاه اللّٰه تعالى عداوة كلّ عدوّ، و حسد كلّ حاسد، و بغي كلّ باغ، و كان اللّٰه له ناصراً أو ظهراً (ظهيراً خ).

و فيه: بإسناده عن السّكوني عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: من أرضى سلطاناً بسخط اللّٰه خرج من دين الإسلام».

و في **الخصال**: عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ قال: إنّ اللّٰه تبارك و تعالى أخفي أربعة في أربعة: رضاه في طاعته، فلا يستصغرنّ شيئاً من طاعته، فربّما وافق رضاه و أنت لا تعلم، و أخفى سخطه في معصيته، فلا يستصغرونّ شيئاً من معصيته، فربّما وافق سخطه و أنت لا تعلم...» الحديث.

٣٠-(و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول و اللّٰه يعلم أعمالكم)

في **نهج البلاغة**: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فإنّه لا سوآء إمام الهدى و إمام الرّداى، و وليّ النّبيّ و عدوّ النّبيّ، و لقد قال لي رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾: إنّي لا أخاف على أُمّتي مؤمناً و لا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه اللّٰه بايمانه، و أمّا المشرك فيقمعه اللّٰه بشركه، و لكنّي أخاف عليكم كلّ منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون و يفعل ما تنكرون».

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «و لو لا ما نهى اللّٰه عنه من تزكية المرء نَفسَهُ لذكر ذاكر فضآئل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين، و لا تمجّها آذان السّامعين، فدع عنك من مالت به الرّميّة...»

و في **كتاب التّوحيد**: بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: قال لي: يا أبا عبيدة إيّاك و أصحاب الخُصومات و الكذّابين علينا، فإنّهم تركوا ما أُمِروا بعلمه، و تكلّفوا علم السّمآء، يا أبا عبيدة خالقوا النّاس بأخلاقهم، و زايلوهم بأعمالهم، إنّا لانعدّ الرّجل عاقلاً (فقيهاً خ) حتّى يعرف لحن القول، ثمّ قرأ هذه الآية: «و لتعرفنّهم في لحن القول».

و في **أمالي الشّيخ الطّوسي** قدّس سرّه بإسناده عن عبدالعظيم الحسنيّ الرّازي عن أبي جعفر الثّاني عن آبآئه عن عليّ﴿عليهم السلام﴾ قال: قلت: أربعاً (أربع كلمات خ) أنزل اللّٰه تعالى تصديق بها في كتابه: قلت: المرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلّم ظهر، فأنزل اللّٰه تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قلت: فمن جهل شيئاً عاداه، فأنزل اللّٰه: «بل كذّبوا بما

لم يحيطوا بعلمه» و قلت: قدر أو قيمة كلّ امرى ما يحسن (يحسنه خ) فأنزل اللّٰه في قصّة طالوت: «إنّ اللّٰه اصطفاه عليكم و زاده بسطة في العلم و الجسم» و قلت: القتل يقلّ القتل، فأنزل اللّٰه: «و لكم في القصاص حياة يا اولى الألباب».

قوله﴿عليه السلام﴾: «مخبوء» أى مستور تحت لسانه لا يعرف كماله و لا نقصه، و لا صدقه و يقينه و لا كذبه و نفاقه إلاّ إذا تكلّم.

و في كنز الفوائد: بالإسناد عن أبي سعيد الخدريّ قال: قوله عزّوجلّ: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: بغضهم لعليّ﴿عليه السلام﴾.

و في مناقب الإمام أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ - للحافظ محمّد بن سليمان الكوفي القاضي من أعلام القرن الثّالث - باب: جعل اللّٰه تعالى حبّ عليّ﴿عليه السلام﴾ علامة الايمان و بغضه علامة النّفاق - حديث ٨٩) بإسناده عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: ببغض عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

أقول: رواه جماعة من أعلام العامّة و حملة آثارهم في مآخذهم المعتبرة:

منهم: الحافظ ابن عساكر في (تاريخ دمشق: ج ٢ ص ٤٢١ ط ٢ حديث ٩٢٩)

و منهم: الحافظ الحسكانى الحنفي في (شواهد التنزيل: ج ٢ ص ١٧٨ ط ١)

و منهم: الشّوكاني في (تفسير فتح القدير: في تفسير قوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول».

و منهم: الكشفي التّرمذي الحنفي في (مناقب مرتضوي: ص ٦١ ط بمبئي بمطبعة المحمّدي)

و منهم: ابن المغازلي في (المناقب: ص ٨٠ حديث ٣٥٩)

و منهم: أبو نعيم الإصبهاني في (النّور المشتعل: ص ٢٢٧ ط ١) و منهم: ابن الأثير في (أُسد الغابة: ج ٤ ص ٢٩)

و منهم: الكنجي الشّافعي في (كفاية الطّالب: باب ٦٢)

و في تفسير روح المعاني: قال الآلوسي البغدادى - و هو من أعلام العامّة و أعاظمهم - ما لفظه: «و ذكروا من علامات النّفاق بغض عليّ كرّم اللّٰه تعالى وجهه، فقد

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) إلاّ ببغضهم عليّ بن أبيطالب و أخرج هو و ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيّده» ثمّ قال الآلوسي «و عندي أنّ بغضه رضى اللّه تعالى عنه من أقوى علامات النّفاق».

ثمّ قال الآلوسي: «فإن آمنت بذلك، فياليت شعري ماذا تقول في يزيد الطّريد أكان يحبّ عليّاً كرّم اللّه تعالى وجهه أم كان يبغضه؟ و لا أظنّك في مرية من أنّه عليه اللّعنة كان يبغضه رضي اللّه تعالى عنه أشدّ البغض، وكذا يبغض ولديه الحسن و الحسين على جدّهما و أبويهما و عليهما الصّلاة و السّلام كما تدلّ على ذلك الآثار المتواتره معنىً، و حينئذ لا مجال لك من القول بأنّ اللّعين كان منافقاً».

و في **الدّرّ المنثور**: و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري في قوله: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: ببغضهم عليّ بن أبيطالب. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) إلاّ ببغضهم عليّ بن أبيطالب» و غيرهم تركنا هم روماً للإختصار.

و في **التّفسير الحديث** للدّروزة – و هو من حملة العامّة المعاصرين – ما لفظه: «و لقد روى الطّبرسي و هو مفسّر شيعيّ في سياق الآية الثّانية أنّ أبا سعيد الخدري قال: «لحن القول» هو بغض عليّ بن أبيطالب. و قد كنّا نعرف المنافقين في عهد رسول اللّه ببغضهم له» ثمّ قال الدّروزة: إنّ مثل هذا روي عن جابر بن عبداللّه و عبادة بن الصّامت، و لا يوثق المفسّر رواياته بسند وثيق، و لم ترد في مساند الأحاديث الصّحيحة، و الهوى الشّيعيّ واضح في هذا و قد يكون حقّاً أنّ بغض عليّ رضي اللّه عنه من علامات النّفاق، ولكن ليس من محلّ للاختصاص بحيث يصحّ أن يكون من علامات النّفاق بغض كلّ واحد من الرّعيل الأوّل من أصحاب رسول اللّه و من أقران عليّ أيضاً، و في مقدمتهم أبوبكر و عمر و عثمان و غيرهم و غيرهم.»

أقول: إنّ هذه الرّواية من الرّوايات المتواترة الّتي أوردها أعلام العامّة و أعاظمهم و حملة آثارهم في مآخذهم المعتبرة الرّوائيّة و التّفسيريّة و التّاريخيّة و اللّغوية

والرّجاليّة... بأسانيد عديدة أشرنا إلى بعضها آنفاً أوّلاً، ثمّ اعترف الدّروزة بنفاق أربابه و في مقدمتهم أبو بكر و عمر و عثمان و أضرابهم كمعاوية بن أبي سفيان و أبي عبيدة جرّاح حفّار القبور و المغيرة بن شعبة و أمثالهم... ثانياً، و كأنّه توهّم أنّ الكفر و النّفاق من هؤلآء المنافقين حسنة، و من غيرهم سيّئة ثالثاً، و رابعاً نحن شيعة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين رافضو الكفر و النّفاق لن نتوقّع من مثل دروزة النّفاق من أذناب هؤلآء المنافقين غير النّفاق و الذّبذبة و الضّلال و الوسوسة في الرّوايات الصّحيحة في فضآئل أهل بيت النّبوّة عليهم صلوات الله و شيعتهم و توقّع خلاف هذا هو الخلاف، و من البداهة عند طيّب الولادة أنّ الذّبذبة من علائم النّفاق قد تظهر بلحن القول، و قد تظهر بلحن القلم.

و في **خصآئص الوحي المبين** لابن البطريق - المتوفّى عام ٦٠٠ هـ ق- بعد نقل الرّواية من طريق الحافظ أبي نعيم الإصبهاني من أعلام العامّة - المتوفّى عام ٤٣٠ هـ ق- بأسانيده قال: «و أراد تعالى من قوله: «في لحن القول» بغضهم عليّاً﴿ع﴾ فلذلك قال له النّبيّ ﴿ﷺ﴾: «ما يحبّك إلاّ مؤمن و لا يبغضك إلاّ منافق» لأنّ الله تعالى قال: «و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول» و ذلك وقع منه جلّ وعلا خطاباً لنبيّه﴿ﷺ﴾ في تعيين المنافقين، و من كان بغضه علامة للنّفاق، و حبّه علامةً للايمان كانت حاجة الأُمّة إليه أذعن و عنايتها بولايته أرعى، و شاهد الحال أبين من شاهد الاستدلال «إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين».

يا من أذاع الدّين بعد كمونه	و من النّبيّ به غدا مستنصراً
يا من بقائم سيفه قام الهدى	و غدا الوليّ بنوره مستبصراً

و في **نهج الحقّ و كشف الصّدق** للعلاّمة الحلّي رضوان الله تعالى عليه - المبحث الرّابع في تعيين الإمام عقلاً و نقلاً - قال: و أمّا المنقول: فالقرآن و السّنّة المتواترة، أمّا القرآن فآيات - ثمّ ذكر آيات - إلى أن قال: آية لحن القول. الثّانية عشرة: قوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول» روى الجمهور عن أبي سعيد الخدري قال: ببغضهم عليّاً﴿ع﴾.

ثمّ ذكر آيات أُخر في تعيين إمامة علي‌ّ﴿عليه السلام﴾ بالقرآن، ثمّ قال: آية مشاقّة النّبي‌ّ﴿صلى الله عليه وآله﴾: السّابعة و الأربعون: قوله تعالى: «و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ٣٢) قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: في أمر علي‌ّ﴿عليه السلام﴾.

و قد توجّه إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ في أمر عليّ في حياته و مماته، مشاقّة لاتحصى.

و قد كان هؤلآء المنافقون المتسمّون بالصّحابة و هم كاذبون، يتظاهرون الايمان برسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و يبطنون الكفر بسبب بغضهم كيان رسول اللّٰه و نفسه الثّاني﴿صلى الله عليه وآله﴾ و نسخته الكاملة علي‌ّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فلا يجمع حبّ محمّد الحبيب﴿صلى الله عليه وآله﴾ و بغض من هو إستمرار لكيانه و نفسه، حاملاً لدعوته، متخلّقاً بأخلاقة، و مظهراً لجميع صفاته و كمالاته، و هو باب مدينة علمه.

و في **محاسن البرقي**: مرفوعاً: قال: قلت لأبي عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾: أكان حذيفة بن اليمان يعرف المنافقين؟ فقال: أجل، كان يعرف اثنى عشر رجلاً، و أنت تعرف (أنا أعرف خ) اثنى عشر ألف رجل، إنّ اللّٰه تبارك و تعالى يقول: «فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول» فهل تدري ما لحن القول؟ قلت: لا و اللّٰه، قال: بغض علي‌ّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و ربّ الكعبة».

قوله﴿عليه السلام﴾: «و أنت تعرف» لعلّ المخاطب كان ممّن يعرف المنافقين، أو المراد الجمهور، و العدد للتكثير، ولكن الأصحّ: «و أنا أعرف».

و في **المجمع**: و عن أبي سعيد الخدرى قال: لحن القول بغضهم علي‌ّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ قال: و كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ببغضهم علي‌ّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و روى مثل ذلك عن جابر بن عبداللّٰه الأنصارى، و عن عبادة بن الصّامت قال: كنّا نبور أولادنا بحبّ علي‌ّ﴿عليه السلام﴾ فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشدة. و قال أنس: ما خفي منافق على عهد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد هذه الآية.

قوله: «نبور» أيّ نجرّب و نختبر. و «لغير رشدة» أى ولد زنيّة.

في النّهاية لابن الأثير - و هو من أعلام العامّة - قال: و فيه - أي في الحديث - «أنّ داود سئل سليمان عليهما السلام، و هو يَبتار عِلمَهُ» أى يختبره و يمتحنه. و منه الحديث: «كنّا نبور أولادنا بحبّ عليّ رضى اللّٰه عنه».

و في البرهان: بالإسناد عن ابن بكير قال: قال أبو جعفر ﴿عليه السلام﴾: إنّ اللّٰه جلّ و عزّ أخذ ميثاق شيعتنا بالولاية فنحن نعرفهم في لحن القول».

أقول: إنّ بغض المنافقين، عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ لم يكن مصرّحاً به بينهم، بل كان يظهر فيما يلوح من أفعالهم و أقوالهم و حركاتهم و مواجهاتهم له ﴿عليه السلام﴾ كمزاحمتهم له ﴿عليه السلام﴾ في المجلس، و التّقدّم عليه في الدّخول على رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ و الشّكوى منه عنده ﴿ﷺ﴾ و نحوها الّتي كانت علائم لبغضهم إيّاه ﴿عليه السلام﴾.

و في الإحتجاج: ممّا أجاب به أبوالحسن عليّ بن محمّد العسكرى ﴿عليه السلام﴾ في رسالته إلى أهل الأهواز حين سئلوه عن الجبر و التّفويض - إلى أن قال: «في قوله تعالى: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلو أخباركم - و قوله -: «و لو شآء اللّٰه لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببغض» إنّ جميعها - الآيات الّتي ذكرها الإمام ﴿عليه السلام﴾ - جآئت في القرآن بمعنى الاختبار.

و في تحف العقول: ممّا أجاب به أبوالحسن الثّالث عليّ بن محمّد صلوات اللّٰه عليه في الرّدّ على أهل الجبر و التفويض و إثبات العدل و المنزلة بين المنزلتين - رسالة طويلة - إلى أن قال: «فأمّا شواهد القرآن على الاختبار و البلوى بالاستطاعة الّتي تجمع القول بين القولين فكثيرة، و من ذلك قوله: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلو أخباركم» و قال: «سنستدرجهم من حيث لايعلمون» و قال: «الٓم أحسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لايفتنون» و قال في الفتن الّتي معناها الاختبار: «و لقد فتنّا سليمان» الآية، و قال في قصّة قوم موسى: «فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك و أضلّهم السّامريّ» و قول موسى: «إن هي إلاّفتنتك» أى اختبارك، فهذه الآيات يقاس بعضها ببعض و يشهد بعضها لبعض.

و أمّا آيات البلوى بمعنى الاختبار قوله: «ليبلوكم فيما آتاكم» و قوله: «ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم» و قوله: «إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة» و قوله: «خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً» و قوله: «و إذا ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات» و قوله: «و لو شآء اللّٰه لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض» و كلّ ما في القرآن من بلوى هذه

الآيات الّتي شرح أوّلها فهي اختبار و أمثالها في القرآن كثيرة، فهي إثبات الاختبار والبلوى، إنّ اللّه جلّ و عزّ لم يخلق الخلق عبثاً و لا أهملهم سدىً، و لا أظهر حكمته لعباً، بذلك أخبر في قوله: «أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً».

فإن قال قائل: فَلَم يعلم اللّه ما يكون من العباد حتّى اختبرهم؟ قلنا: بلى قد علم ما يكون منهم قبل كونه، و ذلك قوله: «و لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه» و إنّما اختبرهم ليعلمهم عدله و لا يعذّبهم إلاّ بحجّة بعد الفعل، و قد أخبر بقوله: «و لو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً» و قوله: «و ما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً» و قوله: «رسلاً مبشّرين و منذرين» فالاختبار من اللّه بالاستطاعة الّتي ملّكها عبده و هو القول بين الجبر و التّفويض بهذا نطق القرآن، وجرت الأخبار عن الأئمّة من آل الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾.

و في **كشف الغمّة** لإربلي: روى الحافظ أبوبكر أحمد بن موسى بن مردويه عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾: «و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى» قال: في أمر عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و في **البرهان**: قال: قال أميرالمؤمنين: «و شاقّو الرّسول» أى قطعوه في أهل بيته بعد أخذ الميثاق عليهم له.

و في **نهج البلاغة**: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و من شاقّ و عُرَت عليه طرقه، و أعضل عليه أمره، و ضاق عليه مَخرَجُهُ».

۳۳- (يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالهم)

في أمالي الصّدوق رضوان اللّه تعالى عليه -المجلس الثّامن و الثّمانون - حديث ۱۴) بإسناده عن أحمد بن محمّد بن خالد البرقي عن أبي عبداللّه الصّادق﴿عليه السلام﴾ عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾: من قال: سبحان اللّه غرس اللّه له بها شجرة في الجنّة، و من قال: الحمد للّه غرس اللّه له بها شجرة في الجنّة، و من قال: لا إله إلاّ الله له

بها شجرة في الجنّة، و من قال: الله اكبر غرس الله له بها شجرة في الجنّة فقال رجل من قريش: يا رسول اللّه إنّ شجرنا في الجنّة لكثير؟! قال: نعم، و لكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً، فتحرقوها، و ذلك أنّ اللّه عزّوجلّ يقول: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم» و صلّى اللّه على محمّد و آله».

و في **تفسير فرات الكوفي**: بإسناده عن يزيد بن فرقد النّهديّ أنّه قال: أبو جعفر ابن محمّد عليهما السّلام في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لا تبطلوا أعمالكم» يعني إذا أطاعوا اللّه و أطاعوا الرّسول ما يبطل أعمالكم، و قال: عداوتنا تبطل أعمالهم».

أقول: و كما أنّ عداوة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين تبطل الأعمال الصّالحة كذلك مخالفة أمرهم عليهم السّلام توجب بطلانها، فإنّ إطاعتهم هي إطاعة الرّسول ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و إطاعة الرّسول ﴿صلى الله عليه وآله﴾ هي إطاعة اللّه تعالى إذ قال اللّه عزّوجلّ: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و اولى الأمر منكم - من يطع الرّسول فقد أطاع اللّه - و إذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به و لوردّوه إلى الرّسول و إلى اولى للأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم و لولا فضل اللّه عليكم و رحمته لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً» النساء: ٥٩ و ٦٩ و ٨٣).

و في **عيون الأخبار**: بإسناده عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا ﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «اختاروا الجنّة على النّار و لا تبطلوا أعمالكم تقذفوا في النّار منكبّين خالدين فيها أبداً».

و في **وسائل الشّيعة**: بالإسناد عن الإمام الصّادق ﴿عليه السلام﴾ قال: «لا قول إلاّ بعمل، و لا قول و لا عمل إلاّ بنيّة، و لا قول و لا عمل و لانيّة إلاّ بإصابة السّنّة» أي سنّة اللّه تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾.

و في **نهج البلاغة**: و من كلام الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ كان يقوله لأصحابه في بعض أيّام صفّين -: «معاشر المسلمين! استشعروا الخشية، و تَجَلْبَبُوا السّكينة، و عضّوا على النّواجذ، فإنّه أنبىٰ للسّيوف عن الهام، و اَكْمِلُوا اللّأْمَةَ، و قلقلوا

السّيوف في أغمادها قبل سلّها، و الحظوا الخَزْرَ ،و اطعنوا الشَّزْرَ، و نافحوا بـالظّبى، وَ صِلُوا السّيوف بالخُطى، و اعلموا أنّكم بعين اللّٰه و مع ابـن عّـم رسـول اللّـه﴿صلّى الله عليه وآله﴾ فعاودوا الكرّ، و استحيوا من الفرّ، فإنّه عار في الأعقاب و نار يوم الحساب.

و طيبوا عن أنفسكم نفساً، و امشوا إلى الموت مَشْياً سُجُحاً، و عليكم بهذا السّواد الأعظم و الرّواق المطنّب، فاضّربوا بَثَجَهُ، فإنّ الشّيطان كامنٌ في كِسْره، قد قدّم للوثبة يداً، و أخّر للنكوص رِجْلاً، فَصَمْداً صَمْداً حتّى ينجلي لكم عمود الحقّ «و أنتم الأعلون و اللّٰه معكم و لن يتركم أعمالكم».

و في البحار: - باب مواعظ الإمام عليّ و حكمه﴿عليه السلام﴾ - حديث طويل - قال أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾: «فبئست الدّار لمن لايتّهمها و إن لم يكن فيها على و جل منها، إعلموا و أنتم لاتعلمون أنّكم تاركوها لابدّ فإنّما هي كما نعتها اللّٰه تعالى: «لهو و لعب».

و في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «سَلَكَتْ بهم الدّنيا طريق العمى، و أخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حَيْرَتها، و غرقوا في نعمتها، و اتّخذوها ربّاً، فلعبت بهم و لَعِبُوا بها، و نسوا ما ورآءها...».

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «البخل جامع لمساوى العيوب و هو زمام يقاد به إلى كلّ سوء».

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ - و قد مرّ بقذر على مزبلة -: «هذا ما بخل به الباخلون» و في خبر آخر: أنّه قال: «هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس».

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «كلّ شيء خاضع له، و كلّ شئ قائم به، غِنٰى كلّ فقيرٍ، و عِزُّ كلّ ذليل، و قوّة كلّ ضعيف، و مفزع كلّ ملهوف».

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾ - عند دفن سيّد النّسآء فاطمة الزّهرآء سلام اللّٰه عليها كالمناجي به رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه وآله﴾ عند قبره - «... و ستنبّئك ابنتك بتضافر أُمّتك على هضمها فَأَحْفِها السّؤال و استخبرها الحال...» من كلامه﴿عليه السلام﴾ رقم:١٩٣).

قوله﴿عليه السلام﴾: «و ستنبّئك ابنتك» أي ستخبرك فاطمة﴿عليها السلام﴾ بما وقع على أهل بيتك

من بغي أبي بكر و عمر و أذنابهما...«فَأَحْفِهَا السُّئوال» أى استقص في مسئلتها...من أحفيت إحفاءً في السّئوال: استقصيت، و رجل حَفِيّ: مستقصٍ في السّئوال.

في دعآء عرفة: قال سيّد الشّهداء الإمام الحسين بن عليّ﴿عليهما السلام﴾ - درساً لشيعته -: «إلهي أنا الفقير في غنايَ، فكيف لا أكون فقيراً في فقري....»

و في المجمع: و روى أبو بصير عن أبي عبد اللّه (أبي جعفر خ)﴿عليه السلام﴾ قال: «إن تتولّوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم يعني الموالي» و عن أبي عبداللّه﴿عليه السلام﴾ قال: قد واللّه أبدل بهم خيراً منهم الموالي».

و في تفسير القمّي: بإسناده عن يعقوب بن قيس قال: قال أبو عبداللّه﴿عليه السلام﴾: يا بن قيس «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غير كم ثمّ لايكونوا أمثالكم» عن أبنآء الموالي المعتقين».

و فيه: «و إن تتولّوا» عن ولاية أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ «يستبدل قوماً غيركم» قال: يدخلهم في هذا الأمر «ثمّ لايكونوا أمثالكم» في معاداتكم و خلافكم و ظلمكم لآل محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾».

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و استبدل اللّه بقوم قوماً، و بيوم يوماً، و انتظرنا الغِيَر انتظار المُجْدِبِ المَطَرَ، و إنّما الأئمّة قوّام اللّه على خلقه و عرفآؤه على عباده لايدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه، و لايدخل النّار إلاّ من أنكر هم و أنكروه» الخطبة: ١٥٢).

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ - في سُحْرَة اليوم الّذي ضرب فيه -: «ملكتني عيني و أنا جالس، فَسَنَخَ لي رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقلت: يا رسول اللّه: ماذا لقيتُ من اُمّتك من الأَوَدِ و اللَّدَدِ، فقال: ادع عليهم: فقلت: أبدلني اللّه بهم خيراً منهم، و أبد لهم بي شرّاً لهم منّي».

قوله﴿عليه السلام﴾: الأَوَد: الإعوجاج، و «اللّدد»: الخصام.

و في اصول الكافي: - كتاب الدّعاء - باب الدّعاء للرّزق - حديث ١٠) عن مفضّل بن مرثد، عن أبي عبد اللّه﴿عليه السلام﴾ قال: قل: «اللّهمّ أوسع عليّ في رزقي و امدد لي

في عمري، واجعل لي ممّن تنتصر به لدينك و لا تستبدل بي غيري».

أقول: الاستبدال هو الذّهاب بشيء و إتيان شيء آخر بدلاً منه لايكون مثله بل خيراً منه.

﴿بحث فقهيّ قرآنيّ إستدلاليّ﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور حول عشرة فصول:

الفصل الأول: أنّ في قوله تعالى: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فـضرب الرّقـاب....» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ۴).

أي فإذا لقيتم الّذين كفروا حال المحاربة و المقاتلة، فاضربوا رقابهم ضرباً...اموراً:

منها: و جوب القتال على كلّ مسلم مكلّف مذكّر، غير معذور، مع الكفّار المحاربين، من أهل الكتاب و غير هم.

و **منها:** يتعيّن عليهم القتل إن أُخِذُوا أُسارى حين كانت الحرب قـائمة ولم تـضع أوزارها...

لأنّ المراد بضرب الرّقاب: القتل على أيّ وجه حصل لا أنّ الواجب أن تـضرب الرّقبة فقط دون غيرها من الأعضآء... و من ثمّ كان الإمام﴿عليه السلام﴾ مخيّراً في قتله بين أن يضرب رقبة الكافر المحارب، و بين أن يقطع يديه و رجليه و يتركه حتّى ينزف بالدّم و يموت كما في خبر طلحة بن زيد:

في فروع الكافي: - كتاب الجهاد - باب ١٠ من أبواب وجوه الجهاد حديث ١) بإسناده عن طلحة بن زيد قال: سمعت أبا عبد اللّه﴿عليه السلام﴾ يقول: «كان أبي﴿عليه السلام﴾ يقول: إنّ للحرب حكمين إذا كانت الحرب قائمة لم تضع أوزارها، و لم يثخن أهلها، فكلّ أسير

أُخِذَ في تلك الحال فإنّ الإمام فيه بالخيار إن شآء ضرب عنقه، و إن شآء قطع يده و رجله من خلاف بغير حسم، و تركه يتشحّط في دمه حتّى يموت، و هو قول اللّٰه عزّوجلّ: «إنّما جزآؤ الّذين يحاربون اللّٰه و رسوله و يسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم و أرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدّنيا و لهم في الآخرة عذاب عظيم» المائدة: ٣٣).

ألاترى أنّ المخيّر الّذى خيّر اللّٰه الإمام على شيء واحد و هو الكفر، و ليس هو على أشياء مختلفة، فقلت لأبي عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾: قول اللّٰه عزّوجلّ: «أو ينفوا من الأرض»؟ قال﴿عليه السلام﴾: ذلك الطّلب أن تطلب الخيل حتّى يهرب، فإن أخذته الخيل حكم عليه ببعض الأحكام الّتي و صفت لك، و الحكم الآخر إذا وضعت الحرب أوزارها و أثخن أهلها، فكلّ أسير أُخِذَ في تلك الحال فكان في أيديهم، فالإمام فيه بالخيار إن شآء منّ عليهم فأرسلهم، و إن شآء فاداهم أنفسهم و إن شآء استعبدهم فصاروا عبيداً».

و منها: أنّ حكم القتل مخصوص بعدم إسلامهم، فلو أسلموا و الحالة هذه لم يجز قتلهم....

و منها: أنّ الإمام﴿عليه السلام﴾ مخيّر بين الأمرين بعد تقضّى الحرب: إمّا أن يمنّ عليهم منّاً بعد الأسر و يطلقهم من دون فدآء، و إمّا يفدون فداء على مال يدفعه الأسير و نحوه و يخلص به رقبته من العبوديّة و يطلقهم، و قد أثبت أصحابنا الإسترقاق أيضاً، فخيّروا بين الثّلاثة لقيام الدّليل عليه من خارج، فالإسترقاق عُلِمَ من السّنّة، و لا يجوز القتل في هذه الصّورة لعدم الدّليل عليه.

في فقه القرآن للرّاوندي رحمة اللّٰه تعالى عليه: «والّذى رواه أصحابنا: أنّ الأسير إذا أُخِذَ قبل انقضاء الحرب و القتال، و الحرب قائمة و القتال باقٍ، فالإمام مخيّر بين أن يقتلهم أو يقطّع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتّى ينزفوا، و ليس له المنّ والفدآء، و إن كان الأسير أُخِذَ بعد وضع الحرب أوزارها و انقضاء الحرب و القتال كان مخيّراً بين المنّ و المفاداة إمّا بالمال أو النّفس و بين الإسترقاق بضرب الرّقاب، فإن أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك، و صار حكمه حكم المسلمين لقوله: «فإن انتهوا فإنّ

اللّٰه غفور رحيم – فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظّالمين» البقرة: ۱۹۳-۱۹۲).

و في الخلاف: -كتاب الفيء و قسمة الغنآئم – مسئلة ۱۷) قال الشّيخ رضوان اللّٰه تعالى عليه: «الأسير على ضربين: ضرب يؤسر قبل أن تضع الحرب أوزارها، فالإمام مخيّر فيه بين شيئين: إمّا أن يقتله أو يقطع يديه و رجليه و يتركه حتّى ينزف، و أسير يؤخذ بعد أن تضع الحرب أوزارها، فهو مخيّر بين ثلاثة أشيآء: المنّ و الإسترقاق و المفاداة.

و قال الشّافعي: هو مخيّر بين أربعة أشيآء: القتل و المنّ و المفاداة و الاسترقاق. و لم يفصّل.

أقول: و هذا غير وجيه، لأنّ التّفصيل في الآية الكريمة قاطع للشّركة.

و قال أبو حنيفة: هو مخيّر بين القتل و الإسترقاق، دون المنّ و المفاداة، مستدلّاً عليه بأنّ قوله تعالى: «اقتلوا المشركين حيث وجد تموهم» التّوبة: ۵) وَرَدَ بعد قوله: «فإمّا منّاً بعد و إمّا فدآء» لأنّ آية المنّ نزلت بمكّة، و آية القتل نزلت بالمدينة في آخر سورة نزلت و هي براءة فيكون ناسخاً.

أقول: و هذا أيضاً غير وجيه لأنّ النسخ خلاف الأصل، أقصى ما فيه ورود العامّ و الخاصّ، و إذا تعارضا، خصّص العامّ بالخاص، و عمل بالعامّ في غير مورد الخاصّ، و عمل بالخاصّ في مورده و التّخصيص خير من النّسخ و يؤكّد ردّ قوله ماروته العامّة منهم الزّمخشرى في (الكشّاف: ج ٤ ص ۳۱۷ ط دار الكتاب العربى) و ابن حجر في (الشّاف و الكاف) و غير هما: أنّ النّبيّ﴿ﷺ﴾ منّ على أبي غرّة الجمحيّ و على آثال الخنفيّ وفادى رجلاً برجلين من المشركين».

و يؤيّد ما ذكر نا من الأحكام ما سبق منّا آنفاً من خبر طلحة بن زيد.

فالتخّيير بين الأُمور الثلاثة عند نا ثابت و إن أسلموا.

و في الخلاف: قال الشّيخ رحمة اللّٰه تعالى عليه: «و قال أبو يوسف و محمّد: هو مخيّر بين القتل و الإسترقاق، و المفاداة على الرّجال دون الأموال. و أجمعوا كلّهم على أنّ المفاداة على الأموال لا تجوز -أعني أهل العراق-

قال الشّيخ: دليلنا: إجماع الفرقة و أخبارهم.... و يدلّ على جواز المنّ قوله تعالى: «فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد و إمّا فداء حتّى تضع الحرب أوزارها» و من ادّعى نسخ هذه الآية فعليه الدّلالة.

و روى الزّهري، عن محمّد بن جبيربن مطعم عن أبيه أنّ رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ قال في أُسارى بدر: «لو كان مطعم بن عدي حيّاً، و كلّمني في هؤلآء النتنى لأطلقتهم له» فأخبر أنّه لو كان مطعم حيّاً لمنّ عليهم لأنّه كان له عنده يد، لو سئله في أمرهم لأطلقهم، فدلّ على جواز المنّ.

قوله: «النتنى»: النتن، المذموم في الشّرع، مجنّبة مكروهة، كما يجتنب الشّئ النتن.

و روى أبوهريرة: أنّ النّبيّ ﴿ﷺ﴾ بعث سريّة قبل نجد، فاسروا رجلاً يقال له ثمامة بن أثال الحنفي سيّد يمامة، فأتوا به وشدّوه إلى سارية من سواري المسجد، فمرّ به النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فقال: «ما عندك يا ثمامة» فقال: خير، إن قتلت قتلت ذادَمٍ، و إن مننت مننت على شاكر، و إن أردت مالاً فاسئل تعط ما شئت، فتركه، ولم يقل شيئاً، فمرّ به اليوم الثّاني، فقال له مثل ذلك، فمرّ به اليوم الثّالث، فقال له مثل ذلك، و لم يقل النّبيّ ﴿ﷺ﴾ شيئاً ثمّ قال: «إطلقوا ثمامة» فأطلقوه فمرّ و اغتسل و جآء و أسلم و كتب إلى قومه فجآؤا مسلمين.

و هذا نصّ في جواز المنّ لأنّه ﴿ﷺ﴾ أطلقه من غير شيء.

و روي أنّ أباغرّة الجمحي وقع في الأسر يوم بدر فقال: يا محمّد إنّي ذوعيلة، فامنن عَلَيَّ فمنّ عليه أن لايعود إلى القتال، فمرّ إلى مكّة، فقال،: إنّي سَخِرتُ بمحمّد، و عاد إلى القتال يوم أُحُد، فدعا رسول اللّه أن لايفلت، فوقع في الأسر، فقال: إنّي ذو عيلة، فامنن عَلَيَّ فقال النّبيّ ﴿ﷺ﴾: «أمنّ عليك و حتّى ترجع إلى مكّة فتقول في نادى قريش: إنّي سخرت بمحمّد مرّتين، لا يلسع المؤمن من جحر مرّتين» فقتله رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ بيده، و هذا نصّ في جواز المنّ.

و أمّا الدّليل على جواز المفاداة بالرّجال، ما رواه أبوقلابة عن أبي المهلب عن عمران بن الحصين: أنّ النّبيّ ﴿ﷺ﴾ فادى رجلاً برجلين.

و أمّا الدّليل على جواز المفاداة بالمال، ما فعله النّبيّ﴿ﷺ﴾ يوم بدر، فإنّه فادى جماعة من كفّار قريش بمال، و القصّة مشهورة. قيل: إنّه فادى كلّ رجل بأربعمأة. و قال ابن عبّاس: بأربعة آلاف، و فيهم نزل قوله تعالى: «ما كان لنبيّ أن يكون به أسرى حتّى يثخن في الأرض – إلى قوله – عذاب عظيم» الأنفال: ٦٧-٦٨).

و في الجواهر: و كيف كان فلو أسلموا بعد الأسر لم يسقط عنهم هذا الحكم الّذى هو التّخيير بين الثّلاثة بلا خلاف معتدّ به أجده فيه، بل و لا إشكال، للأصل و الإطلاق، نعم في محكيّ المبسوط قيل: إن أسلم سقط عنه الاسترقاق، لأنّ عقيلاً أسلم بعد الأسر ففداه النّبيّ﴿ﷺ﴾ و لم يسترقه، و فيه أنّ ذلك حكاية حال، فلا تعمّ مع كون المفاداة أحد الأُمور المخيّر فيها، فاختارها لذلك لا لأصل عدم جواز الإسترقاق».

لا يعتبر في استرقاق الكفّار المحاربين حيث يجوز، أن يكون الأسير ممّن يصحّ إقراره على دينه بأن يكون له كتاب أو شبهة كتاب، حتّى لو كان من عبدة الأوثان لم يجز استرقاقه، بل يسترقّ و إن كان من عبدة الأوثان، نظراً إلى عموم مادلّ على جواز استرقاق الكافر الحربى من دون تقييد، و لا ملازمة بين إقراره بالجزية، و إقراره بالإسترقاق.

و لا يقبل من غير أهل الكتاب و هم اليهود و النّصارى و المجوس إلاّ الإسلام بلا خلاف، و لا فرق بين غيرهم أن يكون لهم كتب آدم أو إدريس أو إبراهيم أو داود أو غيرهم من الرّسل﴿عليهم السلام﴾ أو لا يكون كفرق المشركين و الدّهريّين و أمثالهم الّذين لا كتاب لهم، لأنّ المنساق من الكتاب في قوله تعالى: «قاتلوا الّذين لا يؤمنون باللّه و لا باليوم الآخر و لا يحرّمون ما حرّم اللّه و رسوله و لا يدينون دين الحقّ من الّذين أُوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون» التّوبة: ٢٩).

هو التّوراة و الانجيل، مع إجماع المحقّقين من المفسّرين على أنّ اللام في «الكتاب» للعهد إليهما، و أمّا إلحاق المجوس بهما فلظهور النّصوص عليه، فلا خلاف في عدم كون غيرهم من أهل الكتاب، بل الظّاهر عدم إلحاق حكم اليهود و النّصارى و المجوس الكتابيين لمن تهوّد أو تنصّر أو تمجّس بعد نسخ كتبهم بالقرآن الكريم.

الفصل الثّاني: يستدلّ بقوله تعالى: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ماذا قال اٰنفاً اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهوآءهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٦). على كفر المنافقين و خلودهم في النّار، لأنّ ضمير الجمع في «منهم» راجع إلى الكفّار الخالدين في النّار، و يسقون مآءً حميماً و تقطّع أمعآءهم، و إن كان المنافقون بين المسلمين، و يحكم عليهم ما يحكم عليهم كما أنّ الشّيطان كان بين الملائكة المقرّبين، و كان من نوع الجنّ و خلق من النّار.

الفصل الثّالث: يستدلّ بقوله سبحانه: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٩) على وجوب قبول التّوحيد بالأدلّة النّقليّة من الكتاب والسّنّة، و هو التّوحيد التّقليدي الّذى صحّت به الشّريعة لعامّة النّاس بصدق شهادة صحّحها في الشّرع قبول قلوبهم لها تقليداً و إن لم يقدروا على الاستدلال و سلمت قلوبهم من الشّبهة و الحيرة و الشكّ...

الفصل الرّابع: أن يستدلّ بقوله تعالى: «و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٩) على وجوب الإستغفار على المؤمن للمؤمنين و المؤمنات للأحيآء و الأموات بنآء على أنّ الخطاب لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المراد به اُمّته المؤمنون، و لهم في رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ اُسوة حسنة: «لقد كان لكم في رسول اللّٰه اُسوة حسنة لمن كان يرجوا اللّٰه و اليوم الآخر و ذكر اللّٰه كثيراً» الأحزاب: ٢١).

و على أنّ استغفار المستغفرين للمؤمنين و المؤمنات ينفعهم حيّاً و ميّتاً بأن يزيد ثوابهم و يخفّف عقابهم و إلّا كان لغواً، و الرّوايات الوارده في المقام قد تكاثرت و تظافرت....

الفصل الخامس: أن يستدلّ بقوله سبحانه: «و تقطّعوا أرحامكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٢٢) على وجوب صلة الرّحم و حرمة قطعها.... و أنّ الرّحم يعمّ كلّ ذي رحم من ذوى الأرحام المعروفين بالنّسب و السّبب محرّمات أو غير محرّمات و إن بعدوا إذا كانوا من الأقارب عرفاً مع درجاتهم في القرب. و أنّ بني اميّة و بني العبّاس قطعوا أرحامهم من دون خلاف، و أنّ قطع الرّحم من الكبآئر.....

الفصل السّادس: أن يستدلّ بقوله عزّوجلّ: «اولئك الّذين لعنهم اللّٰه» محمّد﴿ﷺ﴾: ۲۳) على جواز اللّعن على المفسدين في الأرض و المقطّعي الأرحام.... حيث إنّ «اولئك» إشارة إلى كلّ واحد من الإفساد في الأرض و قطع الرّحم و قد أفسد أصحاب السّقيفة السّخيفة و أذنابهم في الأرض و قطّعوا الأرحام، فيجوز اللعن عليهم و لايشكّ فيه من كان طيّب الولادة.

في تفسير روح المعاني: قال المرجع الدّيني لأهل العراق و مفتي البغداد محمود الآلوسي البغدادي - و هو من أعاظم العامّة - في تفسير قوله سبحانه: «اولئك الّذين لعنهم اللّٰه....»: «لا توقف في لعن يزيد لكثرة أوصافه الخبيثة و ارتكابه الكبآئر في جميع أيّام تكليفه، و يكفي ما فعله أيّام استيلائه بأهل المدينة و مكّة، فقد روى الطّبراني بسند حسن اللّٰهمّ من ظلم أهل المدينة و أخافهم فاخفه و عليه لعنة اللّٰه و الملائكة و النّاس أجمعين لا يقبل منه صرف و لا عدل و الطّامّة الكبرى ما فعله بأهل البيت و رضاه بقتل الحسين على جدّه و عليه الصّلاة و السّلام و استبشاره بذلك و إهانته لأهل بيته ممّا تواتر معناه - إلى أن قال-: و أنا أقول: الّذين يغلب على ظنّي أنّ الخبيث لم يكن مصدّقاً برسالة النّبيّ﴿ﷺ﴾ و أنّ مجموع ما فعل مع أهل حرم اللّٰه تعالى و أهل حرم نبيّه﴿ﷺ﴾ و عترته الطّيّبين الطّاهرين في الحياة و بعد المات، و ما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشّريف في قذر و لا أظنّ أنّ أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين إذ ذاك، و لكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم إلاّ الصّبر ليقضى اللّٰه أمراً كان مفعولاً».

و قال الآلوسي: «و لو سلّم أنّ الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبآئر مالايحيط به نطاق البيان، و أنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التّعيين، و لو لم يتصوّر أن يكون له مثل من الفاسقين، و الظّاهر أنّه لم يتب و احتمال توبته أضعف من ايمانه، و يلحق به ابن زياد و ابن سعد و جماعة، فلعنة اللّٰه عزّوجلّ عليهم أجمعين و على أنصارهم و أعوانهم و شيعتهم و من مال إليهم إلى يوم الدّين ما دمعت عين على أبي عبد اللّٰه الحسين».

ثمّ قال: «و من كان يخشى القال و القيل من التّصريح بلعن ذلك الضّليل، فليقل: لعن اللّٰه عزّوجلّ من رضى بقتل الحسين، و من آذى عترة النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بغير حقّ و من غصبهم حقّهم، فإنّه يكون لاعناً له لدخوله تحت العموم دخولاً أوّلياً في نفس الأمر و لا يخالف أحد في جواز اللّعن بهذه الألفاظ و نحوها سوى ابن العربي المارّ ذكره و موافقيه، فإنّهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوزون لعن من رضى بقتل الحسين رضي اللّٰه تعالى عنه، و ذلك لعمري هو الضّلال البعيد الّذى يكاد يزيد على ضلال يزيد»، انتهى كلام مرجع أهل العراق و مفتي البغداد محمود الآلوسي البغدادي.

الفصل السّابع: أنّ طائفة من الأخباريّن استدلّوا بقوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها»، محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾:٢٤) على جواز فهم كتاب اللّٰه تعالى: «القرآن الكريم» و تأويل مشكلاته و حلّ مبهماته من دون حاجة إلى الرّوايات كما في المقدّمة الثّالثّة من الحدآئق: «و منهم (أي و من الأخباريّن) من جوّز ذلك حتّى كاد يدّعي المشاركة لأهل العصمة ﴿عليهم السلام﴾ في تأويل مشكلاته و حلّ مبهماته».

ثمّ قال صاحب الحدآئق: «فمن ذلك - الأخبار الواردة بعرض الحكم المختلفة فيه الأخبار على القرآن و الأخذ بما يوافقه و طرح ما يخالفه، و وجه الاستدلال أنّه لو لم يفهم منه شيء إلاّ بتفسيرهم عليهم السّلام إنتفى فائدة العرض» ثمّ أجاب عنه، فقال: «والجواب أنّه لا منافاة، فإنّ تفسيرهم عليهم السّلام إنّما هو حكاية مراد اللّٰه تعالى فالأخذ بتفسيرهم أخذ بالكتاب، و أمّا ما يرد فيه تفسير عنهم صلوات اللّٰه عليهم فيجب التّوقّف فيه وقوفاً على تلك الأخبار و تقييداً لهذه الأخبار بها».

ثمّ قال - ردّاً عليهم بأنّ الآية الكريمة لاتدلّ على مدّعاهم -: «فإنّا لا نمنع فهم شيئ من القرآن بالكلّيّة ليمتنع وجود مصداق الآية، فإنّ دلالة الآيات - على الوعد و الوعيد و الزّجر لمن تعدّى الحدود الإلهيّة و التّهديد - ظاهر لامرية فيه، و هو المراد من التّدبّر في الآية كما ينادي عليه سياق الكلام».

و استدلّ بعضى الفقهآء بالآية الكريمة على حجيّة ظواهر الكتاب بعد الفحص عن المخصّص أو المقيد أو المبيّن أو المفسّر أو النّاسخ و عدم حجيّتها قبله كما في جامع أحاديث الشيّعة باب ٢).

و في التّبيان: قال الشّيخ قدّس سرّه في تفسير الآية الكريمة: معناه: أفلا يتدبّرون القرآن بأن يتفكّروا فيه و يعتبروا به أم على قلوبهم قفل يمنعهم من ذلك، تنبيهاً لهم على الأمر بخلافه، و ليس عليها ما يمنع من التّدبّر و التفكّر و التّدبّر في النّظر في موجب الأمر و عاقبته، و على هذا دعاهم إلى تدبّر القرآن. و في ذلك حجّة على بطلان قول من يقول: لا يجوز تفسير شئ من ظاهر القرآن إلاّ بخبر و سمع، و فيه تنبيه على بطلان قول الجهّال من أصحاب الحديث: إنّه ينبغي أن يروى الحديث على ما جاء و إن كان مختلاً (محتملاً خ) في المعنى لأنّ اللّٰه تعالى دعا إلى التّدبّر و التّفقّه و ذلك منافٍ للتجاهل و التّعامي» انتهى كلامه.

و في المجمع: قال الشّيخ الطّبرسي المازندرانيّ رضوان اللّٰه تعالى عليه في تفسيرالآية الكريمة: «و في هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شئ من ظاهر القرآن إلاّ بخبر و سمع، و فيه تنبيه أيضاً على فساد قول من يقول: إنّ الحديث ينبغي أن يروى على ما جآء و إن كان مخالفاً لاصول الدّيانات في المعنى لأنّه سبحانه دعا إلى التّدبّر والتفكّر، و ذلك منافٍ للتّعامي و التّجاهل» إنتهى كلامه.

و فيه: قال رحمة اللّٰه تعالى عليه - في مقدّمة الكتاب - الفنّ الثّالث -: «و اعلم أنّ الخبر قد صحّ عن النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عن الأئمّة القائمين مقامه عليهمالسّلام: أنّ تفسير القرآن لايجوز إلاّ بالأثر الصّحيح و النّصّ الصّريح...».

و في الحدائق: قال المحدّث البحرانى قدس سرّه - في المقدمة الثّالثة-: «فمنهم (الأخباريين) مَن مَنَعَ فهم شئ منه (القرآن) مطلقاً حتّى مثل قوله: «قل هو اللّٰه أحد» إلاّ بتفسير من أصحاب العصمة صلوات اللّٰه عليهم».

و في التّفسير المبين: قال - في تفسير آية التّدبّر -: «استدلّ بهذه الآية علمآء اصول الفقه على أنّ ظواهر القرآن أصل من اصول الشّريعة و مصدر من مصادر الفقه، و قال المفسّرون: تأمرنا هذه الآية أن نتأمّل معاني القرآن بروية، و نتفهّم ما يرمى إليه من أهداف، و نتّعظ بها و نعتبر، و ما من شكّ أنّ لهذه الآية العديد من الجوانب، و قد اتّجه كلّ فريق إلى الجانب الّذى يخصّه و يهتمّ به، و نشير نحن إلى جانب آخر، و هو أنّ من

تدبّر القرآن على حقيقته فإنّه يؤمن به و يستجيب له، لانّه يؤاخي العقل و الفطرة، و يدعو إلى حياة، أكمل و أفضل، و من أعرض عنه أو استمع إليه دون أن ينتهي إلى هذا الايمان فهومن المغلفة قلوبهم» انتهى كلامه.

و **في الحدآئق:** قال - في المقدّمة الثّالثة بعد نقل آراء الأُصوليّن و الأخباريّن المختلفة -: «و القول الفصل و المذهب الجزل في ذلك ما أفاده شيخ الطّائفة رضوان اللّه عليه في كتاب التّبيان و تلقّاه بالقبول جملة من علمآئنا الآعيان، حيث قال بعد نقل جملة من أخبار الطّرفين، ملخّصه: «و الّذي نقول: إنّ معاني القرآن على أربعة أقسام:

أحدها- ما اختصّ اللّه تعالى بالعلم به، فلا يجوز لأحد تكلّف القول فيه.

و **ثانيها**- ما يكون ظاهره مطابقاً لمعناه، فكلّ من عرف اللّغة الّتي خوطب بها عرف معناه مثل قوله: «و لا تقتلوا النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ...» الأنعام: ١٥١).

و **ثالثها**- ما هو مجمل لاينبئى ظاهره عن المراد به مفصّلاً مثل قوله: «أقيموا الصّلاة» الأنعام: ٧٢). ثم ذكر جملة من الآيات الّتي من هذا القبيل، و قال: إنّه لايمكن استخراجها إلاّ ببيان من النّبيّ ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾.

و **رابعها**- ما كان اللفظ مشتركاً بين معنيين فما زاد عليها، و يمكن أن يكون كلّ واحد منها مراداً، فإنّه لاينبغي أن يقدّم أحد فيقول: إنّ مراد اللّه بعض ما يحتمله إلاّ بقول نبيّ أو إمام معصوم ﴿عليه السلام﴾ إلى آخر كلامه زيد في إكرامه.

ثمّ قال صاحب الحدائق: «و عليه تجتمع الأخبار على و جه واضح المنار».

و **قال بعض المحقّقين:** «و اعلم أنّ العلماء من الفقهآء و الأُصوليّن، و الأخباريّن والمحدّثين قديماً و حديثاً قد اختلفوا في فهم كتاب اللّه تعالى و استنباط الأحكام الشّرعيّة و العمل به اختلافاً شديداً، و هم طائفتان:

الاولى: و هم أكثر الفقهآء و الأُصوليّن - مع إفراطهم و تفريطهم في ذلك - على فريقين:

فريق منهم: يقولون: إنّ مدارك الأحكام الشّرعيّة و أدلّتها أربعة طوليّة: الكتاب و السّنّة و العقل و الإجماع، ولكنّهم في مقام العمل و الاستنباط لايعتمدون على الكتاب كما ينبغي أولا يعتمدون عليه أصلاً كأكثر الأُصوليّن بحيث كأنّهم أجنبيّون عنه.

و فريق منهم: يزعمون أنّ الإنسان لا يستطيع أن يفهم كتاب اللّه جلّ وعلا، و قليل منهم يعتمدون على السّنّة و أكثرهم الآخرون يعتمدون على الإجماع و العقل في استنباط الأحكام الشّرعيّة...

الطّائفة الثّانية: و هم الأخباريّون - مع إفراطهم و تفريطهم في ذلك أيضاً - على فريقين:

فريق منهم: يمنعون فهم شيء من القرآن الكريم مطلقاً حتّى مثل قوله سبحانه: «قل هو اللّه أحد» إلاّ بتفسير من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

و **فريق منهم:** يجوّزون فهم القرآن المجيد كلّه، حتّى يدّعوا المشاركة لأهل بيت الوحي عليهم السّلام في تأويل مشكلاته و حلّ مبهماته - و يقولون: حسبنا كتاب اللّه».

و **في الحدائق:** قال - بعد نقل آراء الاصوليّين و الأخباريّين المختلفة -: «و التّحقيق في المقام أنّ الأخبار - في فهم القرآن - متعارضة من الجانبين، و متضادّة من الطّرفين إلاّ أنّ أخبار المنع أكثر عدداً و أصرح دلالة، ففي جملة منها - قد ورد في تفسير قوله تعالى: «ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا...» فاطر: ٣٢) دلالة على اختصاص ميراث الكتاب بهم عليهم السّلام، و جملة في تفسير قوله تعالى: «بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين اوتوا العلم...» العنكبوت: ٤٩) بأنّ المراد بهم الأئمّة صلوات اللّه عليهم، و جملة في تفسير «قل كفى باللّه شهيداً بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب» الرّعد: ٤٣) قال: إيّانا عنى. و مثل ذلك في تفسير قوله سبحانه: «و إنّه لذكر لك و لقومك...» الزّخرف: ٤٤) و كذا في تفسير قوله تعالى: «و ما يعلم تأويله إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم...» آل عمران: ٧).

و في جملة من تلك الأخبار: «ليس شيء أبعد من عقول الرّجال من تفسير القرآن».

أقول: ليس معنى الرّواية النّهي عن التّدبّر في القرآن الكريم، و إنّما بالتّدبّر فيه يعترف المتدبّر بعجز نفسه عن إدراك أسراره و حقائقه، و حكمه و معارفه، و بخطأ عقله في فهم مبانيه و عمق معانيه، فيطلب مفسّره و مبيّنه، إذ ليس العقل مستقلاً في إدراك الحقائق فلا بدّله من معين لا خطأ له فيه.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن

أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «ذلك القرآن فاستنطقوه و لن ينطق و لكن اخبركم عنه...» الخطبة: ١٥٧).

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾: «بل كيف تعمهون و بينكم عترة نبيّكم؟ و هم أزمّة الحقّ و أعلام الدّين و ألسنة الصّدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش...» الخطبة: ٨٦).

و في **وسائل الشيّعة**: -كتاب القضاء - أبواب صفات القاضي - باب عدم جواز استنباط الأحكام النظريّة من ظواهر القرآن إلاّ بعد معرفة تفسيرها من الأئمّة عليهم السّلام - حديث ٢) في مناظرة الشّامي لهشام بن الحكم بمحضر الإمام الصّادق﴿عليه السلام﴾ - إلى أن قال: «فقال هشام: فبعد رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الحجّة؟ قال: الكتاب و السّنّة، قال هشام: فهل ينفعنا الكتاب و السّنة في رفع الإختلاف عنّا؟ قال الشّامي: نعم، قال هشام: فِلمَ اختلفت أنا و أنت و صرت إلينا من الشّام في مخالفينا إيّاك؟ فسكت الشّامي. فقال أبو عبداللّه﴿عليه السلام﴾: مالك لا تتكلّم؟ فقال: إن قلت: لم يختلف كذبت، و إن قلت الكتاب و السّنة يرفعان عنّا الاختلاف أحلت، لأنّهما يحتملان الوجوه - إلى أن قال الشّامي-: و السّاعة من الحجّة؟ فقال هشام: هذا القاعد الّذي تشدّ إليه الرّحال، و يخبرنا بأخبار السّمآء...» الحديث و لايخفي مافيه من الصّراحة على لزوم الكتاب من المبيّن له، كملازمة الجسم للرّوح في حياته.

و فيه: - في هذا الكتاب و الباب - حديث ٣) في حديث الحسن بن العبّاس بن الجريش عن أبي جعفر الثّاني﴿عليه السلام﴾ - إلى أن قال السّائل -: «أو ما يكفيهم القرآن؟ قال: بلى لو وجدوا له مفسّراً قال: و ما فسّره رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾؟ قال: بلى قد فسّره لرجل واحد، و فسّر للأُمّة شأن ذلك الرّجل و هو عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - إلى أن قال -: و الحكم ليس بشيئين إنّما هو شيئ واحد، فمن حكم بحكم ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم اللّه عزّوجلّ، و من حكم بحكم فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب فقد حكم بحكم الطّاغوت».

و في **نهج البلاغة**: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن

أبيطالب﴿؏﴾: «و هذا القرآن إنّما هو خطّ مسطور بين الدّفّتين لا ينطق بلسان، و لا بدّ له من ترجمان، و إنّما ينطق عنه الرّجال...» الخطبة: ۱۲۵).

و فيه: قال الإمام عليّ﴿؏﴾: «... و ما سوى ذلك فعلم علّمه اللّه نبيّه﴿ﷺ﴾ فعلّمنيه، و دعالي بأن يعيه صدري، و تضطمّ عليه جوانحي».

و في وسائل الشيعة: - كتاب القضاء - باب ۱۳ - حديث ۳۸) عن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبداللّه﴿؏﴾ في رسالة: «فأمّا ما سئلت عن القرآن فذلك أيضاً من خطراتك المتفاوتة المختلفة لانّ القرآن ليس على ما ذكرت، و كلّ ما سمعت فمعناه على غير ما ذهبت إليه، و إنّما القرآن أمثال لقوم يعلمون دون غيرهم. و لقوم يتلونه حقّ تلاوته و هم الّذين يؤمنون به و يعرفونه، و أمّا غيرهم فما أشدّ إشكاله عليهم و أبعده من مذاهب قلوبهم، و لذلك قال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: إنّه ليس شيء أبعد من قلوب الرّجال من تفسير القرآن، و في ذلك تحيّر الخلآئق أجمعون إلاّ من شاء اللّه، و إنّما أراد اللّه بتعميته في ذلك أن ينتهوا إلى بابه و صراطه، و أن يعبدوه و ينتهوا في قوله إلى طاعة القوّام بكتابه، و النّاطقين عن أمره، و أن يستنبطوا ما احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم، ثمّ قال: «و لوردّوه إلى الرّسول و إلى اولى الأمر منهم لعلمه الذّين يستنبطونه منهم» فأمّا عن غيرهم فليس يعلم ذلك أبداً و لا يوجد، و قد علمت أنّه لايستقيم أن يكون الخلق كلّهم و لاة الأمر لأنّهم لايجدون من يأتمرون عليه و من يبلغونه أمر اللّه و نهيه، فجعل اللّه الولاة خواصّ ليقتدي بهم، فافهم ذلك إن شاء اللّه، و إيّاك و إيّاك و تلاوة القرآن برأيك، فإنّ النّاس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الامور، و لا قادرين على تأويله إلاّ من حدّه و بابه الّذي جعله اللّه له فافهم إن شآء اللّه، و اطلب الأمر من مكانه تجده إن شآء اللّه».

و يدلّ على ذلك الحديث المتواتر بين الفريقين: شيعة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و العامّة من قول رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «إنّي تارك فيكم الثّقلين: كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً» فإنّ التّمسّك بأحدهما يوجب الضّلالة، و قوله﴿ﷺ﴾: «إنّي تارك فيكم الثّقلين: كتاب اللّه و

عترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتّى يردا عَلَيَّ الحوض» فإنّ الظّاهر أنّ المراد من عدم افتراقهما إنّما هو باعتبار الرّجوع في معاني الكتاب إليهم صلوات اللّه عليهم، و إلاّ لو تمّ فهمه كلاًّ أو بعضاً بالنّسبة إلى الأحكام الشرعيّة و المعارف الإلهيّة بدونهم لصدق الافتراق ولو في الجملة.

و في **وسائل الشّيعة**: -كتاب القضاء - باب ٥ - حديث ١٢) و عن أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: «هذا كتاب اللّه الصّامت و أنا كتاب اللّه الناطق» فلو فهم معناه بدونه(عليه السلام) لم يكن لو صفه بكونه صامتاً معنىً.

و قال صاحب الحدائق رضوان اللّه تعالى عليه: «و من ذلك أيضاً ما ورد من أنّ القرآن مشتمل على النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه و الخاصّ و العام، و المطلق والمقيّد و المجمل و المفصّل و التّقديم و التّأخير و التّغيير و التّبديل، و استفادة الأحكام الشّرعيّة من مثل ذلك لايتيسّر إلاّ للعالم بجميع ماهنالك و ليس إلاّ هم عليهم السّلام خصوصاً الآيات المتعلّقة بالأحكام الشّرعيّة، فإنّها لاتخرج عن هذه الأقسام المذكورة.

و قال: و لايخفي على الفطن المنصف صراحة هذه الأدلّة في المدّعى - لزوم فهم الوحي لأهل بيت الوحي المعصومين(عليهم السلام) - و ظنّي أنّ ما يقابلها مع تسليم التكافؤ لا صراحة له في المعارضة.

إن تسئل: فعلى ما ذكر من عدم الاعتماد على الدّليل العقلي يلزم أن لايكون العقل معتبراً بوجه من الوجوه مع أنّه قد استفاضت الآيات الكريمة، و تواترت الرّوايات عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين بالاعتماد على العقل، و العمل على ما يرجّحه و أنّه حجّة من حجج اللّه تعالى، و هو موافق للشّرع، بل هو شرع من داخل كما أنّ ذلك شرع من خارج؟

تجيب عنه: أنّ من البداهة أنّ العقول الإنسانيّة - لحكمة إلهيّة و مصالح عباديّة - مختلفة في إدراك جزئيّات الأمور و حقائق الأشيآء، و إن كانت حين صحّتها متّحدة في إدراك كلّياتها، و لاختلافها في الإدراك من جهة، و استعدادها لعروض الخطأ عليها، و عدم عصمتها عنه من جهة اخرى، تعتريها الأوهام بحيث قد تنكر مدركاتها الكلّية،

فتعرف العقول السّليمة بنفسها بالعجز عن إدراك الجزئيات و الحقآئق مستقلاً، فتطلب من لاخطأ له في إدراكها لدفع الخطاء و الأوهام عنها أو رفعها إذا اعترت عليها.

الفصل الثّامن: أن يستدلّ بقوله عزّوجلّ: «و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٠) على أنّه يجوز للقاضي الشّرعي أن يحكم بعلمه في الدّعاوي و المعاصي من أيّ طريق حصل، فإذا علم بالقتل و الغصب و السّرقة و الزّنا و شرب الخمر و ما إليها... فيعمل بعلمه و يحكم بمقتضاه، و أمّا إذا علم بكفرأحد وردّته، من دون إظهاره بهما فلايجوز له أن يحرّم مناكحته و موارثته و أكل ذبآئحه و معاشرته و نحوها لأنّ تحريمها إنّما يختصّ بمن أظهر كفره وردّته دون من أبطنهما، و إلاّ لاختلّ نظام الإسلام و المسلمين.

نعم: إنّ وليّ اللّٰه الأعظم الحجّة بن الحسن العسكرى عليهما السلام يحكم بواقع الأُمور كلّها لأنّه مأمور بذلك.

و استدلّ بعض الفقهآء بقوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول» على أنّ التّعريض بالقذف يوجب الحدّ.

الفصل التّاسع: أن يستدلّ بقوله سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعو اللّٰه و أطيعوا الرّسول» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٣) على حجّيّة سنّة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بعد الفحص، و على وجوب الطّاعة للّٰه تعالى في أوامره و نواهيه، و لرسوله﴿ﷺ﴾ في سننه، و فيما يصدر من الأمر من حيث و لايته على المؤمنين في المجتمع الدّينيّ، و على تحذير المومنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلى به اولئك المستضعفون في الايمان، المائلون إلى النّفاق الّذين انجرّ أمر بعضهم أن ارتدّوا بعد ما تبيّن لهم الهدى.

و يستدلّ بقوله تعالى: «و لاتبطلوا أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٣) على حرمة إبطال الصّلاة بعد الشّروع فيها من دون وجه شرعيّ لإبطالها، و أنّ الآية الكريمة و منها هذه الجملة و إن كانت و اقعة في سياق الآيات السّابقة المتعرّضة لأمر القتال، حيث إنّ أمر القتال مصداق من مصاديق الأعمال الّتي نُهِيَ المؤمنون عن إبطالها بالمخالفة عن أمر اللّٰه جلّ وعلا و رسوله﴿ﷺ﴾ في أمر القتال خاصّة، و في الأعمال الواجبة بالذّات أو

بالعرض كلّها من غير وجه مشروع كما هو مقتضى العموم في الآية الكريمة تمامها أمراً و نهياً.

فيجب على المؤمنين الطّاعة للّه تعالى في أوامره و نواهيه كلّها، و لرسوله ﴿ﷺ﴾ في سننه الواجبة جميعها، و يحرم عليهم إبطال أعمالهم بالمخالفة في أمر القتال، و إبطال الصّلاة بالرّياء و السّمعة أو قطعها من دون وجه مشروع، والخروج من الإحرام في الحجّ، و إفطار الصّوم كذلك، و بالمنّ و الأذىٰ في الصّدقة و نحوها...

فيحرم قطع كلّ واجب بالأصالة كالفريضة أو بالعرض كالنّافلة المنذورة من دون وجه شرعيّ لقطعه، لعموم النّهي عن إبطال الأعمال... سواء كان بنحو الإرتداد أو الرّيآء أو المخالفة أو القطع أو الإفطار أو بالمنّ و الأذى و ما إليها، و يكره قطع كل مستحبّ من دون وجه ما لم يستلزم عبثاً و لغواً و لهواً و إلاّ فيحرم، فمن دخل في صلاته و صومه و حجّه و نحوها دخولاً مشروعاً وجب عليه الإكمال و الإتمام و لايجوز له قطعها أو إبطالها من دون عذر موجّه شرعاً، كإنقاذ الغريق و المحترق، و حفظ النّفس المحترمة من المتجاوز، و حفظ المال المعتدّبه، و دفع الضرّر المالي أو الجسمي و غيرها من المصالح الدّينيّة و الدّنيويّة المشروعة.

و **لايخفي على الفقيه المتدبّر:** أنّ لجواز القطع و الابطال درجات حسب مراتب الوجوه المشروعة، فقد يجب القطع و الإبطال، و قد يستحبّ... ولوجوب القطع والإبطال أيضاً مراتب، فقد يكون الاستمرار حراماً بحيث لو استمرّ لما صحّ، فلابدّ و أن يعيد العمل، و قد لايكون مبطلاً للعمل، و إن ارتكب حراماً، و على هذا فينقسم حكم القطع و الإبطال إلى أحكام خمسة: الواجب و الحرام و المستحبّ و المكروه و المباح.

و إنّ الإبطال يتحقّق بأحد الوجوه الثّلاثة:

أحدها – إتيان العمل باطلاً كالصّلاة بقصد الرّياء و السّمعة أو من دون طهارة أو غيرها من شرآئط الصّحّة و القبول، و كالصّدقة مع المنّ و الأذى... و لذلك استدلّ المحقّقون من أهل الولآية لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين بالآية الكريمة عموماً و بهذه الجملة خاصّة على بطلان الطّاعات و العبادات و الأعمال

الصّالحة بدون ولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ حيث إنّ ولايته﴿عليه السلام﴾ شرط لقبول العبادات و الطّاعات كما كانت شرطاً لتبليغ الرّسالة: «و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٦٧) فكما أنّ الطّهارة شرط لازم لصحّة الصّلاة، كذلك الولاية لأهل بيت الوحي المعصومين عليهم أفضل صلوات اللّه شرط لقبول العبادات... فكلّ طاعة و عمل صالح بغير ولاية، فليس بطاعة و لا صالح. و المعنى: لا تشرعوا في الصّلاة على وجه البطلان و الفساد.

ثانيها - إبطال العمل بعد تمامه بمعنى إفساد أجره و ثوابه بالشّرك و الكفر و النّفاق والإرتداد و المعاصي و الكبائر... و المعنى: لاتفعلوا شيئاً موجباً لإبطالها و حبطها بعد إتمامها صحيحاً قال اللّه تعالى: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» الزّمر: ٦٥) و قال: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم - و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم - إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّه شيئاً و سيحبط أعمالهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٩ و ٢٨ و ٣٢).

ثالثها - قطع العمل حينه، و جعل ما تقدّم منه لا غياً كقطع الصّلاة من دون وجه مشروع لقطعها و المعنى: لاتقطعوها بعد الشّروع فيها صحيحاً كإتيان المنافي لها من إخراج الرّيح و البول و الغائط و التّكلّم و المشيّ و نحوها..

و تأمّل بعض الفقهآء في الوجه الثّالث غير وجيه، كما أنّ حمل بعضهم النّهي على التّنزيه حمل على ما لايرضى صاحبه، حيث إنّ النّهي عن إبطال العمل في سياق الأمر بالطّاعة للّه تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾ لايشكّ متفقّه فضلاً عن فقيه أنّه مولويّ للوجوب لا إرشاديّ يحمل على الاستحباب. و يستدلّ بقوله سبحانه: «و لاتبطلوا أعمالكم» على إثبات صحّة العبادة عند الشكّ في طرق المانع حيث إنّ حرمة الإبطال إيجاب للمضيّ فيها، و هو مستلزم لصّحتها ولو بالإجماع المركّب - بأنّ من قال بوجوب إتمام العمل، قال بصحّته - أو عدم القول بالتفكيك بينهما في غير الصّوم و الحجّ، فإنّ الواجب في الصّوم إذا افسد هو الإمساك، و في الحجّ هو العمل لا إتمامها.

الفصل التّاسع: أن يستدلّ بقوله سبحانه: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّه معكم و لن يتركم أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٥) على حرمة مهادنة

الكفّار المحاربين إلاّ عند الضّرورة، و على حرمة ترك الجهاد و القتال معهم إلاّ عند العجز.

و في الجواهر: - كتاب الجهاد - الأمر الخامس في المهادنة - «فمتى ارتفع ذلك أي مقتضى الجواز ولو على كراهة كما إذا كان في المسلمين قوّة على الخصم، و استعداد، و في الكافرين ضعف و وهن على وجه يعلم الاستيلاء عليهم بلا ضرر على المسلمين لم تجز المهادنة قطعاً لعموم الأمر بقتلهم مع الإمكان في الكتاب و السّنّة على وجه لايعارضه إطلاق قوله تعالى: «و إن جنحوا للسّلم فاجنح لها» المحمول على غير الفرض ولو بملاحظة ما كان يوصي به النّبيّ﴿ﷺ﴾ أمرآء السّرايا من الأمر بالمنابذة معهم إلاّ مع الإسلام أو الجزية من أهلها، و غيره في الكتاب و السّنّة، بل و قوله تعالى: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» و قوله تعالى: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّه معكم» و غيرها.

نعم: لا خلاف في أنّه تجوز الهدنة إلى أربعة أشهر فمادون مع القوّة.

الفصل العاشر: أن يستدلّ بقوله عزّوجلّ: «و لايسئلكم أموالكم إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٦ - ٣٧) على عدم وجوب الحقوق في الأموال و لايخرج من هذا الظّاهر إلاّ ما أخرجه دليل قاطع، فوجوب الزّكاة إنّما يرجع إلى الأدلّة الشّرعيّة و الأصل برائة الذّمّة.

و قد صرّحت الآيتان على عدم وقوع التّكليف ببذل جميع الأموال، و أنّ الإحفآء والمبالغة فيه يفضي إلى تعذّر الامتثال و انتفآء الانقياد بل إلى المخالفة و العداوة، فمقتضى الحكمة هو الاقتصار على جزء يسير منها كالعشر و نصفه أو ربعه.

و إنّما تجب الزّكاة في الغلّاة الأربع على ما يحصل في أيدي أربابها من النّمآء و الفائدة بعد وضع جميع المؤونات و إخراج حقّ السّلطان، فلا تحتسب المؤونات على أرباب الأموال إذا أدّى إلى إجحاف و إحفاء كما وقع فيما تكثر مؤوناته من السّقي بالقنوات و السّدَدَة والآبار الأرتوازيّة و ما إليها مع ايجاب العشر فيه، و إذا انتفى في بعض الصّور ثبت مطلقاً إذ لاقائل بالفرق.

و بعبارة اخرى: لو قلنا بعدم استثناء المؤون مطلقاً للزم احتسابها عليهم و إن

أجحف بجميع الأموال أو أكثرها و هو منافٍ لما صرّحت به الآيتان، فيكون بـاطلاً، فيبطل ملزومه و على هذا، فلا حاجة إلى تجشّم مؤونة انتفاء القول بالفصل.

و **بعبارة ثالثة:** أنّ الظّاهر من الآيتين الكريمتين عدم تعلّق الطّلب بالأموال مطلقاً، فيقتصر على ما يقطع بوقوع التكليف به و هو العشر أو نصفه أو ربعه فيما يبقى، و يتوقّف الزّائد عليه على دليل.

قال السّيّد المرتضى رضوان اللّه تعالى عليه في الانتصار: «المـعنى أنّـه لا يـوجب حقوقاً في أموالكم، لأنّه تعالى لا يسئلنا إلاّ على هذا الوجه، و هذا الظّـاهر يمـنع مـن وجوب حقّ في الأموال، فما أخرجناه عنه فهو بالدّليل القاطع».

و في **النّاصريات:** «ظاهر هذه الآية يقتضى أنّه لا حقّ في المال على العموم، و إنّما أوجبنا ما أوجبناه من ذلك بدليل إضطررنا إلى تخصيص العموم» و أمّا عمومات ايجاب العشر و نصفه و ربعه غير وافية به.

و **بعبارة رابعة:** أنّه يستفاد من الآيتين بمعونة المقام أنّه لا يطلب إلاّ النّذر اليسير و هو ينافي نفي الاستثناء.

إن قلت: إنّ مطلق إحتساب المؤونة على المالك إحفاء و اجحاف به، كما قال العلامة في المختلف: «إنّ المؤونة تخرج وسطاً، ثمّ يزكي الباقي و إلاّ لزم الضّرر».

و بعبارة اخرى أوردها في المعتبر: «هي أنّ إلزام المالك من دون الشّركاء حيف عليه و إضرار به، فيكون منفيّاً لقوله تعالى: «و لا يسئلكم أموالكم».

و حاصله أنّه يفهم من الآيتين نفي الإضرار في التكليف المالي المحض بخـصوصه، فيترتّب عليه الحكم بصحّة الاستثناء و عليه يحمل أيضاً ما تمسّك به في المنتهى من أنّ إلزام المالك بالمؤونة كلّها حيف عليه و إضرار به، فيكون منفيّاً، على معنى أنّ الإجحاف في طلب الأموال بالحيف على المالك منفيّ بهاتين الآيتين و ما يجرى مجـراهـا أو بأنّ الإضرار في خصوص الزّكاة منفيّ إلاّ أنّ مبناها على المسامحة، فإنّها مؤاساة فلا تتعقّب الضّرر كما صرّح به.

قلت: إنّ مثل هذا الإضرار غير ملتفت إليه في نظر الشّرع، و إلاّ سقطت التكاليف

كلّها. و إنّه إن أراد بهذا الإضرار خصوص الإضرار المالي المحض، فالإلتفات إلى مثله لايوجب سقوط التكاليف البدنيّة كالطّهارة و الصّلاة و الصّوم لا مايشوبه المال كالحجّ و الجهاد ممّا ينفق فيه على أربابه، و يجعل ذريعة لتحصيله و لايتكرّر كلّ عام.

و أمّا الخمس فمثل هذا الإضرار فيه منتف أيضاً لانّه بعد المؤونة.

و إذا اريد نفي الإضرار في خصوص الزّكاة فأظهر. و إن أراد به الأعمّ من المالي فلا نقض، إذ الاستدلال خاصّ، على أنّه لاينتقض بالتكاليف، و إن احتجّ بالعامّ حيث أُطلق، بمعنى أنّ مطلق الإضرار منفيّ بما ثبت في الشّريعة السّمحة السّهلة من انتفاء العسر و الحرج و الضّيق و الضّرر، لأنّه يعتبر في الضّرر المنفيّ كونه بحيث لايتحمّله الجمهور عادة، و ظاهر أنّه لا يجزئ في سآئر التكاليف بخلاف الإجحاف في الأموال المؤدّي إلى البغضآء و كراهة الدّين المنجر إلى الارتداد و الفضاحة: «و يخرج أضغانكم».

و فيه تنبيه على أنّ مقتضى اللّطف و هو ما يقرب إلى الطّاعة و يبعد عن المعصية، هو العفو عن هذا التكليف المقتضي للمخالفة و العصيان، و إلاّ لاختلّ أمر الفلاحة والعمران كما هو المشاهد، فلا يصدر من اللطيف الرّؤوف الحكيم العليم ما يؤدّي إلى اختلال نظم المعاش و المعاد، فسامح جلّ وعلا أرباب الأموال و سهّل أمرها، و أمر بالعفو و التّخفيف و تفويض الأمر إليهم، و على المصدّق أن يصدقهم في مواضع شتّى، فكيف يشدد عليهم بايجاب ما يذهب بها.

فالمستفاد من الآيتين الكريمتين نفي طلب جميع الأموال على كلّ حال، قضيّة للجمع المضاف: «أموالكم» كما في قوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة» التّوبة: ١٠٣) فالمعنى: أنّه سبحانه لا يسئل جميع أموالكم...

في فقه القرآن: - كتاب الزّكاة - الباب الأوّل فيما تجب فيه الزّكاة و كيفيّتها و ما تستحبّ فيه الزكاة) قال الرّاوندي رضوان اللّه تعالى عليه: «الزّكاة عندنا لاتجب إلاّ في تسعة أشياء بيّنها رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الدّليل عليه من القرآن قوله تعالى: «ما آتاكم الرّسول فخذوه» الحشر: ٧) «و أنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم» النّحل: ٤٤).

و هي: الأنعام و الأثمان و الغلّات و الثّمار، و ما عداها من الحبوب تستحبّ فيه

الزّكاة. و الّذي يدلّ على صحّته - زائداً على إجماع الطّائفة - قوله تعالى: «و لا يسئلكم أموالكم» و المعنى أنّه لايوجب في أموالكم حقوقاً لأنّه تعالى لايسئلنا أموالنا إلاّ على هذا الوجه، و هذا الظّاهر يمنع من وجوب حقّ في الأموال ممّا أخرجناه، فهو بالدّليل القاطع، و ما عداه باقٍ تحت الظّاهر.

فإن تعلّق المخالف بقوله: «و آتوا حقّه يوم حصاده و لا تسرفوا إنّه لايحبّ المسرفين» الأنعام: ۱۴۱) و أنّه عامّ في جميع الزّروع و غيرها ممّا ذكر في الآية.

فالجواب عنه: أنّا لانسلّم أنّ قوله: «و آتوا حقّه» يتناول العشر و نصف العشر المأخوذ على سبيل الزّكاة، فمن ادّعى تناوله لذلك فعليه الدّلالة.

و عند أصحابنا أنّ ذلك يتناول مايعطى المسكين و الفقير المجتاز وقت الحصاد والجذاذ من الجفنة و الضّغث، فقدرووا ذلك عن الأئمّة عليهم السّلام فمنه ما روي عن أبي جعفر﴿علیه السلام﴾ في قوله: «و آتوا حقّه يوم حصاده» قال: ليس ذاك الزّكاة ألاترى أنّه قال: «و لا تسرفوا إنّه لايحبّ المسرفين».

و هذه نكتة منه﴿علیه السلام﴾ مليحة لأنّ النّهي عن السّرف لايكون إلاّ فيما ليس بمقدر والزّكاة مقدّرة و ليس لأحد أن يقول: إنّ الإسراف ههنا هو أن يعطى غير المستحقّ لأنّ ذلك مجاز، و لايجوز ترك الظّاهر الّذي هو الحقيقة و الخروج إلى المجاز إلاّ بدليل و لا دليل ههنا. و روي عن أبي عبداللّه﴿علیه السلام﴾ أنّه قيل له: يابن رسول اللّه و ما حقّه؟ قال: يناول منه المسكين و السّائل.

و الأحاديث بذلك كثيرة، و يكفي احتمال اللفظ، و إن كان يقوي هذا التأويل أنّ الآية تقتضي أن يكون العطآء في وقت الحصاد و العشر المفروض أو نصفه في الزّكاة لا يمكن في تلك الحال لأنّ العشر أو نصفه مكيل و لايؤخذ إلاّ من المكيل، و في وقت الحصاد لايكون مكيلاً و لايمكن كيله، و إنّما يكال بعد تذريته و تصفيته، فتعليق العطاء بتلك الحال لا يمكن إلاّ بما ذكرناه.

و يقوي هذا التّأويل ما روي عن النّبي﴿صلی الله علیه و آله﴾ من النّهي عن الحصاد و الجذاذ باللّيل، و إنّما نهى عن ذلك لما فيه من حرمان المساكين ما ينبذ إليهم من ذلك، ألاترى

إلى قوله تعالى: «إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين و لا يستثنون» القلم: ١٧-١٨).

و ما يقوله قوم في قوله: «و آتوا حقّه يوم حصاده» من أنّها مجملة و لا دليل فيها، فليس بصحيح لأنّ الإجمال هو مقدار الواجب لا الموجب فيه» انتهى كلامه.

و في الجواهر: -كتاب الزّكاة - في عدم وجوب الزّكاة إلاّ بعد إخراج المؤن) قال: «و ما في إلزام المالك بالمؤونة كلّها من الحرج. و الضّرر عليه، مع أنّ الزّكاة إنّما شرعت صلة، و ما فيه أيضاً من تنفير النّاس عن القيام بأمر الزّرع و الغرس، أو حملهم على المعصية بمخالفة الأمر بما يشقّ و هو خلاف اللطف الواجب، و قد وقع إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: «و لا يسئلكم أموالكم» و تعليله ذلك: «إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج أضغانكم» و ما فيه أيضاً من لزوم التّكرار في زكاة الغلّة لو اخرجت منها جميعها مع تزكية البذر سابقاً، إلى غير ذلك ممّا لا يقدح المناقشة في بعضه مع سلامة المجموع الّذي يمكن حصول القطع بملاحظته».

﴿بحث عميق علميّ كلاميّ و مذهبيّ﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور حول عشرة بصآئر:

البصيرة الاولى: أنّ بعض المحقّقين قد استدلّ بقوله عزّوجلّ: «أضلّ أعـمالهم - و أضلّ أعمالهم - فأحبط أعمالهم - فأحبط أعمالهم - و سيحبط اللّه أعمالهم - و لاتبطلوا أعمالكم» محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾: ١ و ٨-٩ و ٢٨ و ٣٢-٣٣) على صحّة حبط العـمل، و هـو خروج المؤمن المطيع عن استحقاق المدح و الثّواب إلى استحقاق الذّمّ و العقاب بسبب الكفر و المعصية بعد الايمان و الطّاعة كما أنّ إبليس لمّا أبى و استكبر - بعد أن عبداللّه آلاف سنين - حبط عمله، و عوقب بكفره و معصيته من دون استحقاقه لثواب عبادته السّابقة ، و عكس الحبط هو التكفير، و هو خروج الكافر العاصي عن استحقاق الذّمّ والعقاب إلى استحقاق المدح و الثّواب بسبب الايمان و التّقوى بعد الكفر و الفجور...

أقول: إنّ الحبط ثابت عقلاً و نقلاً، خلافاً لبعض المتكلّمين و الاصوليين و أتباعهم الّذين يعطفون القرآن الكريم و الرّوايات المتواترة على آرآئهم الضّعيفة و يؤوّلونها بما لن يرضى صاحبها.

و إنّ الحبط هو محق الحسنات بسيّئة لاحقة، و إنّ الكفر و الضّلالة و البغي و الجناية، و الرّيآء و السّمعة و ما إليها من الكبائر تحبط الأعمال الصّالحة كما أنّ إخـراج الرّيح و الغائط و البول حين الصّلاة تبطلها بلامرآء لمن له أدنى مسكة فضلاً عن فقاهة.

و إدّعاء بعض الجهلة المتلوّنة بعدم الأدلّة العقليّة و النّقلية على الحبط، فعليه الخبط و هو لا يفهم.

في نهج البلاغة: -الخطبة القاصعة - قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «... فاعتبروا بما كان من فعل اللّٰه بإبليس، إذ أحبط عـمله الطّويل، و جهده الجهيد - و كان قد عبداللّٰه ستّة آلاف سنة لا يُدرى أمِن سني الدّنيا أم من سني الآخرة - عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم عـلى اللّٰـه بمـثل معصيته؟ كلاّ! ما كان اللّٰه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إنّ حكمه في أهل السّمآء و أهل الأرض لواحد، و ما بين اللّٰه و بين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمىً حرّمه على العالمين».

قوله﴿عليه السلام﴾: «ملكاً» أي كان بين الملائكة الّذين اُمروا بالسّجدة لآدم﴿عليه السلام﴾ و إن كان من الجنّ قال اللّٰه تعالى: «و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه أفتتّخذونه و ذرّيّته أولياء من دوني و هم لكم عدوّ بئس للظّالمين بدلاً» الكهف: ۵۰).

و في نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «ومن ضرب على فخذه عند مصيبته حبط أجره».

و في أمالي الصّدوق رحمة اللّٰه تعالى عليه بإسناده عن أحمد بن محمّد بن خـالد البرقي عن أبي عبداللّٰه الصّادق﴿عليه السلام﴾ عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: «من قال: سبحان اللّٰه غرس اللّٰه له بها شجرة في الجنّة، و من قال: الحمد للّه غرس اللّٰه له بها شجرة في الجنّة، و من قال: لا إله إلاّ اللّٰه غرس اللّٰه له بها شجرة في الجنّة، و من قال: الله أكبر غرس الله له شجرة في الجنّة، فقال رجل من قريش: يـا رسـول الله إنّ شجرنا في الجنّة لكثير! قال: نعم ولكنّ إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، و ذلك أنّ اللّٰه عزّوجلّ يقول: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لاتـبطلوا أعمالكم» و صلّى اللّٰه على محمّد و آله».

أقول: و من دون مرآء و ريبة لمن له الفقه و الدّراية و التدبّر في الكتاب و السّنّة

الثّابتة أنّ الشّرك و الغواية، و الكفر و الضّلالة، و البغي و الجناية و الظّلم و الخيانة، و مخالفة أمر اللّه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و الرّيآء و السّمعة و ما إليها من الكبائر كلّها نار تحرق أشجار الجنّة و تبطل الأعمال الصّالحة إلاّ من تاب و آمن و عمل صالحاً قبل إضاعة الفرصة، و التشكيك فيها ليس إلاّ من وساوس الشّياطين المردة...

فمن أحدث في صلاته قبل تسليمها، فصلاته باطلة، فلابدّ من إقامتها و إعادتها ثانياً مع شرائطها فمن لم يعدها فهو تاركها بلامرآء، و إنّما الكفر و الكبائر في إحباط الأعمال كالحدث في إيطال الصّلاة سوآء بسوآء، فلا يختصّ الإحباط بالكفّار و المشركين كما توهّم بعض المتخبّطين...

و قد استدلّ بعض المحقّقين الخبرآء بقوله جلّ وعلا: «كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم - فلن يضلّ اللّه أعمالهم - سيهديهم و يصلح بالهم - و لن يتركم أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٢ و ٤ - ٥ و ٣٥) على تكفير السّيّئات بالايمان و صالح الأعمال...

أقول: و سيأتي بحث الحبط و التكفير إن شآء اللّه تعالى تفصيلاً فانتظر.

البصيرة الثّانية: أنّ بعض المحقّقين استدلّوا بقوله سبحانه: «و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اوتوا العلم ما ذا قال انفاً اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم و اتّبعوا أهوءهم - و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم - فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم - إن الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّه يعلم إسرارهم - ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم - و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّه شيئاً و سيحبط أعمالهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٦ و ٢٠ و ٢٢-٢٣ و ٢٥-٢٦ و ٢٨ و ٣٢) على كفر أصحاب السّقيفة و ارتدادهم و حبط أعمالهم لكراهتهم بما أنزل اللّه و اتّباعهم

ما أسخط اللّٰه، و مخالفتهم و مشاقّتهم لرسول اللّٰه ﴿صلی الله علیه و آله﴾.

في دلائل الصّدق - شرح نهج الحق و كشف الصّدق للعلاّمة الحلّي رضوان اللّٰه تعالى عليه - المسئلة الخامسة - تعيين إمامة علي ﴿علیه السلام﴾ بالقرآن - آية مشاقّة النّبي ﴿صلی الله علیه و آله﴾: قوله تعالى: «و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى» محمّد ﴿صلی الله علیه و آله﴾: ٣٢) قال رسول اللّٰه ﴿صلی الله علیه و آله﴾: في أمر علي ﴿علیه السلام﴾.

قال الشّارح المحقّق المظفّر الخبير رحمة اللّٰه تعالى عليه: «لا يفهم من أمر علي ﴿علیه السلام﴾ إلاّ خلافته، فإنّها أظهر أمر يعود إليه وقعت به المشاقّة في حياة النّبي ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و بعده: فمرّة نسبوا إليه فيه الغواية، و اخرى الهجر، و ثالثة قول الحارث بن النّعمان الفهري: اللّٰهمّ إن كان ما يقول محمّد حقّاً فامطر علينا حجارة من السّمآء، و رابعة بيعة السّقيفة، و خامسة قهره على البيعة إلى ما لايُحصى من المشاقّة في أمره للرّسول في حياته و بعده، و يؤيّد هذا الحديث ما سبق في الآية السّابقة و ما رواه الحاكم في المستدرك - من الجزء الثالث: ص ١٤٠ - عن علي ﴿علیه السلام﴾ و صحّحه قال: «إنّ ممّا عهد إليّ النّبي ﴿صلی الله علیه و آله﴾ أنّ الأمّة ستغدربي بعده» إلى نحوه من الأخبار.

البصيرة الثّالثة: أن يستدلّ بقوله تعالى: «إنّ اللّٰه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار... - مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من مآء غير آسن و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه و أنهار من خمر لذّه للشّاربين و أنهار من عسل مصفّي و لهم فيها من كلّ الثّمرات و مغفرة من ربّهم كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم» محمّد ﴿صلی الله علیه و آله﴾: ١٢ و ١٥) على المعاد الجسماني بأنّ ثواب أهل الجنّة هو الإلتذاذ بالمآكل و المشارب و المساكن و المناظر و المناكح و ما تدركه حواسّهم ممّا يطبعون على الميل إليه، و يدركون مرادهم بالظّفر به، و ليس في الجنّة من الإنسان من يلتذّ بغير مأكل و لا مشرب و لا ما تدركه الحواس من الملذوذات.... كما أنّ عقاب أهل جهنّم هو عذابهم بنارها و حميم مآءها و غسلينها و ما تدركه حواسّهم...

و فيه ردّ على الفلاسفة و مردتهم المتوهّمين الّذين يتقوّلون بالمعاد الرّوحاني بأنّ المطيعين في الحياة الدّنيا يصيرون في الجنّة ملائكة أو مثلها لا يطعمون و لا يشربون و لا

ينكحون بل يلتذّون بالتّسبيح و التّقديس من دون أكل و شرب و نكاح... و إنّ العاصين في الدّنيا يصيرون في جهنّم أجنّة أو مثلها يعذّبون روحياً كالنّائم الّذي قد يعذّب في رؤياه، و هم من الّذين يعطفون الهدى على الهوى و يؤوّلون الكتاب و السّنّة الثّابتة على آرائهم...

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى، و يعطف الرّأى على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرّأي» الخطبة: ١٣٨).

البصيرة الرّابعة: أنّ في قوله عزّوجلّ: «إنّ اللّه يدخل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار و الّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النّار مثوى لهم - أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهوآءهم مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون -كمن هو خالد في النّار و سقوا مآءً حميماً فقطّع أمعآءهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٢ و ١٤-١٥) من تعليق الحكم على الوصف مشعراً بعلّيّة الوصف للحكم ما لا يخفي على أهل فضل و دراية،بأنّ من اتّصف بالايمان و التّقوى و صالح الأعمال، فهو من أهل الجنّة، و من اتّصف بالكفر و الطّغيان و فساد الأعمال فهو خالد في النّار.

و في الآيات الكريمة ردّ على المجبّرة و الأشاعرة الّذين صرّحوا بأنّ اللّه سبحانه يجوز له - مع عدله و حكمته - أن يجمع الأنبيآء و المرسلين، و الأوصياء و المعصومين، و الملائكة المقرّبين و عباده الصّالحين و الشّهداء و الصّدّيقين، فيخلّدهم في الجحيم و العذاب الأليم أبد الآبدين، و أن يجمع الأشقياء و المشركين، و الكفّار و الملحدين، و الزّنادقة و المنافقين و الفسّاق و المستكبرين، و الفجّار و المجرمين و إبليس و الشّياطين، و يخلّدهم في الجنّة و النّعيم أبد الآبدين.

و زعموا أنّ ذلك من العدل و الإنصاف إذ يتصرّف في ملكه كيف يشآء، و ما قدروا اللّه حقّ قدره، و من أعجب ما يعتذرون به أنّ أفعال العباد لو كانت صادرة منهم لكانوا شركآء للّه، فاقتضى التّعظيم إسناد الأفعال كلّها إلى اللّه، و هذا عذر أقبح من الفعل

القبيح إذ أيّ شركة تكون لعبد لم يكن شيئاً مذكوراً أوجده اللّٰه تعالى بعد العدم تنسب قبائح الأفعال إليه دون ربّه، و أيّ عقل يحكم بأنّ أفعال العبيد الّذين هم بمكـان مـن الضّعف و الحقارة أفعال اللّٰه سبحانه؟! و كيف يكون فعل الفاعل لذاته كفعل الفاعل بغيره، و لو فرض - محالاً - أنّ العبد يصدر منه فعل مثل فعل اللّٰه لم يـقتض ذلك أن يكون شريكاً له، مع أنّ من الفروق بين فعل اللّٰه تعالى و فعل الإنسان، هو الفرق بين خلق الإنسان و مجسّمته و تمثاله...

و من أعجب ما يحتجّون به أنّ العبد لو فعل شيئاً باختياره كان ذلك دليلاً على عجز اللّٰه سبحانه حيث يقع منه ما لايريده من المعاصي... و هذه سفسطة سـو فسـطائيّة فلسفيّة إذ أىّ عجز يلحق المالك إذا جعل عبده مختاراً في أفعاله... سواء فعل العبد ما يكرهه مولاه أو يحبّه، مع قدرته على قهره و إعدامه، فأيّ عجز يلزم من ذلك و أيّ قهر و غلبة للعبد؟ ألاترى أنّ السّلطان العظيم ربّما أنعم على من ليس على طريقته و جعله مختاراً في أمره مع دلالة ذلك على عجزه و ضعفه؟

و هم ذهبوا إلى أن لا فاعل إلاّ هو و لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو، و اسـندوا جمـيع الأفعال الحسنة و القبيحة إلى اللّٰه سبحانه، و يقولون: إنّ ذوات العباد كالآلات لأفعاله تعالى فإنّ الأفعال كلّها مستهكلة في جنب فعله سبحانه و تأثيره، و مضمحلّة في فاعليّة المطلق و لا فاعل إلاّ هو. و هم مردة الشّيطان و أتباعه إذ أسند غوايته و تمرّده إلى اللّٰه سبحانه: «قال ربّ بما أغويتنى» الحجر: ۳۹).

و قد تشبّثوا بقوله سبحانه: «اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و اتّبعوا أهواءهم والّذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم» محمّد(ﷺ): ۱۶ - ۱۷) على عقائدهم السّخيفة بأنّ اللّٰه اسند الطّبع و التّقوى إلى نفسه.

في تفسير روح المعانى: قال الآلوسي في قوله تعالي: «و اٰتاهم تقواهم» أى أعطاهم تقواهم ايّاه جلّ شأنه بأن خلقها فيهم بنآء على مايقوله الأشاعرة في أفعال العباد أو بأن خلق فيهم قدرة عليها مؤثّرة في فعلها بإذنه سبحانه على ما نسبه الكوراني إلى الأشعري و سائر المحقّقين في أفعال العباد من أنّها بقدرة خلقها اللّٰه تعالى فيهم مؤثّرة بإذنه تعالى، و

قول بعضهم بأن جعلهم جلّ شأنه متّقين له سبحانه يمكن تطبيقه على كلّ من القولين».

أقول: إنّ اللّه تعالى أقدر عباده على الايمان و الكفر، على الهداية و الضّلالة، و على التّقوى و الفجور... إذ قال: «و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها» الشّمس:٧-٨) و جعل لهم الاختيار في التّرك و القبول، و قال: «قد أفلح من زكّاها و قد خاب من دسّاها» الشّمس: ٩-١٠) تحقيقاً لحكمة التكليف و الإختبار: «فمن شآء فليؤمن و من شآء فليكفر» الكهف: ٢٩).

و في قوله تعالى: «اولئك الّذين طبع اللّه على قلوبهم واتّبعوا أهوآءهم» مع ملاحظة ما قبله إخبار عن واقعيّة سوداء هم عملوا في تكوينها و في تمهيد أسباب و جودها إذ استهزؤا بآيات اللّه جلّ وعلا و أبطنوا الكفر بها، فهم بأنفسهم السّبب العامل لتكوين طبع قلوبهم من دون إذن لهم في ذلك كما توهّم بعضهم كمن أسقط نفسه من الشّاهق فيموت، كما أنّ الآية التّالية إخبار عن حقيقة بيضاء هم عملوا في تكوينها و في تمهيد أسباب وجودها إذ اهتدوا بآيات اللّه تعالى، فزادهم اللّه هدى إذ قال: «و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ اللّه لمع المحسنين» العنكبوت: ٦٩).

حيث إنّ الهداية ههنا بمعنى العناية الخاصّة و اللّطف الخاصّ يختصّ بهما المؤمنون حقّاً، المتنوّرون بنور العقل، السّآئرون على هدى الرّسل، و المجاهدون في سبيل اللّه تعالى و المستعدّون بأنفسهم للإهتداء بآيات اللّه جلّ وعلا و قبول التّقوى.

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه في قوله تعالى: «زادهم هدى»: و الوجه في إضافة الزّيادة في الهدى إلى اللّه هو مايفعله تعالى بهم من الألطاف الّتي تقوي دواعيهم إلى التّمسّك بما عرفوه من الحقّ و تصرّفهم عن العدول إلى خلافه، و يكون ذلك تأكيداً لما عملوه من الحقّ، و صارفاً لهم عن تقليد الرّؤسآء من غير حجّة ولا دلالة».

و قال قدّس سرّه في قوله سبحانه: «آتاهم تقواهم»: و لا يجوز أن يكون المراد خلق لهم تقواهم لأنّه يبطل أن يكون فعلهم» إنتهى كلامه.

البصيرة الخامسة: أنّه استدلّ بعض العلمآء بقوله تعالى: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٩) على أنّ التّوحيد أمر إكتسابيّ و ليس بفطريّ.

أقول: إنّ كلمات الأعلام مختلفة في المقام:

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه في تفسير قوله تعالى: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه»: و في ذلك دلالة على أنّ المعرفة باللّٰه اكتساب، لأنّها لو كانت ضروريّة لما أمر بها» انتهى كلامه.

و **في النّكت الإعتقاديّة:** - الفصل الأول - قال الشّيخ المفيد رضوان اللّٰه تعالى عليه: «فإن قيل: ما الدّليل على أنّه واحد لا شريك له؟ فالجواب: الدّليل على ذلك من العقل و النّقل: أمّا العقل فلأنّه لو كان مع الحكيم إله آخر لإمتنع منه نفيه لكونه كذباً منافياً للحكمة، لكن الحكيم قد نفاه، فنفيه دليل على انتفائه، و إلاّ لم يكن الحكيم حكيماً، و أمّا النّقل فلقوله تعالى: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه» و لقوله تعالى: «إنّما إلهكم إله واحد» و أمثال ذلك».

و **في نهج الحقّ و كشف الصّدق:** - المسئلة الثّانية في النّظر - البحث الثّالث - قال العلاّمة الحلّي رحمة اللّٰه تعالى عليه: «إنّ معرفة اللّٰه تعالى واجبة بالعقل، الحقّ أنّ وجوب معرفة اللّٰه تعالى مستفاد من العقل، و إن كان السّمع قد دلّ عليه بقوله: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّٰه» لأنّ شكر المنعم واجب بالضّرورة، و آثار النّعمة علينا ظاهرة، فيجب أن نشكر فاعلها، و إنّما يحصل بمعرفته، و لأنّ معرفة اللّٰه تعالى واقعة للخوف الحاصل من الاختلاف، و دفع الخوف واجب بالضّرورة...».

أقول: و قد اختلفت كلمات العلمآء قديماً وحديثاً في معرفة اللّٰه تعالى هل هي ضروريّ لايحتاج إلى سمع، أو اكتسابيّ يحتاج إلى سمع، أو ضروريّ قد يعتريه الخطأ فيحتاج إلى سمع مصون عن الخطأ ليرفعه عنه:

فمنهم: من يقول: إنّ العقل يستطيع أن يعرف اللّٰه جلّ وعلا - إجمالاً - مستقلاً فلا يحتاج في معرفته تعالى إلى سمع.

و **منهم:** من يقول: إنّ العقل لايستطيع ولو إجمالاً - فلابدّ له من سمع فيها.

و **منهم:** من يقول: إنّ العقل يستطيع أن يعرف ربّه، و لكنّه قد يعتريه الخطأ بحيث قد ينكره فلابدّ له من سمع فيها، مصون عن السّهو و الخطأ و الزّلل، ليرفعها عنه.

أقول: و الثّالث - عندي - هو المؤيّد بالعقل السّليم و النّقل الصّحيح، حيث إنّ العقل بنفسه يعترف باعتراء الخطأ و السّهو و الزّلل عليه في مقاصده و مدركاته... فهو بنفسه يطلب من لا خطأ و لا سهو و لا زلل فيها ليرفع عنه إذا اعترته عليه، كمن قصد مقصداً لا ريب فيه، و لكنّه يعلم بأنّه في عرضة الخطأ و الخطر في الطّريق إليه، فيطلب هادياً عارفاً مصوناً عنهما ليصله به.

و قد أشار تعالى إليه بقوله: «رسلاً مبشّرين و منذرين لئلاّ يكون للنّاس على اللّٰه حجّة بعد الرّسل و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً» النّساء: ۱۶۵).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و اصطفى سبحانه من وُلده - آدم - أنبيآء أخذ على الوحي ميثاقهم و على تبليغ الرّسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللّٰه إليهم، فجهلوا حقّه، و اتّخذوا الأنداد معه، و احتالتهم الشّياطين عن معرفته، و اقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبيائه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتّبليغ،و يُثيروا لهم دفآئن العقول، و يُروهم الآيات المقدّرة...» الخطبة الاولى.

و في كتاب التّوحيد: - باب أنّه عزّوجلّ لايُعرف إلاّ به - حديث ۱۰) قال الشّيخ الصّدوق رضوان اللّٰه تعالى عليه - بعد نقل الحديث العاشر -: «قال مصنّف هذا الكتاب: القول الصّواب في هذا الباب هو أن يقال: عرفنا اللّٰهَ باللّٰه لأنّا إن عرفناه بعقولنا فهو عزّوجلّ واهبها، و إن عرفناه عزّوجلّ بأنبيآئه و رسله و حججه﴿عليهم السلام﴾ فهو عزّوجلّ باعثهم و مرسلهم و متّخذهم حُجَجاً، و إن عرفناه بأنفسنا فهو عزّوجلّ محدثها، فبه عرفناه.

و قد قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: «لو لا اللّٰه ماعُرِفنا، و لولا نحن ما عُرِفَ اللّٰه» و معناه: لولا الحجج ما عُرِفَ اللّٰه حقّ معرفته، و لولا اللّٰه مع عُرِفَ الحجج، و قد سمعتُ بعضَ أهل الكلام يقول: لو أنّ رجلاً وُلِدَ في فلاة من الأرض، و لم يَرَ أحداً يهديه و يُرشده حتّى كبر و عقل و نظر إلى السّماء و الأرض لدلّه ذلك على أنّ لهما صانعاً و مُحدِثاً، فقلت:

إنّ هذا شيء لم يكن، هو إخبار بما لم يكن أن لو كان كيف كان يكون، و لو كان ذلك لكان لايكون ذلك الرّجل إلاّ حجّة اللّه تعالى ذِكْرُهُ على نفسه، كما في الأنبيآء عليهم السّلام.

منهم من بُعِثَ إلى نفسه، و منهم مَن بُعِثَ إلى أهله و وُلْدِه، و منهم من بُعِثَ إلى أهل محلّته، و منهم من بُعث إلى أهل بلده، و منهم من بعث إلى النّاس. و أمّا استدلال إبراهيم الخليل﴿عليه السلام﴾ بنظره إلى الزّهرة ثمّ إلى القمر ثمّ إلى الشّمس، و قوله لمّا أَفَلَت: «يا قوم إنّي بريئ ممّا تشركون» فإنّه﴿عليه السلام﴾ كان نبيّاً مُلهماً مبعوثاً مرسلاً، و كان جميع قوله بإلهام اللّه عزّوجلّ إيّاه، و ذلك قوله عزّوجلّ: «و تلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه».

و ليس كلّ أحد كإبراهيم﴿عليه السلام﴾ و لو استغنى في معرفة التّوحيد بالنّظر عن تعليم اللّه عزّوجلّ و تعريفه لما أنزل اللّه عزّوجلّ ما أنزل من قوله: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه» و من قوله: «قل هو اللّه أحد...» إلى آخرها. و من قوله: «بديع السّموات و الأرض أنّى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة - إلى قوله - و هو اللّطيف الخبير» و آخر الحشر و غيرها من آيات التّوحيد.

و في اصول الكافي: -كتاب التوحيد - باب أنّه لايعرف إلاّ به - حديث ١) عن الفضل بن السّكن عن أبي عبداللّه﴿عليه السلام﴾ قال: قال أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «اعرفوا اللّه باللّه، و الرّسول بالرّسالة، و اولى الأمر بالأمر بالمعروف و العدل و الإحسان».

قوله﴿عليه السلام﴾: «اعرفوا اللّه باللّه» أي اعرفوا اللّه بتعليمه سبحانه و تعريفه، و لا تكتفوا لمعرفته بالعقل و النّظر و الاستدلال ببعض خلقه من وجود الأنبيآء أو وجود أنفسنا و عقولنا أو غير ذلك من دون تعليمه تعالى، و تعليمه عزّوجلّ إمّا بالوحي كما للأنبيآء عليهم السّلام أو بسمع الكلام من الأنبياء و الأوصيآء كما لَنا، كما استدلّ إبراهيم﴿عليه السلام﴾ لغيره بما تعلّم من اللّه تعالى بالوحي، فتعلّم منه غيره، و هذا ما في بعض الأخبارمن قولهم عليهم السّلام: «إنّ اللّه تعالى أرسل رسله إلى عباده ليعقلوا عنه ما جهلوه».

البصيرة السّادسة: أنّ الأشاعرة و الحشوية و جماعة من المعتزلة تشبّثوا بقوله تعالى: «و استغفر لذنبك و للمؤمنين والمؤمنات» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ١٩) على جواز

المعاصي للأنبيآء و المرسلين﴿عليهم السلام﴾، و نفي العصمة منهم، إذ ذهبت الطّائفتان الأوليتان إلى أنّه يجوز عليهم الصّغآئر و الكبآئر إلاّ الكفر و الكذب، و ذهبت الطّائفة الثّالثة إلى جواز الصّغآئر لهم، عليهم صلوات اللّه.

أقول: ما هذا الذّنب الّذي أُمر رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالاستغفار منه؟

و قد سبق منّا أجوبة ثلاثة في البحث البياني من هذه السّورة فراجع، مضافاً إلى ما سبق منّا و قد سبق منّا في تفسير قوله تعالى: «فاصبر إنّ وعد اللّه حقّ و استغفر لذنبك» الزّمر: ٥٥) بأنّ المراد من استغفار النّبيّ المعصوم﴿صلى الله عليه و آله﴾ لذنبه هو التأدّب و التّعبّد من اللّه تعالى في حقه لمزيد الدّرجات، و لتصير سنّة لأُمّته و لإظهار خضوعه في العبوديّة، و تعليم للدّعآء و الاستغفار و ليس المراد به: أنّه صدر منه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ذنب، صغيراً كان أو كبيراً فيستغفر له مع أنّ الاستغفار يوجب مزيد الفضل و الرّحمة كما قال تعالى: «و أن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى و يؤت كلّ ذي فضل فضله» هود: ٣).

و قال: «لو لا تستغفرون اللّه لعلّكم ترحمون» النّمل: ٤٢)

و أنّ الإستغفار و التّوبة قبل الذّنب و العصيان ممّا يمنع الانسان عن العصيان، و أنّ مجامع الطّاعات على قسمين:

أحدهما: التّوبة عمّا لا ينبغي كالإستعاذة قبل القراءة، و إن لم يوسوسه الشّيطان: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللّه من الشّيطان الرجيم إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون» النّحل: ٩٨-٩٩).

ثانيهما: الإشتغال بما لا ينبغي، و من دون مرآء أنّ الأوّل مقدّم لأنّ التّخلية مقدّمة على التّحلية، و التّطهير مقدّم على الطّهارة بحسب الرّتبة الذّاتية، فوجب أن يكون مقدّماً في الذّكر، مع أنّ الخطاب و إن كان لرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لكنّ المراد به امّته ليستنّوا به﴿صلى الله عليه و آله﴾، و قد كان رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ كثيراً ما يستغفر للتّائبين و المؤمنين من أُمّته كما أنّ الملائكة يستغفرون لهم.

البصيرة السّابعة: أنّ جمهور الأشاعرة و جماعة من المعتزلة تشبّثوا بقوله سبحانه:

«و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۱۹) على أنّ الملائكة أفضل من الأنبيآء و المرسلين و الأوصياء المعصومين كلّهم صلوات اللّٰه عليهم أجمعين فضلاً عن سآئر النّاس. و قالوا: إنّ الأنبياء و المرسلين عليهم السّلام لم يستغفروا لأحد إلاّ بدؤا بالاستغفار لأنفسهم ثمّ للمؤمنين، إذ قال نوح﴿عليه السلام﴾: «ربّ اغفرلي و لوالديّ و لمن دخل بيتي مؤمناً و للمؤمنين و المؤمنات» نوح: ۲۸) و قال إبراهيم﴿عليه السلام﴾: «ربّنا اغفرلي و لوالديّ و للمؤمنين يوم يقوم الحساب» إبراهيم﴿عليه السلام﴾: ۴۱) و قال موسى﴿عليه السلام﴾: «قال ربّ اغفرلي و لأخي» الأعراف: ۱۵۱) و قال تعالى لمحمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: «و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ۱۹).

و أمّا الملائكة فلم يستغفروا إلاّ لغيرهم من المؤمنين كما حكى اللّٰه تعالى عنهم بقوله سبحانه: «و يستغفرون للّذين آمنوا – فاغفر للّذين تابوا و اتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم» غافر: ۷) و لو كانوا محتاجين للاستغفار لبدؤا أوّلاً بأنفسهم ثمّ بغيرهم لأنّ دفع الضّرر عن النّفس مقدّم على دفعه عن الغير لقوله﴿صلى الله عليه وآله﴾: «إبدأ بنفسك» فهذا يدلّ على أنّهم أفضل من الأنبيآء و المرسلين﴿عليهم السلام﴾.

أقول: و قد جآء منّا بحث عميق علميّ بمواضع من هذا التّفسير في تفضيل الإنسان على الملائكة في أبعاد عديدة... منها ما قد صرّح جلّ وعلا بمواضع من القرآن الكريم على أمره تعالى الملائكة بالسّجدة لآدم﴿عليه السلام﴾ فقال: «و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى و استكبر و كان من الكافرين» البقرة: ۳۴) ولو لم يكن آدم﴿عليه السلام﴾ أفضل من الملائكة لكانت سجدة الفاضل على المفضول قبيحة بالبداهة.

و من المعلوم أنّ عدم الاستغفار لا يدلّ على عدم الزّلّة، و أنّه لايكون مناطاً للأفضليّة، و أمّا استغفارهم للمؤمنين فلعلّه كان لعذر، إذطعنوا فيهم كما حكى اللّٰه تعالى عنهم بقوله: «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدّمآء» البقرة: ۳۰).

و أنّ الاستغفار لايلازم الذّنب، بل هو من أهمّ العبادات، و له وجوه سبق بعضها منّا في البصيرة السّادسة آنفاً، و قد جآء – في الدّعآء بعد زيارة الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحيّة و الثنآء – ثلاثة عشر وجهاً للاستغفار من دون ذنب: «ربّ

إنّي أَستغفرك استغفار حيآء، و استغفرك استغفار رجآء، و استغفرك استغفار إنابة، و استغفرك استغفار رغبة، و استغفرك استغفار رهبة، و استغفرك استغفار طاعة، واستغفرك استغفار ايمان، و استغفرك استغفار إقرار، و استغفرك استغفار إخلاص، و أَستغفرك استغفار تقوى، و استغفرك استغفار توكّل، و استغفرك استغفار ذلّة، و أَستغفرك استغفار عامل لك هارب منك....» الدّعاء.

البصيرة الثّامنة: أنّ الأشاعرة المجبّرة و أذنابهم تشبّثوا بقوله تعالى: «فأصمّهم و أعمى أبصارهم» محمّد﴿صلی الله علیه و آله﴾: ۲۳) على عقآئدهم الباطلة من نسبة الايمان و الكفر، و الطّاعة و الطّغيان... إلى اللّٰه سبحانه و من تكليف ما لايطاق و غيرها من الآراء السّخيفة... و قالوا: هذه أفعال اللّٰه من غير فرق إلاّ بالآليّة و نحوها...

في تفسير النيشابورى: ما لفظه: «سئوال: لمّا أثبت لهم الصّمم و العمى فكيف وبّخهم بقوله: «أفلا يتدبّرون القرآن»؟ و أُجيب على مذهب أهل السّنّة بأنّ تكليف ما لايطاق جآئز».

و **في تفسير لباب التأويل:** قال الخازن: «فإن قلت: إذاكان اللّٰه تعالى قد أصمّهم و أعمى أبصارهم و أقفل على قلوبهم و هو بمعنى الختم فكيف يمكنهم تدبّر القرآن مع هذه الموانع الشّديدة؟ قلت: تكليف ما لايطاق جائز عندنا لأنّ اللّٰه أمر بالايمان لمن سبق في علمه أنّه لايؤمن فكذلك هنا، و اللّٰه يفعل ما يريد لا اعتراض لأحد عليه».

و فيه: قال الخازن في قوله تعالى: «الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم»: على قراءة الفعلين معلومين من التّسويل و الإملاء. قال:

فإن قلت: الإملاء و الإمهال لايكونان إلاّ من اللّٰه لأنّه الفاعل المطلق، و ليس للشّيطان فعل قطّ على مذهب أهل السّنّة، فما معنى هذه القرآءة.

قلت: إنّ المسوّل و المملي هو اللّٰه تعالى في الحقيقة، و ليس للشّيطان فعل، و إنّما أُسند إليه ذلك من حيث إنّ اللّٰه تعالى قدر ذلك على يده و لسانه، فالشّيطان يمنّيهم و يزيّن لهم القبيح، و يقول لهم: في آجالكم فسحة، فتمتّعوا بدنياكم و رياستكم إلى آخر العمر» إنتهى كلام الخازن.

أقول: و من البيّن لمن تدبّر السّياق أنّ هذه اللّعنة و الإصمام و الإعمآء من آثار سوء أعمالهم استوجبوها على أنفسهم بسوء اختيارهم من إعراضهم عن آيات اللّٰه تعالى، و إفسادهم في الأرض و قطع أرحامهم بعد تولّيهم امور المسلمين... و هم الّذين قال اللّٰه تعالى فيهم: «فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض - فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم اولئك الّذين لعنهم اللّٰه...» فكرهوا ما أنزل اللّٰه فطرّدهم اللّٰه عن رحمته، و صمّوا عن سماع آيات اللّٰه فأصمّهم عنها، وعموا عنها فأعمى أبصارهم عن الاستفادة و الاعتبار منها، و انّ الامتناع بالاختيار لاينافي الاختيار.

في نهج الحقّ و كشف الصّدق: - المسئلة الخامسة في الإمامة - ايضاح خرافة الجبر - قال العلاّمة رضوان اللّٰه تعالى عليه: «أفلا ينظر العاقل بعين الإنصاف و يجتنب التقليد و اتّباع الهوى و الاستناد إلى اتّباع الدّنيا و يطلب الخلاص من اللّٰه تعالى، و يعلم أنّه محاسب غداً على القليل و الكثير و الفتيل و النّقير، فكيف يترك اعتقاده؟ و يتوهّم أنّه يترك سدىً؟ أو يعتقد بأنّ اللّٰه تعالى قدّر هذه المعصية و قضاها، فلا يتمكّن من دفعها، فيبرئ نفسه قولاً لافعلاً فإنّه لاينكر صدور الفعل من الإنسان إلاّ مكابر جاحد للحقّ أو مريض العقل بحيث لايقدر على تحصيل شيء ألبتّة.

و لو كان الأمر كما توهّموه لكان اللّٰه تعالى قد أرسل الرّسل إلى نفسه، و أنزل الكتب على نفسه، فكلّ وعد و وعيد جآء به يكون متوجّهاً إلى نفسه لأنّه إذا لم يكن فاعل سوى اللّٰه تعالى، فإلى من أُرسل الأنبيآء؟ و على من أُنزل الكتب و لِمَن تهدّد؟ وعد و توعّد؟ و لمن أمر و نهى؟

و من أعجب الأشياء و أغربها: أنّهم يعجزون عن إدراك استناد أفعالهم إليهم مع أنّه معلوم للصّبيان و المجانين و البهائم و يقدرون على تصديق الأنبيآء و العلم بصحّة نبوّة كلّ مرسل مع استناد الفساد و الضّلال و التّلبيس و تصديق الكذّابين و إظهار المعجزات على أيدي المبطلين إلى اللّٰه تعالى.

و حينئذ لايبقى علم و لا ظنّ بشيء من الاعتقادات ألبتّة، و يرتفع الجزم بالشّرائع و الثّواب و العقاب و هذا كفر محض.

قال الخوارزمي: حكى قاضي القضاة، من أبي عليّ الجبائي: أنّ المجبر كافر، و من شكّ في كفره فهو كافر، و من شك في كفر من شكّ في كفره فهو كافر!!

و كيف لايكون كذلك و الحال عندهم ما تقدّم، و أنّه يجوز أن يجمع اللّٰه الأنبيآء والرّسل و عباده الصّالحين في أسفل درك الجحيم، يعذّبهم دائماً، و يخلّد الكفّار و المنافقين و إبليس و جنوده في الجنّة و النّعيم أبد الآبدين؟

و قد كان لهم في ذمّ غير اللّٰه متسع و فيمن عداه مقنع، و هلاّ حكى اللّٰه اعتذار الكفّار في الآخرة: بأنّك خلقت فينا الكفر و العصيان، بل اعترفوا بصدور الذّنب عنهم، و قالوا: «ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل» فاطر:٣٧) «ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون» المؤمنون: ١٠٧) «حتّى إذا جآء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت» المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠) «أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب اللّٰه» الزّمر: ٥٦).

«ربّنا إنّا أطعنا سادتنا و كبرآءنا فأضلّونا السّبيلا ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» الأحزاب: ٦٧ - ٦٨) «ربّنا أرنا اللّذين أضلاّنا من الجنّ و الإنس نجعلهما تحت أقدامنا و ما أضلّنا إلاّ المجرمون» فصّلت: ٢٩).

ثمّ إنّ الشّيطان اعترف بأنّه استغواهم، و شهد اللّٰه تعالى بذلك، فحكى عن الشّيطان: «إنّ اللّٰه وعدكم وعد الحقّ و وعدتكم فأخلفتكم و ما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلاتلوموني و لوموا أنفسكم» إبراهيم: ٢٢) و قال تعالى: «الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ٢٥) فردّوا شهادة اللّٰه تعالى، و اعتراف الشّيطان، و نزّهوه، و أوقعوا اللّٰه في اللّوم و الذّمّ.

و روى الحميدي في الجمع بين الصّحيحين قال: «قدم على رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ سبي، فإذاً امرأة من السّبي تسعى، إذ وجدت صبيّاً في السّبي، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النّار؟ قلنا: لا واللّٰه، قال: اللّٰه أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها».

و فيه: عن رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال: «إنّ اللّٰه يقول يوم القيامة: يابن آدم! مرضتُ

فلم تَعُدْني قال: يا ربّ كيف أعودك و أنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنّ فلاناً مرض فلم تَعُده؟ أما علمت أنّك لو عُدته لوجدتَني عنده؟ يابن آدم! استطعمتك فلم تطعمنى، قال: يا ربّ، كيف أطْعِمُكَ و أنت ربّ العالمين؟ قال: إنّه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعِمْه، أما علمت أنّك لَو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يابن آدم! استقيتك فلم تسقني، قال: يا ربّ كيف أسقيك و أنت ربّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان، فلم تسقه، أما علمت أنّك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟».

و فيه: عن ابن مسعود: قال: «سمعت رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ يقول: اللّٰه أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة، ففقد راحلته، فطلبها حتّى اشتدّ عليه الحرّ و العطش ما شآء اللّٰه تعالى قال: أرجعُ إلى مكاني الّذي كنت فيه، فأنام حتّى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ، فإذا راحلته عنده، عليها زاده و شرابه، فاللّٰه أشدّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته و زاده».

و قد صرّح اللّٰه تعالى في كتابه في عدّة مواضع برحمته و إحسانه و تفضّله، و كيف يتحقّق ذلك ممّن يخلق الكفر في العبد و يعذّ به عليه، و يخلق الطّاعة في العبد، و يعاقبه أيضاً عليها.

فهذه حال اصولهم الدّينيّة الّتي يدينون اللّٰه تعالى بها، فيجب على العاقل أن ينظر في نفسه: هل يجوز المصير إلى شيء منها؟ و هل يجوز له القول ببعضها؟» إنتهى كلامه و رفع مقامه.

أقول: إنّ العامّة – و هم أهل سنّة من آل فرعون كما صرّح بذلك مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿؏﴾ على ما في نهج البلاغة: «قد ما روا في الحيرة، و ذهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنـيا راكـن، أو مفارق للدّين مباين» الخطبة: ۱۵)– هم ينزّهون الشّيطان عن اعترافـه بـإضلالهم و إغوائهم: «و لا ضلّنّهم و لأُمنّينّهم و لآمرنّهم» النساء: ۱۱۹). «لأُزيّننّ لهم في الأرض و لاغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين» الحجر: ۳۹–۴۰).

و هم يردّون شهادة اللّٰه تعالى على ذلك، و ينسبون قبآئح أفعالهم إلى اللّٰه سبحانه،

و يقولون: ما أضلّنا إلاّ اللّه سبحانه، و هم - بخلاف اعتقادهم في الحياة الدّنيا بأنّ اللّه هو المضلّ لهم - عند انكشاف حقائق الامور يوم القيامة يعتذرون، و يقولون: إنّما المضلّ لهم أربابهم و رؤسآئهم: «ربّنا أرنا اللّذين أضلاّنا من الجنّ و الإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين» فصّلت: ٢٩). «و ما أضلّنا إلاّ المجرمون» الشّعراء: ٩٩) «و قالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا و كبرآئنا فأضلّونا السّبيلا ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» الأحزاب: ٦٧-٦٨).

البصيرة التّاسعة: أن يستدلّ بقوله تعالى: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين و نبلوا أخباركم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٣١) أى حتّى يظهر علمنا السّابق فيكم فيبدو لكم بالذّات، و نختبر مبلغ صدقكم فيما يؤثر عنكم من ادّعاءات و تبجّحات حتّى يتبيّن لكم بالذّات مدى صحّتها و وفقها مع الحقيقة... فيستدلّ بها على أنّ اللّه جلّ وعلا يفعل لغرض و حكمة، و فائدة و مصلحة كلّها يرجع إلى النّاس، و نفع يصل إلى عباده.

و في الآية الكريمة ردّ على الأشاعرة المجبّرة و أذنابهم... فإنّهم يتقوّلون: إنّه لايجوز أن يفعل اللّه شيئاً لغرض و لامصلحة ترجع إلى العباد و لا لغاية من الغايات... و إنّ أفعال اللّه ليست معلّلة بالأغراض، و لا يجوز تعليل أفعاله بشيئ من الأغراض و العلل الغائية.

أقول: إنّ الآيات القرآنيّة و الرّوايات المتواترة الدّالّة على الغرض و الغاية و الحكمة و المصالح في أفعال اللّه جلّ وعلا أكثر من أن تحصى.

و من الآيات الكريمة قوله تعالى: «الّذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً» الملك: ٢).

و في **نهج البلاغة:** قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و لكنّ اللّه سبحانه ابتلى خَلقَه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم، و نفياً للاستكبار عنهم، و إبعاداً للخُيلآء منهم...» الخطبة: ٢٣٤).

البصيرة العاشرة: أن نستدلّ نحن الشّيعة الإماميّة الإثنى عشرية الحقّة بقوله سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم»

محمّد«صلی الله علیه و آله»: ۳۳) على وجوب العصمة لرسول اللّٰه«صلی الله علیه و آله» عن الصّغآئر و الكبآئر و على كونه«صلی الله علیه و آله» منزّهاً عن المعاصي قبل النّبوّة و بعدها على سبيل العمد و النسيان، و عن كلّ رذيلة و منقصة، و ما يدلّ على خسّة و ضعة...

و ذلك أنّ اللّٰه عزّوجلّ أمرالمؤمنين بإطاعته و إطاعة رسـوله«صلی الله علیه و آله» عـلى شرع سواء، فالنّبيّ«صلی الله علیه و آله» واجب الطّاعة كاللّٰه جلّ‌وعلا لأنّ وجوب طاعة اللّٰه تعالى عامّ في المأمور و المأمور به، فيجب أن يكون وجوب طاعة النّبي«صلی الله علیه و آله» عامّاً كذلك.

و بناءً على هذا لو لم يكن النّبيّ«صلی الله علیه و آله» معصوماً للزم أحد الأمرين: و هو إمّا إمكان أمره تعالى لواحد في وقت واحد بالضّدّين و هو تكليف مالايطاق أو نقض الغرض في إرسال الرّسول«صلی الله علیه و آله» و اللّازم بكلا قسميه باطل، فالملزوم مثله.

بيان الملازمة: أنّه لو لم يكن النّبيّ«صلی الله علیه و آله» معصوماً لجاز أن يأمر المكلّف بضدّ ما أمره اللّٰه تعالى به، فإذاً إمّا أن يجب عليه كلّ منهما و هو اجتماع الضّدّين، و إمّـا أن لايجب واحد منهما و هو خلاف التّقدير أو لايجب اتّباع النّبيّ«صلی الله علیه و آله» إلاّ إذا عرف مـوافـقة أمره«صلی الله علیه و آله» لأمر اللّٰه تعالى، فإذا قال المكلّف: لا يجب عليّ اتّباعك حتّى أعرف موافقة أمرك لأمر اللّٰه جلّ‌وعلا، و لا أعلمه، ينقطع النّبيّ«صلی الله علیه و آله» و يفحم و هو نقض الغرض، و لأنّ غير المجتهد لا يتمكّن من العلم، فإمّا لايكون أمره بالاتّباع مشروطاً بالعلم بموافقة أمر النّبيّ«صلی الله علیه و آله» لأمر اللّٰه تعالى أو يكون.

فإن كان الأوّل لزم إمكان اجتماع الضّدّين، و إن كان الثّاني لزم إمّا وجوب الاجتهاد على كلّ المكلّف في الأحكام الجزئيّة الشّرعيّة، و هو خلاف الحقّ عـلى مـا تـقرّر في الاصول أو تقديم قول مجتهد آخر على قول النّبيّ«صلی الله علیه و آله» و هو خلاف المقدّمة القائلة بعموم اتّباعه و هو محال، فلابدّ من أن يتقرّر لاستحالة مخالفة أمر النّبيّ«صلی الله علیه و آله» لأمر اللّٰه جلّ‌وعلا، و ذلك إنّما هو القول بوجوب عصمته«صلی الله علیه و آله» و هو المطلوب.

و قد خالفت الأشاعرة في ذلك، و جوّزوا على الأنبيآء و المرسلين عليهم السّلام المعاصي.... و بعضهم جوّزوا عليهم الكفر قبل النّبوّة و بعدها، و جوّزوا عليهم السّهو و الغلط.

في شرح ابن أبي الحديد- ج ٢ ص ١٦٢) قال ما خلاصته: «قال قوم من الخوارج و ابن فورك من الأشعريّة: إنّه يجوز بعثةمن كان كافراً، و قال بـرغوث المـتكلّم مـن النجاريّة: لم يكن الرّسول قبل البعثة مؤمناً باللّٰه. و قال السّدي: إنّه كان على دين قومه (و هو الشّرك) أربعين سنة. و قال بعض الكراميّة: إنّ إبراهيم﴿عليه السلام﴾ قال: أسلمت، و لم يكن قبل ذلك مسلماً».

و في الملل و الأهوآء (ج ٤ ص ١) قال ابن حزم: «فَذَهَبت طائفة إلى أنّ رسل اللّٰه يعصون في جميع الكبآئر و الصّغآئر، حاشا الكذب في التّبليغ فقط و هو قول الكرامية من المرجئة و قول أبي الطّيّب الباقلانى من الأشعريّة و من اتّبعه... و هو قول اليهود و النّصارى... إلى أن قال: و أمّا هذا الباقلاني فإنّا رأيـنا في كـتاب صـاحبه أبي جـعفر السّمناني، قاضي الموصل: أنّه كان يقول: إنّ كلّ ذنب دقّ أو جلّ فإنّه جآئز على الرّسل حاشا الكذب في التبليغ فقط، و قال: و جآئز عليهم أن يكفروا، و قال: و إذا نهى النّبيّ عن شيء ثمّ فعله فليس دليلاً على أنّ ذلك النّهي قد نسخ لأنّه قد يفعله عاصياً للّـه تعالى، و قال: وليس لأصحابه أن ينكروا عليه، و جوّز أن يكون في أُمّة محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ من هو أفضل من محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ مذ بعث إلى أن مات» إنتهى كلام ابن حزم!!!

و في المنخول في الأُصول: - في بحث أفعال الرّسول - قال الغزّالي: «و المختار ما ذكره القاضي (يعني الباقلانى): و هو أنّه لايجب عقلاً عصمتهم إذ لايستبان استحالة وقوعه (أي العصيان) بضرورة العقل و لا بنظره و ليس هو متناقضاً لمدلول المعجزة، فإنّ مدلوله صدق اللّهجة فيما يخبر عن اللّٰه تعالى، لا عمداً و لا سهواً، و معنى التّنفير باطل، فإنّا نجوّز أن ينبيء اللّٰه كافراً و يؤيّده بالمعجزة» و اختاره فرقة الأزارقـة مـن الخوارج كما:

في الملل و النّحل: -ج ١ ص ١٢٢) - في ترجمة الأزارقة - في البدعة السّابعة منهم - قال الشهرستاني: و السّابعة: «تجويزه (نافع بن الأزرق) أن يبعث اللّٰه تعالى نبيّاً يعلم أنّه يكفر بعد نبوّته أو كان كافراً قبل البعثة و الكبآئر و الصّغآئر إذا كانت بمثابة عنده و هي كفر، و في الأُمّة من جوّز الكبآئر و الصّغآئر على الأنبيآء عليهم السّلام، فهي كفر».

و في **أضواء على السّنّة المحمّديّة:** - حكم كلام الرّسول في الأُمور الدّنيوية - ص ۴۲) قال أبورية: قال ابن حمدان في (كتاب) نهاية المبتدئين: «و إنّهم (الأنبيآء) معصومون فيما يؤدّونه عن اللّه تعالى، و ليسوا بمعصومين في غير ذلك من الخطأ والنّسيان و الصّغآئر. و قال ابن عقيل في الإرشاد: إنّهم عليهم‌السّلام لم يعتصموا في الأفعال، بل في نفس الأدآء و لايجوز عليهم الكذب في الأقوال فيما يؤدّونه عن اللّه تعالى، و هذا ينكره علماء الشّيعة فإنّهم أجمعوا على أنّ الأنبيآء لايخطئون و لايعتريهم السّهو و النّسيان، و هم مجمعون على أنّهم معصومون في الكبر و الصّغر حتّى في امور الدّنيا».

و في **تفسير الرّازي:** (ج ۳ ص ۷) قال الرّازي: «و اختلف النّاس على ثلاثة أقوال:

أحدها: قول من ذهب إلى أنّهم معصومون من وقت مولدهم، و هو قول الرّافضة.

و **ثانيها:** قول من ذهب إلى عصمتهم وقت بلوغهم، و لم يجوّزوا منهم ارتكاب الكفر و الكبيرة قبل النّبوّة و هو قول كثير من المعتزلة.

و **ثالثها** - قول من ذهب إلى أنّ ذلك (يعني ارتكاب الكفر و الكبيرة) لايجوز وقت النّبوّة أمّا قبلها فجائز، و هو قول أكثر أصحابنا و قول أبي الهذيل العلاف، و أبي عليّ من المعتزلة».

و قال في الجزء (۱۸ ص ۹) من تفسيره: «و عندنا العصمة إنّما تعتبر في وقت النّبوّة لا قبلها.

أقول: و لعمري! انّ توقّع الاعتقاد بعصمة الأنبيآء و المرسلين صلوات اللّه عليهم أجمعين من أتباع عمر بن الخطّاب الّذي نسب الهجر و الهذيان إلى سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد المصطفى ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ خطأ محض، أو جهالة محضة بما هم عليه من الكفر والنّفاق، و البغي و الشّقاق...

و نختم بحثنا الكلامي بما ورد في وصف الأنبيآء عليهم صلوات اللّه عن مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾:

في **نهج البلاغة:** «فاستودعهم في أفضل مستودع، و أقرّهم في خير مستقرّ،

تناسختهم كرآئم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام، كلّما مضى منهم سَلَفٌ قام منهم بدين اللّه خَلَفٌ، حتّى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمّد(ﷺ) فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، و أعزّ الأُرومات مغرساً، من الشّجرة الّتي صدع منها أنبيآئه، و انتخب منها أُمنآئه، عترته خير العتر، و أُسرته خير الأُسر خير الأُسر، و شجرته خير الشّجر، نبتت في حرم، و بسقت في كرم، لها فروع طوال، و ثمرة لا تنال، فهو إمام من اتّقى، و بصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءه، و شهاب سطع نوره، و زند برق لمعه، سيرته القصد، و سنّته الرّشد، و كلامه الفصل، وحكمه العدل، أرسله على حين فترة من الرّسل، و هفوة عن العمل و غباوة من الأمم...» الخطبة: ٩٣).

﴿ حقيقة الحبط و معناه ﴾

قال اللّٰه عزّوجلّ: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه أضلّ أعمالهم - ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم - ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم - إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط اللّٰه أعمالهم يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ١ و ٩ و ٢٨ و ٣٢-٣٣).

إنّ اللّٰه تعالى قد صرّح في هذه الآيات الكريمة بأنّ الكفر و صدّ النّاس عن سبيل اللّٰه، و كراهة ما أنزل اللّٰه، و اتّباع ما أسخط اللّٰه و كراهة رضا اللّٰه، و مشاقّة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و أشار إلى أنّ عدم إطاعة اللّٰه في أوامره و نواهيه، عدم إطاعة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و أشار إلى أنّ عدم إطاعة اللّٰه في أوامره و نواهيه، عدم إطاعة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في سننه كلّها يوجب إضلال الأعمال و إحباطها و إبطالها... فليس الكفر فقط موجباً لحبطها كما زعم كثير من النّاس.

و قد اختلفت كلمات فِرَق المسلمين قديماً و حديثاً اختلافاً كثيراً في إمكان حبط الأعمال و عدمه عقلاً و نقلاً، فإن أمكن فما هو الموجب له؟ هل هو الكفر فقط؟ أو الكبآئر؟ أو إصرار الصّغآئر؟؟؟

فنشير إلى ما يسعه المقام و نحن على جناح الاختصار، مع بيان ما استفدنا من الأدلّة العقليّة السّليمة و النّقليّة الصّحيحة...

و اعلم أنّ الحبط - كما سبق منّا في بحث اللّغة من هذه السّورة -: البطلان و الفساد والهلاك و الضّياع... يقال: حبط العمل: بطل و فسد، و لم يحقّق ثمرته و ذهب سدىً، و حبط دم القتيل: هدر، و حبط ماء البئر: ذهب ذهاباً لايعود كما كان.

في مفردات الرّاغب: «و حَبْطُ العمل على أضرب: **أحدها** - أن تكون الأعمال دنيويّة، فلا تُغني في القيامة غناءً كما أشار إليه بقوله: «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً». **والثّاني:** أن تكون أعمالاً أُخرويّة لكن لم يقصد بها صاحبها وَجْهَ اللّٰه تعالى كما رُوِيَ: «أنّه يُؤتىٰ يوم القيامة برجل فيقال له: بِمَ كان اشتغالك؟ قال: بقراءة القرآن، فيقال له: قد كنت تقرأ ليقال: هو قارىء، و قد قيل ذلك، فيؤمر به إلى النّار». **والثّالث:** أن تكون أعمالاً صالحة و لكن بإزآئها سيّئات تُوفىٰ عليها، و ذلك هو المشار إليه بخفّة الميزان. و أصْل الحَبْط من الحَبَط و هو أن تُكثِر الدّابّة أكلاً حتّٰى ينتفخ بطنها. و قال﴿عليه السلام﴾ : «إنّ ممّا يُنبت الرّبيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمّ» و سُمّيَ الحارثُ الحَبِط لأنّه أصابه ذلك، ثمّ سُمِّيَ أولادُهُ حَبِطاتٌ» انتهى كلامه.

و قال بعض اللّغويّن: «حبوط العمل هو ايقاعه على خلاف محلّه، فلا يكون مستحقّاً للثّواب، و متى أوقعه على الوجه المنهيّ عنه كان مستحقّاً للعقاب، فلا ينال به مدحاً و ثناءً لإحباطه في الدّنيا و لا ثواباً في الآخرة، فتصير بمنزلة ما لم يفعل إذا وقع على خلاف طريق الشّرع، فإذا كان العمل مأموراً به فأحبط، فيكون مستحقّاً للعقاب، و إن كان مستحبّاً أو مباحاً فأحبط فلاثواب له و لاعقاب عليه ما لم يوجب إلى ارتكاب حرام، و إلاّ فيعاقب.

و قال بعضهم: في قوله تعالى: «و حبط ما صنعوا» هود: ١٦): الحبط - في الأصل - هو هلاك بعض الأنعام من كثرة الأكل لبعض المراعي الخضرآء، و المراد هنا فساد عملهم في الخير بسبب ارتكابهم الشّرّ.

و في تفسير روح الجنان: قال: «أصل الحبط: النّبت إذا تأكلها الإبل تورّم بطنها و تهلك كما قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يقتل حبطاً أو يلم» فاستعمل الحبط مجازاً لبطلان العمل للتشابه في الهلاكة».

و قال **بعضهم**: في قوله سبحانه: «اولئك الّذين حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة» آل عمران: ۲۲): إذ ينالوا بها المدح و الثّنآء، و لم تحقن دمآئهم و أموالهم في الدّنيا، و لم يستحقّوا بها الثّواب في الآخرة فصارت أعمالهم كأنّها لم تكن، و هذا حقيقة الحبوط، و هو الوقوع على خلاف الوجه المأمور به، فلا يستحقّ عليه الثّواب. و إنّ الحبط: ما لا أثر له، و عدم الأثر للعمل لأحد الوجهين: **أحدهما** - أن يأتي الإنسان عملاً على خلاف الوجه المأمور به كالصّلاة من دون طهارة. **ثانيهما** - أن يأتي صحيحاً و لكن يبطلها بعد إتيانه كالمنّ و الأذى بعد الصّدقة.

وقال **بعضهم**: من صلّى بدون شرط من شرائط صحّتها كالطّهارة و نحوها من اللّباس و المكان و غيرهما أو أحدث قبل تسليمها، أو صلّى من دون شرائط قبولها كمن صلّى من غير ولاية لأهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام فقد أحبط صلاته، فإذا ردّت ردّ ما سواها...

وقال **بعضهم**: في قوله تعالى: «أن تحبط أعمالكم» الحجرات: ۲). و من الحبط: حبط دمه: إذا هدر، و حبط ماء الرّكيّة: إذا خرجت و فسدت لا يمكن تدلّي المآء منها، و مقابل الحبط هو التكفير و هو هدم آثار العصيان بالحسنات لقوله تعالى: «كفّر عنهم سيّئاتهم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ۲).

و انّ حبوط الأعمال مأخوذ من قولهم: «حبطت النّاقة» إذا رعت نباتاً سامّاً فانتفخ بطنها ثمّ نفقت... و هو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الّذي يصدر من المشركين بالله سبحانه، و الكافرين بآياته، و المكذّبين برسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المنكرين لقاء الآخرة، و المرتدّين عن دين اللّه و المنهمكين في شهوات الدّنيا و متاعها، و المنافقين مرضى القلوب... فهو ينتفخ حتّى يظنّه النّاس من عظمة و قوّة، ثمّ ينفق كما تنفق النّاقة الّتي رعت ذلك النّبات السّام، و أنّه لجزاء كذلك حقّ أن تحبط و تهلك أعمال هؤلآء المشركين الفجّار، هؤلآء المستكبرين الكفّار، و هؤلآء المجرمين الفسّاق...

و لكن كيف تحبط هذه الأعمال... من ناحية الاعتقاد... نحن نؤمن بصدق وعيد اللّه جلّ وعلا لا محالة أيّاً كانت الظّواهر الّتي تخالف هذه العاقبة الوخيمة المحتومة، فحيثما

أشرك أحد بالله سبحانه، و كفر بآياته و كذّب برسوله﴿ﷺ﴾ و أنكر الآخرة و ارتدّ عن دينه الحقّ و أبطن الكفر و استكبر و عصى الله جلّ وعلا و خالف رسوله﴿ﷺ﴾ و أهل بيته المعصومين عليهم السّلام و أفسد في الأرض... حبط عمله و بطل و هلك في النّهاية، و ذهب كأن لم يكن.

و من ناحية النّظر... نحن نجد السّبب واضحاً في حياة البشر: أنّ الّذي أشرك و كفر و كذّب بالآخرة و استكبر و أنكر و ارتدّ و أبطن و أفسد و عصى، و كذّب بآيات اللّٰه المبثوثة في صفحات هذا الكون المنشور أو آياته المصاحبة للرّسالات أو الّتي يحملها رسل اللّٰه... أنّ كلّ عمل يصدر عن مثل هذا المكذّب هو عمل مقطوع، مبتور، حابط، ضائع... و لو بدأ أنّه قائم و ناجح لأنّه لا ينبعث عن البواعث الأصيلة العميقة فابنية هذا الشّخص، فشأنه شأن الجدول الّذي ينقطع عن النّبع الأوّل، فمآله إلى الجفاف و الضّياع في يوم قريب أو بعيد، و انتفاخه بعلمه كانتفاخ الدّابّة قد رعت النّبت السّامّ، فيحسبونه شحماً و سمنة و عافية و صحّة... و الهلاك يترصّدها بعد الانتفاخ و الحبوط....

و قال بعض المعاصرين ملخّصاً منّا-: الحبط هو بطلان العمل و سقوط تأثيره، و لم ينسب في القرآن إلاّ إلى العمل كقوله تعالى: «إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّٰه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٢-٣٣) و ذيل الآية الثّانية يدلّ بالمقابلة على أنّ الحبط بمعنى بطلان العمل كما هو ظاهر قوله تعالى: «و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون» هود: ١٦).

و الّذي ذكره تعالى من أثر الحبط هو بطلان الأعمال في الدّنيا و الآخرة معاً، و المراد بالأعمال مطلق الأفعال الّتي يريد الإنسان بها سعادة الحياة لا خصوص الأعمال العباديّة، و الأفعال القربيّة الّتي كان المرتدّ عملها و أتى بها حال الايمان، مضافاً إلى أنّ الحبط وارد في مورد الّذين لا عمل عباديّ، و لا فعل قربيّ لهم كالكفّار و المنافقين...

فمحصّل آيات الحبط هو أنّ الكفر و الإرتداد يوجب بطلان العمل عن أن يؤثّر في سعادة الحياة كما أنّ الايمان يوجب حياة في الأعمال تؤثّر بها أثرها في السّعادة، فإن آمن

الإنسان بعد الكفر و حييت أعماله في تأثير السّعادة بعد كونها محبطة باطلة، و إن ارتدّ بعد الايمان ماتت أعماله جميعاً و حبطت، فلا تأثير لها في سعادة دنيويّة و لا اُخرويّة، لكن يرجي له ذلك إن هو لم يمت على الرّدّة، و إن مات على الرّدّة حتم له الحبط و كتب عليه الشّقآء.

و من هنا يظهر بطلان النّزاع في بقآء أعمال المرتدّ إلى حين الموت و الحبط عنده أو عدمه.

و ذلك: أنّه ذهب بعضهم إلى أنّ أعمال المرتدّ قبل ارتداده باقية إلى حين الموت، فإن لم يرجع إلى الايمان بطلت بالحبط عندئذٍ، و استدلّ عليه بقوله تعالى: «و من يرتدد منكم عن دينه فيمت و هو كافر فأُولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة» البقرة: ۲۱۷) و ربّما أيّده قوله تعالى: «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هبآء منثوراً» الفرقان: ۲۳) إنّ الآية تبيّن حال الكفّار عند الموت، و يتفرّع عليه أنّه لو رجع إلى الايمان تملّك أعماله الصّالحة السّابقة على الارتداد.

و ذهب آخرون إلى أنّ الرّدّة تحبط الأعمال من أصلها فلا تعود إليه و إن آمن من بعد الارتداد، نعم له ما عمله من الأعمال بعد الايمان ثانياً إلى حين الموت، و أمّا الآية فإنّما اخذت قيد الموت لكونها في مقام بيان جميع أعماله الّتي عملها في الدّنيا.

و أنت بالتّدبّر فيما ذكرناه تعرف: أن لا وجه لهذا النّزاع أصلاً، و أنّ الآية بصدد بيان بطلان جميع أعماله من حيث التّأثير في سعادته.

و هنا مسئلة اخرى كالمتفرّعة على هذه المسئلة و هي مسئلة الإحباط و التّكفير و هي أنّ الأعمال هل تبطل بعضها بعضاً أو لاتبطل، بل للحسنة حكمها و للسّيّئة حكمها؟ نعم الحسنات ربّما كفّرت السّيّئات بنصّ القرآن.

ذهب بعضهم إلى التّباطل و التّحابط بين الأعمال، و إن اختلفوا في ذلك، فمنهم من قال: إنّ كلّ لاحق من السّيّئة تبطل الحسنة السّابقة كالعكس، و لازمه أن لايكون لأحد من عمله إلاّ حسنة فقط أو سيّئة فقط، و منهم من قال: بالموازنة، و هي أن ينقص من الأكثر بمقدار الأقلّ، و يبقى الباقي سليماً عن المنافي، و لازم القولين جميعاً أن لايكون

عند الإنسان من أعماله إلاّ نوع واحد: حسنة أو سيّئة لو كان عنده شيء منهما.

و كلا القولين مردود ان أوّلا: بقوله تعالى: «و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّئاً عسى اللّٰه أن يتوب عليهم و اللّٰه غفور رحيم» التّوبة: ١٠٢) فإنّ الآية ظاهرة في اختلاف الأعمال و بقائها على حالها إلى أن تلحقها توبة من اللّٰه سبحانه و هو ينافي التحابط بأي وجه تصوّروه.

و ثانياً: أنّه تعالى جرى في مسئلة تأثير الأعمال على ما جرى عليه العقلاء في الاجتماع الإنسانيّ من طريق المجازاة و هو الجزآء على الحسنة على حدّة و على السّيّئة على حدّة إلاّ في بعض السّيّئات من المعاصي الّتي تقطع رابطة المولويّة و العبوديّة من أصلها فهو مورد الإحباط، و الآيات في هذه الطّريقة كثيرة غنيّة عن الايراد.

و ذهب آخرون إلى أنّ نوع الأعمال محفوظة، و لكلّ عمل أثره سوآء في ذلك الحسنة و السّيّئة.

نعم! الحسنة ربّما كفّرت السّيّئة كما قال اللّٰه تعالى: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٢) بل بعض الأعمال يبدّل السّيّئة حسنة كما قال سبحانه: «إلاّ من تاب و آمن و عمل صالحاً فاولئك يبدّل اللّٰه سيّآتهم حسنات» الفرقان: ٧٠).

و هنا مسئلة اخرى و هي كالأصل لهاتين المسئلتين، و هي البحث عن وقت استحقاق الجزآء و موطنه فقيل: إنّه وقت العمل، و قيل: حين الموت، و قيل البرزخ، و قيل الآخرة، و قيل: وقت العمل بالموافاة بمعنى أنّه لو لم يدم على ما هو عليه حال العمل إلى حين الموت و موافاته لم يستحقّ ذلك إلاّ أن يعلم اللّٰه ما يؤل إليه حاله و يستقرّ عليه، فيكتب ما يستحقّه حال العمل.

و قد استدلّ أصحاب كلّ قول بما يناسبه من الآيات، فإنّ فيها ما يناسب كلّاً من هذه الأوقات بحسب الانطباق، و ربّما استدلّ ببعض وجوه عقليّة ملفّقة.

و الّذي ينبغي أن يقال: إنّا لو سلكنا في باب الثّواب و العقاب و الحبط و التّكفير و ما يجرى مجراها مسلك نتآئج الأعمال لكان لازم ذلك كون النّفس الإنسانيّة ما دامت

متعلّقة بالبدن جوهراً متحوّلاً قابلاً للتحوّل في ذاته، و في آثار ذاته من الصّور الّتي تصدر منها و تقوم بها نتآئج و آثار سعيدة أو شقيّة، فإذا صدر منه حسنة حصل في ذاته صورة معنويّة مقتضية لاتّصافه بالثّواب، و إذا صدر منه معصية، فصورة معنويّة تقوم بها صورة العقاب، غير أنّ الذّات لمّا كانت في معرض التّحوّل و التّغيّر بحسب ما يطرؤها من الحسنات و السّيّئات كان من الممكن أن تبطل الصّورة الموجوده الحاضرة بتبدّلها إلى غيرها، و هذا شأنها حتّى يعرضها الموت، فتفارق البدن، و تقف الحركة، و يبطل التّحوّل و استعداده، فعند ذلك يثبت لها الصّور و آثارها ثبوتاً لايقبل التّحوّل و التّغيّر إلاّ بالمغفرة أو الشّفاعة...

و كذا لو سلكنا في الثّواب و العقاب مسلك المجازاة لكان حال الإنسان من حيث اكتساب الحسنة و المعصية بالنّسبة إلى التّكاليف الإلهيّة و ترتّب الثّواب و العقاب عليها حاله من حيث الإطاعة و المعصية في التّكاليف الإجتماعيّة، و ترتّب المدح و الذّمّ عليها، و العقلآء يأخذون في مدح المطيع و المحسن، و ذمّ العاصي و المسيئ بمجرّد صدور الفعل عن فاعله غير أنّهم يرون ما يجازونه به من المدح و الذّمّ قابلاً للتّغيّر و التحوّل لكونهم يرون الفاعل ممكن التّغيّر و الزّوال عمّا هو عليه من الإنقياد و التّمرّد، فلحوق المدح والذّمّ على فاعل الفعل فعليّ عندهم بتحقّق الفعل غير أنّه موقوف البقآء على عدم تحقّق ما ينافيه، و أمّا ثبوت المدح و الذّمّ و لزومها بحيث لايبطلان قطّ، فإنّما يكون إذا ثبت حاله بحيث لايتغيّر قطّ بموت أو بطلان استعداد في الحياة.

ومن هنا يعلم: أنّ في جميع الأقوال السّابقة في المسآئل المذكورة انحرافاً عن الحقّ لبنآئهم البحث على غير ما ينبغي أن يبنى عليه.

و أنّ الحقّ: أوّلاً: أنّ الإنسان يلحقه الثّواب و العقاب من حيث الاستحقاق بمجرّد صدور الفعل الموجب له لكنّه قابل للتّحوّل و التّغيّر بعد، و إنّما يثبت من غير زوال بالموت.

و ثانياً: أنّ حبط الأعمال بكفر و نحوه نظير استحقاق الأجر يتحقّق عند صدور المعصية و يتحتّم عند الموت.

و ثالثاً: أنّ الحبط كما يتعلّق بالأعمال الأُخرويّة كذلك يتعلّق بالأعمال الدّنيويّة. و رابعاً: أنّ التّحابط بين الأعمال باطل بخلاف التكفير و نحوه».

قال بعض المحققين: إنّ المراد بالإحباط هو تأثير العمل اللاّحق في بطلان العمل السّابق بمعنى انقلابه فاسداً من الأوّل بعد أن كان قد وقع صحيحاً كمن أحدث في صلاته قبل تسليمها أو كمن أفطر قبل المغرب و نحوهما...

و قال بعض النّاس: إنّ المراد بالإحباط هو إبطال أثره في المستقبل من مثوبة و غيرها من آثار كانت مرتّبة عليه لولا الإحباط.

و أحبِط عَمَلَهُ: أبطل ثوابه، و قد حبط العمل حَبْطاً بالتسكين و حُبُوطاً. و المتكلّمون يسمّون إبطال الثّواب إحباطاً، و إبطال العقاب تكفيراً.

و في تفسير البحرالمحيط: في قوله تعالى: «و الّذين كذّبوا بآياتنا و لقآء الآخرة حبطت أعمالهم» الأعراف: ۱۴۷) قال: «إنّ أصل الحبط أن يكون فيما تقدّم صلاحه، فاستعمل الحبوط إذا كان أعمالهم في معتقداتهم جارية على طريق صالح، فكان الحبط فيها بحسب معتقداتهم إذ المكذّب بالآيات قد يكون له عمل، فيه إحسان للنّاس و صفح و عفو عمّن جنى عليه، و كلّ ذلك لا يجازى عليه في الآخرة، فشمل حبط الأعمال مَن له عمل برّ، و من عمله من أوّل مرّة فاسداً».

« الآراء المختلفة في إحباط الأعمال الصّالحة »

و قد اختلفت الآرآء و كلمات الحكمآء و المفسّرين، و الفقهآء و الأُصوليّين، والأُدبآء و المحدّثين، و علمآء الأخلاق و المتكلّمين قديماً و حديثاً في حبط الأعمال اختلافاً كثيراً نشير إلى ما يسعه مقام الاختصار:

فمنهم: من قال: إنّ الشّرك و الغواية، و الكفر و الضّلالة، و البغي و الجناية، و الظّلم والخيانة، و الإثم و سوء النّيّة، و الرّيآء و السّمعة و الكبر و المعصية، و المنّ و الأذى في الإحسان و الصّدقة و ما إليها من الكبآئر و إصرار الصّغآئر... تحبط الأعمال الصّالحة و تمحوها كأن لم تكن كما أنّ حدثاً من الأحداث يبطل الصّلاة قبل تسليمها، و إتيان مبطل من مبطلات الصّوم قبل المغرب يبطله، أو كمن أحسن أو رافق أو صاحب أحداً بمدّة طويلة، ثمّ وجد المحسن إليه أو الرّفيق أو المصاحب من المحسن أو صديقه سوء ظنّ بالنّسبة إلى ناموسه حتّى بنظر الرّيبة فضلاً عن التقبيل أو الاستمتاع أو الزّنآء، يوجب ذلك حبط إحسان المحسن و الرّفاقة و المصاحبة، بل تبدّل بالعداوة إلاّ من لم يكن له غيرة.

و منهم: من قال: إنّ الإحباط أن يعمل الإنسان عملاً صحيحاً عند الشّرع جامعاً لشرآئط الصحّة و القبول، و لكن يفعل ما يبطل ثواب عمله من الشّرك و الكفر والكبآئر من الذّنوب، و العظام من المعاصي، و القول بأنّ العمل الصّحيح لايبطل بالمعصية اجتهاد، مقابل النّصّ الصّريح لايعتدّ به.

و منهم: من قال: الإحباط هو الإبطال و الإفساد، فمن ارتدّ عن دينه لم تنفعه طاعاته السّابقة، و لكن إحباط الرّدة العمل مشروط بالوفاة على الكفر، و لهذا قال اللّه تعالى: «من يرتدد منكم عن دينه فيمت و هو كافر فاولئك حبطت أعمالهم» البقرة: ٢١٧) فالمطلق ههنا محمول على المقيّد. قال الشّافعي: من حجّ ثمّ ارتدّ ثمّ عاد إلى الإسلام لايجب عليه إعادة الحجّ. و قال مالك: تجب عليه الإعادة.

و من **الفقهاء**: من أنكر الإحباط و التكفير، و قال: لو ثبتتا للزم أن يكون مَن فعل إحساناً و إسآءة متساويين بمنزلة من لم يفعلهما، و لو زاد أحدهما بمنزلة من لم يفعل الآخر و هو باطل قطعاً لأنّ الثّواب و العقاب إن لم يتنافيا لم ينف أحدهما الآخر، و إن تنافيا اجتمع الوجود و العدم في كلّ منهما لأنّ المنافاة ثابتة من الطّرفين، و ليس انتفاء السّابق بالطّارئ أولى من العكس.

ثمّ قال: لو احتجّ المثبتون: بأنّه لولا الإحباط لحسن ذمّ من كسر قلم من أنعم عليه بأنواع متعدّدة لا تحصى؟

و **الجواب**: المنع من قبح الذّم على هذا القدر اليسير.

ثمّ قال: المؤمن المطيع إذا كفر زال استحقاق ثوابه إجماعاً، و الكافر إذا آمن زال استحقاق عقابه إجماعاً، و اختلف في المؤمن إذا فعل ما يستحقّ به عقاباً هل يجتمع له استحقاق الثّواب و استحقاق العقاب أم لا؟ فقالت المرجئة و الأشاعرة...: نعم يمكن ذلك، و قال جمهور المعتزلة: لا يمكن ذلك لما يأتي من شبهتهم، و لذلك قالوا بالإحباط و التكفير، فالإحباط هو: خروج فاعل الطّاعة عن استحقاق المدح و الثّواب إلى استحقاق الذّمّ و العقاب، و التكفير هو: خروج فاعل المعصية عن استحقاق الذّمّ والعقاب إلى استحقاق المدح و الثّواب.

ثمّ إنّ أباعليّ الجبائي من المعتزلة قال: إنّ المكلّف إذا استحقّ خمسة أجزآء من الثّواب، ثمّ فعل فعلاً استحقّ به خمسة أجزاء من العقاب، فإنّ الخمسة الطّارية - أعني العقابيّة - أسقطت الخمسة الاولى و بقيت هي، و ابنه أبو هاشم يقول: إنّ الطّارية تسقط الاولى و تعدم هي أيضاً، و إن كان السّابق أزيد من الطّاري أسقط الطّاري ما قابله و

عدم هو و بقي الزّآئد ثابتاً كما لو كانت الاولى في مثالنا ستّة، يبقى له جزء، و على هذا يسمّى هذه «الموازنة».

ثمّ اختار مذهب الأشاعرة و المرجئة... و استدلّ على حقّيّته بوجهين:

الأوّل: أنّ القول بالإحباط و التّكفير ملزوم الباطل، فيكون باطلاً، أمّا الصّغرى فلأنّه يلزم أنّ من فعل إحساناً و إسآئة متساويين كخمسة أجزآء و خمسة أجزآء مثلاً يكون بمنزلة من لم يفعل شيئاً أصلاً و رأساً، و كلّ ذلك باطل عقلاً و هو ضروري، و نقلاً كقوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره» الزّلزلة: ۷-۸) و «من يعمل سوءاً يجز به» النّساء: ۱۲۳) و «من» في الشّرطيّة للعموم، و الأوّل يبطل الإحباط، و الثّاني يبطل الموازنة.

الثّاني: لو صحّ القول بهما لزم اجتماع الوجود و العدم، و اللاّزم باطل، فكذا الملزوم، بيان الملازمة: أنّ الثّواب و العقاب إمّا أن يتنافيا أولا، إن كان الثّاني لم يحصل مطلوبكم و هو انتهاء أحدهما بالآخر، و إن كان الأوّل كانت المنافاة ثابتة من الطّرفين، فيكون كلاًّ منهما مزيلاً لصاحبه لزم أن يكون كلاًّ منهما موجوداً من حيث إنّه مزيل و معدوماً من حيث إنّه مزال، فيكون موجوداً معدوماً معاً و هو محال.

أقول: إنّ الوجهين كليهما عليلان، و ذلك أنّ الإسآءة ليست في عرض الإحسان بل في طوله سواء كانت قبل الإحسان أو بعده، و من عمل صالحاً و سيّئاً معاً، فإن اعترف بذلك فعسى اللّٰه أن يتوب عليه إذ قال: «و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطو عملاً صالحاً و آخر سيّئاً عسى اللّٰه أن يتوب عليهم إنّ اللّٰه غفور رحيم» التوبة: ۱۰۲) وإن لم يعترف، فإن كان سيّئه على حدّ يحبط عمله الصّالح فليس له عمل صالح أصلاً، و إن لم يكن على حدّ يحبطه، و كان مؤمناً فيغفر له و يعفو عنه، و إنّ المؤازنة بين الأعمال الصّالحة و السّيّئة خطأ محض، إذ لا تقاس حسنة بسيّئة و لا جزآئهما كما لا يقاس الايمان و الهداية بالكفر و الضّلالة.

و أمّا الآيتان الكريمتان لاتدلاّن على مدّعاهم أصلاً حيث إنّ رؤية الخير و الشّرّ للحسرة: «كذلك يريهم اللّٰه أعمالهم حسرات عليهم و ما هم بخارجين من النّار» البقرة:

١٦٧) بأنّ عامل الشّرّ يرى خيره مُحبَطاً بشرّه مُحبِطاً، و يتحسّر، و أمّا جزاء العمل السّيّىء لايدلّ على الموازنة المنتفية أصلاً إذ لا موازنة بين خير و شرّ قطّ.

و من الأُصوليّين: الشّيخ الأنصاري رحمة اللّه تعالى عليه قال - في فرائد الأُصول - المقصد الثّالث - المسئلة الثّانية في زيادة الجزء عمداً - في معنى قوله تعالى: «و لا تبطلوا أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٣): «إنّ حقيقة الإبطال بمقتضى وضع باب الإفعال: (الأول): إحداث البطلان في العمل الصّحيح و جعله باطلاً، نظير قولك: «أقمت زيداً أو أجلسته أو أغنيته». و الآية بهذا المعنى راجعة إلى النّهي عن جعل العمل لغواً لايترتّب عليه أثر كالمعدوم، بعد أن لم يكن كذلك، فالإبطال هنا نظير الإبطال في قوله تعالى: «لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى» البقرة: ٢٦٤) بناءً على أنّ النّهي عن تعقيبها بهما، بشهادة قوله تعالى: «ثمّ لايتبعون ما أنفقوا منّاً و لا أذىً» البقرة: ٢٦٢).

الثّاني: أن يراد به (النّهي) ايجاد العمل على وجه باطل من قبيل قوله: «ضيّق فم الرّكيّة» يعني أحدِثْه ضَيّقاً. لا أحْدِث فيه الضّيقَ بعد السّعة، و الآية بهذا المعنى نهي عن إتيان الأعمال مقارنة للوجوه المانعة عن صحّتها أو فاقدة للامور المقتضية للصّحة، والنّهي على هذين الوجهين ظاهره الارشاد، إذ لايترتّب على إحداث البطلان في العمل أو ايجاده باطلاً عدا فوت مصلحة العمل الصّحيح.

الثّالث: أن يراد من إبطال العمل قَطْعُه و رَفْعُ اليد عنه كقطع الصّلاة و الصّوم و الحجّ، و قد اشتهر التّمسّك بحرمة قطع العمل بالآية، و يمكن إرجاع هذا إلى المعنى الأوّل بأن يراد من الأعمال ما يعمّ الجزء المتقدّم من العمل (و العمل التّامّ) لأنّه أيضاً عمل لغةً، و قد وجد على وجه قابل لترتّب الأثر و صيرورته جزءً فعليّاً للمركّب، فلا يجوز جعله باطلاً ساقطاً عن قابليّة كونه جزءً فعليّاً، فجعل هذا المعنى (الثّالث) مغايراً للأوّل مبنيّ على كون المراد من العمل مجموع المركّب الّذي وقع الإبطال في أثنائه.

و كيف كان، فالمعنى الأوّل أظهر لكونه المعنى الحقيقي، و لموافقته لمعنى الإبطال في الآية الاخرى المتقدّمة، و مناسبته لما قبله من قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» فإنّ تعقيب إطاعة اللّه و إطاعة الرّسول

بالنّهي عن الإبطال يناسب الإحباط لا إتيان العمل على الوجه الباطل، لأنّها مخالفة للّه و الرّسول(صلى الله عليه و آله). هذا كلّه مع ظهور الآية في حرمة إبطال الجميع، فيناسب الإحباط بمثل الكفر لا إبطال شئ من الأعمال الّذي هو المطلوب.

و يشهد لما ذكرنا - مضافاً إلى ما ذكرنا - ما ورد في تفسير الآية بالمعنى الأوّل:

فعن الأمالي و ثواب الأعمال: عن الباقر(عليه السلام) قال: «قال رسول اللّه(صلى الله عليه و آله): من قال: سبحان اللّه، غرس له اللّه بها شجرة في الجنّة، و من قال: الحمد لله، غرس اللّه له بها شجرة في الجنّة، و من قال: لا إله إلاّ اللّه، غرس اللّه له بها شجرة في الجنّة، فقال له رجل من قريش :إنّ شجرنا في الجنّة لكثير! قال: نعم، و لكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، و ذلك أنّ اللّه عزّوجلّ يقول: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم»

هذا إن قلنا بالإحباط مطلقاً أو بالنّسبة إلى بعض المعاصي، و إن لم نقل به و طرحنا الخبر لعدم اعتبار مثله في مثل المسئلة (العقليّة) كان المراد في الآية الإبطال بالكفر لأنّ الإحباط به إتّفاقيّ، و ببالي أنّي وجدت أو سمعت ورود الرّواية في تفسير الآية: «و لا تبطلوا أعمالكم» بالشّرك».

و من بعض الأُدبآء: أنّ استحقاق الثّواب مشروط بالموافاة لقوله تعالى: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» الزّمر: ۶۵) و قوله سبحانه: «و من يرتدد منكم عن دينه فيمت و هو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة» البقرة: ۲۱۷) فمن كان من أهل الموافاة و لم يلبس ايمانه بظلم كان ممّن يستحقّ الثّواب الدّآئم مطلقاً، و من كان ممّن خلط عملاً صالحاً و آخر سيّئاً، فإن وافى بالتّوبة استحقّ الثّواب مطلقاً، و إن لم يواف بها فإمّا أن يستحقّ ثواب ايمانه أولا، و الثّاني باطل لقوله تعالى: «و من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره» فتعيّن الأوّل، فإمّا أن يثاب ثمّ يعاقب و هو باطل بالإجماع لأنّ من يدخل الجنّة لايخرج منها، فحينئذ يلزم بطلان العقاب أو يعاقب ثمّ يثاب و هو المطلوب».

أقول: و قد ظهر فساد هذا القول مما سبق منّا آنفاً فراجع و تدبّر و اغتنم.

و قال بعضهم: إنّ الإحباط بمعنى محق الحسنات بسيّئة لاحقة باطل، إذ لا دليل

عليه عقلاً و لا نقلاً، فضلاً عن مخالفته لعموم الكتاب و السّنّة و منافاته لأُصول العدل والحكمة في باب المجازاة..

أجاب عنه بعض المحقّقين: هذا كلام من لا حظّ له من العقل السّليم و النّقل الصّحيح شيئ، و يعطف نصّ الكتاب و السّنّة الثّابتة على رأيه السّخيف، و إنّما الإحباط هو من العدل و الحكمة، أفمن أشرك أو كفر أو أظلم أو زنى أو سرق أو جنى أو خان أو عصى ربّه و خالف رسول اللّه﴿صلی الله علیه وآله﴾ و مات عليه، فمن العدل و الحكمة أن لايكون هو و الموحّد و المؤمن و العادل و المتّقي و الأمين و المطيع... على شرع سوآء؟! هل يستوي الحرّ بن يزيد الرّياحي و ابن ملجم المرادي و هو كان زاهداً عابداً، حافظاً للقرآن قبل قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾؟؟؟!!! و هل يستوي سلمان الفارسي و أبوذر الغفاري و المقداد و أمثالهم... و أبوبكر و عمر و عثمان و أذنابهم؟؟؟!!! و كلّهم كانوا يقولون: لا إله إلاّ اللّه، محمّد رسول اللّه﴿صلی الله علیه وآله﴾ و يصلّون و يصومون و يحجّون....

أيثاب ابن ملجم بايمانه و زهده و عبادته و صالح أعماله... و يعاقب بقتله عليّاً أمير المؤمنين﴿علیه السلام﴾ أهذا معنى قوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّة شراً يره» الزلزال: ٧-٨) كما زعمه هذا المخبّط التّابع لهوى نفسه الأمّارة بالسّوء؟.

و قال: إنّ المنكرين للإحباط يفتحون طرق الكبآئر و المعاصي لأهلها...

و قال: من أحسن بوالديه أو أحدهما مدّة طويلة، ثمّ قال لهما أو لأحدهما أُفٍّ أو نهرهما فضلاً عن الإهانة و البطش و الضّرب و القتل... هل هو يثاب بإحسانه الطّويل بهما و يعاقب بأُفّه لهما أو لأحدهما...؟؟؟!!!

قال بعضهم: إنّ النّدم على فعل الطّاعة الواجبة حرام، و لكنّه لايكون محبطاً، و إنّ النّدم على ترك المعصية حرام أيضاً و يكون معصية.

أقول: و فيه تأمّل، و خاصّة في الصّورة الاولى.

و **المشهور بين المتكلّمين:** هو بطلان الإحباط و التكفير، بل قالوا باشتراط الثّواب و العقاب بالموافاة بمعنى أنّ الثّواب على الايمان مشروط بأن يعلم اللّه منه أنّه يموت على

الايمان، و العقاب على الكفر، و الفسوق مشروط بأن يعلم اللّٰه أنّه لايسلم و لايتوب، و بذلك أوّلوا الآيات الدآلّة على الإحباط و التكفير، و ذهبت المعتزلة إلى ثبوت الإحباط و التكفير للآيات و الأخبار الدآلّة عليها.

قال شارح المقاصد: لا خلاف في أنّ من آمن بعد الكفر و المعاصي، فهو من أهل الجنّة، بمنزلة من لا معصية له، و من كفر - نعوذ بالله - بعد الايمان و العمل الصّالح فهو من أهل النّار، بمنزلة من لا حسنة له، و إنّما الكلام فيمن آمن و عمل صالحاً و آخر سيّئاً كما يشاهد من النّاس، فعندنا مآله إلى الجنّة و لو بعد النّار، و استحقاقه للثّواب و العقاب بمقتضى الوعد و الوعيد ثابت من غير حبوط.

و المشهور من مذهب المعتزلة: أنّه من أهل الخلود في النّار إذا مات قبل التّوبة، فأشكل عليهم الأمر في ايمانه و طاعاته، و ما يثبت من استحقاقاته، أين طارت؟ و كيف زالت؟

فقالوا: بحبوط الطّاعات و مالوا إلى أنّ السّيّئات يذهبن الحسنات، كما أنّ الحسنات يذهبن السّيّئات، حتّى ذهبت الجمهور منهم إلى أنّ الكبيرة الواحدة تحبط ثواب جميع العبادات...

و قالوا: الإحباط مصرّح في التنزيل كقوله تعالى: «و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم» الحجرات: ۲) و غيرها من الآيات القرآنيّة...

و إنّ المعاصي إنّما تحبط الطّاعات إذ أُوردت عليها، و إن أُوردت الطّاعات أحبطت المعاصي... ثمّ ليس النّظر إلى أعداد الطّاعات و المعاصي بل إلى مقادير الأوزار و الأُجور، فربّ كبيرة يغلب وزرها أجر طاعات كثيرة كإساءة الولد بأبويه بعد الإحسان لهما، و لا سبيل إلى ضبط ذلك بل هو مفوّض إلى علم اللّٰه تعالى.

و قال أبوعليّ - و هو من المعتزلة -: إنّ الأقلّ يسقط، و لا يسقط من الأكثر شيئاً، و يكون سقوط الأقلّ عقاباً إذاكان السّاقط ثواباً، و ثواباً إذا كان السّاقط عقاباً، و هذا هو الإحباط المحض.

و قال أبوهاشم - و هو منهم أيضاً -: الأقلّ يسقط و يسقط من الأكثر ما يقابله،

مثلاً من له مأة جزء من العقاب، و اكتسب ألف جزء من الثّواب، فإنّه يسقط منه العقاب، و مأة جزء من الثّواب بمقابلته، و يبقى له تسعمأة جزء من الثّواب، و كذا العكس، و هذا هو القول بالموازنة.

و في البحار: -كتاب العدل و المعاد - باب ١٨- الوعد و الوعيد و الحبط و التكفير - قال: «الحقّ أنّه لا يمكن إنكار سقوط ثواب الايمان بالكفر اللّاحق الّذي يموت عليه، و كذا سقوط عقاب الكفر بالايمان اللّاحق الّذي يموت عليه، و قد دلّت الأخبار الكثيرة على أنّ كثيراً من المعاصي يوجب سقوط ثواب كثير من الطّاعات، و أنّ كثيراً من الطّاعات كفّارة لكثير من السّيّئات، و الأخبار في ذلك متواترة، و قد دلّت الآيات على أنّ الحسنات يذهبن السّيّئات، و لم يقم دليل تامّ على بطلان ذلك، و أمّا أنّ ذلك عامّ في جميع الطّاعات و المعاصي فغير معلوم، و أمّا أنّ ذلك على سبيل الإحباط و التكفير بعد ثبوت الثّواب و العقاب، أو على سبيل الاشتراط بأنّ الثّواب في علمه تعالى على ذلك العمل مشروط بعدم وقوع ذلك الفسق بعده، و أنّ العقاب على تلك المعصية مشروط بعدم وقوع تلك الطّاعة بعدها فلا يثيب، أو لا ثواب و عقاب، فلا يهمّنا تحقيق ذلك، بل يرجع النّزاع في الحقيقة إلى اللفظ».

أقول: إنّ الإحباط و التكفير عندي ثابتان بالأدلّة العقليّة السّليمة و النقليّة الصّحيحة لامراء فيها...

«القرآن الكريم و حبط الأعمال»

و اعلم أنّ الآيات الكريمة قد صرّحت بإحباط الأعمال الصّالحة و إضلالها، و إبطالها و إفسادها و إهلاكها و محوها و إضاعتها بالشّرك و الضّلال، بالكفر و النّفاق، بالفسق و الفساد، بالبغي و الشّقاق، بالظّلم و اللجاج و بالكبر و العناد و صدّ النّاس عن سبيل اللّه تعالى و كراهة ما أنزل اللّه و باتّباع ما أسخط اللّه و مخالفة أمر رسول اللّـه«صلى الله عليه و آله» و بالإرتداد عن دين اللّه و بالرّياء و المنّ و الأذى و ما إليها من الكبائر... و مات صاحبها عليها، و تأويلها بغير ما قد صرّحت به، تأويل بغير ما يرضى صاحبها.

قال اللّه عزّوجلّ: «الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم - و الّـذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم - ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم - إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّه شيئاً و سيحبط اللّه أعمالهم يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسـول فـلا تـبطلوا أعـمالكم» محمّد«صلى الله عليه و آله»: ١ و ٨ و ٩ و ٢٨ و ٣٢-٣٣).

و قال: «كذلك يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم و ما هم بخارجين من النّار - و من يرتدد منكم عن دينه فيمت و هو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و اولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون - يا أيّها الّذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ

والأذى كالّذي ينفق ماله رئاء النّاس و لا يؤمن بالله و اليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً - أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل و أعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثّمرات و أصابه الكبر و له ذرّيّة ضعفآء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبيّن اللّٰه لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون» البقرة: ۱۶۷ و ۲۱۷ و ۲۶۴ و ۲۶۶).

و في الآيات الكريمة دلالة قاطعة - من دون تأويلها إلى ما لا يرضى صاحبها - على حبط الأعمال و ذهاب أجرها و محو أثرها بما ذكرناه آنفا، فحال كلّ واحد من هؤلآء و من إليهم حال من كانت له جنّة ينتفع بها هو و من يعول فأصابتها جائحة اودت بها و نار احترقتها، و هو أحوج ما يكون إليها لشيخوخته و ضعف ذرّيّته و عجزهم عن القيام بشأنه و شأنهم، و لا مورد له غير هذه الجنّة.

و وجه التّمثيل: أنّ من يفعل الخير ثمّ يعمل بما يفسده - كالنّار الّتي تحرق الأشجار - يأتي القبر أو البرزخ أو يوم القيامة أو حين الاحتضار و هو أشدّ ما يكون محتاجاً إلى ثواب ما عمل من الخير في الحياة الدّنيا و لكنّه يجد عمله هبآءً منثوراً حيث لم يقصد به وجه اللّٰه تعالى أو أبطله بكبائره حتّى مات، و يصبح عاجزاً لا يقدر على شيء كالشّيخ الّذي احترقت جنّته بعد أن أقعده الكبر عن الكسب و له أولاد ضعفآء يلحون عليه بطلب أقواتهم...

و قال: «إنّ الّذين يكفرون بآيات اللّٰه و يقتلون النبيّين بغير حقّ و يقتلون الّذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذاب أليم اولئك الّذين حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة و ما لهم من ناصرين» آل عمران: ۲۱-۲۲)

إنّ اللّٰه تعالى قسّم وعيدهم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: اجتماع أسباب الآلام و المكاره عليهم و هو العذاب الأليم. و استعارة البشارة ههنا للتهكّم.

والثّاني: زوال أسباب المنافع عنهم بالكلّيّة و هو قوله سبحانه: «اولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة» أمّا في الدّنيا فبإبدال المدح بالذّمّ، و الثّناء باللّعن، و النّعمة

بالنّقمة، و أسباب الاحترام و الاحتشام بأصناف الذّلّ و الهوان من السّبي و القتل والجزية و ما إليها... و أمّا في الآخرة فقوله تعالى: «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هبآء منثوراً» الفرقان: ۲۳) فعملهم هذا كالعدم و لن يحصى في عداد الأعمال...

والثّالث: لزوم ذلك كلّه في حقّهم و هو قوله عزّوجلّ: «و ما لهم من ناصرين».

و قال تعالى: «و من يكفر بالايمان فقد حبط عمله و هو في الآخرة من الخاسرين – و اتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحقّ إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما و لم يتقبّل من الآخر قال لأقتلنّك قال إنّما يتقبّل اللّه من المتّقين – و يقول الّذين آمنوا أهؤلآء الّذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنّهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف ياتى اللّه بقوم يحبّهم و يحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل اللّه و لا يخافون لومة لآئم ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشآء و اللّه واسع عليم» المائدة: ۵ و ۲۷ و ۵۳-۵۴).

و قال: «ذلك هدى اللّه يهدى به من يشآء من عباده و لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» الأنعام: ۸۸) و قد صرّحت هذه الآية الكريمة بأنّ الشّرك اللّاحق يحبط العمل الصّالح الخالص السّابق عليه.

و **قول بعض المفسّرين:** «هذا لايدلّ على صحّة ثواب طاعاتهم الّتي أشركوا في توجيهها إلى غير اللّه لأنّهم أوقعوها على خلاف الوجه الّذي يستحقّ به الثّواب، فأمّا ما تقدم فليس في الآية ما يقتضي بطلانه، غير أنّا قد علمنا أنّه إذا أشرك لا ثواب معه أصلاً لإجماع الأُمّة على أنّ المشرك لايستحقّ الثّواب، فلو كان معه ثواب، و قد ثبت أنّ الإحباط باطل لكان يؤدّي إلى أنّ معه ثواباً و عقاباً لأنّا قد بيّنّا بطلان القول بالتّحابط في موضع، و ذلك خلاف الإجماع» إنتهى كلامه، و هذا مردود بصراحة الآية الكريمة من دون حاجة إلى بيان لأهل التدبّر و الدّراية، و أمّا الإجماع فكلا قسميه منفيّ، و نسبته إلى الامّة نسبة غير مرضيّة.

و قال عزّوجلّ خطاباً لخاتم رسله﴿ﷺ﴾ تنبيهاً لأُمّته بأنّ الشّرك بعد التّوحيد والعمل الخالص يوجب حبطه: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك و لتكوننّ من الخاسرين» الزّمر: ۶۵).

و قول بعض المفسّرين: «و ليس في ذلك ما يدلّ على صحّة الإحباط على ما يقوله أصحاب الوعيد لأنّ المعنى في ذلك: لئن أشركت بعبادة اللّٰه غيره من الأصنام لوقعت عبادتك على وجه لايستحقّ عليها الثّواب، و لو كانت العبادة خالصة لوجهه لاستحقّ عليها الثّواب، فلذلك وصفها بأنّها محبطة» غير وجيه جدّاً، و كأنّه ينكر الإرتداد كلاقسميه، فتدبّر جيّداً.

مضافاً على ماورد: «أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لمّا نصّ بإمامة عليّ بن أبيطالب و خلافته﴿؏﴾ من بعده﴿ﷺ﴾ في بزوغ رسالته﴿ﷺ﴾ جآءه قوم من قريش، فقالوا له: إنّ النّاس قريبو العهد بالإسلام، و لايرضون أن تكون النّبوّة فيك، و الإمامة في ابن عمّك، فلو عَدَلْتَ به إلى غيره لكان أرضى لهم؟ فقال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: ما فعلت ذلك برأيى، بل اللّٰه تعالى أمرني بذلك و فرضه عَلَيَّ، فقالوا له: فإن لم تفعل ذلك مخافة الخلاف على ربّك تعالى، فاشرك معه في الخلافة رجلاً من قريش حتّى تسكن إليه قريش والنّاس ليتمّ لك أمرك، و لايخالف عليك النّاس، فنزلت الآية و المعنى: «لئن أشركت» في خلافة علي﴿؏﴾ غيره «ليحبطنّ عملك».

فكما أنّ عدم تبليغ الرّسول﴿ﷺ﴾ خلافة عليّ﴿؏﴾ يوم الغدير كان موجباً لحبط الرّسالة إذ قال اللّٰه تعالى: «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك» في أمر الخلافة بعدك «و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٦٧) كذلك إشراك غيره به﴿؏﴾ فيها يؤدّي إلى حبط عمله﴿ﷺ﴾.

و قال سبحانه: «مثل الّذين كفروا بربّهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف لايقدرون ممّا كسبوا على شيء» إبراهيم: ١٨).

و قال: «و الّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن مآءً حتّى إذا جآئه لم يجده شيئاً» النّور: ٣٩).

و قال: «قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً اولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم و لقآئه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» الكهف: ١٠٣-١٠٥).

فمن عمل عملاً صالحاً قبل الايمان، ثمّ آمن و عمل عملاً صالحاً، ثمّ كفر و عمل عملاً صالحاً و مات على كفره فكلّ عمله الثّلاث: عملاه حين الكفرين، و عمله بعد الايمان و قبل الكفر الثّاني مُحبَطٌ، و كذلك من عمل سوءاً بجهالة ثمّ تاب و أصلح و عمل عملاً صالحاً، ثمّ عمل سوءاً بعلم أو جهالة و مات على إسائته فعمله الصّالح بعد التّوبة، و قبل الإسآئة الثّانية مُحْبَطٌ.

قال اللّه تعالى: «إنّما التّوبة على اللّه للّذين يعملون السّوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فاولئك يتوب اللّه عليهم و كان اللّه عليماً حكيماً و ليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن و لا الّذين يموتون و هم كفّار اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً - إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لم يكن اللّه ليغفر لهم و لا ليهديهم سبيلاً» النساء: ۱۷-۱۸ و ۱۳۷).

و قال في المشركين حال شركهم، و المنافقين حال نفاقهم: «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه شاهدين على أنفسهم بالكفر اولئك حبطت أعمالهم و في النّار هم خالدون - و خضتم كالّذي خاضوا اولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و اولئك هم الخاسرون» التوبة: ۱۷ و ۶۹)

و قال في المغرورين بمتاع الدّنيا و شهواتها و زينتها و لذّاتها...: «من كان يريد الحياة الدّنيا و زينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها و هم فيها لايبخسون اولئك الّذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون» هود: ۱۵-۱۶).

و قال في المنافقين: «اولئك لم يؤمنوا فأحبط اللّه أعمالهم و كان ذلك على اللّه يسيراً» الأحزاب: ۱۹).

و **قول بعض المفسّرين**: إنّ هذه الآية تدلّ على نفي الإحباط بأنّ المنافقين ليس لهم ثواب فيحبط فليس إلاّ أنّ جهادهم الّذي لم يقارنه ايمان لم يستحقّوا عليه ثواباً».

و ذلك أنّه و أمثاله ينكرون الإحباط و يقولون: إنّ كلاً من الايمان و الكفر يتحقّق بتحقّق شروط المقارنة، و ليس شئ من استحقاق الثّواب و العقاب مشروطاً بشرط متأخّر، بل إن تحقّق الايمان تحقّق الثّواب، و كذا في الكفر، فإن كفر بعد الايمان كان كفره

اللّاحق كاشفاً عن أنّه لم يكن مؤمناً سابقاً و لم يكن مستحقّاً للثّواب عليه، و إطلاق المؤمن عليه بحسب الظّاهر لفظاً.

أقول: و فساده ظاهر ممّا ذكرناه.

و قال سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النّبيّ و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم و أنتم لاتشعرون» الحجرات: ٢) و قد نهى اللّه تعالى المؤمنين عن رفع صوتهم فوق صوت النّبيّ(صلی الله علیه و آله) و نهاهم عن الجهر له(صلی الله علیه و آله) بالقول فهما معصيتان موجبتان لحبط الأعمال بعد الايمان، فيكونان من المعاصي غير الكفر الّذي يوجب الحبط.

فلا يختصّ الإحباط بالكفر كما زعم المنكرون للإحباط في غيره بعدم الاستحقاق للثّواب.

﴿السّنّة الثّابتة و حبط الأعمال﴾

و اعلم أنّ الرّوايات الصّحيحة الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين في حبط الأعمال بما ذكرنا آنفاً من الكفر و النّفاق و سآئر الكبآئر كثيرة لا يسعها المقام، و نحن على جناح الاختصار، فينشر إلى نبذة منها:

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «... فاعتبروا بما كان من فِعْلِ اللّٰه بإبليس، إذ أحبط عمله الطّويل و جهده الجهيد - و كان قد عبد اللّٰه ستّة آلاف سنة لايدرى أمن سني الدّنيا أم من سني الآخرة - عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يَسْلَمُ على اللّٰه بمثل معصيته؟ كلاّ! ما كان اللّٰه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إنّ حُكمه في أهل السّمآء و أهل الأرض لواحد، و ما بين اللّٰه و بين أحد من خلقه هوادة في إباحة حِمىً حرّمه على العالمين...» الخطبة القاصعة: رقم ٢٣٤).

و في تفسير القمي: حدّثني أبي عن النّضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن أبي حمزة الثّمالي عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: «يبعث اللّٰه يوم القيامة قوماً بين أيديهم نور كالقباطي، ثمّ يقال له: كن هبآء منثوراً، ثمّ قال: أما و اللّٰه انّهم كانوا ليصومون و يصلّون، و لكن كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام أخذوه و إذا ذكر لهم شيء من فضل أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ أنكروه».

قال اللّه تعالى: «كذلك يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم» البقرة: ١٦٧).

و في **تفسير العيّاشي**: - في تفسير سورة المائدة - حديث ٤٤- في تفسير قوله تعالى: «و من يكفر بالايمان فقد حبط عمله» عن جابر عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: سئلته عن تفسير هذه الآية: و من يكفر بالايمان فقد حبط عمله» قال: يعني بولاية عليّ﴿عليه السلام﴾.

و في **عقاب الأعمال**: بإسناده عن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبد اللّه﴿عليه السلام﴾: يا معلّى لو أنّ عبداً عبد اللّه مأة عام بين الرّكن و المقام يصوم النّهار و يقوم اللّيل حتّى يسقط حاجباه على عينيه و تلتقي تراقيه هَرَماً، جاهلاً لحقّنا لم يكن له ثواب».

و فيه: بإسناده عن أبي حمزة قال: قال لنا عليّ بن الحسين عليهماالسّلام: أيّ البِقاع أفضل؟ فقلت: اللّه و رسوله و ابن رسوله أعلم، قال: إنّ أفضل البِقاع ما بين الرّكن والمقام، و لو أنّ رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه - ألف سنة إلاّ خمسين عاماً - يصوم النّهار و يقوم اللّيل في ذلك المقام، ثمّ لقي اللّه عزّوجلّ بغير ولايتنا لم ينتفع بذلك شيئاً».

وفي **أمالي الصّدوق**: بإسناده عن عمّار بن موسى السّاباطي - في حديث - قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: «إنّ أوّل ما يسئل عنه العبد إذا وقف بين يدى اللّه جلّ جلاله عن الصّلوات المفروضات و عن الزّكاة المفروضة، و عن الصّيام المفروض، و عن الحجّ المفروض، و عن ولايتنا أهل البيت، فإنّ أقرّ بولايتنا ثمّ مات عليها قبلت منه صلاته و صومه و زكاته و حجّه، و إن لم يقرّ بولايتنا بين يدي اللّه جلّ جلاله لم يقبل اللّه عزّوجلّ منه شيئاً من أعماله».

و في **جامع أحاديث الشّيعة**: - باب ١٩- حديث ٢٦) عن أبي الحسن الرّضا﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: «لايقبل اللّه عملاً لعبد إلاّ بولايتنا، فمن لم يوالنا كان من أهل هذه الآية: «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هبآءً منثوراً».

و فيه: - في هذا الباب - حديث ٣٤) عن الصّادق عن أبيه عن جدّه عليهم‌السّلام قال: مرّ أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ في مسجد الكوفة، و قنبر معه فرأى رجلاً قائماً يصلّي، فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أحسن صلاة من هذا! فقال أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾:

مه يا قنبر فو اللّٰه لرجل على يقين من ولايتنا أهل البيت خير ممّن له عبادة ألف سنة، و لو أنّ عبداً عبد اللّٰه ألف سنة لايقبل اللّٰه منه حتّى يعرف ولايتنا أهل البيت، و لو أنّ عبداً عبد اللّٰه ألف سنة و جآء بعمل اثنين و سبعين نبيّاً ما يقبل اللّٰه منه حتّى يعرف ولايتنا أهل البيت، و إلاّ أكبّه اللّٰه على منخريه في نارّ جهنّم».

و في رواية: عن أبي حمزة الثّمالي قال: قال أبو جعفر﴿عليه السلام﴾: «بني الإسلام على خمس: إقامة الصّلاة، و ايتآء الزّكاة، و حجّ البيت، و صوم شهر رمضان، و الولاية لنا أهل البيت، فجعل في أربع منها رخصة، و لم يجعل في الولاية رخصة، من لم يكن عنده مال لم يكن عليه الزّكاة، و من لم يكن عنده مال فليس عليه حجّ، و من كان مريضاً صلّى قاعداً، و أفطر شهر رمضان، و الولاية صحيحاً كان أو مريضاً أو ذو مال أو لا مال له فهي لازمة».

وفي تفسير فرات الكوفي: بإسناده عن يزيد بن فرقد النّهدي أنّه قال: قال جعفر بن محمّد عليهما السّلام في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» يعني إذا أطاعوا اللّٰه و أطاعوا الرّسول ما يبطل أعمالكم قال: عداوتنا يبطل (تبطل خ) أعمالهم».

و في ينابيع المودّة للقندوزي - و هو من أعلام العامّة - عن أبي ليلى عن الحسين بن عليّ عليهما السّلام أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال: «ألزموا مودّتنا أهل البيت فإنّه من لقى ربّه عزّوجلّ و هو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، و الّذي نفسي بيده لاينفع عبداً عمله إلاّ بمعرفة حقّنا» أخرجه الطّبراني في الأوسط.

وفي أمالي الشّيخ المفيد رحمة اللّٰه تعالى عليه: - المجلس الخامس - بإسناده عن موسى ابن بكير قال: حدّثني من سمع أبا عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ جعفر بن محمّد﴿عليهما السلام﴾ يقول: «العامل على غير بصيرة كالسّائر على السّراب بقيعة لاتزيده سرعة سيره إلاّ بُعداً».

و في الكافي: بإسناده عن أبي حمزة قال: كنت عند عليّ بن الحسين﴿عليهما السلام﴾ فجآءه رجل، فقال: يا أبا محمّد إنّي مبتلى بالنّسآء فأزني يوماً و أصوم يوماً، فيكون ذا كفارة لذا؟ فقال له عليّ بن الحسين﴿عليهما السلام﴾: إنّه ليس شيء أحبّ إلى اللّٰه عزّوجلّ من أن يطاع

فلا يعصى، فلا تزنِ و لا تصم، فاجتذبه أبو جعفر﴿عليه السلام﴾ إليه فأخذ بيده فقال: يا أبا زيد تعمل عمل أهل النّار، و تدخل الجنّة؟!».

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «... ثمّ إنّ الزّكاة جُعِلت مع الصّلاة قُرباناً لأهل الإسلام، فمن أعطاها طيّب النّفس بها، فإنّها تُجْعَلُ له كفّارةً، و من النّار حِجازاً و وِقايةً، فلا يُـتبِعنّها أَحَـدٌ نَفْسَهُ، و لا يُكثِرنَّ عليها لَهَفَهُ، فإنّ من أعطاها غير طيّب النّفس بها يرجو بها ما هـو أفضل منها فهو جاهل بالسّنّة، مغبون الأجر، ضالّ العمل، طويل النّدم...» من الخطبة: ۱۹۰).

فالنّيّة الخبيثة تودّى إلى ضلال الأعمال و حبطها، كما أنّ المنّ و الأذى يوجبان بطلان الصّدقة قال اللّٰه عزّوجلّ: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتـبطلوا صـدقاتكم بـالمنّ و الأذى كالّذي ينفق ماله رئآء النّاس...» البقرة: ۲۶۴).

و في الدّعاء: «و أعوذ بك من الذّنب المحبط للأعمال».

و في اصول الكافي - كتاب الايمان و الكفر - باب اجتناب المحارم - حديث ۵) بإسناده عن سليمان بن خالد قال: سئلت أبا عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ عن قول اللّٰه عزّوجلّ: «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هبآءً منثوراً» قال: أما و اللّٰه إن كانت أعمالهم أشدّ بياضاً من القباطي و لكن كانوا إذا عرض لهم الحرام لم يدعوه».

و في مرآت العقول: قال العلاّمة المجلسى رضوان اللّٰه تعالى عليه في شرح هـذا الحديث: «و فيه دلالة على حبط الطّاعات بالفسوق، و خصّه بعض المفسّرين بالكفر و لا كلام فيه.

و لنذكر هنا مجملاً من معاني الحبط و التكفير و الاختلافات الواردة:

إعلم أنّ الإحباط في عرف المتكلّمين عبارة عن إبطال الحسنة بعدم ترتّب ما يتوقّع منها عليها و يقابله التكفير و هو إسقاط السّيّئة بعدم جريان مقتضاها عليها، فهو في المعصية نظير الإحباط في الطّاعة و الحبط و التكفير و إطلاقهما بهذين اللّفظين و بما يساوقهما كثير في الآيات و الأخبار، و قد اشتهر بين المتكلّمين أنّ الوعيديّة من المعتزلة

و غيرهم يقولون بالإحباط و التكفير دون من سواهم من الأشاعرة و غيرهم، و هذا على إطلاقه غير صحيح، فإنّ أصل الإحباط و التكفير ممّا لايمكن إنكاره لأحد من المسلمين كما ظهر ممّا تلونا عليك، فلا بدّ أن يحرّر مقصود كلّ طائفة ليتبيّن ما هو الحقّ.

فنقول: لا خلاف بين من يعتدّ به من أهل الإسلام في أنّ كلّ مؤمن صالح يدخل الجنّة خالداً فيها حقيقة، و كلّ كافر يدخل النّار خالداً فيها كذلك، و أمّا المؤمن الّذي خلط عملاً صالحاً بعمل غير صالح، فاختلفوا فيه، فذهب بعض المرجئة إلى أنّ الايمان يحبط الزّلاّت، فلا عقاب على زلّة مع الايمان كما لا ثواب لطاعة مع الكفر، و ذهب الآخرون إلى ثبوت الثّواب و العقاب (معاً) في حقّه.

أمّا المعتزلة فبعنوان الاستحقاق المعلوم عقلاً باعتبار الحسن و القبح العقليّين، وشرعاً باعتبار الآيات الدّالّة عليه من الوعد و الوعيد، و أمّا الأشاعرة فبعنوان الاتّفاق يقولون: أنّه لايجب على اللّه شئ فلايستحقّ المكلّف ثواباً منه تعالى، فإن أثابه فبفضله و إن عاقبه فبعدله، بل له إثابة العاصي و عقاب المطيع أيضاً، و بالجملة قول المعتزلة في المؤمن الخارج من الدّنيا بغير توبة عن كبيرة ارتكبها أنّه استحقّ الخلود في النّار لكن يكون عقابه أخفّ من عقاب الكفّار، أمّا مطلق الاستحقاق فلما عرفت، و أمّا خصوص الخلود فللعمومات المتأوّلة عند غيرهم بتخصيصها بالكفّار أو بحمل الخلود على المكث الطّويل لقوله تعالى: «و من يعص اللّه و رسوله فإنّ له نار جهنّم خالدين فيها» الجنّ: ۲۳) و قوله: «و من يعص اللّه و رسوله و يتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها و له عذاب مهين» النسآء: ۱۴) فلهذا حكموا بأنّ كبيرة واحدة تحبط جميع الطّاعات فإنّ الخلود الموعود مستلزم لذلك.

هذا قول جمهورهم في أصل الإحباط.

ثمّ إنّ الجبائيّين أبا علي و ابنه أباهاشم منهم على ما نقل عنهما الآمدى ذهبا إلى اشتراط الكثرة في الحبط بمعنى أنّ من زادت معاصيه على طاعاته أحبطت معاصيه طاعاته و بالعكس، لكنّهما اختلفا فقال أبوعليّ: ينحبط النّاقص برمّته من غير أن ينتقص من الزّائد شيء، و قال أبو هاشم: بل ينتقص من الزّائد أيضاً بقدره و يبقى الباقي.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ ما ذكره أكثر أصحابنا من نفي الإحباط و التكفير مع ورود الآيات الكثيرة و الأخبار المستفيضة بل المتواترة بالمعنى في كلّ منهما ممّا يقضى منه العجب، مع أنّه ليس لهم على ذلك إلاّ شبه ضعيفة مذكورة في كتب الكلام كالتّجريد و غيره، لكن بعد التّأمّل و التّحقيق يظهر أنّ الّذي ينفونه منهما لاينافي ظواهر الآيات و الأخبار كثيراً، بل يرجع إلى مناقشة لفظيّة لأنّهم قائلون بأنّ التّوبة ترفع العقاب، و أنّ الموت على الكفر تبطل ثواب جميع الأعمال، لكنّ الأكثر يقولون: ليس هذا بالإحباط، بل باشتراط الموافاة على الايمان في استحقاق الثّواب على القول بالاستحقاق، و في الوعد بالثّواب على القول بعدم الاستحقاق، و كذا يمكنهم القول بأحد الأمرين في المعاصي الّتي وردت أنّها حابطة لبعض الحسنات من غير قول بالحبط بأن يكون الاستحقاق أو الوعد مشروطاً بعدم صدور تلك المعصية.

و أمّا التّوبة و الأعمال المكفّرة فلا حاجة إلى ارتكاب أمثال ذلك فيها، إذ في تجويز التّفضّل و العفو كما هو مذهبنا غنى عنها، و أيضاً لا نقول بإذهاب كلّ معصية كلّ طاعة و بالعكس كما ذهب إليه المعتزلة، بل نتّبع في ذلك النّصوص الواردة في ذلك، فكلّ معصية وردت في الكتاب أو في الآثار الصّحيحة أنّها ذاهبة أو منقصة لثواب جميع الحسنات، و بعضها نقول به و بالعكس، تابعين للنّصّ في جميع ذلك.

و من أصحابنا من لم يقل بالموافاة و لا بالإحباط بل يقول: كلّ من الايمان و الكفر يتحقّق بتحقّق شروطه المقارنة، و ليس شيء من استحقاق الثّواب و العقاب مشروطاً بشرط متأخّر، بل إن تحقّق الايمان تحقّق استحقاق الثّواب، و إن تحقّق الكفر تحقّق معه استحقاق العقاب، فإن كفر بعد الايمان كان كفره اللّاحق كاشفاً عن أنّه لم يكن مؤمناً سابقاً، و لم يكن مستحقّاً للثّواب عليه، و إطلاق المؤمن عليه بمحض اللّفظ و بحسب الظّاهر، و إن آمن أحد بعد الكفر زال كفره الأصلي بالايمان اللّاحق، و سقط استحقاقه العقاب لعفو اللّه تعالى لا بالإحباط و لا لعدم الموافاة كما يقول الآخرون» انتهى اجمال كلامه.

وفي **وسائل الشّيعة**: -كتاب الطّهارة -أبواب مقدّمة العبادات -باب ٢١- حديث

۷) بالاسناد عن السّكوني عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «ما أقبح الفقر بعد الغنى، و أقبح الخطيئة بعد المسكنة، و أقبح من ذلك: العابد لله ثمّ يدع عبادته».

و في قرب الأسناد: عن عبد اللّٰه بن ميمون القداح عن جعفر بن محمّد عن أبيه﴿عليهما السلام﴾ قال: خرج رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قابضاً شيئين في يده، ففتح يده اليمنى، ثمّ قال: «بسم اللّٰه الرّحمن الرّحيم كتاب من الرّحمن الرّحيم في أهل الجنّة بأعدادهم و أحسابهم و أنسابهم تجمل (مجمل خ) عليهم لاينقص منهم أحد، و لا يزداد (زاد خ) فيهم أحد، ففتح (ثمّ فتح خ) يده اليسرى فقال: بسم اللّٰه الرّحمن الرّحيم كتاب من الرّحمن الرّحيم في أهل النّار بأعدادهم و أحسابهم و أنسابهم يحمل عليهم يوم القيامة لاينقص منهم أحد و لايزداد فيهم أحد، و قد يسلك بالسّعدآء طريق الأشقيآء حتّى يقال: هم (أي السّعدآء) منهم (أى الأشقيآء) هم (السّعدآء) هم (الأشقيآء) ما أشبههم (السّعدآء) بهم (بالأشقيآء) ثمّ يدرك أحدهم سعادته قبل موته و لو بفواق ناقة.

و قد يسلك بالأشقيآء طريق أهل السّعادة حتّى يقال: هم (أى الأشقيآء) منهم (أى السّعدآء) هم (الأشقياء) هم (السّعدآء) ما أشبههم (الأشقآء) بهم (بالسّعدآء) ثمّ يدرك أحدهم شقاء و لو قبل موته، و لو بفواق ناقة، فقال النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾: العمل بخواتيمه، العمل بخواتيمه، العمل بخواتيمه».

قوله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «و لو بفواق ناقة» الفواق - بالضّمّ و الفتح -: ما بين الحلبتين من الوقت لأنّها تُحلب ثمّ تترك سريعة يرضعها الفصيل لتدرّ، ثمّ تُحْلَب، أو ما بين فتح يدك و قبضها على الضّرع.

أقول: إنّ قصّة إبليس لعنة اللّٰه تعالى عليه، و قصّة الحرّ بن يزيد الرّياحي رحمة اللّٰه عزّوجلّ عليه ظاهرتان لاخفآء فيهما.

و في الدّرّ المنثور: عن قتادة في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّٰه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ۳۳) قال: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء فليفعل، و لا قوّة إلاّ بالله، فإنّ الخير ينسخ الشّرّ، فإنّما ملاك الأعمال خواتيمها».

و في روح المعاني: في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» قيل: إنّ بني أسد أسلموا و قالوا لرسول اللّه(ﷺ): قد آثرناك و جئناك بنفوسنا و أهلنا» كأنّهم منّوا بذلك، فنزلت فيهم هذه و قوله تعالى: «يمنّون عليك أن أسلموا» و من هنا قيل: المعنى: لاتبطلوا أعمالكم بالإسلام. و عن ابن عبّاس: أي بالرّياء و السّمعة، و بالشكّ و النّفاق. و قيل: بالعجب فإنّه يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب. و قيل: لاتبطلوا طاعاتكم بمعاصيكم.

و فيه: و أخرج عبد بن حميد و محمّد بن نصر المروزي في كتاب الصّلاة، و ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول اللّه(ﷺ) يرون أنّه لا يضرّ مع «لا إله إلاّ اللّه» ذنب كما لاينفع مع الشّرك عمل، حتّى نزلت: «أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» فخافوا أن يبطل الذّنب العمل. و لفظ عبد بن حميد: «فخافوا الكبآئر أن تحبط أعمالهم».

أقول: و قد سبق منّا المختار من بين الأقوال في تحقيق الأقوال فراجع.

﴿الموانع و القواطع و حبط الأعمال﴾

قال بعض المحقّقين: و من المعلوم أنّ لكلّ عمل صالح، عباديّاً كان أو غيره، شرطاً إمّا لصحّته كالطّهارة للصّلاة، و إمّا لقبوله كالتقوى: «إنّما يتقبّل اللّه من المتّقين» المائدة:٢٧)

و أنّ العوارض الّتي تعرض الأعمال و تبطلها، قد تكون متّصلة لها، كالحدث حين الصّلاة ،و قد تكون منفصلة عنها و هي إمّا قبلها كالنّجاسة قبلها، و إمّا بعدها كالحدث بعد الطّهارة، فالعوارض قد تكون قواطع للأعمال كالحدث و الإلتفات حين الصّلاة، و قد تكون موانع لها كالنّجاسة و فقد الطّهارة، فالنّجاسة أو فقد الطّهارة مانع من دخول الصّلاة، و إبطال الطّهارة أو عروض النّجاسة حين الصّلاة قاطع لها، و قد تكون العوارض مبطلة للأعمال بعد إتمامها كالمنّ و الأذى بعد الصّدقة أو كالحدث بعد تحصيل الطّهارة، و قد تكون مانعة و قاطعة و مبطلة كالكفر قبل الصّلاة و قاطعة بين الصّلاة، و مبطلة بعد الصّلاة.

و أنّ الشّرك و الضّلال و الكفر و العناد و البغي و اللّجاج و الإثم و الفساد و الكبآئر تختلف باختلاف أحوال الإنسان، فتكون تارة موانع لقبول أعماله، و اخرى موانع لصحّتها، و ثالثة قواطع لها و رابعة مبطلة لها...

و قال: من زعم أنّ إنساناً إذا عمل صالحاً مع شرائط الصّحة فهو يستحقّ الثّواب لعمله الصّالح، ثمّ إذا أسآء فهو يستحقّ العقاب لسوء عمله، و أنّ سوء عمله لايبطل عمله الصّالح، و إلاّ يلزم الظّلم لعدم الفرق حينئذ بين هذا الشّخص، و بين من لايعمل إلاّ سوءاً، فليس المراد بالإحباط تأثير العمل اللّاحق في بطلان العمل السّابق بمعنى انقلابه فاسداً من الأوّل و محو أثره تماماً كأن لم يكن بعد أن وقع صحيحاً، بل المراد هو إيطال أثره في المستقبل من مثوبة و غيرها من آثار كانت مترتّبة عليه لولا الإحباط، فالإنسان الواحد في آن واحد، مستحقّ للثّواب لصالح عمله، و مستحقّ للعقاب لسوء عمله، فزعمه فاسد:

أوّلاً: أنّه لو كان الإحباط مستلزماً للظّلم لكان التّكفير أيضاً ظلماً و قد قال اللّه تعالى: «و لو أنّ أهل الكتاب آمنوا و اتّقوا لكفّرنا عنهم سيّئاتهم و لأدخلناهم جنّات النّعيم» المائدة: ۶۵) حيث إنّ من كفر باللّه و عصاه أربعين سنة أو أكثر ثمّ تاب و آمن واتّق و مات مؤمناً فهو في الجنّة العالية مع مَن آمن باللّه و أطاعه في تمام عمره من دون معصية و مات مؤمناً فكلاهما فيها متساويان، فلو كانت تلك التّسوية ظلماً لكانت هذه التّسوية أيضاً ظلماً.

و كذلك التّسوية بين الحرّ بن يزيد الرّياحي رحمة اللّه تعالى عليه بعد توبته و شهادته بعد ساعات و بين الحبيب بن المظاهر رضوان اللّه تعالى عليه الّذي كان مع مولاه سيّد الشّهدآء الحسين بن عليّ عليهماالسّلام سنوات حتّى استشهدو كذلك سآئر الشّهداء عليهم سلام اللّه.

و ثانياً: أنّ مَن كان ضالاً مضلاً في عمره أو سنين كثيرة، و أضلّ بعض النّاس و صدّهم عن سبيل اللّه تعالى أيّاماً فقد كان التّابع و المتبوع في العذاب مشتركين إذ قال اللّه عزّوجلّ: «فإنّهم يومئذ في العذاب مشتركون» الصّافات: ۳۳) أو ليس هذا ظلماً.

و ثالثاً: أنّ من كان مع سيّد الشّهدآء الحسين بن عليّ﴿علیه السلام﴾ سنين متوالية، ثمّ

فارقه ليلة عاشورآء من دون كفر و لا ارتداد، و لا تصديق ليزيد بن معاوية عليهما الهاوية، و لا حمايته له، فهل هو يثاب بما عمله قبل ذلك، و يعاقب بفراقه عنه(عليه السلام)؟!

و رابعاً: أنّ الإنسان إمّا مستحقّ للثّوب أو مستحقّ للعقاب، و الجمع بين الصّفتين متناقض، فالمستحقّ للثّواب وليّ اللّه تعالى، بينما مستحقّ العقاب عدوّ اللّه جلّ وعلا، و محال أن تجتمع الصّفتان في شخص واحد في آن واحد، مع أنّه ليس في الدّار الآخرة إلاّ جنّة أو نار، و إذا افترضنا وجود حال ثالثة، فقد وجب أن تكون هناك دار ثالثة أيضاً، و هكذا فإنّ حال المكلّف يجب أن لايخرج عن أن يكون مستحقّاً للعقاب أو مستحقّاً للثّواب، فإذا ما جآءت لحظة الحساب نظر إلى أعماله...

قال اللّه تعالى: «و الوزن يومئذ الحقّ فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون و من خفّت موازينه فاولئك الّذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون» الأعراف: ٨-٩).

فمن كان ذنبه على حدّ يحبط عمله الصّالح فهو من الخاسرين الّذين هم في جهنّم خالدون: «و من خفّت موازينه فاولئك الّذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون» المؤمنون: ١٠٣).

و أمّا من لايكون ذنبه على حدّ يحبط عمله، فهو يؤاخذ إمّا في الحياة الدّنيا بالمرض و نحوه، فيكفّر به سيّئاته، أو يؤاخذ في القبر أو في البرزخ أو يوم القيامة، حتّى يشفع له الشّفعآء فيدخل الجنّة ما يناسب حاله فإنّ لها درجات...

قال اللّه تعالى: «لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح و قاتل اولئك أعظم درجة من الّذين أنفقوا من بعد و قاتلوا» الحديد: ١٠)

و قال: إنّ الشّرك و الكفر و الضّلال قبل الايمان موانع لقبول الأعمال الصّالحة كما أنّ النّجاسة قبل الصّلاة مانعة لدخولها، و إنّ الشّرك و الكفر و الضّلال و الكبآئر... بعد الايمان قواطع للأعمال كما أنّ الحدث حين الصّلاة قاطع لها، و إنّ بعض الذّنوب الّذي لايكون على حدّ يحبط العمل الصّالح لايكون مانعاً كما أنّ الدّم المعفوّ عنها في الصّلاة

ليست مانعة لدخولها و لا قاطعاً كما أنّ الرّعاف حين الصّلاة ليس بقاطعها.

و انّ مجموع العمل الإنسانى في حياته بمنزلة صلاة واحدة، مركّبة، متّصلة أجزآئها، و لها موانع و قواطع...

و قد تقرّر في اصول الفقه: أنّ الفارق بين القاطع و المانع: أنّ مرجع كون الشّيء قاطعاً في المركّبات الاعتباريّة إنّما هو إلى كونه بوجوده مفنياً كما هو الشّرط المأخوذ في المركّب المأمور به و هو الجزء الصّوري المعبّر عنه بـالهيئة الاتّـصاليّة، الحـادثة بـالتكبيرة و المستمرّة إلى آخر التّسليمة من غير أن يكون لعدمه دخل في المأمور به، فإنّ معنى القطع عبارة عن الفصل الّذي هو نقيض الوصل أو ضدّه، و لا يصدق ذلك إلاّ إذا كان للمركّب جزء صوريّ و هيئة اتّصاليّة لها دخل في ملاك المركّب، و إلاّ فبدونه لامجال لتـصوير كون الشّيء قاطعاً للمأمور به و لا للنّهي عن ايجاده بعنوانه الخاص.

و هذا بخلاف المانع، فإنّ مرجع مانعيته إلى قيديّة عدمه للمأمور به قبال الشّرآئط الرّاجعة إلى دخل وجودها في المأمور به، و حينئذ فالمانع و القاطع و إن كانا يشتركان في الإخلال بالمأمور به، إلاّ أنّ المائز بينهما هو أنّ في المانع يكون حيث التّقيّد بعدمه مأخوذاً في المأمور به، و كان له دخل في ملاكه، بخلاف القاطع، فإنّه ليس ممّا لعدمه دخـل في المأموربه، و إنّما هو مفني لما هو المعتبر فيه و هو الجزء الصّـوري المـعبّر عـنه بـالهيئة الإتّصاليّة.

و قد يفرق بينهما بوجه آخر، و هو جعل المانع عبارة عمّا يمنع وجوده عن صـحّة المأمور به إذا وقع في خصوص حال الاشتغال بالأجزآء، و القاطع عـبارة عـمّا يـمنع وجوده عن صحّته عند وقوعه في أثناء المأمور به مطلقاً حـتّى في حـال السّكـونات المتخلّلة بين الأجزآء...

و لكن فيه تأمّل، فإنّه كما يمكن ثبوتاً كون المانع مانعاً عن صـحّة المأمـور بـه في خصوص حال الاشتغال بالأجزآء كذلك يمكن كونه مانعاً عن الصّحّة مطلقاً حتّى في

حال السّكونات المتخلّلة في البين، كما أنّ الأمر في طرف القاطع كذلك، حيث يتصوّر فيه ثبوتاً كونه قاطعاً مطلقاً أو في خصوص حال الاشتغال بالأجزآء لأنّه تابع كيفيّة اعتبار الشّارع إيّاه.

و أمّا في مقام الإثبات فيحتاج استفادة كلّ من الاعتبارين في كلّ من المانع و القاطع إلى قيام الدّليل عليه، و يختلف ذلك باختلاف كيفيّة لسان الأدلّة الواردة في باب القواطع و الموانع، و لايبعد استفادة المانعيّة و القاطعيّة المطلقة ممّا ورد بلسان النّهي عن ايقاع شيء في الصّلاة بنحو جعل الصّلاة ظرفاً لعدم وقوع المانع أو القاطع فيها لولا مزاحمة الجهات الأُخر المقتضية لتخصيص المانعيّة أو القاطعيّة بحال الاشتغال بالأجزآء...

﴿عمر بن الخطّاب و حبط الأعمال﴾

قال اللّٰه عزّوجلّ: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم - و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرّسول و لاتبطلوا أعمالكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٩ و ٣٢-٣٣)

و لعمري! إنّي لا أظنّ أن يخفى على من له أدنى مسكة و دراية و طيب ولادة أنّ عمر بن الخطّاب بعد تظاهره بالايمان، بعد مضيّ سنين من البعثة النّبويّة كره ما أنزل اللّٰه تعالى و خالف رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في مواضع كثيرة و مواقع عديدة منها في أمر إمارة أسامة، مع حليفه أبي بكر بن أبي قحافة و أذنابهما، و قد لعن رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ مخالفي أمره﴿ﷺ﴾ و شاقّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في أمر الخلافة بعده﴿ﷺ﴾ و كتابتها قبل وفاته﴿ﷺ﴾ و قد أهان عمر بن الخطّاب برسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و عنده﴿ﷺ﴾ جمع من النّاس، و نسب الهجر إلى من «لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى علّمه شديد القوى» النّجم: ٣-٥)

و قد أمر اللّٰه تعالى عباده بإطاعة رسوله﴿ﷺ﴾ و جعل إطاعة رسوله﴿ﷺ﴾ إطاعة نفسه و قال: «من يطع الرّسول فقد أطاع اللّٰه» النّسآء: ٨٠) و قال: «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا» الحشر: ٧) و قد أسّس عمر بن الخطّاب و أذنابه أساس السّقيفة الشّؤمة في أوّل ساعات رحلته﴿ﷺ﴾ بعد ما كانت في صميمهم من قبل.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «حتّى إذا قبض اللّه رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولائج، و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي أُمروا بمودّته، و نقلوا البنآء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب في غمرة، قد ماروا في الحيرة، و ذهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن، أو مفارق للدّين مباين» الخطبة: ١٥٠).

و لقد منع عمر بن الخطاب أهل بيت رسول اللّه المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين من الإرث و الخمس قبل دفنه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و غصب فدكاً حقّ ابنة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهرآء سلام اللّه عليها، و هتك حرمة أهل بيت الوحي عليهم السّلام و هضم حقوقهم و أحرق بيت الوحي و ضرب الصّديقة الطّاهرة بضعة رسول اللّه فاطمة الزّهرآء عليها سلام اللّه و لطمها و أسقط جنينها حتّى استشهدت ساخطة عليه، و صدّ النّاس عن سبيل اللّه تعالى.

و غيرها من الجنايات الّتي لانستطيع على إحصآئها... و لقد فعل عمر بن الخطّاب بالنّسبة إلى رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أهل بيته المعصومين عليهم السّلام و دينه و امّته ما لم يفعله أحد من الأمم السّابقة بنبيّهم و أهل بيته و دينه و أُمّته، و لا أحد من الطّغاة و المشركين، و البغاة و المستكبرين، و الفسّاق و المنافقين، و الفجّار و المجرمين من هذه الأمّة...

أو ليس ما أشرنا إليه، و ما لا نستطيع بإحصآئه من جنايات عمر بن الخطّاب موجبة لحبط أعماله...؟!

و لعمري: إنّه لو لم تكن إحدى جناياته - فضلاً عن جميعها - مؤدّية إلى حبط أعماله لما كان للحبط معنى في الآيات الكثيرة القرآنيّة، وفي الرّوايات المتواترة الواردة عن الفريقين...

و نحن نكتفي في المقام بما استدلّ المحقّق العلاّمة الحلّي، و الفقيه المحدّث البحراني رضوان اللّه تعالى عليهما من قوله تعالى: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّه فأحبط أعمالهم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٩) على حبط أعمال عمر بن الخطّاب:

في نهج الحقّ و كشف الصّدق: - القسم الثّالث - المطلب الخامس - فيما رواه الجمهور في حقّ الصّحابة): «و روى الحميدي في الجمع بين الصّحيحين، في مسند أبي موسى الأشعري، عن إبراهيم بن أبي موسى: أنّ أباه كان يفتي بالمتعة، فقال له رجل: رويدك ببعض فُتياك، فانّك لاتدري ما أحدث أمير المؤمنين (يعني عمر بن الخطّاب) في النّسك، فلقيه بعد ذلك، فسئله، فقال عمر: قد علمتُ أنّ النّبي قد فعله و أصحابُه، و لكن كرهتُ: أن يظلّوا معرّسين بين الأراك، ثمّ يروحوا في الحجّ تقطر رؤوسهم».

أقول: و قد رواه جمع كثير من أعاظم العامّة و حملة آثارهم في مآخذهم المعتبرة و صحاحهم و مسانيدهم و سننهم:

منهم: مسلم في (صحيحه: ج ١ ص ٤٧٢).

و منهم: أحمد في (مسنده: ج ١ ص ٥٠).

و منهم: ابن ماجة في (سننه: ج ٢ ص ٢٢٩).

و منهم: البيهقي في (سننه: ج ٥ ص ٢٠).

و منهم: النّسائي في (سننه: ج ٥ ص ١٥٣) و غيرهم تركناهم روماً للاختصار.

و في الجمع بين الصّحيحين: في مسند عمران بن الحصين، في متعة الحجّ (كما في صحيح مسلم: ج ٢ ص ٥٢٠) و (البخاري: ج ٦ ص ٣٣) و (التّاج الجامع للاصول: ج ٢ ص ١٢٤) و قد تقدّم لعمران بن الحصين حديث في متعة النّسآء أيضاً، قال: أُنزلت آية المتعة في كتاب اللّٰه تعالى: «فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ اجورهنّ فريضة» النسآء: ٢٤) و فعلناها مع رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و لم ينزل قرآن يحرّمها، و لم ينه عنها رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ حتّى مات، و قال رجل (عمر بن الخطّاب) برأيه ما شآء.

قال البخاري و مسلم في صحيحها: إنّه عمر.

كما في تفسير ابن كثير (ج ١ ص ٢٣٣) و فتح الباري (ج ٤ ص ٣٣٩) و إرشاد السّارى للقسطلاني (ج ٤ ص ١٦٩).

ثمّ قال العلّامة الحلّي رحمة اللّٰه تعالى عليه: «و هذا تصريح بأنّ عمر قد غيّر شرع اللّٰه، و شريعة نبيّه في المتعتين، و عمل فيهما برأيه، و قال اللّٰه تعالى: «ذلك بأنّهم كرهوا

ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ۹) فإن كانت هذه الرّوايات صحيحة عندهم، فقد ارتكب عمر كبيرة، و إن كانت كاذبة فكيف يصحّحونها، و يجعلونها من الصّحاح؟» إنتهى كلامه.

أقول: و قد سبق منّا: أنّ بعض أعلام العامّة قال لي: في سجن إوين تهران سنة ۱۳۶۶ ه ش -: إنّ عمر بن الخطّاب نهى عن متعة النّسآء ليكثر أولاد الزّنآء، حتّى يبغضوا عليّاً﴿؏﴾ فإنّ ولد الزّنا لايحبّ عليّاً﴿؏﴾.

و في **الحدآئق النّاضرة**: - المقدّمة السّابعة في الأذان و الإقامة - (علّة حذف (حيّ على خير العمل) من الأذان) قال: فصل:

«روى الصّدوق في كتاب العلل بسنده عن ابن أبي عمير أنّه سئل أبا الحسن﴿؏﴾ عن «حيّ على خير العمل» لِمَ تُرِكَتْ من الأذان؟ فقال: تريد العلّة الظّاهرة أو الباطنة؟ قلت: اريدهما جميعاً. فقال: أمّا العلّة الظّاهرة فلئلّا يدع النّاس الجهاد إتّكالاً على الصّلاة، و أمّا الباطنة فإنّ خير العمل الولاية، فأراد مَنْ (عمر بن الخطّاب) أمر بترك «حيّ على خير العمل» من الأذان أن لايقع حثّ عليها و دعاء إليها».

و روى في الكتاب المذكور بسنده عن عكرمة، قال: قلت لابن عبّاس: أخبرني لأيّ شيء حذف من الأذان «حيّ على خير العمل»؟ قال: أراد عمر بذلك أن لايتّكل النّاس على الصّلاة و يدعوا الجهاد، فلذلك حذفها من الأذان».

و قال صاحب الحدآئق رضوان اللّٰه تعالى عليه بعد نقل ذلك: «و نظير هذا التّعليل العليل ما نقله أوليآؤه أيضاً في تحريم متعة الحجّ من قوله: «كرهت أن يخرجوا إلى الحجّ و رؤوسهم تقطر من نسآئهم» و قوله: «كرهت أن يكونوا معرسين تحت الأراك، ثمّ يخرجون إلى الحجّ و رؤوسهم تقطر من نسآئهم» أرأيت أنّ اللّٰه عزّوجلّ الّذي أمر بهذين الحكمين لا يعلم بهذا الأمر الّذي علّل هذا المرتدّ به في كلّ من الموضعين، فذهب ذلك عن علم اللّٰه سبحانه و إنّما اهتدى إليه هو؟ و لقد صدق عليه قوله عزّوجلّ: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللّٰه فأحبط أعمالهم».

و روى في كتاب معاني الأخبار بسنده عن محمّد بن مروان عن أبي جعفر﴿؏﴾

قال: أتدري ما تفسير «حيّ على خير العمل»؟ قال: قلت: لا. قـال: دعـاك إلى البرّ، أتدري برّ مَن؟ قلت: لا، قال: إلى برّ فاطمة و ولدها عليهم السّلام».

قال صاحب الحدائق - بعد نقل الرّواية -: أقول: لا منافاة بين هذه الأخبار، و بين ما تقدّم في علل الفضل بن شاذان من تفسير خير العمل بالصّلاة فإن أخبارهم كالقرآن لها ظهر و بطن» انتهى كلامه و رفع مقامه.

أقول: و من المعلوم و البداهة: أنّ عمر بن الخطّاب لم يندم و لم يتب ما فعل، و لم يرجع الحقّ إلى أهله حتّى مات.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «... حتّى مضى الأوّل لسبيله - فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته! إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشدّ ما تشطّرا ضرعيها، فصيّرها في حوزة خشناء، يـغلظ كـلمها، و يخشـن مسّها، و يكثر العثار فيها، و الاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصّعبة، إن أشنق لها خرم، و إن أسلس لها تقحّم، فَمُنِيَ النّاس لعمر اللّه بخبط و شماس، و تلوّن و اعتراض، فصبرت على طول المدّة، و شدّة المحنة، حتّى إذا مـضى لسـبيله، جـعلها في جمـاعة زعـم أنّي أحدهم...» الخطبة الثّالثة).

﴿ طرق إزالة ثواب الأعمال و عقابها ﴾

و لمناسبة البحث السّابق آنفاً ينبغي لنا أن نشير إلى ما يستطيع الإنسان أن يزيل به ثواب أعماله أو عقابها...

قال بعض المحقّقين: إن تسئل: إذا عمل الإنسان عملاً يوجب له ثواباً أو يترتّب عليه عقاباً، فهل يكون ذلك لاصقاً به دائماً لايزول أو يمكن زواله؟

تجيب عنه: أنّه يتعلق بقدرة الإنسان و إرادته على فعله، فما دام الإنسان هو الّذي رتّب على نفسه و بفعله الحرّ هذه النّتيجة، فإنّه يستطيع أن يغيّرها بفعله ما دام قادراً عليه، و إن كان هناك فرق بين الثّواب و العقاب في المؤثّرات الّتي تؤدّي إلى سقوط كلّ منهما... و إنّ الطّرق الّتي يمكن أن يزول بها كلّ من الثّواب و العقاب فهي ثلاث...

أمّا طرق سقوط الثّواب: **فأحدها** - أن يندم المكلّف على ما أتى به من الايمان و الطّاعات و الأعمال الصّالحة كمن أحسن إلى غيره أو مدحه، ثمّ ندم على ما فعله من الإحسان أو المدح، فإنّ هذا النّدم يسقط ما كان يستحقّه من المدح.

ثانيها - أن يفعل معصية أعظم من الايمان و الطّاعة و العمل الصّالح كمن أحسن إلى غيره قدراً من الإحسان ثمّ أسآء إليه بإسآئة أعظم من إحسانه بكثير فهو لايستحقّ حينذاك مدحاً و لا شكراً لما قدمه.

ثالثها - أن يحسن إلى غيره بنيّة صادقة، ثمّ يمنّ عليه بإحسانه أو يؤذيه أو يرائي به أو يهتك حرمته عند تغيّر الأحوال...

و أمّا طرق سقوط العقاب: **فأحدها** – أن يندم و يتوب إلى اللّٰه تعالى عن المعصية، و نظير النّدم في علاقة أحدنا مع الآخرين الاعتذار، فإذا أسآء أحدنا إلى غيره ثمّ اعتذر إليه اعتذاراً صحيحاً و استرضى، و قبل الآخر هذا العذر منه، و رضي عنه، فإنّه يسقط ما كان يستحقّه من الذّمّ و العقاب.

ثانيها – أن يفعل طاعة أعظم من المعصية كمن أسآء إلى غيره، ثمّ أعطاه من الأموال ما لاتسمح نفس بها و لاتتساهل في بذلها.

ثالثها – أن يؤاخذ بمثل ما أسآء كمن اعتدى على غيره، فهو يعتدي عليه بمثل ما اعتدى عليه من القصاص بالنّفس أو بالأنف أو بالأذن أو بالسّبّ و نحوها... أو بالمال.

و قد اختلفت الآرآء في سقوط العقاب عن المعاصي صغآئرها و كبآئرها...

فقال بعضهم: يسقط عن الصّغآئر من دون إصرارها، فمن آمن و أطاع و عمل صالحاً و ارتكب الصّغآئر من دون إصرارها و مات، فلا يؤاخذ بها، و أمّا الكبآئر فلا يسقط عقابها إلاّ بالتّوبة في الحياة الدّنيا، و إن مات عليها فيعاقب بحسبها، فإن كانت موجبة لخلود النّار فيخلّد فيها و إلاّ فيعاقب ثمّ يشفع له، فيدخل الجنّة أدنى درجاتها...

و **قال بعضهم**: لايسقط من الصّغآئر إلاّ بالشّفاعة و لايسقط عن الكبآئر إلاّ بالتّوبة الصّحيحة في الدّنيا، و إلاّ ففي النّار مخلّدٌ.

و **قال بعضهم**: لايسقط العقاب عن الصّغآئر من دون إصرارها، و عن الكبآئر إلاّ بالإستغفار و التّوبة الصّحيحة في الحياة الدّنيا قبل إضاعة الفرصة، و أمّا في الدّار الآخرة فلا يسقط عن الصّغآئر إلاّ بالشّفاعة، و لا عن الكبآئر إلاّ بالمؤاخذة ثمّ بالشّفاعة لو لم تكن موجبة لخلود النّار و إلاّ كان مخلّداً فيها، و أمّا الإصرار في الصّغآئر فحكمها حكم الكبآئر...

و **قالوا**: إنّ حال المكلّف لاتخلو عن واحدة من أربع:

ألف: أن يكون مشركاً أو كافراً، فلا يكون له طاعة و لا عمل صالح إذ لايقبل منه طاعة و إن كان مكلّفا بها كالملوّث بالنّجاسات الّتي لاتصحّ بها الصّلاة و إن كان مكلّفاً بها، و لايقبل منه عمل صالح و إنّ المنافق في حكم الكافر لقوله تعالى: «و ما منعهم أن

تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا باللّه و برسوله» التّوبة: ٥۴).

ب: أن يكون مؤمنا، و كانت طاعاته أكثر من معاصيه، فإن كانت صغيرة لاتجب عليه التّوبه عقلاً و إن وجبت عليه سمعاً، فإن تاب يسقط عقابها من دون إصرار عليها، و إن كانت كبيرة فلا يسقط عقابها إلاّ بالتّوبة، فتجب عليه عقلاً و سمعاً.

ج: أن يكون مؤمناً و كانت معاصيه أكثر من طاعاته، و من كان كذلك فهو صاحب كبيرة، تجب عليه التّوبة في الحياة الدّنيا قبل إضاعة الفرصة، حتّى يسقط عنه ما يستحقّه من العقوبة في الدّار الآخرة، و إن لم يتب و مات عليها فهو من أهل النّار لقوله تعالى: «إنّما التّوبة على اللّه للّذين يعملون السّوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فاولئك يتوب اللّه عليهم و كان اللّه عليماً حكيماً و ليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن و لا الّذين يموتون و هم كفّار اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً» النّسآء: ١٧-١٨).

و حقيقة التّوبة: أن يندم العاصي عن القبيح على أن لايعود إلى أمثاله في القبح إن كانت التّوبة عن قبيح، و أمّا إن كانت توبة عن الإخلال بالواجب، فإنّ صورته أن يندم عن هذا الإخلال و يعزم على أن لايعود إلى مثله، و إن كانت عن ظلم الغير من أكل ماله عدواناً أو تضييع حقّه أو هتك حرمته، فصورة التّوبة أن يندم عن ذلك و يردّ ما له إليه و يؤدّي حقّه و يسترضى منه و يعزم على أن لايعود إلى مثله، فيشترط لصحّة التّوبة وجوب النّدم على ما فات و العزم على عدم التّكرار في المستقبل و إعلان بذل الوسع في تلافي ما سبق.

د -أن يكون مؤمناً و كانت طاعاته و معاصيه متساوية، فإن تاب على معاصيه في الحياة الدّنيا قبل إضاعة الفرصة، يسقط عنه العقاب، و إلاّ فيحتاج إلى الشّفيع لأنّ الشّفاعة وسيلة لإسقاط العقوبة، و ليست الشّفاعة لأهل الكبآئر الّتي موجبة لخلود النّار لقوله تعالى: «يوم لاينفع الظّالمين معذرتهم و لهم اللّعنة و لهم سوء الدّار» غافر: ٥٣).

ثمّ قالوا: و لعمرنا! إنّ عمر بن الخطّاب -لو سلّمنا أنّه آمن و أطاع و عمل صالحاً في الإسلام - عصى اللّه تعالى معصية أعظم من ايمانه، و خالف رسول اللّه (صلى الله عليه و آله) مخالفة

أعظم من طاعته، و أفسد بين المسلمين إفساداً أعظم من عمله الصّالح، و لم يندم و لم يتب إلى اللّٰه تعالى قبل إضاعة الفرصة، و مات و قد كان اللّٰه عزّوجلّ ساخطاً عليه، و مات و قد كان رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ساخطاً عليه، و استشهدت الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام اللّٰه عليها ساخطة عليه، و مات و قد كان الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ساخطاً عليه، كلّ ذلك لأنّ عمر بن الخطّاب اتّبع ما أسخط اللّٰه و كره رضوانه فأحبط اللّٰه تعالى أعماله، و قد قال اللّٰه جلّ وعلا فيه و في أذنابه: «ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٢٨).

﴿كلام في تحابط الأعمال و موازنتها﴾

قال بعض الأعلام: «لاتحابط بين المعاصي و الطّاعات و لا بين الثّواب و العقاب».

أقول: إن كان التّحابط بمعنى أنّه من أقدم على كبيرة كانت على حدّ تحبط تلك الكبيرة جميع أعماله الصّالحة و تسقطها و تمحوها فهو عندي ثابت بالأدلّة العقليّة السّليمة و النّقليّة الصّحيحة الّتي أوردناها سابقاً، و أمّا إن كان بمعنى التّكافؤ و المساواة فباطل إذ ليس بين الطّاعات و المعاصي تكافؤ، و لا بين الثّواب و العقاب مساواة.

و **أمّا الموازنة:** فهي المقايسة بين الحسنات و السّيّئات بأن يقاس إحداهما بالأخرى ليعرف الأثقل من الأخفّ منهما، فيسقط الأقلّ بالأكثر حجماً و مقداراً ليبقى مقدار الفضل بينهما يثاب عليه أو يعاقب محضاً.

فالأعمال الصّالحة للعبد يوازن بالأعمال السّيّئة، فينعدم ما يساوي النّاقص بالنّاقص، و يبقى الزّآئد، فينتفي الأقلّ بالأكثر، و ينتفي من الأكثر بالأقلّ ما ساواه، و يبقى الزّائد مستحقّاً للثّواب أو العقاب، فمن أسآء و أطاع، فإن كانت إسآئته أكثر كان بمنزلة من لم يحسن بأنّ سيّئاته تحبط حسناته، و يصبح المكلّف مستحقّاً للعقاب فيدخل النّار، و إن كان إحسانه أكثر كان بمنزلة من لم يسئ بأنّ حسناته تكفّر سيّئاته، و صار المكلّف مستحقّاً للثّواب فيدخل الجنّة، و إن تساويا كان مساوياً لمن يصدر عنه أحدهما.

قال بعض الأعلام: هذا مردود عندنا لأنّا إذا فرضنا استحقاق المكلّف خمسة أجزآء من الثّواب،و عشرة أجزاء من العقاب، و ليس اسقاط إحدى الخمستين من العقاب الخمسة من الثّواب أولى من الاخرى، فإمّا أن يسقطا معاً و هذا باطل، و إمّا لايسقط شيء منهما و هو المطلوب، و لو فرضنا أنّه فعل خمسة أجزآء من الثّواب و خمسة أجزاء من العقاب، فإن تقدّم إسقاط أحدهما للآخر لم يسقط الباقي بالمعدوم لاستحالة صيرورة المعدوم و المغلوب غالباً و مؤثّراً، و إن تقارنا لزم وجودهما معاً لأنّ وجود كلّ منهما ينفي وجود الآخر، فيلزم وجودهما حال عدمهما، و ذلك جمع بين النّقيضين.

أقول: إنّ الموازنة و المقابلة و المقايسة بين الحسنات و السّيئات، بين الكفر و الايمان، بين الإخلاص و النّفاق، بين العدل و الظّلم و بين الصّلاح و الفساد... باطلة لا بما استدلّ به بعض الأعلام، بل بما ثبت عقلاً و نقلاً أنّ للمقايسة بين الشّيئين شرطين لازمين:

الأوّل: السّنخيّة بينهما. و **الثّاني:** العرضيّة فيهما.

فلايقاس الجاهل بالعالم في العلم إذ ليس بينهما سنخيّة في العلم، و لايقاس المبتديء من الطّلاّب بالمجتهد في الاجتهاد، إذ لايكون المبتديء في عرض المجتهد في الاجتهاد و هكذا... فالمقايسة بين الحسنات و السّيّئات كالمقايسة بين النّور و الظّلمة، بين العقل و الشّهوة، بين العلم و الجهالة، و بين البصير و الأعمى...

﴿الحسنات و تكفير السّيّئات﴾

و اعلم أنّه كما أنّ إحباط الحسنات بالسّيّئات ممّا لايخفى على من له التّدبّر و الدّراية في الكتاب الكريم و السّنّة الثّابتة، كذلك تكفير السّيّئات بالحسنات ممّا لايخفى عليه سوآء بسوآء و الآيات و الرّوايات فيهما قريبة عدداً، و ما يستفاد من مجموع الأدلّة العقليّة و النّقليّة أن الإحباط و التّكفير ليسا عامّين في جميع الحسنات و لا بالنّسبة إلى جميع السّيّئات إطلاقاً، و إنّما هناك شروط و قيود و تفصيل.

و ذلك أنّ الالتزام بعموم الإحباط بصورة مطلقة - بأن يستحقّ المؤمن المحسن لحبط أعماله الصّالحة كلّها بمجرّد سيّئة ارتكبها لغلبة شهوة أو شرآئط آخر و افته في ذلك من دون طغيان على مولاه، و لا قاطع لأواصر العبوديّة الّتي كانت ترتبطه مع مولاه - يوجب الظّلم و الإجحاف على المؤمن المحسن.

كما أنّ الالتزام بعموم التّكفير بصورة مطلقة يؤدّي إلى اجترآء أهل الكبآئر على اقتراف المعاصي و الآثام من دون مبالاة، فيرتكب العاصى كلّ ما ترغب إليه نفسه الخبيثة بصورة مستمرّة عبر الليالي و الأيّام، بل على مرّ السّاعات و الآنات، مقتنعاً بنفسه أنّه ملتزم بالصّلاة و الحسنات لقوله سبحانه: «إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات» هود: ١١٤).

و لعلّ عمر بن سعد - مع اعترافه بمآثم قتل سبط رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ الحسين بن

علي﴿عليه السلام﴾ بكربلاء -كان ممّن يميل إلى هذا المذهب الباطل و الرأى السّخيف في قوله:

فإن صدقوا فيما يـقولون إنّـني أتوب إلى الرّحمن من سـنتين

و هذا ممّا ينكره الوجدان السّليم و العقل الرّشيد، و ينافي مقام عدله جـلّ وعلا و حكمته في التّكليف و البعث و الحساب و الجزاء من الثّواب و العقاب، و خلق الجنّة و النّار...

و في حديث الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق﴿عليه السلام﴾ - مع أحد الصّـوفيّة دلالة واضحة على فساد هذا الرّأى السّخيف و المذهب العامي -:

في معاني الأخبار: - باب معنى الصّراط - حديث ٤) قال الصّـادق﴿عليه السلام﴾: «... فإنّ من اتّبع هواه و أعجب برأيه كان كرجل سمعت غثآء العامّة، تعظّمه و تسفه (تصفه خ) فأحببت لقآئه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره و محلّه، فرأيته قد أحدق به خلق (الكثير) من غثآء العامّة، فوقفت منتبذاً عنهم، متغشّياً بلثام أنظر إليه و إليهم، فما زال يراوغهم حتّى خالف طريقهم و فارقهم، و لم يقرّ فتفرّقت العوام عنه لحوآئجهم، و تبعته أقتفي أثره.

فلم يلبث أن مرّ بخبّاز فتغفّله، فأخذ من دكّانه رغيفين مسارقة، فتعجّبت منه، ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ مرّ بعده بصاحب رمّان، فما زال به حتّى تغفّله فأخذمن عنده رمّانتين مسارقة، فتعجّبت منه، ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة: ثمّ أقـول: و مـا حاجته إذاً إلى المسارقة، ثمّ لم أزل أتبعه حتّى مرّ بمريض فوضع الرّغيفين و الرّمّانين بين يديه و مضى، و تبعته حتّى استقرّ في بقعة من الصّحرآء، فقلت له: يا عبد اللّه لقد سمعت بك و أحببت لقآءك، فلقيتك، و لكنّي رأيت منك ما شغل قلبي! و إنّي سائلك عنه ليزول به شغل قلبي، قال: ما هو؟

قلت: رأيتك مررت بخبّاز و سرقت منه رغيفين، ثمّ بصاحب الرّمّان و سرقت منه رمّانتين! قال: فقال لي: قبل كلّ شيء حدّثني من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم﴿عليه السلام﴾ من امّة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: حدّثني مـن أنت؟ قـلت: رجـل مـن أهـل بـيت رسـول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة، قال: لعلّك جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين

بن عليّ بن أبيطالب صلوات اللّٰه عليهم؟ قلت: بلى، فقال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به و تركك علم جدّك و أبيك لئلاّ تنكر ما يجب أن يحمد و يمدح عليه فاعله؟ قلت: و ما هو؟

قال: القرآن كتاب اللّٰه! قلت: و ما الّذي جهلت منه؟ قال: قول اللّٰه عزّوجلّ: «من جآء بالحسنة فله عشر أمثالها و من جآء بالسّيّئة فلا يجزى إلاّ مثلها» و إنّي لمّا سرقت الرّغيفين كانت سيّئتين، و لمّا سرقت الرّمّانتين كانت سيّئتين، فهذه أربع سيّئات، فلمّا تصدّقت بكلّ واحد منهما كان لى بها أربعين حسنة، فانتقص من أربعين حسنة، أربع بأربع سيّئات، بقي لي ستّ و ثلاثون حسنة، قلت: ثكلتك اُمّك! أنت الجاهل بكـتاب اللّٰه، أما سمعت أنّه عزّوجلّ يقول: «إنّما يتقبّل اللّٰه من المتّقين»؟

إنّك لمّا سرقت رغيفين كانت سيّئتين، و لمّا سرقت رمّانتين كانت أيضاً سيّئتين، و لمّا دفعتهما إلى غير صاحبهما بغير أمر صاحبيهما كنت إنّما أضفت أربع سـيّئات إلى أربـع سيّئات، و لم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيّئات، فجعل يـلاحظني، فـانصرفت و تركته.

قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: بمثل هذا التّأويل القبيح المستكره يَضِلّون و يُضِلّون» الحديث.

قوله﴿عليه السلام﴾: «غثاء»: ما يجيئ فوق السّيل ممّا يحمله من الزّبد و الوسخ و غيره، و المراد به ههنا: أرذال النّاس و سقطهم، و «يراوغهم»: يخادعهم و يماكرهم.

إذن فلابدّ من تأويل الآيات الكريمة و الرّوايات الواردة في الإحباط و التكفير - الّتي ظاهرها عموم الإحباط و التكفير - ببعض الحسنات و السّيّئات، فليس كلّ سيّئة محبطة لكلّ حسنة، و لا كلّ الحسنات، و لا مطلق الحسنات كفّارة لمطلق السّيّئات...

فمن السّيّئات ما يحبط حسنات الدّنيا و الآخرة كلّها كالارتداد و النّـفاق و صـدّ النّاس عن سبيل اللّٰه جلّ‌وعلا و المشاقّة مع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المخالفة لأمره و العناد و اللجاج و العداوة لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

قال اللّٰه تعالى: «و من يرتدد منكم عن دينه فيمت و هو كافر فـاولئك حـبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و اولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون» البقرة: ۲۱۷).

و قال: «و عد اللّٰه المنافقين و المنافقات و الكفّار نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم و لعنهم اللّه و لهم عذاب مقيم - اولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا و الآخرة و اولئك هم الخاسرون» التّوبة: ٦٨-٦٩).

و قال: «الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة و يصدّون عن سبيل اللّٰه و يبغونها عوجاً اولئك في ضلال بعيد» إبراهيم: ٣).

و قال: «ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّٰه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم - و شاقّوا الرّسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا اللّٰه شيئاً و سيحبط أعمالهم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٢٨ و ٣٢).

كما أنّ من الحسنات ما يكفّر سيّئات الدّنيا و الآخرة كلّها كالايمان و التّوبة و الأعمال الصّالحة... قال اللّٰه عزّوجلّ: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم و أصلح بالهم» محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٢).

و قال: «قل يا عبادى الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة اللّٰه إنّ اللّٰه يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم و أنيبوا إلى ربّكم و أسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لاتنصرون» الزّمر: ٥٣-٥٤).

و قال: «و الّذين عملوا السّيّئات ثمّ تابوا من بعدها و آمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم» الأعراف: ١٥٣).

و من السّيّئات ما يحبط بعض الحسنات كالرّياء و السّمعة، و المنّ و الأذى في الإحسان و الصّدقات... فإنّها تحبط الحسنات الّتي تتعلّق بها، حيث إنّ الرّيآء - مثلاً - في الصّلاة تحبطها فقط، و لاتحبط الأعمال الخالصة غيرها، و إن كان غيرها لايقبل بدونها.

قال اللّٰه سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى كالّذي ينفق ماله رئآء النّاس» البقرة: ٢٦٤).

كما أنّ من الحسنات ما يكفّر بعض السّيّئات كالاستغفار و الأذكار و الأدعية و نحوها تحبط بعض السّيّئات كمن أظلم على نفسه أو اغتاب و لم يجد المغتاب فيه، فيستغفر له و كما في بعض الكفّارات...

و من السّيّئات ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره كالقتل... قال اللّه تعالى حكاية عن هابيل بن آدم﴿عليه السلام﴾: «إنّي اريد أن تبوأ باثمي و إثمك فتكون من أصحاب النّار و ذلك جزآء الظّالمين» المائدة: ٢٩) و كهتك الأعراض و الغيبة و الافـتراء و البهـتان و نحوها الواردة في الرّوايات المأثورة من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين كما أنّ من الطّاعات ما ينقل السّيّئات إلى الغير.

و من السّيّئات ما ينقل مثل سيّئات الغير إلى الإنسان لا عينها.

قال اللّه سبحانه: «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم» النّحل: ٢٥) و قال: «و ليحملنّ أثقالهم و أثقالاً مع أثقالهم و ليسـئلنّ يـوم القيامة عمّا كانوا يفترون» العنكبوت: ١٣).

كما أنّ من الحسنات ما ينقل مثل حسنات الغير إلى الإنسان لا عينها.

قال اللّه عزّوجلّ: «و نكتب ما قدّموا و آثارهم» يس: ١٢)

و من السّيّئات ما يوجب تضاعف العذاب.

قال اللّه جلّوعلا: «قالت أُخراهم لأُولاهم ربّنا هؤلآء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار قال لكلّ ضعف و لكن لاتعلمون» الأعراف: ٣٨)

كما أنّ من الحسنات ما يوجب تضاعف الثّواب كالإنفاق في سبيل اللّـه تـعالى و القرض الحسن، و الصّبر و التّقوى...

قال اللّه تعالى: «اولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السّيّئة و ممّا رزقناهم ينفقون» القصص: ٥٤).

و قال: «من ذا الّذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له و له أجر كريم - يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا اللّه و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نوراً تمشون به و يغفر لكم و اللّه غفور رحيم» الحديد: ١١ و ٢٨) مع أنّ الحسنة مضاعفة عند اللّه تعالى مطلقاً.

قال اللّه تعالى: «من جآء بالحسنة فله عشر أمثالها» الأنعام: ١٦٠)

و من الحسنات ما يبدّل السّيّئات حسنات.

قال اللّٰه تعالى: «و الّذين لايدعون مع اللّٰه إلهاً آخر و لايقتلون النّفس الّتي حرّم اللّٰه إلاّ بالحقّ و لايزنون و من يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا إلاّ من تاب و آمن و عمل عملاً صالحاً فاولئك يبدّل اللّٰه سيّئاتهم حسنات و كان اللّٰه غفوراً رحيماً» الفرقان: ۶۸-۷۰).

و من الحسنات ما يوجب لحوق مثلها بالغير.

قال اللّٰه تعالى: «الّذين آمنوا و اتّبعتهم ذرّيّتهم بايمان ألحقنا بهم ذرّيّتهم و ما ألتناهم من عملهم من شيء كلّ امرء بما كسب رهين» الطّور: ۲۱).

و يمكن الحصول على مثلها في السّيّئات كظلم أيتام النّاس حيث يؤدّي إلى نزول مثله على الأيتام من نسل الظّالم.

قال اللّٰه سبحانه: «و آتوا اليتامى أموالهم و لاتتبدّلوا الخبيث بالطّيّب و لاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنّه كان حوباً كبيراً - و ليخش الّذين لو تركوا من خلفهم ذرّيّة ضعافاً خافوا عليهم» النسآء: ۲ و ۹).

و من الحسنات ما يدفع سيّئات صاحبها إلى غيره، و يجذب حسنات الغير إليه كما أنّ من السّيّئات ما يدفع حسنات صاحبها إلى الغير، و يجذب سيّئاته إليه.

﴿كلمات قصار حول الحسنات و حبطها﴾

غُرَرُ حِكَم و دُرَرُ كَلِم في الحسنات و حبطها عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين نشير إلى ما يسعه المقام و نحن على جناح الإختصار:

١- قال مولى الموحّدين إمام المتّقين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «أحسن الحسنات حُبُّنا، و أسوأ السّيّئات بُغْضُنا».

٢- و قال﴿عليه السلام﴾: «مَن تمسّك بنا لحق، من تخلّف عنّا مُحِقَ، مَنِ اتّبع أمْرَنا سبق، من ركب غير سفينتنا غَرِقَ».

٣- و قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: - في خطبة الغدير -: «... معاشر النّاس! إنّما أكمل اللّٰه عزّوجلّ دينكم بإمامته، فمن لم يأتمّ به و بمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة و العرض على اللّٰه عزّوجلّ فاولئك الّذين حبطت أعمالهم، و في النّار هم فيها خالدون، و لا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينظرون -ألا إنّ أعدآء عليّ هم أهل الشّقاق و النّفاق، و الحادّون و هم العادون و إخوان الشّياطين الّذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً...» الخطبة.

٤- و قال﴿صلى الله عليه وآله﴾: - في وصيّته لعمّار بن ياسر -: «...يا عمّار! طاعة عليّ طاعتي، و طاعتي طاعة اللّٰه». ٥- و قال﴿صلى الله عليه وآله﴾: «من ظلم عليّاً مقعدي هذا بعد وفاتي، فكأنّما جحد نبوّتي و نبوّة الأنبيآء قبلي».

٥- و قال الإمام علي﴿عليه السلام﴾: «اَلعُجْبُ بالحسنة يُحْبِطُها».

٦- و قال﴿عليه السلام﴾: «من أعجب بعمله أحبط أجره».

٧- و قال﴿عليه السلام﴾: «ما أضَرَّ المَحاسِنَ كالعُجب».

٨- و قال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «إنّ العُجب ليحبط عمل سبعين سنة».

٩- و قال﴿ﷺ﴾: «إيّاكم و محقّرات الذّنوب، فإنّما مثل محقّرات الذّنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجآء ذا بعود، و جآء ذا بعود، حتّى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، و إنّ محقّرات الذّنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه».

١٠- و قال الإمام علي﴿عليه السلام﴾: «آفة الايمان الشّرك، آفة اليقين الشّك، آفة النِّـعَم الكفران، آفة الطاعة العصيان، آفة الشّرف الكِبْر، آفة العبادة الرّياء، آفة السّخآء المنّ، آفة الدّين سوء الظّنّ، آفة العقل الهوى، و آفة العمل ترك الإخلاص فيه».

١١- و قال﴿عليه السلام﴾: «بعوارض الآفات تتكدّر النّعم».

١٢- و قال﴿عليه السلام﴾: «اَلعَمَلُ كلّه هَبآءٌ إلاّ ما أُخْلِصَ فيه».

١٣- و قال﴿عليه السلام﴾: «رُبَّ عَمَلٍ أفسدته النّيّة».

١٤- و قال﴿عليه السلام﴾: «لو خلصت النّيّات لزكت الأعمال».

١٥- و قال﴿عليه السلام﴾: «ملاك العمل الإخلاصُ له».

١٦- و قال﴿عليه السلام﴾: «إعلم أنّ أوّل الدّين التّسليم و آخره الإخلاص».

١٧- و قال﴿عليه السلام﴾: «صفتان لا يقبل اللّه سبحانه الأعمال إلاّ بها: التّقى و الإخلاص».

١٨- و قال﴿عليه السلام﴾: «مع الإخلاص ترفع الأعمال».

١٩- و قال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من عمل عملاً لغير اللّه فليطلب ثوابه ممّن عمله له».

٢٠- و قال﴿ﷺ﴾ : «إنّ اللّه تعالى لا يقبل من العمل إلاّ ما كان له خالصاً و ابتُغِيَ به وجهه».

٢١- و قال الإمام علي﴿ﷺ﴾: «إنّك إن عملت للدّنيا خَسِرَتْ صَفْقَتُكَ»

٢٢- و قال﴿عليه السلام﴾: «ما أحسن من أسآء عَمَلَهُ» يعنى كأنّه لم يحسن أصلاً.

٢٣- و قال﴿عليه السلام﴾: «اَلْجزَعُ لايَدْفَعُ القَدَرَ، و لكن يُحبِطُ الأجرَ».

٢٤- و في رسالة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى معاذ بن جبل: «أمّا بعد! فقد بلغني جَزَعُك على ولدك الّذي قضى اللّه عليه، و إنّما كان ابنك من مواهب اللّه السّنيّة، و عواريه المستوعبة عندك، فمتّعك اللّه به إلى أجل و قبضه لوقت معلوم: «فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون» لايحبطنّ جَزَعُك أجْرَك، فلو قد قَدِمْتَ على ثواب مصيبتك لعلمت أنّ المصيبة قد قصرت لعظيم ما أعدّ اللّه عليها من الثّواب لأهل التسليم و الصّبر...» الرّسالة.

٢٥- و قال الإمام علي﴿عليه السلام﴾: «الشّكُ يُفسِدُ الدّينَ».

٢٦- و قال﴿عليه السلام﴾: «الشّك يُفسِد اليقين و يُبطل الدّين».

٢٧- و قال﴿عليه السلام﴾: «صُنْ ايمانك من الشّكّ، فإنّ الشّكّ يُفسِد الايمان كما يُفسِدُ المِلْحُ العَسَلَ».

٢٨- و قال﴿عليه السلام﴾: «يسير الشّكّ يُفسد اليقين».

٢٩- و قال﴿عليه السلام﴾: «الشّكُ يُحْبِطُ الايمانَ».

٣٠- و قال﴿عليه السلام﴾: «النّفاق يُفسِد الايمان».

٣١- و قال﴿عليه السلام﴾: «مجالس اللهو تُفسِدُ الايمان».

٣٢- و قال الإمام علي﴿عليه السلام﴾: «اَلْجورُ مِمحاة» أى يمحو الحسنات.

٣٣- و قال﴿عليه السلام﴾: «من ظلم أفسد أمره».

٣٤- و قال﴿عليه السلام﴾: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب».

٣٥- و قال الإمام أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «اَلْغِلّ يَحْبِطُ الحسنات».

٣٦- و قال الإمام على﴿عليه السلام﴾: «اَلْمَنُّ يُنَكِّد الإحسان».

٣٧- و قال﴿عليه السلام﴾: «اَلْمَطَلُ و المنّ مُنَكِّد الإحسانِ».

٣٨- و قال﴿عليه السلام﴾: «إيّاك و المنّ بالمعروف، فإنّ الامتنان يُكدّر الإحسان».

٣٩- و قال﴿عليه السلام﴾: «شرّ المحسنين الممتنّ بإحسانه».

٤٠- و قال﴿عليه السلام﴾: «من مَنّ بمعروفه أفسده».

٤١- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «يا أهل المعروف و الإحسان لا تمنّوا بإحسانكم، فإنّ الإحسان و المعروف يبطله قبيح الإمتنان».

٤٢- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «المنّ يفسد الصّنيعة».

٤٣- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «بالمنّ تُكفَرُ الصّنيعة».

٤٤- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «المنّ يُفسِدُ الإحسان».

٤٥- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «اللئيم من كَثُرَ امتنانُهُ».

٤٦- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «المعروف يُكَدِّره تكرار المَنِّ به».

٤٧- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «الأمل يُفسد العَمَلَ و يُفنى الأَجَلَ».

٤٨- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «من أطال أمله، أفسد عمله».

٤٩- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «أَحْصُدِ الشّرّ عن قبلك تتزكّ نفسك، و يُتَقَبّل عملك».

٥٠- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «إيّاك أن تُسيئ الظّنّ، فإنّ سوء الظّنّ يُفسِد العبادة و يُعَظِّم الوزر».

٥١- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «سوء الظّنّ يُفسِد الامور و يَبْعَثُ على الشّرور».

٥٢- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «إيّاك و الغيبة فإنّها تمقتك إلى اللّه و النّاس و تُحبِطُ أجْرَك».

٥٣- و قال﴿عليه‌السلام﴾: «اَلْأَمُ النّاسِ المُغْتابُ».

٥٤- و قال رسول اللّه﴿صلى‌الله‌عليه‌وآله﴾: «إنّ الرّجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه و بينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النّار، فيدخل النّار، و إنّ الرّجل منكم ليعمل بعمل أهل النّار، حتّى ما يكون بينه و بينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة، فيدخل الجنّة».

٥٥- و قال﴿صلى‌الله‌عليه‌وآله﴾: «إنّما الأعمال بالنّيّات و الخواتيم».

٥٦- و قال الإمام علي﴿عليه‌السلام﴾: «إيّاك و الغفلة و الاغترار بالمهلة، فإنّ الغفلة تُفسِد الأعمالَ و الآجالَ تَقْطَعُ الآمالَ».

٥٧- و قال رسول اللّه﴿صلى‌الله‌عليه‌وآله﴾: «إذا قالت المرأة لزوجها: ما رأيت منك خيراً قطّ، فقد حبط عملها».

۵۸- و قال(عليه السلام): «إنّ الرّجل ليعمل -أو المرأة - بطاعة اللّه تعالى ستّين سنة، ثمّ يحضرهما الموت فيضارّان في الوصية، فتجب لهما النّار».

۵۹- و قال(عليه السلام): «إنّ الرّجل ليعمل الزّمن الطّويل بعمل أهل الجنّة، ثمّ يختم عمله بعمل أهل النّار، و إنّ الرّجل ليعمل الزّمن الطّويل بعمل أهل النّار، ثمّ يختم عمله بعمل أهل الجنّة».

۶۰- و قال(عليه السلام): «إنّما يُبْعَثُ النّاسُ على نيّاتهم».

﴿غرر حكم و درر كلم في السّيّئات و تكفيرها﴾

و اعلم أنّ كلمات قصار واردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين كثيرة جدّاً لا يسعها المقام و نحن على جناح الاختصار، فنشير إلى نبذة منها:

١- قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّ مثل الّذي يعمل السّيّئات، ثمّ يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيّقة قد خنقته، ثمّ عمل حسنة، فانفكّت حلقة، ثمّ عمل اخرى فانفكّت الأُخرى، حتّى يخرج إلى الأرض».

٢- و قال الإمام علي﴿عليه السلام﴾: «اَلكُفْرُ يَمْحٰاهُ الايمانُ».

٣- و قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إذا كثرت ذنوب العبد فلم يكن له من العمل ما يكفّرها، ابتلاه اللّٰه بالحزن ليكفّرها عنه».

٤- و قال﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّ من الذّنوب، ذنوباً لا يكفّرها الصّلاة و لا الصّيام و لا الحجّ و لا العمرة، يكفّرها الهموم في طلب المعيشة».

٥- و قال الإمام علي﴿عليه السلام﴾:، «إخلاصُ التّوبةِ يُسْقِطُ الحَوْبَةَ».

٦- و قال﴿عليه السلام﴾: «التّوبة تُطَهِّرُ القلوب و تغسل الذّنوب».

٧- و قال﴿عليه السلام﴾: «بالتّوبة تُمَحَّصُ السّيّئات».

٨- و قال﴿عليه السلام﴾: «بالتّوبة تُكَفَّرُ الذّنوب».

٩- و قال﴿عليه السلام﴾: «حسن الاستغفار يمحّص الذّنوب».

١٠- و قال ﴿عليه السلام﴾: «ندم القلب يُكفّر الذّنب و يُمَحّصُ الجريرة».

١١- و قال الإمام على ﴿عليه السلام﴾: «الغَدْرُ يُضاعِفُ السّيّئات».

١٢- و قال ﴿عليه السلام﴾: «الحيآء من اللّه يمحو كثيراً من الخطايا».

١٣- و قال ﴿عليه السلام﴾: «صدقة السّرّ تُكَفِّرُ الخطيئة و صدقة العلانية مَثراة في المال».

١٤- و قال رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «ثلاث يكفّرن الخطايا: إسباغ الوضوء في السّبرات، و المشي على الاقدام إلى الجماعات، و انتظار الصّلاة بعد الصّلاة».

١٥- و قال ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «النّظر إلى الكعبة حبّاً لها عبادة، و يهدم الخطايا هدماً».

﴿القرآن الكريم و علم الفراسة﴾

قال اللّه تعالى: «فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول» محمّد﴿ﷺ﴾: ٣٠)

و فيه إشارة إلى علم الفراسة، و هي الاستدلال بالخلق الظّاهر على الخلق الباطن، والفراسة مشتقّة من قولهم: «فَرَسَ السَّبُعُ الشّاةَ» فكأنّ الفراسة اختلاس المعارف والأسرار، و هي قسمان:

أحدهما – ما يحصل للإنسان من خاطر لايعرف له سبب، و ذلك ضرب من الإلهام، و إيّاه عنى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بقوله: «إنّ من أُمّتى لمحدّثين» و بقوله﴿ﷺ﴾: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور اللّه» و يسمّى ذلك النّفث في الرّوع، و يمكن أن يكون ضرباً من الوحي.

ثانيهما – ما يكون بصناعة متعلّمة، و هي الاستدلال بالأشكال و الهيئات الظّاهرة على الأخلاق و الأسرار الباطنة...

و قال بعض الظّرفآء من المحقّقين في قوله عزّوجلّ: «أفمن كان على بيّنة من ربّه» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٤) و قوله جلّوعلا: «أفمن كان على بيّنة من ربّه و يتلوه شاهد منه» هود: ١٧): إنّ المراد بالبيّنة في الآيتين الكريمتين هو القسم الأوّل، و هو الإشارة إلى صفاء جوهر الرّوح، و إنّ المراد بالشّاهد في الآية الثّانية هو القسم الثّاني، و هو الاستدلال بالأشكال على الأحوال، و بالظّواهر على البواطن و الخفايا و الضّمآئر...

و قد ورد أنّ المنافقين كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ممّا كان ظاهره حسناً، و يعنون به القبيح، و كانوا أيضاً يتكلّمون بكلام ذى دسائس و وجوه و قد كان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يعرفهم بذلك إمّا بطريق الإلهام، و إمّا بطريق الوحي، و يعرفهم بسيماهم و لحن قولهم...

و إنّ المؤمن حقّاً يعرف محبّه و مبغضه، صديقه و عدوّه من النّظر أو بالسّيما و بلحن القول، و قد يكاد النّظر ينطق بما في القلب، كما يعرف القائف حال الشّخص بعلامات تدلّ عليه.

و إنّ المؤمن حقّاً يعرف - بنور ايمانه - البرّ و الفاجر، المؤمن و الكافر، المخلص والمنافق، المصلح و المفسد، و المطيع و العاصي... بأشكالهم و هيئاتهم و سيماهم و لحون أقوالهم...

بل يستطيع أن يشمّ من أحد رآئحة الطّاعة، و من آخر رآئحة المعصية، و من أحد رآئحة الايمان، و من آخر رآئحة الكفر، و من أحد رآئحة الولاية لأهل بيت النّبوّة عليهم السّلام و من أحد رآئحة العداوة لهم عليهم صلوات اللّه، و من أحد رآئحة الإخلاص، و من آخر رآئحة النّفاق.

و لا يخفى على القارى الخبير أنّ النّور المذكور في الخبر: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور اللّه» متفاوت الظّهور بحسب القابليّات و درجات الايمان، و لرسول اللّه و أهل بيته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين أئمّه، و قد كان رسول اللّه و أهل بيت الوحي عليهم صلوات اللّه أولى و أولى بتلك المعرفة، مضافاً إلى أنّها كانت لهم عليهم السّلام بعلامات ورآء طور عقولنا...

و قد كان المؤمنون في زمن رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ - بحسب درجات ايمانهم - يعرفون المناقين و أولاد الزّنا و الحيض ببغضهم للإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾.

و هم الّذين قال اللّه تعالى فيهم: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر و اللّه يعلم إسرارهم - ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللّه أضغانهم» محمّد ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٢٥-٢٩).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب: «ناصرنا و محبّنا ينتظر الرّحمة و عدوّنا و مبغضنا ينتظر السّطوة» الخطبة : ١٠٨).

و فيه: قال الإمام أمير المؤمنين علي﴿عليه السلام﴾: «لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، و لو صببت الدّنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني، و ذلك أنّه قُضِيَ فانقضىٰ على لسان النّبي الأُمّي﴿ﷺ﴾ أنّه قال: «يا علي لا يبغضك مؤمن و لا يحبّك منافق»».

و إنّي لا أظنّ أن يخفى على من له الدّراية و طيب الولادة: أنّ هؤلآء المرتدّين هم أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة الّذين تبيّن لهم الهدى، و سوّل لهم الشّيطان و أملى لهم، فشاقّوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في أمر الخلافة، و أطاعهم المنافقون و اتّبعوا ما أسخط اللّه، فأحبط أعمال التّابعين و المتبوعين جميعاً.

و قد كانت علامة ارتداد أصحاب السّقيفة شقاقهم و مخالفتهم لأمر رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و كانت علامة نفاق المنافقين بغضهم له﴿عليه السلام﴾، و إن كانوا كلّهم في كلتيهما مشتركين، كما أنّهم في العذاب مشتركون.

قال اللّه تعالى في الفريقين: «و إنّهم ليصدّونهم عن السّبيل و يحسبون أنّهم مهتدون - و لن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون» الزّخرف: ٣٧-٣٩).

﴿ بغض أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ و علامة النّفاق ﴾

و قد وردت روايات كثيرة عن طريق العامّة بأسانيد عديدة في مآخذهم المعتبرة عندهم:

أنّ المؤمنين كانوا يعرفون المنافقين ببغضهم لأمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ رواها أعاظم العامّة و حملة آثارهم نشير إلى نبذة منها روماً للإختصار:

١- ما رواه أحمد بن حنبل في كتابه: (الفضائل: ص ١٧١) بإسناده عن جابر بن عبد اللّه قال: «ما كنّا نعرف منافقينا معشر الأنصار إلاّ ببغضهم عليّاً ﴿عليه السلام﴾».

رواه أيضاً في الكتاب المذكور (ص ٧٣) عن أبي سعيد الخدري.

و روى الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد اللّه في كتابه: (الاستيعاب: ج ٢ ص ٤٦٤ ط حيدرآباد الدّكن) ما رواه أحمد عن جابر.

٢- ما رواه الحافظ شمس الدّين أبو عبد اللّه الذّهبي في (تاريخ دول الإسلام: ج ١ ص ٢٠ ط حيدرآباد الدّكن) قال النّبي ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لعليّ: لا يحبّك إلاّ مؤمن و لا يبغضك إلاّ منافق».

٣- ما رواه ابن الأثير في (جامع الأُصول: ج ٩ ص ٤٧٣ ط المحمّديّة بمصر) عن أبي سعيد الخدري) و عن أُمّ سلمة قالت: قال رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لا يحبّ عليّاً منافق، و لا يبغضه مؤمن».

و روى عن أبي سعيد الخدري أيضاً في (اسد الغابة: ج ٤ ص ٢٩ ط جمعيّة المعارف بمصر).

٤- ما رواه الگنجي الشّافعي في (كفاية الطّالب: ص ١١١ ط الغرى) عن أبي سعيد الخدرى في قوله عزّوجلّ: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: ببغضهم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

٥- ما رواه محبّ الدّين الطّبري في (الرّياض النّضرة: ص ٢١٤ ط محمّد أمين الخانجي) عن أبي ذر الغفاري رضوان اللّٰه تعالى عليه قال: «ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلاّ بثلاث بتكذيبهم اللّٰه و رسوله، و التّخلّف عن الصّلاة و بغضهم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

رواه المتّقي الهندي في (كنز العمّال: ج ٦ ص ١٥٢) و في (كنز العمّال: ج ٥ ص ٣٦ ط القديم بمصر) بهامش المسند.

و رواه النّووي في (تهذيب الأسمآء و اللغات: ص ٢٤٨ ط المنيريّة بمصر)

و رواه الهيتمي في (الصّواعق المحرقة: ص ١٧٢ ط المحمّديّة بمصر) عن عدّة ثمّ قال: و أخرج أحمد مرفوعاً: «من أبغض أهل البيت فهو منافق».

و روى المناوي في (الكواكب الدّرّيّة: ص ٣٩ ط مطعبة الأزهر بمصر)

٦- ما رواه الكشفى الترمذى الحنفي في (مناقب مرتضوى: ص ٦١ ط بمبئى بمطبعة محمّدي) قال: «و لتعرفنّهم في لحن القول»: ببغض عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

٧- ما رواه الشّوكاني في تفسير (فتح القدير: ج ٥ ص ٣٩ ط مصطفى الحلبي بمصر) عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: ببغضهم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

٨- ما رواه السّيوطيّ في (الدّرّ المنثور: ج ٦ ص ٦٦ ط مصر) عن أبي سعيد الخدري في قوله: «و لتعرفنّهم في لحن القول» قال: ببغض في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾. و عن ابن مسعود قال: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلاّ ببغضهم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

٩- ما رواه الآلوسي البغدادي في (روح المعاني: ج ٢٦ ص ٧١ ط المنيريّة بمصر) ما لفظه: «و ذكروا من علامات النّفاق بغض عليّ كرّم اللّه تعالى وجهه، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلاّ ببغضهم عليّ بن أبيطالب» و أخرج هو و ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيّده.

ثمّ قال الآلوسي: «و عندي أنّ بغضه رضى اللّه تعالى عنه من أقوى علامات النّفاق، فإن آمنتَ بذلك فيا ليت شعري ماذا تقول في يزيد الطّريد؟ أكان يحبّ عليّاً كرّم اللّه تعالى وجهه أم كان يبغضه؟ و لا أظنّك في مرية من أنّه عليه اللعنة كان يبغضه رضي اللّه تعالى عنه أشدّ البغض، وكذا يبغض ولديه الحسن و الحسين على جدّهما و أبويهما و عليهما الصّلاة و السّلام كما تدلّ على ذلك الآثار المتواترة معنىً، و حينئذ لا مجال لك من القول بأنّ اللعين كان منافقاً».

أقول: و قد تغافل الآلوسي، مفتي البغداد عن قوله عزّوجلّ خطاباً لأصحاب السّقيفة السّخيفة المرتدّين و الإخبار عنها قبل بنآئها و لعن بانيها: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم اولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم» محمّد﴿ﷺ﴾ ٢٢-٢٣).

و قد صرّح بذلك مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ في **نهج البلاغة:** إذ قال﴿عليه السلام﴾: «حتّى إذا قبض اللّه رسوله﴿ﷺ﴾ رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولآئج، و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذي اُمِروا بمودّته، و نقلوا البنآء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب في غمرة، قد ماروا في الحيرة، و ذهلوا في السّكرة على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن، أو مفارق للدّين مباين» الخطبة: ١٥).

﴿القرآن الكريم و أصحاب السّقيفة﴾

و قد أخبر اللّٰه عزّوجلّ عن بنآء السّقيفة السّخيفة و ارتداد أصحابها و لعنهم خطاباً لهم بقوله تعالى: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تـقطّعوا أرحـامكم اولئك الّذين لعنهم اللّٰه فأصمّهم و أعمى أبصارهم - إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٢٢- ٢٥).

و قد كتم مفسّروا العامّة كلّهم هذه الحقيقة ككتمانهم سآئر الحقآئق، و تغافلوا عن المرتدّين: أصحاب السّقيفة و بانيها الّذين هم معادن كلّ خطيئة، و تذبذبوا في المنافقين و الكافرين.

قال الآلوسى مفتى البغداد - و هو من أعاظم العامّة و مفتيهم - في تفسير روح المعاني: ج ٢٦ ص ٣٣) في تفسير قوله تعالى: «و صدّوا عن سبيل اللّٰه» محمّد﴿ﷺ﴾: ١): أي أعرضوا عن الإسلام و سلوك طريقه، أو منعوا غيرهم عن ذلك، على أنّ صدّ لازم أو متعدّ، قال في الكشف: و الأوّل أظهر لأنّ الصّدّ عن سبيل اللّٰه هو الإعراض عمّا أتى به محمّد﴿ﷺ﴾ لقوله تعالى: «قل هذه سبيلي أدعو إلى اللّٰه» فيطابق قوله تـعالى:

«والّذين آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد» و كثير من الآثار تؤيّد الثّاني، و فسّر الضّحّاك «سبيل اللّٰه» ببيت اللّٰه عزّوجلّ و قال: صدّهم عنه: منعهم قاصديه. و ليس بذلك، و الآية عامّة لكلّ من اتّصف بعنوان الصّلة» إنتهى كلامه.

و قال ـ في تفسير قوله تعالى: «فهل عسيتم»: «خطاب لاولئك الّذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لتأكيد التّوبيخ و تشديد التّقريع، و هل للاستفهام، و الأصل فيه أن يدخل الخبر للسّئوال عن مضمونه، و الإفشاء الموضوع له «عسى» ما دلّ عليه بالخبر أي فهل يتوقّع منكم و ينتظر «إن تولّيتم» امور النّاس و تأمرتم عليهم فهو من الولاية، و المفعول به محذوف، و روى ذلك عن محمّد بن كعب و أبي العالية و الكلبي «أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم» تناحراً على الولاية و تكالباً على جيفة الدّنيا».

ثمّ قال الآلوسي: «و المتوقّع كلّ من يقف على حالهم إلاّ اللّٰه عزّوجلّ إذ لا يصحّ منه سبحانه ذلك، و الاستفهام أيضاً بالنّسبة إلى غيره جلّ وعلا، فالمعنى :لمّا عهد منكم من الأحوال الدّالّة على الحرص على الدّنيا حيث اُمِرتم بالجهاد الّذي هو وسيلة إلى ثواب اللّٰه تعالى العظيم، فكرهتموه و ظهر عليكم ما ظهر –كما في إمارة اُسامة بن زيد– أحقّآء بأن يقولوا لكلّ من ذاقكم، و عرف حالكم: يا هؤلآء ما ترون؟ هل يتوقّع منكم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض الخ».

ثمّ قال الآلوسي: «و فسّر بعضهم التّولّي بالإعراض عن الإسلام، فالفعل لازم أى فهل عسيتم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتّغاور و التّناهب و قطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً و وأد البنات، و تعقب بأنّ الواقع في حيّز الشّرط في مثل هذا المقام لابدّ أن يكون محذوريّته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته، و لا ريب في أنّ الإعراض عن الإسلام رأس كلّ شرّ و فساد، فحقّه أن يجعل عمدة في التّوبيخ لا وسيلة للتّوبيخ بما

دونه من المفاسد، و يؤيّد الأوّل قراءة بعض «وُلّيتم» مبنيّاً للمفعول، و كذا قرائته عليه الصّلاة و السّلام على ما ذكر في البحر، و رويت عن عليّ كرّم اللّٰه تعالى وجهه و رويس و يعقوب «تولّيتم» بالبناء للمفعول أيضاً بنآء على أنّ المعنى: تولاّكم النّاس و اجتمعوا على موالاتكم، و المراد كنتم فيهم حكّاماً».

ثمّ قال الآلوسي: في قوله تعالى: «اولئك» إشارة إلى المخاطبين - أي إلى هؤلآء المفسدين في الأرض... - بطريق الإلتفات ايذاناً بأنّ ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب، ولو على جهة التّوبيخ و حكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم، و هو مبتداء و خبره قوله تعالى: «الّذين لعنهم اللّٰه» أى أبعدهم من رحمته عزّوجلّ «فأصمّهم» عن استماع الحقّ لتصامّهم عنه لسوء اختيارهم «و أعمى أبصارهم» لتعاميهم عمّا يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس و الآفاق».

ثمّ قال الآلوسي: «و استدلّ بها (بالآية) أيضاً على جواز لعن يزيد عليه من اللّٰه تعالى ما يستحقّ، نقل البرزنجي في الإشاعة و الهيثمى في الصّواعق أنّ أحمد بن حنبل لمّا سئله ولده عبد اللّٰه عن لعن يزيد، قال: كيف لا يلعن من لعنه اللّٰه تعالى في كتابه؟! فقال عبد اللّٰه: قد قرأت كتاب اللّٰه عزّوجلّ فلم أجد فيه لعن يزيد، فقال أحمد بن حنبل: إنّ اللّٰه تعالى يقول: «فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم اولئك الّذين لعنهم اللّٰه...» الآية و أي فساد و قطيعة أشدّ ممّا فعله يزيد انتهى».

و قال الآلوسي: و هو مبنيّ على جواز لعن العاصي المعين من جماعة لعنوا بالوصف، و في ذلك خلاف، فالجمهور على أنّه لايجوز لعن المعين فاسقاً كان أو ذمّياً، حيّاً كان أو ميّتاً، و لم يعلم موته على الكفر لاحتمال أن يختم له أو ختم له بالإسلام بخلاف من علم موته على الكفر كأبي جهل، و ذهب شيخ الإسلام السّراج البلقيني إلى جواز لعن العاصي المعين لحديث الصّحيحين: «إذا دعا الرّجل إمرأته إلى فراشه، فأبت أن تجيء فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتّى تصبح» و في رواية: «إذا بانت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتّى تصبح».

ثمّ قال الآلوسي: و على هذا القول لاتوقف في لعن يزيد لكثرة أوصافه الخبيثة و ارتكابه الكبآئر في جميع أيّام تكليفه، و يكفي ما فعله أيّام استيلائه بأهل المدينة و مكّة، فقد روى الطّبراني بسند حسن: «اللّهمّ مَن ظلم أهل المدينة و أخافهم فاخفه، و عليه لعنة اللّه و الملائكة و النّاس أجمعين لايقبل منه صرف و لا عدل» و الطّامّة الكبرى ما فعله بأهل البيت و رضاه بقتل الحسين على جدّه و عليه الصّلاة و السّلام، و استبشاره بذلك، و إهانته لأهل بيته ممّا تواتر معناه و إن كانت تفاصيله آحاداً. و في الحديث: ستّة لعنتهم، و في رواية: «لعنهم اللّه و كلّ نبيّ مجاب الدّعوة المحرّف لكتاب اللّه» و في رواية: الزّائد في كتاب اللّه، و المكذّب بقدر اللّه، و المتسلّط بالجبروت ليعزّ من أذلّ اللّه، و يذلّ من أعزّ اللّه، و المستحل من عترتي، و التّارك لسنّتي (و المستحلّ لحرم اللّه)».

ثمّ قال الآلوسي: «و قد جزم بكفره و صرّح بلعنه جماعة من العلمآء منهم الحافظ ناصر السّنّة ابن الجوزي، و سبقه القاضي أبويعلى، و قال العلاّمة التّفتازاني: لانتوقّف في شأنه بل في ايمانه لعنة اللّه تعالى عليه و على أنصاره و أعوانه، و ممّن صرّح بلعنه الجلال السّيوطي و في تاريخ ابن الوردي و كتاب الوافي بالوفيات أنّ السّبي لما ورد من العراق على يزيد، خرج فلقى الأطفال و النّسآء من ذرّيّة عليّ و الحسين رضى اللّه تعالى عنهما، و الرّؤس على أطراف الرّماح، و قد أشرفوا على ثنية جيرون، فلمّا رآهم نعب غـراب فأنشأ يقول:

لما بدت تلك الحـمول و أشرفت	تلك الرّؤس عـلى شـفا جـيرون
نعب الغراب فقلت: قل أو لاتقول	فقد اقتضيت من الرّسول ديـوني

يعني أنّه قتل بمن قتله رسول اللّه(ﷺ) يوم بدر كجدّه عتبة و خاله ولد عتبة و غيرهما و هذا كفر صريح، فإذا صحّ عنه فقد كفر به، و مثله تمثّله بقول عبد اللّـه بـن الزّبعري قبل إسلامه: ليت أشياخي... الأبيات...»

ثمّ قال الآلوسي: «و أفتى الغزالي بحرمة لعنه» و «أبو بكر بن العربي المالكي عليه من اللّه تعالى ما يستحقّ أعظم الفرية، فزعم أنّ الحسين قتل بسيف جدّه(ﷺ) و له من الجهلة موافقون على ذلك كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً، قال ابن

الجوزي في كتابه: «السّرّ المصون من الاعتقادات العامّة»: «الّتي غلبت على جماعة منتسبين إلى السّنّة أن يقولوا: إنّ يزيد كان على الصّواب، و إنّ الحسين رضي اللّه تعالى عنه أخطأ في الخروج عليه، و لو نظروا في السّيَر لعلموا كيف عقدت له البيعة و ألزم النّاس بها، و لقد فعل في ذلك كلّ قبيح، ثمّ لو قدرنا صحّة عقد البيعة، فقد بدت منه بواد كلّها توجب فسخ العقد، و لا يميل إلى ذلك إلاّ كلّ جاهل عامّي المذهب، يظنّ أنّه يغيظ بذلك الرّافضة، هذا و يعلم من جميع ما ذكره اختلاف النّاس في أمره:

فمنهم: من يقول: هو مسلم عاصٍ بما صدر منه مع العترة الطّاهرة لكن لايجوز لعنه.

و منهم: من يقول: هو كذلك، و يجوز لعنه مع الكراهة أو بدونها.

و منهم: من يقول: هو كافر ملعون.

و منهم: من يقول: إنّه لم يعص بذلك و لايجوز لعنه.

ثمّ قال الآلوسي - بعد نقل ذلك كلّه -: «و قائل هذا (أي القول الأخير) ينبغي أن ينظم في سلسلة أنصار يزيد».

ثمّ قال: «و أنا أقول: الّذي يغلب على ظنّي أنّ الخبيث لم يكن مصدّقاً برسالة النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أنّ مجموع ما فعل مع أهل حرم اللّه تعالى و أهل حرم نبيّه عليه الصّلاة والسّلام و عترته الطّيّبين الطّاهرين في الحياة و بعد الممات، و ما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشّريف في قذر، و لا أظنّ أنّ أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين إذ ذاك، و لكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم إلاّ الصّبر ليقضى اللّه أمراً كان مفعولاً، و لو سلّم أنّ الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبآئر ما لايحيط به نطاق البيان».

ثمّ قال: «و أنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التّعيين، و لو لم يتصوّر أن يكون له مثل من الفاسقين، و الظّاهر أنّه لم يتب، و احتمال توبته أضعف من ايمانه، و يلحق به ابن زياد و ابن سعد و جماعة فلعنة اللّه عزّوجلّ عليهم أجمعين و على أنصارهم و أعوانهم و شيعتهم و من مال إليهم إلى يوم الدّين ما دمعت عين على أبي عبد اللّه الحسين».

ثمّ قال: «و من كان يخشى القال و القيل من التّصريح بلعن ذلك الضّليل، فليقل لعن

اللّٰه عزّوجلّ مَن رضي بقتل الحسين، و من آذى عترة النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ بغير حقّ و من غصب حقّهم فإنّه يكون لاعناً له لدخوله تحت العموم دخولاً أوّليّاً في نفس الأمر، و لا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ و نحوها سوى ابن العربي المارّ ذكره و موافقيه، فإنّهم على ظاهر ما نقل عنهم لايجوّزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي اللّٰه تعالى عنه، و ذلك لعمري هو الضّلال البعيد الّذي يكاد يزيد على ضلال يزيد» انتهى كلامه.

أقول: فتدبّر أيّها القارىء الخبير طيّب الولادة مليّاً كيف كتموا هؤلآء المردة معادن كلّ بغي و خطيئة؟ و كيف تغافلوا عن مؤسّسي أساس كلّ ظلم و جناية؟؟؟ و اختلفوا في جواز اللّعن على يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عليهم الهاوية و النّيران، و قد كان هو و أبوه تبعتان من تبعات أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة و بانيها...

و لعمري: انّي لا أتأسّف من ارتداد هؤلآء الطّغاة الفجرة الأوّلين، و لا من بغي هؤلآء البغاة الظّلمة التّابعين، و لا من نفاق هؤلآء العصاة الفسقة الآخرين، و لا من كتمان أذنابهم السّفلة مبادى الفجور، و اختلافهم في الكفرة و جواز لعنهم و لا من منع الغزّالي و ابن العربي من اللعن على يزيد بن معاوية و عمّالها الملعونين إذ، و قد لعنهم اللّٰه عزّوجلّ و جميع أنبيآءه و رسله عليهم السلام و ملائكته المقرّبين و المؤمنين، بل كلّ ما سوى اللّٰه تعالى من الحيوان و النّبات و الجماد و النّاس و الملائكة و ما لا نعلم كلّ بحسبه... ما أتأسّف من بعض السّفهآء المتلبّسة بلباس العلمآء: أنّهم يفتخرون بأراجيف الغزّالي، و يتشبّثون بأباطيل ابن العربي و يتقوّلون فيها ما يتقوّلون و هم يمنعون النّاس من اللعن على يزيد بن معاوية عليها و عليهم الهاوية.

فيا خجلتاه و يا أسفاه!!! تبّت أيديهم...

قال اللّٰه عزّوجلّ: «إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات و الهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب اولئك يلعنهم اللّٰه و يلعنهم اللاّعنون» البقرة: ١٥٩).

﴿الايران معدن العلم و الايمان في القرآن﴾

قال اللّٰه عزّوجلّ: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» محمّد(ﷺ): ٣٨) و من البداهة لمن له الدّراية و طيب الولادة: أنّ المخاطبين في هذه الجملة الشّرطيّة و جزآئها هم الّذين أعرضوا عن الحقّ و كرهوا ما أنزل اللّٰه تعالى في أمر خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام) و خالفوا رسول اللّٰه(ﷺ) فيه و اتّبعوا ما اسخط اللّٰه جلّ وعلا بعد ما تبيّن لهم الهدى، و الشّيطان سوّل لهم و أملى لهم من العرب.

و قد أورد أعاظم العامّة و حملة آثارهم من مفسّريهم و محدّثيهم و مؤرّخيهم و غيرهم روايات كثيرة بأسانيد عديدة، مقبولة عندهم في صحاحهم و مسانيدهم و مآخذهم: أنّ هؤلآء القوم الغآئبين الّذين لايكونون مثل هؤلاء المخاطبين من العرب، في الكفر و الضّلالة، في البغي و الجناية، في الظّلم و الخيانة، في العناد و اللجاجة و في النّفاق و العداوة لأهل بيت النّبوّة عليهم السلام هم العجم من أبنآء فارس يتولّون بولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب و أولاده المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، و هم بها يتناولون بالعلم و الدّين و الايمان و إن كانت معلّقة بالثّريّا، و سيكونون هم محور الايمان الصّادق، و مدار الدّين الكامل، و معدن العلم المفيد، و مركز

الولاية لأهل بيت الوحي المعصومين﴿عليهم السلام﴾.

فنشير إلى نبذة ما أوردوه روماً للإختصار:

١- في تفسير الطّبري: قال: قال ابن زيد في قوله: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم» العجم من عجم فارس».

٢- و فيه عن أبي هريرة قال: لمّا نزلت: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم» كان سلمان إلى جنب رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقالوا: يا رسول اللّه مَن هؤلآء القوم الّذين إن تولّينا استبدلوا بنا؟ قال: فضرب النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ على منكب سلمان، فقال: من هذا و قومه، و الّذي نفسي بيده لو أنّ الدّين تعلّق بالثّريّا لنالته رجال من أهل فارس».

٣- و فيه عن أبي هريرة أنّ رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ تلا هذه الآية: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» قالوا: يا رسول اللّه من هؤلآء الّذين إن تولّينا استبدلوا بنا ثمّ لايكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان قال: هذا و قومه، و لو كان الدّين عند الثّريّا لتناوله رجال من الفرس».

٤- و فيه: عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية، و سلمان الفارسي إلى جنب رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ تحك ركبته ركبته﴿صلى الله عليه و آله﴾: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم» قالوا: يا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و مَنِ الّذين إن تولّينا استبدلوا بنا ثمّ لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب فخذ سلمان، ثمّ قال: هذا و قومه».

٥- في تفسير النّيسابورى: «رُوِىَ أنّ رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ سُئِلَ عن ذلك و كان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه و قال: هذا و قومه، و الّذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثّريّا لتناوله رجال من فارس».

٦- في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: روى الترمذي عن أبي هريرة قال: تلا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ هذه الآية: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا

أمثالكم» قالوا: و مَن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ على منكب سلمان، ثمّ قال: هذا و قومه، هذا و قومه».

۷- و فيه: عن أبي هريرة قال: قال أُناس من أصحاب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: يا رسول اللّٰه من هؤلآء الّذين ذكرا اللّه إن تولّينا استبدلوا ثمّ لايكونوا أمثالنا؟ قال: و كان سلمان جنب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ قال: فضرب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فخذ سلمان، قال: هذا و أصحابه، و الّذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثّريّا لتناوله رجال من فارس».

ثمّ قال القرطبي: قال المحاسبي: «فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسن ديناً، و لاكانت العلمآء منهم إلاّ الفرس».

۸- في تفسير الدّرّ المنثور: عن أبي هريرة قال: لمّا نزلت: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم» قيل: من هؤلآء، و سلمان رضي اللّٰه عنه إلى جنب النّبي﴿ﷺ﴾ فقال: هم الفرس و هذا و قومه».

۹- و فيه: عن أبي هريرة قال: تلا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ هذه الآية: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» فقالوا: يا رسول اللّٰه من هؤلآء الّذين إن تولّينا استبدلوا بنا ثمّ لايكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ على منكب سلمان، ثمّ قال: هذا و قومه، والّذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثّريّا لتناوله رجال من فارس».

۱۰- و فيه: و أخرج ابن مردويه عن جابر رضي اللّٰه عنه: أنّ النّبي﴿ﷺ﴾ تلا هذه الآية: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم...» الآية فسئل من هم؟ قال: فارس، لو كان الدّين بالثّريّا لتناوله رجال من فارس».

۱۱- قال الآلوسي مفتي البغداد في تفسير روح المعاني: «و المراد بهؤلآء القوم أهل فارس» فقد أخرج عبد الرّزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطّبراني في الأوسط و البيهقي في الدّلآئل و الترمذي و هو حديث صحيح على شرط مسلم عن أبي

هريرة قال: تلا رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ هذه الآية: «و إن تتولّوا...» الآية فقالوا: يا رسول اللّٰه من هؤلآء الّذين إن تولّينا استبدلوا بنا ثمّ لايكونون أمثالنا؟ فضرب رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ على منكب سلمان، ثمّ قال: هذا و قومه، و الّذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثّريّا لتناوله رجال من فارس» و جآء في رواية ابن مردويه عن جابر «الدّين» بدل «الايمان» و قيل: هم الأنصار، و قيل: أهل اليمن، و قيل: كندة و النّخع، و قيل: العجم، و قيل: الرّوم، و قيل: الملائكة، و حمل القوم عليهم بعيد في الاستعمال، و حيث صحّ الحديث و هو مذهبي، و الخطاب لقريش أو لأهل المدينة قولان و الظّاهر أنّه للمخاطبين قبل».

١٢- في تفسير المراغي: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم» أي و إن تعرضوا عن طاعة اللّٰه و اتّباع شرآئعه، و ترتدّوا راجعين عنها، يهلككم، ثمّ يجيء بقوم آخرين غيركم يصدّقون بها، و يعملون بالشّرآئع الّتي أنزلها على رسوله﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ و يقومون بذلك كلّه على ما يؤمرون به، و المراد بهم على ما صحّ في الحديث أهل فارس».

ثمّ قال المراغي: أخرج عبد الرّزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و البيهقي و التّرمذي عن أبي هريرة قال: تلا رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ هذه الآية: «و إن تتولّوا...» الخ فقالوا: يا رسول اللّٰه من هؤلآء الّذين إن تولّينا استبدلُوا بنا، ثمّ لايكونون أمثالنا؟ فضرب رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ على منكب سلمان، ثمّ قال: هذا و قومه، والّذي نفسي بيده لو أنّ هذا الدّين تعلّق بالثّريّا لتناوله رجال من فارس».

و قد رواه أكثر مفسّري العامّة في تفاسيرهم باختلاف يسير كالزّمخشري في «الكشّاف» و الرّازي في تفسيره، و الأندلسي في «البحر المحيط» و النّسفي في «مدارك التّنزيل» و الخازن في «لباب التأويل» و البغوي في تفسيره، و ابن كثير الدّمشقي في تفسيره، و أبي السّعود العمادي «في إرشاد العقل السّليم» و غيرهم تركناهم روماً للاختصار.

كما رواه أعاظمهم في صحاحهم و مسانيدهم و سننهم و مآخذهم المعتبرة عندهم باختلاف يسير كالبخاري في (صحيحه: ج ٦ ص ١٨٨) و مسلم في (صحيحه: ج ٤ ص ١٩٧٢- باب ٥٩ حديث ٢٥٤٦) و أحمد بن حنبل في (مسنده: ج ٢ ص ٢٩٦-٢٩٧ و ٣٠٨- ٣٠٩ و ٤١٧ و ٤٢٠ و ٤٢٢ و ٤٦٩) و في (ص ٤١٧) بإسناده عن أبي هريرة أنّه قال: كنّا جلوساً عند النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلمّا قرأ: «و آخرين منهم لمّا يلحقوا بهم» قال رجل: من هؤلآء يا رسول اللّٰه؟ فلم يجاوبه (فلم يراجعه خ)﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى سئله مرّة أو مرّتين أو ثلاثاً و فينا سلمان الفارسي قال: فوضع النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ يده على سلمان و قال: «لو كان الايمان عند الثّريّا لناله رجال من هؤلاء».

و في (ص ٢٩٦-٢٩٧) عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لو كان العلم بالثّريّا لتناوله أُناس من أبنآء فارس».

و في الفتوحات الإلهيّة (ج ٤ ص ١٥٥) بعد نقل الرّواية قال: «و قال المحاسبي فلا أحَدَ بَعْدُ من جميع أجناس الأعاجم أحسن ديناً، و لا كانت منهم العلمآء إلاّ الفرس».

و كالتّرمذي في (سننه: ج ٥ ص ٣٨٤- باب ٤٨- حديث ٣٢٦١) و في (ص ٤١٣- باب ٦٣- حديث ٣٣١٠) و في (ص ٧٢٥ باب ٧١ حديث ٣٩٣٣ ثمّ قال: و هذا حديث حسن.

و كابن أبي شيبة (ج ١٢ ص ٢٠٦ حديث ١٢٥٦١) و (ص ٢٠٧ حديث ١٢٥٦٢) عن قيس بن سعد بن عبادة.

و عبد الرّزّاق (ج ١١ ص ٦٦ حديث ١٩٩٢٣).

و أبي يعلى في (ج ٣ ص ٢٣ حديث ١٤٣٣) و في (ص ٢٧ حديث ١٤٣٨).

و الطّبراني في (الكبير: ج ١٠ ص ٢٥١ حديث ١٠٤٧٠) عن عبد اللّٰه بن مسعود.

و ابن الأثير في (جامع الاصول: ج ١٠ ص ٥٢ حديث ٦٦٠٦)

و الهيثمي في (الكشف: ج ۳ ص ٣١٦ حديث ۲۸۳۵) عن قيس بن سعد بن عبادة.

و غيرهم تركناهم للاختصار.

و ليس الرّاوي أبا هريرة فقط كما توهّم بعضهم، بل هو و جابر بن عبد اللّٰه، و عبد اللّٰه بن مسعود و قيس بن سعد بن عبادة و غيرهم.

كما أنّ في بعض الرّوايات: «لو كان الايمان...» و في بعضها: «لو كان الدّين...» و في بعضها: «لو كان العلم...».

و قد روى مفسّروا الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة هذه الرّواية باختلاف يسير في تفاسيرهم كالطّبرسي في (مجمع البيان) و في (جوامع الجامع) و أبي الفتوح الرّازي في (روح الجنان) و الكاشاني في (منهج الصّادقين) و الفيض في (الصّافي) و الحويزي في (نور الثّقلين) و غيرهم.

﴿ الايراني خير أُمّة مؤمنة في القرآن الكريم ﴾

و قد وردت في المقام روايات كثيرة عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين نشير إلى نبذة منها روماً للاختصار:

في جوامع الجامع: قال الطّبرسي المازندراني في تفسير قوله تعالى: «و إن تتولّوا» معطوف على «و إن تؤمنوا و تتّقوا» «يستبدل قوماً غيركم» عـلى خـلاف صـفتكم، راغبين في الايمان و التّقوى، غير متولّين عنهما «ثمّ لا يكونوا أمثالكم» بل خيراً منكم و أطوع لله».

و في المجمع: روى أبو بصير عن أبي عبد اللّٰه (أبي جعفر خ)﴿عليه السلام﴾ قال: «إن تتولّوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم يعني الموالي» و عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: «قد و اللّٰه أبدل بهم خيراً منهم الموالي».

و في تفسير القمي: بإسناده عن يعقوب بن قيس، قال: قال أبو عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾: «يا بن قيس «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم» عنى أبنآء الموالي المعتقين».

أي إنّهم بسبب ايمانهم بالله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حقّاً و تولّيهم بأهل بيت النّبوّة المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين اُلحِقوا بأئمّتهم، فصاروا مواليهم و اُعـتِقوا عـن الكفر و النّفاق و البغي و العناد.

و في معانى الأخبار: بإسناده عن صالح بن عقبة عن أبي الحسن موسى ﴿عليه السلام﴾ قال: قال: «النّاس ثلاثة: عربي و مولى و عِلج، فأمّا العرب فنحن، و أمّا المولى فمن والانا، و أمّا العِلج فمن تبرّأ منّا و ناصبنا».

و في تفسير العيّاشي: عن بعض أصحابه عن رجل، عن أبي عبد اللّٰه ﴿عليه السلام﴾ قال: سئلته عن هذه الآية: «فسوف يأتي اللّٰه بقوم يحبّهم و يحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين» المائدة: ۵۴) قال: الموالي».

قال العلّامة المجلسي رحمة اللّٰه تعالى عليه بعد نقل الرّواية: «الموالي»: العجم.

و في البحار: -كتاب الكفر و الايمان - باب أصناف النّاس في الايمان - حديث ۲۱) بالاسناد عن منصور بن حازم قال: «سمعت أبا عبد اللّٰه ﴿عليه السلام﴾ يقول: نحن العرب، و شيعتنا الموالي و سآئر النّاس همج».

و في معاني الأخبار: بإسناده عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾ قال: صعد رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ المنبر يوم فتح مكّة، ثمّ قال: «أيّها النّاس إنّ اللّٰه تبارك و تعالى قد ذهب عنكم بنخوة الجاهليّة و تفاخر بآبآئها، ألا إنّكم من آدم، و آدم من طين، و خير عباد اللّٰه عنده أتقاهم، إنّ العربيّة ليست بأب والد، و لكنّها لسان ناطق، فمن قصر به علمه (عمله خ) فلم (و لم خ) يبلّغه رضوان اللّٰه حسبه، ألا إنّ كلّ دم كان في الجاهليّة أو إحنة، فهو تحت قدمي هاتين إلى يوم القيامة».

قوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّ العربيّة» أي العربيّة الممدوحة إنّما هي باللسان، بأن يقرّ بالحقّ، و يلحق برسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أهل بيته المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين و إن كان من العجم، و لايكون آبآؤه من العرب، ثمّ بيّن ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أنّ الحسب لاينفع بدون العلم و العمل.

و قوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «تحت قدميّ» أي أبطلته لايطلب به في الإسلام.

و في تفسير القمي: في قوله تعالى: «و لو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه ما كانوا به مؤمنين، الشّعرآء: ۱۹۸-۱۹۹) قال الصّادق ﴿عليه السلام﴾: «لو نزّل القرآن على العجم، ما آمنت به العرب، و قد نزل على العرب فآمنت به العجم، فهذه فضيلة العجم».

و في قرب الأسناد: عن ابن طريف، عن ابن علوان، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام: قال: قال رسول اللّه(صلى الله عليه و آله): «لو كان العلم منوطاً بالثّريّا لتناولته رجال من فارس».

و فيه: بهذا الاسناد قال: قال النّبي(صلى الله عليه و آله) في فارس: ضربتموهم على تنزيله، و لا تنقضي الدّنيا حتّى يضربوكم على تأويله».

و في مدينة البلاغة: - الباب السّابع - قصار الكلمات - رقم ١٢٨- ج ٢ ص ٤٦٢) قال رسول اللّه(صلى الله عليه و آله): «أسعد النّاس بهذا الدّين فارس».

﴿أكثر حملة العلم في الإسلام هم العجم﴾

و نختم البحث برأى ابن خلدون في المقام إذ قال:

في مقدّمته - الفصل الخامس و الثلاثون - في أنّ حملة العلم في الإسلام أكـثرهم العجم:

«و من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعيّة و لا من العلوم العقليّة إلّا فى القليل النّادر و إن كان منهم العربى في نسبته فهو عجمى في لغته و مَرباه و مشيخته مع أنّ الملّة عربيّة و صاحب شريعتها عربىّ و السّبب في ذلك أنّ الملّة في أوّلها لم يكن فيها علم و لا صناعة لمقتضى أحوال السّذاجة و البِداوة و إنّما أحكام الشّريعة الّتي هي أوامر اللّه و نواهيه كان الرّجال ينقلونها في صدورهم و قد عرفوا مأخذها من الكتاب و السّنة بما تلقّوه من صاحب الشّرع و أصحابه و القوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم و التأليف و التّدوين و لا دُفِعُوا إليه و لادعتهم إليه حاجة و جرى الأمر على ذلك زمن الصّحابة و التّابعين و كانوا يسمّون المختصّين بحمل ذلك و نقله إلى القرّاء أي الّذين يقرأون الكتاب و ليسوا أُميين لأنّ الأميّة يومئذ صفة عامّة في الصّحابة بما كانوا عَرَباً فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاء إشارة إلى هذا فهُم قرّاء لكتاب اللّه و السّنة المأثورة عن اللّه لأنّهم لم يعرفوا الأحكام الشرعيّة إلاّ منه و من الحديث الّذي هو في غالب موارده تفسيرٌ له و شرحٌ.

قال صلی اللّٰه علیه و سلم «ترکت فیکم أمرین لن تضلوا ما تمسکتم بهما کتاب اللّٰه و سنّتي».

فلمّا بَعُدَ النّقل من لدّن دولة الرّشید فما بعد احتیج إلی وضع التّفاسیر القرآنیّة و تقیید الحدیث مخافة ضیاعهِ ثمّ احتیج إلی معرفة الأسانید و تعدیل النّاقلین للتّمییز بین الصّحیح من الأسانید و ما دونه ثمّ کَثُرَ استخراج أحکام الواقعات من الکتاب و السّنّة و فسد مع ذلك اللسان فاحتیج إلی وضع القوانین النّحویة و صارت العلوم الشّرعیّة کلّها ملکات في الاستنباطات و الإستخراج و التّنظیر و القیاس و احتاجت إلی علوم أخری و هي الوسائل لها من معرفة قوانین العربیّة و قوانین ذلك الاستنباط و القیاس و الذّبّ عن العقائد الإیمانیّة بالأدلّة لکثرة البدع و الإلحاد فصارت هذه العلوم کلّها علوماً ذات ملکات محتاجة إلی التّعلیم فاندرجت في جملة الصّنائع.

و قد کنّا قدّمنا أنّ الصّنائع من مُنتحل الحضر و أنّ العرب أبعد النّاس عنها فصارت العلوم لذلك حضریّةً و بَعُدَ عنها العرب و عن سوقها و الحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي و أهل الحواضر الّذین هم یومئذ تبعٌ للعجم في الحضارة و أحوالها من الصّنائع و الحرف لأنّهم أقوم علی ذلك للحضارة الرّاسخة فیهم منذ دولة الفرس فکان صاحب صناعة النّحو سیبویه و الفارسیّ من بعده و الزّجّاج من بعدهما و کلّهم عجم في أنسابهم و إنّما ربوا في اللّسان العربيّ فاکتسبوه بالمَربیٰ و مخالطة العرب و صیّروه قوانین و فنّا لمن بعدهم و کذا حملة الحدیث الّذین حفظوه عن أهل الإسلام أکثرهم عجمٌ أو مستعجمون باللّغة و المَربیٰ.

و کان عُلَماء أُصول الفقه کلّهم عجماً کما یُعرف و کذا حملة علم الکلام و کذا أکثر المفسّرین و لم یقم بحفظ العلم و تدوینه إلاّ الأعاجم و ظهر مصداق قوله صلّی اللّٰه علیه و سلّم» لو تعلّق العلم بأکناف السّماء لناله قومٌ من أهل فارس».

و أمّا العرب الّذین أدرکوا هذه الحضارة و سوقها و خرجوا إلیها عن البِداوة فشغلتهم الرّئاسة في الدّولة و حامیتها و أُولي سیاستها مع ما یلحقهم من الأنَفَةِ عن انتحال العلم حینئذٍ بما صار من جملة الصّنائع و الرُّؤساءُ أبداً یستنکفون عن الصّنائع و

المهَن و ما يجرّ إليها و دفعوا ذلك إلى من قام به من العجم و المولّدين و ما زالوا يرون لهم حقّ القيام به فإنّه دينهُم و علومهم و لايحتقرون حملتها كلّ الإحتقار حتّى إذا خرج الأمر من العرب جملةً و صار للعجم صارت العلوم الشّرعيّة غريبة النّسبة عند أهل المُلك بما هم عليه من البُعد عن نسبتها وامتُهِنَ حملتُها بما يرون أنّهم بُعداء عنهم مشتغلين بما لايغني و لايجدي عنهم في المُلك و السّياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدّينيّة فهذا الّذي قرّرناه هو السّبب في أنّ حملة الشّريعة أو عامّتُهم من العجم.

و أمّا العلوم العقليّة أيضاً فلم تظهر في الملّة إلاّ بعد أن تميّز حملة العلم و مؤلّفوه و استقرّ العلم كلّه صناعة فاختصّت بالعجم و تَرَكَتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلاّ المعرّبون من العجم شأن الصّنائع كما قلناه أوّلاً فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم و بلادهم من العراق و خراسان و ماوراء النّهر...».

تمّت سورة محمّد (صلى الله عليه وآله)

و الحمد للّه ربّ العالمين و أفضل صلوات اللّه و أكمل تحيّاته على سيّد الأنبيآء و المرسلين و أهل بيته المعصومين

سُورَةُ الفَتْحِ

سُورَةُ الفَتْح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ
بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ
ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ
تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ
فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ
فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾

﴿فضلها و خواصّها﴾

روى الصّدوق رحمة اللّٰه تعالى عليه في ثواب الأعمال بإسناده عن عبداللّٰه بن بكير عن أبيه عن أبي عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: «حصّنوا أموالكم و نسآءكم و ما ملكت أيمانكم من التّلف بقراءة «إنّا فتحنا» فإنّه إذا كان ممّن يدمن قراءتها نادى منادٍ يوم القيامة حتّى تسمع الخلآئق: أنت من عبادي المخلصين، ألحقوه بالصّالحين من عبادي، و أدخلوه جنّات النّعيم، و اسقوه من الرّحيق المختوم بمزاج الكافور.»

أقول: رواه الطّبرسي المازندراني في المجمع، و جوامع الجامع، و الدّيلمي في أعلام الدّين، و الكفعمي في المصباح، و الشّيخ الحرّ العاملي في وسآئل الشّيعة، و البحراني في البرهان، و الحويزى في نور الثّقلين، والمجلسي في البحار و السّيّد البروجردي في جامع أحاديث الشّيعة و غيرهم.

إلّا في المجمع: «يسمع» بدل «تسمع» و «فأسكنوه» بدل «و أدخلوه» و في جوامع الجامع، حذف «حتّى تسمع الخلائق» و «فأسكنوه» بدل «و أدخلوه» و في البرهان «و أسكنوه» و في وسآئل الشّيعة تقطيع بالحذف.

و من قرأ هذه السّورة متدبّراً في آياتها، و آمن باللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حقّاً، و أخلص له الدّين و عرف نعمه الظّاهرة و الباطنة، و الدينيّة و الدّنيويّة عليه و علم أنّ له تعالى جنود السّموات و الأرض يحفظه بها من الأعدآء و الأشرار... و يكفّ

أيديهم عنه لايشكّ فيما جآء في الرّواية من الآثار الدّنيويّة و الاُخرويّة لقراءة هذه السّورة الّتي تقول:

«هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و للّه جنود السّموات و الأرض و كان اللّه عليماً حكيماً ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات- و للّه ملك السّموات و الأرض- وعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم- وعد اللّه الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً» الفتح: ۳-۵ و ۱۴ و ۲۰ و ۲۹).

و في **المجمع**: اُبيّ بن كعب عن النّبيّ(صلى الله عليه وآله) قال: «من قرأها فكأنّما شهد مع محمّد(صلى الله عليه وآله) فتح مكّة».

و فيه: و في رواية اخرى فكأنّما كان مع من بايع محمّداً(صلى الله عليه وآله) تحت الشّجرة».

أقول: رواهما الطّبرسي رضوان اللّه تعالى عليه في «جوامع الجامع».

و في **خواصّ القرآن**: روي عن النّبيّ(صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «من قرأ هذه السّورة كتب اللّه له من الثّواب كمن بايع النّبيّ(صلى الله عليه وآله) تحت الشّجرة، و أوفى ببيعته، و كمن شهد مع النّبيّ(صلى الله عليه وآله) يوم فتح مكّة، و من كتبها و جعلها تحت رأسه أمن من اللّصوص، و من كتبها في صحيفة و غسلها بمآء زمزم و شربها كان عند النّاس مسموع القول، و لا يسمع شيئاً يمرّ عليه إلّا وعاه و حفظه».

و فيه: قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله): «من كتبها و جعلها في فراشه أمن من اللّصوص، و من كتبها و شربها بماء زمزم كان عند النّاس مسموع القول، و كلّ شيء سمعه حفظه».

و في **اصول الكافي**:- كتاب الحجّة- باب مولد عليّ بن الحسين عليهما السّلام حديث ۵) بإسناده عن الحسن بن عليّ بن بنت إلياس عن أبي الحسن(عليه السلام) قال: سمعته يقول: «إنّ عليّ بن الحسين عليهما السّلام لمّا حضرته الوفاة اُغمِيَ عليه، ثمّ فتح عينيه، و قرأ «إذا وقعت الواقعة» و «إنّا فتحنا لك» و قال: «الحمد للّه الّذي صدقنا وعده و أورثنا الأرض نتبوّء من الجنّة حيث نشآء فنعم أجر العاملين» ثمّ قبض من ساعته و لم يقل شيئاً».

و في **مستدرك الوسآئل**:- كتاب الصّيام- باب ٢٥ من أبواب أحكام شهر رمضان - حديث ٢) بالإسناد عن المسعودي يقول: «من قرأ أوّل ليلة من شهر رمضان «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» حفظ إلى مثلها من قابل».

و في **مصباح الكفعمي**:- نقلاً عن خواصّ القرآن -: «من علّقها عليه أمن من السّلطان، و إن علّقت على حائط أو بيت لم يقربه شيطان، و إن شربت المرأة مآءها درّ لبنها».

و في **المستدرك**:- نقلاً عن مجموعة الشّهيد رحمة اللّه تعالى عليه- نقلاً عن منافع القرآن المنسوبة إلى الإمام الصّادق﴿عليه السلام﴾ قال﴿عليه السلام﴾: «تشربها المرأة فيدرّ لبنها و يحفظ جنينها».

و في **خواصّ القرآن**: قال الصّادق﴿عليه السلام﴾: «من كتبها و جعلها في وقت محاربة أو خصومة أمن من جميع ذلك، و فتح عليه باب الخير، و من شرب مآئه(مائهاخ) للرّجف و الرّعب يسكن الرّجف و يطلقه، و من قرأها في ركوب البحر أمن من الغرق بإذن اللّه تعالى».

و في **الدّرّالمنثور**: عن عبداللّه بن مغفل قال: قرأ رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجع فيها».

و فيه: عن أبي بردة: أنّ النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قرأ في الصّبح: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

و في **خواصّ القرآن**: «و من تلاها في منامه أو تليت عليه أو شيء منها، فإنّه يعيش في عيش رغد فرحاً و سروراً لأُمّة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يبشّر بشارة حسنة».

و في **طبّ الأئمّة**: بالاسناد عن جابر الجعفي عن محمّد بن عليّ الباقر عليهماالسّلام قال: كنت عند الحسين بن عليّ (عليّ بن الحسين خ) عليهماالسّلام إذ أتاه رجل من بني أُميّة من شيعتنا، فقال له: يابن رسول اللّه ما قدرت أن أمشي إليك من وجع رجلي! قال: فاين أنت من عوذة الحسين بن عليّ عليهماالسّلام؟ قال: يابن رسول اللّه و ما ذاك؟ قال: آية: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً و ينصرك اللّه نصراً عزيزاً هو الّذي أنزل السّكينة في

قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و للّٰه جنود السّموات و الأرض و كان اللّٰه عليماً حكيماً ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّئاتهم و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً و يعذّب المنافقين و المنافقات والمشركين و المشركات الظّانّين باللّٰه ظنّ السّوء عليهم دائرة السّوء و غضب اللّٰه عليهم و لعنهم و أعدّلهم جهنّم وسآئت مصيراً و للّٰه جنود السّموات و الأرض و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً» الفتح: ۱-۷). قال: ففعلت ما أمرني به فما أحسستُ بعد ذلك بشيء منها بعون اللّٰه تعالى».

أقول: إنّ في القرآن الكريم آيتين، اجتمع في كلّ واحدة منها جميع الحروف: (۲۸) الهجائيّة العربيّة: أُولاهما- آية (۱٥٤) من سورة آل عمران: «ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ- و اللّٰه عليم بذات الصّدور».

ثانيتهما- قوله عزّوجلّ: «محمّد رسول اللّٰه و الّذين معه- وعد اللّٰه الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً» الفتح: ۲۹).

و لكلّ واحدة منهما- قُرِئت أو كُتبت- آثار و خواصّ عجيبة في الأبعاد المختلفة لحياة الإنسان، و ذلك و ما ورد في الرّوايات السّابقة من الخواصّ و الآثار كلّها مشروط بالايمان حقّاً و صالح الأعمال...

قال اللّٰه تعالى: «قل هو للّذين آمنوا هدى و شفآء و الّذين لا يؤمنون في آذانهم وقر و هو عليهم عمى» فصّلت: ٤٤).

﴿الغرض﴾

هدف السّورة المباركة إخبار من اللّٰه تعالى بالفتح القريب لامحالة لرسول اللّٰه(صلى الله عليه وآله) و نصرته بجنوده على الكفّار و المشركين، و دخوله(صلى الله عليه وآله) المسجد الحرام بعد أن صدّوه عنه، و ظهور الدّين الإسلامي على سآئر الأديان كلّها، و بيان الحكمة الإلهيّة لرسالته(صلى الله عليه وآله) من الايمان باللّٰه جلّ وعلا و نصرة دينه و تعظيم جلاله و تسبيحه بكرة و أصيلاً.

و وعد المؤمنين و المؤمنات بالخير و السّعادة في الدّنيا و الآخرة، و وعيد الكفّار والمشركين و المنافقين بالشّرّ و الشّقاوة فيهما.

و في السّورة إشارة إلى أحداث و مشاهد سفرة الحديبيّة و صلحها و ما يسّره اللّٰه تعالى للمسلمين من فتح خيبرو غنآئمها، و فيها تثبيت و تطمين ربّانيان بمناسبة تلك الأحداث و المشاهد و إشارة إلى مواقف بعض الأعراب المسلمين منها، و إلى وجود مؤمنين و مؤمنات يكتمون ايمانهم في مكّة المكرّمة، و تنويه بالمؤمنين الّذين كانوا مع رسول اللّٰه(صلى الله عليه وآله) في رسالته قلباً و قالباً، و ما كانوا عليه من ورع و تقوى، و إيذانهم بأنّ ما كان قد كان فتحاً مبيناً و مقدّمة لنصر قويّ عظيم ينالونه تحت راية النّبيّ الكريم(صلى الله عليه وآله).

﴿النّزول﴾

سورة «الفتح» مدنيّة، نزلت بعد سورة «التّغابن» و قبل سورة «المائدة» في الطّريق عند انصرافه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الحديبيّة، و هي السّورة الحادية عشر و المأة نزولاً، و الثّامنة و الأربعون مصحفاً، و تشتمل على (٢٩) آية، سبقت عليها (٥٩٥٥) آية نزولاً، و (٤٥٨٣) آية مصحفاً على التّحقيق، و مشتملة على (٥٦٠) كلمة، و على (٢٤٠٨) حرفاً و قيل: (٢٤٣٨) حرفاً على ما في بعض التّفاسير.

و أعلم أنّ مفتتح هذه السّورة و مختتمها و فصولها و آيها مترابطة و متساوقة، و اسلوبها النّظمي و انسجامها في الموضوع و الظّرف كلّها تؤيّد الرّوايات في نزولها دفعة واحدة، و نزول فصولها متتابعة حتّى تمّت في طريق رجوع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المسلمين إلى المدينة في السّنة السّادسة من الهجرة عقيب صلح الحديبيّة و بيعة الرّضوان في كراع الغميم بين مكّة و المدينة، إنّما كانت في أثناء سفرة الحديبيّة و بينها و بين فتح مكّة عامان.

و كراع الغميم: واد بينه و بين المدينة نحو من مأة و سبعين ميلاً، و بينه و بين مكّة نحو ثلاثين ميلاً.

و قد سمّيت بالفتح لافتتاحها بالفتح: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» و في أواخرها: «فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» الفتح: ٢٧) و لاشتمالها الفتوح الثّلاث: ١- فتح خيبر.

٢- صلح الحديبيّة لم يكن أقلّ نفعاً من الفتح. ٣- فتح مكّة المكرّمة.

في تفسيرالقميّ: بإسناده عن ابن أبي عمير عن ابن سنان (ابن يسارخ) عن أبي عبداللّه﴿عليه السلام﴾ قال: كان سبب نزول هذه السّورة، و هذا الفتح العظيم: أنّ اللّه عزّوجلّ أمر رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ في النّوم أن يدخل المسجد الحرام، و يطوف و يحلق مع المحلّقين، فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج، فخرجوا، فلمّا نزل ذاالحليفة أحرموا بالعمرة، و ساقوا البدن و ساق رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ستّة و ستّين بدنة، و أشعرها عند إحرامه، و أحرموا من ذي الحليفة ملبّين(يلبّون خ) بالعمرة، قد ساق من ساق منهم الهدي، (معرات خ) مشعرات(معارات خ) مجلّلات، فلمّا بلغ قريشاً ذلك بعثوا خالدبن الوليد في مأتي فارس، كميناً ليستقبل رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فكان يعارضه على الجبال، فلمّا كان في بعض الطّريق حضرت صلاة الظّهر، فأذّن بلال، و صلّى رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالنّاس.

فقال خالد بن الوليد: لو كنّا حملنا عليهم و هم في الصّلاة لأصبناهم، فإنّهم لايقطعون صلاتهم، ولكن تجيء لهم الآن صلاة اخرى، احبّ إليهم من ضيآء أبصارهم، فإذادخلوا في الصّلاة أغرنا عليهم، فنزل جبرئيل﴿عليه السلام﴾ على رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بصلاة الخوف في قوله عزّوجلّ: «و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصّلاة...» و هذه الآية في سورة النسآء: ١٠٢) و قد كتبنا خبر صلاة الخوف فيها.

فلمّا كان في اليوم الثّاني نزل رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ الحديبيّة و هي على طرف الحرم، و كان رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ يستنفر الأعراب (بالأعراب خ) في طريقه معه، فلم يتبعه (منهم خ) أحد، و يقولون: أيطمع محمّد و أصحابه أن يدخلوا الحرم، و قد غزتهم قريش في عقر ديارهم، فقتلوهم (فيقتلوهم خ) أنّه لايرجع محمّد و أصحابه إلى المدينة أبداً، فلمّا نزل رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ الحديبيّة خرجت قريش يحلفون باللّات و العزّى لايدعون محمّداً يدخل مكّة، و فيهم عين تطرف، فبعث إليهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ أنّي لم آت لحرب (بحرب خ) و إنّما (ولكن خ) جئت لأقضي نسكي و أنحر بدني و أُخلّي بينكم و بين لحماتها (لحمانها خ) فبعثوا عروة بن مسعود الثّقفي و كان عاقلاً لبيباً و هو الّذي أنزل اللّه فيه: «و قالوا لو لا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» الزّخرف: ٣١).

فلمّا أقبل إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ عظّم ذلك، و قال: يا محمّد! تركت قومك، و قد ضربوا الأبنيّة، وأخرجوا العوذ المطافيل، يحلفون باللّات و العزّى لايدعوك تدخل مكّة، فإنّ مكّة حرمهم و فيها(فيهم خ) عين تطرف، أفتريد أن تبيد أهلك و قومك يا محمّد! فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: ما جئت لحرب، و إنّما جئت لأقضي مناسكي و أنحر بدني، و أُخلّي بينهم و بين لحماتها(لحمانها خ) فقال عروة: باللّه ما رأيت كاليوم أحداً صدّ كما صددت، فرجع إلى قريش فأخبرهم، فقالت قريش: و اللّه لئن دخل محمّد مكّة، و تسامعت به العرب لنذلّنّ، و لتجترينّ علينا العرب، فبعثوا حفص بن الأحنف و سهيل بن عمرو، فلمّا نظر إليهما رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قال:

ويح قريش قد نهكتهم الحرب ألّا خلّوا بيني و بين العرب؟ فإن أك صادقاً فإنّما أجرّ الملك إليهم مع النّبوّة، و إن أك كاذباً كفتهم ذوبان العرب لايسئلني اليوم امرؤ من قريش خطّة(حطّة خ) ليس للّه فيها سخط إلّا أجبتهم إليه، قال: فلمّا وافوا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قالوا: يا محمّد ألّا ترجع عنّا عامك هذا إلى أن ننظر إلى ماذا يصير أمرك، و أمر العرب فإنّ العرب قد تسامعت بمسيرك، فإن دخلت بلادنا و حرمنا استذلّتنا العرب، و اجترأت علينا، ونخلّي لك البيت في العام القابل في هذا الشّهر ثلاثة أيّام، حتّى تقضي نسكك و تنصرف عنّا، فأجابهم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى ذلك، و قالوا له: تردّ إلينا كلّ من جآءك من رجالنا، و نردّ إليك كلّ من جآئنا من رجالك، فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: من جآءكم من رجالنا، فلا حاجة لنا فيه.

و لكن على أنّ المسلمين بمكّة لايؤذون في إظهارهم الإسلام و لايكرهون و لاينكر عليهم شيء يفعلونه من شرآئع الإسلام، فقبلوا ذلك فلمّا أجابهم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى الصّلح أنكر عامّة أصحابه، و أشدّ ماكان إنكاراً عمر، فقال: يا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ألسنا على الحقّ و عدوّنا على الباطل؟ فقال: نعم قال: فنعطى الذّلّة(الدّنيّة خ) في ديننا! فقال: إنّ اللّه عزّوجلّ قد وعدني، و لن يخلفني، فقال: لو أنّ معي أربعين رجلاً لخالفته.

و رجع سهيل بن عمرو و حفص بن الأحنف إلى قريش، فأخبرهم بالصّلح، فقال عمر: يا رسول اللّه ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام و نحلق مع المحلقين؟

فقال﴿صلى الله عليه وآله﴾: أمِن عامنا هذا وعدتك؟ و قلت لك: إنّ اللّه عزّوجلّ قد وعدني أن أفتح مكّة، و أطوف و أسعى و أحلق مع المحلّقين، فلمّا أكثروا عليه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال لهم: فإن لم تقبلوا الصّلح فحاربوهم، فمرّوا نحو قريش، و هم مستعدّون للحرب، و حملوا عليهم فانهزم أصحاب رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ هزيمة قبيحة، و مرّوا برسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فتبسّم رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ثمّ قال:

يا عليّ! خذ السّيف و استقبل قريشاً، فأخذ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ سيفه و حمل على قريش، فلمّا نظروا إلى أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ تراجعوا، ثمّ قالوا يا عليّ بدأ لمحمّد فيما أعطانا؟ فقال: لا، و تراجع أصحاب رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ مستحيين، و أقبلوا يعتذرون إلى رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال لهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾: ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل اللّه فيكم: «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألف من الملآئكة مردفين»؟ ألستم أصحابي يوم أحد «إذ تصعدون و لاتلوون على أحد و الرّسول يدعوكم في أُخراكم»؟ ألستم أصحابي يوم كذا؟ ألستم أصحابي يوم كذا؟ فاعتذروا إلى رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و ندموا على ما كان منهم، و قالوا: اللّه أعلم و رسوله، فاصنع ما بدا لك.

و رجع حفص بن الأحنف و سهيل بن عمرو إلى رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقالا: يا محمّد! قد أجابت قريش إلى ما اشترطت عليهم من إظهار الإسلام، و أن لايكره أحد على دينه، فدعا رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالمكتب و دعا أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و قال له: اكتب، فكتب أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾:

«بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» فقال سهيل بن عمرو: و لا نعرف الرّحمن، أُكتب كما كان يكتب آبآؤك: باسمك اللّهمّ (بأسمآئه اللهمّ خ) فقال رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾: أُكتب باسم اللّهمّ فإنّه إسم من أسماء اللّه، ثمّ كتب: «هذا ما تقاضى عليه محمّد رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و الملأ من قريش» فقال سهيل بن عمرو: لو علمنا أنّك رسول اللّه ما حاربناك، أُكتب: «هذا ما تقاضى عليه محمّد بن عبداللّه أتأنف من نسبك يا محمّد! فقال رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾: أنا رسول اللّه و إن لم تقرّوا، ثمّ قال: امح يا عليّ! و اكتب محمّد بن عبداللّه فقال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: ما أمحوا إسمك من النّبوّة أبداً، فمحاه رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بيده،

ثمّ كتب: «هذا ما اصطلح عليه (به خ) محمّد بن عبداللّٰه و الملأ من قريش و سهيل بن عمرو و اصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعضنا عن بعض، و على أنّه لا إسلال و لا إغلال، و أنّ بيننا و بينهم عيبة مكفوفة، و أنّه من أحبّ أن يدخل في عهد محمّد و عقده فعل، و أنّه من أحبّ أن يدخل في عهد قريش و عقدها فعل، و أنّه من أتى من قريش إلى أصحاب محمّد بغير إذن وليّه يردّه إليه، و أنّه من أتى قريشاً من أصحاب محمّد لم تردّه إليه، و أن يكون الإسلام ظاهراً بمكّة لايكره أحد على دينه، و لايؤذى و لايعيّر، و أنّ محمّداً يرجع عنهم عامه هذا و أصحابه، ثمّ يدخل علينا في العام القابل مكّة، فيقيم فيها ثلاثة أيّام، و لايدخل علينا بسلاح إلّا سلاح المسافر السّيوف في القراب».

و كتبه (كتب خ) عليّ بن أبيطالب «عليه السلام» و شهد على الكتاب المهاجرون و الأنصار.

ثمّ قال رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله»: يا عليّ! إنّك أبيت أنت تمحو إسمي من النّبوّة، فو الّذي بعثني بالحقّ نبيّاً لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها، و أنت مضيض مضطهد» فلمّا كان يوم صفّين، و رضوا بالحكمين كتب: «هذا ما اصطلح عليه أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب، و معاوية بن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أميرالمؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه عليّ بن أبيطالب، و معاوية بن أبي‌سفيان، فقال أميرالمؤمنين «عليه السلام»: صدق اللّٰه و صدق رسوله «صلى الله عليه و آله» أخبرني رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» بذلك، ثمّ كتب الكتاب، قال: فلمّا كتبوا الكتاب، قامت خزاعة، فقالت: نحن في عهد محمّد رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» و عقده، و قامت بنوبكر، فقالت: نحن في عهد قريش و عقدها، و كتبوا نسختين: نسخة عند رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» و نسخة عند سهيل بن عمرو، و رجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش، فأخبراهم و قال رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» لأصحابه: انحروا بدنكم و أحلقوا رؤوسكم، فامتنعوا و قالوا: كيف ننحر و نحلق و لم نطف بالبيت، و لم نسع بين الصّفا و المروة؟ فاغتمّ لذلك رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» و شكى ذلك إلى أمّ سلمة، فقالت: يا رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» انحر أنت و أحلق، فنحر رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» و حلق، فنحر القوم على حيث يقين و شكّ و ارتياب، فقال رسول اللّٰه «صلى الله عليه و آله» تعظيماً

للبدن: رحم اللّٰه المحلّقين، و قال قوم لم يسوقوا البدن: يا رسول اللّٰه و المقصّرين؟ لأنّ من لم يسق هدياً لم يجب عليه الحلق، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ثانياً: رحم اللّٰه المحلّقين الّذين لم يسوقوا الهدى، فقالوا: يا رسول اللّٰه و المقصّرين؟ فقال رحم اللّٰه المقصّرين، ثمّ رحل رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ نحو المدينة، فرجع إلى التّنعيم و نـزل تحت الشّـجرة، فـجآء أصحابه الّذين أنكروا عليه الصّلح، و اعتذروا و أظهروا النّدامة على ما كان منهم، و سئلوا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ أن يستغفر لهم، فنزلت آية الرّضوان: «بـسم اللّٰـه الرّحمـن الرّحيم إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر».

أقول: رواها الكليني قدّس سرّه في الرّوضة باختلاف يسير. و إنّ هذه القصّة كانت في السّنة السّادسة من الهجرة النّبويّة﴿صلى الله عليه وآله﴾.

و **قوله﴿عليه السلام﴾:** «معارات» و في بعض النّسخ «معرات» أي كانت بعضها عرات و بعضها مجلّلات... و «عقر ديارهم» عقر الدّار: أصلها و وسطها، و «لحمانها»: جمع اللحم. و «العوذ» في الأصل: جمع عائذ و هي النّاقة إذا وضعت، و بعد ما تضع أيّاماً حتّى يقوى ولدها، و «المطافيل»: الابل مع أولادها يريد أنّهم جآؤا بأجمعهم: صغارهم و كبارهم، و «أن تبيد أهلك»: تهلكهم، و «قد نهكتهم الحرب»: أضرّت بهم و أثرت فيهم، و «ذؤبان العربان»: صعاليكهم و لصوصهم.

و**قوله﴿عليه السلام﴾:** «إسلال»: سرقة خفيّة، يقال: سلّ البعير أو غيره في جوف اللّيل: إذا انتزعه من بين الابل، أو بمعنى سلّ السّيف، و «إغلال»: خـيانة أو إسـارة، و «عـيبة مكفوفة» أي بينهم صدر نقيّ من الغلّ والخداع، مطويّ على الوفآء بالصّلح، و المكفوفة: المشرجة المشدودة. و قيل: أراد أنّ بينهم موادعة و مكافة عن الحرب تجريان مجـرى المودّة الّتي تكون بين المتصافين الّذين يثق بعضهم إلى بعض، و «قِراب»: غمد أو وعاء يكون فيه السّيف بغمده و حمالته، و «مضيض»: ألم من وجع المصيبة، و «مـضطهد»: مقهور مظلوم مؤذىً.

و **في روح المعاني:** عن عدّة عن عبداللّٰه بن مسعود قال: «أقبلنا من الحديبيّة مع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ عام ستّ بعد الهجرة، و كان قد خرج﴿صلى الله عليه وآله﴾ إليها يوم الإثنين هلال

ذي القعدة، فأمر بها بضعة عشر يوماً، و قيل: عشرين يوماً، ثمّ قفل﴿ﷺ﴾ فبينما نحن نسير إذا أتاه الوحي، و كان إذا أتاه اشتدّ عليه فسرى عنه، و به من السّرور ما شآء اللّٰه تعالى، فأخبرنا: أنّه انزل عليه: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

و في **المجمع**: عبد اللّٰه بن مسعود قال: أقبل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من الحديبيّة، فجعلت ناقته تثقل فتقدمنا، فأنزل اللّٰه عليه﴿ﷺ﴾: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فأدركنا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و به من السّرور ما شآء اللّٰه فأخبر أنّها انزلت عليه».

و في **أسباب النّزول** للواحدى النّيسابوري: عن قتادة و أنس قالا: لمّا رجعنا من غزوة الحديبيّة، و قد حيل بيننا و بين نسكنا، فنحن بين الحزن و الكآبة، أنزل اللّٰه عزّوجلّ: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فقال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: لقد اُنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدّنيا و ما فيها كلّها».

و فيه: و قال عطاء عن ابن عبّاس: «إنّ اليهود شمتوا بالنّبيّ﴿ﷺ﴾ و المسلمين لمّا نزل قوله: «و ما أدرى ما يفعل بي و لا بكم» و قالوا: كيف نتّبع رجلاً لا يدري ما يفعل به، فاشتدّ ذلك على النّبيّ﴿ﷺ﴾ فأنزل اللّٰه تعالى: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر».

و فيه: «نزلت سورة الفتح بين مكّة و المدينة في شأن الحديبيّة من أوّلها إلى آخرها».

و في **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي: «قال مقاتل بن سليمان: لمّا نزل قوله تعالى: «و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم» فرح المشركون و المنافقون، و قالوا: كيف نتّبع رجلاً لا يدري ما يفعل به و لا بأصحابه، فنزلت بعد ما رجع من الحديبيّة: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

و فيه: و نزلت (سورة الفتح) ليلاً بين مكّة و المدينة في شأن الحديبيّة». و الحديبيّة قرية صغيرة على أقلّ من مرحلة من مكّة المكرّمة و الحديبيّة إسم بئر سُمِّيَ المكان بها و كان قد غاض و نزح مآؤها و لم يبق فيها مآء، فتمضمض رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ثمّ مجّه فيها، فدرّت البئر بالمآء حتّى شرب جميع من كان معه﴿ﷺ﴾.

أقول: و في محلّ نزولها أقوال: أحدها- نزلت بضجنان و هو جبل قرب مكّة.

ثانيها- نزلت بكراع الغيم و هو موضع على ثلاثة أميال من عسفان، و هو موضع على مرحلتين في مكّة.

ثالثها- إنّ السّورة نزلت بالمدينة. في**الدّرّ المنثور**: عن ابن عبّاس قال: نزلت سورة الفتح بالمدينة».

أقول: إنّ السّورة الّتي نزلت بعد الهجرة مدنيّة، و إن نزلت بمكّة أو بينهما، كما أنّ السّورة الّتي نزلت قبل الهجرة مكّيّة و إن لم تنزل بمكّة.

و في **تفسيرالعيّاشي**: عن منصور بن حازم عن أبي عبداللّه(عليه السلام) قال: «ما ترك رسول اللّه(صلى الله عليه وآله): «إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم» حتّى نزلت سورة الفتح، فلم يعد إلى ذلك الكلام».

أقول: لو كان الحديث مبنيّاً على أنّ المراد بالذّنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة فلايخلو من شيء.

و في **الدّرّالمنثور**: عن عروة قال: «أقبل رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) من الحديبيّة راجعاً، فقال رجل من أصحاب رسول اللّه(صلى الله عليه وآله): و اللّه ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت، و صُدّ هدينا و عكف رسول اللّه بالحديبيّة، و ردّ رجلين من المسلمين خرجا، فبلغ رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) قول رجال من أصحابنا: إنّ هذا ليس بفتح، فقال رسول اللّه: بئس الكلام، هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح عن بلادهم و يسئلوكم القضيّة و يرغبون إليكم في الإياب، و قد كرهوا منكم ما كرهوا، و قد أظفركم اللّه عليهم و ردّكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح.

أنسيتم يوم أُحد إذ تصعدون و لاتلوون على أحد و أنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جآءكم من فوقكم و من أسفل منكم، و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنّون باللّه الظّنونا؟ قال المسلمون: صدق اللّه و رسوله هو أعظم الفتوح، و اللّه يا نبيّ اللّه ما فكّرنا فيما فكّرت فيه، و لأنت أعلم باللّه و بالأُمور منّا فأنزل اللّه سورة الفتح».

و فيه: فلمّا أمن النّاس و تفاوضوا لم يكلّم(صلى الله عليه وآله) أحداً بالإسلام إلّا دخل فيه،

فلقد دخل في تلك السّنين في الإسلام أكثر ممّا كان فيه قبل ذلك، فكان صلح الحديبيّة فتحاً عظيماً».

و في البخاري: أنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ كان يسير في بعض أسفاره و عمر بن الخطّاب كان يسير معه ليلاً، فسئله عمر عن شيء فلم يجبه، ثمّ سئله فلم يجبه، ثمّ سئله فلم يجبه فقال عمر: ثكلتك اُمّك يا عمر، كرّرت على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ثلاث مرّات، كلّ ذلك لايجيبك، فقال عمر: فحركت بعيرى حتّى تقدّمت أمام النّاس، و خشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بى، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فسلمت عليه، فقال: لقد أنزل عَلَيَّ اللّيلة سورة لهي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشّمس ثمّ قرأ: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» و قد كان هذا السّئوال بعنف و إهانة من عمر بن الخطّاب قبل نزول السّورة أيضاً لحدّ يعرض رسول اللّه﴿ﷺ﴾ عن جوابه إذ ليس للسّئوال تعنّتاً و إهانة جواب إلّا الإعراض عن السّائل المتعنّت.

و في تفسير المراغي- و هو من أعلام العامّة -: «نزلت هذه السّورة الكريمة حين منصرفه﴿ﷺ﴾ من الحديبيّة في ذي القعدة من سنة ستّ من الهجرة لمّا صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، و حالوا بينه و بين قضآء عمرته، ثمّ مالوا إلى المصالحة والمهادنة، و أن يرجع عامه هذا ثمّ يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصّحابة كعمر بن الخطّاب، فلمّا نحر هديه حيث اُحصِر و رجع أنزل اللّه تعالى هذه السّورة فيما كان من أمره﴿ﷺ﴾ و أمرهم، و جعل هذا الصّلح فتحاً لما فيه من المصلحة و لما آل إليه أمره».

و في أسباب النّزول: عن أنس قال: لمّا نزلت: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفرلك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» قال أصحاب رسول اللّه﴿ﷺ﴾: هنيئاً لك يا رسول اللّه ما أعطاك اللّه فما لنا؟ فأنزل اللّه تعالى: «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار...» الآية.

و فيه: عن أنس قال: أنزلت هذه الآية على النّبيّ﴿ﷺ﴾: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً»

عند رجوعه من الحديبيّة نزلت و أصحابه مخالطون الحزن، و قد حيل بينهم و بين نسكهم و نحروا الهدي بالحديبيّة، فلمّا أنزلت هذه الآية قال لأصحابه: لقد أنزلت عليّ آية خير من الدّنيا جميعها، فلمّا تلاها النّبيّ(صلى الله عليه و آله) قال رجل من القوم: هنيئاً مريئاً يا رسول اللّه قد بيّن اللّه ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل اللّه تعالى: «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات...» الآية.

و في الدّرّ المنثور: عن أنس قال: أُنزلت على النّبيّ: «ليغفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» مرجعه من الحديبيّة، فقال(صلى الله عليه و آله): لقد انزلت عَلَيَّ آية هي أحبّ إليّ ممّا على الأرض ثمّ قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول اللّه قد بيّن لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: «ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار- حتّى بلغ- فوزاً عظيماً».

و فيه: عن أنس قال: لمّا رجعنا من الحديبيّة، و أصحاب محمّد(صلى الله عليه و آله) قد خالطوا الحزن و الكآبة حيث ذبحوا هديهم في أمكنتهم، فقال رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) أنزلت عليّ ضحىً آية هي أحبّ إليّ من الدّنيا جميعاً ثلاثاً، قلنا: ما هي يا رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) فقرأ: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً...» الآيتين قلنا: هنيئاً لك يا رسول اللّه فما لنا؟ فقرأ «ليدخل المؤمنين و المؤمنات...» الآية فلمّا أتينا خيبر، فأبصروا خميس رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) يعني جيشه، أدبروا هاربين إلى الحصن، فقال رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فسآء صباح المنذرين».

و فيه: عن زيد بن ثابت رضي اللّه عنه قال: كنت أكتب لرسول اللّه(صلى الله عليه و آله) و إنيّ لواضع القلم على أُذُني إذ أمر بالقتال إذ جآء أعمى، فقال: كيف بي و أنا ذاهب البصر؟ فنزلت: «ليس على الأعمى حرج...» الآية قال: هذا في الجهاد ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا».

و فيه: عن ابن عبّاس قال: انصرف رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) من الحديبيّة إلى المدينة حتّى إذا كان بين المدينة و مكّة نزلت عليه سورة الفتح فقال: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً إلى قوله- عزيزاً» ثمّ ذكر اللّه الأعراب و مخالفتهم للنّبيّ(صلى الله عليه و آله) فقال: «سيقول لك

المخلّفون من الأعراب- إلى قوله- خبيراً» ثمّ قال للأعراب: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون- إلى قوله- سعيراً» ثمّ ذكر البيعة فقال: «لقد رضى اللّٰه عن المؤمنين -إلى قوله- و أثابهم فتحاً قريباً» لفتح الحديبيّة».

و فيه: عن ابن عبّاس في قوله: «لقد رضى اللّٰه عن المؤمنين» قال: كان أهل البيعة تحت الشّجرة ألفاً و خمسمأة و خمساً و عشرين».

و في رواية: أنّه لمّا نزل قوله تعالى: «و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً» قال أهل الزّمانة: كيف بنا يا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فأنزل اللّٰه تعالى: «ليس على الأعمى حرج...» الآية.

و قد ذكر الگنجي الشّافعي و هو من أعلام العامّة في كتابه: (كفاية الطالب: ص ١٢٠ ط الغرى) ما لفظه: «ذكر الحافظ الخوارزمي في كتابه في قوله تعالى: «لقد رضي اللّٰه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» قال: نزلت في أهل الحديبيّة، و أولى النّاس بهذه الآية عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لأنّه تعالى قال: «و أثابهم فتحاً قريباً» أجمعوا على أنّه يعني يوم فتح خيبر، و كان ذلك على يد عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ بإجماع منهم» و ذكر الكشفى التّرمذي الحنفي في كتابه (مناقب مرتضوى: ص ٥٤ ط بمبئى بمطبعة محمّدي) عن جابر بن عبداللّٰه الأنصاري أنّ الآية نزلت في أهل البيت و أنّهم أحقّ بها من غيرهم».

و في كنزالفوائد: بإسناده عن جابر عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: قلت: قول اللّٰه: «لقد رضي اللّٰه...» الآية كم كانوا؟ قال: ألفاً و مأتين، قلت: هل كان فيهم عليّ﴿عليه السلام﴾؟ قال: نعم عليّ سيّدهم و شريفهم».

و في تفسيرالقمى: و نزلت في بيعة الرّضوان: «لقد رضي اللّٰه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» و اشترط عليهم أن لاينكروا بعد ذلك على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ شيئاً يفعله و لايخالفوه في شيء يأمرهم به، فقال اللّٰه عزّوجلّ بعد نزول آية الرّضوان: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه يد اللّٰه فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه اللّٰه فسيؤتيه أجراً عظيماً» و إنّما رضي عنهم بهذا الشّرط أن يفوا بعد ذلك بعهد اللّٰه و ميثاقه و لاينقضوا عهده و عقده، فبهذا العهد رضي

اللّٰه عنهم، فقد قدموا في التّأليف آية الشّرط على بيعة الرّضوان، و إنّما نزلت أوّلاً بيعة الرّضوان، ثمّ آية الشّرط عليهم فيها، ثمّ ذكر الأعراب الّذين تخلّفوا عن رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال: «سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا- إلى قوله- و كنتم قوماً بوراً» أي: قوم سوء وهم الّذين استنفرهم في الحديبيّة».

و في أسباب النّزول للسّيوطى: و أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: يا أيّها النّاس! البيعة البيعة نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هو تحت شجرة سمرة، فبايعناه فأنزل اللّٰه: «و لقد رضى اللّٰه...».

و فيه: عن أنس قال: لمّا كان يوم الحديبيّة هبط على رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أصحابه ثمانون رجلاً في السّلاح من جبل التّنعيم يريدون غرّة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأُخذوا فأعتقهم، فأنزل اللّٰه: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم...» الآية. (التنعيم: موضع بين مكّة و سَرِف).

و في أسباب النّزول للواحدي: عن أنس أنّ ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من جبل التّنعيم متسلّحين يريدون غرّة النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أصحابه، فأخذهم أُسرآء فاستحياهم، فأنزل اللّٰه: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم».

و فيه: و قال عبداللّٰه بن مغفل الهوني: كنّا مع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالحديبيّة في أصل الشّجرة الّتي قال اللّٰه في القرآن، فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابّاً عليهم السّلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا﴿صلى الله عليه و آله﴾ عليهم فأخذ اللّٰه تعالى بأبصارهم، و قمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: هل جئتم في عهد أحد، و هل جعل لكم أحد أماناً؟ قالوا: اللّهمّ لا، فخلّى سبيلهم، فأنزل اللّٰه تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم...» الآية.

و في المناقب لابن شهر آشوب السّرويّ المازندرانى قدس سرّه: «و في رواية: كان النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ جالساً في ظلّ شجرة و بين يديه عليّ﴿عليه السلام﴾ يكتب الصّلح، و هم

ثلاثون شابّاً، فدعا عليهم النّبيّ ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ فأخذ اللّه بأبصارهم حتّى أخذناهم فخلّى سبيلهم فنزل: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم».

و في **الدّرّ المنثور**: عن قتادة «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة» قال: بطن مكّة: الحديبيّة، ذكر لنا أنّ رجلاً من أصحاب رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ يقال له: زنيم أطلع الثنيّة زمان الحديبيّة، فرماه المشركون، فقتلوه فبعث رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ خيلاً فأتوا بإثني عشر فارساً، فقال لهم رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾: هل لكم عهد أو ذمّة؟ قالوا: لا فأرسلهم، فأنزل اللّه في ذلك: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم...» الآية.

و فيه: عن أبي جمعة جنيبذ بن سبيع قال: قاتلت النّبيّ ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ أوّل النّهار كافراً، و قاتلت معه آخر النّهار مسلماً، و فينا نزلت: «و لو رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات» و كنّا تسعة نفر، سبعة رجال و إمرأتين».

و في **أسباب النّزول** للسّيوطي: عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال: قاتلت النّبيّ ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ أوّل النّهار كافراً و قاتلت معه آخر النّهار مسلماً، و كنّا ثلاثة رجال و سبع نسوة، و فينا نزلت: «و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات».

أقول: و فيها ما تراه.

وفي **الدّرّ المنثور**: عن مجاهد قال: أرى رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ و هو بالحديبيّة أنّه يدخل مكّة هو و أصحابه آمنين محلّقين رؤسهم و مقصّرين، فلمّا نحر الهدي بالحديبيّة قال له أصحابه: أين رؤياك يا رسول اللّه؟ فأنزل اللّه: «لقد صدق اللّه رسوله الرّؤيا بالحقّ - إلى قوله - فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» فرجعوا ففتحوا خيبر، ثمّ اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السّنة المقبلة».

و في **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي: قال قتادة: كان رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ رأى في المنام أنّه يدخل مكّة على هذه الصّفة، فلمّا صالح قريشاً بالحديبيّة إرتاب المنافقون حتّى قال رسول اللّه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾: إنّه يدخل مكّة، فأنزل اللّه تعالى: «لقد صدق اللّه رسوله الرّؤيا بالحقّ» فأعلمهم أنّهم سيدخلون في غير ذلك العام، و أنّ رؤياه ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ حقّ».

أقول: و قد أورد جماعة من أعلام مفسّري العامة، و أعاظم حملة آثارهم: أنّ قوله

تعالى: «ركّعاً سجّداً» و «فاستوى على سوقه» و «ليغيظ بهم الكفّار» نزل في شأن عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

منهم: السّيوطي في الدّرّالمنثور: أنّ المراد من «على سوقه» عليّ﴿عليه السلام﴾. والزّمخشري في (الكشّاف) عن عكرمة: أنّ المراد «فاستوى على سوقه» بعليّ﴿عليه السلام﴾. والنيشابوري في (غرائب القرآن) و الخازن في تفسيره و الحسكاني في شواهد التّنزيل و مفتي البغداد محمود الآلوسي في (روح المعاني) و غيرهم تركناهم روماً للاختصار.

و منهم: الكشفي الترمذي الحنفي في (مناقب مرتضوى) أنّ «تراهم ركّعاً سُجّداً» في شأن عليّ﴿عليه السلام﴾ ثمّ نقل عن كتاب (صفوة الزّلال) عن عليّ﴿عليه السلام﴾ قال: «صلّيت مع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ سبع سنين قبل أن يسلم أحد أو يصلّي أحد» و الآلوسي في (روح المعاني) عن ابن عبّاس: «تراهم ركّعاً سجّداً» عليّ كرّم اللّه تعالى وجهه».

و فيه أيضاً و عنه أيضاً: «ليغيظ بهم الكفّار» بعليّ كرّم اللّه تعالى وجهه.

و في كشف الغمّة: عن ابن مردويه قوله: «تراهم ركّعاً سجّداً» عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السّلام أنّها نزلت في عليّ﴿عليه السلام﴾

و في رواية: عن الحسين بن عليّ عليهما السّلام في قوله: «تراهم ركّعاً سجّداً» قال: نزلت في عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: عن أنس: أنّ ثمانين هبطوا على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أصحابه من جبل التّنعيم عند صلاة الصّبح و هم يريدون أن يقتلوه، فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأنزل اللّه تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم و أيديكم عنهم...» التّنعيم: موضع بين مكّة و سَرِف، و هو اليوم من توابع متّصلة بمكّة.

و في المجمع: سبب نزول قوله: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم» الآية: أنّ المشركين بعثوا أربعين رجلاً عام الحديبيّة ليصيبوا من المسلمين، فأتى بهم إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ اسرى، فخلّى سبيلهم. عن ابن عبّاس. و قيل: إنّهم كانوا ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا من جبل التّنعيم عند صلاة الفجر عام الحديبيّة ليقتلوهم، فأخذهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأعتقهم عن أنس. و قيل: كان رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ جالساً في ظلّ شجرة، و بين يديه

عليّ صلوات اللّٰه عليه يكتب كتاب الصّلح، فخرج ثلاثون شابّاً عليهم السّلاح، فدعا عليهم النّبيّ﴿ﷺ﴾ فأخذ اللّٰه تعالى بأبصارهم، فقمنا فأخذناهم، فخلّى سبيلهم، فنزلت هذه الآية عن عبد اللّٰه بن المغفّل.

و في **شواهدالتّنزيل** للحاكم الحسكاني الحنفي- من أعلام العامّة- بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه سئل عن قول اللّٰه: «وعد اللّٰه الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» قال: سئل قوم النّبيّ﴿ﷺ﴾ فقالوا: فيمن نزلت هذه الآية يا نبيّ اللّٰه؟ قال: إذاكان يوم القيامة عقد لواء من نور أبيض فينادي منادٍ ليقم سيّد المؤمنين، و معه الّذين آمنوا بعد بعث محمّد﴿ﷺ﴾ فيقوم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فيعطى اللّواء من النّور الأبيض بيده، تحته جميع السّالفين من المهاجرين و الأنصار لايخلطهم غيرهم حتّى يجلس على منبر من نور ربّ العزّة، و يعرض الجميع عليه رجلاً رجلاً، فيعطى أجره و نوره، فإذا أتى على آخرهم قيل لهم:

قد عرفتم منازلكم من الجنّة، إنّ ربّكم تعالى يقول لكم: عندي مغفرة و أجر عظيم- يعني الجنّة- فيقوم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و القوم تحت لوآئه حتّى يدخلهم الجنّة، ثمّ يرجع إلى منبره و لايزال يعرض عليه جميع المؤمنين، فيأخذ بنصيبهم منه إلى الجنّة، و يترك أقواماً على النّار فذلك قوله: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات لهم أجرهم و نورهم» يعني السّالفين الأوّلين و أهل الولاية. و قوله: «و الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا» يعني بالولاية بحقّ عليّ، و حقّ عليّ الواجب على العالمين «اولئك أصحاب الجحيم» و هم الّذين قاسم عليّ عليهم النّار، فاستحقّوا الجحيم».

أقول: و يظهر من الرّوايات في نزول هذه الآية الكريمة أنّها نزلت في الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و في المؤمنين الّذين هو أميرهم و سيّدهم و مولاهم...

﴿ القراءة ﴾

قرأ ابن كثير و أبو عمرو «السّوء» بضمّ السّين في المواضع الثّلاثة، و قرأ الباقون بفتحها فيها، و قرأ حمزة «عليهم»: ٦) بضمّ الهآء، و الباقون بكسرها.

و قرأ ابن كثير و أبو عمرو «ليؤمنوا» و «يعزّروه» و «يوقّروه» و «يسبّحوه» بيآء الغيبة في الأربعة كلّها، و قرأ الباقون بتآء الخطاب للخلق أجمعين أي أرسلته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إليكم أيّها النّاس لتؤمنوا باللّٰه... و هذه قراءة مشهورة.

قرأ حفص «عليه اللّٰه»: ١٠) بضمّ الهاء لأنّها الأصل، و بتفخيم لام الجلالة: «اللّٰه» و هذه قراءة مشهورة في هذه السّورة المباركة، و قرأ الباقون بكسر الهاء للمجاورة لليآء، و بترقيق لام الجلالة. و قرأ أبو جعفر و نافع و ابن كثير و ابن عامر «فسنؤتيه»: ١٠) بنون الجمع للتكلّم، و قرأ الباقون بياء الغيبة لقرب إسم «اللّٰه» منه، فالضّمير راجع إليه تعالى.

قرأ حمزة و الكسائي «ضُرّاً»: ١١) بالضّمّ على أنّه إسم لما ينال الإنسان من الهزال و سوء الحال أي أمراً يضرّكم، و الباقون بالفتح على أنّه مصدر أي ضررته ضَرّاً. والمصدر يؤدّي عن المرّة و أكثر.

و قرأ حمزة و الكسائي «كَلِمَ اللّٰه»: ١٥) بكسر اللّام، جمع الكلمة، و الباقون «كلام

اللّٰه» على التّوحيد لأنّه يدلّ على الكثير من حيث هو إسم جنس، أو مصدر يقع على القليل و الكثير، و هذه قراءة مشهورة. و قرأ حمزة و الكسائي «بل تحسدوننا»: ١٥) بالإدغام، و الباقون بغيره، و قرأ نافع و أبو جعفر و ابن عامر «ندخله» و «نعذّبه»: ١٧) بنون الجمع للتكلّم على وجه الإخبار من اللّٰه تعالى عن نفسه تعظيماً، و الباقون بيآء الغيبة لتقدّم إسم «اللّٰه» أوّلاً، و الضّمير راجع إليه تعالى.

قرأ أبوعمرو «يعملون»: ٢٤) بيآء الغيبة، بأنّ اللّه تعالى بصير بما كان عليه الكفّار من الكفر و صدّ المسلمين عن المسجد الحرام فيجازيهم عليه، و الباقون بتآء الخطاب لأنّه جرى للقبيلتين في قوله تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم» فالخطّاب لتقدّم هذا الخطاب.

و قرأ أبو عمرو «الرّؤيا» بالإمالة، و الباقون بغيرها.

و قرأ ابن كثير «شَطَأَهُ»: ٢٩) بفتح الطّآء، و الباقون بسكونها، و قرأ ابن كثير «على سؤقه» بالهمزة، و الباقون بدونها، و هذه قراءة مشهورة.

﴿الوقف و الوصل﴾

«مبيناً لا» للتّعليل التّالي، و «مستقيما لا» على احتمال الجواز ههنا لتكرار إسم اللّٰه تعالى بالتّصريح، و «مع ايمانهم ط» لاستئناف التّالي، و «الأرض ط» كالسّابق، و «حكيماً لا» لتعلّق لام الغرض التّالية، و «عظيماً» لعطف التّالي، و «ظنّ السّوء ط» لاستئناف التّالي، و «دائرة السّوء ج» لعطف الجملتين المختلفتين، و «جهنّم ط» لإستئناف التالى، و «الأرض ط» كالسّابق، و «نذيراً لا» للتّعليل التّالي، و «توقّروه ط» للفصل بين ضمير إسم اللّٰه، و ضمير الرّسول﴿عليه السلام﴾ في المعطوفين فيمن لم يجعل الضّمآئر كلّها للّٰه تعالى.

«يبايعون اللّٰه ط» بنآء على أنّ الجملة التّالية تعليليّة، و «أيديهم ج» للشّرط مع الفآء، و «على نفسه ج» للعطف مع الشّرط، و «عظيماً ع ى» علامة انتهاء الرّكوع، و هو الحصّة اليوميّة لمن يريد حفظ القرآن الكريم في عامين و «ى» علامة العشر و توضع عند انتهاء عشر آيات ١٠).

«فاستغفرلنا ج» لاحتمال ما بعده الاستئناف و الحال، و «قلوبهم ط» لاستئناف التّالي، و «نفعاً ط» كالسّابق، و «ظنّ السّوء ج» لطول الكلام و عطف التّالي، و «الأرض ط» لاستئناف التّالي، و «من يشآء ط» لعطف الجملة التّالية على الجملة السّابقة المستأنفة، و «نتّبعكم ج» لأنّ ما بعده حال، عامله «سيقول» أو مستأنف، و «كلام اللّٰه

ط» لاستئناف التّالي، و «من قبل ج» للسّين مع الفاء، و «تحسدوننا ط» لاستئناف التّالي.

«يسلمون ج» للشّرط مع الفاء، و «حسناً ج» للشّرط مع واو العطف، و «حرج ط» لإستئناف التّالي، و «الأنهار ج» لتمام الكلام و عطف التّالي، و «أليماً ع» علامة انتهاء الرّكوع، و «قريباً لا» لعطف التّالي، و «يأخذونها ط» لاستئناف التّالي، و «عنكم ج» لأنّ الواو التّالية مقحمة أو المعلّل محذوف، و الواو داخلة في الكلام المعترض أو عاطفة على تقدير ليستيقنوا و لتكون، و «مستقيماً ى لا»: ٢٠) أمّا «ى» كالسّابقة، و أمّا «لا» لعطف التّالي.

«بها ط» لاستئناف التّالي، و «من قبل ج» و «عليهم ط» لتمام الكلام، و «محلّه ط» كالسّابق، و «بغير علم ج» لحقّ المحذوف أى قدر ذلك ليدخل، و «من يشآء ج» لاحتمال أنّ جواب «لولا» محذوف، و أن يكون هذه مع جوابها جواباً للاولى، و «أهلها ط» لاستئناف التّالي، و «عليماً ع» كالسّابق.

«بالحقّ ج» لحقّ حذف القسم، و «مقصّرين لا» لأنّها أحوال متتابعة، و «لاتخافون ط» لأنّ قوله: «فعلم» بيان حكم الصّدق، فلاينعطف على قوله: «صدق اللّٰه» و «كلّه ط» لاستئناف التّالي، و «شهيداً ط» كالسّابق.

«رسول اللّٰه ط» للصّلوات... و «رضواناً ز» علامة الوقف المجاز، ولكن الوصل أولى، و ذلك أنّ «سيماهم» مبتداء، غير أنّ الجملة من حدّ الاولى في كون الكلّ خبر: «و الّذين»، و «السّجود ط» لاستئناف التّالي، و «في التّوراة ج» و «في الإنجيل ج» لاحتمال أنّ التّقدير: هم... و «الكفّار ط» لتمام الكلام و استئناف التّالي.

﴿اللغة﴾

٤- الفتح - ١١٢٣

فتح فلان بابه يفتحه فَتْحاً و فَتاحَةً - من باب منع - فانفتح: خلاف أغلقه.

و في الحديث: «من وجد باباً غَلَقاً وجد إلى جنبه باباً فتحاً» و في الحديث: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السّمآء و غلقت أبواب جهنّم و استجيب الدّعآء» فتح أبواب السّمآء كناية عن نزول الرّحمة، و إزالة الغلق عن مصاعد أعمال العباد تارة ببذل التّوفيق، و اخرى بحسن القبول و المنّ عليهم بتضعيف الثّواب، و تغليق أبواب جهنّم كناية عن تنزّه أنفس الصّوام عن رجس الفواحش و التخلّص من البواعث على المعاصي بقمع الشّهوات، و كذا فتح أبواب الجنان كناية من استحقاق الدّخول فيها، و رتّب فتح أبواب الجنان على فتح أبواب السّمآء لأنّ الجنّة في السّمآء.

و مثله حديث رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «إذا زالت الشّمس فتحت أبواب السّمآء و أبواب الجنان و استجيب الدّعآء».

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ - في المؤمنين الصّادقين زمن غيبة المهديّ المنتظر عجّل اللّه تعالى فرجه الشّريف و ظهور الفتنة -: «اولئك يفتح اللّه لهم أبواب رحمته، و يكشف عنهم ضرّاء نقمته» الخطبة: ١٠٢).

و فَتحَ الشّيء: فرجه. و فَتْحُ القناة: فجرها ليجري المآء فيسق الأرض. و في الحديث: «ما سق فَتْحاً و ما سق بالفتح ففيه العشر» أي ما فتح إليه ماء النّهر فتحاً من الزّروع و النّخيل، ففيه العشر. و الفتح: المآء يخرج من عين أو غيرها، و يجرى في الأنهار جمعه: فُتُوح. الفتح: ثمر للنّبع يشبه الحبّة الخضرآء. و أوّل مطر الو سميّ. و مركب النّصل في السّهم. و عند العرب يُطلق على نوع من الحركة يفتح لها الفم. الفَتُوح: النّاقة الواسعة الإحليل، جمعه: فُتُح.

الفُتُوح: حصول شيء عمّا لم يتوقّع ذلك منه، الفُتُوحات: ما فُتِحَ من البلدان بالحرب. و الفُتُوح: الرّزق الّذي يفتح به اللّٰه تعالى. و في الحديث: «تزوّجوا الأبكار فإنّهنّ أفتح شيء أرحاماً» أي كثرة النّسل. و فتح الحاكم بين النّاس: قضى، و فتح السّلطان دار الحرب: غلب عليها و تملّكها قهراً، و فتح اللّٰه على فلان: علّمه و عرّفه، و فتح له: نصره، و فتح المأموم على إمامه: قرأ ما ارتجّ على الإمام ليعرّفه. و فَتَحَ سِرَّهُ على فلان: باح له به.

و تدور مادّة الفتح على إزالة الأغلاق و الأشكال و المعضلات... و تكون في المادّي الّذي يدرك بالبصر كفتح الباب و فتح الغلق و القفل و فتح المتاع و نحوها... و باب فُتُح - بضمّتين -: واسع مفتوح، و يقابله الغُلُق. و القارورة الواسعة الرّأس بلا صمام و لا غلاف لأنّها حينئذ مفتوحة. يقال: قارورة فُتُح. و تكون في المعنوي الّذي يدرك بالبصيرة بإزالة ما يتعلّق به القلب و النّفس من همّ الفقر و غمّه و نحوه بإعطآء المال والولد، و الحكم في الخصومة و النّصر في الحرب، و العلم و المعرفة و الهداية إلى ما فيه الخيرو السّعادة في الدّنيا و الآخرة.

قال اللّٰه تعالى: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً - فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» الفتح: ۱ و ۲۷) أي نصرنا أو هدينا أو علّمنا أو قضينا لك قضآءً بيّناً و حكمنا لك حكماً ظاهراً.

و يمكن تعيين المادّي و المعنوي من الاستعمالات بالسّياق.

قال اللّٰه تعالى: «لفتحنا عليهم بركات من السّمآء و الأرض» الأعراف: ۹۶) للحسّيّو المادّي أي أقبل عليهم الخيرات من إعطاء الاموال و الأولاد و ما إليها من الامور الدّنيويّة... «فتحوا متاعهم» يوسف: ۶۵) للحسّيّ و المادّي. «و فتحت أبوابها»

الزّمر: ٧٣) للمادّي. «أو ملكتم مفاتحة» النّور: ٦١) للمادّي. «ما يفتح اللّٰه للنّاس من رحمة» فاطر: ٢) للتّوسعة و الرّزق. «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» الأنفال: ١٩) أي إن تطلبوا النّصر فقد جاءكم النّصر. «فعسى اللّٰه أن يأتي بالفتح» المائدة: ٥٢) أي النّصر. «فافتح بيني و بينهم فتحاً» الشّعرآء: ١١٨) للحكم. «قالوا أتحدّثونهم بما فتح اللّٰه عليكم» البقرة: ٧٦) من العلم و المعرفة أو الهدى.

يقال: فلان فتح المستغلق من العلوم و المعارف و الحِكَم والأسرار و الهدايات... كقولك: فلان فتح باب العلم باباً مغلقاً.

و في الحديث: «لمّا وُلِدَ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فُتِحَ لآمنة بياض فارس و قصور الشّام» كأنّ المعنى: أُرِيَت ذلك و كشف لديها.

و في حديث النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «أُتيتُ مفاتيح الكَلِم» و في رواية: «مفاتح الكلم» هما جمع مِفتاح و مِفْتَح، و هما في الأصل: كلّ ما يُتوصّل به إلى استخراج المغلقات الّتي يتعذّر الوصول إليها، فأخبر رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: أنّه أُوتِيَ مفاتيح الكَلِم، و هو ما يَسَّرَ اللّٰه تعالى له من البلاغة و الفصاحة و الوصول إلى غوامض المعاني و بدآئع الحكم و المعارف و الرّموز و الأسرار، و محاسن العبارات و الألفاظ الّتي أُغلِقت على غيره و تعذّرت، و من كلّ مَن في يده مفاتيح شيء مخزون سَهُلَ عليه الوصول إليه. و منه الحديث: «أُوتيت مفاتيح خزآئن الأرض» أراد ما سهّل اللّٰه تعالى له و لأُمّته من افتتاح البلاد المعتذّرات و استخراج الكنوز و الخزائن الممتنعات...

الفَتْح و الفُتاحَة - بضمّ الفآء و كسرها -: الحكم، و أخصّ منه فتح المستغلق من أبواب العلوم و المعارف و الحِكَم و الهدايات و ما إليها ممّا يدعى به للمتعلّم.

ورد من المادّة الفعل و استفعال و إسم الفاعل من الثّلاثي، وصيغة المبالغة منه، و إسم الآلة مفرداً و جمعاً و إسم المفعول من المضعّف و غيرها في القرآن الكريم، متعدّياً تارة بنفسه، و اخرى بحرف «على» و ثالثة بحرف اللّام، و رابعة بالباء، و خامسة بحرف «في» و لكلٍّ وجه لايخفى على الأديب الأريب، تركناها روماً للاختصار.

الفاتح: إسم الفاعل، جمعه: الفاتحون. قال اللّٰه تعالى حكاية عن شعيب النّبيّ﴿عليه السلام﴾:

«ربّنا افتح بيننا و بين قومنا بالحقّ و أنت خيرالفاتحين» الأعراف: ۸۹) أى خيرالحاكمين.

فاتحة الشّيء: مبتدؤه الّذي يفتح به ما بعده، و منه «فاتحة الكتاب» سمّيت بذلك لأنّه يفتح بها كما يفتح بها القراءة في الصّلاة، و فواتح القرآن: أوائل السّور، خلاف خواتمه... و فتح فلان كذا: إذا ابتدأ به، و فتح عليه كذا: إذا أعلمه و وفّقه عليه، و فتح القضيّة فِتاحاً: فصل الأمر فيها و أزال الأغلاق عنها.

الفتّاح – فعّال –: للمبالغة. قال اللّٰه سبحانه: «و هوا الفتّاح العليم» سبأ: ۲٦) أي الحاكم و هو من صفاته تعالى لأنّه يفتح مواضع الحقّ و الباطل، و يفتح أبواب الرّزق والرّحمة لعباده، و يفتح أبواب الايمان و الهدى و التّوفيق لعباده، و يفتح ما استغلق عليهم من العلم و المعرفة... و أهل اليمن يقولون للقاضي: الفتّاح، و يقول أحدهم لصاحبه: تعال حتّى أُفاتحك إلى الفتّاح. و الفتّاح: طآئر أسود يسمّى أُمّ عجلان.

الفَتاح و الفِتاح و الفُتُوحَة: الحكومة، و الفِتاحَة و الفُتاحَة: الحكم بين الخصمين. المِفْتَح: آلة لفتح الأبواب و نحوها و كلّ مستغلق. و المِفتاح: ما يفتح به المغلاق و الأقفال. جمعه: مفاتح و مفاتيح. قال اللّٰه تعالى: «و عنده مفاتح الغيب» الأنعام: ٥۹).

المفتاح: سمة في الفخذ و العنق من البعير على هيئته. ناقة مفاتيح: سمينة. اينق مفاتيحات: سمان. و في الخبر: «الصّلاة مفتاحها الطّهور» و فيه استعارة لطيفة، و ذلك أنّ الحدث لمّا منع من الصّلاة أشبه الغلق المانع من الدّخول إلى الدّار و نحوها، و الطّهور لمّا رفع الحدث المانع و كان سبب الإقدام على الصّلاة شبهه بالمفتاح.

الفتاح – بضمّ الفاء و كسرها –: الحكومة، و الفَتاحَة: النّصرة، و بكسر الفاء و ضمّها: الحكم بين خصمين. يقال: «فلان وليّ الفتاحة» و هي ولاية القضآء. الفُتاحة بالضّمّ –: طُوَيرَة ممشّقة بحمرة الفُتاحِية: طائر. بينها فُتاحات: خصومات.

المَفْتَح: الخزانة و الكنز و المخزن، جمعه: مفاتح. و منه قوله تعالى: «ما إنّ مفاتحه» القصص: ۷٦) و المفتتح – بصيغة إسم المفعول –: مصدر ميميّ، و إسم زمان و مكان.

الفَتْحىٰ: الرّيح، و الفَتْحَة: المرّة، و علامة حركة الفتح. و الفُتْحَة: الفُرجة، و تفتّح الإنسان بما عنده من ملك و أدب يتطاول به. جمعه: فُتَحٌ.

أفتح إفتاحاً: فتح. و فتّح الأبواب تفتيحاً: فتح، شدّ للكثرة. قال اللّٰه تعالى: «جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب» ص: ٥٠) و فتّحتِ الأكْمَهُ عن النّور: تشقّقت عنه.

فاتح فلان فلاناً مفاتحة: حاكمه، و منه: «تفاتحوا أهل القدر» و منه الحديث: «من سبّ أولياء اللّٰه فلا تفاتحوه» أى لاتحاكموه أي اسكتوا عنه معرضين و لاتبدوه بالمجادلة و المخاصمة و المناظرة. و فاتح زيداً: ساومه و لم يعرفه شيئاً، فإن أعطاه فاتكه. فاتح البيع: سهّله. و فاتحه بالأمر: باداه و خاطبه به. و في حديث ابن عبّاس: «ماكنت أدري ما قوله تعالى: «ربّنا افتح بيننا و بين قومنا» حتّى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أُفاتحك أي أُحاكمك. فاتح الرّجل إمرأته: إذا جامعها.

تفاتحا -كلاماً بينهما-: تخافتادون النّاس.

تفتّحت الأبواب: مطاوع فتح. يقال: فتح الأبواب فتفتّحت، و تفتّح في الكلام و بالمال على فلان: جاهر به مفتخراً بما عنده من العلم و الأدب و المال و الولد و العُدّة و العِدّة و ما إليها على فلان: تطاول به عليه. و الفُتحَة: جمعها: فُتَح: تفتّح الإنسان بما عنده من أدب أو مال يفاخر به.

إنفتح الباب: مطاوع فتح، و فتحت الشّيءَ فانفتح: فرجته فانفرج، و انفتح عن الشيء: انكشف عنه. الحروف المنفتحة: ما عدا ضَطْصَظَ أى الضّاد و الطآء و الصّاد و الظّآء.

افتتح الصّلاة: ابتدأ، و افتتاح الصّلاة: التكبيرة الاولى.

و افتتحت الباب: خلاف أغلقه، و افتتح فلان المكتبة أو المؤسّسة أو الإدارة و ما إليها: إبتدأبها. الافتتاحية: المقال الأوّل الّذي تفتتح به الجريدة. يقال: ما أحسن ما افتُتِح عامنا به: إذا ظهرت أمارات الخصب.

استفتح الباب: فتحه، و استفتح الشّيء بكذا: ابتدأ به، و استفتح: طلب الفتح بمعنى من معانيه أقربها في هذا النّصر. حرف الاستفتاح عند النّحاة: ألا، سمّي به لأنّه يستفتح به الكلام كقوله تعالى: «ألا لعنة اللّٰه على الظّالمين» هود: ١٨).

و قال بعض المحقّقين من القدمآء: قد ورد الفتح في القرآن الكريم على سبعة وجوه:

ألف: بمعنى القيامة كقوله تعالى: «و يقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لاينفع الّذين كفروا ايمانهم» السجدة: ۲۸-۲۹) أى يوم القيامة سمّى بيوم الفتح لأنّه يوم الحكم و القضآء، يوم إزالة الشّبهة بإقامة القيامة، و يوم ما كان الكفّار و المنافقون يستفتحون من العذاب و يطلبونه.

ب: بمعنى الحكم و القضاء كقوله سبحانه: «قل يجمع بيننا ربّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ» سبأ: ۲۶) أى يحكم و يقضى بيننا بالحقّ.

ج: بمعنى الإرسال كقوله عزّوجلّ: «حتّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد» المؤمنون: ۷۷) أي أرسلنا.

د: الفتح بمعناه بعينه كقوله جلّوعلا: «و فتحت أبوابها» الزّمر: ۷۳)

ه: بمعنى النّصر و الظّفر كقوله تعالى: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح: ۱) أي نصرناك على المشركين نصراً بيّناً. و فتح المسلمون دار الكفر: إذا غلبوا و ظفروا عليهم.

و قال سبحانه: «إن تستفتحوا فقد جآءكم الفتح» الأنفال: ۱۹) أي إن طلبتم النّصر و الظّفر أو الحكم أو طلبتم مبدأ الخيرات، فقد جآءكم ذلك بمجييء محمّد رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قال: «و كانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا» البقرة ۸۹) أى يستنصر اللّه ببعثة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ أو يستعلمون خبره من النّاس مرّة و يستنبطونه من الكتب مرّة اخرى أو يطلبون من اللّه بذكره الظّفر أو كانوا يقولون: إنّا لننصر بمحمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ على عبدة الأوثان. و إنّ المفتاح على وجوه ثلاثة: **أحدها**- الكنز كقوله تعالى: «ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة» القصص: ۷۶) أي كنوزه. **ثانيها**- المخزن نفسه أي خزائن الكنوز لاكنوزها. **ثالثها**- بمعناه بعينه أي آلة لفتح الباب و القفل و الغلق و المتاع و نحوها كقوله تعالى: «و عنده مفاتح الغيب» الأنعام: ۵۹) يعني ما يتوصّل به إلى غيبه المذكور في قوله عزّوجلّ: «فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول» الجنّ: ۲۶-۲۷).

و: الفتح بمعنى الصّعود كقوله تعالى: «لا تفتّح لهم أبواب السّمآء» الأعراف: ۴۰): لا يصعدلهم عمل صالح أو لاتفتح لهم أبواب السّمآء ليدخلوا الجنّة إذ هي فيها أو لاتصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعدوا أرواح المؤمنين أو لاتنزل عليهم البركة.

ز: الفتح بمعنى البيان كقوله عزّوجلّ: «أتحدّثونهم بما فتح اللّٰه عليكم» البقرة: ٧٦) أى بيّن لكم في التّوراة من بعث رسول اللّٰه(ﷺ).

٣٧- العزر - ١٠٠٢

عَزَرَه يَعْزِرُهُ عَزْراً- من باب ضرب-: فخّمه و عظّمه، و عَزَرَ فلاناً: أعانه و نصره، فكأنّ من نصرتَه قد رددتَ عنه أعدآئه و منعتهم من أذاه، و عزره: لامه و ردّه و أدّبه و ضربه أشدّ الضّرب. ضدّ. و عَزَرَ المرأةَ عَزْراً: نكحها. و عَزَرَه عن الشّيء: منعه عنه و ردّه و ردعه، و عَزَرَه على الأمر: أجبره عليه. و عَزَرَ الرَّجُلَ على الفرآئض و الأحكام: وقّفه عليها. و العَزْر: التّوقيف على باب الدّين. و منه حديث سعد: «أصْبَحَتْ بنو أسد تعزّرني على الإسلام» أي توقّفني عليه. و قيل: توبّخني على التقصير فيه.

و عَزَرْتُ: شددت على خياشيمه خيطاً ثمّ أوجرته.

من الحسّيّ في المادّة: العَزْوَرَة: الأكمة. و العَيْزار: الصّلب الشّديد من كلّ شيء، و من هذا قالوا عَزَرْتَ الرّجلَ: إذا حِطْتَه و كنفته، فَرَدَدْتَ عنه، فهي النّصرة و ما إليها من توقير و تفخيم و تعظيم أو عزرته: إذا رددته عن معصية أو عيب باللوم، فنصرته على نفسه، فكان العزر معناه اللّوم. و العَيْزار: الغلام الخفيف الرّوح النّشيط، و ضرب من أقداح الزّجاج و شجر. الواحدة: عيزارة.

العَيْزار و أبو العَيْزار: طآئر طويل العنق تراه في المآء أبداً، و يقال له: السّبيطر. و قيل: هو الكُرْكي. والعَيْزاريّة: العَيزار لضرب من أقداح الزّجاج. و العيزارة: شديدة الأسر. العَزر و العَزير: ثمن الكلا إذا حُصِدَ، و بيعت مزارعه، و العَزْوَر و العَزَوَّر: السّيّيء الخلق، و العَزْوَرَة: مؤنّث العَزْوَر.

عزّره يعزّره تعزيراً: لامه و أدّبه، فنصره على نفسه أو أيّده و نصره و فخّمه و عظّمه و وقّره فنصره على غيره كعَزَر ضدّ إذ يطلق على التّعظيم و التّفخيم و على التّأديب و الضّرب الشّديد. قال اللّٰه تعالى: «و تعزّروه و توقّروه» الفتح: ٩) أى تعظّموه. و عزّر زيداً: أعانه و قوّاه و نصره بلسانه و سيفه. و قد يقال: عزّرته: أدّبته أو عظّمته

فهو من الأضداد أو نحوها، و لعلّ الأوّل أولى، و الّذي ورد في القرآن الكريم هو معنى الحياطة و النّصر و الاحترام و التّفخيم...

عزّر الجاني: ضربه دون الحد أو أشدّ الضّرب. و التّعزير- شرعاً- : هو التأديب دون الحدّ. و في الحديث: «ربّ معزور في النّاس مصنوع له» قيل: المعزور هو الممنوع من الرّزق، و مصنوع له أي صنع له الجنّة و الرّضوان أو قد حصل له رزقه بلا تعب، و إن منعه النّاس من رزقه.

العيازر و العزآئر: دون العضاء و فوق الدّقّ، و العيدان و بقايا الشّجر لا واحد لها.

العَوْزَر: نصيّ الجبل.

عَزْوَر: بهآء الأكمة، و الدّيّوث و هو القوّاد، و عَزْوَر: ثنيّة الجُحْفة و عليها الطّريق من المدينة إلى مكّة المكرّمة، ويقال فيه: عَزُورا. و عَزُورَة: قرب مكّة. و قيل: جبل عن يمنة طريق الحاجّ إلى معدن بني سليم بينهما عشرة أميال. و قيل: عزورة: ثنية المدنيين إلى بطحآء مكّة.

عزرآئيل: إسم ملك الموت عبرانيّة.

عُزَيْر: إسم نبيّ يُصرف لخفّته و إن كان أعجميّاً.

في المفردات: التّعزير: النّصرة مع التّعظيم، قال: «و تعزّروه- و عزّرتموهم».

و التّعزير: ضرب دون الحدّ، و ذلك يرجع إلى الأوّل، فإنّ ذلك تأديب، و التّأديب نصرة ما، لكنّ الأوّل نصرة بقمع ما يضرّه عنه، و الثّاني نصرة بقمعه عمّا يضرّه، فمن قمعته عمّا يضرّه فقد نصرته، و على هذا الوجه قال﴿عليه السلام﴾: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قال: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ فقال: كفّه عن الظّلم. و عُزَيْر في قوله: «و قالت اليهود عزير ابن اللّه» إسم نبيّ».

و **في مجمع البحرين:** قوله تعالى حكاية عن طائفة من اليهود: «عزير ابن اللّه» التّوبة: ٣٠) قال: المراد به عُزَير بن شرحيا، نبيّ من أنبيآء اللّه، و نسبته إلى اللّه- على ما قيل- لأنّه أقام التّوراة بعد أن أُحْرِقَتْ. و عُزَير إسم أعجميّ، و من نَوَّنَهُ جعله عربيّاً. و في الصّحاح: عزير إسم ينصرف لخفّته، و إن كان أعجميّاً مثل نوح و لوط لأنّه تصغير عزر، يؤيّده قراءة السّبعة بالصّرف».

و في النّهاية: في حديث المبعث: «قال ورقة بن نوفل: إن بُعِثَ و أناحيّ، فسأُعزّره و أنصره» التّعزير ههنا: الإعانة و التّوقير و النّصر مرّة بعد مرّة. و أصل التّعزير: المنع و الرّدّ فكأنّ من نصرته قد رددتَ عنه أعدآئه و منعتهم من أذاه، و لهذا قيل للتّأديب الّذي هو دون الحدّ تعزير لأنّه يمنع الجاني أن يعاود الذّنب».

٣٠- الشغل - ٧٩٨

شغله به يشغله شَغْلاً و شُغْلاً- من باب منع -: جعله مشغولاً فهو شاغل، لم يدع له فراغاً. قال اللّٰه عزّوجلّ: «سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا» الفتح: ١١) و في حديث النّسآء: «قد شغلهنّ اللّٰه في الحيض».

الشُغْل و الشَغْل و الشُغُل و الشَغَل - أربع لغات -: ما يشغل الإنسان و يذهله. ضدّ الفراغ، جمعه: أشغال و شغول.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون» يس: ٥٥) أي يلاعبون العذارىٰ و يفتضّوهنّ مرّة بعد اخرى...

شُغْلٌ شاغِلٌ: مبالغة، تقول: أنا في شغل شاغل، مثل ليل لائل، و موت مائت.

الشُّغْل: نقيض الخلأ. يقال: مكان خال أي لا شيء فيه، و نقيضه: مكان مشغول. مال مشغول: معلّق بتجارة. دار مشغولة: فيها سكّان. جارية مشغولة: ذات بعل.

الأُشغولة: ما يشغلك. المشغلة: الأُشغولة. و المشغل جمعه مشاغل: المكان الّذي تزاوَل فيه الأشغال اليدويّة كأشغال الحرير و الصّوف و القطن و نحوها أو الّتي يسمّونها الصّناعات الصّغيرة... و قد يطلق هذا الإسم على المعمل نفسه.

و **شغله عنه:** ألهاه. يقال: شغلتنى عنك الشّواغل... شُغِلَ عنه بكذا: التهى به عنه. و يقال: ما أشغله. على التّعجّب و هو شاذّ لأنّه لايتعجّب من المفعول، و إنّمايتعجّب من فعل الفاعل، و كذلك التفضيل لأنّه شريك التّعجّب في جميع أحكامه.

الشَّغِل - ككتف -: ذو الشّغل. الشّغلة: المرّة، و البيدر و الكُدس و العَرَمة و السّدرة، جمعها: الشَّغْل.

و في الخبر: «إنّ عليّاً﴿عليه السلام﴾ خطب النّاس بعد الحكمين على شَغْلَة» و هي السّدرة و قيل: البَيْدَر.

الشَّغّال- فعّال للمبالغة-: الكثير الشُغْل. الشّاغل مَن له الشُغل، و ضدّه الفارغ أي من لا شغل له.

أشْغَلَه- من باب الإفعال-: بمعنى شغله.

و شغّله- من باب التفعيل-: شَغَلَه، شُدِّدَ للتكثير.

تشغّل به و اشتغل: كان مشغولاً به. المُشْتَغِل- بفتح الغين و كسرها-: ذو الشّغل. إشتغل فيه السّمّ: سرى، و اشتغل فيه الدّواء: نجع. و اشتغل قلب فلان: تشوّشت أفكاره و اضطربت.

تشاغل: مثل اشتغل به، و تشاغل عنه: التهى.

و في **نهج البلاغة:** قال مولى الموحدّين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فاستدركوا بقيّة أيّامكم و اصبروا لها أنفسكم، فإنّها قليل في كثير الأيام الّتي تكون منكم فيها الغفلة، و التّشاغل عن الموعظة» الخطبة: ٨٥).

٣٨- الغنيمة و الغنآئم- ١١٠٧

غَنِمَ الغازي يَغْنَمُ غُنْماً و غَنْماً و غَنَماً و غُنْماناً و غنيمة- من باب علم-: أصاب غنيمة. و غَنِمَ الشّيءَ: فاز به بكسب أو غيره من كنز و نحوه من دون مشقّة و لا بدل فهو غانم.

قال اللّٰه تعالى: «و اعلموا أنّما غَنِمْتُم من شيء فأنّ للّٰه خمسه...» الأنفال: ٤١).

المَغْنَم: ما يُغْنَمُ، جمعه: مغانم.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها- و مغانم كثيرة يأخذونها- وعدكم اللّٰه مغانم كثيرة تأخذونها» الفتح: ١٥ و ١٩-٢٠).

المادّي: الغَنَم: الشّاء و المعز و الضّأن لا واحد لها من لفظها، و الواحدة: شاة، و هو إسم مؤنّث موضوع لجنس الشّاء يقع على الذّكور و الاناث، و عليهما جميعاً، و جمع الغَنَم: أغنام و غنوم و أغانم و أغانيم.

قال اللّه تعالى: «و من البقر و الغنم» الأنعام: ١٤٦).

و تقول العرب: «راح على فلان غنمان» أي قطيعان من الغَنَم، كلّ قطيع منفرد بمرعى وراع، و تصغيره غُنَيْمة لأنّ أسمآء الجموع الّتي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميّين، فالتّأنيت لها لازم. غَنَمٌ مُغْنَمَةٌ وَ مُغَنَّمَةٌ: كثيرة. **الغانم**: أخذ الغنيمة، جمعه: الغانمون. و منه الحديث: «الرّهن لمن رهنه، له غُنْمُهُ و عليه غُرْمُه» غُنْمُهُ: زيادته و نماؤه و فاضل قيمته، و «غُرْمه» عكس «غُنْمُه».

الغُنْم: الظّفر بالغَنَم، ثمّ استعمل في كلّ ما يظفر به و ناله من جهة العدوّ أو غيرهم أو بالمكاسب و الكنوز و نحوها كما جآء في بحث الخمس.

الغُنْم بالغُرْم أي مقابل، فكما أنّ المالك يختصّ بالغُنم و لا يشاركه فيه أحد، فكذلك يتحمّل الغُرْم وحده. و من الحديث: «مَن لَه الغُنم فعليه الغُرم».

قيل: «الغنيمة: ما يؤخذ من المحاربين عنوة، و الحرب قائمة، و الفيء: ما نيل منهم بعد أن تضع الحرب أوزارها، و النّفل: ما ينفله الغازي أي يعطاه زائداً على سهمه و نصيبه، و جمعها: غنآئم».

كلّ شيء مظفور به من المكسب و غيره فإنّه يسمّى غُنْماً بالضّمّ، و مَغْنَماً و غَنيماً و غنيمةً.

المَغْنَم: الغنيمة، جمعه: مغانم. المَغنَم البارد أي الطّيّب. يقال: مَغْنَمٌ باردٌ و غنيمةٌ باردةٌ. و في الحديث: «الصّوم في الشّتآء الغنيمة الباردة» إنّما سمّاه غنيمة لما فيه من الأجر الكثير و الثّواب الجزيل.

الغنّام – فعّال للمبالغة –: صاحب الغنم و راعيها، و كثير الغنآئم.

غَنَّمَهُ كذا: نقّله إيّاه أي أعطاه إيّاه زائداً على نصيبه.

و أغنم الشّيء: جعله له غنيمة.

تغنّمه و اغتنمه: عدّه غنيمة، و انتهز غنمه. و تغنّم فلان: اتّخذ غَنَماً، مثل تأبّل: إذا اتّخذ إبلاً. يقال: فلان يتغنّم الأمر: أي يحرص عليه كما يحرص على الغنيمة. و فلان يغتنم وقته: يعدّه غنيمة لنفسه و لا يضيعه، و يغتنم فرصته أي لا يضيعها.

في المفردات: الغُنْم: إصابته و الظَّفَرُ به، ثمّ استعمل في كلّ مظفور به من جهة العدى و غيرهم.

و في النّهاية: الغنيمة و الغُنْم و المَغْنَم و الغنآئم: و هو ما اُصيب من أموال أهل الحرب، و أو جف عليه المسلمون بالخيل و الرّكاب.

و في مجمع البيان: قال الطّبرسي المازندراني في قوله تعالى: «و اعلموا أنّما غنتم من شيء» الأنفال: ٤١): الغنيمة ما اُخِذَ من أموال أهل الحرب من الكفّار بقتال و هي هبة من اللّٰه تعالى للمسلمين، و الفيء ما اُخِذَ بغير قتال... و هو المرويّ عن أئمّتنا عليهم‌السّلام. و قال قوم: الغنيمة و الفيء واحد».

و في مجمع البحرين: قال: «الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة، ولكن اصطلح جماعة على أنّ ما اُخِذَ من الكفّار إن كان من غير قتال فهو فيء، و إن كان مع القتال فهو غنيمة، و إليه ذهب الإماميّة و هو مرويّ عن أئمّة الهدى عليهم‌السّلام. كذا قيل، و قيل: هما بمعنى واحد. ثمّ اعلم أنّ الفيء للإمام خاصّة، و الغنيمة يخرج منها الخمس، و الباقي بعد المؤن للمقاتلين و من حضر، هذا. و قد عمّم فقهآء الإماميّة مسئلة الخمس، و ذكروا أنّ جميع ما يستفاد من أرباح التّجارات و الزّراعات و الصّناعات زائداً عن مؤنة السّنة و المعادن و الكنوز و الغوص، و الحلال المختلط بالحرام، و لا يتميّز عند المالك و لا يعرف قدر الحرام، و أرض الذّمّي إذا اشتراها من مسلم، و ما يغنم من دار الحرب، جميعه يخرج منه الخمس هذا».

ثمّ قال: المَغْنَم و الغنيمة: ما اُصيب من المحاربين من أهل الشّرك عنوة. و الفيء: ما نيل منهم بعد أن تضع الحرب أوزارها».

و المعنوي من المادّة:

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه‌السلام﴾: «ألاو إنّ شرائع الدّين و احدة، و سبله قاصدة، من أخذ بها لحق و غنم، و من وقف عنها ضلّ و ندم» الخطبة: ١١٩).

و فيه: قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ ﴿عليه‌السلام﴾: «إنّ اللّٰه سبحانه جعل الطّاعة غنيمة الأكياس عند تفريط العَجَزَة» الحكم المنسوبة: رقم: ٣٢٣).

٥١- مكّة- ١٤٤٩

مَكَّ الصّبيّ ما في ضرع أُمّه يَمُكُّهُ مَكّاً- من باب نصر- نحو مَدَّ يَمُدُّ مَدّاً-: مصّه جميعه إذا استقصى ثدي أُمّه بالمصّ. و الملكّ: مصّ الثّدي، و مَكَّ الفصيل ما في ضرع أُمّه: امتصّ جميع ما فيه و شربه كلّه. و يقال: مَكَّ فلانٌ، المُخَّ: مصّه جميعه، و مَكَّ العَظْمَ: مصّ ما فيه من المُخّ، و مَكَّ الشّيءَ: أهلكه. و مكّ غريمه: استقصى عليه و لم يياسره. الملكّ: النّقص والهلاك.

مكّة: البلد الحرام، و قد اختلفت الكلمات في تسميتها:

١- سمّيت بمكّة لأنّها كانت تَمُكُّ مَن قصد بها سوءاً أو ظلم أهلها أي تدقّه و تهلكه كما دقّت أصحاب الفيل و أهلكت أبرهة.

٢- سمّيت بذلك لأنّها من المكاكة و هي اللبّ والمخّ الّذي في وسط الأرض، سمّيت بها لأنّها وسط الأرض و لبّها و خالصها كالمخّ الّذي هو أصل ما في العظم.

٣- سمّيت بها لأنّها تنقض الذّنوب و تنفيها من طاف بها و عمل بمناسكها.

٤- سمّيت مكّة لقلّة مآئها، و ذلك أنّهم كانوا يمتكّون المآء فيها أي يستخرجـونه. وقال الرّاجز:

يا مكّـة، الفـاجِرَ مُكّـي مَكّاً - و لا تَمُكّي مَذْ حِجاً وَ عَكاً

٥- سمّيت بها لأنّ الملكّ: الازدحام كالبكّ، و منه سمّيت مكّة لازدحام النّاس فيها قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «سمّيت مكّة لأنّ اللّه تعالى مدّ الأرض من تحتها».

و قال الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾: «سمّيت مكّة مكّة لأنّ النّاس كانوا يمكّون فيها» وقال الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق﴿عليه السلام﴾: «موضع البيت بكّة، و القرية مكّة».

قال اللّه تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم» الفتح: ٢٤). و قد كانت مكّة المكرّمة مولد رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال الإمام على﴿عليه السلام﴾: «مولده بمكّة و هجرته بطيبة».

المُكاك و المُكاكة: ما يُمَكّ، و هو مادّة تملأ الفراغ الكائن في وسط العظام الطّويلة تسمّيها العامّة نخاعاً. و المُكاك و المُكاكة: المُخّ لأنّه يُمَكّ. يقال: خَرَجَتْ مكاكتُه: مُخُّهُ.

المكّوك: مكيال معروف لأهل العراق، يختلف مقداره باختلاف اصطلاح النّاس عليه في البلاد، يُكال كالصُّواع. و طاس يشرب فيه، أعلاه ضيق و وسطه واسع، جمعه مكاكيك. و قيل: المكّوك: مكيال يسع صاعاً و نصف صاع و نحوه، آلة في الحياكة.

ومنه حديث ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: «صواع الملك» يوسف: ۷۲) قال: كهيئة المكّوك. و كان للعبّاس مثله في الجاهليّة يشرب به. و منه: «إمرأتي حلبت لبنها في مكوك فاسقت جاريتي».

المكّوك: اَلْمُدّ. و منه الحديث: «إنّ رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ كان يتوضّأ بمكّوك، و يغتسل بخمسة مكاكيك».

المكّان: مثل المَصّان و المَلْجان و هو الّذي يرضع الغنم من لؤمه، و لايحلب بخلاً.

المكّانة: الأَمَة.

مَكمَكَ المُخَّ: مصّه جميعه، و مكمك فلان: تد حرج في المشي.

تمكمك العظم: امتصّ ما فيه من المخّ. إمرأة متمكمكة و مَكْماكة: كمكامة و هي القصيرة المجتمعة الخلق.

إمتكّ الفصيل ما في ضرع اُمّه: شربه كلّه، و امتكّ العظم: مصّ ما فيه من المخّ كلّه.

تمكّك المُخَّ: مصّه جميعه، و تمكّك غريمه، و عليه: ألحّ. و في الحديث: «لاتمكّكوا على غرمآئكم» لاتلحّوا عليهم إلحاحاً يضرّ بمعايشهم و لاتأخذ و هم على عسرة، وارفقوا بهم في الإقتضاء و الأخذ، و انظروهم إلى ميسرة و لاتستقصوا.

و مَكَّ الطّآئرُ بسلحه: رمى به. و المُكّآء: طآئر.

٤۷- الوطأ- ١٦٨٠

و اعلم أنّ مادّة الوطأ- معتلّ الفاء الواويّ و مهموز اللام- قد جآء ماضيها على ثلاث أبواب، و مضارعها على أربعة أبواب لمعانٍ:

ألف: وَطَأَ فلانٌ عَدُوَّه يَطَؤُهُ وَطْأً – من باب نصر –: أوقع به و أباده و أهلكه.

قال اللّٰه تعالى: «و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تـعلموهم أن تَـطَؤُهم» الفتح: ٢٥) أي تقعوا بهم و تبيدوهم و تهلكوهم.

ب: وَطِىَء الشَّىءَ برجله يطأه وَطْأً – من باب علم –: علاه بها و داسـه، وَطِـئَه الإنسان أو الحيوان: داسه بقدمه أو قدميه.

قال اللّٰه سبحانه: «و أورثكم أرضهم و ديـارهم و أمـوالهـم و أرضاً لم تـطؤها» الأحزاب: ٢٧) أى تدوسوها.

في نهج البلاغة: قال مـولى المـوحّدين إمـام المـتّقين أمـير المـؤمنين عـليّ بـن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ «للّٰه أنتم أتتوقّعون إماماً غيري يطأبكم الطّريق و يرشدكم السبيل» الخطبة: ١٨١).

يقال: بنو فلان يطأهم الطّريق أي ينزلون بقربه، فيطأهم أهله. و وَطِـىَء الشّيءَ: هيّأه. الوطأ في الأصل: الدّوس بالقدم، فسمّى به الغزو و القتل، لأنّ من يطأ على الشّيء برجله، فقد استقصى في هلاكه و إهانته.

ج: وَطِيءَ الفَرَسَ يطئه وَطْأً – من باب حَسِبَ –: ركبه، و وَطِـيءَ أرضَ العـدوّ: دخلها. و لكنّهم فتحوا عين المضارع، و أصله الكسر.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «و لايطئون موطئاً يغيظ الكفار» التّوبة: ١٢٠) أي و لايدخلون أرض العدوّ. و «موطئاً» بمعنى «وطأً» أو إسم مكان للوطأ.

و وَطِيءَ الرّجل إمرأته: جامعها و نكحها فهي موطؤة. و الوطيء: كناية عن الجماع، صار كالتصريح للعرف فيه، و إن كان شاملاً لكلّ من دخل الفرج، حيواناً أو إنساناً، ذكراً أو أُنثىً.

د: وَطُؤَ الموضع يَوْطُوءُ وَ طْأةً و وُطُؤةً – من باب كَرُمَ –: صار وطيئاً.

و يجيىء الوَطْأ و الوَطْي لمعانٍ:

وطأه: هيّأه و دمّثه و سهّله و لانه. و الوطيء من كلّ شيء: ما سهل و لان، و فراش وطيء: لايؤذي جنب النّائم. الوطيء: السّهل من النّاس و الدّواب و الأماكن.

و في حديث النّسآء: «و لكم عليهنّ أن لايُوطِئن فروشكم أحداً تكرهونه» أي لا يأذن لأحد من الرّجال الأجانب أن يدخل عليهنّ، فيتحدّث إليهنّ.

وَطِيءَ قدمه: ثبت و بَعُدَ عن الاضطراب. يقال: ثبّت اللّٰه و طأته: قدمه.

قال اللّٰه تعالى: «إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأً و أقوم قيلاً» المزمّل: ٦) أي أشدّ ثبات قدم و بُعداً عن الإضطراب. و قيل: أشدّ كلفةً و مشقّةً. و قيل: هي أوطأ للقيام و أسهل للمصلّي من ساعات النّهار لأنّ النّهار خلق لتصرّف العباد فيه، و الليل خلق للرّاحة والنّوم و الخلوّ من العمل، فالعمل فيه أسهل.

الوَطيّ: السّهل الليّن، و المنخفض و المذلّل للتّقلّب عليه. و رجل وطيء الخُـلق والجانب: ليّن على المثَل. و في الخبر: «أقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً المُوَطّئون أكنافاً» أى جوانب و نواحي...

الوطيئة: تمر يخرج نواه و يُعجَنُ بلبن و الأقط بالسّكر و الغرازة فيها القديد بالكعك، و العصيدة النّاعمة. و دابّة و طيئة: لاتحرّك راكبها.

المَوْطأ و المَوْطىء: موضع القدم. المُوَطّأ- إسم مفعول- : رجل سهل دمث كريم مضياف، أو يتمكّن في ناحيته صاحبه غير مُؤذىً و لا ناب به موضعه. هو مُوَطّأ العقب أي يُتَّبَع، و تُوطَأ عقبه، كأنّه تداس عقبه من ازدحام القوم و رآئه.

الواطئة: المارّة و السّابلة سُمُّوا بذلك لوطئهم الطّريق، و سقاطة التّمر. و الوَطَأة: القوم المارّون في الطّريق. و الوَطَأَة: السّابلة.

الوَطاء- كسحاب -: ما انخفض من الأرض بين النّشاز و الإشراف.

الوطاء- بكسر الواو فتحها -: خلاف الغطاء أي ما تفترشه.

الوَطَأة و الوُطُوءة- مصدر و إسم -: السّهولة و اللـين. يـقال: أنـا أُحبّ وطأة العيش»: لينه. و يقال: «فيه و طأة الخُلق، و وضاءة الخَلْق».

الوَطْأة: المرّة، و موضع القدم، و الضّغطة أو الأخذة الشّديدة. و في الحديث: «اللهمّ اشدد لنا و طأتك على مضر» أي خذهم أخذاً شديداً. و ذلك حـين كـذّبوا رسـول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فدعا عليهم، فأخذهم اللّٰه بالسّنين.

الطَّأَة و الطِّئَة: الوَطَأَة، و الهاء عوض عن الواو و فيهما. و في الدّعاء: «نعوذ باللّٰه من طِئَة الذّليل» أي من يطأني و يحقرني.

أوْطَأَ الأرض و بالأرض ايطاءً: جعله يطأها، و أوطأفرسه: حمله عليه، فوطئه: ركبه. أوطأه العِشوة و عَشْوة: ركبه على غير هدى من الطّريق. أو طأه على الأمر: وافقه.

وَطَّأَ الشّيءَ برجله توطئة: داسه، و وطّأ الفراشَ: دمّثه و سهّله، و الأمَر: مهّده، والموضِعَ: صيّره وطيئاً. وَ طَّأَ اللّٰه الأرضَ: جعلها منخفضاً بين النّشاز و الإشراف. والشّيءَ: هيّأه. و وَطَّأَ الشّاعر في الشّعر: كرّر القافية فيه لفظاً و معنىً.

و اطَأَه على الأمر مواطاة: ساهمه و وافقه من الوفاق. يقال: فلان يواطيء إسمه إسمي: يطابقه.

قال اللّٰه تعالى: «ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّٰه» التّوبة: ٣٧) ليوافقوها.

توطّأبرجله توطّئواً: داسه، و على الأمر: وافقه.

تواطأه على الأمر تواطؤاً: وافقه، و تواطأ القومُ على الأمر: توافقوا.

إتَّطَأَ اَلشّيءُ إتِّطاء و ايطآء و اِيتطِآء: تسهّل و تهيّأ و الأمُر: استقام، و بلغ نهايته. إستوْطَأَ الشّيءَ استيطآء: وجده وطيئاً.

قال بعض المحقّقين من القدمآء: إنّ الوطأ في القرآن الكريم جآء لأربعة معانٍ:

أحدها – الملك و التسلّط كقوله تعالى: «و أرضاً لم تطؤها» الأحزاب: ٢٧) أي تملكوها و تسلّطوا عليها.

ثانيها – القتل كقوله سبحانه: «لم تعلموهم أن تطؤهم» الفتح: ٢٥) أي تقتلوهم.

ثالثها – المضيّ و العبور من مكان كقوله عزّوجلّ: «و لايطئون موطئاً يغيظ الكفّار» التّوبة: ١٢٠).

رابعها – السّكينة و الطّمأنينة و الثّبات، كقوله جلّوعلا: «هي أشدّ وطئاً و أقوم قيلاً» المزّمّل: ٦).

٢٩- العرّة و المعرّة - ٩٩٤

عَرَّ الجَمَلُ يَعُرُّ عَرّاً و عُرّاً- مضاعف من باب نصر نحو مدّ -: جَرِبَ و قَبُحَ فهو عَرٌّ. و عرّت الابل: جَرِبَتْ. يقال: جَمَلٌ عارٌّ: جَرِبٌ. عَرَّتِ الإبلُ و عُرَّت- مجهولاً -: أصابها دآء العُرّة، فهي معرورة، و عرَّ فلانٌ قومَه: لطّخهم بالقبيح. و عَرَّ غَيْرَه: سبّه أو ظلمه، أو أسآءبه، أو أصابه بمكروه و شرّ. و عَرَّ أرْضَهُ: سَمَّدَها، و حاجَتَهُ بك: أنزلها، و عَرَّ الظّليمُ: صاح، و عَرَّسَنامُ البعيرِ عَرَراً: صَغُرَ أو قَلَّ أو ذهب فهو أعرّ، و هي عرّآء.

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ «أو يَعُرَّ بأمر فعله غيره» الخطبة: ١٥٢) قال ابن أبي الحديد في شرحه: «عرّه بكذا يُعرّه عَرّاً أي عابه و لطّخه، أو يروم بلوغ حاجة من أحد بإظهار بدعة في الدّين كما يفعل أكثر النّاس في زماننا أو يكون ذاوجهين».

المَعَرَّةُ: أصلها موضع العرّ: الجرب، المعرّة من الأمر: المكروه القبيح، و هو من النّقص، و العرّ: الجرب، و العيب و الشّرّ.

قال اللّه عزّوجلّ: «فتصيبكم منهم معرّة» الفتح: ٢٥) أي تلزمكم الدّيات...

المَعَرَّة - مَفْعَلَة- من عرّه يعرّه -: إذا دهاه بما يكرهه، و يشقّ عليه بغير علم.

المَعَرَّة: المسآءة، و الإثم، والأمر القبيح المكروه، و الأذى، و الغُرم و الجناية و كوكب دون المجرّة. و منه: «أنّ رجلاً سئل آخر عن منزله، فأخبره أنّه ينزل بين حيّين من العرب، فقال: نَزَلْتَ بين المعرّة و المجرّة» المجرّة الّتي في السّمآء: البياض المعروف، والمعرّة: ماورآئها من ناحية القطب الشّمالي، سمّيت معرّة، لكثرة النّجوم فيها، أراد بين حيّين عظيمين ككثرة النّجوم... و أصل المعرّة: موضع العرّ و هو الجرب، و لهذا سمّوا السّمآء الجربآء لكثرة النّجوم فيها تشبيهاً بالجرب في بدن الإنسان.

المَعَرّة: قتال الجيش بدون إذن الأمير. و في الدّعآء: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك من معرّة الجيش». و المَعَرَّة: المكروه، و تلوّن الوجه غضباً، والعيب و الشّدّة، و المسبّة و منه: «نعوذبك من معرّة اللكن» و مَعَرَّة الجيش: أن ينزلوا بقوم، فيأكلوا من زروعهم شيئاً بغير علم. و المَعَرَّة: بلد.

الحسّيّات من المادّة كثيرة، غير متباعدة، فمنها: العُرّ: الخارج من فضلات الإنسان

والحيوان و النّبات، و منها: صوت الظّليم، و منها: الجرب في الإبل، و في النّبات: العقدة في العصا. و عرعرة الجبل: غلظه و معظمه و أعلاه. و العرعر: شَجَرٌ سمّي به لحكاية صوت خفيفها، و عَرعار: لُعْبَة لهم، حكاية لصوتها.

العَرُّ و العُرُّ: الجرب الّذي يَعُرُّ البدن أي يعترضه. و منه قيل للمضرّة: مَعَرّة تشبيهاً بالعُرّ الّذي هو الجرب. و العَرّ: الغلام. و العَرَّة: بهاء الجارية.

ومن هذه الحسّيّات تتولّد معان باعتبارات، ففيها الشّدّة المادّيّة و المعنويّة، و فيها القذر، و منه النّقص، و فيها الارتفاع، و يجيء منه معنى الرّفعة و السودد، و هكذا تتولّد المعاني بتعدّد الاعتبارات، و يلحظ مع هذا ما يمكن من قلب المضعف ناقصاً فيكون بين عرّ و عرى ما بينهما من قرب.

عَرَّ الطّيرُ يَعُرُّ عَرَّةً: سلح. و عرّ فلاناً: إذا لقّبه بما يشينه، و عُرّ بعيرَك: أدنه إلى المآء.

العارور و العارورة: الرّجل القَذِر و المشوم، و الّذي يَعُرُّ قوماً أي يدخل عليهم مكروهاً يلطّخهم به، و الجَمَلُ لا سنام له.

عِرار: إسم رجل، و عرار: نبت طيّب الرّائحة. قال الشّاعر:

تمتّع من شميم عِرار نجد فما بعد العشيّة من عِرار

العَرار: القَوَد، و كلّ شيء بَاءَ بشيء، و بهار ناعم أصفر، طيّب الرّيح. وَلَدٌ عَرار أي مُعَجّلٌ عن الفطام. و هي عَرارة. عَرار: إسم بقرة. ومنه: بائت عَرار بكَحْل و هما بقرتان انتطحتا، فماتتا جميعاً أي بائت هذه بهذه يُضرب بكلّ مستويين.

العِرار: حكاية خفيف الرّيح، و منه العَرار لصوت الظّليم، حكاية لصوتها، و قد عارّ الظّليم. و العِرار: واد من أودية نجد.

العَرارة: الجرادة و الشّدّة و الرّفعة و الكثرة، و السّودد، و النّسآء اللّاتي يلدن الذّكور، ومنه: «تزوّج في عِرارة نسآء» و سوء الخلق. هو في عَرارة خير أي أصل خير. و عَرارة: موضع.

العُرار: الإثم والجناية.

العُرّ: ذرق الطّير، و الغلام، و الجرب، و قروح في أعناق الفصلان، و دآء يتمعّط منه

شعر الإبل. و عُرّا: الوادي: شاطئاه. و العُرّ: جبل عدن.

العَرَرُ: الجرب، و صغر سنام البعير. و قيل: قلّته. و قيل: ذهابه.

العُرّى: المعيبة من النّسآء. و رُوِيَ المغيبة أي الّتي غاب زوجها.

العَرَّة: المرّة، و الشّدّة في الحرب، و الخَلّة القبيحة، و العيب. يقال: «هو يُظهر العَرَّة، و يدفن الغَرّة» و المعجّلة عن الفطام.

العُرَّة: الجرَب، و العُرُّ للدّآء المذكور، و ذوق الطّآئر، و البعر و السّرجين، و عذرة الإنسان، و شحم السّنام، و الإصابة بمكروه، و الجرم، و ما يعترى الإنسان من الجنون. ومنه يقال: «به عُرّة» أي جنون. عُـرّة النّسآء: فـضيحتهنّ، و سـوء عـشرتهنّ. و في الحديث: «إيّاكم و مشاورة النّسآء فإنّها تظهر العُرّة» هي القذر و عَذِرَة النّاس فاستعير للمساوي و المثالب. العُرَّة: قذر. يقال: فلان عُرّة: قذر. و العُرّة: الأبنة في العصا، جمعها عُرَر. و عُرّة الرّجال: شرّهم.

العُرُر: الجرَب.

العَرير: الغريب في القوم. و في حديث حاطِب: «لمّا كتب إلى أهل مكّـة ليـنذرهم مسير رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ إليهم، فلمّا عُوتِبَ فيه، قال: كنت رجلاً عريراً في أهل مكّة» أي دخيلاً غريباً و لم أكن من صميمهم.

الأعَرّ: الجرَب من النّاس و الجِمال، و هي عرّآء، جمعه عُرٌّ. حمار أعرّ: سمين الصّدر و العنق. و كبش أعرّ: لا ألية له. و عرّ الجمل: إذا نقص.

العَرّآء: الجارية العذرآء.

نخلة مِعرار: جربآء و هي الّتي يصيبها مثل الجرب.

المَعْرور: المقرور، و من أصابه ما لا يستقرّ عليه، و المصاب بدآء العُرّة.

المَعْرورة: الّتي أصابها عين في لبنها. و نخلة معرورة: مُزَبّلة بالعُرَّة. و قد رُوِيَ عن الإمام الصّادق﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: «كلّ سبع تمرات من نخلة غير معرورة» أي غير مُزَبَّلة بالعُرّة.

المِعرار: الجرَب. و منه الحديث: «إنّ مشترى النّخل يشترى على البـايع ليس له

معرار» هي الّتي يصيبها مثل العَرّ و هو الجرَب.

أَعَرَّتِ الدّار إعراراً: صارت ذات عُرّة.

عارَّ الظّليمُ مُعارّة و عِراراً: صاح، و في المكان تمكّث، و قاتله و آذاه.

إعترّ و اعترّ به اعترارا: اعترض للمعروف من دون أن يسئل. عرّه و اعترّه كلّها: أتاه و قصده.

قال اللّه تعالى: «و أطعموا القانع و المعترّ» الحجّ: ٣٦) القانع: هو الّذي يسئل و يتذلّل في المسئلة، و المعترّ: هو الّذي يتعرّض للمسئلة و لايسئل.

تعارّ: سهر. و من حديث سلمان الفارسي رضوان اللّه تعالى عليه: «كان إذا تعارّ من اللّيل قال كذا و كذا» أي إذا استيقظ، و لايكون إلّا يقظة مع كلام. التّعارّ: السّهر والتّقلّب على الفراش ليلاً.

استعرّهم الجرب: فشابينهم. و استعرّت عليكم الغنم: ندّت و استعصت.

٦٤- الحلق- ٣٥٢

حَلَقَ رَأْسَهُ يَحْلِقُهُ حَلْقاً و حَلَقاً و تَحْلاقاً- من باب ضرب-: أزال شَعْرَه.

الحَلْق: العضو المعروف، و هو مساغ الطّعام و الشّراب في المريّ.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب﴿ع﴾: «فرأيت أنّ الصّبر على هاتا أحجى، فصبرت و في العين قذىً، و في الحلق شجاً أرى تراثي نَهْباً» الخطبة الثّالثة.

و أصل الحَلْق: قطع الحلق، ثمّ استعمل في قطع الشّعر من الإنسان، و جزّه من الحيوان. و يقال: رأس حليق و لحية حليق أي محلوق. و جمع الحَلْق: أحلاق و حلوق و حُلُق.

قال اللّه تعالى: «و لاتحلقوا رؤوسكم حتّى يبلغ الهدي محلّه» البقرة: ١٩٦)

و لمادّة الحلق معانٍ كثيرة نشير إلى ما يسعها المقام و نحن على جناح الاختصار:

حَلَقَ الرَّجُلَ حَلْقاً: ضربه، فأصابه حَلْقَه، و حَلَقَ الحَوْضَ: ملأه، و حَلَّقَ الإناء من

الشّراب: امتلأه، و ذهب ماؤه. ضدّ. و حَلَقَ الشَّيءَ قدّره، و حَلَقَ القومَ بعضهم بعضاً: قتل بعضهم بعضاً، و حَلَقَتِ السَّنَةُ القومَ: أصابتهم بشرّ، فهي حَلْق، و حَلَقَتِ السَّنَةُ كُلَّ شيء: استأصلته و أهلكته، و حَلَقَ الشَّيءَ حَلْقاً: قشره. و حَلِقَ حَلَقاً: شكى حَلْقَهُ، وَ حَلِقَ قضيب الفرس و الحمار يَحْلَقُ حَلِقاً: حمّر و تقشّر. و حَلَقَ الطّائر في جوّ السّمآء: صعد و ارتفع و استدار، و حَلَقَ ببصره إلى السّمآء: رفعه. و حَلَقَتِ النّاقة ضرعـها: ارتفع لبنها.

الحُلُوقُ من الأرض: مجاريها و أوديتها، تشبيهاً بالحلوق الّتي هي مجارى الطّعام و الشّراب و كذلك حلوق الآنية و الحياض. يقال: خذوا في حلوق الطّريق: في مضايقها.

الحَلْق: شجر – كالكرم – يرتقي في الشّجر، و له ورق كورق العنب، حامض، يطبخ به اللّحم، و له عنا قيد صغار كعنا قيد العنب البرّي يحمر ثمّ يسود، فيكون مرّاً و يجعل ماؤه في العُصفر، فيكون أجود من ماء الرّمّان.

الحِلْقُ: خاتم الملك، و المال الكثير أي الماشية لأنّها تحلق النّبات كما يُحْلَقُ الشّعر.

الحَلَق: مصدر، و الإبل الموسومة بالحَلْقَة. و المُحَلَّق من الإبل: الموسوم بحلقة في فخذه أو في أصل أُذُنه. المُحَلِّق: الحُلْقان. و الحُلْقان من البُسر: ما بلغ الأرطاب ثُلُثَيْه.

رأسٌ حَلِقٌ: لا شعر فيه كأنّه حُلِقَ.

الحَلْقَة: كلّ شيء استدار كحلقة الحديد و الفضّة و الذّهب. و حَلْقَة الإنآء: مابقي بعد أن تجعل فيه من الشّراب أو الطّعام إلى نصفه. حلقة الحوض: امتلائه، و دون الامتلاء، وسمة الإبل، و حلقة الباب: دائرة مفرغة تُعَلَّقُ به ليُقرع بها، حلقة القوم: دآئرتهم. يقال: سئله في حلقته: و هو بين طلبته المحيطين به كالحلقة. و في الدّعآء: «و حلقة بلاء قـد فككتها» على الاستعارة استعيرت للبلاء إذا طافت بالإنسان و استدارت عليه.

و في حديث صلح خيبر: «و لرسول الله ﴿ﷺ﴾ الصّـفراء و البـيضآء و الحـلقة» الحَلْقَة: السّلاح كلّها. و قيل: هي الدّروع خاصّة.

و جمع الحلقة: حِلَقٌ بكسر الحاء و فتحها في حديث الأموات: «كأنّي بهم حَلَقٌ حَلَقٌ يتحدّثون» و هي الجماعة من النّاس مستديرة كحلقة الباب و غيره. و في رواية: «أنّه

نهى عن حِلَق الذّهب» جمع حَلْقة و هى الخاتم لا فصّ لها.و في رواية اخرى: «من أحبَّ أن يُحَلَّق جبينه حلقةً من نار فليحلّقه حلقةً من ذهب» و قال أهل التّشريع: للـرَّحِم حلقتان: حلقة على فم الفرج عند طرفه، و حلقة اخرى: تنضمّ على المـاء، و تـنفتح للحيض. و قيل: إنّما الأُخرى الّتي يبال منها. يقال: وقعت النّطفة في حلقة الرّحم أي بابها و هو مجاز.

حلقة من الجبال: المنيف المرتفع، و لايكون إلاّ مع عدم نبات و هو مأخوذ من حلّق الطّآئر.

الحالق: إسم فاعل، جمعه: حَلَقَة. و الحالق: الضّرع الممتلىء، و المرتفع، المنضمّ إلى البطن لقلّة لبنه. ضدّ.جمعه: حُلَّق و حوالِق. الحالق: الضّامر، و السّريع الخفيف. يقال: جآء من حالق أي من مكان مُشرفٍ.و في الحديث: «فَهَمَمْتُ أن أرمي نفسي من حالق» أي من جبل عال. و هوى من حالق أى هلك. و المشؤوم على قومه كأنّه يحلقهم أي يقشرهم .و الحالق من الكرم و الشّرى و نحوه: ما استوى منه، و تعلّق بالغضبان.

الحالقة: قطيعة الرّحم و النّظام. الحالقة: القول السّيّئ.و السَّنَة الشّديدة الّتي تحلق كلّ شئ. الحالقة: المشؤوم على قوم كأنّه يحلقهم. فيقال: سيف حالوقة أو رجل حالوقة أي ماضٍ. جمعها: حوالق. و في الحديث: «اتّقوا الحالقة» و هي الخصلة الشّومة الّـتي مـن شأنها أن تحلق أى تهلك و تستأصل الدّين و الايمان كما يستأصل الموسى الشعر.

الحلاّق: الّذي يحلق شعر الرّأس.

المِحْلَق: آلة الحلق من الموسى و نحوه .و الخَشِن من الأكسية جدّاً كأنّه يحلق الشّعر.

المحالق: الأكسية الخشنة الّتي تحلق الشَّعر بخشونتها.

الحِلاق: الحلْق. يقال: رأسٌ جيّد الحِلاق أى الحلق.

الحُلاق و الحَوْلَق: وَجْعٌ في الحلق.

الحُلاقة: ما حُلِقَ من شعرى المَعْزى.

الحِلاقة: خِرْقَة الحلاّق.

الحليق: المحلوق.

الحالوق: الموت. و الحالوقة من الرّجال و السّيوف: الماضي. الحَلاق: المنيّة. و الحَوْلق و الحيلق: من أسمآء الدّاهية.

أحلق الحوض أو الإنآء إحلاقاً: ملأه.

حلّقه تحليقاً: يفيد المبالغة و التكثير في الإزالة: فهو مُحَلَّق و هـم مُحَـلَّقون. حَـلّقُوا رؤوسهم: مثل حَلَقوها. و شُدِّدَ للكثرة.

قال اللّه تعالى: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّه آمنين محـلّقين رؤوسكـم و مقصّرين لاتخافون» الفتح: ٢٧) و التضعيف لكثرة من حلق.

و في حديث الحج: «اللهمّ اغفر للمحلّقين، قالها ثـلاثاً» المحـلّقون: الّـذين حـلقوا شعورهم في الحجّ و العمرة. و قد خصّهم بالدّعآء دون المقصّرين، و هم الّذين أخذوا من أطراف شعورهم و لم يحلقوا، لأنّ أكثر مَن أحرم مع رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لم يكن معهم هَدْيٌ، و كان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قد ساق الهدي، و من معه هدي، فإنّه لايحلق حـتّى ينحر هديه، فلّما أمَرَ﴿ﷺ﴾ مَن ليس معه هَدْيٌ أن يحلق و يُحلّ، وجدوا في أنفسهم من ذلك، و أحبّوا أن يأذن لهم في المُقام على إحرامهم حتّى يُكمِلوا الحجّ، فلمّا لم يكن لهم بدّ من الإحلال كان التّقصير في نفوسهم أخفّ من الحلق، فمال أكثرهم إليه، و كان فيه من بادر إلى المطاوعة، و حلق و لم يراجع، فلذلك قدّم المحلّقين و أخّر المقصّرين.

حَلَّقَ الطّائر: ارتفع في طيرانه و استدار كالحلقة. و في الحديث: «نهـي عـن بـيع المحلّقات» أى بيع الطّير في الهواء. التحليق: الارتفاع. وتحليق الشّمس من أوّل النهار ارتفاعها، و من آخره انحدارها.

و حَلَّقَ الإنآءُ من الشّراب: امتلأ إلّا قليلاً، كأنّ ما فيه من المآء انتهى إلى حَلْقه. و حَلَّقَ النّجم: ارتفع و حَلَّقَتْ عيون الإبل: غارت، و حَلَّقَ القمر: صارت حوله دوّارة. و حَلَّقَ بالشّيء إليه: رمى به إليه. و حَلَّقَ الشّيءَ: جعله كالحلقة. و في الحديث: «و حَلَّقَ بإصبعه الإبهام و الّتي تليها و عَقَدَ عشراً» أي جعل إصبعيه كالحلقة، و عَقَدَ العشرة أن يجعل رأس السّبّابة في وسط الإبهام، و هو من مواضعات الحُسّاب.

المُحلَّق من الإبل: الموسوم بحلقة في فخذه أو في أصل أُذُنه. يقال للإبل المُحَلَّقة: حَلَقٌ.

المُحلِّق: البُسر قد بلغ الأرطاب ثلثيه، والإنآء دون الملء، و الرّطب نضح، و الشّاة

المهزولة، و إسم رجل عضّته فرسه في وجهه، فتركت به أثراً على شكل الحلقة.

تحلّق القوم: جلسوا حَلْقَةً، و تَحَلَّقَ القَمَرُ: صارت حوله دائرة.

احتلق رأسه: مثل حَلَقَهُ.

١٠٣- السّوم والسيا- ٧٦٢

سامه الأمر يسومه سَوْماً و سُواماً- معتلّ العين واويّ- نحو قال- من باب نصر -: كلّفه إيّاه وسامه خسفاً: أذلّه و جشمه إيّاه، و أولاه إيّاه و أراده عليه، و أكثر ما يستعمل في السّوء و الشّرّ و الظّلم والعذاب.

قال اللّٰه تعالى: «من يسومهم سوء العذاب» الأعراف: ١٦٧) أي يكلّفهم و يجشمهم إيّاه. و في الحديث قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام): «من ترك الجهاد ألبسه اللّٰه الذّلّة و سيم الخسف» أي كُلِّفَ و أُلْزِمَ. و أصله الواو، فقلبت ضمّة السّين كسرة، فانقلبت الواو يآءً.

و قد جائت هذه المادّة لمعانٍ:

سام البائع سلعته سَوْماً و سُواماً: عرضها للبيع و ذكر ثمنها، و المشتري: طلب بيعها. يقال: فلان سام بسلعته كذا و كذا و استام.

أصل السَّوْم: الذّهاب في طلب الشّيء، و هو لفظ لمعنى مركّب: من الذّهاب و الطّلب، و أُجرى مجرى الذّهاب في قولهم: سامت الإبل فهي سائمة، و مجرى الطّلب في قولهم: سُمْتُ كذا.

سام: إذا رعى، سام: إذا طلب، سام: إذا باع، سام: إذا عذّب، و سام: إذا مرّ و مضى و خلّى. و سامت الرّيح: مرّت و استمرّت. و سامت الماشية: رعت و خرجت إلى المرعى. و سام فلان ناقَتَه على الحوض: عرضها عليه. و سامت الطّير على الشّيء: حامت.

السّيمىٰ و السّيمآء: العلامة و الهيئة الّتي يعرف بها حال الإنسان في الخير و الشّرّ، و الهداية و الضّلالة، و الصّلاح و الفساد... و أصل «السّيمىٰ»: السُّومى، قلبت الواو يآءً. قال اللّٰه تعالى: «سيماهم في وجوههم من أثـر السّجود» الفتح: ٢٩) أي عـلامتهم في وجوههم و هي الّتي تحدث في جبهة السّجّادين من كثرة السّجود، و يـفسّرها قـوله

سبحانه: «من أثر السّجود» أي من التّأثير الّذي أثره السّجود. و لذلك لُقِّبَ الإمام عليّ بن الحسين عليهما السّلام بزين العابدين و سيّد السّاجدين و ذي الثّفنات لكثرة العبادة و ظهور آثار السّجود في جبهته.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب (عليه السلام) في المؤمنين الصّادقين - : «وإنّي لَمِن قوم لاتأخذهم في اللّٰه لومة لائم، سيماهم سيما الصّدّيقين، و كلامهم كلام الأبرار...» الخطبة: ٢٣٤).

و السّيمآء في أهل النّار: سواد الوجه و زرقة العيون.

السيميا و السيميآء: العلامة، و الحسن و البهجة، يقال: له سيميا الصّلاح و سيميآؤه و السّيما: الصّورة.

قال الشّاعر:

غلام رماه اللّٰه بالحسن يافعا   له سيمياء لاتشقّ على البصر
كأنّ الثّريّا علقت فوق نحره   و في جيده الشّعرى و في وجهه القمر

السُّومَة و السّيمة - بقلب الواو يآءً -: العلامة. يقال: فيه سُومة الصّلاح و سيمته أي علامته.

السّومة: العلامة تجعل على الشّاة، و في الحرب أيضاً. و انّه لغالي السّومة و السّيمة أي السّوم.

السّوّامة: - فعّالة - للمبالغة.

المَسام: المرور السّريع.

المَسامة: خشبة عريضة غليظة في أسفل قاعدتي الباب، تسمّيها العامّة: العتبة. و عصاً من قدّام الهودج.

السّائم: الذّاهب على وجهه حيث شآء، و الّذي يرعى المواشي.

السّائمة: الماشية و الابل الرّاعية الّتي لاتُعْلَف في العطن. يقال: لهم سَوام و سآئمة و سوآئم. و في الحديث: «في سآئمة الغنم زكاة» و سامت الماشية: رعت نفسها، و سامت الرّاعية و الماشية و الغنم: رعت حيث شآءت، فهي سائمة.

السَّوام: الإبل الرّاعية. و منه: «هلك السَّوام» أي السّائمة. و السّائمة نقرتان أسفل عيني الفرس. والسَّوام: كلّ ما رعى من المال في الفلوات إذا خلّي، و سَوْمَهُ يرعى حيث شآء.

السُّوام: مصدر و طآئر.

السّام: الموت، و السّامة: الموتة. و في الحديث: «لكلّ داء دوآء إلّا السّام» أي الموت. و ألفه عن واو. ومنه حديث تسليم اليهودي على المسلمين: «السّام عليكم» يعني الموت، و هم يظهرون أنّهم يريدون السّلام عليكم، ولكنّهم يعنون الموت، و لذا قال رسول اللّه (ﷺ): «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: و عليكم» ردّاً لما قالوه عليهم.

و السّام: شجر تعمل منه، و السّام: الخيزران، الواحدة: سامة. و السّام: نقرة يُنقَع فيها المآءُ. و السّامة: السّبيكة من الذّهب و الفضّة، و قيل: عروقهما في الحجر.

سام: أحد بني نوح النّبيّ (عليه السلام) و هو أبو العرب. و سام: جبل لهذيل.

السّامة: الحفرة على الرّكية، جمعها: سِيَم -كِعنَب- و عرق في الجبل، مخالف لجبلته.

أسام الإبل يُسيمُها إسامةً: أخرجها و أرسلها للرّعي، و أسام على الرّكيّة: حفرها و أسام إليه ببصره: رماه به.

قال اللّه عزّوجلّ: «لكم منه شراب و منه شجر فيه تسيمون» النّحل: ١٠) أي ترعون إبلكم. و أسام المشترى السّلعة و استامها: طلب بيعها. و منه: «لا يسوم أحدكم على سوم أخيه» أي لا يشتري، و يجوز حمله على البايع أيضاً بأن يعرض الرّجل على المشترى سلعة بثمن، فيقول آخر: عندي مثلها بأقلّ من هذا الثّمن، فيكون النّهي عاماً في البايع و المشتري. أو يقال: هو أن يتساوم المتبايعان، و يتقارب الانعقاد، فيجيىء آخر، فيزيد في الثّمن.

ساوم السّلعة يساومها و مساومة و سِواماً: غالب بها أي عرضها بثمن، و دفع له المشتري أقلّ منه، و هكذا إلى أن يتّفقا على ثمن متوسّط بين ما يطلبه البائع، و يدفعه المشتري.

المساومة: المجاذبة بين البائع و المشتري على السّلعة، و فصل ثمنها. و منه الحديث:

«وقف على قطيع غنم يساومهم و يماكسهم». و بيع المساومة: هو البيع بما يتّفقان عليه من غير تعرّض للإخبار بالثّمن، سوآء علم المشتري بالثّمن أم لا. و تساوما في السّلعة بمعنى: ساوما.

سوّم الفرس يسوّمه تسويماً: أعلمه بسومه، و سوّم الشّيء: جعل عليه علامة يعرف بها، فهو مُسَوِّم، و هم مُسَوِّمُون، و الشّيء: مُسَوَّم، و هي مُسَوَّمة. المُسَوَّم: المُعْلَمُ بعلامة يعرف بها.

قال اللّه تعالى: «يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين» آل عمران: ١٢٥) أي معلمين أنْفُسَهُم بعلامة يعرفون بها في الحرب، أو خُيُولَهُم بعلامات أو مرسلين لها. و قال رسول اللّه(ﷺ) يوم بدر لأصحابه: «سَوِّمُوا فإنّ الملائكة قد تسوّمت» أي أعْلِمُوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضاً.

و في الحديث: «سوّمني بسيمآء الايمان» أى أظهر علامة الايمان في أقوالي و أفعالي و سآئر أحوالي... و مثله: «عليه سيماء الأنبياء».

و المُسَوَّم: الحَسَنُ الخُلْقُ.

و قال اللّه تعالى: «مُسَوَّمةً عند ربّك» هود: ٨٣) أي معلمة بعلامة أمثال الخواتيم... وسوّم فلاناً: خلّاه، و سوّمه لما يريده، و في ماله: حكّمه و صرّفه. و سوّم على القوم: أغار عليهم فعاث فيهم. و من أمثال العرب: «عَبْدٌ سُوِّمَ» أي خُلِّيَ و ما يريده، يقولونه في اللئيم إذا أُطلِقَتْ يده. و سَوَّم الخيل: أرسلها مطلقةً.

قال اللّه سبحانه: «و الخيل المسوّمة» آل عمران: ١٤) أي المرسلة للرّعي مطلقة، أو المعلمة ذات الغرّة و التحجيل، أو المحسنة الحسان، فهي من السّيما بمعنى الحسن.

تسوّم: اتّخذ السّومة أي العلامة.

استام بالسّلعة و عليها استياماً: غالى. استامه إيّاها و عليها: سئله سومها أي تعيين ثمنها.

يسوم: جبل متّصل بجبل فرقد لاينبتان غير النّبع، و الشّوْحَط، تأوي إليهما القرود، و هو ممنوع من الصّرف بالعلميّة و وزن الفعل.

١١- الزّرع- ٦٢٨

زَرَعَ الرَّجُلُ البَذْرَ في الأرض يَزْرَعُهُ زَرْعاً و زِراعةً- من باب منع- : طرح بذره فيها، فهو زارع، و هم زارعون و زُرّاع بالتّسبيب. و زرع الأرض: ألقى فيها البذر و أثارها للزّراعة.

قال اللّٰه تعالى: «كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار» الفتح: ٢٩).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾: «يرهبها الزُّرّاع في زرعهم».

الزّرع: ما استنبت بالبذر تسميته بالمصدر، و منه يقال: «حصدت الزّرع» أي النّبات. و الزّرع: الإنبات، و حقيقة ذلك بالامور الإلهيّة دون البشريّة. و زرع اللّٰه النّبات: أنبته و أنماه.

قال اللّٰه عزّوجلّ: «أفرأيتم ما تحرثون ءأنتم تزرعونه أم نحن الزّارعون» الواقعة ٦٣-٦٤) فقد نسب اللّٰه تعالى الحرث إليهم، و نفى عنهم الزّرع، و نسبه إلى نفسه، و إذا نُسِبَ إلى العبد فلكونه فاعلاً للأسباب الّتي هي سبب الزّرع، كما تقول: أنبت كذا: إذا كنت من أسباب نباته. كما أنّ المنيّ من الإنسان و الخلق من اللّٰه جلّ وعلا: «أفرأيتم ما تمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» الواقعة: ٥٨-٥٩) و إن كان المنّي أيضاً من خلق اللّٰه كالبذر نفسه.

و في الحديث عن يزيد بن هارون الواسطي، قال: سئلت أبا عبداللّٰه ﴿عليه السلام﴾ عن الفلّاحين؟ فقال: هم الزّارعون كنوز اللّٰه في أرضه، و ما في الأعمال شيء أحبّ إلى اللّٰه من الزّراعة، و ما بعث اللّٰه نبيّاً إلّا ذرّاعاً إلّا إدريس ﴿عليه السلام﴾ فإنّه كان خيّاطاً».

ذرع اللّٰه الصّبيّ: جبره و أنبته و أنماه. يقال: زرع اللّٰه ولدك تشبيهاً كما تقول: أنبته اللّٰه. الزّرع- في الأصل -: مصدر، ثمّ عُبّرَ به عن المزروع، و عن نبات كلّ شيء يحرث، و عن الولد لأنّ المني بذر، و الولد زرع، و زرع الرّجل أي مزروعه: ولده. يقال: أسترزع اللّٰه ولدي للبرّ، و أسترزقه له من الحلّ. و جمع الزّرع: زروع.

قال اللّٰه تعالى: «زروع و مقام كريم» الدّخان: ٢٦).

الزُّرْعَة و الزَّرعَة: البذر، يقال: «أعْطِني زُرعةً أزرع بها أرضي» و الزُّرْعة: فرخ القَبَجَة أيضاً.

الزَّرْعَة و الزِّرْعة و الزَّرَعَة: موضع يصلح للزّرع. يقال: «ما في الأرض ذرعة». المَزْرِعَة- بفتح الرّاء و ضمّها -: موضع الزّرع. في الحديث: «الدّنيا مزرعة الآخرة تلك مزارعهم و زرّاعاتهم». جمعها: مزارع.

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «و كما تَـدينُ تُدان، و كما تزرع تحصد».

الزّارع: إسم فاعل، جمعه: زارعون و زُرّاع. و زارع: إسم كلب. و منه قيل للكلاب: أولاد زارع.

و الزَّرّاع- فعّال- للمبالغة. كقوله: «متى كنتُ زَرّاعاً أسوق السّوانِـيا» و الزَّرّاع: النّمام الّذي يزرع الأحقاد في قلوب الأحبّآء. جمعه: زرّاعون و زرّاعة: الكثير الزّرع. و الزَّرّاعة أيضاً: موضع الأرض أي الأرض الّتي تزرع، كالملّاحة لموضع المـلح جمـعها زرّاعات.

الزِّراعَة: الزّرع، و حِرْفَة الزّارع.

الزَّريع: ما ينبت في الأرض المستحيلة ممّا يتناثر فيها أيّـام الحـصاد مـن الحبّ. الزّريع: الزّرع يسق من السّمآء، و كلّ ناعم زريع تشبيهاً به.

الزِّرّيع: ما ينبت في الأرض ممّا سقط فيها من الحبّ أيّام الحصاد.

الزّريعة- كسفينة -: الشّيء المزروع. و المزروع: الولد.

المعنويّ- من المادّة -: زرع الحُبّ لك في القلوب كرمك و حسن خُلقك. و يقال: بئس الزّرع زرع المذنب.

في نهج البلاغة: قال مـولى المُـوحّدين إمـام المـتّقين أمـير المـؤمنين عـليّ بـن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فى الخلفآء الغاصبين من أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة: «زَرَعُوا الفجور و سقوه الغرور و حصدوا الثّبور...» الخطبة الثّانية.

و فيه: قال الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ فيهم: «و مجتني الثّمرة لغير وقت ايناعها كالزّارع بغير أرضه...» الخطبة الخامسة.

و فيه: قال الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ في أوليآء اللّٰه تعالى: «اولئك و اللّٰه الأقلّون عدداً، والأعظمون عند اللّٰه قدراً، يحفظ اللّٰه بهم حججه و بيّناته حتّى يودعوها نظرآءهم، و يزرعوها في قلوب أشباههم...» من كلامه ﴿عليه السلام﴾ لكميل بن زياد النخعيّ رضوان اللّٰه تعالى عليه.

زُرِعَ له – على المجهول – بعد شقاوة: أصاب مالاً و خيراً بعد الفقر و الحاجة.

زارع يزارع مزارعة: طرح الزّرع في الأرض، و زارع فلاناً: عامله في الأرض ببعض ما يخرج منها، و يكون البذر من مالكها.

المزارعة: هي المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها، بأن يتّفق مالك الأرض مع الزّارع على زرع الأرض بحصّة من حاصلها بالثّلث و النّصف أو أقلّ و أكثر.

أَزْرَعَ الزَّرْعُ: نَبَتَ وَرَقُهُ و أحْصَدَ، و أزرع النّاسُ: أمكنهم الزَّرْعُ. و المُزرِعُ: الزّارع.

تزرّع إلى الشّرّ: تسرّع إليه.

ازدرع الرّجل: زرع و احترث – هو افتعل – أصله: إزترع إلّا أنّ التّاء لمّا لان مخرجها و لم توافق الزّاء لشدّتها أُبدِلَتْ دالاً، لأنّ الدّال و الزّاء مجهورتان، و التّاء مهموسة.

المُزْدَرِع: موضع الزّرع. ازدرع النّباتُ: صار ذا زرع. المُزدَرِع: الّذي يزدرع زرعاً يتخصّص به لنفسه. و ازدرع القوم: اتّخذوا زرعاً لأنفسهم خصوصاً أو احترثوا.

٢٢ – الشّطأ – ٧٩٠

شَطَأَ الزَّرْعُ و النَّخْلُ شَطْأً و شُطُوْءاً – مهموز اللّام من باب منع –: ما خرج منه و تفرع في جانبيه أي خرج فرْخُ الزّرع و النّخل.

قال اللّٰه تعالى: «كزرع أخرج شطأه» الفتح: ٢٩) أي فَراخَه أو سنبله أو نباته و طرفه.

شطأ الزّرع: السّنبل تنبت الحبّة عشراً و ثمانياً و سبعاً، فيقوى بعضه بعضاً. فذلك قوله سبحانه: «فآزره»: فأعانَهُ.

و يجيىء الشَّطْأ لمعانٍ:

شَطَأَ النّاقَةَ: شدّ عليها الرَّحْلَ، و شَطَأَ البعيرَ بالحمل: أثقله، و شَطَأَ الرّجلُ بالحمل: قوى عليه و شطأت الأُمّ بالولد: طَرَحَتْه. يقال: لعن اللّه أُمّاً شَطَأَتْ به وفَطَأَتْ به: أي أسْقَطَتْ جنينها و ألْقَتْه بعد وضع حملها. و شَطَأَ الرّجلُ إمرأتَه: نكحها و جامعها. و شَطَأَ فلاناً: قهره، و شَطَأَ الرّجل: مشى على الشّاطىء، شَطَأَ الوادي: سال جانبه.

الشَّطَأَ: الطّرف و الجانب. الشَّطَأ و الشّطْء: فراخ النّخل و الزّرع، جمعه: شُطُوْ، و من الشّجر: ما خرج حول أُصُوله، جمعه أشطآء.

الشّاطئ: طرف البحر و الوادي و النّهر. الشّاطيء من النّهر: شطّه و جانبه. و من البحر: سهله، جمعه شواطي و شُطآن.

قال اللّه عزّوجلّ: «فلمّا أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشّجرة» القصص: ٣٠) أى شطّه و جانبه.

شطا- بغير همزة -: قرية بناحية مصر تنسب إليها الثّياب الشّطويّة. و منه حديث أبي الحسن﴿عليه السلام﴾: «إنّي كفنت أبي في ثوبين شطويين».

أشطَأَ الرّجلُ: بلغ ولده مبلغ الرّجال، فصار مثله. و أشْطَأَ الشَّجَرُ بغصونها: أخرجها. و أشطأ الوادي: سال جانباه. يقولون: ملنا لوادي كذا فوجدناه مُشطِئاً أي يسيل جانباه. و أشطَأَ الرّجُل: أخذته الشُّطْأَة و هي الزّكام. و أشطَأَ الزّرع: إذا فرّخ. و شطأ الوادى والنّهر: شَقَّتَهُ.

شاطاه: مشى كلّ منهما على شاطىء. يقال: شاطأت فلاناً: ماشيته في شاطيء الوادي. و شاطأت الرّجلَ: إذا مَشَيْتَ على شاطىء، و مشى هو على شاطىء الآخر.

شَطَّأَ النّهر تشطيئاً: سال جانباه.

﴿النحو﴾

١- (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً)

«إنّ» حرف توكيد، و «نا» ضمير جمع للتكلّم مع الغير تعظيماً، في موضع نصب، إسم «إنّ» و «فتحنا» فعل ماضٍ للتكلّم مع الغير، في موضع رفع، خبر «إنّ» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «لك» متعلّق بـ «فتحنا» و «فتحاً» منصوب على المصدر، مفعول مطلق، و «مبيناً» إسم فاعل من باب الإفعال نعت لـ «فتحنا».

٢- (ليغفرلك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّرويتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً)

اللّام للعاقبة، و قيل: للتعليل و «يغفر» فعل مضارع، منصوب بـ «أن» مضمرة بعد اللّام، و المصدر المؤوّل: «أن يغفر» في موضع جرّ باللّام متعلّق بـ «فتحنا» و «لك» متعلّق بـ «يغفر» و «اللّٰه» فاعل الفعل، و «ما» موصولة في موضع نصب، مفعول به، و «تقدّم» فعل ماضٍ من باب التّفعّل صلة الموصول لا محلّ لها، و «من ذنبك» متعلّق بحال من فاعل «تقدّم» و «ما تأخّر» معطوف على «ما تقدّم» و «يتمّ» فعل مضارع من باب الإفعال، معطوف على «يغفر» منصوب بـ «أن» مقدّرة، و «نعمته» مفعول به، و «عليك» متعلّق بـ «يتمّ».

و «يهديك» معطوف على «يغفر» و الكاف في موضع نصب، مفعول به أوّل، و في «صراطاً» وجهان: **أحدهما**- مفعول به ثانٍ و «مستقيماً» نعت لـ«صراطاً» **ثانيهما**- منصوب بنزع الخافض، تقديره إلى صراط، فحذف «إلى» فانتصب لأنّه مفعول به في المعنى.

٣-(و ينصرك اللّٰه نصراً عزيزاً)

الواو عاطفة، و «ينصر» فعل مضارع، منصوب بـ«أن» مضمرة، و كاف الخطاب، في موضع نصب، مفعول به، و «اللّٰه» فاعل الفعل، و الجملة معطوفة على «ليغفر» لا محلّ لها، و «نصراً» مفعول مطلق، و «عزيزاً» نعت لـ«نصراً».

٤-(هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و للّٰه جنود السّموات و الأرض و كان اللّٰه عليماً حكيماً)

«هو» راجع إلى «اللّٰه» مبتداء، و «الّذي» موصولة، و «أنزل» فعل ماضٍ من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، عائد الصّلة، و «السّكينة» مفعول به، و جملة «أنزل السّكينة» صلة الموصول لا محلّ لها، و جملة «الّذي...» في موضع رفع، خبر «هو» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «قلوب» جمع القلب، اضيف إلى «المؤمنين» مجرور بـ«في» متعلّق بـ«أنزل» و اللام للتّعليل، و «يزدادوا» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و المصدر المؤوّل: «أن يزدادوا» في موضع جرّ باللّام، متعلّق بـ «أنزل» و «ايماناً» منصوب على التّمييز.

و «مع» ظرف مكان، منصوب، متعلّق بمحذوف، و هو نعت لـ«ايماناً» أي مصاحباً، و «ايمانهم» مجرور بـ«مع» و الواو عاطفة، و «للّٰه» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «جنود»

جمع جند، أُضيف إلى «السّموات» مبتداء مؤخّر، و «الأرض» معطوف على «السّموات» و الجملة معطوفة على المستأنفة لا محلّ لها، و الواو اسئنافية، و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و «اللّٰه» إسمه، و «عليماً» خبره، و «حكيماً» خبر ثانٍ، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها.

٥- (ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّئاتهم و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً)

اللام للتّعليل، و «يدخل» فعل مضارع، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللام، و المصدر المؤوّل: «أن يدخل» في موضع جرّ باللّام و في تعلّقه وجوه **أحدها**- متعلّق بفعل محذوف، تقديره: أمر اللّٰه بالجهاد ليدخل... و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. **ثانيها**- متعلّق بما تعلّق به اللام في «ليغفرلك». **ثالثها**- متعلّق بما دلّ عليه ما ذكر من كون جنود السّموات و الأرض له من معنى التّصرّف و التّدبير أى دبّر تعالى ما دبّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة اللّٰه تعالى في ذلك و يشكروها فيدخلهم الجنّة فالعلّة في الحقيقة معرفة النّعمة و شكرها لكنّها لمّا كانت سبباً لدخول الجنّة أُقيم المسبّب مقام السّبب. **رابعها**- متعلّق بـ«أنزل» و تعلّقه بذلك مع تعلّق اللّام الأُخرى به مبنيّ على تعلّق الأوّل به مطلقاً، و الثّاني مقيّداً، و تنزيل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذّاتين، و إلّا فلا يتعلّق بعامل واحد حرفا جرّ بمعنى واحد من غير اتّباع.

خامسها- متعلّق بـ«ينصرك» **سادسها**- متعلّق بـ«يزداد» **سابعها**- متعلّق بجميع ما ذكر إمّا على التّنازع و التّقدير و إمّا بتقدير ما يشمل ذلك كفعله تعالى ما ذكر ليدخل... **ثامنها**- هو بدل اشتمال من «ليزدادوا» فإنّ إدخال المؤمنين و المؤمنات الجنّة و كذا ما عطف عليه مستلزم لزيادة الايمان، و بدل الاشتمال يعتمد على ملا بسة ما بين المبدل و المبدل منه بحيث يشعر أحدهما بالآخر غير الكلّية و البعضيّة. **تاسعها**- عطف بيان من «ليزدادوا».

أقول: و لكلٍّ وجه لا يسعها المقام و نحن على جناح الاختصار فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

و «المؤمنين» مفعول به، و «المؤمنات» معطوفة على «المؤمنين» و «جنّات» مفعول ثانٍ على السّعة، و«تجري» فعل مضارع، و «الأنهار» فاعله، و الجملة في موضع نصب، نعت لـ«جنّات» و في «من تحتها» وجهان: **أحدهما** – متعلّق بـ«تجري» **ثانيهما** – متعلّق بمحذوف، و هو حال من «الأنهار» و «خالدين» حال من «المؤمنين...» و «فيها» متعلّق بـ«خالدين» و الواو عاطفة، و «يكفّر» فعل مضارع من باب التفعيل، معطوف على «ليدخل» لا محلّ لها، و «عنهم» متعلّق بـ«يكفّر» و «سيّئاتهم» مفعول بها، و الواو اعتراضيّة، و «كان» كالسّابق آنفاً، و «ذلك» في موضع رفع، إسم «كان».

و في «عند» وجوه: **أحدها** – ظرف مكان، منصوب، متعلّق بمحذوف، حال من الخبر «فوزاً» لأنّه صفة له في الأصل، فلمّا قدّم عليه، صارحالاً له. **ثانيها** – متعلّق بمحذوف و هو مكان. **ثالثها** – متعلّق بما دلّ عليه «فوزاً» و لايجوز أن يكون ظرفاً لـ«فوزاً» لأنّه مصدر، و «عظيماً» نعت لـ«فوزاً» و جملة «كان...» اعتراضيّة لا محلّ لها.

٦– (و يعذّب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظّانّين بالله ظنّ السّوء عليهم دآئرة السّوء و غضب الله عليهم و لعنهم و أعدّلهم جهنّم و سآءت مصيراً)

الواوات الثّمانية في هذه الآية عاطفة، و «يعذّب» فعل مضارع من باب التفعيل، منصوب، معطوف على «يدخل» لا محلّ لها، و «المنافقين» مفعول به، و التّاليات الثلاث معطوفات على «المنافقين» و «الظّانين» نعت للمنافقين، و ما عطف عليه، و «بالله» متعلّق بـ«الظّانّين» و «ظنّ» مفعول مطلق، منصوب، عامله: «الظّانّين» و «السوء» بالفتح فالسّكون مصدر، و بالضّم فالسكون إسم مصدر و فيه وجهان: **أحدهما** – صفة لموصوف محذوف، أي ظنّ الأمر السّوء، فحذف المضاف إليه، و أُقيمت صفته مقامه. **ثانيهما** – هذا من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته. و «عليهم» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «دآئرة السّوء» مبتداء مؤخّر، و الجملة دعائيّة لا محلّ لها، و في إضافة الدّآئرة إلى «السّوء» وجهان: **أحدهما** – من إضافة العام إلى الخاص، فهي للبيان كخاتم فضّة.

ثانيهما – من إضافة الموصوف إلى الصّفة للبيان على المبالغة.

«و غضب اللّٰه عليهم» معطوفة على جملة «عليهم دائرة السّوء» لا محلّ لها و هكذا «و لعنهم...» و «مصيراً» تميز أو على حذف المخصوص بـالذّمّ أى سآئت مـصيراً أي جهنّم.

٧– (و للّٰه جنود السّموات و الأرض و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً)

و قد سبق إعراب مثلها في الآية الرّابعة من هذه السّورة المباركة فراجع.

٨– (إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً)

«إنّ» حرف توكيد، و «نا» ضمير جمع للتكلّم مع الغير في موضع نصب، إسم «إنّ» و «أرسلنا» فعل ماضٍ للتكلّم مع الغير من باب الإفعال، و الجملة في موضع رفع، خبر «إنّ» و الجملة المؤكّدة مستأنفة لامحلّ لها، و الكاف في موضع نـصب، مـفعول بـه، و «شاهداً» نصب على حال مقدّر فالمعنى: إنّا أرسلناك مقدّرين بشهادتك يوم القـيامة على اُمّتك بالبلاغ و الدّعاء، و إلى إخلاص عبادتنا. و على حال غير مقدّرة. فالمعنى: إنّا أرسلناك حالكونه شاهداً على ما تعمل اُمّتك من طاعة أو معصية. والفعل هو عامل الحال كما عمل في ذي الحال.

٩– (لتؤمنوا باللّٰه و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً)

اللام للتعليل و «تؤمنوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب مـن بـاب الإفـعال، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللام، و علامة الحذف، حذف نون الرّفع، و «باللّٰه» متعلّق بـ«تؤمنوا» و «رسوله» معطوف على «اللّٰه» و المصدر المؤوّل: «أن تؤمنوا...» في موضع جرّ، متعلّق بـ«أرسلنا» و «تعزّروه...» من باب التّفعيل، معطوف على «تؤمنوا» لا محلّ لها، و «بكرة» ظرف، منصوب، متعلّق بـ«تسبّحوه» و «أصيلاً» معطوف على «بكرة» أي تسبّحوه تعالى بالغداة و العشيّ.

١٠-(إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّه يد اللّه فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً)

«إنّ» حرف توكيد، و «الّذين» موصولة، و «يبايعون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، من باب المفاعلة، وكاف الخطاب في موضع نصب، مفعول به، و الجملة صلة الموصول لا محلّ لها، و «إنّما» كافّة و مكفوفة، و «يبايعون» كالسّابق، و «اللّه» مفعول به، و الجملة في موضع رفع، خبر «إنّ» و «يد اللّه» مبتداء، و «فوق» ظرف أُضيف إلى «أيدي» جمع اليد، أُضيف إلى «هم» و الظّرف متعلّق بمحذوف، خبر المبتداء، و في الجملة وجوه: **أحدها**- في موضع رفع، خبر ثانٍ لـ «إنّ». **ثانيها**- في موضع نصب، حال من ضمير الفاعل في «يبايعون» و في جواز ذلك مع كونها إسميّة غير مقترنة بالواو تأمّل. **ثالثها**- مستأنفة لا محلّ لها. **رابعها**- تعليليّة لا محلّ لها.

في الفاء وجهان: **أحدهما**- عاطفة. **ثانيهما**- استئنافية، و «مَن» إسم شرط جازم، في موضع رفع، مبتداء، و «نكث» في موضع الجزم، فعل الشّرط، يجوز أن يكون خبر المبتداء، و يجوز أن يكون الخبر جملتي الشّرط و الجواب معاً، و الفاء رابطة للجواب، و «إنّما» كالسّابق، و «ينكث» في موضع جزم جواب الشّرط مقترنة بالفاء، و «على نفسه» متعلّق بـ «ينكث» و الواو عاطفة، و «من» الثّاني كالأوّل، و «أوفى» فعل ماضٍ من باب الإفعال فعل الشّرط نحو «نكث» و «من أوفى» معطوف على «من نكث».

و «ما» موصولة مجرورة بالباء، متعلق بـ «أوفى» و «عاهد» فعل ماضٍ من باب المفاعلة، صلة الموصول لا محلّ لها، و «عليه» متعلّق بـ «عاهد» و في ضمّ الهاء مع أنّها تكسر بعد «على» وجوه: **أحدها**- إذا جآء سكون بعد الهاء، فيجوز ضمّها و كسرها. **ثانيها**- أنّ ضمّ الهاء و تفخيم لام الجلالة هما قرائة الحفص، و أنّ الضّمة هي الأصل، و من كسرها فللمجاورة للياء، فلابدّ من ترقيق لام الجلالة. **ثالثها**- أنّ أصل الهاء في «عليه» هُوَ، و هى مضمومة، فاستصحب ذلك كما في «لَهُ» و «ضَرَبَهُ». و حُسن الضّمّ في الآية، هو التّوصّل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، و أيضاً إيقآء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد و إيقائه، و عدم نقضه. و «اللّه» فاعل «عاهد».

الفاء رابطة لجواب الشّرط الثّانى، و السّين للاستقبال، و «يؤتي» فعل مضارع من باب الإفعال، و الضّمير في موضع نصب، مفعول به، و الجملة في موضع جزم، جواب الشّرط مقترنه بالفاء، و «أجراً» مفعول به ثانٍ، و «عظيماً» نعت لـ«أجراً».

١١- (سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفرلنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من اللّٰه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً بل كان اللّٰه بما تعملون خبيراً)

السين حرف استقبال، و «يقول» فعل مضارع مرفوع، و «لك» متعلّق بـ«يقول» و «المخلّفون» إسم مفعول من باب التّفعيل فاعل «يقول» و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «من الأعراب» متعلّق بمحذوف، حال من «المخلّفون» و «شغلت» فعل ماضٍ و «نا» في موضع نصب، مفعول به، و «أموالنا» فاعل «شغلت» و الجملة في موضع نصب، مقول القول، و «أهلونا» معطوف على «أموالنا».

الفاء عاطفة لربط المسبّب بالسّبب، و «استغفر» فعل أمر من باب الاستفعال، و «لنا» متعلّق بـ«استغفر» و مفعوله محذوف أى اللّٰه. و الجملة معطوفة على استئناف مقدّر لا محلّ لها أي تنبّه فاستغفر. و «يقولون» اعتراضيّة لا محلّ لها، و «بألسنتهم» متعلّق بمحذوف، حال من فاعل «يقولون» و في «ما» وجهان: **أحدهما**- موصولة في موضع نصب، مفعول به. **ثانيها**- نكرة موصوفة، في موضع نصب، و «في قلوبهم» متعلّق بمحذوف، هو خبر «ليس» و اسمه ضمير مستتر فيه، و جملة «ليس...» صلة الموصول لا محلّ لها.

«قل» فعل أمر، مستأنفة لا محلّ لها، و الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر، و «من» إسم استفهام، معناه نفي أى لا أحد. في موضع رفع، مبتداء، و «يملك» في موضع رفع، خبر المبتداء: «من» و جملة «من يملك...» في موضع جزم، جواب شرط مقدّر أي إن أراد اللّٰه إهلاكهم فمن يملكُ... و جملة الشّرط المقدّرة في موضع نصب، مقول القول. و «لكم» متعلّق بـ«يملك» و اللام إمّا للبيان، وإمّا من صلة الفعل لأنّ هذه الاستطاعة مختصّة بهم و

لأجلهم. و «من اللّٰه» متعلّق بمحذوف، حال من «شيئاً» مقدمة، أو متعلّق بـ «يملك» بتضمينه معنى «يمنع» و «شيئاً» مفعول به.

و «إن» حرف شرط، و «أراد» فعل ماضٍ للمفرد المذكّر الغائب من باب الإفعال، في موضع جزم، فعل الشّرط، و «بكم» متعلّق بحال من «ضرّاً» و جملة «أراد بكم ضرّاً» تفسيريّة لا محلّ لها. و «أو» عاطفة، و «أراد» كالسّابق، و «بكم» متعلّق بحال «نفعاً» و جملة «أراد به نفعاً» معطوفة على التفسيريّة لا محلّ لها، و جواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فمن يملك؟ و «بل» حرف إضراب انتقالي من موضوع إلى آخر، و «كان» فعل ماضٍ ناقص، و «اللّٰه» إسمه، و «ما» حرف مصدريّ، و «تعملون» صلة الموصول الحرفيّ لامحلّ لها، و «خبيراً» خبر «كان» و جملة «كان اللّٰه...» مستأنفة لا محلّ لها.

۱۲- (بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء و كنتم قوماً بوراً)

«بل» حرف إضراب للانتقال من غرض إلى آخر، أضرب عن بيان بطلان اعتذارهم إلى بيان الحامل لهم على التّخلّف، و «ظننتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب لا محلّ لها، و «أن» مخفّفة من الثّقيلة إسمها ضمير الشّأنَ محذوف، و «لن» حرف نفي و نصب، و «ينقلب» فعل مضارع من باب الانفعال، منصوب بـ«لن» و «الرّسول» فاعل الفعل، و الجملة في موضع رفع، خبر «أن» المخفّفة، و المصدر المؤوّل: «أن لن ينقلب...» في موضع نصب، سد مسدّ مفعولي: «ظننتم» و «المؤمنون» معطوف على «الرّسول» و «إلى أهليهم» متعلّق بـ«ينقلب» و «أبداً» ظرف زمان، منصوب، متعلّق بـ«ينقلب». و الواو عاطفة، و «زُيِّنَ» فعل ماضٍ من باب التّفعيل، مبنيّ للمفعول، و «ذلك» ناب مناب الفاعل، و الجملة معطوفة على «ظننتم» و «في قلوبكم» متعلّق بـ«زيّن» و جملة «ظننتم» الثّانية معطوفة على جملة «ظننتم» الاولى لا محلّ لها، و قيل: معطوفة على «زُيِّنَ» و «ظنّ» مفعول مطلق، منصوب، اُضيف إلى «السّوء» و الواو عاطفة، و «كنتم قوماً» معطوفة على جملة «ظننتم» الاولى لا محلّ لها، و «بوراً» نعت لـ«قوماً».

١٣-(و من لم يؤمن باللّٰه و رسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً)

الواو عاطفة، و في «مَن» وجهان: **أحدهما**- إسم شرط جازم، في موضع رفع، مبتداء. **ثانيهما**- إسم موصول في موضع رفع، مبتداء، و «لم» حرف نفي و قلب و جزم، و «يؤمن» فعل مضارع، مجزوم بحرف النفي، و «يؤمن» في موضع رفع، خبر «من» ويجوز أن يكون الخبر جملتي الشّرط و الجزآء معاً إن كانت «من» شرطيّة، و جملة «فإنّا أعتدنا...» خبراً إن كانت «من» موصولة، دخلت الفاء في الموصول لأنّه في معنى الشّرط، و العائد من الخبر أو من جواب الشّرط هو الظّاهر القائم مقام المضمر.

و في جملة «من لم يؤمن...» وجهان: **أحدهما**- معطوفة على المستأنفة السّابقة. **ثانيهما**: مستأنفة غير داخلة في الكلام الملقّن الّذي نقله رسول اللّٰه(ﷺ) إلى الكافرين. و «باللّٰه» متعلّق بـ«يؤمن» و «رسوله» معطوف على «باللّٰه».

الفاء رابطة لجواب شرط جازم أو تعليليّة، و «إنّا» حرف توكيد مع إسمها، و «أعتدنا» فعل ماضٍ للتكلّم مع الغير في موضع رفع، خبر «إنّ» و جملة «إنّا أعتدنا...» في موضع جزم، جواب الشّرط، أو في موضع رفع، خبر «من» بناءً على أنّه إسم موصول، أو الجملة تعليليّة للجواب المقدّر أى من لم يؤمن... فإنّه كافر نغذّبه لأنّنا اعتدنا للكافرين سعيراً.

و في «للكافرين» وجهان: **أحدهما**- متعلّق بحال من «سعيراً» **ثانيهما**- متعلّق بـ«أعتدنا» و «سعيراً» مفعول به، أو مفعول مطلق، بناءً على حذف الموصوف و الصّفة تقديره: فإنّا أعتدنا للكافرين ناراً تسعّرهم سعيراً.

١٤-(و للّٰه ملك السّموات و الأرض يغفر لمن يشاء و يعذّب من يشآء و كان اللّٰه غفوراً رحيماً)

الواوات الاربع عاطفة، و «للّٰه» متعلّق بمحذوف، خبر مقدّم، و «ملك» أُضيف إلى «السّموات» مبتداء مؤخّر، و الجملة معطوفة على جملة «من لم يؤمن...» و «الأرض» معطوف على «السّموات» و «يغفر» فعل مضارع، فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى

«اللّٰه» و في جملة «يغفر» وجهان: أحدهما - في موضع نصب، حال من «اللّٰه» ثانيهما - مستأنفة لا محلّ لها. و «مَن» موصولة، مجرورة باللام، متعلّق بـ«يغفر» و «يشآء» صلة الموصول لا محلّ لها، و «يعذّب» معطوفة على «يغفر» و «من» الثّانية في موضع نصب، مفعول به، و «يشآء» صلتها لا محلّ لها، و جملة «كان اللّٰه...» معطوفة على جملة «للّٰه ملك...» لا محلّ لها، و «رحيماً» خبر ثان لـ«كان».

١٥- (سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه قل لن تتّبعونا كذلكم قال اللّٰه من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلّا قليلاً)

السّين حرف استقبال، و «يقول» فعل مضارع، و «المخلّفون» إسم مفعول لجمع المذكّر مِن باب التّفعيل، و اللام للعهد، فاعل «يقول» و جملة «سيقول...» مستأنفة لا محلّ لها، و «إذا» ظرف مستقبل، متضمّن معنى الشّرط، متعلّق بـ«يقول» أي سيقولون وقت انطلاقكم، و «انطلقتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب من باب الانفعال، في موضع جرّ لإضافة «إذا» إليها، و «إلى مغانم» متعلّق بـ«انطلقتم» و اللام للتّعليل، و «تأخذوا» فعل مضارع، لجمع المذكّر المخاطب، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و المصدر المؤوّل: «أن تأخذوا» في موضع جرّ باللام، متعلّق بـ«انطلقتم» و «ها» في موضع نصب، مفعول بها راجع إلى «مغانم».

و «ذروا» فعل أمر لجمع المذكّر المخاطب، و «نا» ضمير جمع للتكلّم مع الغير في موضع نصب، مفعول به، و الجملة في موضع نصب، مقول القول، و «نَتَّبِعْ» فعل مضارع لجمع التكلّم مع الغير من باب الافتعال، مجزوم لأنّه جواب الطلب. تقديره: إن تذرونا نتّبعكم... و كاف الخطاب في موضع نصب، مفعول به، و «يريدون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغآئب من باب الإفعال، و في موضع الجملة وجوه: أحدها - في موضع نصب، حال من ضمير المفعول في «ذرونا». ثانيها - حال من «المخلّفون» ثالثها - مستأنفة لبيان مرادهم بذلك القول، لا محلّ لها.

و «أن يبدّلوا» فعل مضارع من باب التّفعيل، منصوب بـ «أن» و المصدر المؤوّل في موضع نصب، مفعول به لفعل الإرادة، و «كلام اللّٰه» مفعول به لفعل التبديل، و «قل» مستأنفة لا محلّ لها، و «لن» حرف نصب، و نفي للتّأبيد، و «تتّبعوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، منصوب بـ«لن» و «نا» في موضع نصب، مفعول به، و الجملة في موضع نصب، مقول القول. و في «كذلكم» وجهان: أحدهما - متعلّق بمحذوف، مفعول مطلق. ثانيهما - نعت لمصدر محذوف أى قولاً مثل هذا القول الصّادر عنّي و هو لن تتّبعونا. عامله: «قال» فعل ماضٍ، و «اللّٰه» فاعله، و الجملة مستأنفة أو اعتراضيّة لا محلّ لها.

و «قبل» إسم ظرفيّ، مبنيّ على الضّمّ في موضع جرّ، متعلّق بـ «قال» و الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر، و «سيقولون» في موضع جزم، جواب شرط مقدّر أي إن سمعوا ذلك فسيقولون. و مقول القول محذوف، تقديره: ليس ذلك النّهي حكماً من اللّٰه.

و «بل» في الموضعين إضرابيّة، و الأوّل: إضراب عن أن يكون حكم اللّٰه أن لا يتّبعوهم و إثبات ما هو شرّ من ذلك و هو الحسد. و الثّاني: إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى ما أطمّ منه و هو الجهل و قلّة التفقّة. و «تحسدوننا» مستأنفة في حيّز القول لا محلّ لها، و «لا» نافية، و «يفقهون» في موضع نصب، خبر «كان» و إسمها واو الجمع، و «يفقهون» في موضع نصب، خبر «كان» و جملة «كانوا...» مستأنفة لا محلّ لها، و «إلّا» أداة حصر، و «قليلاً» مفعول به، منصوب، أي قليلاً من امور الدّين أو نعت لمصدر محذوف أى إلّا فقهاً قليلاً.

١٦- (قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم اللّٰه أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً)

«قل» فعل أمر، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها و «للمخلّفين» متعلّق بـ «قل» و «من الأعراب» متعلّق بحال من المخلّفين، و السين حرف استقبال، و «تُدعَوْنَ» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مبنيّ للمفعول، و «إلى قوم» متعلّق بـ«تدعون» بحذف مضاف أي

إلى قتال قوم، و جملة «ستدعون» في موضع نصب، مقول القول، و «اولى» اضيف إلى «بأس» نعت لـ«قوم» و «شديد» نعت لـ«بأس» و «تقاتلون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب المفاعلة، و «هم» في موضع نصب، مفعول به. و في جملة «تقاتلونهم» وجوه: **أحدها**- في موضع نصب، حال من نائب الفاعل. **ثانيها**- في موضع جرّ، نعت لـ«قوم» **ثالثها**- مستأنفة لا محلّ لها. **رابعها**- حال مقدّرة و هي المدعوّ إليها في المعنى.

و في «أو يسلمون» وجوه: **أحدها**- أن تكون «أو» عاطفة، و «يسلمون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب الإفعال، والجملة معطوفة على جملة «تقاتلونهم». **ثانيها**- أن تكون «أو» حرف استئناف، شأنه شأن الواو و الفاء و ثمّ، و جملة «يسلمون» مستأنفة لا محلّ لها. تقديره: أو هم يسلمون. **ثالثها**- تقديره: إلى أن يسلموا أو حتّى يسلموا فلمّا حذفت «أن» أو «حتّى» رفع الفعل.

الفاء عاطفة، و «إن» حرف شرط، و «تطيعوا» مجزوم بحرف الشّرط، و علامة الجزم، حذف نون الرّفع، و جملة «إن تطيعوا...» في موضع نصب، معطوفة على جملة «ستدعون» و «يؤت» فعل مضارع من باب الإفعال، مجزوم بحذف لام الفعل، جواب الشّرط، و كاف الخطاب في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «اللّٰه» فاعل «يؤت» و «أجراً» مفعول ثانٍ، و «حسناً» نعت لـ«أجراً». الواو عاطفة، و «إن» حرف شرط، و «تتولّوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب من باب التّفعّل، فعل الشّرط، مجزوم بحرف الشّرط، و علامة الجزم، حذف نون الرّفع، و «إن تتولّوا» في موضع نصب، معطوفة على جملة «إن تطيعوا».

و «ما» في «كما» حرف مصدر، و «كما» نعت لمصدر محذوف، و «تولّيتم» فعل ماضٍ لجمع المذكّر المخاطب، صلة الموصول الحرفي، و المصدر المؤوّل: «ما تولّيتم» في موضع جرّ بالكاف، متعلّق بمحذوف، مفعول، مطلق، عامله «تتولّوا» أو متعلّق بحال من فاعل «تتولّوا» و «قبل» إسم ظرفيّ، مبنيّ على الضّمّ لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا معنى، في موضع جرّ، متعلّق بـ«تولّيتم» و «يعذّب» مجزوم، جواب الشّرط الثّاني، و كاف الخطاب في موضع نصب، مفعول به، و «عذاباً» مفعول مطلق، منصوب، و «أليماً» نعت لـ«عذاباً».

١٧- (ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج و من يطع اللّٰه و رسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً)

«ليس» فعل ماضٍ ناقص، و «على الأعمى» متعلّق بمحذوف خبر «ليس» و «حرج» إسم «ليس» و الجملة مستأنفة في حيّز القول لا محلّ لها، و الواوات الخمس في هذه الآية عاطفة، و «لا» نافية أو زائدة لتأكيد النّفي، و «على الأعرج حرج» معطوف على «الأعمى حرج» و كذلك «و لا على المريض حرج» و «مَن» إسم شرط جازم، في موضع رفع، مبتداء، و «يطع» فعل مضارع من باب الإفعال، مجزوم، و علامة الجزم فيه، حذف عين الفعل، و حُرِّك بالكسر لالتقآء الساكنين، و «يطع» فعل الشّرط، في موضع رفع، خبر «من» و يجوز أن يكون الخبر جملتي الشّرط و الجواب معاً.

و «اللّٰه» مفعول به، و «رسوله» معطوف على «اللّٰه» و «يُدخل» فعل مضارع من باب الإفعال، مجزوم بالشّرط و جوابه لا محلّ لها، و الضّمير في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «جنّات» مفعول ثان على السّعة، و «تجري» في موضع نصب، نعت لـ«جنّات» و في «من تحتها» وجهان: **أحدهما**- متعلّق بـ«تجري». **ثانيهما**- متعلّق بحال من «الأنهار» و هي فاعل «تجري» و «من يتولّ» مثل «من يطع» و علامة جزم الفعل، حذف حرف العلّة، و «يعذّبه» مثل «يدخله» و «عذاباً أليماً» كالسّابق آنفاً.

١٨- (لقد رضي اللّٰه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً)

اللام، لام قسم مقدّر، و «قد» حرف تحقيق إذا دخلت على الماضي، و «رضي» فعل ماضٍ، و «اللّٰه» فاعل الفعل، و الجملة جواب القسم المقدّر لا محلّ لها، و «عن المؤمنين» متعلّق بـ«رضي» و «إذ» ظرف ماضٍ، في موضع نصب، متعلّق بـ«رضي» و «يبايعون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب المفاعلة، والجملة في موضع جرّ لإضافة «إذ» إليها، و كاف الخطاب في موضع نصب، مفعول به، و «تحت» ظرف، منصوب، متعلّق بـ«يبايعون» أضيف إلى «الشّجرة».

و الفاء في الموضعين عاطفة، و «علم» فعل ماضٍ، فاعله ضمير مستتر فيه، والجملة في موضع جرّ، معطوفة على «يبايعونك» لأنّه بمعنى الماضي، و «ما» موصولة في موضع نصب، مفعول به، و «في قلوبهم» متعلّق بمحذوف، صلة الموصول، و «أنزل» فعل ماضٍ من باب الإفعال في موضع جرّ، معطوفة على جملة «علم» و «السّكينة» مفعول به، و «عليهم» متعلّق بـ«أنزل» و «أثاب» في موضع جرّ، معطوفة على جملة «أنزل» و «هم» في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «فتحاً» مفعول به ثانٍ، و «قريباً» نعت لـ«فتحاً».

١٩- (و مغانم كثيرة يأخذونها و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً)

الواو عاطفة، و «مغانم» جمع مَغنَم، من صيغة منتهى الجموع، غير منصرف، للجمعيّة و امتناعه أن يجمع مرّة اخرى، معطوف على «فتحاً» و «كثيرة» نعت لـ«مغانم» و «يأخذون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب، و هاء التأنيث في موضع نصب، مفعول به، و في الجملة وجهان: **أحدهما**- في موضع نصب، نعت لـ«مغانم» **ثانيهما**- في موضع نصب، حال من «مغانم» لكونه موصوفاً. و الواو استئنافية، و جملة «كان اللّٰه...» مستأنفة لا محلّ لها.

٢٠- (وعدكم اللّٰه مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدي النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً)

الواو استئنافية و «وعد» فعل ماضٍ، و «اللّٰه» فاعل الفعل، و الجملة مستأنفة لا محلّ لها، و «كم» في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «مغانم» مفعول به ثانٍ على السّعة، و «كثيرة» نعت لـ«مغانم» و في «تأخذونها» وجهان: **أحدهما**- في موضع نصب، نعت ثانٍ لـ«مغانم» **ثانيهما**- في موضع نصب، حال من «مغانم» لكونه موصوفاً. الفاء عاطفة، و «عجّل» فعل ماضٍ من باب التفعيل، و الضّمير المستتر فيه راجع إلى «اللّٰه» و هو الفاعل، والجملة معطوفة على «عدوّكم» لا محلّ لها، و «لكم» متعلّق بـ«عجّل» و «هذه» في موضع نصب، مفعول به، و الواو عاطفة، و «كفّ» فعل ماضٍ، معطوفة على جملة

«عجّل» لا محلّ لها، و «أيدي» مفعول به، أُضيف إلى «النّـاس» و «عـنكم» مـتعلّق بـ «كفّ».

في الواو وجوه أحدها – مقحمة. ثانيها – عاطفة على مضمر أى و كفّ أيدي النّاس عنكم لتشكروه أو تقديره: و كفّ أيدي النّاس عنكم لتسلموا من أذاهم و شذاهم و لتكون... أو تقديره: وعدكم اللّٰه بهذه الإثابة: إثابة الفتح و الغنآئم الكـثيرة المـعجّلة والمؤجّلة لمصالح كذا و كذا و لتكون آية للمؤمنين أى علامة و أمارة تدلّهم على أنّهم عـلى الحـقّ، و أنّ ربّهـم صـادق في وعـده و نـبيّهم﴿ﷺ﴾ صـادق في إنـبآئه. و لتكون... ثالثها – اعتراضية. رابعها – زائدة.

و اللام للتعليل، و «تكون» فعل مضارع ناقص، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و إسمه ضمير مستتر فيه، راجع إلى «مغانم» و قيل: راجع إلى الكفّ المعهود من «كفّ» و التّأنيث باعتبار الخبر: «آية» و قيل: راجع إلى الكفّة، و المصدر المؤوّل: «أن تكون» في موضع جرّ باللام، متعلّق بـ«كفّ» و قيل: متعلّق بمحذوف مؤخّر، أي و لتكون آية لهم فعل ما فعل. و قيل: متعلّق بما تعلّق به علّة اخرى محذوفة من أحد الفعلين السّابقين أي فعجّل لهم هذه أو كفّ أيدى النّاس عنكم لتنتفعوا بذلك.

و «آية» خبر «تكون» و «للمؤمنين» متعلّق بمحذوف، هو نعت لـ«آية» و «يهدي» معطوفة على جملة «لتكون» و كاف الخطاب: «كم» في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «صراطاً» مفعول به ثان، و «مستقيماً» نعت لـ«صراطاً».

٢١ – (و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط اللّٰه بها و كان اللّٰه على كلّ شيء قديراً)

الواو عاطفة، و في «أُخرى» وجوه: أحدها – مفعول به لفعل محذوف يـدلّ عـليه السّابق، تقديره: وعدكم أو أثابكم ملك مغانم كثيرة، و وعـدكم مُـلك أُخـرى، لأنّ المفعول الثّاني لايكون إلّا منصوباً لأنّ الأعيان لايقع الوعد عليها إنّما يقع على تملّكها و

حيازتها. و «اخرى» نعت لمنعوت مقدّر أى مُلك مغانم أُخرى. **ثانيها**- صفة لموصوف محذوف أي قرية اخرى. **ثالثها**- في موضع رفع، مبتداء، و جلمة «لم تقدروا» في موضع رفع نعت له، و جملة «قد أحاط اللّٰه بها» في موضع رفع، خبر له. **رابعها**- معطوفة على «هذه» أي فعجّل لكم هذه المغانم و مغانم اخرى. **خامسها**- في موضع نصب، بـفعل مضمر يفسّره «قد أحاط اللّٰه بها» تقديره: و قضى اللّٰه اخرى قد أحاط بها.

سادسها- في موضع جرّ برُبَّ مقدّرة، فتكون الواو واو رُبّ. **سابعها**- في موضع رفع، مبتداء، «و لم تقدروا عليها» صفته، و «قد أحاط اللّٰه بها» خبره الثّاني، و خبره الأوّل محذوف، و تقديره: تمّت غنائم اخرى قد أحاط اللّٰه بها.

أقول: و الأوجه عندي هو الأوّل، و «لم» حرف جحد و جازم، و «تقدروا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مجزوم، و علامة جزمه حذف نون الرّفـع، و الجـملة في موضع رفع، نعت لـ«اخرى» و «عليها» متعلّق بـ«تقدروا» المنفيّ، و «قد» حرف تحقيق، و «أحاط اللّٰه بها» مستأنفة لا محلّ لها. و الواو استئنافية، و «كان اللّٰه...» مستأنفة لا محلّ لها، و «على كلّ شيء» متعلّق بـ«قديراً» و هو خبر «كان».

۲۲- (و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لايجدون وليّاً و لا نصيراً)

الواو استئنافية، و «لو» حرف شرط، غير جازم، و «قاتل» فعل ماضٍ من بـاب المفاعلة، و كاف الخطاب في موضع نصب، مفعول به، و «الّذين» موصولة في موضع رفع، فاعل «قاتل» و جملة «قاتلكم الّذين...» مستأنفة لا محلّ لها، و «كفروا» صلة الموصول لا محلّ لها، و اللام واقعة في جواب «لو» و «ولّوا» فعل ماضٍ، مبنيّ على الضّمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقآء السّاكنين، و جملة «ولّوا...» جواب «لو» لا محلّ لها، و «الأدبار» مفعول به ثان، و المفعول الأوّل محذوف، تقديره: «ولّوكم الأدبار» و «ثمّ» حرف عطف، و «لا» نافية و جملة «يجدون» معطوفة على «ولّوا» لا محلّ لها، و «وليّاً» مفعول به، و «لا» زائدة لتأكيد النّفي، و «نصيراً» معطوف على «وليّاً» بالواو.

٢٣- (سنّة اللّٰه الّتي قد خلت من قبل و لن تجد لسنّة اللّٰه تبديلاً)

في «سنّة اللّٰه» وجوه: **أحدها**- منصوب، مفعول مطلق لفعل محذوف، لأنّه مصدر مؤكّد، تقديره: سنّ اللّٰه غلبة أنبيآئه على أعدآئه. و قيل: لأنّ معنى: «لولّوا الأدبار»: سنّ اللّٰه توليتهم الأدبار سنّة كما سنّها فيما خلا من الأُمم الكافرة. و الجملة مستأنفة لا محلّ لها. **ثانيها**- مفعول به لفعل محذوف. **ثالثها**- بنآءً على قراءة الرّفع، خبر لمحذوف أي تلك أو هذه سنّة اللّٰه القديمة أن يظهر أنبيآئه و المؤمنين الصّادقين على أعدآئهم. **رابعها**- منصوبة بنزع الخافض أي كسنّة اللّٰه.

و «الّتي» موصولة في موضع نصب، نعت لـ «سنّة اللّٰه» و «قد» حرف تحقيق، و «خلت» فعل ماضٍ، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «سنّة اللّٰه» الجملة صلة الموصول لا محلّ لها، و «قبل» إسم ظرفيّ، في موضع جرّ، متعلّق بـ«خلت» و الواو عاطفة، و «لن» حرف نفي و نصب و استقبال، و «تجد» فعل مضارع للمفرد المذكّر المخاطب، منصوب بـ«لن» وجملة «لن تجد» معطوفة على جملة «سنّ اللّٰه سنّة...» لا محلّ لها. و في «لسنّة اللّٰه» وجهان: **أحدهما**: متعلّق بـ«تجد» **ثانيهما**- متعلّق بمحذوف، و هو مفعول به ثانٍ، و «تبديلاً» مفعول به أوّل.

٢٤- (و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم و كان اللّٰه بما تعملون بصيراً)

الواو استئنافية، و «هو» مبتداء، و «الّذي» موصولة، و «كفّ» صلتها لا محلّ لها، و جملة «الّذي كفّ» في موضع رفع، خبر «هو» و جملة «هو الّذي...» مستأنفة لا محلّ لها، و «أيديهم» مفعول به، و «عنكم» متعلّق بـ«كفّ» و «أيديكم عنهم» معطوف على «أيديهم عنكم» و في «ببطن» وجهان **أحدهما**- متعلّق بحال من الضّميرين في «عنكم و عنهم». **ثانيهما**- متعلّق بـ«كفّ» و «بطن» أُضيف إلى «مكّة» و هي غير منصرفة للعلميّة و التّأنيث لأنّها معرفة إسم مؤنّث، و هي إسم علم للمدينة الّتي وُلِد فيها رسول اللّٰه ﴿صلّى اللّٰه عليه وآله﴾.

و «من بعد» متعلّق بـ«كفّ» و «أن» حرف مصدريّ، و «أظفر» فعل ماضٍ من باب الإفعال و «كم» في موضع نصب، مفعول به، و المصدر المؤوّل: «أن أظفركم» في موضع جرّ لإضافة «بعد» إليه، و «عليهم» متعلّق بـ«أظفركم» و الواو عاطفة و «كان اللّه...» معطوفة على المستأنفة لا محلّ لها، و في «ما» وجهان: **أحدهما**- حرف مصدريّ، و المصدر المؤوّل: «ما تعملون» مجرور بالباء متعلّق بـ«بصيراً». **ثانيهما**- إسم موصول في موضع جرّ، متعلّق بـ«بصيراً» و العائد محذوف، و الجملة بعدها صلتها، و «بصيراً» خبر «كان».

٢٥-(هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه ولو لا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل اللّه في رحمته من يشآء لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

«هم» مبتداء، و «الّذين» موصولة، و «كفروا» صلتها لا محلّ لها، و جملة «الّذين كفروا» في موضع رفع، خبر «هم» و جملة «هم...» مستأنفة لا محلّ لها، و الواوات الأربع في الآية كلّها عاطفة، و «صدّوا» معطوفة على «كفروا» لا محلّ لها، و «كم» في موضع نصب، مفعول به، و «المسجد» متعلّق بـ«صدّوكم» و «الحرام» نعت لـ«المسجد» و في «والهدى» وجوه: **أحدها**- معطوف على كاف الخطاب: «كم» من عطف الظّاهر على الضّمير. **ثانيها**- أن يكون مفعولاً معه، و الواو للمعيّة. ثالثها- قُرِيء بالجرّ عطفاً على «المسجد الحرام» بحذف المضاف أي نحر الهدي. رابعها- قُرِيءَ بالرّفع على إضمار: و صدّ الهَدْيُ.

و «معكوفاً» إسم مفعول، منصوب، حال من «الهدى» و «أن» حرف مصدريّ و نصب، و «يبلغ» فعل مضارع، منصوب بـ«أن» فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «الهدى» و «محلّه» مفعول به، و في المصدر المؤوّل: «أن يبلغ...» وجوه: **أحدها**- في موضع نصب، بنزع الخافض، متعلّق بـ«صدّوكم» أي صدّوكم عن بلوغ الهدي أو من

بلوغ الهدى محلّه. **ثانيها**– متعلّق بـ«معكوفاً» أي محبوساً عن بلوغ محلّه. **ثالثها**– بدل اشتمال من الهدي أي صدّوا بلوغ الهدى أي مسدّداً بلوغ الهدى محلّه. **رابعها**– في موضع نصب، على أنّه مفعول لأجله بحذف مضاف أي صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محلّه أو هو علّة لـ«معكوفاً» أي لأجل أن يبلغ محلّه.

و «لولا» حرف امتناع لوجود شرط غير جازم، و «رجال» مبتداء مرفوع، و الخبر محذوف، تقديره: لولا رجال موجودون بمكّة. قدّر كذلك للتّغليب. و جملة «لولا رجال...» معطوفة على المستأنفة لامحلّ لها، و جواب الشّرط محذوف، تقديره: أى لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين أظهر الكفّار الجاهلين، فيصيبهم بإهلاكهم مكروه لأذن لكم في الفتح أو لما كفّ أيديكم عنهم. و جملة: «لم تعلموهم» في موضع رفع، نعت لـ «رجال و نساء»، و «مؤمنون» نعت لـ«رجال» و «نسآء مؤمنات» معطوفة على «رجال مؤمنون» و «أن» حرف مصدريّ، و نصب، و «تطؤوا» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، منصوب بـ«أن» بحذف نون الرّفع، و «هم» في موضع نصب، مفعول به، و في المصدر المؤوّل: «أن تطؤوهم» وجهان: **أحدهما**– في موضع رفع، بدل اشتمال من «رجال... و نسآء...» أى: و لولا وطء رجال... و نساء...» **ثانيهما**– في موضع نصب، بدل من ضمير الغائب المفعول في «تعلموهم» أى: لم تعلموا و طأهم.

الفاء سببيّة، و «تصيب» فعل مضارع من باب الإفعال، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد الفاء، في موضع نصب، مفعول به، و «منهم» متعلّق بـ«تصيبكم» و «معرّة» فاعل «تصيب» و جملة «تصيبكم...» معطوفة على جملة «تطؤوهم» لا محلّ لها، و في «بغير» وجهان: **أحدهما**– متعلّق بمحذوف، حال من الكاف في «تصيبكم» **ثانيهما**– متعلّق بمحذوف، نعت لـ«معرّة».

و اللام للتّعليل، و «يدخل» فعل مضارع من باب الإفعال، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و المصدر المؤوّل: «أن يدخل...» في موضع جرّ باللام، متعلّق بفعل محذوف أي: لم يأذن اللّٰه بالفتح ليدخل... و «في رحمته» متعلّق بـ«يدخل» و «مَن» إسم موصول، في موضع نصب، مفعول به، و «يشآء» صلة الموصول لامحلّ لها، على حذف العائد، و

«لو» حرف شرط غير جازم، و «تزيّلوا» فعل ماضٍ لجمع المذكّر الغائب، و جملة «تزيّلوا» مستأنفة لا محلّ لها، و اللام واقعة في جواب «لو» و «عذّبنا» فعل ماضٍ لجمع التكلّم معالغير، جواب شرط غير جازم: «لو» لا محلّ لها و «الّذين» في موضع نصب، مفعول به، و «كفروا» صلة «الّذين» و «منهم» متعلّق بحال من فاعل «كفروا» و «عذاباً» مفعول مطلق، منصوب، و «أليماً» نعت لـ«عذاباً».

۲۶- (إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل اللّٰه سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها و كان اللّٰه بكلّ شيء عليماً)

في «إذ» وجوه: **أحدها**- ظرف للزّمن الماضي، في موضع نصب، متعلّق بـ«عذّبنا» أو بـ «صدّوكم». **ثانيها**- متعلّق بمضمر هو أحسن اللّٰه تعالى إليكم و أيّاماً كان إذ جعل... **ثالثها**- إسم ظرفيّ، مفعول به لفعل محذوف أى اذكروا حين...» أُضيف إلى «جعل» فعل ماضٍ، و في فاعله وجهان: **أحدهما**- ضمير مستتر فيه، يعود على «اللّٰه» **ثانيهما**- «الّذين» في موضع رفع، فاعل «جعل» و جملة «جعل...» في موضع جرّ، لإضافة «إذ» إليها، و «كفروا» صلة «الّذين» لا محلّ لها، و في «قلوبهم» وجهان: **أحدهما**- متعلّق بمحذوف، و هو راسخة، مفعول به ثان لـ«جعل» إن كان بمعنى صيّر. و «الحميّة» مفعول به أوّل، و «حميّة» أُضيفت إلى «الجاهلية» بدل من «الحميّة» **ثانيهما**- متعلّق بـ«جعل» إن كان بمعنى ألقى.

في الفاء وجهان: **أحدهما**- عاطفة، و جملة «أنزل اللّٰه» معطوفة على المستأنفة المقدّرة لا محلّ لها أي: فهمّ المسلمون أن يخالفوا أمر رسول اللّٰه (صلى الله عليه و آله) في صلح الحديبيّة، و دخلوا من ذلك في أمر موبق أو يساور قلوبهم الشكّ فأنزل اللّٰه سكينته. **ثانيهما**- تفريع على قوله: «جعل الّذين كفروا...» يفيد نوعاً من المقابلة كأنّه قيل: جعلوا في قلوبهم الحميّة فقابلهم اللّٰه تعالى بإنزال السّكينة... و «سكينته» مفعول به، و «على رسوله» متعلّق بـ«أنزل» و كذلك «على المؤمنين» و جملة «ألزم» معطوفة على جملة

«أنزل...» لا محلّ لها، و «هم» في موضع نصب، مفعول به أوّل، و «كلمة التّقوى» مفعول به ثانٍ.

في الواو وجهان: **أحدهما** – عاطفة، و جملة «كانوا أحقّ بها» معطوفة على «أنزل...» لا محلّ لها. **ثانيهما** – حاليّة، فالجملة في موضع نصب، حال من ضمير الجمع في «ألزمهم» بتقدير «قد» أو بدونه. و «بها» متعلّق بـ «أحقّ» و «أهلها» معطوف على «أحقّ» و الضمير: «ها» يعود على «التّقوى» أو على «كلمة التّقوى» و الواو استئنافية، و «بكلّ شيء» متعلّق بـ«عليماً» و جملة «كان اللّٰه...» مستأنفة لا محلّ لها.

۲۷– (لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّٰه آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً)

اللّام موطئة للقسم المقدّر، و «قد» حرف تحقيق، و «صدق» فعل ماضٍ، و «اللّٰه» فاعل الفعل، و الجملة جواب القسم المقدّر لا محلّ لها، و جملة القسم المقدّرة مستأنفة لا محلّ لها، و «رسوله» مفعول به أوّل، و في «الرّؤيا» وجوه: **أحدها** – مفعول ثانٍ لـ«صدق» **ثانيها** – منصوب بنزع الخافض أي في رؤياه. **ثالثها** – على تقدير مضاف أي تأويل الرّؤيا، فحذف المضاف، و لابدّ من هذا الحذف لأنّ الرّؤيا مخايل ترى في النّوم، فلا يحتمل صدقاً و لا كذباً، و إنّما يحتمل الصّدق و الكذب تأويلها.

و في «بالحقّ» وجوه: **أحدها** – متعلّق بحال من «الرّؤيا» أي متلبّسة بالحقّ. **ثانيها** – أنّ بالحقّ صفة لمصدر محذوف، متعلّق بـ«صدق» أي صدقه فيما رأى صدقاً متلبّساً بالحقّ. **ثالثها** – هو قسم إن وقف على «الرّؤيا» لأنّ الحقّ إسم من أسمآء اللّٰه تعالى أو لأنّ المراد بالحقّ، نقيض الباطل. رابعها – حال من «اللّٰه» أو من «رسوله» **خامسها** – ظرف لغو لـ«صدق».

و اللام لام قسم مقدّر، و «تدخلنّ» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، مؤكّد بنون الثّقلية، بعد حذف واو الجمع لدلالة الضّمّة عليها، و حذف نون الرّفع، لتوالي الأمثال، و

جملة «تدخلنّ» جواب القسم المقدّر الثّاني لا محلّ لها، و جملة القسم المـقدّرة الثّـانية مستأنفة مفسّرة للرّؤيا، و «المسجد» مفعول به، و «الحرام» نعت لـ«المسـجد» و «إن» حرف شرط، و «شآء اللّٰه» فعل الشّرط في موضع جزم، و الجملة معترضة لا محلّ لها، و جواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله.

و «آمنين» حال مقارنة من فاعل «تدخلنّ» و كذلك «محلّقين» و لكنّه حال مقدّرة لأنّ الدخول في حال الإحرام لا في حال الحلق و التقصير، ويجوز أن يكون حالاً من «آمنين» و المراد محلّقاً بعضكم رأس بعض، و مقصّراً آخرون، ففي الكلام تقدير أو فيه نسبة ما للجزء إلى الكلّ و القرينة عليه أنّه لايجتمع الحلق و هو معروف، و التقصير و هو أخذ بعض الشّعر فلابدّ من نسبة كلّ منهما لبعض مـنهم. و «رؤوسكـم» مـفعول بـه لـ«محلّقين» و «مقصّرين» معطوف على «محلّقين» و «لا» نافية، و «تخافون» فعل مضارع لجمع المذكّر المخاطب، و في جملة «لاتخافون» وجوه: **أحدها**- في موضع نصب، حال من الضّمير في «آمنين» أو «محلّقين» أو «مقصرين» و تـقديره: غـير خـائفين. **ثـانيها**- مستأنفة لا محلّ لها أي لاتخافون أبداً. بياناً لجواب سؤال مقدّر كأنّه قيل: فكيف الحال بعد الدخول؟ فقيل: لاتخافون بعد الدّخول أبداً. **ثالثها**- حال من فاعل «لتـدخلنّ» لبيان الأمن بعد تمام الحج، و «آمنين» فيما تقدّم لبيان الأمن وقت الدّخول فلا تكرار بعد الدّخول؟ فقيل: لاتخافون بعد الدّخول أبداً.

الفآء في الموضعين عاطفة، و جملة «علم» معطوفة على جملة «صدق اللّٰه» لا محلّ لها، و في «ما» وجهان: **أحدهما**- إسم موصول في موضع نصب، مفعول به، و «لم» حرف جحد و جازم، و «تعلموا» مجزوم بـ«لم» بحذف نون الرّفع، و جملة «لم تـعلموا» صـلة الموصول لا محلّ لها، و العائد محذوف. **ثانيهما**- نكرة موصوفة في موضع نصب، و «لم تعلموا» في موضع نصب، نعت لها، و جملة «جعل» معطوفة على جملة «علم» لا محلّ لها، و «من دون ذلك» متعلّق بمحذوف، مفعول به ثانٍ، و «فتحاً» مفعول به أوّل، و «قريباً» نعت لـ«فتحاً».

٢٨-(هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه وكفى باللّه شهيداً)

«هو» مبتداء، و «الّذي» موصولة، و «أرسل» فعل ماضٍ من باب الإفعال، صلة الموصول لا محلّ لها، و جملة «الّذي أرسل» في موضع رفع، خبر «هو» و الجملة: «هو الّذي...» مستأنفة لا محلّ لها، و «رسوله» مفعول به، و «بالهدى» متعلّق بحال من «رسوله» أي متلبّساً بالهدى أو بمعنى: أرسله هادياً، و الواو عاطفة، و «دين» أُضيف إلى «الحقّ» معطوف على «الهدى» و اللام للتّعليل، و «يظهر» فعل مضارع، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و المصدر المؤوّل: «أن يظهر» في موضع جرّ باللام متعلّق بـ«أرسل» و الضّمير: «ه» في موضع نصب، مفعول به، و «على الدّين» متعلّق بـ«يظهر» و «كلّه» توكيد معنويّ للدّين، مجرور مثله، و أل في «الدّين» للجنس يريد به الأديان المختلفة كلّها.

الواو استئنافية، و «كفى» فعل ماضٍ، و «اللّه» مجرور لفظاً بالبآء الزّائدة، مرفوع محلّاً، فاعل «كفى» و جملة «كفى باللّه» مستأنفة لا محلّ لها، و في «شهيداً» وجهان: **أحدهما** - حال من «اللّه» **ثانيهما** - تمييز. و على كلا الوجهين تقديره: كفاكم اللّه إيّاهم شهيداً. فحذف مفعولي «كفى» فإنّه يتعدّى إلى مفعولين كقوله تعالى: «فسيكفيكهم اللّه» البقرة: ١٣٧).

٢٩- (محمّد رسول اللّه و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من اللّه و رضواناً في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد اللّه الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً)

في جملة «محمّد رسول اللّه» وجوه: **أحدها** - «محمّد» مبتداء و «رسول اللّه» خبره، و الجملة مستأنفة لامحلّ لها. **ثانيها** - «محمّد» خبر لمبتداء محذوف، و هو ضمير عائد إلى

«رسوله» في الآية السّابقة، و التقدير: هو محمّد﴿ﷺ﴾ و «رسول اللّٰه» عطف بيان، أو نعت أو بدل من «محمّد». **ثالثها** – «محمّد» مبتداء و «رسول اللّٰه» عطف بيان أو نعت أو بدل، و «الّذين معه» معطوف على «محمّد» و «أشدّآء» خبر «محمّد».

الواوات الخمس في الآية الكريمة كلّها عاطفة، و «الّذين» في موضع رفع، مبتداء، و «معه» متعلّق بمحذوف، صلتها، و «أشدّآء» جمع شديد، خبر «الّذين» و جملة «الّذين» معطوفة على جملة «محمّد رسول اللّٰه» لا محلّ لها. و قيل: «الّذين» في موضع جرّ، عطفاً على إسم الجلالة: «اللّٰه» أي و «رسول الّذين» و على هذا يكون «أشدّآء» خبراً لمحذوف أي هم أشدّآء. و «على الكفّار» جمع الكافر متعلّق بـ«أشدّآء» و «رحمآء» جمع رحيم، خبر ثان لـ«الّذين» و يقرأ «أشدّآء – و رحمآء» بالنّصب على الحال من الضّمير المرفوع في الظّرف و هو «معه» و «بينهم» ظرف، منصوب، متعلّق بـ«رحمآء». و «ترى» فعل مضارع للمفرد المذكّر المخاطب، من رؤية البصر، و «هم» في موضع نصب، مفعول به، و «ركّعاً» جمع راكع، حال من الضّمير: «هم» و كذلك «سجّداً» جمع ساجد، و قيل: «سجّداً» حال من الضّمير في «ركّعاً» مقدّرة. و في جملة «تراهم» وجهان: **أحدهما** – في موضع رفع، خبر ثالث لـ«الّذين» **ثانيهما** – مستأنفة لا محلّ لها.

و «يبتغون» فعل مضارع لجمع المذكّر الغائب من باب الافتعال، على حذف لام الفعل، و في جملة «يبتغون» وجوه: **أحدها** – في موضع رفع، خبر رابع لـ«الّذين» لأنّ جملة «يبتغون» سيقت لبيان غايتهم في الحياة مطلقاً. **ثانيها** – مستأنفة لا محلّ لها، كأنّها جواب لسئوال نشأعن مواظبتهم على الرّكوع و السّجود، كأنّه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون... **ثالثها** – في موضع نصب، حال ثالثة من ضمير الجمع: «هم» بناءً على أنّ جملة «يبتغون» مسوقة لبيان غايتهم من الرّكوع و السّجود. تقديره: تراهم ركّعاً سجّداً مبتغين فضلاً...

و «فضلاً» مفعول به، و في «من اللّٰه» وجهان: **أحدهما** – متعلّق بـ«يبتغون» **ثانيهما** – متعلّق بمحذوف، نعت لـ«فضلاً» و «رضواناً» معطوف على «فضلاً» و «سيماهم» مبتداء، و «في وجوههم» متعلّق بمحذوف، هو خبر «سيماهم» و في جملة «سيماهم...» وجهان:

أحدهما- في موضع رفع، خبر خامس لـ«الّذين» ثانيهما- مستأنفة بيانيّة لا محلّ لها. و في «من أثر السّجود» وجوه: أحدها- متعلّق بحال من ضمير الاستقرار الّذي هو خبر. ثانيها- متعلّق بمحذوف هو خبر لـ«سيماهم». ثالثها- بيان لـ«سيماهم» أي انّ سجودهم للّٰه تعالى تذلّلاًو تخشّعاً أثّر في وجوههم أثراً.

«ذلك» مبتداء إشارة إلى الأوصاف المذكورة... و في «مثلهم» وجهان: أحدهما- خبر «ذلك» و «في التّوراة» متعلّق بمحذوف وهو حال من «مثلهم» و جملة «ذلك...» مستأنفة لا محلّ لها. ثانيهما- مبتداء ثانٍ، و «في التوراة» متعلّق بمحذوف، هو خبر «مثلهم» و جملة «مثلهم...» في موضع رفع، خبر «ذلك» و في «مثلهم في الإنجيل» وجهان: أحدهما- في موضع رفع، معطوفة على «مثلهم في التّوراة» ثانيهما- مستأنف منقطع عمّا قبله، و خبره «كزرع» فيكون وصفهم في التّوراة هو أنّهم أشدّآء على الكفّار -إلى قوله- من أثر السّجود» و وصفهم في الإنجيل هو أنّهم كزرع أخرج شطأه.

و في «كزرع» وجوه: أحدها- متعلّق بمحذوف، هو خبر لمبتداء محذوف، تقديره: هو أى المثل المذكور كزرع. أو هم كزرع. و جملة «هو كزرع» أو «هم كزرع» مستأنفة لا محلّ لها. ثانيها- متعلّق بمحذوف، و هو خبر لـ«مثلهم» الثّاني، و «في الإنجيل» حال من الضّمير في «مثلهم». ثالثها- متعلّق بمحذوف، هو حال من الضّمير في «مثلهم» أى مماثلين. رابعها- نعت لمصدر محذوف أى تمثيلاً كزرع. و «أخرج» فعل ماضٍ من باب الإفعال، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «زرع» و «شطأه» مفعول به، وجملة «أخرج شطأه» في موضع جرّ، نعت لـ«زرع».

و الفاءات الثّلاث في هذه الآية الكريمة عاطفة، و «آزر» فعل ماضٍ من باب الإفعال، و «ه» في موضع نصب، و الجملة معطوفة على «أخرج شطأه» و «استغلظ» فعل ماضٍ من باب الاستفعال، معطوفة على «آزره» و «استوى» فعل ماضٍ، من باب الافتعال، معطوفة على «استغلظ» و في «على سوقه» وجهان: أحدهما- متعلّق بـ «استوى» ثانيهما- متعلّق بمحذوف، حال أي كائناً على سوقه، قائماً عليها، و السّوق جمع ساق.

و «يُعجب» فعل مضارع من باب الإفعال، في موضع نـصب، حـال مـن فـاعل «استوى» أي حالكونه معجباً، و «الزّرّاع» جمع الزّارع، إسم فاعل، منصوب، مفعول به، و اللام للتّعليل، و «يغيظ» فعل مضارع، منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللّام، و «بهـم» متعلّق بـ«يغيظ» و «الكفّار» مفعول به، و المصدر المؤوّل: «أن يغيظ» في مـوضع جـرّ باللّام، متعلّق بفعل محذوف، تقديره: قوّاهم اللّه تعالى أو شبّهوا بذلك، أو جعلهم بهذه الصّفات... و يجوز أن يكون متعلّقاً بـ«وعد» الآتي...

جملة «وعد اللّه» مستأنفة لا محلّ لها، و «الّذين» في موضع نصب، مـفعول بـه، و «آمنوا» صلة الموصول لامحلّ لها، و «عملوا» معطوفة عـلى «آمـنوا» لا محـلّ لهـا، و «الصّالحات» مفعول بها، و «منهم» متعلّق بحال من فـاعل «عـملوا» و في «مـغفرة» وجهان: أحدهما- مفعول ثانٍ لـ«وعد» ثانيهما- منصوب بنزع الخافض، يقال: وعده الأمر و به. و «أجراً» معطوف على «مغفرة» و «عظيماً» نعت لـ«أجراً».

﴿البيان﴾

١- (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً)

بشارة عظيمة و وعد جميل حتم من اللّٰه تعالى للمؤمنين الصّادقين بالفتح و النّصرة على المشركين، خطاباً لرسوله﴿ﷺ﴾ على سبيلى التّاكيد و التعظيم، تأكيد لرفع شكّ المشكّكين، و ردّ إنكار المنكرين كعمر بن خطّاب و أذنابه كما روى أصحاب الصّحاح والمسانيد من العامّة...

في تفسير روح المعاني قال الآلوسى مفتي البغداد و هو من أعاظم العامّة: «أخرج أحمد و البخاري و التّرمذى و النّسآئى و ابن حبان و ابن مردويه عن عمر بن الخطّاب قال: كنّا مع رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في سفر فسئلته عن شيء ثلاث مرّات، فلم يردّ عَلَّيَ، فحركت بعيري، ثمّ تقدمت أمام النّاس و خشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما نشبت إذ سمعت صارخاً يصرخ بي، فوجفت و أنا أظنّ أنّه نزل فيّ شئ، فقال النّبيّ﴿ﷺ﴾ لقد أنزلت عَلَّيَ اللّيلة، سورة أحبّ إليّ من الدّنيا و ما فيها: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر». و قد واجه عمر بن الخطّاب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في حميّة بعد صلح الحديبيّة بكلام سخيف و بئيس كما

في الدّرّ المنثور: و أخرج البيهق عن عروة قال: أقبل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من الحديبيّة راجعاً، فقال رجل (عمر بن الخطّاب) من أصحاب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: و اللّٰه

ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت، و صُدَّ هَدْيُنا و عكف رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالحديبيّة، ورد رجلين من المسلمين خرجا، فبلغ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قول رجال من أصحابه: إنّ هذا ليس بفتح، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بئس الكلام، هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح عن بلادهم، يسئلوكم القضيّة و يرغبون إليكم في الإياب، و قد كرهوا منكم ما كرهوا، و قد أظفركم اللّٰه عليهم، و ردّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح أنسيتم يوم أُحُد إذ تصعدون و لاتلوون على أحد، و أنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤكم من فوقكم و من أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنّون باللّٰه الظّنونا؟ قال المسلمون: صدق اللّٰه و رسوله هو أعظم الفتوح و اللّٰه يا نبيّ اللّٰه ما فكرنا فيما فكرت فيه و لأنت أعلم باللّٰه و بالامور منّا فأنزل اللّٰه سورة الفتح».

و يجابه﴿صلى الله عليه و آله﴾ مرّة اخرى بقولته: «فِلمَ تعطى الدّنيّة في ديننا؟!» فأجابه رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: قائلاً: «أنا عبد اللّٰه و رسوله لن أُخالف أمره و لن يضيعني».

و في نوني الجمع للتكلّم مع الغير: «إنّا فتحنا» تنويه بعظم الفتح الّذي يسّره اللّٰه تعالى لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الاهتمام بمضمون كلامه و تقريره، و إبراز كمال العناية به، و إظهار جلاله و عظمته، و علمه و حكمته، و تدبيره و قدرته.

الفتح - في الأصل -: هو إزالة الاغلاق و فتح البلد و الظّفر به عنوة أو صلحاً بحرب أو بغيره لأنّه منغلق قبل الظّفر به، فإذا ظفر به و سلّط عليه فقد فتح، و قد سمّي صلح الحديبيّة فتحاً لاشتراكهما في الظّهور و الغلبة على المشركين، فانّهم لم يسئلوا الصّلح إلّا بعد ما ظهر عليهم المسلمون، فتسمية الصّلح فتحاً من باب الاستعارة التّبعيّة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصل في تحقّق الوقوع، و يشبه الماضي بالحاضر في كونه نصب العين واجب المشاهدة، ثمّ يستعار لفظ أحدهما للآخر. و فيه تسلية لقلوب المؤمنين حيث صاروا محزونين من تأخير الفتح الّذي وعدهم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ به.

و يجوز أن يكون صلح الحديبيّة سبباً لفتح مكّة المكرّمة، فما كان فتح أعظم من هذا الصّلح إذ به اختلط المشركون بالمؤمنين، و سمعوا كلامهم، و تمكّن الإسلام من قلوبهم، و

أسلم في ثلاث سنين خلق كثير، و كثر بهم سواد الإسلام، و بنآءً على هذا فتسمية الصّلح فتحاً من باب المجاز المرسل، إذ سمّى السّبب باسم المسبّب، و لا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة، فيكون استعمال أحدهما في الآخر باعتبار كلّ، نوعاً من المجاز كما في المشفر و الشّفه الغليظة لإنسان.

و إسناد الفتح المراد به الصّلح الّذي هو فعل رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى اللّه جلّ وعلا مجاز من إسناد ماللقابل للفاعل الموجد، و في ذلك تنويه لشأن الصّلح و تعظيم لرسول اللّه﴿ﷺ﴾ و يجوز أنّ الفتح قد اسند إلى اللّه سبحانه لكونه من الامور الغريبة العجيبة الّتي خارق العادة قد يجريها من أيدي أنبيآئه و رسله و أوصيآئهم صلوات اللّه عليهم أجمعين كالرّمي بالحصى المشار إليه بقوله تعالى: «و ما رميت إذ رميت و لكنّ اللّه رمى» الأنفال: ١٧) و في إضافة الفتح إلى نفسه تعالى إشعار بأنّ الفتح من عند اللّه سبحانه لا بكثرة العَدَد و العُدَد، و أكّده بالمصدر و وصفه بأنّه مبين لتضمّنه النّصر و التّأييد.

و المراد بالفتح هنا صلح الحديبيّة «و الحديبيّة قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكّة المكرّمة» سمّيت باسم بئر هناك، و كان قد غاض مآؤها حتّى لم يبق فيها قطرة، فأتاها رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فجلس على شفيرها، ثمّ دعا بإناء من مآء فتوضّأ ثمّ تمضمض و مجّه فيها، فدرّت البئر بالماء حتّى شرب جميع من كان معه﴿ﷺ﴾ و ركابهم. و من المحتمل أن يكون ذلك إخباراً عن جعل مشركي مكّة في الحديبيّة مغلوبين خائفين طالبين للصلح، فيكون الفتح مجازاً عن ذلك و إسناده إليه سبحانه حقيقة و قد خفي ما كان في الحديبيّة فتحاً على بعض الصّحابة حتّى بيّنه رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و من المحتمل أن يكون المراد بالفتح فتح مكّة كما عليه جماعة من المفسّرين.

و قد عبّر عن المستقبل بصيغة الماضي، حيث إنّ الفتح لم يقع بعد، فإنّ السّورة نزلت حين رجوعه﴿ﷺ﴾ من الحديبيّة قبل عام الفتح لتنزيله منزلة المحقّق الموجود، فخامة و دلالة على علوّ شأن المخبر و صدقه و عزّ سلطانه، و أنّ اللّه تعالى إذا أراد أمراً تحقّق لا محالة، و أنّه إذا أخبر عن حادث فهو في تحقّقه و تيقّنه بمنزلة الكائن الموجود لما عنده من أسبابه القريبة أو البيعدة.

و فيه تثبيت و تطمين للمؤمنين و ايذان لهم بأنّ ما كان قد كان فتحاً مبيناً، و مقدّمة لنصر قويّ عظيم ينالونه تحت راية رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾.

و في حذف المفعول دلالة على أنّ الغرض هو نفس الفتح، و ايذان بأنّ مناط التبشير هو نفس الفتح الصّادر عن اللّٰه جلّ‌وعلا لا خصوصيّة المفتوح، و يجوز أن يكون حذفه لقصد تعدّدالفتح كفتح خيبر و فتح مكّة المكرّمة، و تقديم الجار و المجرور: «لك» على المفعول المطلق: «فتحاً مبيناً» مع أنّ الأصل هو تقديمه على سائر المفاعيل للاهتمام بكون ذلك نفعاً لرسوله﴿ﷺ﴾ أو لأنّه مدار الفآئدة.

۲- (ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يُتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً)

التفات من الماضي إلى المستقبل، و من التكلّم إلى الغيبة مع ذكر إسم الجلالة: «اللّٰه» المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة مشعراً بأنّ كلّ واحد ممّا انتظم في العاقبة و النّتيجة من أفعاله جلّ‌وعلا صادر عنه تعالى من حيثيّة غير حيثيّة اخرى، مترتّبة على صفة من صفاته سبحانه، و قد عبّر عنه تعالى في مقام المغفرة باسم الجلالة، المشعر بصفات الجمال و الجلال، مشعراً بسبق مغفرته جلّ‌وعلا على عذابه إطلاقاً أي سواء أكان عنده ذنب أم بحساب غيره!

و في إسناد المغفرة إلى اللّٰه تعالى باسم الجلالة بعد إسناد الفتح إليه سبحانه بنونى العظمة ايماء إلى أنّ المغفرة ممّا يتولّاها هو جلّ‌وعلا بذاته، و أنّ الفتح ممّا يتولّاه تعالى بالوسائط و الأسباب... و من عادة الملوك و العظمآء أن يعبّروا عن أنفسهم بصيغة الجمع للتكلّم، لأنّ ما يصدر عنهم غالباً باستخدام توابعهم...

و قد سبق آنفاً وجه تقديم «لك» على المفعول المطلق: «لك فتحاً» و ههنا على المفعول الصّريح: «لك... ما تقدّم- و ما تأخّر» و «ما» للعموم، و «تقدّم» و «تأخّر» للإحاطة كناية عن الكلّ...

إن تسئل: ما هو الذّنب الّذي صدر عن رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فكانت المغفرة من

نتآئج الفتح و ثمراته مع أنّ الأنبيآء و المرسلين عليهم صلوات اللّٰه هم معصومون من الذّنب و الخطأ؟ و لماذا أفرد الذّنب المغفور، و قد أثناه بالمتقدّم و المتأخّر؟ هل هما ذنب واحد أو ذنبان؟ و لو كان واحداً لاقتضت البلاغة أن يقال: ما تقدّم و ما تأخّر من ذنبك؟ و لو كان ذنبين أو أكثر فليقل: من ذنبيك أو من ذنوبك؟ و ما هو الذّنب المتقدّم و ما هو الذّنب المتأخّر؟ و ما الرّابطة بين الفتح و بين مغفرة الذّنب؟ و كيف يغفر اللّٰه تعالى ذنب رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ من دون استغفاره؟؟؟ و كيف يراه مذنباً و قد نفى عنه الغواية: «ما ضلّ صاحبكم و ما غوى» النجم: ٢)؟ و كلّ غواية من سلطان الشيطان: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢)؟؟؟

تجيب عنه: أنّ ما يستفاد من الأدلّة النّقليّة القاطعة و البراهين العقليّة السّليمة عن شوائب الأوهام: أنّه ليس المراد بالذّنب في الآية الكريمة معصية و لا خطأ كما توهّمة متفسّروا العامّة، و لا تركاً لاولى كما زعمه بعض النّاس، و لا المراد بالمغفرة ترك العقاب على المعصية و ترك العتاب على الخطأ، و لا الإغماض عن ترك الاولى، و إنّما المراد بالذّنب فيها هو ما ارتكبه رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بحساب مشركي مكّة من قيامه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بدعوتهم إلى التّوحيد و العبادة للّٰه تعالى وحده، و رفض الأنداد، إذ جعل الآلهة إلهاً واحداً، و ردعهم عن عبادة غيره و سفّه أحلامهم و كذّب آرآئهم... حتّى قالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب» ص: ٥).

فكان قيامه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بهذه الدّعوة ذنباً عند هؤلآء المشركين إذ تشكّل خطراً حاسماً لجذور الشّرك و الطّغيان، و بعثهم أن يجندوا كافة الطّاقات لإماتتها في نطفتها، و إما طتها و حطّها عن درجتها، و فاعليّتها، و قد فعلوا ما فعلوا، حتّى رموا صاحبها بالكذب و الكهانة، و السّحر و الجنون، و الشّعر و الافتراء و سخروا منه و كذّبوه حتّى اضطرّ إلى الهجرة، فهذا ذنبه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فيما تقدّم على الهجرة، ثمّ أدامه بعدها حتّى وقعت له﴿صلى الله عليه و آله﴾ الحروب و المغازى مع المشركين، و هذا ذنبه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فيما تأخّر عن الهجرة حتّى بعد الفتح من تكسيره﴿صلى الله عليه و آله﴾ أصنامهم و تحطيمه أوثانهم و دخوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة عنوة... فذنبه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بحسابهم واحد شامل لحياته الرّساليّة ما تقدّم من الهجرة و ما تأخّر عنها،

و كان هو أخطر ذنب عندهم جنّد الطّاقات الشّيطانيّة ضدّ صاحبها إذ يرصدون كلّ مرصد لخفق صوتها و محق صيتها، فما كانوا ليغفروا له﴿صلى الله عليه و آله﴾ ذلك ما داموا على شوكة و مقدرة، و لكن اللّه تعالى فتح بيده مكّة المكرّمة، فأذهب بشوكتهم و أخمد نار أحقادهم، فكان عاقبة الفتح أن يستر عليه﴿عليه السلام﴾ ما كان لهم عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الذّنب، و آمنه منهم، كما عفا تعالى عن مسيئهم له﴿صلى الله عليه و آله﴾ و وسعهم بصدره الرّحيب و حاطهم منه بخلقه الكريم غير آخذ بثاره منهم، و هم لايشكّون أنّ محمّداً﴿صلى الله عليه و آله﴾ لابدّ و أن يأخذ بحقّه من كلّ ما ناله بسوء، فلمّا رأوا منه العفوو غضّ النّظر عمّا ارتكبوا معه من جرآئم طابت نفوسهم له﴿صلى الله عليه و آله﴾ و طهرت ضمآئرهم نحوه فأخذوا يدخلون في دين اللّه أفواجاً...

و في الآية الكريمة و تاليها تقرير لنتآئج الفتح الآتية و ثمراته الأربع: **الاولى:** أن يستر على رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ما كان لمشركي مكّة عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الذّنب، من قبل الفتح و بعده. **الثّانية:** إتمام نعمته عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بنصب عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ للامامة و الخلافة بعده﴿صلى الله عليه و آله﴾ باتّضاح سبل الحقّ و استقامة مناهجه... يوم الغدير ما لم يكن قبل الفتح. **الثّالثة:** الهداية- في تبليغ الرّسالة و إقامة مراسم الوصاية في أمر الولاية- إلى طريق يؤدّى سالكه إلى الخير و الكمال في الحياة الدّنيا، و إلى الجنّة و نعيمها في الدّار الآخرة، و إن كان أصل تبليغ الرّسالة حاصلاً قبل الفتح. و **الرّابعة:** النّصرة الالهيّة الّتي فيها العزّ والمنعة و نفاذ الكلمة و رهبة الجانب و حمى الذّمار، و عصمته﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الكافرين و المعاندين: «و اللّه يعصمك من النّاس» المائدة: ٦٧).

٣-(و ينصرك اللّه نصراً عزيزاً)

بيان دعامة رابعة للحكومة الإسلاميّة، و في تكرار إسم الجلالة: «اللّه» إظهار بكمال العناية الإلهيّة بشأن هذا النّصر كما يعرب عنه تأكيده بقوله تعالى: «نصراً عزيزاً» و لكونه خاتمة الغايات و نهاية الثّمرات للفتح المبين الّذي بدء بصلح الحديبيّة و ختم بفتح مكّة المكرمة، و قد وُصِفَ صلح الحديبيّة بأنّه فتح مبين على حين وصف فتح مكّة الّذي

سيلي هذا الفتح بأنّه نصر عزيز، و ذلك لأنّ صلح الحديبيّة لم يكن فيه الفتح عن قوّة غالبة قاهرة، إذ كان لا بزال في قريش بعد، شيء من القوّة و الشّوكة، و الاستعداد للقآء رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين...

و أمّا فتح مكّة المكرّمة فقد كان تحت قوّة قاهرة و سلطان غالب، فلم يكن في قريش بعده، من تحدّثه نفسه بلقآء النّبيّ الكريم ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين، و التّصدّى لهذا الجيش الغالب الّذي دخل مكّة على أهلها، و أعطاهم الأمان على حياتهم و أموالهم إذا هم دخلوا في دين اللّه أفواجاً، فهو نصر عزيز غالب لا يلقاه القوم إلّا في ذلّة و انكسار و ذهاب شوكتهم و هدم بنيان شركهم و زهوق ملّتهم... و من المحتمل أن يكون إظهار اسم الجلالة في الدّعامة الاولى: «ليغفر اللّه» و في الدّعامة الرّابعة و هي الاخرى: «ينصرك» إشارة إلى أنّ اللّه تعالى هو الّذي يتولّى أمرك في الدّنيا و الآخرة لأنّ المغفرة تتعلّق بالآخرة، و النّصر يتعلّق بالدّنيا.

و في إسناد العزّ والمنعة إلى النّصر و هو للمنصور إسناد مجازيّ، فإنّ صيغة فعيل هنا للنّسبة، فالعزيز بمعنى ذي العزّة لا ذلّة، بعدها، و إن جاز وصف النّصر بالعزيز بنآء على أحد معاني العزّة و هو قلّة الوجود و صعوبة المنال، فالمعنى: ينصرك اللّه نصراً يقلّ وجود مثله، و يصعب مناله أو لا يوجد مثله، إذ فتح اللّه تعالى لرسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة و خيبر و الطّآئف بعد صلح الحديبيّة، و انبسط الإسلام في جزيرة العرب و حواليها، و انهدم بنيان الشّرك و الطّغيان، و ذلّ اليهود، و خضع له نصارى الجزيرة و المجوس القاطنون بها، حتّى أكمل سبحانه في حجّة الوداع للمؤمنين دينهم بولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و أتمّ بها عليهم نعمته، و رضي بها لهم الإسلام ديناً و حصل بها تبليغ الرّسالة إذ قال: «اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم و اخشون اليوم اكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً - يا أيّها الرّسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته و اللّه يعصمك من النّاس» المائدة: ٣ و ٦٧).

٤- (هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و للّه جنود السّموات و الأرض و كان اللّه عليماً حكيماً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير ما أفاض على المؤمنين الصّادقين من مبادى الفتح، فأنزل الوقار و الثّبات و الطّمأنينة في قلوبهم بسبب صلح الحديبيّة، إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، و الطّمأنينة بعد الجزع ليقوى ايمانهم و ثقتهم به.

و إنّ المراد بإنزال السّكينة في قلوبهم ايجادها فيها، و قد عبّر عن الايجاد بالإنزال ايمآءً إلى علوّ مبدء الايجاد، و شأن الموجود، و المراد بالسّكينة، الثّبات و طمأنينة النّفس و شدّة اليقين و الحالة الشّريفة بحيث لا تتزلزل القلوب عند الفتن، و لاتضطرب الضّمآئر لدى عروض الشّبهات... بل هي ايمان موهبيّ يتفرّع على الأعمال الصّالحة و المجاهدات الدّينيّة سوى الايمان الحاصل بالدّليل و البرهان، و لذا قال: «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» فتسهل لهم الأمور كلّها ما لايسهل لغيرهم...

و في **قوله تعالى:** «في قلوب المؤمنين» من تعليق الحكم على الوصف مشعراً بعلّيّة الوصف للحكم ما لايخفى على الأديب الأريب، فحكم إنزال السّكينة تختصّ بالمؤمنين، و هم بسبب ايمانهم مزيّة على غيرهم الّذين تضطرب نفوسهم لأوّل عارض من شبهة ترد عليها إذ لايجدون برد اليقين و روح الطّمأنينة في قلوبهم.

و **قوله سبحانه:** «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» بيان تعليليّ لإنزال السّكينة في قلوب المؤمنين، و المراد بزيادة الايمان اشتداده- مع ثبوت أصل الايمان يدلّ عليه قوله تعالى: «مع ايمانهم»- بالايمان الموهبيّ، أو كما قال بعض المعاصرين: إنّ الايمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتّب عليه آثاره العلميّة، و من المعلوم أنّ كلاً من العلم و الالتزام المذكورين ممّا يشتدّ و يضعف، فالايمان الّذي هو العلم المتلبّس بالالتزام يشتدّ و يضعف.

و **قوله عزّوجلّ:** «و للّه جنود السّموات و الأرض» مستأنف بيانيّ سيق لتشجيع المؤمنين و تقويتهم، و وعد لهم بالنّصر و الغلبة، و تهديد و وعيد للمشركين بأنّه تعالى لو شآء لأهلكهُم من غير قتال و لا جهاد و لكنّه عالم بأحوالهم و بما يخرج من أصلابهم

فيمهلهم لعلمه و حكمته، و لم يأمر المؤمنين بالقتال لعجز و احتياج، بل ليعرض المجاهدين لجزيل الثّواب و جميل الجزاء، و يبلو عباده بالقتال و الجهاد أيّهم أحسن طاعة و عملاً.

و في قوله جلّ وعلا: «و للّه جنود السّموات و الأرض» بعد قوله تعالى: «هو الّذي أنزل السّكينة...» دلالة على أنّ له تعالى جميع الأسباب و العلل الّتي في نظام الوجود كلّه، فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشآء و لايغلبه شيء في ذلك، و قد نسبت إلى زيادة ايمان المؤمنين بإنزال السّكينة في قلوبهم.

و قوله تعالى: «و كان اللّه عليماً حكيماً» بيان تعليليّ لقوله سبحانه: «و للّه جنود السّموات...» كما أنّه بيان تعليليّ لقوله عزّوجلّ: «هو الّذي أنزل السّكينة....» كأنّه قيل: أنزل السّكينة لكذا و له ذلك لأنّ له جلّ وعلا جميع الجنود و الأسباب في نظام الكون و نواميس الوجود كلّه لأنّه العليم على الإطلاق، و الحكيم على الإطلاق.

و في الآية الكريمة و تاليها بشارة للمؤمنين الصّادقين بإنزال السّكينة في قلوبهم، و إدخالهم الجنّة و تكفير سيّئاتهم... بعد البشرى لرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في قوله تعالى: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً...» بالفتح و ستر تبعاته، و إتمام نعمته عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الهداية الخاصّة و النّصرة الإلهية...

ولكلّ من رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين مقامه و منزلته من ربّ العالمين و سوابغ رحمته، و فواضل إحسانه، فلرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ هذا الفتح المبين... و للمؤمنين هذا الفوز العظيم... يحفظ به ايمانهم و يزكّيه و ينقّيه و ينمّيه، و يصنع لهم من الأحداث و المواقف ما يثبت به خطوهم على طريق الايمان، فلا تنال من ايمانهم الأحداث، و لا تتسرّب إلى مشاعرهم الوساوس و الاضطراب...

٥- (ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّئاتهم و كان ذلك عند اللّه فوزاً عظيماً)

تعليل بيانيّ ثالث لقوله عزّوجلّ: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين» بأنّ

هذه السّكينة الّتي أنزلها اللّه تعالى في قلوب المؤمنين هي الّتي امسكت بهم على طريق الايمان، و أمدتهم بعزآئم قادرة على ملاقاة الشّدائد و المحن الّتي ابتلوا بها من الطّغاة المشركين حتّى استطاع المؤمنون أخيراً أن يهزموا الشّرك و أن يدكّوا حصون الطّغيان...

و في هذا الصّراع الّذي احتدم بين المؤمنين و المشركين و المنافقين الّذين كانوا يتظاهرون بالايمان، يبطنون الشّرك و كانوا هم أعظم خطراً من المشركين كان الابتلاء الّذي أخذ به كلّ فريق مكانه من الايمان باللّه تعالى حقّاً أو الكفر به أو النّفاق بين الكفر و الايمان، حيث يجزى كلّ فريق، الجزاء الّذي يستحقّه من الثّواب و العقاب، فالمؤمنون و المؤمنات يدخلهم اللّه تعالى جنّات... متجاوزاً لهم عن سيّئاتهم الّتي لاتضرّ الايمان الصّادق.

و في ضمّ المؤمنات بالمؤمنين في إدخال الجنّة، دفع توهّم اختصاص الجنّة و تكفير السيّئات بالذّكور، أو لمشاركة المؤمنات في السّكينة بالمؤمنين، و في لفظ الايمان إشعار بعلّة الحكم فكأنّه تعالى قال: و أنتنّ أيّتها المؤمنات بسبب ايمانكنّ، مشاركات لهم فيها.

و قال بعضهم: ضمّ المؤمنات ههنا إلى المؤمنين بخلاف قوله: «قد أفلح المؤمنين»« و «بشّر المؤمنين» و نحوهما... و السّرّ فيه أنّ كلّ موضع يوهم اختصاص الرّجال به مع كون النّسآء مشاركات لهم ذكرهنّ صريحاً نفياً لهذا التّوهّم، و كلّ موضع لايوهم ذلك اكتفى فيه بذكر الرّجال لأنّهم الأصل في أكثر الأحكام و التّكاليف مثلاً، من المعلوم أنّ البشارة و النّذارة عامّة للنّاس قاطبة، فلم يحتج فيهما إلى ذكر النّسآء بخلاف هذه الآية، فإنّ إدخال الجنّة يوهم أنّه لأجل الجهاد مع العدوّ و الفتح على أيديهم، و المرأة لا جهاد عليها، فكان يظنّ أنّهنّ لايدخلن الجنّات، فنفى اللّه تعالى هذا الوهم، و كذا الكلام في تعذيب المنافقات و المشركات...

أقول: و في ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين، و ذكر المنافقات إلى جانب المنافقين و كذا ذكر المشركات إلى جانب المشركين توكيد بأنّ النّسآء في الدّعوة الإسلاميّة و ظروفها و مختلف صورها كانت ذات شخصيّة مستقلّة.

و في تقديم إدخال المؤمنين و المومنات جنّات على تكفير السّيّئات ايماء إلى أنّ سبب

الدّخول هو الايمان الصّادق، و تكفير السّيّئات هو الفرع الّذي يترتّب على أصله لا محالة، فدخول الجنّة أمر مقضيّ به لمن اتّصف بالايمان حقّاً، سوآء أكانت له سيّئات تكفّر أم لم تكن أصلاً.

و **قوله تعالى:** «و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً» مستأنف بيانيّ سيق لتقرير ما قبله، و حُسن مصير أهل الايمان و أنّ ذلك هو السّعادة حقيقة لاريب فيها لكونه عند اللّٰه تعالى كذلك و هو يقول الحقّ. و في تنكير «فوزاً» و توصيفه بـ«عظيماً» تفخيم لشأن ما ينال به المؤمنون و المؤمنات بحيث لايقادر قدره فإنّه منتهى ما تمتدّ إليه أعناق الهمم الرّفيعة من الجنّات العالية و نعيمها المقيم.

٦- (و يعذّب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظّانّين باللّٰه ظنّ السّوء عليهم دآئرة السّوء و غضب اللّٰه عليهم و لعنهم و أعدّ لهم جهنّم و سآءت مصيراً)

مستأنف بيانيّ سيق لترسيم صورة ما كان يدور في خَلد المنافقين و في خَلد المشركين من غلبة الظّنّ بهلاك رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين، و تعرّضهم لضربة شديدة، و ارتدادهم مخذولين من رحلتهم، و أنّ النّفاق و الشّرك على حدّ سوآء، ما كان إلّا عن سوء ظنّ باللّٰه سبحانه، و أنّه تعالى لايقوم على هذا الوجود حسب تقديرهم، و لايعلم ما تكنّ به ضمآئرهم، و ما تخفيه صدورهم، فهذا الظّنّ الباطل هو الّذي أفسد عليهم صلتهم باللّٰه تعالى، فلم يرجوا للّٰه و قاراً و لم يعملوا له حساباً، فسآء مصيرهم و وخمت عاقبتهم.

و في تقديم «المنافقين» على «المشركين» دلالة على خبث ماهيتهم، حيث إنّ النّفاق أغلظ إثماً و أشنع جرماً من الشّرك لأنّ الشّرك وجه واحد من وجوه الشرّ و الخباثة، و أمّا النّفاق فهو ذو وجوه كثيرة من الشّرّ و اللّئامة، يعيش بها المنافق و يلبسها وجهاً وجهاً، و يتبدّلها حالاً بعد حال، كما حصل من عمر بن الخطّاب في خطابه الهائج لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: في صلح الحديبيّة: «لِمَ تعطى الدّنيّة في ديننا؟» و كقولته الثّانية له﴿ﷺ﴾:

«أليس كنت تحدّثنا أنّه سنأتي البيت و نطوف به؟» و مقالته الثّالثة له﴿صلی الله علیه و آله﴾ في أمر الوصيّة و كتابتها قبل رحلته﴿صلی الله علیه و آله﴾: «إنّ هذا الرّجل ليهجر» و غيرها من مقالاته السّخيفة لرسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ الّذي يقول اللّٰه تعالى فيه: «و ما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى علّمه شديد القوى» النّجم: ۳-٥).

و ليس هذا إلّا من ظنّ السّوء باللّٰه سبحانه إذ خالف أمره و قوله و وعده: «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا» الحشر: ۷) و من ظنّ السّوء برسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾: أنّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ أعطى الدّنيّة في دين اللّٰه و نطق عن الهوى... أترى أنّ اللّٰه جلّ وعلا يبعث رسولاً يعطي الدّنيّة في دين اللّٰه و ينطق عن الهوى...؟؟؟!!! و هذا من أسوء الكفر باللّٰه تعالى و قائله هو أشدّ كفراً و نفاقاً.

و في التّقديم أيضاً دلالة على أنّ المنافقين أحقّ من المشركين بالعذاب، و أشدّ عذاباً منهم بما أوعدهم اللّٰه تعالى به: «إنّ اللّٰه جامع المنافقين و الكافرين في جهنّم جميعاً- إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار» النسآء: ۱٤۰ و ۱٤٥).

و ذلك أنّ المنافقين أعظم خطراً على الإسلام، و أكثر ضرراً على المؤمنين، و أصعب وقعاً عليهم من المشركين و الكافرين، فإنّهم متظاهرون بما بطنوا، فيفرّ منهم المؤمنون و يجتنبون، و أمّا المنافقون فيتظاهرون خلاف ما يبطنون و هنا الويل و الانحطاط و الشّرّ و الفساد...!

ومن وجوه تقديم تغذيب المنافقين، تعجيل المسرّة...

و قوله **تعالى**: «عليهم دائرة السّوء» إخبار عن وقوع السّوء بهم، و قضآئه عليهم، و قيل: دعآء عليهم. الدّآئرة- في الأصل -: عبارة عن الخطر المحيط بالمركز، ثمّ استعملت في الحادثة العظيمة المحيطة بمن وقعت عليه إلّا أنّ الغالب في استعمالها للمكروه و إضافة الدّآئرة إلى السّوء من إضافة العام إلى الخاصّ، فهي للبيان كخاتم فضّة، و المراد الإحاطة و الشّمول بحيث لايتخطّاهم السّوء و لايتجاوزهم.

و **قوله عزّوجلّ**: «و غضب اللّٰه عليهم و لعنهم...» مستأنف بيانيّ سيق لتقرير ما يستحقّون من الغضب و اللعنة و العذاب بسبب نفاقهم و شركهم... و في العطف بالواو

ايذان باستقلال كلّ واحد منها في الوعيد و أصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض.

و قوله سبحانه: «و سآئت مصيراً» بيان لوحدة مسآءة مصير الفريقين من المشركين و المنافقين و وحدة مآل أمرهم.

و لايخفى على الأديب الأريب: أنّه كما ترتّب على الفتح لرسول اللّه(ﷺ) أربعة امور: المغفرة، و إتمام النّعمة، و الهداية، و النّصرة، كذلك المؤمنون فازوا بأُمور أربعة: السّكينة و ازدياد الايمان، و دخول الجنّات و تكفير السّيّئات، و كذلك على المنافقين والمشركين أربعة امور: الغضب، و اللعنة، و جهنّم، و العذاب.

٧- (و للّه جنود السّموات و الأرض و كان اللّه عزيزاً حكيماً)

بيان تعليليّ لآيتي: (٥-٦) على حذو ما كان مثله في ذيل الآية الرّابعة بياناً تعليليّاً لصدرها، و هذه الآية الكريمة سيقت لتقرير سلطان اللّه تعالى المتمكّن في نظام الكون و نواميس الوجود و أنّه جلّ وعلا بيده الأمر كلّه، و له وحده جنود السّموات والأرض كلّها مسخّرة له، عاملة بمشيئته، فيعزّ المؤمنين بعزّته و ينصرهم و يغلبهم على المنافقين و المشركين بحكمته في الحياة الدّنيا، و يجزي كلاً بما يستحقّون من الجنّة و نعيمها، و من جهنّم و عذابها، فاللّه تعالى و هو كان و لايزال هو العزيز الحكيم القادر على ذلك، و يفعل ما فيه الحقّ و الحكمة و الصّواب.

٨- (إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً)

هذا فصل ثان من الفصول الأربعة لهذه السّورة المباركة، إلتفات من الغيبة إلى التكلّم خطاباً لرسوله(ﷺ) مستأنف بيانيّ سيق لتعريف رسوله(ﷺ) و تنويه شأنه و علوّ مقامه، و ذكر فوائد رسالته ليترتّب عليه ذكر البيعة، مع ما فيه من تقرير خبر آخر عن نبيّه الكريم(ﷺ) و ما له عند ربّه تعالى من العطايا الجليلة و المواهب العظيمة... فقد فتح اللّه جلّ وعلا له(ﷺ) هذا الفتح المبين، و وعده بغفرانه و إتمام نعمته و هدايته و

نصرته، و ذلك كلّه واقع من ورآء إحسان قد سبق، و فضل قد تقدّم من اللّٰه تعالى، و هو اصطفاؤه عزّوجلّ عبده محمّداً للرّسالة، و الّتي استحقّ بقيامه بحقّ الرّسالة و حمل أعبائها أن يعطى هذا العطآء الجزيل و أن يفتح له هذا الفتح المبين.

فاصطفاء النّبيّ الكريم ﴿عليه السلام﴾ للرّسالة منحة خالصة من اللّٰه جلّ وعلا و رحمة خاصّة ليس لسعى النّبيّ فيها دخل، و لا لجهاد رسول و لا اجتهاده إليها سبيل، فإنّ النّبوّة أمر لايناله أحد بعمل، و إنّ الرّسالة مطلب لايبلغها إنسان باجتهاد و انّه فضل خاص من فضل اللّٰه تعالى يؤتيه من يشآء و اللّٰه ذو الفضل العظيم: «و انّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» ص: ٤٧) «و لكنّ اللّٰه يجتبي من رسله من يشآء» آل عمران: ١٧٩).

و أمّا ما فتح اللّٰه تعالى به لنبيّه ﴿عليه السلام﴾ و ما غفر له من ذنبه، و ما أتمّ عليه نعمته، و ما هداه صراطاً مستقيماً و ما مكّن له من نصر، فهو- و إن كان من فضل اللّٰه تعالى و رحمته- فإنّ لرسول اللّٰه ﴿عليه السلام﴾ سبباً متّصلاً به، بما كان منه من جهاد و بلاء، في القيام بأمر ربّه، و الوفاء بأدآء الأمانة الّتي حملها...

و قُدِّم المسبب على السّبب أي قدّم الفتح و المغفرة و إتمام النّعمة و الهداية و النّصر، على اصطفآء النّبيّ ﴿عليه السلام﴾ للرّسالة، و على الجهاد الّذي جاهده من أجل الوفاء بها، تنبيهاً إلى أنّ هذه الأسباب هي مجرّد امور ظاهريّة، و أنّ ما يقضي به اللّٰه عزّوجلّ في خلقه لايتوقّف على سبب و أنّ ما قضى اللّٰه تعالى به لرسوله ﴿عليه السلام﴾ من فتح و مغفرة و هداية و نصر هو فضل خالص من فضل اللّٰه سبحانه و أنّ الرّسالة نعمة اخرى، و أنّ حَمْل أعبآئها... هو شكر لتلك النّعمة العظمى الّتي أقامت النّبيّ ﴿عليه السلام﴾ مقام الإمام للنّاس جميعاً.

٩- (لتؤمنوا باللّٰه و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً)

إلتفات من التكلّم إلى الغيبة، و من الخطاب للرسول المطلق ﴿عليه السلام﴾ إلى الخطاب لعموم النّاس، تقريراً لهم في كلّ ظرف من الظّروف، غرض إرسال هذا الرّسول الشّاهد المبشّر النّذير المستمرّ إلى يوم القيامة، و هو الايمان باللّٰه تعالى و رسوله ﴿عليه السلام﴾ و تعزير

رسوله﴿ﷺ﴾ و توقيره، و في ختامه التّسبيح للّٰه تعالى وحده بكرة و أصيلاً، تنبيهاً إلى أنّه: لولا الايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ لما كان للتعزير و التّوقير لرسوله﴿ﷺ﴾ فائدة كذلك لولا التّعزير و التّوقير لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لما كان للتّسبيح للّٰه جلّ‌وعلا نفع، فالأُمور الأربعة مرتبطة طوليّة كما أنّ الايمان برسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في طول الايمان باللّٰه تعالى.

و كما أنّ الرّسالة جآئت بصورة عامّة: «إنّا أرسلناك...» لكافّة النّاس من دون اختصاص بقوم دون قوم، كذلك المخاطبون المأمورون بالايمان... هم كافّة النّاس إلى يوم القيامة، دون المخاطبين زمن الوحي أو هذه الأُمّة كما زعمه بعض المفسّرين.

و **قوله تعالى:** «و تعزّروه...» إنّ التّعزير لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ هو في الوقت نفسه تعزير للّٰه تعالى و نصر عزيز من الله تعالى لرسوله و تأييد لدينه، و لكن إضافته لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ تكريم له لأنّه هو القائم على دين اللّٰه تعالى و حامل راية الجهاد في سبيل اللّٰه جلّ‌وعلا، و كذلك التّوقير.

١٠ -(إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه يد اللّٰه فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه اللّٰه فيسؤتيه أجراً عظيماً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير أنّ عقد الميثاق و المعاهدة مع رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ كعقده و المعاهدة مع اللّٰه سبحانه من حيث إنّه خليفته و رسوله﴿ﷺ﴾ و أن معاهدة المؤمنين لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ليست لحسابه﴿ﷺ﴾ و إنّما هي بيعة خالصة للّٰه جلّ‌وعلا و للجهاد في سبيله، و أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ قآئم بأمر اللّٰه سبحانه، قائد للمجاهدين في سبيله، و أنّ الأمر و إن لم‌يكن في ظاهره بيعاً و لاشرآء، و لكنّه في واقعه بيع ربيح، و قد سمّيت المعاهدة بالمبايعة الّتي هي مبادلة المال بالمال تشبيهاً لها بالمبايعة في اشتمال كلّ واحدة منهما على معنى المبادلة لأنّ المعاهدة أيضاً مشتملة على المبادلة بين التزام الثّبات في محاربة الكفّار و المشركين و الجهاد في سبيل اللّٰه جلّ‌وعلا، و بين ضمان رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لمرضاة اللّٰه تعالى عنهم و إثابته إيّاهم بجنّات النّعيم في مقابلة محاربة الكفّار

و المشركين و الجهاد في سبيل اللّٰه تعالى كما صرّح بذلك في قوله سبحانه: «إنّ اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة- و من أوفى بعهده من اللّٰه فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به» التّوبة: ۱۱۱).

فإطلاق إسم المبايعة على هذه المعاهدة استعارة تصريحيّة تبعيّة في الفعل.

و إنّ المبايعة وقعت قبل نزول الآية، فالتّعبير بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، استحضار صورة المبايعة و لايبعد أن تكون المبايعة هنا عامّة تشمل لكلّ بيعة بين رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين الّذين يستجيبون لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و يدخلون في دين اللّٰه تعالى في كلّ ظرف من الظّروف، فتدخل فيها البيعة على الايمان اطلاقاً كما تدخل فيها بيعة الرّضوان على القتال.

و ذلك أنّ الغرض من بيعة الرّسول﴿ﷺ﴾ وإطاعته، إطاعة اللّٰه سبحانه و امتثال أوامره لقوله عزّوجلّ: «من يطع الرّسول فقد أطاع اللّٰه» النّسآء: ۸۰).

و في الآية الكريمة تلقين مستمرّ المدى فيما يكون قد وجب على النّاس باعتناقهم الدّين الإسلامي و بايمانهم باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و كتابه، فإنّهم بذلك بمثابة من بايع اللّٰه سبحانه و رسوله على السّمع و الطّاعة و القيام بما أوجبه عليهم الكتاب و السّنّة الثّابتة من طريق أهل بيت النّبوّة المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين من واجبات ايجابيّة و سلبيّة متنوّعة و عدم إهمالها و التقصير فيها أو نقضها و مخالفتها...

فمبايعة اللّٰه جلّ وعلا بمعنى طاعته تعالى مشاكلة أو هو صرف مجاز أو مبالغة و كناية لتلازمهما و سّماها مبايعة تشبيهاً بعقد البيع، فإنّها مأخوذة من البيع بمعناه المعروف إذ كان من دأبهم أنّهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري، فكأنّهم كانوا يمثّلون بذلك نقل الملك التّصرّفات الّتي يتحقّق معظمها باليد إلى المشترى بالتّصفيق، و بذلك سمّي التّصفيق عند بذل الطّاعة بيعة و مبايعة، و حقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسّلطان مثلاً ليعمل به ما يشآء.

فمن بايع النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ فليستحضر بقلبه أنّه مبايع للّٰه تعالى على طاعته، مصمّم عزيمته على الوفاء.

في تلخيص البيان: قال السّيّد الشّريف الرّضي رضوان اللّه تعالى عليه في قوله تعالى: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّه يداللّه فوق أيديهم»: «هذه استعارة، و اليد ههنا تعرف على وجوه: أحدها - أن يكون المعنى عقد البيعة فوق عقدهم. و قيل: المراد قوّة اللّه تعالى في نصرة نبيّه﴿ﷺ﴾ فوق نصرتهم. و قيل: اليد ههنا بمعنى السّلطان و القدرة كما يقول القآئل: فلان تحت يد فلان أى تحت سلطانه و أمره فوق أمرهم. و قيل في ذلك: وجه آخر و هو أنّ العادة جارية في المبايعات و المعاقدات أن تقع الصّفقة بالأيدي من البايع و المشتري، و من هناك قالوا: صفقة رابحة، و صفقة خاسرة، فقيل: «يداللّه فوق أيديهم» ذهاباً إلى هذا المعنى كأنّه سبحانه قال: فالّذي أعطاكم اللّه في هذه المبايعة أعلا ممّا أعطيتم و أجلّ و أربح و أفضل» إنتهى كلامه.

أقول: و للمفسّرين و أهل البيان في المقام آراء مختلفة نشير إلى ما لايخلوفيه فائدة:

فمنها: أنّ قوله تعالى: «يد اللّه فوق أيديهم» من إطلاق إسم السّبب على المسبّب و ذلك أنّ المراد باليد القدرة، و القرينة هي استحالة ثبوت اليداللّه سبحانه، فلفظ «يد» مجاز مرسل علاقته السّببيّة لأنّ اليد سبب القدرة.

و قوله تعالى: «يداللّه فوق أيديهم» مستأنف، مؤكّد لما قبله على طريقة التّخييل، تأكيد لكون البيعة مع رسول اللّه﴿ﷺ﴾ هي البيعة مع اللّه سبحانه كأنّ يد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ الّتي تعلو على أيدى المبايعين لا بالعكس، هي يداللّه جلّ‌وعلا لأنّه منزّهٌ عن الجوارح و صفات الأجسام... و انّ حسن الاستعارة التخييليّة بحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك:

فلان بين أنياب المنية و مخالبها، ثمّ إذا نضمّ إليها المشاكلة كما في «يد اللّه فوق أيديهم» كانت أحسن و أحسن.

يعني: إنّ في اسم اللّه سبحانه استعارة بالكناية تشبيهاً له سبحانه بالمبايع، و اليد استعارة تخييليّة مع أنّ فيها أيضاً مشاكلة لذكرها مع أيدي النّاس، و امتناع الاستعارة في اسم اللّه سبحانه إنّما هو في الاستعارة التّصريحيّة دون المكنيّة لأنّه لايلزم إطلاق إسمه تعالى على غيره جلّ‌وعلا.

ففي الجملة استعارة مكنيّة، شبّه سبحانه نفسه بالمبايع، و أثبت له ما هو من لوازم المبايع حقيقة و هو اليد على طريق الاستعارة المكنيّة الأصليّة، و في إثبات اليد للّٰه سبحانه، و اللّٰه تعالى منزّه عن الجوارح و صفات الأجسام لتأكيد معنى المشاكلة.

و منها: أنّ اليد المقدّسة في الآية الكريمة و نظيرها جوهر عقليّ، و ذلك أنّ الوجود العقليّ: أنّ للشّيء روحاً و حقيقةً و معنى، فيلتقي العقل مجرّدَ معناه دون أن يثبت صورته في حسّ أو خيال أو خارج كاليد مثلاً فإنّ لها صورة محسوسة و متخيّلة، و لها معنىً هو حقيقتها و هي القدرة على البطش، فالقدرة هي اليد العقليّة، فيد اللّٰه هي وجودها العقليّ كقوله تعالى: «خَمَّرْت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً» فمن قام عنده البرهان على استحالة الجارحة عليه سبحانه محسوسة أو متخيّلة، أثبت له يداً عقليّة روحانيّة، يعطى بها و يمنع، و يبطش بها و يفعل...

و **قوله تعالى**: «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه...» تفريع على قوله تعالى: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه» و فيه زجر و تهديد لهم من نقض العهد، و حثّهم على الوفاء به. و وعد جميل على حفظ العهد و الوفاء به و لذلك قال رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾: «الحَجَرُ الأسود يمين اللّٰه في الأرض يصافِحُ بها خَلْقَهُ كما يصافِحُ الرَّجُلُ أخاه» و لذلك يقول الإنسان عند استلامه كما في المأثور: «أمانتي أدّيتها، و ميثاقي تعاهدته لتشهد لي من عند ربّك بالموافاة يوم القيامة».

و منها: أنّ قوله عزّوجلّ: «يد اللّٰه فوق أيديهم» توكيد لهذه الحقيقة و هي أنّ البيعة للّٰه تعالى و أنّ الّذين اعطوا أيديهم مبايعين لرسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ إنّما أُعطوا أيديهم للّٰه سبحانه، و يد الرسول ﴿ﷺ﴾ الّتي صافحت هذه الأيدى المبايعة، هي - من دون تشبيه - نيابة عن يد اللّٰه تعالى.

و منها: أنّ الجملة تعليل لكون مبايعة الرّسول ﴿ﷺ﴾ هي عين مبايعة اللّٰه سبحانه تأكيداً بوفائها. فقصد بهذا التعبير، شدّة التوكيد على خطورة العهد و البيعة و كون اللّٰه سبحانه شاهداً عليها استهدافاً لقوّة التّلقين الّذي اريد بثّه في نفوس المسلمين.

١١- (سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفرلنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من اللّٰه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أرادبكم نفعاً بل كان اللّٰه بما تعملون خبيراً)

فصل ثالث من الآيات، متعرّض لحال الأعراب المخلّفين، و في سين المستقبل دلالة على أنّ الآية و تاليها قد نزلت قبل مواجهة رسول اللّٰه(ﷺ) لهم، و قرينة على صحّة رواية نزولها في طريق عودة النّبيّ الكريم(ﷺ) من الحديبيّة إلى المدينة، و قد يفيد هذا أنّ الآيات قد استهدفت ما استهدفته الآيات السّابقة من تثبيت و تطمين المؤمنين، و ايذان الّذين ثقل عليهم شروط صلح الحديبيّة بخاصّة بما كان يقدره لهم النّاس من الهلاك في السّفرة على سبيل إبراز ما كان من توفيق اللّٰه تعالى فيها من فرض شخصيتهم، و مدافعة أعدآئهم لهم بالهدنة و عودتهم سالمين معافين.

إخبار من اللّٰه عزّوجلّ لرسوله(ﷺ) بما سيلقاه به الّذين يتخلّفون من الأعراب عن دعوته(ﷺ) لهم في السّير معه(ﷺ) إلى مكّة المكرّمة لزيارة بيت اللّٰه الحرام، و ليكثر بهم أعداد المسلمين ليكون في ذلك ما يُرهب قريشاً، فلا تعترض سبيل رسول اللّٰه(ﷺ) و المسلمين لزيارة بيت اللّٰه تعالى... و لقد يتقاعس هؤلآء المتخلّفون الّذين كانو يعيشون قريباً من المدينة و فيها: «و ممّن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النّفاق» التوبة: ١٠١)، و يتعلّلون بأعذار شتّيء: من أموالهم و أهليهم الّتي تشغلهم و تجعلهم يتخلّفون، و في تقديرهم أنّ الّذين يصحبون رسول اللّٰه(ﷺ) في هذا السّفر لن يسلموا من خطر القتل و الهلاك، و لن يرجعوا إلى أهليهم أبداً.

و انّه لهو الهلاك المحقّق لا محالة لهذه الجماعة الّتي استجابت لرسول اللّٰه(ﷺ) و سارت معه(ﷺ) إذ كيف يعقل- و هذا تقديرهم- أن يواجه النّبيّ(ﷺ) والمسلمون قريشاً بهذا العدد من المسلمين الّذين لايتجاوز عددهم ألفاً و أن يدخلوا عليهم ديارهم و يطئوا بلادهم، و قد كانت قريش في الأمس القريب، في موقعة أُحُد، تهدّد المسلمين، و تكاد تدخل عليهم المدينة و تستولى على ديارهم...!

فلمّا سار رسول اللّٰه(ﷺ) مسيرته بأصحابه الّذين استجابوا له(ﷺ) و تمّ صلح

الحديبيّة بينه و بين قريش، و أخذ رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأصحابه طريقه إلى المدينة، و فتح اللّه تعالى له﴿صلى الله عليه و آله﴾ «خيبر» بيد مولى الموحّدين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ من دون قتال، لمّا كان هذا أخذ هؤلاء المخلّفون من الأعراب يدبّرون أمرهم و يعدّون المقولات الّتي يلقون بها رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المعاذير الّتي يعتذرون بها إليه عن رجوعه إلى المدينة، و من تلك المقولات ما ذكره اللّه تعالى عنهم في قوله عزّوجلّ: «شغلتنا أموالنا و أهلونا» و قد فضح اللّه تعالى كذب هذا القول، و ردّه على قائليه بتقرير أنّهم يقولون غير الحقيقة الّتي يعلمونها في قلوبهم، فقال: «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» أي أنّه ليست الأموال و الأهلون هي الّتي شغلت هؤلاء الأعراب عن الاستجابة لدعوة رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بل الّذي أمسك بهم عن تلبية هذه الدّعوة هو ما وقع في نفوسهم من سوء الظّن باللّه سبحانه، و شبح الخطر الّذي يترصّد كلّ من يسير هذه المسيرة، و يدخل على قريش، عقر ديارها...

و قوله تعالى حكاية عن هؤلآء المخلّفين: «شغلتنا أموالنا و أهلونا» إخبار من اللّه عزّوجلّ لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عمّا يعتلّون به، و الشّغل هو قطع العمل عن عمل لايمكن الجمع بينهما لتنافي أسبابهما كالكتابة و الرّمي عن القوس. و لايبعد أن يكون ذكر الأهل بعد الأموال من باب التّرقّي لأنّ حفظ الأهل عند ذوي الغيرة أهمّ من حفظ الأموال...

و قوله سبحانه حكاية عنهم: «فاستغفر لنا» إخبار بما يقولون لرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يسئلونه أن يستغفرلهم، و في قلوبهم خلاف ما يظهرونه بأفواههم، ففضحهم اللّه تعالى و هتك أستارهم، و أبدى ما ينافقون به في جهادهم قبل الجهاد، فقال: «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» تكذيباً لهم في جميع ما اعتذروا به، و ما سئلوه بأنّ الّذي خلّفهم ليس بما يقولون من أنّه ليس لهم من يقوم بأشغالهم، بل هو سوء الظّنّ باللّه سبحانه والشّك في علمه و قدرته، و النّفاق، و أنّ طلبهم للاستغفار أيضاً فليس بصادر عن حقيقة، فلا أنّ الشّاغل لهم هو شغل الأموال و الأهلين، و لا أنّهم يهتمّون باستغفاره﴿صلى الله عليه و آله﴾ لهم، فليسوا بجادّين في طلبه، و لايبالون استغفر لهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أم لا، و إنّما سئلوه ليكون ذلك جُنّة يصرفون بها العتاب و التّوبيخ عن أنفسهم كما هو دأب المنافقين في كلّ ظرف من الظّروف...

و قوله عزّوجلّ: «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» مستأنف بياني سيق لتكذيبهم، و إخبار عن ضمآئرهم و إسرارهم، و أنّ كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في الجنان كناية عن كذبهم الرّاجع إلى ما تضمّنه الكلام من الخبر عن تخلّفهم بأنّه لضرورة داعية له، و هو القيام لمصالحهم الّتي لابدّ منها، و عدم من يقوم بها لو ذهبوا معه﴿عليه السلام﴾ و كذا الرّاجع لما تضمّنه: «استغفر» الإنشاء من اعترافهم بأنّهم مذنبون، و أنّ استغفاره﴿عليه السلام﴾ لهم يفيدهم فائدة لازمة لهم، و تسمية ذلك كذباً لعدم مطابقته الواقع بحسب الاعتقاد.

و قوله جلّ وعلا: «قل فمن يملك لكم من اللّٰه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً» أمر من اللّٰه تعالى لرسوله﴿عليه السلام﴾ - بالرّدّ عليهم - على سبيل سئوال تنديد بهم و تبكيت باعتذارهم الكذب حين اعتذروا بتلك الأباطيل، و جواب حلّي عن سوء ظنّهم باللّٰه تعالى حين ظنّوا أنّ التّخلّف عن رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ يدفع عنهم الضّرّ، و يجلب لهم النّفع، و ايماء إلى جهلهم بماله تعالى من سلطان مطلق في نظام الكون و نواميس الوجود، و أنّه تعالى هو الّذي بيده مقاليد السّموات و الأرض و أنّ أحداً لايملك معه ضرّاً و لا نفعاً.

و في قوله سبحانه: «فمن يملك لكم من اللّٰه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً» إلتفات من الغيبة إلى الخطاب.

و فيه من فنّ اللفّ ما لايخفى على الأديب الأريب، و ذلك أنّ الأصل كان: «فمن يملك لكم من اللّٰه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً و من يحرمكم النّفع إن أراد بكم نفعاً» لأنّ مثل هذا النّظم يستعمل في الضّرّ كما ورد في مواضع من القران الكريم مطّرداً كذلك قال: «فمن يملك من اللّٰه شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم و أُمّه - و من يرد اللّٰه فتنته فلن تملك له من اللّٰه شيئاً» المائدة: ١٧ و ٤١) و منه قول رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾: «إنّي لا أملك شيئاً» يخاطب عشيرته.

و سرّ اختصاصة بدفع المضرّة أنّ الملك مضاف في تلك المواضع باللام، و دفع المضرّة نفع يضاف للمدفوع عنه، و ليس كذلك حرمان المنفعة، فإنّه ضرر عائد عليه لا

له، فإذا ظهر ذلك فإنّما انتظمت الآية على هذا الوجه لأنّ القسمين يشتركان في أنّ كلّ واحد منهما نفي لدفع المقدّر من خير و شرّ، فلمّا تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة، و خصّ عبارة دفع الضّرّ لأنّه هو المتوقّع لهؤلآء فإنّ الآية في سياق التّهديد و الوعيد الشّديد، و هي نظير قوله تعالى: «قل من ذا الّذي يعصمكم من اللّٰه إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة» الاحزاب: ١٧) فإنّ العصمة إنّما تكون من السّوء لا من الرّحمة فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً.

و **قوله سبحانه: «بل كان اللّٰه بما تعملون خبيراً»** تعميم بعد تخصيص، و إضراب عمّا قالوا، و بيان لكذبه، بعد بيان فساده، مستأنف بيانيّ على سبيل الإضراب و التّرقّي إلى ما يضمن تهديداً، سيق لتقرير هذه الحقيقة الّتي خفيت على هؤلآء المخلّفين، و ايذان لهم و أضرابهم بأنّ اللّٰه تعالى يعلم ما يخفون و ما يعلنون، و أنّه هو وحده القادر على نفعهم و ضرّهم دون أن يكون لأحد قدرة على منعة من ذلك، و في ذلك تنديد بهم، و تعريض لهم و لأضرابهم من المبطلين، و إشارة إلى كذبهم في قولهم: «شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفرلنا».

و انّ الآية الكريمة و تاليها متّصلة بسياق آيات السّورة و موضوعها الرّئيسي، و محتوية على صورة من صور أحداث سفرة الحديبيّة من جهة، و صورة من صور الأعراب و مواقفهم من جهة أُخرى، و صورة لما كان تظنّه الأعراب من مصير السّفرة و هلاك رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المسلمين الّذين خرجوا معه من جهة ثالثة، و كان يشارك الأعراب في صورة خيرة المشركون و المنافقون أيضاً على ما يستفاد من الآية السّادسة من هذه السّورة فتدبّر و لاتغفل.

١٢-(بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء و كنتم قوماً بوراً)

انتقال من غرض إلى غرض آخر، و هو ردّ اعتذارهم الواهي، و فضح لحقيقة أمرهم، و بيان الباعث الصّحيح على تخلّفهم، و تعيين فرد من أفراد العامّ، فأضرب عن

بيان بطلان اعتذارهم الواهي إلى بيان الحامل لهم على التخلّف، و هو عدم ايمانهم حقّاً باللّٰه تعالى و شمول علمه و حكمته، وكمال تدبيره و قدرته، و عدم ايمانهم حقّاً برسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و كتابه... كما يستفاد من الآيات التّالية... فبسبب فقد الايمان حقّاً انطوت الأوهام صدورهم و تسلّطت الشّكوك عليهم فظنّوا أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ والمؤمنين الّذين خرجوا معه﴿ﷺ﴾ لزيارة بيت اللّٰه الحرام عام الحديبيّة- في السّنة السادسة من الهجرة- لن ينجوا من سيوف أعدآئهم، و لن يعودوا إلى أهليهم، و هو ظنّ السّوء الّذي زيّنه الشّيطان في قلوبهم، فاستوجبوا لأنفسهم الهلاك، و كانوا به من الفاسدين الّذين خسروا الدّنيا والآخرة جميعاً و ذلك هو خسران المبين إذ أخذوا موقفاً خاسراً عزلهم عن مواقع الخير و السّعادة كلّها، و حرمهم ما ناله المؤمنون الّذين ساروا في مسيرة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من رضا اللّٰه جلّ وعلا عنهم.

و **قوله تعالى**: «و ظننتم ظنّ السّوء» هو ظنّهم السّابق، فتعريفه للعهد الذّكري، و أُعيد لتشديد التّوبيخ و التّسجيل عليه بالسّوء، و من المحتمل أن يكون تعميماً بعد تخصيص، فيشمل ذلك الظّنّ و سآئر ظنونهم الفاسدة الّتي من جملتها الظّنّ بعدم رسالته﴿ﷺ﴾ فإنّ الجازم بصحّتها لايحوم فكره حول ما ذكر من الاستئصال.

١٣- (و من لم يؤمن باللّٰه و رسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير منشأ سوء ظنّ هؤلآء المخلّفين، و هو أنّهم لم يكونوا مؤمنين باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ إذ لو كانوا مؤمنين حقّاً لما كان منهم هذا التخلّف عن دعوة رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لهم إلى زيارة بيت اللّٰه الحرام... فإنّ الايمان- في حقيقته- ولاء مطلق و متابعة من دون ريب و لاتردّد و لا مراجعة...

و مسوق لتقرير البوار و كيفيته على سبيل العام بعد ذكر طائفة من أهل البوار المخلّفين، مع الإشارة إلى الجهة الّتي جآء منها هذا الهلاك والبوار لاولئك المخلّفين.

و في الجمع بين الايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ دلالة على أنّ الكفر برسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بسبب عدم طاعته﴿ﷺ﴾ كفر باللّٰه جلّ وعلا، و أنّ التخلّف عن أمره على حدّ الكفر باللّٰه سبحانه و برسوله﴿ﷺ﴾.

و قوله تعالى: «فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً» تقرير بوارهم و بيان كيفيّته، و تنديد و تهديد و وعيد شديد و إنذار لهم، و لكلّ من اتّصف بالكفر ظاهراً كالكافرين أو باطناً كالمنافقين بأنّ من لم يؤمن باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ أصلاً و أظهر الكفر أم تظاهر بالايمان و أبطن الكفر، و لم يثق بهما، و لم يكن سميعاً طائعاً لكلّ ما يأمرانه به فهو في دائرة الكفر، و في زمرة الكافرين الّذين أعدّ اللّٰه تعالى لهم ناراً تسعّرهم و تحرق أفئدهم...

و وضع الظّاهر موضع المضمر لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الايمان باللّٰه عزّوجلّ و الايمان برسوله﴿ﷺ﴾ و أنّ النّفاق كفر، مستوجب للسّعير لمكان التّعليق بالمشتقّ، بأنّ الكفر إطلاقاً مقتضٍ لذلك.

و في تنكير «سعيراً» وجهان: **أحدهما** - للتّهويل لما فيه من الإشارة إلى أنّها لايمكن معرفتها و اكتناه كنهها. **ثانيهما** - للتّوبيخ بأنّها نار مخصوصة، كتنكير «ناراً» في قوله تعالى: «ناراً تلظّى» الليل: ١٤) للتّنويع.

١٤- (و للّٰه ملك السّموات و الأرض يغفر لمن يشآء و يعذّب من يشآء و كان اللّٰه غفوراً رحيماً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير قدرة اللّٰه على عذاب الكافرين، و أنّه يفعل ما يشآء لارادّ لحكمه و لا معقّب لقضآئه، و فيه مع ذلك تأميل لهؤلاء المخلّفين ليرعووا عن غيّهم و نفاقهم و يثوبوا إلى رشدهم، و يؤمنوا ايماناً صادقاً و هو الايمان القآئم على اليقين بأنّ اللّٰه تعالى له ملك السّموات و الأرض، و أنّه وحده عزّوجلّ يملك الضّرّ و النّفع، فمن آمن باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ حقّاً فإنّه - في سبيل الاحتفاظ بهذا الايمان و الدّفاع عنه يتحدّى النّاس جميعاً، و لايخاف سلطاناً و لايرهب قوّة.

و قوله تعالى: «و كان اللّٰه غفوراً رحيماً» دعوة لهؤلآء المخلّفين الّذين سآء ظنّهم باللّٰه سبحانه إلى الايمان به تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ حقّاً، فإن آمنوا غفر الله عزّوجلّ لهم ماكان من تقصير في حقّ الله جلّ وعلا و رسوله﴿ﷺ﴾ و سوء الظّنّ به سبحانه و مخالفة

رسوله﴿عليه السلام﴾.

و في تذييل الملك المطلق بالوصفين: «الغفور الرّحيم» إشارة إلى سبق الرّحمة، الغضب، و حثّ هؤلآء المتخلّفين عن رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ على الاستغفار و الاسترحام، و المراجعة إلى أمر اللّٰه تعالى في طاعة رسوله﴿عليه السلام﴾ و طلب المبادرة بها، و إلى أنّ المغفرة و الرّحمة من اللّٰه جلّ وعلا بالأصالة، فإنّه تعالى لم يزل متّصفاً بها، و أنّ التّعذيب و الغضب لأحوال تطرأ على النّفوس البشريّة.

۱۵- (سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه قل لَن تتّبعونا كذلكم قال اللّٰه من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لايفقهون إلّا قليلاً)

مستأنف بيانيّ سيق للإخبار عمّا سيقع من الغزوة بين المؤمنين و الكفّار، و أنّ المؤمنين يرزقون الفتح، و يصيبون غنآئم، و عمّا سيكون من هؤلآء المخلّفين بعد أن يلتقوا برسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ و قد رجع من مسيرته منتصراً غانماً من حيث قدّروا لرسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ و المؤمنين، الهزيمة و الهلاك... أنّهم سيعرضون على رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ أن يقبلهم في المجاهدين إذا هو سار مسيرة كتلك المسيرة الّتي يكون منها الظّفر والغنيمة...

و هذا ما يكشف عمّا في قلوبهم من نفاق و ذبذبة، و يفضحهم بما في ضمآئرهم ليعرفهم المؤمنون و يأخذوا عنهم حذرهم... فهم إنّما يكونون في المؤمنين المجاهدين إذ كان من وراء هذا الايمان و الجهاد مغنم و سلامة و رفاه... و الايمان- في حقيقته- هو بذل و تضحية، غير منظور فيه إلى تحصيل كسب أو ظفر بمغنم أو سلامة و رفاه و شهوة...

و في سين المستقبل: «سيقول» دلالة على أنّ أقاويل المخلّفين للمؤمنين، و ما أمر رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ بأن يقول لهم: «لن تتّبعونا» سابقة على المواجهة، و من قبيل ما سوف يكون حين المواجهة، و في الآية الكريمة صورة من صور الأعراب في مطامعهم و تناقضهم، حيث يتخلّفون حين الخطر عن اتّباع رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ و المؤمنين، و

يعتذرون بالأعذار الواهية، ثمّ يطلبون منهم السّماح لهم باتّباعهم في الرّحلات الّتي تكون فيها الغنآئم و السّلامة مضمونتين، فإذا منعوا من ذلك سخطوا و اتّهموا ما نعيهم بالحسد، و في هذا ما فيه من فقد الشّعور و ضعف الإدراك.

و لم يقل هيهنا: «لك» كما قال في قوله: «سيقول لك...»: ۱۱) لأنّ المخاطب هنا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ وحده و ههنا المؤمنون كلّهم لا النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ وحده.

و **قوله سبحانه**: «اذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم» بيان للغاية الّتي تيغيّاها هؤلآء المخلّفون من الأعراب، من هذا العَرْض الّذي يعرضونه على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بالسّير معه إلى الجهاد، و أنّهم إنّما يسيرون حيث تكون هناك غنآئم يملئون منها أيديهم...

و فيه وعد للمبايعين الموافقين بالغنآئم، و للمتخلّفين المخالفين بالحرمان.

و **قوله عزّوجلّ**: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّه» مستأنف بيانيّ سيق لتقرير مرادهم بذلك القول، و كلام اللّه تعالى: هو حكمه و قضآؤه بأن تكون الغنائم من حظّ المؤمنين المجاهدين لا اولئك الّذين يتصيدون الفرص لتقع إلى أيديهم الغنآئم من دون قتال... و هؤلاء المخلّفون لايخرجون مع المجاهدين إلّا إذا كان الخروج إلى مغانم من غير قتال، و هذا من شأنه- لو حدث و لن يحدث- أن يبدّل حكم اللّه الّذي جعل الغنآئم للمجاهدين دون غيرهم... و في هذا النّظم الّذي جآء عليه الخبر تيئيس للمخلّفين أن يكون لهم في هذه الغنآئم نصيب، لأنّ أخذهم شيئاً منها فيه تبديل لكلمات اللّه، و إنّه لا مبدّل لكلماته جلّ وعلا.

و **قوله تعالى**: «قل لن تتّبعونا» تعقيب على قوله عزّوجلّ: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّه» و تصريح بالحكم الّذي تضمّنه، فإنّ من مضمون قوله سبحانه: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّه» أنّهم لن يخرجوا مع المؤمنين المجاهدين لأنّ في خروجهم تبديلاً لكلمات اللّه، و لا مبدّل لكلماته عزّوجلّ، ففيه إقناط و تيئيس لهم من الذّهاب معهم إلى خيبر، و إنّ القول: إنّ النّفي «لن تتّبعونا» نفي في معنى النّهي للمبالغة، و المراد نهيهم عن الاتّباع فيما أرادوا الإتّباع فيه في قولهم: «ذرونا نتّبعكم» و هو الانطلاق إلى خيبر، غير وجيه.

و قوله عزّوجلّ: «كذلكم قال اللّٰه من قبل» الإشارة هنا هي إلى الحكم الّذي جآء في قوله سبحانه: «لن تتّبعونا» أي مثل هذا الحكم الّذي قضينابه عليكم أيّها المخلّفون، و هو ألّا تتّبعونا كان قضآء اللّٰه تعالى فيكم و حكمه عليكم من قبل هذا الحكم الصّريح الّذي واجهنا بكم، إذ قال اللّٰه تعالى من قبل فيكم: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه» و مضمون هذا أنّكم لن تخرجوا معنا، فقوله: «كذلكم...» تأكيد للنّفي السّابق لا للنّهي أو المنع السّابق كما قيل.

و قوله سبحانه: «فسيقولون...» ردّ على قول رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين المجاهدين لهم: «كذلكم قال اللّٰه من قبل» بأنّ هذا النّفي من اتّباعنا لكم ليس إخباراً من اللّٰه لكم و حكمه علينا.

و قوله تعالى: «بل تحسدوننا» إضراب عن كون ذلك حكم اللّٰه تعالى عليهم و هو أن لايتّبعوهم، و إثبات ما هو شرّ من ذلك و هو الحسد أي بل إنّما ذلك من عند أنفسكم حسداً، و هذا هو ديدن المخلّفين المخالفين، و دليل عنادهم و لجاجهم و تماديهم في التّعنّت و الإصرار على السّفه، و المغالطة إذ كيف يحسدهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنون، و قد دُعوا من قبل إلى الجهاد، و باعوا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فأبوا و تخلّفوا؟ و كيف و طريق الجهاد مفتوح على مصراعيه للمجاهدين حقّاً الّذين يريدون بجهادهم وجه اللّٰه تعالى و إعلاء كلمته عزّوجلّ.

و قوله جلّ وعلا: «بل كانوا لايفقهون إلّا قليلاً» إضراب عن إضرابهم، و ردّ لقولهم الباطل في رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و وصفهم المؤمنين بالحسد، و إثبات لجهلهم المفرط و سوء فهمهم في امور الدّين، و هذا أعظم من الحسد و أطم، و فيه إشارة إلى ردّهم حكم اللّٰه تعالى و اثباتهم الحسد للمؤمنين الصّادقين بسبب جهلهم و قلّة فهمهم... و إنّما هم على جهل و عمى... إذ لو أنّهم كانوا على شيء من العلم بدين اللّٰه عزّوجلّ، و بحقآئق هذا الدّين لما وقفوا هذا الموقف من الجهاد، ثمّ لما كان منهم هذا الاعتراض في طريق المؤمنين المجاهدين في سبيل اللّٰه تعالى بهذا المنطق الجهول...

و قد تجسّدت في هذا الإضراب بلادتهم و غباؤهم إذ نسب في الإضراب الأوّل إلى

جهل في شيء مخصوص و هو نسبتهم الحسد، إلى المؤمنين المجاهدين، و في الثّاني نسب الجهل المطلق إليهم... و في هذا إشارة إلى أنّ ردّهم حكم اللّٰه تعالى و حكم رسوله﴿ﷺ﴾ و إثبات الحسد للنّبيّ المعصوم﴿ﷺ﴾ و المؤمنين الصّادقين ناشيء من الجهل و فقد الشّعور الدّيني، و ما كان لهم من فقه قليل و هو من أمر الدّنيا و شئونها، فليس لهم عقل معاد، و لهم عقل معاش، و مع هذا فهو قشور من الشّعور لا يصل إلى شيء من لباب المعرفة، و هذا مثل قوله سبحانه: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون» الرّوم: ٧).

و لا يخفى على القارىء الخبير: أنّ هذه الآية و تاليها كالآيات السّابقة لاتخلوان هما الأُخريان- مع خصوصيّتها الزّمنيّة و الموضوعيّة- من صورة يتكرّر ظهورها من فئات من النّاس في كلّ ظرف من الظّروف حيث يبتعدون عن الخطر، و يتوارون وقت الشّدّة و النّضال، و يعتذرون بالأعذار الكاذبة، ثمّ لايخجلون من المسارعة حين الأمن و السّلامة إلى المطالبة بالغنم دون العزم، و لاتخلوان بالتّبعيّة من تلقين جليل مستمرّ المدى بتقبيح هذه الصّورة من جهة، و بجعل إخلاص هذه الفئات و صدق دعواها منوطين بامتحان قويّ يتحمّلون فيه الجهد و المغرم حتّى يصحّ لهم أن يلتحقوا بزمرة الصّالحين الصّادقين، و يكون لهم ما لهم، و عليهم و ما عليهم.

١٦- (قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم اللّٰه أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً)

أمر من اللّٰه تعالى لرسوله﴿ﷺ﴾ أن يخبر هؤلآء المخلّفين- تقطع عليهم مقولتهم للمؤمنين: «بل تحسدوننا» عن مستقبل لم يجيء بعد- بأنّهم سيدعون إلى قتال قوم اولى قوّة و نجدة في الحروب، و أنّهم مطالبون كذلك في هذا القتال أن يقفوا موقف المجاهدين حقّاً و هو ألّا يتحوّلوا عن القتال إلّا إذا استسلم لهم العدوّ و دخل في دين اللّٰه تعالى.

و قد كرّر ذكر القبائل بوصف التّخلّف مبالغة في ذمّ المتخلّفين و إظهاراً لبشاعة

التّخلّف كأنّ الذمّ يتوالى عليهم كلّما كرّر ذكرهم به، و وسمهم بميسمه.

و قوله تعالى: «تقاتلونهم أو يسلمون» مستأنف بيانيّ تعليليّ لما سيدعون إليه على معنى أحد الأمرين: إمّا المقاتلة و إمّا الإسلام لا ثالث لهما فـ«أو» للتّنويع و الحصر لا للشّك و التّرديد.

و قوله سبحانه: «فإن تطيعوا يؤتكم اللّه أجراً حسناً» وعد جميل لمن أطاع اللّه تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾.

و قوله عزّوجلّ: «و إن تتولّوا كما تولّيتم...» وعيد شديد لمن عصى اللّه جلّ وعلا و خالف أوامر رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾.

و في الآية الكريمة ايذان ربّانيّ بعدم رضاء اللّه تعالى عن هذه الحالة، و ايجاب عدم السّماح لهم إذا انطلق المسلمون إلى رحلة مضمونة النّجاح و الغنآئم والسّلامة كعقوبة لهم، ثمّ إتاحة فرصة اختباريّة لهم حيث يؤذنون قبل ذلك بأنّهم سيدعون إلى قتال قوم أشدّاء البأس من أعدآء المؤمنين، و حينئذ ينكشف أمرهم، فإن أطاعوا اللّه عزّوجلّ فيما يأمرهم به و ينهاهم عنه استحقّوا أجر اللّه العظيم، و إن تولّوا كما تولّوا من قبل، و تخلّفوا حقّ عليهم عذاب اللّه الأليم الّذي لايقادر قدره.

١٧ - (ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج و من يطع اللّه و رسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير حكم الزّمني و ذوي العاهات بالنسبة للجهاد، و نفي الحرج عنهم في التخلّف عنه، و قد روعي في التّرتيب أي هؤلآء أولى برفع الحرج عنه، فقدّم الأعمى لأنّ عذره واضح مستمرّ، و الانتفاع منه معدوم ألبتّة، فعذره قاطع لا شبهة فيه في الحرب، و قدّم الأعرج على المريض لأنّ عاهة العرج قد يمكن الانتفاع منها في حالات معيّنة كالحراسة و نحوها، فعذره غير ظاهر، قد يكون معه عجز عن القتال أو قدرة عليه، فأمره موكول إلى تقدير وليّ أمره، و إلى ضمير صاحب الآفة و دينه، فهو مع الحضور راكباً أو محمولاً يقدر على القتال بالرّمي و غيره. و أمّا المريض فإنّ إمكان زوال

المرض عنه متوقّع في كلّ وقت، وقد يغلب على عذره خفآء، فأمره متروك تقديره للمريض نفسه، و إلى ما يمليه عليه دينه.

و في نفي الحرج عن كلٍّ من الطّوآئف الثّلاث في الآية الكريمة مزيد اعتنآء بأمرهم و توسيع لدائرة الرّخصة، و ليس في نفي ذلك عنهم نهي لهم عن الغزو، و قد غزا ابن أُمّ مكتوم و هو أعمى و حضر في بعض حروب القادسيّة، و كان يمسك الرّاية.

و **قوله تعالى**: «ومن يطع اللّٰه و رسوله...» وعد و وعيد اريد بهما أعم من المراد بهما في الآية السّابقة كما ينبيء عن ذلك، التّعبير بـ«من» هنا و بضمير الخطاب «إن تطيعوا...» و «إن تتولّوا...» و الفقرتان مع إطلاقهما و انطوائهما على قصد توكيد الحثّ و الإنذار اللذين و جها إلى المتخلّفين في الآيات السّابقة، فقد قصد بهما أن تكونا عامّتي التّوجيه و التّلقين، شاملتين لجميع المؤمنين في كلّ ظرف من الظّروف...

قيل: إن اللّٰه تعالى قد فصّل الوعد: «ومن يطع اللّٰه و رسوله...» و أجمل الوعيد: «و من يتولّ...» مبالغة في الوعد لسبق رحمته غضبه، ثمّ جبر ذلك بالتكرير على سبيل التعميم فقال: «و من يتولّ...» فإنّ التّرهيب هنا أنفع من التّرغيب.

۱۸- (لقد رضي اللّٰه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً)

فصل رابع من فصول السّورة إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾، مستأنف بيانيّ سيق لتقرير الرّضا عن المبايعين المؤمنين لامطلق المبايعين.

إن تسئل: إنّ الآية الكريمة تدلّ على أنّ هؤلآء المبايعين تحت الشّجرة كانوا محبوبين لله تعالى لأنّ الرّضا عنهم يوجب المحبّة، و إن صار بعضهم مبغوضاً بالنّفاق في حياة رسول الله﴿ﷺ﴾ و بعضهم بالخلاف بعده﴿ﷺ﴾؟

تجيب عنه: أنّ الرّضا متعلّق بالمؤمنين، فلم يكن المبايعون كلّهم عند المبايعة تحت الشّجرة مؤمنين، ولو سلّمنا، لكان الرّضا مشروطاً بالوفاء و عدم النّكث كما صرّح تعالى بذلك من قبل في قوله تعالى: «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد

عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً»: ١٠)

و لا يشكّ من له طيب ولادة و أدنى مسكة: أنّ كثيراً من المبايعين لم يكونوا مؤمنين عندالمبايعة، و منهم من نكثها، و منهم من بايع فقط على أنّ لايضرّ من زحف لا على الموت كعمر بن الخطّاب، و منهم من بايع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ على الموت في سبيل الله تعالى و أنّ المؤمنين الّذين رضى الله تعالى عنهم هم الّذين بايعوه﴿صلى الله عليه و آله﴾ تحت الشّجرة على أن يثبتوا في الحرب حتّى يقتلوا أو يغلبوا، فانهزم أبوبكر و عمر بن الخطّاب في خيبر، و خالفا عمّا بايعاه﴿صلى الله عليه و آله﴾ به.

في الدّرالمنثور: (ج ٦ ص ٧٤) أخرج مسلم و ابن جرير و ابن مردويه عن جابر رضى الله عنه قال: كنّا يوم الحديبيّة ألفاً و أربعمأة، فبايعناه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عمر آخذ بيده تحت الشّجرة و هي سمرةو قال: «بايعناه على أن لانفرّ و لم نبايعه على الموت».

فلماذا هزم هو و حليفه في خيبر؟!

في مسئلة اخرى في النّصّ على عليّ﴿عليه السلام﴾ للشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه: «و أمّا قوله تعالى: «لقد رضى الله عن المؤمنين...» فالظّاهر يدلّ على تعليق الرّضا بالمؤمنين، و المؤمن هو المستحقّ للثّواب، و ألّا يكون مستحقّاً لشئ من العقاب، فمن أين لهم أنّ القوم بهذه الصّفة؟ فإنّ دون ذلك خرط القتاد على أنّه تعالى قد بيّن أنّ المعنى بالآية: من كان باطنه مثل ظاهره بقوله: «فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم...» ثمّ قال: «و أثابهم فتحاً قريباً».

فبيّن أنّ الّذي أنزل السّكينة عليه هو الّذي يكون الفتح على يديه، و لا خلاف أنّ أوّل حرب كان بعد بيعة الرّضوان خيبر، و كان الفتح فيها على يدي أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ بعد انهزام من انهزم من القوم، فيجب أن يكون هو المعني بالآية.

على أنّ ما قدّمناه في الآية الاولى: «السّابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار...» التوبة: ١٠٠) من أنّها ينبغي أن تكون مشروطة، و أن لايكون مطلقة، يمكن اعتماده ههنا، و كذلك ما قلناه من أنّ الآية لوكانت مطلقة كان ذلك إغرآء بالقبيح موجود في هذه الآية.

ثمّ يقال لهم: قدرأينا من جملة السّابقين و من جملة المبابعين تحت الشّجرة من وقع منهم الخطأ ألاترى أنّ طلحة و الزّبير كانا من جملة السّابقين و من جملة المبابعين تحت الشّجرة، و قد نكثا بيعة أميرالمؤمنين﴿ع﴾ و قاتلاه و سفكا دماء شيعته، و تغلبا على أموال المسلمين، و كذلك فعلت عائشة، و هذا سعد بن أبي وقّاص من جملة السّابقين و المبايعين تحت الشّجرة، و قد تأخّر عن بيعة أميرالمؤمنين﴿ع﴾ و كذلك محمد بن مسلمة، و ما كان أيضاً من سعد بن عبادة و طلبه الأمر خطأ، بلا خلاف، و قد استوفينا الكلام على هذه الطّريقة في كتابنا المعروف بالاستيفاء في الإمامة، فمن أراد الوقوف عليه فليطلبه من هناك «إن شآء اللّه» انتهى كلامه.

و في متشابهات القرآن و مختلفه لابن شهر آشوب السّروي المازندرانيّ قدّس سرّه قال في قوله تعالى: «لقد رضي اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة»: نزل بالإجماع عام الحديبيّة، فوقوع الرّضا لمن اختصّ بالأوصاف الّتي فيها، و لايجوز أن يرضى اللّه عن الكلّ لأنّهم كانوا ألفاً و سبعمأة رجل، و فيهم مثل جد بن قيس، و ابن أبي سلول، و كان فيهم مثل طلحة و الزّبير، و قد خرجا على الإمام﴿ع﴾ و لم يمنع وقوع الرّضا في تلك الحال من مواقعة المعصية فيما بعد، ثمّ قال: «إذ يبايعونك».

و بالإجماع أنّ البيعة كانت تحت الشّجرة على أنّ لايفرّوا و يثبتوا في الحرب حتّى يقتلوا أو يغلبوا فانهزم الأوّل و الثّاني في خيبر بالإتّفاق، فغضب النّبيّ﴿ص﴾ و قال: لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله﴿ص﴾ ذكر ذلك في الصّحيحين و التأريخين ثمّ انهزموا في يوم حنين، قوله: «ثمّ ولّيتم مدبرين» و لا خلاف في أنّ عليّاً﴿ع﴾ لم ينهزم قطّ فالآية به أليق، و بمن تبعه، ثمّ إنّ الآية دالّة على مدح عليّ﴿ع﴾ و من تبعه، و ذلك أنّ اللّه تعالىٰ أخبر بأنّه رضى عن المومنين، ثمّ بيّن أنّ المرضيّ عنهم في هذا الخطاب من جملة المؤمنين السّابقون، ثمّ بيّن أنّ المبايعين هم من بايع تحت الشّجرة، و هم من علم ما في قلوبهم، ثمّ جعل العلامة عليهم نزول السّكينة عليهم و هي النّصر و الفتح القريب على أيديهم، فصار حصول النّصر و الفتح هو المبيّن من المرضيّ عنهم من المبايعين، فالرّجلان: (أبوبكر و عمر) قد عريا عن السّكينة و الفتح، و عليّ﴿ع﴾ اختصّ بهما» انتهى كلامه.

في قوله تعالى: «لقد رضي الله عن المؤمنين» دلالة على عدم رضا الله سبحانه عمّن تخلّفوا عن مبايعتهم و عمّن بايعوا من دون ايمان... فالمبايعة المؤمنة توجب رضاالله تعالى الّذي لايعادله شئ و يستتبع ما لايكاد يخطر على بال.

و التّعبير بالمضارع: «يبايعونك» لاستحضار الحالة الماضية و صورة المبايعة تحت الشّجرة يوم الحديبيّة، و قد سمّيت هذه البيعة ببيعة الرّضوان أيضاً تسمية منبثقة من جملة: «لقد رضي الله عن المؤمنين».

و انّ نسبة الرّضا و الغضب و الكراهة و الحبّ و البغض و أمثالها إلى الله سبحانه بتأويل الغايات دون المبادي، و الآثار دون المعاني...

و قوله عزّوجلّ: «تحت الشّجرة» في التّقييد إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة، و انّها لم‌تكن عن خوف منه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و قد كانت للشّجرة حرمة خاصّة عند رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين، و إن قطعها عمر بن الخطّاب بعد ذلك. و قال ابن عمر: الشّجرة الّتي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله.

في الدّرالمنثور: أخرج ابن أبي شيبه في المصنّف عن نافع قال: «بلغ عمر بن الخطّاب أنّ ناساً يأتون الشّجرة الّتي بويع تحتها، فأمر بها فقطعت».

و قوله سبحانه: «و أثابهم فتحاً قريباً» وصف الفتح بأنّه قريب، و ذلك لقرب زمانه، إذ كان على أيّام من صلح الحديبيّة، ثمّ لقرب تناوله إذ لم يلق المؤمنون من أهل خيبر بلاءً كثيراً، بل سرعان ما استسلم يهود خيبر بيد عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و نزلوا على حكم رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾.

اسلوب الآية و تاليها اسلوب تبشيريّ و تطمينيّ و تنويهيّ، و تشير إلى مشهد من مشاهد سفرة الحديبيّة و تلهم روعة المشهد و خطورة الموقف الّذي كان يكتنف رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين الصّادقين الموفين بما عاهدوا عليه الله جلّ وعلا.

١٩ - (و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً)

معطوف على «فتحاً قريباً» أي أثابهم مغانم كثيرة يأخذونها، إذ فتح الله تعالى خيبر

عليهم بيد أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾ فملأ أيديهم من غنآئمها...

و قوله سبحانه: «و كان الله عزيزاً حكيماً» مستأنف بيانيّ في موضع تعليل لما سبق بأنّه تعالى فعل ما فعل إذ كان لايزال غالباً فيما يريد، مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه و قضاياه في نظام الكون و نواميس الوجود.

۲۰- (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً)

مستأنف بيانيّ، على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب تنويهاً لشأن المؤمنين الموفين بما عاهدوا عليه الله تعالى و تبشيرهم و تطمينهم بوجه عام - بعد وعد خاصّ بمغانم فتح خيبر- من مغانم الفتوحات الّتي سوف ييسرها الله للمؤمنين في مختلف الظّروف و الأماكن... و إخبار عمّا سيكون، و كان كما أخبر عنه على الوجه الّذي أخبر به تفصيلاً من دون تعلّق بما يستعان به على ذلك من تلقين ملقّن و إرشاد مرشد أوحكم بتقويم أو رجوع إلى حساب كالكسوف و الخسوف، و لا اعتماد على جفر و اسطرلاب و طالع و نحوها...

و **قوله تعالى:** «فعجّل لكم هذه» التّعبير عن الآتي بصيغة الماضي للتّحقّق لامحالة إذ لا خلف في وعده سبحانه، و الإشارة بـ«هذه» لتنزيل المغانم منزلة الحاضرة المشاهدة، إشارة إلى ما سيأخذون عن قريب من غنآئم خيبر كأنّها أخذوها، و ليست هذه إلّا ثمرة معجّلة من ثمار جهادهم، و باكورة من بواكير هذا الثّمر.

و **قوله سبحانه:** «و كفّ أيدى النّاس عنكم» إشارة إلى ما منع الله تعالى من الحرب بين المؤمنين و مشركي مكّة، و ما يمنع منه بين المؤمنين و أهل الخيبر، و تذكار لهم أثناء رجوعهم إلى المدينة بماجرى في الحديبيّة و ظروفها، فعافاهم الله عزّوجلّ من بلاء الحرب و أعطاهم ثمرته، إذ سلّمت لهم قريش بحقّ، دخولهم بمكّة المكرّمة، و الطّواف ببيت الله الحرام، و استسلم لهم يهود خيبر، و سلّموا لهم ما بين أيديهم من أموال و زروع...

و قوله جلّ و علا: «و لتكون آية للمؤمنين» إشارة إلى ما كان من تيسير الله تعالى لصلح الحديبيّة، و كفّ أيدى قريش و يهود خيبر عن المؤمنين، قد كان آية ربّانيّة ليعتبر بها المؤمنون في كلّ ظرف من الظّروف، و يتيقّنوا من أنّ ما كان هو بتيسير الله عزّوجلّ و نصر منه تعالى، و يستدلّوا بها على صحّة ما وعد الله هؤلآء المؤمنين إذ وقع الخبر على ما أخبر به لأنّه علم غيب لايعلمه إلاّ اللّه تعالى، و الحكم مستمرّ المدى لمن اتّصف بالايمان حقّاً في كلّ ظرف من الظّروف...

و قوله عزّوجلّ: «و يهديكم صراطاً مستقيماً» دلالة على استمرار الحكم مشروطاً بالايمان حقّاً.

۲۱-(و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كلّ شئ قديراً)

و عدو بشارة و إخبار أُخر عمّا سيكون من نصر و فتح و غنآئم للمؤمنين في مختلف الظّروف حيث إنّهم لم يقدروا في سفرتهم على دخول مكّة، فاقتضت حكمة التنزيل تبشيرهم و تطمينهم بأنّ الله تعالى قد أحاط بها، و لسوف يقدرهم عليها و على غيرها...

وصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها.

و قوله تعالى: «قد أحاط الله بها» في موضع نعت ثانٍ لـ«اخرى» مفيد لسهولة تأتيها بالنّسبة إلى قدرته سبحانه بعد بيان صعوبة منالها بالنّظر إلى قدرتهم، و الإحاطة مجاز عن الاستيلاء التّامّ أى قد قدر الله تعالى عليها، و استولى، فهي في قبض قدرته جلّ و علا يظهر عليها من أراد و قد أظهركم سبحانه عليها و أظفركم بها.

و قوله عزّوجلّ: «و كان الله على كلّ شئ قديراً» مستأنف بيانيّ في موضع تعليل لما تقدّم، و تقرير لعموم قدرته، و كونه من مقتضى ذاته، فلا يمكن أن تتغيّر، و لا أن تتخلّف و تزول عن الذّات بسبب ما كما تقرّر في موضعه، فتكون نسبتها إلى جميع المقدورات على سواء من دون اختصاص ببعض منها دون بعض، و إلاّ كانت متغايرة بل مختلفة، فقدرته شاملة للممكنات جميعها...

و في الآية الكريمة تثبيت و تطمين للمؤمنين الصّادقين من جهة، و بشرى تحقّقت فكانت من معجزات القرآن الكريم من جهة اخرى.

٢٢-(و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لايجدون وليّاً و لا نصيراً)

خبر آخر ينبئ المؤمنين المجاهدين بضعف الكفّار و المشركين عن قتال المؤمنين بأنفسهم، و وعد و بشارة و تطمين و تثبيت و تلقين و ايذان للمؤمنين بالظّفر و الغلبة على الكافرين، و أنّ الحكم مستمرّ المدى و التلقين لهم بأنّهم منصورون عليهم إذا قاتلوهم في أيّ ظرف و مكان، و كانوا هم في موقف الباغي والاعتداء، و في هذا الوعدو البشارة ما يظلّ يمدّ المؤمنين يفيض من القوّة الرّوحيّة الّتي تضاعف قوّتهم.

فضمان النّصر هو الايمان بالله تعالى حقّاً، و التّوكّل على الله جلّ وعلا، و إخلاص النّيّة لله عزّوجلّ لا بالعِدّة و العُدّة، و ملاك الهزيمة و الإدبار و الخذلان هو الكفر و الطّغيان...

فالنّصر و الفتح و الغلبة لايكون اتّفاقياً، و إنّما هو إلهيّ سماويّ إذ قال الله عزّوجلّ: «إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١) و قال: «فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين» الروم: ٤٧).

و قوله تعالى: «ثمّ لايجدون وليّاً و لا نصيراً» فيه دلالة على أنّ المعدوم في علم الله تعالى معلوم.

في المجمع: قال: «هذا من علم الغيب، و في الآية دلالة على أنّه يعلم مالم يكن أن لو كان كيف يكون، و في ذلك إشارة إلى أنّ المعدوم معلوم».

و قوله تعالى: «وليّاً و لا نصيراً» التّنكير للتّعميم أي لايجدون فرداً ما من الأولياء يقوم لهم و يحرسهم، و لا فرداً ما من النّاصرين ينصرهم و يفزع لنصرهم و يدافع عنهم و يساعدهم.

٢٣-(سنّة الله الّتي قد خلت من قبل و لن تجد لسنّة الله تبديلاً)

مصدر مؤكّد لمضمون الجملة السّابقة من نصر المؤمنين الصّادقين، و هزيمة الكفّار و

المشركين أي لقد سنّ الله تعالى سنّة ثابتة جارية في كلّ ظرف من الظّروف على نصر المؤمنين المخلصين و هزيمة الكافرين و المشركين، و قد خلت هذه السّنّة في الامم السّالفة إذ غلب أنبيآئه و رسله عليهم السّلام على أعدآئهم... سنّة لاتتغيّر و لاتبدّل، و هو كقوله تعالى: «كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلي» المجادلة: ٢١).

فهذه سنّة إلهيّة قد جرت من قبل، و لن يكون لها تبديل بالنسّبة إلى المؤمنين الصّادقين من هذه الأُمّة، فإنّها سنّة ثابتة جارية فيما بين أوليآء الله تعالى و أوليآء الشّيطان، بين أهل الحقّ و الايمان، و أهل الباطل و الطّغيان، و بين أهل الصّلاح و الإصلاح و أهل الفساد و الإفساد...

و سنّة الله عزّوجلّ: هي حكمه تعالى و قضآئه على نصرة الحقّ و أهله، و خذلان الباطل و أهله، و قد جرت سنّته على أن تدور الدّائرة على البغاة المعتدين، و أن ينصر من ينصره و ينصر دينه، و لم يصب المؤمنون في شئ من غزاتهم إلّا بسبب ضعفآء الايمان و فاقدي الإخلاص بينهم، فكانوا يخالفون الله سبحانه و رسوله﴿ﷺ﴾ بعض المخالفة.

٢٤- (و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيراً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير أنّ ماتمّ من ذلك إنّما كان بقضآء الله تعالى و لحكمة فيها الخير و مصالح المؤمنين، على سبيل التّذكير و التّثبيت و استمرار الخطاب لهم، حيث يذكّرهم بما كان من فضل الله عزّوجلّ عليهم في سفرة الحديبيّة من كفّ أيدي مشركي مكّة عن المؤمنين، و كفّ أيدي المؤمنين عن المشركين لينتهي الموقف بالسّلام الّذي انتهى إليه بعد أن كتب للمؤمنين الصّادقين الظّفر و الغلبة على الكفّار و المشركين. و لعلّ تقديم كفّ أيدي كفّار مكّة عن المؤمنين على كفّ أيدى المؤمنين عنهم لأنّهم أهمّ و من المحتمل أنّه كان يوم الفتح، إذ دخل رسول الله﴿ﷺ﴾ مكّة المكرّمة على رأس جيش من

عشرة آلاف مقاتل، و أنّ قريشاً قد فزعت لهذا، و استسلمت من دون قتال، طالبة الأمان من النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه و آله﴾ بعد أن مكّن الله تعالى له﴿صلى الله عليه و آله﴾ من رقابهم، فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾ لهم قولته الخالدة: «ما تظنّون أنّي فاعل بكم»؟- إنّهم الآن بين يديه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و في متناول سيوف المسلمين، و إنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد ملكهم مِلكاً مطلقاً، يتصرّف فيهم كيف يشآء...

و لم يجد القوم جواباً يجيبون به على هذا التّحدّي الّذي يستثير الحميّة، و لكن لم يكن للقوم بعد ما رأوا من جيش المسلمين- لم يكن عندهم بقيّة من حميّة تُستثار، فكان جوابهم لرسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ هذا الجواب الذّليل المستسلم: «أخ كريم! و ابن أخ كريم!!!» ألا لقد ذلّت جباه المتكبّرين، و رَغِمَتْ أُنوف المتعالين الباغين!!!

و قد كان ردّ رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ سمحاً كريماً كما هو شأنه في جميع أحواله... فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إذهبوا فأنتم الطّلقآء» لقد أطلقهم بهذه الكلمة الطّيّبة الكريمة من الأسر، و حفظ عليهم دماءهم الّتي كانت مهدرة!

إن تسئل: بناءً على هذا الإحتمال، فالآية الكريمة تحدّث عن أمر واقع فعلاً، و ذلك في قوله تعالى: «كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم...» بصيغة الماضي؟

تجيب عنه: أوّلاً: إنّ الإخبار عن المستقبل بلفظ الماضي إشارة إلى تحقّقه لا محالة، و أنّه إن لم يكن قد وقع فهو واقع بلا ريبة. **و ثانياً:** أنّه قد تكون هذه الآية نزلت بعد فتح مكّة، ثمّ أخذت مكانها من السّورة لتكون إلى جانب أحداث الحديبيّة الّتي تلقّى فيها رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قوله سبحانه: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً...» فهذا الفتح يطوى في كيانه فتح مكّة المكرّمة، و إن كان فتحها لم يقع بعد...

و قوله عزّوجلّ: «ببطن مكّة» كناية عن جوار مكّة أو واديها، فسمّيت ببطنها لقربها منها و اتّصالها بها، حتّى قيل: إنّ بعض أراضيها من الحرم.

و قوله تعالى: «و كان الله بما تعملون بصيراً» مستأنف بياني في موضع تعليل لما سبق.

٢٥-(هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه و لولا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشآء لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

مستأنف بيانيّ سيق لتقرير السّبب الّذى من أجله أخذ الله تعالى المشركين بالخزى و الخذلان، و سنّ بهم سنّته جلّ وعلا في الّذين خلوا من قبل... و ذلك أنّهم كفروا بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ من جهة، و صدّوا رسول الله﴿ﷺ﴾ و المسلمين عن المسجد الحرام و منعوا الهدى أن يبلغ محلّه عام الحديبيّة من جهة أُخرى، فاستحقّوا لعذاب الله تعالى لذلك، و قد كان الله تعالى قادراً على إنزال النّكال الشّديد بهم حالاً لما بدامنهم، ولكنّه تعالى لم ينزله لوجود فريق من المؤمنين بينهم.

و قوله تعالى: «و لولا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات...» مستأنف بيانيّ مسوق لتقرير حكمة المصالحة يوم الحديبيّة، و بيان سبب، منع رسول الله﴿ﷺ﴾ ذلك العام من دخول مكّة المكرّمة، و علّة كفّ أيدى المؤمنين عن قتل مشركى مكّة مع استحقاقهم للقتل و الاستئصال، و إخبار عن وجود فريق من المؤمنين و المؤمنات كانوا معذورين أو مأذونين في البقآء بين المشركين بمكّة، و كانوا يكتمون ايمانهم، و أنّهم لم يكونوا قليلين بحيث كان من الصّعب أن يختفوا و أن يسلموا من الأذى لووقع اشتباك حربيّ بين المسلمين و قريش في مكّة.

و قد حذف جواب «لولا» أى لولا رجال مؤمنون... موجودون بين المشركين بمكّة... لدلالة الكلام عليه، و قاعدة الحذف طريقة مسلوكة للبلاغة في القرآن الكريم.

و في الكلام تهديد للمشركين و تذكير لهم بجناياتهم الشّنيعة على الدّعوة الإسلاميّة، و على المسلمين...

و قوله عزّوجلّ: «لم تعلموهم» صفة رجال و نسآء على تغليب المذكّر على المؤنّث، خطاب للمؤمنين الّذين واجههم المشركون يوم الحديبيّة و قيل: يوم الفتح أي أنّ هؤلآء الرّجال المؤمنين و النّسآء المؤمنات كانوا يسرّون ايمانهم، و يمسكون به في قلوبهم...

خوفاً من مشركي مكّة فهم في نظر المؤمنين مشتركون يؤخذون بما يؤخذ به المشركون، لأنّهم لايعلمون عن ايمانهم شيئاً.

و **قوله جلّ وعلا:** «أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم» الوطء: الدّوس، استعيرهنا للإهلاك و هي استعارة حسنة، و المعرّة: المذمّة و العائبة الّتي تعيب الإنسان و تنقصه... و في إسناد المعرّة إلى هؤلآء المؤمنين و المؤمنات الّذين كانوا يكتمون ايمانهم بين المشركين بمكّة إشارة إلى أنّ الّذي يتوجّه إلى المسلمين باللوم و العيب هم اولئك المؤمنون و المؤمنات أنفسهم لأنّهم الّذين لايعلمون أنّهم مؤمنون، و أنّهم قُتِلوا بيد إخوانهم الّذين خفي عليهم ايمانهم.

و **قوله سبحانه:** «ليدخل الله في رحمته من يشآء» تعليل لما دلّت عليه الآية من كفّ الأيدي عن المشركين صوناً لأهل الايمان المختلطين بهم... كأنّه قال: كان الكفّ و منع التّعذيب ليدخل الله تعالى في توفيقه للخير و الطّاعة مؤمنيهم أو ليدخل في الإسلام من رَغَبَ فيه من مشركيهم، أو ممّن في أصلاب المشركين و أرحام المشركات من المؤمنين... و من المحتمل أن يكون تعليلاً لمفهوم المخالفة من جواب الشّرط المحذوف أي لولا رجال مؤمنات و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم، فتصيبكم منهم معرّة بغير علم- لولا هذا- لسلّطكم الله تعالى على المشركين، و لكنّه جلّ وعلا لم يسلّطكم عليهم ليدفع عنكم المعرّة بما تصيبون من المؤمنين و المؤمنات و ليدخل في رحمته من يشآء... فإنّ لله جلّ وعلا في هؤلاء المشركين من يريدهم لدينه، و يدخلهم في رحمته، و لهذا مدّهم في الأجل، و دفع عنهم أيدي المؤمنين من أن تقضى عليهم، و ذلك ليقضى الله تعالى أمراً كان مفعولاً و ليدخل في رحمته من يشآء من هؤلآء المشركين.

و في التّعبير عنهم بـ«من يشآء» دون الضّمير بأن يقال: «ليدخلهم الله في رحمته» إشارة إلى أنّ علّة الإدخال هي المشيئة المبنية على الحِكَم الجمّة و المصالح و هي دخول النّاس في رحمة الله تعالى: «و لذلك خلقهم» فالغرض في كافّة الحروب و الغزوات الإسلاميّة ليس تفتّح البلاد و الانتقام من أهلها الكافرين، و إنّما الهدف منها تفتّح القلوب المقلوبة و دخول النّاس في رحمة الله جلّ وعلا.

و قوله جلّ وعلا: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» مستأنف بيانيّ سيق لتقرير منع التّعذيب بأنّ هؤلآء المؤمنين و المؤمنات لو تميّزوا و انفصلوا عن كيان المشركين لعذّب الله تعالى الكافرين منهم عذاباً أليماً بأن يسلّطكم عليهم أو يرسل عليهم عذاباً من عنده، و لكنّ الله عزّوجلّ - إكراماً للمؤمنين و المؤمنات و دفعاً لما يلحقهم من مكروه إذا نزل العذاب بهؤلآء المشركين، الّذين يخالطونهم و يمتزجون بهم - لم ينزل عذابه في الدّنيا بهؤلآء المشركين، و لم يفجع المؤمنين و المؤمنات في أهليهم من المشركين و لم يُرهم ما يسوءهم فيهم، و هكذا يصنع الله لأوليآئه و يحميهم، و بهم يدفع العذاب عن أعدائه سبحانه و أعدآئهم فوجودهم رحمة حتّى لأعدآء الله تعالى، فكيف لايكون نبيّهم رحمة للعالمين!

و من المحتمل أن يكون في الآية الكريمة إلفات لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين إلى حالهم الّتي كانوا عليها يوم الحديبيّة، و إلى حالهم اليوم من القوّة و التّمكن من مشركي مكّة، و أنّ سيف الباطل الّذي كانت تضرب به قريش في وجوه المؤمنين، و تلجئهم إلى الهجرة من ديارهم... هذا السّيف قد تحطم على صخرة الحقّ، و خذل أهله في الموقف الحاسم في ساعة العسرة.

لقد استدار الزّمن و أصبح الضّعفآء الّذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله، أصبحوا أصحاب هذا البلد الّذي أُخرجوا منه، و صار إلى أيديهم أن يخرجوا أو يقتلوا أولئك الظّالمين المعتدين الّذين أخرجوا هؤلآء المؤمنين بالأمس من ديارهم...

هذا بعض ما وقع في مشاعر كلّ من المؤمنين و المشركين من تلك المواجهة الّتي كانت بينهما يوم الفتح، كلّ منهما يراجع مسيرةَ الأحداث الّتي جرت بينهما حتّى إذا انتهوا إلى يوم الفتح هذا وجدوا مفارقات بعيدة بين بدء الأحداث و نهايتها، حيث انقلبت الموازين، و تبدّلت الأوضاع، و أصبح الّذين كانوا لايملكون شيئاً، يملكون كلّ شئ، و صار الّذين كانوا يملكون كلّ شئ، لايملكون شيئاً... و «إنّ في ذلك لعبرة لأُولى الألباب».

٢٦- (إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها و كان الله بكلّ شئ عليماً)

مستأنف بيانيّ مسوق لتقرير سبب استحقاقهم التعذيب و زمنه- مضافاً على ما سبق من كفرهم و صدّهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين عن المسجد الحرام- أي لعذّبنا هؤلآء الكافرين حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهليّة، و لعبت في رؤسهم نزوة الحميّة، فأبى و استكبر سهيل بن عمر و أن يكتب عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ في كتاب الصّلح الّذي بين رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المشركين: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» و أن يكتب فيه: «محمّد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾» و امتنع هو و قومه أن يدخل رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عامه هذا المسجد الحرام.

و لكن حكمة الله العليم بكلّ شئ قضت بأن ينتهى الموقف إلى ما انتهى إليه. فأنزل الصّبر و الطّمأنينة على رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و على المؤمنين، و هدّأ من سَورة غضبهم و غيظهم، و ألزمهم كلمة التّقوى الّتي هي الأمثل بهم لأنّهم الأحقّ بها و أهلها، و ألهمهم الرّضا بما فيه الخير والمصلحة، و لاسيّما أنّه كان في مكّة المكرّمة فريق من المؤمنين و المؤمنات لايعلمهم المؤمنون الّذين كانوا مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾، و كان من المحتمل أن يدوسوهم و ينالهم أذى أثناء الاشتباك، فيقعوا بذلك في الإثم و المشاكل، و هذه ناحية رئيسيّة من حكمة الله عزّوجلّ في كفّ أيدي الفريقين عن بعض.

و قوله سبحانه: «حميّة الجاهليّة» في تقييد الحميّة بالجاهليّة دلالة على حسن الحميّة الحقّة و التّعصّب الدينيّ الإلهيّ.

و قوله تعالى: «فأنزل الله على رسوله و على المؤمنين» تفريع على قوله سبحانه: «جعل الّذين كفروا» و يفيد نوعاً من المقابلة، و لطآئف معنويّة و ذلك أنّ الله عزّوجلّ: أبان غاية البون بين المؤمن و الكافر، باين بين الفاعلين إذ فاعل «جعل» هو الكفّار، و فاعل «أنزل» هو الله جلّ وعلا، و باين بين المفعولين إذ تلك حميّة، و هذه سكينة، و بين الاضافين: أضاف الحميّة إلى الجاهليّة، و أضاف السّكينة إلى الله جلّ وعلا، و بين الفعل:

«جعل» و «أنزل» فالحميّة مجعولة في الحال في العرض الّذي لايبق، و السّكينة كالمحفوظة في خزانة الرّحمة فأنزلها، و الحميّة قبيحة مذمومة في نفسها و ازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهليّة، و السّكينة حسنة ممدوحة في نفسها و ازدادت حسناً بإضافتها إلى اللّه جلّ وعلا.

فالعطف بالفاء دون الواو يدلّ على المقابلة، تقول: أكرمني زيد فأكرمته. فدلّت على المجازاة للمقابلة، و لذلك: «جعل» «فأنزل».

و لمّا كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ هو الّذي أجاب أوّلاً إلى الصّلح و كان المؤمنون عازمين على القتال لايرجعوا إلى أهلهم إلاّ بعد فتح مكّة أو النّحر في المنحر، و أبوا أن يكتبوا محمّد رسول‌الله ﴿ﷺ﴾ و باسم اللّه، قال الله تعالى: «على رسوله» و لمّا سكن هو ﴿ﷺ﴾ للصّلح سكن المؤمنون، فقال: «و على المؤمنين» و لمّا كان هم المؤمنون وحدهم عند الله سبحانه ألزموا تلك الكلمة، قال تعالى: «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم».

أُضيفت «كلمة» إلى «التقوى» لأنّها سبب التقوى و أساسها و قد جعل المؤمنين أحقّ بكلمة التّقوى و أهلها لأنّهم وحدهم يليقون أن يقيموا حقّها دون غيرهم.

و **قوله تعالى:** «و كان الله بكلّ شئ عليماً» مستأنف بيانيّ في موضع تعليل لما تقدّم.

و قد انطوت هذه الآية و ما قبلها إشارات خاطفة متوافقة مع الرّوايات الّتي أوردنا بعضها في بحث النّزول، و سيأتي بعضها الأُخرى في البحث الرّوائيّ إلى بعض مشاهد سفرة الحديبيّة و المفاوضات الّتي جرت بين رسول الله ﴿ﷺ﴾ و مندوبي قريش و ما كان من تعنّت مشركي مكّة و إصرارهم على الشّروط الّتي كان الحافز عليها أنفة الجاهليّة و حميّتها، و ما كان من هدوٰ جأش رسول الله ﴿ﷺ﴾ و تساهله، و موقفه الحازم و انبثاث السّكينة في نفسه، و نفوس المؤمنين و مسايرتهم لهذه الشّروط الّتي لاتهضمها النّفوس بسهولة لولا إلهام الله تعالى و سكينته الّتي أنزلها على قلوبهم و إلزامه إيّاهم كلمة التّقوى و الحقّ و المصلحة.

و في الآية الكريمة تذكير حسن صنيع رسول الله ﴿ﷺ﴾ و المؤمنين بتوفيق الله تعالى و سوء صنيع المشركين على ما يدلّ عليه الجملة الامتناعيّة على تقدير جعلها ظرفاً لعذّبنا كأنّه قيل: فلم يتزيّلوا، فلم نعذّب... فأنزل الله تعالى...

۲۷- (لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤوسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً)

مستأنف بيانيّ- على سبيل القسم- سيق لوجوه:

ألف: إزالة لما وقع في نفوس بعض المسلمين كعمر بن الخطّاب من مشاعر القلق و الرّيب و الضّيق و الإتّهام لما فاتهم من دخول المسجد الحرام يوم الحديبيّة.

في تفسير المراغي: و هو من أعلام العامّة و مفسّريهم ما لفظه: «و قال المنافقون: أين رؤياه الّتي رآها؟ فأنزل الله هذه الآية و دخلوا في العام المقبل».

و فيه: و ممّا روى: «أنّ عمر بن الخطّاب قال: «أتيت النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقلتُ: ألَسْتَ نبيّ الله حقّاً؟ قال: بلى، قلت: فَلِمَ نعطَى الدّنيّة في ديننا إذن؟ قال: إنّي رسول الله و لستُ أعصيه و هو ناصري، قلتُ: أو لستَ كنت تحدّثنا أنّا سنأتى البيت و نطوف به؟...».

أقول: رواه أكثر أعاظم العامّة و حملة آثارهم في تفاسيرهم و صحاحهم و مسانيدهم...

ب: تصديق ربّانيّ لصحّة الرّؤيا الّتي رآها رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأنّه زار بيت الله الحرام مع أصحابه و كونها حقّاً و أخبرهم بها، و قد جآؤا إليه و هم على يقين بأنّهم داخلوه.

ج: أنّ رؤيا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ رؤيا من الله تعالى و أنّها الصّدق المطلق و الواقع المحقّق و إن كان تأويلها لم يجئ بعد، فهم سيدخلون المسجد الحرام، و يقومون بطقوس الزّيارة، آمنين مطمئنّين منهم المحلّقون، و منهم المقصّرون من دون خوف و لا اضطراب.

د: إشارة إلى ما انتهى إليه سفر الحديبيّة على سبيل تبرير النّهاية، فإذا كان قد انتهى إلى ما انتهى إليه من عدم تحقيق الرّؤيا في نفس الرّحلة، فذلك ناتج عن حكمة الله تعالى، و هم لم يعلموها، حيث اقتضت أن يكون بدل الزّيارة في هذه الرّحلة الفتح القريب الّذي يسّره لهم.

و قوله تعالى: «لتدخلنّ المسجد الحرام» جواب للقسم، المقدّر المؤكّد و الشّرح لهذا الخبر الّذي أخبر الله تعالى به المؤمنين، و أنّهم داخلون المسجد الحرام إن شآء الله تعالى.

و قد وضع فيه الظّاهر موضع الضّمير، و أصله: لتدخلنّه لا محالة إلاّ أن شاء عدم الدّخول، فهو وعد لهم عدل به عن ظاهره لأجل التّعريض بهم و الإنكار على المعترضين و في رأسهم عمر بن الخطّاب، على الرّؤيا، فيكون من باب الكناية.

و في قوله سبحانه: «إن شآء الله» تعليق للعدة بالمشيئة.

إن تسئل: إنّ الاستثنآء في الأشيآء يقع فيها الشّك، و بذلك تشبّث الملحدون دليلاً على سخآئف آرآئهم... فما وجه تعليق الدّخول بمشيئة الله جلّ وعلا في أخباره سبحانه؟

تجيب عنه بوجوه: منها: أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ لم يشكّ في أنّ الله ينجزله ما وعده و لم يكن استثناؤه لذلك، ولكنّ الله تعالى علّم رسوله﴿ﷺ﴾ أن لا يقول لشئ: إنّه يفعله حتّى يستثنى فيه، و ذلك أنّ قريشاً كانوا سئلوه عن قصّة أصحاب الكهف فقال: أُخبركم به غداً و لم يستثن، فانقطع عنه الوحي أربعين يوماً حتّى قال المشركون: قد قلاه صاحبه و ودّعه، يعنون به جبرئيل﴿ﷺ﴾ فأنزل الله تعالى بعد ذلك: «ما ودّعك ربّك و ما قلى» الضّحى: ٣).

و أنزل عليه﴿ﷺ﴾ سورة الكهف، و قصّ عليه نبأ الفتية، ثمّ قال له بعد تمام القصّة: «و لا تقولنّ لشئ إنّي فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشآء الله» الكهف: ٢٣-٢٤).

فعلّمه﴿ﷺ﴾ بذلك، فكان رسول الله﴿ﷺ﴾ لا يقول بعد ذلك لشئ أن يكون إلاّ و يستثنى فيه و يقول: «إن شآء الله» و قد نزلت سورة الكهف قبل الهجرة بمكّة، و نزلت سورة الفتح بعد الهجرة بلا خلاف، فلذلك استثنى.

و منها: أنّه استثنآء من الله تعالى فيما يعلم تعليماً لعباده أن يستثنوا فيما لا يعلمون، و به ينحل ما يقال: إنّ الله سبحانه خالق الأشيآء كلّها و عالم بها قبل وقوعها، فكيف وقع التّعليق منه تعالى بالمشيئة؟ قيل: استثنى الله عزّوجلّ فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون، و فيه تعريض بأنّ وقوع الدّخول من مشيئته تعالى لا من جلادتهم و تدبيرهم، بل المشيئة هي العلّة إذا ضمّ عليها السّعى و رفع الموانع من النّفس من الكفر و الرّياء... في تعليق عدته تعالى بالمشيئة تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم...: «إن شآء الله» متأدّبين بأدب الله و مقتدين بسنّته.

و منها: أنّ «إن» بمعنى «إذ» لمحض الظّرفيّة أي لتدخلنّ المسجد الحرام حين شآء الله لا قبله و لا بعده كما في قوله عزّوجلّ: «و ذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين» البقرة: ٢٧٨). أي إذ كنتم... و منها: إنّما ذكره لتنقطع الآمال كلّها إلى الله جلّ وعلا.

و منها: أنّه على سبيل الحكاية لرؤيا رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فإنّه رأى أنّ قائلاً يقول له ﴿صلّى الله عليه و آله﴾: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله...».

و منها: أنّ الاستثناء متعلّق بقوله عزّوجلّ: «آمنين» و أمّا الدّخول فليس فيه تعليق، فالتّأكيد وقع على الدّخول، و الاستثناء وقع على الأمن لا على الدّخول. فالمعنى: إن شآء الله آمنين غير خائفين.

و قوله عزّوجلّ: «آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون» إخبار و وعد من الله تعالى بأمن المؤمنين بعد دخولهم المسجد الحرام، فلا تعترضهم قريش، و لا يقع منهم ما يسؤ المؤمنين، و أنّهم سيقفون عمرتهم، و يحلّقون و يقصّرون، ايذاناً بالحلّ من العمرة و إحرامها.

إن تسئل: ما فائدة قوله سبحانه: «لاتخافون» بعد قوله: «آمنين»؟

تجيب عنه: أنّ معناه «آمنين» من شرّ مشركي مكّة حين دخول مسجد الحرام «لا تخافون» عدوّكم أن يخرجوكم منه في المستقبل.

و قوله جلّ وعلا: «فعلم ما لم تعلموا» تفريع على «صدق الله رسوله» لتقرير الحكمة في تأخير الفتح إلى العام المقبل بأنّ الله تعالى لم يقدّر لرسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين دخول المسجد الحرام هذا العام لأمر أراده و حكمة هو يعلمها، فصرف المؤمنين عن دخول مكّة هذا العام، و جعل بين صرفهم عنها، و دخولهم فيها الّذي وُعِدوا به، جعل بين هذا الوقت و ذلك فتحاً قريباً و هو فتح خيبر أو صلح الحديبيّة، فكان للمؤمنين من ذلك فتحان: فتح قريب و هو فتح خيبر أو فتح الحديبيّة، و فتح يأتي بعده و هو فتح مكّة المكرّمة.

و في الآية الكريمة تأييد للرّوايات المرويّة: أنّ رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ إنّما اعتزم الخروج لزيارة بيت الله الحرام استلهاماً من رؤياً رآها، و رؤياه حقّ، و هذا الّذي جعل بعض

المسلمين يذهلون حيث انتهى الموقف بدون تحقيق هذه الزّيارة في هذه المرحلة، و قد استهدفت الآية التصديق و التثبيت و التطمين مع الوعد الرّبّانى بتحقيق الرّؤيا.

۲۸- (هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و كفى بالله شهيداً)

مستأنف بياني، توكيد لصدق رسول الله﴿ﷺ﴾ في رؤياه و في كلّ شئ و ذلك أنّه﴿ﷺ﴾ لو كذب رسوله﴿ﷺ﴾ كان مضلاً و لم يكن إرساله سبباً لظهور دينه و قوّة ملّته، و توكيد لما وعدهم الله تعالى من الفتح القريب، و توطين لنفوس المؤمنين على أنّه سيفتح لهم من البلاد و يتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلّون إليه فتح مكّة، و إن كان هو أساس الفتوحات كلّها...

و **قوله تعالى:** «وكفى بالله شهيداً» توكيد آخر لتحقّق الموعود، و تثبيت للمؤمنين و تطمينهم، و أنّ هذا هو كلام الله تعالى و وعده و كفى به شهيداً على تحقيقه، و فيه تسلية لرسول الله﴿ﷺ﴾ على ما وقع من سهيل بن عمرو إذ لم يرض بكتابة: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» و كتابة: «محمّد رسول‌الله» و قال ما قال:

۲۹- (محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّاء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً)

مستأنف بيانيّ تفسيري لرسالة رسول الله﴿ﷺ﴾ الّتي جآئت في الآية السّابقة لهامباشرة، و قد نصّ على إسمه و وصفه بالرّسالة لإزالة كلّ شبهة، و لرغم أنف مشركي مكّة الّذين لم يرضوا بهذا الوصف في كتاب العهد يوم صلح الحديبيّة، و قد ذكر مسند إليه في المقام تنبيهاً على غاية فضله و عظم منزلته، و لم ينسب إلى بلده و هو أُمّ القرى و

قبلة الموحّدين، و لا إلى قريب له في نسب أو سبب، فإنّه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إلى النّاس كافّة، و هو رحمة للعالمين، و ما جآء إسمه هذا: «محمّد» بأربعة مواضع من القرآن الكريم إلّا بوصف الحقّ و الرّسالة: منها: في هذه الآية الكريمة و منها: في قوله تعالى: «و الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم» محمّد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: ٢).

و منها: قوله عزّوجلّ: «ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النّبيّين» الأحزاب: ٤٠). و منها: قوله سبحانه: «و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل» آل‌عمران: ١٤٤).

و قوله تعالى: «و الّذين معه» معطوف على الجملة السّابقة مباشرة لها لتعريف فئة خاصّة مخلصة راسخة في ايمانهم و وثوقهم بالله تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الّذين كانوا مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في رسالته الإلهيّة مؤيّدين لها قلباً و قالباً لا الصّحابة كلّهم كما توهّمت العامّة إذ ليست الصّحابة كلّهم مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في رسالته قلباً و قالباً، و إنّما المعيّة هنا هي معيّة رسالته لا معيّة الرّسول دون رسالته، و الفرق بينهما كالفرق بين أهل بيت النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و أهل بيت النّبوّة، فكان عليّ بن أبيطالب و فاطمة الزّهرآء و الحسنين عليهم السّلام أهل بيت النّبوّة و إن لم يكونوا أن يعيشوا و لا يبيتوا في بيت النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و بذلك اختصّت آية التطهير بهم و بصاحب النّبوّة، و لم تكن أزواج النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أهل بيت النّبوّة و إن كنّ يعشن و يبتن في بيت النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و آية التّطهير غير شاملة لهنّ.

و من له أدنى مسكة و دراية، وطيب ولادة أنّه لا يحكم أنّ كلّ واحد من الصّحابة كان مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في رسالته و دينه قلباً و قالباً، إذ كان من جملة الصّحابة، الحكم بن أبي العاص، و كفاك به عدوّاً مبغضاً لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، و منهم الوليد بن عقبة الفاسق بنصّ القرآن المجيد، و منهم حبيب بن سلمة الّذي فعل ما فعل بالمسلمين في دولة معاوية بن أبي سفيان، و منهم بسر بن أرطأة عدوّ الله تعالى و عدوّ رسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و غيرهم من أعداء الله جلّ وعلا الّذين ذكرهم مفسّرو العامّة و محدّثوهم و مورّخوهم... و في الصّحابة كثير من المنافقين لا يعرفهم النّاس...

قال الله تعالى: «و ممّن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على

النّفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلى عذاب عظيم» التّوبة: ١٠١).

في **متشابهات القرآن و مختلفه** لإبن شهرآشوب السّروي المازندرانيّ رضوان الله تعالى عليه قال: «فقوله: «و الّذين معه» إمّا مَن كان في زمانه أومن كان على دينه، والأوّل يقتضي عموم أوصاف الآية لكلّ من صحبه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من مؤمن أو منافق، و لا يجوز أن يعني به المنافق، فلم يبق إلاّ أنّه أراد تعالى من كان على دينه، و لا نسلم أنّ من كان بهذه الصّفة فهو مزكّى و مستحقّ لجميع صفات الآية... ثمّ إنّ في آخر الآية «أشدّآء على الكفّار» يعني الجهاد و بذل النّفس، و هذا من صفات أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و قال: «رحمآء بينهم».

و الأوّل (يعني أبابكر) قد ظهرت منه الغلظة على فاطمة عليها السّلام في كيس بيتها، و منع حقّها حتّى خرجت من الدّنيا، و هي غضبى عليه، و قال لخالد بن الوليد: لاتفعل خالد ما أمرتك، و قتل مالك بن نويرة.

و أمّا الثّاني (يعني عمر بن الخطّاب) فعادته معروفة حتّى قال المسلمون: و ليت علينا هذا الفظّ الغليظ، و قال هو يوم السّقيفة: اقتلوا سعداً و هو الهاجم على بيت فاطمة عليهاالسلام و ضرب أباهريرة و سعد بن أبي وقّاص و غيرهما بالدّرّة.

و أمّا الثّالث (يعني عثمان بن عفّان) فأمره أشهر من أن يذكر.

ثمّ قال: «تراهم ركّعاً سجّداً» وصفهم الله بالرّكوع و السّجود، و لايريد ذلك سجود الأوثان و أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ لم يسجد لها قطّ، و المشايخ قد مضى أعمارهم شطرها على عبادة الأصنام، ثمّ قال: «وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً» فصرّح بحرف التبعيض أنّ الموعودين بالمغفرة و الأجر العظيم هو بعض من معه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من المذكورين في قوله: «و الّذين معه» فليدلّوا على أنّهم ذلك البعض، و بعد فإنّ قوله: «و الّذين معه» في محلّ الرّفع بالابتداء، و لابدّ للمبتداء من خبر، و الخبر لابدّ أن يكون له مبتداء كقولك: زيد قائم، و القائم زيد، فالأوّل كيف يكون مبتداء، و الثّلاثة خبره، و لابدّ أن يكون الخبر عين المبتداء و ذلك بأهل البيت عليهم السّلام أليق» إنتهى كلامه.

أقول: و بالتّبعيّة من أهل بيت الرّسالة صلوات الله عليهم أجمعين تشمل المعيّة لكلّ من كان و من يكون معه﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في رسالته و دينه قلباً و قالباً في استمرار الرّسالة إلى يوم القيامة، فلاتختصّ بزمانه﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ حتّى تختصّ بهؤلآء الفئة المخلصين المعاصرين من الصّحابة، و لا بمكانه﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فتنحصر فيمن عاينوه و شاهدوه، فتنحسر عمّن بعده﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من التّابعين الصّالحين و أتباعهم إلى يوم الدّين، ولا بلسانه وقومه حتّى تعمّ أبالهب و أضرابه... فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً فإنّ المقام من مزالّ الأقدام...

و قوله سبحانه: «أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم» سيق لتوصيف «الّذين معه» بأنّ شدّة المؤمنين الصّادقين و قوّتهم و بسالتهم بالنّسبة لأعدآئهم الكافرين المعاندين المعتدين، و الرّحمة و الرّقّة و اللينة فيما بينهم من نعوتهم و سيرتهم... و لايخفى على الأديب الأريب أنّ الرّحمة ليست ضدّاً للشّدّة، و إنّما ضدّ الشّدّة، اللين الّا أنّه كانت الرّحمة سبباً للين حَسُنَتْ المقابلة بينها و بين الشدّة، و أنّ ذكر الرّحمة بينهم بعد الشّدّة على الكفّار لدفع ما يمكن أن يتوهّم أنّ كونهم أشدّآء على الكفّار يستوجب بعض الشّدّة فيما بينهم.

فالصّفة الّتي تغلب على هذه الفئة المخلصين و يُعرف بها في النّاس: أنّهم شديد الغلظة على الكافرين الّذين يحادّون الله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فلايكون بين هؤلآء المؤمنين الصّادقين و بين الكافرين ولاء أو مودّة يُجار فيها على دين الله جلّ وعلا أو ينتقص بها حقّ من حقوق المؤمنين الصّادقين، هذه حالهم مع أعدآء الله جلّ وعلا أمّا هم فيما بينهم فهم رحمآء تفيض قلوبهم حناناً و رحمة و مودّة، تجمعهم أُخوّة بارّة في الله و في دين الله سبحانه: «إنّما المؤمنون إخوة» الحجرات: ١٠).

هذا ما تنطوي عليه صدورهم، و تفيض به مشاعرهم، نحو أعدآء الله و أوليآئه في كلّ ظرف من الظّروف...

و قوله عزّوجلّ: «تراهم ركّعاً سُجّداً» إخبار عن كثرة صلاتهم و محافظتهم و مداومتهم عليها، أي تراهم مصلّين، فالتّعبير بالمضارع للإستمرار و هو استمرار عرفيّ، فيه دلالة على كثرة الصّلاة منهم، و التّعبير بالرّكوع و السّجود عن الصّلاة مجاز مرسل.

و قوله عزّوجلّ: «يبتغون فضلاً من الله و رضواناً» في موضع تعليل لما قبله، أو مستأنف بياني مبنّي، على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الرّكوع و السّجود كأنّه قيل: ماذا يريدون بكثرة ركوعهم و سجودهم؟ فقيل: يريدون بذلك فضلاً من الله تعالى و رضوانه.

و قوله جلّوعلا: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود» بيان لأثر آخر من شعار المؤمنين الصّادقين، فإذا لم يرهم النّاظر في مقام الصّلاة رأى منهم أثر الصّلاة، و ما يترك السّجود على جباههم من آثار و هي سمة المؤمن المصلّي، و هي الشّارة الّتي تشير إليه و إلى الدّين الّذي يدين به، فالصّلاة هي شعار المؤمنين، فمن لا يرى في مقام الصّلاة أو لا يرى سمتها في جبهته فليس بمؤمن.

وجه إضافة الأثر إلى السّجود أنّه حادث من التّأثير الّذي يؤثره السّجود، و شاع تفسير ذلك بما يحدث في جبهة سيّدالسّاجدين عليّ بن الحسين عليهما السّلام ممّا يشبه أثر الكي و ثفنة البعير حتّى يقال له: ذو الثّفنات لأنّ كثرة سجوده أحدث في مواقعه منه أشباه ثفنات البعير و هي ما يقع على الأرض من أعضآئه إذا أغلظ.

و لايخفى أنّ كلّ أثر ظاهر على الحياه من السّجود أو من غيره ليس سمة الايمان كما أنّ الجباه الخالية عن الثّفنات ليست سمة اللاّايمان، فبينهما عموم من وجه قد يجتمعان و قد يفترقان.

و قوله تعالى: «ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل» إشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة، و ما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للايذان بعلوّ شأنه و بُعد منزلته في الفضل.

و الجملة مستأنفة بيانيّة سيقت لوصف حال أصحابه المخلصين لا كلّهم، أي صفتهم و شأنهم المتعجّب منه، و لما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثله في الخير و الشّرّ، فاشتقّوا منه صفة للعجيب الشّأن. سمّاه بعض أصحاب البيان بالمثل القياسي الّذي هو سرد وصفيّ أو قصصيّ أو صورة بيانيّة لتوضيح فكرة ما عن طريق التّشبيه و التّمثيل، و يسمّيه بعض أصحاب البلاغة، التّمثيل المركّب، يقصد به التّوضيح و التصوير، و يجمع

بين عمدة الفكرة و جمال التصّوير. و هذا من باب الأمثال المصرّحة في القرآن الكريم.

و تكرير «مثلهم» لتأكيد غرابته و زيادة تقريرها أو لأنّ هذه المعاني الّتي تضمّنها المثلان متلاحقة متسلسلة، فكأنّ التّوراة لمّا كان أقدم من الإنجيل و اُساً له ذكر فيه مبدأ ما به القوّة و الكمال، و كأنّ الانجيل لمّا كان بعد التّوراة ذكر فيه ما يترتّب عـلى ذلك الأُسّ و هو النّماء و القوّة والعزّة و ظهور الثّمرات، و لمّا كان التّوراة كتاب أحكام و شرائع نسب إليه المثل الّذي هو من جنس شرائعه كالسّجود و الرّكوع و الأعمال الخلقية في مواضعها، و لمّا كان الإنجيل كتاب ارتقاء للعواطف و بثّ الفضآئل و استخراج القوى الكامنة في النّفوس ناسب أن يذكر في مثله الزّرع و نمآؤه.

و **قوله سبحانه**: «كزرع أخرج شطئه فآزره» تمثيل مستأنف أي هم أو مثلهم كزرع أو تفسير لذلك. و هذامن باب تزيين المشبّه، و الغرض منه تحسين المشبّه و التّرغيب فيه عن طريق تشبيهه بشئ حسن الصّورة أو المعنى. إنّ الله تعالى أشبه المؤمنين الصّادقين بالزّرع الّذي ينبت في حواليه نبات و يلحق به، فإنّ الشّطأ: فراخ الزّرع الّذي ينبت في جوانبه، و منه شاطئ النهر: جانبه، فيقال: أشطأ الزّرع إذا فرخ في جوانبه...

«فآزره»: عاونه فشدّ فراخ الزّرع لأُصول النّبت و قوّاها، آزره: ساواه فصار مثل الأُمّ.

فني الكتابين: «التّوراة و الإنجيل» مثل ضربه الله تعالى لبدء الإسلام و تـرقّيه في الزّيادة و نموّه كنموّ الشّجر إلى أن قوى و استحكم لأنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ قام وحده ثمّ قوّاه الله تعالى بمن آمن معه إلى أن يفتح مكّة الّتي أخرجه﴿ﷺ﴾ منها أهلها كما يقوي الطاقة الاولى من الزّرع ما يحتفّ بها ممّا يتولّد منها حتّى يعجب الزّرّاع.

فمثل المؤمنين الصّادقين الّذين مثّلهم الله عزّوجلّ به فيهما: هو الزّرع، يـبدأ بـذرة هامدة في الثّرى، فإذا أصابها الماء اهتزّ كيانها و دبّ دبيب الحياة فيها و أخذت بهذا الرّصيد القليل من الحياة الّتي سرت فيها، أخذت تحاول جاهدة أن تصافح النّور و أن تلتمس لها طريقاً إليه، من بين هذا الظلام المطبق عليها، ثمّ سرعان ما يطلع لها لسان تتحسّس به الطّريق إلى النّور، و تتذوق به نسمة الحياة، و إذ شئ أخضر صغير لايكاد

يرى، يطل على الحياة في استحياء ثمّ لايلبث أن يؤازره آخر مثله، ثمّ ثالث و رابع... و هذا هو الشّط: أوّل ما يبدو من النّبات على ظاهر الأرض، جمعه شُطآن.

و شيئاً فشيئاً تنموا هذه الشّطآن و تعلوا، و يتخلّق لها ساق تقوم عليه، و أوراق تكسو هذا السّاق، و فروع و أغصان و أزهار و ثمار... حتّى تكون من ذلك نخلة باسقة أو دوحة عظيمة! و هكذا المسلمون بدؤا بذوراً كهذه البذور الّتي طال حبسها عن الأرض حتّى إذا امتدّت إليها يد الزّارع فغرسها في الأرض و ساق إليها الماء و تعهدها بالرّعاية و الرّي، طالت و انداحت و أزهرت و أثمرت، و ملأت وجه الأرض المغبّرة حسناً و جمالاً و خيراً... و شُبّه المسلمون بالزّرع لأنّهم كثير و لأنّ كلّ واحد منهم له ذاتيّته إلى جانب هذه الشّجيرات الكبيرة الّتي يضمّها الحقل...

و قوله سبحانه: «فاستغلظ فاستوى على سوقه» أى صار غليظاً باجتماع الفراخ مع الاصول، فاستقام على قصبته أي تناهى فصار كالأصل غليظة بعد الرّقّة و الرّخاوة بحيث يعجب الزّرّاع و السّوق: جمع ساق، و ساق الشّجرة: حاملتها، و هو عوده الّذي يقوم عليه و هو قصبته، و قد يخصّ السّاق بالشّجر، فيكون ساق الزّرع مجازاً مستعاراً.

و وجه الشّبه أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ خرج وحده ثمّ اتبعه من ههنا قليل و من ههنا حتّى كثروا و قوى أمرهم كالزّرع الّذي نبت ليناً ثمّ قوى فغلظت سوقه فأثمر أحسن الثمر و أكثره ممّا يعجب الزّرّاع و يرضيهم.

و قوله عزّوجلّ: «يعجب الزّرّاع» خصّهم بالذّكر لأنّه إذا أعجب الزّرّاع و هم يعرفون عيوب الزّرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم.

و قوله جلّوعلا: «ليغيظ بهم الكفّار» تعليل لما دلّ على تشبيه ايمانهم بالزّرع في نمائه و ترقّيه في القوّة و الاستكمال و تظاهر المؤمنين المخلصين على الكفّار... و هؤلآء المؤمنون هم الّذين ثبتوا على الايمان و الجهاد في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص، و كانوا مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ في رسالته و دينه قلباً و قالباً. فشبّه الله تعالى صلابتهم في الايمان و العمل بزرع نمى فقوى فخرج فرخه من قوّته و خصوبته، فاشتدّ و استغلظ الزّرع، و ضخمت ساقه و امتلأت فاستوى و ازدهر، الأمر الّذي يبعث على الابتهاج

والإعجاب من جهة، و إغاظة الكفّار من جهة اُخرى.

و من المحتمل أن يكون «ليغيظ الكفّار» تعليلاً لقوله سبحانه: «وعد الله الّذين آمنوا...» و ذلك أنّ الكفّار إذا سمعوا ما أعدّ الله تعالى لهؤلآء المؤمنين الصّادقين في الآخرة من الأجر العظيم، مع ما ينيلهم في الحياة الدّنيا من العزّة و السّعاة و النّصر و السّيادة... غاظهم ذلك.

و **قوله تعالى:** «وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً» بشارة للمؤمنين و وعد للصّالحين منهم- لا كلّهم فإنّ كثيراً منهم آمنوا بأفواههم و لمّا يدخل الايمان في قلوبهم- بمغفرة ربّانيّة، و أجر عظيم إلهيّ. و في الجملة من تعليق الحكم على وصفي الايمان و العمل الصّالح طوليّاً، مشعراً بعلّيّة الوصف في الحكم، و تنكير «مغفرة» و «أجراً» و توصيفه بـ«عظيماً» من التّنويع و التنويه باعتبارين ما لايخفى على أهل الأدب و البيان...

فلهم خاصّة دون غيرهم «مغفرة» لاتجري ببيان، و لايدرك كنهها، و لهم خاصّة دون غيرهم «أجر عظيم» لايصفه الواصفون، و لايحصيه العادّون، و لا يقدر قدره المجتهدون، أجر لايمنّ به عليهم: «أجر غير ممنون» فإنّه أجر إزاء معيّتهم الرّسول﴿صلّى الله عليه وآله﴾ في رسالته قلباً و قالباً، إزآء شدّتهم على أعدآئهم، و رحمتهم فيما بينهم، إزآء عبوديتهم لله تعالى وحده، و ابتغآءهم فضل الله تعالى و رضوانه، إزاء ايمانهم و صالح أعمالهم، إزآء صدقهم و صفآئهم، و إزآء اجتنابهم عن النّفاق و الشّقاق بين المؤمنين و هتك حرمتهم... فلا يعطون مجّاناً قد يحمل المنّة تثقل على المعطى عليه.

و في ذلك ترغيب في معيّة الرّسول﴿صلّى الله عليه وآله﴾ في رسالته﴿صلّى الله عليه وآله﴾ قلباً و قالباً، و حثّ على الايمان و الطّاعة و على البرّ و صالح الأعمال... و زجر عن النّفاق و الشّقاق و الإفساد...

و في ايثار الماضي مع الموصول: «الّذين آمنوا...» دلالة على أنّ في المعيّة في رسالة الرّسول﴿صلّى الله عليه وآله﴾ لابدّ من تحقّق الايمان و صالح الأعمال... فمن لم يؤمن قلبه و لم يعمل صالحاً يرضاه الله تعالى فلم يكن مع الرّسول﴿صلّى الله عليه وآله﴾ في رسالته قلباً و قالباً و إن كان

معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ زماناً و مكاناً و لساناً و قوماً...

فوصفهم بالايمان و العمل الصّالح بعد وصفهم بما سبق من المعيّة و الشدّة على الكفّار و الرّحمة فيما بينهم، و كثرة الرّكوع و السّجود، تخصيص و بيان بعد تعميم و إبهام دفعاً لما يمكن أن يتوهّم - كما توهّم جمهور العامّة - أنّ كلّ من كان مع الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الصّحابة و إن لم يكن معه في رسالته قلباً و قالباً فله مغفرة و أجر عظيم كالحكم بن أبي العاص، و الوليد بن العقبة، و حبيب بن سلمة، و بسر بن أرطأة و أضرابهم من المنافقين و الفاسقين و المرتدّين الّذين هم أكثر و أكثر من أن نحصيهم في المقام و نحن على جناح الإختصار.

و لعمري! إنّي لا أظنّ أنّ أحداً من العامّة و إن قلّ فضله، و ضعفت درايته أن يعتقد: أنّ كلّ أصحاب النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه و آله﴾ كانوا موصوفين بالايمان و العمل الصّالح و غيرهما من الصّفات و النّعوت الجميلة و الأخلاق الفاضلة... و منهم هؤلاء الببغآء و أربابهم...

هل كان تخلّف أبي‌بكر بن أبي قحافة، و عمر بن الخطّاب و أذنابهما عن أمر رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في إمارة اُسامة من المعيّة؟

أكانت إهانت عمر بن الخطّاب، و هتكه حرمة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بقولته: «إنّ هذا الرّجل ليهجر...» من المعيّة؟

أكان هتك حرمة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و إحراق بيت الوحي و ضرب بضعة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هضم حقّها و إسقاط جنينها... من الشّدّة على الكفّار؟

هل كان غصب الخلافة من مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ من الرّحمة فيما بينهم؟؟؟!!!

فاقض أنت أيّها القاري إن كنت من أهل الدّراية و طيّب الولادة ما أنت قاضٍ، و الله جلّ‌وعلا هو الحاكم بيننا و بينهم و هو خير الحاكمين.

و من المحتمل أن يكون الضمير في «منهم» راجعاً إلى «الكفّار» ترغيباً وحثّاً لهم إلى الايمان و صالح الأعمال و وعداً لهم بالمغفرة و الأجر العظيم. والله جلّ‌وعلا هو أعلم.

«الإعجاز»

و اعلم أنّ لهذه السّورة الكريمة كسآئر السّورة القرآنيّة وجوهاً من الإعجاز، و لكن لها - مع قصارها بالنّسبة إلى السّور الطّويلة - ميزة على غيرها، من حيث إنّها من بدئها إلى ختامها تنطوي على نحو أربعين خبراً من أنبآء الغيب قبل وقوعها، فيها وعد و هدى و رحمة و بشرى... للّذين كانوا مع رسول الله «ﷺ» في رسالته قلباً و قالباً، و وعيد، و تهديد و تقريع و تنديد و توبيخ... للكفّار و المشركين، و الفجّار و المنافقين...

و نشير إلى ما يسعه المقام من أخبارها عن العلوم الغيبيّة و نحن على جناح الإختصار:

قال الله جلّ وعلا: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً - و ينصرك الله نصراً عزيزاً - إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله - سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم - بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً - سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا - قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون - لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً و مغانم كثيرة يأخذونها - وعدكم الله مغانم

كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم - و أُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها - و لو قاتكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار - و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم - لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إنشآء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و كفى بالله شهيداً».

و هذه كلّها أنبآء عن كوائن في مستقبل الزّمان، و إنّما هي أحداث و مواقف سوف تقع تباعاً ابتداء من نزول آيات هذه السّورة إلى آخرها، و صدقت أخبارها مواقع أكوانها من دون تعلّق بما يستعان به على ذلك من تلقين ملقّن أو إرشاد مرشد أو حكم بتقويم أو رجوع إلى حساب كالكسوف و الخسوف، و لا اعتماد على جفر و اصطرلاب و طالع و ما إليها...

و قد نزلت هذه السّورة المباركة بعد صلح الحديبيّة، و قد كان عمر بن الخطّاب يرى عقد هذا الصّلح أشبه بالاستسلام و المداهنة، و لذلك اعترض على رسول الله ﴿ﷺ﴾ و قد دعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أصحابه إلى أن يهيّئوا أنفسهم لأدآء العمرة، و كان ذلك في السّنة السّادسة من الهجرة، فلمّا تمّ ذلك سار بهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى مكّة، يسوقون الهدى أمامهم، و يحبسون سيوفهم في أغمادها، فلمّا دنوا من مكّة، كانت قريش قد استعدّت للحرب إن دخل رسول الله ﴿ﷺ﴾ و المسلمون عليهم مكّة.

و قد بعث إليهم رسول الله ﴿ﷺ﴾: أنّه إنّما جآء معتمراً لا محارباً، و لكنّ القوم ركبوا رؤسهم و أبوا إلاّ أن تكون الحرب إن دخل رسول الله ﴿ﷺ﴾ و المسلمون مكّة، و قد كادت الحرب تقع، و لكن انتهى الأمر أخيراً إلى عقد صلح يقضي بأن يرجع رسول الله ﴿ﷺ﴾ و المسلمون عامهم هذا، و أن يعودوا في العام المقبل، فتخلّى لهم قريش مكّة، فيدخلها رسول الله ﴿ﷺ﴾ و أصحابه ثلاثة أيّام يقضون فيها عمرتهم...

و قد أكثر عمر بن الخطّاب مقولات، رفضاً لهذا الصّلح قبل أن يتمّ، و تعقيباً عليه بعد أن تمّ حتّى خلا بحليفه أبي‌بكر بن أبي قحافة، و أسرّ إليه بما في نفسه من هذا الصّلح الّذي

يرى فيه غبناً على المسلمين، حتّى جآء إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ موسوساً معترضاً يقول له ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «يا رسول الله! ألسنا على الحقّ؟ أليس القوم على الباطل؟ قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: بلى! قال عمر: فَلِمَ نعطى الدّنيّة في ديننا؟» فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «أنا عبدالله و لن أُخالف أمر ربّي و لن يضيّعني».

فلمّا تمّ الصّلح ظلّت كثير من المشاعر المتضاربة تنخس في صدور المسلمين خاصّةً، و أنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كان قد تحدث إليهم بأنّهم سيدخلون مكّة المكرّمة، وأنّه رأى في ذلك رؤيا و فيها قال الله عزّوجلّ: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً».

فهذه الرّؤيا الّتي رآها رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ رؤيا صادقة و لكن تأويلها لم يجئ زمنه بعد، إنّ المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤسهم و مقصّرين... هذا هو مضمون الرّؤيا أمّا زمانها فلم تحدّده الرّؤيا، و قد عاد المؤمنون من صلح الحديبيّة و هم على عهد مع قريش على دخول المسجد الحرام في العام المقبل.

و قد عاد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالمسلمين إلى البلد الحرام في العام المقبل، و قاموا على مشارفها، فلاتجرؤ قريش على الخروج للقآئهم: «و كفّ أيدى النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين» بل تنتظر حتّى يدخلها عليهم رسول‌الله و المؤمنون، و هم الّذين أخرجوا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المسلمين منها، و هم الّذين تهدّدوا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المسلمين، و جاؤا إلى المدينة بجيوشهم يريدون أن يدخلوها على أهلها في غزوتي «اُحُد و الأحزاب».

و قد كانت هذه السّورة المباركة تخبر المسلمين بهذا اليوم، و تملأ قلوبهم أمناً في مجال الرّوع و الفزع، و تثبّت أقدامهم على الحقّ و الهدى في مواطن الجبن و الخور، و كانت هناك سكينة تمسك نفوس المؤمنين في ساعت العسرة أن تبوخ و أن تنحلّ، بل تزيدهم ايماناً.

و قد استخزت قريش أمام هذه السّورة المباركة في مكّة و استسلمت لها استسلام

يأس قاهر، استخزت كذلك أمام جحافلها في ميادين الحرب، و ولّت منهزمة تجرّر أذيال الخزى و العار، فهذه السّورة تتعقّبها في كلّ مكان، و تأخذ عليها كلّ سبيل حتّى تدخل عليها عقر دارها: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم» فلم تجد قريش ملجئاً إلاّ أن تسسلم لهذا القرآن و تُسلِم مع المسلمين، و ترتفع راية القرآن الكريم عالية في مكّة المكرّمة و يدخل النّاس في دين الله أفواجاً، و تتردّد على أفواه المسلمين آيات سورة الفتح الّتي كانت نزلت عليهم من السّمآء قبل هذا اليوم، مبشرة بهذا الفتح العظيم، قبل أن يجئ وقته:

«إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً- محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّاء على الكفّار رحمآء بينهم...»

و تصحب هذا الآيات الكريمة المسلمين في كلّ معركة بينهم و بين قريش، فلا تلبث قريش أن تولّى الأدبار، منهزمة و يرى المسلمون مصداق هذا الوعد الكريم يتحقّق شيئاً فشيئاً، و تلوح بشآئره يوماً بعد يوم حتّى إذا كان يوم فتح مكّة، فيذكر المسلمون آيات سورة الفتح ذكراً خاصّاً و يدخلون بها مكّة فاتحين ظافرين، و يتعالى هتافهم حول البيت الحرام، و في طرقات مكّة المكرّمة و شعابها:

«الله أكبر، ألله أكبر، لا إله إلاّ الله وحده... صدق وعده، و نصر عبده، و أعزّ جنده، و هزم الأحزاب وحده».

و تنتهى معركة سورة الفتح مع العرب بهذا الفتح المبين، و إنّه لنصر للقرآن الكريم في ذاته من حيث إنّه كلام الله المجيد، الكلام المعجز... و كلام الخالق الّذي لا يقوم له كلام من كلام المخلوق كما لا يقوم لمخلوق من خلق الله جلّ وعلا، من مصنوع المخلوق... فآمنت لهذه السّورة قريش و ضَرَعَتْ بين يديها قبل أن تدخل في دين الله تعالى و تصبح في المسلمين... و إنّه لنصر للرّايات الّتي ارتفعت باسم القرآن الكريم في ساحات القتال، من حيث إنّها رايات الحقّ و الهدى الّتي وعدها الله تعالى بالنّصر: «و ينصرك الله نصراً عزيزاً- هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و كفى بالله شهيداً».

و لايذهب بشئ من جلال هذا النّصر، و لاينال من روعته و إعجازه أن يكـون المسلمون في أدوار المعركة الحاسمة للنّصر قد أُصيبوا ببعض الهزآئم... فذلك ابتلاء أراده الله بعباده المؤمنين ليمتحن ايمانهم و يتّخد منهم شهداء كما أنّ صلح الحديبيّة كان ابتلاء، امتحن به المسلمون...

قال الله تعالى: «و لنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصّابرين و نبلو أخباركم» محمّد(صلی الله علیه و آله): ۳۱).

و قال: «و ليعلم الله الّذين آمنوا و يتّخذ منكم شهدآء و الله لايحبّ الظّالمين و ليمحّص الله الّذين آمنوا و يمحق الكافرين» آل عمران: ۱٤۰-۱٤۱).

فالجراحات الّتي كانت قد تصيب المسلمين في معاركهم من أجل الحقّ هي الضّريبة المحتومة الّتي يجب أن يؤدّيها دعاة الحقّ و أنصاره من أجل قضيّة الحقّ و الدّفاع عنها... و ما مردّ هذا الفضل إن لم يكن عن تضحية و فداء و استشهاد؟

و قال بعضهم: من السّخافة أن يتوهّم المرء أنّ الحقّ لا شئ سوى أنّه حقّ يشتمل على قوّة غريزيّة ليست موجودة في الباطل، من شأنها أن تمكّن الحقّ من التغلّب على ضروب العقاب و التنكيل... إذ الحقيقة الواقعة أنّ مقداراً كافياً من العقوبات القانونية أو الظّلم الاجتماعى جدير بأن يحول دون انتشار الحقّ، و لكنّ الفضيلة الصّادقة الّتي يتميّز بها الحقّ هي أنّه يمكن إخماده مرّة و مرّتين و مرّات... غير أنّه لابدّ على مدى الدّهور أن يظهر ناس يعاودون استكشافه المرّة بعد الأُخرى، حتّى يوافق ظهوره في إحدى المرّات ظروفاً ملائمة فيفلت من الاضطهاد، و يجمع من الأنصار ما يمكّنه من الثّبات».

فالحقّ لاينتصر بما فيه من قوّة ذاتيّة وحدها، بل لابدّ لهذه القوّة من أنصار، يجتمعون عليها و يحملون رايتها، ثمّ لابدّ لهؤلآء الأنصار أن يعملوا تحت هذه الرّاية، و أن يلقوا من أجلها ما يلق العاملون من جهد و نَصَب و بلاء... و إلّا لتغيّرت طبائع الأشيآء، و كان من شأن الحقّ حينئذ أن يخرج على النّاس في صورة واقع محتوم لايقف دونه أحد، و لايتصدّى له أحد!... و هنا لايكون حقّ و باطل، بل هو حقّ محض لا يُعرَف له وجه... إذ لا باطل يقابله و يكشف عن وجهه!... و ما هكذا قام الوجود الّذي

لم يقم إلاّ على الصّراع بين المتناقضات... بين الحقّ و الباطل، بين الايمان و الكفر، بين الخير و الشّرّ، بين النّور و الظّلام و بين الهدى و الضّلال...

و من جهة اخرى: فإنّه ليس ممّا يقلل من جهاد المجاهدين في هذه المرحلة من مراحل الدّعوة الإسلاميّة أنّ الله جلّ وعلا قد وعدهم بالنّصر و بشّرهم بالظّفر على أعدآئهم...

فهذا الوعد من الله تعالى و إن تلقّاه المؤمنون باليقين، و استقبلوه بالغبطة و الرّضا، فإنّه لايُخرج الإنسانَ عن واقع الحياة، و لايغيّر عن سنن الطّبيعة، و إن كان له ما له من أثر في طمأنينة القلب و سكن النّفس: «و ما جعله الله إلّا بشرى لكم و لتطمئنّ قلوبكم به و ما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم» آل عمران: ١٢٦).

فالمؤمنون الصّادقون يذهبون إلى مواطن الحرب موطّنين أنفسهم على النّصر أو الموت... و هم في مجال المعركة «يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يُقتَلون وعداً عليه حقّاً» التوبة: ١١١). و هذا الوعد الّذي وعدهم الله تعالى إيّاه «في التّوراة و الإنجيل و القرآن» التوبة: ١١١) بالنّصر غير منظور إليه في ذات الفرد نفسه، و إنّما هو لحساب الإسلام، و حصادُه ليس في حصيلة فرد، و لا في موطن معركة، و إنّما هو في محيط المؤمنين جميعاً، و في آخر معركة بين المؤمنين و الكافرين... يوم يجئ نصر الله و الفتح، و يدخل النّاس في دين الله أفواجاً... فالنّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنون موعدون وعداً حقّاً بالنّصر و الفتح... و لكن بعد أن يبتلى أصحابه في أنفسهم و أموالهم، فكما وعدهم اللّه تعالىٰ بالنّصر و الفتح، آذنهم بالإبتلاء!

و إذا كان القرآن الكريم مشتبكاً مع هؤلاء المعاندين المتحجّرين في هذا الصّراع... فيفضح كبريآئهم و يزلزل أقدامهم، و يضرب بالخزي وجوههم و أدبارهم... فإنّه كان مع ذلك سائراً في طريقه، يفتح القلوب للنّور الّذي جآء به، و للهدى الّذي يدعو إليه، فتستجيب له، و تخشع لجلاله و تخضع لعظمته، و تدخل في سلطانه، فتصبح له رعيّة و جنداً... و بهذا دخل كثير من النّاس في دين الله من دون عناد و لا لجاج و لا جدال... إذ رأوا نوراً هادياً، و طريقاً مستقيماً، و أمراً راشداً، فلايرغب عن هذا إلاّ من سَفِهَ نفسه و ركب جهله!

و لقد كان رسول الله﴿ﷺ﴾ يعرض نفسه على النّاس، و يعرض عليهم ما يحمل على فمه الطّهور من كلمات الله جلّ وعلا فلا يجد عاقل مَنصَرَفاً عن أن يأذن لاذنه بأن تفتح طريقاً لهذا القول الطّيّب إلى قلبه... و إذا هو في المؤمنين بالله تعالى و برسوله﴿ﷺ﴾ و ما أنزل الله سبحانه على رسوله﴿ﷺ﴾.

في المجمع: قال الطّبرسيّ المازندرانيّ في قوله تعالى: «سيقول لك المخلّفون من الأعراب» إلى قوله: «و ظننتم ظنّ السّوء» في هلاك النّبيّ﴿ﷺ﴾ و المؤمنين: و كلّ هذا من الغيب الّذي لايطلع عليه أحد إلاّ الله فصار معجزاً لنبيّنا﴿ﷺ﴾».

و في تفسير النيشابورى: قال: «ثمّ بيّن ما يعلم منه إعجاز القرآن لأنّه أخبر عن الغيب و قد وقع مطابقاً، و له في السّورة نظائر، فقال: «سيقول لك المخلّفون».

أقول: «و قد أخبر بمقالاتهم قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر، حتّى لم يكتف بذكر التخلّف بل ذكر مقالتهم بقوله تعالى: «شغلتنا أموالنا و أهلونا» و ذكر اعتذارهم بقوله: «فاستغفرلنا»، و ذكر ظنّهم السّوء بأنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين لن يرجعوا من سفرة الحديبيّة، و ذكر مقالتهم الثانية: «سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم...» و أنّ الله تعالى وعد المؤمنين بفتح خيبر و مغانمها بعد صلح الحديبيّة، و أخبرهم بعدم اتّباع هؤلآء المخلّفين حتّى لأخذ الغنآئم و غيرها من الإنباءات في هذه السّورة المباركة كلّها آية بيّنة معجزة لكى توقظ المؤمنين بمكائد المنافقين و تزدادهم ايماناً أنّها وحي سماويّ صادق أمين.

و قد فتحت خيبر بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ﷺ﴾ من غير قتال، بعد أقلّ من شهرين من صلح الحديبيّة، وافرة الغنآئم، و حصون خيبر هي آخر حصون بقيت لليهود العنود في الجزيرة كأقواها و أغناها، و كان قد لجأ إليها بعض بني النّضير و بني قريظة ممّن أجلوا عن الجزيرة من قبل، و قد فتحها أميرالمؤمنين﴿ﷺ﴾ للمسلمين دون مشاركة للمنافقين كما أخبره الله تعالى: «قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل...»

و قد أخبر بفتح مكّة في قوله سبحانه: «و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها...» و قد تحقّقت فكانت من معجزات السّورة المباركة...

﴿التكرار و أسراره﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور حول عشرة امور:

أحدها- أنّ ثلاث سور يشتمل كلّ واحدة منها على تسع و عشرين آية على التّرتيب التّالي نزولاً: ١- سورة التكوير. ٢- سورة الحديد. ٣- سورة الفتح.

ثانيها- أنّ السّورة الّتي ابتدأت بحرف التّوكيد مع نون التكلّم مع الغير للتّعظيم أربع سور على التّرتيب التّالى نزولاً:

ألف: سورة الكوثر: «إنّا أعطيناك الكوثر» **ب**: سورة القدر: «إنّا أنزلناه في ليلة القدر». **ج**: سورة نوح﴿عليه السلام﴾: «إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه» **د**: سورة الفتح: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

ثالثها- أنّ الآيتين من السّورتين في القرآن الكريم قد جآء في كلّ واحدة منهما مجموع الحروف الهجائيّة: ١- سورة آل عمران: ١٥٤). أوّلها: «ثمّ أنزل عليكم- و الله عليم بذات الصدور» ٢- سورة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾: ٢٩) أوّلها: «محمّد رسول الله- و أجراً عظيماً».

رابعها- أنّ أربع سور من القرآن الكريم قد تمّت جميع آياتها بكلمة منصوبة منوّنة على التّرتيب التّالى مصحفاً:

ألف: سورة الكهف. **ب**: سورة الفتح. **ج**: سورة الجنّ. **د**: سورة الإنسان. فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

خامسها– أنّ الله تعالى قال أوّلاً: «و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عليماً حكيماً» الفتح: ٤).

و قال ثانياً: «و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عزيزاً حكيماً» الفتح: ٧) لوجوه:

منها: أنّ الأوّل متّصل بإنزال السّكينة و ازدياد ايمان المؤمنين، فكان الموضع موضع علم و حكمة، و قد سبق ما اقتضاه الفتح عند قوله عزّوجلّ: «و ينصرك الله نصراً عزيزاً» و أمّا الثّاني فمتّصل بالعذاب و الغضب و سلب الأموال و الغنآئم، فكان الموضع موضع عزّة و غلبة و حكمة.

و **منها**: أنّ الأوّل وعد لأنّه متّصل بذكر المؤمنين أي قلّة الجنود الّتي يقدر على أن يعينهم بها، و الثّاني وعيد فإنّه متّصل بذكر المنافقين و المشركين أي قلّة الجنود الّتي يقدر بها على الانتقام منهم، فله تعالى جنود السّموات و الأرض و قواها، قادر على تحقيق ما وعد المؤمنين به، و قد كان و ما يزال عليماً بكلّ شئ، حكيماً لا يأمر و لا يقضى إلاّ بما فيه الحكمة و الصّواب، كما أنّ له عزّوجلّ جنود السّموات و الأرض و قواها، قادر على تحقيق ما أوعد المنافقين و المشركين من الخزى و اللّعنة و العذاب و الهوان، فهو كان و ما يزال عزيزاً قادراً على ذلك، حكيماً يفعل ما فيه الحقّ و الحكمة و الصّواب.

و **منها**: أنّ المراد بالأوّل أنّه المدبّر لأمر المخلوقات بمقتضى علمه و حكمته، و المراد بالثّاني التّهديد بأنّهم في قبضة قدرة المنتقم فلا تكرار، و لمّا كان في الأوّل من هو أهل للرّحمة ناسب أن يكون خاتمة الاولى: «و كان الله عليماً حكيماً» و لمّا بالغ سبحانه في تعذيب المنافقين و المشركين ناسب أن يكون خاتمة الثّانية: «و كان الله عزيزاً حكيماً».

و **منها**: أنّ المراد بالجنود في الأوّل، جنود رحمة و هم الملائكة الّذين يكونون مع المؤمنين الصّادقين و أوليآءهم في الحياة الدّنيا و الآخرة: «نحن أوليآؤكم في الحياة الدّنيا و الآخرة» فصّلت: ٣١). و في الثّاني جنود عذاب يعذّبون الكافرين في الحياة الدّنيا و يدخلونهم جهنّم في الدّار الآخرة كما ينبئ عنه التعريض لوصف العزّة لأنّ المقام مقام قهر و غلبة، و كلاهما بمقتضى الحكمة الإلهيّة.

و قيل: إنّ جنود الرّحمة هم سبب لإدخال المؤمنين الجنّة بالإكـرام و التّـعظيم، ثمّ إلباسهم و خلع الكرامة لقوله: «و يكفّر عنهم سيّئاتهم» ثمّ تشريفهم بالفوز العظيم من الله تعالى كما قال: «و كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً» و أمّا الكافر فعكس منه التّرتيب أخبر بتعذيبهم أوّلاً على الإطلاق، ثمّ فصّل بأنّه يغضب عليهم أوّلاً ثمّ يوبقهم في حيّز اللعن و البعد عن الرّحمة، ثمّ يسلّط عليهم ملائكة العذاب الّذين هم جنوده كما قـال: «عليها ملائكة غلاظ شداد» و لاريب أنّ كلّ ذلك على قانون الحكمة إلاّ أنّه قرن العلم في الأوّل إلى الحكمة تنبيهاً على أنّ إنزال السّكينة و ازدياد ايمان المؤمنين و ترتيب الفتح على ذلك كانت كلّها ثابتة في علم الله جارية على وفق الحكمة، و قرن العزّ بالحكمة ثانياً لأنّ العذاب و سلب الأموال و الغنآئم يناسب ذكر القهر و الغلبة و العزّة.

و منها: أنّ المراد بجنود السّموات، الملائكة، و جنود الأرض، المؤمنون، و أعاد لأنّ الأوّل عقيب ذكر المشركين من قريش، و الثّاني عقيب ذكر المنافقين و سآئر المشركين، و المراد في الموضعين التخويف و التّهديد، فلو أراد إهلاك المشركين و المنافقين لم يعجزه ذلك و لكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى.

و منها- أنّ في التكرار بياناً بأنّ لله تعالى جنوداً للرّحمة و جنوداً للعذاب، فذكرهم أوّلاً بياناً لإنزالهم للرّحمة و أنّهم يدخلون الجنّة مكرمين معظمين كـما قـال: «الّـذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون» النحل: ٣٢) و ذكرهم ثانياً بياناً لإنزال العذاب على الكافرين في نار جهنّم كما قال: «عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون» التحريم: ٦).

و غيرها من الأسرار في التكرار ما هو أوغل في الإعجاب و أدعى إلى التأمّل.

سادسها- قال الله تعالى أوّلاً: «سيقول لك المخـلّفون» الفـتح: ١١) ثمّ قـال ثـانياً: «سيقول المخلّفون» الفتح: ١٥) و لم يقل: «لك» أو «لكـم» لأنّ الأوّل خـطاب لرسـول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ وحده و الثّاني خطاب للمؤمنين كلّهم...

سابعها- قال الله عزّوجلّ في هذه السّورة: «قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً»: ١١). و قال في سورة المائدة: «قل فمن يملك من الله شيئاً إن

أراد أن يهلك المسيح ابن مريم»: ١٧) زاد في سورة الفتح «لكم» لأنّ ما في هذه السّورة نزلت في قوم بأعيانهم و هم المخلّفون، و ما في سورة المائدة عامّ لقوله تعالى: «أن يهلك المسيح ابن مريم و أُمّه و من في الأرض جميعاً».

ثامنها- أنّ قوله تعالى: «كذلكم قال اللّٰه» بلفظ الجميع لانظير له، و هو خطاب للمضمرين في قوله سبحانه: «لن تتّبعونا».

تاسعُها- أنّ قوله سبحانه أوّلاً: «لم تعلموهم أن تطؤهم» ثمّ ثانياً: «بغير علم» الفتح: ٢٥) ليس بتكرار سوآء كان «أن تطؤهم» بدلاً من الضّمير المنصوب في «لم تعلموهم» أو بدل اشتمال من «رجال و نسآء» أمّا على الأوّل فلأنّ حاصل المعنى: «و لولا مؤمنون لم تعلموا و طأتهم و إهلاكهم و أنتم غير عالمين بايمانهم» لأنّ احتمال أنّهم يهلكون من دون شعور مع ايمانهم سبب الكفّ، فيعتبر فيه العلمان، فمتعلّق العلم في الأوّل الوطأة، و في الثّاني أنفسهم باعتبار الايمان.

و أمّا بنآء على بدل الاشتمال، فلأنّ قوله سبحانه: «بغير علم» لما كان حالاً من فاعل «تطؤهم» كان العلم بهم راجعاً إلى العلم باعتبار الإهلاك كما تقول: أهلكته من غير علم، فلا الإهلاك من غير شعور، و لا العلم بايمانهم حاصل، و الأمران لكونهما مقصودين بالذّات، صرّح بهما و إن تقاربا أو تلازما في الجملة.

عاشرها- أن نشير في المقام إلى صيغ إحدى عشر لغة- أوردنا معانيها اللغويّة على سبيل الاستقصآء في بحث اللغة من هذه السّورة- الصّيغ الّتي جآئت في هذه السّورة و في غيرها من السّور القرآنيّة:

١- جآئت كلمة (الفتح) على صيغها في القرآن الكريم نحو: (٣٨) مرّة:

٢- جآئت كلمة (العزر) على صيغها في القرآن الكريم نحو: أربع مرّات:

١- سورة المائده: ١٢) ٢- سورة الأعراف: ١٥٧) ٣- سورة الفتح: ٩) ٤- سورة التوبة: ٣٠).

٣- جآئت كلمة (الشغل) على صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّتين:

١- سورة الفتح: ١١) ٢- سورة يس: ٥٥).

٤- جآئت كلمة (الغنيمة) على صيغها في القرآن الكريم نحو: تسع مرّات:

١- ٣- سورة الفتح: ١٥ و ١٩ و ٢٠) ٤ و ٥- سورة الأنفال: ٤١ و ٦٩) ٦- سورة النسآء: ٩٤) ٧- سورة الأنعام: ١٤٦) ٨- سورة الأنبيآء: ٧٨) ٩- سورة طه: ١٨)

٥- جآئت كلمة (مكّة) بصيغة واحدة و هي في سورة الفتح: ٢٤).

٦- جآئت كلمة (الوطأ) على صيغها في القرآن الكريم نحو: ستّ مرّات:

١- سورة الفتح: ٢٥) ٢- الأحزاب: ٢٧) ٣ و ٤ و ٥- سورة التوبة: ٣٧ و ١٢٠ ٦-سورة المزمّل: ٦).

٧- جآئت كلمة (العرّة) على صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّتين:

١- سورة الفتح: ٢٥) ٢- سورة الحج: ٣٦).

٨- جآئت كلمة (الحلق) على صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّتين:

١- سورة الفتح: ٢٧) ٢- سورة البقرة: ١٩٦).

٩- جآئت كلمة (السّوم و السيما) على صيغها في القرآن الكريم نحو: خمس عشرة مرّة

١٠- جآئت كلمة (الزّرع) على صيغها في القرآن الكريم نحو:أربع عشرة مرّة

١١- جآئت كلمة (الشطأ) على صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّتين:

١- سورة الفتح: ٢٩) ٢- القصص: ٣٠).

﴿التّناسب و جهاته﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور على جهات ثلاث:

أحدها- التّناسب بين هذه السّورة و ما قبلها نزولاً.

ثانيها- التّناسب بين هذه السّورة و ما قبلها مصحفاً.

ثالثها- التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها:

أمّا الاولى: فإن هذه السّورة المباركة نزلت بعد سورة التّغابن على الأصح، فالتّناسب بينهما نزولاً موضوعيّ، حيث إنّ غرض سورة التّغابن لمّا كان دعوة السّامعين- إطلاقاً - إلى الايمان باللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بكتابه الكريم، و ترغيبهم إلى طاعة اللّه عزّوجلّ و طاعة رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و العمل بكتابه، و تحذيرهم عن الكفر و الطّغيان و ذميم الصّفات، و موجباتها من حبّ الدّنيا و أعراضها بذكر و بالها من النّار و عذابها، و تنبيههم بنكال اللّه جلّ وعلا في الكافرين السّابقين، أخبر تعالى رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في هذه السّورة بالفتح القريب له﴿صلى الله عليه و آله﴾ قبل وقوعه، و نصرته﴿صلى الله عليه و آله﴾ بجنوده على الكفّار و المشركين، و ظهور دينه على سآئر الأديان، و وعد المؤمنين بالخير و السّعادة، و أوعد الكفّار و المنافقين بالشّرّ و الهلاكة.

و **أمّا الثّانية:** فالتّناسب بينهما مصحفاً فبوجوه:

أحدها- أنّ السّورة السّابقة لمّا حملت إسم «محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾» في أوآئلها: «و الّذين

آمنوا و عملوا الصّالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم» محمّد﴿عليه السلام﴾:۲) و لذلك سمّيت به﴿عليه السلام﴾ كان يناسبه أعظم المناسبة أن يجئ عقيب سورته، سورة «الفتح» و افتتحت بالفتح له﴿عليه السلام﴾: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً». و اختتمت به﴿عليه السلام﴾: «محمّد رسول اللّه» الفتح: ۱ و ۲۹) إذ كان هذا الفتح المبين القريب لمحمّد رسول اللّه﴿عليه السلام﴾ و دينه بالذّات و الأصالة و لأُمّته المؤمنين بالتّبع.

ثانيها- أنّ اللّه تعالى لمّا نهى المؤمنين في السّابقة عن المداهنة و طلب الصّلح، و وعدهم بالنّصر و الغلبة على المشركين في قوله عزّوجلّ: «فلا تهنوا و تدعوا إلى السّلم و أنتم الأعلون و اللّه معكم و لن يتركم أعمالكم» الفتح: ۳۵) بيّن لهم برهانه في هذه السّورة بفتح مكّة المكرّمة أو بصلح الحديبيّة أو بكليهما و غيرهما من فتح خيبر و غيرها من الفتوح... ففي قوله سبحانه: «تدعوا إلى السّلم» إشارة إلى ما جرى يوم الحديبيّة من أنّ المؤمنين صبروا حتّى طلبت منهم قريش الصّلح.

ثالثها- لمّا وعد اللّه تعالى المؤمنين بالنّصرة على الكافرين، مشروطةً على نصرتهم لدينه في السّابقة: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم»: ۷) بيّن نصرته لهم و تثبيت أقدامهم في هذه السّورة: «فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً...»: ۱۸).

رابعها- لمّا ذكر في السّابقة، القتال: «و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال...»: ۲۰). أخذ في هذه السّورة بذكر ما يترتّب عليه و هو الفتح.

خامسها- لمّا صرّح تعالى في السّابقة كراهة بعض المتظاهرين بالايمان، عمّا نزل اللّه تعالى على رسوله﴿عليه السلام﴾ أشار في هذه السّورة إلى مخالفة البعض و هو عمر بن الخطّاب عن صلح الحديبيّة.

سادسها- لمّا أمر اللّه جلّ‌وعلا في السّابقة رسوله﴿عليه السلام﴾ بالاستغفار تعليماً لأُمّته: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه و استغفر لذنبك و للمؤمنين...»: ۱۹)، بيّن في هذه السّورة وقوع المغفرة.

سابعها- أنّ في كلّ منها وعداً و بشرى و ذكراً للمؤمنين الصّادقين، و وعيداً و تهديداً و تنبيهاً للمنافقين و المشركين.

ثامنها- لمّا ختمت السّورة السّابقة بدعوة المؤمنين إلى البذل و الإنفاق في سبيل اللّه تعالى: «ها أنتم هؤلآء تدعون لتنفقوا في سبيل اللّه»: ۳۸) حاملة بين يدي هذه الدّعوة إشارةً إلى أنّ هذه الدّعوة لاتلقى قبولاً من بعض ذوي النّفوس الّتي لم يتمكّن الايمان منها، و أنّ هؤلآء سيُخلون مكانهم لغيرهم من المؤمنين الّذين صدقوا اللّه تعالى و رسوله(ﷺ) و هؤلآء المؤمنون هم الّذين يتلقّاهم اللّه جلّ وعلا بالقبول، و يمنحهم النّصر و التّأييد الّذي وعد به عباده المؤمنين...

افتتحت هذه السّورة بما يزف إلى المؤمنين هذه البشرى بالفتح و النّصر و التّأييد الّذي أعزّ اللّه تعالى به رسوله(ﷺ) و أعزّ به المؤمنين معه...: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً- و ينصرك اللّه نصراً عزيزاً هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم...».

تاسعها- لمّا ختم اللّه تعالى السّابقة، خطاباً لضعفآء الايمان بقوله: «و إن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم»: ۳۸) أخبر في هذه السّورة بوقوع الفتح المبين القريب الّذي يتعقّب عليه الفتوح الّتى يحصل بها الاستبدال.

و غيرها من المناسبات بين السّورتين مصحفاً تركناها روماً للاختصار فتأمّل جيّداً.

و أمّا الثّالثة: فلمّا افتتحت السّورة بالإخبار عن الفتح المبين لرسول اللّه(ﷺ) بشّره بغفران ذنوبه السّابقة و اللّاحقة، و هي ذنب الرّسالة و النّبوّة و الدّعوة بحساب المشركين و عند الكفّار و المعاندين، فأذهب اللّه تعالى تبعاتها و غفرها بفتح مكّة المكرّمة، و أتمّ نعمته عليه باعلاء كلمته، و وفّقه إلى أقوم الطّرق الموصل إلى الغاية، الّذي سلكه رسول اللّه(ﷺ) بعد صلح الحديبيّة من فتخ خيبر و بسط سلطة الدّين في أقطار الجزيرة العربيّة حتّى انتهى إلى فتح مكّة و الطّائف، و نصره في النّهاية نصراً لا مثيل له، إذ فتح له مكّة و الطّائف و انبسط الإسلام في أرض الجزيرة و أقطارها، و انقلع الشّرك و ذلّ اليهود، و خضع له النّصارى و المجوس...: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً- نصراً عزيزاً»: ۱-۳).

لمّا نوّهت الآيات الثّلاث السّابقة بما يسّره اللّٰه تعالى لرسوله﴿ﷺ﴾ من الفتح المبين، و بشّرته: ١- بالمغفرة. ٢- بإتمام النّعمة. ٣- بالهداية. ٤- بالنّصرة. أخذت الآيتان التاليتان بذكر ما للمؤمنين من مزيّة، و يذكّرهم بما يعود إليهم من نتآئج هذا الفتح من: ١- الثّبات و الطّمأنينة في قلوبهم ليقوى به ايمانهم و ثقتهم و اطمئنانهم. ٢-تنبّههم إلى أنّ للّٰه جلّ وعلا جنود السّموات و الأرض و قواها، فهو قادر على ما وعدهم به. ٣- إدخالهم الجنّة. ٤- تكفير سيّئاتهم، و ذلك هو الفوز العظيم، فقال: «هو الّذي أنزل السّكينة - و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً»: ٤-٥).

لمّا تقدّم الوعد في الآيتين للمؤمنين بأُمور أربعة، عقّبه تعالى بالوعيد في الآيتين التّاليتين للمنافقين و المشركين بأربعة امور: ١- العذاب و دائرة السّوء عليهم في الحياة الدّنيا. ٢- غضب اللّٰه تعالى عليهم. ٣- لعنة اللّٰه جلّ وعلا عليهم. ٤- عذابهم يوم القيامة. و أنّ للّٰه تعالى جنود السّموات و الأرض و قواها فهو قادر على تحقيق ما أوعدهم من الخزي و الهوان في الدّنيا، و النّار و العذاب في الآخرة كلّ ذلك بمقتضى الحكمة الإلهيّة: «و يعذّب المنافقين - و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً»: ٦-٧).

ثمّ أعاد الخطاب إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لتعريفه و بيان وظيفته و مسئوليّته على طريق وصفه بصفات أربع: ١- الرّسالة. ٢- الشّهادة. ٣- البشارة. ٤- النّذارة: «إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً»: ٨) فما يفعله النّبيّ﴿ﷺ﴾ و يقوله و يقرره فهو وحي من اللّٰه تعالى.

ثمّ خاطب المؤمنين تقريراً لحكمة الرّسالة و بيان وظآئفهم، و أمرهم بأُمور أربعة: ١-الايمان. ٢- التّعزير. ٣- التّوقير. ٤- التسبيح صباحاً و مسآءً.

فيجب عليهم أن يؤمنوا باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و يخضعوا لأوامرهما و يقفوا عنده...

«لتؤمنوا باللّٰه و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً»: ٩) ذكر ذلك تمهيداً ليترتّب عليها ذكر البيعة: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه - أجراً عظيماً»: ١٠)

فجآئت الآية الكريمة معقّبة على ما تقدّم لتؤذن المسلمين أوّلاً: أنّهم و إن كانوا بايعوا رسول الله﴿ﷺ﴾ و لكنّهم في الحقيقة بايعوا الله سبحانه الّذي كانت يده فوق أيديهم... و لتنبّههم ثانياً: إلى خطورة العهد الّذي قطعوه على أنفسهم أمام الله تعالى في البيعة على نصر دين الله جلّ وعلا و ما يستلزمه هذا من الثّقة و الرّضا بكلّ ما يلهمه و يوحي به إلى رسوله﴿ﷺ﴾ و الوقوف عنده. و لتنذرهم و تبشّرهم ثالثاً: بأنّ من نكث عن بيعته و فعل ما ينقضها، فإنّما يكون بذلك قد أضرّ نفسه، و بأنّ من أوفى بما عاهد الله تعالى عليه يحظى بعظيم الأجر من الله سبحانه. و في الآية الكريمة إشارة إلى ما كـان عـليه الموقف في الحديبيّة، و ما كان من شدّة وقع شروط الصّلح على المسلمين حيث اقتضت حكمة التنزيل هذا الايذان و التّنبيه و الإنذار و التّبشير الّذي احتوته الآية لتسكين نفوسهم من جهة، و ليكون خطّة لهم في المستقبل من جهة اخرى.

إنّ اللّه تعالى لمّا دعا النّاس إلى بيعته، و أشار إلى حرّيّتهم فيها و حثّهم عليها، و إلى حرّيّتهم في نقضها و وفآئها بعد البيعة مع حثّهم على الوفاء و زجرهم من نقضها، أخذ بذكر المتخلّفين عن رسول الله﴿ﷺ﴾ لمّا استنفرهم عام الحديبيّة حتّى أراد السّير إلى مكّة معتمراً، و ذكر اعتلالهم بالشّغل بالأموال و الأهلين، و اعتذارهم الكاذب و نفاقهم، و ردّ عليهم، و أبان لهم أنّه تعالى عليم بما في ضمآئرهم و أنّ ما أظهروه من العذر هو غير ما أبطنوه من الشّك و النّفاق: «سيقول لك المخلّفون من الأعراب- بل كان الله بما تعملون خبيراً»: ١١).

ثمّ ردّ تعالى اعتذارهم الواهي، و كشف عمّا في مكنون ضمآئرهم، و ما انطوت عليه صدورهم من أوهام و ظنون تسلّطت عليهم، و أبان الباعث الصّحيح على تخلّفهم و هو ظنّ السّوء منهم أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ و الّذين خرجوا معه من المسلمين لن ينجوا من سيوف مشركي مكّة و لن يعودوا إلى أهليهم، و قد زيّن الشّيطان ظنّهم هذا في قلوبهم، و بذلك أخذوا هذا الموقف الخاسر الّذي عزلهم عن مواقع الخير و السّعادة، و حرمهم ما ناله المؤمنون الصّادقون من رضا الله تعالى عنهم، فاستوجبوا بذلك لأنفسهم الهـلاك والنّار: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول- و كنتم قوماً بوراً»: ١٢).

ثمّ ذكر عذاب الكافرين، ايذاناً بأنّ من آمن باللّه تعالىٰ و لم يطع رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تخلّف عن أمره فهو في زمرة الكافرين و مستوجب للسّعير بكفره كالكافرين سواء بسواء، فكفر المتخلّفين كفر نفاق، فهم و الكافرون على شرع سواء: «و من لم يؤمن بالله و رسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً»: ١٣).

إنّ الله تعالى لمّا هدّد المتخلّفين بعذاب الكافرين، بيّن كمال قدرته على تعذيبهم مع الإشارة إلى أنّ مغفرته ذاتيّة و رحمته سابقة، فتعذيبهم لأحوال طرأت على نفوسهم، فاستحقّوا بها العذاب، فلذلك أطمعهم في مغفرته و عفوه ليرعووا عن غيّهم، و يثوبوا إلى رشدهم قبل إضاعة الفرصة، مع وعيدهم بالعذاب إن أصرّوا على التخلّف و الطّغيان: «و لله ملك السّموات و الأرض...»: ١٤).

إنّ الله تعالى لمّا أوعد المخلّفين بعذاب الكافرين إن أصرّوا على التخلّف و الطّغيان ذكر سبحانه بأنّهم رجعوا عن التخلّف ظاهراً و لكنّهم لايريدون برجوعهم طاعة الله﴿جلّ جلاله﴾ و اتّباعاً لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بل يريدون أمرين: ١- أخذ الغنآئم. ٢- تبديل كلام الله جلّ وعلا: «سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله» فكما أنّهم في اعتذارهم عن التخلّف كانوا كاذبين، كذلك هم في رجوعهم عنه كاذبون، و لذلك أمر الله تعالى رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن يقول لهم إقناطاً و تيئيساً من الذّهاب معه إلى خيبر: «قل لن تتّبعونا» ثمّ أكّد هذا المنع بقوله: «كذلكم قال الله من قبل» ثمّ أخبر تعالى رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأنّهم سيردّون عليك مقالك السّابق: «كذلكم قال الله من قبل» فقال: «فسيقولون بل تحسدوننا» فردّ سبحانه عليهم اتّهام رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المسلمين بالحسد، فقال: «بل كانوا لايفقهون إلاّ قليلاً»: ١٥).

إنّ الله تعالى لمّا رفض إشراك المتخلّفين في قتال خيبر عقاباً لهم على تقاعدهم عن نصرة الله سبحانه و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الحديبيّة، و أن لايسمح لهم بالذّهاب معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى رحلة فيها مغانم، و أن لايكون مثل هذه الرّحلة إلاّ للّذين شهدوا الحديبيّة أمر رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأن يقطع عليهم مقولتهم للمؤمنين: «بل تحسدوننا» و يثبت بأنّهم قوم «لايفقهون» فيتيح لهم فرصة اختباريّة حيث يستأذنون قبل ذلك و يطلبون الاتّباع:

«ذرونا نتّبعكم» و قد أخبر تعالى بأنّهم لن يتّبعوا: «قل لن تتّبعونا» بأنّ باب القتال لايزال مفتوحاً أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا ما لكم من بلاء في معارك الحرب فاستعدّوا، فإنّكم ستدعون إلى قتال قوم أشدّاء البأس من أعداء المؤمنين.

فحينئذ ينكشف أمركم و صدق ايمانكم في موقف ليس فيه غنيمة، بل و فيه خطر، فإن أطعتم الله تعالى و رسوله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ فلكم الأجر العظيم، و إن تتولّوا و نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل صلح الحديبيّة، حقّ عليكم عذاب الأليم: «قل للمخلّفين من الأعراب...»: ۱٦).

إنّ الله تعالى لمّا أنذر المتخلّفين عن طاعة الله سبحانه و رسوله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و عن الجهاد في سبيل الله جهاداً مجرّداً من طمع الغنآئم، و من تبديل كلام الله عزّوجلّ أشار إلى المعذورين و تعفيهم من الجهاد بسبب أعذارهم الجثمانية الّتي تبيح لهم التخلّف عن القتال في مختلف الظّروف، مع ترغيب القادرين على الجهاد فيه، و تهديد تركه بالعذاب الأليم: «ليس على الأعمى حرج - و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً»: ۱۷).

لمّا ذكر الله تعالى المتخلّفين عن القتال و طاعة الله و رسوله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و المعذورين عنه، أخذ بذكر المؤمنين الصّادقين الّذين كانوا مع رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في رسالته قلباً و قالباً، و بايعوه ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ تحت الشّجرة على الموت، مبايعة تسمّى بيعة الحديبيّة و بيعة الرّضوان، لرضا الله تعالى عن هؤلآء المبايعين بسبب صدقهم في الايمان و نيّاتهم و وفآئهم ببيعتهم، فنالوا بأكبر ما ينال به الإنسان في حياته الإنسانيّة و هو رضا الله تعالى عنه، و نالوا بخير الدّنيا و الآخرة و بالأمور المعنويّة و المادّيّة: «لقد رضى الله عن المؤمنين - و أثابهم فتحاً قريباً و مغانم كثيرة...»: ۱۸-۱۹).

ثمّ وعدهم - على طريق الخطاب تشريفاً و تكريماً لهم - بغنآئم كثيرة، غير ما نالوا من غنآئم خيبر، و بكفّ أيدى المشركين و أهل خيبر عنهم، و هذه علامة واضحة و آية ربّانيّة على صدق رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ تملأ قلوبهم ايماناً و يقيناً بدينه، إذ يرون آثار لطف الله تعالى و شواهد قدرته على أنّ الله سبحانه يحفظهم في مشهدهم و مغيبهم، و يهديهم صراطاً لا اعوجاج فيه يوصلهم إلى الحقّ و الهدى و الصّواب و الرّشاد: «وعدكم الله مغانم كثير - و يهديكم صراطاً مستقيماً»: ۲۰).

ثمّ وعدهم بفتوح و غنائم أُخر في مختلف الظّروف ببركة الايمان الصّادق و عزّة: «و اخرى لم تقدروا عليها...»: ٢١).

ثمّ وعدهم بالنّصر و الغلبة على الكفّار و المشركين لقوّة الايمان و ضعف الكفر في كلّ ظرف و مكان: «و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار...»: ٢٢).

ثمّ بيّن تعالى أنّ غلبة المؤمنين على الكافرين، و قوّة الايمان و ضعف الكفر سنّة إلهيّة ثابتة جارية في مختلف الظّروف: «سنّة الله الّتي قد خلت من قبل...»: ٢٣).

ثمّ ذكر نموذجاً من قدرة الله تعالى على إجراء سنّته إذ كفّ أيدي مشركي مكّة المتطاولة عن المؤمنين، و أيدي المؤمنين، متقابلاً على المشركين ببطن مكّة عقر دارهم بعد أنه أظفر اللّه تعالىٰ المؤمنين على المشركين في فتح مكّة أو في صلح الحديبيّة على ما عليه أكثر المفسّرين، فقال: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم...»: ٢٤).

ثمّ ذكر سبب كفّ أيدي كلّ من الفريقين عن الآخرين مع استحقاق مشركي مكّة لعذاب الله تعالى، و لقد كان قادراً على إنزال النّكال الشّديد بهم حالاً لما بدا منهم من الكفر و الطّغيان من جهة، و من صدّهم المؤمنين عن المسجد الحرام، و عن نحر الهدى في محلّه من جهة اخرى، و لكنّ الله تعالى لم يعذّبهم و كفّ أيدي المؤمنين عنهم لوجهين:

أحدهما- لوجود فريق من المؤمنين و المؤمنات بين المشركين بمكّة لا يعرفهم المؤمنون الّذين كانوا مع رسول الله﴿ﷺ﴾ فلو خرج هؤلآء المؤمنون و المؤمنات من مكّة لسلّط الله اولئك المؤمنين على المشركين او يعذّبهم عذاباً أليماً.

ثانيهما- ليدخل الله تعالى فى دينه من يشآء من هؤلآء المشركين بعد الصّلح و قبل دخولها: «هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام...»: ٢٥).

ثمّ بيّن سبب كفرهم بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و بكتابه، و منشأ صدّهم المؤمنين عن المسجد الحرام و عن نحر الهدى في محلّه، و هو نزوة الجاهليّة و حميّتها الّتي لعبت في رؤسهم، خلاف ما كان لرسول الله﴿ﷺ﴾ و للمؤمنين من السّكينة الّتي ملأت قلوبهم و كلمة التّقوى، و بذلك امتنعوا أن يبطشوا بهم و يكفّوا أيديهم عنهم، و لعلّ بهذه الكلمة قال رسول الله﴿ﷺ﴾ لهم: «اذهبوا أنتم الطّلقآء» بعد أن قدر عليهم: «إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة...» و لمّا ذمّ تعالى المشركين بالحمّية الجاهليّة، و مدح المؤمنين

بالسّكينة و لزوم كلمة التقوى بيّن علمه بما في ضمآئرهم و سرآئرهم...: «و كان الله بكلّ شئ عليماً»: ٢٦).

ثمّ ردّ و أزال ما وقع في نفس عمر بن الخطّاب و أذنابه من الشّبهة و مشاعر القلق و الضّيق و الاتّهام و الوسوسة لما فات المؤمنين من دخول المسجد الحرام يوم الحديبيّة خطاباً للمؤمنين الصّادقين بأنّكم تدخلون المسجد الحرام لا محالة إن شآء الله تعالى بحيث لاتعترضكم قريش، و لايقع منهم ما يسوؤكم، و أنّكم ستقضون عمرتكم و تحلقون رؤوسكم أو تقصّرون من دون خوف و لا اضطراب، تصديقاً لصحّة رؤيا رسوله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و تأكيداً بتحقيق تأويلها، و أنّ الله عزّوجلّ يعلم ما لاتعلمون، و جعل بين صرفكم عنها و دخلوكم إيّاها الّذي وُعِدتُم به فتحاً قريباً: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ...»: ٢٧).

ثم أكّد صدق رسوله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في رؤياه أو رسالته بقوله تعالى: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى...» و لمّا كان هذا وعداً من الله عزّوجلّ لابدّ من تحقّقه، أعقبه بقوله: «و كفى بالله شهيداً»: ٢٨). فوعد سبحانه، و شهد على تحقّق وعده.

إنّ الله تعالى لمّا ذكر أنّه أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليعلى شأنه على سآئر الأديان كلّها و شهد نفسه سبحانه على ذلك أردف هذا ببيان حال رسوله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ لإزالة كلّ شبهة و إبهام، و رغم أنف قريش الّذين لم يرضوا بهذا التّعريف في كتاب العهد، و لتأكيد شهادته فقال: «محمّد رسول الله».

ثمّ وصف المؤمنين الصّادقين الّذين كانوا معه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في رسالته قلباً و قالباً بقوله: «والّذين معه» لإخراج المتظاهرين بالايمان الّذين كانوا معه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ قالباً، و لكنّهم كانوا مخالفين عنه قلباً، و مشكّكين و معترضين عليه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ فيما يأمرهم و ينهاهم لساناً كعمر بن الخطّاب و أذنابه في صلح الحديبيّة و غيره على ما اتّفق عليه جمهور العامّة و أورده أعاظمهم في تفاسيرهم و صحاحهم و مسانيدهم و تواريخهم...

فليس كلّ من ادّعى الايمان مؤمناً حقّاً.

و قد وصف الله جلّ وعلا هؤلآء المؤمنين الصّادقين، و هم فئة من أصحاب رسول الله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ لا كلّهم بسبع صفات:

ألف: أنّهم ذوو صلابة في دينهم، عنفآء غلاظ على مَن خالف دينهم و ناوأهم العدآء.

ب: أنّهم ليّنون، رحمآء فيما بينهم.

ج: يعبدون الله جلّ وعلا وحده، مخلصين له الدّين لايهملون عبادة الله تعالى قطّ.

د: أنّهم لايعبدون الله سبحانه طمعاً في جنّته، و لا خوفاً من ناره، و إنّما يعبدونه ابتغآءً من فضله و إحسانه و رضاه عزّوجلّ.

هـ: آثار السّجود في جباههم بادية، و نور العبادة من وجوههم ظاهرة يعرفهم بها أصحاب الايمان و الفطانة.

و: قد وصفهم الله تعالى في التّوراة و الإنجيل بأنّهم كالزّرع الّذي نبت ليناً، ثمّ قوى فغلظت سوقه، فأثمر أحسن الثّمر و أكثر ممّا يعجب الزّرّاع و يرضيهم.

ز: أنّ الله عزّوجلّ قد يسّرهم إلى ما يسّر، و حلاّهم بما حلاهم به ليغيظ بهم الكفّار و المنافقون أيضا.

ثمّ ختم الآية الكريمة بما يتمكّن اللاّحقون باتّصافهم به أن يلحقوا بسابقيهم، و هو الايمان و العمل الصّالح، فينالون بهما معاً مغفرة الله تعالى و أجره العظيم.

و لايخفى على القارئ الخبير المتدبّر ما بين آيات أوآئل هذه السّورة و أواخرها، و خاصّة ما بين اولاها و اُخراها من المناسبة، و لا ما بين فقرات الآية الأخيرة، و لا ما في تشبيه الزّرّاع بالكفّار من فصاحة لفظيّة من المناسبة بينهما لإشتراكهما بالجملة في معنى من المعانى و إن لم يكن مقصوداً في المقام.

و بهذه الآية الكريمة اختتمت سورة الفتح، و قد جائت خاتمة قويّة للسّورة الّتي يتّضح من الإمعان فيها ترابط آيها، و كون هدف الرّئيسي إخباراً من الله جلّ وعلا بالفتح لرسوله﴿ﷺ﴾ و نصرته بجنوده على الكفّار، و تثبيت المؤمنين الصّادقين و تسكينهم إزاء ما كان من ظروف و نتآئج سفرة الحديبيّة، و تفضيح المتخلّفين و المتظاهرين بالايمان.

«النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه»

في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: «و قال عطاء عن ابن عبّاس: إنّ اليهود شتموا النّبيّ(صلى الله عليه و آله) و المسلمين لمّا نزل قوله تعالى: «و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم» و قالوا: كيف نتّبع رجلاً لايدري ما يفعل به! فاشتدّ ذلك على النّبيّ(صلى الله عليه و آله) فأنزل الله تعالى: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» و نحوه قال مقاتل ابن سليمان: لمّا نزل قوله تعالى: «و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم» فرح المشركون و المنافقون، و قالوا: كيف نتّبع رجلاً لايدري ما يفعل به و لا بأصحابه، فنزلت بعد ما رجع من الحديبيّة: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» أي قضينا لك قضآء، فنسخت هذه الآية تلك».

أقول: و هذا عندي غير صحيح، حيث إنّ قوله تعالى حكاية عن رسوله(صلى الله عليه و آله): «و ما أدرى ما يفعل بي و لا بكم» الأحقاف: ٩) و هي سورة مكّيّة، و هي السّادسة و السّتّون نزولاً، و سورة الفتح مدنيّة، و هي الإحدى عشرو المأة نزولاً و بينهما نحو خمس و أربعين سورة. و قد سبق معنى آية الأحقاف، ليس نطاقها منسوخاً فتدبّر جيّداً. و لم أجد أحداً من الباحثين أن يرى آية متشابهة في سورة الفتح، فآيها محكمات و الله تعالى هو أعلم.

﴿ تحقيق عميق في الأقوال ﴾

١- (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً)

في المراد من الفتح أقوال: ١- عن ابن عبّاس و ابن مسعود و أنس و البرآء و قتادة و مجاهد و الضّحّاك و الشّعبي و ابن عطيّة و الفرّاء و الزّهرى و جماعة من المفسّرين: الفتح هنا هو صلح الحديبيّة، و ما جرى يوم الحديبيّة و كان فتحاً بغير قتال.

و الحديبيّة إسم بئر نزح مآؤها، فمجّ فيها رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ فدرّت بالمآء حتّى شرب جميع من كان معه، و الحديبيّة قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكّة المكرّمة، سمّيت باسم بئر هناك.

و الفتح - في الأصل -: إزالة الأغلاق، و فتح البلد هو الظّفر به عنوة أو صلحاً بحرب أو بغيره لأنّه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به و حصل في اليد فقد فتح، و سمّى هذا الصّلح فتحاً لاشتراكهما في الظّهور و الغلبة على مشركي مكّة، فإنّهم لم يسئلوا الصّلح إلاّ بعد أن أظفر عليهم المسلمون بالرّمي بالسّهام و الحجارة. أو لأنّ الصّلح صار سبباً لفتح مكّة. و قال الفرّاء: قد يكون الفتح صلحاً و معنى الفتح - في اللغة -: فتح المنغلق، و الصّلح الّذي حصل مع المشركين بالحديبيّة كان مسدوداً متعذّراً حتّى فتحه الله تعالى.

فقال الزّهرى: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبيّة، و ذلك أنّ المشركين لمّا اختلطوا بالمؤمنين فسمعوا كلامهم، فتمكّن الإسلام من قلوبهم و أسلم في ثلاث سنين خلق

كثير، فكثر بهم سواد الإسلام، فما مضت تلك السّنون و المسلمون قد جآؤا إلى مكّة في عشرة آلاف ففتحوها. و قال بعضهم: لقد كان فتح الحديبيّة أعظم الفتوح و ذلك أنّ النّبيّ«ﷺ» جآء إليها في ألف و أربعمأة، فلمّا وقع الصّلح مشى النّاس بعضهم في بعض و علموا و سمعوا عن الله تعالى، فما أراد أحد الإسلام إلاّ تمكّن منه، فما مضت تلك السّنتان إلاّ و المسلمون قد جآؤا إلى مكّة في عشرة آلاف.

و قال الشّعبي: بويع بالحديبيّة بيعة الرّضوان و أطعم نخيل خيبر، و ظهرت الرّوم على فارس، و فرح المسلمون بظهور أهل الكتاب و هم الرّوم على المجوس إذ كان فيه مصداق قول الله تعالى: «إنّهم سيغلبون» و بلغ الهدى محلّه.

و قال الضّحّاك: أى فتحنا لك فتحاً مبيناً بغير قتال، و كان الصّلح من الفتح. و قال مجاهد: أي نحره و حلقه«ﷺ» بالحديبيّة هو من الفتح، و فتح الحديبيّة آية عظيمة، و لم يكن في الإسلام فتح أعظم من فتح الحديبيّة وضعت الحرب و أمن النّاس، لقد أصاب«ﷺ» فيها ما لم يصب في غزوة غيرها غفرالله له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر.

و قال بعضهم: فتح الحديبيّة بعد ما منع المشركون رسول الله«ﷺ» و من معه عن إتيان الحجّ، ففتحوها حين رجعوا عن مكّة قبل وصولهم بالمدينة.

و قال قتادة: أي قضينا لك قضآء بيّناً. و الفتح هو القضاء من قولهم: «اللّٰهمّ افتح لي» و قوله تعالى حكاية عن شعيب: «ربّنا افتح بيننا و بين قومنا بالحقّ و أنت خير الفاتحين» الأعراف: ۸۸).

و قال بعضهم: أي حكمنا لك بهذه المهادنة و أرشدناك إلى الإسلام.

و قال ابن عبّاس: أي فتحنا لك فتحاً مبيناً بغير قتال، صلح الحديبيّة منه، غير أن كان بينهم رمي بالسّهام و الحجارة حتّى أدخلوهم ديارهم، و لم يكن قتال شديد.

و قال بعضهم: أي قضينا لك قضاء بيّناً و أكرمناك بالإسلام و النّبوّة و أمرناك أن تدعوا الخلق إليهما.

و عن جابر و ابن مسعود و البراء قالوا: تعدّون أنتم الفتح فتح مكّة، و قد كان فتح مكّة فتحاً، و نحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان تحت الشّجرة يوم الحديبيّة.

و قال بعضهم: أي إنّا حكمنا لك يا محمّد حكماً يبيّن لمن سمعه أو بلغه على من خالفك أو من اعترض عليك كعمر بن الخطّاب، و من ناصبك من كفّار قومك، و قضينا لك عليهم بالنّصر و الظّفر، و الفتح هو الظّفر بالبلد بصلح أو بحرب لأنّه منغلق ما لم يظفر به.

و قال بعضهم: إنّ فائدة الإخبار بصلح الحديبيّة بعد وقوعه- إذ نزلت السّورة بعد وقوعه- بالنّسبة إلى غير رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ - لأنّه كان يعلم أنّه صلح و له نتآئج و فوائد و المراد بالغير هم الحاضرون يوم الحديبيّة و الغائبون من الصّحابة امور: منها: أنّ الحاضرين و إن كانوا عالمين بوقوع الصّلح قبل نزول السّورة، و أنّ المشركين طلبوا منه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ الصّلح، و لكنّهم لم يعلموا أنّه فتح فأخبرهم بأنّه فتح. و منها: أنّهم كانوا عالمين بالصّلح و أنّه فتح، و لكنّهم لم يعلموا عظم شأنه على ما يشعر به إسناده إلى نون العظمة. و منها: إخبار بوقوع الفتح بالصّلح لمن لم يكن حاضرين يوم الحديبيّة من الصّحابة.

و منها: قد تورد الجملة الخبريّة لأغراض أُخر، غير إفادة الحكم أو لازمه كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران: «ربّ إنّي وضعتها انثى» آل عمران: ٣٦) و قوله سبحانه حكاية عن زكريّا: «ربّ إنّي وهن العظم منّي و اشتعل الرّأس شيبا» مريم: ٤).

و منها: أن يكون الغرض من الإخبار امتناناً دون إفادة الحكم أو لازمه، فلا مجاز في ذلك و نحوه و أمّا التّوكيد بـ«إنّ» في المقام فإمّا للاعتناء لا لردّ الإنكار، و إمّا لأنّ الحكم لعظم شأنه مظنّة للإنكار، أو لأنّ بعض السّامعين كعمر بن الخطّاب كان منكراً لكون ما وقع في الحديبيّة فتحاً، فأكّد ردّاً عليه و على أذنابه...

أقول: إنّه لا منافاة بين أن يكون الكلام واقعاً موقع الامتنان، و أن يكون تأكيد الجملة ردّاً على المنكرين، و أن تكون نسبة الفتح إلى نون العظمة و توصيفه بالمبين اعتناء بشأن الفتح الّذي يمتنّ به.

و قال بعض المعاصرين: قرائن الكلام تؤيّد القول بأنّ المراد بهذا الفتح هو ما رزق الله تعالى نبيّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في صلح الحديبيّة، و ذلك أنّ ما جآء في آيات السّورة من الامتنان على رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين، و مدحهم و الرّضا عن بيعتهم، و وعدهم

الجميل في الدّنيا بمغانم عاجلة و آجلة و فتح قريب، و في الآخرة بالجنّة، و ذمّ المخلّفين من الأعراب إذ استنفرهم النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فلم يخرجوا معه، و ذمّ المشركين في صدّهم رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و من معه من المسجد الحرام، و ذمّ المعترضين على رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ كعمر بن الخطّاب و أذنابه من المنافقين، وتصديقه سبحانه رؤيا نبيّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و قوله: «فعلم ما لم تعلموا و جعل من دون ذلك فتحاً قريباً» - و كاد أن يكون صريحاً - كلّ ذلك معان مرتبطة بخروجه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلى مكّة للحجّ و انتهاء ذلك إلى صلح الحديبيّة.

و أمّا كون هذا الصّلح فتحاً مبيناً رزقه الله تعالى رسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فظاهر بالتّدبّر في لحن آيات السّورة في هذه القصّة، إذ كان خروج رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين إلى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لايرجى معه رجوعهم إلى المدينة عادة كما يشير إليه قوله تعالى: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً» و قد كانت لصناديد قريش عناد و لجاجة و عِدّة و عُدّة، و شوكة و عداوة مع رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ والمؤمنين لم يتوسّط بينهم منذ سنين إلاّ السّيف، و لم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوة بدر و اُحُد و الأحزاب و غيرها... و لم يخرج مع النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلاّ شرذمة قليلون - مأتان و ألف - لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم في عقر دارهم.

و لكنّ الله جلّ وعلا قلّب الأمر لرسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين على المشركين، فرضوا بما لم يكن مطموعاً فيه، متوقّعاً منهم، فسئلوا رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين، و على تأمين كلّ من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به، و على أن يرجع رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلى المدينة عامه هذا ثمّ يقدم إلى مكّة العام القابل، فيخلّوا له المسجد الحرام و الكعبة المعظّمة ثلاثة أيّام...

و هذا من أوضح الفتح الّذي رزقه الله تعالى رسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و كان من أمسّ الأسباب بفتح مكّة سنة ثمان من الهجرة، فقد آمن جمع كثير من المشركين في السّنتين بين الصّلح و فتح مكّة، و فتح في أوآئل سنة سبع خيبر و ما والاه، و قوى به المسلمون و اتّسع الإسلام اتّساعاً بيّناً، و كثر جمعهم و انتشر صيتهم و أشغلوا بلاداً كثيرة، و خرج رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ لفتح مكّة في عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً، و قد كان خرج إلى حديبيّة في ألف و مأتين على ما جآء في الرّوايات و التّواريخ...

و المعنى: إنّا فتحنا لك فتحاً ظاهراً لا يختلج فيه شكّ بذلك الصّلح الّذي تمّ على يديك في الحديبيّة إذ لم يمض إلاّ القليل من الزّمن حتّى دخل النّاس ببركة هذا الصّلح في دين الله أفواجاً، و كان هو السُّلَّم الّذي رَقيت إلى فتح خيبر و فتح مكّة و تسابق العرب إلى الدّخول في الدّين زرافات و وحداناً.

٢- عن أنس و مجاهد أيضاً و العوفي: الفتح هنا: فتح خيبر الّتي فتحها الله تعالى لرسوله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بعد منصرفه من الحديبيّة و في طريق عودته إلى المدينة، فتحها له﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بيدي عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾. و قد كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون و مزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشّام، و كان خروج رسول الله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في بقيّة المحرّم سنة سبع، و أقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها الله سبحانه لنبيّه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ على يدي عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾.

و المعنى: إنّا قضينا لك فتح خيبر بعد صلح الحديبيّة بفتح باب خيبر بيدى عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ فتحاً بيّناً لا خفاء عليه. كما يقال: «فتحت أبواب السّمآء».

و جآء به على لفظ الماضي على عادته تعالى في إخباره لأنّ هذا الفتح في تحقّقه و تيقّنه بمنزلة الكامنة الموجودة، و قد وعد الله تعالى رسوله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ به بعد صلح الحديبيّة.

٣- ذهب أنس و قتادة أيضاً و جماعة من المفسّرين إلى أنّ المراد بهذا الفتح هو فتح مكّة المكرّمة و هو الفتح الأعظم الّذي أعزّ الله تعالى به دينه، و استنقذ به بلده الأمين، و طهّر حرمه الشّريف، استبشر به أهل السّمآء و ضربت أطناب عزّ على مناكب الجوزآء، و دخل النّاس بعده في دين الله سبحانه أفواجاً، و أشرق وجه الدّهر ضيآء و ابتهاجاً، و كان هذا سنة ثمان من الهجرة النّبويّة، إذ خرج رسول الله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ لليلتين خلتا من شهر رمضان، و فتح مكّة لثلاث عشرة خلت منه، و قيل: كان الفتح فى عشر بقيت من شهر رمضان، و قيل: غير ذلك، و قد فتح الله تعالى لرسوله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ مكّة، و قد كان معه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ عشرة آلاف و قيل: إثنتا عشرة ألفاً.

و قالوا: إنّ الله تعالى وعد نبيّه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ فتح مكّة، عام الحديبيّة عند الكفائة منها، و ذلك أنّ السّورة المباركة نزلت عند انصرافه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ من الحديبيّة، فبُشِّرَ عندئذ بفتح

مكّة. و المعنى: إنّا قضينا لك بالنّصر على أهل مكّة قضآءً بيّناً حتماً. و الفتح المبين: هو الفتح الظّاهر و كذلك جرى فتح مكّة. و عن جابر قال: ما كنّا نعلم فتح مكّة إلاّ يوم الحديبيّة.

قيل: إنّ قوله سبحانه: «فتحاً» يدلّ على أنّ مكّة فتحت عنوة أى بالقتال، قُوتِلَ أهلها حتّى غلبوا عليها لأنّ اسم الفتح لايقع مطلقاً إلاّ على ما فتح عنوة، و هذا هو حقيقة الإسم. و قد يقال: فتح البلد صلحاً، فلايفهم الصّلح إلّا بأن يقرن بالفتح. فصار الفتح في الصّلح مجازاً، و الأخبار دالّة على أنّ مكّة فتحت عنوة، و قد وعد الله تعالى رسوله﴿ﷺ﴾ بفتح مكّة قبل السّنتين، و التّعبير عن ذلك بالماضي لتحقّقه لا محالة في المستقبل، حيث إنّ المستقبل المتحقّق وقوعه بمنزلة الماضي، و في هذا التّعبير فخامة و دلالة على علوّ شأن المخبر، و على أنّ الأزمنة الثّلاثة كلّها عند اللّه تعالى على شرع سواء، و أنّ منتظره كمحقّق غيره، و أنّه تعالى إذا أراد أمراً تحقّق لا محالة، و أنّه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابه القريبة و البعيدة. فالفتح أمر لا دافع له، واقع لا رافع له لتحقّقه بلا تخلّف.

فالمعنى: إنّا قضينا لك بعد صلح الحديبيّة قضآء بيّناً على أهل مكّة أن تدخل أنت و أصحابك فيها، من سنة قابلة لتطوفوا بالبيت. من الفتاحة بمعنى الحكم و القضآء و الفصل كقوله عزّوجلّ: «إنّ ربّك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون– و يقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لاينفع الّذين كفروا ايمانهم» السّجدة: ۲٥ و ۲۸–۲۹).

و قال بعضهم: و ذلك أنّ هذه السّورة نزلت عقيب صلح الحديبيّة و بيعة الرّضوان تحت الشّجرة في السّنة السّادسة، تبشّر بفتح مكّة، فتحت في سنة ثامنة، لتصديق رؤيا النّبيّ﴿ﷺ﴾ الّتي رآها: «لقد صدق اللّه رسوله الرّؤيا لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّه آمنين...» و قد كانت أحيآء العرب تنتظر به، قائلين: «إن ظهر محمّد على قومه فهو نبيّ» فلمّا فتح اللّه مكّة دخلوا في دين اللّه أفواجاً، و هذا لاينافي أن تحمل السّورة بشارة فتح خيبر، و كان له موقعه في الجزيرة إذ كانت اليهود بقيّة باقية من كفّار الجزيرة سوى

مشركي مكّة، و لكنّه بجنب فتح مكّة كقطرة في يمّ أو حلقة في فلاة قيّ، رغم أنّه كان صلحاً و ما كان حرباً خلاف ما ظنّه عمر بن الخطّاب إذواجه رسول الله(صلى الله عليه و آله) في حميّة الجاهليّة بعد الصّلح بقوله: «فلِمَ نعطي الدّنيّة في ديننا» فأجاب رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) قائلاً: «أنا عبد اللّه و رسوله لن اُخالف أمره و لن يضيعني».

و ما كان فتح خيبر أن يبلغ مدى فتح الفتوح و هو فتح مكّة المكرّمة، و إن كان له نصيب من معنى الفتح، قدر ما فتح الطّريق إلى فتح مكّة، فصلح الحديبيّة فتح حين فتح مجالاً واسعاً موفقاً محبوراً لفتح مكّة حيث أمنوا به بأس قريش، فاتّجهوا إلى تلخيص و تطهير سائر الجزيرة عن سآئر الكفّار بفتح خيبر على يدى عليّ بن أبيطالب(عليه السلام).

فلا تصدق رؤيا رسول اللّه(صلى الله عليه و آله): «لتدخلنّ المسجد الحرام» و لا وعده بردّه إلى معاد: «إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد» القصص: ٨٥) و لا دخول النّاس في دين اللّه أفواجاً: «و رأيت النّاس يدخلون في دين اللّه أفواجاً» النّصر: ٢) و لا ظهور الإسلام على الكفر ظاهراً باهراً: «ليظهره على الدّين كلّه» محمّد(صلى الله عليه و آله): ٢٨) و لا فتح مبين إلاّ في فتح مكّة المكرّمة، و حقّاً إنّ فتح مكّة فتح الفتوح كأنّه لا فتح سواه، و إنّه غاية الفتوح و بُغية المؤمنين لا سواه إلاّ كذريعة إليه.

و بعبارة اخرى: لمّا تمّ صلح الحديبيّة ظلت كثيرة من المشاعر المتضاربة تنخس في صدور بعض المسلمين، و خاصّة عمر بن الخطّاب، و قد كان رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) يعدهم بأنّهم سيدخلون المسجد الحرام، و أنّه رأى في ذلك رؤيا، و فيها قال اللّه عزّوجلّ: «و ما جعلنا الرّؤيا الّتي أريناك إلاّ فتنة للنّاس» الإسراء: ٦٠). و قال تعالى في آخر سورة الفتح: «لقد صدق اللّه رسول الرّؤيا بالحقّ...» و هذه الرّؤيا صادقة و لكن تأويلها لم يكن قد جآء زمنه بعد... إنّ المسلمين سيدخلون مكّة... هذا هو مضمون الرّؤيا أمّا زمنها فلم تحدّده الرّؤيا، و قد عاد المؤمنون من صلح الحديبيّة، و هم على عهد مع قريش على دخول المسجد الحرام في العام القابل...

أمّا الفتح القريب الّذي أشار إليه قوله سبحانه: «فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» فهو فتح خيبر الّتي فتحها رسول اللّه(صلى الله عليه و آله) بعد منصرفه من الحديبيّة، و في طريق

عودته إلى المدينة... و صلح الحديبيّة في يومه الّذي وقع فيه، و قبل أن تتكشّف الأحداث الّتي أعقبته - هذا الصّلح هو في ذاته فتح مبين كما قال تعالى تعقيباً عليه: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

و أيّ فتح أعظم و أظهر من أن يعود رسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ بالمسلمين إلى البلد الحرام، و أن يقيموا على مشارفها، فلا تجرؤ قريش على الخروج للقآئهم، بل تنتظر حتّى يدخلها عليهم رسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و المسلمون، و هم الّذين أخرجوا النّبيّ الكريم﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و المسلمين منها، و هم الّذين تهدّدوا رسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و المسلمين، و جاؤا إلى المدينة بجيوشهم يريدون أن يدخلوها على أهلها في غزوتي: «أُحد و الأحزاب...»؟.

فأيّ فتح أعظم عند المسلمين من هذا الفتح الّذي أذلّ قريشاً و عرّاها من كلّ ما كان لها في نفوس العرب من شوكة و سلطان و عزّة و عدوان؟ لقد ذلّت قريش، و أعطت يدها لرسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و المسلمين، و لم يكن هذا الصّلح في حقيقته إلّا حفظاً لبقيّة من هذه العزّة الضّائعة، و ستراً لهذا الكبر المتداعي!!! لقد انقلبت موازين القوى فقوى المستضعفون، و ضَعُفَ الأقويآء و تحول المدافعون إلى مهاجمين... و إنّه لو وقف الأمر بالمسلمين عند هذا الحدّ لكان ذلك نصراً لهم، و فتحاً و لكن لم يكن هذا الفتح إلاّ مقدّمة لفتوحات كثيرة، منها فتح مكّة و دخول أهلها في دين اللّٰه أفواجاً...

و في هذا قال رسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ ردّاً على عمر بن الخطّاب و أذنابه إذ تقوّلوا: «و اللّٰه ما هذا بفتح لقد صُدِدنا عن البيت و صُدَّ هَدْيُنا»: «بئس الكلام هذا! بل هو أعظم الفتح و قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالرّاح، و يسئلوكم القضيّة، و يرغبوا إليكم في الأمان و قد رأوا منكم ما كرهوا...».

٤- قيل: إنّ المراد بالفتح هو صلح الحديبيّة و فتح مكّة المكرّمة معاً طوليّاً، بنآءً على أنّ صلح الحديبيّة كان ذريعة و توطئة و تمهيداً لفتح مكّة و هو الأصل، فهما واحد كياناً، و إن كانا اثنين كوناً، فلفظ الماضي: «فتحنا» نبأ بمضيّه لفتح مضى، و بشارة بتحقيق فتح يستقبل، فتحقّق الوقوع في بشارة يجعلها كأمر مضى أو آكد و أقوى، كما أنّ وقوعه أيضاً أمر مضى، فهنا أمران ماضيان: فتح مضى زمناً و هو ذريعة لفتح مضى كياناً و إمضاء في

وعده سبحانه، و يأتي كوناً، فالماضي هنا واحد: «فتحنا» يشير إلى اثنين، ثانيهما رغم استقباله أعلى و أولى من أُولاهما رغم مضيّه، فإنّه أدنى ذريعة لما يستقبل.

و آيات من السّورة نفسها تبين هذا التلاحم الوطيد بين الفتحين، فتجعل فتح مكّة -المستقبلة- إثابة للمبايعة تحت الشّجرة: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة...» كذلك و صدقاً لرؤياه و جعلاً لفتح قريب: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ - فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً».

فالفتح القريب المستقبل مجعول عند الله في الماضي، و ممضىً إثابةً للمبايعة مرضيّة مضت، مجعول لحدّ يعبّر عنه بـ«انّا فتحنا» كأنّه أمر مضى، لأنّه ماضٍ في الجعل و التّقدير، مهما كان مستقبلاً، و لأنّه ماضٍ -كذلك- في التّحضير، حيث الصّلح فتح لهذا الفتح مجالاً واسعاً ما له من نظير، لهذا يحقّ أن يكون صلح الحديبيّة فتحاً إذ فتح سبيلاً إلى فتح مكّة و مبيناً، حيث أبان كونه فتحاً عند ما فتح مكّة، و من ثمّ الفتح المبين و المبان هو فتح مكّة فتح الفتوح! و في السّورة آيات قد تصرح أو تلمح أنّها نزلت بعد فتح مكّة: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيراً» كما أنّ فيها آيات تشير إلى جوّ الحديبيّة: «هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه...» ممّا يدلّ على أنّ السّورة امتدّت منذ الحديبيّة حتّى فتح مكّة، و لكي تشمل بشارة الفتحين كوناً وكياناً دلالةً و زماناً!. و فيه تأمّل.

٥- قيل: إنّ إطلاق الفتح و تنكيره: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» من دون قيد، شامل لكلّ فتح من قبل فتح مكّة المكرّمة و ما بعده من الفتوح... و المعنى: إنّا قضينا و حكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً أي فتح مكّة و ما قبلها كفتح خيبر و فدك و صلح الحديبيّة، و ما بعدها كفتح فارس و الرّوم و سائر البلاد، و يكون فتح مكّة أظهرها و أشهرها، و كان ما قبله مقدّمة له، و ما بعده تابع له، مرتّب عليه.

٦- قيل: إنّ المراد بالفتح، فتح الرّوم، على إضافة المصدر إلى الفاعل، فإنّهم غلبوا على الفرس في عام النّزول، و أمّا كونه فتحاً لرسول الله ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ فإنّه أخبر عن الغيب،

فتحقّق ما أخبر به في ذلك العام، و لأنّه تفاؤل به لغلبة أهل الكـتاب المـؤمنين، و في ذلكمن ظهور أمره﴿عَلَيْهِ السَّلام﴾ ما هو بمنزلة الفتح. و المعنى: إنّا فتحنا لأجلك الرّوم فتحاً مبيناً.

أقول: و هذا خارج عن نطاق السّورة و سياقها.

۷- قيل: أي قضينا لك بفتح مكّة و غيرها في المستقبل عنوة بجهادك فـتحاً بـيّناً ظاهراً.

۸- قيل: أى نصرناك يا محمّد نصراً ظاهراً، فارقاً بين الحقّ و الباطل.

۹- قيل: أي فتحنا لك البلاد و العلوم و القلوب فتحاً تظهر آثارها بعدك، و إنّ فتح الحديبيّة توطئة لتلك الفتوح.

۱۰- عن الرّاغب: عنى ما فتح لرسول الله﴿عَلَيْهِ السَّلام﴾ من العلوم و الهدايات و المعارف و الأسرار و الحِكَم الّتي ذريعة إلى الثّواب و المقامات المحمودة الّتي صارت سبباً لغفران ذنوبه...

۱۱- قيل: أي إنّا فتحنا لك بالإسلام و النّبوّة و الدّعوة بالحجّة و السّيف فتحاً ظاهر الأمر، مكشوف الحال، و لا فتح أبين و أعظم منه لأنّه رأس الفتوح كلّها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلّا و هو تحته و متشعّب منه.

۱۲- قيل: أي أظهرنا نظام الكون و نواميس الوجود لأجلك إذ لولاك لما خلقت الأفلاك.

۱۳- قيل: الفتح هنا الظّفر على الأعدآء كلّهم بالحجج و المعجزات الظّاهرة و إعلاء كلمة الإسلام و إبطال كلمة الكفر.

۱٤- عن البلخي: الفتح يكون في القتال و بالصّلح و بإقامة الحجج... فالمعنى: إنّـا فتحنا لك بإقامة الحجج و آيات الله تعالى لينصرك الله بذلك على من ناواك.

۱٥- قيل: أي أعلمناك علماً ظاهراً فيما أنزلناه عليك من القرآن الكريم، و أخبرناك به من الدّين و سمّي العلم فتحاً كما قال: «و عنده مفاتح الغيب» الأنعام: ٥۹) أي عـلم الغيب.

و قال: «إن تستفتحوا فقد جآءكم الفتح»: الأنفال: ١٩).

١٦- عن الزّجّاج، أي أرشدناك إلى الإسلام، و فتحنا لك أمر الدّين بيّناً ظاهر الأمر مكشوف الحال بدلالة قوله: «ليعذّب الله المنافقين و المنافقات...».

١٧- عن ابن عيسى الفتح: الفرج المزيل للهمّ، و منه فتح المسئلة إذا انفرجت عن بيان مايؤدّي إلى الثّقة و المطلوب، و منه فتح عليه القراءة لأنّه متعلّق بالسّهو و ينفتح الذّكر.

١٨- عن مقاتل: أي يسّرنا لك يُسراً بيّناً.

١٩- قيل: إنّ المراد بالفتح هنا: التّأييد و النّصر و التّمكين. و الفتح- في اللغة -: الحكم و القضآء بأمر من الامور، و منه قوله سبحانه حكاية عن شعيب النّبيّ ﴿عليه السلام﴾: «ربّنا افتح بيننا و بين قومنا بالحقّ و أنت خير الفاتحين» الأعراف: ٨٩). أى احكم. و قوله تعالى: «ما يفتح الله للنّاس من رحمة فلا ممسك لها» فاطر: ٢) أي ما يقضي الله تعالى به. و قد غلب استعمال الفتح في النّصر على العدوّ و الاستيلاء على بلاده الّتي كانت من قبل مغلقة في وجه من يريد دخولها من غير أهلها، و منه قوله عزّوجلّ: «إذا جآء نصر الله والفتح» النّصر: ١).

٢٠- قيل: أي إنّا فتحنا لك باب قلبك إلى حضرت ربوبيّتى بتجلّى صفات جمالي و جلالي، فتحنا بك ما انغلق على جميع القلوب من الأسرار و تفصيل شرائع الإسلام...

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين، و هو المؤيّد بالرّوايات الواردة في شأن نزول السّورة المباركة، و إن كان التعميم غير بعيد من ظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً.

٢- (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً)

في قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي لكي يغفر الله لك ما سلف من ذنوبك قبل الوحي، و ما يكون بعد الوحي إلى الموت. قيل: فالغفران غاية للفتح، و الفتح علّة للمغفرة. و لايخفى على القارئ الخبير: أن

لا رابطة بين الفتح و مغفرة الذّنب، و لا معنى معقولاً لتعليله بالمغفرة. ۲- عن مجاهد و سفيان الثّوري و ابن جرير الطّبرى، و الواحدي: أي ليغفر لك الله ما تقدّم من معاصيك قبل النّبوّة، و ما تأخّر عنها إلى وقت نزول هذه الآية. ۳- قيل: أي ليغفر الله لك ما صدر قبل الفتح و تأخّر عنه من ذنبك. ٤- قيل: أى ما صدر ترك الأفضل و الاولى و الصّغآئر عنك في جميع حياتك سهواً أو عمداً.

أقول: و هذه الأقاويل و بعض ما يأتي من الأقوال مبنيّة على جواز صدور المعاصي صغيرها و كبيرها سهواً أو عمداً عن الأنبيآء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، و هذا خلاف ما يقطع به الكتاب الكريم و السّنّة الثّابتة و العقل السّليم و إجماع المحقّقين من عصمتهم عليهم السلام، مع أنّ إشكال عدم الإرتباط بين الفتح و المغفرة باقٍ على حاله.

٥- قيل: أي ليغفر لك الله جميع ما فرط من ذنبك ممّا يُحصىٰ ذنباً بالنّظر إلى مقامك الشّريف، و إن كان لا يسمّى ذنباً بالنّظر إلى سواك. فالمراد بالذّنب في حقّه﴿ﷺ﴾ ترك الاولى و هو مخالفة الأوامر الإرشاديّة دون التمّرد عن امتثال التكاليف المولويّة، و الأنبيآء عليهم السلام على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على الكبآئر من المعاصى... كما قيل: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

و «ما» في الموضعين للعموم، و المتقدّم و المتأخّر للإحاطة كناية عن الكلّ. و قيل: إنّ المراد ما هو ذنب في نظره العالي﴿ﷺ﴾ و إن لم يكن ذنباً و لا خلاف الاولى عند الله سبحانه كما يرمز إلى ذلك إضافة الذّنب إلى ضمير الخطاب: «ذنبك». و قيل: «ليغفر لك الله...» كناية عن عدم المؤاخذ أو من باب الإستعارة التمثيليّة من دون تحقّق معاني المفردات...

٦- قيل: أي لكي يجتمع لك مع الفتح، المغفرة و تمام النّعمة بالهداية و النّصرة، فاللّام بمعنى كي كأنّه قال: إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع الله لك مع الفتح، المغفرة و ما تقرّبه عينك في الدّنيا و الآخرة.

و ذلك أنّ لكلّ عامل في عمله غاية يبتغيها منه، و ثمرة يجتنيها، فنهاية الزّرع إدراكه،

و نهاية الشّجر نضجه و أثماره، و ثمرة ذلك الانتفاع بحبّ الزّرع و ثمر الشّجر، هكذا النّبوّة لها نهاية مطلوبة في الحياة الدّنيا، و ثمرة تتبع هذه النّهاية، فنهاية أمر الرّسالة أن تلتئم وحدة أُمّة من الأُمم، و يجتمع شملها، و يتمّ نظامها الّتي تبنى عليها الحياة الإنسانيّة الهنيئة حتّى يعيش الإنسان في طمأنينة و هدؤ، و لن يكون ذلك إلاّ بعد بثّ الدّعوة المستفيضة و الجهاد العلميّ و العمليّ و القتال و جمع المجاهدين على الأعداء، و خضد شوكتهم...

و متى أتمّوا عملهم و انقذوا المستضعفين و حموا البيضة و أدخلوا رجالاً في الدّين تدريجاً، فإذا تمّ ذلك فقد انتظم أمر الرّسالة و أدّى واجبها، و هذا نهاية ما على الرّسل و إذن يستوجبون ثمراتها التّالية و هي:

ألف: مغفرة ما فرط منهم ممّا يعدّ ذنوباً بالنّسبة لمقامهم، و إن لم يكن ذنباً بالنّسبة إلى غيرهم.

ب: اجتماع الملك مع الرّسالة و يكون الملك خادماً للرّسالة، بعد أن كانت الرّسالة وحدها.

ج: الهداية إلى الصّراط المستقيم في تبليغ الرّسالة و إقامة مراسم الرّئاسة.

د: النّصر الّذي فيه عزّ و منعة.

فهذه النّتائج و الثّمرات الأربعة مرتّبة على تمام أمر الرّسالة و الجهاد فيه، و هكذا كلّ مجاهد بعد إتمام جهاده ينال الثّمر على مقتضى المقدّمات، فالفتح المذكور المرتّب عليه ما ذكر رمز إلى الأعمال الّتي استوجبته من أوّل ما نزل الوحي إلى تمام الأمر، فهذه ترتّب عليها هذه الأربعة، كأنّ الله تعالى يقول: يا محمّد لقد بلّغت الرّسالة و نصبت في العمل، و جاهدت بلسانك و بسيفك، و جمعت الرّجال و الكراع و السّلاح، و تلطفت و أغلظت و أخلصت في عملك، و فعلت كلّ ما قدرت عليه حتّى تمّ الأمر الّذي ندبناك له، فلتنل ثمرات ذلك العمل، و لتقرّ عيناً بما آل إليه أمرك في الدّنيا و الآخرة.

۷- قيل: أي يسّرنا لك فتح مكّة و غيره من الفتوح ليجمع لك بين عزّ الدّارين و أغراض العاجل و الآجل، بنآء على أنّ مجموع المغفرة و إتمام النّعمة و الهداية و النّصرة

من حيث المجموع غاية للفتح، فلاينافي عدم كون البعض أي المغفرة في نـفسها عـلّة للفتح.

قيل: هذا مردود حيث إنّ المغفرة لاتكون علّة و لا جزء علّة للفتح، و لا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتّى يوجّه دخولها في ضمن علله، فلا مـصحّح لذكـرها وحدها و لامع العلل و لا في ضمنها.

و في الكشّاف: «لم يجعل الفتح علّة للمغفرة، و لكنّه جعل علّة لاجتماع ما عدّد من الأُمور الأربعة و هي: المغفرة، و إتمام النّعمة، و هداية الصّراط المستقيم، و النّصر العزيز، كأنّه قيل: يسّرنا لك فتح مكّة و نصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عـزّ الدّاريـن و أغراض العاجل و الآجل». و فيه ما لايخفى على القارئ الخبير.

۸- قيل: إنّ الفتوح من حيث إنّها جهاد للعدوّ، سبب للغفران و الثّواب. ۹- قيل: تقدير الكلام: إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً فاستغفره ليغفر لك الله كقوله تـعالى: «إذا جآء نصر الله و الفتح- و استغفره» النّصر: ۱-۳). ۱۰- قيل: إنّ فتح مكّة كان سبباً لتطهير الكعبة من رجس الأوثان، و كان تطهير بيت الله الحرام سبباً لتطهير عـبده، و أيـضاً بالفتح يحصل الحجّ، و بالحجّ تحصل المغفرة كما ورد في الأخبار: من حجّ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمّه. ۱۱- قيل: إنّ الفتح كان سبباً للمغفرة- لما فرط منك قبل، و ما يمكن أن يفرط منك بعد من هفوات صغيرة- و إتمام النّعمة لأنّه جهاد للعدوّ، و فيه ثواب و مغفرة و رضا ربّانيّ.

۱۲- قيل: هذا من باب التّوكيد و المبالغة كما يقال: أعط من تراه، و مَـن لم تـره، فيكون معناها: ليغفر الله لك ما وقع منك معصية و ما لم يقع هو مغفور لك بمعنى الوعد بمغفرة ما سيقع منه إذا وقع لئلاّ يرد الإشكال بأنّ مغفرة ما لم يتحقّق من المعصية لا معنى لها.

و هذا مردود أوّلاً: بأنّه خلاف ما يقطع به الكتاب و السّنّة و العقل و الإجماع على عصمة الأنبيآء عليهمالسّلام، و ثانياً: أنّ مغفرة ما لم يقع أو سيقع من المـعصية قـبل وقوعه تلازم ارتفاع التّكاليف عنه﴿ﷺ﴾ تماماً، و يدفعه نصّ كلامه عزّوجلّ في آيات

كثيرة كقوله سبحانه: «إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ فاعبد الله مخلصاً له الدّين – قل إنّي أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدّين و أُمرت لأن أكون أوّل المسلمين» الزّمر: ٢و ١١-١٢) و غيرها من الآيات الّتي تأبى بسياقها التخصيص، مع أنّ من الذّنوب و المعاصي كالشّرك بالله سبحانه و افتراء الكذب على الله تعالى، و الاستهزآء بآيات الله عزّوجلّ و الإفساد في الأرض و هتك المحارم، و الفسق و النفاق و ما إليها من الكبآئر... و إطلاق مغفرة الذّنوب يشملها، و لا معنى لأن يبعث الله تعالى عبداً من عباده، فيأمره أن يعبده وحده، و يقيم دينه على ساق، و يصلح به الأرض، فإذا فتح له و نصره، و أظهره على ما يريد، يجيز له مخالفة ما أمره و هدم ما بناه، و إفساد ما أصلحه بمغفرة كلّ مخالفة و معصية منه، و العفو عن كلّ ما تقوّله و افتراه على الله سبحانه و فعله تبليغ كقوله، و قد قال عزّوجلّ: «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين» الحاقّة: ٤٤-٤٦).

١٣- عن أبي عليّ الرّوذباري: أي لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك فلن تؤاخذ. و المعنى: ليس لك ذنب قديم و لا حديث. هذا أخذ بخلاف الظّاهر من دون دليل.

١٤- قيل: إنّ المراد هنا ما تقدّم من ذنبهم إليك في إخراجهم إيّاك من مكّة، و ما تأخّر من صدّك عن المسجد الحرام. فالمعنى: ليغفر ما أذنبه قومك إليك من إخراجك من مكّة و صدّك عنها، فالذّنب مضاف إلى المفعول هنا، و يعدّى بنفسه حملاً على الإخراج والصّدّ للّذين هو في معناهما، و لذلك جعل المغفرة علّة للفتح و غرضاً فيه، و جزاءً على الجهاد، و المراد بالمغفرة على هذا إزالة أحكام المشركين و فتحها عنه أي يزيل الله ذلك عنك، و يستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكّة، فستدخلها فيما بعد. و لو أراد مغفرة ذنوبه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لما كان لكون المغفرة غرضاً في الفتح معنى معقول، فإنّ المغفرة للذّنوب لاتعلّق لها بالفتح فلايكون غرضاً فيه. و أمّا قوله: «ما تقدّم و ما تأخّر» فلا يمتنع أن يريد به ما تقدّم زمانه من فعلهم القبيح بك و بقومك. ١٥- قيل: أي ليغفر الله ما أذنبه إليك قومك من صدّهم لك عن الدّخول في مكّة، سنة الحديبيّة، فأزال الله تعالى

ذلك، و ستر عليك تلك الوصمة بما فتح عليك من مكّة و دخلتها فيما بعد، و لذلك جعل غفرانه جزآء عن ثوابه على جهاده في فتح مكّة، و الدّخول في بلده الأمين و مولده الكريم.

و لايخفى ما بين هذين القولين من الفرق على القاريْ الخبير.

و عن السّيّد المرتضى رضوان الله تعالى عليه: أنّ الذّنب مصدر يجوز إضافته إلى الفاعل و المفعول، فقولك: أعجبني ضرب زيد عمرواً، إذ أضفته إلى الفاعل، و أعجبني ضرب زيد عمرو، إذا أضفته إلى المفعول، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، و المراد ما تقدّم من ذنبهم إليك في منعهم إيّاك من مكّة، و صدّهم لك عن المسجد الحرام، و يكون معنى المغفرة على هذا الإزالة و النّسخ لأحكام أعدائه﴿ﷺ﴾ من المشركين، أي يزيل الله سبحانه ذلك عنك و يستر عليك تلك الوصمة بما سيفتح لك من مكّة فستدخلها لامحالة.

١٦- قيل: إنّ صلح الحديبيّة يقدّم الحساب الختامي لجهاد رسول الله﴿ﷺ﴾ في سبيل الدّعوة فيغفر له﴿ﷺ﴾ ربّه كلّ ما ألمّ بحمى النّبوّة أو طاف بحرمها الطّهور من غبار هذا الاحتكاك المتّصل بالحياة و أهلها... و إنّ هذا الغفران هو عمليّة اغتسال بتلك الأنوار القدسيّة المنزلة على رسول الله﴿ﷺ﴾ من السّمآء، فلا يعلق بها بعد هذا شئ من غبار هذه الأرض، و بهذا تمّ نعمة النّبوّة، و تخلص لرسول الله﴿ﷺ﴾ علوّية، قدسيّة، لم يمسسها سوء.

١٧- قيل: إنّ النّاس قد عملوا عام الفيل أنّ مكّة لايتسلّط عليها عدوّ الله، فلمّا فُتِحَت لرسول الله﴿ﷺ﴾ عُرِفَ أنّه﴿ﷺ﴾ حبيب الله المغفور له. و المراد بذنبك، جميع الذّنوب، فحدّ أوّلها و آخرها.

١٨- قيل: ليس المراد بالذّنب هنا الذّنب المعروف، و هو مخالفة التكليف المولويّ، و لا المراد بالمغفرة هنا معناها المعروف و هو ترك العقاب على هذه المخالفة، و ذلك أنّ الذّنب - في الأصل - كما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الّذي له تبعة سيّئة كيفما كان، و المغفرة هي السّتر على الشّئ، و أمّا المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذّنب

و المغفرة إلى أذهان أهل العرف، أعني مخالفة الأمر المولويّ المستتبع للعقاب، و ترك العقاب عليها فإنّما لزماهما بحسب عرف المتشرّعين...

و إنّ قيام رسول الله﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بالدّعوة و نهضته على الكفر و الوثنيّة فيما تقدّم على الهجرة و إدامته ذلك، و ما وقع له﴿صلّی الله علیه و آله﴾ من الحروب و المغازي مع الكفّار و المشركين فيما تأخّر عن الهجرة كان عملاً منه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ ذا تبعة سيّئة عند الكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين، و ما كانوا ليغفروا له﴿صلّی الله علیه و آله﴾ ذلك ما كانت لهم شوكة و مقدرة، و ما كانوا لينسوا زهوق ملّتهم و انهدام سنّتهم و طريقتهم، و لاثارت من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه، و إمحاء اسمه و إعفاء رسمه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ غير أنّ الله عزّوجلّ رزقه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ هذا الفتح و هو فتح مكّة أو فتح الحديبيّة المنتهي إلى فتح مكّة المكرّمة، فذهب بشوكتهم، و أخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ من الذّنب و آمنه منهم.

فالمراد بالذّنب- و الله تعالى هو أعلم- التّبعة السّيّئة الّتي لدعوته﴿صلّی الله علیه و آله﴾ عند الكفّار و المشركين و هو ذنب لهم عليه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ كما في قول موسى﴿علیه السّلام﴾ لربّه: «و لهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون» الشّعراء: ١٤). و ما تقدّم من ذنبه هو ما كان منه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بمكّة قبل الهجرة، و ما تأخّر من ذنبه هو ما كان منه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بعد الهجرة، و مغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم و هدم بنيتهم، و يؤيّد ذلك ما يتلوه من قوله تعالى: «و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً و ينصرك الله نصراً عزيزاً».

و قال بعضهم- على تلخيص و إصلاح منّا -: و هنا يبرز ذنب الرّسالة كأوّل دعامة من هذه الدّعائم الأربع: (غفران الذّنب، و إتمام النّعمة و الهداية و النّصرة) نتيجة الفتح المبين، أتراه عصياناً منه﴿صلّی الله علیه و آله﴾ لربّه يستحقّ به فتح الفتوح؟! و ما هي الصّلة القريبة أو البعيدة بين عصيانه هو و أن يفتح الله له مكّة؟ إن هي إلّا مثل ما يزعمه الصّليبيون بحقّ المسيح﴿علیه السّلام﴾: أنّه صُلِبَ، و بصلبه لُعِنَ، و بلعنه تحمّل جميع لعنات النّاموس، فإنّ أباه الإله لم يجد بُدّاً في سبيل غفران ذنوب أُمّته إلاّ تفدية الصّلب!.

فهلاّ يقدر الإله القدير أن يغفر ما تقدّم من ذنب رسوله﴿ﷺ﴾ و ما تأخّر إلاّ بفتح مكّة؟ لاتوجد أيّة صلة بين هذا العصيان و فتح الفتوح! أترى ما هو هذا الذّنب الّذي لا يُغفَر له﴿ﷺ﴾ إلاّ بفتح مكّة؟ و كيف يغفر الله سبحانه ذنباً هكذا عظيماً من عبده بما يفعل الله من دون استغفار؟ و لا أن يقف لحدّ الغفر عمّا تقدّم و ما تأخّر؟ و هو ذنب واحد إذ قال: «من ذنبك» و لم يقل: «من ذنوبك» فذنبه﴿ﷺ﴾ واحد يشمل لحياته كلّها: ما تقدّم و ما تأخّر، ذنب عاش حياته، و عاشته حياته فما أعظمه؟!

أسئلة لا جواب عنها مادام الذّنب عصياناً، اَللّهمّ إلاّ أن يتحوّل إلى أعظم الطّاعة و الايمان، و أنعم النّعم في تقدّم الإسلام نتيجة الفتح المبين! و حقّاً إنّ الّذين فسّروا الذّنب هنا بالعصيان، أخطئوا في تفسيرهم لغوياً و تفسيريّاً معاً، فابتلوا بفرية العصيان على رسول الهدى و هو أوّل العابدين، ثمّ تفرّقوا في الذّود عنه أيادي سبأ أو صمد الأجهلون منهم على فريتهم قائلين: إنّه﴿ﷺ﴾ لم يخل عن أخطآء...! وليتهم فكروا في محمّد رسول الله﴿ﷺ﴾ على ضوء القرآن الكريم نفسه، و آية الذّنب نفسها، و لغة الذّنب و بيئته، لكى يعرفوا أنّه ذروة الطّاعة هنا لحدّ يحقّقها كمُرامها الفتح المبين.

فإنّه أمر أن يكون أوّل من أسلم، أوّليّة الأولويّة في الإسلام: «قل إنّي أُمرت أن أكون أوّل من أسلم- قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم» الأنعام: ١٤-١٥) فهل خالف﴿ﷺ﴾ ربّه و لم يخف؟ كلاّ فإنّه أوّل العابدين: «قل إن كان للرّحمن ولد فأنا أوّل العابدين» الزّخرف: ٨١) و هل ينسب هكذا عصيان إلى أوّل العابدين، و كلّ عصيان غواية، و قد نفاها الله تعالى عنه: «ما ضلّ صاحبكم و ما غوى» النّجم: ٢) و كلّ عصيان من سلطان الشّيطان على الغاوين: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢) ثمّ و هو﴿ﷺ﴾ شهيد الشّهدآء في الدّارين: «و يوم نبعث في كلّ أُمّة شهيداً عليهم من أنفسهم و جئنا بك شهيداً على هؤلآء» النّحل: ٨٩).

و حقّاً إنّ ذنب رسول الله﴿ﷺ﴾ ليس عصياناً و لا أيّ خطأ و لا تركاً للأولى و لا ترك مندوب و لا إتيان مكروه لا عمداً و لا سهواً، بل هو- في الأصل -: الأخذ بذَنَب الشّئ كما:

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «فإذا كان ذلك ضرب يعسوب الدّين بذَنَبه...».

فيستعمل في كلّ شيئ يستوخم عقباه، فإن كانت هي عقبى الآخرة فشرّ عصيان و أعضله، و إن كانت هي عقبى الدّنيا فخير طاعة و أفضلها، و إذا كانت عقبى، يستوخمها أهل الدّنيا، ممّن يحاربون دعاة الحقّ فالرّسالة الإلهيّة هي أخطر ذنب، حيث تستوخم عقبى الدّنيا و تجنّد الطّاقات الشّيطانيّة ضدّ صاحب الرّسالة، يرصدون كلّ مرصد لخفق صوتها و محق صيتها... فكلّما كانت الرّسالة أشمل و صاحبها أصمد و أنبل، كان ذنبها: تبعتها و عقابها في الدّنيا أشكل و أعضل، كما أنّ الحفاظ عليها و صدّ العراقيل عنها و غفر ذنبها - طبعاً - أصعب و أفضل، فإنّ أفضل الأعمال أحمضها.

و من البداهة أنّ الرّسالة الإسلاميّة هي أشمل الرّسالات السّماويّة في الطّول التّأريخيّ و العرض الجغرافي، و حاملها أسمى و أنبل حملة الرّسالات، و أنّها تشكل خطراً حاسماً لجذور الكفر و الطّغيان، ممّا يبعث العصاة و الطّغاة أن يجندوا كافّة الطّاقات لإماتتها في نطفتها، و إماطتها و حطّها عن درجتها و فاعليّتها، و قد فعلوا ما فعلوا، و افتعلوا ما افتعلوا فرموه بالسّحر و الشّعر و الجنون و الكهانة والكذب و الافتراء... و سخروا منه و ما جآءهم به، و ممّن يؤمن به، و آذوه ما لم يؤذ أحد من الأنبيآء و المرسلين: إذ ضربوه و أدموه و كسروا رباعيّة و حاصروه و أهليه و المؤمنين... حتّى اضطرّوه على الهجرة من عاصمة الرّسالة إلى المدينة، و إن أُسِّسَ فيها دولة الإسلام، فأصبحت مبدأ التّاريخ و منطلق الدّولة.

فهل من غفر لهذا الذّنب، و صدّ لهذا الطّغيان، و حدّ لذلك البأس الدّائب إلاّ فتح العاصمة، إذ فتحت به حصون الضّلالة، فلم تبق بعد في الجزيرة أيّة قآئمة من قوآئم الشّرك و الإلحاد،و من ثمّ انتشرت و توسّعت دولة الإسلام من عاصمتها أُمّ القرى إلى أكنافها... فقد كان لرسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذنب واحد، و من ثمّ غفر واحد، فذنبه الوحيد، رسالته العالميّة الخالدة الأكيدة الوطيدة و خاتمتها، و هي الّتي عاشها و عاشته «ما تقدّم» على فتح مكّة «و ما تأخّر» عن فتح مكّة، لكنّها كانت محظورة قبله، فأصبحت مغفورة مستورة بعده، غفر الإزالة للتّبعات ممّن آمن و غفر السّتر لها لمن

أسلم منافقاً ألاّ تظهر رغم كامنه، و غفر الجبران عمّا سلف من كلّ ما أصابه قبل الفتح أن يتناساه رسول الله﴿صلی الله علیه و آله و سلم﴾ و تستهينه وجاه الفتح المبين.

فأصبحت هذه الرّسالة محفوظة عن كيد الكآئدين بذلك الفتح المبين، ذنب واحد، فتحه فتح واحد: ذنب بوحدته يشمل لكلّ ذنب: فرسالته و دعوته و دعايته و هو بجملته، كان ذنباً كلّه بحساب مشركي مكّة، فأصبح الفتح المبين غفراً له كلّه: «ما تقدّم و ما تأخّر»: فتحاً لقوآئم الإسلام و دعآئمه الأربع: المغفرة، و إتمام النّعمة، و الهداية و النّصرة.

و قد كان رسول الله﴿صلی الله علیه و آله و سلم﴾ و الّذين معه في رسالته قلباً و قالباً في خطر مشركي مكّة طيلة العهد بمكّة و بعد الهجرة إلى فتح مكّة، و قد أُمِرَ رسول الله﴿صلی الله علیه و آله و سلم﴾ أن يطلب هنا و هناك الفرج العظيم و الغفر العميم أن يذاد عنهم كوامن الشّرّ، غفراً لهم و ستراً عمّا كان يتهدّدهم بالانهيار، و قد استجاب له ربّه فأنجز به وعده و نصر عبده و أعزّ جنده و هزم الأحزاب وحده في فتح مكّة ليشيّد له أركان الدّعوة: «ليغفر لك الله- و ينصرك الله نصراً عزيزاً» و من ثمّ: «ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار- و يعذّب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات...».

و ما ذنب رسول الله محمّد﴿صلی الله علیه و آله و سلم﴾ هنا إلاّ كذنب الرّسول موسى﴿علیه السلام﴾: ذنب الرّسالة و تطبيقها: «و لهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون» الشّعرآء: ١٤) فإنّ قتل القبطيّ المشرك، المقاتل للسّبطيّ الموحّد، لم يكن ذنب العصيان في دين الله تعالى، و إنّما في دين الطّاغي الباغي فرعون مصر، و من عقباه في الدّنيا إن عقّب الرّسالة الموسويّة إلى أمد بعيد، إلاّ أنّ ذنب الرّسالة المحمّديّة عجّل في تقدّمها و شمولها بالفتح المبين.

فالذّنب إذاً له مصداقان: أعلى الطّاعة و أطغى العصيان، و إنّما فاعله و قرآئنه و مواصفاته هي الّتي تقرّر موقف الطّاعة أو الطّغيان، و موقف الرّسول الرّسالي و مواصفات الآيات بهذا الرّسول الألمعي، و وحدة الذّنب هنا طيلة الرّسالة أو الحياة، و لزوم رباط و طيد بين فتح مكّة و غفر ذنبه﴿صلی الله علیه و آله و سلم﴾ ما تقدّم منه و ما تأخّر، إنّها عساكر أقوياء أُمنآء تذود عن ساحة رسول الله﴿صلی الله علیه و آله و سلم﴾ و صمة العصيان، و تختصّه بأفضل مراحل الرّسالة و الايمان.

و إنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾- كان بهذا المعنى- من أذنب الخلق، ذنب العصيان عن ميول الطّغاة بما جآء به في دعوته الباهظة لأهوآئهم، الجاهزة لاجتثاث جذورهم، الدّافعة عن حوزة الإسلام، الّتي أرغمتهم و حطتهم عن جبروتهم و طاغوتهم...

و ما استعمال الذّنب كثيراً في موارد العصيان بالّذي يحوله دوماً إلى العصيان كما أنّ الإنسان لو استعمل كثيراً في الأشرار لايحول ذلك دون استعماله في الأخيار، و إنّما يتّبع القرآئن في مواردها، فيعطى الحقّ في معاني هذه الألفاظ كا تعني.

«... ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» فما كانوا يكمنون له من قبل و من بعد صار مبتوراً بالفتح، و ما أصابوه من قبل أو أرادوه من بعد صار مجبوراً بالفتح، فأصبح الفتح له مفتاحاً محبوراً لكلّ فتح.

و رغم ما فسّرت به العامّة الجاهلون ذنب رسول الله﴿ﷺ﴾ بالعصيان و الخطأ أخذ رسول الله﴿ﷺ﴾ بعد الفتح في تعبّده لربّه أكثر ممّا مضى، فلو كان هو ذنب العصيان لعكس أمر الطّاعة و تساهل عنها إذ غفرله ما تأخّر كما تقدّم، و لكنّه﴿ﷺ﴾ كان يجيب السّائلين: «أفلا أكون عبداً شكوراً» تفسيراً لذنبه خلاف ما فسّروه و استغلوه، و تبكيتاً لمن يستغل سوء التّفسير ذريعة للإباحيّة و اللّامبالات، كلّا فإنّه﴿ﷺ﴾ استفاض بعد ذلك من معين الرّحمة أمعن ممّا مضى و أمتن إذ «صام و صلّى حتّى انتفخت قدماه و تعبد حتّى صار كالشّنّ البالي، فقيل له﴿ﷺ﴾: أتفعل هذا بنفسك و قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»؟

و ليست شاكريّة العبد في عبادته بالّتي تجعله كالشّنّ البالي و متورّم القدمين لو كان غفر ما تأخّر من ذنبه، عفواً عن مطلق عصيانه، كضمان له فيما يأتي كما ضمن ما مضى، إلاّ عند من غرب عقله و عزب لبّه!... و إنّما زاد في شكره لربّه لنعمة الفتح المبين».

١٩- قيل: أي ليغفر الله لك ما تقدّم من أمر ماريّة قبطية، و ما تأخّر من امرأة زيد، زينب.

٢٠- قيل: أي ما تقدّم النّبوّة بالعفو، و ما تأخّر عنها بالعصمة.

٢١- قيل: أي ليغفر لك الله بجهادك ما تقدّم من ذنبك، و ما تأخّر عنه لترغب اُمّتك

في الجهاد، و هو مؤول لعصمة الأنبيآء و المرسلين عليهم السّلام بالدّليل العقليّ القاطع من الذّنوب و المعاصي... و اللّام في «ليغفر» للعلّة الغائيّة فدخلوها مسبّب لا سبب.

٢٢- عن عطاء الخراساني: أي ليغفر لك ما تقدّم من ذنب أبويك آدم و حواء عليهما السّلام ببركتك، و ما تأخّر عنهما من ذنوب امّتك بدعوتك.

٢٣- قيل: أي ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنب اُمّتك المؤمنين و ما تأخّر بشفاعتك لهم يوم القيامة لمكانك عند الله تعالى، فأضاف الذّنب إلى رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و أراد به اُمّته على حذف المضاف أي من ذنب اُمّتك كقوله تعالى: «و اسئل القرية» يوسف: ٨٢) أي أهل القرية.

و كقوله سبحانه: «و جآء ربّك» الفجر: ٢٢) أي جآء أمر ربّك، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه، و اُقيم المضاف إليه مقام المضاف، و هذا كثير... و السّياق يؤيّد ذلك لقوله تعالى بعد ذلك: «ليدخل المؤمنين و المؤمنات...». و حسنت إضافة ذنوب اُمّته إليه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ للاتّصال بينه و بينهم. و معنى التّقدّم و التّأخّر: ما تقدّم زمانه و تأخّر كما تقول: صفحت عن السّالف و الانف من ذنوبك، و غفرت لك ما قدّمت و ما اخّرت كما يقال لرجل من قبيلة: أنتم فعلتم كذا أو قتلتم فلاناً و إن كان المخاطب غير شاهد.

٢٤- قيل: إنّ المراد بالذّنب هنا ترك المندوب و الاولى و إتيان المكروه، و حسن ذلك أنّ من المعلوم أنّه ممّن لايخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمّى ذنباً منه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ ما لو وقع من غيره لم يسمّ ذنباً لعلوّ قدره و رفعة شأنه. ٢٥- قيل: إنّ القول خارج مخرج التعظيم و حسن الخطاب، و المعنى: غفر الله لك كما قال: «عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم» التّوبة: ٤٣) و هذا ضعيف لأنّ العادة جرت في مثل هذا أن يكون بلفظ الدّعاء.

٢٦- عن سفيان الثّوري أيضاً: أي ليغفر لك الله ما تقدّم في الجاهليّة من قبل أن يوحى إليك، و ما تأخّر في الإسلام ما لم تفعله بعد أو كلّ شئ لم تعمله.

٢٧- قيل: إنّ رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ كان مذنباً بحساب قريش و زعم مشركي مكّة إذ جَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً، و قالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشئ عجاب» ص: ٥) و قد كان رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ عند المؤمنين المخلصين تماماً كأيّ مجاهد مخلص عند المخلصين

والخآئنين، و مع الأيّام و الأحداث... و منها الفتح و النّصر الّذي أشار إليه سبحانه بـ«فتحنا لك» اكتشف المشركون أنّ محمّداً هو المحقّ، و أنّهم كانوا هم المخطئون و المذنبون بعبادة الأصنام و إسائتهم لمحمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ فندموا و استجابوا لدعوته، و عليه يكون معنى الآية الكريمة: أنّ الله تعالى هيّأ السّبب الموجب لدخول المشركين في دين الله أفواجاً، و كان عاقبة ذلك براءة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عند المشركين من كلّ ذنب، و عبّر تعالى عن هذه البراءة بالمغفرة تماماً كما لو اعتقدت أنّ فلاناً هو أعدى عدوّك، و أنّه لو تمكّن منك لأخذك أخذ سفاح جبّار، و دارت الأيّام، فصار هذا الفلان حاكماً ذا سلطان، و إذا به يكرم مثواك و يحسن إليك، و ما من شكّ في أنّك تشعر من أعماقك أنّك أنت المذنب، و هو النّزيه البريء.

٢٨- قيل: أي ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنب أبيك إبراهيم و ما تأخّر من ذنوب الأنبيآء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

أقول: و هذا مردود بما سبق منّا بعد نقل الرّابع من الأقوال فراجع.

٢٩- قيل: أي ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنب يوم بدر و ما تأخّر من ذنب يوم حُنَين، و ذلك أنّ الذّنب المتقدّم يوم بدر أنّه جعل يدعو و يقول: «اللهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض أبداً» و جعل يردّد هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من أين تعلم أنّي لو أهلكت هذه العصابة لا أُعبَد أبداً» فكان هذا الذّنب المتقدّم، و أمّا الذّنب المتأخّر فيوم حُنين لمّا انهزم النّاس قال لعمّه العبّاس، و لأبي سفيان: «ناولاني كفّاً من حصآء الوادي» فناولاه فأخذه بيده و رمى به في وجوه المشركين، و قال: «شاهت الوجوه- حم- لاينصرون» فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحد إلاّ امتلأت عيناه رملاً و حصآء ثمّ نادى في أصحابه فرجعوا، فقال لهم عند رجوعهم: لو لم أرمهم لم ينهزموا» فأنزل الله عزّوجلّ: «و ما رميت إذ رميت و لكنّ الله رمى» فكان هذا هو الذّنب المتأخّر.

٣٠- قيل: كما أنّ استغفار الأنبيآء و المرسلين و الأوصيآء المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين لم يكن مسبوقاً بالذّنب تعليماً لأُمّتهم و شيعتهم، و هذا هو مولى الموحّدين

إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يدعو الله تعالى في دعآئه المعروف بدعاء كميل بن زياد: «اللهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تهتك العصم، اللهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تنزل النّقم، اللهمّ اغفر لي الذّنوب الّتي تغيّر النّعم...» كذلك غفران الله تعالى لهم لم يكن مسبوقاً بالذّنب المتبادر في أذهان العامّة الأليفة بالمعاصي و الكبآئر... كيف لا وقد عهد من حال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ من كثرة العبادة ما يدلّ على شرف مقامه و غاية عبوديّته لله جلّ وعلا إلى حيث لاتحيط به عبارة، و قد صحّ أنّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لمّا نزلت هذه السّورة المباركة صام و صلّى حتّى انتفخت قدماه، و تعبّد حتّى صار كالشّنّ البالي، فقيل له﴿صلى الله عليه و آله﴾: أتفعل هذا بنفسك، و قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟ فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: أفلا أكون عبداً شكوراً»؟

۳۱- قيل: إنّ اللّام المكسورة في «ليغفر» لام القسم، و الأصل: «ليغفرنّ» فحذفت نون التّأكيد، و بقي ما قبلها مفتوحاً للدّلالة على المحذوف، و كسرت اللام تشبيهاً بلام كي. و هذا مردود فإنّ لام القسم لاتكسر و لاينصب بها، فلا شاهد عليه من الاستعمال.

۳۲- قيل: أي ليغفر لك الله لمكانك عنده تعالى من ذنب شيعة وصيّك عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ما تقدّم في حياة إمامهم و بعد شهادته إلى يوم القيامة، و ما كان لهم ذنب إلاّ لكونهم شيعة عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و رفضهم الطّواغيت و برآئتهم عن الخلفآء الغاصبين و أذنابهم... كما أنّه لم يكن لعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ذنب بحساب أعدآئه إلا لعلوّه﴿عليه السلام﴾، فلو كان عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ عليًا بلفظه و إسمه لا في معناه و رسمه لما كانوا له أعدآء...

أقول: و الثّامن عشر و الثّالث و العشرون، و الثّاني و الثّلاثون من الأقوال هي المؤيّد بسياق آيات السّورة، و بالرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و في معناها القول السّابع و العشرون من دون تنافٍ بينها فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

و في قوله عزّوجلّ: «و يتمّ نعمته عليك» أقوال: ۱- قيل: أى وليتمّ نعمته عليك بإعلاء شأن دينك و انتشاره في أقطار الأرض، و رفع ذكرك في الدّنيا و الآخرة، فاجتمع

لك الملك و النّبوّة بعد أن كانت لك النّبوّة وحدها. ٢- قيل: إنّ إتمام النّعمة فعل ما يقتضيها من تبقيتها على صاحبها و الزّيادة منها، فالله جلّ وعلا قد أنعم على رسوله﴿ﷺ﴾ و أتمّها بنصره على أعدآئه الرّادّين لها، و المكذّبين بها حتّى علا بالحجّة والقهر لكلّ من ناواه. ٣- قيل:أي و يتمّ بالفتح المذكور إنعامه عليك. و قيل: أي و يتمّ بفتح مكّة نعمته عليك. و قيل: أي و يتمّ بسبب صلح الحديبيّة نعمته عليك و هي فتح خيبر و فتح مكّة و الطّائف.

٤- عن ابن عبّاس: أي و يتمّ منّته عليك بالنّبوّة و الحكمة و الإسلام و المغفرة. ٥- قيل: إنّ المراد بالنّعمة هنا الحكمة و النّبوّة. ٦- قيل: اريد بالنّعمة هنا صلح الحديبيّة. ٧- قيل: إنّ المراد بالنّعمة هنا الجنّة الّتي يدخل الله تعالى المؤمنين و المؤمنات فيها كما قال: «ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري...». ٨- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك بخضوع المتكبّرين لك، و بطاعة المتجبّرين لديك. ٩- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك بخضوعك لله تعالى من غير تكبّر، و طاعتك لله سبحانه من دون تجبّر. ١٠- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك في الدّنيا بإظهارك على عدوّك و إعلاء أمرك، و تمكين دينك و نصره على الدّين كلّه و بقآء شريعتك، و في الآخرة برفع محلّك و درجتك.

١١- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك بإظهارك على أعدائك و رفعة ذكرك في الدّنيا، و غفرانه ذنوبك في الآخرة. ١٢- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك بإعلاء دينك، و فتح البلاد على يدك لقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي...» و من إتمام النّعمة تكليف الحجّ و قد تمّ يومئذ، و لم يبق للنّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ عدوّ من قريش، فإنّ كثيراً منهم قد أهلكوا يوم بدر، و الباقين آمنوا و استأمنوا يوم الفتح. ١٣- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك في الدّنيا باستجابة الدّعاء في طلب الفتح، و في الآخرة بقبول الشّهادة و الشّفاعة. ١٤- قيل: إنّ إتمام النّعمة مرتّبة على الفتح المذكور، فإنّ من دانت له الرّقاب، و خضعت له النّفوس و عزّ فقد تمّت له النّعمة. و قيل: إنّ المراد بإتمام النّعمة هو تمهيده سبحانه لرسوله﴿ﷺ﴾ لتمام الكلمة و تصفيته تعالى الجوّ لنصره نصراً عزيزاً بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر.

١٥- قيل: النّعمة هنا نعمة الدّين. ١٦- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك بإظهار دينك على الدّين كلّه و إبطال الشّرك. ١٧- قيل: إنّ المراد بالنّعمة هنا قوله تعالى: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين- فأنزل الله سكينته على رسوله و على المـؤمنين...» الفتح: ٤ و ٢٦). ١٨- قيل: أي و يتمّ نعمته عليك بإعلآء الدّين و انتشاره في البلاد و غير ذلك ممّا أفاضه الله تعالى على رسوله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ من النّعم الدّينيّة و الدّنيويّة. ١٩- قيل: اريد بالنّعمة هنا معنى يجمع الجميع و يشمل الكلّ.

٢٠- قيل: إنّ المراد بالنّعمة هنا نصب عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يوم الغـدير لأمـر الإمامة و الولاية و الخلافة بعد رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ إذ قال الله جلّ وعلا: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً- يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائده: ٣ و ٦٧).

و قال بعضهم: «و ذلك أنّ إتمام النّعمة دعامة ثانية لعرش الدّولة الإسلاميّة، حيث إنّ النّعمة ابتدأت بالإسلام منذ بزوغه، و لكنّها كانت سجالاً خليطة بالنّعمة للأُمّة، و النّقمة لرسول الأُمّة﴿صلّى الله عليه و آله﴾ إذ كانت الغوائل من هنا و هناك تترى عليه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و عليهم تباعاً تلو بعض و إن كانت في المدينة أقلّ، إنّه كان نعمة التّأليف و الوحدة، فأكملت بفتح مكّة الّذي وحّد الجزيرة العربيّة عن آخرها إلى غيرها: «واعتصموا بحـبل الله جـميعاً و لا تفرّقوا و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعدآء فألّف بين قلوبكم فأصـبحتم بـنعمته إخواناً» آلعمران: ١٠٣).

و كانت نعمة الغلبة أحياناً و سجالاً فأصبحت الآن تامّة لاتفسح لأحد مجـالاً في حربهم: «اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكـفّ أيـديهم عنكم» المائدة: ١١). و أمّا الآن فلا أيدي معادية تبسط أو تهمّ إذ قطعت بفتح مكّة، و من قبل كانت تهمّ و تبسط و إن كان تكفّ بجنود إلهيّة غير مرئيّة: «اذكروا نـعمة الله عليكم إذ جآءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها و كان الله بما تعملون بصيراً إذ جآؤكم من فوقكم و من أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القـلوب الحناجر و تظنّون بالله الظّنونا» الأحزاب: ٩-١٠) كما كان يوم الأحزاب.

و في النّهاية إكمال الدّين أحكاميّاً و حفاظاً و تخليداً للدّولة الإسلاميّة بتأييد زعامة سليمة تقطع طموح من كانوا يتحينون فرصة إنقلابهم على أعقابهم بموت رسول الله «ﷺ» تخليدها بذلك الانتصاب الكبير الإلهيّ يوم الغدير، راجعاً عن حجّة الوداع بعد فتح مكّة المكرّمة بسنتين: «اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم و اخشون اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة: ۳).

إكمالاً في جانبي الشّريعة و زعامتها الخالدة، فيأساً للّذين كفروا من إفنآئها و إمحاء آثارها أو اغتصاب و احتلال زعامتها، اللّهمّ إلاّ تدخّلا جانبيّاً لايجتثّها من جذورها، إلاّ أن يخرجوا عن الدّين، و لكنّه مدعم بهاتين الدّعامتين مهما تركته حملته، فبناية الدّعوة مدعمة بما يضمن بقآءها كما فعل الله جلّ وعلا، و لكنّها لاتضمن إلاّ لمن تضمّنها كما أراد الله تعالى، ثمّ تتهدّم في نفوس صغار صغار لايتضمّنونها و هي باقية في كتاب الدّعوة، في ضمير الكون و عمقه! مجالاً واسعاً لمن يتحمّلون و يتضمّنون: تطبيقالها بزعامتها السّليمة كما بدأت بالبشير النّذير، و كما تخلدت يوم الغدير.

أقول: و العشرون هو الأنسب بالصّيغ المستقبلة و الوعود الآتية... فتأمّل جيّداً و لا تغفل.

و في قوله سبحانه: «و يهديك صراطاً مستقيماً» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي و يثبّتك بالفتح المذكور على طريق قآئم يرضاه و هو دين الإسلام و يهديك عليه إلى أن يقبضك إليه، فإنّ الفتح لايكون إلاّ لمن هو على صراط الله تعالى. ۲- قيل: أي و ليهديك بهذا الفتح إلى صراط المستقيم في تبليغ الرّسالة و إقامة الرّياسة و شعآئر الإسلام و يرشدك طريقاً من الدّين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربّك. ۳- قيل: أي و يرشدك إلى الطّريق الّذي إذا سلكته أدّاك إلى الجنّة لايعدل بك إلى غيرها و يثبّتك عليها.

٤- قيل: إنّ الخطاب و إن كان لرسول الله «ﷺ» و لكنّ المراد به اُمّته. ٥- قيل: أي و يهديك إلى صراط مستقيم في تبليغ الأحكام و إجرآء الحدود. ٦- قيل: إنّ أصل

الإستقامة و إن كان حاصلاً قبل الفتح و لكن حصل بعد ذلك من اتّضاح سبل الحقّ و استقامة مناهجه ما لم يكن حاصلاً قبل. ٧- قيل: إنّ هذه الهداية كدعامة ثالثة لعرش الرّسالة، أترى أنّ صاحب الرّسالة لم يكن على صراط مستقيم منذ الدّعوة إلى سنة ثامنة من الهجرة فتحت فيها مكّة، ومن ثمّ اهتدى إلى صراط مستقيم؟! و هو﴿ﷺ﴾ أوّل معتصم بالله جلّ وعلا: «و من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم» آل عمران: ١٠١) و هو﴿ﷺ﴾ أفضل مهديّ إلى صراط مستقيم طول الرّسالة: «قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم...» الأنعام: ١٦١) بل هو﴿ﷺ﴾ على صراط المستقيم محيطاً عليه لزاماً به: «و القرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين على صراط المستقيم» يس: ٢-٤) كيف لا: «و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم» الشورى: ٥٢).

و حقّاً إن الصّراط المستقيم له درجات و جنبات، فأولى الدّرجات هداية الدّلالة له، و قد هدي صاحب هذه الرّسالة منذ البدء، و قبل الرّسالة كان مهديّاً إليه خاصّاً لنفسه حتّى تهيّأ للعالمين، ثمّ الهداية الثّانية هي الاستمرار عليه مستزيداً فيه بعصمة إلهيّة، بعد محاولات بشريّة و رسوليّة، و هو دوماً دون انقطاع بحاجة ماسّة إلى هذه العصمة: «و لو لا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» الإسراء: ٧٤) و هذه الدّرجة هي الّتي يطلبها هو و المؤمنون- على درجته و درجاتهم- في صلواتهم ليلاً و نهاراً: «إهدنا الصّراط المستقيم»: ثبّتنا و أدم لنا توفيقك، فلو شآء الله لذهب بالّذي أوحى إليه، فإنّه ليس لزاماً للرّب إلاّ بما كتب على نفسه الرّحمة: «و لئن شئنا لنذهبنّ بالّذي أوحينا إليك ثمّ لاتجد لك به علينا وكيلاً إلاّ رحمة من ربّك إنّ فضله كان عليك كبيراً» الإسراء: ٨٦-٨٧).

هذا و لكنّما الدّرجة هذه لاتختصّ بما بعد الفتح، فإنّه مهديّ بها على طول الخطّ، فإنّما الاختلاف قبل الفتح في الجنبات لا الدّرجات: صراطاً مستقيماً للدّاعية في الدّعوة، حيث أُزيلت الشّبكات و الأشواك و العقبات عن طريقها بفتح مكّة، و صراطاً مستقيماً لتقبل الدّعوة الإسلاميّة، حيث الفتح فتح سبيلاً واسعاً لمن كانوا في شكّ من صاحب الدّعوة، و صراطاً مستقيماً في تكميل الدّين و إتمام النّعمة و كما حصل بفتح مكّة، و

صراطاً مستقيماً في العبادة و تطبيق الشّريعة إذ زالت عنهم التّقية، و انقلبت على المشركين، إذ أسلم كثير منهم، مهما نافق آخرون عائشين تحت الرّقابة الإسلاميّة و رايتها و رعايتها.

٨- قيل: أي و يهديك في نصب عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ للخلافة و الإمامة بعدك، صراطاً مستقيماً لا اعوجاج فيه. ٩- قيل: إنّ المراد هدايته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بعد تصفية الجوّ له ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى الطّريق الموصل إلى الغاية الّذي سلكه بعد الرّجوع من الحديبيّة من فتح خيبر و بسط سلطة الدّين في أقطار الجزيرة الّتي انتهى إلى فتح مكّة و الطّائف. ٩- قيل: معناه: و يزيدك هدى. ١٠- قيل: أي و يثبتك على الهدى. ١١- قيل: أي و يهديك صراطاً مستقيماً في كلّ أمر تحاوله.

أقول: و الثّامن هو المختار، و الوجه فيه هو الوجه فيما قبله.

٣- (و ينصرك الله نصراً عزيزاً)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن جريج: أي و ينصرك الله بفتح خيبر و مكّة والطّائف نصراً عزيزاً قلّما يوجد أو لا يوجد له مثيل. و ذلك أنّ الله تعالى فتح لرسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة و الطّائف بعد فتح خيبر و انبسط الإسلام في أرض الجزيرة و انقلع الشّرك و ذلّ اليهود و خضع له نصارى الجزيرة و المجوس القاطنون بها، و أكمل جلّ وعلا للنّاس دينهم يوم الغدير و أتمّ عليهم نعمته يومئذ و رضى لهم الإسلام ديناً بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾.

٢- قيل: أي و ينصرك الله نصراً قويّاً منيعاً. بناء على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازاً للمبالغة كقولك: كلام صادق أي متكلّم صادق. ٣- قيل: أي نصراً عزيزاً صاحبه.

٤- قيل: أي و ينصرك الله نصراً يقلّ وجود مثله، و يصعب مناله، نصراً عزيزاً تختم به الانتصارات الّتي بدأت بصلح الحديبيّة، و ختمت بحجّة الوداع و نصب عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ يوم الغدير للإمامة و الخلافة بلافصل بعد رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾. و هو قلّة الوجود، و عديم النّظير، و صعوبة المنال بحيث قال الله عزّوجلّ: «و الله يعصمك من النّاس» المائدة: ٦٧).

٥- قيل: أي و ينصرك الله غالباً لايتبعه ذلّ، و لا يـلقاه المـشركون إلاّ في ذلّـة و انكسار. ٦- قيل: أي و ينصرك الله بهذا الفتح نصراً ذا عزّة لا ذلّ له و فيه سعادة و منعة، كقوله تعالى: «في عيشة راضية» الحاقة: ٢١) لا النّصر من دون قوّة و لا قدرة و لا نصراً إدّعاءً. ٧- قيل: أي و ينصرك الله نصراً معزّاً. و قيل: أي ممتنعاً على الغير و هو النّفيس الّذي لايناله كلّ أحد، فكان نصراً عزيزاً لا مثيل له، فالمراد بالنّصر العزيز ما هو نادر الوجود، قليل النّظير أوعديمه، و نصره تعالى لرسوله﴿ﷺ﴾ كذلك كما يظهر بقياس حا له في أوّل بعثته إلى حاله في آخر أيّام دعوته.

٨- قيل: أي و ينصرك على سآئر أعدآئك و من ناوأك نصراً لا يغلبه غالب، و لا يدفعه دافع للبأس الّذي يؤيّدك الله به،، و الظّفر الّذي يمدّك به. ٩- عن ابن عبّاس: أي و ينصرك الله على عدوّك نصراً عزيزاً أى منيعاً بلا ذلّ و لا انكسار. ١٠- قيل النّـصر العزيز: هو ما يمتنع به من كلّ جبّار عـنيد و عـات أثـيم و مـريد، و قـد فـعل ذلك بنبيّه﴿ﷺ﴾ إذ صيّر دينه أعزّ الأديان، و سلطانه أعظم السّلطان. ١١- قـيل: إنّ الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعدآءهم، أو رجفة تحكم عليهم بالفنآء، أو جند يرسله من السّمآء أو نصر و قوّة و ثبات قلب يرزق به المؤمنين، و المراد بالنّصر هنا هو الأخير إذ قال: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين...».

١٢- قيل: أي و ينصرك الله نصراً في كافّة المـيادين، و إلاّ فكـان هـو﴿ﷺ﴾ و المرسلون و المؤمنون منصورين في الحياة الدّنيا و الآخرة لقوله عزّوجلّ: «و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المـنصورون و إنّ جـندنا لهـم الغـالبون» الصّـافات: ١٧١-١٧٣).

و قوله تعالى: «إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ١٥١) و قوله سبحانه: «و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين» الرّوم: ٤٧).

و أمّا هذا النّصر الموعود فعزيز لايقدر قدره فلايقاس بغيره، مهما كان سواه له و لسواه سجالاً قبل الفتح: قد يغلبون و قد يغلبون هنا في الاولى، مهما كانوا غالبين معنى، و فى الآخرة، فكلّ نصر لكلّ منصور قبل الفتح المبين كان عضالاً و سجالاً فيه مجال قلّ

أو كثر لأطراف النّضال، و أمّا بعد الفتح فنصر عزيز يتغلّب كافّة الحركات المضادّة في الجزيرة و حولها زمن رسول اللّه﴿ﷺ﴾، و الزّمن الّتي كانت الدّولة الإسلاميّة- أو تكون- ناحية منحى النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ اللّهمّ إلّا فيما شذّت عنه، فتشدّ عن النّصر العزيز: و لحدّ قد يتغلّب العدوّ الكافر المستعمر فلا نصر فضلاً عن العزيز ف«إن تنصروا اللّه ينصركم و يثبّت أقدامكم».

أقول: و الأوّل هو الأنسب بالسّياق كما سبق منّا آنفاً في الآيتين السّابقتين من دون تناف بينه و بين أكثر الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

٤- (هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و للّه جنود السّموات و الأرض و كان اللّه عليماً حكيماً)

قوله تعالى: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين» في «السّكينة» أقوال:
١-عن ابن عبّاس: كلّ سكينة في القرآن طمأنينة إلّا الّتي في سورة البقرة. و المعنى: هو الّذي أنزل الطّمأنينة في قلوب الّذين كانوا مع رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قلباً و قالباً يوم الحديبيّة، دون المعترضين عليه﴿ﷺ﴾ كعمر بن الخطّاب و أذنابه... ٢- قيل: السّكينة هي السّكون و الثّبات و الهدؤ النّفساني و الطّمأنينة و الوقار و الثّقة بوعد اللّه تعالى لهم بالنّصر. و المعنى: أنزلها في قلوب المخلصين بسبب الصّلح و الأمن إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف و الفزع و الهدنة بعدغب القتال، ليقوى ايمانهم وثقتهم به و يعرفوا فضله عليهم.

٣- عن ابن عبّاس أيضاً: السّكينة هي الرّحمة الّتي أنزلها في قلوبهم ليتراحموا بها بعضهم بعضاً، فيزدادوا بها ايمانهم.

٤- قيل: إنّ كلمة السّكينة تطلق على ثقة الإنسان و اطمئنانه إلى رأيه و برهانه و عقيدته و ايمانه، و تطلق أيضاً على التّفاؤل بالخير و الاطمئنان إلى الرّبح و النّصر، ولا مانع للجمع بين المعنيين، و إنّ السّكينة هي المصدر و الأساس للصّبر و الصّمود في كلّ جهاد و نضال أيّاً كان نوعه. ٥- قيل: السّكينة ملك يسكن قلب المؤمن و المخلص

المتصلّب في العقيدة و الايمان و يؤمنه من الخوف و الحزن كما في قوله تعالى: «إنّ الّذين قالوا ربّنا اللّٰه ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا و لاتحزنوا و أبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدّنيا و في الآخرة» فصّلت: ٣٠-٣١).

٦- قيل: هي العقل، و يقال: له سكينة إذا اتبع عقله، فسكن عن الميل إلى الشّهوات، و عن الرّعب والفزع في الدّفاع عن نواميس القرآن الكريم و نظام الدّين. ٧- قيل: السّكينة هي أن يفعل اللّٰه بالمؤمنين اللطف الّذي يحصل لهم عنده من البصيرة بالحقّ ما تسكن إليه نفوسهم، و يجدون الثّقة بها، و ذلك بكثرة ما ينصب اللّٰه تعالى لهم من الأدلّة والبراهين الدّالّة على الحقّ، و إنّما هذه النّعمة التّامّة للمؤمنين الصّادقين خاصّة، و أمّا غيرهم فتضطرب نفوسهم لأوّل عارض من شبهة ترد عليهم، فإنّهم لايجدون برد اليقين و روح الطّمأنينة في قلوبهم.

٨- قيل: السّكينة: ما قيل في عالَم الذّرّ بكلمة «بلى». ٩- قيل: هي الوقار و العصمة للّٰه تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾. ١٠- قيل: هي مِن سكن إلى كذا أي مال إليه، و المعنى: أنزل في قلوبهم السّكون والميل إلى ما جآءهم من الشّرائع... ١١- قيل: أي هو الّذي أنزل السّكون و الطّمأنينة في قلوب المؤمنين باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ إلى الايمان، و الحقّ الّذي بعث اللّٰه تعالى رسوله﴿ﷺ﴾ به، و يلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء.

١٢- قيل: السّكينة شيء له رأس كراس الهرّة.

١٣- قيل: السّكينة هي الايمان، و قيل: ما يوجب زيادة الايمان، و قيل: هي حالة روحانيّة ايمانيّة تنزل على قلوب المؤمنين، تستكن فيها فتطمئنّها و تسكنها، و هي فعيلة بمعنى السّاكنة أو المسكونة الّتي تلازم القلوب السّليمة، و تسكن فيها لتسكّنها عمّا ربما تردها من فورات و اضطرابات تجيش بشتّى المشاعر، و تستجيش مختلف المظاهر، إذ تلقي ظلالاً كريمة على هذه القلوب من نور، فتصبح نوراً على نور، فتظلّ في ظلّها طمأنينة و راحة، و يقيناً وثقة، زيادة عمّا كان من الايمان، فلا مهبط - إذاً - لسكينة الايمان إلّا الايمان على درجاته و جنباته و حالاته.... و يشترك فيها المؤمنون كلّهم، كلّ حسب قابليّاته و متطلّباته، نزولاً من أعلى الايمان كما لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ إلى أدناه كما

لأدنى المؤمنين، و صعوداً من أدناه إلى أعلاه، و بينهم متوسّطات، فلا تشدّ قلباً من هذه و تلك إلّا و تنزل فيه «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم».

و إنّ السّكينة في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع: **أحدها** - أنّها تنزل على قلوب المؤمنين خاصّة كما في هذه الآية الكريمة، و في قوله تعالى: «فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً» الفتح: ١٨) و في قوله سبحانه: «إنّ آية ملكه أن يأتيهم التّابوت فيه سكينة من ربّكم...» البقرة: ٢٤٨).

ثانيها - أنّها تنزل على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و على المؤمنين كما في قوله عزّوجلّ «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» الفتح: ٢٦) و في قوله جلّوعلا: «ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين» التّوبة: ٢٦)

ثالثها - أنّها تنزل على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ خاصّة كما في قوله تعالى: «فأنزل اللّه سكينته عليه» التّوبة: ٤٠) و قد حرّم أبابكر عن السّكينة و هو صاحب الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الغار، و هو على أمسّ الحاجة إليها إذ حزن لحدّنهاه رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ عنه، إذ قال: «لاتحزن» وقد أنزلها اللّه على رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هو غير محزون، و قد حرم أبابكر عنها لفقده الايمان إذ لاتنزل إلّا على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و على الّذين معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قلباً و قالباً، دون القالب فقط، و كان أبوبكر مع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الغار قالباً لا قلباً، و لا تنزل السّكينة إلّا على القلب المؤمن باللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾. و انّ السّكينة النّازلة على رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ عصمة و تسديد يحتاجه الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ دوماً كبشر و كرسول، مهما كان أكمل الايمان، و النّازلة على المؤمنين لاستكمال الايمان أو الحفاظ على الايمان في هجمات الاضطراب الّتي تهدّد كيان الايمان، و من ثمّ إذ لا سكينة فلا ايمان، و إنّما كفر أو إسلام نفاق أو ما لم يصل إلى ايمان: «و قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الايمان في قلوبكم» الحجرات: ١٤).

و إنّ السّكينة في صلح الحديبيّة توجب زيادة ايمان المؤمنين خاصّة إذ صمدوا و صابروا على عضال المحنة فلم يشكوا، و أمّا غيرهم فكانوا خارجين عن زمرة المؤمنين عن حقيقة الايمان، و إن كانوا يقولون بأفواههم آمنّا و لم تؤمن قلوبهم و قائدهم عمر بن

الخطّاب إذ كان يخاطب النّبيّ المعصوم﴿صلّى الله عليه وآله﴾ بحميّة: «لِمَ تُعطى الدّنيّة في ديننا؟!» فأجابه الرّسول﴿صلّى الله عليه وآله﴾: «أنا عبد اللّه و رسوله لن أُخالف أمره و لن يضيّعني» و كان يشكّك في صدق رؤيا النّبيّ الكريم﴿صلّى الله عليه وآله﴾: «لتدخلنّ المسجد الحرام...» إذ ظنّ أنّه في عام الحديبيّة، فجآء أبابكر مهتاجاً ثائراً بقوله: «أليس كان يحدّثنا أنّه سنأتي البيت و نطوف به؟! قال: بلى! أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟ قال: لا... فتركه إلى رسول اللّه﴿صلّى الله عليه وآله﴾ فسئله سئواله فأجابه: أفأخبرتك أنّك تأتيه العام؟ قال: لا... قال رسول اللّه﴿صلّى الله عليه وآله﴾: «فإنّك آتيه و مطوف به»».

و هاتان الصّورتان كسائر الصّور المضادّة للايمان الّتي كان عمر بن الخطّاب يتصوّر بها تنفي الايمان عنه، فما كانت السّكينة نازلة في قلبه و في قلوب أذنابه، إذ لاتستعدّ لنزولها فيها حيث لا ايمان لها، كما لم تنزل السّكينة على أبي بكر و هو صاحب رسول اللّه﴿صلّى الله عليه وآله﴾ في الغار.

و أمّا رسول اللّه﴿صلّى الله عليه وآله﴾ فهو القمّة في الايمان، فلايحتاج هنا إلى سكينة، الّلهمّ إلّا عصمة و تسديداً يحتاجه في كلّ ظرف من الظّروف، ولذلك لم يردف هو﴿صلّى الله عليه وآله﴾ بالمؤمنين هنا.

١٤- قيل: السّكينة هي النّصرة للمؤمنين لتسكن بذلك قلوبهم، و يثبتوا في القتال.
١٥- قيل: هي ما تسكن في قلوبهم من التعظيم للّه تعالى و لرسوله﴿صلّى الله عليه وآله﴾ و الوفاء والتّسليم لأمره. ١٦- قيل: هي الفور و القوّة و الرّوح الّتي يسكن بها الخائف، و يبتلى بها الحزين، و أثرها الوقار و الخشوع و ظهور الحزم على الأُمور لأنّها تنشىء من اليقين و ثبات القلب، فمن كان ثبات القلب لايضطرب في شأن من شئون حياته... فالمعنى: و أعطاهم ثبات الأقدام عند لقاء الأعدآء و مقاتلتهم، و هو الّذي يسمّى الرّوح المعنويّة في الجيُوش و بها يغلبون على الكفّار و المستكبرين، و الفجّار و المجرمين.

١٧- قيل: هي سكون النّفس و ثباتها و استقرارها إلى ما آمنت به، و استقامتها لديه، و اطمئنانها إلى ما اعتقدت به، و لذا علّل إنزالها فيها بقوله تعالى: «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» و أنّها تنطبق على روح الايمان المذكور في قوله سبحانه: «و أيّدهم بروح منه» المجادلة: ٢٢).

١٨- قيل: إنّ المراد من الّذين كانوا مع رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يوم الحديبيّة كلّهم من المؤمنين الصّادقين منهم و غيرهم... و ذلك أنّ من هذا الفتح المبين الّذي فتحه اللّه لرسوله﴿ﷺ﴾ و من هذا الخير العظيم الّذي أنزله على نبيّه بسبب هذا الفتح، أخذ المؤمنون كلّهم نصيبهم، إذ كانوا قبساً من نور النّبوّة، و مشاعل تنير الطّريق للنّاس من بين يدي كوكبها المتألّق و من خلفه، فكان لهم نصيبهم من هذا الخير العظيم، و ذلك النّصر العزيز الّذي ساقه اللّه تعالى إلى رسوله﴿ﷺ﴾ قائد هذه الحملة السّماويّة المباركة، و إنّ قوله سبحانه: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين...» هو بشرى للمؤمنين تجاه البشارة الّتي حملها القرآن الكريم إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في قوله عزّوجلّ: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» أي إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً... و أنزلنا السّكينة في قلوب المؤمنين...

و قوله سبحانه للمؤمنين: «ليزدادو ايماناً مع ايمانهم» هو في مقابل قوله تعالى لرسوله﴿ﷺ﴾: «ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» فلكلّ من رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين مقامه و منزلته من ربّ العالمين و من سوابغ نِعَمه و فواضل إحسانه...

فلرسول اللّه ﴿ﷺ﴾ هذا الفتح المبين، و المغفرة الشّاملة العامّة الّتي لاتُبقي على شيء يطوف بحمى النّبوّة من هنات و هفوات، فيسوّى حسابه على أن يكون له النّبوّة خالصة بجلالها و صفآئها، بعد هذه الرّحلة الطّويلة الّتي طوّفَتْ بها في دنيا النّاس، و خالطت فيها و جودهم، و احتكّت بخيرهم و شرّهم، و واجهت أخيارهم و أشرارهم...

أمّا المؤمنون فإنّ لهم من هذا الفضل الإلهي ما يحفظ عليهم ايمانهم و يزكّيه و يُنقّيه و يُنمّيه... «هو الّذي...» و السّكينة الّتي أنزلها اللّه تعالى في قلوبهم هي ما وقع في قلوبهم من رضاً و طمأنينة و سكينة بعد هذه الموجات الّتي تدافعت في صدورهم من وساوس الحيرة و البلبلة، ساعة صلح الحديبيّة... فلقد اضطربت كثير من القلوب، و زاغت كثير من الأبصار، و قصرت كثير من الأفهام عن أن ترى ماوراء هذا الصّلح من خير كثير، و فتح مبين، فوقعت فيما وقعت فيه من حيرة و بلبال كما اعترضت على قلب عمر بن الخطّاب حتّى أنكر الصّلح والخير الكثير ورآئه.

و لقد مرّت على هؤلآء المسلمين في الحديبيّة مواقف مُرّة عملت في قلوبهم ما عملت، و كانت هذه التّجربة القاسية الّتي عاناها المسلمون من أحداث الحديبيّة باعثاً يحرّك في قوّة و عنف ما في كيانهم من مشاعر، و ما في قلوبهم من مدارك ليقابلوا بها هذه المتناقضات الّتي بدت لهم من ظاهر موقفهم الّذي اتّخذوه من رسول اللّه﴿ﷺ﴾ مع أحداث الحديبيّة حتّى إذا بلغ الأمر غايته من ضيق الصّدور و حرج النّفوس، طلع عليهم من حيث لم يحتسبوا و لم يقدروا- ماوراء هذا الصّلح من خير كثير و فتح مبين، فكان لذلك من السّلطان على العقول، و الأثر في النّفوس، ما للتائه المكروب المضطرب في محيط الصّحرآء، تطلع عليه من حيث لايحتسب قافلة تنتشله من يد هذا الضّياع المستبدّ به!! إنّه بَعْثٌ له من عالم الموتى، و حياة مجدّدة له بين الأحيآء... و إنّها لحياة عزيزة غالية، تلك الحياة الجديدة الّتي لبسها، و إنّه لواجد فيما يستقبل من حياة طعماً جديداً لتلك الحياة، و حرصاً شديداً على ألّا ينفق شيئاً منها في غير النّافع المفيد...

كذلك تماماً كان شأن المسلمين- من المؤمنين و غيرهم- أثنآء صلح الحديبيّة كما ظهر من عمر بن الخطّاب عندئذ، ثمّ بعد هذا الصّلح و ما لقيهم على طريقهم من فتح مبين و نصر عزيز... فازدادوا ايماناً مع ايمانهم، و يقيناً إلى يقينهم... و هكذا يربى اللّه تعالى عباده المؤمنين، و يصنع لهم من الأحداث والمواقف ما يثبّت به خطوهم على طريق الايمان، فلا تنال من ايمانهم الأحداث، و لا تتسرّب إلى مشاعرهم الوساوس و الشّبهات...

أقول: و الأوّل هو المؤيّد بالرّوايات، و في معناه بعض الأقوال الأُخر... فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً فإنّ المقام مزالّ الأقدام إلّا مَن رحمه اللّه تعالى.

و في الإنزال أقوال: ١- قيل: الإنزال هو الإسكان و الإقرار، و أنزل- من قولهم -: نزل في مكان كذا: حطّ رحله فيه، و أنزله غيره، و أنزلته فيه أي حططت رحله فيه.

فالمعنى: حطّ تعالى السّكينة في قلوبهم، فكان قلوبهم منزلاً لها و مأوىً.

و قال بعضهم: إنّ هذا المعنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه، و لعلّ الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة «في» إذ قال: «أنزل السّكينة في

قلوب المؤمنين» لكنّه عناية كلاميّة لوحظ فيها تعلّق السّكينة بالقلوب تعلّق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلّقها تعلّق الوقوع عليها من علوّ في قوله الآتي: «فأنزل السّكينة عليهم...»: ١٨) و قوله: «فأنزل اللّٰه سكينته على رسوله و على المؤمنين»: ٢٦).

٢- قيل: الإنزال هو الإيجاد و الخلق كقوله تعالى: «و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» الزّمر: ٦) أي أوجد و خلق، و قوله سبحانه: «و أنزلنا الحديد» الحديد: ٢٥) و في التّعبير عن الخلق و الايجاد بالإنزال ايمآء إلى علوّ شأن مبدئه، و إنزال اللّٰه سبحانه نعمته على عبده: إعطآئه تعالى إيّاها، و ذلك إمّا بإنزال الشّيء نفسه كإنزال القرآن الكريم أو بإنزال أسبابه، و الهداية إليه كإنزال الحديد و نحوه. ٣- قيل: الإنزال هو الايقاع.

أقول: و لكلٍّ وِجْهٌ فتدبّر.

و **في قوله تعالى:** «ليزدادو ايماناً مع ايمانهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أنّ أوّل ما بعث به النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: شهادة أن لا إله إلّا اللّٰه، فلمّا صدّقوه فيها زادهم الصّلاة، فلمّا صدّقوه زادهم الزّكاة، فلمّا صدّقوه زادهم الصّيام، فلمّا صدّقوه زادهم الحجّ، ثمّ الجهاد حتّى أُكمل دينهم يوم الغدير، فقال: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي» فذلك قوله: «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» أي تصديقاً بشرائع الايمان و الدّين، فكلّما نزّل واحدة منها آمنوا بها و منها الجهاد و أمر الولاية مع تصديقهم بالايمان باللّٰه، فازدادوا ايماناً بالشّرائع مع ايمانهم باللّٰه و توحيده و برسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بما جآءهم و باليوم الآخر. و ذلك بالسّكينة الّتي أنزلها اللّٰه في قلوبهم. و المعنى: ليزدادوا معارف أُخَر بما أوجب اللّٰه تعالى عليهم زيادة على المعرفة الحاصلة عندهم.

و قيل: إنّ ازدياد الايمان بازدياد ما يؤمن به، و ذلك أنّ بعض الصّحابة آمنوا أوّلاً بما آمنوا به و كانت الشّريعة لم تتمّ و كانت الأحكام تنزل تدريجاً، فكانوا يؤمنون بكلّ ما يتجدّد منها، و لاريب في تفاوت النّاس في الايمان بملاحظة التفاصيل كثرة و قلّة، و لا يختّص ذلك بزمن رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لإمكان الاطّلاع على التفاصيل في غيره من العصور أيضاً.

٢- عن الرّبيع بن أنس: أى ليزدادوا خشية مع خشيتهم. ٣- عن الضّحّاك: أي ليزدادوا يقيناً مع يقينهم.

و قيل: أي ليزدادوا يقيناً في دينهم إلى دينهم برسوخ عقيدتهم و اطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوي الأحلام، و يزلزل العقائد بصدّ الكفّار لهم عن المسجد الحرام و رجوعهم دون بلوغ مقصدهم، و لكن لم يرجع أحد من المؤمنين الصّادقين عن الايمان بعد أن هاج بعض المسلمين و زلزلوا زلزالاً شديداً حتّى إنّ عمر بن الخطّاب لم يكن راضياً عن هذا الصّلح، بل كان منكراً له، و قال: «ألسنا على الحقّ وهم على الباطل؟!» و قال: «لِمَ تعطى الدّنيّة في ديننا؟!» و غير هما من الأقاويل المنكرة.

و قيل: إلى يقينهم بما يرون من الفتوح و علوّ كلمة الإسلام على وفق ما وُعِدُوا به، برسوخ العقيدة و اطمئنان النّفوس عليها، بناءً على أنّه لمّا ثبت في الأزمنة نزل يجدّد أزمانه منزلة تجدّده و ازدياده، فاستعير له ذلك و رشح بكلمة مع. و كما كان الفتح للامور الأربعة المنعم بها على رسول الله﴿ﷺ﴾ هكذا كانت الطّمأنينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم.

٤- قيل: إنّ المراد بازدياد الايمان زيادة ثمرته و أثره و هو إشراق نوره في القلب، فإنّ نور الايمان يزيد بالطّاعات و ينقص بالمعاصي... قيل: و فيه أنّ زيادة الأثر و قوّته فرع زيادة المؤثّر و قوّته، فلا معنى للاختصاص أحد الأمرين المتساويين من جيمع الجهات بأثر يزيد على أثر الآخر.

و قيل: هذا إنّما يحتاج إليه بعد إقامة قاطع على امتناع قول التّصديق الزّيادة و النّقص، و متى لم يقم قاطع على ذلك كان الاولى إبقاء الظّواهر على حالها. و قيل: إنّ التّصديق نفسه يزيد و ينقص. و قيل: إنّ الزّيادة و النّقص من خواصّ الكم، و التّصديق قسم من العلم، و لم يقل أحد بأنّه من مقولة الكم. قيل: هو كيف أو انفعال أو إضافة، و تعلّق بين العالم و المعلوم أو صفة ذات إضافة. و قيل: الأشهر أنّه كيف، فمتى صحّ ذلك، و قلنا بمغايرة الشّدّة و الضّعف للزّيادة و النّقص فلا بأس بحملهما في النّصوص و غيرها على الشّدّة و الضّعف، و ذلك مجاز مشهور، و إنكار اتّصاف الايمان بهما يكاد يلحق بالمكابرة.

٥- عن الخطابي أنّ الايمان هو قول و هو لايزيد و لاينقص، و عمل و هو يزيد و ينقص و اعتقاد و هو يزيد و لاينقص، فإذا نقص ذهب. و اعترض عليه: أنّه إذازاد ثمّ عاد إلى ما كان فقد نقص و لم يذهب، و دفع عنه بأنّ مراده أنّ الاعتقاد باعتبار أوّل مراتبه يزيد و لاينقص لا أنّ الاعتقاد مطلقاً كذلك. ٦- قيل: أي ليزدادوا بتصديقهم بما جددّ اللّٰه تعالى من الفرائض الّتي ألزمهموها الّتي لم تكن لهم لازمة ايماناً مع ايمانهم أي ليزدادوا إلى ايمانهم بالفرائض الّتي كانت لهم لازمة قبل ذلك.

و قال الرّازي و من تبعه: إنّ النّزاع في قبول الايمان للزّيادة و النّقص و عدم قبوله لهما نزاع لفظيّ، حيث إنّ مراد النّافين هو عدم قبول أصل الايمان و هو التّصديق ذلك، و هو كذلك لعدم قبوله الزّيادة و النّقصان، و مراد المثبتين هو قبول ما به كمال الايمان و هو الأعمال للزّيادة والنّقصان و هو كذلك من دون ريب.

قيل: و فيه أوّلاً أنّ فيه خلطاً بين التّصديق و الايمان، حيث إنّ الايمان تصديق مع الالتزام، فليس الايمان مجرّد التّصديق فحسب. و ثانياً: أنّ نسبة نفي الزّيادة في أصل الايمان إلى المثبتين غير صحيحة، لأنّهم يثبتون الزّيادة في أصل الايمان، و يرون أنّ كلّاً من العلم و الالتزام المؤلّف بهما الايمان يقبل القوّة و الضّعف. و ثالثاً: أنّ إدخال الأعمال في محلّ النّزاع غير صحيح لأنّ النّزاع في شيء غير النّزاع في أثره الّذي به كماله، و لا نزاع لأحد في أنّ الأعمال و الطّاعات تقبل العدّ و تقلّ، و تكثر بحسب تكرّر الواحد.

٧- قيل: إنّ الايمان الّذي هو مدخول «مع» في قوله تعالى: «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» هو الايمان الفطريّ، و الايمان المذكور قبله هو الايمان الإستدلالي، فكأنّه قيل: ليزدادوا ايماناً استدلاليّاً ايمانهم الفطريّ. و بنآء على هذا، ففائدة قوله: «مع ايمانهم» أنّ الفطرة تشهد بالايمان، فلمّا عرفوا صحّة الايمان بالنّظر والاستدلال انضمّ هذا الثّاني إلى الأوّل.

قيل: هذا دعوى من دون دليل يدلّ عليه، على أنّ الايمان الفطريّ أيضاً استدلالي، فمتعلّق العلم و الايمان على أيّ حال أمر نظريّ لا بديهيّ.

أقول: و فيه ما فيه، و بطلانه بديهيّ.

۸- قيل أي ليزدادوا ايماناً بما جآءهم النّبيّ﴿ﷺ﴾ من الاصول و الفروع والأخبار و القصص و الأمثال و الحِكَم والمعارف... مع ايمانهم بما جآءهم من قبل. ۹- قيل: كلّ عقيدة صحيحة و سليمة تنتهي بصاحبها إلى زيادة الايمان و قوّته و راحة الضّمير و غبطته. ۱۰- عن ابن عبّاس أيضاً: أي ليزدادوا يقيناً و تصديقاً و علماً مع ايمانهم باللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ و هو تكرير الايمان مع ايمانهم باللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾.

۱۱- قيل: إنّ المراد بزيادة الايمان اشتداده، فإنّ الايمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتّب عليه آثاره العمليّة، و من المعلوم أنّ كلاًّ من العلم و الالتزام المذكورين ممّا يشتدّ و يضعف، فالايمان الّذي هو العلم المتلبّس بالالتزام يشتدّ و يضعف. فمعنى الآية الكريمة: اللّٰه الّذي أوجد الثّبات و الاطمئنان الّذي هو لازم مرتبة من مراتب الرّوح في قلوب المؤمنين ليشتدّ به الايمان الّذي كان لهم قبل نزول السّكينة فيصير أكمل ممّا كان قبل.

۱۲- قيل: إنّ الايمان عمل كلّه، و القول بعض ذلك، و للايمان حالات، و درجات و طبقات و منازل، فمنه التّام المنتهي تمامه، و منه النّاقص المبيّن نقصانه، و منه الرّاجح الزّائد رجحانه، فبتمام الايمان دخل المؤمنون الجنّة، و بالزّيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدّرجات عند اللّٰه، و بالنّقصان دخل المفرطون النّار.

أقول: و السّابع هو الأنسب بسياق الامتنان من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «و للّٰه جنود السّموات و الأرض» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي الملائكة و الجنّ و الأنس و الشّياطين... و المعنى: إنّ اللّٰه تعالى لو شآء لأعان المؤمنين بهؤلآء من جنوده، و فيه بيان أنّه لو شآء لأهلك الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين و الفسّاق و المنافقين، و لكنّه عالم بهم و بما يخرج من أصلابهم، فأمهلهم لعلمه و حكمته، و لم يأمر عباده المؤمنين بالقتال و عن عجز و احتياج، بل ليفتن بهم و ليعرض المجاهدين منهم لجزيل الثّواب، و يميّز الخبيث من الطّيّب، و الصّادق من الكاذب، و المخلص من المنافق...

٢- عن ابن عبّاس أيضاً: جنود السّموات، هي الملائكة، و جنود الأرض، هم المؤمنون يسلّطهم على من يشآء من أعدآئه... ٣- قيل: أي و للّٰه جنود السّموات و الأرض يدبّر أمرها كيفما يريد، فيسلّط بعضها على بعض تارة، و يوقع بينها السّلم تارة اخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم و المصالح... و من قضيّة ذلك ما وقع في الحديبيّة. و ذلك أنّ اللّٰه سبحانه هو الّذي دبّر أمر نظام الكون و نواميس الوجود، فسلّط جنوده على الأُمم للمقاتلة و المجاهدة، فهو الّذي دبّرها بعلمه و نظمها بحكمته، فالمؤمنون يجاهدون في سبيل اللّٰه و إحقاق الحقّ و إبطال الباطل، و الكافرون يقاتلون في سبيل الكفر و الطّغيان، و إفساد الحرث و النسل، و إحيآء الباطل، و قد دبّر جلّ وعلا ذلك ليعرف المؤمنون نعمة اللّٰه و يشكروا له فيدخلوا الجنّة، و يعذّب الكفّار و المنافقين لما ثبتوا على الباطل، فينال كلّ، نتيجة ما جناه، فيسلّط اللّٰه تعالى بعض جنوده على بعض كما سلّط كلّاً من المؤمنين و الكافرين على الآخر.

و قيل: أي يسلّط بعضها على بعض على ما يقتضيه علمه و حكمته، ومن قضيّته أنّه سكّن قلوب المؤمنين بصلح الحديبيّة، و وعدهم أن يفتح لهم مكّة ليعرف المؤمنين نعمة اللّٰه تعالى في ذلك و يشكروها فيثيبهم. ٤- قيل: أي و للّٰه جنود السّموات و الأرض أي أنصار دينه، ينتقم بهم ممّن يشآء من أعدآئه، و يغلب بهم المؤمنين على الكفّار و المشركين. ٥- قيل: جنود السّموات و الأرض ملائكتها و قواهما، و إنّ جميع الجنود عبيده تعالى فهو سبحانه قادر على تحقيق ما وعد المؤمنين به. ٦- قيل: جنود السّموات هي الملائكة، و جنود الأرض هي الثّقلان و الحيوان غير الإنسان، فلو أراد نصر دينه بغيركم لفعل.

٧- قيل: جنود السّموات و الأرض هم الملائكة. ٨- قيل: أي الرّياح. ٩- قيل: أي النّار. ١٠- قيل: أي المآء. ١١- قيل: اريد بجنودهما معنى أعم و هو الأسباب السّماويّة و الأرضيّة، فيدخل فيها الصّيحة و الرّجفة و الزّلازل و الحجارة حتّى الرّعب و الجبن و ما إليها من أسباب الضّعف و هزيمة الأعدآء، و أسباب القوّة و غلبة الأوليآء، فإنّ كلّ شيء هو من جنوده سبحانه كما أنّ كلّ شيء ملك للّٰه وحده لا شريك له. فكلّ شيء مسخّر له تعالى، و عامل بمشيئته.

فالسّكينة النّازلة في قلوب المؤمنين من جنود اللّٰه تعالى في داخل ذواتهم الّتي تطمئنّهم في الهزاهز و تقوّيهم و تغلبهم على أعدآءهم... كما أنّ الرّعب في قلوب الكفّار والمنافقين، و الفجّار و المستكبرين من جنوده جلّ وعلا في داخل ذواتهم الّتي تضطربهم و توجب هزيمتهم، فالكون كلّه ممّا يرى و ما لايرى جنود اللّٰه سبحانه، حيث إنّه كلّه مملوك للّٰه عزّوجلّ، مسخّر له سبحانه، و عاجز، تجاه قدرة اللّٰه تعالى، و ليس عجز ما سواه، عند قدرته بنقصان قدرتهم و قلّتها، مقابل قدرة اللّٰه سبحانه، و لا كمقابلة قدرة أحد بقدرة آخر بأن يعجز أحدهما لقلّة قدرته و عدم مقاومته، مقابل قدرة الآخر، بل من جهة سلب القدرة عن ما سواه، فعلى هذا أنّ جميع ما سواه جنود له جلّ وعلا.

فمن عارض بقدرته على اللّٰه سبحانه، يأخذ اللّٰه تعالى منه القدرة و يسلبها عنه، فلا يبقى منها شيء فيه حتّى يعارضه جلّ وعلا بها، و هكذا سائر قواه المادّيّة و المعنويّة والظّاهرة و الباطنة.

و قيل: إنّ جنود اللّٰه عزّوجلّ على قسمين: **أحدهما**- جنود ظاهرة مادّيّة من الإنسان و الحيوان و الجماد و المياه و النّيران و ما إليها من المادّيات... **ثانيهما**- جنود باطنة معنويّة خفيّة من الكهربآء و الميكروبات و العقول و الأجنّة و الملائكة و ما لا نراها... فالنّمل و الجراد و القمّل... جنود يهلك اللّٰه سبحانه بها الكفّار و المستكبرين، و يدفع بها شرّهم عن المؤمنين كما كان أبابيل جنداً أهلك اللّٰه تعالى بها أصحاب الفيل، و انّ الجند هو الجمع الغليظ من النّاس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله، و لذا أُطلِق على العسكر المجتمعين على إجرآء ما يأمر به أميرهم، و أنّ المراد من جنود السّموات و الأرض الأسباب الموجودة في نظام الكون و نواميس الوجود ممّا يرى و ما لايرى من الخلق، فهي وسآئط متخلّلة بين اللّٰه سبحانه و بين ما يريده من شيء تطيعه و لا تعصاه.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق.

و **في قوله عزّوجلّ:** «و كان اللّٰه عليماً حكيماً» أقوال: ١- قيل: أي و كان اللّٰه عليماً بأحواله، حكيماً فيما يريده. ٢- قيل: أي مبالغاً في العلم بجميع الأمور، حكيماً في تقديره و تدبيره تعالى. ٣- قيل: أي و لم يزل اللّٰه ذا علم بما هو كائن قبل كونه و ما خلقه، حكيماً في تدبيره.

٤- قيل: أي و كان اللّٰه عليماً بمصالح عباده و استعداد نفوسهم، حكيماً فيما قضاه و دبّره.

٥- عن ابن عبّاس: أي و كان اللّٰه عليماً بما صنع بك أيّها النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الفتح والمغفرة و الهدى و النّصرة، و من إنزال السّكينة في قلوب المؤمنين، حكيماً فيما صنع بك.

٦- قيل: أي و كان اللّٰه عليماً بخلقه، حكيماً في صنعه، فلم يزل متّصفاً بذلك، فكلّ أفعاله حكمة و صواب، فهو عليم بكلّ شيء، حكيم لا يأمر و لا يقضى إلّا بما فيه حكمة و صواب. ٧- قيل: أى و كان اللّٰه عليماً بالأشيآء كلّها قبل كونها، و عالماً بعد كونها، حكيماً فى أفعاله لأنّها كلّها محكمة و صواب. ٨- قيل: أي يعلم من ينصره بأيّ جند من جنوده ينصره، حكيماً، فينصر بعضهم بالعذاب و الغرق و الخسف و الهلاك، و ينصر بعضهم بثبات القلوب و طمأنينة النّفس و الوقار. ٩- قيل: أى و كان اللّٰه عليماً بمصالح عباده و استعداد نفوسهم، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّموات و لا في الأرض، و لا يأمر إلّا بما تقتضيه حكمته... ١٠- قيل: أى و كان اللّٰه عليماً قبل خلق الجنود و بعثهم و بعده، عليماً بضعف الإنسان، حكيماً في أمر الجنود بنصر الإنسان في حياته الإنسانيّة، و من حكمته تعالى أن يرسل جنوداً لكي يلتمس الإنسان نصره تعالى، فلا يستغله- لو كان مجرّد مشيئة إلهيّة- أنّه من الإنسان أو أنّ خلقه يتمنّع عن تحقيق أمره في نصره، فجنوده تجنّد على علمه و بحكمته « و ما هي إلّا ذكرى للبشر» المدّثّر: ٣١).

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتأمّل جيّداً.

٥- (ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّئاتهم و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن عبّاس: لمّا سمع المؤمنون المخلصون بكرامة اللّٰه لنبيّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول اللّٰه بما أعطاك اللّٰه من الفتح و المغفرة و الكرامة، فما لنا عند اللّٰه؟ فأنزل اللّٰه: «ليدخل المؤمنين» أي المخلصين من الرّجال «و المؤمنات»: المخلصات من النّسآء بساتين تجري من تحت أشجارها و مساكنها و غرفها أنهار الخمر

والمآء و العسل و اللّبن، مقيمين فيها لايموتون و لايخرجون منها، و يكفّر عنهم ذنوبهم في الدّنيا، و كان ذلك الّذي ذكرت للمؤمنين عند اللّٰه نجاة وافرة فازوا بالجنّة و ما فيها، و نجوا من النّار و ما فيها.

٢- قيل: إنّ الآية الكريمة تعليل آخر لقوله تعالى: «أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين» على المعنى كما أنّ قوله سبحانه: «ليزدادوا ايماناً» تعليل له بحسب اللفظ، كأنّه قيل: و قد خصّ عزّوجلّ المؤمنين بإنزال السّكينة و حرّم على غيرهم، ذلك ليزداد ايمان هؤلآء مع ايمانهم، و حقيقة ذلك أن يدخل هؤلآء الجنّة، و يعذّب اولئك، فيكون قوله: «ليدخل» بدلاً أو عطف بيان من قوله: «ليزدادوا».

٣- قيل: أي و إنّما دبّر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة اللّٰه و يشكروها، فيدخلوا الجنّة ماكثين فيها أبداً و ليكفّر عنهم سيّئات أعمالهم و يغطّيها و لايظهرها بالحسنات الّتي يعملونها، شكراً لربّهم على ما أنعم به عليهم، و كان ذلك ظفراً لهم بما كانوا يرجون و يسعون له، و نجاة ممّا كانوا يحذرونه من العذاب الأليم و هذا منتهى ما يرون من منفعة مجلوبة و مضرّة مدفوعة.

٤- قيل: أي ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، متجاوزاً لهم عن سيّئاتهم الّتي لو حوسبوا عليها، فلربما حجزتهم عن الجنّة أو عوّقت مسيرتهم إليها.

و قد قدّم إدخال المؤمنين و المؤمنات جنّات على تكفير السّيّئات- على خلاف الظّاهر الّذي يقضى بأن يكون تكفير السّيّئات أوّلاً ثمّ دخول الجنّة ثانياً إذ لا دخول للجنّة إلّا بعد تكفير السّيّئات- تنبيهاً إلى أنّ دخول الجنّة أمر مقضيّ به لكلّ مؤمن و مؤمنة، سوآء كان ذلك من دون العذاب أو بعد أن يستوفى العصاة من المؤمنين عذابهم، فهم جميعاً موعدون بالجنّة، و حسب المؤمن- أيّاً كان- أن يزحزح عن النّار و يدخل الجنّة كما قال تعالى: «فمن زحزح عن النّار و ادخل الجنّة فقد فاز» آل عمران: ١٨٥).

هذه هي القضية... أمّا تكفير السّيّئات فهو إلى رحمة اللّٰه تعالى، و هذا ما يشير إليه قوله سبحانه في ختام الآية: «و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً» أي كان دخول الجنّة

والقرب من اللّٰه و النّعيم برضوانه فوزاً عظيماً، أمّا تكفير السّيّئات و التـجاوز عـنها بالعفو و المغفرة، فذلك إلى حكمة اللّٰه و إلى مشيئته في عباده إن شآء غـفر و إن شآء حاسب و عاقب.

و قيل: قدّم إدخال الجنّات على تكفير السّيّئات لأنّ الإدخال هو الأصل المقدّم في المنزلة، و إن كان مؤخّراً في المنزل، و كان تكفير السّيّئات و إدخال الجنّات عند اللّٰه تعالى لهؤلآء المؤمنين المخلصين فوزاً عظيماً في حساب اللّٰه سبحانه، عظيماً في الحقّ، عظيماً في نفوس من ينالونه، عظيماً في الاولى، و عظيماً في الآخرة.

٥- قيل: أي إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر اللّٰه لك... و إنّا فتحنا لك فـتحاً مـبيناً ليدخل المؤمنين و المؤمنات بساتين تجري من تحتها أشجارها الأنهار مؤبّدين لايزول عنهم نعيمها، و يكفّر عنهم عقاب معاصيهم الّتي فعلوها في دار الدّنيا و كان ذلك عند اللّٰه ظفراً يعظم اللّٰه تعالى به قدره. و قيل: أي الظّفر و الصّلاح بما طلبوه من الثّـواب العظيم. ٦- قيل: أي فعل ما فعل و دبّر ما دبّر ليدخل المؤمنين و المؤمنات بساتين تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، و يغطّي سيّئاتهم و يسترها و لايظهرها و المراد يمحوها و لايؤاخذهم بها، و كان ذلك عند اللّٰه فوزاً عظيماً لأنّه منتهى رجاء المؤمن يجلب له النّفع و يدفع عنه الضّرّ.

٧- قيل: تقديره: أمر اللّٰه المؤمنين بالجهاد ليدخلهم جنّات... ف«ليدخل» مـتعلّق بمحذوف. و «كان ذلك» الإدخال و التكفير «عند اللّٰه فوزاً عظمياً» لأنّه منتهى ما يطلبه المؤمن من منفعة مجلوبة و مضرّة مدفوعة. ٨- قيل: أي إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لتشكر ربّك و تحمده على ذلك، فيغفرلك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر، و ليحمد ربّهم المؤمنون و المؤمنات باللّٰه و يشكروه على انعامه عليهم، فيدخلهم بذلك جنّات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها إلى غير نهاية، و ليكفّر عنهم سـيّئات أعـمالهم بـالحسنات الّـتي يعملونها شكراً منهم لرّبهم على ما قضى لهم و ما أنعم عليهم به، و كان ما وعدهم اللّٰه به من هذه العدة و ذلك إدخالهم جنّات تجري من تحتها الأنهار و تكفيره سيّئاتهم بحسنات أعمالهم الّتي يعملونها عند اللّٰه فوزاً عظيماً و ظفراً منهم بما كانوا يأملونه و يسعون له، و نجاة ممّا كانوا يحذرون من عذاب اللّٰه عظيماً.

۹- قيل: أي يدخلهم الجنّة و يغطّي سيّئاتهم و يسترها بأن لاتمرّ ببالهم و لا يذكرونها أصلاً لئلّا يخجلوا فيتكدّر صفو عيشهم، و كان ذلك الإدخال و التكفير عند اللّٰه فوزاً عظيماً لايقادر قدره لأنّه منتهى ما تمتدّ إليه أعناق الهمم من جلب نفع و دفع ضرّ. ۱۰- قيل: أي أنزل اللّٰه السّكينة ليزدادوا ايماناً، ثمّ تلك الزّيادة بسبب إدخالهم الجنّة، و كان ذلك الوعد من دخول مكّة و غفران الذّنوب عند اللّٰه نجاة من كلّ غمّ و ظفراً بكلّ مطلوب.

أقول: و الثّاني هو الأنسب بظاهر السّياق فتدبّر.

۶- (و يعذّب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظّآنّين باللّٰه ظنّ السّوء عليهم دآئرة السّوء و غضب اللّٰه عليهم و لعنهم و أعدّ لهم جهنّم و سآءت مصيراً)

في قوله تعالى: «و يعذّب المنافقين و المنافقات...» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي و ليعذّب اللّٰه المنافقين من الرّجال بايمانهم الكاذب، و المنافقات من النّسآء كذلك، و ليعذّب المشركين باللّٰه من الرّجال بشركهم، و المشركات من النّساء كذلك.

و المنافقون هم الّذين يظهرون الايمان و يتظاهرون به، و يبطنون الكفر، و النّفاق هو إظهار الايمان و إبطال الكفر، فكلّ نفاق هو إظهار خلاف الإبطان، و أصله من نافقآء اليربوع و هو أن يجعل لسربه بابين يظهر أحدهما و يخفي الآخر، فإذا أتى من الظّاهر خرج من الآخر، فالمنافق يقوى الباطل على الحقّ بالظّنّ له، و إلقآء خلافه لتضييعه الدّليل المؤدّى إليه. و المشركون هم الّذين يعبدون مع اللّٰه سبحانه غيره، و يدخل في زمرتهم جميع الكفّار...

۲- قيل: أي و ليعذّب اللّٰه المنافقين... لغيظهم من ذلك أي بفتح اللّٰه لك يا محمّد ما فتح لك من نصرك على مشركي مكّة، فيكبتوا لذلك و يحزنوا و يخيب رجآؤهم الّذي كانوا يرجون من رؤيتهم في أهل الايمان بك من الضّعف و الوهن و التّولّي عنك في عاجل الدّنيا و صليّ النّار و الخلود فيها في آجل الآخرة، و ليعذّب كذلك أيضاً

المشركين و المشركات الظّانّين باللّٰه أنّه لن ينصرك و أهل الايمان بك على أعدائك، و لن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به.

٣- قيل: أي و يعذّب المنافقين... بايصال الهموم إليهم بسبب علوّ كلمة اللّٰه تعالى على كلمة الكفر، و بما يشاهدون من ظهور الإسلام و قهر المخالفين من المنافقين و المشركين، و بتسليط اللّٰه تعالى نبيّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ عليهم قتلاً و أسراً و استرقاقاً، و في الآخرة بعذاب جهنّم. ٤- قيل: أي و ليعذّب المنافقين... بحكم البديهة و العدالة الإلهيّة في الدّنيا بالخزى و الفضيحة، و في الآخرة بالنّار و الذّلّة.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين من دون تناف بينه و بين سآئر الأقوال فتأمّل جيداً.

و في قوله سبحانه: «الظّانّين باللّٰه ظنّ السّوء» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: هذا وصف للمنافقين و المنافقات بأنّهم كانوا يظنّون أنّ اللّٰه لاينصر نبيّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و أصحابه المؤمنين و لايرجعهم إلى مكّة ظافرين، فاتحين إيّاها. ٢- قيل: إنّ هذا وصف لجميع الفريقين من المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات كلّهم فإنّهم يظنّون ظنّ الأمر السّوء الفاسد المذموم و هو أنّه تعالى لاينصر رسوله ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و المؤمنين على أعدآئهم، و لن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، و ذلك كان السّوء من ظنونهم الّتي ذكرها اللّٰه تعالى هنا.

٣- قيل: إنّ المراد بظنّ السّوء ما يعمّ ذلك و سآئر ظنونهم الفاسدة من الشّرك والنّفاق و الكفر و الفساد و غيرها... و السّوء عبارة عن ردائة الشّيء و فساده كما يقع الصّدق عبارة عن جودة الشّيء و صلاحه. ٤- قيل: هم الّذين أنكروا صلح الحديبيّة و اتّهموا رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ في الصّلح بأنّه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ أعطى الدّنيّة بدينه كعمر بن الخطّاب و أذنابه، و كانوا يظنّون أنّ رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ لن يرجع إلى المدينة و لا أحد من المؤمنين حين خرج ﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ من الحديبيّة، و أنّ المشركين الطّغاة يستأصلونهم كما قال اللّٰه تعالى: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً» الفتح: ١٢).

٥- قيل: أي كان المنافقون و المنافقات يظنّون باللّٰه ظنّ الفساد بأنّ اللّٰه سيخذل

رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أصحابه المؤمنين. ٦- قيل: أي كانوا يتوهّمون أنّ اللّٰه لاينصر رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالمؤمنين. و ذلك قبيح لايجوز وصف اللّٰه سبحانه بذلك. ٧- قيل: أي كانوا يظنّون أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ لن يعود إلى مولده مكّة أبداً. ٨- قيل: أي أنّهم ظنّوا أن لن يبعث اللّٰه أحداً.

٩- قيل: إنّ الظّانّين باللّٰه ظنّ السّوء وصف لفريق المنافقين و المشركين فهما مشتركان في ظنّ السّوء باللّٰه سبحانه، و إن اختلفت مراتب ظنّ السّوء حسب درجات الشّرك و النّفاق كما حصل من عمر بن الخطّاب في خطابه الخاطىء الهائج لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ في صلح الحديبيّة: «لِمَ تعطى الدّنيّة في ديننا»؟ و مقالته القبيحة له﴿صلى الله عليه وآله﴾: «أليس كنت تحدثنا أنّه سنأتي البيت و نطوفه»؟ و غيرهما من أقاويله الخاطئة الشّنيعة كلّها من ظنّ السّوء باللّٰه جلّ‌وعلا إذ خالف وعده تعالى و ظنّ السّوء برسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ أنّه أعطى الدّنيّة في دين اللّٰه؟!

أمِن مسلم من يقول: إنّ اللّٰه سبحانه بعث رسوله محمّداً﴿صلى الله عليه وآله﴾ يعطي الدّنيّة في دين اللّٰه؟!

و لا ريب أن قلب المؤمن حقّاً و قلب غيره من المشرك و الكافر و المنافق و الطّاغي متقابلان في الظّنّ باللّٰه تعالى حسب درجات الايمان و دركات اللايمان، حيث إنّ القلب المؤمن السّليم يتوقّع الخير و الصّلاح و السّعادة و الفلاح و الرّشد و النّجاة من اللّٰه تعالى في كلّ ظرف من الظّروف، لأنّه موصل النّيات و مربوط النّيّات باللّٰه جلّ‌وعلا، و فيض الخير لاينقطع من قبل اللّٰه تعالى، و أمّا القلب المقلوب غير المؤمن فمقطوع الصّلة باللّٰه سبحانه، يتوقّع الشّرّ منه إليه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و إلى المؤمنين به أيضاً من دون ثقة باللّٰه عزّوجلّ إذ لايناط له و لا نيّات صادقة تربطه باللّٰه تعالى.

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهرالسّياق، و على التّاسع أكثر المحقّقين فتأمّل جيداً.

و في قوله عزّوجلّ: «عليهم دائرة السّوء» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي على المنافقين منقلبة السّوء و عاقبة السّوء. ٢- قيل: أي على الفريقين: من المنافقين و المنافقات، و المشركين و المشركات الهزيمة والشّرّ، و الذّلّة و الهوان و العذاب في الدّنيا

والآخرة. ٣- قيل: أي ما يظنّونه و يتربّصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم و دائرة عليهم لا يتخطّاهم و هو القتل و الأسرو السّبي و الهلاك و الدّمار و الفساد و العذاب و النّار. والكلام إخبار عن وقوع السّوء بهم، و قضآء عليهم أى ليستضرّوا بدآئر السّوء الّتي تدور لتصيب من تصيب. فإنذار بأنّ السّوء كلّه يدور حولهم و يحيط بهم ما عاشوا و بعد موتهم...

و قيل: دعاء عليهم كقوله تعالى: «ويل للمكذّبين» و نحوه كثير في القرآن الكريم، وقد دعا تعالى عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنّون بالمؤمنين من الدّوائر و أحداث الزّمان... و لكن جآئت النّتيجة بعكس ما ظنّوا إذ نصر اللّه تعالى الحقّ و أهله، و نزلت الدّوآئر على رؤوس الشّرك و الطّغيان و الكفر و النّفاق... في الدّنيا بالقتل و السّبي و الأسر، و في الآخرة بالنّار و العذاب جزآء ظنّهم السّوء.

٤- قيل: أي يقع عليهم العذاب والهلاك. و الدّائرة هي الرّاجعة بخير أو شرّ. و قيل: من قرأ: «السّوء» بضمّ السّين فمعناه: دائرة العذاب، ومن قرأ بفتحها فالمراد: ما جعله للمؤمنين من قتلهم و غنيمة أموالهم و سبي أولادهم... إلاّ أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ضمّه من كلّ شيء، و المضموم جار مجرى الشّرّ الّذي هو نقيض الخير، يقال: أراد به السّوء و أراد به الخير، و لذلك أُضيف الظّنّ إلى المفتوح لكونه مذموماً، و كانت الدّآئرة محمودة، فكان حقّها أن لاتضاف إليه إلاّ على وجه التّأويل.

و الدّائرة في الأصل عبارة عن الخطر المحيط بالمركز ثمّ استعملت في الحادثة الواقعة بمن وقعت عليه إلاّ أنّ الغالب في استعمالها للمكروه، و إضافة الدّائرة إلى السّوء من إضافة العام إلى الخاص، فهي للبيان كخاتم فضّة، و المراد الإحاطة و الشّمول بحيث لا يتخطّاهم السّوء و لايتجاوزهم قطّ.

أقول: و على الثّالث أكثر المفسّرين.

و في قوله جلّ وعلا: «و غضب اللّه عليهم و لعنهم...» أقوال ١- عن ابن عبّاس: أي و سخط اللّه على المنافقين و طردهم من كلّ خير طرداً نزلوا به إلى نهاية الحضيض، و أعدّلهم جهنّم في الآخرة و بئس المصير صاروا إليه يوم القيامة. ٢- قيل: أي ونال اللّه

سبحانه هؤلاء الفريقين: المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات بغضب منه و أبعدهم فأقصاهم من رحمته، و أعدّلهم جهنّم يصلونها يوم القيامة و يجعلهم فيها لما فيها من أنواع العذاب، و سآئت جهنّم لهم منزلاً و مرجعاً يصيرون إليه.

٣- قيل: أي و غضب اللّٰه على المنافقين و المنافقات فيخصّ بهم لاترجى رحمته إذ أبعدهم عنها دائماً بحيث لايرجى قربه حتّى يعفو عنهم، و لذلك أعدّلهم جهنّم و سآئت مصيراً فإنّهم أسوأ حالاً- كما أنّهم أشدّ ضرراً و أكثر خطراً و أعظم جرماً- من الكفّار و المشركين والفجّار و المستكبرين إذ كانوا هم وحدهم يظنّون باللّٰه سبحانه ظنّ السّوء، و هذا أسوأ من الشّرك و الكفر، و لذلك يحيط بهم الغضب و اللّعن و نار جهنّم كدائرة السّوء الّتي يتربصونها لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين.

أقول: وعلى الثّاني أكثر المفسّرين.

٧- (إنّا ارسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي شاهداً على اُمّتك و مبشّراً للمؤمنين المطيعين، بالجنّة و نعيمها، و نذيراً على الكافرين الطّاغين و المنافقين المتمرّدين. بجهنّم و أنواع عذابها. ٢- قيل: أي شاهداً بنيّاتهم و عقيدتهم من الايمان و الكفر و من الإخلاص و النّفاق و أفعالهم من الطّاعة و الطّغيان، فتشهد عليهم بنفسك قبل موتك و بكتابك بعد موتك بما عملوا من قبول أوردّ، و من طاعة أو معصية، والمراد من هذه الشّهادة شهادة حمل في الدّنيا، و أدآء في الآخرة، و تبشّر للمؤمنين و المتّقين بالقرب من اللّٰه تعالى و جميل جزآئه، و تخوّف الكافرين و المنافقين بالغضب و اللعن من الله و أليم عقابه.

٣- قيل: أي إنّا أرسلناك أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ إلى كافّة النّاس شاهداً عليهم بما أجابوك فيما دعوتهم إليه ممّا أرسلتك به إليهم، و مبشّراً لهم بالجنّة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدّين القيّم، و نذيراً لهم من عذاب اللّٰه تعالى إن تولّوا و أعرضوا عمّا جئتهم به، و هذا وظيفتك و أمّا وظيفة النّاس فيا أيّها النّاس! إنّي أرسلت رسولاً إليكم لتؤمنوا...

قيل: و ذلك أنّ رسالة محمّد﴿ﷺ﴾ عالميّة خالدة إذ قال اللّه تعالى: «و ما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس بشيراً و نذيراً» سبأ: ٢٨) و قال: «قل يا أيّها النّاس إنّي رسول اللّه إليكم جميعاً» الأعراف: ١٥٨) فيشهد للّه تعالى عليهم برسالته، بقوله و عمله و تقريره، فإنّه بيّنة من ربّه، و هو بنفسه آية معجزة إلهيّة، كذلك و بقرآنه المبين، فقرآن محمّد و محمد القرآن آية واحدة و شاهدة واحدة بمظهرين، و قد كان خُلقه القرآن، و كلّه قرآن، لو قرأت صحيفة حياته و صفحة حركاته و سكناته، فقد قرأت القرآن كلّه، فإنّه القرآن كلّه، و إنّ القرآن هو﴿ﷺ﴾ كلّه... فيشهد للّه تعالى على المرسلين برسالاتهم، و على النّاس برسالته، و على أعمال النّاس صالحها و طالحها برقابته، يتلقّاها بما يلقيها إيّاه ربّه، ثمّ يلقيها يوم يقوم الأشهاد، فهو شهيد الشّهداء: شهادة مربعة رائعة في زواياها، كاملة في قضاياها، كافلة في مزاياها: «إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً» المزمّل: ١٥).

و يبشّر للمؤمنين الصّادقين برضوان من اللّه تعالى و بنصرهم على الكافرين و المنافقين في الحياة الدّنيا و الآخرة: «إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١) و يبشّر بكافّة الرّحمات الإلهيّة الموعودة للمؤمنين، و لكي يرغبوا إلى الايمان و صالح الأعمال بدليلي الشّهادة و البشارة و «ذلك لمن ألقى السّمع و هو شهيد».

و يخوّف الّذين يتخلّفون عنه﴿ﷺ﴾ تسييراً، أو يتباطئون، فتسريعاً، أو يستزيدون فاستزادة الايمان، و لكي تكمل هذه الرّسالة العالميّة السّامية في زوايا الشّهادة و البشارة و الإنذار، و في كلّ تتوفّر البراهين القاطعة الّتي تزوي عن زواياه كلّ شبهة و ريبة...

٤- عن قتادة: أى شاهداً على اُمّتك بالبلاغ و تبليغ الرّسالة و الدّعآءِ إلى إخلاص عبادته، و مبشّراً لمن آمن باللّه و أطاع رسوله﴿ﷺ﴾ بالجنّة، و نذيراً من النّار لمن كفر باللّه سبحانه و عصى رسوله﴿ﷺ﴾. ٥- قيل: أي إنّا أرسلناك مبيّناً لاُمّتك ما أرسلناك به إليهم.

٦- قيل: أي شاهداً على النّاس يوم القيامة أفعالهم الّتي فعلوها في الدّنيا، مبشّراًلهم في الدّنيا بالجنّة و نعيمها، و مخوّفاً لهم فيها من عمل سوء بالنّار. ٧- عن قتادة أيضاً: أي شاهداً على الأنبياء و المرسلين عليهم السّلام أنّهم قد أبلغوا رسالات ربّهم، و مبشّراً لأُمّتك بالثّواب على طاعتهم، و نذيراً لهم و للنّاس جميعاً بالعذاب على معصيتهم. ٨- قيل: أي إنّا أرسلناك شاهداً على الخلق بأنّك قد بلّغت رسالتك، و مبشّراً لمن أطاع اللّٰه تعالى بمرضاة اللّٰه و ثوابه، و مخوّفاً لمن عصى اللّٰه بغضب من اللّٰه و عذابه.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق، و قد سبق بعض الأقوال في نظير الآية الكريمة في سورة الأحزاب: ٤٥) فراجع.

٨- (لتؤمنوا باللّٰه و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً)

و قد اختلف الآرآء في الأفعال الأربعة، و في مرجع ضمير النّصب في الثّلاثة منها:

أمّا الأوّل: فالقراءة المشهورة هي بتاء الخطاب، و قرأ ابن مسعود و ابن جبير و ابن كثير و أبو جعفر و أبو عمرو بيآء الغيبة، و في القرائتين أقوال: ١- قيل إنّ الخطاب موجّه إلى المسلمين خاصّة، و لمّا كان خطابه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ منزلاً منزلة خطابهم، خاطبهم قائلاً: «لتؤمنوا باللّٰه و رسوله...» و المعنى: إنّا أرسلناك أيّها النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إليكم أيّها المسلمون لتكونوا فيما تفعلون و تتصرّفون المثل الأعلى ايماناً و إخلاصاً و علماً و عملاً، و بهذا وحده تعظّمون رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و تحفظون حرمته، و تسبّحون بحمد اللّٰه تعالى على الدّوام و في كلّ آن و حال.

٢- قيل:إنّ الخطاب لهذه الأُمّة المسلمة على تقدير: قل أيّها الرّسول ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لهم: إنّ اللّٰه أرسلني إليكم لتؤمنوا باللّٰه و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾... ٣- قيل: إنّ الخطاب موجّه إلى رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أُمّته كقوله تعالى: «يا أيّها النّبيّ إذا طلّقتم النّسآء...» الطّلاق: ١) و هو من باب التغليب، غلب فيه المخاطب على الغيب، فيفيد أنّ رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ مخاطب بالايمان برسالته كالأُمّة. ٤- قيل: إنّ الخطاب موجّه إلى النّاس كلّهم إلى يوم القيامة. ٥- قيل: بناءً على القراءة بياء الغيبة، فالنّاس كلّهم مأمورون بالايمان... والمعنى:

إنّا أرسلناك شاهداً إلى الخلق أجمعين ليؤمنوا باللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾... ٦- قيل: أي ليؤمن هؤلآء الكفّار و المشركون باللّٰه سبحانه.

أقول: و على الرّابع جمهور المحقّقين فتدبّر جيّداً.

و **أمّا الثّاني:** ففي مرجع ضمير النّصب في الأفعال الثّلاثة أقوال: ١- قيل: إنّ الضّمائر المنصوبة الثّلاثة كلّها عائدة إلى اللّٰه تعالى، فالتّعزير و التّوقير و التّسبيح كلّها راجعة إلى اللّٰه سبحانه. والمعنى: إنّا أرسلناك كذا و كذا إلى النّاس أجمعين ليؤمنوا باللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ و ينصروا اللّٰه تعالى بأيديهم و ألسنتهم و يعظّموه و يسبّحوه غداة و عشيّاً. ٢- قيل: إنّ بعضها عائد إلى اللّٰه جلّ وعلا و بعضها راجع إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فالتّعزير لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و هو في الوقت نفسه تعزير للّٰه سبحانه و نصر لرسوله﴿ﷺ﴾ و تأييد لدينه، و لكن إضافة هذا التّعزير لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ تكريم له لأنّه القآئم على دين اللّٰه و حامل راية الجهاد في سبيل اللّٰه، و يشهد لهذا قوله سبحانه: «فالّذين آمنوا به و عزّروه و نصروه و اتّبعوا النّور الّذي أُنزل معه اولئك هم المفلحون» الأعراف: ١٥٧) حيث إنّ الضّمائر في هذه الآية الكريمة كلّها عائدة إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من دون ريب، و القرآن المجيد يفسّر بعضه بعضاً.

و أمّا التّوقير فهو للّٰه تعالى و لرسوله﴿ﷺ﴾ و أمّا التّسبيح بكرة و أصيلاً فهو خالص للّٰه جلّ وعلا. فالتّعزير و التّوقير لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بالتّبع لأنّ الأصل في المكانة و الكلام هو اللّٰه جلّ وعلا، فترجع الضّمآئر الثّلاثة إلى اللّٰه بالأصالة، و يرجع ضميرا التّعزير و التّوقير إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بالتّبع لأنّه يحمل رسالة اللّٰه جلّ وعلا فيشملانه شمولاً ها مشيّاً على ضوء رسالة اللّٰه تعالى، و ضمير التّسبيح خاص باللّٰه جلّ وعلا.

٣- قيل: الضّميران في «تعزّروه و توقّروه» لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ حيث إنّ الضّمير يعود إلى الأقرب و هو رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و أمّا الضّمير في «تسبّحوه» فللّه تعالى لأنّ الكلام انتهى عند «توقّروه» ثمّ ابتدأ من جديد في فقرة «تسبّحوه» فالضّمير راجع إلى اللّٰه سبحانه، و أمّا القول بأنّ اختلاف الضّمائر المتّسقة يوجب الوهن فمردود بكثير من

الآيات القرآنيّة... ٤- قيل: إنّ الضّمائر كلّها راجعة إلى اللّه و دينه. ٥- قيل: إنّ الضّميرين في «تعزّروه و توقّروه» راجعان إلى رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أي تدعوه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالرّسالة و النّبوّة لا بالإسم و الكنية. ٦- قيل: إنّ الضّمآئر كلّها عائدة إلى اللّه تعالى والمعنى: تثبتوا له تعالى صحّة الرّبوبيّة، و تنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك، و تسبّحوا بحمده في كلّ آن.

أقول: وعلى الثّاني جمهور المحقّقين، و في معناه الثّالث و الخامس فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «و تعزّروه» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و الضّحّاك: تعزّروه من الإجلال و التّعظيم، فالمعنى: و تجلّوه. ٢- عن جابر بن عبداللّه و قتادة: أي و لتنصروه و تعزّزوه و تمنعوا منه، و منه التّعزير في الحدّ لأنّه مانع. ٣- عن عكرمة: أي تقاتلوا مع النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ المشركين بالسّيف. ٤- عن قتادة أيضاً و المبرّد و ابن زيد: أي تعظّموا اللّه تعالى بالطّاعة له. يقال: عزرت الرّجل: إذا كبّرته و عظّمته بلسانك. ٥- قيل: أيو تقوّوه تعالى بالنّصرة بتقوية دينه و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾. ٦- قيل: أي و تؤيّدوا رسالة رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و دينه. و قيل: أيو تؤيّدوا اللّه تعالى في إرسال رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إليكم. ٧- عن قتادة أيضاً و الحسن والكلبي: أي تعظّموا رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تفخّموه. و التّعزير هو التعظيم و التفخيم.

٨- عن ابن عبّاس أيضاً: أي تضربوا بين يدى رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالسّيف و تنصروه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالسّيف و اللسان على عدوّه. ٩- قرأ ابن عبّاس و محمّد بن اليماني: «و تعزّروه» بزآئين- من العزّة- أي و تجعلوه عزيزاً و ذلك بالنّسبة إلى اللّه تعالى بجعل دينه و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ عزيزاً. ١٠- قيل: أي تطيعوه ﴿صلى الله عليه و آله﴾. ١١- قيل: إنّ المراد بتعزير الله سبحانه تعزيز دينه و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾. ١٢- قيل: أي و ثبّتوا اللّه تعالى صحّة الرّبوبيّة. ١٣- قيل: أي تدعوا رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالرّسالة و النّبوّة لا بالإسم و الكنية.

١٤- قيل إنّ التّعزير- خلاف ما قبل- ليس هو مطلق النّصر إذ يقابله في آية النّصر: «و عزّروه و نصروه» الأعراف: ١٥٧) بل هو النّصر العزيز، خلاف النّصر غير العزيز، إذ قد يُنصر على ذلّ كما المؤمنون في جبهة بدر: « و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم

أذلّة» آل عمران: ١٢٣) و قد ينصر على عزّ و هو بحاجة إلى نصر كما أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ يُنصر: «و ينصرك الله نصراً عزيزاً» الفتح: ٣) و قد يُنصر على عزّته لا لحاجة إلى نصر كما أنّ الله يُنصر: «إن تنصروا الله ينصركم و يثبّت أقدامكم» محمّد﴿ﷺ﴾: ٧) فإنّه نصرة لدين الله، و ليس المنصور هو الله سبحانه، و النّصر لغير الله دوماً نصر مغلوب، عزيزاً أو ذليلاً: «فدعا ربّه أنّي مغلوب فانتصر» القمر: ١٠) و هو لله سبحانه نَصْرٌ غالب عزيز، فالتّعزير هو النّصر العزيز الغالب كما الله أو مغلوب كالمكرمين من عباد الله تعالى دون الذّليل، و مطلق النّصر يشمل النّصر الذّليل كما يشمل العزيز غالباً و مغلوباً.

أقول: و على السّابع و الثّالث عشر أكثر المفسّرين.

و في قوله تعالى: «و توقّروه» أقوال: ١- عن ابن عبّاس أي تعظّموا رسول الله﴿ﷺ﴾ لأنّ التّوقير هو الاحترام و التّعظيم. ٢- عن قتادة أي تفخموه﴿ﷺ﴾ و تشرّفوه ٣- قيل: أي تبجّلوه. ٤- قيل: أي تطيعوا الله تعالى كقوله سبحانه: «لاترجون لله وقاراً» نوح: ١٣). ٥- عن السّدي: أي تسوّدوا رسول الله﴿ﷺ﴾. ٦- قيل: التّوقير هو التّعظيم اللّائق بمقام العظيم: «ما لكم لاترجون لله وقاراً» نوح: ١٣) فتوقير الله هو تعظيمه كما يحقّ له في ساحة الألوهيّة، و توقير رسول الله﴿ﷺ﴾ تعظيمه على حدّه و حدود رسالته، فلو سوّيت بين الله جلّ وعلا و بين أحد من خلقه لما وقّرته، فإنّه ضلال مبين: «تالله إن كنّا لفي ضلال مبين إذ نسوّيكم بربّ العالمين» الشعراء: ٩٧-٩٨) و إن كان المسوى به رسول ربّ العالمين.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و في معناه بعض الأقوال الأُخر.

و في قوله سبحانه: «و تسبّحوه بكرة و أصيلاً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و تصلّوا لله وحده صباحاً و مساءاً. و قيل: أي و تصلّوا له تعالى بالغدوات و العشيات تطوّعاً. ٢- قيل: أي تنزّهوه بالتّسبيح غدوة و عشيّاً. ٣- قيل: أي و تذكروا الله تعالى في أعقاب الصّلاة. ٤- قيل: أي دائماً، و ذلك أنّ البكرة هي أوّل النّهار، و الأصيل هو آخر النّهار، و المراد جميع النّهار حيث إنّ من سنن العرب أن يذكروا طرف الشّيء، و

يريدوا جميعه كما يقال: شرقاً و غرباً لجميع الدّنيا. قيل: و من ثمّ- بعد الايمان باللّٰه و رسوله﴿ﷺ﴾ و تعزير اللّٰه و توقيره، يأتي دور دوار التّسبيح مراساً له ليل نهار بكلّ حراس و اكتراس: «و تسبّحوه بكرة و أصيلاً» لا خصوص البكرة و الأصيل، ثمّ إهمالاً في البين، إنّما توصيل الأصيل بالبكرة، و البكرة بالأصيل، أن يعيشوا حياتهم ليل نهار في تسبيح العزيز الغفّار، و أنّه يشمل تسبيح الصّلوات واجبات و مندوبات و سواها من تسبيحات كلّها... فالبكرة والأصيل كنايتان عن اليوم كلّه، لأنّ طرفي النّهار يضمّان مابينهما من آنات... اتّصالاً للقلب الإنساني باللّٰه جلّ وعلا، على كلّ حال، كثمرة نهائيّة للايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و هذه الحالة التجرّديّة الرّاقية هي الّتي تفتح طريقاً للسّالك إلى مبايعة الرّضوان: «إنّ الّذين يبايعونك...». ٥- عن ابن عبّاس أيضاً: أي صلاة الفجر و صلاة الظّهر و العصر. ٦- قيل: أي تنزّهوه من كلّ قبيح و سيّئة. ٧- قيل: هو فعل الصّلاة الّتي فيها التّسبيح. ٨- قيل: البكرة بين الطّلوعين، و الأصيل ما بعد العصر إلى المغرب. لقوله تعالى: «و سبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس و قبل الغروب»

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق فتأمّل جيّداً.

٩- (إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه يد اللّٰه فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه اللّٰه فسيؤتيه أجراً عظيماً)

في قوله تعالى: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه» في هذه المبايعة أقوال ١- عن ابن عبّاس و مجاهد و قتادة: هذه المبايعة هي بيعة الرّضوان يوم الحديبيّة كأنّهم يبايعون اللّٰه. ٢- قيل: هي بيعة ليلة العقبة الاولى. ٣- قيل: هي العقبة الثّانية، و قد بايع الأنصار فيها رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ على الايمان، و على أن يمنعوا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ممّا يمنعون منه نسآءهم و أبناءهم...

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين و هو المؤيّد بالرّوايات الكثيرة...

و في متعلّق المبايعة أقوال: ١- عن الحكم بن الأعرج: بايعوا أن لايفرّوا من قريش. ٢- قيل: بايعوا على الموت. ٣- قيل: أي اشترط عليهم أن لاينكروا بعد ذلك على

رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ شيئاً يفعله و لايخالفوه﴿ﷺ﴾ في شيء يأمرهم به و فيما ينهاهم عنه، و قد أنكر عمر بن الخطّاب و أذنابه على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و خالفوه﴿ﷺ﴾ فيما كان يأمرهم به و ما ينهاهم عنه بعد البيعة بمرّات... ورد كثير منها عن طريق العامّة في صحاحهم و مسانيدهم... ٤- عن عبادة بن الصّامت: بايعوا على السّمع و الطّاعة في النّشاط و الكسل، و على النّفقة في العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، و على أن يقولوا في اللّٰه: «لاتأخذنا في اللّٰه لومة لائم» و على أن ينصروه﴿ﷺ﴾ إذ قدم عليهم يثرب فيمنعوه ممّا يمنعون منه أنفسهم و أزواجهم و أبنآءهم...

٥- قيل: هذه المبايعة هي العهد الّذي قطعوه على أنفسهم أمام اللّٰه جلّ وعلا في البيعة على نصر دين اللّٰه و ما يستلزمه هذا من الثّقة و الرّضا بكلّ ما يلهمه و يوحى به إلى رسوله﴿ﷺ﴾ و الوقوف عنده و القيام بما أوجبه عليهم الكتاب الكريم و السّنّة الثّابتة من أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين من واجبات ايجابيّة و سلبيّة متنوّعة و عدم إهمالها و التقصير فيها أو نقضها و مخالفتها كالمعاقدة في البيع والشّرآء بما قد مضى، فلايجوز الرّجوع فيه.

فالمبايعة هنا عامّة تدخل فيها البيعة على الإسلام في كلّ ظرف من الظّروف إلى يوم القيامة كما تدخل فيها بيعة الرّضوان على القتال و الموت، فكلّ بيعة بين رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و الّذين استجابوا لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و دخلوا في دين اللّٰه يوم الدّين داخل في هذه المبايعة كما بايع الأنصار ببيعتي العقبة الاولى و الثّانية رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ على الايمان باللّٰه تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و الجهاد في سبيله بأموالهم و أنفسهم... و على أن يمنعوا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ممّا يمنعون منه نسآءهم و أبناءهم... فالمبايعة لاتختصّ بالمبايعين زمن رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فإنّها مبايعة اللّٰه جلّ وعلا فطالماً النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ يموت و لكنّ اللّٰه سبحانه حيّ لايموت، فبالإمكان تحقيق هذه البيعة، و تلك المبايعة منذ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ إلى يوم الدّين كما أنّ النّكث والوفاء يشملان طول الزّمن و عرضه، أرضه و سمآئه، جنّه و إنسه و ما إليها.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق من دون تناف بين الأقوال فتأمّل جيّداً و لاتغفل.

و في **قوله سبحانه:** «يد اللّٰه فوق أيديهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و الزّجّاج: أى يد اللّٰه بالثّواب و ما وعدهم على بيعتهم من الجزاء و النصرة فوق أيديهم بالصّدق والوفاء و التمام. ٢- قيل: أى يد اللّٰه سبحانه في المنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطّاعة. ٣- قيل: إنّ قوله تعالى: «يد اللّٰه فوق أيديهم» توكيد لهذه الحقيقة و هي أنّ البيعة للّٰه تعالى، و أنّ الّذين أُعطوا أيديهم مبايعين لرسول اللّٰه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ إنّما أُعطوا أيديهم للّٰه جلّ وعلا، و يد رسول اللّٰه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ الّتي صافحت هذه الأيدى المبايعة هي- من دون تشبيه- نيابة عن يداللّٰه سبحانه، و هذا كلّه من قبيل التّمثيل كما في قوله تعالى: «إنّ اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة- فاستبشروا ببيعكم الّذين بايعتم به» التوبة: ١١١) فالأمر في ظاهره ليس بيعاً و لا شراء و لكنّه في واقعه بيع ربيح... و قد نزّلت بيعة رسول اللّٰه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ منزلة بيعة اللّٰه سبحانه بدعوى أنّها هي، فما يواجهونه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ به من بذل الطّاعة لايواجهون إلّا اللّٰه تعالى، فإنّ طاعته ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ هى طاعة اللّٰه إذ قال: «من يطع الرّسول فقد أطاع اللّٰه» النساء: ٨٠) ثمّ أكّده بقوله: «يد اللّٰه فوق أيديهم» إذ جعل يده ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ يد نفسه سبحانه كما جعل رميه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ رمي نفسه في قوله: «و ما رميت إذ رميت و لكنّ اللّٰه رمى» الأنفال: ١٧) و في نسبة ماله ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ من الشّأن إلى نفسه سبحانه آيات كثير كقوله عزّوجلّ: «فإنّهم لايكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات اللّٰه يجحدون» الأنعام: ٣٣) و قوله: «ليس لك من الأمر شيء» آل عمران: ١٢٨)

٤- عن الكلبي: أي نعمة اللّٰه عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم، و هي مبايعتهم إيّاك و أعظم منها، و فيه شيء من قوله تعالى: «قل لاتمنّوا عليّ إسلامكم بل اللّٰه يمنّ عليكم...» الحجرات: ١٧).

و قيل: أي نعمة فيما امتنّ به عليهم من الإسلام فوق نعمتهم الانقياد له و الايمان به لأنّه عقيب قوله: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه يد اللّٰه فوق أيديهم» أى عقد اللّٰه في البيعة فوق عقدهم لأنّهم يبايعون اللّٰه ببيعة نبيّه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾. ٥- عن ابن كيسان: أي قوّة اللّٰه في نصر رسوله ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ فوق قوّتهم في نصرة رسول اللّٰه ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾. و المعنى ثِق أيّها النّبيّ الكريم ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ بنصرة اللّٰه لك لا بنصرة المبايعين معك و إن بايعوك. فالمعنى:

نصرته تعالى رسوله﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ أعلى و أقوى من نصرتهم إيّاه ﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ كما أنّ نصرته سبحانه إيّاهم أعلى و أقوى من نصرتهم إيّاه سبحانه في قوله تعالى: «إن تنصروا اللّٰه ينصركم» يقال: اليد لفلان أي الغلبة و النصرة و القوّة. و قيل: إنّ قدرة اللّٰه تعالى و غلبته و قهره و نصره أقوى من قدرتهم و غلبتهم على المشركين. ٦- قيل: أى يد اللّٰه تعالى ثابتة في هدايتهم فوق أيديهم بالطّاعة، و لو كان له سبحانه يد فوق أيديهم من جهة المكان لم يكن له في ذلك تشريف و لا تخصيص.

٧- قيل: اليد استعارة لنور قدرته جلّ وعلا القائم بصفة فضله، و لنورها القائم بصفة عدله. و اليد هي القدرة لقوله تعالى: «لما خلقت بيديّ» ص: ٧٥) و قوله: «السّمآء بنيناها بأيد» الذاريات: ٤٧) أى بقدرة و قوّة و قوله سبحانه: «ممّا عملت أيدينا» يس: ٧١) و «و أنّ الفضل بيد اللّٰه» الحديد: ٢٩) لأنّ المدح يتعلّق بالصّفات لا بالذّات والجواهر... فقدرة اللّٰه و قوّته فوق القوى و القدر كلّها. ٨- قيل: أى عقد الميثاق مع رسول اللّٰه﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ كعقده مع اللّٰه سبحانه من دون تفاوت بينهما، فيد رسول اللّٰه﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ في قد استها يد اللّٰه، و مبايعته على وجه العموم، هى مبايعة اللّٰه سبحانه، فيد رسول اللّٰه﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ فوق أيدى المبايعين حال بيعتهم رسول اللّٰه﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ إنّما هي بمنزلة يد اللّٰه جلّ وعلا لأنّهم في الحقيقة يبايعون اللّٰه سبحانه ببيعته﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ فكأن يد رسول اللّٰه﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ الّتي تعلو أيدي المبايعين، هي يد اللّٰه إذ هو سبحانه منزّه عن صفات الأجسام و الجوارح... و عن السّدي: أي عقد اللّٰه في هذه البيعة فوق عقدهم لأنّهم بايعوا اللّٰه سبحانه ببيعة رسوله﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ فكأنّهم بايعوه من دون واسطة.

٩- قيل: أي يد اللّٰه فوق أيديهم الّتي بايعوا بها رسول اللّٰه﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ أي هو تعالى مطّلع على مبايعتهم فيجازيهم عليها. ١٠- عن القفال: هو من قوله﴿صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾: «اليد العليا خير من اليد السّفلى» يريد بالعليا المعطية أي اللّٰه يعطيهم ما يكون له به الفضل عليهم.

١١- قيل: يد اللّٰه بمعنى الحفظ، فإنّ المتوسّط بين المتبايعين يضع يده فوق يدهما، فلا يترك أن تتفارق أيديهما حتّى يتمّ البيع، و المراد أنّ اللّٰه تعالى يحفظهم على بيعتهم. فاليد الاولى: «يد اللّٰه» كناية عن الحفظ المأخوذ من حال المتبايعين إذ أمدّ كلّ واحد منهما يده إلى صاحبه في البيع و الشّرآء، و بينهما ثالث متوسّط لا يريد أن يتفاسخا العقد من دون

إتمام البيع، فيضع يده فوق أيد المتبايعين مريداً لزوم البيع و عدم فسخه، و أنّ اللّٰه تعالى لمّا أمر بالبيعة، فكأنّه سبحانه وضع يده فوق أيد المؤمنين الّذين مدّوا أيديهم إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ للبيعة، فاليد كناية عن حفظ البيعة و العمل بمقتضاها وعدم نقضها، و الأيدى: «أيديهم» بمعنى الجارحة.

فالمعنى: إنّ الّذين يبايعونك على قتال قريش تحت الشّجرة إنّما هم يبايعون اللّٰه لأنّ مبايعتك هي مبايعة اللّٰه تعالى إذ كانت يد اللّٰه فوق أيديهم، فلا تغفلوا عن رعاية المبايعة و لاتنقضوها.

و قيل: المراد بذلك إمضآء تلك البيعة من اللّٰه سبحانه، و التأييد و الحكم بها فيحرم النّقض و يجب حفظها، و ليست من تلقاء نفس النّبيّ﴿ﷺ﴾ و الدّليل على ذلك قوله تعالى: «فمن نكث...». و قيل: قوله تعالى: «يد اللّٰه فوق أيديهم» كناية عن رضا اللّٰه سبحانه بهذه المبايعة و تحكيمه تعالى على ذلك لقوله: «لقد رضى اللّٰه عن المؤمنين إذ يبايعونك...» الفتح: ١٨) و انّ المبايعة على ضربين: ١- أحدهما- البيع المتقابل بين اثنين لابدّ له من مبايع، و مبايع له، و سلعة، و ثمن لها. و المبايعة هنا هي مبايعة شجرة الرّضوان في صلح الحديبيّة، و المبايعون هنا هم المؤمنون، و المبايع له هو رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بأمر اللّٰه جلّ وعلا فهو تعالى دافع الثّمن، و السّلعة هنا أنفس المؤمنين و أموالهم، والثّمن بأنّ لهم الجنّة: «إنّ اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة...» التوبة: ١١١) بل و فوق ذلك و هو رضا اللّٰه جلّ وعلا: «و من النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة اللّٰه...» البقرة: ٢٠٧).

ثانيهما- البيعة و هي نوع من الميثاق ببذل الطّاعة، و هي مأخودة من البيع بمعناه المعروف، فقد كان من دأبهم أنّهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري، فكأنّهم كانوا يمثّلون بذلك نقل الملك بنقل التّصرّفات الّتي يتحقّق معظمها باليد إلى المشتري بالتّصفيق، و بذلك سمّي التّصفيق عند بذل الطّاعة بيعة و مبايعة، و حقيقة معناه إعطآء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشآء.

و مبايعة المؤمنين تحت الشّجرة يوم الحديبيّة تضمّ كلا الضّربين من المبايعة حيث إنّ

المؤمنين باعوا أنفسهم و أموالهم للّٰه تعالى، إذ وضعوا أيديهم على يدى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأنّهم يبايعونه بأمر اللّٰه تعالى فما هو﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلّا رسول من اللّٰه جلّ وعلا، فإنّ «يد اللّٰه فوق أيديهم» يده كمشتر في هذه المبايعة و كمبايع له في هذه البيعة، فهي إذاً - يد المبايعة البيعة، إنجازاً للبيع و ايفآءً للبيعة من دون أن تكون هنا و لا هناك جارحة إلّا لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين في تمثيل البيعة، فكان المؤمنون يبايعون رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ تحت الشّجرة بأيدٍ من تحت للمبايعة و هي أيدى الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين، و قد كانت فوقها يد و هي الأصل في المبايعة: «يد اللّٰه فوق أيديهم» و ماكانت هي ثالثة تشاركهم في المبايعة بل تؤيّدهم و تنجزلهم: لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ قبولاً لها، و للمؤمنين إقبالاً إليها، فهي يد فوق الأيدي و لاتزال في كلّ مجال، و لكنّها في مجال البيعة مادام الوفاء و إلّا فيرفع يده فلا تأييد و لا يرضى: «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه...».

أقول: و على الثّالث جمهور المحقّقين، و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً واغتنم جدّاً.

و في قوله عزّوجلّ: «ومن أوفى بما عاهد عليه اللّٰه» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي و من أوفى بما عاهد عليه اللّٰه بعهده باللّٰه بالصّدق و الوفاء بهذه البيعة. ۲- قيل: أي و من أوفى في ايمانه. ۳- قيل: أي و من أوفى في طاعته.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق، فتأمّل جيّداً.

۱۱- (سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من اللّٰه شيئاً إن أرادبكم ضرّاً أو أرادبكم نفعاً بل كان اللّٰه بما تعملون خبيراً)

في قوله تعالى: «المخلّفون من الأعراب...» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس و مجاهد و ابن إسحق: لمّا أراد رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأمر اللّٰه تعالى الخروج إلى مكّة عام الحديبيّة وهي في ذي القعدة من سنة سادسة من الهجرة، أحرم بعمرة و ساق معه الهدي ليعلم أنّه لا يريد حرباً في هذا السّفر، و دعا الأعراب الّذين كانوا حول المدينة إلى الخروج

معه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و هم من بني غِفار و أسلم و أشجع و الدّئل، و جماعة من جُهَيْنَة و مُزَيْنة، و لم يكن الايمان تمكّن في قلوبهم بعد، فقعدوا عن رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و تثاقلوا و تخلّفوا واعتلّوا بأنّ أموالهم و أهليهم قد شغلتهم، فأخبر اللّٰه تعالى رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ بذلك و أعلمه بقولهم و اعتذارهم قبل أن يصل إليهم فكان كذلك.

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه: «و المخلف هو المتروك في المكان، خلف الخارجين عن البلد، و هو مشتقّ من المتخلّف، و ضدّه المتقدّم. تقول: خلّفته كما تقول: قدّمته تقديماً، و إنّما تخلّفوا لتثاقلهم عن الجهاد، و إن اعتذروا بشغل الأموال و الأولاد. والأعراب: الجماعة من عرب البادية، و عرب الحاضرة ليسوا بأعراب، ففرّقوا بينهما و إن كان اللسان واحداً» إنتهى كلامه.

و قيل: قال اللّٰه تعالى: «المخلّفون» لأنّه سبحانه خلّفهم عن صحبة نبيّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ والمخلّف: المتروك.

و قيل: سمّوا مخلّفين لأنّ التّوفيق خلّفهم و لم يعتدّبهم. و في السّير: إنّ جماعات من مُزَيْنَة و أشجع و فدوا على رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و أسلموا في السّنة الخامسة من الهجرة.

و قد تخلّف هؤلآء الأعراب المسلمون من أهل البادية لتثاقلهم عن الجهاد و لضعف العقيدة و الايمان، و خوفهم عن مقاتلة عدد عظيم من قريش و ثقيف و كنانة و القبآئل المجاورين مكّة و هم الأحابيش، إن صدّوهم أو يعرضوا له﴿صلی الله علیه و آله﴾ بحرب، و إنّهم و إن اعتذروا بشغل الأموال و الأولاد و لكنّهم كانوا يقولون: كيف نذهب معه﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلى قوم قد غزوه بالأمس في عقر داره بالمدينة، و قتلوا أصحابه، فنقاتلهم اليوم بهذا العدد من المسلمين الّذين لايتجاوز عددهم ألفاً، و أن ندخل عليهم ديارهم و نطئوا بلدهم؟! و يقولون: لن يرجع محمّد﴿صلی الله علیه و آله﴾ و لا أحد من أصحابه من هذا السّفر!

فلمّا سار رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ مسيرته بأصحابه الّذين استجابوا له و تمّ صلح الحديبيّة بينه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و بين قريش، و أخذ النّبيّ الكريم﴿صلی الله علیه و آله﴾ و بأصحابه طريقه إلى المدينة، و فتح اللّٰه تعالى له﴿صلی الله علیه و آله﴾ خيبر بيد عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ من دون قتال، أخذ هؤلاء المخلّفون من الأعراب يدبّرون أمرهم، و يُعدّون المقولات الّتي يلقون بها

رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المعاذير الّتي يعتذرون بها إليه عند رجوعه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة، و لكنّ اللّٰه تعالى فضحهم و أخبر رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمقالتهم الكاذبة و معاذيرهم الباطلة قبل أن يصل﴿صلى الله عليه و آله﴾ إليهم فقال: سيقول لك الأعراب الّذين لم يخرجوا معك في سفرة مكّة هذه معتذرين إنّهم يقولون لك إذ انصرفت إليهم فعاتبتهم على التخلّف عنك: «شغلتنا أموالنا و أهلونا» عن الخروج معك، إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظ ذلك، و يحميه عن الضّياع، فاستغفر أيّها الرّسول لنا في قعودنا عنك، فكذّبهم اللّٰه سبحانه فقال: «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» كذّبهم في اعتذارهم بما أخبر عن ضمآئر و أسرارهم...

كذّبهم في جميع ما اعتذروا به وسئلوه، فما كان الشّاغل لهم هو شغل الأموال و الأهلين، و لاأنّهم يهتمّون باستغفاره﴿صلى الله عليه و آله﴾ و إنّما سئلوه ليكون ذلك جنّة يصرفون بها العتاب و التّوبيخ عن أنفسهم، و إنّما السّبب الّذي أمسك بهم عن الاستجابة لدعوة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ هو ما وقع في نفوسهم و هو ظنّهم السّوء و شبح الخطر الّذي يترصّد كلّ من يسير هذه المسيرة و يدخل على قريش ديارها...

٢- عن جويبر: لمّا انصرف رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الحديبيّة و سار إلى خيبر تخلّف عنه أُناس من الأعراب، فلحقوا بأهاليهم فلمّا بلغهم أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد افتتح خيبر ساروا إليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ معتذرين بأنّ الأموال و الأهلين قد شغلتهم عن الاستجابة لدعوة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى فتح خيبر و لكن اللّٰه أمر رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن لايعطى أحداً تخلّف عنه من مغنم خيبر، و يقسّم مغنمها من شهد الفتح. و قيل: لمّارجع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة من الحديبيّة غزا خيبر، فاستأذنه المخلّفون معتذرين فقال اللّٰه تعالى: «سيقول لك المخلّفون- إلى قوله- يعذّبكم عذاباً أليماً» ثمّ رخّص تعالى في الجهاد فقال: «ليس على الأعمى حرج...».

٣- قيل: كانت الأعراب المتخلّفون مشركين و منافقين من أهل المدينة، و ذلك أنّ الآية الكريمة و تاليها من الآيات متّصلة بسياق آيات السّورة و موضوعها الرّئيسي، و محتوية على صورة من صور أحداث سفرة الحديبيّة من جهة، و صورة من صور

الأعراب من أهل المدينة و حولها و مواقفهم من جهة اخرى و صورة لما كـان تـظنّه الأعراب من مصير السّفرة و هلاك رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و الّذين خرجوا معه من جهة ثالثة، و كان يُشارك الأعراب في الصّورة الأخيرة المشركون و المنافقون أيضاً على ما تلهمنا الآية السّادسة من السّورة.

٤- قيل: كانت هؤلآء الأعراب المخلّفون مسلمين و غير المسلمين من أهل المدينة و حولها.

٥- قيل: كانوا هم غير مسلمين، و ذلك أنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لمّا أراد سفرة مكّة دعاهم أن ينفروا معه حتّى تعلم قريش أنّه﴿ﷺ﴾ جآء زآئراً بـدليل اشـتراك غـير المسلمين معه في الزّيارة، و لكنّه مردود بطلب استغفارهم من رسول اللّه﴿ﷺ﴾ حيث إنّ طلب الاستغفار دليل على أنّهم كانوا يرون التخلّف عن دعوة رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ذنباً.

٦- قيل: كانوا هؤلآء المتروكون في منازلهم خلف الخارجين المجاهدين، منافقين من أهل البوادي غير الحاضرين و لا المحتضرين، و هم الّـذين قـال اللّـه تـعالى فـيهم: «الأعراب أشدّ كفراً و نفاقاً و أجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله» التّوبة: ٩٧).

٧- قيل: كان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يحبّ أن يكون معه في هذه العمرة أكبر عدد من المسلمين، فدعاهم إليها ليكون في ذلك ما يرهب قريشاً، فلا تـعترض سـبيل النّـبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ والمسلمين لزيارة بيت اللّه الحرام، فتخلّف عنه قوم مـن الأعـراب، و آخرون من المنافقين و تعلّلوا كذباً و نفاقاً بتدبير الأهل والأموال و المعيشة، و لمّا عاد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى المدينة طلبوا الصّفح، و لكنّهم يقولون بألسـنتهم مـا ليس في قلوبهم إذ لا شيء في قلوبهم كي يعبّروا عنه، بل كانوا يتقلّبون تبعاً للمنافع و المطامع.

أقول: إنّ سياق آيات هذه السّورة و غيرها تأبى عن تخصيص الأعـراب بأهـل البوادى فتدبّر جيّداً و لاتغفل.

۱۲-(بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء و كنتم قوماً بوراً)

في قوله تعالى: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً» أقوال:
١- قيل: خطاب لهؤلآء المخلّفين عن الحديبيّة فيما مضى. ٢- قيل: خطاب للمتخلّفين عن خيبر، و ذلك أنّ رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ لمّا رجع بعد صلح الحديبيّة إلى المدينة أراد فتح خيبر تخلّف عنه﴿صلی الله علیه و آله﴾ بعض الصّحابة ظنّاً منهم أنّ الرّسول﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبداً، و قد فتح اللّه تعالى له﴿صلی الله علیه و آله﴾ خيبر بيد عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ من غير قتال، و قد أخذ المخلّفون من الأعراب يدبّرون أمرهم، و يعدّون المقولات الّتي يلقون بها النّبيّ الكريم﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المعاذير الّتي يعتذرون بها إليه﴿صلی الله علیه و آله﴾ عند رجوعه إلى المدينة.

٣- قيل: خطاب للمخلّفين من الأعراب عن فتح مكة فيما يأتي في السّنة الثّامنة من الهجرة، و قد ظنّوا أن لايعود رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنون إلى المدينة أبداً. و قيل: تخلّف بعض المخلّفين عن بعض هذه الثّلاثة، و بعض الآخرين تخلّفوا عن الكلّ.

أقول: و على الأوّل جمهور المفسّرين، و اتّصال السّياق يؤيّده.

و في قوله سبحانه: «و زيّن ذلك في قلوبكم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي استقرّ ذلك الظّنّ المفهوم من «ظننتم» في قلوبكم، فلم تسعوا في إزالته، فتمكّن فيكم فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين برسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين. ٢- قيل: إنّ نائب الفاعل في «زيّن» هو مقول القول في قوله تعالى: «سيقول لك المخلّفون...» و هو قولهم: «شغلتنا أموالنا و أهلونا». ٣- قيل: أي زُيِّنَ ذلك المظنون و هو عدم انقلاب رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين إلى أهليهم أبداً أي حُسِّنَ ذلك في قلوبكم فأحببتموه. و المراد من ذلك تقريعهم ببغضهم رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين.

٤- قيل: أي زيّن الشّيطان ذلك الظّن و هو الشكّ و النّفاق في قلوبكم و حسّنه فيها و سوّله لكم، و صحّحه عندكم، حتّى حسّن التخلّف عن رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ فقعدتم عن صحبته، و ظننتم ظن السّوء: أنّ اللّه تعالى لن ينصر رسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و المؤمنين على

أعدآئهم، بل سيقهر المشركون رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين و يغلبونهم فيستأصلون بالقتل و الاسر، فلايرجعون إليكم أبداً. ٥- قيل: أي تمكّن اللّٰه سبحانه عدم انقلاب الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين إلى أهليهم في قلوبكم. ٦- قيل: أي زيّن الشّيطان ذلك الظّنّ في قلوبكم، فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظّنّ المزيّن، و هو أن تتخلّفوا و لاتخرجوا حذراً من أن تهلكوا و تبيدوا، فالشّيطان هو الّذي يزيّن العقائد الباطلة و الأعمال الفاسدة والأقوال الكاسدة، في قلوب ذويها، فيصدّهم عن سبيل اللّٰه جلّ وعلا، ثمّ اللّٰه سبحانه يتركهم في غيّهم يتردّدون و في طغيانهم يعمهون و يسمّى تركه تعالى لهم في تلك المهالك تزييناً منه: «إنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون» النمل: ٤)

و في الحقّ لم يزيّنها لهم إلّا كفرهم و زيغهم: «فلمّا زاغوا أزاغ اللّٰه قلوبهم» الصّفّ: ٥) ثمّ تركهم و الشّيطان يزيّن له أعمالم: «و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين» الزّخرف: ٣٦) ففاعل الظّنّ السّوء هو أنفسهم بكفرهم، و المزيّن له ظنّهم هو الشّيطان القرين لهم بما عاشوا كفراً و عشوا عن ذكر الرّحمن، و هو اللّٰه تعالى بما لم يحل بينهم، و بين الشّيطان أن يزيّن لهم، و أن تركهم في طغيانهم يعمهون.

أقول: و الأوّل هو المؤيّد بظاهر السّياق و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «و ظننتم ظنّ السّوء» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و ظننتم أنّ اللّٰه لاينجز و عده و لاينصر رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين و لايظهر دينه. ٢- قيل: أي و ظننتم ظنّ السّوء في هلاك رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المؤمنين، و أنّ اللّٰه ينصر عليهم أعدآئهم المشركين. ٣- قيل: أي و ظننتم أنّ اللّٰه يُخلِف وعده إذا قلتم: إنّ محمّداً و أصحابه أَكَلَةُ رأس يريدون بذلك قلّتهم (قليلو العدد) فلايرجعون إلى أهليهم، فأين تذهبون معهم! انظروا ما يكون من أمرهم!. ٤- قيل: أي ظننتم أن لن ينقلب الرّسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، و هذا هو ظنّ السّوء.

أقول: و التّعميم غير بعيد فتدبّر.

و في قوله جلّ وعلا: «قوماً بوراً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي قوماً هلكى، فاسدة القلوب، قاسية القلوب. و المعنى: كنتم هلكى بظنّكم السّوء و ذنوبكم. و البور: جمع بائر كعائذ و عوذ. ٢- قيل: البور مصدر بار يبور كالهُلك مصدر هلك، و لذلك وُصِفَ به الواحد و الجمع و المذكّر والمؤنّث. و المعنى: كنتم قوماً فاسدين في أنفسكم و قلوبكم و نيّاتكم، و هالكين عند اللّه لا خير فيكم، و مستوجبين لسخطه و عقابه بهذا الظّنّ السّوء. ٣- عن مجاهد و قتادة و ابن زيد: البور هو الّذي ليس فيه من الخير شيء. و البور: الرّجل الفاسد الهالك الّذي لا خير فيه. و المعنى: كنتم قوماً فاسدين هلكى لاتصلحون لشيء من الخير في الحياة الدّنيا و لا في الدّار الآخرة.

٤- عن أبي الدّرداء: أي ذاهباً قد صار باطلاً لا شيء منه. ٥- عن ابن بحر: أى قوماً أشراراً. ٦- قيل: أي قوماً هالكين لفساد عقيدتكم و سوء نيّتكم، مستوجبين سخطه و عقابه. ٧- قيل: أي صرتم بسبب ذلك الظّنّ الفاسد قوماً هالكين، مستوجبين الغضب واللّعن و العذاب. ٨- قيل: أي كنتم قبل الظّنّ فاسدين. ٩- قيل: أى قوماً فاسدين بأخلاقكم. ١٠- قيل: أى قوم سوء استنفرهم رسول اللّه ﴿صلّى اللّه عليه وآله﴾ عام الحديبيّة في السّنة السّادسة من الهجرة. ١١- قيل: البور: الفاسد و المهدوم و الباطل الّذي لا أثر له. والمعنى: كنتم قوماً فاسدين باطلين مهدومين لا أثر لوجودكم في الحياة الدّنيا.

أقول: و الثّالث هو الأنسب بمعناه اللغوى من دون تناف بينه و بين سائر الأقوال على أنّها من المصاديق و لوازم المعنى فتأمّل جيّداً.

١٥- (سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام اللّه قل لن تتّبعونا كذلكم قال اللّه من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلّا قليلاً)

في قوله تعالى: «سيقول المخلّفون» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: هم الّذين خلّفوا عن صحبة رسول اللّه ﴿صلّى اللّه عليه وآله﴾ في سفرة الحديبيّة، و هم بنو غِفار و أسلم و أشجع و قوم من مُزينة و جُهينة و ديل. فالمراد بالمخلّفين هنا نفس المنافقين من الأعراب الّذين تخلّفوا عن

رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ حين دعاهم إلى الذّهاب معه لعمرة الحديبيّة سنة ستّ أو خمس على الاختلاف في الرّوايات، و تعلّلوا بالأكاذيب و لمّا رجع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بعد صلح الحديبيّة إلى المدينة، و سمع هؤلآء المنافقون أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنون سيغزون غزوة و يرزقون الفتح و يصيبون مغانم و تلك غزوة خيبر، و اجتاز رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنون إليه، أسرع إليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ المنافقون يريدون الخروج معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قد تخلّفوا عن الحديبيّة فراراً من العزم، و تهافتوا على خيبر طمعاً في الغنم، فأمر اللّٰه تعالى نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن يتركهم كما أنّهم تركوا الذّهاب إلى عمرة الحديبيّة سوآء بسوآء.

و ذلك أنّ اللام في «المخلّفين» للعهد، و أنّ السّين في «سيقول» تدلّ على القرب، و قد كانت خيبر أقرب المغانم الّتي انطلقوا إليها من الحديبيّة كما علمت، فالمراد بالمخلّفين هنا هم المخلّفون هناك.

٢- عن جويبر أنّه قال: لمّا انصرف رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الحديبيّة، و سار إلى خيبر تخلّف عنه أُناس من الأعراب الّذين شهدوا الحديبيّة، فلحقوا بأهليهم، فلمّا بلغهم أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد فتح خيبر ساروا إليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قد كان اللّٰه تعالى أمر نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن لايعطى أحداً تخلّف عنه من مغنم خيبر و يقسّم مغنمها من شهد الفتح، و ذلك قوله سبحانه: «يُريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه» يعنى ما أمر اللّٰه نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن لايعطي أحداً تخلّف عنه من مغانم خيبر شيئاً. فهؤلآء المخلّفون ممّن شهدوا الحديبيّة و لكنّهم تخلّفوا عن خيبر، فهم غير اولئك المخلّفين الّذين تخلّفوا عن سفرة الحديبيّة.

٣- قيل: إنّ اللّٰه سبحانه لمّا وعد أصحاب الحديبيّة غنآئم خيبر، و سمع ذلك المنافقون الّذين كانوا بالمدينة غير هؤلآء المنافقين المخلّفين من الأعراب الّذين تخلّفوا عن الذّهاب إلى سفرة الحديبيّة، و لا الّذين تخلّفوا عن غزوة خيبر، فقالوا للمؤمنين: «ذرونا نتّبعكم» أي أجيزونا أن نكون معكم في غزوة خيبر حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم لأنّهم كانوا يرون ضعف العدوّ و يتحقّقون النّصرة، فمنعهم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لأنّ اللّٰه تعالى أمره أن لايخرج إلى خيبر إلّا أهل الحديبيّة، فهم لا من هؤلآء و لا من هؤلآء بل مذبذبين بين ذلك يترصّدون الفرصة على ما كانت حالتهم في كلّ ظرف من

الظّروف من رغبة الابتعاد و الاختفاء حين الخطر و رغبة الإقبال و الإبراز حين تكون المغانم و السّلامة مضمونة.

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين، و هو الأنسب بظاهر السّياق، و اللّٰه تبارك و تعالى هو أعلم.

و في قوله سبحانه: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و ابن زيد: أي يريدون أن يبدّلوا مواعيد اللّٰه تعالى لأهل الحديبيّة إذ وعدهم أنّ غنيمة خيبر لهم خاصّة، بعد فتحه كما سيجيىء في قوله تعالى: «وعدكم اللّٰه مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين» الفتح: ٢٠) فأرادوا تغيير ذلك بأن يشاركهم فيها، فمنعهم اللّٰه من ذلك. و ذلك أنّ اللّٰه تعالى وعد بمغانم خيبر الّذين شهدوا الحديبيّة خاصّة عوضاً عن غنآئم أهل مكّة إذ انصرفوا عنهم على صلح، و لم يصيبوا منهم شيئاً، و إنّ اللّٰه سبحانه قد أمر رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن لا يسير معه إلى خيبر غيرهم. و الزّحف على خيبر قد وقع بعد العودة من الحديبيّة بشهرين، و في رواية بخمسة أشهر.

و قيل: إنّ اللّٰه تعالى وعد أهل الحديبيّة قبل رجوعهم إلى المدينة، فتح خيبر و أنّ غنائمها لهم خاصّة مَن غاب منهم و من حضر بدلاً من تعب السّفر في العمرة الّتي صدّهم عنها المشركون، وإن حضرها من غيرهم من النّاس، و لم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد اللّٰه، فقسّم له رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ كسهم من حضر. و عن ابن إسحق: و كان المتولّي للقسمة بخيبر جبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة و زيد بن ثابت من بني النّجّار، كانا حاسبين قاسمين».

٢- عن ابن عبّاس و ابن زيد أيضاً و الزّجّاج و الجبائى: إنّ المراد بكلام اللّٰه هو قوله تعالى: «لن تخرجوا معي أبداً و لن تقاتلوا معي عدوّاً» التّوبة: ٨٣).

في التّبيان: قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه: «و هذا غلط لأنّ هذه الآية (آية التّوبة) نزلت في الّذين تأخّروا عن تبوك بعد خيبر، و بعد فتح مكّة، فقال اللّٰه تعالى لهم: «لن تخرجوا معي أبداً» لأنّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لم يخرج بعد ذلك في قتال و لا غزو إلى أن قبضه اللّٰه

تعالى، ثمّ قال: «كذلكم قال اللّٰه من قبل» أي مثل ذلك حكم اللّٰه. و قال ابن زيد: غنيمة خيبر لأهل الحديبيّة خاصّة لايشركهم فيها أحد» انتهى كلامه.

و في المجمع: و قال الجبائي أراد بقوله: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه» قوله سبحانه: «قل لن تخرجوا معي أبداً و لن تقاتلوا معي أبداً» و قال الشّيخ الطّبرسي المازندراني رحمة اللّٰه تعالى عليه: «و هذا غلط فاحش لأنّ هذه السّورة نزلت بعد الانصراف من الحديبيّة في سنة ستّ من الهجرة، و تلك الآية (آيةالتّوبة) نزلت في الّذين تخلّفوا عن تبوك، و كانت غزوة تبوك بعد فتح مكّة و بعد غزوة حنين والطّائف، و رجوع النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ منها إلى المدينة و مقامه بين ذي الحجّة إلى رجب، ثمّ تهيّأ في رجب للخروج إلى تبوك، و كان منصرفه من تبوك في بقيّة رمضان من سنة تسع من الهجرة و لم يخرج﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد ذلك لقتال و لا غزو إلى أن قبضه اللّٰه تعالى فكيف تكون هذه الآية مراده بقوله: «كلام اللّٰه» و قد نزلت بعده بأربع سنين، لولا أنّ العصبيّة ترين على القلوب» انتهى كلامه.

و قال بعضهم: كانت غزوة تبوك يوم الخميس في رجب سنة تسع بلا خلاف، و قد نزل قوله تعالى: «فإن رجعك اللّٰه إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً...» التّوبة: ۸۳) عند انصراف رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من تبوك، و عنى به الّذين تخلّفوا عنه حين توجّه إلى تبوك لغزو الرّوم. و كانت الحديبيّة في سنة ستّ، و هذه الآية: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه» نزلت بعد الانصراف من الحديبيّة.

و قال بعضهم: لعلّ القائل بذلك أراد أنّ هؤلآء المخلّفين لما كانوا منافقين مثل المخلّفين عن تبوك كان حكم اللّٰه تعالى فيهم واحداً ألاترى أنّ المعنى الموجب مشترك و هو رضاهم بالقعود أوّل مرّة، فكلام اللّٰه تعالى اريد به حكمه السّابق و هو أنّ المنافق لا يستصحب في الغزو لم يرد أنّ هذا الحكم منقاس على ذلك الأصل، أو الآية نازلة فيهم أيضاً، فهذا ما يمكن في تصحيحه.

و أجاب بعضهم: بأنّ قوله تعالى: «سيقول المخلّفون» نزلت في غزوة تبوك أيضاً.

۳- قيل: إنّ جملتي: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه» و «كذلكم قال اللّٰه من قبل»

تعطفان على آيات وردت في سورة التّوبة في حقّ المتخلّفين و هي: «فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول اللّٰه- إلى قوله- إنّكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة فاقعدوا مع الخالفين» التّوبة: ٨١-٨٣) و هذا كالسّابق بعيد لأنّ آيات التّوبة نزلت في ظروف غزوة تبوك في السّنة التّاسعة من الهجرة على ما هو متّفق عليه.

٤- قيل: إنّ المراد بتبديل كلام اللّٰه هو الشّركة في المغانم دون أن ينصروا دين اللّٰه و يعلوا كلمته.

٥- عن مقاتل: أي يريدون أن يبدّلوا أمر اللّٰه لنبيّه(صلّى اللّه عليه و آله) أن لا يسير معه(صلّى اللّه عليه و آله) منهم أحد.

٦- قيل: كلام اللّٰه هو حكمه تعالى و قضاؤه و هو أن تكون المغانم من حظّ المجاهدين لا اولئك الّذين يتصيدون الفرص لتقع إلى أيديهم الغنائم من دون قتال، و هؤلاء المخلّفون لا يخرجون مع المجاهدين إلّا إذا كان الخروج إلى مغانم من غير قتال، و هذا من شأنه - لو حدث و لن يحدث- أن يبدّل حكم اللّٰه الّذي جعل الغنائم للمجاهدين الّذين بايعوا رسول اللّٰه(صلّى اللّه عليه و آله) في الحديبيّة وحدهم.

٧- عن ابن جريج: أي يريدون أن يبدّلوا كتاب اللّٰه إذ كانوا يبطئون المسلمين عن الجهاد و يأمرونهم أن يفرّوا. ٨- عن ابن عبّاس أيضاً: أي يريدون أن يغيّروا كلام اللّٰه لنبيّه(صلّى اللّه عليه و آله) حين قال له(صلّى اللّه عليه و آله): لا تأذن لهم بالخروج إلى غزوة اخرى بعد تخلّفهم عن غزوة الحديبيّة.

و هذا بعيد لأنّ النّبيّ(صلّى اللّه عليه و آله) قد دعاهم بعد ذلك إلى قتال و غزوات اخرى كفتح مكّة و حنين و تبوك و غيرها...

٩- قيل: أي يريدون أن يبدّلوا ما أنزل اللّٰه تعالى على رسوله(صلّى اللّه عليه و آله) من الوعد و غيره. و يثبتوا خلافه. ١٠- قيل: إنّ اللّٰه سبحانه لمّا وعد أهل الحديبيّة بفتح خيبر و مغانمها لهم وحدهم لا يشاركهم فيها المخلّفون عن الحديبيّة، أرادوا أن يبدّلوا وعد اللّٰه تعالى، بأن يشاركوهم لئلّا تفتح خيبر فيظهر خلاف كلام اللّٰه و وعده. ١١- قيل: أي يريدون أن يردّوا حكم اللّٰه جلّ وعلا فيهم بالنّفاق و يثبتوا الحسد لرسول اللّٰه(صلّى اللّه عليه و آله) و للمؤمنين.

و قيل: إنّ هذه حملة ثانية على المخلّفين تكشفهم ثانية و تفضحهم، غيب مستقبل في هذه التصريحة التبكيت و التّنديد بمن يعيشون نفاقاً عارماً لكي يعرفهم رسول اللّه﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ و المؤمنون من قبل، فيأخذوا عنهم حذرهم: «سيقول لك المخلّفون...» بعد ما قالوا أوّلاً من قولتهم الكاذبة: «شغلتنا أموالنا و أهلونا» في صلح الحديبيّة، فثمّ لمّا اتّجه النّبيّ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ و المؤمنون إلى خيبر- كذلك اثّاقلوا إلى الأرض، و لمّا تمّ الفتح بيد أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ و انطلق المسلمون إلى مغانم خيبر ليأخذوها- انتبه المخلّفون عن نومتهم، و قالوا: «ذرونا نتّبعكم» و لكي نشارككم في أخذ الغنآئم! و هم لايريدون اتّباعاً لهم إلّا لأمرين: ۱- أخذ الغنائم. ۲- تبديل كلام اللّه و هو قوله تعالى: «سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا...» فهم قائلوه في كلّ حرب: حرب الصّلح في الحديبيّة، و حرب الفتح في خيبر، و فتح الفتوح العنوة في مكّة، فهم دائبوا الاعتذار هكذا، حتّى و في اتّباع المؤمنين لأخذ غنآئم خيبر، و إن تمّت الحرب، فلعلّ جماعة من خيبر يترصّدون بمن يأتيهم لأخذ الغنآئم فينتقموا منهم.

فهم «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّه» «قل لن تتّبعونا كذلكم قال اللّه من قبل» و من ثمّ قول ثان للّه من قبل في وعده: «وعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه» الفتح: ۲۰) و الكثيرة هي مغانم خيبر و فتح مكّة و ما يلحقها و «هذه» هي مغانم خيبر، و هي خاصّة بالمؤمنين، فلو اتّبعهم المنافقون و أخذوا منها كان ذلك تبديلاً لكلام اللّه، و لكن «قل لن تتّبعونا» و حتّى في أخذ الغنيمة في راحة و طمأنينة، فضلاً عن المتابعة في الحرب الخطرة الّتي قد لاتكون فيها غنيمة! و لعلّ هناك قولاً غير هذين أن لن يتّبعوهم و إن لم يكن من القرآن.

أقول: و على الأوّل جمهور المفسّرين، و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في **قوله عزّوجلّ:** «قل لن تتّبعونا» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي لن تتّبعونا إلى غزوة خيبر إلّا مطوّعين ليس لكم من الغنيمة شيء. ۲- قيل: أي لن تتّبعونا في خيبر و لا غزوة من الغزوات. ۳- عن مجاهد: أي الموعد الّذي تغييره تبديل كلام اللّه تعالى و هو موعده سبحانه لأهل الحديبيّة أنّهم لايتّبعون رسول اللّه﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ إلّا متطوّعين

لانصيب لهم في المغنم، فكأنّه قيل: لن تتّبعونا إلّا متطوّعين. ٤- قيل: أي و لاتتّبعونا مادمتم مرضى القلوب. ٥- قيل: أي قل إقناطاً لهم: لاتتّبعونا، فإنّه نفي في معنى النّهي للمبالغة، و المراد نهيهم عن الاتّباع فيما أرادوا الاتّباع فيه في قولهم: «ذرونا نتّبعكم» و هو الانطلاق إلى خيبر، فأمر اللّه تعالى رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ أن يمنعهم عن اتّباعهم استناداً إلى قوله سبحانه من قبل أن يسئلوهم الاتّباع.

٦- قيل: أى قل لهؤلاء المنافقين: إنّكم لن تتّبعونا في شيء من الأوامر و النّواهي مادمتم على النّفاق حتّى فيأخذ الغنيمة في راحة و طمأنينة فضلاً عن المتابعة، في الحروب الخطرة الّتي لاتكون فيهاغنيمة و لاسلامة... حيث إنّ النّفاق ينافي المتابعة، و لا متابعة من دون ايمان. ٧- قيل: أي لاتأذن لهم في الخروج معكم معاقبة لهم من جنس دينهم، فإنّ امتناعهم عن الخروج إلى الحديبيّة ما فصل إلّا لأنّهم كانوا يتوقّعون المَغرَم و هو جلاد العدوّ و مصاولته، و لايتوقّعون المغنم، فلمّا انعكست الأمر في خيبر، طلبوا ذلك، فعاقبهم اللّه بطردهم من المغانم... و المعنى: قل للمخلّفين الّذين فرّوا من العزم، و طلبوا المغنم.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر.

و **في قوله عزّوجلّ**: «كذلكم قال اللّه من قبل» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و مجاهدو ابن اسحق: أي قال اللّه تعالى بالحديبيّة قبل خيبر، و قبل رجوعنا من الحديبيّة إليكم: إنّ غنيمة خيبر بعد فتحها لمن شهد الحديبيّة خاصّة لايشركهم فيها غيرهم. ٢- قيل: أى قال اللّه تعالى من قبل إنصرافنا من سفرة الحديبيّة إلى المدينة قولاً مثل هذا القول الصّادر عنّي و هو «لن تتّبعونا» ٣- قيل: أي كما قلنا لكم من قبل و هو ما ذكر في قوله سبحانه: «فقل لن تخرجوا معي أبداً...» التّوبة: ٨٣) أي لاتأذن لهم بالخروج إلى غزوة اخرى.

٤- قيل: أي مثل ذلك حكم اللّه تعالى فيكم قاله لنا. إشارة إلى الحكم الّذي جآء في قوله جلّوعلا: «لن تتّبعونا» أي مثل هذا الحكم الّذي قضينا به عليكم أيّها المخلّفون وهو ألّا تتّبعونا كان قضآء اللّه عزّوجلّ فيكم و حكمه عليكم من قبل هذا الحكم الصّريح

الّذي واجهنا بكم إذ قال اللّٰه تعالى من قبل فيكم: «يريدون أن يبدّلوا كلام اللّـه» و مضمون هذا أنّكم لن تخرجوا معنا.

٥- قيل: أي كذلك نُهيتُم أيّها المخلّفون عن اتّباعنا، قال اللّٰه تعالى ذلك من قبل أي عند الانصراف من الحديبيّة. و المعنى: قل أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لهؤلآء الطّمّاع إقناطاً لهم: إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبيّة معنا، و لستم ممّن شهدها، فليس لكم أن تتّبعونا لأنّ غنائمها لغيركم.

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «بل كانوا لا يفقهون إلّا قليلاً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي لا يفقهون أمر اللّٰه تعالى لا قليلاً و لا كثيراً. ٢- قيل: أي لا يفقهون الحقّ إلّا القليل منهم، و ذلك أنّ أكثرهم معاندون لا يفهمون القول و لا يفقهون الحقّ، و قليل منهم لا يعاندون فهم يفقهون الحقّ. قيل: هذا غير وجيه فإنّهم جميعاً مشتركون في الوصف بالغباء و البلادة، فاستثناء البعض لا وجه له. ٣- قيل: أي لا يفقهون إلّا فقهاً قليلاً أو الأشيآء قليلاً. ٤- قيل: أي لا يفهمون إلّا فهماً قليلاً و هو فطنتهم لامور الدّنيا. و المعنى: لا يعلمون إلّا أمر الدّنيا قليلاً، فلهم عقل معاش يعيشون به كالحيوان، و ليس لهم عقل معاد أصلاً، فلهم الفهم القليل لامور الدّنيا دون امور الدّين، و انّهم قوم مادّيون لا يسعون إلّا للدّنيا و متاعها، و لا يفقهون ما يعلي شأن الدّين و يرفع قدرهم به.

٥- قيل: هذا ردّ لقولهم الباطل في المؤمنين، و وصف لهم بما هو أعظم من الحسد و أطم و هو الجهل المفرط و سوء الفهم في امور الدّين، و فيه إشارة إلى ردّهم حكم اللّٰه تعالى، و إثباتهم الحسد لاولئك السّادة من الجهل و قلّة التفكّر. ٦- قيل: أي لا يفقهون من أمر الدّين إلّا قليلاً و هو ترك القتال. ٧- قيل: هو فهمهم من قوله: «قل لن تتّبعونا» مجرّد النّهي، فحملوه على الحسد، و لم يعلموا أنّ المراد هو أنّ هذا الاتّباع لا يقع أصلاً لأنّ الصّادق المصدّق قد أخبر بذلك. ٨- قيل: أي بل كانوا لا يفقهون عن اللّٰه ما لهم و ما عليهم من أمر الدّين إلّا قليلاً يسيراً و لو عقلوا ذلك كلّه لما قالوا لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين به، و قد أخبروهم عن اللّٰه سبحانه أنّه حرّمهم غنآئم خيبر: إنّما تمنعوننا من

صحبتكم إليها لأنّكم تحسدوننا، بل إنّما ذلك حسداً من عند أنفسكم. و أمّا الفقه القليل للحقّ فيجعلهم مكلّفين، و إن كانوا لايفقهون كثيراً في أفكـارهم و أقـوالهـم الهـابطة الخابطة العمياء...

٩- قيل: إنّ قوله تعالى: «بل كانوا لايفقهون إلّا قليلاً» جواب عـن قـولهم: «بـل تحسدوننا» لم يوجّه الخطاب إلى أنفسهم لأنّ المدّعىٰ أنّهم لايفقهون إلّا قليلاً و لذلك وجّه الخطاب بالجواب إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و قل: «بل كانوا لايفقهون إلّا قليلاً» و ذلك أنّ قولهم السّخيف: «بل تحسدوننا» إضراب عن قول رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لهم بأمر اللّه تعالى: «لن تتّبعونا كذلكم قال اللّه من قبل» فمعنى قولهم: إنّ منعنا من الاتّباع ليس هو عن أمر من قبل اللّه، بل إنّما تمنعوننا أنتم أهل الحديبيّة أن نشارككم في الغـنآئم و تريدون أن تختصّ بكم!

و هذا كلام لايواجه به من له عقل و تمييز، المؤمنين الّذين لايـتّبعون إلّا رسـول اللّه﴿ﷺ﴾ المعصوم الّذي لاينطق عن الهوى إنّ هو إلّا وحي يوحى، فضلاً أن يواجه به النّبيّ الكريم، و ليس هذا إلّا أن يكون من بساطة العقل و بلادة الفـهم، فـهذا القـول السّخيف الّذي واجهوا به المؤمنين، وهم يدّعون الايمان و الاسلام أدلّ دليل و أوضح برهان على نهاية ضعف تعقّلهم، و قلّة فقههم.

ومن هنا يظهر أنّ المراد بعدم فقههم إلّا قليلاً بساطة عقلهم و ضعف فقههم للقول لا أنّهم يفقهون بعض القول، و لا يفقهون بعضه و هو الكثير.

أقول: و الرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق فتأمّل و لاتغفل.

١٦- قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم اللّه أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً)

في قوله تعالى: «إلى قوم اُولى بأس شديد» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و مـقاتل والزّهري: هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذّاب من أهل اليمامة و هم أصحابه. ٢- عن

الحسن و ابن زيد و عبد الرّحمن بن أبي ليلى: هم فارس و الرّوم. ۳- عن ابن عبّاس و ابن أبي ليلى أيضاً و مجاهد و عطاء بن أبي رباح و عطاء الخراسانى و ابن جريج: هم أهل فارس. ٤- عن مجاهد أيضاً و سعيد بن جبير و عكرمة و قتادة: هم هوازن و غطفان، و من حارب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ في حنين و ثقيف و بنو حنيفة. ٥- عن سعيد بن جبير و عكرمة و قتادة أيضاً: هم هوازن يوم حنين. ٦- عن الحسن و عبد الرّحمن بن أبي ليلى أيضاً و كعب الأحبار: هم الرّوم غزاهم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ في تبوك.

۷- قيل: إنّ اللّه تعالى أخبر عن هؤلآء المخلّفين من الأعراب الّذين تخلّفوا عن صحبة رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ في الحديبيّة: أنّهم سيدعون إلى قتال قوم اولى بأس و شدّة قويّة في القتال و نجدة في الحروب ردّاً عليهم طلبهم الاتّباع: «ذرونا نتّبعكم» و ردّ اتّهامهم أهل الحديبيّة بالحسد، و إثبات أنّهم لن يتّبعوا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «قل لن تتّبعونا» و إثبات أنّهم «قوم لا يفقهون إلّا قليلاً» فلا دليل عقلاً و لا نقلاً على أنّ المعنيّ بهم هوازن أو بنوحنيفة أو فارس أو الرّوم أو أعيان غيرهم بأعيانهم، فيحتمل أن يكون المراد بهم الأجناس كما يحتمل أن يكونوا غيرهم.

۸- عن الزّهرى أيضاً و الكلبي: هم أهل الرّدّة قاتلهم أبوبكر بعد الرّحلة. ۹- عن أبي هريرة: هم البارز يعني الأكراد. ۱۰- عن أبي هريرة أيضاً: لم يأت اولئك بعد. ۱۱- عن مجاهد أيضاً: هم أهل الأوثان. ۱۲- عن مجاهد أيضاً: هم أعراب فارس و أكراد العجم. ۱۳- عن قتادة أيضاً: هم هوازن و ثقيف إذ دعوا يوم حنين إلى هوازن و ثقيف ١٤- عن الضّحّاك: هم ثقيف. ١٥- قيل: هم أهل صفّين أصحاب معاوية.

و في **المجمع**: قال الشّيخ الطّبرسي المازندرانيّ رضوان اللّه تعالى عليه: «و الصّحيح أنّ المراد بالدّاعي في قوله: «ستدعون» هو النّبيّ ﴿ﷺ﴾ لأنّه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، و قتال أقوام ذوي نجدة و شدّة مثل أهل حنين و الطّآئف و موتة و إلى تبوك و غيرها فلا معنى لحمل ذلك على ما بعد موته ﴿ﷺ﴾».

و في **الميزان**: قال السّيّد الطّباطبائي: «و ظاهر قوله: «ستدعون» أنّهم بعض الأقوام الّذين قاتلهم النّبيّ ﴿ﷺ﴾ بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف و الرّوم، و قوله تعالى

سابقاً: «قل لن تتّبعونا» ناظر إلى نفي اتّباعهم في غزوة خيبر على ما يفيده السّياق».

و **قال بعض المفسّرين:** «هذه دعوة إلى هؤلاء المخلّفين، تقطع عليهم مقولتهم للمؤمنين: «بل تحسدوننا» و هم في هذه الدّعوة مدعوّون إلى قتال قوم أُولي بأس شديد، و أنّهم مطالبون كذلك في هذا القتال أن يقفوا موقف المجاهدين حقّاً، و هو ألّا يتحوّلوا عن القتال إلّا إذ استسلم لهم العدوّ و دخل في دين اللّه... و أمّا القول بأنّهم فارس و الرّوم فغير صحيح من وجهين:

أحدهما– أنّ قتال فارس و الرّوم لايكون فيه قتالهم إلى أن يدخلوا فيالإسلام، بل إنّه يكتفى منهم بقبول الجزية في حال هزيمتهم و إبآئهم أن يدخلوا في الإسلام، و إنّما حكم القتل أو الإسلام هو في حقّ العرب وحدهم لأنّهم هم الّذين تقوم عليهم الحجّة كاملة، بتلك المعجزة الّتي في كتاب اللّه المعجز، الّذي جآء بلسانهم...

ثانيهما– أنّ هؤلآء المخاطبين المخلّفين دعوا إلى قتال هؤلآء القوم بعد زمن قليل من وقت نزول هذه الآية، حتّى لايذهب الموت بكثير منهم إذ طال الزّمن منهم و قتال الفرس و الرّوم جاء بعد نزول هذه الآيات بنحو عشر سنين.

و هذا كلّه حديث عن مستقبل لم يجيء بعد، و إنّما هي أحداث و مواقف سوف تقع تباعاً، ابتداء من نزول هذه الآيات...

١٦– قيل: هم كفّار أعدآء وجب قتالهم من الكفّار و المشركين العَرب و غيرهم من دون تناقضٍ بين هذه الحكم و بين كون القتال في الإسلام هو للدّفاع و مقابلة العدوان بالمثل: «و قاتلوا في سبيل اللّه الّذين يقاتلونكم و لاتعتدوا– فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» البقرة: ١٩٠–١٩٤) و ليس للإكراه على الإسلام: «لا إكراه في الدّين» البقرة: ٢٥٦) أو قتال الكافرين بالرّسالة الإسلاميّة عامّة دون تفريق بين المسالمين و المعاندين، و حين تقوم حالة الحرب بين المسلمين و أعدآئهم من الكفّار لاتقف إلّا بانتهآء الأعدآء عن موقفهم، و هذا يكون بالإسلام كما يكون بالصّلح، و صلح الحديبيّة مثل قريب على ذلك فيه كون هذا لايقتصر على غير العرب أو على غير المشركين منهم.

١٧– قيل: هم مشركوا مكّة الّذين بلغوا في القوّة الذّروة في صنوف الأعداء المناوئين

للإسلام منذ الرّسالة إلى أمد، و لذلك كانت هذه الدّعوة دعوة إلهيّة لحرب خطيرة، و قد عبّر عنهم بـ«قوم» منكرين، و قد كانواهم معروفين في الجزيرة تنبيهاً إلى عظيم مكرهم و خطرهم و لكنّهم أسلموا من دون قتال إذ فتحت مكّة عنوة رغم أنّ مشركيها أُولى بأس شديد جنّدت كافّة طاقاتها، و استنفرت عامّة قوّاتها، فقوله: «أو يسلمون» إشارة إلى فتح مكّة عنوة، حيث إنّ «أو» تخيّر بين مقاتلتهم و إسلامهم، و قد أسلموا من غير حرب. فالآية الكريمة من ملاحم الغيب لمستقبل فتح مكّة عنوة.

أقول: و الأخير هو المؤيّد بالسّياق و المستفاد من الرّوايات فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً.

و **في قوله تعالى:** «أو يسلمون» قولان: ۱- قيل: أي ينقادون لكم، فالإسلام ههنا بمعنى الانقياد، فيشمل إعطاء الجزية أيضاً، فيشمل الكفّار و المشركين كلّهم من العرب و العجم، و أهل الكتاب و غيرهم، حيث إنّ مشركي العرب و المرتدّين لايقبل منهم إلّا الإسلام، و من سواهم من مشركي العجم و أهل الكتاب و المجوس تقبل منهم الجزية والإسلام. ۲- قيل: الإسلام هو التّسليم و الايمان باللّه تعالى و رسوله(ﷺ) فلا يشمل إلّا مشركي العرب و المرتدّين إذ لايقبل منهم إلّا السّيف أو الإسلام.

فهذا حكم من لاتؤخذ منهم الجزية، و هذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب. فالمعنى: أو هم يقرّون بالإسلام و يقبلونه لاتقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب. و المعنى: إمّا أن يقاتلوا أو يسلموا.

أقول: و الثّاني هو المؤيّد بالسّياق و المستفاد من الرّوايات فتدبّر.

و **في قوله سبحانه:** «أجراً حسناً» أقوال: ۱- قيل: الأجر الحسن في الدّنيا هو الغنيمة و في الآخرة الجنّة و نعيمها. ۲- قيل: أي الغنيمة و النّصر فقط، بناءً على أنّ الآية الكريمة في المنافقين. ۳- عن ابن عبّاس: أي يعطكم اللّه ثواباً حسناً في الجنّة. ٤- قيل: أي الخير و السّعادة و العزّة و الكرامة في الدّنيا و الآخرة.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق.

و **في قوله عزّوجلّ:** «يعذّبكم عذاباً أليماً» أقوال: ۱- قيل: أي يعذّبكم في الحياة

الدّنيا بالخزي و الهوان. ٢- قيل: أي يعذّبكم عذاباً في الدّار الآخرة بالنّار و عذابها. ٣- قيل: أي يعذّبكم في الدّنيا بالذّلّة و النكبة، و في الآخرة بنار جهنّم.

أقول: و الكلام فيه هو الكلام في السّابق فتأمّل جيّداً.

١٧- (ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج و من يطع اللّٰه و رسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً)

و في قوله تعالى: «ومن يطع اللّٰه و رسوله» أقوال: ١- قيل: أي و من يطع اللّٰه و رسوله في السّرّ و العلانية، و في الإجابة و الموافاة إلى قتال العدوّ. ٢- قيل: أي و من يطع اللّٰه و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الجهاد و القتال، فيجيب الدّاعى إلى حرب أعدآئه من أهل الشّرك و الطّغيان، و الكفر و العصيان دفاعاً عن دينه، و إعلآءً لكلمته، و حفظاً لكيان الإسلام و المسلمين. ٣- قيل: أي و من اللّٰه تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في ما يأمره به وينهاه عنه من القتال و غيره.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق، و هذا من باب ذكر العام بعد الخاصّ، إذ قال آنفاً: «فإن تطيعوا يؤتكم اللّٰه أجراً حسناً» فالطّاعة ههنا الجهاد و القتال، و هنا العام.

و في قوله عزّوجلّ: «و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و من يتولّ عن الإجابة في القتال من دون عذر من الأعذار المبيحة للتخلّف عن الجهاد يعذّبه اللّٰه عذاباً وجيعاً في الآخرة بنار جهنّم. ٢- قيل: أي و من يعص اللّٰه و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فيتخلّف عن القتال مع المجاهدين إذ دُعِيَ إليه يعذّبه بالعذاب الأليم من مذلّة و حرمان من الغنآئم في الدّنيا، و من نار موقدة و هوان في الآخرة. ٣- قيل: أي و من يتولّ عن اتّباع أوامر اللّٰه تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عن امتثالها... منها الأمر بالقتال من دون عذر، و عن نواهيهما...

أقول: و الكلام فيه هو الكلام فيما تقدّم فتدبّر.

۱۸- (لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليه و أثابهم فتحاً قريباً)

في قوله تعالى: «لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» قولان:
أحدهما- هم أهل الحديبيّة الّذين رضى اللّه عنهم لمبايعتهم رسوله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ من دون دخل وصف الايمان في رضا اللّه عنهم، بل المبايعة نفسها موجبة للرّضا لا الايمان.
ثانيهما- ليس أهل الحديبيّة كلّهم مرضييّن عند اللّه تعالى و إن بايعوا رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و إنّما المؤمنون منهم هم المرضيّون، حيث إنّ تعليق الحكم على المشتقّ مشعر بعلّيّة الوصف للحكم، و إنّ سبب الرّضا هنا ثلاثة امور طوليّاً: الايمان حقّاً و المبايعة و الوفاء بها. و لايخفى على من له أدنى مسكة و طيب ولادة أنّ المبايعين في الحديبيّة ماكانوا كلّهم مؤمنين حقّاً.

و قد سبقت المبايعة بصورة عامّة في الآية العاشرة من هذه السّورة: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّه»: ۱۰) و لذلك قسّمهم بالناكثين و الموفين في قوله: «فمن نكث - و من أوفي...» و جآئت في هذه الآية الكريمة بصورة خاصّة بأنّها مرضيّة عند اللّه تعالى إن كانت عن ايمان و وفاء بها، فقال: «لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة...»: ۱۸) فليس مطلق المبايعة مرضيّاً عند اللّه تعالى كما لم يكن المبايعون كلّهم مؤمنين، بل كان كثير منهم ناكثين و غير مؤمنين أفكلّهم خير أهل الأرض؟!

و من البيّن: أنّ المبابعين كانوا متخلّفين في البيعة، فمنهم من بايع رسول﴿صلّى الله عليه و آله﴾ وقتها شكليّاً ثمّ نكثها، و منهم من بايعه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقط على أن لايفرّ من زحف لا على الموت كعمر بن الخطّاب.

في الدّرالمنثور: أخرج مسلم و ابن جرير و ابن مردويه عن جابر قال: كنّا يوم الحديبيّة ألفاً و أربعمأة، فبايعناه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و عمر آخذ بيده تحت الشّجرة و هي سَمُرَة و قال: «بايعناه على أن لانفرّ و لم نبايعه على الموت» كما أنّ معقل بن يسار اقتفى أثر عمر بن الخطّاب في البيعة على ألّايفرّ، و لم يبايع على الموت.

و منهم من بايعه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ على الموت كعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و تبعه كثير من أصحابه﴿صلّى الله عليه و آله﴾.

أقول: و الثّاني هو المتعيّن بنفس السّياق و المؤيّد بالرّوايات... فتأمّل جيّداً فإنّ المقام من مزالّ الأقدام حفظنا اللّٰه تعالى في كلّ حال بعصمة المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

و في عدد المبابعين في الحديبيّة أقوال: ١- قيل: كانوا هم ألفاً و مأتين، و هو المرويّ عن أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السّلام. ٢- قيل: ألفاً و ثلاثمأة. ٣- قيل: ألفاً و أربعمأة. ٤- قيل: ألفاً و خمسمأة. ٥- قيل: ألفاً و خمسمأة و خمسة و عشرين.

أقول: و الأوّل هو المختار لأنّه المرويّ.

و قال بعض المحقّقين: إنّ المراد برضا اللّٰه تعالى عن المؤمنين رضا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فجعل رضاه﴿صلى الله عليه و آله﴾ رضا نفسه، و سخطه﴿صلى الله عليه و آله﴾ سخط نفسه لأنّه جلّ وعلا جعله﴿صلى الله عليه و آله﴾ دليل نفسه كما جعل مبايعته مبايعته فقال: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون اللّٰه...» و جعل طاعته﴿صلى الله عليه و آله﴾ طاعته إذ قال: «من يطع الرّسول فقد أطاع اللّٰه» النسآء: ٨٠).

و في قوله عزّوجلّ: «تحت الشّجرة» قولان: **أحدهما**- هذه الشّجرة كانت معروفة بسَمُرَة- شجرة طلع و هي المعروفة الآن بالسّنط. **ثانيهما**- هي شجرة سدرة.

و قد روى أنّ هذه الشّجرة سمرة كانت أو سدرة قد عميت عليهم من قابل، فلم يدروا أين ذهبت. و عن جابر بن عبداللّٰه: «لو كنت أبصر لأريتكم مكانها».

و في الدّرالمنثور: أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف عن نافع قال: «بلغ عمر بن الخطّاب أنّ ناساً يأتون الشّجرة الّتي بويع تحتها فأمر بها فقطعت».

و ليتها كانت باقية بما قدّسها اللّٰه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ كما هي كذكرى لهذه البيعة المجيدة الممتحنة المختبرة لأهل الايمان و الرّضوان، و أصحاب النّفاق و النّيران، و لم يقطعها عمر بن الخطّاب، و لو كان يخاف أن تُعبَد من دون اللّٰه، فلتعدم الكعبة- العياذ باللّٰه جلّ وعلا- إذ يخاف أن تعبد كنفس الشّجرة و لو كان هذا الخوف موجباً لقطعها، لكان رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أولى بقطعها، نعم قطعها عمر بن الخطّاب إذ كانت بيعته تحتها كاذبة، و لو كانت صادقة لما قطعها قطّ! و ذلك أنّ ما اتّفق عليه الفريقان: أنّه اشترط على

المبايعين في بيعة الرّضوان أن لاينكروا على رسول اللّه«صلى الله عليه و آله و سلم» شيئاً يفعله، و لا يخالفوه في شيء يأمرهم به، و قد ثبت عندهم أيضاً: أنّ عمر بن الخطّاب قد أنكر على رسول اللّه«صلى الله عليه و آله و سلم» و خالفه بعد البيعة، فما كانت بيعته صادقة بلا ريبة لمن كان له طيب ولادة و أدنى مسكة و لذلك قطعها لتُنسى قصّتها!

و في قوله عزّوجلّ: «فعلم ما في قلوبكم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و الفرّاء: أى فعلم اللّه تعالى ما في قلوب المبايعين تحت الشّجرة من صدق النّيّة، و الإخلاص في المبايعة و الوفاء بها أو سوء النّيّة و النّفاق في البيعة و نقضها.

و في الدّرّ المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: «فلكم ما في قلوبكم فأنزل السّكينة عليهم» قال: إنّما انزلت السّكينة على مَن علم منه الوفاء».

٢- عن قتادة وابن جريج: أي فعلم اللّه ما في قلوبكم من الرّضا بأمر البيعة على ألّا يفرّوا. ٣- عن مقاتل: أي من كراهة البيعة على أن لايقاتلوا معه«صلى الله عليه و آله و سلم» على الموت فأنزل اللّه السّكينة عليهم حتّى بايعوا. ٤- عن مقاتل أيضاً: أي فعلم ما في قلوبهم من صدق النّيّة في القتال و الكراهة له، لأنّه«صلى الله عليه و آله و سلم» بايعهم على القتال ٥- قيل: أي من الكآبة بصدّ المشركين إيّاهم و تخلّف رؤيا النّبيّ«صلى الله عليه و آله و سلم» إذا رأى أنّه يدخل الكعبة حتّى قال رسول اللّه«صلى الله عليه و آله و سلم»: إنّما ذلك رؤيا منام. ٦- قيل: أي من الايمان و صحّته و حبّ الدّين و الحرص عليه. ٧- قيل: أي من الهمّ و الأنفة من لين الجانب للمشركين و صلحهم. ٨- قيل: أي من اليقين و الصّبر و الوفاء. ٩- قيل: أي من السّمع و الطّاعة للّه تعالى و الخوف منه و التّوكّل عليه. ١٠- قيل: أي من حسن النّيّة و صدقها، و إخلاصها في مبايعتهم للّه تعالى، فإنّ العمل إنّما يكون مرضيّاً عند اللّه تعالى بصدق النّيّة و إخلاصها لا بصورته و هيئته. ١١- قيل: إنّ «علم» من العَلَم بمعنى العلامة لا العِلْم بمعنى المعرفة بعد الجهل، فالمعنى: إنّ اللّه تعالى جعل المبايعة الحقيقيّة علامة للمؤمنين الموفين بها، تميّزهم من المنافقين النّاكثين، ميزة لهم عندهم و عند من سواهم، إذ «عند تقلّب الأحوال علم جواهر الرّجال».

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل.

و **في قوله سبحانه:** «فأنزل السّكينة عليهم» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: السّكينة هي الطّمأنينة و رباطة الجأش و سكون النّفس إلى صدق الوعد، فأذهب بها عنهم الحميّة. ٢- قيل: هي الصّبر مع رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ في القتال. ٣- قيل: أي بالأمن و سكون النّفس و الرّبط على قلوبهم بالتشجيع. ٤- قيل: أي بالصّلح. ٥- قيل: السّكينة هي تقرير قلوبهم و تذليلها لقبول أمر اللّه تعالى و رفع كراهة البيعة عنها. ٦- قيل: هي اللّطف القويّ لقلوبهم و الطّمأنينة. ٧- قيل: هي الشّعور بالغبطة و الرّاحة و الاطمئنان. ٨- عن قتادة: أي الصّبر و الوقار في قلوبهم بسبب الصّلح.

أقول: و قد سبق منّا (١٨) قولاً في معنى «السّكينة» في قوله تعالى: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين» الفتح: ٤) و المختار هنا هو المختار ههنا فتأمّل جيّداً و لاتغفل.

و **في قوله جلّ وعلا:** «فتحاً قريباً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و عكرمة و قتادة و عبدالرّحمن بن أبي ليلى: أي فتح خيبر، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، لأنّه كان بعد الحديبيّة عقب انصرافهم من الحديبيّة، و كانت خيبر أرضاً ذات عقار و أموال قسّمها رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ بين المقاتلين، فجعل للفارس سهمين، و للرّاجل سهماً واحداً، و أنّ اللّه تعالى جعل غنائمها خاصّة لأهل بيعة الرّضوان دون غيرهم، و وصف الفتح بأنّه قريب لقرب زمانه إذ كان على أيّام من صلح الحديبيّة، ثمّ لقرب تناوله، إذ لم يلق المسلمون من أهل خيبر بلاءً كثيراً، بل سرعان ما استسلم يهود خيبر، و فتحت بيد أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ و نزلوا على حكم رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾.

٢- عن الجبائي: هو فتح مكّة، و القرب أمر نسبيّ. ٣- عن الحسن: هو فتح هجر، والمراد هجر البحرين، و كان فتح في زمانه﴿صلی الله علیه و آله﴾ بدليل كتابه﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلى عمرو بن حزم في الصّدقات و الدّيات... و ذلك أنّ رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ صالح أهل البحرين، و أخذ الجزية من مجوس هجر، و الفتح لايستدعي سابقة الغزو. ٤- قيل: أي فتحاً مستمرّاً من

صلح الحديبيّة إلى فتح خيبر و منها إلى مكّة، و منها إلى حنين و إلى شرق الأرض و غربها.

٥- قيل: الفتح القريب هو صلح الحديبيّة، حيث إنّ الآيات نزلت أثناء رجوع رسول اللّٰه(ﷺ) و المسلمين من الحديبيّة إلى المدينة، و وقعة خيبر كانت بعد ذلك بوقت ما. ٦- قيل: أصله فتح مكّة، و في سبيله و على هامشه فتح خيبر، وقد يشملهما الفتح القريب لانسلاكهما في سلك واحد، و هما نتاج فتح الصّلح في الحديبيّة كما و «مغانم كثيرة» المعطوفة على «فتحاً قريباً» تؤيّد هذا الجمع: «و مغانم كثيرة يأخذونها...» هذه المغانم الكثيرة تباعاً للفتح القريب، منهامعجّلة بعد الحديبيّة، و منها مؤجّلة إلى فتح مكّة.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و جمهور المؤرّخين و هو المؤيّد بالرّوايات...

۱۹-(و مغانم كثيرة يأخذونها و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً)

في قوله تعالى: «مغانم كثيرة» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس و مجاهد: هي غنآئم خيبر. و إنّ الغنيمة ملك أموال أهل الحرب من المشركين بالقهر و الغلبة في حكمه تعالى و كان القتال من أجلها.

۲- عن الجبائي: هي غنآئم هوازن بعد فتح مكّة. ۳- قيل: هي مغانم هجر. ٤- قيل: هي مغانم فارس و الرّوم. ٥- قيل: أي و أثابهم مغانم كثيرة يأخذونها في قتالهم المشركين و الكافرين و المنافقين، و منها غنآئم هوازن في وقعة حنين، ثمّ تلك المغانم الكثيرة في حرب فارس و الرّوم. ٦- قيل: أي هذه المغانم الكثيرة الّتي سيأخذها المؤمنون بعد الرّجوع من الحديبيّة أعمّ من مغانم خيبر، و هي معجّلة، و مغانم فتح مكّة و هي مؤجّلة.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و هو المؤيّد بالرّوايات فتدبّر.

۲۰- (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً)

في قوله تعالى: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها» أقوال: ۱- عن ابن عباس و مجاهد: هي المغانم الّتي يفيئها على المؤمنين إلى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها المقدّرة لكلّ واحدة منها.

فالمراد بها كلّ ما غنمه المسلمون في عهد رسول الله(ﷺ) و بعده و هي لمصالح الإسلام و المسلمين على العموم، و بهذا يتّضح الفرق بين مغانم الآية السّابقة و مغانم هذه الآية.

فالمعنى: وعدكم الله مغانم كثيرة أيّها المسلمون تأخذونها من الفتوحات الّتي سوف ييسرها لكم في مختلف الظّروف و الأماكن كغنآئم هوازن و غطفان و فارس و الرّوم و غيرها ماكنتم تقدرون عليها لولا الإسلام، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لتلك الدّول فأقدرهم الله تعالى عليهم بعزّ الإسلام.

۲- عن مجاهد أيضاً: هي المغانم الكثيرة الّتي وعدوا ما يأخذونها إلى اليوم مع رسول الله(ﷺ).

فالمراد بها كلّ مغنم غنمها الله تعالى المسلمين من أموال أهل الشّرك من لدن أنزل هذه الآية على لسان نبيّه(ﷺ). فبناءً على هذا يحتمل أن يكون المراد بالمغانم الثّانية، المغانم الاولى. و المعنى: فأثابهم فتحاً قريباً و مغانم كثيرة يأخذونها، وعدكم الله أيّها القوم هذه المغانم الّتي تأخذونها و أنتم إليها واصلون عدة، فجعل لكم الفتح القريب من فتح خيبر، و أن يكون المراد بالمغانم الثّانية غير الاولى بأن تكون الاولى من غنآئم خيبر، و الثّانية من غنآئم سآئر أهل الشّرك سواهم يأخذونها مع النّبيّ(ﷺ) و بعده إلى يوم القيامة، و كانت مغانم خيبر ممثلة و نموذجة منها.

۳- عن ابن عبّاس أيضاً: أى تغتنموها و هي غنيمة فارس لم تكن بعد، فستكون. ففي الجملة تبشير و تطمين للمسلمين بوجه عام. ٤- عن ابن زيد: هي مغانم خيبر. والمعنى: ما غنمتموه من خيبر من أنواع الغنآئم.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و هو الأنسب بظاهر السّياق فتأمّل جيّداً.

و في قوله تعالى: «فعجّل لكم هذه» عن ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و عطيّة: أي فعجّل لكم غنائم خيبر و هي المغانم المعجّلة، و أمّا المغانم المؤخّرة فهي في سآئر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت إلى قيام السّاعة، فكانت غنائم خيبر ممثلة و نموذجة من تلك المغانم...

و ذلك أنّ الله تعالى قد أثاب المسلمين من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب، المغانم الكثيرة من غنآئم الخيبر، و أنّهم لم يغنموا بعد الحديبيّة غنيمة و لم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بالحديبيّة إليها من فتح خيبر و غنآئمها، فنزلت غنيمة خيبر منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها.

في الجملة تقرير لواقع و إشارة إليه، و لم يكن واقعاً حين نزولها إلاّ صلح الحديبيّة، و فيها تنبيه للمسلمين إلى أنّ الله عجّل بحسم هذه المسئلة ليبسر لهم إتمام وعده.

۲- عن إبن عبّاس أيضاً و زيد بن أسلم: إنّ المراد بهذه المعجّلة هذا الصّلح الّذي بين رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و بين قريش و التخلّص من أمرهم. ۳- قيل: أي فعجّل لكم هذه البيعة.

أقول: و على الأوّل جمهور المفسّرين و هو الأنسب بظاهر السّياق.

و في قوله عزّوجلّ: «و كفّ أيدي النّاس عنكم» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس و ابن جريج و قتادة: أي و كفّ أيدي أهل خيبر و حلفآئهم من قبيلتى أسد و غطفان، إذ جآؤا لنصرتهم عنكم فقذف الله في قلوبهم الرّعب فنكصوا. و قيل: جآؤا للإغارة على المدينة أثنآء غياب رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و المسلمين عنها، فأحبط الله كيدهم. و قيل: أي و كفّ أيدي أسد و غطفان، فإنّهم كانوا مع خيبر فصالحهم النّبي ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ فكفّوا عنه. و قيل: أى و كفّ أيدي يهود خيبر عنكم في عيالكم و بيضتكم لمّا خرجتم مع رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ إلى خيبر، و همّت بهم اليهود، فقذف الله في قلوبهم الرّعب، فمنعهم الله.

و عن ابن عبّاس أيضاً: النّاس هم عُيينة بن حِصْن الفَزارى و عوف بن مالك النَّضْري و من كان معهما إذ جآؤا لينصروا أهل خيبر، و هم على بئر معونة، و

النّبيّ«صلّی الله علیه و آله» محاصر لهم فألق الله تعالى في قلوبهم الرّعب، فانهزموا و لم يلقوا النّبيّ«صلّی الله علیه و آله» و كفّهم عن المسلمين.

٢- عن مجاهد: أي و كفّ أيدي مشركي مكّة بصلح الحديبيّة عنكم إذ حبسهم الله عنهم، فلم يقدروا لهم على مكروه. فالمعنى: إنّ الله تعالى منع الحرب بين المسلمين و قريش بسبب هذا الصّلح بينهم. قيل: إنّ الله تعالى لمّا ذكر في قوله: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة» علم بذلك أنّ الكفّ الّذي ذكره الله تعالى في قوله: «و كفّ أيدي النّاس عنكم» غير الكفّ الّذي ذكره الله بعد هذه الآية. ففي الجملة تذكير للمسلمين في أثنآء رجوعهم إلى المدينة بما جرى في الحديبيّة و ظروفها...

٣- عن ابن عبّاس أيضا: أي و كفّ أيدي أهل مكّة عنكم أن يستحلّوا ما حرّم الله أو يستحلّ بكم و أنتم حرم. و قيل: هم أهل مكّة و من والاها حيث لم يقاتلوا رسول الله«صلّی الله علیه و آله» و رضوا بالصّلح. ٤- قيل: أي و كفّ أيدي اليهود عن المدينة و أهلها بعد خروج رسول الله«صلّی الله علیه و آله» منها إلى الحديبيّة. و قيل: أي و كفّ أيدي اليهود عنكم بالمدينة من قبل الحديبيّة و مجيئ قريش، فلم يغلبوكم.

٥- قيل: إنّ المراد بالنّاس هنا هم الّذين واجههم رسول الله«صلّی الله علیه و آله» و المسلمون في مسيرته تلك و هم أهل مكّة و أهل خيبر، فإنّ الفريقين لم يدخلوا مع المسلمين في حرب، بل عافاهم الله تعالى من هذا البلاء و أعطاهم ثمرته، فسلّمت لهم قريش بحقّ دخولهم مكّة، و الطّواف بالبيت الحرام، و استسلم لهم يهود خيبر، و سلّموا لهم ما بين أيديهم من أموالهم و زروع.

أقول: و الخامس هو الأنسب بظاهر السّياق، و الله جلّ وعلا هو أعلم.

و **في قوله سبحانه:** «و لتكون آية للمؤمنين» أقوال: ١- قيل: أي و لتكون هذه الكفّة و الهدنة و الغنيمة الّتي عجّلت آية للمؤمنين و أمارة و عبرة يعرفون بها أنّهم من الله تعالى بمكان، و أنّه ضامن من نصرهم و الفتح عليهم، و ذلك أنّ الصّلح وقع على وضع الحرب عن النّاس عشر سنين يأمن فيهنّ النّاس. ٢- قيل: أي و لتكون هذه الغنيمة المعجّلةعطف على مقدّر أي لتشكروه- و لتكون آية للمؤمنين في نصرهم، و

دلالة على ما وعدهم الله من الغنآئم، أو دلالة على صحّة النّبوّة إذ أخبر بالفتح القريب، و قد وقع مطابقاً.

۳- عن قتادة: أي و ليكون كفّه تعالى أيديهم عن عيالهم و أموالهم و أنفسهم آية و عبرة للمؤمنين به، فيعلموا أنّ الله سبحانه هو المتولّي حياطتهم و كلائتهم في مشهدهم و مغيبهم، و يتّقوا الله في أنفسهم و أموالهم و أهليهم بالحفظ و حسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره و نهيه.

و فيه دروس غالية للعلمآء و المصلحين، و الدّعاة و المبلّغين في إرشادهم و تبليغهم...

٤- قيل: أي و لتكون هزيمتهم و سلامتكم آية للمؤمنين، فيعملوا أنّ الله تعالى هو يحرسهم في مشهدهم و مغيبهم. ٥- قيل: أي و لتكون هذه الّتي عجّلها لكم آية للمؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها، و فيها ثلاثة أمور: **الأوّل:** صدق رسول الله﴿ﷺ﴾. **الثّاني:** أنّهم في حياطة الله تعالى و حراسته في مشهدهم و مغيبهم. **الثّالث:** أن يعرف المؤمنون الّذين بعد العصر الأوّل أنّ ما وهب الله تعالى للمبايعين من حراستهم و حفظهم و عطآئهم يكون لهم مثلهم ماداموا مؤمنين على جادّة الحقّ و الهدى و الصّراط المستقيم المستسلمين...

٦- قيل: أي و لتكون هذه الفعلة و هي كفّ أيدي النّاس عن المؤمنين الّذين صنعوا العجآئب مع قلّة عددهم آية ظاهرة و بيّنة واضحة و برهاناً قاطعاً للمؤمنين الموجودين و للأجيال أيضاً بأنّ الله تعالى مع الّذين يدافعون عن الحقّ و عن كيان الإسلام و نظام الدّين، و يحاربون الباطل بصدق و إخلاص، و أنّ الله يكفّ أيدي الأجانب عن أوليآئه بشرط الولاية لأصحابها، و البرآءة من أعدآئهم...

٧- عن ابن عبّاس: أى و لتكون سنّة لمن بعدكم، فيعلمون بها أنّ الله جلّ وعلا هو حافظ المؤمنين و ناصرهم على أعدآئهم على قلّة عددهم. و عنه أيضاً: أي و لتكون فتح خيبر عبرة و علامة للمؤمنين إذ كانوا هم ثمانية آلاف، و أهل خيبر كانوا سبعين ألفاً.

٨- قيل: أي و لتكون غنآئم خيبر أمارة للمؤمنين يعرفون بها صدق رسول الله﴿ﷺ﴾

في وعدهم بها. ٩- قيل: أي و لتكون قصّة الحديبيّة و فتح خيبر و مغانمها آية للآتين المستقبلين من المؤمنين يستدلّون بها على صحّة قولكم و خلوص نيّتكم إذ وقع الخبر على ما أخبرته لأنّه علم الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

١٠- قيل: أي و لتكون قصّة الحديبيّة عنواناً لفتح مكّة و كفّ أيدي قريش عن المؤمنين فيها علامة للنّصرة و العزّة الإلهيّة، و قصّة خيبر و فتحها و غنائمها أمارة للغلبة الآتية في فتح الفتوح و باباً مفتوحاً لدخول النّاس في دين الله أفواجاً.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر السّياق، فتأمّل جيّداً.

و في قوله جلّ وعلا: «و يهديكم صراطاً مستقيماً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و يثبّتكم على دين قآئم يرضاه بانقيادكم لأمره و موافقتكم لرسوله﴿ﷺ﴾. ٢- قيل: أي و يهديكم طريق التّوكّل على الله تعالى فيما تأتون و ما تذرون، و طريق تفويض أُموركم إلى الله جلّ وعلا، و الثّقة بفضل الله بعد اتقان العمل. ٣- قيل: أي و يسدّدكم أيّها المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه، فيبيّنه لكم و هو أن تتقوا في امورکم کلّها بربّكم، فتوكّلوا عليه في جميعها ليحوطكم حياطته إيّاكم في مسيركم إلى مكّة مع رسول الله في أنفسكم و أهليكم و أموالكم، فقد رأيتم أثر فعل الله بكم إذ وثقتم في مسيركم هذا.

٤- قيل: أي و يثبّتكم و يزيدكم هدى و بصيرة بالتصديق برسول الله﴿ﷺ﴾ و ما جآءكم به ممّا ترون من عدة الله في القرآن بالصّلح في الحديبيّة و فتح خيبر و غنائمها. ٥- قيل: أي و يرشدكم صراطاً مستقيماً يفضي بكم إلى الحقّ و ما يؤدّي إلى الثّواب. ٦- قيل: أي و ليهديكم صراطاً مستقيماً و هو الطّريق الموصل إلى إعلاء كلمة الله تعالى و إحقاق الحقّ و بسط الدّين، و إلى إبطال كلمة الكفر و هزيمة الكافرين و فضيحة المنافقين. ٧- قيل: أي و يهديكم صراطاً إلى فتح مكّة، إذ كانت شائكة ملتوية قبل صلح الحديبيّة و فتح خيبر، و تجربة المؤمنين فيهما عبّدت لهم هذه الشّائكة فأصبحت صراطاً مستقيماً لاسترجاع عاصمة الدّولة الإسلاميّة.

أقول: و لكلّ وجهٌ من دون تنافٍ بينها فتأمّل جيّداً.

۲۱- (و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كلّ شئ قديراً)

في قوله تعالى: «و اخرى لم تقدروا عليه» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس و الحسن و قتادة و عبدالرّحمن بن أبي ليلى و الجبائى و مقاتل: هي غنآئم فارس و الرّوم.

فالمعنى: سُيؤتيكم الله مغانم اخرى، و هي مغانم فارس و الرّوم لم تقدروا عليها بعد، قد أعدّها الله لكم، و هي تحت قبضته يظهر عليها من أراد. فكما أنّ رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ بشّر المسلمين بكنوز كسرى و قيصر و ما كانت العرب تقدر على قتال فارس و الرّوم و فتح الله سبحانه مدائنهم، بل كانوا خولاً لهم حتّى قدروا عليها بعزّ الإسلام، و لولا الإسلام لما قدروا عليها قطّ.

۲- عن ابن عبّاس أيضا: هذه هي الفتوح الّتي تفتح إلى اليوم. ۳- عن قتادة أيضا: هي غنآئم فتح مكّة. ٤- قيل: هي غنآئم هوازن في غزوة حنين، لم يظنّوا أن يقدروا عليها لما فيها من الهزيمة و الجولة، و الكرّ و الفرّ، ثمّ الرّجوع مرّة بعد أُخرى، قد أحاط الله بها علماً أنّها ستصير لكم. و عن عكرمة: أي و اخرى لم تقدروا عليها يوم حنين. ٥- قيل: هي أرض فارس و الرّوم، و كلّ ما يفتحه المسلمون من البلاد إلى قيام السّاعة. فالمعنى و وعدكم الله فتح بلاد اخرى لم تقدروا على فتحها قد أحاط الله بها لكم و حفظها لكم و منعها من غيركم، حتّى يفتحها لكم كفارس و الرّوم الّذين كانت العرب خولاً لهم ثمّ أقدرهم عليها بعزّ الإسلام و غيرها من كلّ فتوح في الإسلام. ٦- عن مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة و لكنّهم ما فتحوها حتّى اليوم. فالمعنى: كلّ أرض يفتحها المسلمون بعد اليوم من البلاد إلى يوم القيامة.

۷- عن قتادة و الحسن أيضا: إن المراد من «اخرى» هي فتح أُخرى و هي فتح مكّة، و قد حاولوها عام الحديبيّة و لم يدركوها، فأُخبِروا بأنّ الله تعالى سيظفرهم بها و يظهرهم عليها.

فالتقدير: و قرية اخرى لم تقدروا على فتحها، و ذلك أنّ المسلمين الّذين بايعوا رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ تحت الشّجرة لم يقدروا في سفرتهم في الحديبيّة على دخول مكّة،

فاقتضت حكمة التنزيل تطمينهم بأنّ الله جلّ وعلا قد أحاط بها و لسوف يقدرهم عليها.

و المعنى: و وعدكم الله تعالى فتح قرية اخرى لم تقدروا عليها بعد، قد حفظها لكم حتّى تفتحوها، و إذا كان لكم في فتح خيبر و غنائمها آية، فإنّ لكم في أهل مكّة آية اخرى إذ كان المشركون في صراع طويل معكم، و كانت الحرب بينكم و بينهم سجالاً، و أنّكم لم تقدروا أن تنالوا منهم الاستسلام لكم... ثمّ ها أنتم هؤلآء ترون و قد جئتموهم لغير حرب و في عدد قليل، و مع هذا فقد ذلّوا بين أيديكم، و طلبوا عقد هدنة معكم، و ليس ذلك إلاّ لأنّ الله عزّوجلّ قد أحاط بهم، و أخذ على أيديهم و أوقع الرّعب منكم في قلوبهم.

۸- قيل: إنّ «اخرى» إشارة إلى ما سوف ييسر الله تعالى للمسلمين في مختلف ماداموا على ايمان و نيّة صادقة و إخلاص و وفاء. و المعنى: يعدكم الله تعالى مغانم اخرى و فتوحاً كثيرة تعجزون الآن عن أخذها قد حفظها الله لكم و لابدّ أن تأخذوها في المستقبل القريب أو البعيد. ۹- عن ابن عبّاس أيضاً و الضّحاك و ابن زيد و ابن إسحق: إنّها فتح خيبر قبل أن يزحفوا عليها، و لم يقدروا على أهلها، و قد وعدها الله تعالى رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قبل أن يفتحها للمسلمين، و لم يكونوا يرجونها حتّى أخبرهم الله سبحانه بها. ۱۰- عن عطيّة: إنّها فتح فارس.

۱۱- عن ابن عبّاس أيضاً: أي غنيمة أُخرى و هي غنيمة فارس، قد علم الله أنّها ستكون، و كان الله على كلّ شئ من الفتح و النّصرة و الغنيمة قديراً.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق و سياق الامتنان و التثبيت و التّطمين و البشارة و التّعظيم و إبراز القدرة، فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً.

و في **قوله تعالى:** «قد أحاط الله بها...» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي علم الله تعالى أنّ الفتوحات و غنائمها المؤجّلة ستكون لكم، أي قضى الله سبحانه بها أنّها لكم كما قال الله تعالى: «و أنّ الله قد أحاط بكلّ شئ علماً» الطّلاق: ۱۲) فقضى الله جلّ وعلا لكم فتوحات و غنائم اخرى قد أحاط بها.

٢- قيل: أي قد أحاط الله بها و بأهلها و أنتم فاتحها عليهم. ٣- عن الفرّاء: أي قد أحاط الله بها لكم حتّى يفتحها عليكم، فكأنّه قال: حفظها الله عليكم ليكون فتحها لكم، و منعها من غيركم حتّى تفتحوها و تأخذوها، و كان الله على كلّ شئ من فتح القرى و غير ذلك قديراً.

٤- قيل: أي قد قدرالله تعالى عليها و استولى فهي في قبض قدرته جلّ وعلا يظهر عليها من أراد، و قد أظهركم عليها و أظفركم بها و غنّمكوها. ٥- قيل: أي أعدّها لكم فهي كالشّئ الّذي قد أُحيط به من جوانبه، فهو محصور لايفوت، فأنتم و إن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لاتفوتكم.

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق.

٢٢- (و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لايجدون وليّاً و لا نصيراً)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن قتادة و الجبائى: أي و لو قاتلكم كفّار قريش بالحديبيّة لانهزموا ثمّ لايجدون وليّاً يحرسهم، و لا نصيراً ينصرهم و يدافع عنهم. ٢- عن ابن عبّاس و ابن جريج: أي ولو قاتلكم حلفآء أهل خيبر و هم غَطَفان و أسد والّذين أرادوا نصرة يهود خيبر و نصب ذرارى المسلمين و الإغارة على المدينة، لكانت الدّآئرة عليهم لانهزموا لايجدون وليّاً عن قتلكم و لا نصيراً يدافع عنهم، و لا مانعاً ما يراد بهم من القتل و الهزيمة. ٣- قيل: أي ولو قاتلكم يهود خيبر لانهزموا، ثمّ لايجدون وليّاً يدافع عنهم و لا نصيراً ينصرهم.

٤- قيل: أي و يا معشر المؤمنين في كلّ ظرف من الظّروف مادمتم على الايمان و النّيّة الصّادقة و الإخلاص في العمل تحت راية القرآن الكريم بقيادة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أو من رضىالله تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عنه لو قاتلكم الكفّار و المشركون، و الفجّار و المنافقون أنتم غالبون لأنّكم حزب الله جلّ وعلا و هم مغلوبون لأنّهم حزب الشّيطان.

في الآية الكريمة بيان حكم مطلق على ما سيكون بين المؤمنين بما أنّهم مؤمنون هداهم الله جلّ وعلا صراطاً مستقيماً، و بين الكفّار بما أنّهم الكفّار، منذ نزول هذه الآية،

فإنّ أيّ لقاء سيلتقي فيه المؤمنون بالكفّار و المشركين، و الفجّار و المنافقين لن يكون للكفّار فيه إلاّ الذّلّة و الهزيمة الّتي لايقيلهم منها وليّ و لا نصير، و قد تحقّق هذا فلم يكن بين المؤمنين و الكفّار بعد الحديبيّة حرب إلاّ أن يكون من الكفّار استسلام أو إسلام أو هزيمة و هوان كما في فتح خيبر و فتح مكّة و غيرهما...

أقول: و إن كان الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق، و لكنّ النّظر بعموم اللفظ لاخصوص المعنى، فالقول الرّابع هو الأقوى فتدبّر جيّداً و لاتغفل.

٢٣- (سنّة الله الّتي قد خلت من قبل و لن تجد لسنّة الله تبديلاً)

في الآية الكريمة أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي هكذا سيرة الله الّتي قد مضت في الامم الخالية بالقتل و العذاب حين خرجوا على الأنبيآء و المرسلين، و لن تجد يا محمّد﴿ﷺ﴾ لعذاب الله لهم بالقتل تحويلا. ٢- عن إبن عبّاس أيضاً: أى هذه سنّتى فى أهل طاعتى و أهل معصيتي أنصر أوليائي و أخذل أعدائي. ٣- قيل: أي سنّت في الكافرين الهزيمة و الخذلان، و في المؤمنين بالنّصر و الغلبة و العزّة، و لن تجد يا محمّد لسنّة الله الّتي سنّها في خلقه تغييراً منه سبحانه، و إنّما ذلك دائم للإحسان جزآؤه من الإنسان، و للإسائة و الكفر العقاب و النّكال...

٤- قيل: أي و سنّ الله جلّ وعلا أن تجري المسبّبات على أسبابها، و النّتآئج على مقدّماتها و السّبب الإلهيّ و الطّبيعي لنصر المجاهدين و المقاتلين و غلبتهم على أعدآئهم... هو الايمان الصّادق، و الإخلاص في العمل، و الصّبر و الصّلابة في الدّين، والبذل بقيادة من يختاره للقيادة الله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و صالح المؤمنين، لا من يغتصب مركز القيادة بالوراثة أو الزّور أو التّزوير أو الرّشوة أو الخداع أو بالقهر و الغلبة و السّقيفة السّخيفة الشّومة.

٥- قيل: أي سنّ الله تعالى غلبة أنبيآئه و رسله عليهم السلام على أعدآئهم الكافرين سنّة قديمة فيمن مضى من الأمم و هي جارية فيك يا محمّد﴿ﷺ﴾ و اُمّتك، كما قال سبحانه: «كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلى» المجادلة: ٢١) فالمعنى: هذه طريقة الله

جلّ وعلا و عادته السّالفة نصر أوليآئه على أعدآئه، فكلّ قوم إذا قاتلوا أنبيآءهم انهزموا و قُتِلوا و لن تجد لسنّة الله في نصرة رسله تغييراً من الله تعالى. ٦- قيل: أي إنّ الله تعالى قضى أن تكون العاقبة لأنبيآئه و رسله عليهم السّلام لا أنّهم كلّما قاتلوا الكفّار غلبوهم و هزموهم، و إنّما العاقبة لهم عليهم السّلام لأنّ الله تعالى قال: «فاصبر إنّ العاقبة للمتّقين» هود: ٤٩).

فالسّنّة: هي الطّريقة المستمرّة في معنى، و من ذلك قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها، و من سنّ سنّة سيّئة فعليه إثمها و إثم من عمل بها».

فسنّ الله سبحانه سنّة قديمة على أن يظهر رسله و المؤمنين بهم على الكافرين، فتجري هذه السّنّة لكم أيّها المؤمنون إن صدقتم في ايمانكم، و أخلصتم نيّاتكم، و استقمتم في إعلاء كلمة الله و نصرة دينه، و سعيتم في إدحاض كلمة الكفر و اجتهدتم على هدم أساس الشّرك و الطّغيان، و الكفر و العصيان، و النّفاق و الفساد... فإنّ سنّة الله تعالى ثابتة جارية في خذلانه أهل الكفر و الضّلالة، و نصرة أهل الايمان و الهداية فيما مضى من الأُمم السّافلة، و نصره تعالى هو أمره بالقتال، و لن تجد يا محمّد (صلّى الله عليه وآله) لسنّة الله تعالى هذه ما يدفعها.

و التّبديل: هو رفع أحد الشّيئين، و جعل الآخر مكانه فيما حكم أن يستمرّ على ما هو به، و لو رفع الله سبحانه حكماً يأتي بخلافه لما كان تبديلاً لحكمه لأنّه لا يرفع شيئاً إلاّ في الوقت الّذي تقتضي الحكمة رفعه.

٧- قيل: سنّة الله: هي حكمه و قضآئه بأن ينصر الحقّ و أهله، و يخذل الباطل و أهله كما قال: «بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» الأنبيآء: ١٨).

فجرى حكمه تعالى و قضآئه - إذا تقابل الايمان و الكفر في موطن - على غلبة أهل الايمان و الصّلابة في الدّين، و خذلان أهل الكفر و الضّلالة، و رفع الحقّ و أهله، و وضع الباطل و أهله كما نصر يوم بدر أوليآئه المؤمنين على قلّة عَدَدهم و عُدَدهم، و كثرة عدد المشركين و شوكتهم... فجرى حكمه و قضآئه على أن تدور الدّآئرة على البغاة المعتدين و أن ينصر من ينصر دينه.

أقول: و المعاني متقاربة و المآل واحد، فتأمّل جيّداً.

٢٤- (و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيراً)

في قوله تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة» أقوال:

١- قيل: أي و هو الّذي كفّ أيدي كفّار قريش عنكم بالرّعب في قلوبهم كما قال تعالى: «سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» آل عمران: ١٥١) و كفّ أيديكم عن كفّار قريش بالنّهي عن قتالهم يوم الحديبيّة من بعد أن أظفركم عليهم حتّى اتّفق بينهم الصّلح الّذي كان أعظم من الفتح. و ذلك أنّهم بعثوا أربعين رجلاً ليصيبوا من المسلمين فأُسِروا، فخلّى رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ سبيلهم. و عن عبدالله بن المغفل: كان رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ جالساً في ظلّ شجرة و بين يديه عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يكتب كتاب الصّلح، فخرج ثلاثون شابّاً عليهم السّلاح، فدعا عليهم رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فأخذ الله أبصارهم (بأسماعهم خ) فقمنا إليهم فأخذنا هم فخلّى النّبيّ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ سبيلهم.

و قيل: إنّ ثمانين من أهل مكّة طافوا بعسكرهم ليصيبوا المسلمين، فأخذوهم فأتوهم إلى رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فعفى عنهم و خلّى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصّلح. فالمعنى: كفّ الله تعالى أيدي كفّار قريش عن المسلمين و كفّ أيدي المسلمين عن كفّار قريش، فانجرّ هذا إلى الصّلح الحديبيّة.

قيل: هذا مردود، فإنّ المسلمين لم يدخلوا مكّة عام الحديبيّة، و لم يظفروا بكفّار قريش الظّفر الّذي يمكّن لهم منهم.

و قيل: لم ينه المسلمون عن قتال مشركي مكّة لأنّهم لايستحقّون القتل بكفرهم و صدّهم و لكن للإبقآء على المسلمين الّذين كانوا في أيدي المشركين «ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم» يعني فتح مكّة.

و في تفسير القرطبي: «و ذكر ابن هشام عن وكيع: و كانت قريش قد جآء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين للايقاع بالمسلمين، و انتهاز الفرصة في أطرافهم، ففطن

المسلمون لهم فأخذوهم أسرى، و كان ذلك و السّفرآء يمشون بينهم في الصّلح، فأطلقهم رسول الله﴿ﷺ﴾ فهم الّذين يسمّون العتقآء، و منهم معاوية و أبوه».

و قال مجاهد: أقبل النّبيّ﴿ﷺ﴾ معتمراً إذ أخذ أصحابه ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النّبيّ فذلك الإظفار ببطن مكّة». و قيل: أي هو الّذي كفّ أيدى مشركي مكّة الّذين خرجوا على عسكر رسول الله﴿ﷺ﴾ بالحديبيّة يلتمسون غرّتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله﴿ﷺ﴾ سريّة فأتى بهم أسرى، فخلّى عنهم رسول الله﴿ﷺ﴾ و منّ عليهم و لم يقتلهم.

و قال القتادة: ذكر لنا أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله﴿ﷺ﴾ يقال له زُنيم، اطّلع الثّنيّة من الحديبيّة فرماه المشركون بسهم فقتلوه فبعث النّبيّ﴿ﷺ﴾ خيلاً فأتوا باثنى عشر فارساً من الكفّار، فقال لهم النّبيّ﴿ﷺ﴾: «هل لكم عليّ ذمّة»؟ قالوا: لا فأرسلهم نزلت».

و قال ابن أبزي و الكلبي: هم أهل الحديبيّة، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتىّ وقع الصّلح، و كانوا خرجوا بأجمعهم و قصدوا المسلمين، و كفّ أيدي المسلمين عنهم».

و قيل: إطلاق بطن مكّة على الحديبيّة مبالغة. و قيل: كان بعضها من حرم مكّة. و قيل: «بطن مكّة» كناية عن جوارحها أو واديها.

٢- قيل: كان هذا الكفّ يوم فتح مكّة. فبناءً على هذا القول لكان فتح عنوة. فدخل رسول اللّه﴿ﷺ﴾ مكّة فاتحاً، فأذ عن له﴿ﷺ﴾ عتاتها، و استسلموا في طليعتهم رأس الشّرك و الطّغيان و الكفر و العصيان أبوسفيان الّذي جيش الجيوش و قادها مرّات ضدّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و كان مع ابي‌سفيان ابنه معاوية عليهما الهاوية و النّيران، فامتنّ تعالى على رسوله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين بهذا النّصر من دون قتال، حيث كفّ أيدى مشركين بإلقاء الرّعب في قلوبهم، و كفّ أيدي المسلمين بالنّهي عن القتال. و قيل: أي مهّد الأسباب الّتي يحصل معها الكفّ المذكور، إذ منع المسلمين من مقاتلة مشركي مكّة بالنّهى والزّجر، و منع كفّار مكّة من منابذة المسلمين بإلقاء الرّعب في قلوبهم و هكذا.

قيل: فهي فتح مكّة بعد صلح الحديبيّة، و بسبب من هذا الصّلح الّذي لم يدم سوى

عامين ثمّ نقضه المشركون، ففتح اللّٰه مكّة للمسلمين بلا قتال تقريباً، و هي الّتي استعصت عليهم من قبل و هاجمتهم في عقر دارهم وردتهم عام الحديبيّة، ثمّ أحاط اللّٰه بها و سلّمها لهم بلا قتال.

٣- عن ابن أبزي: أي كفّ اللّٰه تعالى رسوله﴿ﷺ﴾ عن مشركي مكّة من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم. قيل: و فيه دلالة على أنّ مكّة فتحت بالسّيف.

٤- عن ابن عبّاس: أي هو الّذي كفّ أيدي أهل مكّة عن قتالهم، و أيديكم عن قتالهم في وسط مكّة غير أن كان بينهم رمى بالحجارة من بعد أن أظفركم عليهم حيث هزمهم أصحاب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بالحجارة حتّى دخلوا مكّة و كان اللّٰه بما تعملون من رمي الحجارة و غيره بصيراً.

و قيل: و كان بينهم قتال بالنّبل، و قيل: بالظُّفر «طرف القوس» و قيل: أراد بكفّ اليد أنّه شرط في الكتاب أنّ من جآءنا منهم فهو ردّ عليهم، فخرج أقوام من مكّة مسلمون، و خافوا أن يردّهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ إلى المشركين، فلحقوا بالسّاحل، و جعلوا يغيرون على الكفّار و يأخذون عيرهم، حتّى جآء كبار قريش إلى النّبيّ﴿ﷺ﴾ و قالوا: اضممهم إليك حتّى نأمن، ففعل. و قيل: همّت غَطَفان و أسد منع المسلمين من يهود خيبر لأنّهم كانوا حلفآئهم، فمنعهم اللّٰه عن ذلك، فهو كفّ اليد.

٥- قيل: أي و هو الّذي كفّ أيدي كفّار مكّة عنكم و أيديكم عنهم في داخل مكّة من بعد أن أممتم من المدينة إلى الحرم و طلبوا منكم الصّلح من بعد أن كانوا يغزونكم بالمدينة، صاروا يطلبون الصّلح بعد أن كنتم تطلبون الصّلح منكم، فكفّ أيدي كلّ من الطّائفتين عن الاخرى ما وقع من الصّلح بين الفئتين بالحديبيّة، و هي بطن مكّة لقربها منها و اتّصالها بها حتّى قيل: إنّ بعض أراضيها من الحرم، و ذلك أنّ كلاًّ من الفئتين كانت أعدى عدوّ للاخرى و قد اهتمّت قريش بجمع الجموع من أنفسهم و من الأحابيش، و بايع المؤمنون النّبيّ﴿ﷺ﴾ على أن يقاتلوا، و عزم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ على أن يناجز القوم و قد أظفر اللّٰه تعالى نبيّه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين على كفّار قريش إذ دخلوا أرضهم و

ركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهّم بينهم إلاّ القتال، ولكنّ اللّه تعالى كفّ أيدى الكفّار عن المؤمنين و أيدي المؤمنين عن الكفّار بعد إظفار المؤمنين عليهم. و قيل: إظفاره دخوله﴿ﷺ﴾ في بلادهم بغير إذنهم.

٦- قيل: إنّ كفّ أيدي مشركي مكّة هنا عن المسلمين: «كفّ أيديهم عنكم» يعمّ صلح الحديبيّة و فتح مكّة، حيث إنّ كفّ أيدي المسلمين عن المشركين: «و أيديكم عنهم» يخصّ الفتح بمكّة: «من بعد أن أظفركم عليهم» فإنّه خاصّ بفتح مكّة. ف «بطن مكّة» ظرف للثّاني، و الأوّل أعم من بطن مكّة و ظهرها الحديبيّة.

و أنّ هذا ممثّل و نموذج من المواقف الحقّه الإلهيّة و الرّسالة السّماوية حاضرة حاذرة في فتح الفتوح، فإنّ اللّه سبحانه كفّ أيدي المشركين المتطاولة عن المسلمين، و كفّ أيديهم كذلك، و متقابلاً عنهم ببطن مكّة لمّا دخلوها: «من بعد أن أظفركم عليهم» ظفرة زافرة مظفّرة، و أنّه لموقف مشرف عديم النّظير ألّا تتطاول أيدي المؤمنين المظفّرين على المشركين الّذين آذوهم و شردوهم و أخرجوهم من ديارهم: «الّذين اخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا اللّه » الحج: ٤٠) و قاتلوهم و عاملوهم طوال الرّسالة ما لم يعامل به أحد من العالمين.

فبطن مكّة هو داخلها و عقرها، لاخارجها و لاخارج حرمها: الحديبيّة كما قيل، و لاسيّما «من بعد أن أظفركم عليهم» و لم يكن في الحديّبيّة ظفر لامنهم و لا عليهم، و إنّما مصالحة المهادنة، و إذا قيل عنها: إنّها فتح -فتح الصّلح- فليس إلاّ لأنّه فتح سبيلاً إلى فتح مكّة، فقد كانت تنهار قوات المسلمين لوقاتلوا، فلم يجدوا سبيلاً لفتح الفتوح بعد ما انهارت قواتهم، و انصدمت نفوسهم بقتلى.

فهنا موقفان مشرفان لفتح الفتوح، يجعلانه في قمّة الفتوح في معارك الشّرف والكرامة طوال التّأريخ: **أحدهما**- أنّ اللّه جلّ وعلا كفّ أيدى المشركين الكثيرة عن المسلمين القليلين، رغم أنّها كانت عليهم متطاولة طوال الرّسالة في مكّة و إلى المدينة في كلّ عام مرّة أو مرّتين، و كانوا يستعدون دوماً و يزدادون قوّة لقضآء حاسم على المسلمين، و لكنّ اللّه عزّوجلّ كفّها عنهم.

ثانيهما- و هو أشرف: أنّ اللّٰه سبحانه كفّ أيدي المؤمنين المظفّرين عن مشركي مكّة كفاً للحميّة و طبيعة الانتقام، خلاف ما يفعله الفاتحون التوسعيون: «إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها و جعلوا أعزّة أهلها أذلّة و كذلك يفعلون» النمّل: ٣٤) لكى يعلم أنّ فتح مكّة ما كان إلاّ فتحاً للقلوب لا توسّعاً و انتقاماً بعد الاحتلال.

هذا- و من ثمّ الآيات التّالية الّتي تتحدّث عن جوّ الفتح تؤيّد بطن مكّة و ظفرها، إنّ ذلك كلّه ينحو منحى فتح الفتوح، و إن شمل فتح الصّلح في الحديبيّة هامشياً و كذريعة له على بعض الوجوه. و قد كفّ اللّٰه تعالى أيدي الغزاة المسلمين عن هؤلاء المشركين المعتدين- و هو من منن ربّ العالمين- حجز المسلمين هنا عن ملابسات نفسيّة كثيرة و دقيقة لطيفة المدخل: من الزّهو الّذي قد يساور القلب، أو يتدسّس إليه من سكرة النّصر بعد طول الكفاح، و فرحة الظّفر بَعد بُعد العناء، و هو مدخل يصعب توقّيه في القلب البشري.

و من أمثال هذه الزّهوات يؤمر رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في سورة النّصر أن يستغفر ربّه: ليستر عنه و يسدّده عنها، و قد ستر: أن كفّ أيديهم عن المشركين.

فتراه إذ يدخل مكّة فاتحاً منتصراً، مكّة الّتي آذاه أهلها و أخرجوه﴿ﷺ﴾ منها و هي مولده﴿ﷺ﴾ و حاربوه و وقفوا في طريق دعوته معاندين و عرقلوا عليه: «من قريتك الّتي أخرجتك» محمّد﴿ﷺ﴾: ١٣) «و إن يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك» الأنفال: ٣٠) تراه يدخلها منحنياً لله تعالى شاكراً على ظهر دابّته، ناسياً فرحة النّهر و زهوته، عفواً رحيماً لاينتقم من أهلها الّذين ظلموه و آذوه ما أُوذى مثله نبيّ... وهذا هو الأدب الّذي تتقسم به الرّسالة السّماوية دائماً، يريد اللّٰه تعالى به أن ترتفع البشريّة إلى آفاقه أو تتطلع دوماً إليها.

٧- قيل: أي هو الّذي كفّ أيدى مشركي مكّة المتطاولة عن المسلمين في صلح الحديبيّة، و كفّ أيدي المسلمين عن مشركي مكّة في داخلها من بعد أن أظفر المسلمين على المشركين في فتح مكّة.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين، و لكنّ السّابع غير بعيد من دون تناف بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً.

٢٥- (هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل اللّه في رحمته من يشآء لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

في قوله تعالى: «و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه» أقوال: ١- عن سعيد بن جبير: أي و صدّوا الهدى محبوساً أى يبلغ منحره. المعكوف: المحبوس، و منه الاعتكاف و هو الاحتباس.

و الهدي: هي البدن الّتي ساقها رسول اللّه﴿ﷺ﴾ معه، و كانت سبعين بدنة حتّى بلغ ذي الحليفة، فقلّد البدن الّتي ساقها و أشعرها و أحرم بالعمرة حتّى نزل بالحديبيّة، و منعه﴿ﷺ﴾ مشركوا مكّة، و كان الصّلح، فلمّا تمّ الصّلح نحروا البدن، فذلك قوله: «معكوفاً» أي محبوساً عن أن يبلغ منحره و هو حيث يحلّ نحره يعني مكّة لأنّ هدى العمرة لايذبح إلاّ بمكّة كما أنّ هدي الحجّ لايذبح إلاّ بمنى. وعن ابن زيد: كان الهدى بذي طوى، و الحديبيّة خارجة من الحرم نزلها رسول اللّه﴿ﷺ﴾ حين غوّرت قريش عليه المآء. و قيل: أي و نحر الهدى، فالهدى معطوف على «مسجد الحرام» و المعنى: و صدّوكم عن نحر الهدى

٢- قيل: أي ممنوعاً من أن يبلغ محلّه المعهود و هو الحرم. و المعكوف: الممنوع من الذّهاب في جهة بالإقامة في مكانه، و منه الاعتكاف و هو الإقامة في المسجد للعبادة، وعكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً: إذا قام عليه. ٣- قيل: أى موقوفاً. ٤- قيل: أي مجموعاً ٥- قيل: أي محبوساً ممنوعاً موقوفاً من أن يبلغ محلّه المعهود و هو مكّة.

أقول: و على الأوّل جمهور المحقّقين و في معناه الخامس، من دون تنافٍ بينهما و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم» أقوال: ١- عن الضّحّاك: أي و لولا المستضعفون من المؤمنين و المؤمنات بمكّة وسط كفّار أهلها، لم تعلموهم بأعيانهم لاختلاطهم بغيرهم أن

تطؤهم بالقتل و توقعوا بهم، فتصيبكم منهم جناية و قيل: لولا اولئك المستضعفون لو قد تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً. فكان بين مشركي مكّة عدّة من المؤمنين و المؤمنات المستضعفين لم يعرفوهم المسلمون. ٢- عن الضّحّاك أيضاً: أي و لولا مَن في أصلاب مشركي مكّة و أرحام نسآئهم من رجال مؤمنين، و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤا آبآئهم فتهلك أبنآؤهم... فكفّ اللّٰه أيدى المسلمين عن قتل آبآئهم لذلك.
٣-قيل: أي و لولا رجال من أهل الايمان و نسآء منهم أيّها المؤمنون بالله تعالى أن تطؤهم بخيلكم و رجلكم لم تعلموهم بمكّة، و قد حبسهم المشركون بها عنكم، فلايستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم، فتصيبكم منهم غنم بغير علم. و عن قُطرب: أي شدّة. قيل: معرّة: أي تبعة فيها مكروه و مشقّة و عار و إثم و جناية و همّ و أذى و تأسّف و عيب و عَنَتٌ و تألّم النّفس ممّا أصابهم. و هذا حين مُنِعَ رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ و أصحابه أن يدخلوا مكّة، فكان بها رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات، فكره اللّٰه تعالى أن يؤذوا أو يوطئوا بغير علم فتصيبهم منهم معرّة بغير علم. فالمعنى: أن تدوسوهم و تصيبوهم بالأذى أثنآء الاشتباك، فتقعوا بذلك في الإثم و الذّنب و التّعب والجناية و التّأسّف و المشاكل الاخرى... منها أن يقول المشركون: قد قتل المسلمون أهل دينهم.

٤- قيل: إنّ اللّٰه تعالى قال للمسلمين الّذين دخلوا مكّة: إنّما نهاكم اللّٰه تعالى عن قتل أهلها لأنّ فيها جماعة من المؤمنين رجالاً و نسآءً كتموا ايمانهم خوفاً من المشركين، فلو دارت رحى الحرب لقتلتم بعض إخوانكم في الدّين جهلاً و خطأً، فتصيبكم منهم مساءة و مشقّة بأن تقتلوهم بغير علم بايمانهم، فيشقّ عليكم ذلك و تتألّمون، فهيّأ اللّٰه سبحانه أسباب الأمن و السّلام في مكّة لتدخل قريش في الإسلام طوعاً أو كرهاً، و هكذا كان، و لو تميّز المؤمنون عن الكافرون لعذّبنا الّذين كفروا منهم، فلا يرجى دخولهم في الإسلام إطلاقاً، و بعض هؤلآء فرّ من مكّة في اللحظة الّتي دخلها المسلمون.

٥- قيل: أي و لولا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين و نسآء مؤمنات لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين و كتمانهم الايمان، فيلزمكم العار و الاثم و العتب عليكم لأذنّا

لكم في دخول مكّة، ولكن حال بينكم و بين دخولها ذلك السّبب. قيل: هؤلآء المؤمنون و المؤمنات كانوا تسعة نفر، سبعة رجال، و امرأتين.

٦- عن ابن جريج: إنّ اللّٰه دفع عن المشركين يوم الحديبيّة بأُناس من المؤمنين بين أظهرهم. ٧- قيل: تقديره: لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين في مكّة غير متميّزين منهم لوقع ما كان جزاءً لكفرهم و صدّهم، و لو حصل التميز و ارتفع الاختلاط لحصل التّعذيب و لعجّل لهم ما يستحقّون. ٨- قيل: أي هم الّذين كفروا و استحقّوا التّعجيل في إهلاكهم، و لولا رجال مؤمنون... لعجّل لهم ذلك. ٩- عن ابن عبّاس و مقاتل و الكلبي: «معرّة»: غُرم الدّية في كفّارة قتل الخطأ، عتق رقبة مؤمنة، و من لم يطق فصيام شهرين، و هو كفّارة قتل الخطأ في الحرب. و المعنى: و لولا المؤمنون من الرّجال و النّساء الّذين لم تعلموهم أنّهم مؤمنون لم يتميّزوا من كفّار قريش لم تأمنوا أن تقتلوا المؤمنين، فتلزمكم من قتلهم السّيّئة و الكفّارة بقتل من على دينكم، فهذه المعرّة هي الّتي صانكم اللّٰه تعالى عنها، و لولا ذلك لسلّطكم عليهم بالقتل من غير أن تعلموا أنّهم مؤمنون. قيل: قد أوجب اللّٰه على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بايمانه الكفّارة دون الدّية في قوله تعالى: «فإن كان من قوم عدوّلكم و هو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة» النسآء: ٩٢).

١٠- قيل: أي إن وطئتموهم غير عالمين بايمانهم لزمكم سبّة من مشركي مكّة بغيرعلم أي انّهم لايعلمون أنّكم معذورون فيه. ١١- قيل: أي و لو لم يكفّ تعالى أيديكم عن مشركي مكّة في فتح مكّة لانجرّ الأمر إلى إهلاك مؤمنين بين ظهرانيهم، فيصيبكم من ذلك مكروه و هو تعالى يكره ذلك. ١٢- عن قتادة و ابن زيد: أي و لولا أن تطؤا رجالاً مؤمنين و نسآء مؤمنات لم تعلموهم بايمانهم، فينالكم إثم لأجلهم بغير علم منكم بذلك لأذن اللّٰه لكم أيّها المؤمنون في دخول مكّة، ولكنّه تعالى حال بينكم و بين ذلك ليدخل اللّٰه في الإسلام من كفّار قريش من يشآء قبل أن تدخلوها. و قيل: جواب «لولا» محذوف، و تقديره: و لولا المؤمنون الّذين لم تعلموهم أنّهم مؤمنون لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم.

١٣- عن ابن عبّاس أيضاً: المعرّة: المذمّة و العائبة الّتي تعيب الإنسان و تنقصه. والمعنى: يتوجّه اللوم و العيب إلى المسلمين المجاهدين لو قتلوا بعض هؤلآء المؤمنين والمؤمنات الّذين كانوا بين المشركين، و كان الباقون من المؤمنين و المؤمنات يعلمون أنّ هؤلآء البعض المقتولين كانوا مؤمنين، فقتلوا بأيدي إخوانهم المؤمنين الّذين خفي عليهم ايمانهم. ١٤- قيل: أي لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين أن تواقعوا بهم و تبتدؤهم بالقتل و الايقاع بهم، فتصيبكم من جهتهم مكروه و مشقّة كوجوب الدّية والكفّارة و ندم بقتلهم و التأسّف عليهم، و تعيير الكفّار بذلك و الإثم و التقصير في البحث عنهم، فتطؤهم غير عالمين بهم و لا علم بأن يستحقّوا القتل. فالمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفّ أيديكم عنهم.

أقول: و على الرّابع أكثر المحقّقين و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «ليدخل اللّه في رحمته من يشآء» أقوال: ١- قيل: أي و كفّ أيديكم عن مشركي مكّة ليدخل في رحمته من أسلم من المشركين بعد الصّلح. و المعنى: كفّ تعالى أيديكم عنهم ليدخل بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة من يشآء من هؤلآء المشركين الّذين أسلموا. فإنّ للّه تعالى في هؤلآء المشركين من يريدهم لدينه بسبب استعدادهم للايمان، فيدخلهم في رحمته و هي الإسلام، و لهذا مدّلهم في الأجل، و دفع عنهم أيدي المؤمنين من أن تقضى عليهم، و ذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، و ليدخل في رحمته من يشآء من هؤلآء المشركين بأنّهم يسلمون بعد ذلك. فلم يأذن اللّه للمسلمين في قتال المشركين ليسلم بعد الصّلح من قضى أن يسلم من أهل مكّة، و كذلك كان أسلم الكثير منهم و حسن إسلامهم و دخلوا في جنّته.

٢- قيل: أي ليدخل اللّه في رحمته من يشآء من اولئك المؤمنين المستضعفين، بأمنهم و إزالة استضعافهم تحت أيدى المشركين، و بتوفيقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأتمّ في مكّة. ٣- قيل: أي و كفّ أيديكم عن المشركين ليدخل في رحمته اولئك المؤمنين و المؤمنات غير المتميّزين بسلامتهم من القتل، و إيّاكم بحفظكم من إصابة المعرّة و هي

سلامتكم من الطّعن و العيب. ٤- قيل: أي لو قتلتموهم لأدخلهم اللّٰه في رحمته.

٥- عن ابن عبّاس: أي ليكرم اللّٰه بدينه من يشآء من كان أهلاً لذلك من المشركين. و ذلك أنّ أولئك المؤمنين و المؤمنات بين المشركين إذا صانهم الكفّ المذكور فأظهروا ايمانهم لمعاينة قوّة الدّين، فيقتدى بهم الصّائرون للإسلام. ٦- قيل: كأنّه قيل: لقد كان الكفّ و منع التّعذيب و القتل عن أهل مكّة ليدخل اللّٰه تعالى مؤمنيهم في حيّز توفيق الخير و الطّاعة أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من المشركين بعد الصّلح و قبل دخول مكّة و ليصون المؤمنين منهم من الأذى، و ذلك أنّهم إذا شاهدوا منع تعذيبهم بعد الظّفر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناء بشأنهم رغبوا في الإسلام و الانخراط في سلك المرحومين، و إنّ المؤمنين إذا علموا منع تعذيب المشركين بعد الظّفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا ايمانهم فيقتدى بهم.

٧- عن القفال: إنّ اللام في «ليدخل» متعلّق بـ«المؤمنين و المؤمنات» أي آمنوا ليدخلهم اللّٰه تعالى في رحمته. و قيل: اللام متعلّق بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام، تقديره: فحال بينكم و بينهم ليدخل اللّٰه في رحمته من أسلم من كفّار قريش بعد صلح الحديبيّة.

٨- قيل: أي ليدخل اللّٰه في رحمته من يشآء من مؤمنين و مؤمنات كانوا بين مشركي مكّة، و من كان في أصلاب رجال و أرحام أُمّهات من المشركين، و من أسلم من المشركين بعد الصّلح و فتح مكّة، فشملتهم رحمة اللّٰه تعالى.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و الكلبي: أي لوخرج هؤلآء المؤمنون و المؤمنات من بين مشركي مكّة، و تفرّقوا من عندهم بأن يمتازوا منهم و لم يبقوا بينهم لعذّبنا الّذين كفروا من كفّار مكّة عذاباً أليماً بالقتل و السّبي حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهليّة الّتي تمنع من الإذعان للحقّ، ولكن لم نعذّبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين و المؤمنات فأنزل اللّٰه الثّبات و الوقار على رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و على المؤمنين، فامتنعوا أن يبطشوا بهم و ألزمهم الوفاء

بالعهد و كانوا أحقّ بذلك من غيرهم إذا اختارهم اللّٰه تعالى لدينه و صحبة نبيّه﴿ﷺ﴾. و عن القتبي: أي لو تميّز المؤمنون من كفّار قريش، وانفردوا عنهم...

٢- قيل: أي لو انفصل هؤلآء المؤمنون و المؤمنات الّذين أرادهم اللّٰه للايمان عن كيان المشركين الّذين لن يؤمنوا بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ أبداً لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً بأن يسلّطكم عليهم أو يرسل عليهم عذاباً من عنده ولكن اللّٰه تعالى حماية للمؤمنين و المؤمنات و دفعاً لما يلحقهم من مكروه إذا نزل العذاب بهؤلآء المشركين الّذين يخالطونهم و يمتزجون بهم، لم ينزل عذابه في الدّنيا بهؤلآء المشركين الّذين لن يؤمنوا أبداً و أنظرهم إلى يوم الدّين. فأكرم اللّٰه تعالى المؤمنين و المؤمنات فلم يفجعهم في أهليهم من المشركين، و لم يُرهم ما يسؤهم فيهم و هكذا يصنع اللّٰه لأوليآئه...

٣- عن الضّحّاك و قتادة: أي لوزال المؤمنون من بين أظهر الكفّار لعذّب الكفّار بالسّيف ولكنّ اللّٰه تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفّار. ٤- قيل: أي لو تميّز المؤمنون والمؤمنات من كفّار قريش، لم تعلموهم منهم، و هم بين أظهرهم، ففارقوهم و خرجوا من بين أظهرهم لسلّطناكم على المشركين، فقتلتموهم فيها قتلاً ذريعاً بالسّيف أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل. ٥- قيل: أي لو تزيّلوا عن بطون النّسآء و أصلاب الرّجال. ٦- عن ابن جريج: أي لولا دفع اللّٰه عن المشركين يوم الحديبيّة بأُناس من المؤمنين كانوا بين أظهرهم.

٧- قيل: أي لو تزيّلت الطّوائف الثّلاث و هم: ١- المؤمنون المؤمنات الّذين بين مشركي مكّة كتموا ايمانهم. ٢- بعض المشركين الّذين يرجى منهم الايمان. ٣- الّذين في أصلاب المشركين و أرحام المشركات يؤمنون بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾.

فلو تفرّقوا هؤلآء الطّوائف الثّلاث و امتاز بعضهم عن بعض و عُرِفوا كلّهم بالايمان، ثمّ امتازوا كلّهم عن المشركين الّذين لايرجى منهم الايمان كما يمتاز المجرمون عن المؤمنين يوم القيامة: «و امتازوا اليوم أيّها المجرمون» يس: ٥٩) فعندئذ لعذّبنا الّذين بقوا على كفر و ضلالة و على شرك و غواية عذاباً أليماً، و لكنّهم لايمتازون إلاّ عند ظهور

مدار الدّهر و نواميس العصر صاحب الزّمان﴿ﷺ﴾ في الحياة الدّنيا، ثمّ يمتازون في الدّار الآخرة. ٨- قيل: أي لو افترق هؤلاء المؤمنون بين مشركي مكّة منهم و لم يبقوا مختلطين لعذّبنا... فالضّمير في «تزيّلوا» راجع إلى المؤمنين و الكفّار.

أقول: و السّابع هو المستفاد من الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، و هو المؤيّد بالسّياق فتدبّر جيّداً و لاتغفل.

٢٦-(إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل اللّٰه سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها و كان اللّٰه بكلّ شيء عليماً)

في قوله تعالى: «إذ جعل الّذين كفروا» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي إذ أخذ كفار مكّة الّذين في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة بمنعهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين عن البيت. ٢- قيل: أي حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحميّة، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الّذي كتب بين يدي رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المشركين: «بسم اللّٰه الرّحمن الرّحيم» و أن يكتب فيه: «محمّد رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾» فامتنع هو و قومه من دخول رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ عامه ذلك، فلم يقرّوا بالبسملة و النّبوّة، و حالوا بين الرّسول﴿ﷺ﴾ و البيت.

٣- قيل: أي لعذّبنا الّذين كفروا و أذنّا لك في قتالهم حين جعلوا في قلوبهم الأنفة الّتي تحمى قلوبهم بالغضب، و هي عادة آبائهم في الجاهليّة أن لايذعنوا لأحدو لاينقادوا له. ف«إذ» متعلّق ب«لعذّبنا» ٤- قيل: أي صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه حين جعلوا في قلوبهم الأنفة الّتي تحمى الإنسان فالظرف: «إذ» متعلّق ب «صدّوكم». ٥- قيل: أي اذكر أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ أو اذكروا أيّها المؤمنون إذ جعل اللّٰه في قلوب الكافرين بسبب كفرهم الحميّة الجاهليّة، و جعلها فيها بإزآء إنزال السّكينة في قلوب المؤمنين كلاًّ بما يستحقّه. ٦- قيل: تقديره: أحسن اللّٰه تعالى إليكم أيّها المؤمنون إذ جعل في قلوب الكافرين الحميّة... و قيل «جعل» بمعنى صيّر. و قيل: بمعنى ألقى. أي هم

الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام إذ القوا في قلوبهم الحميّة حميّة الملّة الجاهليّة.

أقول: و على الثّالث أكثر المفسّرين من دون تناف بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «حميّة الجاهليّة» أقوال: ١- عن ابن بحر: حميّتهم: عصبيّتهم لآلهتهم الّتي كانوا يعبدونها من دون اللّٰه تعالى، و الأنفة من أن يعبدوا غيرها، فلعبت في رؤسهم نزوة الجاهليّة، و حميّتها، فعبدوا كلّ شيئ إلاّ اللّٰه جلّ وعلا. ٢- قيل: الحميّة هي الأنفة و الإنكار و الاستكبار الّذي كان عليها أهل الجاهليّة. يقال: فلان ذو حميّة منكرة إذا كان ذا غضب و أنفة، و يعبّر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت و كثرت بالحميّة. و ذلك أنّ مشركي مكّة قالوا: قد قتل محمّد و أصحابه آبآئنا و إخواننا، و يدخلون علينا في منازلنا، فتتحدّث العرب أنّهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، و اللّات و العزّى لايدخلونها علينا، فهذه الحميّة الجاهليّة هي الّتي دخلت في قلوبهم رسخت فيها، ولكونها مكتسبة لهم من وجه نسب جعلها إليهم.

٣- عن الزّهري: هي أنفتهم من الإقرار لمحمّد﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ بالرّسالة، و الاستفتاح ببسم اللّٰه الرّحمن الرّحيم على عادته﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ في الفاتحة حيث أراد أن يكتب كتاب العهد بينهم، فقالوا: ما نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللّهمّ هذا ما صالح عليه محمّد بن عبداللّٰه. و منعهم من دخول المكّة لأداء العمرة. ٣- قيل: هي صدّهم رسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و أصحابه عن المسجدالحرام. ٤- قيل: أي حميّة الملّة الجاهليّة أو الحميّة النّاشئة من الجاهليّة لأنّها بغير حجّة و في غير موضعها لايؤيّدها دليل و لابرهان، و هي الّتي منعتهم من إذعان الحقّ، و أدّت لعتوّهم و جبروتهم و تعصّبهم و عداوتهم لرسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و المؤمنين و ايذائهم، و عدم إقرارهم برسالة محمّد﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و ما جرى في قصّة الحديبيّة من إبآئهم أن يكتب في كتاب العهد: «بسم اللّٰه الرحمن الرحيم» و أن يكتب «محمّد رسول اللّٰه».

ما هو أعظم من حميّة أن يمتنعوا بكتابة البسملة في الصّلح، و أبوا أن يصف النّبيّ﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ بأنّه رسول اللّٰه﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ و أن يشترطوا: أنّ مَن جآء منهم إلى محمّد﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ يُرَدّ، و مَن جآء من محمّد﴿صلّى اللّٰه عليه و آله﴾ إليهم لايردّ.

فيالها من حميّة حامية لايكفي لها كفرهم إلاّ أن يجعلوها ويفتعلوها في قلوبهم كفراً على كفر فإنّها (حميّة الجاهليّة) إذ قالوا: لانعرف الرّحمن الرّحيم! لكي يحذف النّبيّ ﴿ﷺ﴾ البسملة عن كتاب الصّلح، و حين طلبوا شخط (رسول اللّه) عن اسمه ﴿ﷺ﴾ قائلين (لو علمنا أنّك رسول اللّه لما حاربناك فاكتب محمّد بن عبداللّه) و إذ اشترطوا: أنّ من جآء منهم إلى محمّد ﴿ﷺ﴾ فيردّ، و من جآء من محمّد ﴿ﷺ﴾ إليهم فلايردّ ... و ذلك بعد ما صدّوهم عن المسجد الحرام، و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه، ولايعرف التّأريخ جاهليّة تبلغ محلّها، و لاحميّة جاهليّة توصل مداها! فإنّها: حميّة التّعنّت و التّبختر و التبطّر الّتي لاتتقيّد بعقيدة و لامنهج إلاّ فوضى، مخالفين بها كلّ عرف، و كلّ حميّة، منتهكين كافّة الحرمات و الأعراف، و حرمة البيت الحرام الّذي يعيشون في ظلّه و على حساب قداسته، و حرمة الأشهر الحرم الّتي لم تنتهك في أيّة جاهليّة!

فيا لهذه النّفوس من قسوة و حماوة لاتتقيّد بأيّ ميزان إلاّ (حميّة الجاهليّة) و يقابلها الطّمأنينة الأمينة السّكينة الّتي أنزلها اللّه تعالى على رسوله و على المؤمنين، جنّات عاليات، وجاه دركات سافلات!

٥- قيل: الحميّة: الغيرة و الأنفة، و هي الّتي تحتمى بها الحرمات... و هي محمودة إذا كانت في جانب الحقّ و العدل الإحسان... و مذمومة إذا كانت في جانب الباطل و الظّلم و الإسائة و السّفه و الضّلال... و حميّة الجاهليّة، حميّة استعلاء و استكبار و تطاول بغير حقّ، لايضبطها عقل و لاتسوسها حكمة، و لاتؤيّدها دليل و لابرهان... فعلى حين امتلأت قلوب مشركي مكّة من حميّة الجاهليّة و غذّوها بهذه المشاعر الكاذبة الفاسدة بما كان لهم من قوّة ظاهرة على المسلمين، فإنّ اللّه عزّوجلّ حين منح المؤمنين القوّة و مكّن لهم من هؤلآء الكافرين، حرس هذه القوّة من أن تكون أداة بغي و عدوان، فأنزل السّكينة على رسوله ﴿ﷺ﴾ و على المؤمنين و نزع ما في قلوبهم من حفيظة على المشركين...

أقول: ولكلٍّ وجه من دون تنافٍ بينها فتدبّر.

و في قوله عزّوجلّ: «فأنزل اللّٰه سكينته على رسوله و على المؤمنين» أقوال: ۱-عن ابن عبّاس: أي فأنزل اللّٰه الصّبر و الطّمأنينة و السّكون و الوقار على رسوله﴿ﷺ﴾ و على المؤمنين، و أذهب عنهم الحميّة حتّى أعطاهم ما أرادوا. ۲- قيل: أي ثبّتهم على الرّضا و التّسليم، و ألهمهم بما فيه الخير و المصلحة و الرّشد و السّعادة، و لذلك امتنعوا أن يبطشوا بالمشركين، و لم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب اولئك من الحميّة. ۳- قيل: السّكينة هي القناعة بجلال اللّٰه و الصّبر عن حرامه، فحماهم من همزات الشّياطين و وساوسهم...

٤- قيل: أي فأنزل اللّٰه تعالى سكينته على رسوله و على المؤمنين، فتوقروا و حلموا و صبروا على الدّخول تحت ما أرادوه في كتابة صلح الحديبيّة، فصالحوهم على أن يعودوا من قابل، و لم يلحقهم من الحميّة ما لحق الكفّار حتّى يقاتلوهم. ٥- قيل: إنّ «فأنزل...» عطف على «جعل» تقديره: جعل إذ معمولاً لاذكر. و المراد تذكير حُسن صنيع رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و المؤمنين بتوفيق اللّٰه سبحانه، و سوء صنيع المشركين على ما يدلّ عليه الجملة الامتناعيّة، على تقدير جعلها ظرفاً لعذّبنا، كأنّه قيل: فلم يتزيّلوا فلم نعذّب فأنزل اللّٰه... أي فعل برسوله﴿ﷺ﴾ من اللطف و النّعمة ما سكنت إليه نفسه، و صبر على الدّخول تحت ما أرادوه منه﴿ﷺ﴾ و فعل تعالى مثل ذلك بالمؤمنين، فاطمأنّت قلوبهم و لم يستخفّهم الطّيش، و أظهروا السّكينة و الوقار من دون أن يستفزّهم الجهالة.

فلرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ سكينة التّسديد حتّى يهدئ بقمّة الحفاوة و اللين وجاه هؤلآء العتاة المستكبرين فلاتظهر منه أيّة جفاوة... و للمؤمنين سدّاً للثّورة الفورة الّتي تتطلبها تلك الجاهليّة في مشركي مكّة حتّى يهدأوا في ظلال النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ دونما فورة و لاثورة... فقلب المؤمن مستكن بربّه، مطمئنّ بمآربه في سبيل ربّه، و لكنّه بحاجة إلى سكينة زائدة ليزداد ايماناً و اطمئناناً، حيث إنّ التقوى قد تفلت و جاه نعرات الجاهليّة، فبالسّكينة تلزم في ذواتهم، و تندغم في إنياتهم...

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و قد سبقت ثمانية عشر قولاً في معنى «السّكينة» في الآية الرّابعة من هذه السّورة المباركة فراجع.

و في قوله جلّ و علا: «و ألزمهم كلمة التّقوى» أقوال: ١- عن ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و الضّحّاك و عكرمة و ابن زيد و غيرهم: انّ «كلمة التّقوى» هي قول: «لا إله إلاّ اللّٰه» و هي الّتي يتّقون بها النّار و أليم العذاب. ٢- عن الزّهري: هي «بسم اللّٰه الرّحمن الرّحيم» و «محمّد رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد اختارها اللّٰه تعالى لنبيّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين. و معنى إضافتها إلى التّقوى أنّها سبب التّقوى و رأسها و أساسها. ٣- قيل: هي «لا إله إلاّ اللّٰه و اللّٰه أكبر» ٤- عن المسور بن مخرمة: هي «لا إله إلاّ اللّٰه وحده لا شريك له». ٥- عن مجاهد أيضاً: هي «لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كلّ شئ قدير» ٦- عن مجاهد أيضاً: هي كلمة الإخلاص أي و ألزمهم الإخلاص للـه في العمل.

٧- عن ابن عبّاس أيضاً: أي ألهمهم اللّٰه تعالى كلمة «لا إله إلاّ اللّٰه و محمّد رسول اللّٰه» ٨- قيل: إنّ «كلمة التّقوى» هي كلمة الحقّ و الخير و المصلحة. ٩- عن الحسن أيضاً: هي الثّبات و الوفاء بالعهد، و إلزامهم بها أى أمرهم بها. و قيل: إنّ إضافة الكلمة إلى التّقوى من باب إضافة السّبب إلى المسبّب، و في إضافة لأدنى ملابسة. و يجوز أن يكون اختصاصيّة حقيقيّة بتقدير مضاف أي كلمة أهل التّقوى الّذين يتّقون بها الشّرك و غضب اللّٰه تعالى. و اريد بالعهد عهد الصّلح الّذي وقع بين رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بين أهل مكّة أو ما يعمّ ذلك و سائر عهودهم مع اللّٰه عزّوجلّ.

١٠- قيل: هي قولهم: «بلى» في عالم الذّرّ لقوله تعالى: «و إذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا» الأعراف: ١٧٢)

١١- قيل: هي ولاية أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، قد جعلها اللّٰه تعالى مع المؤمنين لاتنفكّ عنهم فإنّ الايمان لن يتحقّق إلاّ بها، فـلا يـنفكّ مؤمن عنها، و لا هي عن مؤمن. ١٢- قيل: هي الشّهادات الثّلاث الّتي لا يتحقّق الايمان إلاّ بها و هي: لا إله إلاّ اللّٰه و محمّد رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عليّ وليّ اللّٰه ﴿عليه السلام﴾ فكما أنّ الشّهادتين: لا إله إلاّ اللّٰه و محمّد رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ علامة الإسلام، لا يتحقّق الإسلام

إلاّ بهما كذلك الشّهادات الثّلاث علامة الايمان لايتحقّق إلاّ بها جميعاً و إنّ المؤمنين كانوا أهلها في علم اللّه تعالى إذ اختارهم لدينه و صحبة نبيّه﴿ﷺ﴾ و هم أهل الحقّ والرّشاد، و الخير و الصّلاح، و الكمال و الفلاح...

١٣- قيل: هي قول المؤمنين: سمعاً و طاعة حين يؤمرون أو ينهون. ١٤- قيل: أي أوجب اللّه تعالى على كلّ مسلم، العمل بكتاب اللّه و سنّة نبيّه﴿ﷺ﴾. ١٥- قيل: إنّ «كلمة التّقوى» هي السّكينة الّتي أنزلها اللّه تعالى على رسوله و على المؤمنين. ١٦- قيل: هي التّسمية و التّوحيد و الاعتراف برسالة محمّد﴿ﷺ﴾ إختارها اللّه سبحانه للمؤمنين. ١٧- قيل: هي روح الايمان الّتي تأمر الإنسان المؤمن بالتقوى كما قال اللّه جلّ وعلا: «اولئك كتب في قلوبهم الايمان و أيّدهم بروح منه» المجادلة: ٢٢) وقد أطلق اللّه تعالى الكلمة على الرّوح في قوله: «و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه» النّسآء: ١٧١)

١٨- قيل: هي كلمة عفا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بها عن مشركي مكّة حين قال لهم: «إذهبوا فأنتم الطلقآء» مرّتين: عام الحديبيّة، و عام فتح مكّة، و قد كان فيهما أبوسفيان و ابنه معاوية من الطّلقآء... و إنّ هذه الكلمة الّتي لايقولها في هذا المقام إلاّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ أو من ناب منابه حقّاً كعليّ بن أبي طالب﴿عليه السلام﴾ يوم الجمل إذ اطلق عائشة بنت أبي بكر في غزوة جمل، فرسول اللّه﴿ﷺ﴾ و وصيّه﴿عليه السلام﴾ هما أحقّ بهذه الكلمة و أهلها من دون النّاس جميعاً، و المؤمنون هم على هذا المورد الطّيّب الّذي و رده رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و وصيّه عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فهم بهداهما مهتدون و على سنّتهما و سيرتهما قآئمون.

١٩- قيل: هي الولاية لأهل بيت النّبوّة المعصومين عليهم السلام فإنّ بها يتّقى من النّار أو لأنّهاعقيدة أهل التّقوى. ٢٠- قيل: إنّ التّقوى على ثلاث مراتب: **أوّلها**- التنزّه عن الشّرك و عليه قوله تعالى: «و ألزمهم كلمة التّقوى» و هي كلمة التّوحيد: «لا إله إلاّ اللّه» **ثانيها**- التجنّب عن المعاصي... **ثالثها**- التوقّي عمّا يشغل الإنسان عن الحقّ تعالى.

۲۱- قيل: كلمة التقوى هي نفس عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و ولايته الّتي ألزمها المؤمنين الّذين هو ﴿عليه السلام﴾ أميرهم، و إنّ ولايته ﴿عليه السلام﴾ حصن اللّٰه تعالى فمن دخلها أمن من عذاب اللّٰه جلّ تعالى كنفس كلمة التّوحيد الّتي هي حصن اللّٰه عزّوجلّ فمن دخلها أمن من عذاب اللّٰه سبحانه إذا كانت عريقة و طيدة لالفظتها الخاوية عن العمل والعقيدة، كلمة تجمع كلّ تقوى في كافّة ميادين الحياة الإنسانيّة، و تخفت صوت الطّغوى، مراقبة للرّب في كلّ حركة و خالجة، داخلة و خارجة، كلمة تهدى الإنسان إلى حقيقة التّوحيد و معرفة اللّٰه جلّ وعلا إلى حقيقة الرّسالة و الإمامة و المعاد، و إلى إدراك أسرار الفطرة و الطّبيعة الإنسانيّة و أسرار نظام الكون و نواميس الوجود، و إلى المعارف و الحكم القرآنية و السّنّة النّبويّة الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، و إلى الائتمار بأوامر اللّٰه تعالى و الانتهاء عن نواهية كلّها...

أقول: إنّ الرّوايات الواردة عن الفريقين أوردنا بعضها في بحث النّزول، و سيأتى بعضها الاخرى في البحث الرّوائي كلّها تؤيّد الأخير، و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً و اغتنم جدّاً فإنّ المقام مزالّ الأقدام...

و في قوله عزّوجلّ: «و كانوا أحقّ بها و أهلها» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي و كان المؤمنون أحقّ بكلمة «لا إله إلاّ اللّه و محمّد رسول اللّٰه» في علم اللّٰه تعالى، و كانوا هم أهلها في الدّنيا. ۲- قيل: أي هم أحقّ بها في الحياة الدّنيا، أهلها بالثّواب في الدّار الآخرة. ۳- قيل: أي كلمة التّقوى أحقّ بها من كلمة غير كلمة التّقوى، كما تقول: زيد أحقّ بالإكرام منه بالإهانة. ٤- قيل: أي و كان المؤمنون أحقّ بكلمة التّوحيد، و هم أهل التّقوى. فضمير «بها» راجع إلى كلمة التّوحيد، و ضمير «أهلها» راجع إلى التّقوى. ٥- قيل: إنّ ضمير «كانوا» للمؤمنين، و ضميرى «بها و أهلها» للسّكينة.

٦- قيل: إنّ فيه تقديماً و تأخيراً، و التّقدير: كانوا أهلها و أحقّ بها أى كان رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و المؤمنون أهل تلك الكلمة و أحقّ بها من المشركين. و جآء بصيغة أفعل لزيادة الحقّيّة في نفسها أي متّصفين بمزيد استحقاق لها. ۷- قيل: أي و كان المؤمنون أحقّ بنزول السّكينة عليهم و أهلها. ۸- قيل: أي و كان المؤمنون أحقّ بمكّة أن

يدخلوها و أهلها. و أشعر بذكر مكّة، ذكر المسجد الحرام في قوله تعالى: «و صدّوكم عن المسجد الحرام...» و كذا محلّ الهدى في قوله سبحانه: «و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه» و قد يكون حقّ أحقّ من غيره ألا ترى أنّ الحقّ الّذي هو طاعة يستحقّ بها المدح أحقّ من الّذي هو مباح لايستحقّ به ذلك. ۹- قيل: أي أحقّ من اليهود و النّصارى.

۱۰- قيل: أي و كان المؤمنون من هذه الأمّة أحقّ من جميع الأمم السّالفة لأنّهم خير أُمّة اخرجت للنّاس قال اللّه عزّوجلّ: «كنتم خير أُمّة أُخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون باللّه» آل عمران: ۱۱۰)

و حكى المبرّد: إنّ الّذين كانوا قبلنا من الامم لم يكن لأحد منهم أن يقول: «لا إله إلّا اللّه» في اليوم و اللّيلة إلاّ مرّة واحدة لايستطيع أن يقولها أكثر من ذلك، و كان قائلها يمدّ بها صوته إلى أن ينقطع نفسه تبرّكاً بذكر اللّه تعالى و قد جعل اللّه تعالى لهذه الأُمّة أن يقولها متى شاؤا و هو قوله تعالى: «و ألزمهم كلمة التّقوى» أي ندبهم إلى ذكرها ماستطاعوا و كانوا أحقّ بها. ۱۱- قيل: إنّ ضمير «كانوا» راجع إلى كفّار قريش. و المعنى: و كان كفّار مكّة الّذين جعلوا في قلوبهم الحميّة أحقّ بكلمة التّقوى لأنّهم أهل حرم اللّه تعالى، و منهم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ و قد تقدّم إنذارهم لولا ما سلبوا من التّوفيق فلمّا أبوا عنها فألزمها اللّه تعالى المؤمنين و جعلهم أحقّ بها. ۱۲- قيل: أي من آمن بالعليم الحكيم، و بالنّبيّ الكريم ﴿ﷺ﴾ الّذي بعث ليتمّم مكارم الأخلاق، و بالقرآن المجيد الّذي يهدي للّتي هي أقوم فهو أولى النّاس أن يتّق معاصى اللّه و حرامه.

۱۳- قيل: أي أحقّ بها و أهلها سمعاً و طاعة من الكفّار و المنافقين، و كان المؤمنون وحدهم أهل كلمة التقوى للتلازم بين الايمان و التقوى، فيضادّ بها الكفر و النّفاق، أمّا كون المؤمنين أحقّ لتمام استعدادهم لتلقّي هذه العطيّة الإلهيّة بالايمان و الأعمال الصّالحة و النّيّة الصّادقة، فهم أحقّ بها من غيرهم، و أمّا كونهم أهلها فلأنّهم مختصّون بها لاتوجد في غيرهم و أهل الشّيئ خاصّته.

أقول: و الأخير هو الأنسب بظاهر السّياق.

و في **قوله تعالى:** «و كان اللّه بكلّ شئ عليماً» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي و كان

اللّٰه بكلّ شئ من الكرامة للمؤمنين عليماً. ٢- قيل: أي و كان اللّٰه بكلّ شئ من بواطن الكفّار و ما ينطوى عليه عقد ضمآئرهم، و من سرآئر المؤمنين و خلوص نيّاتهم عليماً، و من معلومه تعالى أنّ المؤمنين كانوا أحقّ بكلمة التّقوى و أهلاً لها فيعلم تعالى حقّ كلّ شئ و استئهاله لما يستأهله، فيسوق تعالى الحقّ إلى مستحقّه، و المستأهل إلى مستأهله، و يعلم هذا و يعلم ما تقتضيه الحكمة و المصلحة من إنزال السّكينة و الرّضا بالصّلح فتكون الجملة تذييلاً لجميع ما تقدّم. و قيل: تكون تذييلاً لقوله: «و كانوا أحقّ بها و أهلها».

٣- قيل: أي عليماً بأمر الكفّار و المؤمنين، فيجازي كلاًّ بعمله. ٤- قيل: أي و لم يزل اللّٰه تعالى بكلّ شئ ذا علم لايخفى عليه شئ هو كائن، و لعلمه أيّها النّاس بما يحدث من دخولكم مكّة و بها رجال مؤمنون، و نسآء مؤمنات لم تعلموهم لم يأذن لكم بدخولكم مكّة في سفرتكم هذه. ٥- قيل: أي يعلم بوجود المؤمنين و المؤمنات بين كفّار مكّة، و بمن يؤمن منهم بعد ذلك، و بمن كان في صلبه مَن يومن باللّٰه تعالى. ٦- قيل: أي يعلم بصلح الكفّار في الحديبيّة.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق.

٢٧- (لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّٰه آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً)

في قوله تعالى «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ» أقوال: ١- عن مجاهد: أى أرى اللّٰه رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و هو بالحديبيّة أنّه يدخل مكّة هو و أصحابه آمنين محلّقين رؤسهم، و مقصّرين، فلمّا نحر رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ الهدى بالحديبيّة قال له ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بعض أصحابه: أين رؤياك يا رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾؟ فأنزل اللّٰه: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ -إلى قوله- فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» فرجعوا ففتحوا خيبر، ثمّ اعتمر بعد ذلك، فكان تصديق رؤياه في السّنة المقبلة.

و بناءً على هذا القول كانت الرّؤيا بالحديبيّة. و إنّ رؤيا الأنبيآء و المرسلين عليهم السّلام حقّ، و إنّ الرّؤيا أحد وجوه الوحي إليهم صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

و قد صرّح أكثر مفسّري العامّة و محدّثيهم و مؤرّخيهم: أنّ هذا المعترض هو بعض المنافقين من أصحاب رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ في سفرة الحديبيّة، و صرّح الآخرون منهم: أنّ هذا المعترض على رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ هو عمر بن الخطّاب، و هو قد طعن و راب على رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ بمرّات في هذه السّفرة نشير إلى نبذة روماً للاختصار

فمنهم: الطّبري في تفسيره: قال ابن زيد في قوله: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ...» إلى آخر الآية، قال: قال لهم النّبيّ ﴿ﷺ﴾: إنّي قد رأيت أنّكم ستدخلون المسجد الحرام محلّقين رؤسكم و مقصّرين، فلمّا نزل بالحديبيّة و لم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أى رؤياه؟ فقال اللّٰه: لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ، فقرأ حتّى بلغ و مقصّرين لاتخافون، إنّي لم أره يدخلها هذا العام، و ليكوننّ ذلك»

و منهم: القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): «قال قتادة: كان رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ رآى في المنام أنّه يدخل مكّة على هذه الصّفة، فلمّا صالح قريشاً بالحديبيّة ارتاب المنافقون حتّى قال رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾: إنّه يدخل مكّة، فأنزل اللّٰه تعالى: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ» فأعلمهم أنّهم سيدخلون في غير ذلك العام، و أنّ رؤياه ﴿ﷺ﴾ حقّ».

و منهم: النيشابوري في تفسيره (غرآئب القرآن) ما لفظه: «ثمّ قصّ رؤيا نبيّه ﴿ﷺ﴾ بياناً لإعجازه فإنّ الرّؤيا الصّادقة جزء من ستّة و أربعين جزءاً من النّبوّة، و قصّته أنّه رأى في المنام أنّ ملكاً قال له: «لتدخلنّ -إلى قومه- لاتخافون» فأخبر أصحابه بها، ففرحوا و جزموا بأنّهم داخلوها في عامهم، فلمّا صدّوا عن البيت و استقرّ الأمر على الصّلح قال بعض الضّعفة: أليس كان يعدنا النّبيّ ﴿ﷺ﴾ أن نأتي البيت، فنطوف به؟ فقال لهم أهل البصيرة: هل أخبركم أنّكم تأتونه العام؟ فقالوا: لاقال: فإنّكم تأتونه و تطوفون بالبيت، فأنزل اللّٰه تصديقه، و معنى: «صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا» صدقه في رؤياه و لم يكذبه».

فمنهم: الجلالين في تفسيرهما: «رأى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في النّوم عام الحديبيّة قبل خروجه أنّه يدخل مكّة هو و أصحابه آمنين و يحلّقون و يقصّرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا، فلمّا خرجوا معه و صدّهم الكفّار بالحديبيّة و رجعوا و شقّ عليهم ذلك و راب بعض المنافقين نزلت: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ...»».

و منهم: المراغي في تفسيره و طنطاوي في تفسيره: «و ممّا روى: «أنّ عمر بن الخطّاب قال: أتيت النّبيّ﴿ﷺ﴾ فقلت: ألست نبيّ اللّٰه حقّاً؟ قال: بلى، قلت: فَلِم نعطَى الدّنيّة في ديننا إذن؟ قال: إني رسول اللّٰه و لست أعصيه و هو ناصري، قلت: أولست كنتَ تحدّثنا أنّا سنأتي البيت و نطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنّك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنّك آتيه و تطوف به. قال: فأتيت أبابكر، فقلت: يا أبابكر: أليس هذا نبيّ اللّٰه حقّاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقّ و عدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فَلِم نعطَى الدّنيّة في ديننا؟ قال: أيّها الرّجل إنّه رسول اللّٰه، و ليس يعصى ربّه و هو ناصره، فاستمسك بغرْزه (سِر على نهجه) فواللّٰه إنّه لعلى الحقّ، قلت: أليس كان يحدّثنا أنّه سيأتي البيت و يطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنّه آتيه العام؟ قلت: لا، قال فإنّك تاتيه و تطوف به»».

و غيرهم تركناهم و نحن على جناح الاختصار.

٢- قيل: أي و قد رأى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في منامه بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبيّة: أنّه دخل مكّة هو و أصحابه معتمرين و طافوا البيت العتيق بسلام آمنين... فأخبر رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بما رآه، و حين سار متّجهاً إلى مكّة ظنّوا أنّ هذا تفسير رؤياه، و لمّا حدث ما حدث من صلح الحديبيّة و عاد المسلمون طعن عمر بن الخطّاب، و اعترض على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و قال: أين هي الرّؤيا؟ فأجاب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: لم أقل في هذا العام، و يأتي تأويل الرّؤيا لامحالة، و في العام القابل بلا فاصل، دخل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ مكّة هو و أصحابه معتمرين، و مكثوا ثلاثة أيّام، و ظهر صدق رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ كما قال اللّٰه عزّوجلّ: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا» و تسمّى هذه العمرة عمرة القضاء. ٣- قيل: إنّ رؤيا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ إنّما كانت أنّ ملكاً جآءه فقال

له: «لتدخلنّ المسجد الحرام» ٤- عن ابن عبّاس: أي حقّق اللّٰه تعالى لرسوله﴿ﷺ﴾ الرّؤيا بالصّدق حيث قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لأصحابه: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّٰه آمنين» من العدوّ.

قيل: إنّ «بالحقّ» متعلّق بـ«صدق» أي صدقه فيما رأى صدقاً متلبّساً بالحقّ، و هو أن يكون ما أراه كما أراه. و قيل: إنّ «بالحقّ» حال من «الرّؤيا» أي متلبّسة بالحقّ يعني بالغرض الصّحيح و الحكمة البالغة و هو ظهور حال المتزلزل في الايمان و الرّاسخ فيه، و لأجل ذلك آخر وقوع الرّؤيا إلى العام القابل للإبتلاء و تميز المؤمن المخلص من المنافق المرائى. و قيل: إنّ «بالحقّ» قسم لأنّه إسم من أسمآء اللّٰه تعالى. و قيل: إنّ المراد «بالحقّ» نقيض الباطل، فتكون اللام في «لتدخلنّ» جواب القسم لا للابتداء. ٥- قيل: أي صدقه في رؤياه تعالى، و تقدّس عن الكذب، و عن كلّ قبيح، فحذف الجار، و أوصل الفعل، و قوله: «بالحقّ» تعلّق بصدق أي صدقه فيما رأى، و في حصوله صدقاً ملتبساً بالحقّ و الغرض الصّحيح، و ذلك ما فيه من الابتلاء و التّميز بين المخلصين، و المنافقين.

أقول: و على الثّاني أكثر المفسّرين و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

و في قوله سبحانه: «إن شآء اللّٰه» أقوال: ١- عن الحسين بن الفضل: أي كان اللّٰه علم أنّه يميت بعض هؤلآء الّذين كانوا مع رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بالحديبيّة، فوقع الاستثناء لهذا المعنى. ٢- قيل: هذا تقييد لدخول الجميع أو البعض في المسجد الحرام. ٣- قيل: ليس ذلك شرطاً لأنّه بشارة بالرّؤيا الّتي رأها رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و طالبه بعض المنافقين و هو عمر بن الخطّاب بتأويلها و حقّقها: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ» ثمّ استأنف على طريق الشّرح و التّأكيد: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء اللّٰه» على ألفاظ الدّين، كأنّه قيل: بمشيّة اللّٰه، و ليس ينكر أن يخرج مخرج الشّرط ما ليس فيه معنى الشّرط كما يخرج الأمر ما ليس في معنى الأمر لقرينة تصحب الكلام.

٤- عن البلخي: إنّ معنى «إن شآء اللّٰه» أمركم اللّٰه بها لأنّ مشيّة اللّٰه تعالى بفعل عباده هو أمره به. ٥- قيل: هذا التعليق تأديب و تعليم لعباده أن يتأدّبوا بآداب الله، و إن كان الموعود به محقّق الوقوع كما قال تعالى: «و لاتقولنّ لشئ إنّي فاعل ذلك غداً إلاّ

أن يشآء اللّٰه» الكهف: ٢٣-٢٤) فعلّق بالمشيّة تعليماً لعباده أن يلزموا الأدب فلا يحكموا عن مستقبل لاعلم لهم به.

٦- عن أبي العبّاس ثعلب: استثنى اللّٰه تعالى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لايعلمون. و فيه تعريض بأنّ وقوع الدّخول من مشيئته تعالى لا من جلادتهم و تدبيرهم.

٧- قيل: إنّ الاستثنآء من «آمنين» و ذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة.

٨- عن الجبائي: إنّ الاستثنآء من الدّخول، و كان بين نزول الآية و الدّخول مدّة سنة، و قد مات منهم أُناس في السّنة، فيكون تقديره: لتدخلنّ كلّكم إن شاء اللّٰه إذ علم اللّٰه أنّ منهم من يموت قبل السّنة أو يمرض، فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لأن لايقع في الخبر خلف فالتعليق راجع إلى دخولهم جميعاً. ٩- قيل: إنّ الاستثناء داخل على الخوف و الأمن، و أمّا الدّخول فلا شكّ فيه، و تقديره: لتدخلنّ المسجد الحرام آمنين من العدوّ إن شآء اللّٰه.

١٠- عن أبي عبيدة: إنّ «إن» هنا بمعنى «إذ» الّتي تذكر لتعليل ما قبلها، و ليست شرطيّة لأنّ الشّرط مستقبل، و هذه القصّة قد مضت، فالمعنى: إذ شآء اللّٰه حين أرى رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذلك كقوله تعالى: «اتّقوا اللّٰه و ذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين» البقرة: ٢٧٨) أي إذ كنتم.

و فيه بُعد لأنّ «إذ» في الماضي من الفعل، و «إذا» في المستقبل و هذا الدّخول في المستقبل، فوعدهم دخول المسجدالحرام، و علّقه بشرط المشيئة، و ذلك عام الحديبيّة، فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ثمّ تأخّر ذلك عن العام الّذي طمعوا فيه، فسآءهم ذلك و اشتدّ عليهم و صالحهم و رجع، ثمّ أذن اللّٰه في العام المقبل، فأنزل اللّٰه: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ» و إنّما قيل له في المقام: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء اللّٰه» فحكى في التّنزيل ما قيل له في المنام، فليس هنا شكّ كما زعم بعضهم أنّ الاستثناء يدلّ على الشكّ، و اللّٰه تعالى لايشكّ، و «لتدخلنّ» تحقيق فكيف يكون شكّ ف «إن» بمعنى «إذ» و قيل: إنّ الشك راجع إلى المخاطبين. و قيل: إنّه ناظر إلى الأمن، فهو مقدّم من

تأخير أي لتدخلنّه حال كونكم آمنين من العدوّ إن شاء اللّٰه. و قيل: إنّ المراد أنّـه في معنى ليدخلنّه من شآء اللّٰه دخوله منكم، فيكون كناية من أنّ منهم من لا يدخله لأنّ أجله يمنعه منه.

١١- قيل: إنّ معنى: «إن شاء اللّٰه» إن سهّل اللّٰه. ١٢- قيل: «إن شآء اللّٰه» أي كما شآء اللّٰه. ١٣- عن ابن كيسان: «إن شاء اللّٰـه» حكـاية عـن قـول المـلك لرسـول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في المنام، خوطب في منامه بما جرت به العادة، فأخـبر اللّٰـه تـعالى عـن رسوله﴿ﷺ﴾ أنّه قال ذلك أو هو قول الرّسول﴿ﷺ﴾ في اليقظة كأنّه قال: «إنّ شـاء اللّٰه» و هي قول الملك أو الرّسول: «لتدخلنّ» و لهذا استثنى، تأدّب بأدب اللّٰه سبحانه حيث قال: «و لا تقولنّ لشئ إنّي فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشآء اللّٰه» الكهف: ٢٣-٢٤).

١٤- قيل: خاطب اللّٰه تعالى عباده بما يحبّ أن يقولوه كما قال: «و لا تقولنّ لشئ إنّي فاعل ذلك غداً...» ١٥- قيل: إنّ ذلك خارج على عادة القرآن من ذكر المشيئة كقوله تعالى: «و يعذّب المنافقين إن شآء» الأحزاب: ٢٣) و المعنى: إنّ اللّٰه يفعل بالعباد ما هو الصّلاح فيكون استثناء تحقيق لا تعليق. ١٦- قيل: إنّه تعالى أراد «لتدخلنّ» جميعاً إن شآء و لم يمت أحد أو لم يغب. ١٧- قيل: إنّه تأديب و إرشاد إلى استعمال الاستثناء في كلّ موضع لقوله﴿ﷺ﴾ و قد دخل البقيع: «و إنّا إن شآء اللّٰه بكم لاحقون» و ليس في وقوع الموت استثناء هذه المشيّة الإلهيّة ينبغي أن يعيشها المؤمن في صورتها المطلقة من دون تقيّد بشئ حتّى تستقرّ في قلبه، و تصبح حياته صورة و ضاءة عن «إن شاء اللّٰه» و يروض نفسه على هذه المشيّة، فيكون حياته كلّها مثالاً لمشيئة اللّٰه، ممثلاً له «إن شاء اللّٰه» فيعيش مشيئة اللّٰه حتّى فيما يراه حتماً كالموت. ١٨- قيل: إنّه راجع إلى حـالة الأمن و عدم الخوف.

أقول: و على السّابع عشر أكثر المحقّقين، من دون تنافٍ بينه و بين أكثر الأقـوال الأُخر مع تداخل بعضها في بعض، فتدبّر جيّداً و لا تغفل.

و في قوله عزّوجلّ: «آمنين» أقوال: ١- قيل: أي من شرّ المشركين. ٢- قيل: أى بلاخوف عليكم، فلا تعترضهم قريش، و لا يقع منهم ما يسؤهم. ٣- قيل: أي آمنين

من العدوّ و الأشرار... ٤- قيل: أي آمنين لايخافون أهل الشّرك و الطّغيان و أهل الكفر و العصيان... فوق اللّه تعالى على ما قاله رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لأصحابه.

٥- قيل: أى لتدخلنّ المسجدالحرام أيّها المؤمنون عام عمرة القضاء مع رسول اللّه﴿ﷺ﴾ آمنين.

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق.

و **في قوله سبحانه:** «محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون» أقوال: ١- قيل: أي محلّقين رؤسكم الرّجال منكم، و مقصّرين نسآءكم لأنّ التحليق للرّجال، و ليس للنّسآء إلاّ التّقصير لاتخافون مشركاً. ٢- أي يحلق بعضكم، أى يزيل جميع شعر رؤسكم، و يقصّر بعض الآخرين بإزالة بعض الشّعر من الرّؤوس أو اللحية أو سآئر البدن و قصّ الأظفار أو بعضها، غير خائفين من كفّار قريش، و من بأس المشركين. وانّ الحلق و التقصير لأجل التّحلّل من الإحرام، و المعتمر مخيّر بعد السّعي بين الحلق والتّقصير و إن كان الحلق أفضل.

٣- قيل: أي منكم من يحلق رأسه، و منكم من يقصّر بلا خوف عليكم فيهما.

أقول: و على الثّاني أكثر المفسّرين.

و **في قوله جلّ وعلا:** «فعلم مالم تعلموا» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي فعلم اللّه أن يكون دخولكم المسجد الحرام في السّنة المقبلة، و لم تعلموا أنتم ذلك. فالمعنى: علم اللّه تعالى ما في تأخير الدّخول من الخير و الصّلاح للإسلام و المسلمين ما لم تعلموه أنتم، و ذلك أنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لمّا رجع مضى منها إلى خيبر فافتتحها، و رجع بأموال خيبر، و أخذ من العدّة و القوّة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، و أقبل إلى مكّة على أهبة و قوّة و عدّة بأضعاف ذلك. ٢- قيل: أي في الصّلح من الخير و الصّلاح ما لم تعلموا ذلك و هو خروج المؤمنين من بين المشركين و الصّلح المبارك موقعه.

٢- قيل: أي فعلم اللّه ما لم تعلموا أنتم من المصلحة في المقاضاة، و إجابتهم إلى ذلك من الحكمة في تأخير فتح مكّة إلى العام القابل. ٣- قيل: أي فعلم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ من دخولهم إلى سنة قابلة ما لم تعلموا أنتم معاشر المؤمنين. ٤- عن ابن زيد: أي فعلم اللّه

تعالى أنّ بمكّة رجالاً مؤمنين و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أنّهم مؤمنون، فلو دخلتموها في ذلك العام لوطئتموهم بالخيل و الرّجل، فأصابتكم منهم معرّة بغير علم، فردّكم اللّه عن مكّة من أجل ذلك. ٥- قيل: فعلم اللّه أنّ في تأجيل العمرة إلى ما بعد صلح الحديبيّة خيرات و مصالح للإسلام و المسلمين منها حقن الدّماء و منها دخول العديد من المشركين في الإسلام فردّه﴿ﷺ﴾ إذ كان من بين أظهرهم من المؤمنين و المؤمنات، و أخّر الدّخول ليدخل اللّه في رحمته من يشآء ممّن يريد اللّه أن يهديه. ٦- قيل: أي فعلم عقيب ما أراه الرّؤيا الصّادقة ما لم تعلموا من الحكمة الدّاعية لتقديم ما يشهد للصّدق علماً فعليّاً. و قيل: أي فعلم اللّه ما لم تعلموا من رحمة و حكمة بالغة، و من تأخير لصدق هذه الرّؤيا إذ ظننتموها حالاً حينها.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و في معناه بعض الأقوال الأُخر مع تداخل بعضها في بعضٍ معنىً فتدبّر جيّداً.

و **في قوله تعالى:** «فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» أقوال: ١- عن ابن زيد والضّحّاك: يعني بذلك فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسّر الموعود، و وقوعه، و المراد بجعله وعده تعالى و إنجازه من دون تسويف ليستدلّ به على صدق الرّؤيا و تستروح قلوب المؤمنين إلى تيسّر وقوعها. فالمعنى: فجعل اللّه تعالى من دون رؤيا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فتح خيبر. ٢- عن ابن عبّاس: أي فجعل اللّه من قبل ذلك أي الدّخول في المسجدالحرام، فتحاً سريعاً يعني فتح خيبر، حين رجعوا من الحديبيّة فتحها اللّه عليهم فقسّمها على أهل الحديبيّة كلّهم إلاّ رجلاً واحداً من الأنصار يقال له أبو دجّانة سماك بن خرشة كان قد شهد الحديبيّة، و غاب عن خيبر. ٣- عن الزّهرى و مجاهد و ابن إسحق: الفتح القريب هو فتح الحديبيّة أي صلح الحديبيّة. و ذلك أنّه الّذي سوّى للمؤمنين الطّريق لدخول المسجدالحرام آمنين، و يسّر لهم ذلك، و لولا ذلك لم يمكن لهم الدّخول فيه إلاّ بالقتال و سفك الدّمآء و لاعمرة مع ذلك، ولكن هذا الصّلح و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجدالحرام، معتمرين في العام المقبل، و ما فتح اللّه في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبيّة لأنّه بما كان القتال حين تلتقى النّاس،

فلمّا كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها، و أمن النّاس بعضهم بعضاً فالتقوا و تفاوضوا الحديث و المناظرة، فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، فلقد دخل في هاتين السّنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك و أكثر، يدلّك على ذلك أنّهم كانوا سنة ستّ يوم الحديبيّة ألفاً و أربعمأة، و كانوا بعد عام الحديبيّة سنة ثمان في عشرة آلاف.

٤- قيل: الفتح القريب هو فتح مكّة، فإنّه هو دون ذلك لاصلح الحديبيّة و لافتح خيبر. و ذلك أنّ «ذلك» هنا ليس إلاّ صدق رؤيا رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ولم تصدق إلاّ في عمرة القضاء بعد الحديبيّة بسنة، و قبل فتح مكّة بسنة.

٥- قيل: أي فجعل اللّه من دون ذلك الفتح أي فتح مكّة، فتحاً قريباً و هو فتح خيبر. ٦- قيل: أى فجعل من دون دخولكم المسجدالحرام أو فتح مكّة فتحاً قريباً و هو فتح خيبر. ٧- قيل: إنّ صلح الحديبيّة و فتح خيبر دون ذلك، فلم يخصّص اللّه تعالى خبره ذلك في فتح من ذلك دون فتح، بل عمّ ذلك، و ذلك كلّه فتح جعله اللّه من دون ذلك فالمعنى: جعل اللّه من دون تصديقه رؤيا رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بدخوله و أصحابه المسجدالحرام محلّقين رؤسهم و مقصّرين لايخافون المشركين صلح الحديبيّة و فتح خيبر.

٨- قيل: «ذلك» إشارة إلى صدق الرّؤيا بدخول المسلمين المسجدالحرام، و الفتح القريب هو صلح الحديبيّة، و ذلك أنّ عمر بن الخطّاب قال لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ طعناً و معترضاً عليه ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أفتح هذا! فأجابه: بل هو أعظم الفتوح، و بعد هذا الفتح الأعظم و هو صلح الحديبيّة في السّنة السّادسة من الهجرة جاء الفتح الثّاني و هو فتح خيبر، ثمّ جآء الفتح الثّالث بعمرة القضآء في السّنة السّابعة، و بعدها الفتح الرّابع بدخول مكّة والسّيطرة عليها في السّنة الثّامنة، ثمّ حجّة الوداع في السّنة العاشرة، و في الثّمان و العشرين من الصّفر المظفّر من السّنة الحادية عشر انتقل رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى الرّفيق الأعلى.

٩- قيل: أي فجعل اللّه تعالى لأجل هذا العلم من دون تحقّق مصداق ما أراه من

دخول المسجد الحرام آمنين فتحاً قريباً و هو فتح خيبر. ١٠- قيل: الفتح القريب هو بيعة الرّضوان. ١١- عن عطاء و مقاتل: أي فجعل من دون ذلك الدّخول فتحاً قريباً و هو فتح خيبر، و تحقّقت الرّؤيا في العام المقبل. ١٢- قيل: الفتح القريب هو النّحر بالحديبيّة و صلحها. ١٣- قيل: أي فجعل اللّٰه تعالى للمؤمنين قبل دخولهم المسجد الحرام لعمرة القضآء فتحاً قريباً و هو فتح مكّة. ١٤- قيل: أي فجعل اللّٰه تعالى من دون دخولهم المسجدالحرام فتحاً قريباً هو صلح الحديبيّة و فتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن تيسّر اليوم الموعود.

أقول: و على الخامس أكثر المفسّرين، من دون تناف بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً و لاتغفل.

٢٨- (هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و كفى بالله شهيداً)

في قوله تعالى: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي هو الّذي أرسل رسوله محمّداً﴿ﷺ﴾ بالتّوحيد، و دين الحقّ أي شهادة أن لا إله إلاّ اللّٰه و أنّ محمّداً﴿ﷺ﴾ عبده و رسوله. ٢- قيل: أي أرسله بسبب الهدى أو لأجله، و المراد بالحقّ هو إسم من أسمآء اللّٰه تعالى أى و بدين اللّٰه الحقّ. ٣- قيل: إنّ المراد بالهدى هو اصول الدّين، و المراد بدين الحقّ هو فروع الدّين، فإنّ من الرّسل عليهم السلام من لم يرسل بالفروع و إنّما أُرسل بالأُصول و بيانها.

٤- قيل: أى هو الّذي أرسل رسوله مصاحباً بالهدى، و دين الحقّ، و المراد بالحقّ نقيض الباطل.

٥- قيل: أي متلبّساً بالهدى بمعنى أنّه هاد، و بدين الإسلام و إخلاص العبادة. ٦- قيل: أي بالقرآن، و البرهان القاطع و الدّليل الواضح. ٧- قيل: أي بالقرآن و دين الحقّ و هو الإسلام من اصوله و فروعه. ٨- قيل: أي بالدّليل الواضح و الحجّة السّاطعة. ٩- قيل: أي بالمعجزات الباهرة الّتي تثبت بها النّبوّة. ١٠- قيل: أي هو الّذي أرسل

رسوله﴿ﷺ﴾ بالهدى، كلّ الهدى و بدين الحقّ الثّابت الّذي لايتبدّل و لايتغيّر أبداً، ثابتاً دائباً على مرّ الزّمن مذ طلعت شمسه، فلا تغرب إلى يوم القيامة، مرفرفاً أعلامها، مشعّاً و ضائاً على عقول و قلوب سليمة...

أقول: و لكلّ وجه، و لكنّ الأوجه هو السّادس فتدبّر جيّداً.

و في قوله سبحانه: «ليظهره على الدّين كلّه» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي ليعلى هذا الدّين على الأديان كلّها، فلا تقوم السّاعة حتّى لايبقى إلاّ مسلم أو مسالم. ٢- قيل: أي ليغلب هذا الدّين على الأديان كلّها بنسخ ما كان حقّاً، و إظهار فساد ما كان باطلاً ثمّ بتسليط المؤمنين على أهلها إذ ما من أهل دين إلاّ و قد يُقهر بالإسلام و يُغلَب. و فيه تأكيد لما وعده اللّٰه بالفتح.

٣- قيل: أي ليظهر رسوله﴿ﷺ﴾ على الدّين كلّه أي الدّين الّذي هو شرعه بالحجّة أوّلاً ثمّ باليد و السّيف ثانياً، و نسخ ماعداه ثالثاً.

٤- قيل: أي ليظهر دين الإسلام بالحجج و البراهين على جميع الأديان... و هذا توكيد لما وعده اللّٰه تعالى من الفتح، و توطين لنفوس المؤمنين على أنّ اللّٰه سبحانه سيفتح لهم من البلاد، و يتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلّون بالنّسبة إلى فتح مكّة. ٥- قيل: أي ليعليه على جنس الدّين كلّه من الأديان المختلفة من أديان المشركين و أهل الكتاب و غيرهم بكمال العزّة و الغلبة و القهر و الانتشار في البلدان... فيعليه على جنس الدّين كلّه بنسخ الدّيانات و إظهار فساد العقائد الزائعات و الآراء الباطلة والأفكار الفاسدة، و الأوهام و الخرافات الواهية... و بتسليط المؤمنين الصّادقين على الحكّام الجابرة و الأمرآء الباغية، و الفجّار الطّاغية و الفسّاق الظّالمة، و أهل النّفاق الفسدة، و على أهل الأديان في الأزمان الغابرة، و بالقيام بأمر الكرة الأرضية و بسط العدل على بسيطها، و المحافظة على نظام الأمم و القيام بأمر الموازنة بينهم، و تعليم النّاقصين في الأزمان المستقبلة إذ تصبح الأرض كلّها كاُسرة واحدة، و يكون المؤمنون الصّادقون وحدهم، هم الآخذون بأيدى الاُمم و هم على شفا حفرة من الانحطاط والسّقوط و الحيوانيّة و التوحّش... و بيدهم وحدهم مفتاح الإسلام الّذي أكمله اللّٰه

تعالى يوم الغدير، فما من أهل دين حاربوا هؤلآء المؤمنين الصّادقين إلاّ و قد قهرهم المؤمنون الصّادقون لامحالة إذ قال اللّه عزّوجلّ: «و لاتهنوا و لاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين– سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» آل عمران: ۱۳۹ و ۱٥۱) و قال: «و لن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النّسآء: ۱٤۱).

٦– قيل: أي ليعليه عن جنس الدّين بجميع أفراده أي كلّ ما يدان من الشّرائع والملل و المسالك و المذاهب و الآراء و الأفكار... فيشمل الحقّ و الباطل... و أصل الإظهار: جعل الشّئ على ظهره، فلذا كنّي به على الإعلاء، و عن جعله بادياً ظاهراً للرّائي، ثمّ شاع استعماله في الإعلآء، حتّى صار حقيقة عرفيّة، و إظهاره على الحقّ بنسخ بعض أحكامه المتبدّلة بتبدّل الأعصار، و على الباطل ببيان بطلانه. ٧– قيل: أي ليعليه على الأديان كلّها لا بقوّة الجيش و السّلاح، و لا بالعدّة و العُدّة، و لا بالتّزوير و الشّوكة، و لا بالمال و الدّعايات الخادعة... بل بعقيدته الّتي تخاطب العقل السليم و الفطرة الإنسانيّة الّتي فطر اللّه تعالى النّاس عليها، و تستنهض الفكر المنطلق من إسارة الأوهام، و تقدّس العلم الأصيل... و بشريعته الخالدة بمبادئها و مقاصدها، و توجّهها إلى إنسانيّة الإنسان لا إلى صورة الإنسان و سيماه، كهدف أسمى و قيمة عظمى، و من تتبّع الآيات القرآنيّة، و السّنّة النّبويّة الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين و الكتب الفقهيّة الإسلاميّة الأصيلة ينتهي إلى العلم و اليقين بهذا المبدأ: «حيثما يكون خير الإنسان و صلاحه، و رشده و كماله و إنسانيّته و سعادته الدّنيويّة و الأُخرويّة، المادّيّة و المعنويّة، الفرديّة و الإجتماعيّة، و الإقتصادية و الإعتقاديّة... يكون شرع الدّين الإسلامي الّذي أكمله اللّه جلّوعلا يوم الغدير» إذ قال تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة: ۳) و قال: «و قيل للّذين اتّقوا ما أنزل ربّكم قالوا خيراً» النّحل: ۳۰).

أنزل اللّٰه عزّوجلّ قرآناً كلّه خير و سعادة، كلّه رشد و هداية، و كلّه كمال و كرامة... فيما اشتمل عليه من عقيدة و شريعة، و أخلاق تدفع الإنسان إلى الكفاح و النّضال من أجل حياة أكمل و أفضل...

٨- قيل: إنّ تمام ذلك عند خروج المهديّ الحجّة ابن الحسن العسكريّ مدار الدّهر و نواميس العصر صاحب الزّمان أرواحنا و أرواح العالمين له الفداء فلايبقى في الأرض دين سوى دين الإسلام الّذي أكمله اللّٰه تعالى يوم الغدير، فإذا ظهر الإمام الثّاني عشر المهديّ المنتظر عجّل اللّٰه تعالى فرجه الشّريف صار هذا الدّين الإسلامي ديناً وحيداً لجميع البشر، و تبطل الأديان كلّها، حقّها و باطلها...

أقول: و الأخير هو المرويّ عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين تأتي في البحث الرّوائي فانتظر.

و في **قوله عزّوجلّ:** «وكفى باللّٰه شهيداً» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي و كفى بالله شهيداً بأن لا إله إلاّ اللّٰه و أنّ محمّداً رسوله اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من غير شهادة سهيل بن عمرو، ففيه تسلية لرسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ على ما وقع من سهيل بن عمرو، إذ لم يرض بكتابة «بسم الله الرّحمن الرّحيم و محمّد رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾» و قال ما قال. و قيل: أي شهيداً على ما أرسل به لأنّ الكفّار أبوا أن يكتبوا: هذا ما صالح عليه محمّد رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾. ٣- قيل: أي و كفى باللّٰه شهيداً على صدق رؤيا رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾. ٤- قيل: أي و كفى باللّٰه شهيداً على أنّ هذا الدّين يعلوا و لا يُعلىٰ.

٥- قيل: أي و كفى باللّٰه شهيداً على صدق نبوّته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الوعد أنّ دينه سيظهر على الدّين كلّه. ٦- قيل: أي شهيداً على أنّ ما وعده كائن لا محالة من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح.

٧- قيل: أي كفى بالله شهيداً على رسالته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لأنّه ادّعاها و أظهر اللّٰه تعالى

المعجزة على يده﴿عليه السلام﴾ و ذلك شهادة منه سبحانه عليها، فشهادته تعالى لرسوله﴿عليه السلام﴾ تبيّن صحّة نبوّته بالمعجزات الباهرة و البراهين القاطعة و الحجج الواضحة... فالمعنى: و كفى باللّٰه شهيداً أنّك مرسل بما ذكر كما قال تعالى: «محمّد رسول اللّٰه...».

أقول: و التّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق فتدبّر جيّداً.

٢٩- (محمّد رسول اللّٰه و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من اللّه و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد اللّٰه الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً)

في قوله تعالى: «و الّذين معه» أقوال: ١- عن ابن عبّاس هم أهل الحديبيّة الّذين كانوا أشدّآء أي غلاظ على الكفّار كالأسد على فريسته. و عن الحسن: هم لايرحمون الكفّار حتّى بلغ من تشدّدهم على الكفّار أنّهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن يلزق بثيابهم، و من أبدانهم أن تمسّ بأبدانهم، و بلغ من تراحمهم فيما بينهم أن كان لايرى مؤمن مؤمناً إلاّ صافحه و عانقه. ٢- قيل: هم الصّحابة كلّهم من المنافقين و المؤمنين، من المفسدين و المصلحين، من المسيئين و المحسنين، و من الفجّار و المتّقين... لأنّ كلّهم صحابيّ كانوا مع رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ سواء أكانوا معه﴿عليه السلام﴾ في رسالته قلباً و قالباً أم لا. و هذا هو مختار مفسّرى العامّة و حملة آثارهم...

٣- قيل: هم المؤمنون الصّادقون من أصحاب رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ الّذين كانوا معه﴿عليه السلام﴾ في رسالته قلباً و قالباً دون غيرهم من المنافقين الّذين قال اللّٰه تعالى: «و يعذّب المنافقين و المنافقات- يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم- يريدون أن يبدّلوا كلام اللّٰه...» الفتح: ٦ و ١١ و ١٥).

٤- قيل: هم من أصحاب المهديّ المنتظر الحجّة بن الحسن العسكريّ﴿عليه السلام﴾ يرحم بعضهم بعضاً، و لايرحم من خالف دينهم. ٥- قيل: هم المؤمنون الصّادقون في كلّ ظرف من الظّروف إلى يوم القيامة، و هم الّذين يتعاطفون و يتوادّون كالوالد مع ولده.

و هم مع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قلباً في رسالته الإلهيّة تصديقاً و ايماناً و تطبيقاً و عملاً، و إن لم يكونوا معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قالباً، و هم معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في حمل رسالته كما حملها، دعوةً إليها و جهاداً بأنفسهم و أموالهم في سبيلها، و تصبّراً لمشاقّها، و تحمّلاً لحرماتها و حرماناتها...، فلا تختصّ المعيّة بزمان أو مكان، و لا بقوم و أشخاص... فلا تعني معيّة الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ معيّة الزّمن حتّى تختصّ بصحابته المعاصرين، و لا معيّة المكان لكى تنحصر بمن عاينوه و شاهدوه، فتنحسر عمّن بعده من التّابعين و أتباعهم إلى يوم الدّين، و لا معيّة نسبة أو قرابة أو لغة و ما إليها... ممّا لاتقرب أصحابها إلى رسالة السّمآء، و قد تبعد عنها كما أنّ أبالهب أبعد البعيد الّذى كان يهمل كافّة هذه المعيّات إلاّ الرّسالة و قد نزلت في تبابه سورة فذّة: «تبّت يدا أبي لهب و تبّ...» و قد أصبح سلمان الفارسيّ الّذي لم يحمل إلاّ معيّة الرّسالة، أهل البيت: «سلمان منّا أهل البيت».

فلا تعنى المعيّة ههنا إلاّ معيّة الرّسالة، كما يصدقها وصف محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ مسبقاً بالرّسالة و مواصفاتها اللّاحقة الّتي لاتحمل زماناً و لا مكاناً و لا لغة و لا قرابة، فبإمكانك أن تكون معه قريباً إليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أنت أبعد البعيد عنه، عرض المكان، و طول الزّمان دون أيّة نسبة أو قرابة أو أن تكون عليه (لامعه) غريباً عنه و أنت تعاصره و تواطئه مشاهداً له ليلاً و نهاراً، و من أنسب أنسبآئه أو أقرب أقربآئه فـ«إنّ ولىّ محمّد من والى اللّه و رسوله و إن بعدت لحمته، و إنّ عدوّ محمّد من عادى اللّه و رسوله و إن قربت لحمته» و إنّ السّعادة بالولاية دون الولادة، إذاً فلاتعني هذه المعيّة إلاّ أن تنحو منحاه في رسالة السّمآء تطبيقاً و نشراً له في الأرض.

أقول: و الثّالث هو الأنسب بظاهر السّياق، و المؤيّد بالرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين، من دون تناف بينه و بين الرّابع والخامس للجرى و التّطبيق على كلّ من سلك مسالكهم كما يستفاد من ذيل الآية الكريمة.

و في قوله سبحانه: «تراهم ركّعاً سجّداً» أقوال: ١- قيل: خطاب: لرسول الله﴿ﷺ﴾ أي ترى أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ هؤلآء الّذين معك في رسالتك راكعين ساجدين لله تعالى حقّاً من دون رياء و لا نفاق. ٢- قيل: لكلّ من له أهليّة الخطاب في كلّ ظرف من الظّروف... و المعنى: يا من له أهليّة الخطاب ترى هؤلآء الّذين مع رسول الله﴿ﷺ﴾ في رسالته كثير الرّكوع و السّجود، تراهم ركّعاً أحياناً لله في صلاتهم سجّداً أحياناً. ٣- قيل: هذا إخبار عن كثرة صلاتهم و مداومتهم عليها، فالمعنى: ترى يا من يتأتّى منك الخطاب هؤلآء المؤمنين مصلّين كثيراً مداومين، محافظين عليها لأنّهم مشتغلون بالصّلاة في أكثر أوقاتهم...

٤- قيل: أي تراهم كأنّهم راكعون ساجدون لأنّ حياتهم ركوع و سجود لله تعالى في كافّة صورها على مختلف صيغها و هيئاتها، في صلاتها لله تعالى و في كلّ صلاتها بعباده، في حياتهم الفرديّة لله تعالى و في الإجتماعيّة، فكلّ حياتهم كأنّها صَلاة و صِلات، و ركوعات و سجودات لله جلّ وعلا طالما تختلف الأشكال و الصّور، فما الرّكوع و السّجود في الصّلاة إلاّ تعبيراً عينيّاً عن اصالة العبوديّة و الخضوع لله سبحانه، المتعرّقة في نفوسهم...

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق فتدبّر جيّداً.

و في قوله عزّوجلّ: «يبتغون فضلاً من اللّه و رضواناً» أقوال: ١- قيل: أى يلتمسون فضلاً من اللّه تعالى بالعفو عن تقصيرهم في العبادات، و رضواناً منه جلّ وعلا عن أعمالهم الصّالحة بأن يتقبّلها اللّه تعالى منهم. ٢- قيل: أي يطلبون بركوعهم و سجودهم، و شدّتهم على الكفّار و رحمة بعضهم بعضاً، فضلاً من اللّه تعالى، و ذلك رحمته إيّاهم بأن يتفضّل عليهم، فيدخلهم جنّته، و أن يرضى عنهم ربّهم. ٣- قيل: أي يطلبون الثّواب و الرّضا، و الفضل: العطيّة و هو الثّواب، و الرّضوان أبلغ من الرّضا. ٤- قيل: إنّ الايمان باللّه تعالى حقّاً و العبادات لله وحده و الأعمال الصّالحة بنيّة صادقة و إخلاص كلّها كشجرة لها ساقان: شجرة العبوديّة النّاحية منحى رضوانٍ من اللّه تعالى لأنّه اللّه جلّ وعلا، و فضل من اللّه عزّوجلّ حيث وعد عباده الصّالحين،

فضلاً في الحياة الدّنيا و فضلاً في الدّار الآخرة، فيعملون لهما و يأملون من اللّه تعالى الفضل فيها.

۵- قيل: إنّهم لايريدون بايمانهم و عباداتهم و صالح أعمالهم... من اللّه تعالى جزاءً و لا ثواباً بل كلّها ابتغآءً لوجه اللّه جلّ وعلا، و لكنّهم يلتمسون فضلاً من اللّه عزّوجلّ و رضاه عنهم، و هم الّذين قال اللّه تعالى فيهم: «و اصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداوة و العشيّ يريدون وجهه و لاتعد عيناك عنهم» الكهف: ۲۸).

أقول: و الخامس هو الأنسب بظاهر السّياق و في معناه بعض الأقوال الأُخر فتدبّر.

و في قوله جلّ وعلا: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي أثر صلاتهم يظهر في وجوههم يوم القيامة. و المعنى: إنّ سجودهم لله تعالى تذلّلاً، و ركوعهم تخشّعاً أثّر في وجوههم أثراً و هو سيما الخشوع و التّذلّل لله تعالى وحده يعرفهم به من رآهم يوم القيامة. فهذا أمر معنويّ. و قيل: إنّ في وجوههم نوراً كائناً، و بياضاً ثابتاً يظهر على وجوههم بأن يبدو من باطنهم على ظاهرهم، فيتبيّن ذلك للمؤمنين الّذين هم غيرهم، فيعرفونهم به في الآخرة أنّهم سجدوا و ركعوا في الدّنيا لله تعالى ابتغاء لوجهه لايريدون جزاء و لا ثواباً من اللّه تعالى هذه عبادة الأحرار، لا عبادة العبيد و التّجّار. و عن ابن عبّاس أيضاً و الحسن و قتادة و ابن عطيّة و عطاء: أي علامة نور يجعلها اللّه تعالى في وجوههم يوم القيامة، فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقاً مستنيراً. و عن ابن عبّاس أيضاً و سعيد بن جبير: أي بياض يغشى وجوههم يوم القيامة.

۲- عن ابن عبّاس أيضاً و الحسن و مجاهد و عطاء و الرّبيع بن أنس: هو السّمت الحسن. و هو سيماء الإسلام و سمته و خشوعه. هو حسن يعترى وجوه المصلّين. فالمعنى: لهم سمت حسن و خشوع و خضوع يظهر أثره في وجوه الّذين كانوا مع رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) في رسالته، لا مع الرّسول(صلى الله عليه وآله) فقط كأكثر الصّحابة... و من ثمّ قيل: إنّ للحسنة نوراً في القلب، و ضيآءً في الوجه، و سعة في الرّزق، و محبّة في قلوب النّاس. ۳- عن الضّحّاك: هو مايظهر في وجوههم من السّهر بالليل. قيل: أى لاحت علامات

التّهجّد باللّيل، و أمارات السّهر من الكلف و التهيج، و النّحول، و الصّفرة و التّعب في الوجه. و عن عكرمة و ابن عطيّة: هو السّهر من إذ سهر الرّجل من الليل أصبح مصفراً أي صفرة الوجه من قيام الليل إذ ارأيتهم حسبتهم مرضىٰ، و ما هم بمرضىٰ.

و عن سفيان الثّوري: هم يصلّون بالليل، فإذا أصبحوا رؤى ذلك في وجوههم. بيانه قوله«صلى الله عليه و آله»: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنّهار» فالسّيما هي السّمة الّتي تحدث في جباههم من كثرة الصّلاة.

و عن مجاهد أيضاً: أي علامتهم في وجوههم في الدّنيا من أثر الخشوع، فليس الأثر في الوجه، و لكنّ الخشوع و التّواضع. قال منصور: سئلت مجاهداً عن قوله: «سيماهم في وجوههم» أهو أثر يكون بين عينى الرّجل؟ قال: لا، ربّما يكون بين عيني الرّجل مثل ركبة العنز، و هو أقسى قلباً من الحجارة، و لكنّه نور في وجوههم من الخشوع.

٤- عن سعيد بن جبير و سعيد بن المسّيب و عكرمة و أبي العالية: أي ندى الطّهور و تراب الأرض. أي ما يتعلّق بجباههم من الأرض عند السّجود، و هو أثر التراب على جباههم لأنّهم كانوا يسجدون على التّراب لا على الأثواب و الفروش... ٥- قيل: أي تظهر آثار العبودية من وضيئة السّيما و نورانيّتها من سيماهم كما أنّ آثار الشّقاوة و ظلمة السّيما تظهر من تاركي العبادات... ٦- قيل: أي سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق و الصّفا و الشّفافيّة، و من ذبول العبادة الحى الوضيء اللطيف. ٧- قيل: أثر السّجود النكتة الّتي تظهر على الجبهة.

٨- عن قتادة أيضاً: أي علامتهم الصّلاة، و هي السّمة الّتي تحدث في جبهة السّجّاد عن كثرة السّجود أي من التّأثير الّذي يؤثّره السّجود. و كان يقال لعليّ بن الحسين سيّد السّاجدين زين العابدين«عليه السلام» ذو الثّفنات، حيث إنّ كثرة السّجود منه أحدثت في مواقعة منه أشباه ثفنات البعير. و الثِفنة- بكسر الباء- من البعير: الرّكبة و ما مسّ الأرض من أعضآئه عند الإناخة. قال الشّاعر:

ديار علـيّ و الحسـين و جـعفر و حمزة و السّجّاد ذي الثّـفنات

٩- عن شَهْر بن حَوْشب: يكون موضع السّجود من وجوههم كالقمر ليلة البـدر.

۱۰- قيل: النّور علامتهم في وجوههم في الدّنيا و الآخرة، و إن كان في الآخرة أظهر و أتمّ. فالمعنى: يظهر أثر صلاتهم و سجودهم و سهرهم بالليل من وجوههم، و الأثر نور يجعله اللّه تعالى يعرفه أهل الايمان في الدّنيا، و يجسّم هذا النّور يوم القيامة يعرفه الإنسان تماماً.

و قال أصحاب التّحقيق: من توجّه إلى شمس الدّنيا لابدّ أن يقع شعاعها على وجهه، فالّذي أقبل على شمس عالَم الوجود، و هو اللّه سبحانه كيف لا يستنير ظاهره و باطنه، ولاسيّما يوم تبلى السّرآئر و يكشف الغطآء. ۱۱- عن ابن جريج: هو الوقار و البهاء. ۱۲- قيل: هذه كناية عن كثرة صلاتهم و مداومتهم عليها. ۱۳- قيل: أي ترى على وجوههم هبة لقرب عهدهم بمناجاة سيّدهم.

۱٤- قيل: أي علامتهم لائحة للنّاظرين بنور اللّه دون الجاهلين: «يحسبهم الجاهل أغنيآء من التّعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون النّاس إلحافاً» البقرة: ۲۷۳) فسيما التّعفّف و الايمان و النّفاق و الإجرام تعرف يوم القيامة: «و على الأعراف رجال يعرفون كلّاً بسيماهم» الأعراف: ٤٦) «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنّواصي و الأقدام» الرّحمن: ٤١) و أمّا سيما الكفر والنّفاق فقد تحتاج إلى تعريف: «و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم» محمّد(ﷺ): ۳۰). في الحياة الدّنيا، و لا حاجة لسيما الايمان فيها إلى تعريف لأنّها من أثر السّجود لائحة للنّاظرين بنور اللّه تعالى دون تعريف و لكن ليس كلّ أثر ظاهر من السّجود أو غيره على الجباه، سيما الايمان كما ليست الجباه الخالية عن الثّفنات سيما اللاايمان، فقد يجتمعان و قد يفترقان.

أقول: و الرّابعة عشر هي المستفاد من الرّوايات من دون تناف بينها و بين أكثر الأقوال الأُخر فتدبّر جيّداً.

و في قوله تعالى: «ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل» أقوال: ۱- عن ابن عبّاس: أي نعتهم مكتوب في التّوراة و الإنجيل قبل أن يخلق السّموات و الأرض. و قيل: إنّ اللّه تعالى نعتهم قبل أن يخلقهم. ۲- قيل: أي وصفهم العجيب الشّأن الّذي وصفناهم به في الكتابين: التّوراة و الإنجيل جميعاً من أنّهم أشدآء على الكفّار رحمآء بينهم. فقوله:

«و مثلهم في الإنجيل» معطوف على «مثلهم في التّوراة» فهما مثل واحد. أي هذه الصّفة هي صفة المؤمنين الّتي وصفهم اللّٰه تعالى بها في التّوراة و في الإنجيل أيضاً، فهم يكونون قليلين ثمّ يزدادون و يكثرون و يستغلظون كزرع أخرج فراخه الّتيّ تتفرّع على جانبيه كما يشاهد في الحنطة و الشّعير و الأُرز و غيرها، فيقوى و يتحوّل من الدّقّة إلى الغلظة، و يستقيم على أُصوله، فيعجب به الزّرّاع لقوّته و كثافته و غلظه و حسن منظره.

٣- قيل: أي وصفهم العجيب الشّأن الجاري في الغرابة مجرى الأمثال، هو في التّوراة: أنّهم أشدّآء على الكفّار، سيماهم في وجوههم من أثر السّجود، و وصفهم هكذا في الإنجيل: أنّهم كزرع أخرج شطأه فآزره... فقوله: «و مثلهم في الإنجيل» مستأنف منقطع عمّا قبله، و هو مبتداء، خبره قوله: «كزرع أخرج شطأه...» فهما مثلان: **أحدهما**- في التّوراة. و **الآخر**: في الإنجيل. و ذلك أنّ التّوراة لمّا كانت كتاب أحكام و شرائع نسب إليه المثل الّذي هو من جنس شرائعه...

كالسّجود و الرّكوع والأعمال الخلقية في مواضعها... و لمّا كان الإنجيل كتاب ارتقاء للعواطف و بثّ الفضائل و استخراج القوى الكامنة في النّفوس ناسب أن يذكر في مثله الزّرع و نماؤه.

٤- قيل: «ذلك» إشارة إلى جميع تلك الأوصاف. و قيل: إشارة إلى قوله تعالى: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود».

٥- عن قتادة: أي علامتهم الصّلاة، ذلك مثلهم في التّوراة و الإنجيل، و مثل آخر في الإنجيل هو نعت أصحاب محمّد﴿ﷺ﴾ كزرع أخرج شطأه أي سيخرج قوم ينبتون نبات الأرض، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. و عن ابن عبّاس أيضاً: أي ذلك مثل ضربه لأهل الكتاب إذا خرج منهم قوم ينبتون كما ينبت الأرض، فيبلغ فيهم رجال يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، ثمّ يغلظون، فهم اولئك الّذين كانوا معهم، و هو مثل ضربه اللّٰه لمحمّد﴿ﷺ﴾ إذ بعثه وحده ثمّ اجتمع إليه ناس قليلون، يؤمنون به ثمّ يكون القليل كثيراً و يستغلظون و يغيظ اللّٰه بهم الكفّار.

و عن الواحدي: هذا مثل ضربه اللّٰه تعالى بمحمّد﴿ﷺ﴾ و أصحابه، فالزّرع

محمّد(ﷺ) و الشّطأ أصحابه، و المؤمنون حوله و كانوا في ضعف و قلّة كما يكون أوّل الزّرع دقيقاً، ثمّ غلظ و قوى و تلاحق، فكذلك المؤمنون قوّى بعضهم بعضاً حتّى استغلظوا و استووا على أمرهم.

أقول: و على الثّاني أكثر المفسّرين، و في معناه بعض الأقوال الأُخر.

و في قوله سبحانه: «كزرع أخرج شطأه» أقوال: ١- عن الفرّاء: أي كزرع أخرج سنبله، فيخرج من الحبّة عشر سنبلات و تسع و ثمان. ٢- قيل: أي أوائل نبته. و شطأ الزّرع: إذا أخرج فراخه و هو في الحنطة و الشّعير و الأُرز و النّخل و غيرها. ٣- قيل: شطأ الزّرع: ما يتفرّع عنه من أغصان و ورق و ثمر. عن ابن زيد: أي أخرج فراخه و أولاده. و أشطأت الشّجرة: أخرج غصونها. ٤- عن مقاتل: هو نبت واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شطأه. و عن الأخفش: أي أخرج طرفه. و عن الزّجاج: أي أخرج نباته، و شطأ النبات أفراخه الّتي تتولّد منه. ٥- قيل: أي أخرج أفراخه و فروعه من دون أن تنقص الأفراخ و الفروع من قوى الزرع.

أقول: و على الخامس أكثر المحقّقين، من دون تنافٍ بينه و بين بعض الأقوال الأُخر فتأمّل جيّداً.

و في قوله سبحانه: «فآزره» أقوال: ١- عن ابن عبّاس: أي نباته مع التفافه حين يسنبل. و عن ابن زيد: أي اجتمع ذلك فالتفّ. ٢- قيل: أي فشدّ أزره. ٣- قيل: أي شدّ الزّرع الشّطءَ بأنّ الزّرع أعان فرعه و قوّاه، فرسول اللّه(ﷺ) برسالته و توفيق اللّه تعالى يعين المؤمنين الصادقين و يقوّيهم.

٤- عن المبرّد: أي هذه الأفراخ لحقت الامّهات حتّى صارت مثلها. ٥- قيل: أي قوّى الشّطأ الزَّرعَ و أعانه. و أصله من المؤازرة و هي المعاونة أو من الايزار و هي الإعانة و التّقوية، بأنّ المؤمنين هم بايمانهم و إخلاصهم و صالح أعمالهم و بتوفيق اللّه تعالى يعينون رسول اللّه(ﷺ) و يعزّرونه(ﷺ). ٦- قيل: أي فكان رسول اللّه(ﷺ) يعين المؤمنين الصّادقين، و هم يعينونه و يؤازرونه. ٧- قيل: إنّ المؤمنين هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت. ٨- قيل: إنّ رسول اللّه(ﷺ) كزرع أخرج

أفراخه و فروعه الّتي نصرت عودها و قوّت اصولها... فكما أنّ أصل الشّجرة تعان بأغصانها و أصل الزّرع تقوىٰ بفروعه، كان رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ كالأصل الّذي تعان بمن آمن به حقّاً.

أقول: و الثّامن هو الأنسب بظاهر السّياق.

و في قوله عزّوجلّ: «فاستغلظ فاستوى على سوقه» أقوال: ١- قيل: أي صارت قصبة الشّجرة أو الزّرع غليظة بعد الرّقّة و الرّخاوة، فارتفع الزّرع و نهض و استقام على قصبة و اصوله. و السّوق: جمع ساق، و هي هنا قصبة النّبات و ساقه. ٢- عن قتادة والزّهري: أي صار الزّرع غليظاً، فاستوى الصّغار مع الكبار، فتلاحقت الصّغار كبارها أي صارت مثلها في الغلظة. ٣- قيل: أي فأخذ الزّرع في الغلظة بما نبت حوله حتّى تناهى و بلغ الغاية، فكذلك الرّسول﴿ﷺ﴾ قوّى بالمؤمنين الصّادقين حوله، فتناهي و بلغ الغاية في الاستواء.

أقول: و على الأوّل أكثر المفسّرين و في معناه الثّالث.

و في قوله جلّ وعلا: «يعجب الزّرّاع» أقوال: ١- قيل: أي يعجب هذا الزّرع زرّاعه الّذين زرعوه. و هذا مثل ضربه اللّٰه تعالى بمحمّد﴿ﷺ﴾ و أصحابه المؤمنين، فالزّرع هو الإسلام، و الزّارع هو محمّد﴿ﷺ﴾ و الشّطأ المؤمنون من أصحابه، فأعجب هذا الزّرع بكثرة ما نبت حوله، زارعه.

٢- قيل: أي يعجب الزّرّاع بقوّته و كثافته و غلظه و حسن منظره. ٣- قيل: هذا مثل ضربه اللّٰه تعالى للمؤمنين من الصّحابة كانوا قليلين في بدء الإسلام، ثمّ كثروا و استحكموا فترقّى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب النّاس. ٤- قيل: هذا مثل ضربه اللّٰه تعالى لبدء ملّة الإسلام و ترقّيه في الزّيادة إلى أن قوى و استحكم لأنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ قام وحده، ثمّ قوّاه اللّٰه عزّوجلّ بمن معه في رسالته كما يقوى الطّاقة الاولى ما يحتف بها ممّا يتولّد منها، فالرّزع هو رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و الشّطء أصحابه، فيكون مثلاً له﴿ﷺ﴾ و أصحابه لا لأصحابه فقط.

٥- قيل: الزّرع كناية عن النّبيّ﴿ﷺ﴾ و شطأه كناية عن المؤمنين حيث كانوا في

ضعف و قلّة كما يكون أوّل الزّرع دقيقاً، ثمّ يغلظ و يقوى و يتلاحق بـعضه بـبعض، كذلك المؤمنون قوّى بعضهم بعضاً حتّى استغلظوا و استووا. ٦- قيل: الزّرّاع كناية عن الكفّار لأنّهم يغطّون البذر في التّراب ستر الكافر حقّ اللّٰه تعالى، و خـصّهم لكـونهم معجبين بالدّنيا و زخارفها و راكنين إليها. ٧- قيل: الزّرّاع كناية عن الأنبيآء و المرسلين عليهم السّلام، و المعنى: إنّ ذلك الإخراج و المؤازرة و الاستواء إعجاب و مسرّة لسآئر الزّرّاع: «يعجب الزّرّاع» من الرّسل كما أعجبوا من تشريفه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ قبل تكوّنه.

أقول: و على الرّابع أكثر المفسّرين فتأمّل جيّداً.

و **في قوله جلّ وعلا:** «ليغيظ بهم الكفّار» أقوال: ١- قيل: أي ليغيظ اللّٰه تـعالى برسوله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و المؤمنين الصّادقين من أصحابه، ليغيظ بهم الكفّار و المشركين. و وجه ضرب هذا المثل بالزّرع الّذي أخرج شطأه هو أنّ رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ حين ناداهم إلى دينه و دعاهم إلى شريعته كان ضعيفاً، فأجابه الواحد بعد الواحد، حتّى كثر جمعه و قوى أمره كالزّرع يبدو بعد البذر ضعيفاً، فيقوى حالاً بعد حال حتّى يغلظ سـاقه و فراخه، و كان هذا من أصحّ مثل و أوضح بيان. و فيه إشارة إلى أنّ هذا الزّرع الطّيّب الّذي يملأ القلب سروراً و رضاً، هو في الوقت نفسه يملأ قـلوب الكـافرين حـسرة و حسداً... فهذ الزّرع الطّيّب يزيد الكفّار تغيّظاً،و يزيد المـؤمنين الصّـادقين سروراً و اعتزازاً.

و قال البلخي: هو كقوله تعالى: «كمثل غيث أعجب الكفّار نباته»الحديد: ٢٠) يريد بالكفّار- ههنا- الزّرّاع، واحدهم كافر لأنّه يغطّى البذر، و كلّ شيء غطيته فقد كفرته، و منه قولهم: تكفر بالسّلاح. و قيل: ليل كافر لأنّه يستر بظلمته كلّ شيء.

٢- قيل: إنّ «ليغيظ بهم الكفّار» تعليل لمادلّ عليه تشبيه المؤمنين الصّادقين مـن أصحاب رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بالزّرع في ذكآئهم و استحكامهم، و نمآئهم و تـرقّيهم في القوّة و الاستكمال و تظاهرهم. و المعنى: فعل اللّٰه تعالى هذا لمحمّد﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و أصحابه ليغيظ بهم الكفّار، فقد كثّرهم و قوّاهم و نمّاهم ليكونوا غيظاً للكافرين بتوافـرهم و تظاهرهم و اتّفاقهم على الطّاعة إذ يعتقدون أنّ اللّٰه تعالى مـتمّ بهـم نـوره و لو كـره الكافرون.

۳- قيل: إنّ الجملة تعليل لقوله تعالى: «وعد اللّه الّذين آمنوا...» لأنّ الكفّار إذا سمعوا ما أعدّ اللّه لهم في الآخرة من الأجر مع ما ينيلهم في الدّنيا من العزّ و الخير غاظهم ذلك. و المعنى: وعد الله من أقام منهم على الايمان و العمل الصّالح مغفرة لذنوبهم، و ثواباً عظيماً و نعياً مقياً ليغيظ بهم الكفّار إذ ليس لهم في الدّنيا إلاّ الخزى و الهوان، و لا في الآخرة إلاّ النّار و العذاب.

أقول: و الأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق و في معناه الثّاني فتدبّر جيّداً.

و **في قوله عزّوجلّ:** «منهم» أقوال: ۱- قيل: إنّ ضمير «منهم» راجع إلى «الّذين آمنوا» تنبيهاً إلى أنّ وصف المؤمنين لايتمّ إلاّ بالعمل الصّالح، و أنّ الّذين لهم المغفرة والأجر العظيم من الله تعالى هم الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات لا المؤمنون على إطلاقهم، و هذا هو السّرّ في قوله سبحانه: «منهم» الّذي يعزل الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات عن الّذين آمنوا و لم يعملوا الصّالحات فهؤلاء غير اولئك.

۲- قيل: إنّ الضّمير راجع إلى «الّذين معه» و هذا شرط فيمن أقام منهم على تلك الصّفات السّبع: **ألف:** الشّدّة على الكفّار. ب: الرّحمة فيما بينهم. ج: كثرة الرّكوع. د: كثرة السّجود. هـ: طلب الفضل من الله تعالى. و: ابتغاء رضا الله جلّ وعلا. ز: أثر السّجود والعبوديّة من السيما. فمن خرج عن هذه الأوصاف بالمعاصى فلايتناوله هذا الوعد.

ف «من» تبعيضيّة، و يفيد الكلام اشتراط المغفرة و الأجر العظيم بالايمان حدوثاً و بقاءً و عمل الصّالحات، فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الّذين لم يعرفوا بالنّفاق كما يشير إليه قوله تعالى: «و من أهل المدينة مردوا على النّفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم» التّوبة: ۱۰۱) أو آمن أوّلاً ثمّ كفرو أشرك كما في قوله سبحانه: «إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى- إلى قوله- و لو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم» محمّد﴿صلی الله علیه و آله﴾: ۳۰) أو آمن و لم يعمل الصّالحات كما يستفاد من آيات الإفك منها قوله سبحانه: «إنّ الّذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدّنيا والآخرة و لهم عذاب عظيم» النّور: ۲۳) و آية التبيّن في نبأ الفاسق كقوله تعالى: «إن جآءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا» الحجرات: ٦) و هو الوليد بن عقبة صحابيّ، و قد سمّاه الله

تعالى فاسقاً، و قال جلّ وعلا: «فإنّ الله لايرضى عن القوم الفاسقين» التّوبة: ۹٦) و أمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة و الأجر العظيم.

و نظير هذ الاشتراط ما تقدّم في قوله تعالى: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» الفتح: ۱۰) و يؤيّده أيضاً ما فهمه ابن عبّاس من قوله تعالى: «فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم» حيث فسّره بقوله: «إنّما أُنزلت السّكينة على من علم منه الوفاء».

و نظير الآية أيضاً في الاشتراط قوله تعالى: «وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض- و من كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون» النّور: ٥٥).

۳- قيل: إنّ الضّمير راجع إلى «الّذين معه» و «من» بيانيّة، بيان لمعيّتهم في رسالته﴿ﷺ﴾ قلباً و إن لم يكونوا معه قالباً بأنّها لاتتحقّق إلاّ بالايمان و العمل الصّالح معاً، و لذا تأخّرت بعدهما، فيخصّهم بالوعد دون غيرهم.

٤- قيل: إنّ الضّمير راجع إلى «الّذين معه» و «من» بيانيّة تفيد شمول الوعد لجميع «الّذين معه» سواء أكانوا معه قلباً و قالباً أم قالباً فقط.

قال بعض المعاصرين: و هو مدفوع- كما قيل- بأنّ «من» البيانيّة لاتدخل على الضّمير مطلقاً في كلامهم، و الاستشهاد لذلك بقوله تعالى: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم» مبنيّ على إرجاع ضمير «تزيّلوا» إلى المؤمنين، و ضمير «منهم» للّذين كفروا، و قد تقدّم في تفسير الآية أنّ الضّميرين جميعاً راجعان إلى مجموع المؤمنين و الكافرين من أهل مكّة فتكون «من» تبعيضيّة لا بيانيّة.

و بعد ذلك كلّه لو كانت العِدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولاً مطلقاً من غير اشتراط بالايمان و العمل الصّالح، و كانوا مغفورين- آمنوا أو أشركوا، و أصلحوا أو فسقوا- لزمته لزوماً بيّناً لغويّة جميع التكاليف الدّينيّة في حقّهم و ارتفاعها عنهم، و هذا ممّا يدفعه الكتاب و السّنّة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه، و إن لم يتعرّض له في اللفظ، و

قد قال تعالى في أنبيآئه: «و لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» الأنعام: ٨٨) فأثبته في أنبيآئه و هم معصومون، فكيف فيمن هودونهم!

فإن قيل: اشتراط الوعد بالمغفرة و الأجر العظيم بالايمان و العمل الصّالح اشتراط عقليّ كما ذكر، و لا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله: «وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم» يشهد باتّصافهم بالايمان و عمل الصّالحات، و أنّهم واجدون للشّرط، و خاصّة بالنّظر إلى تأخير «منهم» عن قوله: «الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» حيث يدلّ على أنّ عمل الصّالحات لاينفكّ عنهم بخلاف قوله في آية النّور: «وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصّالحات ليستخلفنّهم» النّور: ٥٥) كما ذكره بعضهم، و يؤيّده أيضاً قوله في مدحهم، «تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً» حيث يدّل على الاستمرار.

قلنا: أمّا تأخير «منهم» في الآية فليس للدّلالة على كون العمل الصّالح لاينفكّ عنهم، بل لأنّ موضوع الحكم هو مجموع «الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» و لايترتّب على مجرّد الايمان من دون العمل الصّالح أثر المغفرة و الأجر، ثمّ قوله: «منهم» متعلّق بمجموع الموضوع فمن حقّه أن يذكر بعد تمام الموضوع و هو «الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» و أمّا تقدّم الضّمير في قوله: «وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصّالحات ليستخلفنّهم» فلأنّه مسوق سوق البشرى للمؤمنين، و الأنسب لها التّسريع في خطاب من بشّر بها لينشط بذلك و ينبسط لتلقّي البشرى.

و أمّا دلالة قوله: «تراهم ركّعاً سجّداً» الخ على الاستمرار فإنّما يدلّ عليه في مامضى إلى أن ينتهي إلى الحال، و أمّا في المستقبل فلا، و مصبّ إشكال لغويّة الأحكام إنّما هو المستقبل دون الماضي، إذ مغفرة الذّنوب الماضية لاتزاحم تعلّق التكليف، بل تؤكّده بخلاف تعلّق المغفرة المطلقة بما سيأتي، فإنّه لايجامع بقآء التكليف المولويّ على اعتباره، فيرتفع بذلك التّكاليف و هو مقطوع البطلان، على أنّ ارتفاع التّكاليف يستلزم ارتفاع المعصية، و يرتفع بارتفاعها موضوع المغفرة، فوجود المغفرة كذلك يستلزم عدمها» إنتهى كلامه.

أقول: إنّي لا أظنّ أنّ من له أدنى مسكة و طيب ولادة أن يشكّ أنّ المراد من المعيّة في قوله تعالى: «الّذين معه» معيّتهم له﴿ﷺ﴾ في رسالته لا معيّة الرّسول دون رسالته، و قد كان بينهم منافقون لم يكونوا معه﴿ﷺ﴾ في رسالته، من دون خلاف و لا ريب كما صرّح بذلك العامّة سيأتي ذكره، فلم يكن «الّذين معه» قالباً فقط، من الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات... فلن يشملهم الوعد، فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً و لاتغفل فإنّ المقام مزالّ الأقدام عصمنا الله تعالى بعصمته و بعصمة محمّد رسول الله و أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين آمين يا ربّ العالمين.

٥- قيل: إنّ الضّمير راجع إلى «الكفّار» و فيه ترغيب و حثّ و دعوة لهم إلى الايمان، و وعد لهم بالمغفرة و الأجر العظيم.

أقول: و على الثّاني جمهور المحقّقين من مفسّري الشّيعة الإماميّة الاثنى عشريّة الحقّة، و على الرّابع جمهور متفسّري العامّة، و لكنّ الخامس غير بعيد فتأمّل جيّداً، و الله عزّوجلّ هو أعلم.

﴿التّفسير و التّأويل﴾

١- (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً)

و اعلم أنّ المستفاد من سياق آيات السّورة المباركة و من الرّوايات الواردة في نزولها: أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بعد هجرته إلى المدينة كان يحبّ أن يزور بيت الله الحرام بمكّة المكرّمة مولده﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بلده الأمين حتّى رأى في منامه أنّه يزور الكعبة المعظّمة، فاعتزم زيارتها و استنفر إلى ذلك المسلمين، فخرج قاصداً نحوها يوم الإثنين هلال ذي القعدة في سنة ستّ من الهجرة، و معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ألف و مأتان، أو ثلاث مأة و ألف، أو أربعمأة و ألف، أو خمسمأة و ألف أو ثمانمأة و ألف- على اختلاف ما في التأريخ- و ساق معه الهدي، فلمّا وصل إلى مكان، إسمه ذو الحليفة، أحرم، و أمر المسلمين بالإحرام و أشعر الهدى، و قد وصل أخباره﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى قريش فهاجوا و ثارت نفوسهم، و تعاهدوا على منعه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أخذوا يستعدّون للقتال، و جآء الخبر بذلك إلى رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾.

ثمّ تقدّم هو﴿صلى الله عليه و آله﴾ و من معه، و تقدّمت قريش حتّى وصلت الفئتان إلى الحديبيّة، و هي قرية سمّيت باسم بئر فيها، على نحو مرحلة بمكّة، و بركت ناقة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأُلهِمَ بوجوب التوقّف في المكان، فأقام بالحديبيّة بضعة عشر يوماً، و قيل: عشرين يوماً، فبايعه المسلمون تحت الشّجرة الّتي استظلّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بظلّها، فسمّيت بيعة الرّضوان، ثمّ مالت قريش إلى المصالحة و المهادنة أن يقيم النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثلاثة أيّام بالحديبيّة، ثمّ

يرجع عامه هذا إلى المدينة، ثمّ يأتي من قابل، فأجابهم رسول الله﴿ﷺ﴾ إلى ذلك على تكرّه و اعتراض من بعض الصّحابة كعمر بن الخطّاب و أذنابه... فلمّا اتّفقوا على الصّلح و كتبوه، نحر﴿ﷺ﴾ هديه حيث حُصِرَ، و حلق، و فعل أصحابه على ذلك و رجع﴿ﷺ﴾ إلى المدينة المنوّرة، و أنزل الله تعالى هذه السّورة: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً...»- في كراع الغميم: واد بينه و بين المدينة نحو من مأة و سبعين ميلاً، و بينه و بين مكّة نحو ثلاثين ميلاً- فما كان من أمره﴿ﷺ﴾ و أمر قريش، و جعل هذا الصّلح فتحاً لما فيه من المصالح و الحِكَم و الفوآئد الإعتقاديّة و الاقتصاديّة، و المادّيّة و المعنويّة، و السّياسيّة و الحربيّة للمسلمين...

و قد سمّي صلح الحديبيّة فتحاً مبيناً ذا شأن عظيم إذ عقّبه فتح خيبر على يدي مولى الموحّدين عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾ و لأنّه كان ذريعة لفتح مكّة المكرّمة في سنة ثمان من الهجرة. و قال بعض أصحاب التأويل: إنّ المراد بالفتح فتح باب القلب بالتّرقّي عن مقام النّفس، و إنّ الفتح المبين هو ما انفتح على العبد من مقام الولاية و تجلّيات أنوار الأسمآء الإلهيّة المفنية لصفات القلب و كمالاته، و هذا في مقام السّير في الحقّ.

۲- (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً)

ليغفر لك الله تعالى بفتح مكّة المكرّمة ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر بزعم مشركيها و حسابهم بدعائك إيّاهم و النّاس أجمعين في كلّ ظرف من الظّروف إلى توحيد الله جلّ وعلا و العبادة له وحده و رفض الأنداد و الطّواغيت... «و قال الكافرون هذا ساحر كذّاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشئ عجاب و انطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشئ يراد ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلاّ اختلاق» ص: ٤-٧).

فكأنّه ليس لرسول الله﴿ﷺ﴾ إلاّ ذنب واحد و هو ذنب الرّسالة، فلمّا أظهره﴿ﷺ﴾ الله تعالى عليهم بفتح مكّة المكرّمة، صار ذنبه﴿ﷺ﴾ عندهم مغفوراً من دون حاجة إلى استغفار.

و قد ثبت عندنا شيعة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بالأدلّة العقليّة القاطعة، و النّقليّة الواضحة، عصمة الأنبيآء و المرسلين و الأوصيآء عليهم صلوات الله تعالى من فعل شئ من القبآئح صغيرها و كبيرها عمداً و سهواً، قبل النّبوّة و الرّسالة و الإمامة و بعدها... فلا يصحّ حمل الآية الكريمة على شئ ممّا تقوّله أكثر مفسّري العامّة، و لا صرفها إلى آدم ﴿عليه السلام﴾ حيث إنّ الكلام فيه هو الكلام في نبيّنا محمّد ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لا يصحّ حملها على الصّغآئر الّتي تقع محبطة، و لا على ترك الأولى و لا على إتيان المكروه كما زعم بعضهم.

كيف يجوز عليهم الخطأ و العصيان، و طاعتهم طاعة الله عزّوجلّ و هو يقول: «و ما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن الله - من يطع الرّسول فقد أطاع الله» النسآء: ٦٤ و ٨٠) و يأمر سبحانه عباده بالأخذ بما آتاهم الرّسول، و ينهاهم عمّا نهاهم عنه: «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا» الحشر: ٧)؟

أيأمر الرّسول ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أمّته بفعل و هو يتركه، أو ينهاهم عنه و هو يفعله؟ و وصيّه ﴿عليه السلام﴾ يقول:

«أيها النّاس إنّي و الله ما أحثّكم على طاعة إلاّ و أسبقكم إليها و لا أنهاكم عن معصية إلاّ و أتناهى قبلكم عنها» نهج البلاغة: خطبة ١٧٤).

و ليست المعصية إلاّ بالضّلالة و الغواية، و قد نفيهما الله تعالى من رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في قوله: «ما ضلّ صاحبكم و ما غوي و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحىٰ علّمه شديد القوى» النّجم: ٢-٥) و ليست الغواية إلاّ من سلطان الشّيطان على الغاوين: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢) و ليس للشيطان سلطان على المؤمنين المخلصين: «إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون إنّما سلطانه على الّذين يتولّونه والّذين هم به مشركون» النّحل: ٩٩-١٠٠) فضلاً عن نبيّهم المعصوم من كلّ خطأ سهواً و عملاً، قولاً و فعلاً لقوله عزّوجلّ: «و اصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا» الطّور: ٤٨).

و لاريب أنّ السّرّ في اعتقاد العامّة بعدم عصمة الأنبيآء و المرسلين و الأوصيآء

صلوات الله عليهم أجمعين، و حتّى بعدم عدالة الله جلّ وعلا لتوجيه جنايات قادتهم وبغيهم و غوايتهم، و ظلمهم و طغيانهم... و من العجآئب أنّ العامّة لاتعتقد بعصمة الأنبيآء و المرسلين عليهم صلوات الله و يجوّزون لهم الخطأ و العصيان عمداً و سهواً، و هم يصرّون على عدالة الصّحابة كلّهم حتّى خالد بن وليد الخمّار و معاوية بن أبي سفيان و مغيرة بن شعبة و أضرابهم من الفجّار و المستكبرين، و الفسّاق و المجرمين... و قد صرّح بذلك أعاظمهم و حملة آثارهم في تفاسيرهم و صحاحهم و مسانيدهم...

منهم: القرطبي في تفسير (الجامع لأحكام القرآن- في آخر تفسير سورة الفتح) ما لفظه: «قلت: فالصّحابة كلّهم عدول، أوليآء الله تعالى و أصفيآؤه و خيرته من خلقه بعد أنبيآئه و رسله، هذا مذهب أهل السّنّة، و الّذي عليه الجماعة من أئمّة هذه الأُمّة، و قد ذهبت شرذمة لامبالاة بهم إلى أنّ حال الصّحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، و منهم من فرّق بين حالهم في بُداءة الأمر فقال: إنّهم كانوا على العدالة إذ ذاك ثمّ تغيّرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب و سفك الدّماء، فلابدّ من البحث، و هذا مردود- إلى أن قال -: و ذلك غير مسقط من مرتبتهم و فضلهم إذ كانت تلك الامور مبنيّة على الاجتهاد، و كلّ مجتهد مصيب».

و **قوله تعالى:** «و يتمّ نعمته عليك» أي و ليتمّ الله عزّوجلّ نعمته عليك أيّها الرّسول ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بهذا الفتح المبين، فإتمام النّعمة على رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ ثمرة ثانية أو عِلّة غائيّة و حكمة إلهيّة لهذا الفتح.

و ذلك أنّ الله عزّوجلّ قد فتح خيبر بيد عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ بعد صلح الحديبيّة الّذي كان ذريعة إلى فتح مكّة المكرّمة، فتح الله تعالى خيبر بيده ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بعد الصّلح و رجوع رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة إبرازاً للياقة عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ الذّاتيّة لأمر الولاية و الخلافة بعد رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فكان الفتح تمهيداً لاتمام هذه النّعمة على رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بالأصالة، و على الّذين معه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ في رسالته قلباً و قالباً بالتّبع حيث إنّ كمال العمل بإتمامه، و إنّما إكمال الدّين و إتمام النّعمة، و رضا الله تعالى، و تبليغ الرّسالة كلّها كانت متوقّفة بنصب عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ يوم الغدير للإمامة و الخلافة بعد رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾.

قال الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً- يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٣ و ٦٧).

و من البيّن أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ هو باني مسكن الدّين الإسلامي الخالد بأمر الله جلّ وعلا، و المسكن يبنى للسّاكن الّذي يحفظه، فمن بنى مسكناً من دون نصب ساكن له يحصنه فكأنّه لم يبنه أصلاً.

و **قوله عزّوجلّ**: «و يهديك صراطاً مستقيماً» أي و يهديك الله تعالى أيّها النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه و آله﴾ هداية خاصّة في أمر خاصّ، صراطاً مستقيماً بهذا الفتح المبين.

و من البداهة: أنّ الله تعالى قد أرسل رسوله محمّداً﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالهدى و دين الحقّ» الفتح: ٢٨) و جعله هادياً مهديّاً إلى صراط المستقيم، ديناً قيماً، و أمره﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن يدعو النّاس إليه، و أمرهم بإطاعته، و جعل طاعته﴿صلى الله عليه و آله﴾ طاعة نفسه، و حبّهم لله سبحانه باتّباعهم لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال:

«قل إنّني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً- و أنا أوّل المسلمين» الأنعام: ١٦١-١٦٣).

و قال: «و ادع إلى ربّك إنّك لعلى هدى مستقيم» الحجّ: ٦٧).

و قال: «إنّما أنت منذر و لكلّ قوم هاد» الرّعد: ٧).

و قال: «و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الّذي له ما في السّموات و ما في الأرض» الشّورى: ٥٢-٥٣).

و قال: «قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا و من اتّبعني» يوسف: ١٠٨).

و قال: «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله- قل أطيعوا الله و الرّسول- إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه و هذا النّبيّ و الّذين آمنوا و الله وليّ المؤمنين» آل عمران: ٣١-٣٢ و ٦٧).

فهذه الهداية: «و يهديك صراطاً مستقيماً» هي ثمرة ثالثة لهذا الفتح المبين هداية خاصّة لأمر خاصّ خطير، و هي الهداية في نصب عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يوم الغدير

للإمامة و الخلافة بلافصل بعد رسول الله﴿ﷺ﴾ فقال: «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٦٧).

٣-(و ينصرك الله نصراً عزيزاً)

و أن ينصرك الله أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ و من معك في رسالتك قلباً و قالباً بفتح خيبر و مكّة و الطّائف نصراً يقلّ وجود مثله و يصعب مناله، نصراً عزيزاً تختم به الانتصارات الّتي بدأت بصلح الحديبيّة و ختمت بحجّة الوداع و نصب عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾ يوم الغدير للإمامة و الخلافة بعدك.

و ذلك أنّ الله عزّوجلّ فتح لرسوله﴿ﷺ﴾ بعد صلح الحديبيّة خيبر بيد عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾ بعد رجوعه﴿ﷺ﴾ إلى المدينة، و فتح مكّة المكرّمة و الطّآئف بعد ذلك، و انبسط الإسلام في الجزيرة و انقطع الشّرك و الطّغيان، و ذلّت اليهود،و خضع له﴿ﷺ﴾ نصارى الجزيرة و المجوس القاطنون بها، و أكمل للمؤمنين دينهم يوم الغدير عند رجوعه﴿ﷺ﴾ إلى المدينة المنوّرة في حجّة الوداع، و أتمّ نعمته عليهم يومئذ و رضى لهم الإسلام ديناً بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ع﴾.

و الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «و من النّاس من يقول آمنّا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة النّاس كعذاب الله و لئن جآء نصر من ربّك ليقولنّ إنّا كنّا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين و ليعلمنّ الله الّذين آمنوا و ليعلمنّ المنافقين» العنكبوت: ١٠-١١).

و قال: «إذا جآء نصر الله و الفتح و رأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربّك و استغفره إنّه كان توّاباً» النّصر: ١-٣).

و قال: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة: ٣).

٤- (هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عليماً حكيماً)

هو الله الّذي أوقع الثّبات و أوجد الطّمأنينة في قلوب الّذين آمنوا بالله جلّ وعلا حقّاً، و كانوا مع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في رسالته قلباً و قالباً، و لم يخالفوه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في شئ ممّا أمرهم به، و لاعمّا نهاهم عنه، و لا في قوله و عمله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لم ينكروا صلح الحديبيّة و لم يتردّدوا فيه و لم يعترضوا عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ليزدادوا يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة و اطمئنان النّفس عليها.

إنّ الله تعالى ينزل السّكينة عند الوقائع و الحوادث و المصآئب و الشّدآئد و ما إليها من المحن و الفتن... في قلوب المؤمنين الصّادقين و يثبّت أقدامهم ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم كما أنّ نزول الآيات الكريمة و تلاوتها توجب زيادة ايمانهم، و أمّا الّذين يقولون بأفواههم آمنّا و لم يدخل الايمان في قلوبهم، فهم عندئذ يتردّدون فيزيدون رجساً إلى رجسهم.

قال الله تعالى:«إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً و على ربّهم يتوكّلون الّذين يقيمون الصّلاة و ممّا رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقّاً» الأنفال: ٢-٤). و قال: «اولئك كتب في قلوبهم الايمان و أيّدهم بروح منه» المجادلة: ٢٢).

و قال: «و أنّ الله لايضيع أجر المؤمنين الّذين استجابوا لله و الرّسول من بعد ما أصابهم القرح للّذين أحسنوا منهم و اتقّوا أجر عظيم الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء و اتّبعوا رضوان الله» آل عمران: ١٧١-١٧٤). و قال: «و لمّا رأ المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله و ما زادهم إلاّ ايماناً و تسليماً» الأحزاب: ٢٢).

و قال: «إنّهم فتية آمنوا بربّهم و زدناهم هدى و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السّموات والأرض و لن ندعو من دونه إلهاً» الكهف: ١٣-١٤) و قال: «و يزيد الله الّذين اهتدوا هدى» مريم: ٧٦).

و قال: «و إذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم و ماتوا و هم كافرون أولا يرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين ثمّ لايتوبون و لاهم يذّكّرون» التّوبة: ١٢٤-١٢٦).

و قال تعالى فيهم: «هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» آل عمران: ١٦٧).

و **قوله تعالى**: «و لله جنود السّموات و الأرض» إنّ كلّ ما سوى الله في نظام الكون و نواميس الوجود من العوالم العلوية و السّماوية، و السّفلية و الأرضيّة، و القوى الظاهرة و الباطنة ممّا ترى و ما لاترى على اختلاف مراتبها و درجاتها في الوجود كلّها جنود لله تعالى لا نعلم عَدَدهم و لا عُدَدهم... و ليست الجنود و هي خلق الله سبحانه الفقرآء إليه لحاجته تعالى إليهم لولا هم لما تغلّب على أعدائه، فحسب و إنّما هي ذكرى للبشر منها: السّكينة النّازلة في قلوب المؤمنين الصّادقين، و منها: الرّعب في قلوب الكفّار و المستكبرين، والفجّار و المجرمين، و الفسّاق و المنافقين.

قال الله عزّوجلّ: «و ما يعلم جنود ربّك إلاّ هو و ما هي إلاّ ذكرى للبشر» المدّثّر: ٣١).

و قال: «إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سالقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» الأنفال: ١٢).

و قال: «يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جآءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها– و قدف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون و تأسرون فريقاً» الأحزاب: ٩ و ٢٦).

فكلّما أيّد الله تعالى عباده المؤمنين الصّادقين، أو سلّط على الكفّار و المجرمين فهو من

جنود الله جلّ وعلا سوآء كان من نفس الإنسان و جوارحه و داخل ذاته، أم كان من خارج نفسه، فإن سلّط عليه نفسه، فأهلك نفسه بنفسه، فنفسه جند لله سبحانه، و إن سلّط عليه جوارحه، فقد أهلك جوارحه بجوارحه، فجوارحه جند لله تعالى.

و من جنود الله جلّ وعلا تثبيت قلوب المؤمنين و من لوازمه ثبات أقدامهم في سبيل الله تعالى و صلابتهم في دينهم، و هذا أعظم جند شأناً و أكبره قدراً، و أشرفه عطيّة من الله عزّوجلّ بأشرف مخلوقاته و هو محمّد رسول الله﴿ﷺ﴾ و أشرف الأُمم و هم المؤمنون، فمن له ثبات قلب في دينه فلن يخاف من غير الله جلّ وعلا و يسعى في إعلاء كلمة الله تعالى و إبطال كلمة الكفر من دون خوف من أيّ صاحب قدرة و ثروة و جاه و عِدّة و عُدّة...

و قوله عزّوجلّ: «و كان الله عليماً حكيماً» فإنّه تعالى لا يزال عليماً بكلّ شئ، حكيماً في صنعه، فلايفعل إلاّ ما يقتضيه علمه و حكمته. قال الله سبحانه: «و هو القاهر فوق عباده و هو الحكيم الخبير» الأنعام: ١٨)

و قال: «يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا و في الآخرة و يضلّ الله الظّالمين و يفعل الله ما يشآء» إبراهيم: ٢٧).

و قال: «ألا يعلم من خلق و هو اللّطيف الخبير» الملك: ١٤).

و قال: «صنع الله الّذي أتقن كلّ شئ إنّه خبير بما تفعلون» النّمل: ٨٨).

و قال: «و إن كلاً لمّا ليوفّينّهم ربّك أعمالهم إنّه بما يعملون خبير» هود: ١١١).

٥- (ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً)

إنّ الله تعالى أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين المخلصين، و هي الّتي أمسكت بهم على طريق الايمان و أيّدتهم و أمدتهم بعزائم قادرة على ملاقات الشّدآئد و الفتن، و المصآئب و المحن الّتي ابتلوا بها يوم الحديبيّة من نفاق المنافقين و وسوستهم في داخل، و من الطّغاة المشركين في خارج، حتّى استطاع هؤلآء المؤمنون الصّادقون أخيراً أن يهزموا الشّرك

والنّفاق، و أن يدكّوا حصون الطّغيان و الفساد... أنزلها الله جلّ وعلا في قلوب المؤمنين ليدخل المؤمنين المخلصين و المؤمنات المخلصات الّذين كانوا مع رسـول الله ﴿ﷺ﴾ في رسالته قلباً و قالباً، و الّذين كانوا معه فيها قلباً، و بين المشركين بمكّة قالباً، ليدخلهم جنّات تجرى من تحت أشجارها و مساكنها و غرفها الأنهار، خالدين فيها، و ليتجاوز لهم عن سيّئاتهم الّتي لاتضرّ الايمان الصّادق، و كان ذلك كلّه من إنـزال السّكـينة في القلوب السّليمة و إدخال أصحابها في الجنّة و تكفير سيّئاتهم عند اللّٰه فوزاً عظيماً لا يقدر قدره أحد إلّا اللّٰه جلّ وعلا، و لن يفوز إلّا من أطاع اللّٰه سبحانه و رسوله ﴿ﷺ﴾.

قال اللّٰه تعالى: «فالّذين هاجروا و اخرجوا من ديارهم و اوذوا في سبيلى و قاتلوا و قتلوا لأُكفّرنّ عنهم سيّئاتهم و لأُدخلنّهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند اللّٰه و اللّٰه عنده حسن الثّواب» آل عمران: ۱۹۵).

و قال: «و من يطع اللّٰه و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً» الأحزاب: ۷۱).

۶- (و يعذّب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظّانّين بـالله ظنّ السّوء عليهم دائرة السّوء و غضب اللّٰه عليهم و لعنهم و أعدّ لهم جهنّم و سآئت مصيراً)

و ليعذّب اللّٰه المنافقين و المنافقات الّذين يتظاهرون بالايمان و يـبطنون الكـفر و ضررهم للإسلام أشدّ و خطرهم للمسلمين أكثرو أعظم من ضرر الكفّار و المشركين للإسلام و المسلمين في كلّ ظرف من الظّروف، حيث إنّ النّفاق آفة في الدّاخل، و الكفر آفة في الخارج، و من البيّن أنّ الآفة الدّاخلة قلّما تدفع و لاترفع هي أشدّ ضرراً و أكثر خطراً من الآفة الخارجة الّتي ربما تدفع و ترفع و لذلك يعذّب المنافقين... قبل أن يعذّب المشركين... و إن كانوا في العذاب المشتركون، و كان المنافقون في الدّرك الأسفل مـن النّار.

قال اللّٰه تعالى: «إذا جآءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول اللّٰه و اللّٰه يعلم إنّك لرسوله و اللّٰه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون إتّخذوا أيمانهم جنّة فصدّوا عن سبيل اللّٰه إنّهم سآء ما كانوا يعملون» المنافقون: ۱-۲).

و قال: «المنافقون و المنافقون بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم نسوا اللّه فنسيهم إنّ المنافقين هم الفاسقون وعد اللّه المنافقين و المنافقات و الكفّار نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم و لعنهم اللّه و لهم عذاب مقيم» التّوبة: ٦٧-٦٨).

و قال: «ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك و ما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت و قد أُمروا أن يكفروا به و يريد الشّيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه و إلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً- بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً الّذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين- إنّ اللّه جامع المنافقين و الكافرين في جهنّم جميعاً- إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار و لن تجدلهم نصيراً» النساء: ٦٠- ٦١ و ١٣٨- ١٤٠ و ١٤٥).

و **قوله تعالى**: «الظّانين بالله ظنّ السّوء» إذ كانوا يظنّون أنّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) و المؤمنين الصّادقين سيغلب عليهم الكفّار و المشركون، و أنّ كلمة الكفر ستعلوا على كلمة الحقّ و الايمان كما قال اللّه عزّوجلّ عتاباً للمنافقين: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء و كنتم قوماً بوراً» الفتح: ١٢).

و قوله عزّوجلّ: «عليهم دآئرة السّوء» الّتي تدور عليهم، بأن يحيق بهم ما كانوا يتربّصونه بالمؤمنين من قتل و سبي و أسر....

و الدّائرة في الأصل عبارة عن الخطّ المحيط بالمركز، ثمّ استعلمت في الحادثة المحيطة بالإنسان كإحاطة الدّآئرة بالمركز إلّا أنّ أكثر استعمالها في الشّرّ و المكروه و الشّدآئد والمحن و المصآئب الصّعبة... و المراد دائرة هي السّوء لقوله تعالى: «إن أرادبكم سوءاً أو أراد بكم رحمة» الأحزاب: ١٧) و قوله سبحانه: «و إذا أراد اللّه بقوم سوءاً فلا مردّ له و ما لهم من دونه من وال» الرّعد: ١١).

و **قوله عزّوجلّ**: «و غضب اللّه عليهم و لعنهم و أعدّلهم جهنّم و سآئت مصيراً» و سينال اللّه تعالى هؤلآء الفريقين بغضب منه سبحانه، و أبعدهم من رحمته و أعدّلهم

جهنّم يصلونها يوم القيامة، و يجعلهم فيها فيعذّبهم عذاباً لايقدر قدره أحد، و سآئت جهنّم لهم منزلاً يصيرون إليها و يقيمون فيها أبداً.

قال اللّٰه تعالى: «وعد اللّٰه المنافقين و المنافقات و الكفّار نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم و لعنهم اللّٰه و لهم عذاب مقيم» التّوبة: ٦٨).

و قال: «من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من اللّٰه و لهم عذاب مقيم ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة و أنّ اللّٰه لايهدي القوم الكافرين اولئك الّذين طبع اللّٰه على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و اولئك هم الغافلون لاجرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون» النّحل: ١٠٦-١٠٩).

و قال: «و الّذين يحاجّون في اللّٰه من بعد ما استجيب له حجّتهم داحضة عند ربّهم و عليهم غضب و لهم عذاب شديد» الشّورى: ١٦).

و قال: «إنّ الّذين يؤذون اللّٰه و رسوله لعنهم اللّٰه في الدّنيا و الآخرة و أعدّلهم عذاباً مهيناً- إنّ اللّٰه لعن الكافرين و أعدّلهم سعيراً خالدين فيها أبداً لايجدون وليّاً و لا نصيراً» الأحزاب: ٥٧ و ٦٤- ٦٥).

و قال: «إنّ اللّٰه أعدّ للكافرن عذاباً مهيناً» النسآء: ١٠٢).

قال: «إنّ عذابها كان غراماً إنّها سآئت مستقرّاً و مقاماً» الفرقان: ٦٥-٦٦).

٧- (و للّٰه جنود السّموات و الأرض و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً)

و جنود السّموات و الأرض الّذين لايعلم عَدَدها و لا عُدَدَهم إلّا اللّٰه تعالى: «و ما يعلم جنود ربّك إلّا هو» المدّثر: ٣١) كلّهم ملكه تعالى و مملوكه و أنصاره ينصر بهم المؤمنين، فإن أمرهم بإهلاك أعدآئه سبحانه أهلكوهم و سارعوا إلى ذلك بالطّاعة منهم له عزّوجلّ: «و إنّ جندنا لهم الغالبون» الصّافات: ١٧٣) فلا جند في نظام لكون و نواميس الوجود إلّا جند اللّٰه جلّ وعلا: «أمّن هذا الّذي هو جند لكم ينصركم من دون الرّحمن» الملك: ٢٠) كما أنّ له وحده تعالى ملك السّموات و الأرض: «الّذي له ملك السّموات و الأرض و لم يتّخذ ولداً و لم يكن له شريك في الملك و خلق كلّ شيء فقدّره تقديراً» الفرقان: ٢).

إذ كان اللّٰه و لايزال ذاعزّة لايُغلَب، و لايمتنع عليه ما أراده به ممتنع لعظم سلطانه و قدرته، و قاهراً لايقهر فلا يردّ بأسه، فينتقم من المنافقين و المشركين، و يغلب رسوله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين الصّادقين عليهم بحكمته في الحياة الدّنيا، و يعذّب المنافقين والمشركين بنفاقهم و شركهم و فسادهم في الأرض، فإنّه حكيم في صنعه و تدبيره، في أمره و قضآئه، و في جميع أفعاله... «و ما النّصر إلّا من عند اللّٰه إنّ اللّٰه عزيز حكيم» الأنفال: ١٠)

٨- (إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً)

يا أيّها الرّسول إنّا أرسلناك إلى النّاس جميعاً: «قل يا أيّها النّاس إنّي رسول اللّٰه إليكم جميعاً» الأعراف: ١٥٨) شاهداً على من بعثتك إليهم بايمانهم و كفرهم، بقبولهم و ردّهم، بتصديقهم و تكذيبهم و إخلاصهم و نفاقهم... شاهداً عليهم فيما يفعلون من طاعة و معصية، و حسنة و سيّئة، من خير و شرّ... فليعملوا بما يحسن هذه الشّهادة الّتي لاتكذب و لاتبدل، شاهداً عليهم بتبليغ الرّسالة العالميّة السّامية الخالدة إليهم، و على سآئر الامم بتبليغ الأنبيآء رسالاتهم إلى أممهم، و شاهداً عليهم في الحياة الدّنيا و في الآخرة.

قال اللّٰه تعالى: «هو سمّاكم المسلمين من قبل و في هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على النّاس» الحجّ: ٧٨) و قال: «و كذلك جعلناكم امّة وسطاً لتكونوا شهدآء على النّاس و يكون الرّسول عليكم شهيداً» البقرة: ١٤٣).

و قال: «فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد و جئنا بك على هؤلآء شهيداً» النساء: ٤١).

و قال: «و يوم نبعث في كلّ امّة شهيداً عليهم من أنفسهم و جئنا بك شهيداً على هؤلآء» النّحل: ٨٩).

و **قوله تعالى**: «و مبشّراً» بالنّصر و الغلبة للمؤمنين الصّادقين على الكفّار والمنافقين في الحياة الدّنيا، و بالجنّة و نعيمها لأهل التّقوى و اليقين، و مبشّراً لهم برحمة و غفران و كرامة و رضوان من اللّٰه جلّ و علا.

قال اللّٰه تعالى: «و بَشِّرِ الّذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربّهم» يونس: ۲)
و قال: «و الّذى آمنوا و عملوا الصّالحات في روضات الجنّات لهم ما يشآؤن عند ربّهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الّذي يبشّر اللّه عباده الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات» الشورى: ۲۲- ۲۳).

و قوله سبحانه: «و نذيراً» بالذّلّة و الهوان في الدّنيا، و بالنّار و العذاب الأليم في الآخرة لمن كفر و عصى اللّٰه تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾.

قال اللّٰه تعالى: «و أنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر و هم في غفلة و هم لا يؤمنون» مريم: ۳۹) و قال: «و أنذر النّاس يوم يأتيهم العذاب فيقول الّذين ظلموا ربّنا أخّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك و نتّبع الرّسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال» إبراهيم: ٤٤).

۹- (لتؤمنوا بالله و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً)

إنّا أرسلناك أيّها النّبيّ ﴿ﷺ﴾ إلى كافّة النّاس شاهداً عليهم، و مبشّراً للمؤمنين منهم بالجنّة و نعيمها، و منذراً للكفّار و المنافقين منهم بالنّار و أنواع عذابها لتؤمنوا أيّها النّاس بالله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ في كلّ ظرف من الظّروف، فتوحّدوا الله جلّ وعلا و تصدّقوا رسوله ﴿ﷺ﴾ و تعظّموه و تحفظوا حرمته و تدعوه ﴿ﷺ﴾ بالرّسالة و النّبوّة لا بالإسم و الكنية: «لاتجعلوا دعآء الرّسول بينكم كدعآء بعضكم بعضاً» النّور: ٦٣) «فالّذين آمنوا به و عزّروه و نصروه و اتّبعوا النّور الّذي أُنزل معه اولئك هم المفلحون» الأعراف: ١٥٧).

و تنزّهوا الله جلّ وعلا عمّا لايليق به على الدّوام و في كلّ حال تشريعاً: «يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً و سبّحوه بكرة و أصيلاً» الأحزاب: ٤٢) «يسبّح له فيها بالغدوّ و الآصال رجال لاتلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله و إقام الصّلاة و ايتاء الزّكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب و الأبصار» النّور: ۳٦-۳۷).

«فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون و له الحمد في السّموات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون» الرّوم: ١٧-١٨).

كما أنّ كلّ شئ يسبّح له جلّ وعلا في كلّ آن تكويناً: «تسبّح له السّموات السّبع والأرض و مَن فيهنّ و إن من شئ إلاّ يسبّح بحمده و لكن لاتفقهون تسبيحهم» الإسراء: ٤٤).

١٠- (إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)

إنّ الّذين يبايعونك أيّها النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم الحديبيّة تحت الشّجرة و في كلّ ظرف من الظّروف، إنّما هم يبايعون الله جلّ وعلا حيث إنّ بيعتهم لك هي بيعة الله تعالى كما أنّ طاعتك هي طاعة الله سبحانه و امتثال أوامرك هو امتثال أوامر الله عزّوجلّ: «من يطع الرّسول فقد أطاع الله» النّساء: ٨٠) فإنّه لاينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى علّمه شديد القوى «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا» الحشر: ٧).

إنّ مبايعة الله سبحانه بمعنى طاعته تعالى مشاكلة أو هو صرف مجاز، فمن بايع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ صورة فقد بايع الله جلّ وعلا حقيقة، فإنّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يبيّن للنّاس ما يوحى إليه: «و أنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم و لعلّهم يتفكّرون» النّحل: ٤٤).

و هذه المبايعة و إن كانت هي بيعة الرّضوان يوم الحديبيّة تحت الشّجرة، و قد بايع جماعة من المسلمين و هم ألف و مأتان أو ألف و أربعمأة على اختلاف روايات الفريقين، فبايعوا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ على أن لايفرّوا عند لقاء العدوّ و لايولّوهم الأدبار، و على الموت في نصرة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و لكنّها شاملة لكلّ مبايعة مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في كلّ ظرف من الظّروف...

و قد سمّيت بيعة تشبيهاً بعقد البيع، و لأنّها عقدت على بيع أنفسهم بالجنّة للزومهم في الحرب و النّصرة لدين الله جلّ وعلا، و قد ضمن الله تعالى لهم الجنّة بوفآئهم له، فقال: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من الله

فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم» التوبة: ١١١).

و قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «ألا حُرٌّ يَدَعُ هذه اللمّاظة لأهلها؟ إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة فلاتبيعوها إلاّ بها».

و قد شرى الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ نفسه ابتغاء مرضات الله جلّ وعلا إذ قال الله تعالى فيه: «و من النّاس من يشري نفسه ابتغآء مرضات الله» البقرة: ٢٠٧).

و إنّ يد رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فوق أيدي المبايعين حين المبايعة، هي يد الله جلّ وعلا فوقها حيث إنّ هذه المبايعة كانت بأمر الله تعالى، فلابدّ من رعايتها.

و قوله عزّوجلّ: «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه» فمن نقض العهد الّذي عقده مع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و نكث البيعة، فلم ينصرك على أعداءك و خالف ما وعد به، فإنّ وبال ذلك و ضرره يرجع إليه و لايضرّ إلاّ نفسه لأنّه بفعله ذلك يخرج من زمرة من وعده الله سبحانه الجنّة بوفآئه بالبيعة، و حرّم نفسه الثّواب و ألزمها العقاب، فليس له جنّة و لا كرامة، و إنّما له نار و عذاب، و أمّا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإنّ الله تعالى هو ناصره على أعدآئه...

قال الله تعالى: «و الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض اولئك لهم اللّعنة و لهم سوء الدّار» الرّعد: ٢٥).

و قال: «إلاّ تنصروه فقد نصره الله» التّوبة: ٤٠).

و قال: «فإنّ حسبك الله هو الّذي أيّدك بنصره و بالمؤمنين» الأنفال: ٦٢).

و قال: «و ينصرك الله نصراً عزيزاً» الفتح: ٣).

و قال: «إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١).

و قوله تعالى: «و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» فمن أوفى بما عاهد عليه الله من نصر دينه و نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ آتاه الله تعالى فيما بعد ثواباً جزيلاً من الجنّة و نعيمها ممّا لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر.

قال الله جلّ وعلا: «الّذين يوفون بعهد الله و لاينقضون الميثاق– اولئك لهم عقبى

الدّار جنّات عدن يدخلونها و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرّيّاتهم و الملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار» الرّعد: ٢٠-٢٤).

و قال: «و من أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم» التّوبة: ١١١).

و قال: «فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قرّة أعين جزآءً بما كانوا يعملون» السّجدة: ١٧).

١١- (سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً)

سيقول لك أيّها النّبيّ«صلى الله عليه و آله و سلم» الّذين تخلّفوا- من منافقي المدينة و حولها- عن صحبتك و الخروج معك في سفرك هذا حين سرت إلى مكّة معتمراً زائراً لبيت الله الحرام، هم يقولون لك بعد رجوعك إلى المدينة عام الحديبيّة، معلّلين لتخلّفهم عنك: شغلتنا عن الخروج معك حفظ أموالنا و إصلاح معايشنا، و تدبير شئون أهلينا من النّساء و الذّراري إذ لم يكن لنا من يقوم بتدبير شئونهم و قضآء حوآئجهم... فخفنا عليهم الضّيعة، فلذلك تخلّفنا عنك، فاطلب لنا المغفرة من ربّك على تخلّفنا عن أمرك و اشتغالنا بالأموال و الأهلين ليغفر الله لنا تخلّفنا عنك، و إن لم يكن عن تكاسل في طاعتك، و لا عن عصيان لك و لا مخالفتنا لأمرك، بل لذلك الدّاعي.

حالكونهم كاذبين في اعتذارهم، و في طلب استغفارهم، فلم يكونوا صادقين في أنّ الامتناع كان لهذا الدّاعي، بل هم تخلّفوا لظنّهم السّوء و ضعف العقيدة و فقد الايمان، معتقدين أنّ رسول الله«صلى الله عليه و آله و سلم» و المؤمنين سيغلبون و لا يرجعون إلى المدينة بدليل قوله تعالى: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء» فيتظاهرون بألسنتهم الايمان، و يسترون الكفر في قلوبهم، فإنّهم «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» فاعتذارهم كذب، و طلب مغفرتهم خدعة،

فإنّهم غير جادّين في طلب الاستغفار، و إنّما سئلوه ليكون ذلك جنّة يصرفون بها العتاب و التّوبيخ عن أنفسهم، فكلامهم من طرف اللّسان غير مطابق لما في قلوبهم والجنان فهو كذب صراح و نفاق محض، مع أنّهم سئلوا رسول الله﴿ﷺ﴾ الاستغفار من دون توبة منهم و لا ندم على ما سلف منهم من معصية الله تعالى في تخلّفهم عن صحبة رسول الله﴿ﷺ﴾ و المسير معه كما يستفاد من سئوالهم الاستغفار على أنّهم كانوا يرون التخلّف معصية.

و إنّ صدر الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبّأنا الله من أخباركم - الأعراب أشدّ كفراً و نفاقاً و أجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله - و ممّن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النّفاق» التوبة: ۹٤-۱۰۱).

و قوله سبحانه: «قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً» الملك: إمساك بقوّة و ضبط، تقول: ملكت الشّئ إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تامّاً، و منه لا أملك رأس بعيري إذا لم تستطع إمساكه إمساكاً تامّاً، و المعنى: قل أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لهؤلآء المنافقين من أعراب المدينة و حولها ردّاً عليهم اعتذارهم الكاذب: إنّكم بعملكم هذا تحترسون من الضّرّ، و تتركون أمر الله تعالى و طاعة رسوله﴿ﷺ﴾ و تقعدون طلباً للسّلامة، و لكن إن أراد الله جلّ وعلا بكم ضرّاً من القتل أو الهزيمة أو هلاك الأهل، أو الخلل في المال و ضياعه أو عقوبة على تخلّفكم و ما إليها فمن يمنعكم منها؟! فلا ينفعكم قعودكم هذا شيئاً يسيراً من النّفع، و لا يقدر أحد على دفع ضرّ عنكم، أو أراد تعالى بكم نفعاً ما يضادّ ذلك من نصر و ظفر و غنيمة و عافية و حفظ الأموال و الأهل و ما إليها، فلا رادّ له، إذ لا يقدر أحد على إزالته و لا أن يمنعه من مشيئته و قضآئه.

قال الله تعالى: «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، و إذاً لا تمتّعون إلاّ قليلاً قل من ذا الّذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة» الأحزاب: ۱٦-۱۷).

و قال: «و إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له و ما لهم من دونه من وال» الرّعد: ۱۱).

و قوله عزّوجلّ: «بل كان الله بما تعملون خبيراً» فليس الأمر كما تزعمون، بل كان الله بما تعملون خبيراً لايخفى عليه شئ من قصدكم من تخلّفكم عن رسول الله﴿ﷺ﴾، فيعلم جميع ما نويتموه و ما تظهرون من العذر الّذي هو غير ما تبطنون من الشّك والنّفاق، و ظنّ السّوء بالله سبحانه و هو الّذي أدّى إلى تخلّفكم عن أمر رسول الله﴿ﷺ﴾.

قال الله تعالى: «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما في السّموات و ما في الأرض و الله على كلّ شئ قدير» آل عمران: ٢٩).

١٢- (بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء و كنتم قوماً بوراً)

ما تخلّفتم أيّها المنافقون المعتذرون كذباً عن صحبة رسول الله﴿ﷺ﴾ عام الحديبيّة بما أظهرتم من اشتغالكم بالأموال و الأهلين، و قعدتم في منازلكم، و تركتم رسول الله﴿ﷺ﴾، بل ظننتم لنفاقكم و عدم دخول الايمان في قلوبكم، و ظنّكم السّوء: أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين به و هم القليلون، مغلوبون بقوّة المشركين و هم الكثيرون لا محالة، و لاينجز الله وعده و لاينصر رسوله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين و لايظهر دينه، فهم سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من العِدّة و العُدّة، من الجموع و القدرة، و من البأس الشّديد و الشّوكة، فهم سيهلكون باستئصال العدوّ إيّاهم بالمرّة، فلن يرجعوا من سفرة مكّة إلى عشآئرهم و ذوى قربآئهم و ذراريهم الّذين كانوا في المدينة أبداً، و حسبتم أنّكم لو كنتم معهم لأصابكم مثل ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم عن صحبة رسول الله﴿ﷺ﴾ لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة...

و **قوله تعالى**: «و زيّن ذلك في قلوبكم» و زيّن الشّيطان ذلك الظّنّ السّوء و التّوهّم الباطل في قلوبكم فاتّبعتم الشّيطان و تركتم متابعة رسول الله﴿ﷺ﴾ حتّى قعدتم عن صحبته حذراً من أن تهلكوا و تبيدوا معهم.

و **قوله سبحانه**: «و ظننتم ظنّ السّوء» في هلاك النّبيّ﴿ﷺ﴾ و المؤمنين و التّوهّم

الفاسد بأنّ الله لن ينجز وعده و لاينصر رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و المؤمنين على أعدآءهم و لا يظهر دينه حتّى بلغ الأمر بكم أن قلتم: إنّ محمّداً و أصحابه أكلة رأس «قليلوا العدد» فأين يذهبون؟

و قوله عزّوجلّ: «و كنتم قوماً بوراً» و لذلك الظّنّ السّوء و التّوهّم الباطل كنتم قوماً، طآئفة و جمعاً فاسدين لاتصلحون لشيئ من الخير، هالكين، مستوجبين سخط الله و شديد عقابه و هو الخسران المبين.

قال الله تعالى: «ألم تر إلى الّذين بدّلوا نعمت الله كفراً و أحلّوا قومهم دار البوار» إبراهيم: ۲۸).

و قال: «و لكن متّعتهم و آبآءهم حتّى نسوا الذّكر و كانوا قوماً بوراً» الفرقان: ۱۸).

و قال: «و الّذين يمكرون السّيّئات لهم عذاب شديد و مكر اولئك هو يبور- إنّ الّذين يتلون كتاب الله و أقاموا الصّلاة و أنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً و علانية يرجون تجارة لن تبور» فاطر: ۱۰ و ۲۹).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «كيف أصبحت بيوتهم قبوراً و ما جمعوا بوراً...».

و فيه: قال﴿عليه السلام﴾: «و باطل ذلك يبور...».

و فيه: قال﴿عليه السلام﴾: «و ليس عند أهل ذلك الزّمان سِلْعَة أبور من الكتاب إذا تُلِيَ حقّ تلاوته و لا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه...».

۱۳- (و من لم يؤمن بالله و رسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً)

إنّ هؤلآء المخلّفين من الأعراب و كلّ من سلك مسالكهم هم أهل البوار فإنّهم لم يكونوا مؤمنين بالله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و لاطائعين لكلّ ما يأمرانهم به، إذ لوكانوا مؤمنين حقّاً لما كان منهم هذا التّخلّف عن دعوة رسول الله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لهم... فإنّ الايمان- في حقيقته- و لاء المطلق و متابعة من دون تردّد، و طاعة بلا مراجعة.

و من لم يؤمن بالله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ و لم يجمع بين الايمان بالله جلّ وعلا و

رسوله كهؤلآء المخلّفين فإنّا هيّأنا لكلّ من اتّصف بالكفر- سرّاً و علانية- ناراً مسعّرة مشتعلة محرقة شديدة التأجّج الّتي تطّلع على الأفئدة، يعذّب بها في جهنّم دائماً.

قال الله تعالى: «إنّ الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنّم جميعاً الّذين يتربّصون بكم - إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار و لن تجد لهم نصيراً» النساء: ١٤٠-١٤٥).

و قال: «إنّ الله لعن الكافرين و أعدّلهم سعيراً خالدين فيها أبداً لايجدون وليّاً و لا نصيراً يوم تقلّب وجوههم في النّار يقولون يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرّسولا» الأحزاب: ٦٤-٦٦).

١٤-(و لله ملك السّموات و الأرض يغفر لمن يشآء و يعذّب من يشآء و كان الله غفوراً رحيماً)

و لله وحده سلطان السّموات و الأرض و هو وحده المتصرّف في الكلّ كما يشاء و يخلق ما يشآء و يدبّر كيف يشآء، و هو وحده يملك النّفع و الضّرّو بيده المغفرة والعذاب، فلا أحد أن يقدر أيّها المنافقون المعتذرون كذباً على منعه تعالى من عفوه عنكم إن عفى لو تبتم إليه من نفاقكم و كفركم، من ظنّكم السّوء و فساد عقيدتكم، و من تخلّفكم عن أوامر الله جلّ وعلا و اعتذاركم الكاذب... فإنّه تعالى يغفر لمن يشاء بمقتضى علمه و حكمته بأنّه مستحقّ للعفو، و أهل للمغفرة، و لا أحد أن يقدر على دفعه سبحانه عمّا أراد بكم من تعذيب على نفاقكم و اعتذراكم الكاذب و ظنّكم السّوء إن أصررتم عليها، فإنّه عزّوجلّ لا يعذّب إلاّ من هو أهل للبوار و مستحقّ للعذاب و النّار.

فبادروا أيّها المخلّفون من الأعراب بالتّوبة من تخلّفكم عن رسول الله(صلى الله عليه و آله) والمراجعة إلى أمر الله تعالى في طاعة رسوله(صلى الله عليه و آله) في كلّ ظرف من الظّروف، فإنّ الله سبحانه يغفر لمن تاب و آمن و عمل صالحاً، و لم يزل الله جلّ وعلا ذا عفو عن عقوبة التّآئبين إليه من كفرهم و نفاقهم، من ذنوبهم و معاصيهم، و من بغيهم و طغيانهم، و ذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها، فإنّه سبحانه غنيّ عن عباده، و إنّما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن بالله و رسوله(صلى الله عليه و آله) و عمل صالحاً، و يعاقب من كفر

بالله جلّ وعلا و عصى رسول الله ﴿ﷺ﴾، فيختصّ من يشآء بمغفرته و رحمته من عباده المؤمنين التّائبين الصّالحين دون من سواهم من الكافرين و المنافقين فإنّهم بمعزل عن ذلك.

قال الله تعالى: «و لله ملك السّموات و الأرض و ما بينهما يخلق ما يشآء و الله على كلّ شئ قدير» المائدة: ۱۷).

و قال: «و ليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن و لا الّذين يموتون و هم كفّار اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً - إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار و لن تجد لهم نصيراً إلاّ الّذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين و سوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم و آمنتم و كان الله شاكراً عليماً» النّساء: ۱۸ و ۱۴۵-۱۴۷).

و قال: «و إنّي لغفّار لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثمّ اهتدى» طه: ۸۲).

و قال: «من تاب و آمن و عمل عملاً صالحاً فاولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات و كان الله غفوراً رحيماً» الفرقان: ۷۰).

و قال: «ليعذّب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات و كان الله غفوراً رحيماً» الأحزاب: ۷۳).

۱۵- (سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلاّ قليلاً)

إنّ الله تعالى قد وعد رسوله ﴿ﷺ﴾ و مَن شهد الحديبيّة، بفتح خيبر و غنآئمها الّتي تكون لهم خاصّة بعد صلح الحديبيّة، فرجع رسول الله ﴿ﷺ﴾ من الحديبيّة في ذي الحجّة من سنة خمس أو ستّ - و هو الأقوى - على اختلاف الرّوايات، و أقام بالمدينة بقيّتها و أوآئل المحرّم، و سمع هؤلآء المخلّفون عن سفرة الحديبيّة هذا الوعد من أهل الحديبيّة، و كانوا يترصّدون الفرصة لنيل غنآئم خيبر، فلمّا اجتاز رسول الله ﴿ﷺ﴾ و

من شهد الحديبيّة إلى خيبر، طلبوا منهم السّير معهم في وقعة خيبر لما يتوقّعونه من مغانم خيبر يأخذونها- و لعلّهم لم يطلبوا هذا السّير من رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ من دون واسطة لسوء سابقتهم عنده﴿صلى الله عليه وآله﴾ في سفرة الحديبيّة إذ تخلّفوا عنها، أو كان بين مَن شهد الحديبيّة من يشاكلهم في النّفاق أو ضعيفة النفس فجعلوه واسطة عنده﴿صلى الله عليه وآله﴾ لذلك كما هو دأب المنافقين المتصيّدين الفرصة في كلّ ظرف من الظّروف، حيث يجعلون الحواشي وسآئط لنيل أغراضهم الخبيثة الدّنيّة- فأخبر الله عزّوجلّ رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ عند انصرافه من الحديبيّة بما سيقع فقال:

«سيقول المخلّفون» سيقول لكم يا أهل الحديبيّة هؤلآء المخلّفون عنكم في سفرة الحديبيّة، المعتذرون كذباً- إذ اعتلّوا بشغلهم بأموالهم و أهليهم- هم يطلبون منكم السّير معكم في وقعة خيبر لما يتوقّعون من مغانم يأخذونها- و لو كانت التعلّة السّابقة حقّاً لما كانوا يطلبون منكم السّير معكم بحال- إذا انطلقتم إلى غنآئم خيبر بعد فتحها بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لتأخذوها و تغتنموها حسبما وعدكم الله تعالى بها و خصّكم بها عوضاً عمّا فاتكم من غنآئم مكّة و تعب سفرة الحديبيّة...

فانتبهوا يا أهل الحديبيّة هم سيقولون لكم: أُتركونا و دعونا و أجيزوا لنا نتّبعكم و نسر معكم إلى غزوة خيبر و نشهد معكم قتال أهلها- و حين توقّعوا ما سيكون فيها من مغانم لأنّهم كانوا يرون ضعف العدوّ، و يتحقّقون النّصرة...

فانتبهوا يا أهل الحديبيّة! فلا تتأثّروا من خديعتهم و مكرهم و وسوستهم هذه! أنّهم يريدون بذلك أن يغيّروا كلام الله جلّ وعلا- و هم لن يستطيعوا على ذلك إذ لامبدّل لكلمات الله- و هو وعده تعالى لأهل الحديبيّة أن يعوّضهم من مغانم مكّة و تعب سفرة الحديبيّة، مغانم خيبر و حدهم لايشاركهم فيها غيرهم من الأعراب!

ثمّ أمر الله تعالى رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ أن يقول مواجهاً لهؤلآء المخلّفين من دون واسطة إقناطاً و تيئيساً من الذّهاب معه﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلى خيبر و أخذ غنآئمها: «قل» أيّها الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ لهم: إنّكم لن تستطيعوا أن تبدّلوا كلام الله جلّ وعلا بتلك الحيل

والوساوس و الخديعة، إذ ليست غنآئم خيبر هدفكم في الحقيقة، إنّما غرضكم من طلب السّير معنا إلى خيبر هو تبديل كلام الله سبحانه و نقضه، و هو أهمّ عندكم من غنآئم خيبر، و قد جعلتموها ذريعة لهدفكم و لن تنالوه أبداً إذ لا مبدّل لكلمات الله جلّ وعلا، و هو جلّ وعلا قد أخبرني أنّكم لن تتّبعونا حقّاً مادمتم على النّفاق - في شئ من الأوامر و النّواهي...

قوله تعالى: «كذلكم قال الله من قبل» مثل هذا الحكم الّذي قضينا به عليكم أيّها المخلّفون و هو: «لن تتّبعونا» حقّاً - مادمتم على النّفاق و تريدون أن تبدّلوا كلام الله - في شئ من الأوامر و النّواهي، من الأُصول و الفروع، من الأخلاق و السّنن، و من المعارف و الحكم... مثل هذا الحكم كما كان قضآء الله تعالى فيكم، و حكمه عليكم، قبل هذا الحكم الصّريح الّذي واجهناكم به، كيف يمكن أن تتّبعونا و أنتم تريدون أن تبدّلوا كلام الله جلّ وعلا.

ثمّ أخبر الله جلّ وعلا رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بأنّهم سيردّون عليك مقالك السّابق: «كذلكم قال الله من قبل» فقال: «فسيقولون» عندئذٍ: «بل تحسدوننا» إنّ الله ما قال ذلك من قبل و لم يحرمنا من مغانم خيبر، و لم يحكم علينا بعدم اتّباعنا لكم بل أنتم تحسدوننا أن نصيب معكم غنآئم خيبر و نشارككم فيها، و من ثمّ منعتمونا و حرّمتمونا إيّاها حسداً لنا و بغياً علينا.

فردّ الله تعالى عليهم اتّهام رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و صحبه بالحسد، فقال: ليس الأمر على ما قالوه بل كانواهم لايفقهون الحقّ و ما تدعونهم إليه إلاّ قليلاً لبلادتهم و غباءهم، بأنّ سبب منعهم من سيرهم في وقعة خيبر و غنائمها ليس الحسد من رسول الله و أهل الحديبيّة، و إنّما هو عدم اتّباعهم حقّاً في شئ من الأوامر و النّواهي... و قد كان طلبهم الاتّباع في وقعتها و نيلهم بغنائمها لارادتهم تبديل كلام الله تعالى و نقضه، بأنّ الله كيف أخبركم بعدم اتّباعنا لكم فيها و اختصّكم بغنآئمها، و قد اتّبعناكم فيها و نلنا بغنآئمها!.

قال الله تعالى في أضرابهم المنافقين: «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف و طُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» التّوبة: ۸۷).

و قال: «هم الّذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا ولله خزائن

السّموات و الأرض و لكنّ المنافقين لايفقهون» المنافقون: ٧).

١٦- (قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً)

قل أيّها الرّسول«ﷺ» - اختباراً- لهؤلآء المخلّفين عن متابعتك عند الخروج إلى مكّة في سفرة الحديبيّة من الأعراب: إن كنتم تشتاقون إلى الجهاد في سبيل الله و تصدقون و لاتكذبون، و تطلبون الاتّباع في وقعة خيبر و نيل غنآئمها ظاهراً، و لا تريدون بذلك تبديل كلام الله تعالى و نقضه في الحقيقة قل لهم اختباراً و انكشافاً لأمرهم قل يتّبعونكم كما يطلبون أو لايتّبعون كما أخبرنا -: فاعلموا أنّكم «ستدعون» من بعد ذلك عن قريب، إلى جهاد قوم من الكفّار هم اولوا بأس شديد و نجدة و عِدّة و عُدّة قويّة، و هم مشركوا مكّة تقاتلونهم أو هم يسلمون من دون حرب و لا قتال: «هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام...» الفتح: ٢٥).

فإن صرتم محرومين عن وقعة خيبر و غنآئمها بتخلّفكم عن سفرة الحديبيّة، فغنآئم اخرى بعد ذلك لكم كما قال تعالى: «و اخرى لم تقدروا عليها» الفتح: ٢١) فهل تلبّون هذه الدّعوة أو تنكصون على أعقابكم كما فعلتم من قبل؟ فإن تطيعوا الله تعالى و تجيبوا لرسوله«ﷺ» فيما يدعوكم إلى قتال هؤلآء القوم مع المسلمين المجاهدين، و تجاهدوا معهم تنالوا بالغنيمة و العزّة و الكرامة في الدّنيا، و بالجنّة و أنواع نعيمها في الآخرة، و إن تتولّوا عن الدّعوة و القتال و تخلّفتم و تقعدوا عنه كما تولّيتم من قبل عن الخروج إلى مكّة في سفرة الحديبيّة كفراً و نفاقاً، يعذّبكم الله جلّ وعلا بالذّلّة و الحرمان من كلّ خير و سعادة في الدّنيا، و بالعذاب و الخذلان في الدّار الآخرة.

۱۷-(ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج و من يطع الله و رسوله يدخله الجنّات تجرى من تحتها الأنهار و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً)

ليس على الأعمى- و هو الّذي لايبصر بجارحة العين- ضيق في ترك الخروج مع المجاهدين في الجهاد، و لا على الأعرج- و هو الّذي برجله آفة تمنعه من المشي- إثم في ترك الحضور مع المجاهدين في القتال، و لا على المريض- و هو الّذي به علّة تمنعه من الحركة من اضطراب في البدن حتّى يضعف، و تحصل فيه آلام...- ذنب في التخلّف عن الغزو.

و من الأعذار المبيحة للتّخلّف و القعود عن الجهاد ما هو لازم كالعمى و العرج، و منها ما هو عارض يطرأ و يزول كالمرض، و إنّ رفع الحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهات الّذين يشقّ عليهم القتال برفع لازمه و هو الحرج، فلا إثم و لا ضيق عليهم إذا تخلّفوا عن شهود القتال مع المجاهدين، لأنّ التكليف يدور حول الاستطاعة، فمن لم يستطع فلاتكليف له إذ لايكلّف الله نفساً إلاّ وسعها.

و من يطع الله و رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ في الأمر بالقتال و غيره ممّا يأمره به، و ينهاه عنه، يدخله الله تعالى جنّات تجرى من تحت أشجارها و مساكنها، و قصورها و غرفها الأنهار... خالدين فيها و ذلك الفوز العظيم.

قال الله تعالى: «و من يطع الله و رسوله يدخله جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك الفوز العظيم- و من يطع الله و الرّسول فاولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين و الصّدّيقين و الشّهدآء و الصّالحين و حسن اولئك رفيقاً» النّسآء: ۱۳ و ٦۹).

و قوله تعالى: «و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً» و من يتولّ عن أمر الله تعالى و رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بالقتال و غيره فيقعد عنه من دون عذر من الأعذار المبيحة للتّخلّف عن القتال يعذّبه الله سبحانه في الدّنيا بالخزى و الهوان، و في الآخرة، بنار جهنّم عذاباً مولماً شديداً لايقدر قدره أحد.

قال الله تعالى: «و إن يتولّوا يعذّبهم الله عذاباً أليماً في الدّنيا و الآخرة و ما لهم في الآرض من وليّ و لا نصير» التوبة: ٧٤).

١٨- (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً)

لقد رضى الله تعالى أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة المعروفة بالسَّمُرة في الحديبيّة، سنة ستّ من الهجرة، و قد سمّيت هذه المبايعة بيعة الرّضوان لأنّ الله عزّوجلّ قد رضى عن المؤمنين الصّادقين الّذين بايعوا رسول الله﴿ﷺ﴾ على الموت في نصرة دين‌الله جلّ‌وعلا و الذّبّ عن رسول الله﴿ﷺ﴾ والدّفاع عن كيان الإسلام و نظام المسلمين، على أن يناجزوا مشركي مكّة، و أن لا يولّوهم الدّبر، و أن لايفرّوا من الموت، و أن لاينكروا بعد ذلك على رسول الله﴿ﷺ﴾ شيئاً يفعله، و أن لايخالفوه في شيئ يأمرهم به أو يناهم عنه، و أن يفوا بمبايعتهم هذه بنيّة صادقة و إخلاص فيها، فليس الرّضا على المبايعة فقط من دون ايمان و لانيّة صادقة و لا إخلاص فيها و لا وفاء بما بايعوا رسول الله﴿ﷺ﴾ عليه، و لا عمل بما اشترط عليهم...

قال الله تعالى: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة و الإنجيل و القرآن و من أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم» التّوبة: ١١١).

و قال: «و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا و الصّابرين في البأسآء و الضّرّآء و حين البأس اولئك الّذين صدقوا و اولئك هم‌المتّقون» البقرة: ١٧٦).

و قال: «قال الله هذا يوم ينفع الصّادقين صدقهم لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم و رضوا عنه ذلك الفوز العظيم» المائدة: ١١٩).

و قال: «و أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم و لاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها و قد جعلتم الله عليكم كفيلاً إنّ الله يعلم ما تفعلون» النّحل: ٩١).

و قال: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» الفتح: ۱۰).

فليس رضا الله تعالى مترتّباً على مطلق المبايعة بدون شرط من الايمان، و النّيّة الصّادقة، و الإخلاص فيها و الوفاء بها و ما إليها من شروطها... و قد روى أعاظم العامّة و حملة آثارهم في تفاسيرهم و صحاحهم و مسانيدهم و سيرهم... متواتراً: «أنّ عمر بن الخطّاب و أذنابه قد أنكروا على رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في صلح الحديبيّة بعد المبايعة فيها، و خالفوه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فيما يأمرهم به و ينهاهم عنه، و نكثوا عهد الله جلّ وعلا، فهم من الناكثين غير المرضيين عند الله تعالى.

و قوله تعالى: «فعلم ما في قلوبهم» فعلم الله عزّوجلّ ما في قلوب المبايعين تحت الشّجرة في الحديبيّة، من الايمان و صدق النّيّة و خلوصها في البيعة، و الصّبر معك في القتال و الوفآء بما عاهدوا عليه الله تعالى، و من النّفاق و سوء النّيّة و الإنكار والذّبذبة... فرضى الله جلّ وعلا عن المؤمنين الصّادقين في البيعة، و سخط الله سبحانه على المنافقين الكاذبين فيها.

قال الله تعالى: «و ليبتلى الله ما في صدوركم و ليمحّص ما في قلوبكم و الله عليم بذات الصّدور» آل عمران: ۱٥٤).

و قوله عزّوجلّ: «فأنزل السّكينة عليهم» فأنزل الله تعالى السّكينة على قلوب المؤمنين المبايعين الصّادقين و هي اللّطف المقوّى لقلوبهم كالطّمأنينة و الأمن و الثّبات على ما هم عليه من دينهم و حسن بصيرتهم بالحقّ الّذي هداهم الله تعالى له، و الصّبر على مبايعتهم فقوّاهم و أثبتهم و نصرهم...

قال الله تعالى: «اولئك كتب في قلوبهم الايمان و أيّدهم بروح منه و يدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم و رضوا عنه اولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون» المجادلة: ۲۲).

و قوله سبحانه: «و أثابهم فتحاً قريباً» و جازاهم الله تعالى عن صدق ايمانهم و حسن نيّتهم و كافأهم على عملهم و إخلاصهم في إلبيعة و الوفاء بها و أعطاهم فتح خيبر سريعاً بعد انصرافهم من الحديبيّة.

۱۹- (و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً)

و عوّض الله تعالى هؤلآء المبايعين عاجلاً ممّا رجوا الظّفر به من غنآئم أهل مكّـة بقتالهم، عوّضهم فتح خيبر بالمدينة بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿ﷺ﴾ و مغانمها الكثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر و عقارها إذ كانت أرضاً ذات عقار و أموال كثيرة، خصّها بأهل بيعة الرّضوان لايشركهم فيها سواهم، و قسّمها رسول الله﴿ﷺ﴾ بين المقاتلين المجاهدين، ثلاثمأة منهم فارس، فأعطى الفارس سهمين، و الرّاجل سهماً واحداً.

و **قوله تعالى:** «و كان الله عزيزاً حكيماً» و كان الله تعالى غالباً على أمره، منيعاً لا يُغلَب، و ذا عزّة في انتقامه من أعدآئه، حكيماً يفعل حسب مقتضى الحكمة الإلهيّة في تدبير امور خلقه، و تصريفه إيّاهم فيما يشآء من قضآئه بالنّصر و الفـتح و الغـنيمة لرسوله﴿ﷺ﴾ و أصحابه، فبحكمته أمر رسوله﴿ﷺ﴾ بالصّلح في الحديبيّة، و حكـم للمؤمنين في خيبر بالغلبة و الغنيمة، و لأهل خيبر بالهزيمة و الذّلّة.

قال الله تعالى: «إنّ الّذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد و الله عزيز ذو انتقام- و ما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين» آل عمران: ٤ و ١٢٦-١٢٧).

۲۰- (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً)

قال الله تعالى خطاباً لأهل بيعة الرّضوان الّذين هم على طريق الجهاد في سبيل الله عزّوجلّ و الدّفاع عن كيان الدّين و نواميس القرآن الكريم و نظام المسلمين: وعدكم الله أيّها المبايعون رسول الله﴿ﷺ﴾ بنيّة صادقة و إخلاص في المبايعة و الوفآء بها- و من سلك مسالككم في كلّ ظرف من الظّروف بعدكم- وعدكم مغانم كثيرة تأخذونها من الفتوحات الّتي سوف ييسرها لكم في مختلف الظّروف و الأماكن...

فعجّل الله جلّ وعلا لكم غنآئم خيبر بعد فتحها بيد مولى الموحّدين إمام المـتّقين

أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و هي المغانم المعجّلة الّتي نزّلت منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها و هي ممثلة و نموذجة لغيرها الآتية من الفتوحات و الغنآئم المؤجّلة فيها بعد ذلك الوقت إلى يوم القيامة- ما دمتم أنتم و من سلك مسالككم بعدكم على الايمان و صدق النّيّة و الإخلاص في المبايعة و الوفاء بها.

و كفّ الله عزّوجلّ أيدي مشركي مكّة و يهود خيبر عنكم في سفرة الحديبيّة إذ عافاكم الله من شرّهم بصلح الحديبيّة مع مشركي العرب، و تسليم يهود خيبر لكم ما بين أيديهم من الأموال و الزّروع: «هو الّذي أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا و ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا و قذف في قلوبهم الرّعب يخربون بيوتهم بأيديهم و أيدي المؤمنين فاعتبروا يا اولى الأبصار- لأنتم أشدّ رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنّهم قوم لايفقهون» الحشر: ٢-١٣).

و قوله سبحانه: «و لتكون آية للمؤمنين» و ليكون ما كان من تيسير الله تعالى لصلح الحديبيّة وكفّ قريش و يهود خيبر عن المسلمين في سفرة الحديبيّة، و فتح خيبر و غنائمها كلّ ذلك آية ربّانية ليعتبر بها المؤمنون في كلّ ظرف من الظّروف، و يتيقّنوا أنّ ما كان هو بتيسير و نصر من الله تعالى.

و قوله عزّوجلّ: «و يهديكم صراطاً مستقيماً» و يهديكم الله جلّوعلا صراطاً مستقيماً إلى فتح مكّة و غيرها من الفتوحات...: «و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ الله لمع المحسنين» العنكبوت: ٦٩).

«و ما النّصر إلاّ من عند الله إنّ الله عزيز حكيم» الأنفال: ١٠).

«و لينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويّ عزيز» الحجّ: ٤٠).

«يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبّت أقدامكم» محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾: ٧).

«إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا و يوم يقوم الأشهاد» غافر: ٥١).

۲۱-(و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كلّ شئ قديراً)
و ثمّة فتوحات و غنآئم اخرى مؤجّلة - غير فتح خيبر و مغانمها المعجّلة - لم تقدروا عليها بعد، قد أحاط الله تعالى بها إحاطة علم و قدرة، قد حفظها لكم و منعها من غيركم، و أنّها محصورة لاتفوتكم حتّى تأخذوها، فأقدركم على مشركي مكّة و غيرهم بعزّ الإسلام، و قد كنتم قبل ذلك مستضعفين أمامهم لاتستطيعون دفعهم عن أنفسكم...

فجعلهم الله تعالى بمنزلة ما قد أُدير حولهم بما يمنع أن يفلت أحد منهم.

و كان الله تعالى قادراً على كلّ ما يصحّ أن يكون مقدوراً، لايتعذّر عليه شئ، فقدرته جلّ وعلا شاملة للممكنات كلّها لأنّ قدرته سبحانه ذاتيّة، فلا تختصّ بشئ دون شئ.

۲۲-(و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لايجدون وليّاً و لا نصيراً)
و اعلموا أيّها المؤمنون الّذين هداكم الله تعالى صراطاً مستقيماً في كلّ ظرف من الظّروف! لو قاتكم الكفّار سوآء كانوا من أهل مكّة و مشركي قريش و لم يصالحوكم لكثرة عددهم و شوكتهم، و هم في بلدهم و بين أهليهم، قاتلوكم يوم الحديبيّة أو قاتلكم يهود خيبر لكثرة أموالهم و عقارهم... في المدينة أو غيرهم من فِرَق الكفّار والمشركين، و الفجّار و المنافقين، فكلّهم على شرع سوآء و هو الكفر إمّا ظاهراً و إمّا باطناً، فهم لو قاتلوكم لانهزموا بنصرة الله تعالى إيّاكم و معونته جلّ وعلا لكم، و خذلان الله تعالى إيّاهم، مادمتم على الايمان و النّيّة الصّادقة و الإخلاص في العمل، و الوفاء بعهد الله جلّ وعلا تحت راية القرآن الكريم بقيادة رسول الله(صلى الله عليه وآله) أو من يرتضيه الله تعالى و رسوله(صلى الله عليه وآله) و إنّما هذا هو ضمان النّصر و الفتح لكم من ربّكم في كلّ ظرف من الظّروف، كما ظهر ذلك في صلح الحديبيّة و فتح مكّة و غيرها، و في يوم خيبر إذ فرّ أبوبكر بن أبي قحافة، و عمر بن الخطّاب و أذنابهما، و قد فتحها بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام).

قال الله تعالى: «و لاتهنوا و لاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ۱۳۹).

و قال: «و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النساء: ١٤١).

ثمّ لايجدون هؤلآء الكفّار لأنفسهم وليّاً يحرسهم و يواليهم على حربكم و يدافع عنهم، و لا نصيراً ينصرهم عليكم لأنّ الله عزّوجلّ معكم مادمتم مع الله تعالى بالايمان و الصّلابة في الدّين، و أنتم حينئذ حزب الله سبحانه، و لن يغلب حزب الشّيطان على حزب الله تعالى و إنّما حزب الله عزّوجلّ في كلّ ظرف من الظّروف هم الغالبون.

قال الله تعالى: «و إن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لاينصرون ضربت عليهم الذّلّة أين ما ثقفوا إن ينصركم الله فلا غالب لكم» آل عمران: ١١١ و ١٦٠).

و قال: «إنّ الّذين يحادّون الله و رسوله اولئك في الأذلّين كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلي إنّ الله قويّ عزيز» المجادلة: ٢٠-٢١).

و قال: «فانتقمنا من الّذين أجرموا و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين» الرّوم: ٤٧).

و قال: «و من يتولّ الله و رسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون» المائدة: ٥٦).

٢٣- (سنّة الله الّتى قد خلت من قبل و لن تجد لسنّة الله تبديلاً)

هذه سنّة إلهيّة قديمة ثابتة جارية سنّها الله تعالى قد خلت من قبل في الامم السّافلة إذ حكم على نفسه و قضى أن يظهر أنبيآئه و رسله و أوصيآئهم المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و المؤمنين بهم حقّاً و ينصرهم على أعدآئه: من الكفّار و المشركين، من الفجّار و المجرمين، من الفسّاق و المنافقين، من البغاة و المستكبرين، و من الطّغاة والظّالمين...

هذه سنّة مستمرّة في هذه الأمّة إلى يوم القيامة لأنّها سنّة إلهيّة ثابتة جارية فيما بين أوليآء الله جلّ وعلا و أوليآء الشّيطان، بين حزب الله تعالى و حزب الشّيطان، بين أهل الحقّ و الهدى، و أهل الباطل و الضّلالة، و بين أهل التقوى و اليقين و أهل الفجور والجحيم... سنّة ثابتة لاتتغيّر في ظرف من الظّروف و لا في مكان من الأمكنة، فلايغيّرها زمان و لامكان.

فالمؤمنون الصّادقون تبعاً للأنبيآء و المرسلين و الأوصيآء و المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين منصورون غالبون على الكافرين إذا قاتلوهم في أيّ ظرف و مكان ماداموا على الايمان الصّادق، و النّيّة الخالصة و الصّلابة في الدّين، و لن تجد يا أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لسنّة الله تعالى تبديلاً منه جلّ وعلا: «و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النسآء: ١٤١) فضمان الغلبة و النّصرة و العزّة في الدّنيا و الآخرة ثلاثة: و هى الايمان الصّادق، و النّيّة الخالصة، و الصّلابة في الدّين، و إذا فقد أحدها أو جميعها فلا ضمان لها...

قال الله تعالى: «و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون و إنّ جندنا لهم الغالبون» الصّافات: ١٧١-١٧٣).

٢٤- (و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيراً)

و الله جلّ وعلا بعلمه و حكمته، و تدبيره و قدرته، كفّ أيدي مشركي مكّة المتطاولة عنكم أيّها المسلمون يوم الحديبيّة، و قد كنتم يومئذ كالحصاة في راحتهم، و لولا هذا الكفّ لقتلوكم و أكلوا أكبادكم كما أكلت هند أُمّ معاوية بن أبي سفيان، كبد حمزة عمّ رسول الله﴿ﷺ﴾ يوم أُحد قال الله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم و اتقوا الله و على الله فليتوكّل المؤمنون» المائدة: ١١).

و كفّ تعالى أيديكم المتطاولة أيّها المسلمون عن مشركي مكّة في داخلها و عقردارها من بعد أن أظفركم عليهم يوم فتح مكّة، و جعلكم ذوي غلبة تامّة عليهم و دخلتم أرضهم، و كانوا أسرى بأيديكم... و لولا هذا الكفّ لقتلتموهم و فعلتم بهم ما يفعله الفاتحون التوسعيون بمن يغلبون عليهم: «إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها و

جعلوا أعزّة أهلها أذلّة و كذلك يفعلون» النّمل: ٣٤). و لكن ليس فتحكم كفتحهم توسّعاً في الأرض و استثمار الطّبيعة، و انتقاماً بعد الاحتلال، و إنّما كان فتحكم لفتح القلوب و توسيع الشّريعة و بروز الإنسانيّة...

و **قوله تعالى**: «و كان الله بما تعملون بصيراً» و كان الله جلّ وعلا بجميع ما تعملون من مقاتلتكم أوّلاً طاعة لله سبحانه و لرسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و كفّكم و عفوكم عنهم بعد الظّفر ثانياً لتعظيم بيت الله تعالى و لما تقتضيه مصالحكم... بصيراً فيجازيكم عليه.

قال الله تعالى: «فاستقم كما امرت و من تاب معك و لاتطغوا إنّه بما تعملون بصير» هود: ١١٢).

٢٥-(هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشآء لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

هؤلآء العتاة و البغاة و الطّغاة من مشركي مكّة الّذين كفروا بالله جلّ وعلا و برسوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و بما جآءهم به، و صرفوكم أيّها المسلمون عن دخول المسجد الحرام في عام الحديبيّة- سنة ستّ من الهجرة- حين أحرم رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ مع أصحابه بعمرة، فمنعوكم أن تعتمروا و تطوفوا بالبيت، و منعوكم من الهدى- و هو ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام، و قد كان رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ ساق معه حين خرج إلى مكّة في سفرته تلك سبعين بدنة هدياً لذلك- حالكون الهدى محبوساً، ممنوعاً أن يبلغ موضع نحره أو ذبحه في مكّة -فمنعوكم أن تبلغوا الهدى في منحره أو مذبحه عادة، عناداً منهم و بغياً، و إنّ هدى العمرة لايذبح و لاينحر إلاّ بمكّة كما لايذبح و لاينحر هدى الحجّ إلاّ بمنى.

و قد كفّ الله تعالى أيديكم عن هؤلآء الطّغاة و تلك سيّئاتهم لمصالح دينيّة و اجتماعيّة... هى أهمّ من مجازاتهم بكفرهم و صدّهم و عنادهم...

قال الله عزّوجلّ: «و لايجرمنّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا و تعاونوا على البرّ و التّقوى» المائدة: ٢).

و قوله تعالى: «و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم...» و لولا رجال مؤمنون، و نسآء مؤمنات موجودون بمكّة يعيشون مع هؤلآء المشركين، مختلطين بهم، غير متميّزين منهم، فإنّهم كانوا يكتمون ايمانهم، و يمسكون به في قلوبهم، خيفة على أنفسهم من هؤلآء المشركين، فهم في نظرة المؤمنين و المشركين، مشركون، و أنتم أيّها المسلمون لم تعلموهم بايمانهم، و لا تعرفوهم بحالهم و أعيانهم بأنّهم مؤمنون لاختلاطهم بالمشركين كما أنّهم يعلمونهم بصفة الايمان، و لولا وجود هؤلآء المؤمنين و المؤمنات بين اولئك المشركين لسلّطناكم على هؤلآء المشركين و ما كففنا أيديكم عنهم، فقتلتموهم، و أبدتم خضرآءهم جزاء وفاقاً لكفرهم و صدّهم و عنادهم...

و لكنّ الله تعالى كفّ أيديكم عنهم لما بين أفنآئهم من المؤمنين و المؤمنات من لا تعرفونهم حين القتل و السّبي، فلو قتلتموهم للحقتكم المعرّة و المشقّة بما يلزمكم في قتل المؤمنين و المؤمنات من كفّارة و عيب و تبعة في الدّين، فإنّهم يؤخذون بما يؤخذ به المشركون لو وقعت الحرب بينكم و بين المشركين، و ليقال: إنّ المسلمين قد قتلوا و أسروا أهل دينهم!

فلولا هذا لسلّطكم الله تعالى على المشركين يوم الفتح و هم تحت أيديكم، و لذهبت سيوفكم بكثير من تلك الرّؤوس الّتي كانت تكيد للإسلام و تسوق الأذى و الضّرّ إلى أهله، و لكنّ الله عزّوجلّ لم يسلّطكم عليهم ليدفع عنكم المعرّة بما تصيبون من المؤمنين و المؤمنات و ليحفظهم من القتل و الإسارة، و هاتان جهتان لكفّ أيدي المسلمين عن المشركين، و جهتان آخران: «ليدخل الله فى رحمته من يشآء» من هؤلآء المشركين الّذين يؤمنون كالمؤمنين المذكورين، والّذين كانوا في أصلاب هؤلآء المشركين و أرحام المشركات...

و قوله عزّوجلّ: «لوتزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» و لو تميّز هؤلآء

الطوائف الثّلاث من المؤمنين: **ألف**: الموجودون الّذين يعيشون بين المشركين و هم لا يعلمون أنّهم مؤمنون. ب: الّذين يستعدّون للايمان من هؤلآء المشركين. ج: الّذين في أصلاب هؤلآء المشركين و أرحام أُمّهاتهم...

لو تميّزوا هؤلآء الطّوائف الثّلاث من اولئك المشركين الّذين لايؤمنون أبداً لعذّبنا الّذين كفروا من اولئك المشركين المعاندين عذاباً أليماً بالسّيف و القتل و السّبى في الحياة الدّنيا، و بالخزى و نار جهنّم في الدّار الآخرة.

إنّ الله تعالى لايعذّب قوماً كافرين و فيهم مؤمنون أو من يستعدّ للايمان أو في أصلابهم و أرحام أُمّهاتهم من يؤمن بالله تعالى حتّى يميّز الخبيث من الطيّب، و المؤمن من الكافر، و المخلص من المنافق، و المصلح من المفسد...

قال الله عزّوجلّ: «و ما كان الله ليعذّبهم و أنت فيهم و ما كان الله معذّبهم و هم يستغفرون و مالهم ألاّ يعذّبهم الله و هم يصدّون عن المسجد الحرام و ما كانوا أوليآءه إن أوليآؤه إلاّ المتّقون و لكنّ أكثرهم لايعلمون- ليميز الله الخبيث من الطيّب و يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم اولئك هم الخاسرون» الأنفال: ۳۳-۳۷). و قال: «فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين» الذّاريات: ۳۵).

كما أنّ مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لايقتل في معارك القتال مسلماً و لا من يستعدّ للايمان و لا مَن في صلبه من يؤمن بالله تعالى:

في نهج البلاغة: قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾: «فو الله ما دفعتُ الحَرب يوماً إلاّ و أنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، و تعشوا إلى ضوئي، و ذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها، و إن كانت تبوء بآثامها».

و فيه:- لمّا قُتِلَ الخوارج، فقيل له: يا أميرالمؤمنين هلك القوم بأجمهم؟- فقال﴿عليه السلام﴾: «كلاّ و الله إنّهم نُطَفٌ في أصلاب الرّجال و قرارات النّسآء، كلّما نَجَمَ منهم قَرْنٌ قُطعَ حتّى يكون آخرهم لُصُوصاً سلاّبين».

و فيه:- لمّا أظفره الله بأصحاب الجمل و قد قال له بعض أصحابه: وَدِدْتُ أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدآئك؟ فقال﴿عليه السلام﴾: «أهَوى أخيك

معنا؟ فقال: نعم، قال: فقد شهدنا، و لقد شَهِدَنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرّجال و أرحام النّساء سَيَرْعَفُ بهم الزّمان، و يَقْوٰى بهم الايمان».

٢٦- (إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها و كان الله بكلّ شئ عليماً)

إذ جعل الّذين كفروا من هؤلآء المشركين في قلوبهم الأنفة، فلعبت في رؤوسهم نزوة الجاهليّة، و كانوا لآلهتهم عاكفين، و يتّخذون الأصنام و الأحجار آلهة يعبدونها، و لا يصدّقون كون الإنسان رسولاً من الله جلّ وعلا.

قال الله تعالى فيهم: «و عجبوا أن جآءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذّاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا الشئ عجاب و انطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشئ يراد ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلاّ اختلاق» ص: ٤-٧).

و قال: «و إذا رأوك إن يتّخذونك إلاّ هزواً أهذا الّذي بعث الله رسولاً إن كاد ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها» الفرقان: ٤١-٤٢).

و قال: «بل قالوا إنّا وجدنا آبآئنا على أُمّة و إنّا على آثارهم مهتدون» الزّخرف: ٢٢).

و قوله تعالى: «فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين» فلمّا فتح الله جلّ وعلا مكّة- عام الفتح- لرسوله ﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ أنزل الصّبر و الطّمأنينة و السّكون و الوقار على رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ و المؤمنين و ألهمهم بما فيه من الخير و المصلحة، و العدل و الحكمة والرّشد و السّعادة... و لذلك امتنعوا أن يبطشوا بالمشركين كما يبطش الفاتحون الجبّارون بالمفتوحين في كلّ ظرف من الظّروف: «إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها و جعلوا أعزّة أهلها أذلّة و كذلك يفعلون» النّمل: ٣٤).

و لذلك قال رسول الله لعتاة المشركين و سفلتهم- و فيهم أبوسفيان و ابنه معاوية- يوم الفتح بعد غلبهم: «أنتم الطّلقآء» كما قال ﴿صلّى الله عليه و آله و سلّم﴾ لبعضهم و فيهم أبوسفيان و ابنه

معاوية أيضاً إذ حبسهم المؤمنون عام الحديبيّة: «أنتم الطّلقآء» و كما أنّ عـليّاً﴿عليه السلام﴾ خلّى سبيل عائشة بنت أبيبكر يوم الجمل بعد أن غلبها.

و **قوله سبحانه:** «و ألزمهم كلمة التّقوى» ألزم الأمر إلزاماً: جعله لازماً له أي ثابتاً دائماً غير مفارق له، و لا منتقطع عنه من لزم الشّئ لزوماً أي ثبت و دام.

إنّ الله تعالى ألزم هؤلآء المؤمنين كلمة التّقوى، و قد كان عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لهم مولى الموحّدين، إمام المتّقين، أميرالمؤمنين، فألزمهم الله عزّوجلّ باتّباعه لئلاّ يـعتدوا على هؤلآء المشركين المغلوبين عام الفتح.

قال الله تعالى: «و لايجرمنّكم شنأن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا و تعاونوا على البرّ و التّقوى و لاتعاونوا على الإثم و العدوان و اتّقوا الله» المائدة: ٢).

و قال: «و قاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم و لاتعتدوا إنّ الله لايحبّ المعتدين– فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم– فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمـثل مـا اعـتدى عليكم و اتّقوا الله و اعلموا أنّ الله مع المتّقين» البقرة: ١٩٠–١٩٤).

قال بعض المحقّقين: اعلم أنّ للتقوى ثلاث مراتب:

أوّلها: التّوقّي عن الغضب الإلهيّ و العذاب المخلّد برفض الطّواغيت، و بالتّبرّى عن الشّرك و الكفر بالله سبحانه و برسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عليه قوله عزّوجلّ: «و ألزمهم كلمة التّقوى» و هي كلمة التّوحيد: «لا إله إلاّ الله» و ولاية عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فإنّهما معاً حصن الله تعالى كما قال الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحيّة و الثّنآء في نيشابور عـن الله جـلّ وعلا: كـلمة «لا إله إلاّ الله» حـصني و «ولايـة عـليّ بـن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي» فكـلاهما مـعاً حـصن الله تعالى، و إنّ كلمة التوحيد مع الولاية عريقة وطيدة في مجال العقيدة و العمل، و بدونها لفظة خاوية عن العقيدة و العمل.

ثانيها: التّجنّب عن كلّ ما يؤثم من فعل أو ترك حتّى الصّغآئر عـند قـوم، و هـو المتعارف بالتقوى في الشّرع، و هو المعنيّ بقوله عزّوجلّ: «و لو أنّ أهل القرى آمـنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السّمآء و الأرض» الأعراف: ٩٦).

ثالثها: التنزّه عن كلّ ما يشغل سرّ الإنسان عن الحقّ و الهدى، و يتبتّل إليه جلّ وعلا بكلّيّته و هو التّقوى الحقيقيّ المأمور به في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته...» آل عمران: ١٠٢).

و لهذه المرتبة عرض عريض، تتفاوت فيه طبقات أصحابها، حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفآئضة عليهم بموجب المشيّة الإلهيّة.

و قوله عزّوجلّ: «و كانوا أحقّ بها و أهلها» و كان هؤلآء المؤمنون الصّادقون من شيعة إمام المتّقين قلباً و قالباً أحقّ بكلمة التّقوى لتمام استعداد هم لتلقّي هذه العطيّة الإلهيّة بالايمان و الأعمال الصّالحة و النّيّة الصّادقة، فهم أحقّ بها من غيرهم لفقد استعدادهم لهذا التلقّي، و هؤلآء المؤمنون وحدهم أهل لكلمة التّقوى و يليقون لها و يستوجبونها لاغيرهم من الكفّار و المشركين، و الفجّار و المستكبرين، و الفسّاق و المنافقين للتّضاد بين الكفر و التّقوى... و قد أشار إبراهيم خليل الرّحمن﴿عليه السلام﴾ محاجّاً على قومه إلى هذا التّضاد بين التّوحيد والشّرك، و بين الايمان و الكفر، و إلى أنّ الأحقّيّة بالأمن لأهل التّوحيد و الايمان، و ليس لأهل الشّرك و الكفر أمن، فإنّهم لم يؤمنوا حتّى يأمنوا.

قال الله تعالى حكاية عن خليله﴿عليه السلام﴾: «و كيف أخاف ما أشركتم و لاتخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون الّذين آمنوا و لم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن و هم مهتدون» الأنعام: ٨١-٨٢).

و قوله جلّ وعلا: «و كان الله بكلّ شئ عليماً» و لم يزل و لايزال الله جلّ وعلا بكلّ شئ عليماً يعلم ما في قلوب المؤمنين من ايمان و سكينة، من تقوى و هداية، و من خلوص و نيّة صادقة... و يعلم ما في صدور الكافرين من كفر و عداوة، من فجور و ضلالة، من عناد و لجاجة، من كبر و حميّة جاهليّة، و من فساد و شرارة، و يعلم ما في ضمآئر المنافقين من نفاق و ذبذبة، من رياء و وسوسة، و من ظنّ السّوء و جهالة... يعلم ما يبدون و ما يكتمون، يعلم ما يسرّون و ما يعلنون، يعلم ما يريدون و ما يفعلون،

يعلم ما في السّموات و ما في الأرض و يعلم ما في نظام الكون و نواميس الوجود كلّه لايخفى عليه جلّ وعلا شئ لأنّه تعالى علاّم الغيوب قد أحاط بكلّ شئ علماً.

قال الله عزّوجلّ: «ألا إنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألاحين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون و ما يعلنون إنّه عليم بذات الصّدور و ما من دابّة في الأرض إلاّ على الله رزقها و يعلم مستقرّها و مستودعها كلّ في كتاب مبين - الله أعلم بما في أنفسهم» هود: ٥-٦ و ٣١).

و قال حكاية عن إبراهيم الخليل ﴿عليه السلام﴾: «ربّنا إنّك تعلم ما نخفى و ما نعلن و ما يخفى على الله من شئ في الأرض و لا في السّمآء» إبراهيم: ٣٨).

و قال: «يعلم خآئنة الأعين و ما تخفى الصّدور» غافر: ١٩).

و قال: «ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرّهم و نجواهم و أنّ الله علّام الغيوب» التّوبة: ٧٨).

و قال: «و أنّ الله قد أحاط بكلّ شئ علماً» الطلاق: ١٢).

٢٧- (لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً)

قسم من الله جلّ وعلا أنّ رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ صادق في قوله: إنّه رأى في المنام أنّه يدخل هو و المؤمنون المسجد الحرام، و أنّه لابدّ من كون ذلك.

و المعنى: اقسم لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﴿صلى الله عليه وآله﴾ رؤياه الّتي رآها إيّاه في منامه لتدخلنّ أيّها المسلمون في العام المقبل، المسجد الحرام إن شآء الله تعالى حالكونكم آمنين من شرّ كفّار مكّة، فبعضكم محلّقين رؤسكم جميع شعورها، و بعضكم مقصّرين بأن تأخذوا بعض شعور رؤسكم أو شعور سآئر البدن، أو تقصّوا بعض الأظفار.

لاتخافون أحداً بعد ذلك، و لا خوف عليكم، و كذا جرى الأمر في عمرة القضآء في العام القابل. و قد روى الفريقان: أنّ عمر بن الخطّاب قال لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ طعناً و

معترضاً و إنكاراً عليه﴿عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ حيث قاض أهل مكّة يوم الحديبيّة، و همّ بالرّجوع إلى المدينة: أليس وعدتنا أن ندخل المسجد الحرام، محلّقين و مقصّرين؟! فقال له رسول الله﴿عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾: أقلت لكم: إنّا ندخله هذا العام؟ فقال: لا، فقال رسول الله﴿عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾، فإنّكم تدخلونها إن شآء الله تعالى، فلمّا كان العام القابل، خرج رسول الله﴿عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ في ذي القعدة لعمرة القضآء، و دخل مكّة مع أصحابه، و اعتمروا و قام بمكّة ثلاثة أيّام، ثمّ رجع إلى المدينة المنوّرة.

و **قوله تعالى:** «فعلم ما لم تعلموا» فعلم الله تعالى و رسوله﴿عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ ما في صلح الحديبيّة و تأخير دخول المسجد الحرام إلى العام المقبل من بروز نفاق المنافقين و ذبذبتهم كعمر بن الخطّاب و أذنابه، و خلوص المؤمنين و سكينتهم من جهة، و من حقن دمآء المؤمنين و المؤمنات الّذين كانوا يعيشون بين المشركين لاتعلمونهم و لايعرفهم المشركون بصفة الايمان، و من حفظ دمآء المستعدّين للايمان من المشركين، و صيانة مَن في أصلاب المشركين و أرحام المشركات من المؤمنين من جهة اخرى، و ما في الصّلح من خيرات و مصالح للإسلام و المسلمين، و أنّ محمّداً رسول الله﴿عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ أرسله الله رحمة للعالمين و لهداية النّاس و إصلاح امورهم و ايجاد الصّلح و الصّفاء بينهم، لا للقتل و إفساد الحرث و النّسل... و غيرها من الآثار الرّوحية، و النتائج الصّالحة الدنيويّة، والفوآئد الأُخرويّة... ما لم تعلموها... من جهة ثالثة.

و **قوله عزّوجلّ:** «فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» و لذلك كلّه، جعل الله تعالى قبل دخولكم المسجد الحرام في العام القابل لعمرة القضآء من غير قتال، فتحاً قريباً ليتيسّر لكم الدّخول كذلك و هو فتح خيبر بيد عليّ بن أبيطالب﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾.

٢٨- (هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و كفى بالله شهيداً)

إنّ الله تعالى هو الّذي أرسل رسوله محمّداً﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ بكتاب يهدى به النّاس، و قد جآء كثيراً في وصف القرآن الكريم بالهدى باعتبار أنّه الهادي.

قال الله عزّوجلّ: «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين» البقرة: ۲).

و قال: «قد جآءكم من الله نور و كتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام و يخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه و يهديهم إلى صراط مستقيم» المائدة: ۱٥-١٦).

و قال: «إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم و يبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً» الاسراء: ۹).

و قال: «قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ و إلى طريق مستقيم» الأحقاف: ۳۰).

كما كان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ هو الهادي سوآء بسوآء يهدي الله تعالى به ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عباده إلى صراط مستقيم إذ قال: «و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب و لا الايمان و لكن جعلناه نوراً نهدي به من نشآء من عبادنا و إنّك لتهدى إلى صراط مستقيم» الشّورى: ٥۲).

و **قوله تعالى:** «و دين الحقّ» و هو الإسلام الّذي رضيه الله عزّوجلّ لعباده و هو الدّين الّذي أكمله يوم الغدير بولاية مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ إذ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً» المائدة: ۳). و قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في خطبته يوم الغدير:

«... اللّهمّ إنّك أنزلت عَلَيَّ: «أنّ الإمامة بعدي لعليّ، وليّك، عند تبياني ذلك، و نصبي إيّاه بما أكملت لعبادك من دينهم، و أتممت عليهم بنعمتك، و رضيت لهم الإسلام ديناً، فقلت: «و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين» اللّهمّ إنّي أُشهدك و كفى بك شهيداً: أنّي قد بلّغت، معاشر النّاس! إنّما أكمل الله عزّوجلّ دينكم بإمامته، فمن لم يأتمّ به و بمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة و العرض على الله عزّوجلّ، فأُولئك الّذين حبطت أعمالهم و في النّار هم فيها خالدون و لا يخفّف عنهم العذاب و لاهم ينظرون...» الخطبة الّتي رواها الفريقان في مسانيدهم بسند متواتر لايشكّ فيها إلاّ من كان قرين الشّيطان الّذي له فيه نصيب...

و هذا الدّين الإسلاميّ الكامل بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ يوم الغدير، هو الثّابت الّذي ليس له دور خاصّ و لا لجماعة خاصّة، و هو الدّين الخالد الّذي يكون في ضمان الله جلّ وعلا و حمايته، يجري مجرى الشّمس في مجارى الحياة كلّها، ليس بعده دين و لاشريعة مقبولة عند الله تعالى إذ قال: «إنّ الدّين عند الله الإسلام- و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين» آل عمران: ١٩ و ٨٥).

و قوله عزّوجلّ: «ليظهره على الدّين كلّه» ليظهر الله تعالى هذا الدّين الإسلاميّ الولائي على الدّين كلّه، و يعليه على جميع الأديان من حقّها و باطلها، و يبطل به الملل والمسالك و المذاهب و الآرآء الواهية كلّها بالحجج الواضحة و البراهين القاطعة، و يقهرها و يغلب عليها بالتّأييد و النّصرة حتّى لايكون دين سواه، و ذلك إذا ظهر مدار الدّهر و نواميس العصر، صاحب الزّمان الحجّة بن الحسن المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشّريف، فيقتل الدّجال و أتباعه... فعندئذ تبطل الأديان جميعها غير دين الله الّذي بعث به محمّداً ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و يظهر هذا الإسلام الولائي على الملل جميعها يومئذ، فيصبح دين العالم أجمع. و بظهوره ﴿عليه السلام﴾ الّذي وعد الله تعالى المؤمنين تقوم دولة الأبرار و المؤمنين الصّادقين، دولة الأخيار و أهل التّقوى و اليقين، و دولة الأحرار والمخلصين... و يأخذ مجتمهم مكانه في الحياة الإنسانيّة و يرى العالَم كلّه وجه الايمان والصّداقة، وجه التّقوى و الإخلاص، و وجه الحرّيّة في المنطقة البشريّة في هذا المجتمع الإنساني.

في خطبة الغدير: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في خطبته يوم الغدير: «... معاشر النّاس! النّور من الله عزّوجلّ فيّ مسلوك، ثمّ في عليّ، ثمّ في النّسل منه إلى القآئم المهديّ الّذي يأخذ بحقّ الله، و بكلّ حقّ هولنا، لأنّ الله عزّوجلّ، قد جعلنا حجّة على المقصّرين والمعاندين و المخالفين و الخائنين و الآثمين و الظّالمين من جميع العالمين- إلى أن قال -: معاشر النّاس! إنّي نبيّ، و عليّ وصيّ، ألا إنّ خاتم الأئمّة منّا القآئم المهدي، ألا إنّه الظّاهر

على الدّين، ألا إنّه المنتقم من الظّالمين، ألا إنّه فاتح الحصون و هادمها، ألا إنّه قاتل كلّ قبيلة من أهل الشّرك، ألا إنّه مدرك بكلّ ثار لأوليآء الله النّاصر لدين الله، ألا إنّه الغرّاف من بحر عميق، ألا إنّه يَسِمُ كلّ ذى فضل بفضله، و كلّ ذى جهل بجهله، ألا إنّه خيرة الله و مختاره، ألا إنّه وارث كلّ علم و المحيط به، ألا إنّه المخبر عن ربّه عزّوجلّ، و المنبه بأمر ايمانه، ألا إنّه الرّشيد السّديد، ألا إنّه المفوّض إليه، ألا إنّه قد بشّر به من سلف بين يديه، ألا إنّه الباقي حجّة، و لا حجّة بعده، و لا حقّ إلاّ معه، و لا نور إلاّ عنده. ألا إنّه لا غالب له و لا منصور عليه، ألا إنّه وليّ الله في أرضه، و حَكَمه في خلقه، و أمينه في سرّه و علانيته...».

«معاشر النّاس! أقيموا الصّلاة، و آتوا الزّكاة كما أمركم الله عزّوجلّ لئن طال عليكم الأمد فقصرتم أو نسيتم، فعليّ وليّكم و مبيّن لكم الّذي نصبه الله عزّوجّل بعدي، و من خلقه الله منّي و أنا منه، يخبركم بما تسئلون عنه، و يبيّن لكم ما لاتعلمون، ألاإنّ الحلال و الحرام أكثر من أن يحصيهما و أُعرّفهما، فآمر بالحلال و أنهى عن الحرام في مقام واحد، فأمرت أن آخذ بالبيعة منكم و الصّفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله عزّوجلّ في عليّ أميرالمؤمنين، و الأئمّة من بعده الّذي منّي و منه أُمّة قائمة، منهم المهديّ إلى يوم القيامة الّذي يقضي بالحقّ...» الخطبة الّتي أوردها الفريقان بسند متواتر لايشكّ فيها إلاّ من كان مريض القلب أو خبيث الولادة أو جهولاً...

و **قوله عزّوجلّ**: «و كفى بالله شهيداً» على نفسه أنّه أرسل رسوله محـمّداً﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالهدى و دين الحقّ و أنّه سيظهر هذا الدّين الإسلامي الولائي بوليّه المـهديّ المـنتظر الإمام الثّاني عشر صاحب العصر و الزّمان عليه أفضل صلوات الله و أكمل تحـيّات الرّحمن على الدّين كلّه، و أنّ ما وعده كائن لا محالة، و لوكـره الكـفّار و المـشركون، والفجّار و المستكبرون، و الفسّاق و المنافقون، و الطّغاة و المجرمون، و البغاة و الظّالمون، و العتاة و المفسدون...

قال الله تعالى: «يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم و الله متمّ نوره و لو كره الكافرون هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و لو كره المشركون» الصّفّ: ٨-٩).

٢٩- (محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّاء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً)

هذا الرّسول المرسل بالهدى و دين الحقّ هو محمّد رسول الله﴿ﷺ﴾ حقّاً أرسله لهداية النّاس كافّة، مهما أنكر الكفّار و المشركون، و افترى الفجّار و الجاحدون، و ذبذب الفسّاق و المنافقون: «و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل» آل عمران: ١٤٤). «قل يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً» الأعراف: ١٥٨). «و ما أرسلناك إلاّ كافّة للنّاس بشيراً و نذيراً» سبأ: ٢٨). صفة هذا الرّسول﴿ﷺ﴾ و الّذين معه على دينه و رسالته﴿ﷺ﴾ من المؤمنين الصّادقين في ايمانهم و نيّاتهم، و المخلصين في أعمالهم الصّالحة، و النّاصرين له﴿ﷺ﴾ في حياته و بعد مماته﴿ﷺ﴾: أنّهم أشدّآء عنفاء غليظة قلوبهم على الكفّار، بينما هم رحمآء لينون، رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم، ألقى الله في قلوبهم الرّحمة بعضهم لبعض، فيتراحمون فيما بينهم، فيرحم بعضهم بعضاً، و يتحنّن بعضهم على بعض.

قال الله تعالى: «أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين» المائدة: ٥٤).

و قال: «يا أيّها الّذين آمنوا قاتلوا الّذين يلونكم من الكفّار و ليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنّ الله مع المتّقين- لقد جآءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم» التّوبة: ١٢٣ و ١٢٨).

و قال: «فبما رحمة من الله لنت لهم» آل عمران: ١٥٩).

و قال: «لاتجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادّون من حادّ الله و رسوله و لو كانوا آبآئهم أو أبنآءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان و أيّدهم بروح منه» المجادلة: ٢٢).

و قال: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أوليآء تلقون إليهم بالمودّة و قد كفروا بما جآءكم من الحقّ يخرجون الرّسول و إيّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم- إن يثقفوكم يكونوا لكم أعدآءً و يبسطوا إليكم أيديهم و ألسنتهم بالسّوء و ودّوا لو تكفرون- قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم و الّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برؤا منكم و ممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة و البغضآء أبداً حتّى تؤمنوا بالله وحده» الممتحنة: ١-٤).

و قال: «ثمّ كان من الّذين آمنوا و تواصوا بالصّبر و تواصوا بالمرحمة أُولئك أصحاب الميمنة» البلد: ١٧-١٨).

على رغم أنّ الفجّار و المنافقين، و الفسّاق و المجرمين من المسلمين الّذين يتّخذون الكفّار أوليآء لهم، فهم ليسوا من «الّذين معه» في رسالته كما زعمت متفسّر و العامّة، و إن كانوا مع الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ قالباً، فضلاً عن غيرهم.

قال الله تعالى في هؤلآء المنافقين من الصّحابة: «و من النّاس من يقول آمنّا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين- و إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤن» البقرة: ٨-١٤).

و قال: «ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجنّ معكم و لانطيع فيكم أحداً أبداً و إن قوتلتم لننصرنّكم و الله يشهد إنّهم لكاذبون» الحشر: ١١).

و قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فيهم: «إتّخذوا الشّيطان لأمرهم ملاكاً و اتّخذهم له أشراكاً، فباض و فرّخ في صدورهم و دبّ و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم، فركب بهم الزّلل، و زيّن لهم الخطل، فعل من قد شركه الشّيطان في سلطانه و نطق بالباطل على لسانه» نهج البلاغة: الخطبة السّابعة).

و **قوله تعالى**: «تراهم ركّعاً سجّداً» ترى أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ هؤلآء الّذين معك في رسالتك قلباً و إن لم يكونوا معك قالباً، تراهم في كلّ ظرف من الظّروف... قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿؏﴾: «أيّها النّاس! خذوها عن خاتم النّبيّين﴿ﷺ﴾ إنّه يموت مَن مات منّا و ليس بميّت، و يبلى من بَلِيَ منّا و ليس ببال، فلا تقولوا بما لاتعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون» نهج البلاغة: الخطبة: ٨٦). فتراهم دائبين على الصّلاة لايهملون عبادة الله جلّ وعلا قطّ، فهم بين راكع و ساجد لقيامهم بالصّلاة و الاتيان بها و استمرارهم عليها و محافظتهم حقّها...

قال الله تعالى فيهم: «و عباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً و الّذين يبيتون لربّهم سجّداً و قياماً» الفرقان: ٦٣-٦٤).

و قال: «قد أفلح المؤمنون الّذين هم في صلاتهم خاشعون- والّذين هم على صلواتهم يحافظون» المؤمنون: ١-٩).

و قال: «رجال لاتلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله و إقام الصّلاة و ايتاء الزّكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب و الأبصار» النّور: ٣٧).

و قال: «الّذين يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم و يتفكّرون في خلق السّموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار» آل عمران: ١٩١).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿؏﴾ فيهم: «تعاهدوا أمر الصّلاة، و حافظوا عليها و استكثروا منها، و تقرّبوا بها فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً- و قد عرف حقّها رجال من المؤمنين الّذين لا تشغلهم عنا زينة متاع، و لا قرّة عين من ولد و لامال، يقول الله سبحانه: «رجال لاتلهيهم تجارة و لابيع عن ذكر الله و إقام الصّلاة و ايتآء الزّكاة...» الخطبة: ١٩٠).

و **قوله عزّوجلّ**: «يبتغون فضلاً من الله و رضواناً» هؤلآء المؤمنون الصّادقون حقّاً إنّما آمنوا بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و عبدوا الله تعالى وحده و عملوا الصّالحات ابتغآءً لوجه الله لايريدون من ايمانهم و عباداتهم و صالح أعمالهم جزاءً و لا ثواباً من الله

جلّ وعلا، بل يطلبون فضلاً من الله تعالى عليهم، و يلتمسون مرضاته في طاعتهم و ترك معصيتهم، فليست طاعتهم طاعة العبيد و التجّار، و إنّما طاعتهم طاعة الأحرار والأبرار...

قال الله تعالى: «الّذين اخرجوا من ديارهم و أموالهم يبتغون فضلاً من الله و رضواناً و ينصرون الله و رسوله اولئك هم الصّادقون» الحشر: ۸).

و قال: «الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء و اتّبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم» آل عمران: ۱۷۳-۱۷٤).

و قال: «فلولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم من الخاسرين» البقرة: ٦٤).

و قال: «و اسئلوا الله من فضله إنّ الله كان بكلّ شئ علياً - و لولا فضل الله عليكم و رحمته لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً» النّساء: ٤٢ و ۸۳).

و قال: «و لولا فضل الله عليكم و رحمته في الدّنيا و الآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم» النّور: ١٤).

و قال: «و من النّاس من يشري نفسه ابتغآء مرضات الله و الله رؤف بالعباد» البقرة: ۲۰۷).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام): «إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التّجّار، و إنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، و إنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار».

و في رواية: «قال الإمام عليّ(عليه السلام): «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك و لا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»».

و قوله جلّ وعلا: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود» أثر السّجود من سيما هؤلآء المؤمنون الصّادقين ظاهر في الحياة الدّنيا لمن له أدنى نور المعرفة بالله جلّ وعلا، و أقلّ البصيرة في دينه، فتبدو علامات التهجّد باللّيل و أمارات السّهر و آثار العبوديّة من الإشراق و الوضائة، و الصّفا و الشّفافية الّتي تغشى وجوههم كأنّها القمر ليلة البدر

لأهل المعرفة و البصيرة في الحياة الدّنيا، فيعرفونهم بنور ربّهم في سيماهم و ضياء عبادتهم لله تعالى وحده على جباههم أنّهم عباد الله المخلصون، و تظهر تمام الظّهور يوم القيامة لأهلها أجمعين، حيث يحيط بهم نور الايمان كأنّهم نور أحاط بهم النّور.

قال الله تعالى: «يحسبهم الجاهل أغنيآء من التّعفّف تعرفهم بسيماهم لايسئلون النّاس إلحافاً» البقرة: ٢٧٣).

و قال: «و على الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم- و نادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم و ما كنتم تستكبرون» الاعراف: ٤٦ و ٤٨).

و قال: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم- يوم يقول المنافقون و المنافقات للّذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم» الحديد: ١٢-١٣).

و قال: «إنّ الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النّعيم» المطفّفين: ٢٢-٢٤).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ في هؤلآء المؤمنين الّذين كانوا معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في رسالته من أصحابه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لقد كانوا يصبحون شُعثاً غُبراً، و قد باتوا سجّداً و قياماً، يراوحون بين جباههم و خدودهم، و يقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، إذا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم، و مادوا كما يميد الشّجر يوم الرّيح العاصف...» الخطبة: ٩٦).

و فيه: قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ فيمن سلك مسالكهم: «عباد الله! إنّ تقوى الله حمت أوليآء الله محارمه، و ألزمت قلوبهم مخافته حتّى أسهرت لياليهم، و أظمأت هواجرهم، فأخذوا الرّاحة بالنَّصَب، و الرِّيَّ بالظّمأ، و استقربوا الأجل، فبادروا العمل، و كذّبوا الأمل فلاحظوا الأجل...» الخطبة: ١١٣).

و فيه: «قال الإمام مولى الموحّدين عليّ﴿عليه السلام﴾ فيهم: «لايبشّرون بالأحيآء، و لا يعزّون على الموتى، مُرْهُ العيون من البكآء، خمص البطون من الصّيام، ذُبْلُ الشِّفاهِ من الدّعآء، صفر الألوان من السَّهَر، على وجوههم غَبْرَةُ الخاشعين، اولئك إخواني الّذاهبون، فحقّ لنا أن نظمأ إليهم، و نعضَّ الأيدي على فراقهم...» الخطبة: ١٢٠).

و فيه: «قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾: «و إنّي لَمِنْ قوم لاتأخذهم في الله لومة لآئم، سيماهم سيما الصّدّيقين، و كلامهم كلام الأبرار، عمّار اللّيل و منار النّهار، متمسّكون بحبل القرآن، يُحْيَوْنَ سنن الله و سنن رسوله، لايستكبرون و لايَعْلَون و لايَغُلُّون، و لا يُفسِدون، قلوبهم في الجنان، و أجسادهم في العمل» الخطبة: ۲۳٤).

كما تبدو آثار الكفر و الضّلالة، و علامات النّفاق و الحماقة و أمارات الجرم و الجناية من وجوه أهلها لأهل الايمان و المعرفة، و أهل الإخلاص و الهداية، و أهل الحقّ والسّعادة في الحياة الدّنيا و في الدّار الآخرة.

قال الله عزّوجلّ: «و إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الّذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالّذين يتلون عليهم آياتنا» الحجّ: ۷۲).

و قال: «يعرف المجرمون بسيماهم» الرّحمن: ٤۱).

و **قوله تعالى:** «ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل» إنّ هذا الوصف العجيب الشّأن الّذي وصفنا هؤلآء الّذين كانوا مع رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ في رسالته قلباً بسبع صفات: ۱- شدّتهم على الكفّار. ۲- الرّحمة فيما بينهم. ۳- كثرة الرّكوع. ٤- كثرة السّجود. ٥- طلب الفضل من الله تعالى. ٦- ابتغاء وجه الله جلّ وعلا في أعمالهم... ۷- آثار العبوديّة من سيماهم. مثلهم مع رسولهم﴿صلى الله عليه وآله﴾ فى التّوراة و مثلهم في الإنجيل.

و **قوله سبحانه:** «كزرع أخرج شطئه فٰازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفار» كمثل زرع، ينبت ليناً و هو الأصل، ثمّ ينبت في حواليه فروعه و تلحق به، فالشّطأ فراخ الزّرع الّذي ينبت في جوانبه، و منه شاطئ النّهر جانبه، فشدّ فراخ الزّرع أصله و عاونه و قوّاه، فصار الأصل غليظاً باجتماع الفراخ مع أصله، فاستقام الأصل على سوقه- و هو جمع ساق، و ساق الشّجرة حاملها، و هو عوده الّذي تقوم عليه الشّجرة، و هو قصبته- و بلغ الغاية في الاستواء فأثمر أحسن الثّمرة و أكثرها ممّا يعجب الزّرّاع بزرعهم و حسن ثمرته و كثرتها و جودتها و شدّتها...

فرسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ كالأصل الّذي نبت ليناً، ثمّ نبت في حواليه فروعه الّذين كانوا معه في رسالته﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقوّوه و عزّروه و نصروه، فأثمرت رسالته أحسن الثّمرة و

أكثرها، و قد يسّرهم الله تعالى إلى ما يسّرهم و حلاّهم بما حلاّهم به حتّى فتح بهم مكّة ليغيظ بهم الكفّار الّذين يجحدون رسالته ﴿ﷺ﴾ من أهل الكتاب و المشركين، فإنّ كثيراً منهم آمنوا و عملوا الصّالحات...

و قوله تعالى: «وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً» إنّ الله عزّوجلّ وعد الّذين آمنوا بالله تعالى و رسوله ﴿ﷺ﴾ فحسن ايمانهم، و وثقوا به فحسن وثوقهم، و أخلصوا دينهم لله جلّ وعلا، و عملوا الصّالحات من هؤلآء الكفّار من أهل التّوراة و الإنجيل و المشركين، وعدهم مغفرة لهم، و ستراً على ذنوبهم الماضية في الدّنيا و الآخرة، و ثواباً عظيماً يوم القيامة، و أجراً وافراً في الجنّة لا يقدر قدره أحد إلاّ من تنعّم به.

و الآية الكريمة في معنى قوله تعالى: «الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الامّيّ الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة و الإنجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحلّ لهم الطّيّبات و يحرّم عليهم الخبآئث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال الّتي كانت عليهم فالّذين آمنوا به و عزّروه و نصروه و اتّبعوا النّور الّذي انزل معه اولئك هم المفلحون- و من قوم موسى امّة يهدون بالحقّ و به يعدلون» الأعراف: ١٥٧-١٥٩).

و قال: «الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم و إنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ و هم يعلمون» البقرة: ١٤٦).

و قال: «و لو كانوا يؤمنون بالله و النّبيّ و ما انزل إليه ما اتّخذوهم و هم أولياء و لكنّ كثيراً منهم فاسقون لتجدنّ أشدّ عداوة للّذين آمنوا اليهود و الّذين أشركوا و لتجدنّ أقربهم مودّة للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين و رهباناً و أنّهم لا يستكبرون و إذا سمعوا ما انزل إلى الرّسول ترى أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين و ما لنا لا نؤمن بالله و ما جآءنا من الحقّ و نطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصّالحين، فأثابهم الله بما قالوا جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك جزاء المحسنين و الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا اولئك أصحاب الجحيم» المائدة: ٨١-٨٦).

﴿ جملة المعاني ﴾

٤٥٨٤- (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً)

يا أيّها الرّسول(صلى الله عليه و آله و سلم) إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ذا شأن عظيم، و هو صلح الحديبيّة سنة ستّ من الهجرة، و قد سمّى فتحاً إذ عقّبه فتح خيبر و لما كان فيه من المصالح و الحِكَم، و كان ذريعة لفتح مكّة المكرّمة في سنة ثمان من الهجرة.

٤٥٨٥- (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً)

ليغفر لك الله تعالى بفتح مكّة المكرّمة ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر بزعم مشركيها و حسابهم بدعائك إيّاهم و النّاس أجمعين إلى التّوحيد و رفض الأنداد و الطّواغيت، و ليتمّ الله جلّ وعلا نعمته عليك بهذا الفتح، و يهديك هداية خاصّة في أمر خاصّ، صراطاً مستقيماً.

٤٥٨٦- (و ينصرك الله نصراً عزيزاً)

و أن ينصرك الله تعالى و من معك في رسالتك بفتح خيبر و مكّة و الطّائف، نصراً يقلّ وجود مثله، و يصعب مناله، نصراً عزيزاً تختم به الانتصارات الّتي بدأت بصلح

الحديبيّة، و ختمت بحجّة الوداع و نصب عليّ بن أبيطالب﴿ﷺ﴾ يوم الغدير للإمامة والخلافة بعدك.

٤٥٨٧-(هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عليماً حكيماً)

هو الله الّذي أوقع الثّبات و أوجد الطّمأنينة في قلوب المؤمنين الصّادقين ليزدادوا يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة و اطمئنان النّفس عليها، و لله جلّ وعلا جنود السّموات و الأرض لا نعلم عَدَدهم و لا عُدَدَهم، و كان الله تعالى و لايزال عليماً بكلّ شئ، حكيماً في صنعه.

٤٥٨٨-(ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّئاتهم و كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً)

و قد فعل الله تعالى ما تقدّم آنفاً ليدخل المؤمنين الصّادقين و المؤمنات الصّادقات جنّات تجري من تحت أشجارها و مساكنها و غرفها الأنهار، و هم خالدون فيها، و ليتجاوز لهم عن سيّئاتهم، و كان ذلك كلّه عند الله عزّوجلّ لهم فوزاً عظيماً لايقدر قدره أحد إلاّ الله سبحانه.

٤٥٨٩-(و يعذّب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظّانّين بالله ظنّ السّوء عليهم دائرة السّوء و غضب الله عليهم و لعنهم و أعدّلهم جهنّم و سآئت مصيراً)

و ليعذّب الله المنافقين و المنافقات الّذين يتظاهرون بالايمان و يبطنون الكفر قبل أن يعذّب المشركين و المشركات، و كانوا كلّهم يظنّون بالله سبحانه ظنّ السّوء بأنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين الصّادقين سيغلب عليهم الكفّار و المشركون، فلاينصرهم الله نصراً عزيزاً، و غضب الله على هؤلآء الظّانّين، و أعدّلهم جهنّم و سائت جهنّم لهم منزلاً يصيرون إليها و يقيمون فيها أبداً.

٤٥٩٠- (و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عزيزاً حكيماً)

و جنود السّموات و الأرض كلّهم ملك لله جلّ وعلا ينصر بهم أوليآئه المؤمنين الصّادقين، و يهلك بهم أعدآئه الكافرين المعاندين، و كان الله تعالى و يزال قاهراً لا يُقْهَر، حكيماً في صنعه و تدبيره، و في أمره و قضآئه...

٤٥٩١- (إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً)

يا أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ إنّا بعلمنا و حكمتنا، و تدبيرنا و قدرتنا أرسلناك إلى كافّة النّاس، شاهداً عليهم فيما يفعلون من طاعة و معصية... ومبشّراً للمؤمنين الصّادقين بالنّصر و الغلبة على الكفّار و المنافقين، و نذيراً للكافرين و المجرمين بالخزى و الهوان في الدّنيا، و النّار و العذاب في الآخرة.

٤٥٩٢- (لتؤمنوا بالله و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً)

إنّا أرسلنا محمّداً﴿ﷺ﴾ رسولاً إليكم أيّها النّاس كافّة لتؤمنوا بالله و رسوله﴿ﷺ﴾ و تعظّموه و تحفظوا حرمته﴿ﷺ﴾ و تنزّهوا الله جلّ وعلا عمّا لا يليق بساحة قدسه في كلّ حال.

٤٥٩٣- (إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)

إنّ الّذين يبايعونك أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ يوم الحديبيّة تحت الشّجرة و في كلّ ظرف من الظّروف إنّما هم يبايعون الله تعالى حيث إنّ بيعتهم لك هى بيعة الله جلّ وعلا لأنّ يد الله سبحانه حين المبايعة فوق أيديهم، فمن نقض البيعة هذه فوبال نقضها على نفسه، و من أوفى بها فسيؤتيه الله أجراً عظيماً لا يقدر قدره أحد.

٤٥٩٤-(سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً)

سيقول لك أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ هؤلآء الّذين تخلّفوا من الأعراب، عن صحبتك والخروج معك في سفرك هذا، هم يعتذرون عندك بعد رجوعك إلى المدينة: بأن شغلتنا عن الخروج معك حفظ أموالنا و إصلاح معايشنا و تدبير شئون أهلينا، فاستغفر الله لنا عن تخلّفنا عنك، حالكونهم كاذبين في اعتذارهم و طلب استغفارهم، فإنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، قل لهم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً، فليس الأمر كما تزعمون، بل كان الله بما تعملون خبيراً لايخفى عليه من نفاقكم.

٤٥٩٥-(بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السّوء و كنتم قوماً بوراً)

ما كان سبب تخلّفكم أيّها المنافقون عن صحبة رسول الله﴿ﷺ﴾ عام الحديبيّة، اشتغالكم بالأموال و الأهلين، بل كان سببه ظنّكم السّوء بالله سبحانه و رسوله﴿ﷺ﴾: أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ و المؤمنون به، و هم القليلون مغلوبون بقوّة المشركين و هم الكثيرون لا محالة، فلايرجعون إلى أهليهم أبداً، و زيّن الشّيطان ذلك الظّنّ السّوء في قلوبكم، و ظننتم ظنّ السّوء في هلاك النّبيّ﴿ﷺ﴾ و المؤمنين بأنّ الله لن ينجز وعده و لا ينصر رسوله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين على أعدائهم، و بسبب ذلك الظّنّ السّوء صرتم قوماً فاسدين لايرجى منكم خير، مستوجبين لسخط الله و شديد عقابه.

٤٥٩٦-(و من لم يؤمن بالله و رسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً)

و من لم يؤمن بالله و رسوله﴿ﷺ﴾ -كهؤلآء المخلّفين من الأعراب- فإنّا هيّأنا لكلّ من اتّصف بالكفر -سرّاً أو علانية- ناراً مسعّرة، يعذّب بها في جهنّم دائماً.

٤٥٩٧-(و لله ملك السّموات و الأرض، يغفر لمن يشآء و يعذّب من يشآء و كان الله غفوراً رحيماً)

و لله وحده ملك السّموات و الأرض، يغفر لمن يشآء من عباده الّذين يتوبون إليه و يؤمنون بالله و رسوله﴿ﷺ﴾ و يخلصون دينهم لله، و يعذّب من يشآء ممّن أصرّ على الكفر و النّفاق، و الجرم و الفساد، و البغى و العناد، و كان الله تعالى كثير الغفران لمن استغفر، رحيماً بمن آمن.

٤٥٩٨-(سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلاّ قليلاً)

سيقول لكم يا أصحاب الحديبيّة، هؤلآء المخلّفون عنكم في سفرة الحديبيّة إذا انطلقتم إلى غنآئم خيبر بعد فتحها لتأخذوها: خلّوا سبيلنا و أجيزوا لنا نتّبعكم في أخذ الغنآئم، حالكونهم يريدون بمشاركتهم لكم في غنآئم خيبر أن يغيّروا كلام الله، لأنّهم علموا أنّ الله وعدكم بها لايشارككم فيها غيركم، قل أيّها الرّسول تيئيساً لهم، أنتم لن تتّبعونا، و لن تستطيعوا أن تبدّلوا كلام الله بتلك الحيل، مثل هذا الحكم كان قضآء الله فيكم من قبل، فسيقول هؤلآء المنافقون عندئذ للمؤمنين: بل أنتم تحسدوننا أن نصيب معكم غنآئم خيبر، و لكنّ الأمر ليس كما يقولون، بل هم كانوا لايفقهون الحقّ و ما تدعونهم إليه إلاّ قليلاً لبلادتهم و غباءهم.

٤٥٩٩- (قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً)

قل أيّها الرّسول﴿ﷺ﴾ لهؤلآء المخلّفين من الأعراب- اختباراً و انكشافاً لأمرهم -: إن كنتم مشتاقين إلى الجهاد في سبيل الله تعالى حقّاً و صدقاً لاتعجلوا إلى غنائم خيبر،

لأنّكم ستدعون من بعد ذلك عن قريب إلى جهاد قوم من الكفّار هم اولوا بأس شديد - و هم كفّار مكّة- تقاتلونهم أو هم يسلمون من دون حرب، فإن تطيعوا الله فيما يدعوكم يؤتكم الله أجراً حسناً، و إن تتخلّفوا عن القتال كما تخلّفتم عن سفرة الحديبيّة من قبل، يعذّبكم الله بالخزى و الهوان في الدّنيا، و بنار جهنّم عذاباً أليماً في الدّار الآخرة.

٤٦٠٠-(ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج و من يطع الله و رسوله يدخله جنّات تجرى من تحتها الأنهار و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً)

ليس على الأعمى حرج، و لا على الأعرج حرج، و لا على المريض حرج في التّخلّف عن الجهاد في سبيل الله، و من يطع الله تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ في الأمر بالقتال و غيره يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار، و من يتولّ عن أمر الله سبحانه و رسوله بالقتال و غيره يعذّبه الله بالخزى و الهوان في الدّنيا، و بنار جهنّم عذاباً مولماً في الآخرة.

٤٦٠١- (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً)

لقد رضي الله أيّها الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ عن المؤمنين الصّادقين، إذ يبايعونك تحت الشّجرة يوم الحديبيّة على الموت في نصرة دين الله تعالى و الذّبّ عن رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فعلم الله ما في قلوبهم من النّيّة الصّادقة و الخلوص، فأنزل الله تعالى السّكينة على قلوبهم، و أعطاهم فتح خيبر سريعاً بعد انصرافهم من الحديبيّة.

٤٦٠٢- (و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً)

و مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر و عقارها، وكان الله تعالى غالباً على أمره، حكيماً يفعل حسب مقتضى الحكمة الإلهيّة في تدبير امور خلقه.

٤٦٠٣-(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكفّ أيدى النّاس عنكم و لتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً)

وعدكم الله مغانم كثيرة اخرى- غير غنآئم خيبر- تأخذونها في الفتوحات الّتي سوف ييسرها لكم في مختلف الظّروف و الأماكن، فعجّل الله تعالى لكم غنآئم خيبر، و كفّ أيدي مشركي مكّة يوم الحديبيّة، و أيدي يهود خيبر في فتحها عنكم، و لتكون ذلك كلّه آية ربّانيّة ليعتبر بها المؤمنون في كلّ ظرف من الظّروف، و يهديكم الله بها صراطاً مستقيماً إلى فتح مكّة و غيرها من الفتوحات...

٤٦٠٤-(و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كلّ شئ قديراً)

و ثمّة فتوحات و غنائم اخرى مؤجّلة- غير فتح خيبر و مغانمها المعجّلة- لم تقدروا عليها بعد، قد أحاط الله تعالى بها إحاطة علم و قدرة، فإنّ الله تعالى كان على كلّ شئ قديراً.

٤٦٠٥-(و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لايجدون وليّاً و لا نصيراً)

و اعلموا أيّها المؤمنون الصّادقون! لو قاتلكم الكفّار في كلّ ظرف من الظّروف لانهزموا بنصرة الله تعالى إيّاكم، و خذلان الله إيّاهم، ثمّ لايجدون لأنفسهم وليّاً يدافع عنهم، و لا نصيراً ينصرهم عليكم.

٤٦٠٦- (سنّة الله الّتي قد خلت من قبل و لن تجد لسنّة الله تبديلاً)

هذه سنّة إلهيّة قديمة ثابتة قد جرت من قبلكم أيّها المؤمنون الصّادقون، في الامم الماضيّة، و لن تجد أيّها النّبيّ﴿ﷺ﴾ لسنّة الله تبديلاً.

٤٦٠٧-(و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيراً)

و الله تعالى هو الّذي بعلمه و حكمته، و تدبيره و قدرته كفّ أيدي مشركي مكّة عنكم أيّها المسلمون يوم الحديبيّة، و كفّ أيديكم عنهم في داخل مكّة من بعد أن أظفركم عليهم يوم فتح مكّة، و كان الله تعالى بما تعملون بصيراً.

٤٦٠٨-(هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه و لو لا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشآء لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

هؤلآء العتاة من مشركي مكّة، هم الّذين كفروا بالله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾ و منعوكم أيّها المسلمون عن دخول المسجد الحرام، عام الحديبيّة، حين أحرمتم مع رسول الله﴿ﷺ﴾ بعمرة، فمنعوكم أن تعتمروا، و منعوكم أن تبلغوا الهدى في منحره أو مذبحه، و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات موجودون بمكّة، مختلطون بأهلها غير متميّزين منهم، و أنتم لاتعرفونهم بأعيانهم لسلّطناكم على هؤلآء المشركين، و لكنّ الله كفّ أيديكم عنهم يوم فتح مكّة لوجود المؤمنين و المؤمنات بينهم لاتعرفونهم بأعيانهم، فلو قتلتموهم للحقتكم المعرّة و المشقّة و بما يلزمكم من قتل المؤمنين و المؤمنات من كفّارة و عيب، من جهة، و ليدخل الله في رحمته من يشآء من هؤلآء المشركين الّذين كانوا مستعدّين للايمان من جهة اخرى، و ليدخل في رحمته مَن في أصلاب هؤلآء المشركين و أرحام المشركات مِن أهل الايمان من جهة ثالثة.

و لو تميّز هؤلآء الطّوآئف الثّلاث من اولئك المشركين الّذين لايؤمنون أبداً لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً مولماً في الدّنيا بالخزي و الهوان، و بالنّار و العذاب في الآخرة.

٤٦٠٩-(إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها و كان الله بكلّ شئ عليماً)

إذ جعل الّذين كفروا من مشركي مكّة في قلوبهم الأنفة، فلعبت في رؤوسهم نزوة الجاهليّة و نخوتها، فلمّا فتح الله تعالى مكّة عام فتحها لرسوله﴿ﷺ﴾ أنزل الصّبر والطّمأنينة على رسوله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين، و ألهمهم بما فيه من الخير و الحكمة و من العدل و المصالح، و كانوا هم أحقّ بها و أهلها، و كان الله تعالى و لايزال بكلّ شئ عليماً.

٤٦١٠-(لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً)

أقسم بعزّتي و جلالي لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً﴿ﷺ﴾ رؤياه الّتي أراها إيّاه في منامه لتدخلنّ أيّها المسلمون في العام المقبل، المسجد الحرام إن شآء الله حالكونكم آمنين من شرّ كفّار مكّة، فبعضكم يحلقون رؤوسكم جميع شعورها، و بعضكم يقصّرون بأن تأخذوا بعض شعور رؤسكم أو بعض شعور سآئر البدن أو تقصّوا بعض الأظفار، لاتخافون أحداً بعد ذلك و لا خوف عليكم، فعلم الله تعالى ما في صلح الحديبيّة و تأخير دخول المسجد الحرام إلى العام المقبل من المصالح للإسلام و المسلمين و كشف بعض الأسرار الّتي لاتعلمونها، فجعل الله عزّوجلّ قبل دخولكم المسجد الحرام في العام المقبل، لعمرة القضآء من دون قتال، فتحاً قريباً و هو فتح خيبر ليتيسّر به لكم الدّخول كذلك.

٤٦١١-(هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و كفى بالله شهيداً)

هو الله الّذي أرسل رسوله محمّداً﴿ﷺ﴾ بكتاب يهدي به النّاس، و بدين الحقّ الّذي

أكمله يوم الغدير بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ليظهر الله تعالى هذا الدّين الإسلاميّ الولائيّ على جميع الأديان، و يبطل به المسالك و الملل و المذاهب والآراء كلّها... و كفى بالله جلّ وعلا شهيداً على نفسه بذلك.

٤٦١٢- (محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّاء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً)

هذا الرّسول المرسل بالهدى و دين الحقّ هو محمّد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و الّذين معه في رسالته من المؤمنين الصّادقين هم أشدّآء على الكفّار لا يوادّونهم، بينما هم رحمآء ليّنون، تراهم أيّها الرّسول﴿صلى الله عليه وآله﴾ في كلّ ظرف من الظّروف بين راكع و ساجد في أوقات الصّلاة لقيامهم بها و محافظة حقّها، و هم يعبدون الله جلّ وعلا شكراً و أهلاً للعبادة لا خوفاً و لا طمعاً و لا ريآءً، حالكونهم يطلبون فضلاً من الله تعالى عليهم، و يلتمسون رضا الله تعالى في طاعتهم و ترك معصيتهم، حالكون آثار العبوديّة من سيماهم لائحة، تلك صفات سبع متمايزة و صفناهم بها في القرآن الكريم.

مضافاً على ذلك: أنّ مثلهم العجيب الشّأن الّذي جآء في التّوراة، و هكذا جآء في الإنجيل لا يخفى على أهلهما كمثل زرع ينبت ليناً و هو الأصل، ثمّ ينبت في حواليه فروعه الّتي تلحق به، فتشدّ الفروع أصلها و تقوّيه و تعينه، حتّى يصير الأصل غليظاً باجتماع فروعه معه، فيستقيم الأصل على سوقه الّتي تحمل أصلها، فيبلغ الأصل عندئذ غايته في الاستواء، فيثمر أحسن الثّمرة و أكثرها، بحيث يعجب الزّرّاع بزرعه و حسن منظره و ثمرته و كثرتها وجودتها و شدّتها...

فقد كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ كالأصل الّذي نبت ليناً ثمّ نبت في حواليه فروعه الّذين كانوا معه في رسالته، فقوّوه و نصروه فأثمرت رسالته أحسن الثّمرة و أكثرها بمدّة قليلة حتّى فتح بهم مكّة و غيرها ليغيظ بهم الكفّار الّذين كانوا يجحدون رسالته ﴿ﷺ﴾ من مشركي مكّة و أهل الكتاب - إنّ الله تعالى وعد الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات من هؤلآء الكفّار و غيرهم الّذين آمنوا حقّاً و عملوا الصّالحات مغفرة لذنوبهم الماضية، و أجراً عظيماً يوم القيامة.

﴿بحث روائيّ﴾

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله تعالى لخاصّة أوليآئه، و هو لباس التّقوى و درع الله الحصينة، و جنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذّلّ و شملة البلاء، و دُيّثَ بالصّغار و القماوة، و ضُرِبَ على قلبه بالإسهاب و اُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد و سيم الخسف و مُنِعَ النِّصفُ...» الخطبة: ٢٧).

و في الدّرالمنثور: عن مُجَمِّع ابن جارية الأنصاري قال: شهدنا الحديبيّة فلمّا انصرفنا عنها إلى كراع الغميم، إذا النّاس يوجفون الأباعر، فقال النّاس بعضهم لبعض: ما للنّاس؟ قالوا: اوحى إلى رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فخرجنا مع النّاس نوجف فإذاً رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ على راحلته على كراع الغميم، فاجتمع النّاس عليه، فقرأ عليهم: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فقال رجل: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: و الّذي نفس محمّد بيده أنّه لفتح، فقسمت خيبر على أهل الحديبيّة لم يدخل معهم فيها أحد إلاّ من شهد الحديبيّة، فقسمها رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثمانية عشر سهماً، و كان الجيش ألفاً و خمسمأة منهم ثلاث مأة فارس، فاعطى الفارس سهمين، و أعطى الرّاجل سهماً».

الحديبيّة إسم بئر، سُمِّيَ المكان بها، و هي قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكّة المكرّمة.

و في **تفسير إرشاد عقل سليم**: «كان في فتح الحديبيّة آية عظيمة هي أنّه نـزح مآؤها حتّى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله﴿عليه السلام﴾ ثمّ مجّه فيها فدرّت بـالماء حتّى شرب جميع من كان معه و شبع، و قيل: فجاش الماء حتّى امتلأت و لم ينفد مآؤها بعد».

و في **الجامع لأحكام القرآن للقرطبي**: «و قال مُجَمِّع بن جارية – و كان أحد القرّاء الّذين قرؤا القرآن –: شهدنا الحديبيّة مع النّبيّ﴿عليه السلام﴾ فلمّا انصرفنا عـنها إذاً النّـاس يهزون الأباعر، فقال بعض النّـاس لبـعض: مـا بـال النّـاس؟ قـالوا: أوحـى الله إلى النّبيّ﴿عليه السلام﴾ قال: فخرجنا نُوجِفُ، فوجدنا نبيّ الله﴿عليه السلام﴾ عند كُراع الغميم، فلمّا اجتمع النّاس قرأ النّبيّ﴿عليه السلام﴾: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فقال عمر بن الخطاب: أو فتح هو يا رسول الله؟! قال: نعم، و الّذي نفسي بيده إنّه لفتح. فقسمت خيبر على أهل الحديبيّة، لم يدخل أحد إلاّ من شهد الحديبيّة».

الايجاف: سرعة السّير، و كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكّة و المدينة.

و في **تفسير الطّبري**: بإسناده عن أبي وائل قال: تكلّم سهل بن حنيف يوم صفّين، فقال: يا أيّها النّاس اتّهموا أنفسكم لقد رأيتنا يوم الحديبيّة يعنى الصّلح الّذي كان بين رسول‌الله﴿عليه السلام﴾ و بين المشركين، و لو نرى قتالاً لقـاتلنا، فـجاء عـمر إلى رسـول الله﴿عليه السلام﴾ فقال: يا رسول الله ألسنا على حقّ و هم على باطل؟ أليس قتلانا في الجنّة و قتلاهم في النّار؟ قال﴿عليه السلام﴾: بلى، قال: ففيم نُعطي الدّنيّة في ديننا و نرجع و لمّا يحكم الله بيننا و بينهم؟! فقال﴿عليه السلام﴾: يا ابن الخطّاب إنّي رسول الله و لن يضيعني أبداً، قال فرجع و هو متغيّظ فلم يصبر حتّى أتى أبابكر، فقال: يا أبابكر ألسنا على حقّ و هم على باطل؟ ألسنا قتلانا في الجنّة و قتلاهم في النّار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطى الدّنيّة في ديننا و نرجع و لمّا يحكم الله بيننا و بينهم؟ فقال: يا ابن الخطّاب إنّه رسول الله لن يضيّعه الله أبداً، قال: فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله﴿عليه السلام﴾ إلى عمر فأقرأه إيّاها فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟! قال: نعم». فتأمّل جيّداً فاقض ما أنت بقاضٍ.

و في **المجمع**: و الحديبيّة بئر. روي أنّه نفد مآؤها، فظهر فيها من أعلام النّبوّة مـا

اشتهرت به الرّوايات. قال البراء بن عازب: تعدّون أنتم الفتح فتح مكّة، و قد كان فتح مكّة فتحاً، و نحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان يوم الحديبيّة، كنّا مع النّبيّ﴿ﷺ﴾ أربع عشرة مأة، و الحديبيّة بئر فنزحناها، فما ترك منها قطرة، فبلغ ذلك إلى النّبيّ﴿ﷺ﴾ فأتاها فجلس على شفيرها ثمّ دعا بإناء من مآء فتوضّأ ثمّ تمضمض، و دعا ثمّ صبّه فيها و تركها، ثمّ إنّها اصدرتنا نحن و ركابنا.

و في حديث سلمة بن الأكوع: إمّا دعا و إمّا بزق فيها، فجاشت فسقينا و استقينا. و عن محمّد بن إسحق بن يسار عن الزّهري عن عروة بن الزّبير عن المسور بن مخرمة (محزمة خ) أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ خرج لزيارة البيت لايريد حرباً فذكر الحديث إلى أن قال: قال رسول الله﴿ﷺ﴾: أنزلوا، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي مآء؟ فأخرج رسول الله﴿ﷺ﴾ من كنانته سهماً فأعطاه رجلاً من أصحابه فقال له: أنزل في بعض هذه القلب، فاغرزه في جوفه، ففعل فجاش بالماء الرّواء حتّى ضرب النّاس بعطن.

و عن عروة و ذكر خروج النّبيّ﴿ﷺ﴾ قال: و خرجت قريش من مكّة فسبقوه إلى بلدح، و إلى المآء فنزلوا عليه، فلمّا رأى رسول الله﴿ﷺ﴾ أنّه قد سبق نزل على الحديبيّة و ذلك في حرّ شديد، و ليس فيها إلاّ بئر واحدة، فأشفق القوم من الظّمأ، و القوم كثير فنزل فيها رجال يمتحونها، و دعا رسول الله﴿ﷺ﴾ بدلو من ماء فتوضّأ، و مضمض فاه ثمّ مجّ فيه و أمر أن يصبّ في البئر و نزع سهماً من كنانته و ألقاه في البئر، فدعا الله تعالى ففارت بالمآء حتّى جعلوا يغترفون بأيديهم منها، و هم جلوس على شفتها.

و روى سالم بن أبي الجعد قال: قلت لجابر: كم كنتم يوم الشّجرة؟ قال: كنّا ألفاً و خمسمأة و ذكر عطشاً أصابهم، قال:فأتى رسول الله﴿ﷺ﴾ بمآء في تور فوضع يده فيه، فجعل المآء يخرج من بين أصابعه كأنّه العيون، قال: فشربنا وُسعَنا و كفانا، قال: قلت: كم كنتم قال: لو كنّا مأة ألف، كفانا كنّا ألفاً و خمسمأة».

و في الخرائج: روي أنّه لمّا صدّه﴿ﷺ﴾ المشركون بالحديبيّة شكى إليه النّاس قلّة المآء، فدعا بدلو من ماء البئر فتوضّأ منه، ثمّ تمضمض و مجّ في الدّلو و أخرج من كنانته سهماً ثمّ أمر بأن يصبّ في البئر تلك الدّلو، و أن يغرز ذلك السّهم في أسفل البئر، فعملوا

ففارت البئر بالمآء إلى شفيرها، و اغترف النّاس، فعند ذلك قال أوس بن خولي لعبد اللّٰه بن أُبيّ بن سلول: أبعد هذا شئ؟ أما آن لك أن تبصر؟».

و فيه: روي أنّه لمّا أصاب النّاس بالحديبيّة جوع شديد، و قلّت أزوادهم لأنّهم أقاموا بها بضعة عشر يوماً، فشكوا إليه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ ذلك، فأمر بالنّطع أن يبسط، و أمرهم أن يأتوا ببقيّة أزوادهم فيطرحوا، فأتوا بكفّ من دقيق (بدقيق قليل خ) و تميرات، فقام ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و دعا بالبركة فيها، و أمرهم بأن يأتوا بأوعيتهم فملاؤها حتّى لم يجدوا لها محلّاً (محملاً خ)».

و في البحار:- تاريخ نبيّنا ﴿صلی الله علیه و آله﴾ - باب ۲۰- غزوة الحديبيّة و بيعة الرّضوان حديث ۸) نقلاً عن الخرائج: من معجزاته ﴿صلی الله علیه و آله﴾: أنّه لمّا خرج رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ للعمرة سنة الحديبيّة منعت قريش من دخول مكّة، و تحالفوا أنّه لايدخلها و منهم عين تطرف، و قال لهم رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾: «ما جئت محارباً لكم إنّما جئت معتمراً» قالوا: لاندعك تدخل مكّة على هذه الحال، فتستذلّنا العرب و تعيّرنا، و لكن اجعل بيننا و بينك هدنة لاتكون لغيرنا، فاتّفقوا عليه، و قد نفد ماء المسلمين و كظّهم و بهائمهم العطش، فجئ بركوة فيها قليل من الماء فأدخل يده فيها، ففاضت الرّكوة، و نودي في العسكر: من أراد المآء فليأته، فسقوا و استقوا (و اسقوا خ) و ملاؤا القرب».

قوله: «كظّهم»: جهدهم من الكرب.

و فيه:- تاريخ الإمام الثّاني عشر- باب ۲۵- باب ما يكون عند ظهوره ﴿علیه السلام﴾- عن المفضل بن عمر عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق ﴿علیه السلام﴾- حديث طويل -: «...فيقول رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾: «الحمد لله الّذي صدقنا وعده و أورثنا الأرض نتبوّء من الجنّة حيث نشآء فنعم أجر العاملين» و يقول: «جآء نصر اللّٰه والفتح» و حَقّ قول اللّٰه سبحانه و تعالى: «هو الّذى أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و لو كره المشركون» و يقرأ: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً و ينصرك اللّه نصراً عزيزاً».

فقال المفضّل: يا مولاي أيّ ذنب كان لرسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾؟ فقال الصّادق ﴿علیه السلام﴾: يا

مفضّل إنّ رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال: اللّٰهمّ حمّلني ذنوب شيعة أخي و أولادي الأوصيآء ما تقدّم منها و ما تأخّر إلى يوم القيامة، و لاتفضحني بين النّبيين و المرسلين من شيعتنا، فحمّله اللّٰه إيّاها و غفر جميعها.

قال المفضّل: فبكيت بكآء طويلاً و قلت: يا سيّدي هذا بفضل اللّٰه علينا فيكم قال الصّادق ﴿عليه السلام﴾: يا مفضّل ما هو إلّا أنت و أمثالك بلى يا مفضّل لاتحدّث بهذا الحديث أصحاب الرُّخص من شيعتنا، فيتّكلون على هذا الفضل، و يتركون العمل، فلا يغني عنهم من اللّٰه شيئاً لأنّا كما قال اللّٰه تبارك و تعالى فينا: «لا يشفعون إلّا لمن ارتضى و هم من خشيته مشفقون» قال المفضّل: يا مولاي فقوله: «ليظهره على الدّين كلّه» ما كان رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ظهر على الدّين كلّه؟ قال: يامفضّل لو كان رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ظهر على الدّين كلّه ما كانت مجوسيّة و لايهوديّة و لاصابئيّة و لانصرانيّة و لافرقة و لاخلاف و لاشكّ و لاشرك و لاعبدة أصنام و لاأوثان، و لااللآت و العزّى، و لاعبدة الشّمس والقمر، و لاالنّجوم و لاالنّار و لاالحجارة، و إنّما قوله: «ليظهره على الدّين كلّه» في هذا اليوم و هذا المهدي و هذه الرّجعة، و هو قوله: «و قاتلوهم حتّى لاتكون فتنة و يكون الدّين كلّه للّه».

فقال المفضّل: أشهد أنّكم من علم اللّٰه علمتم، و بسلطانه و بقدرته قدرتم و بحكمه نطقتم و بأمره تعملون...» الحديث.

قوله ﴿عليه السلام﴾: «أصحاب الرّخص» هم فئة قليلة ضئيلة تعرف بالغلاة تعتقد أنّ كلّ من والى الأئمّة المعصومين صلوات اللّٰه عليه أجمعين جاز لهم ترك العبادة و ارتكاب المعصية إتّكالاً على ذلك، و قد صرّح الإمام ﴿عليه السلام﴾ بردّ عقآئدهم و أنّ شفاعة المعصومين ﴿عليهم السلام﴾ غير شاملة لهم و أنّ عقائد الغلاة عندنا الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة مردودة، و قد أفتى فقهآئنا بنجاسة الغلاة. و في العروة الوثقى – في النجاسات – مسئلة ٢) قال: «لا إشكال في نجاسة الغلاة...».

و في **تأويل الآيات الظّاهرة**: بالاسناد عن محمّد بن سعيد المروزيّ قال: قلت لرجل: أذنب محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قطّ؟ قال: لا. قلت: فقول اللّٰه عزّوجلّ: «ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر» فما معناه؟ قال: إنّ اللّٰه سبحانه حمل محمّداً ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذنوب

شيعة علي(ع) ثمّ غفر له ما تقدّم منها و ما تأخّر».

و يؤيّد ما روي مرفوعاً عن أبي الحسن الثّالث(ع) أنّه سئل عن قول اللّه عزّوجلّ: «ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» فقال(ع): أيّ ذنب كان لرسول اللّه(ص) متقدّماً أو متأخّراً؟ و إنّما حمله اللّه ذنوب شعية عليّ ممّن مضى منهم و بقي، ثمّ غفرها اللّه له.

و يؤيّد أنّ شيعة عليّ(ع) مغفور لهم ممّا روى مرفوعاً عن النّبيّ(ص) أنّه قال لعليّ: يا عليّ إنّي سئلت اللّه عزّوجلّ ألّا يحرم شيعتك التّوبة حتّى تبلغ نفس أحدهم حنجرته، فأجابني إلى ذلك». و ليس ذلك لغيرهم لأنّ شيعة عليّ(ع) تمحّص عنهم الذّنوب بأشيآء في الدّنيا، و لايخرج أحدهم و عليه ذنب لما روى الشّيخ أبو جعفر الطّوسي قدّس اللّه روحه عن رجاله عن زيد بن يونس الشّحّام عن أبي الحسن موسى بن جعفر(ع) قال: قلت لأبي الحسن(ع): الرّجل من مواليكم عاقّ (الرّجل من مواليكم يكون عارفاً خ) يشرب الخمر و يرتكب الموبق من الذّنب نتبرّأ منه؟ فقال: تبرّؤا من فعله و لاتبرّؤوا من خيره، و أبغضوا عمله (أحبّوه و ابغضوا عمله خ) فقلت: يتّسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: لا، الفاسق الفاجر: الكفار الجاحد لنا و لأوليآئنا، أبى اللّه أن يكون وليّنا فاسقاً فاجراً، و إن عمل ما عمل، و لكنّكم قولوا:

فاسق العمل، فاجر العمل، مؤمن النّفس، خبيث الفعل، طيّب الرّوح و البدن، لا واللّه لايخرج وليّنا من الدّنيا إلّا و اللّه و رسوله و نحن عنه راضون يحشره اللّه على ما فيه من الذّنوب مبيضّاً وجهه، مستورة عورته، آمنة روعته، لا خوف عليه و لا حزن، و ذلك أنّه لايخرج من الدّنيا حتّى يصفّى من الذّنوب إمّا بمصيبة في مال أو نفس أو ولد أو مرض، و أدنى ما يصنع بوليّنا (ما يصفّى به وليّنا خ) أن يريه اللّه رؤياً مهولة فيصبح حزيناً لما رآه فيكون ذلك كفّارة، أو خوفاً يرد عليه من أهل دولة الباطل، أو يشدّد عليه عند الموت، فيلقى اللّه عزّوجلّ طاهراً من الذّنوب آمنة روعته بمحمّد و أمير المؤمنين صلّى اللّه عليهما و آلهما، ثمّ يكون أمامه أحد الأمرين: رحمة اللّه الواسعة الّتي هي أوسع من أهل الأرض (من ذنوب أهل الأرض) جميعاً أو شفاعة محمّد و أمير

المؤمنين﴿عليه السلام﴾، إن أخطأته رحمة اللّٰه أدركته شفاعة نبيّه و أمير المؤمنين﴿عليهما السلام﴾، فعندها تصيبه رحمة اللّٰه الواسعة». و كان أحقّ بها و أهلها و له إحسانها و فضلها.

و في **تفسير القمّي**: بإسناده عن عمر بن يزيد بياع السّابري قال: قلت لأبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قول اللّٰه في كتابه: «ليغفر لك اللّٰه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر»؟ قال: ما كان له من ذنب ولا همّ بذنب، و لكنّ اللّٰه حمله ذنوب شيعته ثمّ غفرها له».

و في **تفسير فرات الكوفي**: بإسناده عن ابن سنان عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ عن أمير المؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾ قال: لمّا نزلت على رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» قال: يا جبرئيل ما الذّنب الماضي؟ و ما الذّنب الباقي؟ قال جبرئيل: ليس لك ذنب يغفرها لك».

أقول: أي ليس المراد ذنبك إذ ليس لك ذنب، بل ذنوب شيعة أهل بيتك المعصومين عليهم السّلام بشفاعته﴿صلى الله عليه و آله﴾ و إضافة ذنوب الشّيعة إليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ للاتّصال و السّبب بينه و بين الشّيعة.

و المراد من ذنوب الشّيعة، رفضهم الطّواغيت الثّلاث، و التّبرّئ من الخلفآء الغاصبين و أصحاب السّقيفة السّخيفة الشّؤمة، و تولّاهم بولاية أهل بيت الوحي المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، و لذلك أنّ شيعة أهل بيت الوحي﴿عليهم السلام﴾ يومنا هذا بعد أربعة عشر قرناً عند أذناب هؤلآء الببغآء و بحسابهم، مجوس، نجس، مشرك، كافر، و أسوأ من اليهود الصّهيونيزم كما صرّح بذلك إمام جمعة المسجد الحرام في سنة ١٤١٩ هـ ق، فيشفع لهم النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه و آله﴾ من ذنوبهم هكذا...

كما أنّه لم يكن أحد عند مشركي أهل مكّة أعظم ذنباً من رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لرفض أندادهم و كسر أصنامهم... و دعوتهم إلى التّوحيد و العبادة لله وحده، فغفر اللّٰه تعالى له﴿صلى الله عليه و آله﴾ من ذنبه هكذا هنيئاً لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بذنبه هذا، و لشيعة أهل بيته عليهم السّلام بذنوبهم هذه...

و في **عيون الأخبار**:- في مجلس الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحيّة والثّنآء مع المأمون- بإسناده عن عليّ بن محمّد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون، و

عنده الرّضا ﴿عليه السلام﴾ فقال له المأمون: يابن رسول اللّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أليس من قولك: إنّ الأنبيآء معصومون؟ قال: بلى! قال: فما معنى قول اللّه: «ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر»؟

قال الرّضا ﴿عليه السلام﴾: لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لأنّهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاثمأة و ستّين صنماً، فلمّا جآءهم ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالدّعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم و عظم، قالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشئ عجاب - إن هذا إلّا اختلاق» ص: ٥- ٧)

فلمّا فتح اللّه تعالى على نبيّه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة قال له: يا محمّد: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفرلك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» عند مشركي أهل مكّة بدعآئك إلى توحيد اللّه فيما تقدّم و ما تأخّر لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم، و خرج بعضهم عن مكّة، و من بقي منهم لم يقدر على إنكار التّوحيد عليه، إذا دعا النّاس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن».

و في الإحتجاج للطبرسيّ المازندراني رضوان اللّه تعالى عليه: روى عن موسى بن جعفر ﴿عليه السلام﴾ عن أبيه عن آبآئه عن الحسين بن عليّ ﴿عليهما السلام﴾ قال: إنّ يهوديّاً من يهود الشّام و أحبارهم قال لعليّ ﴿عليه السلام﴾ فإنّ آدم ﴿عليه السلام﴾ تاب اللّه عليه من خطيئة؟ قال له عليّ ﴿عليه السلام﴾: لقدكان كذلك و محمّد ﴿صلى الله عليه و آله﴾ نزل فيه ما هو أكبر من هذا من غير ذنب أتى، قال اللّه عزّوجلّ: «ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» انّ محمّداً غير موافٍ يوم القيامة بوزر و لا مطلوب فيها بذنب، و قال ﴿عليه السلام﴾: و لقد كان ﴿صلى الله عليه و آله﴾ يبكى حتّى يغشى عليه، فقيل له: يا رسول اللّه أليس اللّه قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟ قال: بلى أفلا أكون عبداً شكوراً؟...» الحديث.

و في المجمع: روى المفضّل بن عمر عن الصّادق ﴿عليه السلام﴾ قال: سئله رجل عن هذه الآية، فقال: و اللّه ما كان له ذنب، و لكنّ اللّه سبحانه ضمن أن يغفر ذنوب شيعة عليّ ﴿عليه السلام﴾ ما تقدّم من ذنبهم و ما تأخّر».

و في المناقب لابن شهر آشوب السّروي المازندراني: «و أتت فاطمة بنت عليّ بن

أبيطالب﴿عليه السلام﴾ إلى جابر بن عبدالله، فقالت له: يا صاحب رسول اللّٰه إنّ لنا عـليكم حقوقاً، عليكم أنّ إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً إن تذكروه اللّٰه و تدعوه إلى البقا على نفسه، و هذا عليّ بن الحسين بقيّة أبيه الحسين قد انخرم أنفه و نقبت جبهته، و ركبتاه و راحتاه أذاب نفسه في العبادة، فأتى جابر إليه، فاستأذن، فلمّا دخل عليه وجـده في محرابه قد انصبته العبادة، فنهض عليّ، فسئله عن حاله سئوالاً خفيّاً، ثمّ أجلسه بجنبه.

ثمّ أقبل جابر يقول: يا بن رسول اللّٰه أما علمت أنّ اللّٰه إنّما خلق الجنّة لكم و لمن أحبّكم؟ و خلق النّار لمن أبغضكم و عاداكم؟ فما هذا الجهد الّذي كلفته نفسك؟ قال له عليّ بن الحسين يا صاحب رسول اللّٰه أما علمت أنّ جدّي رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد غفر اللّٰه له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر، فلم يدع الاجتهاد و تعبد هو بأبي و أُمّي حتّى انتفخ السّاق، و ورم القدم؟ و قيل له: أتفعل هذا و قد غفر اللّٰه لك ما تقدّم من ذنبك و مـا تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»؟.

و في **اصول الكافي**:-كتاب الايمان و الكفر- باب الشّكر- بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: كان رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول اللّٰه لِمَ تتعب نفسك و قد غفر اللّٰه لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً؟ قال: و كان رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يقوم على أطراف أصابع رجـليه فأنزل اللّٰه سبحانه و تعالى: «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى».

قال بعض الشّارحين: إنّ عائشة توهّمت أنّ ارتكاب المشقّة في الطّاعات إنّما يكون لمحو السّيّئات فأجاب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأنّه ليس منحصراً في ذلك بل يكون لشكر النّعم الغير المتناهيّة و رفع الدّرجات الصّوريّة و المعنويّة، بل الطّاعات عند الأحبّآء من أعظم اللّذّات...

أقول: إنّ كثرة عبادة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و اتعاب نفسه فيها قد تكون شكراً لله تعالى على كسر الأصنام الّذي كان أعظم ذنباً لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بحسـاب مـشركي مكّة، فينبغي للشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة أنّهم قد يعبدون- غير ما يعبدون اللّٰه جلّ وعلا- شكراً للّٰه سبحانه على رفض الطّواغيت، و على استمساكهم بالعروة

الوثقى: «فمن يكفر بالطّاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» البقرة: ۲٥٦) و أذناب الطّواغيت يسؤون يوم النّيروز و يعيبون الشّيعة لاتّخاذهم هذا اليوم عيداً شمسيّاً لهم- غير الأعياد القمريّة لهم- لأنّه اليوم الّذي كسر الإمام علىّ ﴿عليه السلام﴾ فيه الأصنام... و هؤلآء الأذناب يرون هذا العيد عيداً مجوسياً لذلك!

في البحار:- تاريخ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ باب ٦٠- حديث ٥) روى الشيخ أحمد بن فهد في المهذّب وغيره بأسانيدهم عن المعلّى بن خنيس عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: «يوم النّيروز هو اليوم الّذي حمل فيه رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ على منكبه حتّى رمى أصنام القريش من فوق بيت اللّٰه الحرام و هشمها».

و فيه:- تاريخ أمير المؤمنين علىّ﴿عليه السلام﴾- باب ٥٢) -: «روى الشّيخ أحمد بن فهد في المهذّب و غيره بأسانيدهم عن المعلّى بن خنيس عن أبي عبد اللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: يوم النّيروز هو اليوم الّذي أخذ فيه النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لأمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ العهد بغدير خم، فأقرّوا له بالولاية، فطوبى لمن ثبت عليها و الويل لمن نكثها».

و فيه: في هذا الباب- حديث ٦) بالاسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم فتح مكّة لعليّ﴿عليه السلام﴾: أما ترى هذا الصّنم يا عليّ على الكعبة؟ قال: بلى يا رسول اللّٰه، قال: فأحملك تتناوله، قال: بل أنا أحملك يا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال: لو أنّ ربيعة و مضر جهدوا أن يحملوا منّي بضعة و أنا حيّ ما قدروا، ولكن قِفْ يا عليّ، قال: فضرب رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ يديه إلى ساقي عليّ﴿عليه السلام﴾ فوق القربوس، ثمّ اقتلعه من الأرض بيده فرفعه حتّى تبيّن بياض إبطيه، ثمّ قال له: ماترى يا عليّ؟ قال: أرى أنّ الله عزّوجلّ قد شرّفني بك حتّى لو أردت أن أمسّ السّمآء بيدي لمسستها، فقال له: تناول الصّخم يا عليّ، فتناوله عليّ﴿عليه السلام﴾ فرمى به...».

و في معاني الأخبار: بإسناده عن عبدالجبّار بن كثير التّميميّ اليمانيّ قال: سمعت محمّد بن حرب الهلاليّ أمير المدينة يقول: سئلت جعفر بن محمّد﴿عليه السلام﴾ فقلت له: يا ابن رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ في نفسي مسئلة أُريد أن أسئلك عنها؟ فقال: إن شئت أخبرتك بمسئلتك قبل أن تسئلني، و إن شئت فَسَلْ: قال: قلت له: يا ابن رسول الله و بأيّ شيء

تعرف ما في نفسي قبل سئوالي عنه؟ قال: بالتّوسّم و التّفرّس، أما سمعت قول الله عزّوجلّ: «إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين» و قول رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله».

قال: فقلت له: يا ابن رسول الله فأخبرني بمسئلتي، قال: أردت أن تسئلني عن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ لِمَ لَمْ يطق حمله عليّ﴿عليه السلام﴾ عند حطّه الأصنام من سطح الكعبة مع قوّته و شدّته، و مع ما ظهر منه في قلع باب القموص (القوم خ) بخيبر، و الرّمي به إلى ورآئه أربعين ذراعاً و كان لايطيق حمله أربعون رجلاً، و قد كان رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ يركب النّاقة و الفرس و البغلة و الحمار، و ركب البراق ليلة المعراج، و كلّ ذلك دون عليّ في القوّة و الشّدّة؟ قال: فقلت له: عن هذا و الله أردت أن أسئلك يا ابن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأخبرني؟

فقال: إنّ عليّاً برسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ شرف (تشرّف خ) و به ارتفع، و به وصل إلى أن أطفأ نار الشّرك و أبطل كلّ معبود (و به وصل إلى إطفاء نار الشّرك و إبطال كلّ معبود خ) من دون الله عزّوجلّ، و لو علاه النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لحطّ الأصنام لكان بعليّ مرتفعاً و شريفاً واصلاً إلى حطّ الأصنام، و لو كان ذلك كذلك لكان أفضل منه، ألاترى أنّ عليّاً قال: «لمّا علوت ظهر رسول الله شرّفت و ارتفعت حتّى لو شئت أن أنال السّمآء لنلتها؟...

قال محمّد بن حرب الهلاليّ: فقلت له: زدني يا ابن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال﴿عليه السلام﴾: إنّك لأهل للزّيادة، إنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حمل عليّاً على ظهره يريد بذلك أنّه أبو ولده، و إمام الأئمّة من صلبه كما حوّل ردآئه في صلاة الاستسقآء و أراد أن يعلم أصحابه بذلك أنّه قد تحوّل الجدب خصباً، قال: قلت له: زدني يا ابن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال: احتمل رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عليّاً يريد بذلك أن يعلم قومه أنّه هو الّذي يخفّف عن ظهر رسول الله ما عليه من الدّين و العداة و الأدآء عنه من بعده.

قال: فقلت له: يا ابن رسول الله زدني؟ فقال: إنّه احتمله ليعلم بذلك أنّه قد احتمله، و ما حمل إلاّ لأنّه معصوم لايحمل (يحتمل خ) وزراً، فتكون أفعاله عند النّاس حكمة و

ثواباً، و قد قال النبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ لعليّ ﴿علیه السلام﴾: يا عليّ إنّ الله تبارك و تعالى حمّلني ذنوب شيعتك، ثمّ غفرها لي و ذلك قوله عزّوجلّ: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» و لمّا أنزل الله عزّوجلّ عليه: «يا أيّها الّذين آمنوا عليكم أنفسكم» المائدة: ١٠٥).

قال النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾: أيّها النّاس عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم، و عليّ نفسي و أخي، أطيعوا عليّاً فإنّه مطهّر معصوم لا يضلّ و لا يشقى، ثمّ تلا هذه الآية: «قل أطيعوا الله و أطيعوا الرّسول فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمّل و عليكم ما حمّلتم و إن تطيعوه تهتدوا و ما على الرّسول إلاّ البلاغ المبين» النّور: ٥٤).

قال محمّد بن حرب الهلالي: ثمّ قال لي جعفر بن محمّد: أيّها الأمير لو أخبرتك بما في حمل النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ عليّاً ﴿علیه السلام﴾ عند حطّ الأصنام من سطح الكعبة من المعاني الّتي أرادها به لقلت: إنّ جعفر بن محمّد لمجنون! فحسبك من ذلك ما قد سمعته. فقمت إليه، و قبّلت رأسه و يديه و قلت: الله أعلم حيث يجعل رسالته».

قوله ﴿علیه السلام﴾: «القموص»: جبل بخيبر عليه حصن أبي الحقيق اليهوديّ.

و في تفسير الصّافي: و في رواية ابن طاوس عنهم: أنّ المراد منهم «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» عند أهل مكّة و قريش يعني ما تقدّم قبل الهجرة و بعدها، فإنّك إذا فتحت مكّة بغير قتل لهم و لا استيصال و لا أخذهم بما قدّموه من العداوة والقتال غفروا ما كان يعتقدونه ذنباً لك عندهم متقدّماً أو متأخّراً، و ما كان يظهر من عداوته لهم في مقابلة عداوتهم له، فلمّا رأوه قد تحكم و تمكّن، و ما استقصى غفروا ما ظنّوه من الذّنوب، و يُتمّ نعمته عليك بإعلاء الدّين و ضمّ الملك إلى النّبوّة و يهديك صراطاً مستقيماً في تبليغ الرّسالة و إقامة مراسم الرّياسة».

٤- (هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عليماً حكيماً)

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾ لأصحابه في بعض أيّام صفّين: «معاشر المسلمين! استشعروا الخشية، و تجلببوا السّكينة، و عضّوا على النّواجذ فإنّه أنبى للسّيوف عن الهام...» الخطبة: ٦٥).

و فيه: و قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾ في وصف المؤمنين الصّادقين -: «قد حَفَّتْ بهم الملائكة، و تنزّلت عليهم السّكينة، و فُتِحَتْ لهم أبواب السّمآء، و أُعِدَّتْ لهم مقاعد الكرامات في مقام اطّلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم و حَمِدَ مقامهم...» الخطبة: ٢١٣).

و فيه: و قال الإمام أمير المؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾ - في وصف الملائكة -: «... و أشعر قلوبهم تواضع إخبات السّكينة، و فتح لهم أبواباً ذُلُلاً إلى تماجيده، و نصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده...» الخطبة: ٩٠).

و في **اصول الكافي**: - كتاب الايمان و الكفر -: باب في أنّ السّكينة هي الايمان - بإسناده عن جميل قال: سئلت أبا عبدالله ﴿عليه السلام﴾ عن قوله عزّوجلّ: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين» قال: هو الايمان، قال: قلت: «و أيّدهم بروح منه» قال: هو الايمان، و عن قوله: «و ألزمهم كلمة التقوى»؟ قال: هو الايمان».

أقول: و في الباب ثلاث روايات أُخر بأسانيد صحيحة عن الإمامين الصّادقين: أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السّلام بأنّ السّكينة هي الايمان.

و ما يستفاد من كلام مولانا الإمام أميرالمؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾: أنّ هذا الايمان موهبيّ يتفرّع على النّيّات الصّادقة و الأعمال الصّالحة و المجاهدات الدّينيّة سوى الايمان الحاصل بالدّليل و البرهان، و لذا قال تعالى: «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» و أنّ السّكينة هي الثّبات و طمأنينة النّفس و كمال اليقين بحيث لا يتزلزل عند الفتن، و لا يضطرب لدى عروض الشّبهات... و صاحب هذا الايمان يكون مع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في رسالته قلباً و قالباً في مختلف الظّروف...

و أنّ الرّوح هو الايمان الموهبيّ، و أنّ كلمة التّقوى هي الايمان: الايمان الموهبيّ إذ بها يتّقي المؤمن الصّادق من عذاب الله تعالى لا بكلمة التّوحيد فقط كما فسّرها بها أكثر المفسّرين، و قد فسّرت في كثير من الأخبار بالولاية لأهل بيت النّبوّة عليهم السّلام لأنّها مستلزم لجميع العقائد الايمانيّة...

و في **تفسير القمي**: قال عليّ بن إبراهيم رضوان الله تعالى عليه في قوله: «هو الّذي

أنزل السّكينة – إلى قوله – و لله جنود السّموات و الأرض» فهم الّذين لم يخالفوا رسول‌الله(صلى الله عليه و آله) و لم ينكروا عليه الصّلح، ثمّ قال: «ليدخل المؤمنين و المؤمنات – إلى قوله – الظّانّين بالله ظنّ السّوء عليهم دائرة السّوء» و هم الّذين أنكروا الصّلح و اتّهموا رسول الله(صلى الله عليه و آله) «و غضب الله عليهم و لعنهم و أعدّلهم جهنّم و سآئت مصيراً و لله جنود السّموات و الأرض و كان الله عزيزاً حكيماً إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً» ثمّ عطف بالمخاطبة على أصحابه فقال: «لتؤمنوا بالله و رسوله و تعزّروه و توقّروه» ثمّ عطف على نفسه عزّوجلّ، فقال: «و تسبّحوه بكرة و أصيلاً» معطوفاً على قوله: «لتؤمنوا بالله».

و في **العلل**: بإسناده عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله(عليه السلام) لأيّ علّة يكبر المصلّي بعد التّسليم ثلاثاً يرفع بها يديه؟ فقال: لأنّ النّبيّ(صلى الله عليه و آله) لمّا فتح مكّة صلّى بأصحابه الظّهر عند الحجر الأسود، فلمّا سلّم رفع يده و كبّر ثلاثاً و قال: «لا إله إلاّ الله وحده وحده وحده، أنجز وعده و نصر عبده و أعزّ جنده و غلب الأحزاب وحده، فله الملك و له الحمد، يحيى و يميت و هو على كلّ شئ قدير» ثمّ أقبل على أصحابه فقال: لا تَدَعُوا هذا التّكبير و هذا القول في دبر كلّ صلاة مكتوبة، فإنّ من فعل ذلك بعد التّسليم، و قال هذا القول،، كان قد أدّي ما يجب عليه من شكر الله تعالى ذكره على تقوية الإسلام و جنده».

و في **اصول الكافي**:– كتاب الايمان و الكفر – باب في أنّ الايمان مبثوث لجوارح البدن كلّها – حديث ۱) بإسناده عن أبي عمرو الزّبيري عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: قلت له: أيّها العالم! أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال ما لا يقبل الله شيئاً إلاّ به، قلت: و ما هو؟ قال: الايمان بالله الّذي لا إله إلاّ هو، أعلى الأعمال درجة و أشرفها منزلة و أسناها حظّاً، قال: قلت: ألا تخبرني عن الايمان أقولٌ هو و عمل أو قول بلا عمل؟ فقال: الايمان عَمَلٌ كلّه، و القول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له به الكتاب و يدعوه إليه.

قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتّى أفهمه؟ قال: الايمان حالات و درجات و

طبقات و منازل، فمنه التّامّ المنتهى تمامه، و منه النّاقص البيّن نقصانه، و منه الرّاجح الزّائد رجحانه، قلت: إنّ الايمان ليتمّ و ينقص و يزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأنّ الله تبارك و تعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم و قسّمه عليها و فرّقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلاّ و قد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به اختها- إلى أن قال- فمن لقي الله عزّوجلّ حافظاً لجوارحه موفياً كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عزّوجلّ عليها لقي الله عزّوجلّ مستكملاً لايمانه و هو من أهل الجنّة، و من خان في شئ منها أو تعدّى ما أمر الله عزّوجلّ فيها لقي الله عزّوجلّ ناقص الايمان.

قلت: قد فهمت نقصان الايمان و تمامه، فمن أين جآئت زيادته؟ فقال: قول الله عزّوجلّ: «و إذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً، فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم» و قال: «نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتية آمنوا بربّهم و زدناهم هدى» و لو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه و لا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر و لاستوت النّعم فيه، و لاستوت النّاس و بطل التّفضيل، و لكن بتمام الايمان دخل المؤمنون الجنّة و بالزّيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدّرجات عند الله، و بالنّقصان دخل المفرّطون النّار».

أقول: إنّ المراد من الايمان في هذه الرّواية على درجاته و مراتبه... ايمان اكتسابيّ بالدّليل و البرهان كما استدلّ الإمام﴿عليه السلام﴾ عليه بالآية الكريمة، و المراد من السّكينة- فيما نحن فيه- هو الايمان الموهبيّ الّذي يزيد على الايمان الاكتسابيّ كما تشير إليه الآية الكريمة: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم».

و في **عدّة الدّاعي**: روي عن العالم﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: «و الله ما أُعطِيَ مؤمن قطّ خير الدّنيا و الآخرة إلاّ بحسن ظنّه بالله عزّوجلّ و رجآئه له، و حسن خلقه و الكفّ عن اغتياب المؤمنين، و الله تعالى لايعذّب عبداً بعد التّوبة و الاستغفار إلاّ بسوء ظنّه و تقصيره في رجآئه لله عزّوجلّ، و سوء خلقه و اغتيابه المؤمنين، و ليس (لا خ) يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله عزّوجلّ إلاّ كان الله عند ظنّه لأنّ الله كريم يستحيي أن يخلف ظنّ

عبده و رجآئه، فأحسنوا الظّنّ بالله و ارغبوا إليه، فإنّ الله تعالى يقول: «الظّآنّين بالله ظنّ السّوء عليهم دائرة السّوء و غضب الله عليهم...»».

و في رواية: أنّه لمّا جرى صلح الحديبيّة قال ابن أبيّ: «أيظنّ محمّد أنّه إذا صالح أهل مكّة أو فتحها لايبقى له عدوّ، فأين فارس و الرّوم؟ فبيّن سبحانه أنّ جنود السّموات والأرض أكثر من فارس و الرّوم».

و في الدّرالمنثور: عن جابر بن عبدالله قال: لمّا نزلت على رسول الله﴿صلّى الله عليه وآله﴾ هذه الآية: «و تعزّروه». قال النّبيّ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: لتنصروه».

۱۰- (إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)

في العيون: عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾ قال: «عقد البيعة هو من أعلى الخنصر إلى أعلى الإبهام، و فسخها من أعلى الإبهام إلى أعلى الخنصر...»».

و في الاصول الكافي: بإسناده عن حمزة بن بزيع عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ في قول الله عزّوجلّ: «فلمّا آسفونا انتقمنا منهم» الزّخرف: ۵۵) فقال: إنّ الله عزّوجلّ لايأسف كأسفنا، و لكنّه خلق أوليآء لنفسه يأسفون و يرضون و هم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه و سخطهم سخط نفسه، لأنّه جعلهم الدّعاة إليه و الأدلاّء عليه، فلذلك صاروا كذلك، و ليس أنّ ذلك يصل إلى الله ما يصل إلى خلقه، لكن هذا معنى ما قال من ذلك، و قد قال: «من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة و دعاني إليها» و قال: «من يطع الرّسول فقد أطاع الله» النّسآء: ۷۹) و قال: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم» فكلّ هذا و شبهه على ما ذكرت لك، و هكذا الرّضاوالغضب و غيرهما من الأشيآء ممّا يشاكل ذلك و لو كان يصل إلى الله الأسف و الضّجر و هو الّذي خلقهما و أنشأهما لجاز لقائل هذا أن يقول:

إنّ الخالق يبيد يوماً ما لأنّه إذا دخله الغضب و الضّجر دخله التغيير، و إذا دخله

التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ثمّ لم يعرف المكوِّن من المكوَّن، و لا القادر من المـقدور عليه، و لا الخالق من المخلوق، تعالى الله عن هذا القول علوّاً كـبيراً، بـل هـو الخـالق للأشيآء لا لحاجة، فإذا كان لا لحاجة استحال الحدّ و الكيف فيه، فـافهم إن شآء الله تعالى».

و في التّوحيد: «بإسناده عن عبدالسّلام بن صالح الهروي قال: قلت لعليّ بن موسى الرّضا﴿عليه السلام﴾: يا ابن رسول الله ما تقول في حديث الّذي يـرويه أهـل الحـديث أنّ المؤمنين يزورون ربّهم من منازلهم في الجنّة؟ فقال﴿عليه السلام﴾: يا أبا الصّلت إنّ الله تبارك و تعالى فضّل نبيّه محمّداً﴿صلى الله عليه و آله﴾ على جميع خلقه من النّبيّين و الملائكة، و جعل طاعته طاعته، و مُتابعته متابعته، و زيارته في الدّنيا و الآخرة زيارته، فقال عزّوجلّ: «من يطع الله فقد أطاع الله» و قال: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم» و قال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله» دَرَجَةُ النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الجنّة أرفع الدّرجات، فمن زاره إلى درجته في الجنّة من مـنزله فـقد زار الله تـبارك و تعالى...» الحديث.

و في كتاب الطّرائف للسّيّد عليّ بن طاووس رضوان الله تعالى عليه: عن موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: «لمّا هاجر النّبي﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة اجتمع النّاس و سكن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و حضر خروجه إلى بدر دعا النّاس إلى البيعة، فبايع كـلّهم على السّمع و الطّاعة، و كان رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إذا خلا دعا عليّاً﴿عليه السلام﴾ فأخبره من يفي منهم و من لا يفي، و يسئله كتمان ذلك، ثمّ دعا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عليّاً و حمزة و فاطمة عليهم السلام فقال لهم: بايعوني بيعة الرّضا، فقال حمزة: بأبي أنت و أُمّي على ما نبايع؟ أليس قد بايعنا؟

فقال: يا أسدالله و أسد رسوله تبايع لله و لرسوله بالوفاء و الاستقامة لابن أخيك إذن تستكمل الايمان، قال: نعم سمعاً و طاعة، و بسط يده فقال لهم: يدالله فوق أيديكم (ثمّ قال لهم: يدالله فوق أيديهم خ) عليّ أميرالمؤمنين و حمزة سيّد الشّهـدآء و جـعفر الطّيّار في الجنّة و فاطمة سيّدة نساء العالمين و السّبطان: الحسن و الحسين سيّد اشباب

أهل الجنّة هذا شرط من الله على جميع المسلمين من الجنّ و الإنس أجمعين، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه، و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً، ثمّ قرأ: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله»... الحديث.

و في البحار:- تاريخ أميرالمؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾- باب ٥٢- في أخبار الغدير- قال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾- في خطبة الغدير- «... معاشر النّاس! «آمنوا بالله و رسوله و النّور الّذي أنزل» أنزل الله النّور فيّ، ثمّ في عليّ، ثمّ النّسل منه إلى المهديّ الّذي يأخذ بحقّ الله، معاشر النّاس! إنّي رسول الله قد خلت من قبلي الرّسل، ألا إنّ عليّاً الموصوف بالصّبر والشّكر، ثمّ من بعده من ولده من صلبه،معاشر النّاس قد ضلّ من قبلكم أكثر الأوّلين، أنا صراط الله المستقيم الّذي أمركم أن تسلكوا الهدى إليه، ثمّ عليّ من بعدي، ثمّ ولدي من صلبه أئمّة يهدون بالحقّ، إنّي قد بيّنت لكم و فهّمتكم، هذا عليّ يفهمكم بعدي، ألا و إنّي عند انقطاع خطبتي أدعوكم إلى مصافحتي على بيعته، و الإقرار له بولايته، ألا إنّي بايعت لله و عليٌّ بايع لي، و أنا آخذكم بالبيعة له عن الله «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً».

معاشر النّاس! أنتم أكثر من أن تصافحوني بكفّ واحدة، قد أمرني الله أن آخذ من ألسنتكم الإقرار بما عقّدتم الإمرة لعليّ بن أبيطالب و من جآء من بعده من الأئمّة منّي و منه على ما أعلمتكم أنّ ذرّيّتي من صلبه، فليبلّغ الحاضر الغائب، فقولوا سامعين مطيعين راضين لما بلّغت عن ربّك: نبايعك على ذلك بقلوبنا و ألسنتنا و أيدينا على ذلك نحيا و نموت و نبعث، لانغيّر و لا نبدّل، و لا نشكّ و لا نرتاب، أعطينا بذلك الله و إيّاك و عليّاً و الحسن و الحسين و الأئمّة الّذين ذكرت كلّ عهد و ميثاق من قلوبنا و ألسنتنا و نحن لانبتغي بذلك بدلاً، و نحن نؤدّي ذلك إلى كلّ من رأينا، فبادر النّاس بنعم نعم سمعنا و أطعنا أمر الله و أمر رسوله آمنّا به بقلوبنا، و تداكّوا على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عليّ بأيديهم إلى أن صُلّيت الظّهر و العصر في وقت واحد، و باقى ذلك اليوم إلى أن صلّيت العشاءان في وقت واحد، و رسول‌الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ يقول كلّما أتى فوج: «الحمد لله الّذي فضّلنا على العالمين».

و **في معاني الأخبار**: بإسناده عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «لمّا أنزل الله تبارك و تعالى: «و أوفوا بعهدي أُوف بعهدكم» البقرة: ٤٠). و الله لقد خرج آدم من الدّنيا و قد عاهد قومه على الوفاء لولده شيث فما وُفِيَ له، و لقد خرج نوح من الدّنيا و قد عاهد قومه على الوفاء لوصيّه سام فما وَفَتْ اُمّته، و لقد خرج إبراهيم من الدّنيا و عاهد قومه على الوفاء لوصيّه إسمعيل فما وفت اُمّته، و لقد خرج موسى من الدّنيا، و عاهد قومه على الوفاء لوصيّه يوشع بن نون فما وفت اُمّته، و لقد رفع عيسى بن مريم إلى السّمآء و قد عاهد قومه على الوفاء لوصيّه شمعون بن حمّون الصّفا، فما وفت اُمّته، و إنّي مفارقكم عن قريب و خارج من بين أظهركم و لقد عهدت إلى اُمّتي في عليّ بن أبيطالب، و إنّها لراكبة سنن من قبلها من الاُمم في مخالفة وصيّي و عصيانه، ألا و إنّي مجدّد عليكم عهدي في عليّ «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً».

و **في البرهان**: عن عبدالملك بن هارون عن أبي عبدالله عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليهم السّلام قال: «أنا الّذي ذكر الله إسمه في التّوراة و الإنجيل بموازرة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أنا أوّل من بايع رسول الله تحت الشّجرة في قوله: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة».

و **في نورالثّقلين**: بالاسناد عن عبدالملك بن هارون عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ قال: كتب عليّ ﴿عليه السلام﴾ إلى معاوية: «أنا أوّل من بايع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ تحت الشّجرة في قوله: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة...» الحديث.

و **في البرهان**: عن أبي الزّبير عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾ قال: قلت: قول الله عزّوجلّ: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» كم كانوا؟ قال: «ألفاً و مأتين قلت: هل هم فيهم عليّ ﴿عليه السلام﴾؟ قال: نعم سيّدهم و شريفهم».

و **في كنز الفوائد**: عن أبي الزّبير عن جابر عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾: الحديث.

أقول: إنّ أكثر النّاس نكثوا بيعة الرّضوان لأميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و نكثوا البيعة الّتي بايعهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لأميرالمؤمنين يوم الغدير كما نكث طلحة

والزّبير و أضرابهما ما بايعوا الإمام أميرالمؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾ بعد موت عثمان بن عفّان.

في نهج البلاغة: قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾ - في الزّبير -: «يزعم أنّه قد بايع بيده و لم يبايع بقلبه...».

و فيه: قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾ - في مروان بن الحكم -: «أولم يبايعني بعد قتل عثمان لا حاجة لي في بيعته! إنّها كفّ يهوديّة لو بايعني بيده لغدر بسبّته...».

و في البحار: عن أُمّ راشد مولاة أُمّ هانئ أنّ طلحة و الزّبير دخلا على عليّ ﴿عليه السلام﴾ فاستأذناه في العمرة، فأذن لهما فلمّا ولّيا و نزلا من عنده سمعتهما يقولان: لا و الله ما بايعناه بقلوبنا إنّما بايعناه بأيدينا، قالت: فأخبرت عليّاً ﴿عليه السلام﴾ بمقالتهما، فقال: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً».

و في تفسير القمي: في قوله تعالى: «ما زادهم إلاّ نفوراً استكباراً في الأرض...» فاطر: ٤٢-٤٣) قال أميرالمؤمنين ﴿عليه السلام﴾ في كتابه الّذي كتبه إلى شيعته يذكر فيه خروج عائشة إلى البصرة و عظم خطأ طلحة و الزّبير، فقال: «و أيّ خطيئة أعظم ممّا أتيا، أخرجا زوجة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من بيتها و كشفا عنها حجاباً ستره الله عليه و صانا حلايلهما في بيوتهما، ما أنصفا لا لله و لا لرسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من أنفسهما، ثلاث خصال مرجعها على النّاس في كتاب الله: البغي و المكر و النكث قال الله: «يا أيّها النّاس إنّما بغيكم على أنفسكم» و قال: «و من نكث فإنّما ينكث على نفسه» و قال: «و لا يحيق المكر السّيّئ إلاّ بأهله» و قد بغيا علينا و نكث بيعتي و مكرا بي»

و في ثواب الأعمال: بإسناده عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق ﴿عليه السلام﴾ أنّ عليّاً ﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّ في النّار لمدينة يقال لها (له خ) الحصينة، أفلا تسئلوني ما فيها؟ فقيل له: و ما فيها يا أميرالمؤمنين؟ قال: فيها أيدى النّاكثين».

و في إرشاد المفيد رضوان الله تعالى عليه - في بيعة النّاس لعليّ بن موسى الرّضا ﴿عليه السلام﴾ في مجلس المأمون - حديث طويل - «... و جلس المأمون و وضع للرّضا ﴿عليه السلام﴾ و سادتين عظيمتين حتىّ لحق بمجلسه و فرشه، و أجلس الرضا ﴿عليه السلام﴾

عليهما في الخضرة و عليه عمامة و سيف، ثمّ أمر ابنه عبّاس بن المأمون أن يبايع له في أوّل النّاس، فرفع الرّضا﴿عليه السلام﴾ يده فتلقّى بها وجهه و ببطنها وجوههم، فقال له المأمون: ابسط يدك للبيعة، فقال الرّضا﴿عليه السلام﴾: إنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ هكذا كان يبايع، فبايعه النّاس و يده فوق أيديهم».

و في روضة الكافي: عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن عليّ بن أسباط عنهم عليهم السلام قال: فيما وعظ الله عزّوجلّ به عيسى﴿عليه السلام﴾ - ثمّ ذكر حديثاً قدسيّاً طويلاً و فيه وصف محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ و فيه -: «و على اُمّته تقوم السّاعة، و يدي فوق أيديهم، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه، و من أوفى بما عاهد عليه الله أوفيت له بالجنّة».

و ذلك أنّ النّفس الإنسانيّة رهينة على الوفاء بالميثاق الّذي واثقها الله عزّوجلّ به، و العهد الّذي أخذ عليها حين الإهباط إلى عالم الحسّ و الجسم و الخيال، أن ترجع إليه سالمة من سخطه، عاملة بأوامره، غير منحرفة عن صراطه الموضوع على لسان رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإن وفت بعهدها خرجت من وثاق الرّهن، وضوعف لها الأجر كما قال الله سبحانه: «و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» و إن نكثت و ارتكبت ما نهيت عنه بقيت رهينة بعملها كما قال تعالى: «كلّ نفس بما كسبت رهينة» المدّثّر:۳۸).

و في تحف العقول:- باب ما روى عن الإمام الجواد﴿عليه السلام﴾- قال الإمام التّاسع محمّد بن عليّ الجواد﴿عليه السلام﴾: «كانت مبايعة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ النساء أن يغمس يده في إناء فيه مآء ثمّ يخرجها و تغمس النّسآء بأيديهنّ في ذلك الإناء بالإقرار و الايمان بالله والتّصديق برسوله على ما أخذ عليهنّ».

و في قرب الاسناد:- باب بيعة النسآء- بإسناده عن الحسين بن عليّ عن أبيه عليهما السلام: قال: كان رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ لايصافح النّسآء فكان إذا أراد أن يبايع النّسآء أتى بإناء فيه مآء،فيغمس يده ثمّ يخرجها ثمّ يقول: اغمسنّ أيديكنّ فيه فقد بايعتكنّ».

و في خطبة الغدير: «قال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في خطبته يوم الغدير: «... معاشر النّاس! قد بيّنتُ لكم، و أفهمتكم، و هذا عليّ يُفهمكم بعدي، ألا و إنّي عند انقضآء

خطبتي أدعوكم إلى مصافقتي على بيعته و الإقرار به، ثمّ مصافقته بعدي، ألا و إنّي قد بايعت الله، و عليّ قد بايعني، و أنا آخذكم بالبيعة له عن الله عزّوجلّ: «و من نكث فانّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» إلى أن قال﴿ﷺ﴾: «... فأُمرت أن آخذ بالبيعة منكم و الصّفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله عزّوجلّ في عليّ أميرالمؤمنين والأئمّة من بعده الّذي منّي و منه أُمّة قائمة، منهم المهديّ إلى يوم القيامة الّذي يقضي بالحقّ- إلى أن قال -: معاشر النّاس! إنّكم أكثر من أن تصافقوني بكف واحدة، و قد أمرني الله عزّوجلّ أن آخذ من ألسنتكم الإقرار بما عقدت لعليّ من إمرة المؤمنين و من جآء بعده من الأئمّة منّي و من عليّ، و أمرِ وُلده من صلبه من الأئمّة: نبايعك على ذلك بقلوبنا و أنفسنا و ألسنتنا و أيدينا- إلى أن قال-: و من بايع فإنّما يبايع الله يدالله فوق أيديهم.

معاشر النّاس! فاتّقوا الله و بايعوا عليّاً أميرالمؤمنين و الحسن و الحسين و الأئمّة كلمة طيّبة باقية يهلك الله من غدر، و يرحم الله من وفى: «و من نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» الخطبة الّتي رواها الفريقان في مسانيدهم بسند متواتر لايشكّ فيها إلاّ الكافر أو المنافق أو ولد الزّنا أو ولد الحيض أو كان عميلاً لأعداء الاسلام و المسلمين أو متخبّطاً عقله و إن كان أليفاً بالاصطلاحات العلميّة...

و **في البحار**:- تاريخ الإمام الثّاني عشر- باب ٢٥- ما يكون عند ظهور الإمام المهدي﴿ع﴾ - برواية المفضّل بن عمر عن الإمام الصّادق﴿ع﴾- حديث طويل- قال المفضّل: يا سيّدي فبغير سنّة القآئم﴿ع﴾ بايعوا له قبل ظهوره و قبل قيامه؟ فقال﴿ع﴾: يا مفضّل كلّ بيعة قبل ظهور القآئم فبيعته كفر و نفاق و خديعة، لعن الله المبايع لها، و المبايع له، بل يا مفضّل يُسند القآئم﴿ع﴾ ظهره إلى الحرم، و يمدّ يده (إلى البيعة خ) فُترى بيضاء من غير سوء (لدي طلوع الشّمس خ) و يقول: هذه يدالله و عن الله و بأمرالله ثمّ يتلو هذه الآية: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه».

فيكون أوّل من يقبّل يده جبرئيل﴿عليه السلام﴾ ثمّ يبايعه و تبايعه الملائكة و نجبآء الجنّ، ثمّ النّقبآء و يصبح النّاس بمكّة، فيقولون: من هذا الرّجل الّذي بجانب الكعبة؟ و ما هذا الخلق الّذين معه؟ و ما هذه الآية الّتي رأيناها اللّيلة و لم تُرَ مثلها؟ فيقول بعضهم لبعض: هذا الرّجل هو صاحب العُنيزات...» الحديث.

«العنيزات»: جمع عُنَيزة و هي تصغير عنز، انثى المعز، و لأجل هز الها، سمّاها عنيزات.

و في **وسائل الشّيعة**: بالاسناد عن العزرمي عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّما سمّيت مكّة بكّة لأنّ النّاس يتباكون فيها».

و فيه: بالاسناد عن عبدالله بن سنان قال: سئلت أبا عبدالله﴿عليه السلام﴾ لِمَ سمّيت الكعبة بكّة؟ فقال: لبكآء النّاس حولها و فيها».

و في **تفسير القمي**: و لمّا رجع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة من الحديبيّة غزا خيبراً فاستأذنوه المخلّفون من الأعراب أن يخرجوا معه، فقال الله عزّوجلّ: «سيقول المخلّفون إلى مغانم لتأخذوها- إلى قوله- لا يفقهون إلاّ قليلاً» ثمّ قال: «قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد- إلى قوله -و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً» ثمّ رخّص عزّوجلّ في الجهاد، فقال: «ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج و من يطع الله و رسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار» ثمّ قال: «و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً» ثمّ قال: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه و كفّ أيدى النّاس عنكم» يعني فتح خيبر «و لتكون آية للمؤمنين» ثمّ قال:

«و اخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كلّ شئ قديراً» ثمّ قال: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم» أي: من بعد أن أممتم من المدينة إلى الحرم، و طلبوا منكم الصّلح بعد أن كانوا يغزونكم بالمدينة صاروا يطلبون الصّلح بعد أن كنتم أنتم تطلبون الصّلح منهم، ثمّ أخبر الله عزّوجلّ نبيّه بعلّة الصّلح، و ما أجاز الله لنبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال: «هم الّذين كفروا و صدّوكم

عن المسجد الحرام و الهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات» يعني: بمكّة «لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم» فأخبر الله نبيّه أنّ علّة الصّلح إنّما كان للمؤمنين و المؤمنات الّذين كانوا بمكّة، و لو لم يكن صلح و كانت الحرب لقتلوا، فلمّا كان الصّلح آمنوا و أظهروا الإسلام، و يقال: إنّ ذلك الصّلح كان أعظم فتحاً على المسلمين من غلبهم، ثمّ قال: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» يعني: هؤلآء الّذين كانوا بمكّة من المؤمنين و المؤمنات يعني لو زالوا عنهم و خرجوا من بينهم: «لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليما».

و في كتاب **الجمل** للشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه: «و روى الثّوريّ عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: لقد رأيت بالبصرة عجباً، لمّا قدم طلحة والزّبير قد أرسلا إلى أناس من أهل البصرة و أنا فيهم، فدخلنا بيت المال معهما، فلمّا رأيا ما فيه من الأموال قالا: هذا ما وعدنا الله و رسوله، ثمّ تليا هذه الآية: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه» إلى آخر الآية، و قالا: نحن أحقّ بهذا المال من كلّ أحد، فلمّا كان من أمر القوم ما كان دعانا عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فدخلنا معه بيت المال فلمّا رأى ما فيه ضرب إحدى يديه على الاخرى، و قال: «يا صفرآء يا بيضآء غرّي غيري» و قسّمه بين أصحابه بالسّويّة حتّى لم يبق إلاّ خمسمأة درهم عزلها لنفسه، فجآءه رجل فقال: إنّ اسمي سقط من كتابك، فقال﴿عليه السلام﴾: «رُدُّوها عليه» ثمّ قال: «الحمد لله الّذي لم يصل إلَيَّ من هذا المال شئ، و وفّره على المسلمين».

و في كتاب **مناقب الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾** – للحافظ محمّد بن سليمان الكوفي من أعلام القرن الثّالث – حديث ۸۲۰) باسناده عن حميد الهلالي عن اُمّ راشد مولاة اُمّ هانئ بنت أبي طالب﴿عليها السلام﴾ أنّ عليّاً دخل على اُمّ هانئ بنت أبي‌طالب﴿عليها السلام﴾ فقال: مالي لا أرى عندكم بركة؟ فقالت اُمّ هانئ: كفى بأميرالمؤمنين بركة، فقال: لست أعني هذه إنّما أعني الشّاة، قالت: فقرّبت له طعاماً فأكل، ثمّ استسقى، فذهبت للماء، فإذاً رجلان على باب الحجرة فاستئذنا فأذن لهما، قالت: فنزلت إلى أسفل الدّار، فأبطأت و الله بالماء، فصعدا الدّرج و أحدهما يقول لصاحبه: إنّما بايعته أيدينا و لم يبايعه قلوبنا!!!

قالت: فأتيته بالماء، فوضعت القدح بين يدي عليّ صلوات الله عليه، قالت: فقلت له: جعلت لك الفدآء إنّي سمعت هذين الرّجلين يقولان: إنّما بايعته أيدينا و لم يبايعه قلوبنا، قالت: فقرأ عليّ ﴿عليه السلام﴾ هذه الآية: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم» فقرأ الآية الكريمة حتّى ختمها.

قال: «فقلت لأُمّ هانئ: مَن هذان الرّجلان؟ قالت: طلحة و الزّبير، فعرفتهما حتّى هلكا»

أقول: رواه جماعة من أعاظم العامّة و حملة آثارهم في مسانيدهم و مآخذهم بأسانيد متعدّدة على اختلاف يسير:

منهم: الطّبراني في (المعجم الأوسط: ج ٣ ص ٣٣١ حديث ٢٧٠٧).

و منهم: ابن أبي شيبة في كتاب (الأُمراء رقم ١٠٦٤٣) و في أوائل كتاب (الفتن تحت الرقم (١٩٦٢٢) من كتاب المصنّف: (ج ١١ ص ١٠٥ حديث ٢٦٢).

و في كتاب **مناقب الإمام** أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ - للحافظ محمّد بن سليمان الكوفى من أعلام القرن الثّالث - حديث ١٢٧) باسناده عن أبي أيّوب الأنصارى قال: خرج علينا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم عرفة فقال: «يا أيّها النّاس! إنّ الله باهىٰ بكم الملائكة في هذا اليوم، فغفر لكم عامّة و غفر لعليّ خاصّة، فأمّا العامّة منكم فمن لم يحدث بعدي أحداثاً و هو قول الله: «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه» و أمّا الخاصّة فطاعته طاعتي - يعني عليّاً - و من عصاه فقد عصاني. ثمّ قال له: قم يا عليّ فقام عليّ حتّى وضع كفّه في كفّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم عامّة، و طاعتي عليكم مفروضة ألا و إنّي غير محابّ لقومي و لا محابّ لقرابتي، و إنّما أنا رسول الله و ما على الرّسول إلّا البلاغ المبين.

ألا و إنّ هذا جبرئيل يخبرني عن ربّي: أنّ السّعيد كلّ السّعيد من أحبّ عليّاً في حياتي و بعد مماتي، ألا و إنّ الشّقيّ حقّ الشّقيّ من أبغض عليّاً في حياتي و بعد وفاتي».

أقول: «ألا يا أيّها العامّة، و علمآئهم و حملة آثارهم خاصّة أنشدكم بالله جلّ وعلا! أو لم تكن السّقيفة السّخيفة و آثارها السّوءمة على الإسلام و المسلمين حتّى اليوم موجبة لبغض عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾؟!

أو لم يكن غصْب الخلافة، و ضرب عمر بن الخطّاب، الصّـدّيقة الطّـاهرة فـاطمة الزّهراء سلام الله عليها و إحراق بيتها و إسقاط جنينها، و قد ماتت و هي ساخطة على أبي‌بكر و عمر بن الخطّاب سبباً لبغض عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾؟!

أو لم يكن غصب فدك و منع الإرث و تحـريم الخـمس عـلى أهـل بـيت الوحـي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين بعد وفاة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأيّام قـليلة سـبباً لبغض عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾؟

أو لم تكن غزوة الجمل و قتال صفّين، و أمر معاوية بن أبي‌سفيان عمّاله بلعن عليّ بن أبـيطالب ﴿عليه السلام﴾ عـلى المـنابر حـتّى بـلغت سـبعين ألفـاً مـوجبة لبـغض عـليّ بـن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾؟!

أو لم تكن شهادة سبط رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ الحسن المجتبى ﴿عليه السلام﴾ بالسّمّ و رمي نعشه بأمر عائشة بنت أبي‌بكر، و قتل الحسين بن عليّ ﴿عليه السلام﴾ و أصحابه و أطفاله بكربلاء و إسارة أهل بيته بأمر يزيد بن معاوية، موجبة لبغض عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾؟؟؟!!!

و **لعمري!** لو لم تكن تلك الجنايات و الآلاف من أمثالها علامة لشقآء أصـحاب السّقيفة و أتباعها لكان الشّيطان من أسعد السّعدآء، و أعدل العادلين...!

و في **الإحتجاج** - باب احتجاج أميرالمـؤمنين عـليّ ﴿عليه السلام﴾ عـلى زنـديق في آي متشابة حديث طويل -: «... و أمّا ما ذكرته من الخطاب الدّالّ على تهجين النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الازراء به و التّأنيب له، مع ما أظهره الله تعالى في كتابه من تفضيله إيّاه على سآئر أنبيآئه فإنّ الله عزّوجلّ جعل لكلّ نبيّ عدوّاً من المشركين كما قال في كتابه و بحسب جلالة منزلة نبيّنا ﴿صلى الله عليه و آله﴾ عند ربّه، كذلك عظّم محنته لعدوّه الّذي عاد منه في شقاقه و نفاقه كلّ أذى و مشقّة لدفع نبوّته و تكذيبه إيّاه وسعيه في مكارهه، و قصده لنقض كلّ ما أبرمه، و اجتهاده و من مالأه على كفره و فساده (عناده خ) و نفاقه و إلحاده في إبطال دعواه و تغيير ملّته، و مخالفته سنّته، و لم يرشيئاً أبلغ في تمام كبده من تـنفيرهم عـن موالاة وصيّه، و ايحاشهم منه، و صدّهم عنه، و إغرآئهم بعداوتـه، و القـصد لتـغيير الكتاب الّذي جآء به، و إسقاط ما فيه من فضل ذوي الفضل و كفر ذوي الكفر منه، و ممّن وافقه على ظلمه و بغيه و كفره.

و لقد علم الله بذلك منهم، فقال: «إنّ الّذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا» و قال: «يريدون أن يبدّلوا كلام الله»...» الحديث.

في حقائق التّأويل في متشابه التنزيل للسّيّد الشّريف الرّضي رضوان الله تعالى عليه قال: «و قد تجيئ الكلمة بمعنى الشّريعة و الأوامر المفترضة، و ذلك كقوله تعالى: «و صدّقت بكلمات ربّها و كتبه و كانت من القانتين» التحريم: ١٢) أي بشرائعه و أوامره، و مثل ذلك قوله سبحانه في السّورة الّتي يذكر فيها الفتح: «يريدون أن يبدّلوا كلام الله»: ١٥) و «كَلِمَ الله» على اختلاف القرائتين أى أوامر الله و فرآئضه...».

و في كشف الغمّه: قوله تعالى: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» نزلت في أهل الحديبيّة، قال جابر: كنّا يومئذ ألفاً و أربع مأة، قال لنا النبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أنتم اليوم خيار أهل الأرض، فبايعنا تحت الشّجرة على الموت.

و أولى النّاس بهذه الآية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لأنّه تعالى قال: «و أثابهم فتحاً قريباً» يعني فتح خيبر، و كان ذلك على يد عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾».

أقول: «و في تعليق الرّضا على الايمان إشعار على علّيّة الايمان للرّضا، و فيه دلالة على أنّ هؤلآء المبايعين لم يكونوا كلّهم مؤمنين، مع كون الرّضا مشروطاً بالوفاء و عدم النّكث كما يدلّ عليه قوله تعالى: «فمن نكث...» فهو مبغوض عند الله جلّ وعلا، و كانت مبايعتهم بلسانهم كفراً و نفاقاً دون قلوبهم ايماناً كما دلّت عليه الرّوايات السّابقة...

هذه بيعة الرّضوان اشترط عليهم أن لاينكروا بعد ذلك على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ شيئاً يفعله، و لايخالفوه في شئ يأمرهم به، و قد أنكر عمر بن الخطّاب بعد البيعة على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمرّات، و خالفه فيما يأمرهم بكرّات كما ورد عن طريق العامّة، فهو و أذنابه خارجون عن زمرة المؤمنين من دون ريبة و لا خلاف.

و في الدّرالمنثور: أخرج ابن أبيحاتم عن ابن عبّاس في قوله تعالى: «فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم» قال: إنّما أُنزلت السّكينة على من علم منه الوفاء».

و في كتاب مناقب الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - للحافظ محمّد بن سليمان الكوفى من أعلام القرن الثّالث - حديث ٢٩٨) بإسناده عن ابن عبّاس في قول

الله: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنـزل السّكينة عليهم» قال: عليّ من علم منه الوفاء».

و في عدد المؤمنين اختلاف، ففي بعض الرّوايات أنّهم كانوا ألفاً و مأتين أو ألفاً و أربع مأة، و في بعضها ألفاً و خمسمأة، و في بعضها ألفاً و ثلاث مأة، و في بعضها ألفاً و ثمان مأة و في بعضها: ألفين و خمسمأة... و كذا كون البيعة على أن لايفرّوا، و في بـعضها عـلى الموت.

و في **الاحتجاج**:- حديث طويل- قال الإمام الحسن بن عـليّ عـليهما السـلام لمعاوية بن أبي‌سفيان عليهما الهاوية و النّيران: «لعن رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ أباسفيان في ستّة مواطن‌إلى أن قال-: و الخامسة قول الله عزّوجلّ: «و الهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه» و صددت أنت و أبوك و مشركوا قريش رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ فلعنه لعنة شملة و ذرّيّته إلى يوم القيامة».

و في **العلل**: بإسناده عن ابن أبي عمير عمّن ذكره عن أبي عبدالله﴿علیه السلام﴾ قال: قلت له: ما بال أميرالمؤمنين﴿علیه السلام﴾ لم يقاتل مخـالفيه في الأوّل؟ قـال: لآيـة في كـتاب الله عزّوجلّ: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» الفتح: ۲۵).

قال: قلت: و ما يعني بتزايلهم؟ قال: ودائع المؤمنون في أصلاب قوم كافرين، فذلك القائم﴿علیه السلام﴾ لن يظهر أبداً حتّى تخرج ودائع الله عزّوجلّ فإذا خرجت على مَن ظهر من أعداء الله عزّوجلّ جلاله فقتلهم».

أقول: إنّ الودائع الاولى: هي النّطف المؤمنة تخرج من أصلاب كـافرة، و الودائـع الأخيرة: هم أنصار المهديّ﴿علیه السلام﴾ و من كان غيرهم من المؤمنين في أصلاب الكافرين لم‌يقتلهم أميرالمؤمنين﴿علیه السلام﴾ حتّى تتحدّر منهم ذرّيّاتهم المؤمنة الّتي تحملها أصلابهم أو ستحملها أصلاب أعقابهم...

و في **تفسير القمي**: بإسناده عن عبدالله بن الحسين عن بعض أصحابه عن فلان الكرخي قال: قال رجل لأبي عبدالله﴿علیه السلام﴾: ألم يكن عليّ قويّاً في بدنه، قويّاً في أمر الله؟ قال له أبوعبدالله﴿علیه السلام﴾، بلى! قال له: فما منعه أن يدفع أو يمتنع؟ قال: قد سئلت فافهم

الجواب، منع عليّاً من ذلك آية من كتاب الله، فقال: و أيّ آية؟ فقرأ: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» إنّه كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين و منافقين، فلم يكن عليّ(عليه السلام) ليقتل الآباء حتّى يخرج الودائع فلمّا خرج ظهر على من ظهر و قتله، و كذلك قائمنا أهل البيت لم يظهر أبداً حتّى تخرج ودائع الله، فإذا خرجت يظهر على من يظهر فيقتله».

و في **إكمال الدّين**: بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبدالله(عليه السلام) في قول الله عزّوجلّ: «لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً» قال: لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين، و ما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذّبنا الّذين كفروا».

٢٦- (إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها و كان الله بكلّ شئ عليماً)

في **تفسير القمي**: قال عليّ بن إبراهيم، ثمّ قال: «إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة» يعني قريشاً و سهيل بن عمرو حين قالوا لرسول الله(صلى الله عليه و آله): لا نعرف الرّحمن الرّحيم، و قولهم: لو علمنا أنّك رسول الله ما حاربناك فاكتب محمّد بن عبدالله».

و في **الخصال**: بإسناده عن سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبدالله(عليه السلام) و عنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل و الجهل، فقال أبوعبدالله(عليه السلام): اعرفوا العقل و الجهل- إلى أن قال-: و الإنصاف و ضدّه الحميّة».

و فيه: عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: كان رسول الله(صلى الله عليه و آله) يتعوّذ في كلّ يوم من ستّ خصال: من الشّك و الشّرك و الحميّة و الغضب و البغي و الحسد».

و في **اصول الكافي**: بإسناده عن السّكوني عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه و آله): «من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبيّة، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهليّة».

و فيه: بإسناده عن الزّهري قال: سئل عليّ بن الحسين﴿عليه السلام﴾ عن العصبيّة، فقال: «العصبيّة الّتي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرّجل شرار قومه خيراً عن خيار قوم آخرين، و ليس من العصبيّة أن يحبّ الرّجل قومه، و لكن من العصبيّة أن يعين قومه على الظّلم».

و في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «... فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلاّ إبليس، اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، و تعصّب عليه لأصله فَعَدُوُّ الله إمام المتعصّبين، و سلف المستكبرين، الّذي وضع أساس العصبيّة، و نازع الله ردآء الجَبَرِيّة- صَدَّقَهُ به أبنآءُ الحميّة و إخوان العصبيّة، و فرسان الكبر و الجاهليّة- فإنّما تلك الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشّيطان و نخواته و نزعاته و نفثاته- و لا تكونوا كالمتكبّر عن ابن أُمّه من غير ما فضلٍ جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، و قدحت الحميّة في قلبه من نار الغضب، و نفخ الشّيطان في أنفه من ريح الكبر الّذي أعقبه الله به النّدامة و ألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة...

فالله الله في كِبْر الحميّة، و فخر الجاهليّة، فإنّه ملاقح الشّنآن، و منافخ الشّيطان، الّتي خدع بها الامم الماضية و القرون الخالية، حتّى أعنقوا في حنادس جهالته و مهاوى ضلالته ذُلُلاً عن سياقه، سُلُساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه، و تتابعت القرون عليه و كبراً تضايقت الصّدور به، ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم و كبرائكم الّذين تكبّروا عن حسبهم و ترفّعوا فوق نسبهم، و ألقوا الهجينة على ربّهم، و جاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضآئه، و مغالبة لآلآئه، فإنّهم قواعد أساس العصبيّة، و دعآئم أركان الفتنة و سيوف اعتزآء الجاهليّة...

و لقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشئ من الأشيآء إلاّ عن علّة تحتمل تمويه الجهلآء، أو حجّة تليط بعقول السّفهآء، غيركم، فإنّكم تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب و لا علّة، أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله، و طعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناريّ و أنت طينيّ، و أمّا الأغنيآء من مترفة الأُمم، فتعصّبوا لآثار مواقع

النّعم، فقالوا: «نحن أكثر أموالاً و أولاداً و ما نحن بمعذّبين» فإن كان لابدّ من العصبيّة فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، و محامد الأفعال، و محاسن الأُمور الّتي تفاضلت فيها المُجَدآء و النّجداء من بيوتات العرب و يعاسيب القبائل بالأغلاق الرّغيبة و الأخلاق العظيمة و الأخطار الجليلة، و الآثار المحمودة، فتعصّبوا لخلال الحمد: من الحفظ للجوار، و الوفآء بالذّمام، و الطّاعة للبرّ، و المعصية للكبر، و الأخذ بالفضل و الكفّ عن البغي، والإعظام للقتل، و الإنصاف للخلق، و الكظم للغيظ، و اجتناب الفساد في الأرض...»
الخطبة القاصعة: رقم ٢٣٤).

و في اصول الكافي:- كتاب الايمان و الكفر- باب دعآئم الكفر و شعبه- حديث ١) باسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن أبي أميرالمؤمنين صلوات الله عليه- إلى أن قال ﴿عليه السلام﴾: «و الحفيظة على أربع شعب: على الكبر و الفخر و الحميّة و العصبيّة، فمن استكبر أدبر عن الحقّ، و من فخر فجرو من حمى أصرّ على الذّنوب و من أخذته العصبيّة جار، فبئس الأمر أمر بين إدبار و فجور و إصرار و جور على الصّراط...» الحديث.

و في الشّرح: «و العصبيّة: الأقارب من جهة الأب، و العصبيّة حمايتهم و الدّفع عنهم، و التّعصّب المحاماة و المدافعة، و هي و الحميّة من توابع الكبر، و كأنّ الفرق بينهما أنّ الحميّة للنّفس، و العصبيّة للأقارب، أو الحميّة للأهل و العصبيّة للقبيلة.

«فمن استكبر أدبر عن الحقّ» لتكبّره عن طاعة أئمّة الحقّ و التذلّل عند ظهوره «و من فخر فجر» أي كذب أو أذنب بوقوعه في المحارم، «و من حمى أصرّ» أي على الذّنوب الّتي توجبها الحميّة من الشّتم و الضّرب و القتل و إنكار الحقّ و تقوية الباطل «جار» أي مال عن الحقّ و ظلم و تعدّى لرعاية العشيرة و القبيلة».

و في كنز الفوائد: عن مالك بن عبدالله قال: قلت لمولاي الرّضا ﴿عليه السلام﴾: قوله تعالى «و ألزمهم كلمة التّقوى» قال: «هي ولاية أميرالمؤمنين ﴿عليه السلام﴾».

فالمعنى: أنّ الملزمين بها شيعته ﴿عليه السلام﴾ «كانوا أحقّ بها و أهلها».

و في أمالي الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه بإسناده عن أبيجعفر عن آبائه

عليهم السّلام قال: قال رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾: إنّ الله عهد إليّ عهداً فقلت: ربّ بيّنه لي، قال: اسمع، قلت: سمعت قال: يا محمّد إنّ عليّاً راية الهدى بعدك، و إمام أوليآئي و نور من أطاعني و هو الكلمة الّتي ألزمها الله تعالى المتّقين، فمن أحبّه فقد أحبّني و من أبغضه فقد أبغضني، فبشّره بذلك».

و في التّوحيد: بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله ﴿علیه السلام﴾ قال: قال أميرالمؤمنين في خطبته: «أنا عروة الله الوثق و كلمته التّقوى...» الحديث.

و في كشف اليقين: - في حديث المعراج - حديث طويل -: «... قال ﴿صلی الله علیه و آله﴾: فقال لي ربّي: و عزّتي و جلالي و جودي و مجدي و قدرتي على خلقي لا أقبل الايمان بي و لا بأنّك نبيّ إلاّ بالولاية له، يا محمّد أتحبّ أن تراه في ملكوت السّمآء قال: فقلت: ربّي و كيف لي به و قد خلّفته في الأرض؟ قال: فقال لي: يا محمّد ارفع رأسك، قال: فرفعت رأسي، فإذاً أنا به مع الملائكة المقرّبين ممّا يلي السّمآء الأعلى، قال: فضحكت حتّى بدت نواجدي، قال: فقلت: يا ربّ اليوم قرّت عيني قال: ثمّ قيل لي: يا محمّد، قلت: لبّيك ذا العزّة لبّيك، قال: إنّي أعهد إليك في عليّ عهداً فاسمعه قال: قلت: ما هو يا ربّ؟ قال: عليّ راية الهدى و إمام الأبرار و قاتل الفجّار و إمام من أطاعني، و هو الكلمة الّتي ألزمتها المتّقين، أورثته علمي و فهمي، فمن أحبّه فقد أحبّني، و من أبغضه فقد أبغضني، إنّه مبتلى و مبتلى به، فبشّره بذلك يا محمّد.

قال: ثمّ أتاني جبرئيل ﴿علیه السلام﴾ قال: فقال لي: يقول الله لك يا محمّد: «و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها» ولاية عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾...» الحديث.

و في البحار: عن سلام بن سويد عن عليّ ﴿علیه السلام﴾ في قوله: «و ألزمهم كلمة التقوى» قال: هي «لا إله إلاّ الله و الله أكبر» قال: هي آية النّصر».

أقول: إنّ الجمع بين هذه الرّواية و ما قبلها كالجمع بين قول الله عزّوجلّ: «كلمة لا إله إلاّ الله حصنى فمن دخل حصني أمن من عذابي» و قوله تعالى: «ولاية عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾ حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

و في البحار: «في قوله تعالى: «و على المؤمنين» أي أنزل عليهم الثّبات و الوقار «و

ألزمهم كلمة التقوى» أي كلمة بها يتّقى من النّار أو هي كلمة أهل التّقوى، و قال الأكثر: هي كلمة الشّهادة. و روى ذلك عن النّبيّ﴿ﷺ﴾ و عن الصّادق﴿ع﴾، هي الايمان، و عن النّبيّ﴿ﷺ﴾ في وصف عليّ﴿ع﴾ هو الكلمة الّتي ألزمتها المتّقين.

و في أخبار كثيرة عنهم عليهم السلام: «نحن كلمة التّقوى» أي ولايتهم «و كانوا أحقّ بها» أي بتلك الكلمة من غيرهم «و أهلها» أي المستأهل لها «و كان الله بكلّ شئ عليماً» فيعلم أهل كلّ شئ و يُيَسّره له».

و في **العلل**: بإسناده عن الحسن بن عبدالله عن آبآئه عن جدّه الحسن بن عليّ﴿ع﴾ عن النبيّ﴿ﷺ﴾ - في حديث يفسّر فيه: «سبحان الله و الحمد الله و لا إله إلاّ الله و الله أكبر» قال﴿ﷺ﴾: و قوله: لا إله إلاّ الله يعني وحدانيّته لا يقبل الله الأعمال إلاّ بها، و هي كلمة التّقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامه».

و في **الخصال**: عن ابن عبّاس عن النّبي﴿ﷺ﴾ أنّه قال في خطبته: «نحن كلمة التّقوى و سبيل الهدى».

و في **التّوحيد**: «بإسناده عن أبي‌بصير عن أبي عبدالله﴿ﷺ﴾ قال: قال أميرالمؤمنين﴿ع﴾ في خطبته: «أنا عروة الله الوثق و كلمة التّقوى».

و في **إكمال الدّين**: عن الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا﴿ع﴾ قال: «نحن كلمة التّقوى و العروة الوثق».

و في **تفسير القميّ**: خطبة له﴿ﷺ﴾ و فيها: «و أولى القول: كلمة التّقوى».

و في **اللوامع النّورانيّة**: بالاسناد عن أبي‌جعفر﴿ع﴾ عن آبآئه قال: قال رسول الله﴿ﷺ﴾: «إنّ الله عهد إليّ عهداً، فقلت: ربّ بيّنه لي؟ قال: اسمع! قلت: سمعت، قال: يا محمّد! إنّ عليّاً راية الهدى بعدك و إمام أوليآئي، و نور من أطاعني و هو الكلمة الّتي ألزمها الله المتّقين، فمن أحبّه فقد أحبّني، و من أبغضه فقد أبغضني، فبشّره بذلك».

فيكون المراد بالمتّقين شيعته الّذين ألزمهم كلمته، و فرض عليهم ولايته، فقبلوها و والوا بولايته ذرّيّته الّذين أكمل بهم دينه و أتمّ نعمته، و منحهم فضله، و جعل عليهم صلواته و سلامه و تحيّته و بركاته التّامّة العامّة و رحمته».

٢٧- (لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل مـن دون ذلك فتحاً قريباً)

في تفسير القمي: و أنزل في تطير (تطهير ك خ) و (تظهيره خ) الرّؤيا الّتي رآهـا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ- إلى قوله- فتحاً قريباً) يعني: فتح خيبر لأنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لمّا رجع من الحديبيّة غزا خيبر.

و في الإحتجاج: روى- حديث طويل- عن موسى بن جعفر عليهما السلام عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن عليّ عليهما السلام: «... فقال اليهوديّ: فإنّ يوسف ﴿عليه السلام﴾ قاسى مرارة الفرقة، و حبس في السّجن توقّياً للمعصية، فالقى في الجبّ وحيداً، قال له عليّ ﴿عليه السلام﴾: لقد كان كذلك، و محمّد ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قاس مرارة الغربة، و فارق الأهل و الأولاد و المال مهاجراً من حرم الله تعالى و أمنه، فلمّا رأى الله عزّوجلّ كأبته و استشعاره الحزن أراه تبارك و تعالى اسمه رؤيا توازي رؤيا يوسف ﴿عليه السلام﴾ في تأويلها، و أبان للـعالمين صدق تحقيقها، فقال: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ...» الآية.

قوله ﴿عليه السلام﴾: «كأبته» الكأبة: الغـم و سـوء الحـال و الانكسـار مـن الحـزن، و «استشعاره الحزن» أي جعله شعار قلبه.

و في البحار:- تاريخ نبيّنا ﴿صلى الله عليه وآله﴾- باب ٢٨- في غزوة حنين و الطّآئف- حديث ٩) فروى جابر بن عبدالله قال: لمّا خلا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ يوم الطّائف أتاه عمر بن الخطّاب فقال: أتناجيه دوننا؟ و تخلو به دوننا؟ فقال: يا عمر ما أنا انتجيته، بل الله انتجاه، قال: فأعرض و هو يقول: هذا كما قـلت لنـا يـوم الحـديبيّة: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محـلّقين» فـلم نـدخله، و صـددنا عـنه، فناداه ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «لم أقل لكم إنّكم تدخلونه ذلك العام».

أقول: إنّ هذا اعتراض من عمر بن الخطّاب على رسـول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و تكـذيبه بكلام الله تعالى و رسوله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كاعتراضه عليه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و تكذيبه صلح الحديبيّة و غيره من اعتراضاته على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و تكـذيبه بكـلام الله جـلّ وعلا بمـوارد كثيرة...

و قد قال الله تعالى: «و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحى يوحى علّمه شديد القوى» النّجم: ٣-٥).

و قال: «و ما آتاكم الرّسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب» الحشر: ٧).

و قال: «من يطع الرّسول فقد أطاع الله» النّسآء: ٨٠).

و في **الإرشاد** للشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه- فصل اعتراض عمر على النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في مناجاته عليّاً﴿عليه السلام﴾ -: فروى عبدالرّحمن بن سيابة و الأجْلَح- جميعاً - عن أبي الزّبير عن جابر بن عبدالله الأنصاري: أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ لمّا خلا بعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يوم الطّائف، أتاه عمر بن الخطّاب، فقال: أتناجيه دوننا و تخلو به دوننا؟ فقال: «يا عمر ما أنا انتجيته بل الله انتجاه».

قال: «فأعرض عمر و هو يقول: هذا كما قلت لنا قبل الحديبيّة: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين» فلم ندخله و صُدِدْنا عنه، فناداه النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لم أقل: إنّكم تدخلونه في ذلك العام»».

و في **بشارة المصطفى**: بإسناده عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: لا يؤمن رجل حتّى يحبّ أهل بيتي، و حتّى يدع المراء و هو محقّ، فقال عمر بن الخطّاب: ما علامة حبّ أهل بيتك؟ قال: هذا، و ضرب بيده على عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾».

و في **وسائل الشّيعة**:- باب (٦٢) من آداب الحمّام- عن أبي‌بصير قال: قلت لأبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ الفرق من السّنّة؟ قال: لا، قلت: فهل فرق رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾؟ قال: نعم، قلت: كيف فرق رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و ليس من السّنّة؟ قال: من أصابه ما أصاب رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و فرق كما فرق رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقد أصاب سنّة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و إلاّ فلا، قلت: كيف ذلك؟ قال: إنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حين صُدّ عن البيت، و قد كان ساق الهدي، و أحرم أراه الله الرّؤيا الّتي أخبرك بها في كتابه إذ يقول: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤوسكم و مقصّرين» فعلم رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنّ الله سيفي له بما أراه، فمن ثمّ وفّر ذلك الشّعر الّذي كان على

رأسه حين أحرم، انتظاراً لحلقه في الحرم حيث وعده الله، فلمّا حلقه لم يعد في توفير الشّعر و لا كان ذلك من قبله».

و في الوافي: قال: و نعم ما قال-: قيل: إنّ الحلق كان في الجاهليّة عاراً عظيماً في العرب، فلمّا جآء الاسلام و فرض الحجّ و صار سنّة لم يجدوا بدّاً من فعله حين يحجّون أو يعتمرون، و لكنّه كان كبيراً عليهم في غيرهما و لمّا رأى النّبيّ﴿ﷺ﴾ ذلك منهم أمرهم بتربية الشّعر لئلاً يكونوا شعثاً ذوي قمّل، ثمّ إنّ منهم من حلق و منهم من ترك الشّعر حتّى آل الأمر إلى أن صار الحلق شعاراً للشّيعة لأنّ أئمّتهم عليهم السلام كانوا محلّقين اسوة برسول الله﴿ﷺ﴾ و خلافه شعاراً لمخالفيهم لأنّ أئمّتهم لحميّتهم الجاهليّة يعدّونها مثلة لارتدادهم إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام» انتهى كلامه.

و في الوسائل:- باب (٦٢) من آداب الحمّام- عن عمرو بن ثابت عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: قلت: إنّهم يروون أنّ الفرق من السّنّة، قال: من السّنّة، قلت: يزعمون أنّ النّبيّ﴿ﷺ﴾ فرق، قال: ما فرق النّبيّ﴿ﷺ﴾ و لا كانت الأنبيآء تمسك الشّعر».

و في المعاني الأخبار:- آخر أحاديث الكتاب- بإسناده عن الحسن بن زياد العطّار قال: قلت لأبي عبدالله﴿عليه السلام﴾: إنّهم يقولون لنا: أمؤمنون أنتم؟ فنقول: نعم إن شآء الله تعالى، فيقولون: أليس المؤمنون في الجنّة؟ فنقول: بلى، فيقولون: أفأنتم في الجنّة؟ فإذا نظرنا إلى أنفسنا ضعفنا و انكسرنا عن الجواب، قال: فقال: إذا قالوا لكم: أمؤمنون أنتم؟ فقولوا: نعم إن شآء الله، قال: قلت: و إنّهم يقولون: إنّما استثنيتم لأنّكم شكّاك، قال: فقولوا: و الله ما نحن بشكّاك، و لكنّا استثنينا كما قال الله عزّوجلّ: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين» و هو يعلم أنّهم يدخلونه أوّلاً، و قد سمّى الله عزّوجلّ المؤمنين بالعمل الصّالح «مؤمنين» و لم يسمّ من ركب الكبآئر و ما وعد الله عزّوجلّ عليه النّار في قرآن و لا أثر، و لا تسمّهم (و لا نسمّيهم خ) بالايمان بعد ذلك الفعل».

قوله﴿عليه السلام﴾: «بالايمان» متعلّق بقوله: «لم يسمّ» و «لا نسمّيهم» معاً على التّنازع.

و في التهذيب: بالاسناد عن جابر عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ و إبراهيم بن عمر عن أبان

رفعه إلى سليم بن قيس الهلالي، قال سليم: «شهدت وصيّة أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ حين أوصى إلى ابنه الحسن﴿عليه السلام﴾ - و قد ذكر الوصيّة تمامها، و فيها -: «و الله الله في أصحاب نبيّكم الّذين لم يحدثوا حدثاً، و لم يأدوا محدثاً، فإنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أوصى بهم، و لعن المحدث منهم و من غيرهم و المؤدي للمحدث»».

و في الدّرّ المنثور: «و أخرج أحمد عن مالك ابن ربيعة فإنّه سمع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ يقول: اللّهمّ اغفر للمحلّقين ثلاثاً، قال رجل: و المقصّرين؟ فقال في الثّلاثة أو الرّابعة و للمقصّرين».

و فيه: «و أخرج البيهقي في الدّلآئل عن ابن عبّاس: أنّه قيل له: لِمَ ظاهر رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ للمحلّقين ثلاثاً و للمقصّرين مرّة؟ فقال: إنّهم لم يشكّوا».

و فيه: و أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: اللّهمّ اغفر للمحلّقين قالها ثلاثاً، فقالوا: يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ما بال المتحلّقين ظاهرت لهم التّرحّم؟ قال: إنّهم لم يشكّوا».

أقول: و قد جآء في بعض الرّوايات: أنّ هذا الشّاك هو عمر بن الخطّاب راجع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثلاث مرّات كما أنّه أنكر رؤيا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالحقّ، و أنكر صلح الحديبيّة و أمر الهدنة.

و في **كنز الفوائد** للكراجكي رضوان الله تعالى عليه بالاسناد عن أبي بصير قال: سئلت أبا عبدالله﴿عليه السلام﴾ عن قول الله تعالى في كتابه: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و لو كره المشركون» فقال: و الله ما أُنزل تأويلها بعد، قلت: جُعلت فداك و متى ينزل؟ قال: حتّى يقوم القآئم إن شآء الله فإذا خرج القآئم لم يبق كافر و لا مشرك إلاّ كره خروجه حتّى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة لقالت الصّخرة يا مؤمن في بطني كافر أو مشرك، فاقتله قال: فينحّيه الله فيقتله».

أقول: و هذا كناية عن شدّة خوف أعدآء الله تعالى منه﴿عليه السلام﴾ فكأنّ الكافر يتخيّل الصّخرة تشي به للمؤمنين فيقتلونه لأنّ القآئم المهديّ﴿عليه السلام﴾ و أنصاره أشدّآء على الكفّار فلا مساومة و لا مداهنة في الدّين...

و في **تفسير القمّيّ**: و قوله: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه» و هو الإمام الّذي يظهره الله على الدّين كلّه، فيملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما ملئت ظلماً و جوراً، و هذا ممّا ذكرنا أنّ تأويله بعد تنزيله».

و في **البرهان**: بالاسناد عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال في قوله: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه و لو كره المشركون» قال: ليظهر الله عزّوجلّ في الرّجعة».

٢٩- (محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً)

في **تفسير القمي**: و أعلم الله أنّ صفة نبيّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أصحابه المؤمنين في التّوراة والإنجيل مكتوب، فقال: «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم» يعني: يقتلون الكفّار و هم أشدّآء عليهم، و فيما بينهم رحمآء».

و في **البحار**:- سئل عبدالله بن سلام عن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ مسائل كثيرة منها«فقال: أنبيّ أنت أم رسول؟ فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: يا ابن سلام! إنّ الله بعثني نبيّاً و رسولاً، و أنا خاتم النّبيّين، أفما قرأت في التّوراة: «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً...» الآية و أنزل عليّ: «ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النّبيّين» قال: صدقت يا محمّد﴿عليه السلام﴾...» الخبر.

و في **محاسن البرقي** رضوان الله تعالى عليه بإسناده عن الثّمالي عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّ الله تبارك و تعالى أجرى في المؤمن من ريح روح الله، و الله تبارك و تعالى يقول: «رحمآء بينهم»».

و في **تفسير القمي**: بإسناده عن حريز عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: نزلت هذه الآية

في اليهود و النّصارى يقول الله تبارك و تعالى: «الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه» يعني رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ «كما يعرفون أبنآءهم» لأنّ الله عزّوجلّ قد أنزل عليهم في التّوراة والإنجيل و الزّبور صفة محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ و صفة أصحابه و مبعثه و مهاجره، و هو قوله: «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل» فهذه صفة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في التّوراة و الإنجيل، و صفة أصحابه، فلمّا بعثه الله عزّوجلّ عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: «فلمّا جآءهم ما عرفوا كفروا به».

و في **البحار**:- نقلاً عن تفسير القمي بإسناده- عن سعد عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ أنّه سئل عن هذه الآية: «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً» فقال: مَثَل إجرآء الله في شيعتنا كما يجري لهم في الأصلاب، ثمّ يزرعهم في الأرحام، و يخرجهم للغاية الّتي أُخذ عليها ميثاقهم في الخلق، منهم أتقيآء و شهدآء، و منهم الممتحنة قلوبهم، و منهم العلمآء، و منهم النّجبآء، و منهم النّجدآء، و منهم أهل التّقى، و منهم أهل التّقوى، و منهم أهل التّسليم، فازوا بهذه الأشيآء سبقت لهم من الله، و فضلوا النّاس بما فضلوا و جرت للنّاس بعدهم في المواثيق حالهم- أسمآؤهم...».

و في **المحاسن**: بإسناده عن الثّمالي عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: المؤمن أخو المؤمن لأبيه و أُمّه لأنّ الله خلق طينتهما من سبع سموات و هي طينة الجنان، ثمّ تلا: «رحمآء بينهم» فهل يكون الرّحيم إلاّ برّاً وصولاً».

و في حديث آخر: «و أجرى فيهما من روح رحمته».

و في **اصول الكافي**- كتاب الايمان و الكفر- باب حقّ المؤمن على أخيه و أدآء حقّه حديث ١٥) بإسناده عن أبي المعزا عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: «المسلم أخو المسلم، لايظلمه و لايخذله و لايخونه و يحقّ على المسلمين الاجتهاد في التّواصل و التّعاون على التّعاطف و المؤاساة لأهل الحاجة و تعاطف بعضهم على بعض حتّى

تكونوا كما أمركم الله عزّوجلّ: «رحمآء بينكم» متراحمين مغتمّين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله﴿ﷺ﴾».

قوله﴿ع﴾: «كما أمركم الله أي في قوله تعالى: «محمّد رسول الله والّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم» إشارة إلى أنّ الآية الكريمة تأمرهم في المعنى بتلك الخصال لكونها في مقام المدح المستلزم للأمر بها، و إلى أنّ الأمر المستفاد منها غير مختصّ بالمؤمنين من الصّحابة.

و في **كتاب الأربعين المنتق**: لأحمد بن إسمعيل أبي الخير الطّالقاني- باب ۳۹) عن أبي عبدالله محمّد بن عبدالله الحافظ، قال: سمعت أبا الحسن بن أبي اسمعيل العلويّ (و هو محمّد بن عليّ بن الحسين بن الحسن بن القاسم الحسني) بمنى سنة خمس و أربعين و ثلاث مأة، يقول: رأيت النّبيّ﴿ﷺ﴾ في المنام، فقلت: يا رسول الله! من الهادي الّذي ذكره الله تعالى في قوله: «إنّما أنت مذكّر و لكلّ قوم هاد» الرّعد: ۷)؟ قال: يا بنيّ أبوك عليّ. قلت: يا رسول الله «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار...»؟ قال: من تبعني من المؤمنين».

و في **كنز العمّال**:- من كتاب رسول الله﴿ﷺ﴾ إلى أهل التّوراة -: «بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمّد رسول الله صاحب موسى و أخيه المصدّق لمّا جآء به، ألا إنّ الله قال لكم: يا معشر أهل التّوراة، و إنّكم لتجدون ذلك في كتابكم «محمّد رسول الله والّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً».

و إنّي أنشدكم بالله، و أنشدكم بما أنزل عليكم، و أنشدكم بالّذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المنّ و السّلوى، و أنشدكم بالّذي أيبس البحر لآبآئكم حتّى أنجاكم من فرعون و عمله إلاّ أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمّد؟ فإن كنتم لاتجدون ذلك في كتابكم فلاكره عليكم: «قد تبيّن الرّشد من الغيّ» فأدعوكم إلى الله و نبيّه﴿ﷺ﴾».

في كتاب إثبات الوصيّة للمسعودي روى خطبة الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ - و قد بيّن الإمام﴿عليه السلام﴾ فيها بدء خلقة أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و طينتهم و أرواحهم - «... فدعاك نبيّنا﴿صلى الله عليه وآله﴾ لنصرته، فنصرته بي و بجعفر و حمزة فنحن الّذين اخترتناله﴿صلى الله عليه وآله﴾، و سمّيتنا في دينك لدعوتك أنصاراً لنبيّك، قائدنا إلى الجنّة خيرتك، و شاهدنا أنت ربّ السّموات و الأرضين، جعلتنا ثلاثةما نصب لنا عزيز إلاّ أذللته بنا، و لا ملك إلاّ طحطحته بنا، أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً، و وصفتنا يا ربّنا بذلك، و أنزلت فينا قرآناً، جلّيت به عن وجوهنا الظّلم، و أرهبت بصولتنا الأمم، إذا جاهد محمّد رسولك عدوّاً لدينك تلوذ به أُسرته، و تحفّ به عترته، كأنّهم النّجوم الزّاهرة إذا توسّطهم القمر المنير ليلة تمّة...» الخطبة.

و في البحار: - تاريخ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ - باب ١٠٦ - مهابته و شجاعته﴿عليه السلام﴾ - نقلاً عن صحيح التّرمذيّ و تاريخ الخطيب و فضائل السّمعاني أنّه قال رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم الحديبيّة لسهيل بن عمير (عمروخ): يا معشر قريش لتنتهنّ أو ليبعثنّ الله عليكم من يضرب رقابكم على الدّين...» الخبر. و لذلك فسّر الرّضا﴿عليه السلام﴾ قوله: «و الّذين معه أشدّآء على الكفّار» أنّ عليّاً﴿عليه السلام﴾ منهم».

أقول: «إنّ الشّدّة من آثار قوّة الحميّة و هو الغضب، و هو على ثلاثة وجوه:

أحدها - الإفراط فيه، و هو الإقدام على ما ليس بجميل، و استعمال هذه القوّة فيما هو مذموم قبيح عقلاً و شرعاً مثل الضّرب و الجرح و البطش و الشّتم و النهب و القتل والقذف و نحوها فيما لايجوّزه العقل و الشّرع.

ثانيها - التّفريط فيه، و هو فقد هذه القوّة أو ضعفها بأن لايستعملها فيما هو محمود، حسن عقلاً و شرعاً مثل دفع المتجاوز عن ناموسه و حريمه، و دفع الضّرر عن نفسه عن وجه سائغ، والجهاد مع الأعدآء المعتدين و البطش عليهم و إقامة الحدود على الوجه المشروع، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فتحصل فيه ملكة الجبن و الخفّة، بل ينتهي إلى عدم الغيرة على حرمه و أشباه ذلك. و كلا الوجهين مذمومان قبيحان عقلاً و شرعاً.

ثالثها- الاعتدال، و هو غضب ينتظر إشارة العقل و الشّرع، فينبعث حيث تجب الشّدّة و الحميّة، و ينطفي حيث يحسن الحلم و الرّحمة، و حفظه على حدّ الاعتدال هو الاستقامة الّتي كلّف الله عزّوجلّ بها عباده و هو الوسط الّذى وصفه رسول الله﴿ﷺ﴾ إذ قال: «خير الامور أوسطها (أوساطها خ)».

فمن مال غضبه إلى التّفريط و الفتور و الخفّة حتّى أحسّ نفسه ضعف الغيرة و خسّة النّفس و احتمال الذّلّ و الضّيم في غير محلّه، فينبغي أن يعالج نفسه حتّى يقوّي غضبه، و من مال غضبه إلى الإفراط حتّى جرّه إلى التّهور و اقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه ليكن من ثورة الغضب، و يقف على الوسط الحقّ بين الطّرفين، و هو الصّراط المستقيم و هو أدقّ من الشّعر و أحدّ من السّيف، فينبغي أن يسعى في ذلك بحسب جهده و يتوسّل إلى الله جلّ وعلا أن يوفّقه لذلك.

و **في الصّحيفة السّجّاديّة**:- من دعآء سيّد السّاجدين زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السّلام لأهل الثّغور «... و أعْفِهِ من الجُبْن، و ألهمه الجرأة، و أرزقه الشّدّة، و أيّده بالنّصرة...» الدّعاء السّابع و العشرون من الصّحيفة.

قوله﴿ع﴾: «الجبن»: رذيلة التّفريط من فضيلة الشّجاعة، و «ألهمه الجرأة» أي الشّجاعة و هي صرامة القلب على الأهوال، و ربط الجأش في المخاوف، و هي فضيلة بين التهوّر و الجبن. و «ارزقه الشّدّة»: أعطه القوّة في النّفس و البدن ليكون شديداً على الكفّار المعتدين...

و **في البحار**:-كتاب الإمامة- باب ٤- ثواب حبّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام و نصرهم- حديث ۸۰) نقلاً عن كتاب صفوة الأخبار عن إبراهيم بن محمّد النّوفليّ عن أبيه وكان خادماً لأبي الحسن الرّضا﴿ع﴾ أنّه قال: حدّثني العبد الصّالح الكاظم موسى بن جعفر عن آبآئه عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب صلوات الله عليهم أجمعين قال: حدّثني أخي و حبيبي رسول الله﴿ﷺ﴾ قال: من سرّه أن يلقى الله عزّوجلّ و هو مقبل عليه غير معرض عنه فليتوالك يا عليّ، و من سرّه أن يلقى الله عزّوجلّ و هو راض عنه، فليتوال ابنك الحسن﴿ع﴾ و من أحبّ أن يلقى الله و لا خوف عليه فليتوال ابنك

الحسين«عليه السلام» و من أحبّ أن يلقى الله عزّوجلّ و قد محا الله ذنوبه عنه فليوال عليّ بن الحسين«عليه السلام» فإنّه ممّن قال الله عزّوجلّ: «سيماهم في وجوههم من أثـر السّـجود»... الحديث.

و في **نهج البلاغة**: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالب«عليه السلام» - في وصف شيعته الصّادقين -: «... و إنّي لِمَنْ قوم لاتأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصّدّيقين، و كلامهم كلام الأبرار، عُمّار الليل و مَنار النّهار، متمسّكون بحبل القرآن، يُحيَوْن سنن الله و سنن رسوله، لايستكبرون و لايعلون و لا يغلّون و لايفسدون، قلوبهم في الجنان، و أجسادهم في العمل» آخر الخطبة القاصعة: رقم: ٢٣٤).

و في **اصول الكافي**: -كتاب الايمان و الكفر: باب التقبيل- حديث ١) بإسناده عن يونس بن ظبيان عن أبي عبدالله«عليه السلام» قال: «إنّ لكم لنوراً تُعْرَفُون به في الدّنيا حتّى أنّ أحدكم إذا لقى أخاه قبّله في موضع النّور من جبهته».

قوله«عليه السلام»: «تعرفون» مبنيّ للمفعول، إشارة إلى قوله عزّوجلّ: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود» و لايلزم أن تكون المعرفة عامّة لكلّ النّاس، بل تعرفهم بذلك الملائكة و الأئمّة المعصومون عليهم السلام و أهل الكمال من المؤمنين، و إن لم يروا هذا النّور ظاهراً في الحياة الدّنيا.

و في **الدّرّالمنثور**: عن أُبيّ بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله«صلى الله عليه و آله» في قوله: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود» قال: النّور يوم القيامة».

و فيه: عن ابن عبّاس عن النّبيّ«صلى الله عليه و آله» في قوله: «سيماهم في وجوههم» قال: إنّ جبرئيل قال: إذا نظرت إلى الرّجل من أُمّتك عرفت أنّه من أهل الصّلاة بأثر الوضوء، و إذا أصبحت عرفت أنّه قد صلّى من اللّيل، و هو يا محمّد العفاف في الدّين و الحياء و حسن السّمت».

و في **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي: «عن جابر قال: قال رسول الله«صلى الله عليه و آله»: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنّهار».

و **في اصول الكافي**: كتاب الايمان و الكفر- باب أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أوّل من أجاب و أقرّ لله عزّوجلّ بالرّبوبيّة- حديث ٢) أحمد بن محمّد عن محمّد بن خالد، عن بعض أصحابنا، عن عبد الله بن سنان قال: «قلت لأبي عبدالله﴿عليه السلام﴾: جعلت فداك إنّي لأرى بعض أصحابنا يعتريه النّزق و الحدّة و الطّيش، فأغتمّ لذلك غمّاً شديداً، و أرى من خالفنا فأراه حسن السّمت؟! قال: لاتقل: حسن السّمت فإنّ السّمت سمت الطّريق و لكن قل: حسن السّيما، فإنّ الله عزّوجلّ يقول: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود».

قال: قلت: فأراه حسن السّيما و له وقار فأغتمّ لذلك، قال: لاتغتمّ لما رأيت من نزق أصحابك، و لما رأيت من حسن سيما من خالفك، إنّ الله تبارك و تعالى لمّا أراد أن يخلق آدم، خلق تلك الطّينتين، ثمّ فرّقهما فرقتين، فقال لأصحاب اليمين: كونوا خلقاً بإذني، فكانوا خلقاً بمنزلة الذّرّ يسعى، و قال لأهل الشّمال: كونوا خلقاً بإذني، فكانوا خلقاً بمنزلة الذّرّ يدرج، ثمّ رفع لهم ناراً فقال: ادخلوها بإذني فكان أوّل من دخلها محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثمّ اتبعه اولوا العزم من الرّسل و أوصيآءهم و أتباعهم.

ثمّ قال لأصحاب الشّمال: ادخلوها بإذني، فقالوا: ربّنا خلقتنا لتحرقنا؟! فعصوا، فقال: لأصحاب اليمين: أخرجوا بإذنى من النّار، لم تكلم النّار منهم كلماً و لم تؤثّر فيهم أثراً، فلمّا رآهم أصحاب الشّمال، قالوا: ربّنا نرى أصحابنا قد سلموا فأقلنا و مرنا بالدّخول، قال: قد أقلتكم فادخلوها، فلمّا دنوا و أصابهم الوهج رجعوا، فقالوا: يا ربّنا لاصبر لنا على الاحتراق فعصوا، فأمرهم بالدّخول ثلاثاً، كلّ ذلك يعصون و يرجعون و أمر اولئك ثلاثاً، كلّ ذلك يطيعون و يخرجون، فقال لهم: كونوا طيناً بإذني، فخلق منه آدم، قال: فمن كان من هؤلآء لايكون من هؤلآء، و من كان من هؤلآء لايكون من هؤلآء، و ما رأيت من نزق أصحابك و خلقهم فمّما أصابهم من لطخ أصحاب الشّمال، و مارأيت من حسن سيما من خالفكم و وقارهم فمّما أصابهم من لطخ أصحاب اليمين».

قوله﴿عليه السلام﴾: «يعتريه»: يأتيه و يغشيه و يعرضه، و «النَّزَق»: الخفّة حال الغضب، و «الحدّة و الطّيش» قريبان من «النَّزَق» و «السّمت»: «الطّريق و القصد و السّكينة والوقار و الهيئة لأهل الخير و الصّلاح، أى حسن طريقه و قصده و ثباته و وقاره و

هيئته و منظره في الدّين، و ليس من الحسن و الجمال كالسّيما، فليس للمخالف حسن الطّريق، و إن كان له حسن الجمال.

و **قوله﴿ع﴾**: «لأصحاب اليمين»: للّذين كانوا في يمين العرش، أو يمين الملك الّذي أمره بتفريقها أو للّذين علم أنّهم سيصيرون من المؤمنين الّذين يقفون يوم القيامة في يمين العرش، و «كونوا خلقاً»: مخلوقين ذوي أرواح، أو كونوا أرواحاً بمنزلة الذّرّ أى النّمل الصّغار أو أقلّ شئ هجماً، و «يسعى» و «يدرج» بمعنىً، فجاء بلفظين تفنّناً في العبارة أو المراد بالسّعي: سرعة السّير، و بالدّرج: المشي الضعيف، فيكون إشارة إلى مسارعة أصحاب اليمين إلى الخيرات، و بطؤ أصحاب الشّمال عنها، أو سعي الأوّلين إلى العلوّ والكمال، و الآخرين إلى السّفل و الانحطاط.

و **قوله﴿ع﴾**: «الكَلْم»: الجَرْح، و «الوَهَج»: حرّ النّار.

أقول: و من البداهة أنّ الإنسان مركّب من الرّوح الّتي معها فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لاتبديل لها، و من الجسم الّذي معه الطّبيعة الّتي تتغيّر في كلّ حال، فمن غلبت فطرته على طبيعته فهو من أصحاب اليمين، و بالعكس فمن أصحاب الشّمال، و أنّ حسن السّمت من علائم الفطرة الغالبة على الطّبيعة لايظهر إلاّ من أصحاب اليمين، و حسن السّيما من آثار الطّبيعة الّتي يمكن ظهوره من أصحاب اليمين و من أصحاب الشّمال، فحسن السّيما لايدلّ على كون صاحبه من أصحاب اليمين لإمكان ظهوره من أصحاب الشّمال.

و قال بعض المحقّقين: إنّه لمّا كان من علم الله تعالى منهم السّعادة تابعين للعقل و لمقتضيات النّفس المقدّس فكأنّها طينتهم، و من علم الله سبحانه منهم الشّقاوة تابعين للشّهوات البدنيّة، و دواعى النّفس الأمارة فكأنّها طينتهم و لمّا مزج الله بينهما في عالم الشّهود، جرى في غالب النّاس الطّاعة و المعصية و الصّفات القدسيّة و الملكات الرّديّة، فما كان من الخيرات فهو من جهة العقل و النّفس و هما طينة أصحاب اليمين، و إن كان في أصحاب الشّمال، و ما كان من الشّرور و المعاصي فهو من الأجزآء البدنيّة الّتي هي طينة أصحاب الشّمال، و إن كان في أصحاب اليمين.

و قيل: إنّ الله سبحانه قرّر في خلقة آدم﴿عليه السلام﴾ و طينته دواعي الخير و الشرّ، و علم أنّه يكون في ذرّيّته السّعدآء و الأشقيآء، و خلق آدم﴿عليه السلام﴾ مع علمه بذلك، فكأنّه خلط بين الطّينتين، و لمّا كان أولاد آدم مدنيّين بالطّبع لابدّ لهم في نشأة الدّنيا من المخالطة و المصاحبة، فالسّعدآء يكتسبون الصّفات الذّميمة من مخالطة الأشقيآء و بالعكس، فلعلّ قوله: «من لطخ أصحاب الشّمال» و «من لطخ أصحاب الشّمال» إشارة إلى هذا المعنى.

و لمّا كان السّبب الأقوى في اكتساب السّعدآء صفات الأشقيآء استيلاء أئمّة الجور و أتباعهم على أئمّة الحقّ و أتباعهم، و علم الله تعالى أنّ المؤمنين قد يرتكبون الآثام لاستيلآء أهل الباطل عليهم، و عدم تولّي أئمة الحقّ لسياستهم، فيعذرهم بذلك و يعفو عنهم، و يعذّب أئمّة الجور و أتباعهم بتسبّبهم لجرآئم من خالطهم مع ما يستحقّون من جرآئم أنفسهم...

و في البحار:- نقلاً عن كتاب زيد الزّرّاد -: قال: قلت لأبي عبدالله﴿عليه السلام﴾: نخشى أن لا نكون مؤمنين قال: و لِمَ ذاك؟ فقلت: و ذلك أنّا لانجد فينا من يكون أخوه عنده آثر من درهمه و ديناره، و نجد الدّينار و الدّرهم آثر عندنا من أخ قد جمع بيننا و بينه موالاة أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ قال: كلاّ إنّكم مؤمنون، و لكن لاتكملون ايمانكم حتّى يخرج قائمنا، فعندها يجمع الله أحلامكم، فتكونون مؤمنين كاملين، و لو لم يكن في الأرض مؤمنون كاملون، إذاً لرفعنا الله إليه و أنكرتم الأرض و أنكرتم السّمآء.

بل والّذي نفسي بيده إنّ في الأرض في أطرافها مؤمنين ما قدر الدّنيا كلّها عندهم تعدل جناح بعوضة، و لو أنّ الدّنيا بجميع ما فيها و عليها ذهبة حمرآء على عنق أحدهم ثمّ سقط عن عنقه ما شعر بها أيّ شئ كان على عنقه، و لا أيّ شئ سقط منها لهوانها عليهم، فهم الخفيّ عيشهم، المنتقلة ديارهم من أرض إلى أرض، الخميصة بطونهم من الصّيام، الذّبلة شفاههم من التسبيح، العمش العيون من البكاء، الصّفر الوجوه من السّهر، فذلك سيماهم مثلاً ضربه الله في الإنجيل لهم، و في التّوراة و الفرقان و الزّبور والصّحف الاولى.

وصفهم فقال: «سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوراة و مثلهم في الإنجيل» عنى بذلك صفرة وجوههم من سهر الليل، هم البررة بالإخوان في حال العسر و اليسر، المؤثرون على أنفسهم في حال العسر، كذلك وصفهم الله فقال: «و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة و من يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون» فازوا و الله و أفلحوا...» الحديث.

فيه: عن الصّادق﴿عليه السلام﴾: هو السّهر في الصّلاة أى أثره.

و ذلك أنّ العبادة الخالصة لوجه الله جلّ وجلا تحدث في نفس العابد المخلص طهراً و صفاًء و نوراً تظهر دلائلها على صفحات وجهه، فتضيئ و تصفى و تشرق كما أنّ دلائل الحزن و الفرح و الخزى و السّرور تبدوا منها...

و في **شواهد التّنزيل**: بإسناده عن الحسن البصري، قال: قوله تعالى: «فاستوى على سوقه» أي استوى الإسلام بسيف عليّ﴿عليه السلام﴾. رواه أبونعيم الإصبهاني في كتابه: «النّور المشتعل».

أقول: رواه جماعة من أعلام مفسّري العامّة كالزّمخشري في الكشّاف، و الخازن في تفسيره و النّسفي في تفسيره، و الآلوسي مفتى البغداد في روح المعانى.

و في **كنز الفوائد**: بإسناده عن ابن عبّاس في قوله عزّوجلّ: «كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار» قال: قوله: «كزرع أخرج شطأه» أصل الزّرع عبدالمطّلب، و شطأه محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ و «يعجب الزّرّاع» عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾».

و هذا تمثيل لرسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ والّذين معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في رسالته قلباً و قالباً من أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، فكان ابتداء أمرهم من عبدالمطّلب، و كانت قوّة أمرهم و تمامه بعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و في **كشف الغمّة**: في قوله تعالى: «يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار» عن جعفر بن محمّد﴿عليه السلام﴾ قال: هو عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾».

و في **تاريخ بغداد للخطيب**- في ترجمة مروان بن موسى البغدادي- (ج ١٣ ص

١٥٣ رقم ٧١٣١) عن ابن عبّاس قال: «يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار» هو عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ كنّا نعرف المنافقين على أهل‌بيت رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ببغضهم عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾».

و في الدّرّالمنثور: و أخرج ابن إسحق و أبونعيم في الدّلآئل عن ابن عبّاس، قال: كتب رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى يهود خيبر: «بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمّد رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ صاحب موسى و أخيه، المصدّق لما جآء به موسى، ألا إنّ الله قد قال لكم: يا معشر أهل التّوراة، و أنّكم تجدون ذلك في كتابكم: محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحمآء بينهم...» إلى آخر السّورة.

﴿بحث فقهيّ إستدلاليّ﴾

و اعلم أنّ البحث في المقام يدور حول ثمانية فصول:

الفصل الأوّل: يستدلّ بقوله تعالى: «تقاتلونهم أو يسلمون» الفتح: ١٦) على حكم الكفّار الّذين لاتؤخذ منهم الجزية، بأن يكون حكمهم أحد الأمرين: إمّا القتال و إمّا الإسلام، فلايكون لهم حكم ثالث و هو الجزية، و المراد من هؤلآء الكفّار- كما سبق في تحقيق الأقوال- هم مشركوا العرب و المرتدّون الّذين لايقبل منهم إلاّ السّيف أو الإسلام، لا أهل الكتاب و لا غيرهم من الكافرين الّذين تؤخذ منهم الجزية أيضاً.

الفصل الثّاني: يستدلّ بقوله عزّوجلّ: «فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً- و من يطع الله و رسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار و من يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً» الفتح: ١٦ و ١٧) على حجيّة سنّة النّبيّ الكريم﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بعد الفحص عن المخصّص أو المقيّد...

الفصل الثّالث: يستدلّ بقوله جلّ وعلا: «ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج» الفتح: ١٧) على رخصة التخلّف عن الجهاد، و رفع الحكم بوجوبه عن هؤلآء الطّوآئف الثّلاث ذوي العاهات الّذين يشقّ عليهم القتال برفع لازمه و هو الحرج، لا النّهي عنه، فكما أنّ لهم الرّخصة في التخلّف عنه لما تقتضيه حالهم من الآفات النّازلة بهم فوق طاقتهم إذ «لايكلّف الله نفساً إلاّ وسعها» البقرة: ٢٨٦) كذلك لهم الرّخصة في حضور الجبهة.

و اعلم أنّ الأعذار المانعة من وجوب الجهاد و النّاهية عنه على نوعين:

أحدهما - عجز حسّيّ كالصّغر و الجنون و الأُنوثة، و فقد البصر - من العينين معاً - و لايلحق به ذوعين واحدة، و لا الأعور و الأعشى، و منه العرج البيّن و إن قدر على الرّكوب لأنّ الدّابّة قد تهلكه، و الزّمن كالمقعد، و الشّيخ العاجز، و المرض المانع من الرّكوب للقتال لا كالصّداع و وجع السّنّ، و منه عدم وجدان السّلاح و آلات القتال، والنّفقة للعيال...

ثانيهما - عجز حكميّ كالرّقّ، و الدّين الحالّ بغير إذن صاحبه، و مَن لم يأذن أبواه أو أحدهما للجهاد إلاّ إذا كان كافراً...

و في نفي الحرج عن ذوي الأعذار في النّوع الأوّل رخصة في التخلّف عن القتال من دون النّهي عن الحضور في الجبهة و القتال إذ حضر ابن أُمّ مكتوم و هو أعمى في بعض الحروب و كان يمسك الرّاية، و غزا عمّار بن ياسر في صفّين، و مسلم بن عوسجة في كربلاء، و في النّوع الثّاني نهي عن القتال.

هذا إذا كان الجهاد لنشر الاسلام بأمر المعصوم«عليه السلام» و أمّا الجهاد لردع العدوان والدّفاع عن النّفس أو العرض أو المال المحترمة أو عن ثغور المسلمين، فيجب على الأصحّآء و غيرهم كباراً و صغاراً، نسآءً و رجالاً، كلّ حسب طاقته، كما لو حصر المسلمون لوجب على كلّ مسلم بحسب طاقته الدّفاع و رفع الحصر.

الفصل الرّابع: يستدلّ بقوله سبحانه: «و الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه» الفتح: ۲۵) على جواز ذبح هَدْى المصدود أو نحره في مكان صُدّ الحاجّ فيه و إن كان في غير الحرم، إذ أخبر تعالى بكون الهدى محبوساً عن بلوغ محلّه، فلو بلغ الحرم و ذُبح أو نحر فيه لما كان محبوساً عن بلوغ المحلّ.

و قد صُدّ رسول الله«صلى الله عليه و آله» معتمراً سنة ستّ، في الحديبيّة الّتي ليست من الحرم، و قد نحر«صلى الله عليه و آله» هديه فيها.

و **أمّا توهّم بعض المتفقّهين**: أنّ الهدى كان ممنوعاً بدياً عن بلوغ المحلّ، و لكن بعد الصّلح زال المنع فبلغ محلّه و ذُبح أو نحر في الحرم، ففي الآية دلالة على أنّ المحلّ هو الحرم

إذ لوكان المحلّ غير الحرم لما كان معكوفاً عن بلوغه، فوجب أن يكون المحل هو الحرم، فمردود بأنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لم يدخل الحرم، و إنّما قام في الحديبيّة ثلاثة أيام، ثمّ رجع إلى المدينة.

في وسائل الشّيعة: - كتاب الحج - باب (١) من أبواب الإحصار و الصّدّ - عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ أنّه قال: المحصور غير المصدود، و قال: المحصور هو المريض، و المصدود هو الّذي يردّه المشركون كما ردّوا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ليس من مرض، و المصدود تحلّ له النّسآء و المحصور لاتحلّ له النّسآء».

و فيه: عن زرارة عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾ قال: «المصدود يذبح حيث صدّ، و يرجع صاحبه...»

و فيه: عن حمران عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حين صدّ بالحديبيّة قصّر و أحلّ و نحر ثمّ انصرف منها...».

و في المقنع: «و قد فعل رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذلك يوم الحديبيّة حين ردّ المشركون بدنته، و أبوا أن يبلغ المنحر فأمر بها فنحرت مكانه».

أقول: إنّ حكم المصدود بالعدوّ أن يذبح أو ينحر مكانه حلاًّ كان أو حرماً، و قد ثبت بالتّواتر: أنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لمّا صدّه المشركون، ذبح أو نحر هديه بالحديبيّة عند الشّجرة الّتي كانت تحتها بيعة الرضّوان و هي من الحلّ و هو أبعد الحلّ من البيت.

و في معجم البلدان: «و ليس هو في طول الحرم و لا في عرضه، بل هو مثل زاوية الحرم، فلذلك صار بينها و بين المسجد أكثر من يوم».

الفصل الخامس: يستدلّ بقوله تعالى: «و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم - لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم...» الفتح: ٢٥) على النّهي عن قتل الكفّار الّذين فيهم مؤمنون مستورين ايمانهم لو يؤدّي قتل الكافرين و قتالهم إلى قتل المؤمنين، و على النّهي عن رمي حصون الكفّار و إحراقها، أو إحراق مراكبهم و سفينتهم إذا كان فيها أُسارى المؤمنين أو أطفالهم، أو تترس الكفّار بأطفال المؤمنين أو أُساراهم... لأنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ صرف عن قتال المشركين لما كان فيهم رجال مؤمنون ونسآء

مؤمنات، بحيث لو تميّز المؤمنون من المشركين لقتلهم رسول الله﴿ﷺ﴾.

و يستدلّ به على مراعاة الكافر لحفظ حرمة المؤمن، ما لم يمكن إذاية الكافر إلاّ بإذاية المؤمن. و لايبعد أن يكون هذا النّهى مختصّاً بأهل مكّة لحرمة الحرم، كما أنّ المستحقّ للقتل إذا لجأ إليها لم يقتل إلاّ من انتهك حرمة الحرم بالجناية فيه فيقتل.

و أمّا لو تترّس الكفّار بنسآئهم أو صبيانهم أو بالمجانين و أمثالهم، و لم يمكن الفتح إلاّ بقتلهم فجاز لأنّ ترك التّرس يؤدّي إلى تعطيل الجهاد لئلاّ يتّخذوا ذلك ذريعة إليه، و لذا رمى رسول الله﴿ﷺ﴾ الطّائف بالمنجنيق و فيهم النّسآء و الصّبيان.

و لا فرق في ذلك بين قسمي الجهاد: بأن كان للدّعوة أو للدّفاع عن الكفّار المتجاوزين.

الفصل السّادس: يستدلّ بقوله عزّوجلّ: «أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم» الفتح: ۲۵) على وجوب الدّية أو الكفّارة في قتل المؤمن، مستور الايمان بين أهل الحرب من الكافرين، و أمّا إذا لم يكن مستور الايمان، فقتله المؤمن عند قتال الكافرين، فيجب عليه الدّية، و إن قتله خطأ، يجب عليه الكفّارة دون الدّية.

الفصل السّابع: استدلّ بعض الفقهآء بقوله تعالى: «محلّقين رؤوسكم و مقصّرين» الفتح: ۲۷) على أنّ المحرم مختار عند التّحلّل من الإحرام إن شآء حلق و إن شآء قصر، و ذلك أنّ ذكر الحلق و التّقصير معاً يدلّ على وقوع الإحلال بأحدهما، و لولاذلك لما كان لذكرهما معاً ههنا وجه بعد العلم بعدم إرادة الجمع، و التّفصيل الموجب للإجمال، فتعيّن التّخيير على الإطلاق، و للأصل أيضاً.

أقول: لايخفى على الأديب الأريب أنّ الواو كثيراً ما تستعمل للتّقسيم و التّنويع كقولك: الكلمة إسم و فعل و حرف.

و أنّ الواو ههنا ليست للتّخيير و لا للجمع و لا للتّفصيل كما زعم أكثرهم، و إنّما هي في المقام لتنويع الأحكام الثّلاثة للطّوائف الثّلاث المختلفين فيها...

و في قوله جلّوعلا «محلّقين رؤوسكم و مقصّرين»- مع بيان أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين- إشارة إجماليّة إلى أحكام ثلاثة لطوآئف ثلاث:

١- وجوب الحلق على الصّرورة. ٢- غير الصّرورة من الذّكور يجزيه التّقصير. ٣- وجوب التّقصير على النّسآء، صرورات كنّ أولا، و لا يجوز لهنّ الحلق.

و هذا هو المستفاد من الرّوايات الواردة- مطلقة و مقيّدة- عن أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام، حيث إنّ المطلق يحمل على المقيّد، من دون تعارض بينها كما توهّم بعضهم، و انّ الرّوايات الواردة في وجوب الحلق على الصّرورة ليست بآحاد كما زعم بعضهم كما لاوجه للأصل الّذي ادّعى بعضهم.

و إنّ السّنّة الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين مبيّنة للكتاب الّذي هو حجّة قطعيّة، و انّ وجوب الحلق على الصّرورة ثابت عند من تمسّك بالثّقلين معاً و سلك طريقاً الاجتهاد صحيحاً.

و **من الرّوايات**: ما في وسائل الشّيعة- كتاب الحجّ- باب (٧) من أبواب الحلق والتّقصير- عن عمّار السّاباطي عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ قال: «سئلته عن الرّجل برأسه قروح لايقدر على الحلق، قال: إن كان قد حجّ قبلها فليجز شعره، و إن كان لم يحجّ فلابدّ له من الحلق».

و فيه: عن أبي بصير عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ قال: «على الصّرورة أن يحلق رأسه و لايقصر إنّما التّقصير لمن حجّ حجّةالإسلام».

و فيه: عن بكر بن خالد عن أبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾ قال: «ليس للصّرورة أن يقصر و عليه أن يحلق».

و فيه: عن سليمان بن مهران- في حديث -: أنّه قال لأبي عبدالله ﴿عليه السلام﴾: كيف صار الحلق على الصّرورة واجباً دون من قد حجّ؟ قال: ليصير بذلك موسماً بسمة الآمنين، ألا تسمع قول الله عزّوجلّ: «لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلّقين رؤوسكم و مقصّرين لاتخافون».

و غيرها من الرّوايات الواردة في المقام فليطالب من أبوابها...

و هذا الحكم في حجّ التّمتّع، و أمّا العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ، و العمرة المفردة ففي التحلّل منهما يتعيّن التّقصير، صرورة كان المحرم أم لا.

الفصل الثّامن: يستدلّ بقوله تعالى: «تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود» الفتح: ٢٩) على استحباب السّهر و القيام بالليل، و على استحباب زيادة التمكّن في السّجود لتحصيل أثره في السّيما.

في وسائل الشّيعة: - كتاب الصّلاة - باب (٢١) من السّجود - عن السّكوني عن الصّادق ﴿عليه السلام﴾ قال: قال عليّ ﴿عليه السلام﴾: «إنّي لأكره للرّجل أن أرى جبهته جلحاء ليس فيها أثر السّجود».

و فيه: عن جابر عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾ قال: «إنّ أبي عليّ بن الحسين عليهما السّلام كان أثر السّجود في جميع مواضع سجوده فسمّى السّجّاد لذلك».

و فيه: عن محمّد بن اسمعيل بن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الباقر عليهم السّلام قال: كان لأبي ﴿عليه السلام﴾ في موضع سجوده آثار ناتية، و كان يقطعها في السّنة مرّتين في كلّ مرّة خمس ثقبات فسمّى ذا الثّقبات لذلك».

و فيه: عن عبدالله بن الفضل عن أبيه - في حديث - «أنّه دخل على أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام قال: فإذا أنا بغلام أسود بيده مقص يأخذ اللحم من جبينه و عرنين أنفه من كثرة سجوده».

و فيه: - كتاب الصلاة - باب (١٧) من ما يسجد عليه - عن إسحق بن الفضل عن الصّادق ﴿عليه السلام﴾: «إنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كان يحبّ أن يمكن جبهته من الأرض».

﴿بحث عميق علميّ، مذهبيّ و اعتقاديّ﴾

يدور البحث في المقام حول ثلاثة عشر أمراً:

الأمر الأوّل: إنّ في قوله تعالى: «ليغفر لك الله- و يتمّ نعمته عليك و يهديك- و ينصرك...» الفتح: ٢-٣) ردّاً صريحاً على مذهب الأشاعرة المجبّرة من العامّة الّذين يتقوّلون: إنّ أفعال الله سبحانه لاتعلّل بالأغراض... و قد ذكر الله جلّ وعلا أربعة أغراض للفتح و هي: **ألف:** المغفرة. **ب:** إتمام النّعمة. **ج:** الهداية. **د:** النّصرة.

الأمر الثّاني: إنّ العامّة قد تشبّثت بقوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» الفتح: ٢) على نفي عصمة رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ عن المعصية بعد النّبوّة فضلاً عن قبلها، خلافاً لقوله جلّ وعلا: «و النّجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم و ما غوى و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى» النّجم: ١-٤) إذ نفى الله عزّوجلّ عن رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ كلّ معصية و نسيان و سهو و غفلة.

أقول: إنّ جميع الأنبيآء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين معصومون من الكبآئر و الصّغآئر، قبل النّبوّة و بعدها، على كلّ حال، تعمّداً و غير تعمّد، و إنّ محمّداً رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ هو سيّد الأنبيآء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين لم يعص الله تعالى طرفة عين منذ خلقه الله عزّوجلّ إلى أن قبضه و لا أذنب ذنبا صغيراً و لا كبيراً، لا تعمّداً و لا سهواً و لا غفلة و لا نسياناً، و بذلك نطق القرآن الكريم و تواتر الخبر عن أهل بيت

الوحي المعصومين عليهم صلوات الله، و يؤيّده العقل السّليم و إجماع العقلاء المحقّقين، و هو مذهب جمهور الشّيعة الإماميّة الاثنى عشريّة الحقّة أوردناه تفصيلا في بحث عصمة الأنبيآء و المرسلين و الأوصيآء المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين من هذا التّفسير فراجع.

و أمّا المراد بذنب رسول الله ﴿ﷺ﴾ في هذه الآية الكريمة و أمثالها، فمع بيان أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السّلام هو ذنبه ﴿ﷺ﴾ بحساب المشركين، و قد تقدّم بيانه منّا تفصيلاً في بحث البيان، و في تحقيق الأقوال، و في التّفسير و التّأويل، و في بحث الرّواية من تفسير هذه السّورة المباركة فراجع.

و **من البيّن:** أنّ من شأن كلّ قائم بإصلاح العقائد الباطلة و الأفكار الكاسدة، وداعٍ إلى ما هو خارج عن عادات قوم هي مألوفة عندهم... أن يعرض بنفسه لتعييرهم والتّشنيع به، و يرون من عمله ذلك خطيئة كبيرة يخالف بها مقوّمات وجودهم الموروثة عبر الأجيال و الأعصار... فكأنّه يحاول تحطيم كيانهم و الانهيار بقوميّتهم، و لاسيّما الكبراء زعمآء القوم و أُمرآئهم... يخشون على مصالحهم في البلاد و على زعامتهم و إمارتهم على أهلها، فينظرون إليه كمذنب عارم وقيح لا يغفر ذنبه عندهم قطّ.

لكنّه ربّما يتغلّب على الموانع، و يرفع الحواجز عن طريقه، و يبلغ قمّة الفوز و النّجاح، و الفلاح و الرّشاد... و تزدهر معالم إصلاحاته العامّة إذا هم يستبشرون به كفاتح عظيم، و مبشّر بسعادة الأجيال و كمال الأفراد... فتنقلب سيّئاته الماضية عندهم حسنات بحسابهم الجديد، و تغفر جميع ذنوبهم الّتي كانوا يرونها ذنوباً لا تغفر لديهم، بعد مالمسوا من حقيقة قيامه الإصلاحي، و آثار دعوته في جميع شئون حياتهم الإنسانيّة، و إخلاصه في نهضته منذ البدء، حتّى الأعمال الّتي يرتكبها ذلك المصلح الصّالح و الدّاعي المحقّ في مستقبل أمره: «و ما تأخّر» فيغضون عنها حتّى و لو كانت على خلاف مصالحهم الخاصّة.

الأمر الثّالث: إنّ العامّة تشبّثت بقوله سبحانه: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين – و لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم

فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً- فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى و كانوا أحقّ بها و أهلها» الفتح: ٤ و ١٨ و ٢٦) على فضيلة أصحاب الحديبيّة كلّهم، منهم أبوبكر بن أبي‌قحافة و عمر بن الخطّاب و عثمان بن عفّان...

أقول: و لايخفى على من له أدنى مسكة و دراية، و طيب ولادة: أنّ الله تعالى أنزل السّكينة على مَن اتّصف بصفة الايمان من أصحاب الحديبيّة لا كلّهم إذ ليس كلّهم مؤمنين، و أنّ تعليق الحكم على الوصف مشعر بعلّيّة الوصف في الحكم، فمدار نزول السّكينة هو الايمان لا الصّحبة من دون كونهم معه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ في رسالته، فليست صحبة أحد لرسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ قالباً فضيلة له، و لا موجبة لنزول السّكينة عليه، و لذا لم تنزل على أبي‌بكر مع كونه مصاحباً له﴿صلّى الله عليه و آله﴾ في الغار إذ قال: «إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و أيّده بجنود لم تروها» التّوبة: ٤٠).

في اختصاص الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه- باب حديث هشام بن الحكم و دلائله على أفضليّة عليّ﴿عليه السلام﴾ -: «أحمد بن الحسن قال: حدّثنا عبدالعظيم بن عبدالله قال: قال هارون الرّشيد لجعفر بن يحيى البرمكيّ: إنّي أُحبّ أن أسمع كلام المتكلّمين من حيث لايعلمون بمكاني، فيحتجّون عن بعض ما يريدون، فأمر جعفر المتكلّمين فأُحضِروا داره و صار هارون في مجلس يسمع كلامهم و أرخى بينه و بين المتكلّمين ستراً فاجتمع المتكلّمون، و غصّ المجلس بأهله ينتظرون هشام بن الحكم، فدخل عليهم هشام و عليه قميص إلى الرّكبة و سراويل إلى نصف السّاق، فسلّم على الجميع و لم يخصّ جعفراً بشيءٍ فقال له رجل من القوم:

لِمَ فضّلت عليّاً على أبي‌بكر و الله يقول: «ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا»؟

فقال هشام: فأخبرني عن حزنه في ذلك الوقت أكان لله رضى أم غير رضى؟ فسكت، فقال هشام: إن زعمت أنّه كان لله رضى فلِمَ نهاه رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقال: «لا

تحزن» أنهاه عن طاعة الله و رضاه؟ و إن زعمت أنّه كان لله غير رضى، فلم تفتخر بشئ كان لله غير رضى؟ و قد علمت ما قد قال الله تبارك و تعالى حين قال: «فأنـزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين» و لكنّكم قلتم و قلنا...» الحديث.

و في شرح المنام: قال الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه: «رأيت في المنام سنة من السّنين قد اجتزت في بعض الطّروق، فرأيت حلقة دائرة فيها ناس كثير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: لي: هذه حلقة فيها رجل يقصّ، فقلت: من هو؟ قالوا: عمر بن الخطّاب، فتقدمت ففرّقت النّاس، و دخلت الحلقة، فإذاً برجل يتكلّم على النّاس بشئ لم أحصله، فقطعت عليه الكلام، و قلت: أيّها الشّيخ أخبرني! ما وجه الدّلالة على فضل صاحبك أبي‌بكر عتيق بن أبي‌قحافة في قول الله تعالى: «ثاني اثنين إذهما في الغار»؟

فقال: وجه الدّلالة على فضل أبي‌بكر من هذه الآية في ستّة مواضع: **الأوّل:** أنّ الله تعالى ذكر نبيّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و ذكر أبابكر معه، فجعله ثانيه، فقال: «ثاني اثنين» **الثّاني:** أنّه وصفهما بالاجتماع في مكان واحد تأليفاً بينهما فقال: «إذهما في الغار» **الثّالث:** أنّه أضافه إليه بذكر الصّحبة، ليجمع بينهما فيما يقتضي الرّتبة، فقال: «إذ يقول لصاحبه». **الرّابع:** أنّه أخبر عن شفقة النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و رفقه به لموضعه عنده، فقال: «لاتحزن». **الخامس:** أنّه أخبره أنّ الله معهما على حدّ سوآء ناصراً لهما و دافعاً عنهما، فقال: «إنّ الله معنا» **السّادس:** أنّه أخبر عن نزول السّكينة على أبي‌بكر لأنّ الرّسول ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لم تفارقه السّكينة قطّ، فقال: «فأنزل الله سكينته عليه».

فهذه ستّة مواضع تدلّ على فضل أبي‌بكر من آية الغار لايمكّنك و لالغيرك الطّعن فيها.

فقلت له: لقد حررت كلامك هذا، واستقصيت البيان فيه، و أتيت بما لايقدر أحد أن يزيد عليه في الاحتجاج لصاحبك عليهم غير أنّي بعون الله و توفيقه سأجعل ما أتيت به كرماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف:

أمّا قولك: إنّ الله تعالى ذكره و ذكر النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و جعل أبابكر ثانيه، فليس في ذلك فضيلة، فهو إخبار عن العدد، و لعمري لقد كانا اثنين، فما في ذلك من الفضل، و نحن نعلم

ضرورة أنّ مؤمناً﴿عليه السلام﴾ و كافراً اثنان، كما نعلم أنّ مؤمناً و مؤمناً اثنان، فما أرى لك في ذكر العدد طائلاً تعتدّ به.

و أمّا قولك: إنّه وصفهما بالاجتماع في المكان، فإنّه كالأوّل لأنّ المكان يجتمع فيه المؤمنون و الكفّار كما يجتمع العدد للمؤمنين و الكفّار، و أيضاً فإنّ مسجد النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أشرف من الغار، و قد جمع المؤمنين و المنافقين و الكفّار، و في ذلك قول الله تعالى: «فما للّذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين و عن الشّمال عزين».

و أيضاً فإنّ سفينة نوح قد جمعت النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الشّيطان و البهيمة و الكلب، فالمكان لايدلّ على ما ادّعيت من الفضيلة، فبطل فضلان.

و أمّا قولك: إنّه أضافه إليه بذكر الصّحبة، فإنّه أضعف من الفضلين الأوّلين لأنّ الصّحبة تجمع المؤمن و الكافر، و الدّليل على ذلك قول الله عزّوجلّ: «إذ قال لصاحبه و هو يحاوره أكفرت بالّذي خلقك من تراب ثمّ من نطفة ثمّ سوّاك رجلاً» و أيضاً فإنّ اسم الصّحبة يقع بين العاقل و بين البهيمة، و الدّليل على ذلك من كلام العرب الّذي نزل القرآن بلسانهم، فقال الله تعالى: «و ما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه» و قد سمّوا الحمار صاحباً، فقالوا:

إنّ الحمار مع الحمار مطيّة ... فإذا خلوت به فبئس الصّاحب

و أيضاً فقد سمّوا السّيف صاحباً، فقالوا في ذلك:

جاورت هنداً و ذاك اجتنابي ... و معي صاحب كتوم اللّسان

يعني السّيف، فإذا كان اسم الصّحبة يقع بين المؤمن و الكافر، و بين العاقل و بين البهيمة و بين الحيوان و الجماد، فأيّ حجّة لصاحبك؟!

و أمّا قولك: إنّه قال: «لاتحزن» فإنّه وبال عليه و منقصة له، و دليل على خطئه لأنّ قوله: «لاتحزن» نهي، و صورة النّهي قول القآئل: «لاتفعل» فلايخلو أن يكون الحزن وقع من أبي‌بكر على أحد وجهين: إمّا طاعة أو معصية، فإن انتهى و إلاّ فقد شهدت الآية بعصيانه بدليل أنّه نهاه.

و أمّا قولك: إنّه قال له: «إنّ الله معنا» فإنّ النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أخبر أنّ الله معه خاصّة، و

عبّر عن نفسه بلفظ الجمع، فقال: «معنا» كما عبّر الله تعالى عن نفسه بلفظ الجمع، فقال: «إنّا نحن نزّلنا الذّكر و إنّا له لحافظون» و قد قيل أيضاً في هذا: إنّ أبابكر قال: يا رسول الله حزني على أخيك عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ما كان منه، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «لاتحزن إنّ الله معنا» أي: معي و مع أخي عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و أمّا قولك: إنّ السّكينة نزلت على أبي‌بكر فإنّه كُفر بحت لأنّ الّذي نزلت عليه السّكينة هو الّذي أيّده بالجنود كذا يشهد ظاهر القرآن في قوله تعالى: «فأنزل سكينته عليه و أيّده بجنود لم تروها» فلو كان أبوبكر هو صاحب السّكينة لكان هو صاحب الجنود، و في إخراج النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من النّبوّة على أنّ هذا الموضع لو كتمته على صاحبك لكان خيراً له لأنّ الله تعالى أنزل السّكينة على النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في موضعين، و كان معه قوم مؤمنون فشركهم فيها، فقال في موضع: «ثمّ أنزل سكينته على رسوله و على المؤمنين و أنزل جنوداً لم تروها» و في موضع آخر: «فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التّقوى» و لمّا كان في يوم الغار خصّه وحده بالسّكينة، فقال: «فأنزل سكينته عليه» فلو كان معه في الموضع مؤمن لشركه معه في السّكينة كما شركه من قبله من المؤمنين، فدلّ بإخراجه من السّكينة على خروجه من الايمان.

قال الشّيخ المفيد رحمه الله: فلم يحر عمر بن الخطاب جواباً و تفرّق النّاس واستيقظت».

و في **الإفصاح في إمامة أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾** قال الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه: «إنّ الله سبحانه أخبر في هذه الآية: «فأنزل الله سكينته عليه و أيّده بجنود لم تروها» التّوبة: ٤٠) أنّه خصّ نبيّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالسّكينة دون أبي‌بكر، و هذا دليل على أنّ حاله غير مرضيّة لله تعالى إذ لو كان من أوليآء الله و أهل محبّته لعمّته السّكينة مع النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في ذلك المقام كما عمّت من كان معه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ببدر و حنين و نزل القرآن فقال تعالى في هذه السّورة: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و أنزل جنوداً لم تروها و عذّب الّذين كفروا و ذلك جزآء الكافرين» التّوبة: ٢٥-٢٦).

و قال في سورة الفتح: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً» و قال فيها أيضاً: «إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين».

فدلّ عموم السّكينة كلّ من حضر مع النّبيّ﴿ﷺ﴾ من المؤمنين مقاماً سوى الغار بما أنزل به القرآن على صلاح حال القوم و إخلاصهم لله تعالى و استحقاقهم الكرامة منه بالسّكينة الّتي أكرم بها نبيّه﴿ﷺ﴾ و أوضح بخصوص نبيّه﴿ﷺ﴾ في الغار بالسّكينة دون صاحبه في تلك الحال على ما ذكرناه عن خروجه من ولاية الله تعالى و ارتكابه لما أوجب في العدل و الحكمة الكرامة بالسّكينة من قبآئح الأعمال، و هذا بيّن لم تحجب عنه العباد...».

و فيه: قال الشّيخ المفيد قدّس سرّه: «فإن قال- الخصم -: فإذا كنتم قد أخرجتم المتقدّمين- أبابكر و عمر...- على أميرالمؤمنين﴿ع﴾ و المحاربين له و القاعدين عنه من رضا الله تعالى و ما ضمنته آية السّابقين: «و السّابقون الأوّلون من المهاجرين و الأنصار...» التّوبة: ١٠٠).

بالشّرط على ما ذكرتم، و التّخصيص الّذي وصفتم، و لما اعتمدتموه من تعرّيهم من العصمة، وما واقعه- من سمّيتموه منهم على الإجماع- من الذّنوب، فخبّروني عن قوله تعالى: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» الفتح: ١٨) فكيف يصحّ لكم تأويله بما يُخرج القوم من الرّضا و الغفران، و الإجماع منعقد على أنّ أبابكر و عمر و طلحة و الزّبير و سعداً و سعيداً قد بايعوا تحت الشّجرة و عاهدوا النّبيّ﴿ﷺ﴾ أو ليس هذا الإجماع يوجب الرّضا على البيان؟

قيل له: القول في الآيتين جميعاً سوآء، و هو في هذه الآية أبين و أوضح و أقرب طريقاً، و ذلك أنّ الله تعالى ذكر المبايعين (السّابقين خ) و خصّص من توجّه إليه الرّضا من جملتهم بعلامات نطق بها التّنزيل، و دلّ بذلك على أنّ أصحابك- أيّها الخصم- خارجون عن الرّضا على التّحقيق، فقال جلّ اسمه: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً».

فخصّ سبحانه بالرّضا منهم مَن علم الله منهم الوفآء، و جعل علامته من بينهم ثباته في الحروب بنزول السّكينة عليه، وكون الفتح القريب به، و على يديه، و لا خلاف بين الأُمّة أنّ أوّل لقيها رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بعد بيعة الرّضوان حرب خيبر، و أنّه قدّم أبابكر فيها فرجع منهزماً فارّاً من مرحب، و ثنّى بعمر فرجع منهزماً فارّاً يجبّن أصحابه و يجبّنونه.

فلمّا رأى ذلك رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: «لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله، و يحبّه الله و رسوله، كرّاراً غير فرّار، لايرجع حتّى يفتح الله تعالى عليه يديه» فأعطاها أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ فلقي مرحباً فقلته، وكان الفتح على يديه، و اختصّ الرّضا به و من كان معه من أصحابه و أتباعه، و خرج صاحباك من الرّضا بخروجهما عن الوفـاء، و تعرّيهما من السّكينة لانهزامهما و فرارهما و خيبتهما من الفتح القريب لكونه على يـد غيرهما، و خرج من سمّيت من أتباعهما منه، إذ لافتح لهم و لابهم على ما ذكـرناه و انكشف عن الرّجلين خاصّة بدليل قول رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «و يحبّه الله و رسوله» ما كان مستوراً لاستحقاقهما في الظّاهر ضدّ ذلك من الوصف كما استحقّا اسم الفرّار دون الكرّار، و لولا أنّ الأمر كما وصفناه لبطل معنى كلام النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لم يكن له فائدة و فسد تخصيصه عليّاً﴿صلى الله عليه و آله﴾ بما ضمنه من الثّنآء على ما شرحناه.

و ممّا يؤيّد ذلك و يزيده بياناً قول الله عزّوجلّ: «و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولّون الأدبار و كان عهد الله مسئولاً» الأحزاب: ١٥) فدلّ على أنّه تعالى يسئل المولّين يوم القيامة عن العهد و يعاقبهم بنقض العهد، و ليس يصحّ اجتماع الرّضـا و المسـئلة والعقاب لشخص واحد، فدلّ ذلك على خصوص الرّضا، و وجب إلحاقه في الحكم بمن لايتوجّه إليه السّئوال، و إذا وجب ذلك بطل تعلّق الخصم في الآية بالعموم، و سـقط اعتماده على البيعة في الجملة.

و على كلّ حال، هذا إن لم يكن في الآية نفسها و فيما تلوناه بعدها دليل على خروج القوم من الرّضا، و كان الأمر ملتبساً، فكيف و فيها أوضح برهان بما رتّبناه؟!

و ممّا يدلّ على خصوص الآية أيضاً قوله تعالى: «و من يولّهم يومئذ دبره إلاّ متحرّفاً

لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد بآء بغضب من الله و مأواه جهنّم و بئس المصير» الأنفال: ١٦) فتوعّد على الفرار بالغضب و النّار كما وعد على الوفاء بالرّضا و النّعيم، فلو كانت آية الرّضا في المبايعين على العموم و عدم الشّرط لبطل الوعيد، و خرجت الآية النّازلة منافية عن الحكمة، و لم يحصل لها فائدة و لا مفهوم و ذلك فاسد بلا ارتياب.

و ممّا يدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدّلوا تبديلاً» الأحزاب: ٢٣) و هذا صريح باختصاص الرّضا بطائفة من المبايعين دون الجميع، و بثبوت الخصوص في الموفين بظاهر التّنزيل الّذي لايمكن لأحد دفعه إلاّ بالخروج عن الدّين» انتهى كلامه.

و في روضة الكافي:- حديث (٥٧١)- بإسناده عن ابن فضّال عن الرّضا﴿عليه السلام﴾: «فأنزل الله سكينته على رسوله و أيّده بجنود لم تروها» التّوبة: ٤٠) قلت: هكذا؟ قال: هكذا نقرؤها و هكذا تنزيلها».

أي لابدّ و أن يرجع الضّمير في قوله تعالى: «عليه» إلى رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أنّه يدلّ على عدم ايمان أبي‌بكر بن أبي قحافة أوّل غاصب الخلافة. لأنّ الله عزّوجلّ قال في سورة التّوبة: «فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين»: ٢٦) فتخصيص الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ هنا بالسّكينة يدلّ على أنّه لم يكن معه قلباً و إن كان معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قالباً، فلم يكن مؤمناً به﴿صلى الله عليه و آله﴾.

و في الرّوضة:- حديث (٣٧٧)- بإسناده عن يوسف بن صهيب عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: سمعت أباجعفر﴿عليه السلام﴾ يقول: إنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أقبل يقول لأبي‌بكر في الغار: اسكن فإنّ الله معنا و قد أخذته الرّعدة و هو لايسكن، فلمّا رأى رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حاله قال له: تريد أن أُريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدّثون، فأُريك جعفراً و أصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بيده على وجهه، فنظر إلى الأنصار يتحدّثون و نظر إلى جعفر﴿عليه السلام﴾ و أصحابه في البحر يغوصون فأضمر تلك السّاعة أنّه ساحر».

أقول: و لايخفى على مَن تدبّر في آية الغار الّتي تستدل بها العامّة على فضل أَبي‌بكر

أنّها لاتدلّ على فضله، بل تدلّ على ضعف ايمانه و يقينه و إضراره في مصاحبته لرسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لوجوه شتّى:

منها: أنّها ظاهرة في أنّه كان خائفاً و جلاً، و ما ذلك إلاّ لضعف ايمانه، و كان إظهار هذا الخوف و الجبن لولا ما أنزل الله تعالى على رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من السّكينة إضراراً به ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تخويفاً له.

و منها: أنّها تدلّ على عدم ايمانه لأنّ الله عزّوجلّ كلّما ذكر إنزال السّكينة على رسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ضمّ إليه المؤمنين كما في سورة التّوبة: ٤٠) في قصّة حنين، و هم الّذين ثبتوا مع أميرالمؤمنين تحت الرّاية، و كان يومئذ ثمانون رجلاً و لم ينهزموا مع المنهزمين، و قد صحّ عند الفريقين: أنّ أبابكر و عمر لم يكونا من الثّابتين، و كانا من المنهزمين، و في سورة الفتح: ٢٦) فظهر أنّ تخصيص رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ هنا بإنزال السّكينة إنّما هو لعدم ايمانه.

و لايخفى على الأديب الأريب أنّه لايجوز إرجاع الضّمير في «عليه» إلى أبي‌بكر لأنّ الضّمآئر قبل هذا و بعده تعود إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من دون خلاف، و ذلك في قوله تعالى: «إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه» «لصاحبه» و في قوله سبحانه فيما بعده: «و أيّده» فكيف يتخلّلها ضمير عائد في «عليه» إلى غيره؟! فلايظهر من الآية الكريمة أيّ فضيلة لأبي‌بكر إلاّ أنّه ذكر فيها صحبته له ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و خروجه معه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قد سمّى الله تعالى الكافر صاحباً لنبيّه ﴿عليه السلام﴾ في قوله سبحانه: «يا صاحبي السّجن» يوسف: ٣٩) و للمؤمن في قوله تعالى: «قال لصاحبه و هو يحاوره» الكهف: ٣٤) و قد يسمّى الحمار والجماد صاحباً، و أيضاً أيّ فضيلة لمن هرب خوفاً على بدنه، و لم تنفع صحبته لرسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ شيئاً و لم يجاهد و لم يقاتل و لم‌يفد نفسه، و هل يقابل عاقل بين هذا و بين ما صدر عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ في تلك الواقعة، حيث فدى بمهجته و وقاه بنفسه؟

و قوله ﴿عليه السلام﴾: «فمسح رسول الله بيده على وجهه» من معجزاته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ المشهورة رواها الخاصّة و العامّة بأسانيد عديدة...

و في قصّة الغار كلام منّا سبق في سورة التّوبة فراجع.

الأمر الرّابع: يستدلّ بقوله تعالى: «ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» الفتح: ٤) على الحركة الجوهريّة ردّاً على منكريها و على الّذين ينكرون لقبول الايمان، الزّيادة و النّقصان أصلاً كأبي‌حنيفة و أتباعه و زعم بعضهم: أنّ الايمان الّذي لايقبل الزّيادة و النّقصان هو الإقرار بوجود الله تعالى كما أنّ إلهيّته لاتقبل الزّيادة و النّقصان، و أمّا الايمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التّصديق فإنّه تقبلها، و هو في الآية الكريمة بمعنى التّصديق لأنّهم بسبب السّكينة الّتي هي الطّمأنينة و برد اليقين كلّما نزلت فريضة و شريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقاً مع تصديقهم.

﴿بحث عميق علميّ في ازدياد الايمان و نقصانه﴾

و قد صرّحت الآيات القرآنيّة و الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين: أنّ الايمان يقبل الزّيادة و النّقصان، و يؤيّده العقل السّليم من شوآئب الأوهام، و اتّفق عليه إجماع العلمآء المؤمنين الصّادقين، خلافاً لبعض الفلاسفة و المتكلّمين، و لأبي‌حنيفة و أذنابه المريدين لاختلافهم في حقيقة الايمان.

أمّا الآيات الكريمة فمنها قوله تعالى: «هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» الفتح: ٤).

و قوله سبحانه: «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً و على ربّهم يتوكّلون» الأنفال: ٢).

و قوله عزّوجلّ: «و إذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون» التّوبة: ١٢٤).

و قوله جلّ‌وعلا: «الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل» آل عمران: ١٧٣).

و قوله تعالى: «و لمّا رأ المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله و ما زادهم إلاّ ايماناً و تسليماً» الأحزاب: ٢٢).

و غيرها من الآيات الّتي تصرح بزيادة الايمان و موجباتها، و كذلك آيات اُخر إلى نقصان الايمان و موجباته...

و أمّا الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فكثيرة لايسعها المقام و نحن على جناح الاختصار، فمنها:

في اصول الكافي- كتاب الايمان الكفر- باب أنّ الايمان مبثوت لجوارح البدن كلّهاحديث ١) بإسناده عن أبي عمر و الزُّبيري عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: قلت له: أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلاّ به، قلت: و ما هو؟ قال: الايمان بالله الّذي لا إله إلاّ هو، أعلى الأعمال درجة و أشرفها منزلة و أسناها حظّاً، قال: قلت: ألا تخبرني عن الايمان أقول هو و عمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الايمان عمل كلّه، و القول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له به الكتاب و يدعوه إليه، قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتّى أفهمه؟ قال: للايمان حالات و درجات و طبقات و منازل، فمنه التّامّ المنتهى تمامه، و منه النّاقص البيّن نقصانه، و منه الرّاجح الزّآئد رجحانه، قلت: إنّ الايمان ليتمّ و ينقص و يزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟

قال: لأنّ الله تبارك و تعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم و قسّمه عليها و فرّقه فيها فليس من جوارحه جارحة إلاّ و قد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به أُختها، فمنها قلبه الّذي به يعقل و يفقه و يفهم و هو أمير بدنه الّذي لاترد الجوارح و لاتصدر إلاّ عن رأيه و أمره و منها عيناه اللّتان يبصر بهما و أُذناه اللّتان يسمع بهما و يداه اللّتان يبطش بهما و رجلاه اللّتان يمشي بهما، و فرجه الّذي الباه من قبله، و لسانه الّذي ينطق به و رأسه الّذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلاّ و قد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به اختها بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها و يشهد به عليها.

ففرض على القلب غير ما فرض على السّمع، و فرض على السّمع غير ما فرض على العينين، و فرض على العينين غير ما فرض على اللسان، و فرض على اللسان غير ما فرض على اليدين، و فرض على اليدين غير ما فرض على الرّجلين، و فرض على الرّجلين غير ما فرض على الفرج، و فرض على الفرج غير ما فرض على الوجه، فأمّا ما فرض على القلب من الايمان فالإقرار و المعرفة و العقد و الرّضا و التّسليم بأن لا إله إلاّ

الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً، لم يتّخذ صاحبة و لا ولداً و أنّ محمّداً عبده و رسوله صلوات الله عليه و آله، و الإقرار بما جآء من عند الله من نبيّ أو كتاب - إلى أن قال -: فمن لقي الله عزّوجلّ حافظاً لجوارحه موفّياً كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عزّوجلّ عليها لقي الله عزّوجلّ مستكملاً لايمانه و هو من أهل الجنّة، و من خان في شئ منها أو تعدّي ما أمر الله عزّوجلّ فيها لقي الله عزّوجلّ ناقص الايمان.

قلت: قد فهمت نقصان الايمان و تمامه،، فمن أين جآءت زيادته؟ فقال: قول الله عزّوجلّ: «و إذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم» و قال: «نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتية آمنوا بربّهم و زدناهم هدى» و لو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه و لانقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر و لاستوت النّعم فيه و لا ستوى النّاس و بطل التفضيل و لكن بتمام الايمان دخل المؤمنون الجنّة، و بالزّيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدّرجات عند الله، و بالنّقصان دخل المفرّطون النّار».

و فيه:- حديث ٣) بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: سئلته عن الايمان، فقال: شهادة أن لا إله إلاّ الله و أنّ محمّداً رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الإقرار بما جآء من عند الله و ما استقرّ في القلوب من التّصديق بذلك، قال: قلت: الشّهادة أليست عملاً؟ قال: بلى، قلت: العمل من الايمان؟ قال: نعم، الايمان لايكون إلاّ بعمل و العمل منه و لايثبت الايمان إلاّ بعمل».

قوله﴿عليه السلام﴾: «و هو رأس الايمان» أي العمل رأس الايمان، فالتشبيه بالرّأس باعتبار أنّ بانتفآئه ينتفي الايمان رأساً كما أنّ انتفاء الرأس لاتبقى الحياة و يفسد سائر جوارح البدن...

و فيه:- حديث ٨) بإسناده عن محمّد بن حفص بن خارجة قال: سمعت أبا عبدالله﴿عليه السلام﴾ يقول:- و سئله رجل عن قول المرجئة في الكفر و الايمان و قال: إنّهم يحتجّون علينا و يقولون: كما أنّ الكافر عندنا هو الكافر عند الله فكذلك نجد المؤمن إذا

أقرّ بايمانه أنّه عند الله مؤمن، فقال: سبحان الله و كيف يستوى هذان و الكفر إقرار من العبد فلايكلّف بعد إقراره ببيّنة و الايمان دعوى لايجوز إلاّ ببينّة، و بيّنته عمله و نيّته، فإذا اتّفقا فالعبد عند الله مؤمن، و الكفر موجود بكلّ جهة من هذه الجهات الثّلاث من نيّة أو قول أو عمل، و الأحكام تجري على القول و العمل، فما أكثر من يشهد له المؤمنون بالايمان و يجري عليه أحكام المؤمنين و هو عند الله كافر، و قد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله و عمله».

أقول: إنّ الإمام﴿عليه السلام﴾ شبّه الإقرار الظّاهري بالدّعوى في سآئر الدّعاوي الّتي لاتقبل إلاّ ببيّنة و هي الشّاهدان على المدّعا، فجعل الله سبحانه هذه الدّعوى غير مقبولة إلاّ بشاهدين من قلبه و جوارحه، فلا يثبت عنده إلاّ بهما، و أمّا عند النّاس فيكفيهم في الحكم الإقرار و العمل الظّاهري كما يكتفى عند الضّرورة بالشّاهد و اليمين، فالايمان مركّب من أجزآء ثلاثة: النّيّة و الإقرار و العمل. و لايثبت الايمان حقّاً إلاّ بتحقّق جميع أجزآئه، فهو من هذه الجهة يشبه سائر الدّعاوى للزوم ثلاثة أشيآء في تحقّقها: الدّعوى و الشّاهدان.

و **أمّا العقل:** فإنّه لو لم يتفاوت ايمان الأفراد و لم يقبل الزّيادة و النّقصان لكان ايمان آحاد الأُمّة مساوياً لايمان الأنبيآء و المرسلين و الأوصيآء و المقرّبين، و الأوليآء والمعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، و اللاّزم باطل قطعاً.

و **أمّا الإجماع:** فاتّفق أهل الايمان و التّقوى من العلمآء حقّاً: أنّ الايمان يقبل الزّيادة و النّقصان، سوآء كانت الأعمال أجزآئه أو شرآئطه أو آثاره الدّالّة عليه، فإنّ التّصديق القلبي بأيّ معنى يفسّر لاريب أنّه يزيد، و كلّما ازدادت آثاره على الأعضآء والجوارح فهى كثرة و قلّة تدلّ على مراتب الايمان زيادة و نقصاناً، و كلّ منهما يتفرّع على الآخر، فإنّ كلّ مرتبة من مراتب الايمان يصير سبباً لقدر من الأعمال يناسبها، فإذا أتى بها قوى الايمان القلبي و حصلت مرتبة أعلى تقتضي عملاً أكثر و أكثر...

الأمر الخامس: أنّ قول الله جلّ وعلا: «لتؤمنوا بالله و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلاً» الفتح: ١٠) تقرير لغاية إرسال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ تدلّ بصراحة

على بطلان مذهب المجبّرة من العامّة الّذين يتوهّمون: أنّ الله سبحانه يريد من الكفّار والمشركين، الكفر و الشّرك، من الفجّار و المستكبرين، الفجور و الكبر، من الفسّاق والمنافقين، الفسق و النّفاق، من البغاة و الظّالمين، البغي و الظّلم، من العصاة و المجرمين، المعصية و الجرم، و من الطّغاة و المفسدين، الطّغيان و الإفساد في الحرث و النّسل...

و قد بيّن الله جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة غرض رسالة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ كغرض رسالة سائر الرّسل عليهم صلوات الله تعالى و هو الايمان بالله عزّوجلّ و برسوله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تعظيم رسوله و حفظ حرمته ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و تنزيه الله تعالى عمّا لايليق بساحة قدسه في كلّ حال.

قال الله عزّوجلّ: «و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ الله أنا فاعبدون» الأنبيآء: ۲۵) و قال: «و لايرضى لعباده الكفر» الزّمر: ۷).

و قال: «و ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعبدون» الذّاريات: ۵۶).

فأراد تعالى من جميع المكلّفين - إرادة تشريعيّة - التّوحيد و الطّاعة، و لم يرد من أحد أن يشرك به و يعصيه قطّ.

و إنّ إرادة الكفر والطّغيان من وساوس الشّيطان الّذي تبعته الأشاعرة المجبّرة السّفلة من العامّة، و هو إمامهم و مقتداهم في الكفر و النّفاق و الظّلم و الفساد، و في غصب الخلافة وارتكاب الجناية...

في كتاب المباحث المشرقيّة - الفصل الخامس من المجلّد الثّاني: ص ۵۱۶- ۵۱۷) قال الفخر الرّازي ما لفظه: «إنّ أفعال العباد بقضآء الله تعالى و قدره و إنّ الإنسان مضطرّ في اختياره، و إنّه ليس في الوجود إلاّ الجبر» و قد بالغ في ذلك حتّى قال بشأن سورة «الأنعام»: إنّ هذه السّورة من أوّلها إلى آخرها تدلّ على صحّة قولنا و مذهبنا «في الجبر» راجع (التّفسير الكبير: ج ۱۳ ص ۲۲۷).

و في **تفسير الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي - و هو من أعلام العامّة - قال في قوله تعالى: «إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم...» الزّمر: ۷): «و قيل: لايرضى الكفر و إن أراده، فالله تعالى يريد الكفر من الكافر، و بارادته كفر لايرضاه و لايحبّه، فهو يريد كون ما

لايرضاه، و قد أراد الله عزّوجلّ خلق إبليس و هو لايرضاه، فالإرادة غير الرضا، و هذا مذهب أهل السّنّة» انتهى كلامه.

قال الله تعالى فيهم: «و لقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه» سبأ: ٢٠).

و قال: «إنّهم اتّخذوا الشّياطين أوليآء من دون الله و يحسبون أنّهم مهتدون» الأعراف: ٣٠).

و قال: «و لاتتّبعوا خطوات الشيّطان إنّه لكم عدوّ مبين إنّما يأمركم بالسّوء والفحشآء و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون» البقرة: ١٦٨-١٦٩).

و قال: «ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما انزل إليك و ما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت و قد أُمروا أن يكفروا به و يريد الشّيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً» النّسآء: ٦٠).

و قال: «و يوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جآئني و كان الشّيطان للإنسان خذولاً» الفرقان: ٢٧-٢٩).

و قد تقدّم منّا كلام في البحث المذهبي في قوله تعالى: «إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم و لايرضى لعباده الكفر...» الزّمر: ٧) فراجع و اغتنم جدّاً و لاتغفل.

الأمر السّادس: أنّ المشبّهة و المجسّمة من الأشاعرة و الحشويّة و من شرب مشاربهم من العامّة تشبّثوا بقوله تعالى: «يد الله فوق أيديهم» الفتح: ١٠) على إثبات اليدين لله سبحانه كغيرهما من الأعضآء و الجوارح لله جلّوعلا: «سبحانه و تعالى عمّا يصفون» الأنعام: ١٠٠).

في كتاب الإبانة: (ص ٤٠ ط حيدرآباد) قال أبوالحسن الأشعري إمام الأشاعرة السّفلة الجهلة: «فإن سئلنا أتقولون: إنّ لله يدين؟ نقول: ذلك، و قد دلّ عليه قوله عزّوجلّ: «يد الله فوق أيديهم» الفتح: ١٠).

أقول: و قد جآئت كلمة «يد» على صيغها المختلفة، مأة و عشرون مرّة في القرآن الكريم، و قد أُضيفت عشر موضعاً منها بصيغ الإفراد و التثنية و الجمع إلى لفظ الجلالة: «الله» و ضميره تعالى:

١- كقوله جلّ وعلا: «يد الله فوق أيديهم» الفتح: ١٠) ٢- «قل إنّ الفضل بيد الله» آل عمران: ٧٣) ٣- «و أنّ الفضل بيد الله» الحديد: ٢٩) ٤- «بين يدى الله و رسوله» الحجرات: ١) ٥- «و قالت اليهود يد الله مغلولة» المائدة: ٦٤) ٦- «بيدك الخير» آل عمران: ٢٦) ٧-٩- «بشراً بين يدي رحمته» الأعراف: ٥٧) و الفرقان: ٤٨) و النّمل: ٦٣) ١٠- «قل من بيده ملكوت كلّ شئ» المؤمنون: ٨٨) ١١- «بيده الملك» ١) ١٢- «فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شئ» يس: ٨٣) ١٣- «لما خلقت بيديّ» ص: ٧٥) ١٤- «ممّا عملت أيدينا أنعاماً» يس: ٧١) ١٥- «و السّمآء بنيناها بأيد» الذّاريات: ٤٧).

و لا يخفى على أهل الأدب و البيان: أنّ لليد في القرآن الكريم و الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و كلمات العرب معانٍ مختلفة:

منها: الجارحة المخصوصة للأخذ و العطاء. و **منها:** النّعمة و العطيّة. يقال: لفلان يد بيضآء. و **منها:** القدرة و الإحكام و القوّة و النّصرة. يقال: فلان تلق قولي باليدين أي بالقوّة و الفعل. و **منها:** تحقيق الإضافة. و يقال: «هذا ما حسنت يداك» و إذا قال رجل: هذا بيدي دلّ ذلك على انفراده بعمله من غير أن يكله إلى أحد غيره كقوله تعالى: «لما خلقت بيدى» ص: ٧٥) و **منها:** الرّحمة و الحنان. و **منها:** الملك و السّلطان. و **منها:** القبضة و البسطة. و **منها:** البصيرة. و **منها:** العناية الخاصّة، و غيرها من المعاني دون الجارحة المخصوصة.

و أنّ اليد بمعنى العضو المركّب المائت الجامد العفن الفاسد في حقّ الله سبحانه محال.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب(عليه السلام): «ما وحّده مَن كيّفه، و لا حقيقته أصاب مَن مَثّله، و لا إيّاه عَنىٰ من شبّهه، و لا صمده من أشار إليه و توهّمه...» الخطبة: ٢٢٨).

و فيه: قال مولى الموحّدين عليّ(عليه السلام): «لاتدركه العيون بمشاهدة العيان، و لكن تدركُهُ القلوب بحقآئق الايمان، قريب من الأشيآ، غير ملامس، بعيد منها غير مباين، متكلّم لابرويّة، مريد لا بهمّة، صانع لابجارحة، لطيف لايوصف بالخفآء، كبير

لايوصف بالجفاء، بصير لايوصف بالحاسّة، رحيم لايوصف بالرّقّة...».

و فيه: قال إمام المتّقين عليّ﴿عليه السلام﴾: «و لاينظر بعين و لايُحدّ بأين، و لايوصف بالأزواج، و لايخلق بعلاج، و لايدرك بالحواسّ و لايقاس بالنّاس الّذي كلّم موسى تكليماً، و أراه من آياته عظيماً بلا جوارح و لا أدوات و لا نطق و لا لهوات...».

قال الله تعالى: «لاتدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللّطيف الخبير» الأنعام: ١٠٤).

و أنّ اليد عبارة عمّا به إفاضة الخير و الإحسان... على الغير سواء كان عضواً مركّباً من عظم و لحم و جلد و غيرها أو جوهراً حيّاً عالماً قادراً كما يقال: الوزير يد السّلطان أي هو واسطة فيضه على من سواه.

و إنّما المراد من «يد الله» يد رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإنّه كان واسطة بين الله تعالى و بين المبايعين في المبايعة، كما أنّ الله سبحانه جعل رمي رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ رمي نفسه في قوله تعالى: «و ما رميت إذ رميت و لكنّ الله رمى» الأنفال: ١٧).

و في نسبة مالرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الشّأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة منها قوله عزّوجلّ: «من يطع الرّسول فقد أطاع الله» النّسآء: ٨٠). و قوله سبحانه «قد نعلم إنّه ليحزنك الّذي يقولون فإنّهم لايكذّبونك و لكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون» الأنعام: ٣٣).

فيد رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ الّتي فوق أيدى المبايعين في المبايعة هي يد الله تعالى العليا لأنّ يد الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ يد المرسل، فمن كان يبايع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإنّما يبايع الله سبحانه، و من ثمّ فمن نكث بيعته﴿صلى الله عليه و آله﴾ نكث ما عاهد على الله تعالى.

و إنّما المراد من فوقيّة يد الله سبحانه: «فوق أيديهم» فوقيّة الذّات و الفعل والصّفات، فوقيّة الإنيّة و الكينونة، و فوقيّة تخرجها عن ذوات الخلق و أفعالهم و صفاتهم عن مادّياتهم و معنويّاتهم، خارجة عن الحدود و الجهات إذ «ليس كملثه شئ» الشّورى: ١١) بأيّة مماثلة، و في أيّ شئ، لا فوقيّة الجهة الّتي زعمتها المشبّهة و المجسّمة و الأشاعرة من العامّة، إذ ليست لله سبحانه جهة.

و **بعبارة اخرى:** انّ المؤثّر الحقيقي في الكون هو الله تعالى وحده، و الوسآئط كلّها مسخّرة لقدرته عزّوجلّ سوآء كانت رسلاً إلهيّة و ملائكة علويّة و أجراماً سماويّة أم كانت عناصر سفليّة أرضيّة، فليس لشئ منها رتبة الإنشآء و الايجاد، و إن كانت لها رتبة الأسباب و الوساطة فحينئذ ليس معنى اليد منحصراً بالجارحة المخصوصة الّتي اعتادها أهل اللغة عند الإطلاق، بل الواسطة الطبيعيّة بين القدرة على القبض و البسط و متعلّقها سواء كانت اموراً جسمانياً من عظم و لحم و رباط و عصب أم لم يكن.

فكما أنّ ذات الله عزّوجلّ و صفاته لا يشبه ذوات الخلق و صفاتهم، فكذلك كلّ ما نسب إليه من اليد و اليمين و الوجه، و القلم و اللوح و الكتابة و الرّقّ المنشور و البيت المعمور و العرش و الكرسي...

أما سمعت أنّ متاع البيت يشبه ربّ البيت، فكما أنّ ذاته سبحانه لايشبه ذوات أحد من خلقه، فيد الله تعالى لايشبه الأيدى، و لا قلمه يشبه أقلام خلقه، و لا خطّه سآئر الخطوط... فليس الله سبحانه في ذاته و صفاته بجسم و لا في مكان، و لاتكون يده من لحم و عظم و دم بخلاف أيدى خلقه، و كذا لايكون قلمه من قصب، و لا لوحه من خشب... فإذا كان الله عزّوجلّ منزّهاً في ذاته و صفاته عن مشاركة الأجسام و صفاتها، فكذلك يده و قلمه و لوحه و علمه... كيف لا و هو وحده الخالق، و غيره كلّهم خلقه و عباده...

فالأيدى العمّالة لله تعالى هي الوسائط العقليّة و النّفسية من الأنبيآء و المرسلين والأوصيآء و المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، و من الملائكة السّماويّة و الأرضيّة الموكّلة بخلق موادّ الحيوان و الإنسان و النّبات و الجماد، فكلتا يدى الرّحمن عين «يد الله فوق أيديهم» «و الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة» «و السّموات مطويّات بيمينه» فالقدرة الإلهيّة ليست كالقدرة الّتي في الحيوان، و إنّما هى الصّحّة المتساوية طرفاها المفتقرة إلى الدّاعي و الرّجحان، و أنّ يمينه ليس كسآئر الأيمان... كما زعموا هؤلآء السّفلة و الجهلة من الأشاعرة و المجسّمة و المشبّهة من العامّة.

و إنّما الشّمس و القمر و الكواكب و النّجوم و الأفلاك و الجوّ و الفضآء و الغيم و المطر

و الهواء و الماء و الأرض، و كلّ ما يحصل منه وجود الحيوان من مواد النّطق و الأركان... كلّها مسخّرات بيمينه، و في قبضته، وقدرته تسخّر القلم في يد الكاتب.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «بيدك ناصية كلّ دابّة، و إليك مصير كلّ نسمة...» الخطبة: ۱۰۸).

و فيه: قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ﴿عليه السلام﴾: «فاتّقوا الله الّذى أنتم بعينه و نواصيكم بيده و تقلّبكم في قبضته...» الخطبة: ۱۸۲).

و فيه: - في وصيّة الإمام أميرالمؤمنين لإبنه الحسن عليهما السلام كتبها إليه بحاضرين منصرفاً من صفّين- «... و أخلص في المسئلة لربّك فإنّ بيده العطآء و الحرمان- و اعلم أنّ الّذي بيده خزآئن السّموات و الأرض قد أذن لك في الدّعآء و تكفّل لك بالإجابة...».

فليست لله سبحانه يد جارحة كما أنّه ليست له جلّ وعلا الصّفات و الحالات المستحيلة الذّات بالنّسبة لساحة الالوهيّة لاتصحّ مهما بالغت في التّنزيه إلاّ جمعاً بين النّقآئض بأن تجمع له سبحانه بين الكمالات و النّقآئص...

الأمر السّابع: أنّ في قوله تعالى: «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» الفتح: ۱۱) إيذاناً بأنّ اللّسان لا عبرة به ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحقّ، و دليلاً على عدم التّلازم بين القلب و اللسان بأنّ كلّ كلام، دليل القلب كما في الفلسفة.

الأمر الثّامن: أنّ جماعة من متفسّري العامّة تشبّثوا بقوله سبحانه: «قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون...» الفتح: ۱٦) على إمامة أبي‌بكر بن أبي‌قحافة، و عمر بن الخطّاب، و قد أضاف بعضهم إمامة عثمان بن عفّان على إمامتهما.

أقول: كلّ ذلك مردود عند أكثر أعلام العامّة، و مدفوع عند أعاظم الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة عقلاً و نقلاً.

في تفسير الكشّاف: قال الزّمخشري: «و هذا دليل على إمامة أبي‌بكر، فإنّهم لم يدعوا إلى حرب في أيّام الرّسول﴿صلى الله عليه و آله و سلم﴾ و لكن بعد وفاته».

و في تفسير البحر المحيط: قال أبو حيّان: «و هذا- كلام الزّمخشري- ليس

بصحيح، فقد حضر كثير منهم مع جعفر في موتة، و حضروا حرب هوازن مع رسول الله﴿ﷺ﴾ و حضروا معه في سفرة تبوك».

و قال بعضهم: إنّ الاستدلال بالآية على إمامة أبي‌بكر ممّا تضحك به الثّكلى، حيث إنّ الدّاعي هو نفس رسول الله﴿ﷺ﴾ يدعوهم إلى فتح مكّة، و اولوا بأس شديد هم كفّار مكّة لقوله تعالى: «هم الّذين كفروا و صدّوكم عن المسجد الحرام...».

و في تفسير النيشابوري: «و قد يستدلّ بهذا على إمامة أبي‌بكر، فإنّهم لم يدعوا إلى حرب في أيّام رسول الله﴿ﷺ﴾ و لكن بعد وفاته، و لا سيّما فيمن يزعم أنّه ينزل فيهم «لن تخرجوامعي أبداً» اللّهمّ إلاّ أن يقال: المراد لن تخرجوا معي مادمتم على حالكم من مرض القلوب و الاضطراب في الدّين أو أنّهم لايتّبعون الرّسول إلاّ متطوّعين لا نصيب لهم في المغنم قاله مجاهد. و قيل: الأجر الحسن، الغنيمة فقط بناء على أنّ الآية في المنافقين، و على هذا لايتمّ الاستدلال على إمامة الخلفآء».

و في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي قال: «في هذه الآية دليل على صحّة إمامة أبي‌بكر و عمر لأنّ أبابكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، و عمر دعاهم إلى قتال فارس والرّوم. و أمّا قول عكرمة و قتادة:

إنّ ذلك في هوازن و غطفان يوم حنين فلا، لأنّه يمتنع أن يكون الدّاعى لهم الرّسول عليه‌السّلام لأنّه قال: «لن تخرجوا معى أبداً و لن تقاتلوا معى عدوّاً» فدلّ على أنّ المراد بالدّاعي غير النّبيّ﴿ﷺ﴾ و معلوم أنّه لم يدع هؤلآء القوم بعد النّبيّ﴿ﷺ﴾ إلاّ أبوبكر و عمر. الزّمخشري: فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى: لن تخرجوا معي أبداً مادمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب و الاضطراب في الدّين أو على قول مجاهد: كان الموعد: أنّهم لايتّبعون رسول الله﴿ﷺ﴾ إلّا متطوّعين لا نصيب لهم في المغنم».

و في روح المعانى: قال مفتي البغداد الآلوسي: «و شاع الاستدلال بالآية على صحّة إمامة أبي‌بكر،و وجّه ذلك الإمام فقال: الدّاعي في قوله تعالى: «ستدعون» لايخلو من أن يكون رسول الله﴿ﷺ﴾ أو الأئمّة الأربعة أو من بعدهم، لايجوز الأوّل لقوله سبحانه: «قل لن تتّبعونا...» و لا أن يكون عليّاً رضى الله تعالى عنه و كرّم الله وجهه لأنّه إنّماقاتل البغاة و الخوارج، و تلك المقاتلة للإسلام لقوله عزّوجلّ: «أو يسلمون» و

لا من ملك بعدهم لأنّهم عندنا على الخطأ، و عند الشّعية على الكفر، و لمّا بطلت الأقسام تعيّن أن يكون المراد بالدّاعي أبابكر و عمر و عثمان.

ثمّ إنّه تعالى أوجب طاعته و أوعد على مخالفته، و ذلك يقتضي إمامته، و أيّ الثّلاثة كان ثبت المطلوب، أمّا إذا كان أبابكر فظاهر، و أمّا إذا كان عمر أو عثمان فلأنّ إمامته فرع إمامته، و تعقب بأنّ الدّاعي كان رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و يشعر بذلك السّين قوله لايجوز لقوله سبحانه: «لن تتّبعونا...» فيه أنّ لن لاتفيد التّأبيد على الصّحيح، و ظاهر السّياق يدلّ على أنّ المراد به لن تتّبعونا في الانطلاق إلى خيبر كما سمعت عن محيى السّنّة أو هو مقيّد بما روى عن مجاهد أو بما يحكى عن بعض، و قال أبوحيّان: «القول بأنّهم لم يدعوا إلى حرب في أيّام الرّسول﴿صلى الله عليه و آله﴾ ليس بصحيح، فقد حضر كثير منهم مع جعفر في موتة، و حضروا حرب هوازن معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و حضروا معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أيضاً في سفرة تبوك انتهى.

ثمّ قال الآلوسي: و لايخفى أنّ هذا إذا صحّ ينفى حمل النّفي على التأبيد، و من الشّيعة من اقتصر في ردّ الاستدلال على الدّعوة في تبوك، و تعقب بأنّه لم يقع فيها ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: «تقاتلونهم أو يسلمون»و منهم من زعم أنّ الدّاعي عليّ كرّم الله تعالى وجهه، و زعم كفر البغاة و الخوارج عليه رضى الله تعالى عنه، و انّه لو سلّم إسلامهم يراد بالإسلام في الآية الانقياد إلى الطّاعة و موالاة الأمير و فيه ما لايخفى، والإنصاف أنّ الآية لاتكاد تصحّ دليلاً على إمامة الصّدّيق إلّا أن صحّ خبر مرفوع في كون المراد بالقوم بني حنيفة و نحوهم، و دون ذلك خرط القتاد، و نفى بعضهم صحّة كون المراد بالقوم فارساً و الرّوم لأنّ المراد في قوله تعالى: «تقاتلونهم أو يسلمون على ما سمعت و فارس مجوس و الرّوم نصارى فلايتعيّن فيهم أحد الأمرين من المقاتلة أو الإسلام إذ يقبل منهم الجزية و كذا اليهود و مشركوا العجم و الصّابئة عند أبي حنيفة، و قال: يتعيّن كونهم مرتدّين أو مشركي العرب لأنّهم الّذين لايقبل منهم إلاّ الإسلام أو السّيف و مثل مشركي العرب مشركوا العجم عند الشّافعيّ، فعنده لاتقبل إلاّ من أهل الكتاب و المجوس، و أنت تعلم أنّ من فسّر القوم بذلك يفسّر الإسلام بالانقياد و هو يكون بقبول الجزية فلايتمّ له أمر النّفي فلاتغفل».

و في كتاب **الإفصاح في الإمامة** للشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه قال: «إنّ العامّة قالوا: وجدنا الله تعالى يقول في سورة الفتح: «سيقول لك المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها – إلى قوله –: و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً» قالوا: فحظر الله على نبيّه﴿عليه السلام﴾ إخراج المخلّفين معه بقوله: «قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل» ثمّ أوجب عليهم الخروج مع الدّاعي لهم من بعده إلى قتال القوم الّذين وصفهم بالبأس الشّديد من الكفّار، و ألزمهم طاعته في قتالهم حتّى يجيبوا إلى الإسلام، و وجدنا الدّاعي لهم إلى ذلك من بعده أبابكر و عمر لأنّ أبابكر دعاهم إلى قتال المرتدّين، و كانوا اولى بأس شديد على الحال المعروفة، ثمّ دعاهم عمر بن الخطّاب من بعده إلى قتال أهل فارس، و كانوا كفّاراً أشدّآء، فدلّ ذلك على إمامتهما بما فرض الله تعالى في كتابه من طاعتهما، فهذا دليل للقوم على نظامه الّذي حكيناه فما قولكم فيه؟

قيل له: (لهم): ما نرى في هذا الكلام – على إعجاب أهل الخلاف به – حجّة تؤنس و لا شبهة تلتبس، و ليس فيه أكثر من الدّعوى العريّة عن البرهان، و من لجأ إلى مثله فيما يجب بالحجّة و البيان، فقد كشف عن عجزه و شهد على نفسه بالخذلان، و ذلك أنّ متضمّن الآي يُنبئ عن منع المخلّفين من اتّباع رسول الله﴿عليه السلام﴾ عند الانطلاق إلى المغانم الّتي سئله القوم اتّباعه ليأخذوها، و ليس فيه حظر عليه﴿عليه السلام﴾ إخراجهم معه في غير ذلك الوجه، و لا منع له من ايجاب الجهاد عليهم معه في مغاز اُخر.

و بعد تلك الحال، فمن أين يجيب إذا كان الله تعالى قد أمره بايذانهم عند الرّدّ لهم عن وجه الغنيمة بالدّعوة فيما بعد إلى قتال الكافرين أن يكون ذلك بدعآء من بعده دون أن يكون بدعائه هو بنفسه﴿عليه السلام﴾ إذا كان﴿عليه السلام﴾ قد دعا اُمّته إلى قتال طوآئف من الكفّار اولى بأس شديد بعد هذه الغزاة الّتي غنم فيها المسلمون، و حظر الله فيها على المخلّفين الخروج، و هل فيما ذكروه منذلك أكثر من الدّعوى على ما وصفناه؟

ثمّ يقال لهم: أليس الوجه الّذي منع الله تعالى المخلّفين من اتّباع النّبيّ﴿عليه السلام﴾ فيه الوصول إلى الغنآئم منه بالخروج معه هو فتح خيبر الّذي بشّر الله تعالى به أهل بيعة الرّضوان على ما اتّفق عليه أهل التّفسير، و تواتر به أهل السّير و الآثار؟! فلابدّ من أن

يقولوا: بلى، و إلاّ سقط الكلام معهم فيما يتعلّق بتأويل القرآن، و يرجع فيه إلى علمآء التّفسير و رواة الأخبار إذ ما وصفناه إجماع ممّن سمّيناه.

فيقال لهم: أو لستم تعلمون أنّ رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ قد غزا بعد غزوة خيبر غزوات عديدة، و سار بنفسه و أصحابه إلى مواطن كثيرة، و استنفر الأعراب و غيرهم فيها إلى جهاد الكفّار، و لقي المسلمون في تلك المقامات من أعدآئهم ما انتظم وصف الله تعالى له بالبأس الشّديد لاسيّما بمؤتة و حنين و تبوك سوى ما قبلها و بينها و بعدها من الغزوات؟! و لابدّ أيضاً من أن يقولوا: بلى، و إلاّ وضح من جهلهما يحظر مناظرتهم في هذا الباب.

فيقال لهم: فمن أين يخرج لكم مع ماوصفناه - أيّها الضّعفآء الأوغاد - وجوب طاعة المخلّفين من الأعراب بعد النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ دون أن يكون هو الدّاعي لهم بنفسه على ما بيّنّاه؟ فلا يجدون حيلة في إثبات ما ادّعوه مع ما شرحناه.

ثمّ يقال لهم: ينبغي أن تنتبهوا من رقدتكم، و تعلموا أنّ الله تعالى لو أراد منع المخلّفين من اتّباع النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في جميع غزواته - على ما ظننتموه - لماخصّ ذلك بوقت معين دون ما سواه، و لكان الحظر له وارداً على الإطلاق، و بما يوجب عمومه في كلّ حال، و لمّا لم يكن الأمر كذلك بل كان مختصّاً بزمان الغنآئم الّتي تضمّن البشارة فيها القرآن و بوصف مسئلتهم له بالاتّباع دون حال الامتناع منه أو الإعراض عن السّئوال دلّ على بطلان ما توهّمتموه، و وضح لكم بذلك الصّواب.

و قد ظنّ بعض أهل الخلاف بجهله و قلّة علمه أنّ هؤلآء المخلّفين من الأعراب هم الطّائفة الّذين تخلّفوا عن رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في غزوة تبوك، و كانت مظاهرة له بالنّفاق، فتعلّق فيما ادّعاه من حظر النّبيّ ﴿صلی الله علیه و آله﴾ عليهم الاتّباع له على كلّ حال، بقوله جلّ إسمه في سورة التّوبة: «فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً و لن تقاتلوا معى عدوّاً إنّكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة فاقعدوا مع الخالفين» التّوبة: ٨٣).

فقال: هذا هو المراد بقوله في سورة الفتح: «كذلكم قال الله من قبل»: ١٥) و إذا كان

قد منعه من إخراجهم معه أبداً، ثبت أنّ الدّاعي لهم إلى قتال القوم الّذين وصفهم بالبأس الشّديد هو غيره و ذلك مصحّح عند نفسه ما ادّعاه من وجوب طاعة أبي‌بكر و عمر و عثمان على ما قدّمنا القول فيه و بيّنّاه آنفاً.

فيقال له: أيّها الغافل الغبيّ النّاقص، أين يُذهب بك و هذه الآية و ما قبلها من قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة إلاّ قليل» التّوبة: ۳۸). نزلت في غزوة تبوك بإجماع علمآء الأُمّة، و لتفصيل ما قبلها من التأويل قصص طويلة قد ذكرها المفسّرون و سطرها مصنّفو السّير و المحدّثون؟!

و لا خلاف أنّ الآيات الّتي نزلت في سورة الفتح نزلت في المخلّفين عن الحديبيّة، و بين هاتين الغزوتين من تفاوت الزّمان ما لايختلف فيه اثنان من أهل العلم، و بين الفريقين أيضاً في النّعت و الصّفات اختلاف في ظاهر القرآن، فكيف يكون ما نزل بتبوك – و هي في سنة تسع من الهجرة – متقدّماً على النّازل في عام الحديبيّة – و هى سنة ستّ – لولا أنّك في حيرة تصدّك عن الرّشاد.

ثمّ يقال له: فهب أنّ جهلك بالأخبار، و قلّة معرفتك بالسّير و الآثار، سهّل عليك القول في تأويل القرآن بما قضى على بطلانه التّأريخ المتّفق عليه بواضح البيان، أما سمعت الله جلّ اسمه يقول في المخلّفين من الأعراب: «ستدعون إلى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً و إن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً».

فأخبر عن وقوع الدّعوة لهم إلى القتال على الاستقبال و إرجاء أمرهم في الثّواب والعقاب بشرطه في الطّاعة منهم و العصيان، و لم يقطع بوقوع أحد الأمرين منهم على البيان.

و قال جلّ اسمه في المخلّفين الآخرين من المنافقين المذكورين في سورة براءة: «فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً و لن تقاتلوا معى عدوّاً إنّكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة فاقعدوا مع الخالفين و لاتصلّ على أحد منهم

مات أبداً و لا تقم على قبره إنّهم كفروا بالله و رسوله و ماتوا و هم فاسقون» ٨٣-٨٤).

فقطع على استحقاقهم العقاب و أخبر نبيّه﴿ﷺ﴾ بخروجهم من الدّنيا على الضّلال، و نهاه عن الصّلاة عليهم إذا فارقوا الحياة ليكشف بذلك عن نفاقهم لسآئر النّاس، و شهد عليهم بالكفر بالله عزّ اسمه و برسوله﴿ﷺ﴾ بصريح الكلام، و لم يجعل لهم في الثّواب شرطاً على حال، و أكّد ذلك بقوله تعالى: «و لاتعجبك أموالهم و أولادهم إنّما يريد الله أن يعذّبهم بها في الدّنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون» التّوبة: ٨٥).

و هذا جزم من الله تعالى على كفرهم في الحال و موتهم على الشّرك به، و سوء عاقبتهم و خلودهم في النّار، و قد ثبت في العقول فرق ما بين المُرجأ أمره فيما يوجب الثّواب و العقاب، و بين المقطوع له بأحدهما على الوجوه كلّها.

و أنّ الإرجاء لما ذكرناه و الشّرط الّذي ضمنه كلام الله تعالى فيما تلوناه لايصحّ اجتماعه مع القطع بما شرحناه من متضمّن الآي الأُخر على ما بيّنّاه لشخص واحد و لا لأشخاص متعدّدة على جميع الأحوال و أنّ من جوّز ذلك و ارتاب في معناه فليس بمحلّ من يناظر في الدّيانات لأنّه لايصير إلى ذلك إلاّ بآفة تُخرجه عن حدّ العقلآء أو مكابرة ظاهرة و عناد، و هذا كاف في فضيحة هؤلآء الضّلّال الّذين حملهم الجهل بدين الله و النّصب لآل محمّد نبيّه﴿ﷺ﴾ على القول في القرآن بغير هدى و لابيان، نسئل الله التّوفيق و نعوذ به من الخذلان.

الأمر التّاسع: أنّ جماعة من العامّة تشبّثوا بقوله تعالى: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة...» الفتح: ١٨) على فضل أبي بكر و عمر بأنّهما كانا من المبايعين تحت الشّجرة الّذين رضى الله عنهم و أنزل السّكينة عليهم، و علم ما في قلوبهم من الايمان، و أثابهم فتحاً قريباً.

أقول: و قد صرّح تعالى بأنّه رضى عن المؤمنين من المبايعين لامطلق المبايعين، فملاك الرّضا هو الايمان لاالمبايعة مطلقة، حيث إنّ تعليق الحكم على الوصف مشعر بعليّة الوصف للحكم، و لاريب أنّ المبايعين لو يكونوا كلّهم عند المبايعة تحت الشّجرة مؤمنين إذ كان فيهم ابن أبي سلول رأس المنافقين، و فيهم جد بن قيس و طلحة و الزّبير

رأس النّاكثين، و فيهم سعد بن أبي وقّاص و محمّد بن سلمة و سعد بن عبادة و أضرابهم... رؤوس المخالفين...

مع أنّ الرّضا كان مشروطاً بالوفاء و عدم النّكث كما صرّح تعالى بذلك من قبل في قوله سبحانه: «فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً»: ۱۰) و لاريب أنّ من هؤلآء المبايعين من نكث فإنّهم بايعوا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ تحت الشّجرة على أن يثبتوا في الحرب حتّى يقتلوا أو يغلبوا، فقد انهزم أبوبكر و عمر في فتح خيبر بعد صلح الحديبيّة، و خالفا عمّا بايعاه﴿صلى الله عليه وآله﴾ به، ففي قوله عزّوجلّ: «لقد رضي الله عن المؤمنين...» دلالة واضحة على عدم رضا الله تعالى عمن خالفوا و نكثوا عهدهم، و عمّن بايعوه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من دون ايمان... فعلم الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من المبايعين، فأنزل السّكينة على هؤلآء المؤمنين دون مطلق المبايعين، و أثاب هؤلآء المؤمنين فتحاً قريباً و هو فتح خيبر بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و في التبيان: قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه: «و استدلّ بهذه الآية جماعة على فضل أبي بكر، فإنّه لاخلاف أنّه كان من المبايعين تحت الشّجرة، و قد ذكرالله أنّه رضي عنهم و أنّه أنزل السّكينة عليهم، و أنّه علم ما في قلوبهم من الايمان و أثابهم فتحاً قريباً».

قال الشّيخ رضوان الله تعالى عليه: «و الكلام على ذلك مبنّي على القول بالعموم، و في أصحابنا من قال: لاصيغة للعموم ينفرد بها، و به قال كثير من المخالفين، فمن قال بذلك كانت الآية عنده مجملة لايعلم المعنيّ بها، و قد بايع النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ جماعة من المنافقين بلا خلاف، فلابدّ من تخصيص الآية على كلّ حال، على أنّه تعالى وصف من بايع تحت الشّجرة بأوصاف قد علمنا أنّها لم تحصل في جميع المبايعين، فوجب أن يختصّ الرّضا بمن جمع الصّفات لأنّه قال: «فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً» و لا خلاف بين أهل النّقل: أنّ الفتح الّذي كان بعد بيعة الرّضوان بلا فصل هو فتح خيبر، و أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ عند ذلك قال: «لاعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يده».

فدعا عليًّا﴿عليه السلام﴾ فأعطاه الرّاية، و كان الفتح على يده، فوجب أن يكون هو المخصوص بحكم الآية و من كان معه في ذلك الفتح لتكامل على الصّفات فيهم، على أنّ ممّن بايع بيعة الرّضوان طلحة و الزّبير، و قد وقع منهما من قتال عليّ﴿عليه السلام﴾ ما خرجا به عن الايمان و فسقاً عند جميع المعتزلة و من جرى مجراهم...».

الأمر العاشر: أنّ في قوله تعالى: «و لو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لاتجدون وليًّا و لانصيراً سنّة الله الّتي قد خلت من قبل و لن تجد لسنّة الله تبديلاً» الفتح: ٢٢-٢٣) دلالة على أنّ المعدوم، معلوم في علم الله جلّ وعلا، و أنّ علمه سبحانه قديم و المعلوم متجدّد، و أنّ الصّفات الذّاتيّة كالعلم و الحكمة و القدرة و ما إليها، و الصّفات الفعليّة كالخالقيّة و الرّازقيّة و الفيّاضيّة و ما إليها كلّها قديمة، عين ذاتها، غير زائدة على ذاته، بأنّ الله تعالى كان خالقاً، رازقاً، مريداً قائماً بالقسط و العدل و الجود و الكرم، و الفيض و الإحسان أزلاً أبداً، و إن كان العالم بكلّه و جزئه حادثاً زمانيًّا.

فالله عزّوجلّ في الأزل عالم، قادر، حكيم، سميع، بصير، مريد، خالق لما يشآء، كيف يشآء، متى يشآء، فاعل لما يريد، كيف يريد، متى يريد... فيكون الخالق قديماً و المخلوق حادثاً، و العلم قديماً و المعلوم متجدّداً، و كذا الإرادة و الإحسان و الإفاضة و الرّازقيّة كلّها مستمرّة أزليّة، ولكنّ المرادات و المفاضات و الأرزاق حادثة متجدّدة «و لن تجد لسنّة الله تبديلاً» لعدم تغيّره في ذاته و كمالات ذاته، و ما تقتضيه صفاته الكماليّة «و لن تجد لسنّة الله تحويلاً» إذ لامحوّل لفيضه و إعطائه، و لامبطل لقيّوميّته و إنشآئه، و لامبدّل لكلماته «لايبدّل القول لديه» فإنّ قوله إبداعه، و أمره كلمته و تكوينه: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» يس: ٨٢) أمره دائم لايتغيّر، و لايوجب تغيّر المأمور في ذاته تغيّر الأمر، لأنّ الأمر من عالم الإلهيّة و البقآء، و المأمور من عالم الخلق والفنآء.

و الدّاعى له تعالى على الخلق و الإفاضة ليس إلاّ نفس علمه بالنّظام الأكمل الّذي هو عين ذاته، فإنّ ذاته هو النّظام المعقول الواجبي الّذي يتبعه النّظام الموجود الممكني بصرف الإرادة لا كاتباع الضّوء للمضيء واتّباع السّخونة للجوهر الحار، بل نفس

الموجود الّذي وجوده بعينه يخرج من القوّة إلى الفعل بصرف الإرادة لاتدريجاً كما زعمه بعض كالأُبوّة للصبيّ الذّكر، و الأُمومة للصبيّة الانثى على التدريج، فهو من مقولة الجوهر الّذي يقع فيه، و به الحركة الذّاتيّة، و إنّ الحدوث و التجدّد من لوازمه الغير المجعولة بجعل مستأنف يتخلّل بين الشّىء و موصوفه.

فالجاعل القديم بقدرته القديمة و بنحو ثباته يفعل الجوهر الجسمانيّة، و هي من حيث أصل ذاتها و ثبات وجودها الّذي هو عين الحدوث و التّجدّد مرتبطة بالفاعل و بقدرته التّامّة، و لالمّيّة لها في نحو حدوثها و تجدّدها إلاّ إرادة الفاعل الذّاتيّة، فلا يتصوّر للجوهر الجسمانيّة وجود خارجيّ إلاّ على هذا النّحو، فعلى هذا الوجه صحّ القول: بأنّ العلم و الحكمة، و القدرة و الإرادة، و الجود و الإحسان و الخالقيّة و الرّازقيّة من الصّفات الذّاتيّة و الفعليّة كلّها أزليّة، و العالم بكلّه و جزئه حادث، لا على ما ذهبت إليه الأشاعرة:

أنّ العلم قديم، و التعلّق حادث، و أنّ القدرة قديمة و تعلّقها بالمقدورات حادثة، لأنّ مبناه على الإرادة الجزافيّة، و على إبطالهم القول بالعلّة و المعلول، و أيضاً: كون العلم والقدرة و الفيض و الحكمة و ما إليها من الصّفات الّتي تلزمها الإضافة قديمة و متعلّقاتها حادثة غير معقولة بناءاً على مذهبهم من انقطاع الفيض، و تخصيص آن من الآنات بأوّل الحدوث.

و لا على ما ذهبت إليه بعض المعتزلة: أنّ علم الله سبحانه بالأصلح علّة مقتضية لوجود العالم في الوقت الّذي وجد فيه دون غيره من الأوقات، و لايلزم من هذا تخلّف المعلول عن العلّة المقتضيّة، لأنّ الّذي اقتضاه العلم بالأصلح هو وجود المعلول على هذا الوجه، فلم يلزم تخلّف أصلاً و لا على ما ذهب إليه بعض الآخرين منهم: أنّ الدّاعي هو ذات الوقت على سبيل الأولويّة أو على سبيل الوجوب، إذ لاوقت قبله، و لا على ما ذهب بعض المتفلسفين: أنّ الصّفات الذاتيّة كالالوهيّة و القدرة و العلم و الحكمه و ما إليها قديمة، عين ذاته، و أنّ الصّفات الفعليّة كالرازقيّة و الخالقيّة و الإحسان و ما إليها خارجة عن ذاته، حادثة بحدوث متعلّقها بأنّ الله سبحانه كان في الأزل ممسكاً عن

الخلق و الايجاد و الفيض و الإحسان، ثمّ أراد الخلق و التّكوين، فخلق الخلق، بعضه مكشوف بالحسّ و العيان، و بعضه معلوم بالقياس و البرهان.

الأمر الحادي عشر: أنّ بعض العامّة تشبّث بقوله تعالى: «بغير علم» الفتح: ٢٥) على تفضيل الصّحابة كلّهم، و عفّتهم عن المعصية، و عصمتهم عن التّعدّى و الطّغيان، و البغي و العدوان...

في الجامع لأحكام القرآن: قال القرطبي في آية (٢٥) من سورة الفتح: الثّالثة: قوله تعالى: «بغير علم» تفضيل للصّحابة، و إخبار عن صفتهم الكريمة من العفّة عن المعصية، و العصمة عن التّعدّي، حتّى لو أنّهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد».

أقول: و لعمري أنّي صرت متحيّراً في جواب هذا الغبيّ الضّالّ المضلّ أو لم يعلم أنّ بين هؤلآء الصّحابة المعصومين عنده منافقين، طاعنين، معترضين على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و منكرين لكلامه مرّة بعد اخرى و قد صرّح بذلك أعاظم العامّة و مفسّريهم و محدّثيهم و مؤرّخيهم و حملة آثارهم و قد تقدّم منّا بمواضع من تفسير هذه السّورة، و خاصة في بحث النّزول و الرّواية، و من مفسّريهم هو الطّبري قال في تفسير قوله تعالى: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء الله...» الفتح: ٢٧) ما لفظه: «حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ» إلى آخر الآية قال: قال لهم النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّي قد رأيت أنّكم ستدخلون المسجدالحرام محلّقين رؤسكم و مقصّرين» فلمّا نزل بالحديبيّة و لم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه؟! فقال الله: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ» فقرأ حتّى بلغ و مقصّرين لاتخافون: إنّي لم أره يدخلها هذا العام و ليكوننّ ذلك».

و قد تواتر اعتراض عمر بن الخطّاب على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و طعنه و إنكاره لكلام الله جلّ وعلا و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثلاث مرّات في سفرة الحديبيّة، فلو كان الطّعن و النّفاق والاعتراض و الإنكار من علائم العفّة و آثار العصمة لكان الشّيطان أوّل المعصومين، و كان استكباره من دون قصدٍ لايضرّ بعصمته، العياذ بالله تعالى من الأهوآء النّفسانيّة و ورطاتها...

﴿ منزلة الصّحابة عند العامّة و الخاصّة ﴾

و اعلم أنّ المقام يقتضي أن نبيّن منزلة الصّحابة عند العامّة و الخاصّة على سبيل الإجمال و نحن على جناح الاختصار: أمّا منزلة الصّحابة عند العامّة فنكتفى روماً للاختصار بما صرّحه القرطبي و هو من أعاظم العامّة و مفسّريهم.

في الجامع لأحكام القرآن: في آخر تفسير سورة الفتح ما لفظه:

«قلت: فالصّحابة كلّهم عدول، أوليآء الله تعالى و أصفيآئه و خيرته من خلقه بعد أنبيآئه و رسله، هذا مذهب أهل السّنّة، و الّذي عليه الجماعة من أئمّة هذه الأُمّة، و قد ذهبت شرذمة لامبالاة بهم إلى أنّ حال الصّحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، و منهم من فرّق بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنّهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثمّ تغيّرت بهم الأحوال، فظهرت فيهم الحروب و سفك الدّمآء، فلابدّ من البحث و هذا مردود، فإنّ خيار الصّحابة و فضلاءهم كعليّ و طلحة و الزّبير و غيرهم رضى الله عنهم ممّن أثنى الله عليهم و زكّاهم، و رضى عنهم و أرضاهم، و وعدهم الجنّة بقوله تعالى: «مغفرة و أجراً عظيماً» و خاصّة العشرة المقطوع لهم بالجنّة بإخبار الرّسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن و الامور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك، و ذلك غير مسقط من مرتبتهم و فضلهم إذ كانت تلك الامور مبنيّة على الاجتهاد، و كلّ مجتهد مصيب».

و قال الذّهبي في (سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٤٨) في شرح تصديق عمر بن الخطّاب، عبدالرّحمن بن عوف إذ قال له: «أنت عندنا العدل و الرّضا»: فأصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ و إن كانوا عدولاً فبعضهم أعدل من بعض».

و قال النّووي في (التقريب): «الصّحابة كلّهم عدول من لابس الفتنة و غيرها...»

أقول - قبل بيان مذهب هؤلآء الشّرذمة في الصّحابة بحساب القرطبي و أضرابه-: إنّ إبليس أوّل من اجتهد مقابل النّصّ، فاستكبر و أبى إذ قال الله تعالى: «يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين قال: أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين» ص: ٧٥-٧٦) و رأى نفسه مصيباً في اجتهاده، و لذا لم يتب، فبناء على هذا فليس أحد من الجنّ و الإنس من الأوّلين و الآخرين عاصياً، فإنّ كلّ مشرك و عاصٍ، و كلّ كافر و طاغٍ، و كلّ ظالم و جانٍ، و كلّ مستكبرٍ و باغٍ، و كلّ منافق و فاسق، و كلّ مجرم و زانٍ، و كلّ مفسد و سارق، و كلّ قاتل و متعهّد ... يرى لشركه و عصيانه، لكفر و طغيانه، و لظلمه و جنايته... وجهاً و يجتهد عليه، و كلّ مجتهد مصيب.

قال الله تعالى فيهم: «إنّهم اتّخذوا الشّياطين أوليآء من دون الله و يحسبون أنّهم مهتدون» الأعراف: ٣٠)

و قال: «و إنّهم ليصدّونهم عن السّبيل و يحسبون أنّهم مهتدون» الزّخرف: ٣٧).

انشدك بالله جلّ وعلا أيّها القارئ! أليس بهؤلاء الشّرذمة -عند القرطبي- و هم شيعة مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ مبالاة، أو ليس بهذا الغبي القرطبي الضالّ المضلّ و أضرابه من مردة هؤلآء الخلفآء الغاصبين مبالاة في الدّين و لا في الكرامة الإنسانية.

قال الله تعالى: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم» البقرة: ١٩٤)

أو ليس هذا الشّيطان المجتهد مقابل النّصّ أوّل من بايع أبابكر على منبر رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم السّقيفة؟ فكان الشّيطان و أبوبكر و القرطبي و أضرابه كلّهم مجتهدين، و

كلّ مجتهد مصيب فاقض ما أنت قاض أيّها القارىء، و الله جلّ وعلا أحكم الحاكمين.

و أمّا منزلة الصّحابة عند الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّه فحكمهم حكم غيرهم، لايتحتّم الحكم بايمانهم و عدالتهم و إخلاصهم و تقواهم و نجاتهم وفلاحهم بمجرّد صحبتهم، بل لابدّ مع ذلك من تحقّق ايمانهم و عدالتهم و حسن صحبتهم لرسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ بحفظهم حرمة رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و حفظ وصيّته في أهل بيته، و تمسّكهم بالثّقلين بعده.

و أمّا من انقلب على عقبيه، و أظهر العداوة لأهل بيت رسول الله المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فهو هالك لامحالة، بل تجب عداوته لله تعالى و البراءة إلى الله منه، خلافاً للعامّة و الحشويّة القائلين بوجوب الكفّ و الإمساك عن جميع الصّحابة، و عمّا شجر بينهم، و اعتقاد الايمان و التّقوى و العدالة فيهم جميعاً و حسن الظّنّ بهم كلّهم.

قال بعض علمآء الشّيعة: لو كان الإمساك عن عداوة من عادى الله من أصحاب رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ من حفظ رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في أصحابه، و رعاية عهده لم نعادهم، و لو ضُربت رقابنا بالسّيوف، و لكنّ محبّة رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ ليست كمحبّة الجهّال الّذين يضع أحدهم محبّته لصاحبه مع العصبيّة، و إنّما أوجب رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ محبّة أصحابه لطاعتهم لله تعالى، فإذا عصوا الله و تركوا ما أوجب محبّتهم فليس عند رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ محاباة في ترك لزوم ما كان عليه من محبّتهم و لاتغطرس في العدول عن التّمسّك بموالاتهم، فلقد كان رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ يحبّ أن يعادي أعداء الله و لو كانوا عترته، كما يحبّ أن يوالي أوليآء الله و لو كانوا أبعد الخلق نسباً منه.

و الشّاهد على ذلك إجماع الأُمّة المؤمنة الّذين طابت ولادتهم و سلمت عقولهم عن شوائب الأوهام... على أنّ الله تعالى قد أوجب عداوة من ارتدّ بعد الإسلام، و عداوة من نافق، و إن كان من أصحاب رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾.

و أمّا قوله تعالى: «لقد رضى الله عن المؤمنين» و قوله: «محمّد رسول الله و الّذين معه» الفتح: ١٨ و ٢٩) فمشروط بالايمان و الوفاء و سلامة العاقبة...

و قد قبض رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ عن مأة و أربعة عشر ألف صحابيّ، و كيف يجوز لنا أن

نحكم حكماً جزماً أن كلّ واحد من هؤلآء الصّحابة عدل، و من جملة الصّحابة الحكم بن أبي العاص، و كفاك به عدوّاً مبغضاً لرسول الله﴿ﷺ﴾ و من الصّحابة الوليد بن عقبة الفاسق بنصّ الكتاب: «إن جآءكم فاسق بنباء فتبيّنوا» الحجرات: ٦) و منهم حبيب بن سلمة الّذي فعل ما فعل بالمسلمين في دولة معاوية، و بسر بن أرطأة عدوّ الله و عدوّ رسوله﴿ﷺ﴾ و في الصّحابة كثير من المنافقين لا يعرفهم النّاس بنصّ القرآن الكريم: «و ممّن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النّفاق لا تعلمهم» التّوبة: ١٠١) «إنّ الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنّم جميعاً - إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار و لن تجد لهم نصيراً» النساء: ١٤٠ و ١٤٥).

و من ذا الّذي يجترىء على القول بأنّ أصحاب رسول الله﴿ﷺ﴾ لا يجوز البراءة من أحد منهم و إن نافق و عصى و خالف رسول الله﴿ﷺ﴾ و أسآء بعد قول الله تعالى للّذي شرّفوا برؤيته: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك و لتكوننّ من الخاسرين» الزّمر: ٦٥) و بعد قوله سبحانه: «قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم» الزّمر: ١٣) و بعد قوله جلّ وعلا: «فاحكم بين النّاس بالحقّ و لا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد» ص: ٢٦) إلاّ من لا مسكة و لا فهم له، و لا نظر ولا إنصاف معه، و لا طيب ولادة و لا تمييز عنده.

نعم من ثبت ايمانه من الصّحابة و عدالته و استقامته على عهد رسول الله﴿ﷺ﴾ و استمرّت بعده وجبت موالاته و التقرّب إلى الله تعالى بمحبّته و الدّعآء له كما قال سيّد السّاجدين زين العابدين الإمام الرّابع عليّ بن الحسين عليهما السّلام في دعآئه: «اللّهم و أصحاب محمّد خاصّة الّذين أحسنوا الصّحابة...» و قال الامام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق﴿عليه السلام﴾: «اعلم أنّ الله اختار لنبيّه﴿ﷺ﴾ من أصحابه طائفة أكرمهم بأجلّ الكرامة و حلاّهم بحليّ التّأييد و النّصر و الاستقامة لصحبته على المحبوب و المكروه، و أنطق لسان محمّد﴿ﷺ﴾ بفضآئلهم و مناقبهم، فاعتقد محبّتهم و اذكر فضلهم» مصباح الشّريعة: ص ٦٨).

هل يستوى المؤمن و الفاسق من الصّحابة؟ هل يستوى المخلص و المنافق منهم؟ هل

يستوى المصلح و المفسد منهم؟ حتّى هل يستوى المجاهد و القاعد منهم؟؟؟!!! أو ليس هذا تكذيباً صريحاً لنصّ كتاب الله جلّ وعلا وسنّة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾؟

قال الله تعالى: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون أمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فلهم جنّات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون و أمّا الّذين فسقوا فمأواهم النّار كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها» السّجدة: ۱۸-۲۰).

و قال: «قل لايستوى الخبيث و الطّيّب و لو أعجبك كثرة الخبيث فاتّقوا الله يا اولى الألباب لعلّكم تفلحون» المائدة: ۱۰۰).

و قال: «قل هل يستوي الأعمى و البصير أفلا تتفكّرون» الأنعام: ۵۰).

و قال: «لايستوي أصحاب النّار و أصحاب الجنّة أصحاب الجنّة هم الفآئزون» الحشر: ۲۰).

و لايكون ملاك الفوز، الصّحابة ولا الولادة قطّ، و إنّما هوالايمان و العمل الصّالح بنيّة صادقة و لن يتحقّق إلاّ بالولاية لأهل بيت النّبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين و إن كان هذا المؤمن أبعد النّاس نسباً عن رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ كسلمان الفارسي رضوان الله تعالى عليه، و إلاّ لكان ابن نوح الّذي كان مع أبيه قالباً في بيته، و لم يكن معه قلباً في رسالته: «يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح» هود: ۴۶) و لكان أبولهب عمّ رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و جاره: «تبّت يدا أبي لهب و تبّ» المسد: ۱) أفضل من هؤلآء الصّحابة الّذين كانوا مع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قالباً و لم يكونوا معه قلباً.

و بعد ذلك كلّه هل يجوز لمن له أدنى مسكة و دراية و طيب ولادة، توجيه الجناية باسم الجتهاد و الإصابة و الصّحابة؟ و لو كان جائزاً فلابدّ من توجيه استكبار إبليس أوّلاً ثمّ توجيه جنايات مردته ثانياً!

و لو كان إبليس باجتهاده مقابل النّصّ مصيباً أيّ حقًّا للزم أحد الأمرين: إمّا أن يكون الله سبحانه خاطئاً باطلاً، العياذ بالله جلّ وعلا، و إمّا أن لايكون في العالم باطل أصلاً، فإنّ من البداهة أنّ الحقّ و الباطل ضدّان لايجتمعان و لايرتفعان، فلايمكن أن يكون الله سبحانه و إبليس كلاهما حقّين، و لا قابيل و هابيل كلاهما حقّين، و لا إبراهيم

الخليل﴿عليه السلام﴾ و نمرود المستكبر كلاهما حقّين و لاموسى النّبيّ﴿عليه السلام﴾ و فرعون الباغي كلاهما حقّين، و لا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أبوجهل كلاهما حقّين، و لا عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و أبوبكر كلاهما حقّين، و لا حسين بن عليّ عليهما السلام و يزيد بن معاوية عليهما الهاوية كلاهما حقّين... و إلاّ لكان خلق الجنّة و النّار لغواً! و لو كان هذا الاجتهاد إصابة الحقّ، و هذا المجتهد مصيباً اللّهم العنهما لعناً و بيلاً بعدد ما أحاط به علمك.

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ في أبي‌بكر بن أبي قحافة أوّل غاصب الخلافة و في أذنابه: «فو الّذي لاإله إلاّ هو إنّي لعلى جادّة الحقّ و إنّهم لعلى مزلّة الباطل» الخطبة: ١٨٨)

و فيه: قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ فيهم: «اتّخذوا الشّيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض و فرّخ في صدورهم، و دبّ و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم، فركب بهم الزّلل، و زيّن لهم الخطل، فعل من قد شركه الشّيطان في سلطانه، و نطق بالباطل على لسانه» الخطبة السّابعة).

بعض كلام الشّيخ المفيد رحمة الله تعالى عليه في الصّحابة:

للشّيخ رضوان الله تعالى عليه– و هو قريب عهد من زمن الغيبة الصّغرى، و المؤيّد من قِبَل مدار الدّهر و نواميس العصر، بقيّة الله الأعظم، صاحب الزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشّريف كلمات كثيرة مستدلّة بالبراهين القاطعة و الأدلّة الواضحة، حول الصّحابة نشير إلى نبذة منها:

في كتاب الإفصاح في إمامة أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ ما لفظه: «و بيّنّا أنّه لايجوز من الحكيم تعالى أن يقطع بالجنّة إلاّ على شرط الإخلاص لما تحظره الحكمة من الإغراء بالذّنوب، يبطل ظنّهم في تأويل هذه الآية: «و السّابقون الأوّلون من المهاجرين و الأنصار...» التّوبة: ١٠٠) و كلّ ما يتعلّقون به من غيرها في القطع على أمان أصحابهم من النّار، للإجماع على ارتفاع العصمة عنهم، و أنّهم كانوا ممّن يجوز عليه اقتراف الآثام و ركوب الخلاف لله تعالى على العمد و النّسيان، و قد تقدّم ذلك فيما سلف فلا حاجة بنا إلى الإطالة فيه.

ثمّ قال: و يمكن أيضاً ما ذكرناه من أمر طلحة و الزّبير و قتالهما لأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و هما عند المخالفين من السّابقين الأوّلين، و يضمّ إليه ما كان من سعد بن عبادة، و هو سيّد الأنصار و من السّابقين الأوّلين، و نقبآء رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في السّقيفة، ترشّح للخلافة، و دعا أصحابه إليه، و ما راموه من البيعة له على الإمامة حتّى غلبهم المهاجرون على الأمر، فلم يزل مخالفاً لأبي بكر و عمر، ممتنعاً عن بيعتهما في أهل بيته و ولده و أشياعه إلى أن قتل بالشّام على خلافهما و مباينتهما.

و إذا جاز من بعض السّابقين دفع الحقّ في الإمامة، و اعتقاد الباطل فيها، و جاز من بعضهم استحلال الدّم على الضّلال، و الخروج من الدّنيا على غير توبة ظاهرة للأنام، فما تنكر من وقوع مثل ذلك من المتقدّمين على أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و إن كانوا من السّابقين الأوّلين، و ما الّذي بعصمهم ممّا وقع من شركائهم في السّبق و الهجرة و غير ذلك ممّا تعدّونه لهم في الصّفات و هذا ممّا لاسبيل إلى دفعه».

ثمّ قال: ثمّ يقال لهم أيضاً: ألستم تعلمون أنّ الوليد بن عقبة بن أبي معيط و عبدالله بن أبي سرح قد كانا واليين على المسلمين من قبل عثمان بن عفّان و هو إمام عدل عندكم مرضيّ الفعال، و قد كان مروان ابن الحكم كذلك، ثمّ خُطِبَ له على المنابر في الإسلام بإمرة المؤمنين كما خُطِبَ لعمر بن الخطّاب و عثمان بن عفّان، و كذلك أيضاً ابنه عبدالملك، و من بعده من بني أُميّة، قد حكموا في العباد و تمكّنوا في البلاد، فبأيّ شئ تدفعون صرف معنى الآية: «وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم...» النّور: ٥٥) إليهم، و الوعد بالاستخلاف لهم و إدخالهم في جملة من سمّيتموه و زعمتم أنّهم أئمّة عدل خلفآء و اعتمدتم في صحّة ذلك على ما ذكرناه في أمر أبي سفيان و معاوية و يزيد- ابنيه- حسبما شرحناه!

فلا يجدون مهرباً من ذلك بما قدّمناه على التّرتيب الّذي رسمناه و كذلك السّئوال عليهم في عمرو بن العاص و أبي موسى الأشعريّ فإنّهما ممّن كان على ظاهر الإسلام و العمل الصّالح عند الجمهور من النّاس، و كانا من المواجهين بالخطاب، و ممّن خاف في

صدر الإسلام و حصلت لهما (لهم خ) ولايات في حياة رسول الله﴿ﷺ﴾ و خلافة له و لخلفآئه على أُصولهم بغير إشكال، و ليس يمكن لخصومنا دفع التّأويل فيهما بما يتعلّقون به في بني أُمّية و بني مروان من الخروج عن الخوف في صدر الإسلام، و هذا كلّه تخليط ورّطهم الجهل فيه بدين الله تعالى و العداوة لأوليآءه عليهم السّلام».

و في كتاب مرآة الإسلام: ضرب طه حسين مثلاً للصّحابة بعمّار بن ياسر، و قال: كان شيخاً بلغ التّسعين أو تجاوزها، و مع ذلك قاتل مع عليّ﴿عليه السلام﴾ في صفّين عن ايمان أيّ ايمان بأنّه يدافع عن الحقّ... و كان قتله تثبيتاً لعليّ﴿عليه السلام﴾ و الصّالحين، و تشكيكاً في معاوية و من معه لأنّ كثيراً من الصّحابة رأوا النّبيّ﴿ﷺ﴾ يمسح رأس عمّار و يقول له: تقتلك الفئة الباغية».

و في شرح ابن أبي الحديد- في شرح خطبة (١٨٣)- في ترجمة عمّار بن ياسر و نسبه و نبذ من أخباره) ما لفظه: «قال أبو عمر: و قال عبدالرّحمن بن أبزى: شهدنا مع عليّ﴿عليه السلام﴾ صفّين ثمانمأة ممّن بايع بيعة الرّضوان، فتل منّا ثلاثة و ستّون، منهم عمّار بن ياسر».

و قال أبوعمر: و من حديث أنس عن النّبيّ﴿ﷺ﴾: «اشتاقت الجنّة إلى أربعة: عليّ و عمّار و سلمان و بلال». قال أبوعمر: و فضائل عمّار كثيرة جدّاً يطول ذكرها. قال: و روى الأعمش عن أبي عبدالرّحمن السُّلَمي قال: شهدنا مع عليّ﴿عليه السلام﴾ صفّين، فرأيت عمّار بن ياسر لايأخذ في ناحية و لا وادٍ من أودية صفّين إلاّ رأيت أصحاب محمّد﴿ﷺ﴾ يتّبعونه كأنّه علَمٌ لهم، و سمعته يقول يومئذ لهاشم بن عتبة: يا هاشم! تقدّم الجنّة تحت البارقة.

اليوم ألقى الأَحِبَّهْ محمّداً و حِزبَهْ

و الله لو هزمونا حتّى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ و أنّهم على الباطل، ثمّ قال:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهامَ عن مقيله و يذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحقّ عن سبيله

فلم أرَ أصحاب محمّد﴿ﷺ﴾ قُتِلُوا في موطن ما قتلوا يومئذ.

قال أبوعمر: و تواترت الأخبار عن رسول الله﴿ﷺ﴾ أنّه قال: «تَقْتُلُ عمّاراً الفئة الباغية» و هذا من إخباره بالغيب و أعلام نبوّته﴿ﷺ﴾ و هو من أصحّ الأحاديث».

فإذاً ينبغي لك أيّها القارىء الخبير أن ترجع إلى ما ذكرنا آنفاً من كلام القرطبي عن تفسيره، و تدبّر في منشأ انحطاط المسلمين حتّى اليوم...

و **لعمري!** أنّ منشأ انحطاط المسلمين حتّى اليوم أمران:

أحدهما-أنّ الصّحابة كلّهم عدول لايجوز فيهم القول...

ثانيهما-أنّ كلّ مجتهد مصيب لايجوز لأحد أن يخالف رأيه، و لا الجرح و التعديل و لا التحقيق و التبيّن و البحث فيه.

و قد قال الله تعالى فيهم: «و إذ أخذالله ميثاق الّذين اوتوا الكتاب لتبيّنّنه للنّاس و لاتكتمونه فنبذوه و رآء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون لاتحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا و يحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب و لهم عذاب أليم» آل عمران: ١٨٧-١٨٨).

و قال: «و لاتلبسوا الحق بالباطل و تكتموا الحق و أنتم تعلمون - أتأمرون النّاس بالبرّ و تنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب افلا تعقلون» البقرة: ٤٢-٤٤).

﴿أسئلة عن العامّة حول الصّحابة العدول عندهم﴾

قال الله تعالى: «و من النّاس من يقول آمنّا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين– اولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين» البقرة: ٨-١٦).

و لعمري: لم نجد بعد مطالعة نحو عشرة آلاف مجلدة من كتب الخاصّة و العامّة في العلوم و الفنون المختلفة إلى الآن دليلاً واحداً على عدول الصّحابة و عصمة كلّهم عن الزّلل والخطأ، عن النّفاق و الفساد، و عن المعاصي صغيرها و كبيرها... ولي أسئلة كثيرة عن العامّة الّذين يرون الصّحابة كلّهم عدولاً لايجوز لأحد أن يطعن على أحد منهم، و لاينتقد و لاينتقص صحابياً آخر، فنسئلهم عن بعضها روماً للاختصار:

١– أو لم يكن بين الصّحابة من تشمله تلك الآيات القرآنيّة؟

٢– أو لم يكن من الصّحابة منافق، و قد قال الله تعالى في المنافقين: «إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار» النسآء: ١٤٥)؟

٣– أو لم يكن في الصّحابة من ينتقد و ينتقص صحابياً آخر، بل و يسبّه و يشتمه ويضربه و يلعنه و يقتله... مع أنّ إهانة المؤمن حرام، و إن لم يكن صحابيّاً؟

٤– أو لم يُرْوَ أنّ أبابكر الصّحابي قال لطلحة الصّحابي: «أنت شرّ النّاس، أما و الله لو ولّيتك لجعلت أنفك من قفاك...»؟

٥-أو لم يقل أبوبكر: «إنّي لا آسى على شئ من الدّنيا إلاّ على ثلاث فعلتهنّ: وددت أنّي تركتهنّ، و ثلاثٍ تركتهنّ، وددت أنّي فعلتهنّ، و ثلاثٍ وددت أنّي سئلت عنهنّ رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فأمّا الثّلاث اللّاتي وددت أنّي تركتهنّ: فوددت أنّي لم أكشف بين فاطمة عن شئ...» فهذا أبوبكر الصّحابي يقول: إنّه كشف بيت فاطمة الزّهرآء سلام الله عليها الّتي لو لم تكن بنت رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و بضعته، و من كان ايذاؤها ايذاء رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ كانت صحابيّة، و أيّة صحابيّة سيّدة نسآء العالمين؟

٦- أو لم يأمر عمر بن الخطّاب بقتل الصّحابيّ العظيم: سعد بن عبادة الّذي كان صاحب لواء رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في الأنصار و كان بدريّاً، و قد كان رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ يدعو فيه و في آله بالصّلاة و الرّحمة و المغفرة؟ أو يقل: «اقتلوا سعداً! قتل الله سعداً»!

٧- أو لم يأمر عمر بن الخطّاب حين قرب و فاته أبا طلحة الأنصاري بقتل ستّة من كبار الصّحابة إن لم يتّفقوا على واحد منهم للخلافة أو بعضهم المخالف؟

٨- أو لم يضرب عثمان بن عفان الصّحابي، أباذر الغفاري، و عبدالله بن مسعود، و عمّار بن ياسر و هم من الصّحابة البدريّين؟

٩-أو لم يقل أبوموسى الأشعرى لعمر بن العاص بعد قضيّة الحكمين: «لعنك الله! فإنّ مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، و إن تتركه يلهث» فأجاب عمرو: «لعنك الله! فإنّ مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

١٠- أو لم يأمر معاوية بن أبي سفيان عمّاله بلعن عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾ في جميع البلاد الإسلاميّة على رؤس المنابر بحيث صار اللعن في زمنه، و زمن أخلافه السّوء من بني مروان، سنّة تتّبع، و عادة لاترتدع يتقرّب به النّاس إلى الخلفآء و عمّالهم، و يفتخرون بهذا العمل السّيّىء في أقوالهم ...

١١- أو لم تخرج عائشة بنت أبي بكر و هي صحابيّة من مكّة إلى البصرة لقتال عليّ بن أبيطالب ﴿علیه السلام﴾ و قتل بني هاشم و سفك دمآء جماعة من الصّحابة و التّابعين و الصّالحين، و خرج لنصرتها و صحبتها و صلة جناحها و مساعدتها على الظّلم و العدوان خلق كثير و جمّ غفير مع أنّهم كانوا يعلمون أنّ عائشة هتك حجاب الله تعالى

و حجاب رسوله«صلى الله عليه وآله» في قوله عزّوجلّ: «و قرن في بيوتكنّ و لاتبرّجن» الأحزاب:٣٣) فلم تقرّ في البيت و تبرّجت، و يعلم كلّ من له أدنى مسكة، و كلّ أهل ملّة أنّ الجهاد و إقامة الخلفاء لايجوز الاقتداء فيه بالنّسآء...؟!

١٢- أفيجوز لعمر بن الخطّاب أن يعترض على رسول الله«صلى الله عليه وآله» و ينكر قوله و عمله في صلح الحديبيّة و غيره، و أن يهين برسول الله«صلى الله عليه وآله» فيقول: «إنّ هذا الرّجل ليهجر» و يتخلّف عن إمارة أُسامة بن زيد و غيرها من تخلّفاته و طغيانه... و لكن لايجوز لأحد من المؤمنين الصّادقين أن ينكر قول هذا المنكر السيّئ و عمله الفاسد و أن يبيّن خطيئاته و جناياته...؟!

١٣- أصحيح ما أخرجه البخاري في (صحيحه- باب غزوة الحديبيّة- عن العلاء بن المسيّب عن أبيه قال: لقيت البراء بن عازب، فقلت له: طوبى لك! صحبت النّبيّ«صلى الله عليه وآله» و بايعته تحت الشّجرة فقال: يابن أخي: إنّك لاتدرى ما أحدثنا بعده»؟ أم لا.

١٤- و من هؤلآء الصّحابة العدول عند العامّة، الّذين قال فيهم الطّبري في تفسير قوله تعالى: « لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ...» الفتح: ٢٧) ما لفظه: «حدّثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ...» إلى آخر الآية قال: قال لهم النّبيّ«صلى الله عليه وآله»: إنّي قد رأيت أنّكم ستدخلون المسجد الحرام محلّقين رؤسكم و مقصّرين، فلمّا نزل بالحديبيّة و لم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون في ذلك فقالوا: أين رؤياه فقال الله: «لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ» فقرأ حتّى بلغ و مقصّرين لاتخافون أنّي لم أره يدخلها هذا العام و ليكوننّ ذلك» إنتهى كلامه.

أقول: و قد ثبت بالتّواتر عن طريق العامّة: أنّ رأس هؤلآء المنافقين الطّاعنين المعترضين المنكرين لقول الله تعالى و رسوله«صلى الله عليه وآله» هو عمر بن الخطّاب.

و غيرها من الأسئلة الّتي تزيد ألفاً تركنا هاروماً للاختصار.

و انّ مذهب علماء العامّة وجوب تعظيم الصّحابة كلّهم و الكفّ عن القدح فيهم لأنّ كلّهم عدول معصومون عن الخطأ و الزّلل، و هم ينكرون عصمة الأنبياء و المرسلين

صلوات الله عليهم أجمعين، و قد ثبت عندهم بالتواتر أنّ من هؤلآء عـامة الصّـحابة العدول منافقاً و فاسقاً و باغياً و زانياً و شارب الخمر، و قاتل النّفس المحترمة... و كيف الجمع بين العدالة و النّفاق؟ بين العدالة و الفسق؟ بين العدالة و البغي؟ بـين العـدالة و الزّناء؟ بين العدالة و شرب الخمر؟ و بين العدالة و قتل النّفس المحترمة؟؟؟!!!

فبناء على مذهب العامّة كلّ الكفّار و المشركين و الفجّار و المستكبرين، و الفسّاق والمجرمين، و الطّغاة و المفسدين، و البغاة و الظّالمين و إمامهم الشّيطان أجمعين عـدول معصومون يجب على مذهب العامّة تعظيمهم و الكفّ عن القدح فيهم... فكأنّ عـدالة هؤلآء العلمآء كعدالة اولئك الفجّار...

نعم: إذا كان الشّيطان أوّل مَن بايع أبابكر يوم السّقيفة السّخيفة الشّومة، فلن يكون مذهب أتباعها أحسن من ذلك.

في شرح ابن أبي الحديد: قال: «إنّ معاوية أمر النّاس بالعراق و الشّام و غيرهما، بسبّ عليّ و البراءة منه، و خطب بذلك على منابر الإسلام، و صار ذلك سنّة في أيام بني أُميّة إلى أن قام عمر بن عبدالعزيز فأزاله».

و غيرها من خطايا بعض الصّحابة و زلاّتهم، من نفاقهم و جناياتهم، من ظلمهم و ضلالتهم، و من بغيهم و زلاّتهم ... لا يستطيع إنكارها إلاّ من كان خبيث الولادة، و فاقد المسكة و الدّراية. و إنّ علمآء العامّة هم يدافـعون عـن عـدالة هـؤلآء الصّـحابة و عصمتهم بكلّ ما أمكنهم و يسمّونهم صحابة كباراً، نعم هم كبار في الظّلم و الجناية، في البغي و الضّلالة، في النّفاق و الغواية، و في هتك حرمة الرّسالة و أهل بيتها، و في العناد و اللجاجة، و في الفساد و العداوة... فاقض أيّها القارىء ما أنت قاض فيهم...

أقول: و لعمري انّ السّبب الوحيد للبلاء الّذي أصاب الإسلام و انحطّ المسلمون إلى الآن هو الاعتقاد بعدالة الصّحابة المطلقة الّتي تتبعها إصابة اجتهاد المجتهدين.

الأمر الثّاني عشر: أنّ جماعة من متفسّري العامّة تشبّثوا بقوله سـبحانه: «محـمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم...» الفـتح: ٢٩) عـلى فـضيلة أصحاب الحديبيّة، و فيهم أبوبكر و عمر و عثمان و أضرابهم...

أقول: قد سبق منّا بمواضع من تفسير هذه السّورة المباركة بمناسبات في بحث النّزول، و البحث البياني، و في تحقيق الأقوال، و في التّفسير و التّأويل و الرّواية: أن ليس في الآية الكريمة فضيلة إلاّ لمن اتّصف بمعيّة الرّسول﴿ﷺ﴾ في رسالته قلباً دون معيّة الرّسول﴿ﷺ﴾ قالباً فقط، و قد ثبت بالبراهين القاطعة و الأدلّة الواضحة عند الفريقين: أنّ أصحاب الحديبية لم يكونوا كلّهم مع رسول الله﴿ﷺ﴾ في رسالته قلباً إذ كان فيهم كثير من أهل النّفاق و الشّقاق، و أهل الفساد و الخلاف، كما أنّ سآئر الصّحابة لم يكونوا كلّهم مع رسول الله﴿ﷺ﴾ في رسالته قلباً و إن كانوا معه﴿ﷺ﴾ قالباً فلا تشمل الآية كلّهم، و هذا ممّا لايشكّ فيه من له أدنى فهم و دراية، و طيب ولادة، فراجع. و في المقام كلام متين للشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه نذكره، فينبغي للقارئ أن يتدبّر فيه حقًّا:

في الإفصاح في إمامة أميرالمؤمنين﴿ؑ﴾: قال رحمه الله: فصل: فإن قال (المخالف): أفليس الله تعالى يقول في سورة الفتح: «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار رحمآء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود ذلك مثلهم في التّوارة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه...».

و قد علمت الكافّة أنّ أبابكر و عمر و عثمان من وجوه أصحاب رسول الله﴿ﷺ﴾ و رؤسآء من كان معه، و إذا كانوا كذلك فهم أحقّ الخلق بما تضمّنه القرآن من وصف أهل الايمان و مدحهم بالظّاهر من البيان، و ذلك مانع من الحكم عليهم بالخطأ و العصيان؟!

قيل لهم: إنّ أوّل ما نقول في هذا الباب إنّ أبابكر و عمر و عثمان و من تضيفه النّاصبة إليهم في الفضل كطلحة و الزّبير و سعد و سعيد و أبي عبيدة و عبدالرّحمن لايتخصّصون من هذه المدحة بما خرج عنه أبوهريرة و أبو الدّردآء بل لايتخصّون بشئ لايَعُمّ عمرو بن العاص و أباموسى الأشعري و المغيرة بن شعبة و أبا الأعور السُّلَمي و يزيد و معاوية بن أبي سفيان، بل لايختصّون منه بشئ دون أبي سفيان صخر بن حرب و عبدالله بن أبي سَرح و الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط و الحكم بن أبي العاص و مروان بن الحكم و

أشباههم من النّاس لأنّ كلّ شئ أوجب دخول من سمّيتهم في مدحة القرآن فهو موجب دخول من سمّيناه و عبدالله بن أبي سلول و مالك بن نويرة و فلان و فلان.

إذ أنّ جميع هؤلآء أصحاب رسول الله﴿ﷺ﴾ و من كان معه و لأكثرهم من النّصرة للإسلام و الجهاد بين يدي النّبيّ﴿ﷺ﴾ و الآثار الجميلة و المقامات المحمودة ما ليس لأبي بكر و عمر و عثمان، فأين موضع الحجّة لخصومنا في فضل من ذكره على غيره من جملة من سمّيناه، و ما وجه دلالتهم منه على إمامتهم، فإنّا لانتوهّمه بل لايصحّ أن يدّعيه أحد من العقلآء؟!

فصل: ثمّ يقال لهم: خبّرونا عمّا وصف الله تعالى به مَن كان مع نبيّه﴿ﷺ﴾ بما تضمّنه القرآن، أهو شامل لكلّ من كان معه﴿ﷺ﴾ في الزّمان، أم في الصّقع و المكان، أم في ظاهر الإسلام، أم في ظاهره و باطنه على كلّ حال، أم الوصف به علامة تخصيص مستحقّه بالمدح دون من عداه أم لقسم آخر غير ما ذكرناه؟

فإن قالوا: هو شامل لكلّ من كان مع النّبيّ﴿ﷺ﴾ في الزّمان أو المكان أو ظاهر الإسلام ظهر سقوطهم و بان جهلهم، و صرّحوا بمدح الكفّار و أهل النّفاق، و هذا ما لايرتكبه عاقل.

و إن قالوا: إنّه يشمل كلّ من كان معه﴿ﷺ﴾ على ظاهر الدّيانة و باطنها معاً دون مَن عددتموه من الأقسام.

قيل لهم: فدلّوا على أئمّتكم و أصحابكم، و من تسمّون من أوليآءكم، أنّهم كانوا في باطنهم على مثل ما أظهروه من الايمان، ثمّ ابنوا حينئذ على هذا الكلام، و إلاّ فأنتم مدّعون و متحكّمون بما لاتثبت معه حجّة، و لا لكم عليه دليل، و هيهات أن تجدوا دليلاً يقطع به على سلامة بواطن القوم من الضّلال، إذ ليس به قرآن و لاخبر عن النّبيّ﴿ﷺ﴾ و من اعتمد فيه على غير هذين فإنّما اعتمد على الظّنّ و الحسبان.

و إن قالوا: إنّ متضمّن القرآن من الصّفات المخصوصة إنّما هي علامة على مستحقّي المدحة من جماعة مظهرى الإسلام دون أن تكون منتظمة لسآئرهم على ما ظنّه الجهال.

قيل لهم: فدلّوا الآن على أنّ من سمّيتموه كان مستحقّاً لتلك الصّفات لتتوجّه إليه

المدحة، و يتمّ لكم فيه المراد، و هذا ما لاسبيل إليه حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط.

فصل: ثمّ يقال لهم: تأمّلوا معنى الآية، و حصّلوا فائدة لفظها، و على أيّ وجه تخصّص متضمّنها من المدح،و كيف مخرج القول فيها؟ تجدوا أئمّتكم أصفاراً ممّا ادّعيتموه لهم منها، و تعلموا أنّهم باستحقاق الذمّ و سلب الفضل بدلالتها أولى منهم بالتّعظيم والتّبجيل من مفهومها، و ذلك أنّ الله تعالى ميّز مثل قوم من أصحاب نبيّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ في كتبه الاولى و ثبوت صفاتهم بالخير و التّقى في صحف إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السلام ثمّ كشف عنهم بما ميّزهم به من الصّفات الّتي تفرّدوا بها من جملة المسلمين، و بانوا بحقيقتها عن سآئر المقرّبين.

فقال سبحانه: «محمّد رسول الله و الّذين معه...» و كأنّ تقدير الكلام: إنّ الّذين بيّنت أمثالهم في التّوراة و الإنجيل من جملة أصحابك و من معك -يامحمّد- هم أشدّاء على الكفّار، و الرّحمآء بينهم الّذين تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً.

و جرى هذا في الكلام مجرى مَن قال: زيد بن عبدالله إمام عدل، و الّذين معه يطيعون الله و يجاهدون في سبيل الله، و لا يرتكبون شيئاً ممّا حرّم الله و هم المؤمنون حقّاً دون ما سواهم إذ هم أوليآء الله الّذين تجب مودّتهم دون من معه ممّن عداهم، و إذا كان الأمر على ما وصفناه، فالواجب أن تستقرئ الجماعة في طلب هذه الصّفات، فمن كان عليها منهم فقد توجّه إليه المدح و حصل له التعظيم، و من كان على خلافها في القرآن إذن منبّه على ذمّه، و كاشف عن نقصه، و دالّ على موجب لومه، و مخرج له عن منازل التّعظيم.

فنظرنا في ذلك و اعتبرناه فوجد أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و جعفر بن أبيطالب و حمزة بن عبدالمطّلب و عبيدة بن الحارث و عمّار بن ياسر و المقداد بن الأسود و أبادُجانة- و هو سماك بن خَرَشة الأنصاري- و أمثالهم من المهاجرين و الأنصار رضى الله عنهم قد انتظموا صفات الممدوحين من الصّحابة في متضمّن القرآن، و ذلك أنّهم بارزوا من أعدآء الملّة الأقران، و كافحوا منهم الشّجعان و قتلوا منهم الأبطال، و سفكوا في طاعة الله سبحانه دمآء الكفّار، و بنوا بسيوفهم قواعد الايمان و جلوا عن نبيّهم﴿صلى الله عليه وآله﴾ الكرب

و الأحزاب و ظهر بذلك شدّتهم على الكفّار كما وصفهم الله تعالى في محكم القرآن، و كانوا من التّواصل على أهل الإسلام و الرّحمة بينهم على ما ندبوا إليه، فاستحقّوا الوصف في الذّكر و البيان.

فأمّا إقامتهم الصّلاة و ابتغاؤهم من فضل الله تعالى القربات، فلم يدفعهم عن علوّ الرّتبة في ذلك أحد من النّاس، فثبت لهم حقيقة المدح لحصول مَثَلِهم فيما أخبر الله تعالى عنهم في متقدّم الكتب و استغنينا بما عرفنا لهم ممّا شرحناه في استقراء غيرهم ممّن قد ارتفع في حاله الخلاف، و سقط الغرض بطلبه على الاتّفاق، ثمّ نظرنا فيما ادّعاه الخصوم لأجل أئمّتهم و أعظمهم قدراً عندهم من مشاركة من سمّيناه فيما ذكرنا من الصّفات و بيّناه، فوجدناهم على ما قدّمناه من الخروج عنها، و استحقاق أضدادها على مارسمناه.

و ذلك أنّه لم يكن لأحد منهم مقام في الجهاد و لاعرف لهم قتيل من الكفّار و لاكُلِمَ كلاماً في نصرة الإسلام بل ظهر منه الجزع في مواطن القتال، و فرّ في يوم خيبر و أُحد و حينن، و قد نهاهم الله تعالى عن الفرار و ولّوا الأدبار مع الوعيد لهم على ذلك في جليّ البيان، و أسلموا النّبيّ﴿ﷺ﴾ للحتوف في مقام بعد مقام، فخرجوا بذلك عن الشّدّة على الكفّار و هان أمرهم على أهل الشّرك و الضّلال، و بطل أن يكونوا من جملة المعنيّين بالمدحة في القرآن، و لو كانوا على سآئر ما عدا ما ذكرناه من باقي الصّفات، و كيف و أنّى يثبت لهم شيءٌ منها بضرورة و لا استدلال لأنّ المدح إنّما توجّه إلى مَن حصل له مجموع الخصال في الآية دون بعضها، و خروج القوم من البعض بما ذكرناه ممّا لايمكن دفعه إلاّ بالعناد، و وجوب الحكم عليهم بالذّمّ بما وصفناه و هذا بيّن جليّ والحمدلله.

فصل: ثمّ يقال لهم: قد روى مخالفوكم عن علمآء التّفسير من آل محمّد﴿ﷺ﴾ أنّ هذه الآية إنّما نزلت في أميرالمؤمنين و الحسن و الحسين و الأئمّة عليهم السّلام من بعد هم خاصّة دون سآئر النّاس، و روايتهم لما ذكرنا عمّن سمّينا أولى بالحقّ و الصّواب ممّا ادّعيتموه بالتّأويل و الظّنّ و الحسبان و الرّأى لإسنادهم مقالتهم في ذلك إلى من ندب النّبيّ﴿ﷺ﴾ إلى الرّجوع إليه عند الاختلاف، و أمر باتّباعه في الدّين و أمّن متّبعه من الضّلال.

ثمّ إنّ دليل القرآن يعضده البيان، و ذلك أنّ الله تعالى أخبر عمّن ذكره بالشّدّة على الكفّار، و الرّحمة لأهل الايمان، و الصّلاة له و الاجتهاد في الطّاعات بثبوت صفته في التّوراة و الإنجيل، و بالسّجود لله تعالى و خلع الأنداد، و محال وجود صفة ذلك لمن سجوده للأوثان و تقرّبه للاّت و العزّى دون الله الواحد القهّار لأنّه يوجب الكذب في المقال أو المدحة بما يوجب الذّمّ من الكفر و العصيان.

و قد اتّفقت الكافّة على أنّ ابابكر و عمر و عثمان و طلحة و الزّبير و سعداً و سعيداً و أباعبيدة و عبدالرّحمن قد عبدوا قبل بعثة النّبيّ﴿عليه السلام﴾ الأصنام، و كانوا دهراً طويلاً يسجدون للأوثان من دون الله تعالى و يشركون به الأنداد، فبطل أن تكون أسمآؤهم ثابتة في التّوراة و الإنجيل بذكر السّجود على ما نطق به القرآن، و ثبت لأميرالمؤمنين والأئمّة من ذرّيّته عليهم‌السّلام ذلك للاتّفاق على أنّهم لم يعبدوا قطّ غير الله تعالى، و لاسجدوا لأحد سواه، و كان مثلهم في التّوراة و الإنجيل واقعاً موقعه على ما وصفناه، مستحقّاً به المدحة قبل كونه لما فيه من الإخلاص لله سبحانه على ما بيّنّاه.

و وافق دليل ذلك برهان الخبر عمّن ذكرناه من علمآء آل محمّد﴿عليه السلام﴾ بما دلّ به النّبيّ﴿عليه السلام﴾ من مقاله الّذي اتّفق العلمآء عليه، و هذا أيضاً ممّا لا يمكن التّخلّص منه مع الإنصاف.

فصل: على أنّه يقال لهم: خبّرونا عن طلحة و الزّبير؟ أهما داخلان في جملة الممدوحين بقوله تعالى: «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّآء على الكفّار» إلى آخره أم غير داخلين في ذلك؟

فإن قالوا: لم يدخل طلحة و الزّبير و نحوهما في جملة القوم خرجوا من مذاهبهم، و قيل لهم: ما الّذي أخرجهم من ذلك، و أدخل أبابكر و عمر و عثمان، فكلّ شئ تدّعونه في استحقاق الصّفات، فطلحة و الزّبير أشبه أن يكونوا عليها منهم، لما ظهر من مقاماتهم في الجهاد الّذي لم يكن لأبي‌بكر و عمر و عثمان فيه ذكر على جميع الأحوال، فلايجدون شيئاً يعتمدون عليه في الفرق بين القوم أكثر من الدّعوى الظّاهرة الفساد، و إن قالوا: إنّ طلحة و الزّبير في جملة الممدوحين بما في الآى.

قيل لهم: فما تدفعون أنّ أبابكر و عمر و عثمان قد دفعوا أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ عن حقّه، و تقدّموا عليه و كان أولى بالتّقدّم عليهم، و أنكروا إمامته، و قد كانت ثابتة، و دفعوا النّصوص عليه و هي له واجبة، و لم يعصمهم ذلك، توجّه المدح لهم من الآية كما لم يعصم طلحة و الزّبير ممّا وصفناه، و وقع منهم في إنكار حقّ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ كما وقع من الرّجلين المشاركين لهم فيما ادّعيتموه من مدح القرآن، و على الوجه الّذي كان منهما ذلك من تعمّد أو خطأ أو شبهة أو اجتهاد أو عناد؟ و هذا ما لا سبيل لهم إلى دفعه، و هو مبطل لتعلّقهم بالآية و دفع أئمّتهم عن الضّلالة، و إن سلم لهم منها ما تمنّوه تسليم جدل للاستظهار.

فصل: و يؤكّد ذلك أنّ الله تعالى مدح من وُصِفَ بالآية بما كان عليه في الحال، و لم يقض بمدحه له على صلاح العواقب، و لا أوجب العصمة له من الضّلال، و لااستدامة لما استحقّ به المدحة في الاستقبال. ألا ترى أنّه سبحانه قد اشترط في المغفرة لهم والرّضوان الايمان في الخاتمة، و دلّ بالتّخصيص لمن اشترط له ذلك، على أنّ في جملتهم من يتغيّر حاله، فيخرج عن المدح إلى الذّم و استحقاق العقاب، فقال تعالى فيما اتّصل به من وصفهم و مدحهم بما ذكرناه من مستحقّهم في الحال: «كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً».

فبعّضهم في الوعد و لم يعمّهم به، و جعل الأجر مشترطاً لهم بالأعمال الصّالحة، و لم يقطع على الثّبات و لو كان الوصف لهم بما تقدّم موجباً لهم الثّواب، و مبيّناً لهم المغفرة والرّضوان لاستحال الشّرط فيهم بعده و تناقض الكلام، و كان التّخصيص لهم موجباً بعد العموم ظاهر التّضاد، و هذا ما لا يذهب إليه ناظر، فبطل ما تعلّق به الخصم من جميع الجهات، و بان تهافته على اختلاف المذاهب في الأجوبة و الاسقاطات و المنّة لله» انتهى كلامه.

الأمر الثّالث عشر: أنّ في قوله تعالى: «أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم» الفتح: ٢٩) دلالة على أنّ الإنسان ذو بُعدين، و مجمع الصّفات المتضادّة: من الشّدّة و الرّحمة، من

الغضب و الحلم، من الخشونة و اللينة، من اليأس و الرّجاء، من الكفر و الايمان، من الخير و الشّرّ، من التصديق و التكذيب، من العدل و الظّلم، من السّعادة و الشّقاوة، من الصّلاح و الفساد، من الفطانة و الحماقة، من التقوى و الفجور، من التّواضع و التكبّر، من الصّبر و الجزع، من الشّكر و الكفران، من الذّكر و النّسيان، من المحبّة و العداوة، من الطّاعة و الطّغيان، من الصّدق و الكذب، من الحقّ و الباطل، من الإحسان و الإسائة، و من الإخلاص و الرّياء...

و لايمكن إعمالها فيما يليق بهذا الإنسان الموجود الفريد من بين سآئر الموجودات كلّها، و لايمكن حفظها و اعتدالها فيما ينبغي للانسان إلاّ بمعيّة رسول الله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في رسالته قلباً.

فالايمان بالنّسبة إلى الله تعالى و رسوله ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ و الكفر بالطّاغوت، و المحبّة لأوليآء الله جلّ وعلا، و العداوة لأعدآئه، و الحلم بالنّسبة إلى أهله، و الغضب بالنّسبة إلى أهله.

نعم ما قال الشّاعر:

حليم إذا ما الحلم زين أهله على أنّه عند العدوّ مهيب

فشدّة المؤمنين الصّادقين و عداوتهم و بغضهم على أعدآء الله لله تعالى، و رحمتهم و محبّتهم لأوليآء الله، لله جلّ و علا و انّ الرّحمة و الرّأفة على الأشرار، شرّ على الأبرار، و العفو عن الظّالمين ظلم على المظلومين. رأفتهم لإخوانهم المؤمنين الصّادقين مثلهم لله جلّ وعلا، و هي الحميّة للعقيدة و السّماحة لها، فليس لهم في أنفسهم شئ، و لا لأنفسهم فيهم شئ، و هم يقيمون عواطفهم و مشاعرهم كما يقيمون سلوكهم و روابطهم الفرديّة و الاجتماعيّة، على أساس عقيدتهم وحدها، فيشتدّون على أعدآئهم فيها، و يلينون لاخوتهم فيها، و هم مجرّدون من الأنانيّة و الحميّة الجاهليّة، و الهوى و من الانفعال لغير الله تعالى من أيّ سبب من الأسباب...

ردّاً على منكري دخالة الايمان، و معيّة الرّسول ﴿صلّی الله علیه و آله﴾ في رسالته قلباً في اعتدال الصّفات المتضادّة و على منكري كون الإنسان ذا بُعدين فتدبّر جيّداً واغتنم جدّاً و لاتغفل.

﴿المنافقون من الصّحابة في السّور القرآنيّة﴾

و لايخفى على من له طيب ولادة و أدنى مسكة و دراية: أنّه جآء في كثير من السّور القرآنيّة نفاق كثير من الصّحابة و ذبذبتهم، و جرمهم و جنايتهم، و بغيهم و غوايتهم، و ظلمهم و ضلالتهم، و ارتدادهم و فسادهم، و طغيانهم و حماقتهم... كسورة البقرة و آل عمران و النّسآء و المائدة و الأنفال و التّوبة و العنكبوت، و الأحزاب و محمّد﴿صلى الله عليه وآله﴾ و الفتح و الحجرات و الحديد و الحشر و المنافقون و التّحريم و غيرها من السّور الّتي جآئت فيها ذميم صفاتهم، و خبث سريرتهم، و كذب أقوالهم و سوء أفعالهم... لايسعها المقام بذكر جميعها، فنشير إلى بعض ما جآء في سورة «براءة» إذ فضحت المنافقين، و كشفت أنواع نفاقهم الظّاهرة و الباطنة، و من أجل ذلك، سمّيت «الفاضحة» و المبعثرة، والمشردة، و المخزية، و المثيرة، و الحافرة، و المنكلة و المدمدمة و سورة العذاب.

و إليك بيان امورهم في غزوة تبوك وحدها، و أعمالهم و آيات نفاقهم، و هتك أستارهم و عقابهم مرتّبة على سياق آيات سورة التّوبة لا على الحروف كما في بعض التّفاسير:

١- استئذانهم في التّخلّف و هو لايقع من مؤمن، و إنّما يستأذن ترك الجهاد من لايؤمن بالله و لا باليوم الآخر.

٢- لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة.

٣- إنّ الله كره انبعاثهم فثبطهم.

٤- إنّهم لو خرجوا في المؤمنين لم يزيدوهم إلاّ خبالاً، و يبغون فتنتهم.

٥- إنّهم اتّبعوا الفتنة من قبل تبوك في غزوة أُحُد، إذ أوقعوا الشّقاق في المسلمين و ثبطوا بعضهم.

٦- إنّهم قلّبوا الأُمور لرسول الله﴿ﷺ﴾ من أوّل الأمر إلى أن جآء الحقّ بنصره و ظهور أمر الله و هم كارهون لذلك.

٧- إنّ منهم من استأذن رسول الله﴿ﷺ﴾ في القعود معتذراً بأنّه يخاف على نفسه الافتتان بجمال نسآء الرّوم فسقطوا في فتنة معصية الله و رسوله﴿ﷺ﴾ بالفعل.

٨- أنّ كلّ حسنة تصيب النّبيّ﴿ﷺ﴾ تسؤهم، و كلّ مصيبة تعرض له تسرّهم و يرون أنّهم أخذوا بالحزم في التّخلّف.

٩- إنّ المؤمنين يتربّصون بالمنافقين عذاب الله مباشرة أو بأيديهم.

١٠- إنّ صدقاتهم لا تقبل لفسوقهم و لكفرهم و إتيانهم الصّلاة و هم كسالى و إنفاق ما ينفقون و هم كارهون.

١١- تعذيبهم بأموالهم و أولادهم في الدّنيا و موتهم على كفرهم.

١٢- حلفهم للمؤمنين بأنّهم منهم، و وصف خيبتهم و فرقهم منهم.

١٣- لمز بعضهم لرسول الله﴿ﷺ﴾ في الصّدقات، فإن اعطوا منها رضوا و إلاّ سخطوا.

١٤- ايذاؤهم له﴿ﷺ﴾ بقولهم: هو أُذن.

١٥- حلفهم للمؤمنين ليرضوهم دون إرضاء الله تعالى و رسوله﴿ﷺ﴾.

١٦- حذرهم إنزال سورة تنبئهم بما في قلوبهم و وعيدهم على استهزائهم بإخراج ما يحذرون.

١٧- اعتذارهم عن استهزائهم بأنّهم كانوا يقصدون الخوض و اللعب، و كون هذا الخوض عين الكفر و وعيدهم بتعذيب طائفة منهم بإصرارهم على إجرامهم و احتمال العفو عن طائفة اخرى.

١٨- بيان حال المنافقين و صفاتهم العامّة ذكراناً و اناثاً، و ايقادهم، هم و الكفّار نار جهنّم و لعنهم ...

١٩- تشبيههم بمنافقي الأُمم السّابقة في كونهم لاحظّ لهم إلاّ الاستماع بما ذكروا في خوضهم بالباطل، و حبوط أعمالهم في الدّنيا و الآخرة مثلهم و خسارهم التّامّ، و تذكيرهم بنبأ أقوام الأنبيآء قبلهم.

٢٠- إنّ المنافقين هم الفاسقون.

٢١- قرنهم بالكفّار في وجوب جهادهم و الإغلاظ في معاملتهم و وعيدهم.

٢٢- حلفهم على إنكار ما قالوا من كلمة الكفر و إثبات الله لما نفوه و همّهم بما لم ينالوا أي محاولة اغتياله.

٢٣- من عاهد الله منهم على الصّدقة في حالة العسر و إخلافه و كذبه بعد الغنى واليسر و إعقابهم ذلك نفاقاً يصحبهم إلى الحشر، و جهلهم علم الله بحالهم في السّرّ والجهر.

٢٤- لمزهم و عيبهم للمؤمنين في الصّدقات و سخريتهم منهم.

٢٥- حرمانهم الانتفاع باستنفار رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لهم بكفرهم حتّى بالله تعالى و رسوله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لايرجى اهتداؤهم بالرّجوع عن قسوتهم.

٢٦- فرح المخلّفون منهم بمقعدهم خلاف رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و تواصيهم بعدم النّفر في الحرّ و تذكيرهم بحرّ جهنّم.

٢٧- كون الأجدربهم أن يحزنوا و يضحكوا قليلاً و يبكوا كثيراً.

٢٨- نهي رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ عن الصّلاة على موتاهم و تعليله بكفرهم و موتهم عليه.

٢٩- استئذان أغنيآئهم بالتّخلّف عن الجهاد كلّما نزلت سورة تأمر بالجمع بين الايمان و الجهاد.

٣٠- حال الأعراب و استئذان بعضهم بالقعود عن الجهاد، و قعود الكاذبين بغير اعتذار و وعيدهم بعذاب أليم على الكفر.

و هذه و غيرها من ذميم صفات المنافقين فى غزوة تبوك الّتي جآئت في سورة التّوبة، و من أراد المزيد من معرفة خبث سريرتهم و شنيع أعمالهم و فساد آرائهم و نهاية حمقهم و فقد درايتهم فليرجع إلى غيرها من السّور القرآنية...

و أمّا الأخبار في ذلك فكثيرة جدّاً، فمن شآء أن يقف على أسمآء المنافقين من الأوس و الخزرج فليرجع إلى الجزء الأوّل من كتاب (أنساب الأشراف) يجد أسمآءهم قد ملأت عشر صفحات كاملة من صفحة (٢٧٤ -إلى- ٢٨٣).

﴿قصّة الحديبيّة و صلحها و شعارها﴾

قال الله عزّوجلّ: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح: ١)

و قد تقدّم منّا القول بأنّ المراد بالفتح ههنا هو صلح الحديبيّة، و عليه جمهور المحقّقين و أكثر المفسّرين و أصحاب السّير، و هو المؤيّد بالرّوايات الواردة في نزول السّورة، ولكن اختلفت كلماتهم في قصّتها اختلافاً كثيراً، و قد سبق بعضها في بحث النّزول والتّحقيق في الأقوال و الرّواية، فنشير إلى ما يسعه المقام، و نحن على جناح الاختصار لما في كلّ واحدة منها نكات ولطآئف و حقائق و أسرار و حكم ليست في أُختها:

فنقول- قبل ذكر بعض الرّوايات و الكلمات المختلفة في قصّة الحديبيّة -: إنّ الحديبيّة هي اسم بئر قرب مكّة المكرّمة، سمّيت الأرض المحيطة بها باسمها بينها و بين مكّة مرحلة، و بينها و بين المدينة تسع مراحل، وحدثت في هذا المكان بين رسول الله﴿صلّى الله عليه وآله﴾ و بين مشركي مكّة، معاهدة حربيّة اشتهرت باسم غزوة الحديبيّة، و صلحها، و مبايعة بين رسول الله﴿صلّى الله عليه وآله﴾ و بين المسلمين تحت الشّجرة فيها، سمّيت ببيعة الرّضوان.

في روضة الكافي:- باب حديث الفقهاء و العلمآء- حديث (٥٠٣) باسناده عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: لمّا خرج رسول الله﴿صلّى الله عليه وآله﴾ في غزوة الحديبيّة، خرج في ذي القعدة، فلمّا انتهى إلى المكان الّذي أحرم فيه، أحرموا و لبسوا

السّلاح، فلمّا بلغه أنّ المشركين قد أرسلوا إليه خالد بن الوليد ليردّه قال: ابغوني (أي اطلبوا لي) رجلاً يأخذني على غير هذا الطّريق، فأتى برجل من مُزينة (قبيلة من مضر) أو من جُهينة (اسم قبيلة)- و التّرديد من الرّاوى- فسئله، فلم يوافقه، فقال: ابغوني رجلاً غيره فأتى برجل آخر إمّا من مُزينة أو من جُهينة، قال: فذكر له فأخذه معه حتّى انتهى إلى العقبة، فقال: «من يصعدها حطّ الله عنه كما حطّ الله عن بني إسرائيل، فقال لهم: «ادخلوا الباب سجّداً نغفرلكم خطا ياكم».

قال: فابتدرها خيل الأنصار: الأوس و الخزرج، قال: و كانوا ألفاً و ثمان مأة، فلمّا هبطوا إلى الحديبيّة إذاً إمرأة معها ابنها على القليب فسعى ابنها هارباً، فلمّا أثبتت أنّه رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ صرخت به هؤلآء الصّابئون ليس عليك منهم بأس، فأتاها رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فأمرها فاستقت دلواً من ماء فأخذه رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فشرب و غسل وجهه، فأخذت فضلته فأعادته في البئر فلم تبرح حتّى السّاعة.

و خرج رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فأرسل إليه المشركون أبان بن سعيد في الخيل، فكان بإزائه ثمّ أرسلوا الحُلَيس فرأى البدن و هي تأكل بعضها أوبار بعض، فرجع و لم يأت رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و قال لأبي سفيان: يا أبا سفيان أما و الله ما على هذا حالفناكم على أن تردّوا الهدى عن محلّه، فقال: اسكت فإنّما أنت أعرابيّ، فقال: أما و الله لتخلّينّ عن محمّد و ما أراد أو لأنفردنّ في الأحابيش، فقال: اسكت حتّى نأخذ من محمّد ولثاً.

فأرسلوا إليه عروة بن مسعود، و قد جآء إلى قريش في القوم الّذين أصابهم المغيرة بن شعبة كان خرج معهم من الطّائف و كانوا تجّاراً فقتلهم و جآء بأموالهم إلى رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فأبى رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ أن يقبلها، و قال: هذا غَدرٌ و لا حاجة لنا فيه، فأرسلوا إلى رسول الله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ فقالوا: يا رسول الله هذا عروة بن مسعود قد أتاكم و هو يعظم البدن، قال: فأقيموها، فأقاموها، فقال: يا محمّد مجيىء من جئت؟ قال: جئت أطوف بالبيت و أسعى بين الصّفا و المروة، و أنحر هذه الإبل و اُخلّي عنكم عن لحمانها، قال: لا و اللّات و العزّى فما رأيت مثلك ردّ عمّا جئت له، إنّ قومك يذكّرونك الله والرّحم أن تدخل عليهم بلادهم بغير إذنهم و أن تقطع أرحامهم و أن تجرّي عليهم عدوّهم.

فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ما أنا بفاعل حتّى أدخلها، قال: و كان عروة بن مسعود حين كلّم رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ تناول لحيته، و المغيرة قائم على رأسه فضرب بيده فقال: من هذا يا محمّد؟ فقال: هذا ابن أخيك المغيرة، فقال: يا غدر و الله ما جئت إلاّ في غسل سلحتك، قال: فرجع إليهم فقال لأبي سفيان و أصحابه: لا والله ما رأيت مثل محمّد ردّ عمّا جآءله فأرسلوا إليه سهيل بن عمرو و حويطب بن عبدالعزّى، فأمر رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأُثيرت في وجوههم البدن، فقالا: مجييء من جئت؟ قال: جئت لأطوف بالبيت و أسعى بين الصّفا و المروة و أنحر البدن و أُخلّي بينكم و بين لحمانها، فقالا: إنّ قومك يناشدونك الله و الرّحم أن تدخل عليهم بلادهم بغير إذنهم و تقطع أرحامهم و تجرّي عليهم عدوّهم، قال: فأبى عليهما رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلاّ أن يدخلها.

و كان رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أراد أن يبعث عمر، فقال: يا رسول الله إنّ عشيرتي قليل، و إنّي فيهم على ما تعلم، و لكنّي أدلّك على عثمان بن عفّان، فأرسل إليه رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال: انطلق إلى قومك من المؤمنين فبشّرهم بما وعدني ربّي من فتح مكّة، فلمّا انطلق عثمان لقي أبان بن سعيد، فتأخّر عن السّرح، فحمل عثمان بين يديه و دخل عثمان فأعلمهم و كانت المناوشة، فجلس سهيل بن عمرو عند رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و جلس عثمان في عسكر المشركين و بايع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ المسلمين و ضرب بإحدى يديه على الأُخرى لعثمان، و قال المسلمون: طوبى لعثمان قد طاف بالبيت و سعى بين الصّفا والمروة، و أحلّ فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ما كان ليفعل فلمّا جآء عثمان قال له رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أطفت بالبيت؟ فقال: ما كنت لأطوف بالبيت و رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لم يطف به، ثمّ ذكر القصّة و ما كان فيها.

فقال لعليّ: اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم. فقال سهيل: ما أدرى ما الرّحمن الرّحيم إلاّ أنّي أظنّ هذا الّذي باليمامة ولكن اكتب كما نكتب بسمك الّلهمّ. قال: و اكتب: هذا ما قاضى عليه رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: فعلى ما نقاتلك يا محمّد؟! فقال: أنا رسول الله و أنا محمّد بن عبدالله، فقال النّاس: أنت رسول الله. قال: اكتب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبدالله، فقال النّاس: أنت رسول الله و كان في القضيّة أنّ من كان

منّا أتى إليكم رددتموه إلينا، و رسول الله غير مستكره عن دينه، و من جآء إلينا منكم لم نردّه إليكم.

فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: لاحاجة لنا فيهم و على أن يعبدالله فيكم علانية غير سرّ، و إن كانوا ليتهادون السّيور في المدينة إلى مكّة، و ما كانت قضيّة أعظم بركة منها لقد كاد أن يستولي على أهل مكّة الإسلام، فضرب سهيل بن عمرو على أبي جندل ابنه، فقال: أوّل ما قاضينا عليه، فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هل قاضيت على شئ؟ فقال: يا محمّد كنت بغدّار، قال: فذهب بأبي جندل، فقال: يا رسول الله تدفعني إليه؟ قال: و لم أشترط لك، قال: و قال: اللّهم اجعل لأبي جندل مخرجاً».

قوله ﴿عليه السلام﴾: «الحُليس» هو حليس بن علقمة أو ابن زبان و كان يومئذ سيّد الأحابيش و هو أحدبني الحارث بن عبدالمناة بن كنانة. و «هي تأكل بعضها أوبار بعض» كناية عن كثرتها و ازدحامها و اجتماعها. «لأنفردنّ في الأحابيش» جمع الحُبشي: جبل بأسفل مكّة، و منه أحابيش قريش لأنّهم تحالفوا بالله أنّهم ليد واحدة على غيرهم ما سجى ليل و وضح نهار و ما رسى جشيّ. و المعنى: اعتزل معهم عنكم و امنعهم عن معاونتكم. «ولثاً» الولث: العهد بين القوم يقع من دون قصد فيكون غير مؤكّد.

و قوله ﴿عليه السلام﴾: «لحمانها» جمع اللحم، و «تناول لحيته» أي لحية رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إذ كانت عادتهم فيما بينهم عند مكالمتهم و لجهله بشأنه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و عدم ايمانه لم يعرف أنّ ذلك لايليق بجنابه. و «سلحتك» أى تغوّطك، و «الرّحم» أي يقسمون عليك بالله و بالرّحم الّتي بينك و بينهم في أن تدخل عليهم أي في تركه. «عن السّرح» أي الماشية، و «المناوشة» أي المناولة في القتال أى كان المشركون في تهيّة القتال أي عند ذلك وقع بين المسلمين و بينهم محاربة. و «ضرب بإحدى يديه على الاخرى لعثمان» ليتأكّد عليه الحجّة و العهد و الميثاق، فيستوجب بنكثه أشدّ العذاب.

و قوله: «باليمامة» أي كانوا يقولون لمسيلمة الكذّاب. رحمن اليمامة. و «هذا ما قاضى» أى حكم لأنّه كان بينه و بين أهل مكّة، و «السّيور» جمع السَّير الّذي يعد من

الجلد، و فيه إشارة إلى ثمرة هذه المصالحة و كثرة فوائدها و منافعها للإسلام و المسلمين لأنّها صارت موجبة لأمن المسلمين بحيث كانوا يبعثون الهدايا من المدينة إلى مكّة من دون منع و لاخوف، و قد رغب كثير من أهل مكّة في الإسلام، و أسلم جمّ غفير منهم من دون حرب.

و في إعلام الورى: «في سنة خمس كانت غزوة الحديبيّة في ذي القعدة، و خرج﴿صلى الله عليه و آله﴾ في ناس كثير من أصحابه يريد العمرة، و ساق معه سبعين بدنة، و بلغ ذلك المشركين من قريش فبعثوا خيلاً ليصدّوه عن المسجد الحرام و كان﴿صلى الله عليه و آله﴾ يرى أنّهم لايقاتلونهم (لايقاتلونه خ) لأنّه خرج في الشّهر الحرام، و كان من أمر سهيل بن عمرو و أبي جندل ابنه و ما فعله رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ما شكّ به من زعم أنّه ما شكّ إلاّ يومئذ في الدّين، و أتى بديل ابن ورقاء إلى قريش فقال لهم: يا معشر قريش خفّضوا عليكم، و انّه لم يأت يريد قتالكم، و إنّما يريد زيارة هذا البيت، فقالوا: والله لانسمع منك، و لاتحدّث العرب أنّه دخلها عنوة، و لانقبل منه إلاّ أن يرجع عنّا، ثمّ بعثوا إليه بكر بن حفص و خالد بن الوليد و صدّوا الهدى.

و بعث﴿صلى الله عليه و آله﴾ عثمان بن عفّان إلى أهل مكّة يستأذنهم أن يدخل مكّة معتمراً فأبوا أن يتركوه، و احتبس عثمان فظنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنّهم قتلوه، فقال لأصحابه: «أتبايعوني على الموت؟» فبايعوه تحت الشّجرة على أن لايفرّوا عنه أبداً، ثمّ إنّهم بعثوا سهيل بن عمرو فقال: يا أباالقاسم إنّ مكّة حرمنا و عزّنا، و قد تسامعت العرب بك أنّك قد غزوتنا، و متى ما تدخل علينا مكّة عنوة تطمع فينا فنتخطّف، و إنّا نذكّرك الرّحم، فإنّ مكّة بيضتك الّتي تفلّقت من رأسك قال: «فما تريد؟» قال: أُريد أن أكتب بيني و بينك هدنة على أن أُخلّيها لك في قابل فتدخلها، و لاتدخلها بخوف و لافزع و لاسلاح إلاّ سلاح الرّاكب: السّيف في القراب و القوس.

فدعا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فأخذ أديماً أحمر فوضعه على فخذه، ثمّ كتب بسم الله الرّحمن الرّحيم، فقال سهيل بن عمرو: هذا كتاب بيننا و بينك يا محمّد فافتتحه بما نعرفه، اكتب باسمك اللّهمّ فقال: «اكتب باسم اللهمّ و امح ما كتبت»

فقال: لولا طاعتك يا رسول الله لما محوت، فقال النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «اكتب هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: لو أجبتك في الكتاب إلى هذا لأقررت لك بالنّبوّة، فامح هذا الإسم، و اكتب محمّد بن عبدالله، فقال له عليّ ﴿عليه السلام﴾: إنّه والله لرسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ على رغم أنفك، فقال النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «امحها يا عليّ» فقال له: يا رسول الله «إنّ يدي لاتنطلق لمحو اسمك من النّبوّة، قال: فضع يدي عليها، فمحاها رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بيده و قال لعليّ ﴿عليه السلام﴾: «ستدعى إلى مثلها فتجيب و أنت على مضض».

ثمّ كتب: «باسمك اللّهمّ هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب، و من معه من المسلمين سهيل بن عمرو و من معه من أهل مكّة على أنّ الحرب مكفوفة، فلا إغلال و لا إسلال و لاقتال، و على أن لا يستكره أحد على دينه و على أن يعبد الله بمكّة علانية، و على أنّ محمّداً ينحر الهدى مكانه، و على أن يخلّيها (نخلّيها خ) له في قابل ثلاثة أيّام، فيدخلها بسلاح الرّاكب، وتخرج قريش كلّها من مكّة إلاّ رجل واحد من قريش يخلفونه مع محمّد و أصحابه، و من لحق محمّداً و أصحابه من قريش، فإنّ محمّداً يردّه إليهم، و من رجع من أصحاب محمّد إلى قريش بمكّة فإنّ قريشاً لاتردّه إلى محمّد– و قال رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إذا سمع كلامي ثمّ جآءكم فلا حاجة لي فيه»– و أنّ قريشاً لاتعين على محمّد و أصحابه أحداً بنفس و لاسلاح إلى آخره.

فجآء أبو جندل إلى النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى جلس إلى جنبه، فقال أبوه سهيل: ردّه عليّ، فقال المسلمون: لانردّه فقام ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أخذ بيده فقال: «اللّهم إن كنت تعلم أنّ أبا جندل لصادق فاجعل له فرجاً و مخرجاً» ثمّ أقبل على النّاس، و قال: «إنّه ليس عليه بأس إنّما يرجع إلى أبيه و اُمّه، و إنّي اُريد أن أتمّ لقريش شرطها» و رجع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة، و أنزل الله في الطّريق سورة الفتح: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

قال الصّادق ﴿عليه السلام﴾: فما انقضت تلك المدّة حتّى كاد الإسلام يستولي على أهل مكّة، و لمّا رجع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة انفلت أبوبصير بن اُسيد بن حارثة الثّقفي من المشركين، و بعث الأخنس بن شريق في أثره رجلين، فقتل أحدهما، و أتى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ مسلماً مهاجراً فقال: «مسعر حرب لو كان معه واحد» ثمّ قال: «شأنك

بسلب صاحبك و اذهب حيث شئت» فنخرج أبوبصير و معه خمسة نفر كانوا قدموا معه مسلمين حتّى كانوا بين العيص و ذوي المروة من أرض جُهينة على طريق عيرات قريش ممّا يلي سيف البحر، و انفلت أبو جندل بن عمرو في سبعين رجلاً راكباً، أسلموا فلحق بأبي بصير، واجتمع إليهم ناس من غفار و أسلم و جهينة حتّى بلغوا ثلاث مأة مقاتل و هم مسلمون لايمرّ بهم عير لقريش إلاّ أخذوها غفار و قتلوا أصحابها. فأرسلت قريش أباسفيان بن حرب إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ يسئلونه و يتضرّعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير و أبي جندل و من معهم فيقدموا عليه، و قالوا: من خرج منّا إليك فامسكه غير حرج أنت فيه، فعلم الّذين كانوا أشاروا على رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القصّة: أنّ إطاعة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ خير لهم فيما أحبّوا و فيما كرهوا، و كان أبوبصير و أبو جندل و أصحابهما هم الّذين مرّبهم أبو العاص بن الرّبيع من الشّام في نفر من قريش فأسروهم فأخذوا أموالهم و لم يقتلوا منهم أحداً لصهر أبي العاص رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و خلّوا سبيل أبي العاص، فقدم المدينة على امرأته، و كان أذن لها حين خرج إلى الشّام أن تقدّم المدينة، فتكون مع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أبوالعاص هو ابن اُخت خديجة بنت خويلد».

قوله ﴿عليه السلام﴾: «مسعر حرب» مشعل نار الحرب و موقدها. و «شأنك بسلب صاحبك» السّلب ما يسلب من القتيل، و قدم أبوبصير سلبه ليخمسه رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فلم يقبله، و قال: إنّي إذا خمسته رأوا أنّي لم اوف لهم بالّذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك.

و **في السّيرة النبويّة** لابن هشام- ملخّصاً منّا- قال ابن إسحق: «ثمّ أقام رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾- بعد غزوة بني المصطلق سنة ستّ- بالمدينة شهر رمضان و شوّالاً، و خرج في ذي القعدة معتمراً لايريد حرباً، و استنفر العرب و من حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه و هو يخشى من قريش الّذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، و خرج رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمن معه من المهاجرين و الأنصار و من لحق به من العرب و ساق معه الهدى و أحرم بالعمرة

ليأمن النّاس من حربه، و ليعلم النّاس أنّه إنّما خرج زائراً لهذا البيت و معظّماً له.

خرج رسول الله﴿ﷺ﴾ عام الحديبيّة يريد زيارة البيت، و ساق معه الهدي سبعين بدنة و كان النّاس سبع مأة رجل، فكانت كلّ بدنة عن عشرة نفر، و كان جابربن عبدالله يقول: كنّا أصحاب الحديبيّة أربع عشرة مأة، خرج رسول الله﴿ﷺ﴾ حتّى إذا كان بعُسفان- منهلة من مناهل الطّريق بين الجحفة و مكّة- لقيه بشر ابن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله﴿ﷺ﴾ هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل - العوذ: جمع عائذ وهي من الابل الحديثة النتاج، و المطافيل: الّتي معها أولادها، يريد أنّهم خرجوا و معهم النّساء و الصّبيان و هو على الاستعارة- قد لبسوا جلود النّمور، و قد نزلوا بذي طُوىً -موضع قرب مكّة- يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبداً.

و هذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كُراع الغميم- موضع بناحية الحجاز بين مكّة و المدينة و هو واد أمام عسفان بثمانية أميال -قال: فقال رسول الله﴿ﷺ﴾: يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لوخلّوا بيني و بين سآئر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الّذي أرادوا و إن أظهرنى الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، و إن لم يفعلوا قاتلوا و بهم قوّة، فما تظنّ قريش، فو الله لا أزال أُجاهد على الّذي بعثني الله به حتّى يُظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة -: صفحة العنق، و هما سالفتان من جانبيه، وكنّي بانفرادها عن الموت- ثمّ قال: مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم الّتي هم فيها؟

قال رجل مِن أسلم: أنا يا رسول الله، قال: فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل -: الكثيرة الحجارة- بين شعاب فلمّا خرجوا منه، و قد شقّ ذلك على المسلمين و أفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله﴿ﷺ﴾ للنّاس: قولوا: نستغفر الله و نتوب إليه، فقالوا: ذلك، فقال: و الله إنّها لَلْحِطّة الّتي عُرِضَت على بني إسرائيل، فلم يقولوها. (الحطّة: يريد قول الله تعالى لبني إسرائيل: «و قولوا حطّة» أي اللّهمّ حطّ عنّا ذنوبنا)

فأمر رسول الله﴿ﷺ﴾ النّاس، فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحَمض، في طريق على ثنيّة المُرار مهبط الحديبيّة من أسفل مكّة، فسلك الجيش ذلك الطّريق، فلمّا رأت خيل قريش قَتَرة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، و

خرج رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتّى إذا سلك في ثنية المرار بَرَكَتْ ناقته، فقالت النّاس: خلأت النّاقة، قال: ما خلأت و ما هو لها بخُلُقٍ، و لكن حَبَسَها حابس الفيل عن مكّة، لاتدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسئلونني فيها صلة الرّحم إلاّ أعطيتهم إيّاها، ثمّ قال للنّاس: انزلوا، قيل له: يارسول الله: ما بالوادي مآء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب (بئر) من تلك القُلُب، فغرزه في جوفه، فجاش (أى ارتفع) بالرَّواء (أى الكثير) حتّى ضرب النّاس عنه بعطن (أي مبرك الإبل حول الماء).

فلمّا اطمأنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أتاه بُدَيل بن ورقآء الخُزاعيّ في رجال من خُزاعة، فكلّموه و سئلوه: ما الّذي جآء به؟ فأخبرهم أنّه لم يأت يريد حرباً، و إنّما جآء زآئراً للبيت و معظّماً لحرمته، ثمّ قال لهم نحواً ممّا قال لبُشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش! إنّكم تعجلون على محمّد، إنّ محمّداً لم يأت القتال، و إنّما جآء زائراً هذا البيت، فاتّهموهم و جبّهوهم (أي خاطبوهم بما يكرهون) و قالوا: و إن كان جآء و لايريد قتالاً، فو الله لايدخلها علينا عنوة أبداً و لاتحدّث بذلك عنّا العرب، و كانت خُزاعة عَيبة نُصح رسول الله ﴿ﷺ﴾ (أي خاصّته و أصحاب سرّه) مُسلِمها و مشركها، لايُخفون عنه شيئاً كان بمكّة.

ثمّ بعثوا إليه مِكرَز بن حفص بن الأخْيَف، أخا بني عامر بن لؤيّ، فلمّا رآه رسول الله ﴿ﷺ﴾ مقبلاً قال: هذا رجل غادر، فلمّا انتهى إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ و كلّمه، قال له رسول الله ﴿ﷺ﴾ نحواً ممّا قال لبُدَيل و أصحابه، فرجع إلى قريش، فأخبرهم بما قال له رسول الله ﴿ﷺ﴾ ثمّ بعثوا إليه الحُلَيس بن علقمة أو ابن زبّان، و كان يومئذ سيّد الأحابيش و هو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كِنانة، فلمّا رآه رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: إنّ هذا من قوم يتألّهون (أي يتعبّدون و يعظّمون أمر الإله) فابعثوا الهدى في وجهه حتّى يراه، فلمّا رأى الهدى يسيل عليه من عُرض الوادي في قلائدة (: ما يعلق في أعناق الهدى ليعلم أنّه هدى) و قد أكل أو باره من طول الحَبْس عن مَحِلّه (: موضع ينحر فيه الهدى أو يذبح) رجع إلى قريش، و لم يصل إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ إعظاماً لما رأى، فقال

لهم ذلك، قال: فقالوا له: إجلس، فإنّما أنت أعرابيّ لا علم لك.

فغضب الحُلَيس عندئذ، و قال: يا معشر قريش! والله ما على هذا حالفناكم، و لا على هذا عاقدناكم، أيُصَدّ عن بيت الله من جآء معظّماً له، و الّذي نفس الحُلَيس بيده لَتَخَلُّنَّ بين محمّد﴿ﷺ﴾ و بين ما جآء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد. قال: فقالوا له: مَه، كفّ عنّا يا حُلَيس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثمّ بعثوا إلى رسول الله﴿ﷺ﴾ عُروة بن مسعود الثّقفي، فقال: يا معشر قريش! إنّي قد رأيت ما يلق منكم من بعثتموه إلى محمّد إذ جآءكم من التّعنيف و سوء اللفظ، و قد عرفتم أنّكم والد (اى كلّ واحد منكم كالوالد) و أنّي وَلَدٌ –وكان عروة لسُبيعة بنت عبد شمس – و قد سمعت بالّذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومى، ثمّ جئتكم حتّى آسيتكم (أي عاونتكم) بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتّهم، فنخرج حتّى أتى رسول الله﴿ﷺ﴾ فجلس بين يديه، ثمّ قال: يا محمّد! أجَمَعْتَ أو شاب النّاس (أي اجتمعوا) ثمّ جئت بهم إلى بيضتك (أي أهله و قبيلته) لتفضّها (أي تكسرها) بهم إنّها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النّمور، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبداً، و أيم الله لكأنّي بهؤلآء قد انكشفوا عنك غداً.

فكلّمه رسول الله﴿ﷺ﴾ بنحوٍ ممّا كلّم به أصحابه، و أخبره أنّه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله﴿ﷺ﴾ و قد رأى ما يصنع به أصحابه، لايتوضّأ إلاّ ابتدروا وضوئه، و لايبصق بُصاقاً إلاّ ابتدروه، و لايسقط من شعره شئ إلاّ أخذوه، فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش! إنّي قد جئت كِسْرى في ملكه، و قيصر في ملكه، والنّجاشي في ملكه، و إنّي والله ما رأيت مَلِكاً في قوم مثل محمّد في أصحابه، و لقد رأيت قوماً لايسلمونه لشئ أبداً فروا رأيكم!

إنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ دعا خراش بن أُميّة الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكّة، و حمله على بعير له يقال له: الثّعلب ليبلّغ أشرافهم عنه ما جآءله، فعقروا به جمل رسول الله﴿ﷺ﴾ و أرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله حتّى أتى رسول الله﴿ﷺ﴾. قال ابن عبّاس: إنّ قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً أو خمسين رجلاً منهم، و أمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله﴿ﷺ﴾ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأُخذوا أخذاً، فأُتى بهم

رسول الله ﴿ﷺ﴾ فعفا عنهم، و خلّى سبيلهم، و قد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالحجارة و النّبل.

ثمّ دعا عمر بن الخطّاب ليبعثه إلى مكّة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جآء له، فقال: يا رسول الله إنّي أخاف قريشاً على نفسي، و ليس بمكّة من بني عديّ ابن كعب أحد يمنعني، و قد عرفت قريش عداوتي إيّاها، و غِلظتي عليها، ولكنّي أدلّك على رجل أعزّ بها منّي: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان و أشراف قريش، يُخبرهم أنّه لم يأت لحرب، و أنّه إنّما جآء زآئراً لهذ البيت و معظّماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكّة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكّة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثمّ أجاره حتّى بلّغ رسالة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فانطلق عثمان حتّى أتى أباسفيان و عظمآء قريش، فبلّغهم عن رسول الله ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﴿ﷺ﴾ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف، فقال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ﴿ﷺ﴾ و احتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﴿ﷺ﴾ و المسلمين أنّ عثمان بن عفان قد قُتِلَ.

و في **المجمع**: قال ابن عبّاس: إنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ خرج يريد مكّة فلمّا بلغ الحديبيّة وقفت ناقته و زجرها فلم تنزجر و بركت النّاقة، فقال أصحابه: خلأت النّاقة، فقال﴿ﷺ﴾: ما هذا لها عادة، و لكن حبسها حابس الفيل، و دعا عمر بن الخطّاب ليرسله إلى أهل مكّة ليأذنوا له بأن يدخل مكّة و يحلّ من عمرته و ينحر هديه، فقال: يا رسول الله ما لي بها حميم، و إنّي أخاف قريشاً لشدّة عداوتي إيّاها، ولكن أدلّك على رجل هو أعزّ بها منّي: عثمان بن عفان، فقال: صدقت، فدعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ عثمان فأرسله إلى أبي سفيان و أشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب و إنّما جآء زائراً لهذا البيت معظمّاً لحرمته فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﴿ﷺ﴾ و المسلمين أنّ عثمان قد قتل، فقال﴿ﷺ﴾: لانبرح حتّى نناجز القوم، و دعا النّاس إلى البيعة.

فقام رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلى الشّجرة فاستند إليها و بايع النّاس على أن يقاتلوا المشركين و لايفرّوا قال عبدالله بن معقل: كنت قائماً على رأس رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذلك اليوم و بيدي غصن من السّمرة أذب عنه و هو يبايع النّاس، فلم يبايعهم على الموت، و إنّما بايعهم على أن لايفرّوا. و روى الزّهري و عروة بن الزّبير و المسور بن مخرمة (مخرمة خ) قالوا: خرج رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الحديبيّة في بضع عشرة مأة من أصحابه، حتّى إذا كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ الهدى و أشعره و أحرم بالعمرة، و بعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش، و سار رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حتّى إذ كان بغدير الاشطاط قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي، فقال: إنّي تركت كعب بن لؤي و عامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش (أي جماعة من النّاس من قبائل مختلفة) و جمعوا جموعاً، و هم قاتلوك أو مقاتلوك، و صادّوك عن البيت.

فقال ﴿صلى الله عليه وآله﴾: روحوا فراحوا حتّى إذا كانوا ببعض الطّريق، قال النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾: إنّ خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، طليعة، فخذوا ذات اليمين، و سار ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حتّى إذا كان بالثّنية بركت راحلته، فقال ﴿صلى الله عليه وآله﴾: ما خلأت القصوآء ولكن حبسها حابس الفيل، ثمّ قال: و الله لايسئلوني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إيّاهم، ثمّ زجرها فوثبت به، قال: فعدل حتّى نزل بأقصى الحديبيّة على ثمد قليل الماء إنّما يتبرضه النّاس تبرّضاً (أي يأخذون الماء قليلاً قليلاً من ههنا و ههنا) فشكوا إليه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ العطش فانتزع سهماً من كنانته، ثمّ أمرهم أن يجعلوه في المآء فوالله مازال يجيش لهم بالرّيّ حتّى صدروا عنه.

فبينا هم كذلك إذ جآءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، و كانوا عيبة نصح رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من أهل تهامة، فقال: إنّي تركت كعب بن لؤي و عامر بن لؤي، و معهم العوذ المطافيل، و هم مقاتلوك و صادّوك عن البيت، فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: إنّا لم نجئ لقتال أحد و لكن جئنا معتمرين، و إنّ قريشاً قد نهكتهم الحرب و أضرّت بهم،

فإن شآؤا مادونهم مدّة و يخلّوا بيني و بين النّاس، و إن شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا، و إلاّ فقد جمعوا، و إن أبوا فوالّذي نفسي بيده لأُ قاتلنّهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي أو لينقذنّ الله تعالى أمره، فقال بديل: سأُبلّغهم ما تقول فانطلق حتّى أتى قريشاً، فقال: إنّا قد جئناكم من عند هذا الرّجل، و إنّه يقول كذا و كذا.

فقام عروة بن مسعود الثّقفي، فقال: إنّه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها و دعوني آته؟ فقالوا: ائته فأتاه فجعل يكلّم النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال له رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمّد أرأيت ان استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك، و إن تكن الاخرى، فو الله إنّي لأرى وجوهاً و أرى أشاباً من النّاس خلقآء أن يفرّوا و يدعوك، فقال له أبوبكر: امصص بظر اللّات أنحن نفرّ عنه و ندعه؟ فقال: من ذا قال: أبوبكر.

قال: أما و الّذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم اجزك بها لأجبتك، قال: و جعل يكلّم النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾.

و كلّما كلّمه أخذ بلحيته، و المغيرة بن شعبة قآئم على رأس النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و معه السّيف و عليه المغفر، فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ضرب يده بنعل السّيف، و قال: أخّر يدك عن لحية رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ قبل أن لاترجع إليك، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، قال: أي غُدرَ و لست اسعى في غدرتك، قال: و كان المغيرة صحب قوماً في الجاهليّة فقتلهم و أخذ أموالهم، ثمّ جآء فأسلم، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أمّا الإسلام فقد قبلنا، و أمّا المال فإنّه مال غدر لاحاجة لنا فيه، ثمّ إنّ عروة جعل يرمق أصحاب النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إذا أمرهم رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ابتدروا أمره، و إذا توضّأ ثاروا يقتتلون على وضوئه، و إذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده و ما يحدّون إليه النّظر تعظيماً له﴿صلى الله عليه وآله﴾.

قال: فرجع عروة إلى أصحابه، و قال: اي قوم و الله لقد وفدت على الملوك و وفدت

على قيصر و كسرى و النّجاشي، والله إن رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد إذا أمرهم ابتدروا أمره، و إذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، و إذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، و ما يحدّون إليه النّظر تعظيماً له، و إنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته فقالوا: ائته، فلمّا أشرف عليهم قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لأصحابه: هذا فلان و هو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها، فبعث له و استقبله القوم يلبّون، فلمّا رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلآء أن يصدّوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلمّا أشرف عليهم، قال النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾: هذا مكرز و هو رجل فاجر، فجعل يكلّم النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فبينا هو يكلّمه إذا جاء سهيل بن عمرو فقال ﴿صلى الله عليه وآله﴾: قد سهل عليكم أمركم...».

و غيرها من الرّوايات المختلفة الطّويلة الّتي لانرى لذكرها فوائد هامّة إلاّ أن نلخّصها لما فيها ما ليس فيما ذكرناه آنفاً...

﴿ ملخّص ما جآء في الرّوايات المختلفة من قصّة سفرة الحديبيّة ﴾

و اعلم أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ بعد انصرافه من غزوة بني‌المصطلق سنة ستّ (أو خمس و هو ضعيف) و أقام﴿ﷺ﴾ بالمدينة شهر رمضان و شوّالاً رأى في منامه أنّه زار الكعبة هو و أصحابه، فاعتزم زيارتها، فأخبر المسلمين أنّه يريد العمرة، و استنفر إلى ذلك المسلمين في المدينة، و من حولها ليصحبوه تفادياً من أن تصدّهم قريش عن قصدهم، فتلكأ من هؤلآء الأعراب في قبول دعوته ظنّاً منهم أن لن ينقلب رسول الله﴿ﷺ﴾ و المؤمنين إلى أهليهم أبداً و احتجّوا على ذلك بقولهم: «شغلتنا أموالنا و أهلونا».

و كان ذلك في أواخر العام السّتّ من الهجرة في شهر ذي‌القعدة من الأشهر الحرم - و قد يدلّ هذا على أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ يريد الحجّ أيضاً لأنّ الزّيارة كانت في موسم الحجّ فاكتفى النّبيّ﴿ﷺ﴾ بمن معه من المهاجرين و الأنصار، و كان عددهم - على اختلاف الرّوايات - من سبع مأة رجل - إلى - ألفين و خمسمأة رجل، و لمّا أراد النّبيّ﴿ﷺ﴾ هذه السّفرة، ولّى على المدينة ابن اُمّ مكتوم، و كان مكفوف البصر، و أخرج معه زوجته اُمّ سلمة، و ساق معه الهدي سبعين بدنة لتعرف النّاس أنّه﴿ﷺ﴾ لم

يخرج محارباً، و لم يكن معه صحبه سلاح غير السّيوف في القرب لأنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لم يرض أن يحملوا السّيوف مجرّدة من قربها، فلمّا وصل ﴿ﷺ﴾ إلى مكان إسمه ذوالحليفة، يقال له: «مسجد الشّجرة» و هو اليوم يسمّى بـ«آبار عليّ» و هو ميقات أهل المدينة، و بينه و بين المدينة (٧) كيلومتراً، و بينه و بين مكّة المكرّمة: (٤٦٤) كيلومتراً.

و قد أشعر النّبيّ ﴿ﷺ﴾ هنا الهدى (أي جرحه ليسيل دمه، و هذا علامة على أنّه هدى لله» و وضع في أعناقه القلائد (و هي علامة ثانية على ذلك) ثمّ سار الجيش حتّى وصل غدير الأشطاط قريباً من غسفان، و هو موضع على مرحلتين من مكّة، و من هنا وصلت أخبار مسيره ﴿ﷺ﴾ إلى قريش، فهاجوا و ثارت نفوسهم، و تعاهدوا على منعه ﴿ﷺ﴾ و أخذوا يستعدّون للحرب، و قد أرسل ﴿ﷺ﴾ عيناً من خزاعة ليخبره عن قريش، فأتى عينه الخزاعى الخبر بذلك في عسفان: أنّ قريشاً أجمعت رأيها أن يصدّوا المسلمين عن مكّة، و أن لايدخلوها عليهم عنوة أبداً، و تجهّزوا للقتال و أرسلوا خالد بن وليد في مأتي فارس كطليعة ليصدّوا المسلمين عن التقدّم.

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم؟ قال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله ﴿ﷺ﴾ فساربهم في طريق عسرة، ثمّ خرج بهم إلى مستوسهل يملك مكّة من أسفلها، فلمّا رأى الخالد ما فعله المسلمون رجع إلى قريش، و أخبرهم بذلك، و لمّا كان النّبيّ ﴿ﷺ﴾ بثنية المرار و هو مهبط الحديبيّة بركت ناقته ﴿ﷺ﴾ فزجروها فلم تقم،فقالوا: اختلأت القصراء فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: ما خلأت و ما ذلك لها بخُلُق، و لكن حبسها حابس الفيل، فأُلهِم ﴿ﷺ﴾ بوجوب التّوقّف في المكان، فتوقّف و قال: «و الّذي نفس محمّد بيده لاتدعوني قريش اليوم إلى خطّة فيها تعظيم حرمات الله و فيها صلة الرّحم إلاّ أجبتهم إليها».

فنزل رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالحديبيّة، فقيل: يا رسول الله ﴿ﷺ﴾ ليس بهذا الوادي مآء فأخرج ﴿ﷺ﴾ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب (بئر) من تلك القُلُب، فغرزه في جوفه، فجاش بالماء الرّواء حتّى كفى جميع الجيش.

و قد كان للمسلمين إذ ذاك قوّة يستطيعون بها أن يستحقّوا من يناوئهم، ثمّ أمرهم

رسول الله﴿ﷺ﴾ النّزول بأقصى الحديبيّة، و بعث خِراش بن أُميّة الخزاعي رسولاً إلى أهل مكّة، و حمله على جمل له يقال له: الثّعلب يعلمهم أنّه جآء معتمراً لا يريد قتالاً، فلمّا أتاهم و كلّمهم عقروا جمله و أرادوا قتله، فمنعه الأحابيش (أي جماعة من قبائل مختلفة) فخلّوا سبيله حتّى أتى الرّسول﴿ﷺ﴾.

و هناك جآء بديل بن ورقآء الخزاعي في نفر من خزاعة، سفيراً من قريش و هو رئيس قبيلة خزاعة من أهل تهامة، و كان هو و قبيلته، ناصحين للمسلمين، فأخبره﴿ﷺ﴾: أنّ قريشاً و أحلافهم معتزمون على صدّه﴿ﷺ﴾ و قد أعدّوا للقتال عدّته، فسئله﴿ﷺ﴾ عن سبب مجيئه﴿ﷺ﴾ مع المسلمين لهذه السّفرة، فأخبره رسول الله﴿ﷺ﴾ بمقصده، فأرسله يخبرهم أنّه جآء معتمراً و لم يجئ مقاتلاً و يدعوهم إلى المهادنة و السّماح له بالزّيارة و التّخلية بينه و بين العرب، فإن هلك كُفُوا مؤونته، و إن أظهره الله كانوا بالخيار إن أرادوا دخلوا فيما دخل فيه النّاس، و ينذرهم إذا أمعنوا في العناد و البغي أنّه سوف يقاتلهم حتّى تنفرد سالفته (حتّى يطيح رأسه من عنقه) و لينفذنّ الله أمره.

فلمّا رجع بديل إلى قريش و أخبرهم بذلك لم يثقوا به لأنّه من خزاعة الموالية لرسول الله﴿ﷺ﴾ كما كانت كذلك لأجداده﴿ﷺ﴾ و قالوا: أيريد محمّد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنّه قد دخل علينا عنوة، و بينه و بيننا من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا أبداً، و منّا عين تطرف. ثمّ أرسلوا حُلَيْس بن علقمة سيّد الأحابيش و هم حلفآء قريش، فلمّا رآه رسول الله﴿ﷺ﴾ قال: هذا من قوم يعظّمون الهدى، ابعثوه في وجهه حتّى يراه، ففعلوا و استقبله النّاس يلبّون، فلمّا رأى ذلك حليس رجع، و قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلآء أن يصدّوا أتحجّ لخم و جذام و حمير، و يمنع عن البيت ابن عبدالمطّلب، هلكت قريش و ربّ البيت أنّ القوم أتوا معتمرين؟! فلمّا سمعت قريش منه، ذلك قالوا له: أجلس إنّما أنت أعرابي لا علم لك.

و كان عروة بن مسعود الزّعيم الثّقفي سيّد أهل الطّآئف حاضراً، فنصحهم بقبول مااقترحه و طلب منهم أن يأذنوا له ليأتي محمّداً ﴿ﷺ﴾ و يكلّمه، فأذنوا له، فتوجّه إلى

الحديبيّة فجاء رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فكلّمه، فقال ﴿صلى الله عليه و آله﴾ له ما قال للزّعيم الخزاعي، فقال له: أي محمّد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب فعل ذلك قبلك؟ و إن تكن الاخرى، فوالله انّي لأرى وجوهاً و أرى أوباشاً من النّاس خلقآء أن يفرّوا و يدعوك و انكشفوا عنك! فصرخ به بعض الصّحابة: امصص بظهر (بظر خ) اللّات أنحن نفرّ عنه و ندعه؟!

فعاد عروة و قد رأى ما يصنع أصحاب رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من احترامه، فقال لقريش: أي معشر قريش! و الله لقد وفدت على الملوك، و وفدت على قيصر في عظمته، و كِسْرى في ملكه، و النّجاشي في شوكته ما رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد محمّداً إذا أمرهم ابتدروا أمره و إذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، و إذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، و ما يحدون إليه النّظر تعظيماً له ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فانظروا رأيكم، فإنّه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم، فإنّي لكم ناصح مع أنّي أخاف أن لاتنصروا عليه، فقالت قريش: لاتتكلّم بهذا و لكن نردّه عامنا هذا و يرجع إلى قابل.

فظلّوا في تردّدهم و ترادت رسل اخرى بين قريش و رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في ذلك، و قد هبط على رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أصحابه ثمانون رجلاً (و قيل: سبعون رجلاً و قيل: ثلاثون شاباً) من أهل مكّة عليهم السّلاح، من قِبَل جبل التّنعيم عند صلاة الفجر يريدون غرّة رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و كان فيهم أبوسفيان و ابنه معاوية، فدعا عليهم رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأخذ الله تعالى بأسماعهم و أبصارهم، فأخذهم الأصحاب، فعفى عنهم النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال لهم رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فمنّ عليهم رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لهم: أنتم الطّلقآء، فخلّى سبيلهم.

فكان أبوسفيان و ابنه معاوية من جملة الطّلقآء مرّتين: مرّة في قصّة الحديبيّة سنة ستّ و اخرى يوم فتح مكّة سنة ثمان من الهجرة.

في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - في قوله تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم

و أيديكم عنهم ببطن مكّة» الفتح: ٢٤) ما لفظه: «و ذكر ابن هشام عن وكيع: و كانت قريش قد جآء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للايقاع بالمسلمين و انتهاز الفرصة في أطرافهم، ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى، و كان ذلك و السّفرآء يمشون بينهم في الصّلح، فأطلقهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ فهم الّذين يسمّون العُتقآء، و منهم معاوية و أبوه».

و فيه: و روى التّرمذي قال: حدّثنا عبد بن حميد، قال: حدّثني سليمان بن حرب، قال: حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس: أنّ ثمانين هبطوا على رسول الله ﴿ﷺ﴾ و أصحابه من جبل التّنعيم عند صلاة الصّبح، و هم يريدون أن يقتلوه ﴿ﷺ﴾ فأُخِذوا أخذاً، فأعتقهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأنزل الله تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم» الآية قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح».

ثمّ أرسل رسول الله ﴿ﷺ﴾ من عنده عثمان بن عفان و معه عشرة رجال إلى قريش استأذنوا النّبيّ ﴿ﷺ﴾ في زيارة بعض ذوي قرابتهم من بني أُميّة و غيرهم، و أمر النّبيّ ﴿ﷺ﴾ عثمان بأن يقابل رجالاً مؤمنين، و نسآء مؤمنات بمكّة، فيبشّرهم بقرب فتحها، و أنّ الله تعالى ليظهر دينه، فدخل عثمان مكّة في جوار أبان بن سعيد العاص الاموي، فأتى قريشاً، فأخبرهم برغبة النّبيّ ﴿ﷺ﴾ عن القتال، و رغبته في الزّيارة فحسب، و الظّاهر أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ اختار عثمان بن عفّان لذلك، لقوّة عصبيّته في مكّة حيث يمت إلى بني أُميّة، فقال قريش: إنّ محمّداً لايدخل علينا عنوة أبداً، ثمّ إنّهم حبسوا عثمان عندهم، فشاع بين المسلمين: أنّ عثمان قد قتل، فلمّا سمع رسول الله ﴿ﷺ﴾ ذلك، فقال: لانبرح حتّى نناجزهم الحرب.

﴿المبايعة تحت الشّجرة و بيعة الرّضوان﴾

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم...» الفتح: ١٠).

و قد نادىٰ منادي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: ألا إنّ روح القدس قد نزل على رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأمره﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالبيعة، أيّها النّاس! البيعة البيعة، فاخرجوا على اسم الله جلّ وعلا، فثار المسلمون إلى رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فدعاهم للبيعة على القتال، و كان معقل بن يسار آخذاً بأغصان الشّجرة عن وجه رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هو﴿صلى الله عليه وآله﴾ يبايع المسلمين... و قد سبق الاختلاف في عددهم من سبعمأة رجل إلى ألفين و خمسمأة رجل.

فبايعوه﴿صلى الله عليه وآله﴾ تحت الشّجرة في الحديبيّة، سمّيت بعد بشجرة الرّضوان، و قد بايع أكثر المسلمين رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ على الموت، و كان بعضهم يقولون: بايعناه﴿صلى الله عليه وآله﴾ على أن لا نفرّ، و بعضهم يقولون: بايعناه﴿صلى الله عليه وآله﴾ على الثّبات و الاستماتة إذا ما أصرّت قريش على البغي.

و في فروع الكافي: باسناده عن معاوية بن عمّار عن أبي‌عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: «... و

شعار يوم الحديبيّة: ألا لعنة الله على الظّالمين...».

و قد تمّت البيعة تحت الشّجرة - و هي سمرة - استظلّ النّبيّ ﴿ﷺ﴾ بظلّها فسمّيت بيعة الشّجرة، و بيعة الرّضوان لقوله تعالى: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة» الفتح: ١٨) و إنّ النّاس كانوا يأتونها، فيصلّون عندها، حتّى أمر عمر بن الخطّاب في زمانه بقطعها، و قال ابن عمر: ما اجتمع منّا اثنان على الشّجرة الّتي بايعنا تحتها، و كانت رحمةً من الله تعالى، و لكن أبي عمر بن الخطّاب أمر بقطعها.

و لايخفى على القارئ الخبير: أنّ البيعة هي العهد على الطّاعة، كأنّ المبايع يعاهد أميرَه على أنّه يسلّم له النّظر في أمر نفسه و امور المسلمين لاينازعه في شئ من ذلك و يطيعه فيما يكلّفه به من الأمر على المنشّط و المكرِه، و كانوا إذا بايعوا الأمير و عقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع و المشتري، فسمّي بيعةً، مصدر باع، و صارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة، و معهود الشّرع، و هو المراد في الحديث في بيعة النّبيّ الكريم﴿ﷺ﴾ ليلة العقبة، و تحت الشّجرة، و يوم الغدير و غيرها...

﴿الإمام عليّ «عليه السلام» وكتابة الصّلح و شروطه يوم الحديبيّة﴾

و لم يلبث عثمان أن رجع، فشاع أمر بيعة الرّضوان تحت الشّجرة في قريش، فداخلهم منها رعب عظيم، و قد أرسلوا خمسين رجلاً منهم، عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين، علّهم يصيبون منهم غرّة، فأسرهم حارس الجيش محمّد بن مسلمة، و هرب رئيسهم، و لمّا علمت بذلك قريش، جآء جمع منهم و ابتدؤا يناوشون المسلمين، حتّى أُسِر منهم اثنى عشر رجلاً و قُتِل من المسلمين واحد، و عند ذلك هلعت قريش، و أرسلت سهيل بن عمرو و من معه داعين إلى الموادعة و الصّلح مزوّداً بشروط أملتها عليهم الأنفة و الحميّة الجاهليّة.

و قد اختلفت كلمات المفسّرين و أصحاب السّير في المقام اختلافاً كثيراً، فنشير إلى ملخّصها روماً للإختصار.

لمّا جآء مكرز بن حفص من جانب قريش للإغارة، و أشرف على المسلمين بالحديبيّة، و رآه رسول الله «صلى الله عليه و آله» قال: هذا مكرز و هو رجل فاجر، فجآء النّبيّ «صلى الله عليه و آله» فجعل يكلّم النّبيّ «صلى الله عليه و آله» فبينا هو يكلّمه إذ جآء سهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤى أحد زعمآء قريش، و معه حويطب بن عبدالعزّى و حفص بن فلان،

جآؤه﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ ليصالحوه﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ فلمّا رآهم رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ فيهم سهيل بن عمر و مقبلاً، قال: قد أرادت قريش الصُّلحَ حين بعثوا سهيلاً، قد سهّل عليكم أمركم أيّها المسلمون، فابعثوا الهدى و أظهروا التّلبية، لعلّ ذلك يلين قلوبهم، فلبّوا من نواحي العسكر حتّى ارتجّت أصواتهم بالتّلبية.

فلمّا انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ تكلّم فأطال الكلام و تراجعا، فقال سهيل: يا محمّد! إنّ الّذي حصل من رأى عقلائنا: أنّك تبعث إلينا مَن أسرت، فقال﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾: حتّى ترسلوا مَن عندكم منّا إلينا، فعندئذ أرسلوا عثمان و العشرة الّذين معه، ثمّ عرض سهيل على رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ الشّروط الّتي تريدها قريش، و سئله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ الصّلح فقبله رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ فقال سهيل لرسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾: اكتب بيننا و بينكم كتاباً، فدعا النّبي﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ عليّ بن أبيطالب﴿علیه‌السلام﴾ فقال﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ له﴿علیه‌السلام﴾:

اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمّد رسول الله.

فقال سهيل: أمّا الرّحمن فوالله لا أعرف ما هو إلاّ باليمامة (أي مسيلمة الكذّاب) و لكن اكتب: بسمك اللّهمّ، و أمّا الرّسالة فلو صدقناك بها لاتّبعناك و ما دفعناك عمّا تريد، و ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك، و لكن اكتب: من محمّد بن عبدالله.

فقال رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ لعليّ﴿علیه‌السلام﴾: امح رسول الله، و اكتب: بسمك اللّهمّ من محمّد بن عبدالله.

فقال عليّ﴿علیه‌السلام﴾: يا رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾: إنّ يدي لاتنطلق بمحو اسمك من الرّسالة، فقال له رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾: «فإنّ مثلها تعطيها و أنت مضطهد» ايعاز إلى ما يأتي في قصّة الحكمين في صفّين. و اضطهده: قهره و جار عليه».

و في **الخرائج**: روي عن عيسى بن عبدالله الهاشميّ عن أبيه عن جدّه عن عليّ﴿علیه‌السلام﴾ قال: لمّا كان يوم القضيّة (أي قضيّة صلح الحديبيّة) حين ردّ المشركون النّبيّ﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ و من معه و دافعوه عن المسجد الحرام أن يدخلوه، هادنهم رسول الله﴿صلی‌الله‌علیه‌وآله﴾ فكتبوا بينهم كتاباً، قال عليّ﴿علیه‌السلام﴾: فكنت أنا الّذي كتب، فكتبت: «باسمك اللّهمّ هذا كتاب بين محمّد رسول الله و بين قريش».

فقال سهيل بن عمرو: لو أقررنا أنّك رسول الله لم ينازعك أحد، فقلت: بل هو رسول

الله و أنفك راغم، فقال لي رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾: «اكتب له ما أراد ستعطى يا عليّ بعدي مثلها» قال: فلمّا كتبت الصّلح بيني و بين أهل الشّام كتبت: «بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا كتاب بين عليّ أميرالمؤمنين و بين معاوية بن أبي‌سفيان» فقال معاوية و عمرو بن عاص: لوعلمنا أنّك أميرالمؤمنين لم ننازعك، فقلت: اكتبوا ما رأيتم، فعلمت أنّ قول رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ (النّبيّ ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ خ) حقّ قد جآء».

في **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي: «و عن أبي وآئل قال: قام سهل بن حنيف يوم صفّين، فقال: «يا أيّها النّاس! اتّهموا أنفسكم لقد كنّا مع رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ يوم الحديبيّة، و لو نرى قتالاً لقاتلنا، و ذلك في الصّلح الّذي كان بين رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ و بين المشركين».

فقال رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ لعليّ ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: أعرضه عَلَيّ، فأشار إليه، فمحاه رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ بيده، فقال رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾: و الله إنّي لرسول الله و إن كذبتموني، اكتب يا عليّ: هذا ما صالح محمّد بن عبدالله سهيل بن عمرو صلحاً:

١- على وضع الحرب بين المسلمين و قريش، عشر سنين (و قيل: أربع سنوات) يأمن فيهنّ النّاس و يكفّ بعضهم عن بعض.

٢- و على أنّه من أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، و من جآء قريشاً ممّن مع محمّد ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ لم يردّوه عليه.

فاشتدّ ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ من جآءهم منّا فأبعده الله، و من جآءنا منهم فرددناه إليهم، فعلم الله الإسلام من نفسه، جعل له فرجاً و مخرجاً.

٣- و على أنّ بيننا عيبة مكفوفة. أي صدور منطوية على ما فيها لا نبدي عداوة. و ضرب العيبة مثلاً.

٤- و على أنّه لاإسلال (أى لا سرقة خفيفة) و لا إغلال (أي و لا خيانة) و لا إهلال و لا امتال.

٥- و على أن لايخرج من أهل مكّة بأحد إن أراد أن يتّبعه، و أن لايمنع من أصحابه﴿ﷺ﴾ أحداً إن أراد أن يقيم بها.

٦- و على أنّه من أحبّ اليوم أن يدخل في عقد محمّد و عهده من الحاضرين دخل فيه، و من أحبّ أن يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل فيه.

و عندئذ فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمّد و عهده، و تواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش و عهدهم. فقال رسول الله﴿ﷺ﴾ على أن تخلوا بيننا و بين البيت، فنطوف. فقال سهيل: و الله ما تتحدّث العرب أنّا أخذنا ضغطة، و لكن ذلك من العام القابل فكتب.

٧- على تأجيل الزّيارة إلى العام القابل، بأن يرجع محمّد عن مكّة عامه هذا فلا يدخلها.

٨- و على أنّه إذا كان عام قابل خرج أهل مكّة، فدخلها محمّد و أصحابه، فأقام بها ثلاث ليال، معه﴿ﷺ﴾ سلاح الرّكب، و السّيوف في القرب لايدخلها بغيرها.

٩- و على أنّه من قدم مكّة من أصحاب محمّدا حاجّاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله، و من قدم المدينة من قريش، مجتازاً إلى مصر أو إلى الشّام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله.

١٠- و على أنّ هذا الهدى حيث ما حسبناه محلّه لاتقدّمه علينا، فقال﴿ﷺ﴾: نحن نسوق و أنتم تردّون.

فلمّا فرغ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ من كتابة الصّلح، أشهد رسول الله﴿ﷺ﴾ على الصّلح رجالاً من المسلمين و رجالاً من المشركين.

فبينما هم كذلك إذ جآء أبوجندل بن سهيل بن عمرو، يرسف (أي يمشي مشي المقتد) في قيوده، و قد كان هو أسلم من قبل، فحبسه أبو سهيل، و قيّده، فاستطاع أبوجندل أن يفرّ و يجيئ إلى رسول الله﴿ﷺ﴾ يرسف أغلاله، حينما درى أنّ محمّداً﴿ﷺ﴾ و من معه

في الحديبيّة، فخرج من أسفل مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فلمّا رآه أبوه سهيل قال: يا محمّد! هذا أوّل ما أُقاضيك عليه أن تردّوه، و لمّا كان التّراضي على الشّروط قد تمّ، فاحترم رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ما تمّ، فقال﴿صلى الله عليه وآله﴾: إنّا لم نقض بالكتاب بعد، قال: و الله إذاً لا أُصالحك على شئ أبداً، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأجره لي، فقال: ما أنا بمجيره لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: لى قد أجرناه، فقام سُهيل إلى ابنه، فضرب وجهه و أخذ بتلبيبه، ثمّ قال سهيل: يا محمّد قد تمّت قضيّة الصّلح بيني و بينك قبل أن يأتيك هذا؟ قال﴿صلى الله عليه وآله﴾: صدقت، فجعل سهيل يجذب ابنه بتلبيبه و يجرّه ليردّه إلى قريش، و جعل أبوجندل يصرخ بأعلى صوته:

يا معشر المسلمين! أ أردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني، و قد جئت مسلماً؟! ألاترون ما لقيت و كان قد عذّب عذاباً شديداً؟ فزاد ذلك النّاس إلى ما بهم، فقال رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: يا أباجندل اصبر و احتسب، فإنّ الله تعالى جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجاً و مخرجاً، إنّا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحاً، و أعطينا هم على ذلك، و اعطونا عهد الله، و أنّا لانغدر بهم.

في تفسير الطّبري: «قال عمر بن الخطّاب– عندئذ –: والله ما شككت منذ أسلمت إلاّ يومئذ، فأتيت النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقلت: ألسنا على الحقّ و عدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطى الدّنيّة في ديننا؟ إذاً قال﴿صلى الله عليه وآله﴾ إنّي رسول الله و لست أعصيه و هو ناصري. قلت: ألست تحدّثنا: أنّا سنأتي البيت، فنطوف به؟ قال﴿صلى الله عليه وآله﴾: بلى، قال: فأخبرتك أنّك تأتيه العام؟ قلت: لاقال: فإنّك آتيه و متطوّف به، قال: ثمّ أتيت أبابكر فقلت: أليس هذا نبيّ الله حقّاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقّ و عدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فَلِمَ نعطي الدّنيّة في ديننا؟ إذاً قال: أيّها الرّجل إنّه رسول الله و ليس يعصي ربّه، فاستمسك بغرزه حتّى تموت فوالله إنّه لعلى الحقّ، قلت: أو ليس كان يحدّثنا: أنّا سنأتي البيت و نطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنّك آتيه و متطوّف به».

و نعم ما قال بعض المحقّقين: «ليتني كنت أعرف ما بال عمر يشكّ فوراً حين يرى

ما يخالف رأيه منه﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾؟ و لِمَ كان يتشجّع حينما كان يرى أنّ الصّلح ألقى جرانه؟ و لِمَ لم يقل: «فعلام نعطي الدّنيّة في ديننا؟» حين ما كان يفرّ من المشركين في غزوة اُحد و غيرها و رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ أحاطه المشركون من كلّ جانب؟!».

أقول: و لقد كان غرض عمر بن الخطّاب من هذا التشجيع و إشعال نائرة الحرب والقتال ههنا قتل رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ بأيدي مشركي مكّة ببطنها لينقلب إلى أعقابه...

و اُضيف على ذلك ما تقدّم على هذا الصّلح من استنكاف عمر بن الخطّاب عن أمر رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ إذ دعاه أن يبعثه إلى قريش ليخبرهم أنّ رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ لم يجئ للقتال، و إنّما جآء للزّيارة فتخلّف عمر و قال: إنّي أخاف قريشاً على نفسي، و ما وقع منه بعد الصّلح في فتح خيبر إذ فرّ من يهودها. فلمّا تمّ الصّلح قام رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ إلى هديه، فنحره، ثمّ جلس و دعا بحالقه، فحلق رأسه، فلمّا رأى النّاس أنّ رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾ قد نحر و حلق تواثبوا ينحرون، و يحلق رجال، و يقصّر آخرون فقال رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾: يرحم الله المحلّقين، قالوا: و المقصّرين يا رسول الله﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ﴾؟ قال: يرحم الله المحلّقين، قالوا: و المقصّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله محلّقين قالوا: و المقصّرين يا رسول الله؟ فقالوا: يا رسول الله فلِمَ ظاهرتَ الرَّحم للمحلّقين دون المقصّرين؟ قال: لم يشكّوا.

﴿الإمام أمير المؤمنين عليّ ﴿عليه السلام﴾
و مبايعة النّسآء يوم الحديبيّة﴾

لمّا تمّ أمر الصّلح يوم الحديبيّة جآء نسوء مؤمنات إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالحديبيّة، فأنزل الله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ...» الممتحنة: ١٠).

في المجمع: قال ابن عبّاس: صالح رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالحديبيّة مشركي مكّة على أنّ من أتاه من أهل مكّة ردّه عليهم، و من أتى أهل مكّة من أصحاب رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فهو لهم و لم يردّوه عليه، و كتبوا بذلك كتاباً و ختموا عليه، فجآءت سبيعة بنت الحرث الأسلميّة مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، و النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالحديبيّة فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم، و قال مقاتل: هو صيفي بن الرّاهب في طلبها و كان كافراً، فقال: يا محمّد اردد عَلَيَّ امرأتي فإنّك قد شرطت لنا أن تردّ علينا من أتاك منّا، و هذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد، فنزلت الآية: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات» من دار الكفر إلى دار الإسلام «فامتحنوهنّ».

قال ابن عبّاس: امتحانهنّ أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، و لا رغبة عن أرض إلى أرض و لاالتماس دنيا، و ما خرجت إلاّ حبّاً لله و لرسوله، فاستحلفها رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ما خرجت بغضاً لزوجها و لاعشقاً لرجل منّا، و ما خرجت إلاّ رغبة في

الإسلام، فحلفت بالله بالّذي لا إله إلاّ هو على ذلك، فاعطى رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ زوجها مهرها، و ما أنفق عليها و لم يردّها عليه، فتزوّجها عمر بن الخطّاب. فكان رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ يردّ من جآئه من الرّجال و يحبس من جآءه من النّسآء إذا امتحن و يعطي أزواجهنّ مهورهنّ.

و قال الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبيّة إلاّ ردّ الرّجال دون النّسآء، و لم يجر للنّسآء ذكر، و إنّ أُمّ كلثوم بنت عقبة بن أبيمعيط جآءت مسلمة مهاجرة من مكّة، فجآء أخواها إلى المدينة فسئلا رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ ردّهما عليها، فقال رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾: «إنّ الشّرط بيننا في الرّجال لا في النّسآء» فلم يردّها عليهما. قال الجبائي: و إنّما لم يجر هذا الشّرط في النّسآء لأنّ المرأة إذا أسلمت لم تحلّ لزوجها الكافر، فكيف تردّ عليه، و قد وقعت الفرقة بينهما؟

و في **السّيرة النبويّة** لابن هشام: «إنّ رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ كان صالح قريشاً يوم الحديبيّة على أن يردّ عليهم من جآء بغير إذن وليّه، فلمّا هاجر النّسآء إلى رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ و إلى الإسلام، أبى الله أن يُرْدَدْن إلى المشركين إذا هنّ امتحنّ بمحنة الاسلام، فعرفوا أنّهنّ إنّما جئن رغبة في الإسلام، و أمر بردّ صَدُقاتهنّ إليهم إن احتبسن عنهم، إن هم ردّوا على المسلمين صداق من حُبِسوا عنهم من نسآءهم، ذلكم حكم الله يحكم بينكم و الله عليم حكيم، فأمسك رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ النّسآء و ردّ الرّجال، و سئل الّذي أمره الله به أن يسئل من صداقات نساء من حُبسوا منهنّ، و أن يردّوا عليهم مثل الّذي يردّون عليهم، إن هم فعلوا، و لولا الّذي حكم الله به من هذا الحكم لردّ رسول الله ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ النّسآء كما ردّ الرّجال، و لولا الهُدنة و العهد الّذي كان بينه و بين قريش يوم الحديبيّة لأمسك النسّآء و لم يردُد لهنّ صداقاً، و كذلك كان يصنع بمن جآءه من المسلمات قبل العهد.

و في **إرشاد المفيد** رضوان الله تعالى عليه: «ثمّ تلا بني المصطلق الحديبيّة، و كان اللّواء يومئذ إلى أميرالمؤمنين ﴿عليه السلام﴾ كما إليه في المشاهد قبلها، و كان من بلائه في ذلك اليوم عند صفّ القوم في الحرب و القتال ما ظهر خبره و استفاض ذكره. و ذلك بعد

البيعة الّتي أخذها النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ على أصحابه و العهود عليهم في الصّبر، و كان أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ المبايع للنساء عن النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فكانت بيعته﴿عليه السلام﴾ لهنّ يومئذ أن طرح ثوباً بينهنّ و بينه، ثمّ مسحه بيده، فكانت مبايعتهنّ للنّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمسح الثّوب، و رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ يمسح ثوب عليّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ممّا يليه.

و لمّا رأى سهيل بن عمرو توجّه الأمر عليهم ضرع إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الصّلح، و نزل على الوحي بالإجابة إلى ذلك، و أن يجعل أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ كاتبه يومئذ، و المتولّي لعقد الصّلح بخطّه، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «اكتب يا عليّ بسم الله الرّحمن الرّحيم» فقال سهيل بن عمرو: هذا كتاب بيننا و بينك يا محمّد فافتتحه بما نعرفه، و اكتب باسمك اللهمّ، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: «امح ما كتبت و اكتب باسمك اللهمّ» فقال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: لولاطاعتك يا رسول الله ما محوت بسم الله الرّحمن الرّحيم، ثمّ محاها و كتب باسمك اللهمّ، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «اكتب هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو».

فقال سهيل: لو أجبتك في الكتاب الّذي بيننا إلى هذا لأقررت لك بالنّبوّة، فسوآء أشهدت على نفسي بالرّضا، بذلك أو أطلقته، من لساني، امح هذا الاسم، و اكتب: هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبدالله، فقال له أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: إنّه و الله لرسول الله حقّاً على رغم أنفك، فقال سهيل: اكتب اسمه يمضي الشّرط، فقال له أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: ويلك يا سهيل كفّ عن عنادك، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: امحها يا عليّ.

فقال: يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إنّ يدي لاتنطلق بمحو إسمك من النّبوّة، قال له: «فضع يدي عليها» ففعل فمحاها رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بيده، و قال لأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: «ستدعى إلى مثلها فتجيب و أنت على مضض» ثمّ تمّم أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ الكتاب، و لمّا تمّ الصّلح نحر رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ هديه في مكانه، فكان نظام تدبير هذه الغزاة معلّقاً بأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و كان ماجرى فيها من البيعة و صفّ النّاس للحرب، ثمّ الهدنة والكتاب كلّه لأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و كان فيما هيّأه الله له من ذلك حقن الدّماء و صلاح أمر الإسلام. و قد روى النّاس له في هذه الغزاة بعد الّذي ذكرناه فضيلتين اختصّ بهما، و انضافتا إلى فضائله العظام و مناقبه الجسام:

فروى إبراهيم بن عمر عن رجاله، عن قائد مولى عبدالله بن سالم قال: لمّا خرج رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في عمرة الحديبيّة نزل الجحفة، فلم يجد بها ماءً فبعث سعد بن مالك بالرّوايا حتّى إذا كان غير بعيد رجع سعد بالرّوايا، و قال: يا رسول الله ما أستطيع أن أمضي، لقد وقفت قدماي رعباً من القوم، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: اجلس ثمّ بعث رجلاً آخر، فخرج بالرّوايا حتّى إذا كان بالمكان الّذي انتهى إليه الأوّل رجع، فقال له رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لِمَ رجعت؟» فقال: يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما استطعت أن أمضي رعباً، فدعا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ فأرسله بالرّوايا و خرج السّقاة، و هم لايشكّون في رجوعه لما رأوا من جزع من تقدّمه، فخرج عليّ﴿عليه السلام﴾ بالرّوايا حتّى ورد الحرار، و استنق (فاستق خ) ثمّ أقبل بها إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لها زجل (أي مسرّة) فلمّا دخل كبّر النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و دعا له بخير.

و في هذه الغزاة أقبل سهيل بن عمرو إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال له: يا محمّد أنّ أرقّائنا لحقوا بك فارددهم علينا، فغضب رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى تبيّن الغضب في وجهه، ثمّ قال: «لتنتهنّ يا معشر قريش أو ليبعثنّ الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالايمان، يضرب رقابكم على الدّين؟» فقال بعض من حضر: يا رسول الله أبوبكر ذلك الرّجل؟ قال: لا، قال: فعمر؟ قال: لا و لكنّه خاصف النّعل في الحجرة. فتبادر النّاس إلى الحجرة ينظرون من الرّجل، فإذاً هو أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

و قد روى هذا الحديث جماعة عن أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و قالوا فيه: إنّ عليّاً قصّ هذه القصّة ثمّ قال: سمعت رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ يقول: «من كذب عَلَيَّ متعمدّاً فليتبوّأ مقعده من النّار» و كان الّذي أصلحه أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ من نعل النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ شسعها، فإنّه كان انقطع فخصف موضعه و أصلحه».

و فيه: فقال أبوبكر: أنَا ذاك يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾؟ فقال: لا، فقال عمر: فأنَا يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾؟ قال: لا، فأمسك القوم و نظر بعضهم إلى بعض، فقال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: لكنّه خاصف النّعل، و أومأ بيده إلى عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و أنّه يقاتل على التّأويل إذا تركت سنّتي و نبذت و حُرِّف كتاب الله، و تكلّم في الدّين من ليس له ذلك، فيقاتلهم عليّ على إحيآء دين الله تعالى».

﴿أمر المستضعفين بعد الصّلح﴾

و اعلم أنّ تهديد رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قريشاً بعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ليس نقضاً للمعاهدة الّتي كانت بين رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بين قريش كما زعم بعض المعاندين، و إنّما كان دفاعاً عن المسلمين المستضعفين الّذين كانوا معذّبين بأيدي قريش، و يفرّون منهم، من دون إشراف رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عليهم:

منهم: أبوبصير عتبة بن أسيد الثّقفي قد أسلم، و كان محبوساً مضيّقاً عليه في مكّة مثل أبي‌جندل، و استطاع أن يفلت و يلتحق برسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في المدينة بعد قليل من رجوعه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الحديبيّة، فأرسلت قريش تطالب النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بردّه حسب العهد، فقال له رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ ما قاله لأبي‌جندل و سلّمه للرّسول الّذي جآء من قريش، و استطاع في الطّريق أن يغتال هذا الرّسول، و ينجو و يعود ثانية إلى المدينة، و لكن النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لم يؤوه لئلاّ يعتبر ذلك نقضاً منه، فخرج إلى جهة مكّة و أخذ يجتمع إليه أمثاله، حتّى بلغوا سبعين، و صاروا يضيقون على قريش، لايظفرون بأحد منهم إلاّ قتلوه، و لاتمرّبهم عير إلاّ اقتطعوها فقطعوا الطّريق على تجّار قريش، فلقيت من ذلك شدّة فاضطرّت أن ترجو رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في حذف هذا الشّرط و سمحت له أن يقبل من يهاجر إليه من المسلمين، فحصّ المسلمون من شرط ضارّ كان سبب كربهم بعد عقد هذه المعاهدة حتّى كتبت قريش لرسول‌الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ تقول له: لاحاجة لنا بهم و تسئله بأرحامها إلاّ أن آواهم و زواهم عنهم.

في السّيرة النّبويّة لابن هشام: «فلمّا قدم رسول الله﴿ﷺ﴾ المدينة أتاه أبوبصير عُتبة بن أسيد ابن جارية، و كان ممّن حُبِس بمكّة، فلمّا قَدِمَ على رسول الله﴿ﷺ﴾ كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زُهْرَة، و الأخنس بن شريق ابن عمرو بن وهب الثّقفي إلى رسول الله﴿ﷺ﴾ و بعثا رجلاً من بني عامر بن لؤى، و معه مولى لهم، فقدما على رسول الله﴿ﷺ﴾ بكتاب الأزهر و الأخنس، فقال رسول الله﴿ﷺ﴾: يا أبابصير، إنّا قد أعطينا هؤلآء القوم ما قد علمتَ، و لا يصلح لنا في ديننا الغدر، و إنّ الله جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجاً و مخرجاً، فانْطَلِقْ إلى قومك، قال: يا رسول الله أتردّني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: يا أبابصير، انْطَلِقْ فإنّ الله تعالى سيجعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجاً و مخرجاً.

فانطلق معهما حتّى إذا كان بذي الحُلَيفة – ميقات أهل المدينة – جلس إلى جدار، و جلس معه صاحباه، فقال: أبوبصير: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: انظر إليه؟ قال: انظر، إن شئت. قال: فاستلّه أبوبصير، ثمّ علاه به حتّى قتله. و خرج المولى سريعاً حتّى أتى رسول الله﴿ﷺ﴾ و هو جالس في المسجد، فلمّا رآه رسول الله﴿ﷺ﴾ طالعاً، قال: إنّ هذا الرّجل قد رأى فزعاً، فلمّا انتهى إلى رسول الله﴿ﷺ﴾ قال: ويحك! مالك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي، فوالله ما برح حتّى طلع أبوبصير متوشّحاً بالسّيف، حتيّ وقف على رسول الله﴿ﷺ﴾ فقال: يا رسول الله وَفَتْ ذمّتك، و أدّى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم و قد امتنعتُ بديني أن أفتن فيه، أو يُعْبَث بي، قال: فقال رسول الله﴿ﷺ﴾: ويل اُمّه مَحِشَّ حرب لو كان معه رجال» فخرجوا إلى أبي‌بصير بالعيص، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً و كانوا قد ضيّقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلاّ قتلوه، و لا تمرّ بهم عير إلاّ اقتطعوها، حتّى كتبت قريش إلى رسول الله﴿ﷺ﴾ تسئله بأرحامها إلاّ آواهم، فلا حاجة لهم بهم، فآواهم رسول الله﴿ﷺ﴾ فقدموا عليه بالمدينة».

فلمّا بلغ سهيل بن عمرو قَتْلُ أبي‌بصير صاحبَهم العامريّ، أسند ظهرَه إلى الكعبة، ثمّ قال: و الله لا اُؤخر ظهري عن الكعبة حتّى يُوْدى هذا الرّجل، فقال أبوسفيان بن حرب: و الله إنّ هذا لهو السّفه، و الله لا يُوْدى (ثلاثاً).

قوله﴿صلى الله عليه و آله﴾: «مِحشّ حرب» أي موقد حرب و مهيّجها.

و في المجمع: «ثمّ رجع رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة، فجآءه أبوبصير رجل من قريش و هو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الّذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرّجلين فخرجا به حتّى بلغا ذا الحليفة، فنزلا يأكلان (فنزلوا يأكلون خ) من تمرلهم، فقال أبوبصير لأحد الرّجلين: إنّي لأرى سيفك هذا جيّداً جدّاً فاستلّه الآخر، و قال: أجل إنّه لجيّد، و جرّبت به ثمّ جرّبت، فقال أبوبصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه به حتّى برد، و فرّ الآخر حتّى بلغ المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً».

فلمّا انتهى إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: قتل والله صاحبي، و إنّي لمقتول، قال: فجآء أبوبصير فقال: يا رسول الله قد أوفى الله ذمّتك و رددتني إليهم، ثمّ أنجاني الله منهم، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «ويل اُمّه مسعر حرب لو كان له أحد» فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردّه إليهم، فخرج حتّى أتى سيف البحر، و انفلت منهم أبوجندل بن سهيل، فحلق بأبي‌بصير فلا يخرج من قريش رجل قد أسل إلاّ لحق بأبي بصير حتّى اجتمعت عليه عصابة، قال: فوالله لايسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشّام إلاّ اعترضوا لها، فقتلوهم و أخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ تناشده الله و الرّحم لما ارسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل﴿صلى الله عليه و آله﴾ إليهم فأتوه».

﴿حكمة صلح الحديبيّة و نتآئجه الهامّة﴾

قال الله تعالى: «و هو الّذي كفّ أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم- و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبهم منهم معرّة بغير علم» الفتح: ٢٤-٢٥).

لمّا تمّت هذه المعاهدة يوم الحديبيّة و انصرف رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من وجهه ذلك، و أخذ في الرّجوع إلى المدينة قافلاً حتّى إذا كان بين مكّة و المدينة نزلت سورة الفتح: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً...».

فسمّى الله عزّوجلّ هذه المعاهدة فتحاً رغم بعض المسلمين كعمر بن الخطّاب و أذنابه الّذين توهّموا أنّ فيها أكبر إهانة عليهم، إذ قال عمر بن الخطّاب معترضاً على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: «لِمَ نعطي الدّنيّة في ديننا؟!» و ذلك لعدم دخول الايمان في قلوبهم، و لأنّ عقولهم قصرت عمّا سيكون ورآءها من اختلاط المؤمنين بالمشركين، و تفاهم الطّائفتين بهدؤ و سكون و استتباع ذلك دخول جمّ غفير من عقلآئهم في دين الله تعالى من دون حرب و لا جلاد، إذ سمعوا كلامهم، فتمكّن الايمان في قلوبهم، و أسلم في ثلاث سنوات خلق كثير، و قد كثر بهم سواد الإسلام و المسلمين...

و لقد أدرك المؤمنون الصّادقون ذلك، و يقولون كما قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: إنّ صلح الحديبيّة أعظم فتح في الإسلام، و لكن هؤلآء المنافقون قصر رأيهم عمّا كان بين الله

تعالى و رسوله(صلى الله عليه و آله) فيعجّلون، و الله جلّ وعلا لا يعجّل بعجلتهم حتّى يبلغ الامور ما أراد.

فما فُتِح في الإسلام فتح قبل صلح الحديبيّة كان أعظم منه، إنّما كان القتال حيث التقى النّاس، فلمّا كان الصّلح و وضع الحرب أوزارها، و آمن النّاس بعضهم بعضاً، و التقوا فتاوضوا في الحديث و المنازعة و المجادلة بالّتي هي أحسن، فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، و لقد دخل في تينك السّنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، و ذلك أنّ رسول الله(صلى الله عليه و آله) خرج إلى الحديبيّة في ألف و أربع مأة في قول جابر بن عبدالله، ثمّ خرج عام فتح مكّة بعد ذلك سنتين في عشرة آلاف...

فما وقعت الأحداث بعد صلح الحديبيّة حقّقت صدق إلهام النّبيّ(صلى الله عليه و آله) فيما فعل و قال، و أظهرت عظم الفوائد الاعتقاديّة و الاقتصاديّة، المادّيّة و المعنويّة، الفرديّة والاجتماعيّة، السّياسيّة و الحربيّة، و الدّينيّة و الدّنيويّة الّتي عادت على الإسلام والمسلمين من هذا الصّلح حتّى ليصحّ أن يعدّ من الأحداث العظمى الحاسمة في تاريخ الإسلام و قوّته و توطّده أو بالأحرى من أعظمها، و قد تحقّقت بذلك معجزة القرآن الكريم في وصفه بالفتح المبين.

و بالإضافة إلى ما كان من اعتراف قريش بشخصيّة رسول الله(صلى الله عليه و آله) كرئيس الدّولة الإسلاميّة و اعتبارهم إيّاه نداً و تراجعهم عن عدآئهم الشّديد له(صلى الله عليه و آله) و كانوا قبل سنة قد زحفوا معه أحزابهم في عشرة آلاف مقاتل على المدينة لاستئصال شأفته، و شأفة الإسلام و المسلمين، و ما كان في ذلك من فرض شخصيتهم و توطيد كيانهم و اسمهم و هيبتهم عليهم، فإنّ ذلك كلّه كان أيضاً بالنّسبة لسآئر العرب الّذين كانوا يعتبرون مكّة إماماً و قدوة، كما أنّه أتاح لرسول الله(صلى الله عليه و آله) فرصة توسيع نطاق دعوته و ايصالها إلى مناطق و بيئات عديدة في أطراف الجزيرة و ماورآءها، و الاستمتاع بحريّة الحركة و السّفر و الاتّصال بالقبائل و تصفية القرى اليهوديّة في طريق الشّام.

و قد كانت حالة العداء و الحرب بين رسول الله(صلى الله عليه و آله) و بين مشركي مكّة و ماوالاها حائلة دون ذلك كلّه و غيرها من الفوائد و الآثار و النّتآئج الهامّة لصلح الحديبيّة منها:

ألف: تمّ في هذا الصّلح ما يسمّونه في العصر الحديث (جسّ النّبض) لمعرفة قـوّة العدوّ و مقدار كفايته و إلى أيّ حدّ هى؟

ب: معرفة صادقي الايمان من المنافقين، و معرفة أهل التقوى و اليقين كسـلمان و أضرابه من أهل الرّيبة و المعترضين كعمر بن الخطّاب و أذنابه...

ج: إنّ اختلاط المؤمنين و المؤمنات بالمشركين و المشركات حبّب الإسلام في قلوب كثير منهم فدخلوا في دين الله أفواجاً.

د: كان رجال مؤمنون، و نسآء مؤمنات بين مشركي مكّة يكتمون ايمانهم لا يعرفهم المشركون، و لا يعلمهم المسلمون، فلولا الصّلح لوقع القتال بين المسلمين و المشركين، فيُقتَل هؤلاء المؤمنون و المؤمنات و كان ذلك عيباً للإسـلام و المسـلمين إذ قـال الله جلّ وعلا: «و لولا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم» الفتح: ٢٥).

ه: إنّ صلح الحديبيّة كان مقدّمة لنصر قويّ عظيم يناله المسلمون تحت راية رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ يوم فتح مكّة، فكان الصّلح ممهّداً للفتح الأكبر و هو فتح مكّة الّذي انهدم به السّور الّذي كانت تضربه مكّة بين الدّعوة و سآئر أنحآء الجزيرة العربيّة.

و لقد كان بعض هذه النّتآئج فورية، حيث زحف رسـول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ عـلى قـرى اليهود و اكتسحها عقب عودته من الحديبيّة و أرسل رسله و رسآئله كذلك إلى ملوك فارس و الرّوم و مصر و ملوك العرب و امرآئهم و زعمآئهم في أنحآء الجزيرة و خارجها فور عودته كذلك، و لم يلبث أن جآء الرّدّ الايجابي من ملوك عُمّان و البحرين و زعمآء اليمن و بعض أُمراء الغساسنة و عمّالهم... حيث بعثوا يعلمون النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بإسلامهم و إذعانهم، و أخذت وفود العرب و رجالاتهم يفدون إلى المدينة مـن مخـتلف الأنحـاء ليدخلوا في دين الله أفواجاً.

﴿فتح خيبر بعد صلح الحديبيّة﴾

قال الله عزّوجلّ: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً» الفتح: ١٨-١٩).

و قد سبق منّا في تحقيق الأقوال من تفسير هذه السّورة المباركة: أنّ المراد بهذا الفتح القريب هو فتح خيبر، وقع بعد صلح الحديبيّة بمدّة قليلة، و أنّ المراد بالمغانم الكثيرة هي غنآئم خيبر، و قد كانت لخيبر سبعة حصون، على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشّام، و قد فتحها الله تعالى لرسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بيد عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ سنة سبع من الهجرة.

و ما ورد في التفاسير و الرّوايات و السّير و التّواريخ... في مدّة توقّف رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بالمدينة بعد رجوعه من الحديبيّة، ثمّ خروجه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى خيبر و ما حولها مختلفة، نشير إلى مايسعه المقام و نحن على جناح الإختصار:

في فروع الكافي: بإسناده عن أبي‌الفضل قال: كنت مجاوراً بمكّة، فسئلت أباعبدالله﴿عليه السلام﴾ من أين أُحرم بالحجّ؟ فقال: من حيث أحرم رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الجُعرانة أتاه في ذلك المكان فتوح الطّآئف و فتح خيبر و الفتح».

أقول: «الجُعرانة» قريب من الحديبيّة، و قد جآئت رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ بشارة فتح

الطّآئف و فتح خيبر، و فتح مكّة في الجعرانة.

و اعلم أنّ وقعة خيبر ليست منحصرة في خيبر، بل تجاوزتها إلى قرى اخرى كانت لليهود بعد خيبر على طريق الشّام، و كلّ ما في الأمر أنّها كانت عاصمة اليهود و أهمّ مراكزهم بعد إجلائهم عن المدينة. و لقد كانت لهذه الوقعة أسباب مبررة كما هو شأن وقائع التّنكيل السّابقة باليهود، بل و كلّ الوقائع الجهاديّة في عهد رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و هذه الأسباب هي المواقف العدائية و العدوانية الّتي وقفها اليهود دون أن يعتبروا بما كان من حوادث سابقة عادت عليهم بالوبال و النّكال...

فقد استقرّ بعض زعمآء بني النّضير و أتباعهم في خيبر بعد أن أجلاهم النّبيّ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ عن المدينة، و تزعموا يهود المنطقة، و ساقوهم إلى العداء للمسلمين كما هو دأبهم في كلّ ظرف من الظّروف.

و هم الّذين ذهبوا و حرضوا قريشاً و قبآئل العرب من أسد و غطفان و غيرها على التّحزّب و الزّحف على المدينة لاستئصال شأفة الإسلام و حرضوا زعمآء بني‌قريظة على الغدر و النكث ممّا نتج عنه وقعة الأحزاب، ثمّ وقعة بني‌قريظة كما سبق في تفسير سورة الأحزاب، و قد استمرّوا على عدآئهم بعد ذلك و ظلّوا يحرضون قبائل العرب و يغرونهم بغزو المدينة، و من دون شكّ أنّ هذه المواقف جعلت رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ يفكّر في إتمام عمليات التنكيل باليهود في هذه المنطقة الخطيرة...

غير أنّه على ما يظهر لم يجد الخطر عاجلاً فاكتفى بإرسال سرايا من المسلمين اغتالت زعيمهم أبا رافع بن أبي الحقيق ثمّ أسير بن زارم الّذي تزعم اليهود بعده، و أجّل إتمام العمل إلى ما بعد عودته من زيارة الكعبة الّتي اعتزم القيام بها، و الّتي ينتج عنها صلح الحديبيّة.

و ما تؤيّده الوقائع و تلهمه روح الآيات الكريمة: أنّ رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ رجع من الحديبيّة، و قد بيّت النّيّة على إتمام تلك العمليّات، و قد أمن من مباغتة قريش، فما إن وصل من الحديبيّة إلى المدينة حتّى أخذ يستعدّ للزّحف على خيبر، ثمّ زحف في المحرّم من السّنة الهجرية السّابقة في رواية، و في جمادي الاولى في رواية، و لقد روى أنّ قبائل

أسد و غطفان كانت تتجمّع لتهاجم المدينة في غياب النّبيّ﴿ﷺ﴾ عنها أو لتهاجم رسول الله﴿ﷺ﴾ و أصحابه في طريقهم إلى الحديبيّة أو عودتهم منها، و لكن انحسام الأمر بين رسول الله﴿ﷺ﴾ و قريش جعلهم ينكصون، فلعلّ هذا كان أثراً من كيد يهود خيبر و شرارتهم، و ممّا جعل النّبيّ﴿ﷺ﴾ يعجّل بالزّحف عليهم.

و لقد كانت خيبر كثيفة السّكان، كثيرة الحصون قويّة الاستعداد، فلقي المسلمون جهداً و مشقّة، و استمرّت مجاهدتهم مع اليهود نحو شهر حتّى تمكّنوا من الانتصار عليهم و الاستيلاء على حصونهم، و قد قتلوا كثيراً من مقاتليهم و استولوا على مقادير عظيمة من أموالهم و أسلحتهم و حقولهم و بساتينهم و نسآئهم و أطفالهم، فكانت مغانم كثيرة كما قال الله تعالى: «و مغانم كثيرة يأخذونها» الفتح: ١٩) قسّمها النّبيّ﴿ﷺ﴾ على المجاهدين... و قد أبقى رسول الله﴿ﷺ﴾ على من لم ير في بقائه خطراً من الّذين استسلموا منهم، و ولاّهم رعاية البساتين و الحقول مقابل نصف الغلّة، و أجلى من رأى في بقائه خطراً.

ثمّ انصرف النّبيّ﴿ﷺ﴾ بعد خيبر إلى وادي القرى و كان فيه حصون عديدة لليهود فلقي فيها بعض المقاومة ثمّ كتب الله تعالى النّصر لرسوله﴿ﷺ﴾ فقتل من قتل و أجلى من أجلى و استولى على أموالهم و سلاحهم و اتّفق مع من لم يكن منه خطر على البقآء على رعاية البساتين و الحقول على النّصف كما فعل في خيبر، و دبّ الرّعب في قلوب اليهود في فدك، فأرسلوا رسلهم إلى النّبيّ﴿ﷺ﴾ فصالحهم على نصف بساتينهم و حقولهم، فغدت فيئاً لأنّ المسلمين لم يزحفوا عليها و يحاربوها.

و في أثنآء غزوة خيبر عاد المهاجرون الأوّلون من الحبشة و على رأسهم جعفر بن أبي طالب، و انضمّوا إلى رسول الله﴿ﷺ﴾ و المسلمين في خيبر.

و في **السّيرة النّبويّة** لابن هشام: أنّ النّبيّ﴿ﷺ﴾ أرسل عمرو بن أُميّة الضمري إلى الحبشة بعد صلح الحديبيّة فحملهم على سفينتين، و لاريب أنّ هذا كان من بركات هذا الصّلح، حيث شعر النّبيّ﴿ﷺ﴾ و المسلمون بالقوّة و العزّة، فلم يعد ما يسوغ بقاء المهاجرين الأوّلين بعيدين في أرض الغربة، و هذا يقال بطبيعة الحال بالنّسبة لما تمّ

لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و المسلمين من نصر و أحرزوه من غنآئم في خيبر، و وادي القرى و فدك، و ما كان من خضد شوكة اليهود نهائيّاً في أرض الحجاز بعد تطهير مدينة الرّسول ﴿صلى الله عليه وآله﴾ منهم.

و فيه: ثمّ أقام رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالمدينة حين رجع من الحديبيّة، ذا الحجّة و بعض المحرّم، و وَلِيَ تلك الحجّة المشركون، ثمّ خرج في بقيّة المحرّم إلى خيبر. و استعمل على المدينة نُمَيلَة بن عبدالله اللّيثي، و دفع الرّاية إلى عليّ بن أبيطالب رضى الله عنه و كانت بيضآء.

و يقول رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع و هو عمّ سلمة بن عمرو بن الأكوع، و كان اسم الأكوع سِنان: أنزل يابن الأكوع، فخُذ لنا من هناتك (أي أخبارك و امورك و أشعارك، و المراد أن يحدوبهم، و الإبل تستحثّ بالحداء، و لايكون الحداء إلاّ بشعر أو رجز) فنزل عامر يرتجز برسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و يقول:

و الله لولا الله ما اهتدينا — و لا تصدّقنا و لا صَلَّيْنا
إنّا إذا قوم بغوا علينا — و إن أرادوا فتنة أبَيْنا
فأنزلَنْ سكينة علينا — و ثبّت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: يرحمك الله.

فقال عمر بن الخطّاب: وَجبت و الله يا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لو امتَعْتنا به، فُقتِلَ يوم خيبر شهيداً، و كان قتله فيما بلغني: أنّ سيفه رجع عليه و هو يقاتل، فكلّمه كَلْماً شديداً فمات منه، فكان المسلمون قد شكّوا فيه، و قالوا: إنّما قتله سلاحه حتّى سئل ابن أخيه سلمة ابن عمرو بن الأكوع رسولَ الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عن ذلك، و أخبره بقول النّاس، فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: إنّه لشهيد و صلّى عليه فصلّى عليه المسلمون.

و لمّا أشرف رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ على خيبر، قال لأصحابه: قِفوا، ثمّ قال: «اللهمّ ربّ السّموات و ما أظللن، و ربّ الأرضين و ما أقللن، و ربّ الشّياطين و ما أضللن، و ربّ الرّياح و ما أذرين، فإنّا نسئلك خير هذه القرية و خير أهلها و خير مافيها، و نعوذ بك من شرّها و شرّ أهلها و شرّ مافيها، أقدموا بسم الله» و قد كان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يقولها لكلّ قرية دخلها.

و كان رسول الله﴿ﷺ﴾ حين خرج من المدينة إلى خيبر، سلك على عِضر (جبل بين المدينة و وادي الفرع) فبنى له فيها مسجد، ثمّ على الصّهباء (موضع بينه و بين خيبر روحة) ثمّ أقبل رسول الله﴿ﷺ﴾ بجيشه، حتّى نزل بوادٍ يقال له الرّجيع، فنزل بينهم و بين غطفان، ليحول بينهم و بين أن يمدّوا أهل خيبر، و كانوا لهم مظاهرين على رسول الله﴿ﷺ﴾، فلمّا سمعت غطفان بمنزل رسول الله﴿ﷺ﴾ من خيبر جمعوا له، ثمّ خرجوا ليظاهروا (ليعاونوا) يهود عليه﴿ﷺ﴾ حتّى إذا ساروا منقلة (مرحلة) سمعوا خَلْفَهم في أموالهم و أهليهم حسّاً، ظنّوا أنّ القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم و أموالهم، و خلّوا بين رسول الله﴿ﷺ﴾ و بين خيبر.

و تدنّى (أي أخذ الأدنى فالأدنى) رسول الله﴿ﷺ﴾ الأموال يأخذها مالاً مالاً و يفتتحها حِصْناً حِصْناً، فكان أوّل حصونهم اُفْتُتِح حِصْن ناعم، و عنده قُتِلَ محمود ابن مسلمة، اُلقيت عليه منه رحاً فقتلته، ثمّ القموص (جبل بخيبر) حِصن بني أبي الحُـقيق اليهودى و هو إحدى حصون خيبر السّبعة، و أصاب رسول الله﴿ﷺ﴾ منهم سبايا، منهنّ صفيّة بنت حيّ بن أخطب، و كانت عند كنانة بن الرّبيع بن أبي الحُقيق و بنتي عمّ لها فاصطفى رسول الله﴿ﷺ﴾ صفيّة لنفسه.

و كانت صفيّة قد رأت في المنام و هي عروس بكنانة ابن الرّبيع بن أبي الحُقيق أنّ قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلاّ أنّك تمنّين ملك الحجاز محمّداً، فلطم وجهها لطمة خضّر عينها منها، فأُتِيَ بها رسول الله﴿ﷺ﴾ و بها أثر منه، فسئلها ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر.

و عن ابن عبّاس: و كانت صفيّة عروساً بكنانة بن الرّبيع بن أبي الحقيق حين نزل رسول الله﴿ﷺ﴾ خيبر، فرأت في المنام كأنّ الشّمس نزلت حتّى وقعت على صدرها، فقصّصت ذلك على زوجها، فقال: و الله ما تمنّين إلاّ هذا الملك الّذي نزل بنا، فـفتحها رسول الله﴿ﷺ﴾ و ضرب عنق زوجها فتزوّجها».

و في **المنتقى في مولد المصطفى**﴿ﷺ﴾- الباب السّابع فيما كـان سـنة سـبع مـن الهجرة عن أنس بن مالك: «و اصطفى رسول الله﴿ﷺ﴾ صفيّة و اتّخذها لنفسه و خيّرها

بين أن يعتقها و تكون زوجته أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها و تكون زوجته».

و أنّ رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ نهاهم يومئذ عن أربع: عن إتيان الحبالى من السّبايا، و عن أكل الحمار الأهلي و عن أكل كلّ ذي ناب من السّباع، و عن بيع المغانم حتّى تُقسَم.

و في تفسير المراغي: «روى إياس بن سلمة قال: «حدّثني أبي قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فجعل عمّي عامر يرتجز بالقوم، ثمّ قال:

تالله لولا الله ما اهتدينا و لا تصدّقنا و لا صلّينا

و نحن عن فضلك ما استغنينا فثبّت الأقدام إن لاقينا

و أنزلَنْ سكينة علينا

فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: من هذا؟ قال: أنا عامر، قال: غفر لك ربّك (و ما استغفر لأحد إلاّ استشهد).

قال: فنادى عمر بن الخطّاب و هو على جمل له! يا نبيّ الله لو أمتعتنا بعامر! فلمّا قدمنا خيبر خرج قائدهم مرحب يخطر بسيفه و يقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب شاكي السّلاح بطل مُجَرَّب

إذا الحرب أقبلت تلتهب

فبرز له عامر بن عثمان، فقال:

قد علمت خيبر أنّي عامر شاكي السّلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في تُرْس عامر، فرجع سيف عامر على نفسه، فقطع أكحله (الأكحل: عرق في اليد) فكانت فيها نفسه، قال: فأتيت النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر، فقال: من قال ذلك؟ قلت: ناس من أصحابك، قال: من قال ذلك؟! بل له أجره مرّتين، ثمّ أرسلني إلى عليّ و هو أرمد، و قال: لأعطينّ الرّاية رجلاً يحبّ الله و رسوله، و يحبّه الله و رسوله، فأتيت عليّاً فجئت به أقوده و هو أرمد حتّى أتيت به رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فتفل في عينيه، فبرئ و أعطاه الرّاية فخرج مرحب و قال:

أنا الّذي سمّتني أُمّي مرحب شاكي السّلاح بطل مجرّب

فقال عليّ كرّم الله وجهه:

أنا الّذي سمّتني أُمّي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسّيف كيل السّندره

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثمّ كان الفتح على يديه».

(السّندرة: مكيال واسع، و كيلهم بها: قتلهم قتلاً واسعاً ذريعاً.

قول عمر بن الخطّاب: معترضاً على رسول الله ﴿ﷺ﴾: «لو أمتعتنا بعامر» أي هلاّ تركتنا ننتفع به. و قيل: أي وددنا أنّك أخّرت الدّعاء له فنتمتّع بمصاحبته مدّة. و قيل: أي ليتك أشركتنا في دعآئه.

﴿فرار أبي بكر و عمر في غزوة خيبر و فتحها بيد أميرالمؤمنين عليّ(عليه السلام)﴾

في خصائص الوحي المبين لابن البطريق - الفصل العاشر - من تفسير الثّعلبي بالإسناد المقدّم في قوله تعالى: «و يهديكم صراطاً مستقيماً» الفتح: ٢) قال: و ذلك في فتح خيبر قال: «حاصر رسول الله(صلى الله عليه وآله) أهل خيبر فأصابتنا مخمصة شديدة و أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) أعطى اللّواء عمر بن الخطّاب و نهض من نهض معه النّاس، فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر و أصحابه و رجعوا إلى رسوله(صلى الله عليه وآله) يجبّنه أصحابه، و يجبّنهم و كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) قد أخذته الشّقيقة، فلم يخرج إلى النّاس، فأخذ أبوبكر راية رسول الله(صلى الله عليه وآله) ثمّ نهض يقاتل، ثمّ رجع فأخذها عمر فقاتل، ثمّ رجع فأخبر بذلك رسول الله(صلى الله عليه وآله):

فقال: أما والله لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله(صلى الله عليه وآله) يأخذها عنوةً، و ليس ثَمَّ عليّ.

فلمّا كان الغد تطاول لها أبوبكر و عمر و رجال من قريش، رجا كلّ واحد أن يكون صاحب ذلك، فأرسل رسول الله(صلى الله عليه وآله) ابن الأكوع إلى عليّ(صلى الله عليه وآله) فدعاه فجآء على بعير له أناخ قريباً من رسول الله(صلى الله عليه وآله) و هو أرمد قد عصّب بشقّة بُرد قطري عينه، قال سلمة: فجئت به أقوده إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): مالك؟ قال:

قد رمدت، فقال: أدن منّي، فدنا منه فتفل في عينيه، فما شكى وجعهما بعد حتّى مضى لسبيله، ثمّ أعطاه الرّاية و عليه حُلّة أرجوان حمراء قد أخرج كمّيها فأتى مدينة خيبر، فخرج مرحب صاحب الحصن و عليه مغفر مصفّر و حجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه و هو يرتجز و يقول:

قد عَلِمَتْ خَيبرُ أنّي مرحَبٌ شاكي السّلاح بطل محرّب

أطعن أحياناً و حيناً أضرب إذا الحروب أقبلت ترهّب

كان حماي كالحمير لايقرب

فبرز إليه عليّ صلوات الله عليه فقال:

أنا الّذي سمّتني أُمّي حيدرة كليث غاباة شديد قسورة

أكيلهم بالسّيف كيل السّندرة

فاختلفا ضربتين فبدره عليّ ﴿عليه السلام﴾ بضربة فقدّ الحجر و المغفر و خلّق رأسه حتّى أخذ السّيف في الأضراس و أخذ المدينة و كان الفتح بيده.

و في السّيرة النّبويّة لابن هشام: عن سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: بعث رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أبابكر برايته، و كانت بيضآء إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع و لم يك فتح و قد جهد، ثمّ بعث الغد عمر بن الخطّاب فقاتل، ثمّ رجع و لم يك فتح و قد جهد، فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله، يفتح الله على يديه ليس بفرّار، قال: فدعا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عليّاً رضوان الله عليه و هو أرمد، فتفل في عينه، ثمّ قال: خذ هذه الرّاية، فامض بها حتّى يفتح الله عليك، فخرج و الله بها يأنح (أى به نفس شديد من الإعياء في العدوّ أو من الأنيح أى و هو علوّ النّفس) يُهرول هرولة و إنّا لخلفه نتّبع أثره حتّى ركز رايته في رَضْم (أي الحجارة المجتمعة) من حجارة تحت الحصن، فاطّلع إليه يهوديّ من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبيطالب، قال اليهوديّ: عَلَوْتم، و ما أُنزِل على موسى أو كما قال، قال: فما رجع حتّى فتح الله على يديه.

و عن أبي رافع مولى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال: خرجنا مع عليّ بن أبيطالب رضي‌الله

تعالى عنه حين بعثه رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ برايته، فلمّا دنا من الحِصْن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح تُرْسه من يده فتناول عليّ﴿عليه السلام﴾ باباً كان عند الحِصْن فترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده و هو يقاتل حتّى فتح الله عليه، ثمّ ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتَني في نَفَر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهدهم على أن تقلب ذلك الباب فما نقلبه».

و في تاريخ الطّبري: عن بريدة الأسلمي قال: لمّا كان حين نزل رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بحِصْن أهل خيبر أعطى رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ اللواء عمر بن الخطاب و نهض من نهض معه من النّاس، فلقوا أهل خيبر فانكشف عمرو أصحابه، فرجعوا إلى رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ يجبنه أصحابه و يجبنهم، فقال، رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: لأُعطينّ اللواء غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله، فلمّا كان من الغد تطاول لها أبوبكر و عمر فدعا عليّاً﴿عليه السلام﴾ و هو أرمد، فتفل في عينيه و أعطاه اللّواء و نهض معه من النّاس من نهض، قال: فلقى أهل خيبر، فإذاً مرحب يرتجز و يقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب — شاكي السّلاح بطل مجرّب
أطعن أحيانا و حيناً أضرب — إذا اللّيوث أقبلت تلهب

فاختلف هو و عليّ ضربتين، فضربه عليّ على هامّته حتّى عض السّيف منها بأضراسه و سمع أهل العسكر صوت ضربته، فما تتام آخر النّاس مع عليّ﴿عليه السلام﴾ حتّى فتح الله له و لهم».

و في إرشاد الشّيخ المفيد: رضوان الله تعالى عليه: «ثمّ تلت الحديبيّة خيبر، و كان الفتح فيها لأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ بلا ارتياب و ظهر من فضله في هذه الغزاة ما أجمع على نقله الرّواة و تفرّد فيها من المناقب بما لم يشركه فيها أحد من النّاس.

فروى يحيى بن محمّد الأزدي عن مسعدة بن اليسع و عبدالله بن عبدالرّحيم عن عبدالملك بن هشام و محمّد بن إسحق و غيرهم من أصحاب الآثار قالوا: لمّا دنا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ من خيبر قال للنّاس: قِفُوا، فوقف النّاس، فرفع يده إلى السّمآء و قال: «اللّهمّ ربّ السّموات السّبع و ما أظللن و ربّ الأرضين السّبع و ما أقللن، و ربّ

الشّياطين و ما أضللن، أسئلك خير هذه القرية و خير ما فيها، و أعوذبك من شرّها و شرّ ما فيها، ثمّ نزل تحت شجرة في المكان، فأقام و أقمنا بقيّة يومنا و من غده.

فلمّا كان نصف النّهار نادى منادي رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فاجتمعنا إليه فإذاً عنده رجل جالس، فقال: إنّ هذا جآئني و أنا نائم، فسلّ سيفي، و قال: يا محمّد من يمنعك منّي اليوم؟ قلت: اللّٰه يمنعني منك، فشام السّيف و هو جالس كما ترون لاحراك به، فقلنا: يا رسول اللّٰه لعلّ في عقله شيئاً؟ فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: نعم دعوه، ثمّ صرفه و لم يعاقبه، و حاصر رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ خيبر بضعاً و عشرين ليلة، و كانت الرّاية يومئذ لأميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ فلحقه رمد أعجزه من الحرب، و كان المسلمون يناوشون اليهود من بين أيدي حصونهم و جنباتها.

فلمّا كان ذات يوم فتحوا الباب و قد كانوا خندقوا على أنفسهم خندقاً و خرج مرحب برجله يتعرّض للحرب، فدعا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أبابكر فقال له: خذ الرّاية فأخذها في جمع من المهاجرين فاجتهد و لم يغن شيئاً، فعاد يؤنب القوم الّذين اتّبعوه و يؤنبونه، فلمّا كان من الغد تعرّض لها عمر، فساربها غير بعيد، ثمّ رجع يجبن أصحابه و يجبنونه، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ليست هذه الرّاية لمن حملها، جيئوني بعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾؟ فقيل: إنّه أرمد، قال: أرونيه تروني رجلاً يحبّ اللّٰه و رسوله و يحبّه اللّٰه و رسوله يأخذها بحقّها ليس بفرّار.

فجآؤا بعليّ بن أبي‌طالب﴿عليه السلام﴾ يقودونه إليه، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ما تشتكي يا عليّ؟ قال: رمد، ما أبصر معه و صداع برأسي، فقال له: اجلس وضع رأسك على فخذي؟ ففعل عليّ﴿عليه السلام﴾ ذلك فدعا له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فتفل في يده فمسح بها على عينه و رأسه، فانفتحت عيناه و سكن ما كان يجده من الصّداع و قال في دعآئه: اللهمّ قِهِ الحرّ والبرد، و أعطاه الرّاية و كانت راية بيضاء و قال له: خذ الرّاية و امض بها، فجبرئيل معك، و النّصر أمامك، و الرّعب مبثوث في صدور القوم، و اعلم يا عليّ إنّهم يجدون في كتابهم: إنّ الّذي يدمر عليهم إسمه إيليا، فإذا لقيتهم، فقل: أنا عليّ، فإنّهم يخذلون إن شآء اللّٰه تعالى.

قال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: فمضيت بها حتّى أتيت الحصن، فخرج مرحب و عليه مغفر و حجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه و هو يرتجز و يقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب شاكي السّلاح بطل مجرّب

فقلت:

أنا الّذي سمّتني امّي حيدرة كليث غابات شديد قسورة

أكيلكم بالسّيف كيل السّندرة

و اختلفنا ضربتين فبدرته و ضربته فقددت الحجر و المغفر و رأسه حتّى وقع السّيف في أضراسه فخرّ صريعاً.

و جآء في الحديث: أنّ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ لمّا قال: أنا عليّ بن أبيطالب قال حبر من أحبار القوم: غلبتم و ما أُنزل على موسى! فدخل في قلوبهم من الرّعب ما لم يمكنهم معه الاستيطان.

و لمّا قتل أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ مرحباً رجع من كان معه و أغلقوا باب الحصن عليهم دونه، فصار أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ إليه فعالجه حتّى فتحه، و أكثر النّاس من جانب الخندق لم يعبروا معه، فأخذ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ باب الحِصْن فجعله على الخندق جسراً لهم حتّى عبروا فظفروا و نالوا الغنآئم، فلمّا انصرفوا من الحِصن أخذه أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ بيمناه فدحابه أذرعاً من الأرض، و كان الباب يغلقه عشرون رجلاً منهم، و لمّا فتح أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ الحصن و قتل مرحباً و غنم اللّه المسلمين أموالهم استأذن حسان بن ثابت الأنصاري رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن يقول فيه شعراً: فقال له: قل فأنشأ يقول:

و كان عليّ أرمد العين يبتغي دواء فلمّا لم يحسّ مداويا

شفاه رسول اللّه منه بتفلة فبورك مرقيا و بورك راقيا

و قال سأعطي الرّاية اليوم صارماً كميا محبّاً للرّسول مواليا

يحبّ إلهي و الإله يحبّه به يفتح اللّه الحصون الأوابيا

فأصفى بها دون البريّة كلّها عليًّا و سمّاه الوزير المواخيا

و قد روى أصحاب الآثار عن الحسن بن صالح عن الأعمش عن أبي إسحق عن ابن أبي عبدالله الجدلي قال: سمعت أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ يقول: لمّا عالجت باب خيبر جعلته مجنًّا لي، فقاتلتهم به، فلمّا أخزاهم الله وضعت الباب على حصنهم طريقاً، ثمّ رميت به في خندقهم، فقال له رجل: لقد حملت منه ثقلاً! فقال: ما كان إلاّ مثل جنّتي الّتي في يدي في غير ذلك المقام.

و ذكر أصحاب السّيرة: أنّ المسلمين لمّا انصرفوا من خيبر راموا حمل الباب، فلم يقله منهم إلاّ سبعون رجلاً. و في حمل أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ الباب يقول الشّاعر:

إنّ امرءً حمل الرّتاج بخيبر ... يوم اليهود بقدرة لمؤيّد

حمل الرّتاج رتاج باب قموصها ... و المسلمون و أهل خيبر حشد

فرمى به و لقد تكلّف ردّه ... سبعون شخصاً كلّهم له يتشدّدوا

ردّوه بعد تكلّف و مشقّة ... و مقال بعضهم لبعض ارددوا

و فيه أيضاً قال شاعر من شعراء الشّيعة يمدح أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و يهجوا أعدآئه على ما رواه أبو محمّد الحسن بن جمهور قال: قرأت على أبي عثمان المازني:

بعث النّبيّ براية منصورة ... عمر بن حنتمة الدّلام الأدلما

فمضى بها حتّى إذا برزوا له ... دون القموص ثنى وهاب أجحما

فأتى النّبيّ براية مردودة ... إلاّ تخوف عارها فتذمّما

فبكى النّبيّ له و أنبه بها ... و دعا امرأ حسن البصيرة مقدما

فغدابها في فيلق و دعا له ... ألا يصد بها و ألا يهزما

فروى اليهود إلى القموص و قد كسا ... كبش الكتيبة ذاغرار مخذما

و ثنى بناس بعدهم فقراهم ... طلس الذّباب و كل نسر قشعما

ساط الاله بحبّ آل محمّد ... و بحبّ من والاهم منّى الدّما

و في الخرائج و الجرائح: لقطب الدّين الرّاوندي رحمة الله تعالى عليه: «و منها- معجزات نبيّنا محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ -أنّه لمّا سار إلى خيبر أخذ أبوبكر الرّاية إلى باب الحصن، فحاربهم، فحملت اليهود، فرجع منهزماً يجبّن أصحابه و يجبّنونه، و لمّا كان من الغد أخذ

عمر الرّاية و خرج، ثمّ رجع يجبّن أصحابه. فغضب رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و قال: ما بـال أقوام يرجعون منهزمين يجبّنون أصحابهم؟! أما لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ اللّٰـه و رسوله، و يحبّه اللّٰه و رسوله كرّاراً غير فرّار لايرجع حتّى يفتح اللّٰه على يديه. و كان عليّ﴿علیه السلام﴾ أرمد العين، فتطاول جميع المهاجرين و الأنصار و قالوا: أمّـا عـليّ فـإنّه لايبصر شيئاً لاسهلاً و لاجبلاً.

فلمّا كان من الغد خرج رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ من الخيمة و الرّاية في يده فركزها و قال: أين عليّ؟ فقيل: يا رسول اللّٰه هو رمد معصوب العينين، قال: هاتوه إليّ، فأتى به يقاد ففتح رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ عينيه، ثمّ تفل فيهما، فكأنّما لم ترمدا قطّ، ثمّ قال: «اللّهم أذهب عنه الحرّ و البرد» فكان عليّ﴿علیه السلام﴾ يقول: ما وجدت بعد ذلك حرّاً و لا برداً في صيف و لاشتاء ثمّ دفع إليه الرّاية، ثمّ قال له: سر في المسلمين إلى باب الحصن، و ادعهم إلى إحدى ثلاث خصال: إمّا أن يدخلوا في الإسلام، و لهم ماللمسلمين، و عليهم ما عليهم، و أموالهم لهم، و إمّا أن يذعنوا بالجزية و الصّلح، و لهم الذّمّة و أموالهم لهم، و إمّا الحرب، فإن هم اختاروا الحرب فحاربهم.

فأخذها و سار بها، و المسلمون خلفه حتّى وافى باب الحصن، فاستقبله حماة اليهود، و في أوّلهم مرحب يهدر (الهدير: ترديد صوت البعير في الحنجرة) كـما يهـدر البـعير، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ثمّ دعاهم إلى الذّمّة فأبوا، فحمل عليهم أميرالمؤمنين﴿علیه السلام﴾ فانهزموا بين يديه و دخلوا الحصن و ردّوا بابه، و كان الباب حجراً منقوراً في صخر، والباب من الحجر في ذلك الصّخر المنقور كأنّه حجر رحى، و في وسطه ثقب لطـيف، فرمى أميرالمؤمنين﴿علیه السلام﴾ بقوسه من يده اليسرى، و جعل يده اليسرى في ذلك الثّقب الّذي في وسط الحجر دون اليمنى لأنّ السّيف كان في يده اليمنى، ثمّ جذبه إليـه فـانهار الصّخر المنقور، و صار الباب في يده اليسرى، فحملت عليه اليهود، فجعل ذلك ترساً له، و حمل عليهم فضرب مرحباً، فقتله و انهزم اليهود من بين يديه، فرمى عـند ذلك بالحجر بيده اليسرى إلى خلفه، فمرّ الحجر الّذي هو الباب عـلى رؤوس النّـاس مـن المسلمين إلى أن وقع في آخر العسكر.

و قال المسلمون: فذرعنا المسافة الّتي مضى فيها الباب فكانت أربعين ذراعاً، ثمّ اجتمعنا على ذلك الباب نرفعه من الأرض، و كنّا أربعين رجلاً حتّى تهيّأ لنا أن نرفعه قليلاً من الأرض».

و في **أمالي ابن الشّيخ الطوسي** رحمة اللّه تعالى عليهما عن مكحول قال: لمّا كان يوم خيبر خرج رجل من اليهود يقال له: مرحب، و كان طويل القامة، عظيم الهامة، و كانت اليهود تقدّمه لشجاعته و يساره، قال: فخرج في ذلك اليهود إلى أصحاب رسول اللّه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ فما واقفه قرن إلاّ قال: أنا مرحب، ثمّ حمل عليه، فلم يثبت له، قال: و كانت له ظئر و كانت كاهنة تعجب بشبابه و عظم خلقته، و كانت تقول له: قاتل كلّ من قاتلك و غالب كلّ من غالبك إلاّ من تسمّى عليك بحيدرة فإنّك إن وقفت له هلكت، قال: فلمّا كثر مناوشته و جزع النّاس بمقاومته شكوا ذلك إلى النّبيّ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ و سئلوه أن يخرج إليه عليًّا﴿عليه السلام﴾ فدع النّبيّ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ عليًّا و قال له: «يا عليّ اكفني مرحباً» فخرج إليه أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ فلمّا بصر به مرحب يسرع إليه فلم يره يعبأ به فأنكر ذلك و أجحم عنه، ثمّ أقدم و هو يقول: أنا الّذي سمّتني أُمّي مرحباً.

فأقبل عليّ﴿عليه السلام﴾ بالسّيف و هو يقول: أنا الّذي سمّتني أُمّي حيدرة.

فلمّا سمعها منه مرحب هرب و لم يقف خوفاً ممّا حذّرته منه ظئره، فتمثّل له إبليس في صورة حبر من أحبار اليهود، فقال: إلى أين يا مرحب؟ فقال: قد تسمّى عليّ هذا القرن بحيدرة، فقال له إبليس: فما حيدرة؟ فقال: إنّ فلانة ظئري كانت تحذّرني من مبارزة رجل اسمه حيدرة و تقول: إنّه قاتلك، فقال له إبليس: شوها لك لو لم يكن حيدرة إلاّ هذا وحده لما كان مثلك يرجع عن مثله، تأخذ بقول النّسآء و هنّ يخطئن أكثر ممّا يصبن؟ و حيدرة في الدّنيا كثير، فارجع فلعلّك تقتله، فإن قتلته سدت قومك، و أنا في ظهرك أستصرخ اليهود لك، فردّه فواللّه ما كان إلاّ كفواق ناقة حتّى ضربه عليّ ضربة سقط منها لوجهه، و انهزم اليهود يقولون: قتل مرحب، قتل مرحب.

قال: و في ذلك يقول الكميت بن يزيد الأسدي رحمه اللّه في مدحه﴿عليه السلام﴾ شعراً:

سقى جزع الموت ابن عثمان بعدما   تعاورها منه و ليد و مرحبٌ

و الوليد هو ابن عتبة خال معاوية بن أبي‌سفيان، و طلحة بن عثمان من قريش، و مرحب من اليهود.

و فيه: عن عامر بن سعد عن أبيه قال: سمعت رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يقول لعليّ ثلاث، فلأن يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النّعم، سمعت رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يقول لعليّ و خلّفه في بعض مغازيه، فقال: يا رسول اللّه تخلّفني مع النّسآء و الصّبيان؟ فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي» و سمعته يقول يوم خيبر: «لأعطينّ الرّاية رجلاً يحبّ اللّه و رسوله و يحبّه اللّه و رسوله» قال: فتطاولنا بهذا، قال: ادعوا لي عليًّا، فأتى عليّ أرمد العين فبصق في عينيه، و دفع إليه الرّاية ففتح عليه، و لمّا نزلت هذه الآية «ندع أبنآءنا و أبناءكم و نسآءنا و نسآءكم و أنفسنا و أنفسكم»آل عمران: ٦١) دعا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ عليًّا و فاطمة و حسناً و حسيناً عليهم السلام و قال: «اللهمّ هؤلآء أهلي».

و في **المناقب** لابن شهر آشوب السّرويّ المازندراني رضوان اللّه تعالى عليه: «أركبه رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يوم خيبر و عمّمه بيده و ألبسه ثيابه و أركبه بغلته، ثمّ قال: «امض يا عليّ و جبرئيل عن يمينك و ميكائيل عن يسارك، و عزرائيل أمامك، و إسرافيل وراءك و نصر اللّه فوقك و دعآئي خلفك» و خبّر النّبيّ﴿ﷺ﴾ رميه باب خيبر أربعين ذراعاً فقال﴿ﷺ﴾: «و الّذي نفسي بيده لقد أعانه عليه أربعون ملكاً».

و فيه: عن ابن عبّاس: أنّه نزل جبرئيل على النّبيّ﴿ﷺ﴾ و قال له: إنّ اللّه يأمرك يا محمّد و يقول لك: إنّي بعثت جبرئيل إلى عليّ﴿ع﴾ لينصره، و عزّتي و جلالي ما رمى عليّ حجراً إلى أهل خيبر إلاّ رمى (معه) جبرئيل حجراً، فادفع يا محمّد إلى عليّ سهمين من غنآئم خيبر، سهماً (له) و سهم جبرئيل (معه).

و في **مجالس ابن الشّيخ**:- في خبر الشّورى بإسناده عن أبي‌ذرّ رضى اللّه عنه قال: قال أميرالمؤمنين﴿ع﴾: فهل فيكم أحد احتمل باب خيبر يوم فتحت حصنها، ثمّ مشى به ساعة، ثمّ القاها، فعالجه بعد ذلك أربعون رجلاً، فلم يقلوه من الأرض غيري؟! قالوا: لا».

و في الاحتجاج: عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ -في حديث الشّورى- قال: قال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: نشدتكم بالله هل فيكم أحد مسح رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ عينيه، و أعطاه الرّاية يوم خيبر فلم يجد حرّاً و لابرداً غيري؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قتل مرحباً اليهوديّ مبارزة فارس اليهود غيري؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد احتمل باب خيبر حين فتحها فمشى به مأة ذراع، ثمّ عالجه بعده أربعون رجلاً فلم يطيقوه غيرى؟ قالوا: لا».

و في أمالي الصّدوق قدّس اللّه روحه: بإسناده عن الصّادق عن أبآئه عليهم السّلام: أنّ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ قال في رسالته إلى سهل بن حنيف رحمه اللّه: «و اللّه ما قلعت باب خيبر و رميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوّة جسديّة، و لاحركة غذائيّة، لكنّي أُيّدتُ بقوّة ملكوتيّة، و نفس بنور ربّها مضيئة، و أنا من أحمد كالضّوء من الضّوء، واللّه لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت، و لو أمكنتني الفرصة من رقابها لمّا بقيت، و من لم يبال متى حتفه عليه ساقط فجنانه في الملمّات رابط»

و في عيون المعجزات للسّيّد المرتضى رضوان اللّه تعالى عليه بالإسناد عن أبي عبداللّه الصّادق عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: «أعطى اللّه تعالى أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ حياة طيّبة بكرامات و أدلّة و براهين و معجزات و قوّة ايمانه و يقين علمه و عمله، و فضّله اللّه على جميع خلقه بعد النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لمّا أنفذه النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لفتح خيبر، قلع بابه بيمينه، و قذف به أربعين ذراعاً، ثمّ دخل الخندق، و حمل الباب على رأسه حتّى عبر جيوش المسلمين عليه، فأتحف اللّه تعالى يومئذ عليًّا بأُترجّةٍ من أُترجّ الجنّة، في وسط الأُترجّة فرندة عليها مكتوب إسم اللّه تعالى و اسم نبيّه محمّد و اسم وصيّه عليّ بن أبيطالب صلوات اللّه عليهما.

فلمّا فرغ من فتح خيبر قال: و اللّه ما قلعت باب خيبر و قذفت به ورآئي أربعين ذراعاً ثمّ تحسّس أعضائي بقوّة جسديّة و حركة غريزيّة بشريّة، لكنّني أُيِّدتُ بقوّة ملكوتيّة، و نفس بنور ربّها مضيئة، و أنا من أحمد كالضّوء من الضّوء لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت، و لو أردت أن أنتهز فرصة من رقابها لما بقيت و لم يبالى منّي حتفه عَلَىَّ ساقطاً كان جنانه في الملمّات رابطاً».

قوله﴿عليه السلام﴾: «الأُترُجّة»: نوع من المركّبات معروف.

و في الخصال: فيما أجاب أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ اليهوديّ الّذي سئل عن علامات الأوصيآء أن قال: و أمّا السّادسة يا أخا اليهود فإنّا وردنا مع رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ مدينة أصحابك خيبر على رجال من اليهود و فرسانها من قريش و غيرها، فتلقّونا بأمثال الجبال من الخيل و الرّجال و السّلاح، و هم في أمنع دار، و أكثر عدد، كلّ ينادي و يدعوا و يبادر إلى القتال، فلم يبرز إليهم من أصحابي أحد إلاّ قتلوه حتّى إذا احمّرت الحدق و دعيت إلى النّزال، و أهمّت كلّ امرئ نفسه، و التفت بعض أصحابي إلى بعض، و كلّ يقول: يا أباالحسن انهض، فأنهضني رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى دارهم، فلم يبرز إليّ منهم أحد إلاّ قتلته، و لايثبت لي فارس إلاّ طحنته، ثمّ شددت عليهم شدّة الليث على فريسته حتّى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدّداً عليهم، فاقتعلت باب حصنهم بيدي حتّى دخلت عليهم مدينتهم وحدي، أقتل من يظهر فيها من رجالها، و أسبي من أجد من نسآئها حتّى افتتحتها وحدي، و لم يكن لي فيها معاون إلاّ اللّه وحده».

و في أمالي ابن الشّيخ: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّه اللّه و رسوله، و يحبّ اللّه و رسوله، لايرجع حتّى يفتح اللّه عليه» قال عمر: ما أحببت الإمارة قبل يومئذ، فدعا عليًّا﴿عليه السلام﴾ فبعثه فقال له: «اذهب فقاتل حتّى يفتح اللّه عليك و لاتلتفت» فمشى ساعة أو قال: قليلاً ثمّ وقف و لم يلتفت، فقال: يا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ على ما أُقاتل النّاس؟ قال: قاتلهم حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّداً رسول اللّه، فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا منك دمآءهم و أموالهم إلاّ بحقّها و حسابهم على اللّه عزّوجلّ».

أقول: إنّما التّوحيد و ما يتبعه من الطّاعة هو حكمة إرسال الرّسل إذ قال تعالى: «و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون»الأنبيآء: ۲۵) و ما كان قتالهم إلاّ لدفع الفتنة و حسمها إذ قال اللّه جلّوعلا: «و اقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم و الفتنة أشدّ من القتل- و قاتلوهم حتّى لاتكون فتنة و يكون الدّين لله فإن انتهو فلاعدوان إلاّ على الظّالمين» البقرة: ۱۹۱-۱۹۳).

فليس شيء من الامور المادّيّة و الدّنيويّة و متاعها و شهواتها هدفاً للقتال و الجهاد، و الغزوة و الفتح كما توهّم بعض الجهلة و السّفلة عملاء الأجانب المعاندين...

و **في البحار**: -تاريخ نبيّنا﴿ﷺ﴾- باب غزوة خيبر و فدك- حديث ٣٥) قال الكازروني: في سنة سبع من الهجرة كانت غزوة خيبر في جمادى الاولى و خيبر على ثمانية برد من المدينة، و ذلك أنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لمّا رجع من الحديبيّة أقام بالمدينة بقيّة ذي الحجّة، و بعض المحرّم، ثمّ خرج في بقيّة المحرّم لسنة سبع، و استخلف على المدينة سباع بن عرفة الغفاري، و أخرج معه أُمّ سلمة، فلمّا نزل بساحتهم أصبحوا (و أفئدتهم تخفق و فتحوا حصونهم) و غدوا إلى أعمالهم معهم المساحي و المكاتل، فلمّا نظروا إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قالوا: محمّد و الخميس (أي الجيش، سمّي بذلك لأنّه ينقسم إلى خمسة أقسام: مقدّمة و ساقة و قلب و ميمنة و ميسرة) فولّوا هاربين إلى حصونهم.

و جعل رسول اللّه﴿ﷺ﴾ يقول: «اللّه أكبر خزيت (خربت خ) خيبر إنّا جيش إذا نزلنا (إنّا إذا نزلنا خ) بساحة قوم فسآء صباح المنذرين» فقاتلوهم أشدّ القتال و فتحها حِصْناً حِصْناً، و هي حصون ذوات عدد، وأخذ كنز آل أبي الحُقيق، و كان قد غيّبوه في خربة فدلّه اللّه عليه، فاستخرجه و قتل منهم ثلاثة و تسعين (سبعين خ) رجلاً من يهود حتّى ألجأهم إلى قصورهم و غلبهم على الأرض و النّخل، فصالحهم على أن يحقن دمآءهم و لهم ما حملت ركابهم، و للنّبيّ﴿ﷺ﴾ الصّفرآء و البيضآء و السّلاح، و يخرجهم و شرطوا للنّبيّ﴿ﷺ﴾ أن لا يكتموه شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمّة لهم و لا عهد، فلمّا وجد المال الّذي غيّبوه في مسك الجمال (الجمل خ) سبى نسآءهم و غلب على الأرض والنّخل و دفعها إليهم على الشّطر.

ثمّ ذكر حديث الرّاية و رجوع أبي‌بكر و عمر و انهزامهما و قوله﴿ﷺ﴾: «أما و اللّه لاعطيّن الرّاية غداً رجلاً يحبّ اللّه و يحبّه اللّه و رسوله يأخذها» إلى آخر ما مرّ.

و **في المجمع**: «و لمّا قدم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ المدينة من الحديبيّة مكث بها عشرين ليلة ثمّ خرج منها غادياً إلى خيبر».

أقول: و قد سبق منّا عن سيرة ابن هشام: «و استعمل على المدينة نميلة بن عبداللّه

الليثي» و ذكر المقريزى في الامتاع سباعاً أوّلاً، ثمّ قال: و قيل: أباذر، و قيل: نميلة بن عبداللّٰه اللّيثي.

و في **الامتاع**: كان مسك جمل فيه: أسورة الذّهب، و دمالج الذّهب، و خلاخل الذّهب و اقرطة ذهب، و نظم من جوهر و زمرّد و خواتم ذهب، و فتخ بجزع ظفار مجزع بالذّهب». و الفتخ: جمع فتخة: حلقة تلبس في الاصبع كالخاتم.

و في **إعلام الورى بأعلام الهدى**: «ثمّ كانت غزوة خيبر في ذيالحجّة من سنة ستّ. و ذكر الواقديّ: أنّها كانت أوّل سنة سبع من الهجرة، و حاصرهم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ بضعاً و عشرين ليلة و بخيبر أربعة عشر ألف يهوديّ في حصونهم، فجعل رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ يفتحها حصناً حصناً، و كان من أشدّ حصونهم و أكثرها رجالاً القموص، فأخذ أبوبكر راية المهاجرين، فقاتل بها ثمّ رجع منهزماً، ثمّ أخذها من الغد، فرجع منهزماً يجبّن النّاس و يجبّنونه حتّى سآء رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ذلك، فقال: لأُعطينّ الرّاية غداً رجلاً كرّاراً غير فرّار، يحبّ اللّٰه و رسوله، و يحبّه اللّٰه و رسوله، لايرجع حتّى يفتح اللّٰه على يديه، فغدت قريش يقول بعضهم لبعض: أمّا عليّ فقد كفيتموه فإنّه أرمد لايبصر موضع قدمه، و قال عليّ﴿عليه السلام﴾ لمّا سمع مقالة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾: «اللّهمّ لامعطي لما منعت، و لا مانع لما أعطيت».

فأصبح رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و اجتمع إليه النّاس، قال سعد: جلست نصب عينيه، ثمّ جثوت على ركبتي، ثمّ قمت على رجلي قائماً، رجآء أن يدعوني، فقال: «ادعوا لي عليًّا» فصاح النّاس من كلّ جانب، إنّه أرمد رمداً لايبصر موضع قدمه، فقال: «أرسلوا إليه و ادعوه» فأُتي به يقاد، فوضع رأسه على فخذه ثمّ تفل في عينيه، فقام و كأن عينيه جزعتان، ثمّ أعطاه الرّاية و دعا له، فخرج يهرول هرولة، فواللّٰه ما بلغت أُخراهم حتّى دخل الحِصْن، قال جابر: فأعجلنا أن نلبس أسلحتنا و صاح سعد: يا أباالحسن أربع (مرّات ظ) يلحق بك النّاس، فأقبل حتّى ركزها قريباً من الحصن، فخرج إليه مرحب في عادته باليهود، فبارزه فضرب رجله فقطعها و سقط، و حمل عليّ﴿عليه السلام﴾ و المسلمون عليهم فانهزموا.

قال أبان: و حدّثني زرارة قال: قال الباقر﴿عليه السلام﴾: انتهى إلى باب الحصن، و قد أُغلق في وجهه، فاجتذبه اجتذاباً و تترّس به، ثمّ حمله على ظهره و اقتحم الحصن و اقتحاماً و اقتحم المسلمون و الباب على ظهره، قال: فو اللّٰه ما لقي عليّ من النّاس تحت الباب أشدّ ممّا لقي من الباب، ثمّ رمى بالباب، رمياً، و خرج البشير إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنّ عليّاً﴿عليه السلام﴾ دخل الحصن، فأقبل رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فخرج عليّ﴿عليه السلام﴾ يتلقّاه، فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: «قد بلغني نبأك المشكور و صنيعك المذكور، قد رضي اللّٰه عنك و رضيت أنا عنك» فبكى عليّ﴿عليه السلام﴾ فقال له: «يبكيك يا عليّ؟ فقال: فرحاً بأنّ اللّٰه و رسوله عنّي راضيان.

قال: و أخذ عليّ فيمن أخذ صفيّة بنت حييّ، فدعا بلالاً فدفعها إليه، و قال له: لاتضعها إلاّ في يدي رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى يرى فيها رأيه، فأخرجها بلال و مرّ بها إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ على القتلى، و قد كادت تذهب روحها جزعاً، فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: «أنزعت منك الرّحمة يا بلال؟» ثمّ اصطفاها لنفسه، ثمّ أعتقها و تزوّجها.

و في **مشارق الأنوار للبرسيّ**: لمّا جآئت صفيّة إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ – فقال لها رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: يا صفيّة إنّ عليًّا عظيم عنداللّٰه، و إنّه لمّا هزّ الباب اهتزّ الحصن، و اهتزّت السّموات السّبع و الأرضوان السّبع، و اهتزّ عرش الرّحمن غضباً لعليّ».

و في ذلك اليوم لمّا سئله عمر فقال: يا أباالحسن لقد اقتلعت منيعاً (المنيع: الحصن الّذي يتعذّر الوصول إليه) و أنت ثلاثة أيّام خميصاً، فهل قلعتها بقوّة بشريّة؟ فقال: ما قلعتها بقوّة بشريّة، و لكن قلعتها بقوّة إلهيّة، و نفس بلقاء ربّها مطمئنّة رضيّة.

و في ذلك اليوم لمّا شطّر مرحباً شطرين و ألقاه مجدّلاً جآء جبرئيل من السّماء متعجّباً، فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ممّ تعجّبت؟ فقال: إنّ الملائكة تنادي في صوامع جوامع السّموات: لافتى إلاّ عليّ لاسيف إلاّ ذوالفقار...».

و من البداهة و الطّبيعي أن يكون لهذا الشّطر تأثير عظيم على روحيات يهود خيبر و كسر معنويّاتهم، و أن يضج الرّعب في قلوبهم حيث إنّ تصدّى عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ وحده لإقلاع الحصن و قتل أشجعها و شطره يعلن بأنّه وحده يقدر

على إبادتهم و استئصال شأفتهم. بسهولة و يسر، و لقد باشر هذا الأمر رجل هو أقرب النّاس إلى رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و أعرفهم بنواياه و آرآئه، و أشدّهم اتّباعاً له﴿صلی الله علیه و آله﴾ رجل عرفوا بعض موافقه المرعبة في بدر و أُحد و غيرهما من الغزوات فانّه﴿علیه السلام﴾ كان في كلّها حامل راية رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و صاحب لوائه و حامي حوزته و الذّابّ عنه، و الملبّي لدعوته و المسارع لنصرته و المفدي بمهجته...

في فروع الكافي: بإسناده عن معاوية بن عمّار عن أبي عبداللّه﴿علیه السلام﴾ قال: «... و (شعار) يوم خيبر يوم القموص: يا عليّ ائتهم من علٍ...».

و في السّيرة النبويّة لابن هشام: «و كان فتح خيبر في صفر» و هو الشّهر المعروف بعد المحرّم.

«الطّريق الوحيد لفتح فلسطين و إخراج اليهود الصّهيونى من أرضها»

و من البداهة: أنّ غزوة خيبر و فتحها بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين«عليه السلام» و انهزام اليهود العنيد يومئذ تشبه بقتال الأعراب مع اليهود الغاصب الصّهيوني و إشغالهم أرض فلسطين في زماننا هذا.

و لعمري ليس فتح فلسطين و إخراج اليهود الغاصب الصّهيوني بيد العامّة من أتباع هؤلآء الجبنآء الفارّين من معارك القتال، و لن تفتح أرض فلسطين بأيديهم دامت الرّاية بأيديهم كما لم تفتح خيبر بأيدي هؤلآء غاصبي الخلافة: أبي بكر بن أبي قحافة و عمر بن الخطّاب و عثمان بن عفّان، فكيف الأتباع و المبتوع مغلوب؟ و كيف يدافع الغاصب عن الغصب؟؟؟!!!

و إنّما الطّريق الوحيد لفتح فلسطين و إخراج اليهود الصّهيونى من أرضها في التجآء الأعراب و المسلمين كافّة إلى ولاية فاتح خيبر: مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب«عليه السلام» و تمسّكهم بولايته«عليه السلام» كما قال اللّه عزّوجلّ: «ولاية عليّ بن أبيطالب«عليه السلام» حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي» حديث قدسي. و اتّباعهم إيّاه و تجمّعهم تحت رايته...

فإذاً و اللّه جلّ وعلاهم لايرجعون إلاّ بالفتح و الظّفر على اليهود الغاصب و

إخراجهم إيّاهم من أرضهم المغصوبة كما لم يرجع الإمام عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ إلاّ بالفتح و إخراج يهود خيبر منها، فلابدّ في فتح فلسطين و إخراج اليهود الصّهيوني من أرضها من أن يأخذ المؤمنون راية فتح أميرهم و لواء مولاهم... و أنّ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ هو أميرالمؤمنين و ليس أميرالمسلمين، و أنّ اللّٰه تعالى جعل العلوّ و الظّفر للمؤمنين و لاالمسلمين إذ قال: «و لاتهنوا و لاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ٣٩) و لم يقل: «إن كنتم مسلمين» و قد ألقى اللّٰه عزّوجلّ رعب المؤمنين في قلوب الكافرين و لارعب المسلمين إذ قال: «و كفى اللّٰه المؤمنين القتال و كان اللّٰه قويًّا عزيزاً و أنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم و قذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون و تأسرون فريقاً و أورثكم أرضهم و ديارهم و أموالهم و أرضاً لم تطؤها و كان اللّٰه على كلّ شئ قديراً» الأحزاب: ٢٥-٢٧).

و أنّ اللّٰه تعالى لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً و لاالمسلمين إذ قال: « لن يجعل اللّٰه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النساء: ١٤١) و أنّ اللّٰه عزّوجلّ يدافع عن المؤمنين و لاالمسلمين إذ قال: «إنّ اللّٰه يدافع عن الّذين آمنوا» الحجّ: ٣٨) و لن يتحقّق الايمان إلاّ بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فلن يقدر المسلمون أتباع هؤلآء الخلفاء الغاصبين على الدّفاع عن أرض فلسطين المغصوبة، و أنّ فدكاً قد كانت مغصوبة بأيديهم و حتّى الآن، بل كان الإسلام أسيراً بأيديهم...

في نهج البلاغة:- من كتاب الامام على﴿عليه السلام﴾ لمالك الأشتر النّخعيّ رحمةاللّٰه تعالى عليه-: «فإنّ هذا الدّين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى و تطلب به الدّنيا».

و إنّما الخيانة على الإسلام و انحطاط المسلمين، و الجناية على هذه الامّة و استثمار ذخآئر ممالكهم و سلطة الأجانب المستكبرين عليها... ناشئة عن الأُمراء الخائنة و الحكّام الجابرة و السّلاطين الباغية و عمّالهم من العلمآء الّذين لايفون بميثاقهم، و يكتمون الحقّ و ينبذونه ورآء ظهورهم و يشترون به ثمناً قليلاً و يحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا و يأبون من ايتاء راية الفتح بأيدى المؤمنين الصّادقين و هم شيعة مولى

الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فعلى الأُمّة الإسلاميّة القيام و الثّورة على حكّامهم الجابرة و أمرآئهم الخونة، و سلاطينهم الباغية و عميل الأجانب من العلماء الفسقة لتحرير أرض فلسطين خاصّة، و نجاة الامّة الإسلاميّة و حفظ ذخآئر ممالكهم و صيانة كيانهم الإسلامي عامّة.

فعليكم أيّها الامّة الإسلاميّة باتّباع الحقّ أوّلاً و هو مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ على ما ورد بالتّواتر عن الفريقين: «عليّ مع الحقّ، و الحقّ معه يدور حيثما دار» ثمّ القيام على وجهة كلّ من خالف الحقّ، و إلاّ فليس في الاتّحاد من غير حقّ، غلبة و إن كان له جولة.

﴿فرار أبي‌بكر و عمر من معارك الغزوات﴾

و قد ثبت بالتّواتر من الفريقين: أنّ فرار أبي‌بكر أبي قحافة و حليفيه عمر بن الخطّاب و عثمان بن عفّان الغاصبين للخلافة ما كان منحصراً في فتح خيبر و لا في غزوة أُحُد بل كانوا يفرّون من غيرهما فرار الثّعلب من موضع الخطر، كغزوتي حنين و الخندق... وقد صرّح بفرارهم من الغزوات أعاظم العامّة و حملة آثارهم في صحاحهم و مسانيدهم و تفاسيرهم... نشير إلى ما يسعه المقام، و نحن على جناح الاختصار:

١- ما رواه أبو داود الطّيالسی في (مسنده: ج ٨ ص ٢٦٤)

٢- ما رواه الطّبري في تفسيره: (جامع البيان: ج ٢ ص ١٩٩ ط مصر) ذكر فرار عمر بن الخطّاب في غزوة أُحُد.

٣- ما رواه الهيتمي في (مجمع الزّوآئد: ج ٩ ص ١٢٣ ط مصر) نقل فيه فرار أبي‌بكر و عمر، و أنّ عمر كان يجبّن أصحابه.

٤- ما رواه شارح المواقف: ج ٢ ص ٤٧٥ ط مصر) ذكر فرار أبي‌بكر و عمر في غزوة حنين.

٥- ما رواه قتيبة في (المعارف: ص ٥٤ ط مصر) من فرار أبي‌بكر و عمر في غزوة حنين.

٦- ما رواه معين الدّين الكاشفي في (المعارج- الرّكن الرّابع- ص ٣٧٠).

٧- ما رواه الترمذي الكشفي في (مناقب مرتضوي: ص ٤١٠).

٨- ما رواه المتّقيّ الهندي في (منتخب كنز العمّال) المطبوع بهامش (مسند أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ٢٤) ذكر فرار أبي‌بكر و عمر في غزوة خندق و احد.

٩- ما رواه الطّبري أيضاً في تفسيره (جامع البيان: ج ٢ ص ٣٠٣) نقل فرار عثمان. و (ج ٢ ص ٣٠٠) فرار عمر في غزوة خندق.

١٠- ما ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه (القصآئد العلويات السّبع: ص ١٨ في القصيدة الثّانية، البيت ٢٧ ط بيروت) حيث قال:

و ليس ينكر في حنين فراره فني أُحُد قد فرّ خوفاً و خيبرا

و لايخفى أنّ الفرار عن الزّحف معصية كبيرة عند الفريقين، و صرّح كثير من أعلام العامّة بذلك.

منهم: ابن حجر المكّي في كتابه: (الزّواجر في اقتراف الكبآئر: ج ٢ ص ١٨٣ ط مصر) حيث عدّه من الكبآئر و أخرج في ذلك أحاديثه من الشّيخين و الطّبراني والبغوي و البزار و النّسفي و ابن مردويه و ابن حبان و أحمد و غيرهم ... فنها: ما نقله عن أحمد أنّه قال رسول الله﴿ﷺ﴾: خمس لهنّ كفّارة: الشّرك بالله، و قتل النّفس بغير حقّ، و بهت مؤمن، و الفرار من الزّحف، و يمين صابرة يقتطع بها ما لابغير حقّ.

و منهم: و ما رواه المتّقيّ الهندي في كتابه (كنز العمّال: ج ٥ ص ٥١٩) في حديث طويل من جملاته قوله عليه‌السلام: «و إنّ أكبر الكبآئر عندالله يوم القيامة: الشّرك بالله، و قتل النّفس المؤمنة بغير حقّ، و الفرار في سبيل الله يوم الزّحف، و عقوق الوالدين، و رمى المحصنة، و تعلّم السّحر، و أكل الرّبا، و أكل مال اليتيم إلى غير ذلك من رواياتهم و كلماتهم، و كفى في كونه كبيرة عدّه في سياق ما سمعت من الشّرك و غيره اضف إلى ذلك قوله تعالى: «و من يولّهم يومئذ دبره إلاّ متحرّفاً لقتال أو متحيّراً إلى فئة فقد بآء بغضب من الله و مأواهم جهنّم و بئس المصير» الأنفال: ١٦).

و إن شئت الوقوف على ذلك، فراجع إلى كتاب:

ألف: (نجاة الغافلين) للشّيخ ضياء الدّين أحمد الكمشخانوى.

ب: (الطّريقة المحمّديّة) للشيخ محمّد بن مصطفى الأقكرمانى.

ج: (السّنن) للبيهق.

د: (الكبآئر) لابن حجر العسقلاني. و غيرها من كتب العامّة.

١١- ما رواه الحلبي الشّافعي في (السّيرة الحلبيّة: ص ١٠٨ ط مصر): «لمّا فرّ النّاس يوم حنين عن النّبيّ﴿ﷺ﴾ لم يبق معه إلاّ أربعة، ثلاثة من بـني‌هاشم، و رجـل مـن غيرهم: عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و العبّاس و هما بين يديه و أبوسفيان بن الحارث آخذ بالعنان، و ابن مسعود في جانبه الأيسر.

رواه بعينه الدّهلوي في (مدارج النّبوّة: ص ٢٥٣ ط نول كشور) و الهروي في (روضة الأحباب: ص ٤٦٤) و الدّهلوي في (تجـهيز الجـيش: ص ٤٠١) و في الأخـير قـال عليّ﴿عليه السلام﴾: أنسيتم يوم أُحُد أن تصعدون و لاتلون، و أنا أدعوكم في اخراكم.

١٢- ما رواه السّيوطي في (الدّرّ المنثور: ج ٢ ص ٨٩) في تفسير قوله تعالى: «إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا» آل عمران: ١٥٥) عن عكرمة قال: كان الّذين ولّوا الدّبر يومئذ عثمان بن عفّان، و سعد بن عثمان، و عقبة بن عثمان أخوان من الأنصار من بني زريق».

و فيه: أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنّه سُئِلَ عن قوله تعالى: «إذ تصعدون ...» آل‌عـمران: ١٥٣) قـال: فـرّوا مـنهزمين في شـعب شـديد، لايـلوون عـلى أحـد، والرّسول﴿ﷺ﴾ يدعوهم في أُخراهم: إلَيَّ عباداللّه، إلَيَّ عباداللّـه، و لايـلوى عـليه أحد».

و فيه: أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى: «فأثابكم غمًّا بغمّ» قال: فرّة بعد الفرّة الاولى حين سمعوا الصّوت: أنّ محمّداً قد قتل، فرجع الكفّار فضربوهم مدبرين حتّى قتل منهم سبعين رجلاً، ثمّ انحازوا إلى النّبيّ﴿ﷺ﴾ فجعلوا يصعدون في الجبل، و الرّسول﴿ﷺ﴾ يدعوهم في أُخراهم».

و في روح المعاني: قال الآلوسي مفتي البغداد: «إنّ عـدّة مـن أصـحاب رسـول اللّه﴿ﷺ﴾ بالغوا في الفرار في أُحُـد، و لم يـرجـعوا إلاّ بـعد مـضيّ وقت إلى رسـول

اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ حتّى أنّ منهم من لم يرجع إلاّ بعد ثلاث، وعدّة منهم فقد اجتمعوا في ذلك اليوم على الجبل، و عمر بن الخطّاب كان من هذا الصّنف، و إن كان ذلك ذنباً منهم، فنحن لاندّعي العصمة في الصّحابة و لانشترطها في الخلافة».

أقول: و من البيّن لمن له طيب ولادة، و أدنى مسكة و دراية: أنّه إذا كانت قوّتهم في الجهاد على ذلك، كانت قوّتهم في الدّين كذلك، و من هنا كانوا يدعون النّاس برجوعهم إلى أعقابهم الشّرك و عبادة الأوثان، فمن فرّ عن الزّحف فهل هو يليق أن يأخذ لواء زعامة المسلمين؟ و من يدعو النّاس إلى الشّرك و عبادة الأوثان، فهو لائق على أن يدعو النّاس إلى التّوحيد و الاستقامة فيه و العبادة لله جلّ وعلا وحده؟!

قال اللّٰه تعالى فيهم يوم أُحد: «و ما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» آل‌عمران: ١٤٤).

و يذكر ابن أبي الحديد المعتزلي، فرار أبي بكر بن أبي قحافة و عمر بن الخطّاب:

و ما أنس لا أنس الّذين تقدما و فرّهما و الفرّ قد علما حوب

و للرّاية العظمى و قد ذهبا بها ملابس ذلّ فوقها و جلابيب

إلى أن قال:

أحَضْرُهما أم حَضْر أخْرَجَ خاضب و ذان هما أم ناعم الخدّ مخضوب

عذرتكما إنّ الحمام لمبغض و إنّ بقآء النّفس للنّفس مطلوب

ليكره طعم الموت و الموت طالب فكيف يلذّ الموت و الموت مطلوب

و في **الغدير** (ج ٧ص ٢٠٦) عن (السّيرة الحلبيّة: ج ٣ص ١٣) «و يقول الإسكافي إنّه لم يبق معه﴿صلى الله عليه و آله﴾ حينئذ (في أُحد) سوى أربعة بايعوه على الموت، و ليس أبوبكر من بينهم».

و قد فرّ أبوبكر في حنين... حيث لم يبق مع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ سوى عليّ﴿عليه السلام﴾ و العباس و أبي سفيان بن الحارث و ابن مسعود.

و قال الإسكافي عن أبي‌بكر: أنّه «لم يرم بهم قطّ و لاسلّ سيفاً و لا أراق دماً و هو أحد الأتباع غير مشهور و لامعروف و لاطالب و لامطلوب».

فما كان لأبي‌بكر أثر في غزوة من الغزوات، و ما كان أعدآء الإسلام يقصدونه بالقتل، و إنّما هو كأيّ مهاجريّ آخر، مثل عبدالرّحمن بن عوف و عثمان و غيرهما، بل كان عثمان أبعد منه صيتاً و أشرف مركباً، فلم يكن قتله في أحد تلك المعارك موجباً لضعف الإسلام و لا إعفاء آثاره، و قد كان أبوبكر أضعف المسلمين جناناً و أقلّهم عند العرب ترة، و هو لم يحارب أبداً بل هو أحد الأتباع، فإذا كان الأمر في أبي‌بكر كذلك. فكيف يجوز أن يُجعَل بمقام و منزلة رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و يحرس كيان الإسلام و يدبّر امور المسلمين؟؟؟!!!

قال اللّه تعالى في هؤلآء الفارّين من معارك الغزوات: «و طائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة» آل‌عمران: ١٥٤).

و هم يفرّون منها و يتركون رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ عرضة للشّدائد و البلايا و الموت، و عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ وحده هو الّذي يثبت و يدافع عن هذا الرّسول﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و يرد عنه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و هو﴿عليه السلام﴾ يحارب، ثمّ يرجع ليتفقّد النّبيّ﴿صلّى الله عليه و آله﴾.

و لايخفى على مَن له طيب ولادة و أدنى مسكة و دراية: أنّ أبابكر و عمر بن الخطّاب و عثمان بن عفان و أذنابهم قد أهمتهم أنفسهم، و هم لايهتمّون بحفظ نفس رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾، حتّى لايعنيهم موت رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ في قليل و لاكثير...

في حياة الصّحابة (ج ٢ ص ٨٤) أخرج ابن سعد عن عبدالرّحمن بن سعيد بن يربوع قال: «جآء عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ يوماً متقنعاً متحازناً، فقال له أبوبكر: أراك متحازناً! فقال عليّ﴿عليه السلام﴾ انّه عناني ما لم يعنك!! قال أبوبكر: اسمعوا ما يقول، انشدكم اللّه، أترون أحداً كان أحزن على رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ منّي؟!

فإنّ عليًّا﴿عليه السلام﴾ لم‌يكن يراهم محزونين على رسول اللّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و لامهتمّين بأمره، و لاحتّى حين وفاته، و لاحتّى يعنيهم أمره أصلاً، حتّى اضطرّ أبوبكر إلى هذا الاستشهاد لإنقاذ موقفه... فلابدّ و أن يكون قد استشهد من هم على رأيه و على مثل موقفه من أذنابه...

و في عيون الأخبار: - الجزء الثاني- باب ٣٣- في ذكر ما كتب به الرّضا﴿عليه السلام﴾

إلى محمّد بن سنان في جواب مسائله في العلل -: «... و حرّم اللّٰه الفرار من الزّحف لما فيه من الوهن في الدّين، و الاستخفاف بالرّسل و الأئمّة العادلة عليهم السلام و ترك نصرتهم على الأعدآء و العقوبة لهم على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالرّبوبيّة و إظهار العدل و ترك الجور، و إماتة الفساد، لما في ذلك من جرءة العدوّ على المسلمين، و ما يكون في ذلك من السّبي و القتل و إبطال دين اللّٰه عزّوجلّ و غيره من الفساد...».

﴿صلاة جعفر﴿عليه السلام﴾ يوم خيبر﴾

في فروع الكافي: بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لجعفر﴿عليه السلام﴾: «يا جعفر ألا أمنحك ألا أُعطيك؟ ألا أحبّوك؟» فقال له جعفر: بلى يا رسول اللّٰه، قال: فظنّ النّاس أنّه يعطيه ذهباً أو فضّة، فتشوّف النّاس لذلك، فقال له: إنّي أُعطيك شيئاً إن أنت صنعته في كلّ يوم كان خيراً لك من الدّنيا و ما فيها» ثمّ علّمه صلاة جعفر».

قوله﴿عليه السلام﴾: «فتشوّف» من تشوّف للشئ أى طمح إليه بصره.

و في التّهذيب: بإسناده عن بسطام عن أبي عبداللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: قال له رجل: جعلت فداك أيلتزم الرّجل أخاه؟ فقال: نعم إنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يوم افتتح خيبر أتاه الخبر أنّ جعفراً قد قدم، فقال: «واللّٰه ما أدري بأيّهما أنا أشدّ سروراً، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر؟» قال: فلم يلبث أن جآء جعفر، قال: فوثب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فالتزمه و قبّل ما بين عينيه، قال: فقال له الرّجل: الأربع ركعات الّتي بلغني أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أمر جعفراً أن يصلّيها؟ فقال: لمّا قدم عليه السلام عليه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال له: «يا جعفر ألا أُعطيك؟ ألا أمنحك؟ ألا أُحبّوك؟» قال: فتشوّف النّاس، و رأوا أنّه يعطيه ذهباً أو فضّة، قال: بلى يا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: صلّ أربع ركعات حتّى صلّيتهنّ غفر لك ما بينهنّ، إن استطعت كلّ يوم، و إلاّ فكلّ يومين، أو كلّ جمعة، أو كلّ شهر، أو كلّ سنة، فإنّه يغفر لك ما بينهما...» الخبر.

و في الخصال: بالإسناد عن أبي محمّد العسكري عن آبآئه عن عليّ عليهم السلام قال: إنّ رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لمّا جاءه جعفر بن أبيطالب من الحبشة قام إليه و استقبله اثنتى عشرة خطوة، و قبّل ما بين عينيه و بكى، و قال: «لاأدري بأيّهما أنا أشدّ سروراً: بقدومك يا جعفر أم بفتح اللّه على أخيك خيبر؟» و بكى فرحاً برؤيته».

و فيه: بإسناده عن الحسن بن زيد قال: سمعت جماعة من أهل بيتي يقولون: إنّ جعفر بن أبي‌طالب لمّا قدم من أرض الحبشة- و كان بها مهاجراً، و ذلك يوم فتح خيبر- قام النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقبّل بين عينيه، ثمّ قال: ما أدري بأيّهما أنا أسرّ، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر؟».

و في إعلام الورى بأعلام الهدى: «و لمّا فتح رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ خيبر أتاه البشير بقدوم جعفر بن أبي‌طالب و أصحابه من الحبشة إلى المدينة، فقال ﴿صلّى الله عليه و آله﴾: «ما أدري بأيّهما أسرّ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»

و فيه: عن جابر قال: لمّا قدم جعفر بن أبي‌طالب من أرض الحبشة تلقّاه رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فلمّا نظر جعفر إلى رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ حجل يعني مشى على رجل واحدة إعظاماً لرسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقبّل رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ مابين عينيه».

و فيه: و روى زرارة عن أبي جعفر ﴿عليه السلام﴾: أنّ رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لمّا استقبل جعفراً التزمه ثمّ قبّل عينيه، قال: و كان رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بعث قبل أن يسير إلى خيبر أرسل عمرو بن أُميّة الضّميرى (الضّمري خ) إلى النّجاشيّ عظيم الحبشة، و دعاه إلى الإسلام فأسلم، و كان أمر عمرواً أن يتقدّم بجعفر و أصحابه، فجهّز النّجاشيّ جعفراً و أصحابه بجهاز حسن و أمر لهم بكسوة و حملهم في سفينتين».

و في ربيع الأبرار للزّمخشري: «قدم جعفر بن أبي‌طالب رضي اللّه عنه على رسول اللّه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ من عند النجاشيّ و قد افتتح خيبر، فلقاه و اعتنقه و قبّل عينه، و قال: بأبي أنت و أمّي ما أدري بأيّهما أنا أسرّ؟ بفتح خيبر أو بقدوم جعفر؟».

﴿فتح خيبر و قصّة فدك﴾

في السّيرة النّبويّة لابن هشام: قال ابن إسحق: «ولمّا افتتح رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من حصونهم ما افتتح، و حاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حِصنيهم: الوَطيح و السُّلالم، و كان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بضع عشرة ليلة».

و فيه: و حاصر رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أهل خيبر في حِصْنيهم: الوطيح و السُّلالم، حتّى إذا أيقنوا بالهلكة سئلوه أن يسيّرهم (أي ينفيهم) و أن يُحِقن لهم دماءهم، ففعل، و كان رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد حاز الأموال كلّها: الشَّقّ و نَطَاةَ و الكتيبة و جميع حصونهم إلاّ ما كان من ذينك الحصنين، فلمّا سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يسئلونه أن يسيّرهم و أن يحقن دماءهم، و يخلّوا له الأموال، ففعل، و كان فيمن مشى بين رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بينهم في ذلك مُحيّصة بن مسعود أخوبني حارثة، فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك، سئلوا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أن يعاملهم في الأموال على النّصف، و قالوا: نحن أعلم بها منكم و أعمر لها، فصالحهم رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ على النّصف، على أنّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، و كانت فدك خالصةً لرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لأنّهم لم يجلبوا عليها بخيل و لاركاب».

و فيه: قال ابن إسحق: فلمّا فرغ رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) من خيبر انصرف إلى وادي القُرى، فحاصر أهله ليالى، ثمّ انصرف راجعاً إلى المدينة.

و فيه: عن أبي هريرة قال: فلمّا انصرفنا مع رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) عن خيبر إلى وادى القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشّمس، و مع رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) غلام له (إسمه: مدعم) أهداه له رِفاعة بن زيد الجذاميّ.

و فيه: قال ابن إسحق: فلمّا فرغ رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) من خيبر، قذف اللّه الرّعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أوقع اللّه تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) يصالحونه على النّصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطّآئف (بالطريق خ) أو بعد ما قدم المدينة، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) خالصةً لأنّه لم يُوجف (أي لم يجتمع) عليها بخيل ولاركاب».

و في إعلام الورى بأعلام الهدى: عن زرارة قال: قال الباقر(عليه السلام) -في حديث-: «فلمّا فرغ رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) من خيبر عقد لواء، ثمّ قال: «من يقوم، فيأخذ بحقّه؟» و هو يريد أن يبعث به إلى حوآئط فدك، فقام الزّبير إليه، فقال: أنا، فقال: «امط عنه» ثمّ قام سعد فقال: «امط عنه» ثمّ قال: «يا عليّ قم إليه فخذه» فأخذه فبعث به إلى فدك، فصالحهم على أن يحقن دمآءهم، فكانت حوآئط فدك لرسول اللّه خاصًّا خالصاً، فنزل جبرئيل(عليه السلام) فقال: إنّ اللّه عزّوجلّ يأمرك أن تؤتي ذاالقربى حقّه، قال: يا جبرئيل و من قراباتى؟ و ما حقّها؟ قال: فاطمة، فأعطها حوائط فدك، و مالله و لرسوله فيها، فدعا رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) فاطمة و كتب لها كتاباً جاءت به بعد موت أبيها إلى أبي‌بكر، و قالت: هذا كتاب رسول اللّه(صلّى الله عليه و آله) لي و لابنيّ».

و في المناقب لابن شهر آشوب السّرويّ المازندراني رضوان اللّه تعالى عليه: «فتح خيبر في المحرّم سنة سبع و لمّا رأت أهل خيبر عمل عليّ(عليه السلام) قال ابن أبي الحُقيق للنّبيّ(صلّى الله عليه و آله): أنزل فأُكلّمك؟ قال: نعم فنزل و صالح النّبيّ(صلّى الله عليه و آله) على حقن دمآء في حصونهم، و يخرجون منها بثوب واحد، فلمّا سمع أهل فدك قصّتهم بعثوا مُحَيِّصة بن

مسعود إلى النّبيّ﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ يسئلونه أن يسترهم بأثواب، فلمّا نزلوا سئلوا النّبيّ﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ أن يعاملهم الأموال على النّصف، فصالحهم على ذلك، و كذلك فعل بأهل خيبر».

و في **تاريخ الطّبري**: عن يعقوب بن عتبة قال: خرج عليّ بن أبيطالب﴿عليه‌السلام﴾ في مأة رجل إلى فدك إلى حيّ من بني سعد بن بكر، و ذلك أنّه بلغ رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر، فسار إليهم الليل و كمن النّهار، و أصاب عيناً فأقرّ لهم أنّه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر».

و في **المناقب**: «إلى بني عبداللّٰه بن سعد من أهل فدك» بدل «إلى حيّ من بين سعد بن بكر».

أقول: ففتحت فدك صلحاً لاعنوة و لا أسلم أهلها و لذا كانت من الأنفال المختصّة به﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾، ردّاً على بعض جهلة العامّة إذ زعمت: أنّه لم يفتح في زمان رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ مدينة من المدائن صلحاً بل أسلم أهلها أو فتحت عنوة. و قد ترك رسول اللّٰه﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ عند وفاته أموالاً خاصّة به كما كان في حياته منها فدك، و قد وهب النّبيّ الكريم﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ ابنته الصّدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهرآء سلام اللّٰه عليها بعض الأرض لتكون مورد رزق لاسرتها، و كان أهمّ ما تركه مزرعة فدك الّتي كانت ملكاً له﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ و كانت بيدها قبل وفاته﴿عَلَيْهِ‌وَآلِهِ﴾ ملكاً لها. و انّ فدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، و قيل: ثلاثة أيّام، و قيل: و هي من المدينة على ثلاثة أميال.

في **نهج البلاغة**:- من كتاب مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه‌السلام﴾ إلى عثمان بن حنيف الأنصارى-: «... بَلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السّمآء، فَشَحَّتْ عليها نفوس قوم، و سخت عنها نفوس قوم آخرين، و نعم الحكم اللّٰه! و ما أصنع بفدك و غير فدك، و النّفس مظانّها في غدٍ جَدَث؟...»

و في **علل الشّرائع**: بإسناده عن أبي‌بصير عن أبي عبداللّٰه﴿عليه‌السلام﴾ قال: قلت له: لِمَ لم يأخذ أميرالمؤمنين﴿عليه‌السلام﴾ فدك (فدكاً خ) لمّا ولّى النّاس؟ و لأيّ علّة تركها؟ فقال: لأنّ الظّالم و المظلومة قد كانا قدما على اللّٰه عزّوجلّ، و أثاب اللّٰه المظلومة، و عاقب الظّالم،

فكره أن يسترجع شيئاً قد عاقب اللّٰه عليه غاصبه. و أثاب عليه المغصوبة».

و في الخرائج و الجرائح: -الباب الأوّل في معجزات نبيّنا محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾- «و منها أنّ أباعبداللّٰه﴿عليه السلام﴾ قال: إنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ خرج في غزاة فلمّا انصرف راجعاً نزل في بعض الطّريق، فبينا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يطعم والنّاس معه إذ أتاه جبرئيل﴿عليه السلام﴾ فقال: يا محمّد قم فاركب، فقام النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فركب، و جبرئيل معه، فطويت له الأرض كطيّ الثّوب حتّى انتهى إلى فدك، فلمّا سمع أهل فدك وقع الخيل، ظنّوا أنّ عدوّهم قد جآءهم، فغلّقوا أبواب المدينة، و دفعوا المفاتيح إلى عجوز لهم في بيت لهم خارج المدينة، و لحقوا برؤوس الجبال، فأتى جبرئيل العجوز حتّى أخذ المفاتيح، ثمّ فتح أبواب المدينة، و دار النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ في بيوتها و قراها، فقال جبرئيل: يا محمّد هذا ما خصّك اللّٰه به و أعطاك دون النّاس و هو قوله: «ما أفآء اللّٰه على رسوله من أهل القرى فللّه و للرّسول و لذي القربى» الحشر: ٧).

و ذلك في قوله: «فما أوجفتم عليه من خيل و لاركاب ولكنّ اللّٰه يسلّط رسله على من يشآء» الحشر: ٦) و لم يغزو المسلمون و لم يطؤوها، ولكنّ اللّٰه أفآءها على رسوله، و طوّف به جبرئيل في دورها و حيطانها، و غلّق الباب و دفع المفاتيح إليه، فجعلها رسول اللّٰه في غلاف سيفه و هو معلّق بالرَّحل، ثمّ ركب وطويت له الأرض كطيّ الثّوب، فأتاهم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هم على مجالسهم لم يتفرّقوا و لم يبرحوا، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ للنّاس: قد انتهيت إلى فدك، و إنّي قد أفاءها اللّٰه عَلَيَّ.

فغمز المنافقون بعضهم بعضاً، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: هذه مفاتيح فدك، ثمّ أخرجها من غلاف سيفه، ثمّ ركب رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و ركب معه النّاس، فلمّا دخل على فاطمة عليها السلام فقال: يا بنيّة! إنّ اللّٰه قد أفآء على أبيك بفدك و اختصّه بها، فهي لي خاصّة دون المسلمين، أفعل بها ما أشآء و إنّه قد كان لأُمّك خديجة على أبيك مهر، و إنّ أباك قد جعلها لك بذلك، و نحلتكها (أنحلتك إيّاها خ) تكون لك ولولدك بعدك.

قال: فدعا بأديم عكاظيّ و دعا عليّ بن أبيطالب﴿ﻉ﴾ فقال: اكتب لفاطمة بفدك نحلة من رسول اللّٰه﴿ﺹ﴾ و شهد على ذلك عليّ بن أبيطاب و مولى لرسول اللّٰه، و أُمّ أيمن، فقال رسول اللّٰه﴿ﺹ﴾: إنّ أُمّ أيمن إمرأة من أهل الجنّة. و جآء أهل فدك إلى النّبيّ﴿ﺹ﴾ فقاطعهم على أربعة و عشرين ألف دينار في كلّ سنة».

قوله﴿ﻉ﴾: «بأديم» هو جلد مدبوغ، و «عكاظي» نسبة إلى سوق عكاظ لأنّه يحمل إليه فيباع هناك.

﴿غنائم خيبر و تقسيمها﴾

قال اللّٰه عزّوجلّ: «و مغانم كثيرة يأخذونها و كان اللّٰه عزيزاً حكيماً» الفتح: ١٩).

و قد اختلفت الرّوايات و كلمات المفسّرين و المحدّثين و المؤرّخين في غنائم خيبر و تقسيمها و ما يتعلّق بها لايسعها المقام، فنشير إلى نبذة منها روماً للاختصار:

في البحار: - عن الخرائج -: «روي أنّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لمّا صار (سار خ) إلى خيبر، كانوا قد جمعوا حلفآءهم من العرب من غطفان أربعة آلاف فارس، فلمّا نزل ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بخيبر سمعت غطفان صائحاً يصيح في تلك اللّيلة: يا معشر غطفان الحقوا حيّكم، فقد خولفتم إليهم و ركبُوا من ليلتهم، و صاروا إلى حيّهم من الغد، فوجدوهم سالمين، قالوا: فعلمنا أنّ ذلك من قبل اللّٰه ليظفر محمّد بيهود خيبر، فنزل ﴿صلى الله عليه و آله﴾ تحت شجرة، فلمّا انتصف النّهار نادى مناديه، قالوا: فاجتمعنا إليه، فإذاً عنده رجل جالس، فقال: عليكم هذا جآءني و أنا نآئم و سلّ سيفي، و قال: من يمنعك منّي؟

قلت: اللّٰه يمنعني منك، فصار كما ترون لاحراك به، فقال: دعوه و لم يعاقبه، و لمّا فتح عليّ ﴿عليه السلام﴾ حصن خيبر الأعلى بقيت لهم قلعة فيها جميع أموالهم و مأكولهم، و لم يكن عليها حرب بوجه من الوجوه، نزل رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ محاصراً لمن فيها، فصار إليه يهوديّ منهم، فقال: يا محمّد تؤمنني على نفسي و أهلي و مالي و ولدي حتّى أدلّك على فتح القلعة، فقال له النّبيّ ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أنت آمن، فما دلالتك؟ قال: تأمر أن يحفر هذا الموضع،

فإنّهم يصيرون إلى ماء أهل القلعة، فيخرج و يبقون بلا ماء و يسلمون إليك القلعة طوعاً.

فقال رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾: أو يحدث اللّه غير هذا و قد أمنّاك. فلمّا كان من الغد ركب رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بغلته و قال للمسلمين: اتّبعوني، و سار نحو القلعة، فأقبلت السّهام والحجارة نحوه و هي تمرّ عن يمنته و يسرته، فلا تصيبه و لا أحداً من المسلمين شيء منها حتّى وصل رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلى باب القلعة، فأشار بيده إلى حائطها، فانخفض الحائط حتّى صار من (مع خ) الأرض و قال للنّاس: ادخلوا القعلة من رأس الحآئط بغير كلفة».

قوله: «فقد خولفتم إليهم» أي أنّي عدوّكم حيّكم مخالفين لكم في الطّريق. في القاموس: هو يخالف فلانة: أي يأتيها إذا غاب زوجها.

و في **أمالي ابن الشّيخ:** بإسناده عن عليّ بن موسى بن الحسن عن أبيه عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبآئه عليهم السلام أنّ رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ دفع خيبر إلى أهلها بالشّطر، فلمّا كان عند الصّرام بعث عبداللّه بن رواحة فخرصها عليهم، ثمّ قال: «إن شئتم أخذتم بخرصنا و إن شئنا أخذنا و احتسبنا لكم؟» فقالوا: هذا لحقّ بهذا قامت السّموات و الأرض».

و في **فروع الكافي:** بإسناده عن الحلبيّ قال: أخبرني أبوعبداللّه ﴿عليه السلام﴾ أنّ أباه ﴿عليه السلام﴾ حدّثه أنّ رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أعطى خيبر بالنّصف أرضها و نخلها، فلمّا أدركت الثّمرة بعث عبداللّه بن رواحة فقوّم عليهم قيمة ، فقال لهم: «إمّا أن تأخذوه و تعطوني نصف الثّمر، و إمّا أعطيتكم نصف الثّمر و آخذه» فقالوا: بهذا قامت السّموات والأرض».

و **فيه:** بإسناده عن أبي الصّباح قال: سمعت أبا عبداللّه ﴿عليه السلام﴾ يقول: إنّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لمّا افتتح خيبر تركها في أيديهم على النّصف، فلمّا بلغت الثّمرة بعث عبداللّه ابن رواحة إليهم فخرص عليهم، فجآؤا إلى النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقالوا له: إنّه قد زاد علينا فأرسل إلى عبداللّه، فقال: «ما يقول هؤلآء؟» قال: قد خرصت عليهم بشيء، فإن شاؤا

يأخذون بما خرصت، و إن شآؤا أخذنا، فقال رجل من اليهود: بهذا قامت السّموات والأرض».

و في الخرائج: «روي عن عليّ﴿؏﴾ قال: لمّا خرجنا إلى خيبر فإذاً نحن بواد ملأن (ملآ خ) ماء فقدّرناه فإذاً هو أربعة عشر قامة، فقال النّاس: يا رسول اللّٰه العدوّ من ورآئنا، و الوادي أمامنا، كما قال أصحاب موسى: «إنّا لمدكون» فنزل﴿ص﴾ فقال (ثمّ قال خ): «اللّهم إنّك جعلت لكلّ مرسل علامة فأرنا من قدرتك (قدرتك خ) فركب و عبرت الخيل و الإبل لاتندي حوافرها و لاأخفافها، ففتحوه ثمّ أُعطي بعده في أصحابه حين عبور و عمرو بن معدي كرب بالمدائن و البحر بجيشه».

و فيه: روي أنّه لمّا انصرف رسول اللّٰه﴿ص﴾ من خيبر راجعاً إلى المدينة، قال جابر: أشرفنا على وادٍ عظيم قد امتلأ بالمآء فقاسوا عمقه برمح فلم يبلغ قعره، فنزل رسول اللّٰه﴿ص﴾ و قال: «اللّهمّ أعطنا اليوم آية من آيات أنبيآئك و رسلك» ثمّ ضرب المآء بقضيبه و استوى على راحلته، ثمّ قال: سيروا خلفي باسم (على اسم) اللّٰه فمضت راحلته على وجه المآء، فاتّبعها النّاس على رواحلهم و دوابّهم فلم يترطب أخفافها ولاحوافرها».

و في تاريخ الطّبري: عن عبداللّٰه بن أبي‌بكر قال: كان رسول اللّٰه﴿ص﴾ يبعث إلى أهل خيبر عبداللّٰه بن رواحة خارصاً بين المسلمين و يهود، فيخرص عليهم، فإذا قالوا: تعدّيت علينا قال: إن شئتم فلكم، و إن شئتم فلنا، فتقول يهود: بهذا قامت السّموات والأرض، و إنّما خرص عليهم عبداللّٰه بن رواحة، ثمّ أُصيب بمؤتة فكان جبار بن صخر بن خنسآء أخو بني سلمة هو الّذي يخرص عليهم بعد عبداللّٰه بن رواحة، فأقامت يهود على ذلك لايرى بهم المسلمون بأساً في معاملتهم حتّى عدوا في عهد رسول اللّٰه﴿ص﴾ على عبداللّٰه بن سهل أخي بني حارثة فقتلوه فاتّهمهم رسول اللّٰه﴿ص﴾ و المسلمون عليه».

و فيه: عن ابن إسحق قال: سئلت ابن شهاب الزّهري كيف كان إعطآء رسول اللّٰه﴿ص﴾ يهود خيبر نخيلهم حين أعطاهم النّخل على خَرْجها أبَتَّ ذلك هم حتّى

قُبِضَ أم أعطاهم إيّاهم لضرورة من غير ذلك، فأخبرني ابن شهاب أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ افتتح خيبر عنوة بعد القتال و كانت خيبر ممّا أفآء اللّٰه على رسوله، خمّسها رسول اللّٰه و قسّمها بين المسلمين، و نزل من نزل من أهلها على الاجلاء بعد القتال، فدعاهم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال: إن شئتم دفعنا إليكم هذه الأموال على أن تعملوها و تكون ثمارها بيننا و بينكم، و أقرّكم ما أقرّكم اللّٰه، فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها، و كان رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ يبعث عبداللّٰه بن رواحة فيَقسِمُ ثَمَرها، و يعدل عليهم في الخرص، فلمّا توفّى اللّٰه عزّوجلّ نبيّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ أقرّها أبوبكر بعد النّبيّ في أيديهم على المعاملة الّتي كان عاملهم عليها رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾.

حتّى توفّى ثمّ أقرّها عمر صَدْراً من إمارته، ثمّ بلغ عمر أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال في وجعه الّذي قبض فيه: لايجتمعنّ بجزيرة العرب دينان، فَفَحَصَ عمر عن ذلك حتّى بلغه الثّبت، فأرسل إلى يهود أنّ اللّٰه قد أذن في إجلائكم، فقد بلغني أنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال: لايجتمعنّ بجزيرة العرب دينان، فمن كان عنده عَهْدٌ من رسول اللّٰه فليأتني به أُنفذه له، و من لم يكن عنده عهد من رسول اللّٰه من اليهود فليتجهّز للجلاء فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ منهم».

و **في أمالي ابن الشّيخ**: بالاسناد عن عروة بن الزّبير و مسور بن مخرمة أنّ نبيّ اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ لمّا افتتح خيبر و قسّمها على ثمانية عشر سهماً كانت الرّجال ألفاً و أربعمأة رجل، و الخيل مأتي فرس، و أربعمأة سهم للخيل كلّ سهم من الثّمانية عشر سهماً مأة سهم، و لكلّ مأة سهم رأس، فكان عمر بن الخطّاب رأساً، و عليّ رأساً، و طلحة رأساً والزّبير رأساً، و عاصم بن عديّ رأساً، فكان لهم النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ مع عاصم بن عديّ».

و **في السّيرة النّبويّة لابن هشام**: قال ابن إسحق: و شهد خيبر مع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ نسآء من نسآء المسلمين، فرضخ لهنّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ من الفئ، و لم يضرب لهنّ بسهم».

قوله: «فرضخ لهنّ» أعطاهنّ عطآء يسيراً، لم يصل إلى نصيب السّهم.

و فيه: قال ابن اسحق: و كانت المقاسم على أموال خيبر، على الشَّقِّ و نَطَأة و

الكتيبة، فكانت الشّقّ و نطاة في سُهمان المسلمين، و كانت الكتيبة خُمْسَ اللّٰه و سهم النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و سهم ذوى القربى و اليتامى و المساكين، و طُعم أزواج النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و طُعم رجالٍ مشوا بين رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ و بين أهل فدك بالصّلح، منهم محيّصة بن مسعود، أعطاه رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ ثلاثين وَسْقاً من شعير (الوَسْق: ستّون صاعاً أو حمل بعير) و ثلاثين وَسْقاً من تمر، قُسِمَتْ خيبر على أهل الحديبيّة، مَن شهد خيبر و من غاب عنها، و لم يغب عنها إلاّ جابر ابن عبداللّٰه بن عمرو بن حرام، فقسم له رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ كسهم مَن حَضَرها و كان وادياً، وادي السُّرَير و وادى خاص (خُلَص) و هما اللّذان قُسِمَتْ عليهما خيبر، و كانت نطاة و الشّق ثمانية عشر سهماً، نطاة من ذلك خمسة أسهم، و الشّقّ ثلاثة عشر سهماً، و قُسِمَت الشّقّ و نطاة على ألف سهم و ثمان مأة سهم.

و كانت عِدّة الّذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ ألف سهم و ثمان مأة سهم برجالهم وخيلهم، الرّجال أربع عشرة مأة، و الخيل مأتا فرس، فكان لكلّ فرس سهمان، ولفارسه سهم، و كان لكلّ راجل سهم، فكان لكلّ سهم رأسٌ جُمِعَ إليه مأة رجل، فكانت ثمانية عشر سهماً جُمِعَ.

﴿قصّة الشّاة المسمومة في خيبر و رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ﴾

و قد وقعت قصّة الشّاة المسمومة من امرأة يهوديّة في خيبر بعد صلح فدك.

في تاريخ الطّبري، و السّيرة النّبويّة لابن هشام و غيرهما: «فلمّا اطمأنّ رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ - بعد صلح فدك - أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلاّم بن مِشْكم، شاةً مَصْلِيَّةً - أي مشويّة - و قد سئلت أيّ عضو من الشّاة أحبّ إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾؟ فقيل لها: الذّراع، فأكثرت فيها السّمّ، فسمّت سائر الشّاة، ثمّ جاءت بها، فلمّا وضعتها بين يدي رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ تناول الذّراع، فأخذها، فلاك منها مضغة، فلم يُسِغْها و معه بِشْر بن البراء ابن معرور، و قد أخذ منها كما أخذ رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

فأمّا بشر فأساغها، و أمّا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فلفظها، ثمّ قال: إنّ هذا العَظْم ليخبرني أنّه مسموم، ثمّ دعا بها، فاعترفت، فقال ﴿ﷺ﴾: ما حملك على ذلك؟ قالت! بلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك، فقلت: إن كان نبيًّا فسيُخْبَر، و إن كان مَلِكاً استرحتُ منه، فتجاوز عنها رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ و مات بِشر بن البراء من أكلته الّتي أكل.

قال ابن إسحق: و حدّثني مروان بن عثمان بن أبي سعيد بن المُعَلّىٰ، قال: و قد كان رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ قال في مرضه الّذي توفّى فيه، و دخلت أُمّ بِشر بنت البراء بن معرور تعوده: يا أُمّ بشر إنّ هذا الأوان وجدتُ فيه انقطاع أبهري من الأكلة الّتي أكلت مع أخيك. بخيبر، قال: و كان المسلمون يرون أنّ رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ مات شهيداً مع ما أكرمه اللّه به من النّبوّة».

قوله: «أبهري» الأبهرى: عرق إذا انقطع مات صاحبه، و هما أبهران يخرجان من القلب، ثمّ يتشعّب منهما سائر الشّرايين.

و إنّ بشر بن البراء ابن معرور الّذي مات من الشّاة المسمومة الّتي سمّ فيها رسول اللّه ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ كان من الأنصار من بني سلمة.

في ربيع الأبرار: «حموا عند فتح خيبر، فشكوا إلى رسول اللّه ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ فقال: يا أيّها النّاس! إنّ الحمى رائد الموت، و سجن اللّه في الأرض، و قطعة من النّار، فإذا وجدتم من ذلك شيئاً فبردوا لها الماء في الشّنان، ثمّ صبّوا عليكم فيما بين المغرب و العشآء، ففعلوا ذلك، فذهبت عنهم».

﴿ قصّة إسلام الرّاعي، و إخبار فتح خيبر بقريش ﴾

في السّيرة النّبويّة لابن هشام، قال إبن اسحق: و كان من حديث الأسود الرّاعي. فيما بلغني: أنّه أتى رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله) و هو محُاصر لبعض حصون خيبر، و معه غنم له، كان فيها أجيراً لرجل من يهود، فقال: يا رسول اللّه: اعرض عَلَيَّ الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم- و كان رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله) لايَحْقِر أحداً أن يَدْعوه إلى الاسلام و يعرضه عليه فلمّا أسلم، قال: يا رسول اللّه إنّي كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، و هي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟

قال (صلّى الله عليه وآله): اضرب في وجوهها، فإنّها سترجع إلى ربّها- أو كما قال- فقام الأسود، فأخذ حَفْنَةً من الحصى، فرمى بها في وجوهها، و قال: ارجعي إلى صاحبك، فواللّه لاأصحبك أبداً، فخرجت مجتمعة كأنّ سآئقاً يسوقها، حتّى دخلت الحِصْن، ثمّ تقدّم إلى ذلك الحِصْن ليُقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله، و ما صلّى للّه صلاة قطّ. فأتى به رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله) فوُضِع خلفه، و سُجِّيَ بشَمْلَة كانت عليه، فالتفت إليه رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله) و معه نفر من أصحابه، ثمّ أعرض عنه، فقالوا: يا رسول اللّه، لِمَ أعرضتَ عنه؟ قال: إنّ معه الآن زوجتيه من الحور العين.

قال ابن إسحق: و أخبرني عبداللّه بن أبي نجيع أنّه ذُكِرَ له: أنّ الشّهيد إذا ما أُصيب تدلّت له زوجتاه من الحور العين، عليه تنفضان التّراب عن وجهه، و تقولان: تَرَّب اللّه وَجْهَ من ترّبك و قتل مَن قتلك».

و فيه و في تأريخ الطّبري: قال ابن إسحق: و لمّا فُتِحَتْ خيبر كلّم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ الحجّاج بن غِلاط السُّلَمي ثمّ البَهْزي، فقال: يا رسول اللّه: إنّ لي بمكّة مالاً عند صاحبتي أُمّ شيبة بنت أبي طلحة، و كانت عنده، له منها مُعَرِّض بن الحجّاج، و مال متفرّق (مفترق خ) في تجّار أهل مكّة، فأذن لي يا رسول اللّه، فأذن له رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ثمّ قال: إنّه لابدّلي يا رسول اللّه من أن أقول، قال﴿ﷺ﴾: قل، قال الحجّاج: فخرجت حتّى إذا قدمت مكّة، فوجدت بثنية البيضآء (أي ثنية التّنعيم بمكّة) رجالاً من قريش يتسمّعون الأخبار، و يسئلون عن أمر رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و قد بلغهم أنّه قد سار إلى خيبر، و قد عرفوا أنّها قرية الحجاز، ريفاً و منعة و رجالاً، فهم يتحسّسون الأخبار، و يسئلون الرّكبان، فلمّا رأوني قالوا: الحجّاج بن غلاط، قال: و لم يكونوا علموا بإسلامي عنده، و اللّه الخبر، أخبرنا يا أبا (بأمر) محمّد، فإنّه قد بلغنا أنّ القاطع قد سار إلى خيبر، و هي بلدة يهود و ريف الحجاز.

قال: قلت: قد بلغني ذلك و عندي من الخبر ما يسرّكم قال: فالتبطوا بجنبي ناقتي.

(التبطوا بجنب ناقتي: مشوا إلى جنبها ملازمين لها، مطيفين بها كمشي العرجان، لازدحامهم حولها) يقولون: إيهِ يا حجّاج، قال: قلت: هُزِموا هزيمة لم تسمعوا بمثلها قطّ، و قُتِلَ أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قطّ، و أسر محمّد أسراً، و قالوا: لن نقتله حتّى نبعث به إلى أهل مكّة، فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم، قال: فقاموا و صاحوا بمكّة، و قالوا: قد جآءكم الخبر، و هذا محمّد إنّما تنتظرون أن يُقدَم به عليكم، فيُقتَل بين أظهرُكم، قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكّة و على غرمآئي، فإنّي أُريد أن أقدم خيبر، فأُصيب من فلّ (الفلّ: القوم المنهزمون) محمّد و أصحابه قبل أن يسبقني التّجّار إلى ما هنا لك.

قال: فقاموا فجمعوا لي مالي كأحثّ (كأسرع) جَمْع سمعت به، فجئت صاحبتي، فقلت: مالي و قد كان لي عندها مال موضوع، لعلّي ألحق بخيبر، فأُصيب من فُرض البيع قبل أن يسبقني إليه التّجار، فلمّا سمع العبّاس بن عبدالمطلب الخبر، و جاءه عنّي، أقبل حتّى وقف إلى جنبي و أنا في خيمة من خيام التّجّار، فقال: يا حجّاج ما هذا الخبر الّذي جئت به؟ قال: فقلت: و هل عندك حِفْظٌ لما وَضَعْتُ عندك؟

قال: نعم، قلت: فاستأخر عنّي حتّى ألقاك على خلاء فإنّي في جمع مالي كما ترى، فانصرف عنّي حتّى افرغ، قال: حتّى إذا فرغت من جمع كلّ شيئ كان لي بمكّة، و أجمعت الخروج، لقيت العبّاس، فقلت: احفظ عَلَيَّ حديثي يا أباالفضل، فإنّي أخشي الطّلب ثلاثاً، ثمّ قل ما شئت، قال: أفعل، قلت: فإنّي و اللّٰه لقد تركت ابن أخيك عروساً على ابنة مَلِكهم، يعني صفيّة بنت حُيَّي بن أخطب، و لقد افتتح خيبر و انتثل (أي استخرج) ما فيها، و صارت له و لأصحابه، فقال: ما تقول يا حجّاج؟

قال: قلت: إي اللّٰه فاكتم عنّي، و لقد أسلمت و ما جئت إلاّ لآخذ مالي، فَرَقاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث، فأظهر أمرك، فهو و اللّٰه على ما تحبّ، قال: حتّى إذا كان اليوم الثّالث لبس العبّاس حُلّة له، و تخلّق (أي تطيّب بالخلوق و هو ضرب من الطّيب) و أخذ عصاه ثمّ خرج حتّى أتى الكعبة، فطاف بها، فلمّا رأوه قالوا: يا أباالفضل! هذا واللّٰه التجلّد لحرّ المصيبة! قال: كلاّ و اللّٰه الّذي حلفتم به لقد افتتح محمّد خيبر و ترك عروساً على بنت مَلِكهم، و أحرز أموالهم و ما فيها، فأصبحت له و لأصحابه، قالوا: من جآءك بهذا الخبر؟ قال: الّذي جآءكم بما جآءكم به.

و لقد دخل عليكم مُسلِماً، فأخذ ماله، فانطلق ليلحق بمحمّد و أصحابه، فيكون معه، قالوا: يا لعباد اللّٰه ما انفلت عدوّ اللّٰه أما واللّٰه لو علمنا لكان لنا و له شأن، و لم ينشبوا (أي لم يلبثوا غير قليل) أن جآءهم الخبر بذلك.

قال ابن إسحق: و كان ممّا قيل من الشّعر في يوم خيبر قول حسّان بن ثابت:

بئسما قاتلت خيابر عمّا ... جمعوا من مزارع و نخيل
كرهوا الموت فاستُبيح حِماهم ... و أقرّوا فِعْل اللّئيم الذّليل
أمن الموت يهربون فإنّ ... الموت موت الهُزال غير جميل

قوله: «خيابر»: جمع خيبر، و المراد: أهل خيبر.

﴿رسول الله (صلى الله عليه وآله) و عمرة القضآء﴾

قال اللّه تعالى: «لقد صدق اللّه رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّه آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم‌تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» الفتح: ٢٧).

و اعلم أنّ رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) اعتمر ثلاث عمر كلّها في ذي القعدة، يرجع في كلّها إلى المدينة، منها العمرة الّتي صدّ فيها الهدى، فنحره في محلّه عند الشّجرة في الحديبيّة عام ستّ، و شارطوه أن يأتي في العام المقبل معتمراً، فيدخل مكّة، فيطوف بالبيت ثلاثة أيّام، ثمّ يخرج ولا يحبسون عنه أحداً قدم معه (صلى الله عليه وآله) و لايخرج هو (صلى الله عليه وآله) من مكّة بأحد كان فيها قبل قدومه من المسلمين.

ثمّ اعلم أنّ ملخّص ما جآء في كتب التّفسير و الحديث و التأريخ و السّيرة من قصّة عمرة القضآء ما يلي: لمّا رجع رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) من خيبر بعد فتحها إلى المدينة المنوّرة أقام بها، ثمانية أشهر من ربيع الأوّل إلى شوّال عام سبع، و كان (صلى الله عليه وآله) يبعث فيما بين ذلك من غزوه و سراياه، ثمّ خرج حسب وثيقة الصّلح إلى مكّة المكرّمة في ذي‌القعدة في الشّهر الّذي صدّه فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته الّتي صدّوه عنها في السّنة الماضية.

و قد خرج النّبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) على رأس ألفين من أصحابه، كان معظمهم ممّن

شهدوا صلح الحديبية و لحقته﴿ﷺ﴾ جماعة من أهالي الحديبيّة، فأحرم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ من ذي الحليفة (مسجد الشّجرة) و ساق معه في هذه العمرة ستّين بدنة، و حمل السّلاح و البيض و الرّماح، و قاد مأة فرس، و استعمل على السّلاح بشير بن سعد. و على الخيل محمّد بن مسلمة، و سار بأصحابه ملبّين مهلّلين، فلمّا قرب من مرّ الظّهران بعث بشير بن سعد و محمّد بن مسلمة بالسّلاح و الخيل أمامه، فبلغ ذلك قريشاً، فرعبوا رعباً شديداً، و ظنّوا أنّه﴿ﷺ﴾ جاء يعزوهم ناكثاً للعهد الّذي بينه﴿ﷺ﴾ و بينهم، فأخبروا سآئر مشركي مكّة.

فلمّا جآء النّبيّ﴿ﷺ﴾ فنزل بمرّ الظّهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السّلاح من القسي و النّبل و الرّماح إلى بطن ياجج، و سار إلى مكّة بالسّيوف المغمدة في قربها كما شارطهم من قبل، فلمّا كان أثناء الطّريق بعث قريش مكرز بن حفص بن الأخيف، فلقاه﴿ﷺ﴾ أثنآء الطّريق، فقال﴿ﷺ﴾: يا محمّد! ما عرفناك تنقض العهد! فقال﴿ﷺ﴾: و ما ذاك؟ قال: دخلت علينا بالسّلاح و القسي و الرّماح! فقال﴿ﷺ﴾: لم يكن ذلك، و قد بعثنا به إلى ياجج فقال: بهذا عرفناك بالبرّ و الوفاء، فرجع مكرز إلى قريش فأخبرهم.

فلمّا سمع به أهل مكّة خرجت رؤوسهم منها إلى رؤوس الجبال لئلاّ يشاهدوا مشهد دخول النّبيّ﴿ﷺ﴾ و أصحابه مكّة، غيظاً و حنقاً، و تحدّثوا بينهم أنّ محمّداً و أصحابه في عُسْرٍ و جُهد و حاجة، و قد دخل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ مكّة في هذه العمرة، و بين يديه أصحابه يلبّون و يهلّلون، و قد بعث هديه إلى ذي طوى و هو﴿ﷺ﴾ راكب ناقته القصوآء الّتي راكبها يوم الحديبيّة، دخلها﴿ﷺ﴾ حين كان عبداللّٰه ابن رواحة الأنصاري آخذاً بزمام ناقته يقودها، و يرتجز:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله إنيّ شهيد أنّه رسوله
خلّوا فكلّ الخير مع رسوله يا ربّ إنّي مؤمن بقيله
أعرف حقّ اللّٰه في قبوله نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيله
و يُذهل الخليل عن خليله

فهتف النّبيّ﴿ﷺ﴾: بل قل: «لا إله إلاّ اللّٰه وحده وحده وحده، و نصر عبده، و أعزّ جنده، و هزم الأحزاب وحده» فقالها فردّدها المسلمون.

ثمّ هتف رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بأصحابه: «رحم اللّٰه امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة».

و أمّا بقيّة أهل مكّة من الرّجال و النّسآء و الصّبيان، فجماعة منهم جلسوا في الطّريق، و على البيوت، واخرى اصطفّوا لرسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ عند دار النّدوة لينظروا إليه﴿ﷺ﴾ و إلى أصحابه، و يشاهدوا مشهد دخوله﴿ﷺ﴾ و دخولهم المسجد، مكبّرين و مهلّلين، فلمّا دخل النّبيّ﴿ﷺ﴾ المسجد، أقبل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ وأصحابه نحو الكعبة المعظّمة، و اضطبع بردآئه و أخرج عضده اليمنى، ثمّ استلم الرّكن، و استلم الرّكن اليماني، مشى حتّى يستلم الحجر الأسود، فطاف﴿ﷺ﴾ و أصحابه بالكعبة و ارتقى بلال فوقها، فأذّن للصّلاة.

هكذا صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ، فتحقّق الوعد الرّبّاني، فتمّت الزّيارة في العام القابل حسب الاتّفاق بين رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و قريش، رغماً على الطّاعنين المنافقين المعترضين على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في صلح الحديبيّة، و على رؤوسهم عمر بن الخطّاب، فرأى المسلمون طقوسها آمنين مطمئنّين، و قد كان ذلك معجزة من معجزات القرآن الكريم. و قد سمّيت هذه الزّيارة في كتب التّفسير و الحديث و السّيرة بعمرة القضآء مكان عمرته الّتي صدّوه﴿ﷺ﴾ عنها.

و يقال لها: عمرة القصاص لأنّ مشركي مكّة صدّوا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في ذي القعدة في الشّهر الحرام من سنة ستّ، فاقتصّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ منهم، فدخل مكّة في ذي‌القعدة في الشّهر الحرام الّذي صدّوه فيه من سنة سبع. و يقال لها أيضاً: عمرة القضيّة و عمرة الصّلح.

﴿ توقّف رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمكّة في عمرة القضآء و ما وقع فيها ﴾

لمّا أقام رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمكّة المكرّمة ثلاثة أيّام يطوف بالبيت، أتى حُوَيطب بن عبدالعزّى بن أبي قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل في نفر من قريش في اليوم الثّالث عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ قريباً من الظّهر، و كانت قريش قد وكلت حُوَيطب بن عبدالعزّى بإخراج رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من مكّة بعد ثلاثة أيّام، فقالوا لعليّ﴿عليه السلام﴾: قل لصاحبك محمّد: إنّ قومك قد آذاهم مقامك بمكّة، قد انقضى أجلك، فاخرج منها، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لعليّ﴿عليه السلام﴾: قل لهم من قِبَلي: ما عليكم لو تركتموني، فأعرستُ بين أظهركم، فصنعنا لكم طعاماً، فحضرتموه؟ قالوا: لاحاجة لنا في طعامك، فاخرج عنّا، فنودي في النّاس: لاتغرب الشّمس و فيها أحد من المسلمين قدم مع محمّد.

فخرج رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و خلف أبا رافع مولاه على ميمونة حتّى أتاه بها فبنى عليها رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ هنا لك، ثمّ انصرف رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى المدينة في ذي الحجّة.

و قد تزوّج رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ميمونة بنت الحارث الهلالية في هذه السّفرة، و قد زوّجها إيّاه﴿صلى الله عليه و آله﴾ العبّاس بن مطلّب.

في المجمع: «و كذلك جرى الأمر في عمرة القضآء في السّنة التّالية للحديبيّة و هي سنة سبع من الهجرة في ذي القعدة، و هو الشّهر الّذي صدّه فيه المشركون عن المسجد الحرام، فخرج النّبيّ ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ و دخل مكّة مع أصحابه معتمرين، و أقاموا بمكّة ثلاثة أيّام، ثمّ رجعوا إلى المدينة.

و عن الزّهري قال: بعث رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ جعفر بن أبي‌طالب ﴿عليه السلام﴾ بين يديه إلى ميمونة بنت الحرث العامريّة، فخطبها عليه، فجعلت أمرها إلى العبّاس بن عبدالمطّلب و كان تحته اختها اُمّ الفضل بنت الحرث، فزوّجها العبّاس رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ فلمّا قدم رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ أمر أصحابه، فقال: اكشفوا عن المناكب و اسعوا في الطّواف ليرى المشركون جلدهم و قوّتهم، فاستكفّ أهل مكّة الرّجال و النّساء و الصّبيان ينظرون إلى رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ و أصحابه، و هم يطوفون بالبيت، و عبداللّه بن رواحة يرتجز بين يدي رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ متوشّحاً بالسّيف يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله — قد أنزل الرّحمن في تنزيله
في صحف تتلیٰ على رسوله — اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربنا كم على تنزيله — ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيله
و يُذهِل الخليلَ عن خليله — يا ربّ إنّي مؤمن لقيله
إنّي رأيت الحقّ في قبوله

و يشير بيده إلى رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ و أنزل اللّه في تلك العمرة: «الشّهر الحرام بالشّهر الحرام» و هو أنّ رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ اعتمر في الشّهر الحرام الّذي صُدّ فيه».

و في إعلام الورى بأعلام الهدى: «ثمّ بعث رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ بعد غزوة خيبر فيما رواه الزّهريّ عبداللّه بن رواحة في ثلاثين راكباً فيهم عبداللّه بن أنيس إلى البشير بن رزام اليهوديّ لمّا بلغه أنّه يجمع غطفان ليغزوبهم، فأتوه فقالوا: إنّا أرسلنا إليك رسول اللّه ﴿صلّی اللّه علیه و آله﴾ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به، حتّى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كلّ رجل منهم رديف من المسلمين، فلمّا صاروا ستّة أميال ندم البشير فأهوى بيده إلى سيف عبداللّه بن أنيس، ففطن له عبداللّه فزجر بعيره، ثمّ اقتحم يسوق بالقوم حتّى إذا

استمكن من البشير ضرب رجله فقطعها، فاقتحم البشير و في يده مخرش من شوحط، فضرب به وجه عبدالله فشجّه مأمومة، و انكفأ كلّ رجل من المسلمين على رديفه، فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شدّاً و لم يصب من المسلمين أحد، و قدموا على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فبصق في شجّة عبدالله بن أنيس، فلم تؤذه حتّى مات.

و بعث غالب بن عبدالله الكلبي إلى أرض بني مرّة فقتل و أسر، و بعث عيينة بن حصن البدريّ إلى أرض بني العنبر، فقتل و أسر.

ثمّ كانت عمرة القضّاء سنة سبع اعتمر رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و الّذين شهدوا معه الحديبيّة، و لمّا بلغ قريشاً ذلك خرجوا متبدّدين، فدخل مكّة و طاف بالبيت على بعيره، بيده محجن يستلم به الحجر، و عبدالله بن رواحة أخذ بخطامه و هو يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله خلّوا فكلّ الخير في رسوله

إلى آخر الأبيات...

و أقام بمكّة ثلاثة أيّام تزوّج بها ميمونة بنت الحارث الهلاليّة، ثمّ خرج فابتنى بها بسَرِف، و رجع إلى المدينة، فأقام بها حتّى دخلت سنة ثمان».

قوله: «مخرش» عصاء معوّجة الرّأس كالصّولجان، «شوحط»: ضرب من شجر الجبال يتّخذ منه القسيّ، و «مأمومة» شجّة أمّ الرّأس، و «انكفاء»: مال.

و في فروع الكافي: بإسناده عن الحسن بن عليّ الصّيرفيّ عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: إنّ رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في عمرة القضآء شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصّفا و المروة فتشاغل رجل حتّى ترك السّعي حتّى انقضت الأيّام و أُعيدت الأصنام، فجاؤا إليه فقالوا: يا رسول الله إنّ فلاناً لم يسع بين الصّفا و المروة، و قد أُعيدت الأصنام، فأنزل الله عزّوجلّ: «فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما» أي و عليهما الأصنام».

﴿قصّة فتح مكّة و تنقيحها﴾

قال اللّٰه تعالى: «لقد صدق اللّٰه رسوله الرّؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شآء اللّٰه آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» الفتح: ٢٧).

و لقد اختلفت كلمات المفسّرين، و تضاربت آرآء أصحاب التّأريخ و السِّيَر ... في قصّة فتح مكّة المكرّمة، و ما وقع في هذا الفتح من الحوادث و القضايا... المختلفة المتضاربة الّتي لايعتمدها على إطلاقها من له أدنى مسكة و دراية، و طيب ولادة...

حيث إنّ أكثر القصص التّأريخية و وقآئعها و حوادثها و السّيرة الّتي نقلها مفسّروا العامّة و مؤرّخوهم، و هم مردة الخلفآء الغاصبين و أُجراء الحكّام الجابرين، و عملآء الطّواغيتِ المستكبرين، فيكتبون ما يريده الغاصبون، و يشآئه الجابرون، يحبّه المستكبرون كما هو دأب أكثر المؤرّخين و أصحاب السّير في كلّ ظرف من الظّروف حتّى في زماننا هذا لا ما هو الواقع، ثمّ ينقلها غيرهم و يكتبونها من دون تدبّر و لا دراية، فيتلقّاها أكثر النّاس بقبول حسن، و يرجّحونها حتّى على الكتاب المجيد و السّنّة الثّابتة عن طريق أهل بيت النّبوّة صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

و في **نهج البلاغة**:- و من كتاب مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ إلى معاوية بن أبي‌سفيان جواباً عن كتابه-: «و ما أسلم مسلمكم إلاّ

كَرْهاً، و بعد أن كان أنف الإسلام كلّه لرسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ حِزْباً...»

و ذلك أنّ أباسفيان و أهله من بني عبد شمس كانوا أشدّ النّاس عقدةً و عداوةً و عناداً و لجاجة على رسول اللّـه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ في أوّل البعثة إلى أن فتح اللّـه جلّ وعلا لرسوله ﴿صلی الله علیه و آله﴾ مكّة و استمرّت حتّى اليوم من أخلافهم...

و نحن نشير هنا إلى قصّة فتح مكّة - ملخّصاً - ما هو الأوفق بالكتاب الكريم والرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي المعصومين عليهم السلام بعد تنقيحها من مختلقات العملاء الوضّاعين، و تهذيبها من خرافات الأُجرآء الكذّابين، مع تبويبها على التّرتيب التّالي:

ألف: سبب فتح مكّة المكرّمة:

و ذلك أنّ رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ لمّا صالح قريشاً عام الحديبيّة عشر سنين، و كان من أشراطهم: أنّه مَن أحبّ أن يدخل في عهد رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ دخل فيه، و من أحبّ أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، فدخلت خُزاعة في عهد رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ - و قد حالَفَتْ خزاعة من قبل، عبدَالمطّلب ابن هاشم، و كان معها كتاب منه، و كان رسول اللّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ يعرف ذلك - و دخلت بنو بكر بن عبد مناف ابن كنانة في عهد قريش، و قد كان بين القبيلتين حقد وعداوة شديدة، و عناد و لجاجة قديمة، وترات و دمآء في الجاهليّة...

و قد عَدَتْ بنوبكر، من قبل على خُزاعة، و هم على مآء لهم بأسفل مكّة يقال له: الوَتير، و كان الّذي هاج ما بين بني بكر و بني خزاعة رجل من بني الحضرمي، و إسمه مالك بن عبّاد، حِلْف الحضرميّ يومئذ إلى الأسود بن رَزْن، خرج تاجراً، فلمّا توسّط أرض خُزاعة عدوا عليه فقتلوه، و أخذوا ماله، فعدت بنوبكر على رجل من خزاعة فقتلوه فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رَزْن الدّيلي، وهم مَنْخَر (أي متقدّموا) بني بكر و أشرافهم: سَلْمیٰ و كلثوم و ذؤيب، فقتلوهم بَعَرفَة عند أنصاف الحَرَم (الأنصاب: حجارة تجعل علامات بين الحلّ و الحرم).

فلمّا تمّ الصلح الحديبيّة و أمن النّاس و مضت سنتان من القضيّة، سَمِعَ غلام من خزاعة، رجلاً من بني بكر يقال له: أنس بن زُنيم الدّيلي يُنشد هجاء له في رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فضربه فشجّه، فخرج أنس إلى قومه، فأراهم شجّته، فاغتنمت بنو الدّيل من بني‌بكر، من خزاعة، فتذكروا أحقادهم القديمة، فأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً باولئك النّفر الّذين أصابوا منهم ببني الأسود ابن رَزْن، و القوم مجاورون بمكّة، فاستنجدت بنو بكر قريشاً على خزاعة، فمن قريش من كره ذلك، و قال: لا أنقض عهد محمّد، و منهم من خفّ إليه، و كان صفوان بن اُميّة و حويطب بن عبدالعزّى و مكرز بن حفص و عكرمة بن أبي‌جهل، و سهيل بن عمرو مع عيرهم و عبيدهم ممّن أعان بني‌بكر بأنفسهم، و دسّوا إليهم الرّجال بالسّلاح سرّاً، فخرج نوفل بن معاوية الدّيلى في بني الدّيل و هو يومئذ قائدهم، و ليس كلّ بني‌بكر تابعه، حتّى بيّت خزاعة، و هم على الوَتير، ماء لهم، فأصابوا منهم و قتلوا منهم عشرين رجلاً، و ساقوهم إلى الحرم، فلمّا انتهوا إليه، و أصبحوا عاتبوا قريشاً، فجحدت قريش أنّها أعانت بني‌بكر، و كذّبت في ذلك.

فلمّا دخلت خزاعة مكّة لجئوا إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي و دار مولى لهم يقال له: رافع، و علموا أنّ قريشاً نقضوا ما كان بينهم و بين رسول اللّه﴿ﷺ﴾ من العهد والميثاق، بما استحلّوا من خزاعة و كانوا في عهده، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى راكباً، ثمّ أحد بني كعب، مستصرخين برسول اللّه﴿ﷺ﴾ حتّى قد ما عليه﴿ﷺ﴾ المدينة، و كان ذلك ممّا هاج فتح مكّة، فوقف عمرو بن سالم على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و هو في المسجد جالس بين ظهراني القوم فقال:

ياربّ (لاهُمّ خ) إنّي ناشدٌ محمّداً	حِلْفَ أبينا و أبيه الأتلدا
لكنت والداً و كنّا وَلَداً	ثمّت أسلمنا فلم نَنْزَعْ يداً
فانصر هداك اللّه نصراً اعتدا	وادع عباداللّه يأتوا مدداً
إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا	و نقضوا ميثاقك المؤكّدا
هم بيّتونا بالوَتير هُجّدا	نتلوا القرآن رُكّعاً و سُجّدا

و قتّلونا ركّعاً و سجّداً

قوله: «الأتلد» القديم، و «الوَتير»: إسم ماء بعينه بأسفل مكّة لخزاعة، و «هُجّدا»: بين النّوم و اليقظة أي كان بعضنا نائمين، و الآخرون مستيقظين.

يقول عمرو بن سالم الخزاعي مستصرخاً برسول اللّه﴿ﷺ﴾: قد قتلونا و قد أسلنا! فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾ حسبك. قد نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم، ثمّ عرض لرسول اللّه﴿ﷺ﴾ سَحاب من السّمآء، فقال﴿ﷺ﴾: إنّ هذه السّحابة لتستهلّ بنصر بني كعب، فقام رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فدخل دار ميمونة، و قال: اسكبي لي مآء، فجعل يغتسل، و هو يقول: لانُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب، و هم رهط عمرو بن سالم.

ثمّ خرج بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة من مكّة، حتّى قدموا على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ المدينة، فأخبروه بما أُصيب منهم معاونة قريش بني‌بكر عليهم، و ذكروا له﴿ﷺ﴾ ما أثار الشّرّ، و أنّ أنس بن زُنيم هجاك، و أنّ صفوان ابن أُميّة و من معه دسّوا إلينا رجال قريش مستنصرين، فبيّتونا بمنزلة بالوَتير، فقتّلونا، فجئناك مستصرخين بك!

فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «لانُصِرتُ إن لم أنصر خُزاعة فيما أنصر منه نفسي».

ثمّ انصرفوا راجعين إلى مكّة.

و في نقل آخر: أنّه لمّا قَدِمَ رَكْبُ خزاعة على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فأخبروه بمن قُتِلَ منهم، قال لهم: بمن تهمتكم و طلبتكم؟ قالوا: بنوبكر، قال: كلّها؟ قالوا: لا، و لكن تهمتنا بنو نفاثة وحدهم دون غيرهم، و رأسهم نوفل بن معاوية النّفاثيّ، فقال: هذا بطن من بكر، فأنا باعث إلى أهل مكّة، فسائلهم عن هذا الأمر و مخيّرهم في خصال، فبعث إليهم ضَمْرَة يُخيّرهم بين إحدى خلال ثلاث: بين أن يدوا خزاعةَ، أو يبرؤا من حِلْف نفاثة، أو ينبذ إليهم على سوآء فأتاهم ضَمْرَة فخيّرهم بين الخلال الثّلاث، فقال قُرَيظة بن عبد عمرو الأعمى: أمّا أن نَدِيَ قتلى خزاعة فإنّا إن ودَينا هم لم يبق لنا سَبَدٌ و لا لَبَدٌ أى لا قليل ولاكثير، و أمّا أن نبرأ من حِلْف نفاثة فانّه ليس قبيلة تحجّ هذا البيت أشدّ تعظيماً له من نفاثة، و هم خلفاؤنا فلا نبرأ من حِلفهم ولكنّا نَنْبذ إليه على سوآء فَعاد ضَمْرة إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بذلك، و ندمت قريش أن ردّت ضَمْرة بما ردّته به.

و في نقل ثالث: أنّ قريشاً لمّا ندمت على قتل خزاعة، و قالت: إنّ محمّداً غازينا، قال لهم عبداللّه بن سعد بن أبي سَرْح - و هو يومئذ كان كافراً مرتدّاً عندهم - إنّ عندي رأياً: إن محمّداً لايغزوكم حتّى يُعذِرَ إليكم و يُخيّركم في خصال كلّها أهون عليكم من غَزْوه، قالوا: ما هي؟ قال: يرسل إليكم أن تدوا قتلى خزاعة أو تبرؤا من حِلْف من نَقَضَ العهد و هم بنو نفاثة أو ينبذ إليكم العهد، فقال القوم: أحْرِ بما قال ابن أبي سَرْح أن يكون! فقال سُهَيل بن عمرو: ما خَصْلة أيسر علينا من أن نبرأ من حِلف نفاثة؟ فقال شَيبة بن عثمان العَبْدَرِيّ: حُطْتَ إخوانك خزاعة، و غضبت لهم! قال سهيل: و أيّ قريش لم تَلِد خزاعة! قال شيبة: لا و لكن نَدِيَ قتلى خزاعة فهو أهون علينا.

فقال قُريظة بن عبد عمرو: لا واللّه لانديهم و لانبرأ عن نفاثة أبرّ العرب بنا و أعمرهم لبيت ربّنا، ولكن ننبذ إليهم على سوآء فقال أبوسفيان: ما هذا بشئ و ما الرّأي إلاّ جَحْد هذا الأمر أن تكون قريش دخلت في نقض العهد أو قطع مدّة، فإنّ قَطَعَهُ قَومٌ بغير هوى منّا و لامشورة فما علينا! قالوا: هذا هو الرّأى، لا أرأى إلاّ الجحد لكلّ ما كان من ذلك، فقال: أنا أُقسم أنّي لم أشهد و لم أُوامر و أنا صادق، لقد كرهت ما صنعتم و عرفت أن سيكون له يوم شديد، قالت قريش لأبي سفيان: فاخرج أنت بذلك فخرج.

و عن عطاء بن أبي مروان قال: قال رسول اللّه ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ لعائشة صبيحة الليلة الّتي أوقَعَتْ فيها نفاثة و قريش بخزاعة بالوتير: يا عائشة لقد حدث الليلة في خزاعة أمر، فقالت عائشة: يا رسول اللّه أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد بينك و بينهم؟ أينقضون و قد أفناهم السّيف! فقال ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾: العهد لأمر يريده اللّه بهم، فقالت: خير أم شرّ يا رسول اللّه؟ فقال: خير.

فكأنّ ذلك صادف من رسول اللّه ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ ايثاراً و حبّاً لنقض العهد، و تحقّق الوعد الإلهي بفتح مكّة المكرّمة إذ وعد اللّه تعالى رسوله ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ به من قبل في قوله: «فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» الفتح: ٢٧).

الفتح الّذي كان توطّد أمر الإسلام به، و تمهّد الدّين بما منّ اللّه تعالى على رسوله ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ فيه، فلمّا جرى ماجرى على خزاعة و نقض قريش عهدهم فاغتنم

رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ الفرصة لفتح مكّة الّذي كانت الأعين إليه ممتدّة، و الرّقاب إليه متطاولة...

ب: دعوة النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ النّاس إلى فتح مكّة:

فلمّا نقضت قريش عهدهم الّذي عقده رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ معهم، دبّر﴿صلى الله عليه و آله﴾ الأمر في فتح مكّة بكتمان مسيره إليها، و ستر عزيمته على مراده بأهلها، فسئل اللّه تعالى أن يطوى خبره عن أهل مكّة حتّى يبغتهم بدخولها، فقال: «اللّهمّ خذ العيون عن قريش حتّى نأتيها في بلادها».

و كان المؤتمن على هذا السّرّ و المودع له- من بين الجماعة- مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ لأنّه وحده كان شريكاً لرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في الرّأي، ثمّ نماه رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى جماعة من بعد، و استتبّ الأمر فيه على أحوال كان أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ في جمعيها متفرّداً من الفضل بما لم يشركه فيه غيره من النّاس.

فكتب رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إلى جميع النّاس في أقطار الحجاز و غيرها يأمرهم أن يكونوا بالمدينة في رمضان من سنة ثمان للهجرة، فوافته الوُفُود و القبائل من كلّ جهة، فخرج من المدينة بالنّاس يوم الأربعاء لعشر خَلَوْن من رمضان في عشرة آلاف، فكان المهاجرون سبعمأة، و معهم من الخيل ثلاثمأة فرس، و كانت الانصار أربعة آلاف، معهم من الخيل خمسمأة، و كانت مُزْيَنَة ألفاً، فيها من الخيل مأة فرس، و كانت أسلم أربعمأة، فيها من الخيل ثلاثون فرساً، و كانت جُهيْنة ثمان مأة معها خمسون فرساً، و من سآئر النّاس تمام عشرة آلاف، و هم بنو ضَمْرَة، و بنو غفار، و أشجع و بنو سليم و بنو كعب بن عمرو و غيرهم.

و عقد للمها جرين ثلاثة ألوية: لوآء مع عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ ولواء مع الزّبير و لواء مع سعد بن أبي وقّاص و كانت الرّايات في الأنصار و غيرهم و كتم عن النّاس الخبر، فلم يعلم به إلاّ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾، و أمّا قريش بمكّة فندمت على ما صنعت

بخزاعة و عرفت أنّ ذلك انقضاء ما بينهم و بين النّبيّ﴿ﷺ﴾ من العهد، و مشى الحارث بن هشام و عبداللّه بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان فقالا له: إنّ هذا أمر لابدّ له أن يُصْلَحَ، واللّه إن لم يُصْلَح لايَروُعكم إلاّ محمّد في أصحابه... و قال أبوسفيان: قد رأت هند بنت عُتبة رؤيا كرهَتْها و أفظعَتْها و خِفتُ من شرّها، قالوا: ما رأَتْ؟ قال: رأَتْ كأنّ دماً أقبل من الحَجون يسيل حتّى وقف بالخَنْدَمة مليًّا، ثمّ كأنّ ذلك الدّم لم يكن، فكره القومُ ذلك، و قالوا: هذا شرّ.

ج: سبب مجييء أبي‌سفيان بالمدينة لتشديد صلح الحديبيّة:

لمّا انصرف بُديل بن ورقاء و مَن معه راجعين إلى مكّة، أخبر رسول اللّه﴿ﷺ﴾. بمجيئ أبي‌سفيان من مكّة إلى المدينة لتجديد العهد، و تشديد صلح الحديبيّة، فقال﴿ﷺ﴾: «كأنّكم بأبي سفيان قد جآءكم ليشدّ العقد و يزيد في المدّة و هو راجع بسِخطه و سيلقى بُديل بن ورقآء أثنآء الطّريق».

فلمّا رأى أبوسفيان ما رأى من الشّرّ، قال: هذا واللّه أمر لم أشهده و لم أغِبْ عنه، لايُحْمَل هذا إلاّ عَلَيَّ، و لا واللّه ما شُووِرْت و لاهويت حيث بلغني، واللّه إنّ محمّداً ليغزونا إن صدق ظنّي و هو صادق، و مالي بُدّ أن آتى محمّداً فاُكلّمه أن يزيد في الهُدنة، و يجدّد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر، قالت قريش: واللّه قد أصبتَ، فندمت قريش على ما صنعت بخزاعة، و عرفت أنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لابدّ أن يغزوها، فخرج أبوسفيان، و خرج معه مولىً له على راحلتين، و أسرع السَّيرَ و هو يرى أنّه أوّل من خرج من مكّة إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾.

فخرج أبوسفيان من مكّة لتجديد العهد بين رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و بين قريش، و هو متخوّف أن يكون عمرو بن سالم و رهطه من خزاعة سبقوه إلى المدينة، و كان القوم لمّا رجعوا من المدينة، و أتوا الأبواء تفرّقوا كما أوصاهم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فذهبت طائفة إلى السّاحل تعارض الطّريق و لزم بديل، اُمّ أصرم الطريق في نفر معه، فلقيهم أبوسفيان بُعسفان– على مرحلتين من مكّة على طريق المدينة– فلمّا رآهم أشفق أن يكونوا لقوا

محمّداً﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بل كان اليقين عنده، فقال للقوم: منذكم عهدكم بيثرب؟ قالوا: لاعهد لنابها، فعرف أنّهم كتموه فقال: أمامعكم من تمر يثرب شيئ تُطعِموناه، فإنّ لتمر يثرب فضلاً على تمرتهامة؟ قالوا: لا ثمّ أبت نفسه أن تقرّ، فقال: يا بُديل، هل جئت محمّداً؟ قال: لا ولكنّي في بلاد خزاعة من هذا السّاحل في قتيل كان بينهم حتّى أصلحتُ بينهم.

قال أبوسفيان: إنّك– و اللّٰه ما عملتُ– برّ واصل، فلمّا راح بُديل و أصحابه إلى مكّة، جآء أبوسفيان إلى أبعار إبلهم ففتّها، فإذاً فيها النّوى، و وجد في منزلهم نوى من تمر عجوة كأنّه ألسنة العصافير، فقال: أحلف بالله لقد جآء القوم محمّداً، و أقبل حتّى قدم المدينة، فدخل على رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقال: يا محمّد إنّي كنت غائباً في صلح الحديبيّة، فَاشْدُدِ العَهْدَ و زِدنا في المدّة، فقال رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾: و لذلك قدمتَ يا أباسفيان! قال: نعم، قال: فهل كان قِبَلكم حَدَثٌ؟ فقال: معاذ اللّٰه! فقال رسول اللّٰه: فنحن على موثقنا و صُلحنا يوم الحديبيّة لانغيّر و لانبدّل.

فقام من عنده﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فدخل على ابنته أمّ حبيبة، فذهب ليجلس على فراش رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فَطَوَتْه دونه، فقال: يا بُنيّة أرَغِبتِ بهذا الفراش عنّي؟ فقالت: نعم هذا فراش رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ ما كنت لتجلس عليه، و أنت رجل مشرك نجس، و لم اُحب أن تجلس على فراش رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ قال: و اللّٰه لقد أصابك بعدي شرّ، فقالت: إنّ اللّٰه هداني للإسلام، و أنت سيّد قريش و كبيرها، كيف يخفى عليك فضل الإسلام و تعبد حَجَراً لايسمع و لايبصر! فقال: يا عجبا! و هذا منك أيضاً؟ أأترك ما كان يعبد آبآئي و أتّبع دين محمّد؟! ثمّ قام من عندها فِلَقِيَ أبابكر فكلّمه، و قال: تُكَلِّم أنت محمّداً و تُجير أنت بين النّاس، فقال أبوبكر: ما أنا بفاعله لعلم أبي‌بكر بأنّ سئواله في ذلك لايغني شيئاً، ثمّ لقي عمر فكلّمه بمثل ما تكلّم به أبابكر، فدفعه بغلظة و فظاظة، فقال عمر: و اللّٰه لووجدت السِّنّور تقاتلكم لأعنتها عليكم، قال أبوسفيان: جُزيت من ذي رحم شرّاً فعدل إلى بيت أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فاستأذن عليه، فأذن له و عنده فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام فقال له: يا عليّ إنّي قد جئت في حاجة فلا أرجعنّ كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فيما قصدته، فقال عليّ﴿عليه السلام﴾:

«ويحك يا أباسفيان! إنّ رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ قد عَزَم على أمرٍ لايستطيع أحد أن يبدّل عزمه و لا يغيّر رأيه».

فالتفت إلى فاطمة سلام اللّه عليها، فقال لها: يا بنت محمّد سيّد العرب! هل تجيرين بين قريش و تزيدين في المدّة فتكونين أكرم سيّدة في النّاس فأجاز محمّد ذلك؟ فقالت فاطمة﴿عليها السلام﴾: ذلك إلى رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال: أتأمرين أحد هذين ابنيك أن يجير بين النّاس، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدّهر؟ قالت سلام اللّه عليها: «ما بلغ بنيّ ذاك أن يجير بين النّاس».

فتحيّر أبوسفيان و سُقِطَ بيده، ثمّ التفت إلى أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فقال: يا أباالحسن إنّي أرى الأُمور قد اشتدّت و التبست و ضاقت عَلَيَّ، فما الرّأي عندك فتشير لأمري، فانصحني و مُرني بأمر ترى أنّه نافعي؟ فقال عليّ﴿عليه السلام﴾: ما أجد لك شيئاً مثل أن تقوم فتجير بين النّاس فإنّك شيخ قريش، فقم على باب المسجد و أجر بين قريش ثمّ اُلحق بأرضك. قال أبوسفيان: أترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟ قال عليّ﴿عليه السلام﴾: إنّي لا أظنّ ذلك، ولكنّي لا أجد لك غيره» فقام أبوسفيان من عنده﴿عليه السلام﴾ فأتى باب المسجد فصاح: أيّها النّاس! إنّي قد أجرتُ بين النّاس، ثمّ ركب بعيره فانطلق إلى مكّة.

د: رأى الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ و رجوع أبي‌سفيان إلى مكّة:

و قد طالت غيبة أبي‌سفيان عن قريش في سفره إلى المدينة و أبطأ، فاتّهموه و قالوا: نراه قد صَبَاَ واتّبع محمّداً سرّاً و كتم إسلامه، فلمّا دخل على هند ليلاً قالت له: قد احتُبستَ حتّى اتّهمك قومك، فإن كنت جئتهم بنجح فأنت الرّجل! و قد كان دنا منها ليغشاها فأخبرها الخبر، و قال: لم أجد إلاّ ما قال لي عليّ بن أبيطالب، فضربت برجلها على صدره و قالت: قبّحت من رسول قوم.

و لمّا أصبح أبوسفيان حلق رأسه عند الصّنمين: أساف و نائلة، و ذبح لهما و جعل يمسح بالدّم رؤسهما، و يقول: لا افارق عبادتكم حتّى أموت على ما مات عليه أبي، و قد فعل ذلك ليبرّیء نفسه ممّا اتّهمته قريش به.

ثمّ التفت أبوسفيان إلى قريش، فقالوا له: ما صنعت يا أباسفيان؟ و ما ورآءك؟ و هل جئتنا بكتاب من محمّد و زيادة في المدّة؟ فإنّا لانأمن من أن يغزونا، فقال: جئت محمّداً فكلّمته فواللّه ما ردّ عَلَيَّ شيئاً، ثمّ جئت أبابكر بن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثمّ جئت عمر بن الخطّاب فوجدته فظّاً غليظ القلب، فيه شرّ كثير، ثمّ أتيت عليًّا ﴿عليه السلام﴾ فوجدته أعقل القوم و أنصحهم، و قد أشار عَلَيَّ بشيئ فصنعته، ولكنّي لاأدري هل يغني عنّي شيئاً أم لا؟

فقالوا: بما أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين النّاس باب المسجد، ثمّ أرجع إلى أرضي و ألحق بقومي، ففعلت، فقالوا: فهل أجاز ذلك محمّد؟ قال: لا، قالوا: ويلك واللّه إن زاد عليّ بن أبيطالب على أن لعب بك فما يغني عنّا؟ قال أبوسفيان: لا واللّه و ما وجدت غير ذلك.

و قد كان الّذي فعله عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ بأبي‌سفيان من أصوب رأيٍ لتمام أمرالمسلمين، و أصحّ تدبير، و به تمّ لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في القوم ما تمّ.

و ذلك أنّ أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ صدق أباسفيان عن الحال، ثمّ لان له بعض اللّين حتّى خرج عن المدينة و هو يظنّ أنّه على شيئ، فانقطع بخروجه عن تلك الحال موادّ كيده الّتي كان يتشعّب بها الأمر على رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و ذلك أنّه لو خرج آئساً حَسَبَ ما أيسأه أبوبكر و عمر لتجدّد للقوم من الرّأي في حربه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و التحرّز منه ما لم يخطر لهم ببال مع مجيىء أبي‌سفيان إليهم بما جآء أو كان يقيم بالمدينة على التمّحل لتمام مراده بالاستشفاع إلى رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فيتجدّد بذلك أمْرٌ يصدّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عن قصد قريش أو يثبّطه عنهم تثبيطاً يفوته معه المراد، فكان التّوفيق من اللّه تعالى مقارناً لرأي أميرالمؤمنين ﴿عليه السلام﴾ فيما رآه من تدبير الأمر مع أبي‌سفيان حتّى انتظم بذلك لرسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من فتح مكّة ما أراد.

هـ: تجهيز رسول اللّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لفتح مكّة:

لمّا خرج أبوسفيان عن المدينة متحيّراً من دون نتيجة لهذه السّفرة، تجهّز رسول

اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ من دون أن يخبر أحداً بغرضه من تجهيزه هذا إلاّ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و قال﴿صلّى الله عليه و آله﴾: «اللّهم خذ عن قريش الأخبار و العيون حتّى نأتيهم بغتة» و أخذ النّبيّ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ الأنقاب و جعل عليها الرّجال، و منع من يخرج من المدينة، و أمر أهله أن يجهّزوه، فلمّا سمع أبوبكر ذلك، دخل على ابنته عائشة، و هي تحرّك بعض جهاز رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقال: يا بنيّة! أ أمركم رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ أن تجهّزوه؟ قالت: نعم، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا واللّٰه ما أدري.

و أمر رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ النّاس بالجهاز والجدّ و التّهيّؤ، و طوى عنهم الوجه الّذي يريده، فكان بعضهم يظنّ أنّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ يريد بني سليم، و بعضهم يظنّ أنّه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ يريد هوازن، و بعضهم يظنّ أنّه يريد ثقيفاً، و بعضهم يظنّ أنّه يريد الشّام و بعضهم يظنّ أنّه يريد قريشاً ... و بعث رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ أبا قتادة بن رِبعيّ في نفر إلى بطن ليظنّ النّاس أنّ رسول اللّٰه﴿صلّى الله عليه و آله﴾ قدّم أمامه اولئك الرّجال لتوجّهه إلى تلك الجهة، و لتذهب بذلك الأخبار...

فتجهّز النّاس، و كان حسّان بن ثابت يحرّضهم و يذكر مصاب رجال خُزاعة و يقول:

عَناني (أتاني خ) و لم أشهد ببطحآء مكّة
رجالُ بني كَعْب تُحَزّ رِقابُها
بأيدي رجال لم يسُلّوا سُيُوفَهم
و قتلىٰ كثير لم تُجَنّ ثيابُها
ألا ليت شعري هل تنالنّ نُصرَتي
سُهَيْلَ بن عمرو وحزها (حرّ ها خ) و عقابها
و صفوان عَوْداً حَنّ (حُزّ خ) من شُفُرِ إسْتِهِ
فهذا أوان الحرب شُدَّ عِصابها
فلا تأمَننّا يا ابن أُمِّ مُجالد
إذا احتُلِبَتْ صِرْفاً و أعصل نابُها

فـــلا تجـــزعوا مـــنها فـــإنّ ســيوفنا

لهـــا وقـــعةٌ بـــالموت يُـــفتَح بـــابها

قوله: «عَناني»: أهمّني «بأيدى رجال...» يريد قريشاً، و «لم تُجنّ ثيابها»: لم تستر. يريد أنّهم قتلوا و لم يدفنوا، و «عَوْداً» العود: المسن من الإبل، «يابن امّ مجـالد» هـو عكرمة ابن أبي جهل، و «صِرْفاً»: لبناً خالصاً، و «أعصل»: اعوج. و العصل: إعوجاج الأسنان.

و: حمل سارة، كتاب حاطب لقريش، و علم النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأمره:

فلمّا تجهّز رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أمر النّاس بالجهاز و التّهيّئة للسّفر، و ظنّوا به ظنوناً مختلفة، كتب حاطب بن أبي بَلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بأمر النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأعطى الكتاب سارة، و جعل لها جُعْلاً (عشرة دنانير و قيل: عشرة دراهم) على أن تـبلّغه قريشاً، فجعلته في رأسهـا، ثمّ فَـتَلَتْ عـليه قـرونها، ثمّ خـرجت بـه، و أتى رسـول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ الخبر من السّمآء بما صنع حاطب، فبعث عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و الزّبير بن العوام، فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: أدركا إمرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم، فخرجا حتّى أدركاها بذي الحليفة، فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها، فلم يجدا شيئاً فقال لها عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: إنّي أحلف ما كـذب رسـول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و لاكُذِبنا، و لتخرجنّ إلَيَّ هذا الكتاب أو لنكشفنّك؟ فلمّا رَأتِ الجدّ مـنه قالت: أعرض عنّي، فأعرض عنها، فخلت قرون رأسها، فاستخرجت الكـتاب مـنه، فدفعته إليه.

فجآء به عليّ﴿عليه السلام﴾ إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ فدعا النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ حاطباً، فقال: يـا حاطب ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أما واللّٰه إنّي لمـؤمن بـالله و رسوله، ما غيّرتُ و لابدّلتُ ولكنّي كنت رجلاً ليس لي في القوم أصل و لاعشيرة، و كان لي بين أظهرهم أهل و ولد، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطّاب: يا رسول اللّٰه دعني فلأضرب عنقه فإنّ الرّجل قد نافق؟ فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: و ما يدريك يا

عمر لعلّ اللّٰه قد اطّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم. فأنزل اللّٰه تعالى في حاطب: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أوليآء- إلى قوله- و إليك أنبنا و إليك المصير» الممتحنة: ١-٤). و قد اختلفت الكلمات هنا نشير إلى نبذة منها لما فيها من النكات و اللّطآئف، و تركنا غيرها روماً للاختصار:

في تفسير القمي: في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أوليآء تلقون إليهم بالمودّة» نزلت في حاطب بن أبي بلتعة و لفظ الآية عامّ، و معناه خاصّ، و كان سبب ذلك أنّ حاطب بن أبي بلتعة كان قد أسلم و هاجر إلى المدينة، و كان عياله بمكّة، و كانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فصاروا إلى عيال حاطب و سئلوهم أن يكتبوا الى حاطب يسئلوه عن خبر محمّد﴿ﷺ﴾: هل يريد أن يغزو مكّة، فكتبوا إلى حاطب يسئلونه عن ذلك، فكتب إليهم حاطب أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ يريد ذلك، و دفع الكتاب إلى امرأة تسمّى صفيّة، فوضعته في قرونها، و مرّت فنزل جبرئيل على رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فأخبره بذلك، فبعث رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و الزّبير بن العوام في طلبها فلحقاها.

فقال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي شئ ففتّشاها فلم يجدا معها شيئاً، فقال الزّبير: ما نرى معها شيئاً؟ فقال أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾: واللّٰه ما كذبنا رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و لاكذب رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ على جبرئيل﴿عليه السلام﴾ و لاكذب جبرئيل على اللّٰه جلّ ثناؤه، و اللّٰه لتظهرنّ الكتاب أو لأُوردنّ رأسك إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فقالت: تنحيّا حتّى أُخرجه فأخرجت الكتاب من قرونها، فأخذه أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ وجآء به إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فقال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾: يا حاطب ما هذا؟ فقال حاطب: و اللّٰه يا رسول اللّٰه ما نافقت و لاغيّرت و لابدّلت، و إنّي أشهد أن لا إله إلاّ اللّٰه و أنّك رسول اللّٰه حقًّا، و لكن أهلي و عيالي كتبوا إلَيَّ بحسن صنيع قريش إليهم، فأحببت أن أُجازي قريشاً بحسن معاشرتهم، فأنزل اللّٰه جلّ ثناؤه على رسوله﴿ﷺ﴾: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أوليآء تلقون إليهم بالمودّة -إلى قوله- لن تنفعكم أرحامكم و لا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم واللّٰه بما تعملون بصير» الممتحنة: ١-٣).

و في المجمع: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، و ذلك أنّ سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام أتت رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ من مكّة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾: أمسلمة جئتِ؟ قالت: لا، قال: أمهاجرة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جآء بك؟ قالت: كنتم الأصل و العشيرة و الموالي، و قد ذهب مواليّ واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني و تكسوني و تحملوني؟ قال: فأين أنت من شبّان مكّة و كانت مغنّية نائحة؟ قالت: ما طلب منّي بعد وقعة بدر، فحثّ رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ عليها بني عبدالمطّلب، فكسوها و حملوها و أعطوها نفقة.

و كان رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ يتجهّز لفتح مكّة فأتاها حاطب بن أبي بلتعة و كتب معها كتاباً إلى أهل مكّة وأعطاها عشرة دنانير عن ابن عبّاس، و عشرة دراهم عن مقاتل بن حيّان، و كساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكّة، و كتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة أنّ رسول اللّٰه يريدكم فخذوا حذركم».

فخرجت سارة و نزل جبرئيل فأخبر النّبيّ﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ بما فعل، فبعث رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ عليًّا و عمّاراً و عمر و الزّبير و طلحة و المقداد بن الأسود و أبامرثد، و كانوا كلّهم فرساناً، و قال لهم: انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتّى أدركوها في ذلك المكان الّذي ذكره رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت باللّه ما معها من كتاب، فنحّوها و فتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرّجوع فقال عليّ﴿عليه السلام﴾: و اللّٰه ما كذَبْنا و لاكُذِبْنا و سلّ سيفه، و قال لها: اخرجي الكتاب و إلاّ واللّٰه لأضربنّ عنقك، فلمّا رأتِ الجدّ أخرجته من ذؤابتها قد أخبأته في شعرها.

فرجعوا بالكتاب إلى رسول اللّٰه﴿صلّى اللّه عليه و آله﴾ فأرسل إلى حاطب فأتاه فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللّٰه و اللّٰه ما كفرت منذ أسلمت و لا غششتك منه. نصحتك و لا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ و له بمكّة من يمنع عشيرته، و كنت عزيزاً فيهم أي غريباً، و كان أهلي بين ظهرانيّهم، فخشيت على أهلي فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، و قد علمت أنّ اللّٰه ينزل بهم بأسه، و إنّ كتابي لايغني عنهم شيئاً.

فصدّقه رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و عذّره، فقام عمر بن الخطّاب، و قال: دعني يا رسول اللّٰه أضرب عنق هذا المنافق؟ فقال رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾: و ما يدريك يا عمر لعلّ اللّٰه اطّلع على أهل بدر فغفرلهم، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. و روى البخاري و مسلم في صحيحيهما عن عبداللّٰه بن أبي رافع قال: سمعت عليّاً ﴿عليه السلام﴾ يقول: بعثنا رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ أنا و المقداد و الزّبير، و قال: انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب، فخرجنا و ذكر نحوه.

و في تفسير فرات الكوفي: أبوالقاسم العلويّ معنعناً عن ابن عبّاس رضي اللّٰه عنه في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أوليآء تلقون إليهم بالمودّة» قال: قدمت سارة مولاة بني هاشم إلى المدينة، فأتت رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و من معه من بني عبدالمطلّب، فقالت: إنّي مولاتكم، و قد أصابني جهد، و قد أتيتكم أتعرّض لمعروفكم، فكسيت و حملت و جهّزت و عمدت حاطب بن أبي بلتعة أخا بني أسد بن عبدالعزّى، فكتب معها كتاباً لأهل مكّة (وعدها حاطب بن أبي بلتعة أخو بني أسد بن عبدالعزّى فكتب معها كتاباً إلى اهل مكّة خ) بأنّ رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ قد أمر النّاس أن يجهّزوا و عرف حاطب أنّ رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ يريد أهل مكّة، فكتب إليهم يحذّرهم، و جعل لسارة جُعْلاً على أن تكتم عليه، و تبلّغ رسالته، ففعلت، فنزل جبرئيل ﴿عليه السلام﴾ على نبيّ اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فأخبره، فبعث رسول اللّٰه ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ رجلين من أصحابه في أثرها: أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و الزّبير بن العوام، و أخبرهما خبر الصّحيفة...

فقال: «إن أعطتكما الصّحيفة فخلّوا سبيلها و إلاّ فاضربوا عنقها» فلحقا سارةً فقالا: أين الصّحيفة الّتي كتبت معك يا عدوّة اللّٰه؟ فحلفت بالله ما معها كتاب، ففتّشاها فلم يجدا معها شيئاً، فهمّا بتركها، ثمّ قال أحدهما: و اللّٰه ما كذبنا و لاكُذِبنا فسلّ سيفه، فقال: أحلف بالله لا أغمده حتّى تخرجين الكتاب أو يقع في رأسك، فزعموا أنّه عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ قالت: فللّه عليكما الميثاق، إن أُعطكما الكتاب لاتقتلاني و لاتصلباني و لاتردّاني إلى المدينة؟ قالا: نعم، فأخرجته من شعرها فخلّيا سبيلها، ثمّ رجعا إلى النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فأعطياه الصّحيفة فإذاً فيها: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة أنّ

محمّداً قد نفر، فإنّي لا أدري إيّاكم أراد أو غيركم، فعليكم بالحذر.

فأرسل رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ إليه فأتاه فقال: تعرف هذا الكتاب يا حاطب؟ قال: نعم، قال: فما حملك عليه؟ فقال: أما و الّذي أنزل عليك الكتاب ما كفرت منذ آمنت، و لا أجبتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من أصحابك إلاّ و لهم بمكّة عشيرة غيري، فأحببت أن أتّخذ عندهم يداً، و قد علمت أنّ اللّٰه منزل بهم بأسه و نقمته، و أنّ كتابي لايغني عنهم شيئاً، فصدّقه رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و عذّره، فأنزل اللّٰه: « يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أوليآء تلقون إليهم بالمودّة».

و في إعلام الورى: «فكتب حاطب بن أبي بلتعة مع سارة مولاة أبي‌لهب إلى قريش: أنّ رسول اللّٰه خارج إليكم يوم كذا و كذا، فخرجت و تركت الطّريق، ثمّ أخذت ذات اليسار في الحرّة، فنزل جبرئيل﴿عليه السلام﴾ فأخبره فدعا عليّاً﴿عليه السلام﴾ و الزّبير فقال لهما: أدركاها، و خذا منها الكتاب، فخرج عليّ و الزّبير لايلقيان أحداً حتّى وردا ذاالحليفة، و كان النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ وضع حرساً على المدينة، و كان على الحرس حارثة بن النّعمان، فأتيا الحرس فسئلاهم، فقالوا: ما مرّ بنا أحد، ثمّ استقبلا حطّاباً فسئلاه فقال: رأيت امرأة سوداء انحدرت من الحرّة، فأدركاها فأخذ عليّ منها الكتاب و ردّها إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾.

قال: فدعا حاطباً، فقال له: انظر ما صنعت؟ قال: أما و اللّٰه إنّي لمؤمن بالله و رسوله ما شككت ولكنّي رجل لي بمكّة عشيرة، و لي بها أهل، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً ليحفظوني فيهم، فقال عمر بن الخطّاب: دعني يا رسول اللّٰه أضرب عنقه، فواللّٰه لقد نافق، فقال﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّه من أهل بدر، و لعلّ اللّٰه اطّلع عليهم، فغفرلهم، أخرجوه من المسجد» فجعل النّاس يدفعون في ظهره و هو يلتفت إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ليرقّ عليه، فأمر﴿صلى الله عليه و آله﴾ بردّه و قال: «قد عفوت عن جرمك فاستغفر ربّك و لاتعدل لمثل ما جنيت» فأنزل اللّٰه سبحانه: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا عدوّي و عدوّكم أولياء» إلى صدر السّورة.

و في الإرشاد للشّيخ المفيد رضوان اللّٰه تعالى عليه: «من مناقب أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ أنّ النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لمّا أراد فتح مكّة سئل اللّٰه جلّ اسمه أن يعمي

أخباره على قريش ليدخلها بغتة، و كان﴿ﷺ﴾ قد بنى الأمر في مسيره إليها على الاستسرار بذلك، فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة يخبرهم بعزيمة رسول اللّه﴿ﷺ﴾ على فتحها، و أعطى الكتاب امرأة سودآء كانت وردت المدينة تستميح النّاس و تستبرّهم، و جعل لها جُعْلاً أن توصله إلى قوم سمّاهم لها من أهل مكّة، و أمرها أن تأخذ على غير الطّريق، فنزل الوحي على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بذلك، فاستدعى أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ و قال له: «إنّ بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكّة يخبرهم بخبرنا، و قد كنت سئلت اللّه أن يعمي أخبارنا عليهم، و الكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطّريق، فخذ سيفك و ألحقها، و انتزع الكتاب منها و خلّها و صِر به إلَيّ».

ثمّ استدعى الزّبير بن العوّام، و قال له: «امض مع عليّ بن أبيطالب في هذا الوجه» فمضيا و أخذا على غير الطّريق، فأدركا المرأة، فسبق إليها الزّبير فسئلها عن الكتاب الّذي معها، فأنكرته، وحلفت أنّه لاشئ معها و بكت، فقال الزّبير: ما أرى يا أباالحسن معها كتاباً فارجع بنا إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لتخبره ببراءة ساحتها، فقال له أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ يخبرني رسول اللّه﴿ﷺ﴾ أنّ معها كتاباً و يأمرني بأخذه منها، و تقول أنت: إنّه لا كتاب معها؟ ثمّ اخترط السّيف و تقدّم إليها، فقال: أما و اللّه لئن لم تخرجي الكتاب لأكشفنّك، ثمّ لأضربنّ عنقك، فقالت له: إذا كان لابدّ من ذلك، فأعرض يا ابن أبيطالب بوجهك عنّي، فأعرض بوجهه عنها، فكشفت قناعها، و أخرجت الكتاب من عقيصتها فأخذه أميرالمؤمنين و صار به إلى النبيّ﴿ﷺ﴾ فأمر أن ينادي: الصّلاة جامعة، فنودي في النّاس فاجتمعوا إلى المسجد حتّى امتلأبهم.

ثمّ صعد النبيّ﴿ﷺ﴾ المنبر و أخذ الكتاب بيده و قال: «أيّها النّاس إنّي كنت سئلت اللّه عزّوجلّ أن يخفي أخبارنا عن قريش، و إنّ رجلاً منكم كتب إلى أهل مكّة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب و إلاّ فضحه الوحي» فلم يقم أحد، فأعاد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ مقالته ثانية، و قال: «ليقم صاحب الكتاب و إلاّ فضحه الوحي».

فقام حاطب بن أبي بلتعة و هو يرعد كالسّعفة في يوم الرّيح العاصف، فقال: أنا يا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ صاحب الكتاب، و أحدثت نفاقاً بعد إسلامي و لاشكّاً بعد يقيني،

فقال له النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «فما الّذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟» قال: يا رسول اللّٰه إنّ لي أهلاً بمكّة و ليس لي بها عشيرة، فأشفقت أن تكون دائرة لهم علينا، فيكون كتابي هذا كفّاً لهم عن أهلي، و يداً لي عندهم، و لم أفعل ذلك لشكّ منّي في الدّين، فقام عمر بن الخطّاب، و قال: يا رسول اللّٰه مرني بقتله فإنّه قد نافق، فقال رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: «إنّه من أهل بدر و لعلّ اللّٰه تعالى اطّلع عليهم فغفرلهم، أخرجوه من المسجد».

قال: فجعل النّاس يدفعون في ظهره حتّى أخرجوه و هو يلتفت إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ليرقّ عليه، فأمر رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بردّه، و قال له: «قد عفوت عنك و عن جرمك فاستغفر ربّك ولاتعد بمثل ما جنيت».

و فيه: فمن ذلك -أي من أحوال كان أميرالمؤمنين﴿عليه السلام﴾ في جميعها متفرّداً من الفضل بما لم يشركه فيه غيره من النّاس -أنّه لمّا كتب حاطب بن أبي بلتعة و كان من أهل مكّة، و قد شهد بدراً مع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ -كتاباً إلى أهل مكّة يُطلِعهم على سرّ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في المسير إليهم جآء الوحي إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بما صنع و بنفوذ كتاب حاطب إلى القوم، فتلافىٰ ذلك رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بأميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و لو لم يتلافه به لفسد التّدبير الّذي بتمامه كان نصر المؤمنين.

ز: خروج رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أصحابه من المدينة لفتح مكّة:

و قد مضى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لسفره إلى مكّة، و استخلف على المدينة أبالبابة بن عبدالمنذر، قيل: استخلف عليها أباذر الغفاري، و قيل: استخلف عليها أبارُهم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، و دعا رئيس كلّ قوم فأمره أن ياتي قومه فيستنفرهم، و خرج رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يوم الجمعة حين صلّى العصر لليلتين مضتا من شهر رمضان، و قيل: خرج﴿صلى الله عليه و آله﴾ قاصداً إلى مكّة لعشر مضين من رمضان سنة ثمان، و قيل: خرج من المدينة بالألويّة المعقودة و الرّايات بعد العصر من يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان، لم يحلّ عقده حتّى انتهى إلى الصّلصل- بنوا حي المدينة على سبعة أميال منها، نزل بها رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يوم خرج من المدينة إلى مكّة عام الفتح -

فصام رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و صام النّاس معه﴿ﷺ﴾ حتّى نزل كراع الغميم، و قيل: حتّى إذا كان بالكُدَيْد ما بين عُسْفان و أَمَج.

فأمر بالإفطار و أفطر النّاس، و صام قوم، فسمّوا العصاة لأنّهم صاموا، و المسلمون يقودون الخيل، و قد امتطوا الإبل، و قدم أمامه﴿ﷺ﴾ الزّبير بن العوّام في مأتين، فلمّا كان بالبيدآء نظر إلى عَنان السّمآء، فقال: إنّي لأرى السّحاب تستهلّ- من استهل السّحاب: إذا كثر انصبابه- بنصر بني كعب يعني خُزاعة.

و جآء كعبُ بن مالك ليعلم أيّ جهة يقصد؟ فبرك بين يديه﴿ﷺ﴾ على ركبتيه، ثمّ أنشده:

قضينا من تِهامة كلّ نَحْبٍ و خيبرَ ثمّ أحمينا السّيوفا
فسآئلها و لو نطقت لقالت قوا ضِبهُنّ دوساً أو ثقيفا
فلستُ بحاضر إن لم تروها بساحة داركم منها ألوفا
فننتزع الخِيام ببطن وَجٍّ و نترك دُورَكم منها خُلُوفا

قوله: «نَحْبٍ»: نذر.

فتبسّم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و لم يزد على ذلك، فجعل النّاس يقولون: و اللّٰه ما بيّن لك رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ شيئاً، فلم تزل النّاس كذلك حتّى نزلوا بمرّ الظَّهْران، و نزل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ مرّ الظّهران و معه عشرة آلاف رجل و أربعمأة فارس، و كانت بنو سُلَيم سبعمأة، و مُزَينة ألفاً، و في كلّ القبآئل عدد و إسلام، و أوعب مع رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ المهاجرون و الأنصار، فلم يتخلّف عنه منهم أحد، و قد عميت الأخبار عن قريش، و لم يبلغ قريشاً حرف واحد من حاله﴿ﷺ﴾ فلا يدرون ما هو فاعل، و لمّا نزل﴿ﷺ﴾ بمرّ الظّهران أمر أصحابه أن يوقدوا النّار، فأوقدوا عشرة آلاف نار. و قد خرج العبّاس بن عبدالمطّلب و مَخْرمة بن نَوْفَل من مكّة يطلبان رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ظنًّا منهما أنّه﴿ﷺ﴾ بالمدينة يريدان الإسلام، فلقياه بالسُّقيا.

و قد رأى بعض أصحابه﴿ﷺ﴾ في الليلة الّتي أصبح﴿ﷺ﴾ فيها بالجُحفة في منامه: أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و أصحابه قد دَنَوْا من مكّة، فخرجت عليهم كَلْبَة تَهِرُّ، فلمّا دنوا

منها استلقَت على قفاها و إذا أطباؤها (الأطباء: حلمات الضّرع من ذات الخف و الظّلف و الحافر) تشخُب لبناً، فقصّها على رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فقال: ذهب كَلَبُهم، و أقبل دَرّهم، وهم سائلونا بأرحامهم، و أنتم لاقون بَعضَهم، فإن لقيتم أباسفيان فلاتقتلوه.

ح: أبوسفيان كلب مكّة و جاسوس مشركيها:

و قد أجمع قريش أن يبعثوا أباسفيان يتجسّس لهم الأخبار، فخرج في تلك الليالي هو و حكيم بن حُزام و بُديل ابن ورقاء يتجسّسون الأخبار، و ينظرون هل يجـدون خبراً أو يسمعون به، و قد خرج العبّاس بن عبدالمطّلب ليتلقّى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و معه أبوسفيان و عبداللّه بن أبي أُميّة و قد تلقّاه بنيق العقاب فيما بين مكّة و المدينة، و قد كان رسول اللّه﴿ﷺ﴾ في قبّته، و على حرسه يومئذ زياد بن أسيد، فاستقبلهم زياد، فقال: أمّا أنت أيّها العبّاس فامض إلى القبّة، و أمّا أنتما فارجعا، فمضى العبّاس حتّى دخل رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فسلّم عليه و قال: بأبي أنت و أمّي! هذا ابن عمّك قد جآء تـائباً و ابـن عمّتك؟

قال﴿ﷺ﴾: «لا حاجة فيهما، أمّا ابن عمّي فانتهك عِرْضي و أمّا ابن عمّتي فهو الّذي يقول بمكّة: «لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً» الإسراء: ۹۰).

فلمّا خرج العبّاس كلّمته﴿ﷺ﴾ أمّ سلمة، و قالت له﴿ﷺ﴾: بأبي أنت و أُمّي! ابن عمّك قد جآء تائباً لايكون أشقى النّاس بك، و أخي عبداللّه بن أبي أُميّة هو ابن عمّتك، فلا يكوننّ شقيًّا بك؟ قال﴿ﷺ﴾: «لاحاجة لي فيهما» فسمع أبوسفيان ذلك، فنادى: يا رسول اللّه﴿ﷺ﴾ كن لنا كما قال العبد الصّالح: «لاتثريب عليكم اليوم» يوسف: ۹۲) فدعاهما و قبلا منهما.

و قيل: إنّ رسول اللّه﴿ﷺ﴾ لم يقبل منهما، فلمّا وصل الخبر إليهـما بـذلك، و مـع أبي‌سفيان بُنَيّ له، فقال: و اللّه ليأذننّ لي أو لآخذنّ بيد بُنَيّ هذا، ثمّ لنذهبنّ في الأرض حتّى نموت عطشاً وجوعاً، فلمّا بلغ ذلك رسول اللّه﴿ﷺ﴾ رقّ لهما فأذن لهما فـدخلا عليه فأسلما.

أقول: و لايخفى على من له أدنى مسكة و دراية، و طيب ولادة: أن ليس إسلامهما عن حقيقة و طاعة، و إنّما كان كرهاً و عن ذبذبة، فإنّ أباسفيان و حليفه لم يؤمنا باللّه تعالى و رسوله﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ طرفة عين كما.

في نهج البلاغة- من كتاب مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب﴿ عليه السلام ﴾ إلى معاوية بن أبي سفيان جواباً عن كتابه -: «... و ما أسلم مسلمكم إلّا كُرْهاً، و بعد أن كان أنف الإسلام كلّه لرسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ حِزباً...».

و قال العبّاس ليلتئذ: و اسوء صباح قريش! و اللّه لئن دخل رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ مكّة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه أنّه لهلاك قريش آخر الدّهر.

قال العبّاس: فركبت بغلة رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ الشّهبآء حتّى جئت الأراك، فأطلب حطّاباً أو صاحب لبن أو إنساناً أو ذا حاجة يأتي مكّة، فأبعثه إلى قريش فيخبرهم بمكان رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ ليخرجوا إليه فيستأمنوا قبل أن يدخل عليهم عنوة، فواللّه إنّي لفي الأراك ليلاً أبتغي ذلك إذ سمعت كلاماً يقول: واللّه ما رأيت كالليلة ناراً و لا عسكراً، فلقيت أباسفيان و بديل بن ورقاء و حكيم ابن حزام، و قد خرجوا يتجسّسون الخبر عن رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ و يقول أبوسفيان لبديل: ما هذه النّيران؟ قال بديل: إنّها نيران خزاعة، أفزعها الحرب، و يقول أبوسفيان: إنّ خزاعة أذلّ من أن يكون هذه نيرانها و عسكرها، فعرفت صوته، فقلت: أباحنظلة: فعرف صوتي، فقال: لبّيك أباالفضل فداك أبي و أُمّي فما وراءك؟

فقلت: و يحك! هذا رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ و رائي قد دَلَفَ إليكم بما لا قِبَل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين و هو مصبّحكم، قال أبوسفيان: فما الحيلة؟ قال: تركب عجز هذه البغلة، فأذهب بك إلى رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ فأستأمن لك رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ فإنّه إن ظَفِرَ بك دون ذلك ليضرب عنقك، قال العبّاس: فركب أبوسفيان خلفي و رجل حكيم و بديل، فتوجّهت به إلى رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ فكلّما مررت به على نار من نيران المسلمين نظروا إلَيَّ و قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ و أنا عليها، قالوا: هذا عمّ رسول اللّه﴿ صلى الله عليه وآله ﴾ على بغلته، فخلّوا سبيله.

حتّى مررت بنار عمر بن الخطّاب، فلمّا رآني قال: من هذا؟ قلت: العبّاس، و قام إليّ، فلمّا رأى أباسفيان خلفي، فقال: هذا أبوسفيان عدوّ اللّٰه! الحمدللّٰه الّذي أمكن منك بغير عهد و لا عقد، ثمّ خرج يشتدّ نحو رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ ليخبره به، و ركضت البغلة، حتّى اجتمعنا جميعاً على باب قبّة رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ فدخل عمر على رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ فقال: يا رسول اللّه هذا أبوسفيان قد أمكنك اللّٰه منه بغير عهد و لا عقد، فدعني أضرب عنقه، قال العبّاس: فقلت: يا رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ إنّي قد أجرته، فقال ﴿ﷺ﴾: أدخله، فدخل أبوسفيان و قام بين يدى رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾.

فلمّا رآه رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ قال: و يحك يا أباسفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّه لا إله إلّا اللّٰه؟ فقال: بأبي أنت و أُمّي ما أحلمك و أكرمك و أوصلك و أعظم عفوك! و اللّٰه لقد ظننت أن لو كان مع اللّٰه إله غيره لأغنى عنّي يوم بدر و يوم أُحد، فقال ﴿ﷺ﴾: و يحك يا أباسفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾؟ فقال: بأبي أنت و أُمّي ما أوصلك و أحلمك و أكرمك و أعظم عفوك! أمّا هذه فواللّٰه إنّ في نفسي منها الآن لشيئاً!

فقال له العباس: و يلك أسلم و أشهد: أن لا إله إلّا اللّٰه و أنّ محمّداً رسول اللّٰه قبل أن يضرب عنقك، فقال أبوسفيان: فإنّي أشهد أن لا إله إلّا اللّٰه و أنّك لرسول اللّٰه. ولكن تلجلج بهافوه و لسانه، فأسلم كرهاً. فقال أبوسفيان للعبّاس: فما نصنع باللّات و العزّىٰ. فقال رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ لأبي سفيان: عند من تكون الليلة؟ قال: عند العبّاس.

قال العبّاس: إنّي جلست إلى رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ و لزمته، فقلت له ﴿ﷺ﴾: و اللّٰه لايناجي أباسفيان الليلة أحد دوني، فلمّا أكثر عمر بن الخطّاب في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر! فإنّه لو كان رجلاً من عديّ بن كعب لما قلت هذا، و لكنّك تعلم أنّه من بني عبد مناف، تصنع هذا، فقال عمر: مهلاً يا عبّاس، فو اللّٰه لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم لأنّي أعلم أنّ إسلامك أحبّ إلى رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾ من إسلام الخطّاب لو أسلم.

فقال رسول اللّٰه ﴿ﷺ﴾: يا عبّاس إذهب به إلى رحلك، فقد أجَرْ ناه، فليبتْ عندك الليلة، فإذا أصبحت فأتني به، قال عبّاس: فذهبت بأبي سفيان إلى رحلي، فبات عندي،

فلمّا أصبح، سمع بلالاً يؤذّن، قال أبوسفيان: ما هذا المنادى يا عبّاس؟ قال: قلت: هذا مؤذّن رسول اللّه﴿ﷺ﴾ قم فتوضّأ و صلّ، قال: كيف أتوضّأ؟ فعلّمته الوضوء.

قال العبّاس: و نظر أبوسفيان إلى النبيّ﴿ﷺ﴾ و هو يتوضّأ و أيدى المسلمين تحت شعره، فليست قطرة تصيب رجلاً منهم إلّا مسح بها وجهه، فقال أبوسفيان: باللّه ما رأيت كاليوم قطّ كسرى و لا قيصر، فلمّا صلّى غدابه إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فقال: يا رسول اللّه إنّي أُحبّ أن تأذن لي إلى قومك فأنذرهم و أدعوهم إلى اللّه و رسوله، فأذن له، فقال للعبّاس: كيف أقول لهم؟ بيّن لي من ذلك أمراً يطمئنّون إليه، فقال رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «تقول لهم: من قال: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له و شهد أنّ محمّداً رسول اللّه و كفّ يده فهو آمن، و من جلس عند الكعبة و وضع سلاحه فهو آمن».

قال العبّاس: فقلت: يا رسول اللّه! إنّ أباسفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في قومه؟ فقال﴿ﷺ﴾: نعم «من دخل دار أبيسفيان فهو آمن» قال أبوسفيان: داري؟! قال﴿ﷺ﴾: دارك، ثمّ قال: «و من أغلق بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن».

أقول: و لايخفى على من له الدّارية و طيب الولادة: أنّ أباسفيان شهد بلسانه و ما آمن بقلبه، بل بقى على كفره و ضلالته، و على غدره و جساسته و ذبذبته...

ط: غدر أبي سفيان و حكمة حبسه عند خطم الجبل:

و لمّا مضى أبوسفيان، قال العبّاس: فقلت: يا رسول اللّه! إنّ أباسفيان رجل من شأنه الغدر، و قد رأى من المسلمين تفرّقاً، قال﴿ﷺ﴾: يا عبّاس فأدركه فخذه و احبسه حتّى تمرّ عليه جنود اللّه، فيراها، فلمّا حبسته هناك، قال أبوسفيان: أغدراً يا بني هاشم! فقلت له: إنّ أهل بيت النبّوة لايغدرون، و إنّما حبستك لحاجة، قال: فهلّا بدأتَ بها أوّلاً فاعلمتنيها، فكان أفرح لرُوعي!

ثمّ مرّت به القبآئل على قادتها و الكتائب على راياتها، كلّما مرّت به قبيلة قال أبوسفيان للعبّاس: يا عبّاس: من هذه؟ فما تمرّ به قبيلة إلّا يسئل العبّاس عنها، فإذا

أخبره بهم، يقول: مالي و لبني فلان و كلّ قبيلة لمّا حاذوه يكبّرون ثلاثاً، حتّى مرّت به بنوبكر في مأتين يحمل لواءهم أبو واقدا لليثي، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً، قال: من هؤلآء يا عبّاس؟ قال: بنوبكر، قال: نعم أهل شؤم هؤلآء الّذين غزانا محمّد لأجلهم، ثمّ مرّت به أشجع و هم آخر من مرّ به حتّى نفذت القبائل كلّهم، فقال أبوسفيان للعبّاس: أما مرّ محمّد بعد؟ قال: لا و لو رأيت الكتيبة الّتي هو فيها لرأيت الحديد و الخيل و الرّجال و ما ليس لأحد به طاقة، فلمّا طلعت كتيبة رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ الخضراء طلع سواد شديد و غُبرة من سنابك الخيل.

فمرّ به رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يسير على ناقته القصواء في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرين و الأنصار و فيها الألوية و الرّايات كلّهم منغمسون في الحديد، فقال أبوسفيان: سبحان اللّٰه! يا عبّاس من هؤلآء؟ قال: فقلت: هذا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ في المهاجرين و الأنصار، قال: ما لأحد بهؤلآء قِبَلٌ و لا طاقة، و اللّٰه يا عبّاس لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: و يحك يا أباسفيان إنّها النّبوّة، و ليس بملك فقال: نعم إذاً.

و جآء حكيم بن حُزام و بديل بن ورقاء رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أسلما و بايعاه، فلمّا بايعاه بعثهما رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، و قال: من دخل دار أبي سفيان و هي بأعلى مكّة فهو آمن، و من دخل دار حكيم و هي بأسفل مكّة فهو آمن، و من أغلق بابه فهو آمن.

قوله: «كتيبته الخضراء» كتيبة خضراء: إذا غلب عليها لبس الحديد شبّه سواده بالخضرة، و العرب تطلق الخضرة على السّواد.

ى: سبب دفع راية سعد بن عبادة إلى الإمام علىّ﴿عليه السلام﴾:

و قد كان في الكتيبة ألف دارع، و راية رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يومئذ مع سعد بن عبادة و هو أمام الكتيبة فلمّا حاذاهما (يعنى أباسفيان و العبّاس عند خطم الجبل) سعد نادى: يا أباسفيان:

اليـــوم يـــوم المـلحمة اليوم تسبى (تستحلّ) الحرمة

اليوم أذلّ اللّه قريشاً، فلمّا حاذا هما رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ناداه أبوسفيان! يا رسول اللّه! أمرت بقتل قومك؟ إنّ سعداً قال: كذا و كذا... و إنّي أُنشد اللّه في قومك، فأنت أبرّ النّاس ، و أرحم النّاس و أوصل النّاس.

فقال العبّاس لرسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾: أما تسمع يا رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ ما يقول سعد بن عبادة؟ إنّي لا آمن أن يكون له في قريش صولة، فوقف النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و ناداه: «يا أباسفيان! بل اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ اللّه قريشاً» و أرسل إلى سعد فعزله عن اللّواء، فدفعه إلى عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فذهب به حتّى دخل مكّة، فغرزه عند الرّكن.

في الإرشاد: «و لمّا أمر رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ سعد بن عبادة بدخول مكّة بالرّاية غلظ على القوم، و أظهر ما في نفسه من الحنق عليهم و دخل و هو يقول:

اليوم يوم المَلْحَمة اليوم تُسبىٰ الحُرْمة

فسمعها العبّاس رضى اللّه عنه، فقال للنّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أما تسمع يا رسول اللّه ما يقول سعد بن عبادة؟ إنّي لا آمن أن يكون له في قريش صولة، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لأمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾: «أدْرِك - يا عليّ - سعداً فخذ الرّاية منه، و كن أنت الّذي يدخل بها مكّة» فأدركه أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ فأخذها منه، و لم يمتنع عليه سعد من دفعها.

قال الشّيخ المفيد رضوان اللّه تعالى عليه: «فكان تلافي الفارط من سعد في هذا الأمر بأمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ و لم ير رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أحداً من المهاجرين و الأنصار يصلح لأخذ الرّاية من سيّد الأنصار سوى أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ و عَلِمَ أنّه لو رام ذلك غيره لامتنع سعد منه، فكان في امتناعه فساد التّدبير و اختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين، و لمّا لم يكن سعد يخفض جناحه لأحد من المسلمين و كافّة النّاس سوى النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لم يكن وجه الرّأي تولّي رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أخذ الرّاية منه بنفسه، ولّى ذلك من يقوم مقامه، و لا يتميّز عنه و لا يعظم أحد من المُقرّين بالملّة عن الطّاعة له، و لا يراه دونه في الرّتبة.

و في هذا من الفضل الّذي تخصّص به أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ ما لم يشركه فيه أحد، و لا ساواه في نظير له مساوٍ، و كان عِلْمُ اللّه تعالى و رسوله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في تمام المصلحة بإنفاذ

أميرالمؤمنين﴿ﷺ﴾ دون غيره، ما كشف عن اصطفائه لجسيم الأُمور، كما كان عِلْمُ اللّٰه تعالى فيمن اختاره للنّبوّة و كمال المصلحة ببعثته كاشفاً عن كونهم أفضل الخلق أجمعين» انتهى كلامه و رفع مقامه الشّريف.

و قيل: «فجعلت الجنود تمرّ به حتّى مرّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ في الأنصار، ثمّ انتهى إليه سعد بن عبادة بيده راية رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فقال: يا باحنظلة:

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة

يا معشر الأوس و الخزرج ثاركم يوم الجبل، فلمّا سمعها من سعد... خلّى العبّاس، و سعى إلى رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ و زاحم النّاس، حتّى مرّ تحت الرّماح، فأخذ غرزه فقبّلها، ثمّ قال: بأبي أنت و أُمّي أما تسمع ما يقول سعد؟ و ذكر ذلك القول، فقال﴿ﷺ﴾: «ليس ممّا قال سعد شيء» ثمّ قال لعليّ﴿ﷺ﴾: «أدرك سعداً فخذ الرّاية منه، و أدخلها إدخالاً رفيقاً» فأخذها عليّ﴿ﷺ﴾ و أدخلها كما أمر، فقال سعد:لولاك لما أخذت منّي».

و أسلم يومئذ حكيم بن حزام، و بديل بن ورقاء و جبير بن مطعم.

ك: انطلاق أبي سفيان و رجوعه إلى مكّة:

و لمّا مرّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بمحبس أبي سفيان، و رأى أبوسفيان هناك جنود اللّٰه تعالى و عزّة المسلمين و رأت الجنود ذلّة أبي‌سفيان، أمر رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ العبّاس بإطلاق أبي‌سفيان، فقال له العبّاس: أَلْحِقِ الآن بقومك فحذّرهم، فخرج أبوسفيان من المحبس سريعاً، فأقبل يركض حتّى دخل مكّة، و قد سطح الغبار من فوق الجبل، و قريش لاتعلم، و أقبل أبوسفيان من أسفل الوادي يركض فاستقبله قريش، و قالوا: ما وراءك؟ و ما هذا الغبار؟ قال: محمّد في خلق، حتّى أتى المسجد فصرخ و نادى في المسجد: يا معشر قريش، يا آل غالب! هذا محمّد في عشرة آلاف، عليهم الحديد! قد جآءكم بما لا قِبَل لكم به؟ قالوا: فمه؟ فقال: البيوت البيوت، و قد جعل لي أنّه من دخل داري فهو آمن، فقالوا: ويحك و ما تغني عنّا دارك؟

قال: من دخل المسجد فهو آمن، و من أغلق عليه بابه فهو آمن، و من ألقى سلاحه

فهو آمن، فعرفت هند بنت عتبة، زوجة أبي‌سفيان و هي آكلة الأكباد، فجائت زوجها في المسجد فأمسكت برأسه، و قيل: بشاربه، ثمّ قالت: بئس طليعة القوم! و اللّه ما خدشت خدشاً، يا أهل مكّة، عليكم الحميت الدّسم، اقتلوا هذا الشّيخ الخبيث لعنه اللّه من وافد قوم و طليعتهم و يقول أبوسفيان: ويحكم! يا معشر قريش لاتغرّنّكم هذه من أنفسكم، فأنّي رأيت ما لم تروا: الرِّجالَ و الكُراع و السّلاح، ليس لأحد بهذا طاقة، محمّد في عشرة آلاف، فأسلموا تسلموا! و قال لهند: ويلك! إنّي رأت ذات القرون، و رأيت فارس أبنآء الكرام، و رأيت ملكوك كندة و فتيان حمير يسلمون آخر النّهار، و يلك اسكتي، فقد و اللّه جآء الحقّ، و ذهبت البليّة.

فتفرّق النّاس إلى دورهم و إلى المسجد.

ل- وصول رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى ذي طوىٰ، و خروج قريش إليها:

و قد خرج جماعة من أهل مكّة إلى ذي طوى ينظرون إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾، و انضوى إلى صفوان ابن أُميّة و عكرمة بن أبي جهل و سهيل بن عمروناس من أهل مكّة و من بني بكر و هُذَيل، فلبسوا السّلاح ليقاتلوا، و أقسموا لايدخل محمّد مكّة عنوةً أبداً، و كان رجل من بني الدّؤل يقال له: حِماس بن قيس بن خالد، أخو بني بكر لمّا سمع برسول اللّه﴿ﷺ﴾ جلس يُصلح سلاحه، فقالت له امرأته: لِمَ تُعِدّ السّلاح؟ قال: لمحمّد و أصحابه، و إنّي لأرجو أن أخدمك منهم خادماً، فإنّك إليه محتاجة، فقالت: واللّه ما أراه يقوم لمحمّد و أصحابه شيء فقال:

إن تُقبِلوا اليوم فمالي عِلّه   هذا سلاح كامل وَأله

و ذو غِرارَتَينِ سريع السَّلّه

قالت: و يحك لاتفعل، و لاتقاتل محمّداً، و اللّه ليضلّنّ هذا عنك لو رأيت محمّداً و أصحابه!

قال: سترين، و لمّا انتهى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى ذي طُوى و هو على ناقته القُصوى لابساً ببرد يمانيّ حمراء، و عليه عمامة سوداء، و رايته سوداء، و لوائه أسود، حتّى وقف

بذي طوى، و توسّط النّاسَ، حتّى إنى عُثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرَّحل أو يقرب منه، تواضعاً للّه تعالى حيث رأى ما رأى من الفتح و كثرة المسلمين، و قال: لا عيش إلّا عيش الآخرة، و جُعِلَتِ الخيل تعجّ بذي طوى في كلّ وجه، ثمّ ثابَتْ و سكنَتْ، و التفت رسول اللّه﴿ﷺ﴾ إلى اُسَيْد بن حُضَير، فقال: كيف قال حسّان بن ثابت؟ قال: فأنشده:

عَدِمْنا خَيْلَنا إن لم تروها — تثير النّقع مَوْعِدُها كدآء

تظلّ جيادُنا متمطّرات — تلطّمهنّ بالخُمُر النّسآء

قوله: «النّقع»: الغبار، و «كداء»: جبل بأعلى مكّة، دخل رسول اللّه﴿ﷺ﴾ مكّة منها، و «متمطّرات»: مسرعات.

فتبسّم رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و حمد اللّه تعالى.

و لمّا فتح رسول اللّه﴿ﷺ﴾ مكّة، أقبل حماس بن خالد الدّؤليّ منهزماً أتى بَيْتَه فدقّه، ففتحت له امرأته، فدخل و قد ذهبت روحه، فقالت: أين الخادم الّتي وعدتَني؟ ما زلتُ منتظرةً تك منذ اليوم تسخر به، فقال: دعي هذا و أغلقي الباب، فإنّه من أغلق بابه فهو آمن، قالت: و يحك! ألم أنهك عن قتال محمّد! و قلت لك: إنّي ما رأيته يقاتلكم مرّة إلّا و ظهر عليكم، و ما بابُنا؟ قال: إنّه لا يفتح على أحد بابَه، ثمّ أنشدها:

إنّك لو شَهِدْتنا بالخَنْدَمَة — إذ فرّ صفوان و فَرّ عِكْرمة

و أبو يزيد كالعجوز المُؤتمة — و ضَرَبَتْنا بالسّيوف المُسْلمة

له زئيرٌ خلفنا و غمغمة — لم تنطق في اللوم أدنى كلمة

و في **تفسير القمي**: «و قل ربّ أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» فإنّها نزلت يوم فتح مكّة، لمّا أراد رسول اللّه﴿ﷺ﴾ دخولها أنزل اللّه: «و قل» يا محمّد: «ربّ أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» أى معيناً «و قل جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً» قال: فارتجّت مكّة من قول أصحاب رسول اللّه﴿ﷺ﴾: «جآء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً».

م- عهد النّبيّ﴿ﷺ﴾ بعدم قتل أهل مكّة حين فتحها:

و قد فرّق رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ جيشه من ذي طوى أن يدخلوا مكّة من نواحي مختلفة، و قد عهد إلى اُمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكّة: أن يكفّوا أيديهم عن قريش، و ألّا يقتلوا أحداً إلّا مَن قتلهم، و أمرهم بقتل ستّة نفر من الرّجال، و أربع من النّسآء، أمرهم بقتلهم و إن وجدوهم تحت أستار الكعبة. **أمّا الرّجال فهم:**

١- عبداللّٰه بن سعد بن أبي سرح، فأمر﴿ﷺ﴾ بقتله لأنّه ارتدّ مشركاً بعد أن أسلم، ففرّ إلى عثمان، و كان أخاه من الرّضاعة، فغيّبه حتّى أتى به رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بعد أن اطمأنّ أهل مكّة فاستأمن له رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فذكر أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ صَمَتَ طويلاً، ثمّ قال: نعم، فلمّا انصرف به عثمان قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لمن حوله من أصحابه: أما و اللّٰه لقد صَمَتُّ ليقوم إليه بعضكم، فيضرب عنقه، فقال رجل من الأنصار: فهلّا أومأت إلَيَّ يا رسول اللّٰه؟ قال: إنّ النّبيّ﴿ﷺ﴾ لا يقتل بالإشارة.

قال الواقدي: فجعل عبداللّٰه بن سعد يفرّ من رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ بعدئذٍ كلّما رآه، فقال له﴿ﷺ﴾ عثمان: بأبي أنت و اُمّي! لو ترى ابن اُمّ عبد يفرّ منك كلّما رآك، فتبسّم رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ فقال: أولم اُبايعه و اُؤمّنه؟ قال: بلى، و لكنّه يتذكّر عظم جرمه في الإسلام، فقال﴿ﷺ﴾: «إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله».

٢- عبداللّٰه بن هلال بن خطل الأدرمي، رجل من بني تميم بن غالب، و قد أمر﴿ﷺ﴾ بقتله أنّه كان مسلماً، فبعثه رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ مصدِّقاً و بعث معه رجلاً من الأنصار و كان معه مولى له يخدمه و كان مسلماً، فنزل منزلاً، و أمر المولى أن يذبح له تيساً و يصنع له طعاماً، و قام فاستيقظ و لم يصنع له شيئاً، فعدا عليه فقتله ثمّ ارتدّ مشركاً، فقتله سعيد بن حريث المخزومي و أبرزة الأسلمى اشتركا في دمه.

٣- الحُوَيْرث بن نُقَيْذ بن وهب، و كان ممّن يؤذّيه بمكّة كثيراً، فقتله عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾.

٤- مقيس بن صبابة الليثي، قد أمر﴿ﷺ﴾ بقتله، لقتله الأنصارى الّذي كان قتل أخاه خطأ، و رجوعه إلى قريش مرتدّاً، فقتله نُميلة بن عبداللّٰه رجل من قومه في السّوق.

٥- عِكرمة بن أبي جهل، فإنّه هرب إلى اليمن، و أسلمته امرأتـه أُمّ حكـيم بـنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فآمنه، فخرجت في طلبه حتّى أتت به رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فكان عكرمة يحدث فيما يذكرون أنّ الّذي ردّه إلى الاسلام بعد خروجه إلى اليمين أنّه كان يقول: أردت ركوب البحر لألحق بالحبشة، فلمّا أتيت السّفينة لأركبها قال صاحبها: يا عبداللّه لاتركب سفينتي حتّى توحّد اللّه و تخلع ما دونه من الأنداد الّتي معك، فإنّي أخشى إن لم أفعل أن نهلك فيها، فقلت: و ما يركبه أحد حتّى يوحّداللّه و يخلع مادونه؟ قال: نعم لايركبه أحد إلّا أخلص. قال: فقلت: ففيما أُفـارق محمّداً، فهذا الّذي جآءنا به، فواللّه إنّ إلهنا في البحر لإلهنا في البرّ، فعرفت الإسلام عند ذلك، و دخل في قلبي.

٦- هبّاز بن الأسود و هو كثير الايذاء برسول اللّه﴿ﷺ﴾ في مكّة.

و أمّا النّسآء فهنّ:

١- هند أُمّ معاوية بن أبي سفيان، بنت عتبة بن ربيعة، و هي آكلة الأكباد، فأسلمت و بايعت كرهاً كزوجها أبي سفيان.

٢- سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، و هي جاسوسة قريش، و عميلة حاطب بن أبي بلتعة، حاملة كتابه لقريش، و قد كانت ممّن يؤذى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ كثيراً بمكّة، فاستومن لها، فآمنها رسول اللّه﴿ﷺ﴾ ثمّ بقيت حتّى أوطأها رجل مـن النّاس فرساً له في زمن عمر بن الخطّاب بالأبطح فقتلها.

٣ و ٤- قَيْنتان لابن خطل، كانت تغنّيان بهجاء رسول اللّه﴿ﷺ﴾ و بمراثي أهل بدر، فأمر رسول اللّه بقتلهما مع ابن خطل، إسمهما: قريبة و قريبا، يقال: قرينا و أرنب، فقتلت قريبة يوم الفتح، و أفلت قريبا حتّى استؤمن لها رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بعد فآمنها، حتّى عاشت إلى زمن عثمان.

و **في قرب الأسناد:** عن الإمام الباقر﴿عليه السلام﴾ قال: «أمر رسول اللّه﴿ﷺ﴾ بـقتل عبداللّه بن أبي سرح، و إن وُجِدَ في جوف البيت، و بقتل عبداللّه بن خطل، و قـتل مقيس بن صبابة، و بقتل قرسا، و أُمّ سارة، قال: و كانتا قينتين تزنيان (ترنيان خ) و تغنّيان بهجاء النّبيّ﴿ﷺ﴾ و تحضّضان يوم أُحد على رسول اللّه﴿ﷺ﴾.

ن: خالد بن الوليد و قتال المشركين يوم فتح مكّة:

إنّ رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ أمر خالد بن الوليد أن يدخل من اللّيط أسفل مكّة في بعض النّاس، و كان خالد على المجنّبة اليمني، و فيها أسلم و سُلَيم و غفار و مُزينة و جُهَيْنة و قبائل من العرب، و قد جمع صفوان بن اُميّة و عِكرمة بن أبي‌جهل و سهيل بن عمر و ناساً بالخَنْدمة ليقاتلوا المسلمين، فلمّا لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئاً من قتال، و قُتِلَ من أصحاب خالد، كُرز بن جابر و خنَيس بن خالد، و قُتِلَ من المشركين اثنى عشر رجلاً و قيل: ثلاثة عشر رجلاً و قيل عشرون رجلاً و قيل: أربعة و عشرون رجلاً. ثمّ انهزموا، و هرب عكرمة ابن أبي جهل إلى اليمن.

و في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: قال الواقدى: «و دخلت الجنود كلّها -مكّة - فلم تَلْقَ حرباً إلّا خالد بن الوليد، فإنّه وجد جَمْعاً من قريش و أحابيشها قد جمعوا له، فيهم صفوان بن اُميّة، و عكرمة بن أبي جهل، و سهيل بن عمرو، فمنعوه الدّخول، و شهروا السّلاح، و رموه بالنّبل، و قالوا: لاتدخلها عنوة أبداً، فصاح خالد في أصحابه و قاتلهم، فقُتِلَ من قريش أربعة و عشرون، و من هُذيل أربعة، و انهزموا أقبح انهزام حتّى قُتِلوا بالحَزْورة، و هم مُوَلّون من كلّ وجه، و انطلقت طائفة منهم فوق رؤس الجبال، و اتّبعهم المسلمون، و جعل أبوسفيان بن حرب و حكيم بن حُزام يناديان: يا معشر قريش، عَلامَ تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، و من أغلق عليه بابه فهو آمن، و من وضع السّلاح فهو آمن، فجعل النّاس يقتحمون الدّور، و يُغلقون عليهم الأبواب، و يطرحون السّلاح في الطّرق حتّى يأخذه المسلمون.

و أشرف رسول اللّه﴿صلى الله عليه و آله﴾ من على ثنيّة أذاخر، فنظر إلى البارقة، فقال: ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال؟ قيل: يا رسول اللّه! خالد بن الوليد قُوتِلَ، و لو لم يقاتل ما قاتل، فقال: قضاء اللّه خير، و أقبل ابن خطل مدحّجا في الحديد على فرس ذَنوب‌وافر الذَّنَب- بيده قناة، يقول: لا و اللّه لايدخلها عنوة حتّى يرى ضَرْباً كأفواه المزاد، فلمّا انتهى إلى الخَنْدَمة و رأى القتال، دخله رُعْب حتّى ما يستمسك من الرّعدة و مرّهارباً حتّى انتهى إلى الكعبة، فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحه و ترك فرسه».

و من ثمّ قدم رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و قام النّاس إليه يبايعونه، فأسلم أهل مكّة، و أقام النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ عندهم نصف شهر، لم يزد على ذلك حتّى جآئت هوازن وثقيف فـنزلوا بحُنين.

س: الإمام عليّ﴿علیه السلام﴾ و فتح مكّة المكرّمة:

و قد كانت الرّاية يوم فتح مكّة بيد مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿علیه السلام﴾ و كان شعار المسلمين يومئذ: «نحن عباد اللّٰه حقّاً حقّاً» و قد دخـل رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ مكّة يوم الفتح من كداء حتّى نزل بأعلى مكّة و ضُرِبت هنا لك قبّته. و قيل: دخلها من أذاخر، فلمّا أشرف نظر إلى بيوت مكّة، فحمداللّٰه تعالى و أثنى عليه، و نظر إلى موضع قبّة بالأبطح تُجاه شـعب أبي طـالب﴿علیه السلام﴾ حـيث حُـصِر رسـول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ و أهله ثلاث سنين، و قال: إنّ منزلنا اليوم حيث تقاسمت علينا قريش في كفرها.

و قال جابر: فذكرتُ كلاماً كنت أسمعه منه﴿صلی الله علیه و آله﴾ في المدينة قبل الفتح، كان رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ يقول: منزلنا غداً إن شآء اللّٰه إذا فتح علينا مكّة في الخيف حيث تقاسموا على الكفر.

و قد كان فتح مكّة يوم العشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة.

و قيل: كانت قبّته يومئذ بالأَدَم ضُرِبَتْ له بالحَجون، فأقبل حتّى انتهى إليها و معه أُمّ سلمة و ميمونة.

و في **فروع الكافي**: بإسناده عن معاوية بن وهب قال: لمّا كان يوم فتح مكّة ضربت على رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ خيمة سوداء من شعر بالأبطح، ثمّ أفاض عليه من جفنة يرى فيها أثر العجين، ثمّ تحرّى القبلة ضحى، فركع ثمان ركعات لم يركعها رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ قبل ذلك و لا بعد».

و فيه: بإسناده عن معاوية بن عمّار قال: قال رسول اللّٰه﴿صلی الله علیه و آله﴾ يوم فتح مكّة: إنّ اللّٰه حرّم مكّة يوم خلق السّموات و الأرض، و هي حرام إلى أن تقوم السّاعة لم تحلّ

لأحد قبلي، و لاتحلّ لأحدٍ بعدي، و لم تحلّ لي إلّا ساعة من نهار».

و فيه: بإسناده عن فضيل بن عياض عن أبي عبد اللّٰه عن ابيه عليهما السلام قال: «إنّ رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم فتح مكّة لم يسب لهم ذرّيّة، و قال: من أغلق بابه فهو آمن، و من ألقى سلاحه فهو آمن».

ع- توجّه رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلى الكعبة يوم الفتح:

و لمّا مكث رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في قبّته ساعة من النّهار دعا براحلته بعد أن اغتسل و صلّى، فأدنى إلى باب القبّة، و خرج متوجّهاً إلى الكعبة و عليه السّلاح و المِغفَر على رأسه، و قد صفّ له النّاس، فركبها و الخيل تسرع ما بين الخندمة إلى الحجون، فلمّا انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته، فاستلم الرّكن بمِحجَنِهِ (المِحجن: عود معوج الطرف، يمسكه الرّاكب للبعير في يده) و كبّر النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فكبّر المسلمون لتكبيره و عجّوا بالتكبير حتّى ارتجّت مكّة، و جعل رسول اللّٰه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يشير إليهم أن اسكتوا و المشركون فوق الجبال ينظرون.

ثمّ طاف ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالبيت على راحلته، و محمّد بن مسلمة آخذ بزمامها، و حول الكعبة ثلاثمأة و ستّون صنماً مشدودة بالرّصاص، و كان هُبَل أعظمها، و هو تجاه الكعبة على بابها، و إساف و نائلة حيث ينحرون و يذبّحون الذّبآئح، فجعل ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كلمّا يمرّ بصنم منها يشير إليه بقضيب في يده، و يقول: «جآء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً».

فما أشار ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إلى صنم منها في وجهه إلّا وقع لقفاه، و لا أشار إلى قفاه إلّا وقع لوجهه، حتّى ما بقى منها صنم إلّا هُبَل، فأمر ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عليّاً بكسر هُبَل، و هو ﴿صلى الله عليه وآله﴾ واقف عليه.

فقال الزّبير لأبي سفيان: يا أباسفيان! قد كُسِرَ هُبَل، أمّا إنّك قد كنت منه يوم أُحُد في غرور حين تزعم أنّه قد أنعم؟ فقال: دع هذا عنك يا بن العوامّ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمّد غيره لكان غير ما كان.

و قال تميم بن أسد الخُزاعيّ في ذلك:

و في الأصـــنام مـعتبر و عـلم   لمن يـرجـوا الثّـواب أو العـقابا

و في الإرشاد للشّيخ المفيد رضوان اللّٰه تعالى عليه: «و لمّا دخل رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ المسجد، و جد فـيه ثـلاثمأه و سـتّين صـنماً، بـعضها مشـدود بـبعض بـالرَّصاص، فقال﴿ﷺ﴾ لأمير المؤمنين﴿ع﴾: «أعطني يا عليّ كفّاً من الحصآء» فقبض له أمـير المؤمنين﴿ع﴾ كفّاً فناوله، فرماهابه و هو يقول: «قل جآء الحقّ و زهق البـاطل إنّ الباطل كان زهوقاً» الإسراء: ٨١) فما بقي منها صنم إلّاخرّ لوجهه، ثمّ أمر بها فأُخرجَتْ من المسجد فطُرِحَتْ و كُسِرَتْ».

و في المجمع: عن ابن عبّاس: قال: لمّا قدم النّبيّ﴿ﷺ﴾ مكّة أبى أن يدخل البيت و فيه الآلهة، فأمر بها فأُخرجت، فأخرج صورة إبراهيم و إسمعيل و في أيديهما الأزلام، فقال﴿ﷺ﴾: «قاتلهم اللّٰه أما و اللّٰه لقد علموا أنّهما لم يستقسما بها قطّ».

و في رواية: «فجعل﴿ﷺ﴾ الصّنم ينكب لوجهه و يقول: «جاء الحـقّ و زهـق الباطل» و أهل مكّة يقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمّد».

و في سعد السّعود: للسّيّد بن طاووس رضوان اللّٰه تعالى عليه روى من تفسير الكلبيّ: «أنّ رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ لمّا فتح مكّة وجد في الحجر أصناماً مـصفوفة حـوله ثلاثمأة و ستّين صنماً، صنم كلّ قوم بحيالهم، و معه مخصرة بيده، فـجعل يأتي الصّـنم فيطعن في عينيه أو في بطنه، ثمّ يقول: «جآء الحقّ» يقول: ظهر الإسلام «و زهق الباطل» يقول: و هلك الشّرك و أهله، و الشّيطان و أهله «إنّ الباطل كان زهوقاً» يقول: هالكاً، فجعل الصّنم ينكب لوجهه إذا قال رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ ذلك، فجعل أهل مكّة يتعجّبون و يقولون فيما بينهم: ما رأينا رجلاً أسحر من محمّد».

و في تفسير العيّاشي عن ابن أبي يعفور عن أبي عبد اللّٰه ﴿ع﴾ قال: سئلته عن قول اللّٰه: «و لولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» الإسراء: ٧٤) قال: لمّا كان يوم الفتح أخرج رسول اللّٰه﴿ﷺ﴾ أصناماً من المسجد، و كان منها صنم على المروة، و طلبت إليه قريش أن يتركه و كان استحيا، فهمّ بتركه ثمّ أمر بكسره فنزلت هذه الآية.

و فى المناقب لابن شهر آشوب السّروي المازندراني رضوان اللّٰه تعالى عليه: «و كان فيها ثلاثمأة و ستّون صنماً بعضها مشدوداً ببعض بالرّصاص، فأنفذ أبوسفيان من ليلته مناة إلى الحبشة، و منها إلى الهند، فهيّأوا لها داراً من مغناطيس، فتعلّقت في الهوآء إلى أيّام محمود سبكتكين، فلمّا غزاها أخذها و كسرها و نقلها إلى اصفهان و جعلت تحت مارّة الطّريق».

ف- الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ وليد الكعبة يكسر أصنامها:

و أعلم أنّ الرّوايات الواردة في المقام عن طريق العامّة و حملة آثارهم في تفاسيرهم و صحاحهم و مسانيدهم و مآخذهم المعتبرة عندهم كثيرة جدّاً لا يسعها المقام و نحن على جناح الاختصار، فنشير إلى نبذة منها في ولادة الإمام على ﴿عليه السلام﴾ في جوف الكعبة أوّلاً ثمّ كسره أصنامها ثانياً:

۱- ما رواه الدّهلوي الهندي في (تجهيز الجيش: ص ۱۱۰) عن يزيد بن فعتب (قعنب خ) قال: كنت جالساً مع العبّاس بن عبد المطّلب، و فريق من بني عبد العُزّىٰ بإزاء بيت الحرام إذ أقبلت فاطمة بنت أسد اُمّ أمير المؤمنين و كانت حاملاً به لتسعة أشهر، و قد أخذها الطّلق، فقالت: يا ربّ إنّى مؤمنة بك و ما جآء من عندك عن رسل و كتب، و إنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل ﴿عليه السلام﴾ الّذي بنى البيت العتيق، فبحقّ الّذي بنى هذا البيت و المولود الّذي في بطني إلّا ما يسّرت عَلَيَّ ولادتي.

قال يزيد بن فعتب: فرأيت البيت قد انشقّ عن ظهره، و دخلت فاطمة فيه، و غابت عن أبصارنا، و عاد إلى حاله، فعزمنا أن يفتتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أنّ ذلك من أمر اللّٰه تعالى، ثمّ خرجت في اليوم الرّابع، و على يدها أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب و هي تقول: إنّي فضّلتُ على مَن تقدمني من النّسآء، لأنّ آسية بنت مزاحم عبدت اللّٰه سرّاً في موضع لا يحبّ اللّٰه أن يُعبَد فيه إلّا اضطراراً، و أنّ مريم بنت عمران هزّت النّخلة اليابسة بيدها حتّى أكلت منها رطباً جنيّاً، و إنّي دخلت بيت اللّٰه الحرام، فأكلت من ثمار الجنّة و أرزاقها، فلمّا أردت أن اُخرج هتف بي هاتف! يا فاطمة سمّيه عليّاً، فهو عليّ،

والله العليّ الأعلى، شققت اسمه من اسمي، و أدّبته بأدبي، و أو قفته على غامض علمي، و هو الّذي يكسر الأصنام، و هو الّذي يؤذّن فوق ظهر بيتي، و يقدّسني و يمجّدني، طوبى لمن أحبّه و أطاعه، و ويل لمن أبغضه و عصاه.

قال: فولدت عليّاً و لرسول الله﴿ﷺ﴾ ثلاثون سنة، فأحبّه رسول الله حبّاً شديداً، و قال لها: اجعلي مهده بقرب فراشي، و كان﴿ﷺ﴾ يلي أكثر تربيته و كان يظهر عليّاً في وقت غسله، و يوجر اللبن عند شربه و يحرّك مهده عند نومه، و يناغيه في يقظته و يحمله على صدره و رقبته، و يقول: هذا أخي و وليّ و ناصري و وصيّ و زوج كريمتي و ذخري و كهفي و صهري و أميني على وصيّتي و خليفتي، و كان رسول الله﴿ﷺ﴾ يحمله دائماً و يطوف به في جبال مكّة و شعابها، و أوديتها و فجاجها صلّى الله على الحامل و المحمول».

و في نهج البلاغة:- في الخطبة القاصعة- قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: «... و قد علمتم موضعي من رسول الله﴿ﷺ﴾ بالقرابة القريبة و المنزلة الخصيصة و ضعني في حَجْره و أنا وليد، يضمّني إلى صدره و يكنفني في فراشه و يمسّني جسده و يشمّني عَرْفه و كان يمضغ الشّئ ثمّ يلقّمنيه...».

٢- ما رواه الفقيه ابن المغازلي الواسطي الشّافعي في (مناقب أمير المؤمنين) بإسناده عن عليّ بن الحسين قال: كنت جالساً مع أبي (الحسين بن عليّ) و نحن زائري قبر جدّنا﴿ﷺ﴾ و هناك نسوة كثيرة إذ أقبلت امرأة منهنّ، فقلت لها: من أنت رحمك الله؟ فقالت: أنا زبدة بنت قرسة بن العجلان من بني ساعدة، فقلت لها: فهل عندك شيء تحدّثينا، فقالت: إي و الله حدّثتني أُمّ عمارة بنت محارّة بن نضلة بن مالك بن العجلان السّاعدى، إنّها كانت ذات يوم في نسآء من العرب إذ أقبل أبوطالب كئيباً حزيناً، فقلت له: ما شأنك أبا طالب؟ فقال: إنّ فاطمة بنت أسد في شدّة المخاض، ثمّ وضع يده على وجهه، فبينا هو كذلك إذ أقبل محمّد، فقال: ما شأنك يا عمّ؟

فقال: إنّ فاطمة بنت أسد تشتكي المخاض، فأخذ بيدها، و قمن (قامت خ) معه، فجاء بها إلى الكعبة، فأجلسها في الكعبة، ثمّ قال: اجلسي على اسم الله، قالت: فطلقت طلقة،

فولدت غلاماً مسروراً نظيفاً منظّفاً لم أركحسن وجهه، فسمّـاه أبوطالب عليّاً، و حمله النّبيّ حتّي أدّاه إلى منزلها.

قال عليّ بن الحسين﴿عليه السلام﴾: فو اللّه ما سمعت بشيء قط إلّا و هذا أحسن منه.

رواه جماعة من أعاظم العامّة بأدنى تفاوت:

منهم: المحدّث ابن الصّبّاغ المالكي في (الفصول المهمّة: ص ١٢ ط الغرى) و زاد بعد قوله: «فسمّاه أبوطالب عليّاً» و قال شعراً:

سمّيته بعليّ كي يـدوم له عزّ العلوّ و فخر الغر أدومه

و منهم: الحافظ أبو عبد اللّه البلخي في (تلخيصه: ص ١١ ط الحيدرى. بمبئي)

و منهم: الأمر تسري في (أرجح المطالب: ص ٣٨٨ ط لاهور)

و غيرهم تركناهم للاختصار

٣- ما رواه الحافظ الكنجي الشّافعي في (كـفاية الطّـالب: ص ٢٦٠ ط الغـرى) بإسناده عن جابر بن عبداللّه قال: سئلت رسول اللّه﴿صلى الله عليه وآله﴾ عـن مـيلاد عـليّ بـن أبيطالب، فقال: لقد سئلتني عن خير مولود، ولد في شبه المسيح﴿عليه السلام﴾ إنّ اللّه تبارك و تعالى خلق عليّاً من نوري و خلقني من نوره و كلانا من نور واحد، ثمّ إنّ اللّه عزّوجلّ نقلنا من صلب آدم﴿عليه السلام﴾ في أصلاب طاهرة إلى أرحام زكيّة، فما نقلت من صلب إلّا و نقل عليّ معي، فلم نزل كذلك حتّى استودعني خير رحم و هي آمنة، و استودع عليًّا خير رحم و هي فاطمة بنت أسد، و كان في زماننا رجل زاهد عابد يقاله له: المبرم بن دعيب بن الشّقبان، قد عبد اللّه تعالى مأتين و سبعين سنة لم يسئل اللّه حاجة، فبعث اللّه إليه أباطالب، فلمّا أبصره المبرم قام إليه، و قبّل رأسه و أجلسه بين يديه.

ثمّ قال له: من أنت؟ فقال: رجل من تهامة، فقال: من أيّ تهامة؟ فقال: من بني‌هاشم، فوثب العابد، فقبّل رأسه ثانية، ثمّ قال: يا هذا إنّ العليّ الأعـلى ألهـمني إلهـاماً، قـال أبوطالب ما هو قال؟ ولد يولد من ظهرك و هو وليّ اللّه عزّوجلّ، فلمّا كانت الليلة الّتي ولد فيها عليّ أشرقت الأرض، فخرج أبوطالب و هو يقول: أيّها النّاس وُلد في الكعبة وليّ اللّه عزّوجلّ، فلمّا أصبح دخل الكعبة و هو يقول:

يا ربّ هذا الغسق الدّجيّ و القمر المتبلج المضيّ
بيّن لنا من أمرك الخفيّ ماذا ترى في اسم ذا الصّبيّ

قال: فسمع صوت هاتف يقول:

يا أهل بيت المصطفى النّبيّ خصصتم بالولد الزّكيّ
انّ اسمه من شامخ العليّ عليّ اشتقّ من العليّ

٤- ما رواه الحاكم النيشابوري الشّافعي في (المستدرك: ج ٣ ص ط حيدرآباد الدّكن) ما لفظه: «تواترت الأخبار: أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ كرّم الله وجهه في جوف الكعبة».

٥- ما رواه الحافظ محمّد بن القفال الشّافعيّ في (فضآئل أميرالمؤمنين): «لم يولد في الكعبة إلاّ عليّ».

٦- ما رواه ابن الصّبّاغ في (الفصول المهمّة: ص ١٢ ط الغرى) ما لفظه: «ولد عليّ بمكّة المشرّفة بداخل البيت الحرام، و لم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه، و هي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له، و إعلاءً لمرتبته، و إظهاراً لتكرمته، و كان عليّ هاشميّاً من هاشميين، و أول من ولده هاشم مرّتين».

رواه جماعة من أعاظم العامّة و حملة آثارهم بعينه:

منهم: الصّفوري في (نزهة المجالس: ج ٢ ص ٢٠٤ ط القاهرة).

و منهم: البدخشي في (مفتاح النّجا: ص ٢٠).

و غيرهما تركناهم روماً للاختصار.

٧- ما رواه الأمر تسري في (أرجح المطالب: ص ٣٨٨ ط لاهور) مالفظه: «ولد عليّ بالكعبة، و كان مولده قبل أن يزوّج رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ خديجة بثلاث سنين».

٨- ما رواه السّكتواري البسنوي الحنفي في (محاصرة الأوائل: ص ٧٩ط الآستانة) ما لفظه: «أوّل من لقب في صباه باسم الأسد في الإسلام من الصّحب الكرام، و هو الحيدر من أسماء الأسد سيّدنا عليّ بن أبيطالب رضي الله عنه كان أبو اُمّه غائباً حين ولدته داخل الكعبة، و هي فاطمة بنت أسدلقّبته اُمّه تفاؤلاً باسم أبيه».

٩- ما رواه القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة: ص ٢٥٥ ط إسلامبول) ما لفظه: «عن عبّاس بن عبدالمطّلب رضي الله عنه قال: لمّا ولدت فاطمة بنت أسد عليّاً سمّته باسم أبيه أسد، و لم يرض أبوطالب بهذا الاسم، فقال: هلمّ حتّى نعلو أبا قبيس ليلاً، و ندعو خالق الخضراء فلعلّه أن ينبئنا في اسمه، فلمّا أمسيا خرجا و صعدا أبا قبيس، و داعيا الله تعالى، فأنشأ أبوطالب شعراً:

يا ربّ هذا الغسق الدّجيّ و الفلق المتبلج المضيّ

بيّن لنا عن أمرك المقضيّ لما نسمّي لذاك الصّبيّ

فإذا خشخشة من السّمآء، فرفع أبوطالب طرفه، فإذا لوح مثل زبرجد أخضر فيه أربعة أسطر، فأخذه بكلتا يديه، و ضمّه إلى صدره ضمّاً شديداً فإذاً مكتوب:

خصصتما بالولد الزّكيّ و الطّاهر المنتجب الرّضيّ

و اسمه من قاهر العليّ عليّ اشتقّ من العليّ

فسرّ أبوطالب سروراً عظيماً، و خرّ ساجداً لله تبارك و تعالى، و عقّ بعشرة من الإبل و كان اللوح معلّقاً في بيت الحرام يفتخر به بنوهاشم على قريش حتّى غاب زمان قتال الحجاج ابن الزّبير».

أقول: إنّ الرّوايات الواردة عن الفريقين في ولادة مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب«عليه السلام» في جوف الكعبة قد تواترت لايشكّ فيها إلاّ من كان خبيث الولادة أو فاقد الدّراية أو عديم المسكة...

ص: الإمام عليّ«عليه السلام» على منكبي النّبيّ«صلى الله عليه وآله» و كسر الأصنام عن طريق العامّة:

و قد أورد أعاظم العامّة و حملة أسفارهم روايات كثيرة بأسانيد عديدة في تفاسيرهم و صحاحهم و مسانيدهم، نشير إلى ما يسعه المقام و نحن على جناح الاختصار:

١- روى الحافظ الحاكم الحسكاني الحنفي في (شواهد التّنزيل: ج ١ ص ٣٥٠ ط

بيروت) بأسناده عن أبي هريرة قال: قال لي جابر بن عبدالله: دخلنا مع النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ مكّة، و في البيت و حوله ثلاثمأة و ستّون صنماً يعبد من دون الله، فأمر بها رسول الله فألقيت كلّها لوجهها، و كان على البيت صنم طويل يقال له: هُبل، فنظر رسول الله إلى أميرالمؤمنين و قال له: يا عليّ تركب عَلَيَّ أو أركب عليك لألقي هُبَل عن ظهر الكعبة؟ قلت: يا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بل تركبني، فلمّا جلس على ظهري لم أستطع حمله لثقل الرّسالة، فقلت: يا رسول الله! بل أركبك، فضحك و نزل فطأطأ لي ظهره و استويت عليه، فو الّذي فلق الحبّة و برأ النّسمة لو أردت أن أمسّ السّمآء لمسستها بيدي، فألقيت هبل عن ظهر الكعبة، فأنزل الله تعالى: «و قل جآء الحقّ» يعني قول: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله «و زهق الباطل» يعني و ذهب عبادة الأصنام «إنّ الباطل كان زهوقاً» يعني ذاهباً، ثمّ دخل البيت، فصلّى فيه ركعتين».

٢- روى احمد بن حنبل في (المسند: ج ١ ص ٨٤ ط الميمنية بمصر) باسناده عن أبي مريم عن عليّ رضي الله عنه، قال: انطلقت أنا و النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حتّى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: إجلس و صَعَدَ على منكبي، فذهبت لأنهض به، فرأى منّي ضعفاً، فنزل و جلس لي نبيّ الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و قال: اصعد على منكبي، قال: فصعدتُ على منكبيه، قال: فنهض بي قال: فإنّه يخيّل إليّ أنّي لو شئت لنلت أُفق السّمآء حتّى صعدت على البيت، و عليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت ازاوله عن يمينه و عن شماله و بين يديه و من خلفه حتّى إذا استمكنت منه، قال لي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: اقذف به فقذفت به، فتكسّر كما تتكسّر القوارير.

ثمّ نزلت فانطلقت أنا و رسول الله نستبق حتّى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من النّاس». و في لفظ: «قال رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: «اقذف به، فقذفت به، فتكسّر كما تنكسر القوارير ثمّ نزلت» و في لفظ: «و نزوت من فوق الكعبة». رواه بعينه سنداً و متناً جماعة كثيرة من أعلام العامّة:

منهم: أبوالفرج ابن الجوزي في (صفة الصّفوة: ج ١ ص ١١٩ ط حيدرآباد الدّكن).

و منهم: سبط ابن الجوزي في (تذكرة الخواصّ: ص ٣١ ط النّجف).

و منهم: محبّ الدّين الطّبري في (ذخائر العقبى: ص ٨٥ ط القدسي بمصر).

و منهم: الهيتمي في (مجمع الزّوآئد: ج ٦ ص ٢٤ ط القدسي بمصر).

و منهم: المتّقى الهندي في (منتخب كنز العمّال) المطبوع بهامش (المسند: ج ٥ ص ٥٤ ط القديم بمصر).

و منهم: البدخشي في (مفتاح النجا: ص ٢٧).

و غيرهم تركنا ذكرهم بعد الوقوف للاختصار.

٣- روى الحاكم النيشابوري في (المستدرك: ج ٢ ص ٣٦٧ ط حيدرآباد الدّكن) باسناده عن أبي مريم عن عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ رضي الله عنه قال: انطلق بي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ حتّى أتى بي الكعبة، فقال لي: اجلس، فجلست إلى جنب الكعبة، فصعد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بمنكبي ثمّ قال لي: انهض، فنهضت، فلمّا رأى ضعفي تحته قال لي: اجلس، فنزل و جلست ثمّ قال لي يا عليّ: اصعد على منكبي، فصعدت على منكبيه، ثمّ نهض بي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فلمّا نهض بي خيل إليّ لو شئت نلت أُفق السّمآء، فصعدت فوق الكعبة، و تنحّى رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال لي: ألقِ صنمهم الأكبر، صنم قريش، و كان من نحاس موتّداً بأوتاد من حديد إلى الأرض.

فقال لي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: عالجه، و رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ يقول لى: ايه ايه (جآء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً) فلم أزل أُعاجله حتّى استمكنت منه، فقال: اقذفه، فقذفته، فتكسر و ترديت من فوق الكعبة، فانطلقت أنا و النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ نسعى و خشينا أن يرانا أحد من قريش و غيرهم، قال عليّ﴿عليه السلام﴾ فما صعدته حتّى السّاعة».

رواه جماعة من أعاظم العامّة بأدنى تفاوت في بعض:

منهم: الحاكم النّيشابورى أيضاً في (المستدرك: ج ٣ ص ٥) الطبع المذكور. ثمّ قال: هذا حديث صحيح الأسناد و لم يخرجاه.

و منهم: الخطيب البغدادي الشّافعي في كتابيه: (موضح أوهام الجمع و التّفريق: ج ٢ ص ٤٣٢ ط حيدرآباد) و في (تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٣٠٢ ط القاهرة).

و منهم: الذّهبي في (تلخيص المستدرك) المطبوع في ذيل (المستدرك: ج ٣ ص ٥ ط حيدرآباد)

و منهم: الخطيب الخوارزمي في (المناقب: ص ٧٣ ط تبريز).

و منهم: الحمويني في (فرآئد السّمطين: ص ٥٧).

و منهم: الزّرندي في (نظم درر السّمطين: ص ١٢٥ ط مطبعة القضآء).

و غيرهم تركناهم للاختصار.

٤- روى ابن حسنويه في (درّ بحر المناقب: ص ٨) ما لفظه: «و عنه (عليّ ﴿عليه السلام﴾) قال: دعاني رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هو بمنزل خديجة عليها السلام ذات ليلة، فلمّا صرت إليه، قال: اتّبعني يا عليّ؟ فما زال يمشي و أنا ورآئه، و نحن نخترق بيوت مكّة حتّى أتينا الكعبة، و قد أنام الله كلّ عين، فقال لي رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: يا عليّ! قلت: لبّيك يا رسول الله قال: اصعد يا عليّ فوق كتفي و كسّر الأصنام، قلت: بل أنت يا رسول الله اصعد فوق كتفي، قال: بل أنت اصعد يا عليّ! ثمّ انحنى ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فصعدت على كتفه، فأقبلت الأصنام على رؤوسها، و نزلت، و خرجنا من الكعبة شرّفها الله تعالى حتّى أتينا منزل خديجة عليها السلام، فقال لي: يا عليّ! انّه أوّل من كسّر الأصنام جدّك إبراهيم ﴿عليه السلام﴾ ثمّ أنت يا عليّ آخر من كسّر الأصنام، قال: فلمّا أصبحوا (أصبح خ) أهل مكّة و جدوا الأصنام منكّسة مقلوبة على رؤوسها، فقالوا: ما فعل هذا بآلهتنا إلاّ محمّد أو ابن عمّه، ثمّ لم يقم بعدها في الكعبة صنم».

قال بعض المحقّقين: و قد كان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة، و هذا لاينافي كون الصّنم بعد الهجرة، و معنى قوله ﴿عليه السلام﴾: «ثمّ لم يقم بعدها في الكعبة صنم» أي مادام رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و ابن عمّه بمكّة قبل الهجرة، و هذا لاينافي تكسيره ﴿عليه السلام﴾ الأصنام بعد الفتح، فتدبّر جيّداً، فليس تكسيره ﴿عليه السلام﴾ إيّاها مقصوراً في يوم الفتح كما زعم كثير من النّاس، بل كسّرها بمرّات و كرّات...

٥- روى الفقيه ابن المغازلي الواسطي الشّافعي في (مناقب أميرالمؤمنين) بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لعليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ يوم فتح مكّة: أما ترى هذا الصّنم بأعلى الكعبة؟ قال: بلى يا رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: فأحملك فتناوله، قال: بل أنا أحملك يا رسول الله؟ فقال ﴿صلى الله عليه و آله﴾: لو أنّ ربيعة و مضرّ جهدوا أن يحملوا منّي

بضعة و ناحيّ لما قدروا، و لكن قِف يا عليّ، فضرب رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يديه إلى ساقي عليّ فوق القرنوس، ثمّ اقتلعه من الأرض بيده، فرفعه حتّى تبيّن بياض إبطيه، ثمّ قال لي: ماترى يا عليّ؟ قال: أرى الله عزّوجلّ قد شرّفني بك حتّى لو أردت أن أمسّ السّمآء لمسستها، فقال له: تناول الصّنم يا عليّ؟ فتناوله عليّ، فرمى به، ثمّ خرج رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من تحت عليّ، و قد ترك رجليه، فسقط إلى الأرض، فضحك، فقال له: ما أضحكك يا عليّ؟ فقال: سقطت من أعلى الكعبة فما أصابني شئ، فقال له رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كيف يصيبك و إنّما حملك محمّد و أنزلك جبرائيل ﴿عليه السلام﴾.

رواه بعينه جماعة من أعاظم العامّة و حملة أسفارهم:

منهم: عبدالله الشّافعي في (المناقب: ص ٣٨).

و منهم: الكشفي التّرمذي الحنفي في (المناقب المرتضويّة: ص ١٨٨ ط بمبئي).

و منهم: الهروي في (روضة الأحباب: ص ٤٤٣).

و غيرهم تركناهم للإختصار.

٦- روى الأمر تسري الحنفي في (أرجح المطالب: ص ٤٠٦ ط لاهور) عن ابن مسعود: أنّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ دخل مكّة يوم الفتح و حوله ثلاثمأة و ستّون صنماً لقبآئل العرب لكلّ قوم، صنم فجعل يطعنها و يقول: «جآء الحقّ و زهق الباطل» فينكب الصّنم بوجهه حتّى ألقاها جميعاً، و بقي صنم خُزاعة فوق الكعبة و كان من قوارير صفر، (فقال ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لعليّ): يا عليّ ارم به، فحمله النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حتّى صعد فرمى به فكسر».

٧- روى الكشفيّ الترمذيّ الحنفيّ في (المناقب المرتضويّة: ص ١٨٨ ط بمبئى) عن ابن عبّاس قال: إنّ عليّاً كلّما أشار يومئذ (يوم الفتح مكّة) إلى صنم سقط على ظهره إلاّ ما كان على سطح الكعبة».

٨- روى الحلبيّ الشّافعي في (السّيرة الحلبيّة: ص ٨٦ ط مصر): إنّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال لعليّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾: اصعد على منكبي، و اهدم الصّنم، فقال: يا رسول الله بل اصعد أنت، فإنّي أُكرمك ان اعلوك، فقال: إنّك لاتستطيع حمل ثقل النّبوّة، فاصعد أنت، فجلس النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فصعد عليّ ﴿عليه السلام﴾ على كاهله، ثمّ نهض به، قال عليّ: فلمّا نهض بي

فصعدت فوق ظهر الكعبة – إلى أن قال –: قيل لعليّ: كيف كان حالك؟ و كيف وجدت نفسك حين كنت على منكب رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾؟ فقال: كان من حالي أنّي لو شئت أن أتناول الثّريّا لفعلت...» الخبر. و في رواية الصّفوري في (نزهة المجالس: ج ٢ ص ٧٨) قال عليّ﴿علیه السلام﴾: «لو شئت لعلوت السّمآء الثّانية لقوّته﴿صلی الله علیه و آله﴾».

٨– روى القندوزى الحنفي البلخي في (ينابيع المودّة: ص ١٣٩ ط إسلامبول) ما لفظه: «و في المناقب عن محمّد بن حرب الهلالي، قال: قلت لمولاي جعفر الصّادق﴿علیه السلام﴾ لِمَ لَمْ يطق عليّ حمل رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ عند حطّ الصّنم من سطح الكعبة مع قوّته و قلعه باب خيبر، و رميه على الخندق، و لا يطيق حمل الباب أربعون رجلاً و أنّ النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ يركب بغلاً أو حماراً فيحمله؟ فكيف لايحمله عليّ﴿علیه السلام﴾؟ قال: إنّ النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ حينئذ يعلم ضعف عليّ لصباوته، و لكن وضع قدمه على كتفي عليّ إشارة إلى خلقتهما من نور واحد، يحمل الجزء من النّور الجزء الآخر كما قال عليّ: أنا من أحمد كالكتف من اليد، و كالذّراع من العضد، و كالضّوء من الضّوء، و إنّهما كانا نوراً واحداً قبل خلق الخلق.

و انّ الملائكة لمّا رأت النّور قد تلألأ قالوا: إلهنا ما هذا النّور؟ قال تعالى: هذا نور من نوري لولاه لما خلقت الخلق.

ثمّ قال جعفر﴿علیه السلام﴾: أما علمت أنّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ رفع يد عليّ﴿علیه السلام﴾ بغدير خم حتّى نظر النّاس بياض ابطيه، فجعله مولى المسلمين، و قد احتمل الحسن و الحسين يوم حديقة بني النّجّار و كانا نائمين فيها، و قال: نعم الرّاكبان و أبوهما خير منهما، و أنّه يصلّي بأصحابه، فأطال سجدته، فيقول: إنّ ابني ركبني، فكرهت أن أرفع رأسي حتّى ينزل باختياره، فعل ذلك إظهاراً لشرفهم و عظم قدرهم عند الله عزّوجلّ، و حمل عليّاً على ظهره إشارة إلى أنّه أبو ولده، و الأئمّة من صلبه كما حوّل ردآئه في الاستسقآء اعلاماً أنّه تحوّل الجدب خصباً و إعلاماً أنّ ما حمل المعصوم فهو معصوم و قال:

يا عليّ! إنّ الله حمل ذنوب أتباعك و محبّيك عَلَيَّ، ثمّ غفر لها لي، و ذلك قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» و إعلاماً أنّه﴿صلی الله علیه و آله﴾ أصل الشّجرة، و عليّ والحسن و الحسين أغصانها.

ثمّ قال جعفر﴿عليه السلام﴾: بهذا السّرّ قال﴿صلى الله عليه وآله﴾: عليّ نفسي و أخي أطيعوه.

ثمّ قال القندوزي الحنفي: أنشأ الشّافعي ذلك:

قيل لي: قل لعليّ مدحاً ذكره يخمد ناراً مؤصدة
قلت: لا أقدم في مدح امرءٍ ضلّ ذواللّب إلى أن عبده
و النّبيّ المصطفى قال لنا ليلة المعراج لمّا أصعده
وضع الله بظهري يده فأحسّ القلب أن قد برده
و عليّ واضع أقدامه في محلّ وضع الله يده

و نقل الأبيات جماعة من أعاظم العامّة:

منهم: الهروي في (الأربعين: ص ٦٨) و في (روضة الأحباب: ص ٤٤٣).

و قال عبدالله الشّافعي في (المناقب: ص ٣٧) ما لفظه: «قال محمّد ابن المازندراني في كتاب (البرهان في أسباب نزول القرآن): إنّ تخصيص النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لعليّ﴿عليه السلام﴾ بحمله على ظهره و رميه الأصنام تشريف له على غيره من سآئر الأنام».

أقول: و أنا أزيد على ذلك: أنّ في ذلك تنبيهاً على أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ هو قوّة مقنّنة إلهيّة و عليّ﴿عليه السلام﴾ هو قوّة مجريّة ربّانيّة».

و قال أبوعبدالله الزّرقاني المالكي في (شرح المواهب: ج ٢ ص ٣٣٦) قد أجاد القائل:

يا ربّ بالقدم الّتي أوطأتها من قاب قوسين المحلّ الأعظما
و بحرمة القدم الّتي جعلت لها كتف المؤيّد بالرّسالة سُلّما
ثبّتْ على متن الصّراط تكرّما قدمي و كن لي منقذاً و مسلّما
و اجعلها ذخري فمن كانا له ذخراً فليس يخاف قطّ جهنّما

٩- روى البدخشي في (مفتاح النّجا: ص ٢٧) ما لفظه- بعد ذكر صعود الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ على منكبي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ لكسر الأصنام فوق الكعبة-: «و جآء في بعض الرّوايات: أنّه كرّم الله وجهه لمّا أراد أن ينزل، ألقى نفسه من صوب الميزاب تأدّباً، و لمّا وقع على الأرض تبسّم، فسئله النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عن تبسّمه، قال: لأنّي ألقيت نفسي

من هذا المكان، و ما أصابني ألم، قال﴿عَلَيْهِ السَّلامُ﴾: كيف يصيبك ألم و قد رفعك محمّد، و أنزلك جبرئيل﴿عليه السلام﴾ ثمّ ذكر الأبيات المتقدّمة.

١٠- روى الحاكم النيشابوري في (المستدرك: ج ٣ ص ٥) عن عليّ﴿عليه السلام﴾ و صحّحه قال: «لمّا كانت اللّيلة الّتي أمرني رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ أن أبيت على فراشه، و خرج من مكّة مهاجراً انطلق بي رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ إلى الأصنام، فقال: اجلس، فجلست إلى جنب الكعبة ثمّ صعد رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ على منكبي ثمّ قال: انهض، فنهضت به، فلمّا رأى ضعفي تحته، قال: اجلس فجلست فأنزلته عنّي، و جلس لي رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ ثمّ قال لي: يا عليّ اصعد فصعدت إلى الكعبة...» الحديث.

رواه احمد في (المسند: ج ١ ص ٨٧) من دون تعيين اللّيلة، و كذا في (كنز العمّال: ج ٦ ص ٤٠٧) نقلاً عن ابن أبي شيبة و أبي يعلى في (مسنده) و ابن جرير و الخطيب.

و قد أجاد العلّامة الأميني رضوان الله تعالى في كتاب (الغدير: ج ٧ ص ٩) بعد ذكر قصيدة ابن العرندس الحلّي رحمة الله تعالى عليه، إذ أشار فيها إلى كسر الأصنام بقوله:

و صعود غارب أحمد فضل له دون القرابة و الصّحابة أفضلا

ثمّ ذكر العلّامة ما روى عن الإمام عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و عن جابر بن عبدالله.

و في **الغدير**: «و عن ابن عبّاس قال: قال النّبيّ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ لعليّ: قم بنا إلى الصّنم في أعلى الكعبة لنكسّره فقاما جميعاً، فلمّا أتياه قال له النّبيّ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ قم على عاتقي حتّى أرفعك عليه، فأعطاه عليّ ثوبه، فوضعه رسول الله﴿صلّى الله عليه و آله﴾ على عاتقه، ثمّ رفعه حتّى وضعه على البيت، فأخذ عليّ الصّنم و هو من نحاس، فرمى به من فوق الكعبة كأنّما كان له جناحان».

ثمّ قال العلاّمة: «هذه الأثارة أخرجتها اُمّة من الحفّاظ و أئمّة الحديث و التأريخ، و أخذها منهم رجال التأليف في القرون المتأخّرة و ذكروها في كتبهم مرسلين إيّاها إرسال المسلّم من دون أيّ غمز في سندها»

ثمّ ذكر أحداً و أربعين من هؤلآء الحفّاظ و أئمّة الحديث و التأريخ...

ق: الإمام عليّ﴿؏﴾ و حكمة حطّ الأصنام من ظهر الكعبة:

و لقد كانت لقبائل مختلفة من مشركي العرب أصنام حول الكعبة و في جوفها، و على ظهرها و على الصّفا و المروة - مضافاً على ما في بيوتهم من تماثيل و صور و مجسّمات... - كانوا يعبدونها...

و هي: ودّ و سواع، و يغوث و يعوث و نسر، و مناة و اللّات و العزّىٰ و هُبَل...

و كان ودّ لكلب و هو بدومة الجندل، و سواع لهذيل، و كانوا يحجّون إليه، و ينحرون له، و يغوث لمذحج و لقبائل من اليمن، و يعوث لهمدان، و نسر لذي الكلاع بأرض حمير، و كانت مناة للأوس و الخزرج و غسّان، و اللات لثقيف بالطّائف، و العُزّىٰ لقريش و جميع بني كنانة و قوم من بني سليم، و هُبَل أعظم الأصنام عندهم، و كان على ظهر الكعبة و إساف و نائلة على الصّفا و المروة، وضعهما عمرو بن لحى، و كان يذبح عليهما تجاه الكعبة، و زعموا أنّهما كانا من جرهم، إساف بن عمرو، و نائلة بنت سهيل تعاشقا ففجرا في الكعبة، فمسخا حجرين، و قيل: بل كانا صنمين جاء بهما عمرو بن لُحَيَّ فوضعهما على الصّفا.

و كان لبني ملكان من كنانة صنم يقال له: سعد و هو الّذي يقول فيه قائلهم:

أتَينا إلىٰ سعدٍ ليجمع شَمْلَنا — فَشَتَّتنا سَعْدٌ فلا نحن من سَعْد

و هل سَعْدٌ إلاّ صخرة بتَنوفَة — من الأرض لايدعو لغيٍّ و لا سُدٍ

قوله: «تنوفة»: صحراء أو أرض مترامية أطرافها.

و كانت العرب إذا لبّت و هلّلت تقول:

لبّيك اللّهمّ لبّيك — لبّيك لا شريك لك

إلاّ شريك هو لك — تملكه و ما مَلَك

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿؏﴾: «إنّ الله بعث محمّداً﴿ﷺ﴾ نذيراً للعالمين و أميناً على التّنزيل، و أنتم معشر العرب على شرّ دين و في شرّ دار، منيخون بين حجارة خُشنٍ و حيّات صمّ، تشربون الكدر و تأكلون الجشب و تسفكون دماءكم و تقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، و الآثام بكم معصوبة...» الخطبة: ٢٦).

و فيه: قال الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾: «كذب العادلون بك، إذ شبّهوك بأصنامهم و نحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم...» الخطبة: ٩٠).

فلابدّ و أن يكسر تلك الأصنام من لم يعبدها طرفة عين، و قد كسّرها مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب قبل الفتح و يوم الفتح بأمر رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإنه وُلد على الفطرة و لم يعبدها طرفة عين أبداً إذ كان على بيّنة من ربّه من دون شبهة في دينه إذ قال﴿عليه السلام﴾:

في نهج البلاغة: «فإنّي وُلدتُ على الفطرة، و سبقت إلى الايمان و الهجرة» «و إنّي لعلى يقين من ربّي و غير شبهة من ديني» «و إنّي لعلى بيّنة من ربّي، و منهاج من نبيّ، و إنّي لعلى الطّريق الوضح ألقطه لَقطاً».

و في العلل:- باب ١٣٩ - باسناده عن عبد الجبّار بن كثير التّميميّ اليمانيّ قال: سمعت محمّد بن حرب الهلالي أمير المدينة يقول: سئلت جعفربن محمّد﴿عليهما السلام﴾ فقلت له: يابن رسول الله في نفسي مسئلة أُريد أن أسئلك عنها؟ فقال: إن شئت أخبرتك بمسئلتك قبل أن تسئلنى، و إن شئت فسئل، قال: قلت له: يابن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و بأيّ شيء تعرف ما في نفسي قبل سؤالي؟ فقال: بالتّوسّم و التّفرّس، أما سمعت قول الله عزّو جلّ: «إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين» الحجر: ٧٥)؟ و قول رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله»؟

قال: فقلت له: يابن رسول الله فأخبرني بمسئلتي؟ قال: أردت أن تسئلني عن رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ لِمَ لَمْ يطق حمله عليّ﴿عليه السلام﴾ عند حطّ الأصنام من سطح الكعبة مع قوّته و شدّته، و ما ظهر منه في قلع باب القموص بخيبر و الرّمي به إلى و رائه أربعين ذراعاً و كان لايطيق حمله أربعون رجلاً، و قد كان رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ يركب النّاقة و الفرس والحمار، و ركب البراق ليلة المعراج، و كلّ ذلك دون عليّ﴿عليه السلام﴾ في القوّة و الشّدّة؟ قال: فقلت له: عن هذه و الله أردت أن أسئلك يابن رسول الله فأخبرني؟

فقال﴿عليه السلام﴾ إنّ عليّاً برسول الله تشرّف، و به ارتفع، و به وصل إلى أن أطفأ نار الشّرك، و أبطل كلّ معبود من دون الله عزّوجلّ، و لو علاه النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لحطّ الأصنام

لكان﴿صلی الله علیه و آله﴾ بعليّ﴿علیه السلام﴾ مرتفعاً و تشريفاً و واصلاً إلى حطّ الأصنام، و لو كان ذلك كذلك لكان أفضل منه، ألاترى أنّ عليّاً﴿علیه السلام﴾ قال: لمّا علوت ظهر رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ شرّفت و ارتفعت حتّى لو شئت أن أنال السّمآء لنلتها؟ أما علمت أنّ المصباح هو الّذى يهتدى به في الظّلمة و انبعاث فرعه من أصله، و قد قال عليّ﴿علیه السلام﴾: أنا من أحمد كالضّوء من الضّوء؟ أما علمت أنّ محمّداً و عليّاً صلوات الله عليهما كانا نوراً بين يدي الله عزّوجلّ قبل خلق الخلق بألفي عام؟

و إنّ الملائكة لمّا رأت ذلك النّور رأت له أصلاً قد تشعّب منه شعاع لامع، فقالت: إلهنا و سيّدنا ما هذا النّور؟ فأوحى الله تبارك و تعالى إليهم: هذا نور من نوري، أصله نبوّة، و فرعه إمامة، أمّا النّبوّة فلمحمّد عبدي و رسولي، و أمّا الإمامة فلعليّ حجّتي و وليّي، و لولاهما ما خلقت خلقي، أما علمت أنّ رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ رفع يد عليّ﴿علیه السلام﴾ بغدير خم حتّى نظر النّاس إلى بياض إبطيهما، فجعله مولى المسلمين و إمامهم، و قد احتمل الحسن و الحسين عليهما السلام يوم حظيرة بني النّجّار، فلمّا قال له﴿صلی الله علیه و آله﴾ بعض أصحابه: ناولني أحدهما يا رسول اللّه﴿صلی الله علیه و آله﴾؟ قال: نعم الرّاكبان و أبوهما خير منهما؟ و أنّه ﴿صلی الله علیه و آله﴾ كان يصلّي بأصحابه، فأطال سجدة من سجداته، فلمّا سلّم قيل له: يا رسول الله لقد أطلت هذه السّجدة؟ فقال﴿صلی الله علیه و آله﴾: إنّ ابني ارتحلني، فكرهت أن أُعاجله حتّى ينزل، و إنّما أراد﴿صلی الله علیه و آله﴾ بذلك رفعهم و تشريفهم، فالنّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ إمام و نبيّ، و عليّ﴿علیه السلام﴾ إمام ليس بنبيّ و لا رسول، فهو غير مطيق لحمل أثقال النبوّة.

قال محمّد بن حرب الهلالي: فقلت له: زدني يابن رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾؟ فقال: إنّك لأهل للزّيادة أنّ رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ حمل عليّاً﴿علیه السلام﴾ على ظهره يريد بذلك أنّه أبو ولده و إمام الأئمّة من صلبه كما حوّل ردآئه في صلاة الاستسقآء، و لو أراد أن يعلم أصحابه بذلك أنّه قد تحوّل الجدب خصباً، قال: قلت له: زدني يابن رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ فقال: احتمل رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ عليّاً﴿علیه السلام﴾ يريد بذلك أن يعلم قومه أنّه هو الّذي يخفّف عن ظهر رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ ما عليه من الدّين و العِدات و الأداء عنه من بعده، قال: فقلت له: يابن رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ زدني؟ فقال: احتمله ليعلم بذلك أنّه قد احتمله، و ما حمل إلاّ لأنّه معصوم لايحمل وزراً، فتكون أفعاله عند النّاس حكمة و صواباً.

و قد قال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لعليّ: يا عليّ إنّ الله تبارك و تعالى حمّلني ذنوب شيعتك ثمّ غفرها لي، و ذلك قوله تعالى: «ليغفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» و لمّا أنزل الله عزّوجلّ عليه: «عليكم أنفسكم» قال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: أيّها النّاس! عليكم أنفسكم لايضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم و على نفسي و أخي أطيعوا عليّاً فإنّه مطهّر معصوم لايضلّ و لايشقى، ثمّ تلا هذه الآية: «قل أطيعوا الله و أطيعوا الرّسول فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمّل و عليكم ما حمّلتم و إن تطيعوه تهتدوا و ما على الرّسول إلاّ البلاغ المبين» النّور: ٥٤).

قال محمّد بن حرب الهلالي: ثمّ قال جعفر بن محمّد﴿عليهما السلام﴾: أيّها الأمير لو أخبرتك بما في حمل النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ عليّاً عند حطّ الأصنام من سطح الكعبة من المعاني الّتي أرادها به لقلت: إنّ جعفر بن محمّد لمجنون، فحسبك من ذلك ما قد سمعت، فقمت إليه، و قبّلت رأسه، و قلت: الله أعلم حيث يجعل رسالته».

و في الإرشاد: قال الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه: «و فيما ذكرناه من أعمال أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ في قتل مَن قَتَلَ من أعدآء الله بمكّة، و إخافة من أخاف، و معونة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ على تطهير المسجد من الأصنام، و شدّة بأسه في الله، و قطع الأرحام في طاعة الله أدلّ دليل على تخصّصه من الفضل بما لم يكن لأحد منهم سهم فيه، حسب ما قدّمناه».

أقول: إنّ في حديث صعود الإمام عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ على منكبي رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ لكسر الأصنام و حطّها من ظهر الكعبة دلالة على إمامة أمير المؤمنين﴿عليه السلام﴾ من وجوه عديدة:

منها: أنّ ضعف الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ عن حمل رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ لم يكن مخالفاً لما هو عليه من القوّة العظيمة بل دلّ على أنّ المنشأ في ضعفه هو رعاية جهة الرّسالة، و لذا علم أنّه لو شآء أن ينال السّمآء لنالها، فلايرفع على منكبيه بما هو رسول، ملحوظ به من جهة الرّسالة إلاّ من هو شريك له في أمره و من هو كنفسه و خليفته في اُمّته.

ر- مفتاح الكعبة و دخول رسول الله﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ فيها و انطلاق قريش:

و لقد اختلفت الكلمات في المقام اختلافاً، فنشير إلى إجمالها أوّلاً، ثمّ نذكر ما جآء منها في بعض الكتب.

أمّا الأوّل: فلمّا دخل رسول الله﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ مكّة دخل صناديد قريش الكعبة، و هم يظنّون أنّ السّيف لايرفع عنهم فأتى رسول الله﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ و وقف قائماً على باب الكعبة، فقال: لا إله إلاّ الله وحده وحده وحده، و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده، ألا إنّ كلّ مال أو مأثرة و دم يدّعى تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة الكعبة و سقاية الحاجّ فـإنّهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إنّ مكّة محرّمة بتحريم الله لم تحل لأحد كان قبلي، و لم تحلّ لي إلاّ ساعة من نهار، و هي محرّمة إلى أن تقوم السّاعة، لايختلى خلاها و لايقطع شجرها، و لاينفر صيدها، و لاتحلّ لقطتها إلاّ لمنشد» ثمّ قال﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾: «ألا لبئس جيران النّـبيّ كنتم، لقد كذّبتم و طردتم و أخرجتم و آذيتم، ثمّ ما رضيتم حتّى جئتموني في بلادي، تقاتلونني، فاذهبوا فأنتم الطّلقآء» فيخرج القوم من الكعبة، فكأنّما أُنشِروا من القبور، و دخلوا في الإسلام، و قد كان اللّه تعالى أمكنه من رقابهم عنوة و كانوا له ضيئاً، فلذلك سمّى أهل مكّة الطّلقآء....

و **أمّا الثّاني: في المناقب** لابن شهر آشوب السّرويّ المازندرانيّ: «تفسير الثّعلبي و القشيريّ و الواحديّ و القزوينيّ و معاني الزّجّاج و مسند الموصليّ و أسباب نزول القرآن عن الواحدي: أنّه لمّا دخل النّبيّ﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ مكّة يوم الفتح، غلق عثمان بن طلحة العبدي باب البيت، و صعد السّطع، فطلب النّبيّ﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ المفتاح منه، فقال: لو علمت أنّه رسول الله﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ لم أمنعه، فصعد عليّ بن أبيطالب﴿عَلَيْهِ السَّلامُ﴾ السّطح، و لوّى يده و أخذ المفتاح منه، و فتح الباب، فدخل النّبيّ﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ البيت، فصلّى فيه ركعتين، فلمّا خـرج سئله العبّاس أن يعطيه المفتاح، فنزل: «إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الامانات إلى أهلها» فأمر النّبيّ أن يردّ المفتاح إلى عثمان، و يعتذر إليه، فقال له عثمان: يا عليّ أكرهت و أذّيت (و أذيت خ) ثمّ جئت برفق، قال﴿عَلَيْهِ السَّلامُ﴾: لقد أنزل اللّه عزّوجلّ في شأنك، و قرأ عليه الآية، فأسلم عثمان، فأقرّه النّبيّ﴿عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ﴾ في يده».

و في السّيرة النّبويّة: عن صفيّة بن شيبة، أنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ لمّا نـزل مكّـة و اطمأنّ النّاس، خرج حتّى جآء البيت، فطاف به سبعاً على راحـلته، يسـتلم الرّكـن بمحجَن في يده، فلمّا قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حَامةً من عيدان، فكسرها بيده، ثمّ طرحها، ثمّ وقف على باب الكعبة و قد استكفّ (اي استجمع) له النّاس في المسجد.

قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، صدق وعده و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا كلّ مَأثُرة (أي خصلة محمودة تتوراث و يتحدّث بها النّاس) أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدَمَيَّ هاتين إلاّ سَدانة (أى خَدَمَة) البيت و سقاية الحاجّ، ألا و قتيل الخطأ شبهِ العمد بالسّوط و العصى، ففيه الدّية مغلظة، مأة من الابل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش! إنّ اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة و تعظّمها بالآباء، النّاس من آدم، و آدم من تراب، ثمّ تلاهذه الآية: «يا أيهّا النّاس إنّا خلقناكم من ذكر و أُنثى و جعلناكم شعوباً و قبآئل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم» الآية كلّها.

ثمّ قال: يا معشر قريش! ما تُرَون أنّي فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم و ابن أخ كريم قال: إذهبوا فأنتم الطّلقآء».

ثمّ جلس رسول الله ﴿ﷺ﴾ في المسجد، فقام إليه عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ و مفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله ﴿ﷺ﴾! اجمع لنا الحِجابة مع السّـقاية صـلّى اللّـه عليك؟ فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: أين عثمان ابن طلحة؟ فدُعِيَ له، فقال: هاك مِفتاحَك يا عثمان، اليوم يوم برّو وفآء.

و انّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ دخل البيت يوم الفتح، فرأى فيه صور الملائكة و غيرهم، فرأى إبراهيم ﴿عليه السلام﴾ مصوّراً في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم اللّـه! جـعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام (هى السّهام يضرب بها) ما شأن إبراهيم و الأزلام! «ما كان إبراهيم يهوديّاً و لانصرانيّاً و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين» ثمّ أمر بتلك الصّور كلّها فطُمِسَتْ».

و في أعلام الورى للشّيخ الطّبرسيّ المازندرانيّ: قال أبان و حدثني بشير النّبّال عن أبي عبداللّه ﴿عليه السلام﴾ قال: لمّا كان فتح مكّة قال رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾: «عند مَنِ المفتاح» قالوا عند اُمّ شيبة، فدعا شيبة فقال: «إذهب إلى اُمّك، فقل لها: ترسل المفتاح؟» فقالت: قل له: قتلت مقاتلنا و تريد أن تأخذ منّا مكرمتنا؟ فقال: لترسلنّ به أو لأقتلنّك، فوضعته في يد الغلام، فأخذه، و دعا عمر، فقال له: «هذا تأويل رؤياي من قبل».

ثمّ قام ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ففتحه و ستر، فمن يؤمئذ يستر، ثمّ دعا الغلام فبسط ردآئه فجعل فيه المفتاح، و قال: ردّه إلى اُمّتك، قال: و دخل صناديد قريش الكعبة و هم يظنّون أنّ السّيف لايرفع عنهم، فأتى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ البيت و أخذ بعضادتي الباب، ثمّ قال: «لا إله إلاّ اللّه أنجز وعده و نصره عبده و غلب الأحزاب وحده» ثمّ قال: «ما تظنّون؟ و ما أنتم قائلون؟» فقال سهيل بن عمرو: نقول: خيراً و نظنّ خيراً، أخ كريم و ابن عمّ، قال: «فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف: «لاتثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم و هو أرحم الرّاحمين».

ألا إنّ كلّ دم و مال و مأثرة كان في الجاهليّة فإنّه موضوع تحت قدميّ إلاّ سدانة الكعبة و سقاية الحاجّ فإنّهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إنّ مكّة محرّمة بتحريم اللّه لم تحلّ لأحد كان قبلي، و لم تحلّ لي إلاّ ساعة من نهار، فهي محرّمة إلى تقوم السّاعة، لايختلى خلاها، و لايقطع شجرها، و لاينفر صيدها، و لاتحلّ لقطتها إلاّ لمنشد» ثمّ قال: «ألا لبئس جيران النّبيّ كنتم، لقد كذّبتم و طردتم و أخرجتم و ظللتم، ثمّ ما رضيتم حتّى جئتموني في بلادي تقاتلوني، فاذهبوا فأنتم الطّلقآء» فخرج القوم كأنّما اُنشِروا من القبور و دخلوا في الاسلام.

قال: و دخل رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة بغير إحرام، و عليهم السّلاح، و دخل البيت لم يدخله في حجّ و لا عمرة و دخل وقت العصر (الظهر خ) فأمر بلالاً فصعد على الكعبة و أذّن، فقال عكرمة: و اللّه إن كنت لاكره أن أكره صوت ابن رياح ينهق على الكعبة، و قال خالدبن أسيد: الحمدللّه الّذي أكرم أبا عتّاب من هذا اليوم أن يرى ابن رباح قائماً على الكعبة، قال سهيل: هي كعبة اللّه و هو يرى و لو شآء لغيّر (و قال الحارث بن

هشام: أما وجد محمّد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً؟ خ) و كان أقصدهم، و قال أبوسفيان: أما أنا فلا أقول شيئاً، و اللّه لو نطقت لظننت أنّ هذه الجدر تخبر به محمّداً، و بعث﴿صلی الله علیه و آله﴾ إليهم فأخبرهم بما قالوا، فقال عتّاب: قد واللّه قلنا: يا رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ ذلك، فنستغفر اللّه و نتوب إليه، فأسلم و حسن إسلامه، و ولاّه رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ مكّة، قال: و كان فتح مكّة لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان، و استشهد من المسلمين ثلاثة نفر دخلوا في أسفل مكّة، و أخطأوا الطّريق فقُتِلُوا».

قوله﴿صلی الله علیه و آله﴾ خطاباً لعمر بن خطّاب: «هذا تأويل رؤياي من قبل» ردّ على عمر، بما أنكره في صلح الحديبيّة، فراجع.

و في فروع الكافي: باسناده عن أبي عبداللّه﴿علیه السلام﴾ قال: لمّا قدم رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ مكّة يوم افتتحها فتح باب الكعبة، فأمر بصور في الكعبة فطمست، ثمّ أخذ بعضادتى الباب، فقال: «لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون! و ماذا تظنّون؟» قالوا: نظنّ خيراً، و نقول: خيراً أخ كريم و ابن أخ كريم، و قد قدرت، قال: فإنّي أقول كما قال أخي يوسف: «لاتثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم و هو أرحم الرّاحمين» ألا إنّ اللّه قد حرّم مكّة يوم خلق السّموات والأرض، فهي حرام بحرام اللّه إلى يوم القيامة، لاينفر صيدها، و لا يعضد شجرها، و لا يختلى خلاها، و لا تحلّ لقطتها إلاّ لمنشد». فقال العبّاس: يا رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ إلاّ الأذخر فإنّه للقبر و البيوت، فقال رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾: إلاّ الأذخر».

و في السّيرة لابن‌هشام: أن النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ حين افتتح مكّة و دخلها، قام على الصّفا يدعو اللّه، و قد أحدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أتُرَون رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾ إذ فتح اللّه عليه أرضه و بلده يقيم بها؟ فلمّا فرغ من دعآئه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لاشئ يا رسول الله﴿صلی الله علیه و آله﴾، فلم يزل بهم حتّى أخبروه، فقال النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾: معاذ اللّه! المَحيا محياكم و المات مماتكم».

و فيه: أنّ فَضالة بن عُمَيْر بن المُلَوّح اللّيثيّ أراد قتل النّبيّ﴿صلی الله علیه و آله﴾ و هو يطوف

بالبيت عام الفتح، فلمّا دنا منه، قال رسول الله(ﷺ): أفضالة؟ قال: نعم ،فضالة يا رسول الله(ﷺ)، قال: ماذا كنت تحدّث به نفسك؟ قال: لاشيء، كنت أذكر اللّه، قال: فضحك النّبيّ(ﷺ) ثمّ قال: استغفر اللّه ، ثمّ وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: و اللّه ما رفع يده عن صدري حتّى ما من خلق اللّه شيء أحبّ إليَّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها، فقالت: هَلُمَّ إليَّ الحديث، فقلت: لا و انبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إليَّ الحديث فقلت: لا يأبى عليك اللّهُ و الإسلامُ

لو ما رأيت محمّداً و قَبيلَهُ بالفتح يوم تكَسَّرُ الأصنام

لرأيت دينَ اللّه أضحى بيّناً و الشّرك يغشى وجهَه الإظلام

و في شرح ابن أبي‌الحديد: لمّا أراد رسول الله(ﷺ) أن يفتح باب الكعبة- قال: ادعوا لي عثمان بن طلحة، فجآء و قد كان رسول الله(ﷺ) قال له يوماً بمكّة قبل الهجرة، و مع عثمان المفتاح: لعلّك سترى هذا المفتاح بيدي يوماً أضعه حيث شئتُ، فقال عُثمان لقد هلكت قريش إذاً و ذلّت! فقال(ﷺ) بل عمرت و عَزَّتْ، قال عثمان: فلمّا دعاني يومئذ و المفتاح بيده ذكرتُ قوله حين قال، فاستقبلته ببشر، فاستقبلني بمثله، ثمّ قال: خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة، لاينزعها منكم إلاّ ظالم، يا عثمان! إنّ اللّه استأمنكم على بيته، فكلوا بالمعروف، قال عثمان: فلمّا ولّيت ناداني فرجعتُ، فقال: ألم يكن الّذى قلتُ لك! يعني ما كان قاله بمكّة من قبل، فقلت: بلى أشهد أنّك رسول الله(ﷺ).

و فيه: قال الواقدي: و في يوم الفتح سمّىٰ رسولُ الله(ﷺ) أهلَ مكّة الّذين دخلها عليهم الطّلقاء، لمنّه عليهم بعد أن أظفره اللّه بهم، فصاروا أرقّآء له».

و فيه: قال الواقديّ: و أمر رسول الله(ﷺ) يومئذ برفع السّلاح، و قال: إلاّ خُزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر، فحبطوهم بالسّيف ساعةً، و هي السّاعة الّتي أُحِلّت لرسول الله(ﷺ).

و في نهج البلاغة- من كتاب مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن

أبيطالب﴿؏﴾ إلى معاوية بن أبي سفيان- «...و ما أنت و الفاضِلَ و المفضولَ و السّائسَ و المَسُوسَ، و ما للطّلقاء و أبناء الطّلقآء، و التّمييز بين المهاجرين الأوّلين و ترتيب درجاتهم و تعريف طبقاتهم، هيهات!...»

و في التّهذيب: باسناده عن معاوية عن أبي عبداللّه﴿؏﴾ قال: سمعته يقول: لاتصلّ المكتوبة في جوف الكعبة، فإنّ رسول الله﴿ص﴾ لم يدخلها في حجّ و لاعمرة، و لكن دخلها في فتح مكّة فصلّى فيها ركعتين بين العمودين و معه أُسامة».

و في قرب الأسناد: أبو البختريّ عن جعفر عن أبيه عليهماالسّلام قال: دخل رسول الله﴿ص﴾البيت يوم الفتح فرأى فيه صورتين، فدعا بثوب فبلّه في ماء ثمّ محاهما...»

و في رواية: عن أُسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله﴿ص﴾ الكعبة، فرأى فيها صوراً، فأمرني أن آتيه في الدّلو بمآء، فجعل يبلّ به الثّوب و يضرب به الصّور و يقول: «قاتل اللّه قوماً يصوّرون ما لايخلقون».

ش: بلال بن رباح و الأذان فوق الكعبة يوم الفتح:

بلال بن رباح الحبشيّ، مولى رسول الله﴿ص﴾ كان عبداً صالحاً، مؤذّناً لرسول الله﴿ص﴾ و خازناً، و كان من السّابقين إلى الإسلام و ذا صلابة في الدّين، و ممّن يعذّب في اللّه تعالى فيصبر على العذاب، و كان أبوجهل يبسطحه على وجهه في الشّمس و يضع الرّحاء عليه حتّى تصهره الشّمس، و يقول: اكْفُر بربّ محمّد؟ فيقول: أحد أحد، فاجتاز به ورقة بن نوفل و هو يعذّب، و يقول: أحد أحد، فقال: يا بلال أحد أحد و اللّه لئن متّ على هذا لاتّخذنّ صبرك حناناً، و كان يؤذّن لرسول الله﴿ص﴾ في حياته سفراً و حضراً و هو أوّل مَن أذّن في الإسلام.

في التّهذيب: بالاسناد عن سليمان بن جعفر الجعفرى عن أبيه قال: دخل رجل من أهل الشّام عل أبي عبداللّه﴿؏﴾ فقال له: إنّ أوّل من يسبق إلى الجنّة بلال، قال: و لِمَ؟ قال: لأنّه أوّل من أذّن».

و في السّيرة النبويّة لابن هشام: أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ دخل الكعبة عام الفتح و معه بلال، فأمره أن يؤذّن، و أبوسفيان بن حرب، و عتّاب بن أسيد، و الحارث بن هشام جلوس بفنآء الكعبة، فقال عتّاب بن أسيد: لقد أكرم اللّه أسيداً ألاّ يكون سمع هـذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما واللّه لو أعلم أنّه مُحِقٌّ لاتّبعته، فقال أبوسفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلّمت لأخـبرت عـنّي هـذه الحـصى، فـخرج عـليهم النّبيّ﴿ﷺ﴾ فقال: قد علمتُ الّذى قلتم، ثمّ ذكر ذلك لهم، فقال الحارث و عتّاب: نشهد أنّك رسول الله﴿ﷺ﴾ واللّه ما اطّلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك».

و في الخرائج و الجرائح: «فلمّا دخل وقت صلاة الظّهر أمر رسول الله﴿ﷺ﴾ بلالاً فصعد على الكعبة، فقال عِكرمة: أكره أن أسمع صوت أبي رباح ينهق على الكعبة، و حمد خالد ابن أسيد أنّ أبا عتّاب توفّى و لم ير ذلك، و قال أبوسفيان: لا أقول شيئاً، لو نطقت لظننت أنّ هذه الجدر ستخبر به محمّداً، فبعث إليهم النّبيّ﴿ﷺ﴾ فأتى بهم، فقال عتّاب: نستغفر اللّه و نتوب إليه، قد و اللّه يا رسول اللّه قلنا، فأسلم و حسن إسلامه، فولّاه رسول الله﴿ﷺ﴾ مكّة».

و فيه: فدخل النّبيّ﴿ﷺ﴾ مكّة و كان وقت الظّهر، فأمر بلالاً فصعد عـلى ظـهر الكعبة، فأذّن فما بقى صنم بمكّة إلاّ سقط على وجهه، فلمّا سمع وجوه قريش الأذان قال بعضهم في نفسه: الدّخول في بطن الأرض أهون (خير خ) من سماع هذا، و قال آخر: الحمد لله الّذي لم يعش والدي إلى هذا اليوم، فقال النّبيّ﴿ﷺ﴾ «يا فلان قد قـلت في نفسك كذا، و يا فلان قل في نفسك كذا» فقال أبوسفيان: أنت تعلم أنّي لم أقل شـيئاً، قال﴿ﷺ﴾: «اللّهمّ اهد قومي فإنّهم لايعلمون».

و فى شرح الحديد: قال الواقدي: «و جائت الظّهر، فأمر رسول الله﴿ﷺ﴾ بلالاً أن يؤذّن فوق ظهر الكعبة و قريش فى رؤس الجبال، و منهم من قد تغيّب و ستر وجهه خوفاً من أن يُقتَلوا، و منهم من يطلب الأمان، و منهم من قد أمّن، فلمّا أذّن بلال و بلغ إلى قوله «أشهد أنّ محمّداً رسول الله﴿ﷺ﴾» رفع صوته كأشدّ ما يكون، قال: تـقول جُوَيْرية بنت أبيجهل: قد لعمري رُفِعَ لك ذكرك، فأمّا الصّلاة فسنصلّي، و لكن واللّه

لانحبّ من قتل الأحبّة أبداً، و لقد كان أبي الّذى جاء محمّداً من النّبوّة، فردّها و لم يُرِد خلاف قومه».

و قال خالد بن سعد بن العاص: الحمد لله الّذي أكرم أبي فلم يُدْرِك هذا اليوم، و قال الحارث بن هشام: و اثُكلاه! ليتني مِتُّ قبل هذا اليوم قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة! و قال الحكم بن أبي العاص: هذا واللّه الحدث العظيم أن يصيح عَبْدُ بني جُمَح، يصيح بما يصيح به على بيت أبي طلحة، و قال سُهَيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً من اللّه تعالى فسيغيّره، و إن كان لله رضاً فسيقرّه، و قال أبوسفيان: أمّا أنا فلا أقول شيئاً، لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصبآء، قال: فأتى جبرائيل﴿عليه السلام﴾ رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأخبره مقالة القوم».

و في **بهجة الآمال في شرح زبدة المقال**: «ثمّ إنّ بلالاً رأى النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في منامه و هو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال؟ ما آن لك أن تزورنا؟! فانتبه حزيناً فركب إلى المدينة، فأتى قبر النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و جعل يبكى عنده و يتمرّغ عليه، فأقبل الحسن و الحسين عليهما السلام فجعل يقبّلهما و يضمّهما، فقالا له: نشتهي أن تؤذّن في السّحر، فعلا سطح المسجد، فلمّا قال: اللّه اكبر، اللّه اكبر ارتجّت المدينة فلمّا قال: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه زادت رجّتها، فلمّا قال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ خرج النّساء من حذورهنّ، فما رُإِىَ يوم أكثر باكياً و باكية من ذلك اليوم».

و في **تعليقات الشّهيد الثّانى** رضوان اللّه تعالى عليه– ملخّصاً –: «بلال بن رباح أبوعبداللّه شهد بدراً و اُحُداً و الخندق و المشاهد كلّها مع رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ مؤذّن النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لم يؤذّن لأحد بعد النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فيما روى إلاّ مرّة واحدة في قدمة قدمها المدينة لزيارة قبر النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ طلب إليه الصّحابة ذلك، فأذّن لهم و لم يتمّ الأذان، مات بدمشق سنة: عشرين، و قيل: احدى و عشرين، و قيل: ثماني عشرة و هو ابن بضع و ستّين سنة و دفن بباب الصّغير، و قال عليّ بن عبد الرّحمن: إنّ بلالاً مات بحلب و دفن على باب الأربعين».

و في **الفقيه**: روى أبو بصير عن أحدهما عليهماالسّلام أنّه قال: إنّ بلالاً كان عبداً صالحاً، فقال: لا اُؤذّن لأحد بعد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فترك يومئذ «حيّ على خير العمل».

و فيه: أنّه لمّا قبض رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ امتنع بلال من الأذان و قال: لا أُؤذّن بعد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أنّ فاطمة عليها السلام قالت ذات يوم: إنّي أشتهي أن أسمع صوت مؤذّن أبي بالأذان، فبلغ ذلك بلالاً، فأخذ في الأذان، فلمّا قال: اللّه أكبر اللّه أكبر، ذكرت أباها و أيّامه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فلم تتمالك من البكاء، فلمّا رجع إلى قوله: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾» شهقت فاطمة﴿عليها السلام﴾ و سقطت لوجهها و غشي عليها، فقال النّاس لبلال: أمسك يا بلال فقد فارقت ابنة رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ الدّنيا، و ظنّوا أنّها قد ماتت، فقطع أذانه و لم يتمّه، فأفاقت فاطمة﴿عليها السلام﴾ و سئلته أن يتمّ الأذان؟ فلم يفعل، و قال لها: يا سيّدة النّسوان، إنّي أخشى عليك بما تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي بالأذان، فاعفته عن ذلك».

قال بعض المحقّقين: و اعلم! أنّ رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ قد أمر المسلمين عشيّة يوم الغدير أن يقولوا في الأذان و الإقامة بعد الشهادتين شهادة ثالثة و هي: «أشهد أنّ أميرالمؤمنين عليّاً وليّ الله﴿عليه السلام﴾» و أوّل من قالها حينداك هو سلمان الفارسي ثمّ أبوذر الغفّاري ثمّ بلال بن رباح الحبشي، و قد كانت سنّة حتّى توفّي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فنهى عنها عمر بن الخطاب و هدّد بلالاً و خيّرة: إمّا أن لا يؤذّن و إمّا أن يتركها، فلم يؤذّن بلال بعد هذا التّهديد، ثمّ أمر عمر بن الخطاب بحذف «حيّ على خيرالعمل» عن الأذان و الإقامة، و جآء بدلها: «الصّلاة خير من النّوم» فصارت سنّة بين العامّة.

ت: خطبة النّبيّ الكريم﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم الفتح و نصآئحه:

و قد خطب رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ يوم الفتح خطباً كثيرة و أنصح للنّاس نشير إلى ما يسعه المقام و نحن على جناح الاختصار منها:

في روضة الكافي: باسناده عن حنّان، عن أبيه، عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: «صعد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ المنبر يوم فتح مكّة، فقال: أيّها النّاس! إنّ اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة، و تفاخرها بآبآئها! ألا إنّكم من آدم، و آدم من طين، ألا إنّ خير عباد اللّه عبد اتّقاه إنّ العربيّة ليست بأب والد، و لكنّها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغ حسبه،

ألا إنّ كلّ دم كان في الجاهليّة أو إحنة – و الإحنة: الشّحنآء – فهي تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة».

و فى **البحار**: بالاسناد عن أبي عبيدة عن أبي جعفر﴿عليه السلام﴾ قال: لما كان يوم فتح مكّة قام رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ في النّاس خطيباً، فحمد اللّه و أثنى عليه ثمّ قال: أيّها النّاس ليبلغ الشّاهد الغائب، إنّ اللّه تبارك و تعالى قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهليّة والتّفاخر بآبآئها و عشآئرها، أيّها النّاس إنّكم من آدم و آدم من طين، ألا و إنّ خيركم عند اللّه و أكرمكم عليه اليوم أتقاكم و أطوعكم له، ألا و إنّ العربيّة ليست بأب والد، و لكنّها لسان ناطق، فمن طُعن بينكم و علم أنّه يبلغه رضوان اللّه حسبه، ألا و إنّ كلّ أومظلمة أو إحنة كانت في الجاهليّة فهي مطل تحت قدمى إلى يوم القيامة».

و في كتاب **صفات الشّيعة** للشّيخ الصّدوق رضوان اللّه تعالى عليه بالاسناد عن أبي عبيدة قال: سمعت أبا عبداللّه﴿عليه السلام﴾ يقول: لمّا فتح رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة قام على الصّفا، فقال: «يا بني هاشم! يا بني عبدالمطّلب! إنّي رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ إليكم، و إنّي شفيق عليكم! ألا تقولون: إنّ محمّداً منّا، فواللّه ما أوليآئى منكم و لا من غيركم إلاّ المتّقون ألا، فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدّنيا على رقابكم، و يأتي النّاس يحملون الآخرة ألا و إنّي قد أعذرت فيما بيني و بينكم و فيما بين اللّه عزّوجلّ و بينكم و إنّ لي عملي و لكم عملكم».

و في رواية: لما خرج رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ من الكعبة يوم الفتح وقف و أخذ بعضادتي الباب و خطب النّاس – إلى أن قال: «و لا وصيّة لوارث، و الولد للفراش و للعاهر الحَجَر، و لايحلّ لامرأة أن تعطى من مالها إلاّ بإذن زوجها، و المسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمّتهم أدناهم، و يردّ عليهم أقصاهم، و لايقتل مسلم بكافر، و لا ذو عهد في عهده، و لايتوارث أهل ملّتين مختلفين، و لاتنكح المرأة على عمّتها و لا على خالتها، و البيّنة على من ادّعى، و اليمين على من أنكر، و لا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلاّ مع ذى محرم، و لا صلاة بعد العصر و لا بعد الصّبح، و أنهاكم عن صيام يومين: يوم الأضحى و يوم الفطر».

ث: بيعة النّاس و مبايعة النّسآء يوم الفتح:

في فروع الكافي: باسناده عن أبان عن أبي عبدالله﴿عليه السلام﴾ قال: لمّا فتح رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ مكّة بايع الرّجال، ثمّ جآئه النّسآء يبايعنه، فأنزل الله﴿عزّوجلّ﴾: «يا أيّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئاً و لايسرقن و لايزنين و لايقتلن أولادهنّ و لايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ و أرجلهنّ و لايعصينك في معروف فبايعهنّ و استغفرلهنّ الله إنّ الله غفور رحيم».

فقالت هند: أمّا الولد فقد ربّينا صغاراً و قتلتهم كباراً، و قالت أُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، و كانت عند عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ما ذلك المعروف الّذي أمرنا الله أن لانعصيك فيه؟ فقال: «لاتلطمنّ خدّاً، و لاتخمشن وجهاً، و لاتنتفن شعراً، و لاتشققن جيباً، و لا تسودن ثوباً، و لاتدعين بويل» فبايعهنّ رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ على هذا، فقالت: يا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ كيف نبايعك؟ قال: «إنّني لا أُصافح النّسآء» فدعا بقدح من مآء فأدخل يده، ثمّ أخرجها، فقال: ادخلن أيديكنّ في هذا الماء فهي البيعة».

و فيه: باسناده عن سعدان بن مسلم قال: قال أبوعبدالله: أتدري كيف بايع رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ النّسآء؟ قلت: الله أعلم و ابن رسوله أعلم، قال جمعهنّ حوله ثمّ دعا بتور برام، فصبّ فيه نضوحاً ثمّ غمس يده فيه، ثمّ قال: اسمعن يا هؤلآء أُبايعكنّ على أن لاتشركن بالله شيئاً، و لاتسرقن و لاتزنين و لاتقتلن أولادكنّ، و لاتأتين ببهتان تفترينه بين أيديكنّ و أرجلكنّ و لاتعصين بعولتكنّ في معروف، أقررتنّ؟» قلن: نعم، فأخرج يده من التّور ثمّ قال لهنّ: «اغمسن أيديكنّ» ففعلن، فكانت يد رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ الطّاهرة أطيب من أن يمسّ بها كفّ انثى ليست له بمحرم».

قوله﴿عليه السلام﴾: «بتور»: بإناء من صفر أو حجارة كالإجانة، و «برام» جمع برمة: القِدْر مطلقاً و هي في الأصل المتّخذة من الحَجَر المعروف بالحجاز و اليمن.

و في تحف العقول: عن أبي جعفر الثّاني﴿عليه السلام﴾ قال: كانت مبايعة رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ النّسآء أن يغمس يده في إنآء فيه ماء ثمّ يخرجها، فتغمس النّسآء أيديهنّ في ذلك الإنآء بالإقرار و الايمان بالله و التّصديق برسوله على ما أخذ عليهنّ».

و في تفسير القمى: «يا أيّها النّبيّ إذا جآءك المومنات يبايعنك - إلى قوله تعالى - إنّ اللّه غفور رحيم» فإنّها نزلت في يوم فتح مكّة، و ذلك أنّ رسول الله ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ في المسجد يبايع الرّجال إلى صلاة الظّهر و العصر، ثمّ قعد لبيعة النّسآة و أخذ قدحاً من مآء فأدخل يده فيه ،ثمّ قال للنّسآء: «من أراد أن يبايع فليدخل يده في القدح، فإنّي لا أُصافح النّسآء» ثمّ قرأ عليهنّ ما أنزل اللّه من شروط البيعة عليهنّ، فقال: «على أن لايشركن باللّه شيئاً و لايسرقن و لايزنين و لايقتلن أولادهنّ و لايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ و أرجلهنّ و لايعصينك في معروف فبايعهنّ».

فقامت أُمّ حكيم بنت الحارث بن عبد المطّلب، فقالت: يا رسول الله ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ ما هذا المعروف الّذي أمرنا اللّه أن لانعصينك فيه؟ فقال: ألاّ يخمشن وجهاً، و لا يلطمن خدّاً، و لاينتفن شعراً، و لايمزقن جيباً، و لايسودن ثوباً، و لايدعون بالويل و الثّبور، و لايقمن عند قبر» فبايعهنّ ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ على هذه الشروط».

و في مجمع البيان: قال الطّبرسي المازندرانيّ رضوان اللّه تعالى عليه في قوله تعالى: «يا أيّها النّبيّ إذا جآءك المؤمنات يبايعنك...» الممتحنة: ١٢): ثمّ ذكر سبحانه بيعة النّسآء وكان ذلك يوم فتح مكّة لمّا فرغ النّبيّ ﴿عَلَيْهِ‌السَّلَامُ﴾ من بيعة الرّجال و هو على الصّفا جآءته النّسآء يبايعنه، فنزلت هذه الآية فشرط اللّه تعالى في مبايعتهنّ أن يأخذ عليهنّ هذه الشّروط و هو قوله: «يا أيّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك» على هذه الشّرائط و هي «أن لايشركن باللّه شيئاً» من الأصنام و الأوثان «و لايسرفن» لا من أزاوجهنّ و لا من غيرهم «و لايزنين ولايقتلن أولادهنّ» لا بالوأد و لا بالإسقاط «و لايأتين ببهتان يفترينه» أي بكذب يكذبنه في مولود يوجد «بين أيديهنّ و أرجلهنّ» أي لايلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم عن ابن عباس. و قال الفرّاء: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفتري بين أيديهنّ و أرجلهنّ.

و ذلك أنّ الولد إذا وضعته الاُمّ سقط بين يديها و رجليها، و ليس المعنى نهيهنّ من أن يأتين بولد من الزّنا فينسبنّه إلى الأزواج لأنّ الشّرط بنهى الزّنا قد تقدّم. و قيل: البهتان الّذي نهين عنه قذف المحصنات و الكذب على النّاس، و إضافة الأولاد إلى

الأزواج على البطلان في الحاضر و المستقبل من الزّمان.

«و لايعصينك في معروف» و هو جميع ما يأمرهنّ به لأنّه لايأمر إلاّ بالمعروف، والمعروف نقيض المنكر و هو كلّ ما دلّ العقل و السّمع على وجوبه أو ندبه، و سمّى معروفاً لأنّ العقل يعترف به من جهة عظم حسنه و وجوبه. و قيل: عني بالمعروف النّهى عن النّوح و تمزيق الثّياب و جزّ الشّعر و شقّ الجيب و خمش الوجه، و الدّعآء بالويل عن المقاتلين و الكلبي، و الأصل: أنّ المعروف كلّ برّ و تقوى و أمر وافق طاعة اللّه تعالى «فبايعهنّ» على ذلك «و استغفر لهنّ اللّه» أي اطلب من اللّه أن يغفر ذنوبهنّ و يسترها عليهنّ «إنّ اللّه غفور» أي صفوح عنهنّ «رحيم» منعم عليهنّ.

و روى: أنّ النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ بايعهنّ و كان على الصّفا و كان عمر أسفل منه، و هند بنت عتبة متنقّبة متنكّرة مع النّسآء خوفاً أن يعرفها رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ فقال: اُبايعكنّ على أن لاتشركن باللّه شيئاً، فقالت هند: إنّك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرّجال، و ذلك أنّه بايع الرّجال يومئذ على الإسلام و الجهاد فقط. فقال ﴿صلّى الله عليه و آله﴾: فلاتسرقن، فقالت هند: إنّ أباسفيان رجل ممسك، و إنّي أصبت من ماله هنات، فلاأدرى أيحلّ لي أم لا، فقال أبوسفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و عرفها، فقال له: و إنّك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عمّا سلف يا نبيّ اللّه عفا اللّه عنك.

فقال ﴿صلّى الله عليه و آله﴾: و لاتزنين، فقالت هند: أو تزني الحرّة، فتبسّم عمر بن الخطّاب لماجرى بينه و بينها في الجاهليّة، فقال ﴿صلّى الله عليه و آله﴾: و لاتقتلن أولادكنّ، فقالت هند: ربّيناهم صغاراً و قتلوهم كباراً، و أنتم و هم أعلم، و كان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله عليّ بن أبيطالب ﴿عليه السلام﴾ يوم بدر، فضحك عمر حتّى استلقى و تبسّم النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ و لمّا قال: «و لاتأتين ببهتان» فقال هند: و اللّه إنّ البهتان قبيح، و ما تأمرنا إلاّ بالرّشد و مكارم الاخلاق، و لمّا قال: «و لايعصينك في معروف» فقالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا و في أنفسنا أن نعصيك في شيء.

و روى الزّهري عن عروة عن عائشة قالت: كان النّبيّ ﴿صلّى الله عليه و آله﴾ يبايع النّسآء بالكلام

بهذه الآية أن لايشركن باللّه شيئاً و ما مسّت يد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ يد امرأة قطّ إلاّ يد امرأة يملكها رواه البخاري في الصّحيح. و روي أنّه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ كان إذا بـايع النّسآء دعـا بقدح ماء، فغمس فيه يده ثمّ غمس أيديهنّ فيه. و قيل: إنّه كان يبايعهنّ من وراء الثّوب عن الشّعبي، و الوجه في بيعة النّسآء مع أنّهنّ لسن من أهل ا لنّصرة بالمحاربة هو أخذ العهد عليهنّ بما يصلح من شأنهنّ في الدّين و الأنفس و الأزواج، و كان ذلك في صدر الإسلام، و لئلاّ ينفتق بهنّ فتق لما صنع (وضع خ) من الأحكام، فبايعهنّ النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾ حسماً لذلك».

خ: استئمان جماعة من المشركين بعد الفتح و عفو النّبيّ الكريم ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عنهم:

و قد استأمن بعد الفتح جماعة من المشركي العرب الّـذين كـانوا مـهدوري الدّم لايذآئهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من زمن البعثة إلى قبل الفتح، و إصرارهـم عـلى الشّرك والطّغيان، على الكفر و العدوان، و على البغي و العصيان... فأمّنهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾...

منهم: نوفل بن معاوية الدّؤلى من بني بكر، فإنّه استأمن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عـلى نفسه، فأمّنه و كانت خُزاعة تطلبه بدماء من قَتَلَتْ بكر و قريش منها بالوَتير، و قـد كانت خُزاعة قالت أيضاً لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾: إنّ أنس بن زُنيم هجاك، فـهدر رسـول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ دمه، فلمّا فتح مكّة، هرب و التحق بالجبال، و قد كان قبل أن يفتح رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ مكّة قال شعراً يعتذر فيه إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ من جملته:

أنت الّـذي تُهـدٰى مَـعَدٌّ بأمـره　　　بك اللّه يهـديها و قـال لهـا ارشُـدي
فما حَمَلَتْ مـن نـاقة فـوق كـورها　　　أبـــرّ و أوفى ذمّـــة مـــن محـمّد
اَحَثَّ عـلى خـير و أوسَـعَ نـائلاً　　　إذا راح يهـــتزّ اهـــتزاز المُـهَنّدِ
و أكسى لبُرد الخـال قـبل ارتـدائـه　　　و أعـطى لرأس السّـابق المـتجرّد
تَعلَّم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أنّك مـدركي　　　و أنّ وعـيداً مـنك كـالأخذ بـاليد
تَـعلَّم رسـول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أنّك قـادر　　　عـلى كـلّ حـيّ من تِهـام و مُنْجِدِ
و نُبّي رسولُ الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أنّي هـجوتُه　　　فـلا رفـعَتْ سـوطي إليّ إذَن يـدي

سوى أنّني قد قلت يا وَيح فتيةٍ أصيبوا بنحس يوم طلق و أسعُدِ
أصابهم من لم يكن لدمآئهم كَفاًءً فعزّت عَبْرَتي و تلدّدي
ذُؤَيبا و كلثوما و سلمى تتابعوا جميعاً فإلاّ تدمع العين أكَمَدِ
على أنّ سلمى منهم كمثله و إخوته و هل ملوك كأعبدِ!
فإنّي لا غِراضاً خَرَقْتُ و لا دماً هَرَقْتُ ففكّر عالم الحقّ و اقصدِ

و لمّا بلغت كلمته هذه رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قبل الفتح، و كلّمها يوم الفتح نوفل بن معاوية الدّؤلى، و قال: يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أنت أولى النّاس بالعفو، و مَن منّا لم يعادك و لم يؤذك، و نحن في جاهليّة لاندري ما نأخذو ما نَدَعُ حتّى هدانا اللّه بك و أنقذنا بيُمنك من الهلكة، و قد كذب عليه الرّكب، و كثّروا في أمره عندك. فقال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: دع الرّكب عنك، إنّا لم نجد بتهامة أحداً من ذوى رحم و لابعيد الرّحم كان أبرّ بنا من خُزاعة فاسكُت يا نوفل. فلمّا سكت، قال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قد عفوتُ عنه. فقال نوفل: فداك أبي و اُمّي.

و منهم: سهيل بن عمرو و كان يحدّث فيقول :لمّا دخل محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة انقمعتُ، فدخلت بيتي و أغلقتهُ عَلَيّ و قلت لإبني عبداللّه بن سُهيل: اذهب فاطلب لي جواراً من محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ فإنّي لا آمن أن اُقْتَل، و جعلتُ أتذكّر أثري عنده و أصحابه فلا أرى أسوأ أثراً منّي، فإنّي لقيته يوم الحديبيّة بما لم يَلقه أحدٌ به، وكنتُ الّذي كاتبه، مع حضوري بدراً و اُحُداً، و كلّما تحرّكَتْ قريش كنتُ فيها، فذهب عبداللّه بن سُهَيل إلى رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال: يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ أبي تؤمّنه؟ قال: نعم هو آمن بأمان اللّه فليَظهر.

ثمّ التفت إلى مَن حَوله، فقال: من لقى سُهَيل بن عمرو فلا يشدّنّ النّظر إليه، ثمّ قال: قل له: فليخرج، فلعمري إنّ سهيلاً له عقل و شرف، و ما مثل سهيل جَهِلَ الإسلام، و لقد رأى ما كان يوضَع فيه إن لم يكن له تتابع، فخرج عبداللّه إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال سهيل: كان واللّه برّاً صغيراً و كبيراً، و كان سهيل يُقبِل و يُدبِر غير خائف، و خرج إلى خيبر مع النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هو على شركه حتّى أسلم بالجِعْرانة.

و منهم: هُبَيْرة بن أبي وَهْب و عبداللّه بن الزِّ بَعْرٰى إذهربا كلاهما حتّى انتهيا إلى نجران فلم يأمنا الخوف، حتّى دخلا حِصْن نجران، فقيل: ما شأنكما؟ قالا: أمّا قريش فقد قُتِلَت و دخل محمّد مكّة، و نحن و اللّه نرى أنّ محمّداً سائر إلى حصنكم هذا، فجعلت بلحارث بن كعب يصلحون مارثّ من حصنهم، و جمعوا ما شيتهم، فأرسل حسّان ابن ثابت إلى ابن الزِّ بَعْري:

لاتعد مَـنْ رجـلاً أحـلّك بُـغْضُهُ　　نجـرانَ في عـيش أجـدَّ ذمـيم
بليَتْ قناتُك في الحروب فـالفيَتْ　　جـوفآء ذات مـعايبٍ و وُصُـومِ
غضب الإله على الزّبعرى و ابـنه　　بـعذاب سـوء في الحـياة مـقيم

فلمّا جاء ابن الزّبعرى شعرُ حسّان تهيّأ للخروج، فقال هُبَيْرة بن وهب: أين تريد يابن عمّ؟ قال: اريد واللّه محمّداً، قال: أتريد أن تتبعه؟ قال: إي واللّه، قال هُبَيْرة: يا ليت أنّي كنت رافقتُ غيرك، واللّه ما ظننتُ أنّك تتّبع محمّداً أبداً! قال ابن الزِّبَعْرى: هو ذاك، فعلى أيّ شيء أُقيم مع بني الحارث بن كعب، و أترك ابن عمّي و خير النّـاس و أبرّهم، و بين قومي و داري! فانحدر ابن الزِّبَعْرىٰ حتّى جاء رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ و هـو جالس في أصحابه، فلمّا نظر إليه قال: هذا ابن الزِّبْعَرىٰ و معه وجهٌ فيه نور الإسلام.

فلمّا وقف على رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾ قال: السّلام عليك يا رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾، شهدت أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك عبده و رسوله و الحمد لله الّذي هداني للإسلام، لقد عاديتك و أجْلَبْتُ عليك، و ركبتُ الفرس و البعير، وَ مَشَيْتُ على قدمي في عداوتك، ثمّ هربتُ منكَ إلى نجران و أنا أُريد ألاّ أقرب الإسلام أبداً، ثمّ أرادني اللّه منه بخير، فألقاه في قلبي وحبّبه إليّ و ذكرتُ ما كنتُ فيه من الضّلال و اتّباع ما لاينفع ذا عقل من حَجَر يُعْبَد و يُذبح له لايدري مَن عَبَدَه و مَن لا يَعْبُدُهُ فأسلم و قال:

يـا رسـول المـليك إنّ لسـاني　　راتـق مـا فـتقت إذ أنـاَبور
إذ أُبارى الشّيطان في سنن الغيّ　　و مـن مـال مـيله مـثبور
أمـن اللـحم و العـظام لربّي　　ثمّ نـفسي الشّهـيد أنت النّـذير

فقال رسول الله﴿صلى الله عليه و آله﴾: الحمد لله الّذي هداك للإسلام، أحمد اللّه إنّ الإسلام يجُبّ ما كان قبله».

و منهم: حُوَيْطِب بن عبد العُزّى إذ هرب، فدخل حائطاً بمكّة، و جآء أبوذرّ لحاجته، فدخل إلى الحائط فرآه فهرب حُوَيطب، فقال أبوذر: تعال فأنت آمِن، فرجع إليه، فقال: أنت آمن، فاذهب حيث شِئتَ، و إن شئتَ أدخلتك على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و إن شئت فإلى منزلك. قال: و هل من سبيل إلى منزلي، ألَني فاُقتَل قبل أن أصلَ إلى منزلي أو يدخل عليّ منزلي فاُقتَل! قال أبوذر: فأنا أبلغ معك منزلك، فبلغ معه منزلَهُ، ثمّ جعل ينادي على بابه: إنّ حُوَيطباً آمِن فلا يهيّج، ثمّ انصرف إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأخبره، فقال: أو ليس قد أمّنّا النّاس كلّهم إلاّ من أمرتَ بقتله»؟

و منهم: عكرمة بن أبي جهل إذ هرب إلى اليمن حتّى ركب البحر، فجآئت زوجته اُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ في نسوة هند بنت عُتبة، زوجة أبي سفيان اُمّ معاوية - و قد كان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أمر بقتلها - و البَغُوم بنت المعدّل الكِنانيّة امرأة صفوان ابن اُميّة، و فاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام، فأتين رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و هو ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بالأبطح فأسلمن، و لمّا دخلن عليه ﴿صلى الله عليه وآله﴾ دخلن و عنده ﴿صلى الله عليه وآله﴾ زوجتاه: ميمونة و امّسلمة، و ابنته فاطمة سلام اللّه عليها، و نساء من نسآء بني عبد المطّلب، و سئلن أن يبايعهنّ.

فلمّا بايعهن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بأنّه وضع على يده ثوباً فمسحن عليه، و قيل: اوتى بقدح من ماء فأدخل يده فيه ثمّ رفعها، فأدخلن أيديهنّ فيه - قالت اُمّ حكيم امرأة عكرمة: يا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إنّ عكرمة هرب منك إلى اليمن، خاف أن تقتله فأمّنه، فقال ﴿صلى الله عليه وآله﴾: هو آمن، فخرجت اُمّ حكيم في طلبه، حتّى أدركته فقالت: إنّي قداستأمنتُ لك رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأمّنك، فرجع معها، فلمّا دنا من مكّة قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ لأصحابه: يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مسلماً، فلمّا وصل عكرمة و دخل على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ مع زوجته قال: فإلىٰ مَ تدعو يا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال: إلى أن تشهد لا إله إلاّ اللّه و أنّي رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أنتم تقيم الصّلاة و تؤتى الزّكاة و عدّ خصال الإسلام، فأسلم عكرمة، فردّ عليه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ إمرأته بذلك النكاح الأوّل.

و منهم: وحشيّ قاتل حمزة بن عبدالمطّلب عمّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و قد أمر ﴿صلى الله عليه وآله﴾

بقتله يوم الفتح، فهرب وحشيّ إلى الطّائف، فلم يزل بها مقيماً حتّى قدم مع وفد الطّائف على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فدخل عليه، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فقال ﴿صلى الله عليه وآله﴾: أ وحشيّ؟ قال: نعم، قال: اجلس و حدّثني كيف قتلت حمزة؟ فلمّا أخبره قال: قم و غيّب عنّي وجهك، فكان إذا رآه توارى عنه.

و منهم: صفوان بن اُميّة إذ خرج و يُريد جدّه ليركب منها إلى اليمن، فقال عُمَيْر بن وَهْب: يا نبيّ اللّه إنّ صفوان بن اُميّة سيّد قومه، و قد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمِّنهُ صلّى اللّه عليك؟ قال ﴿صلى الله عليه وآله﴾ هو آمن، قال: يا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأعطني آية يعرف بها أمانك؟ فأعطاه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ عِمامَتَه الّتي دخل فيها مكّة، فخرج بها عُمَير حتّى أدركه و هو يريد أن يركب في البحر فقال: يا صفوان! فداك أبي و اُمّي، اللّهَ اللّه في نفسك أن تهلكها، فهذا اَمانٌ مِن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قد جئتك به؟ قال: و يحك! اُغْرُبْ عنّي فلا تكلّمني قال: أي صفوان! فداك أبي و اُمّي، أفضل النّاس، و أبرّ النّاس، و أحلم النّاس، و خير النّاس، ابن عمّك، عزّه عزّك، و شرفه شرفك، و مُلكه و ملكك، قال إنّي أخاف على نفسي! قال هو أحلم من ذاك و أكرم، فرجع معه، حتّى وقف به على رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾، فقال صفوان: إنّ هذا يزعم أنّك قد أمّنتَني؟ قال ﴿صلى الله عليه وآله﴾: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين؟ قال ﴿صلى الله عليه وآله﴾ أنت بالخيار فيه أربعة أشهر».

أقول: إنّ صفوان ابن اُميّة و عكرمة بن أبي‌جهل هرب معاً إلى اليمن.

و غيرهم ممّن كانوا مهدوري الدّم فأمّنهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ بعد الفتح تركناهم روماً للاختصار. و في ذلك كلّه دروس و عِبَر للحكّام و المجاهدين و الدّعاة و المصلحين الغالبين على الأعدآء و لهم في رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ اُسوة حسنة.

ذ: خالد بن وليد و قتل النّاس بعد الفتح بغير الحقّ خلافاً لأمر النّبيّ ﴿صلى الله عليه وآله﴾:

في الإرشاد: قال الشّيخ المفيد رضوان اللّه تعالى عليه: «ثمّ اتّصل بفتح مكّة إنفاذ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله﴾ خالدبن الوليد إلى بني جَذيمة بن عامر- و كانوا بالغُمَيصَاء- يدعوهم إلى اللّه عزّوجلّ، و انّما أنفذه إليهم للتِّرَة الّتي كانت بينه و بينهم و ذلك أنّهم

كانوا أصابوا في الجاهليّة نسوة من بني المغيرة، و قتلوا الفاكِهَ بن المغيرة - عمّ خالد بن وليد - و قتلوا عوفاً - أبا عبد الرّحمن ابن عوف - فأنفذه رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لذلك، و أنفذ معه عبد الرّحمن بن عوف لِلتِّرَة أيضاً الّتي كانت بينه و بينهم، و لولا ذلك لمارأى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ خالداً أهلاً للإماره على المسلمين

فكان من أمره ما قدّمنا ذكره، و خالف فيه عهد الله و رسوله، و عمل فيه على سنّة الجاهليّة، و اطّرح حكم الإسلام وراء ظهره، فبرأ رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ من صنيعه، و تلافى فارطه بأمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾».

قوله: «الغُمَيْصٰاء»: موضع في بادية العرب، قرب مكّة كان يسكنه بنو جَذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة الّذين اُوقع بهم خالدبن الوليد عام الفتح. و «التِّرَة»: الثّأر.

و في إعلام الورى: بعد فتح مكّة بعث رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ السّرايا فيما حول مكّة يدعون إلى الله عزّوجلّ و لم يأمرهم بقتال، فبعث غالب بن عبدالله إلى بنى مدلج، فقالوا: لسنا عليك و لسنا معك، فقال النّاس: اغزهم يارسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فقال: إنّ لهم سيّداً أديباً أريباً، و ربّ غاز من بني مدلج شهيد في سبيل الله، و بعث عمرو بن اُميّة الضّمريّ إلى بني الدّيل، فدعاهم إلى الله و رسوله، فأبوا أشدّ الإبآء، فقال النّاس: اغـزهم يـا رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾، فقال: أتاكم الآن سيّدهم قد أسلموا، فيقول لهم: أسلموا فيقولون: نعم، و بعث عبد الله بن سهيل بن عمرو إلى بني محارب بن فهر فأسلموا، و جآءمعه نفر منهم إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾.

و بعث خالدبن الوليد إلى بني جَذيمة بن عام، و قد كانوا أصابوا في الجاهليّة من بني المغيرة نسوة، و قتلوا عمّ خالد فاستقبلوه و عليهم السّلاح، و قالوا: يا خالد إنّا لم نأخذ السّلاح على الله و على رسوله، و نحن مسلمون، فانظر فإن كان بعثك رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ ساعياً فهذه إبلنا و غنمنا فاغد عليها، فقال: ضعوا السّلاح، قالوا: إنّا نخاف منك أن تأخذ بإحنة الجاهلية، و قد أماتها الله و رسوله، فانصرف عنهم بمن معه، فنزلوا قريباً، ثمّ شنّ عليهم الخيل، فقتل و أسر منهم رجالاً، ثم قال: ليقتل كلّ رجل منكم أسيره، فـقتلوا الأسرى، و جآء رسولهم إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه و آله﴾ فأخبره بما فعل بهم خالد، فرفع ﴿صلى الله عليه و آله﴾

يده إلى السّمآء، و قال: «اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا فعل خـالد» و بكـى﴿ﷺ﴾ ثمّ دعـا عليّاً﴿ﷺ﴾ فقال: اخرج إليهم، و انظر في أمرهم، و أعطاه سفطاً من ذهب، ففعل ما أمره و أرضاهم».

و في الخصال: باسناده عن عامر بن واثلة قال: قـال أمـير المـؤمنين﴿ﷺ﴾ يـوم الشّورى: «نشدتكم بالله هل علمتم أنّ رسول الله﴿ﷺ﴾ بعث خالد بن الوليد إلى بني خزيمة، ففعل ما فعل، فصعد رسول الله﴿ﷺ﴾ المنبر، فقال: «اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرّات، ثمّ قال: «إذهب يا عليّ» فذهبت فوديتهم، ثمّ ناشدتُهم بالله هل بقي شيء؟ فقالوا: إذ نشدتنا بالله فيلغة كلابنا، و عقال بعيرنا، فأعطيتهم لهما، و بقي معي ذهب كثير فأعطيتهم إيّاه و قلت: هذا لذمّة رسول الله﴿ﷺ﴾ و لما تعلمون و لما لاتعلمون، و لروعات النّسآء و الصّبيان، ثمّ جئت إلى رسـول الله﴿ﷺ﴾ فأخـبرته، فقال: «و الله ما يسرّني يا عليّ أنّ لي بما صنعت حُمُر النّعم»؟ قالوا: اللّهمّ نعم».

قوله﴿ﷺ﴾: «فيلغة: الإنآء الّذي يحفر من خشب، و يجعل ليلغ فيه الكلب أو يسقى فيه، يكون عند أصحاب الغنم و عند أهل البادية. يعني أعطاهم قيمة كلّ ما ذهب لهم حتّى قيمة الميلغة.

و في الكامل لابن الأثير: و في هذه السّنة يعني سنة ثمان بعد الفتح كانت غـزاة خالد بن الوليد بني جذيمة (خزمية خ) و كان رسول الله﴿ﷺ﴾ قد بعث السّرايا بعد الفتح فيما حول مكّة يدعون النّاس إلى الله، و لم يأمرهم بقتال، و كان ممّن بعث خالد بن الوليد بعثه داعياً و لم يبعثه مقاتلاً، فنزل على الغُمَيْصآء: ماء من مياه بني جذيمة بـن عامر، و كانت جذيمة أصابت في الجاهليّة عوف بن عبد عوف أبا عبد الرّحمن، و الفاكه بن المغيرة عمّ خالد، كانا أقبلا تاجرين من اليمن فأخذت ما معهما و قتلهما، فلمّا نـزل خالد ذلك المآء أخذ بنو جذيمة السّلاح، فقال خالد: ضِعُوا السّلاح، فـإنّ النّـاس قـد أسلموا، فوضعوا فأمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثمّ عرضهم على السّيف، فقتل من قتل منهم.

فلمّا انتهى الخبر إلى النّبيّ﴿ﷺ﴾ رفع يده ثمّ قال: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّـا صـنع

خالد» ثمّ أرسل عليّاً﴿عليه السلام﴾ و معه مال، و أمره ينظر في أمرهم، فودى لهم النّسآء و الأموال حتّى أنّه ليدي ميلغة الكلاب، ففضل معه عن المال فضلة، فقال لهم عليّ﴿عليه السلام﴾: هل بقي لكم مالى أو دم لم يؤد؟ قالوا: لا قال: إنّي أُعطيكم هذه البقيّة احتياطاً لرسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ ففعل ثمّ رجع إلى رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأخبره فقال: أصبتَ و أحسنتَ».

تُعْرف هذه السّريّة بغزوتة العميط، و هو اسم ماء لبني جذيمة.

و في **تاريخ الطّبري و السّيرة النّبويّة، لابن هشام** - ملفّقاً و ملخّصاً - قد بعث رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فيما حول مكّة السّرايا تدعو إلى الله عزّوجلّ، و لم يأمرهم بقتال، و كان ممّن بعث خالدُ ابن الوليد و أمره أن يسير بأسفل تِهامة داعياً و لم يبعثه مقاتلاً، فوطِىء بني جَذيمة فأصاب منهم.

و فيهما: عن أبي جعفر محمّد بن على بن الحسين عليهاسلام قال: بعث رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ خالد بن الوليد حين افتتح مكّة داعياً و لم يبعثه مقاتلاً، و معه قبائل من العرب سُلَيْم و مُدْلَج بن مُرّة و قبائل من غيرهم، فلمّا نزلوا على الغُمَيْصآء و هي ماء من مياه بني جذيمة ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة على جماعتهم، و كانت بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهليّة عوف بن عوف أبا عبدالرّحمن بن عوف و الفاكه بن المغيرة، و كانا أقبلا تاجرين من اليمن حتّى إذا نزلا بهم قتلوهما و أخذوا أموالهما فلمّا كان الإسلام و بعث رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ خالد بن الوليد سار حتّى نزل ذلك الماء، فلمّا رآه القوم أخذوا السّلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السّلاح فإنّ النّاس قد أسلموا».

و قال رجل من بني خذيمة: لمّا أمرنا خالد أن نضع السّلاح قال رجل منّا يقال له: جَحْدَم: و يلكم يا بني جذيمة! إنّه خالد و اللّه! ما بعد وضع السّلاح إلاّ الإسار، و ما بعد الإسار إلاّ ضرب الأعناق، و اللّه لا أضع سلاحي أبداً. قال: فأخذه رجال من قومه، فقالوا: يا جَحْدم أتريد أن تسفك دمآئنا؟ إنّ النّاس قد أسلموا و وضعوا السّلاح، و وضعت الحرب، و أمِنَ النّاس، فلم يزالوا به حتّى نزعوا سلاحه و وضع القوم السّلاح لقول خالد.

و قال أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام: «فلمّا وضعوا السّلاح أمر بهم

خالد عند ذلك، فكُتِفُوا ثمّ عرضهم على السّيف، فقتل من قتل منهم، فلمّا انتهى الخبر إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ رفع يده إلى السّماء ثمّ قال: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن وليد» ثمّ دعا رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فقال: يا عليّ! أُخرج إلى هؤلآء القوم، فانظر في أمرهم، و اجعل أمر الجاهليّة تحت قدميك، فخرج عليّ﴿عليه السلام﴾ حتّى جآءهم و معه ما قد بعث به رسول اللّٰه﴿عليه السلام﴾ فوَدىٰ لهم الدّماء و ما أُصيب لهم من الأموال، حتّى إنّه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتّى إذا لم يبق شئ من دم و لا مال إلاّ وَداه، بقيت معه بقيّة من المال، فقال لهم عليّ﴿عليه السلام﴾ حين فرغ منهم:

هل بقي لكم بقيّة من دم أو مال لم يُودَ لكم؟ قالوا: لا، قالَ: فإنّي أُعطيكم هذه البقيّة من هذا المال، احتياطاً لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ ممّا لايعلم و لاتعلمون، ففعل، ثمّ رجع إلى رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فأخبره الخبر فقال: أصبت و أحسنت، ثمّ قام رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتّى إنّه ليُرىٰ ما تحت منكبيه و هو يقول: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرّات.

و في **أمالي الصّدوق** رضوان اللّٰه تعالى عليه بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر﴿عليه السلام﴾ قال: «بعث رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ خالد بن الوليد إلى حيّ يقال لهم: بنوا المصطلق من بني جذيمة، وكان بينهم و بينه و بين بني مَخزوم إحنة في الجاهليّة، فلمّا ورد عليهم كانوا قد أطاعوا رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و أخذوا منه كتاباً، فلمّا ورد عليهم خالد أمر منادياً فنادىٰ بالصّلاة، فصلّى و صلّوا، فلمّا كان صلاة الفجر أمر مناديه، فنادى فصلّى و صلّوا، ثمّ أمر الخيل فشنّوا فيهم الغارة، فقتل و أصاب، فطلبوا كتابهم فوجدوه، فأتوا به النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ و حدّثوه بما صنع خالد بن الوليد، فاستقبل﴿صلى الله عليه وآله﴾ القبلة ثمّ قال: «اللّٰهم إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد».

قال: ثمّ قدم على رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ تبر و متاع، فقال لعليّ﴿عليه السلام﴾: «يا عليّ ائت بني جذيمة من بني المصطلق فأرضهم ممّا صنع خالد» ثمّ رفع﴿عليه السلام﴾ قدميه، فقال: «يا عليّ اجعل قضاء أهل الجاهليّة تحت قدميك» فأتاهم عليّ﴿عليه السلام﴾ فلمّا انتهى إليهم حكم فيهم بحكم اللّٰه، فلمّا رجع إلى النّبيّ﴿صلى الله عليه وآله﴾ قال: «يا عليّ أخبرني بما صنعت» فقال: يا رسول

اللّٰه عمدت فأعطيت لكلّ دم دية، و لكلّ جنين غرّة، و لكلّ مال مالاً، و فضلت معي فضلة فأعطيتهم لميلغة كلابهم و حبلة رعاتهم، و فضلت معي فضلة فأعطيتهم لروعة نسآءهم و فزع صبيانهم، و فضلت معي فضلة، فأعطيتهم لما يعلمون و لما لايعلمون، و فضلت معي فضل فأعطيتهم ليرضوا عنك يا رسول اللّٰه، فقال﴿صلى الله عليه وآله﴾: يا عليّ أعطيتهم ليرضوا عنّي، رضي اللّٰه عنك، يا عليّ إنّما أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه نبيّ بعدي».

و قوله﴿عليه السلام﴾: «و حبلة رعاتهم»: أي رَسَن رعاتهم.

ض: تكلّم الإمام عليّ﴿عليه السلام﴾ مع الشّمس بعد الفتح:

و اعلم أنّ المعجزة هي وقوع أمر خارق العادة الّتى لايستطيع الإنسان العادي أن يدرك حقيقتها، فضلاً عن إتيانها و لن تجري عليها قواعد العلوم و الفنون العادية، و إلاّ لما كانت خارق العادة، ككون النّار برداً و سلاماً لإبراهيم الخليل، و خروج النّاقة من الجبال لصالح النّبيّ، و انفلاق البحر لموسى بن العمران، و صيرورة العصاحيّة تسعى، و تكلّم الشّجر معه، و إحيآء عيسى بن مريم الموتى، و خلق الطّير من الطّين، و انشقاق القمر لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه وآله﴾ و معراجه، و ردّ الشّمس لعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ و ما إليها من المعجزات و الكرامات لأنبيآء اللّٰه و المرسلين و الأوصيآء و المعصومين صلوات اللّٰه عليهم أجمعين.

من تلك المعجزات و الكرامات الّتي لاينكرها إلاّ مَن كان خبيث الولادة أو غلبت عليه الجهالة و البلادة و السّفاهة أو كان عبيداً لهوى نفسه و مركب الشّيطان...– تكلّم مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ مع الشّمس بعد فتح مكّة، فكما أنّنا لا نعلم كيفيّة سجدة الشّمس و القمر و النّجوم و الجبال و الشّجر و الدّوابّ للّٰه جلّ وعلا في قوله تعالى: «ألم تر أنّ اللّٰه يسجد له من في السّموات و من في الأرض و الشّمس و القمر و النّجوم و الجبال و الشّجر و الدّوابّ» الحج: ١٨). كذلك لا نعلم كيفيّة تكلّم الشّمس للإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾، و ما ينبغي لنا أن

نعلمه و نحن نعتقد به اعتقاداً قاطعاً و هو فضيلة الإمام على﴿عليه السلام﴾ و كرامته عند اللّٰه جلّ وعلا.

في مدينة المعاجز: - السّابع و الأربعون تكليم الشّمس له﴿عليه السلام﴾ - عن سلمان و أبي ذرّ و ابن عبّاس و عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ أنّه لمّا فتح اللّٰه مكّة و تهيّأنا إلى هوازن، قال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: يا عليّ قم فانظر إلى كرامتك على اللّٰه تعالى، كلّم الشّمس إذا طلعت، فقام عليّ و قال: السّلام عليك أيّتها العبد الدّائب في طاعة ربّه، فأجابته الشّمس و هي تقول: و عليك السّلام يا أخا رسول اللّٰه و وصيّه و حجّة اللّٰه على خلقه، فانكبّ عليّ ساجداً، شكراً للّٰه تعالى، فأخذ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ برأسه يقيمه و يمسح وجهه و يقول: قم يا حبيبي، فقد أبكيت أهل السّمآء من بكائك، و باهى اللّٰه بك حملة عرشه، ثمّ قال: «الحمد للّٰه الّذي فضّلني على سآئر الأنبيآء، و أيّدني بوصيّي سيّد الأوصيآء ثمّ قرأ: «و له أسلم من في السّموات و الأرض طوعاً» الآية.

و فيه: عن روضة الواعظين لابن عليّ الفتّال قال: قال ابن عبّاس: لمّا فتح رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ مكّة خرجنا و نحن ثمانية آلاف، فلمّا أمسينا صرنا عشرة آلاف من المسلمين، فرفع رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ الهجرة و قال: لا هجرة بعد الفتح، قال: ثمّ تهيّئنا إلى هوازن، فقال النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ لعليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾: قم يا عليّ فانظر كرامتك على اللّٰه عزّوجلّ، كلّم الشّمس إذا طلعت.

قال ابن عبّاس: و اللّٰه ما حسدت أحداً إلاّ عليّ بن أبيطالب ذلك، و قلت للفضل: قم تنظر كيف تكلّم عليّ بن أبيطالب الشّمس، فلمّا طلعت الشّمس قام عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ فقال: السّلام عليك أيّها العبد الدّائب في طاعة ربّه، فأجابته الشّمس و هي تقول: و عليك السّلام يا أخا رسول اللّٰه و وصيّه و حجّة اللّٰه على خلقه، قال: فانكبّ عليّ﴿عليه السلام﴾) ساجداً شكراً للّٰه عزّوجلّ، قال: فو اللّٰه لقد رأيت رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ قام فأخذ برأس عليّ﴿عليه السلام﴾ يقيمه و يمسح وجهه، و يقول: قم حبيبي فقد أبكيت أهل السّمآء من بكائك» و باهى اللّٰه عزّوجلّ بك حملة عرشه».

و في مناقب الخوارزمي: بإسناده عن عليّ بن أبيطالب﴿عليه السلام﴾ قال: قال رسول

اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ لي: يا أبا لحسن: كلّم الشّمس فإنّها تكلّمك، قال عليّ﴿عليه السلام﴾: السّلام عليك أيّتها العبد الصّالح المطيع للّٰه تعالى، فقالت الشّمس: و عليك السّلام يا أميرالمؤمنين و إمام المتّقين و قائد الغرّ المحجّلين، يا عليّ أنت و شيعتك في الجنّة، يا عليّ أوّل ما تنشقّ عنه الأرض محمّد﴿صلى الله عليه و آله﴾ ثمّ أنت، و أوّل مَن يحيى محمّد ثمّ أنت، و أوّل من يكسى محمّد ثمّ أنت.

قال: فانكبّ (عليّ﴿عليه السلام﴾ ساجداً و عيناه تذرفان دموعاً، فانكبّ على النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾ و قال: يا أخي و حبيبي ارفع رأسك فقد باهى اللّٰه بك أهل سبع سماوات».

رواه الإربلي فى (كشف الغمّة: ج ١ ص ١٥٤) و في كتاب (اليقين في إمرة أميرالمؤمنين: باب ٢٥ ص ٢٥).

ظ: منزل رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمكّة و إقامته فيها بعد فتحها:

و قد كان لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ منزل بمكّة في شعب أبي‌طالب﴿عليه السلام﴾ قبل الهجرة، و تقاسمته قريش بعدها، فما كان له﴿صلى الله عليه و آله﴾ منزل بمكّة يوم فتحها.

عن عبداللّٰه بن مسعود: قد أقام رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ بمكّة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصّلاة.

و عن جابر بن عبداللّٰه قال: كنتُ ممّن لزم رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ يومئذ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر، فلمّا أشرف، نظر إلى بيوت مكّة، فحمد اللّٰه و أثنى عليه، و نظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تُجاه شعب (أبي‌طالب خ) بني هاشم حيث حُصِرَ رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و أهله ثلاث سنين، و قال: يا جابر إنّ منزلنا اليوم حيث تقاسمت علينا قريش في كفرها، قال جابر: فذكرتُ كلاماً كنت أسمعه منه في المدينة قبل ذلك، كان يقول: منزلنا غداً إنشآء اللّٰه إذا فَتَحَ علينا مكّة في الخَيْف حيث تقاسموا على الكفر.

و عن أبي رافع قال: قيل النّبيّ﴿صلى الله عليه و آله﴾: ألا تنزل منزلك من الشّعب؟ قال: و هل ترك لنا عقيل من منزل، و كان عقيل قد باع منزل رسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾ و منازل إخوته من الرّجال و النّسآء بمكّة، فقيل لرسول اللّٰه﴿صلى الله عليه و آله﴾: فأنزل في بعض بيوت مكّة من غير

منازلك، فأبى، و قال: لا أدخُل البيوت، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً، و كان يأتي إلى المسجد من الحجون، قال: و كذلك فعل في عمرة القضيّة و في حجّته».

و كانت قبّة يوم الفتح بالأدم ضُرِبَت له بالحَجون، فأقبل حتّى انتهى إليها، و معه أُمّ سلمة و ميمونة».

غ: دروس و عِبَرٌ:

و لعمري إنّ في قصّة فتح مكّة المكرّمة دروساً و عبراً لجميع طبقات النّاس في كلّ ظرف من الظّروف من العلمآء و المصلحين، و الخطبآء و المبلّغين، و الدّعاة و المجاهدين، و الحكّام و المستكبرين و الأُمراء و المجرمين، و من الرّجال و النّساء، و الأفراد والاجتماع، و من أهل التّقوى و اليقين في أبعاد مختلفة، فرديّة و اجتماعيّة، اعتقاديّة و اقتصاديّة، دنيويّة و أُخرويّة و سياسيّة و حربيّة... تركنا هاروماً للاختصار فاعتبروا يا اولى الأبصار...

تمّت سورة الفتح

و الحمد للّه ربّ العالمين و أفضل صلوات اللّه على خاتم أنبيائه و سيّدالمرسلين و أكمل تحيّاته على أهل بيته المعصومين و لا سيّما بقيّة اللّه في الأرضين.

الفهرس

فهرس ما جآء في تفسير سورة محمّد(صلى الله عليه و آله)
يدور البحث حولها على فصلين:

الفصل الأوّل: في عناوين تفسير السّورة و فيها تسع عشرة بصيرة:

الفصل الثّاني: في مواضيع الحِكَم القرآنيّة الدّقيقة، و المعارف الإسلاميّة العميقة المبحوث عنها في تفسير سورة «محمّد(صلّى الله عليه و آله)»

في الفصل بصيرتان: الاولى: حول حبط الأعمال و فيها أحد عشر امراً:

البصيرة الثّانية: و فيها: ستّة امور:

الفِهرِسُ

فهرس ما جآء في تفسير سورة الفتح

يدور البحث حولها على فصلين:

الفصل الأوّل: في عناوين تفسير السّورة و فيها تسع عشرة بصيرة:

الفصل الثّاني: في مواضيع الحِكَم القرآنيّة الدّقيقة و المعارف الإسلاميّة العميقة المبحوث عنها في تفسير سورة «الفتح»

و في الفصل: خمس بصآئر...

البصيرةالاولى: و فيها أربعة أمور:

البصيرة الثّانية: و فيها: سبعة أُمور:

البصيرة الثّالثة: و فيها: تسعة أُمور:

البصيرة الرّابعة: و فيها: أمران:

البصيرة الخامسة: و فيها أصل واحد، و (٢٨) فرعاً: